د. نوال السعداوي

دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي

المرأة والجنس
الأنثى هي الأصل
الرجل والجنس
المرأة والصراع النفسي
الوجه العاري للمرأة العربية



المؤسسة العربية للدراسات والنشر



أصرّت الدكتورة نوال السعداوي على فتح موضوع الجنس بصراحة حين قالت إن المجتمع يضع النساء في تناقض حاد ، ففي الوقت الذي تجرى للمرأة عمليات الختان في بعض القرى والبلاد في مصر لتفرض عليها العفة يطالبها المجتمع بإشباع رغبات الزوج ، وفي الوقت الذي يبيح فيه الزوج لأسباب تجارية نشر الأغاني الملتهبة بالتأوهات وعرض الأفلام والرقصات الجنسية المثيرة للغرائز ، يطالب المرأة بألا تتأثر بهذا السيل الذي لا ينقطع ليل نهار .

لقد فجرت المواضيع التي كتبت فيها نوال السعداوي الشعاع في نفوس كثيرة ترغب في حوار جديد تشترك فيه القلوب الشابة والعقول المتحررة حوار عن امكانية ايجاد ثقافة جنسية صحية . ان مؤلفات الدكتورة نوال السعداوي لتبرهن على وجود مثل هذه الثقافة الصحية عن الجنس .

ومما لا شك فيه ان المواضيع التي تتناولها الدكتورة السعداوي هي من أهم ان لم تكن أهم المواضيع بالنسبة للمرأة والرجل على السواء ، الرجل الذي لا تغريه او تجذبه نعرة التفوق الجنسي التي ظلت وما زالت تسيطر على عقول الغالبية الساحقة من الرجال .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الغلاف : زهير أبو شايب

دراسات عن المرأة والرجل
في المجتمع العربي

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية
برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن :

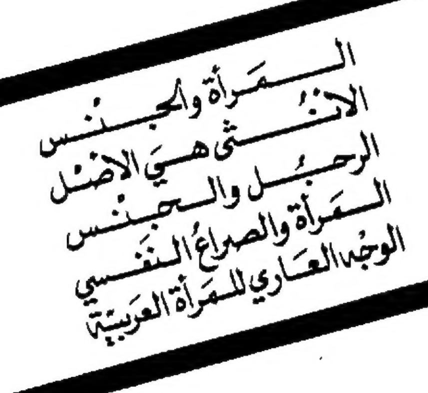
دار الفارس للنشر والتوزيع : عمان
ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

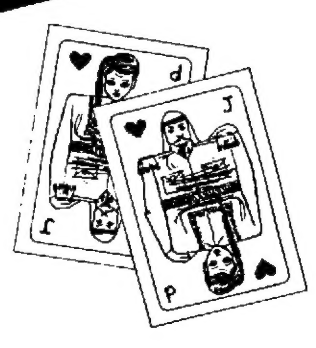
الطبعة الثانية

١٩٩٠

د. نوال السعداوي

دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي





المؤسسة العربية للدراسات والنشر



كلمة قصيرة عن الطبعة الثانية

إن التجاوب الشديد الذي حدث بين القراء والقارئات وبين الطبعة الأولى من كتاب المرأة والجنس، كما أن نفاد الطبعة الأولى في وقت قصير، ومطالبة كثير من الناس بطبعة ثانية، كل ذلك دفعني إلى أن أقوم بعمل الطبعة الثانية، وأن أضيف بعض النقاط التي كانت تنقص الطبعة الأولى.

وقد لاقت الطبعة الأولى تأييداً كبيراً من مختلف الكتاب والكاتبات في الصحف والمجلات، وأثارت العديد من المناقشات في البيوت والمكاتب والندوات. وجاءتني رسائل كثيرة من قراء وقارئات يطالبون بالمزيد من هذه المعلومات الضرورية في الحياة. وقد سعدت كل السعادة بهذا التأييد واعتقد اعتقاداً راسخاً بأن أغلبية افراد مجتمعنا يتحمسون للمعرفة.

وقد كان هناك بطبيعة الحال أفراد (أحمد الله أنهم قلة قليلة جداً) أفزعتهم المعرفة كما يفزع الضوء القوي عينين تعودتا الظلام، وجاءتني بعض رسائل قليلة تعارض نشر مثل هذه المعرفة، تماماً كما ترتفع اليد فوق العينين لتحميها من الضوء. ولا شك أن ضرر إخفاء الحقائق أشد وأفدح من ضرر الكشف عنها. قد يكون الكشف مفزعاً في بعض الحالات إلى حد الرعدة، ولكن هذه الرعدة مفيدة لأنها تهز العقل بقوة لدرجة الافاقة الكاملة والرؤية الواضحة.

وإني أشكر من كل قلبي كل يد كتبت لي رسالة سواء بالتأييد أو النقد. وكم كنت أود أن أرد على جميع الرسائل برسائل خاصة ولكن ذلك لم يكن ممكناً. كما أنني أشكر كل من أيد هذا العمل بأي كلمة صادقة في أي مجلة أو صحيفة.

د. نوال السعداوي



تقديم

لا زلت أذكر هذه الفتاة رغم مرور عشر سنوات أو أكثر على اليوم الذي رأيتها فيه. كنت طبيبة ناشئة ولي عيادة في ميدان الجيزة وما أكثر ما يرى الطبيب في عيادته بشرط أن يجتاز بتفكيره وإحساسه حدود مهنة الطب التقليدية، وأن يتخلص بفطرته القوية من آثار الأسلوب الضحل الذي درسنا به الطب، والذي يفقد المريض إنسانيته ووحدته، ويجزئه إلى أعضاء غير مترابطة، معزولة عن النفس، منفصلة عن المجتمع.

كنت في ذلك اليوم أفكر في غلق العيادة، فقد آمنت بعد خمسة عشر عاماً أنفقتها في دراسة الطب وممارسته داخل الوطن وخارجه أن أكثرية المرضى ليسوا مرضى وإنما تدفعهم ظروفهم الاجتماعية السيئة إلى الاحساس الدائم بالمرض، وان معظم الحالات المرضية فعلاً تشفى وحدها بقوة الطبيعة وإرادة الإنسان في الحياة.

في ذلك اليوم كنت أجلس وأصمم بيني وبين نفسي على غلق عيادتي الطبية حين دخلت هذه الفتاة. شدتني إلى عينيها نظرة غريبة مذعورة تبحث بلهفة في عيني عن النجدة، وبمرور السنين نسيت ملامح الفتاة تماماً لكن هذه النظرة في عينيها انحفرت في ذهني وأصبحت جزءاً مني.

لم تكن وحدها. كان معها رجل قال بصوت غليظ منفعل:

ـ أرجو يا دكتورة أن تفحصيها.

ووجهت سؤالي إلى الفتاة قائلة: ممَّ تشكين؟ ولكنها أطرقت ولم ترد. وقال الرجل بصوت أكثر غلظة وانفعال أشد: تزوجنا بالأمس واكتشفت أنها ليست عذراء.

وسألته: وكيف اكتشفت ذلك؟

قال بغضب: هذا شيء معروف لم أر دماً أحمر!

وحاولت الفتاة أن تفتح فمها لتقول شيئاً. لكنه قاطعها قائلاً: انها تدعي انها بريئة ولهذا جئت بها إليك لتفحصيها.

واتضح لي بعد الفحص أن الزوجة تملك غشاء البكارة وانه سليم تماماً، ولكنه من ذلك الذي يسمى في الطب بالنوع «المطاط» يتسع ويضيق بمرونة دون أن يتمزق ودون أن تسيل منه قطرة دم واحدة.

وشرحت الأمر للزوج بدقة، وكان رجلاً متعلماً سافر الى الخارج في بعثة. وخيل إلي أنه فهم واقتنع، وتنهدت العروس كأنها تتنفس لأول مرة بعد طول اختناق.

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة. بعد أيام قليلة جاءتني الفتاة وحدها، لم يكن وجهها هو وجه فتاة الثامنة عشرة التي رأيتها منذ إيام وإنما وجه امرأة عجوز شاخت قبل الأوان ورسم الحزن والألم على وجهها تعبيراً غريباً جعله أشبه بوجوه الموتى التي رأيتها كثيراً في ظل مهنة الطب.

وقالت بصوت مشروخ: طلقني وكادت تكون فضيحة لولا أن أبي تكتم الأمر.

وسألتها: وهل يفهم أبوك؟

وهزت رأسها بالنفي وكست عينيها الذابلتين سحابة أوحت بدموع سالت وجفت وسالت وجفت حتى نضبت تماماً.

وقالت: لا أحد يعرف براءتي إلا أنت يا دكتورة. وأنا الآن أعيش في خوف من انتقام أبي وأخي.

ذهبت معها إلى أبيها وشرحت له الأمر. قلت له ان ابنته عذراء، وان غشاء البكارة من النوع المطاط الذي لا يتمزق إلا عند ولادة أول طفل. ودهش الأب حين سمع هذه الحقيقة العلمية وضرب كفاً بكف وقال في غضب هذا يعني أن ابنتي قد ظلمت:

قلت: نعم.

قال: ومن المسؤول عن هذا الظلم؟

قلت: أنتم.. زوجها وأهلها!

قال بغضب: بل أنتم المسؤولون يا أطباء لأنكم تعرفون هذه الحقائق وتخفونها

عن الناس، ولولا هذه الحادثة التي حدثت لابنتي بالصدفة لما عرفت شيئاً. لماذا لا تشرحون هذه الأمور لكل الناس؟ انه واجبكم الأول حتى لا تظلم مثل هؤلاء الفتيات البريئات!

وصممت يومها على أن أعود إلى مكتبي وأكتب شيئاً في هذا الموضوع لكني رأيت أن الأمر يحتاج إلى علاج متعدد النواحي، فليس هو موضوعاً طبياً فحسب، وإنما هو موضوع اجتماعي واقتصادي وأخلاقي، ولا يمثل فيه الطب إلا جانباً واحداً.

ومر عام وراء عام وقصص أخرى ومشاكل أخرى تمر أمام عيني، ومآسٍ عديدة لفتيات ونساء وأطفال راحوا ضحية الجهل الشائع والتقاليد السائدة، بعضهم مات موتاً حقيقياً أثناء عملية إجهاض أو عملية ختان أو ولادة تحت ظروف سيئة، أو حوادث قتل أو اعتداء لعدم ثبوت دم العذرية، وبعضهم مات موتاً نفسياً واجتماعياً بعد مأساة بسبب أو بآخر. وما أكثر الأسباب التي تتعرض لها المرأة في مجتمعنا لتقتل نفسياً وتعيش عمرها في حال تجعل حياتها كالموت بل إنّ الموت قد يكون أرحم في كثير من الأحيان.

وقد ساعدتني أسفاري المتعددة لمعظم بلاد العالم أن أحيط بوضع المرأة في مختلف المجتمعات المتقدمة والمتخلفة، الرأسمالية والاشتراكية.

واستطعت أيضاً من خلال قراءاتي في العلوم الأخرى غير الطب والتاريخ والأدب أن أتفهم كيف ولماذا فرضت القيود على المرأة.

هذا وان تجربتي الخاصة كامرأة تزودني بحقيقة أحاسيس المرأة العميقة. وما أحوج العالم إلى معلومات صحيحة عن المرأة، تغير المفاهيم الخاطئة التي أشيعت عنها، وتصحح المعلومات التي راجت عنها في العالم، والتي كانت تكتب في معظم الأحيان بأقلام الرجال. ولهذا لم تكن هذه المعلومات تعبيراً عن حقيقة المرأة، ولكنها كانت وجهة نظر الرجل في المرأة، وما أكبر الفارق بين الحقيقة وبين وجهة النظر...

نوال السعداوي

ديسمبر ١٩٧١

عن جسم المرأة

لا شك أن قصة العروس التي قدمت بها هذا الكتاب تفرض علي أن ابدأ ببعض المعلومات والحقائق الطبية والتشريحية لأعضاء المرأة التناسلية التي كان نصيبها من الجهل والتجهيل والاضطهاد أكبر من نصيب أي أعضاء اخرى لأي كائن حي ظهر على وجه الأرض.

وإن البدء بالتعريف بأعضاء جسم المرأة لا يعني على الإطلاق أن الجهل بالتكوين الجسمي للمرأة أكثر شيوعاً أو خطورة من الجهل بتكوينها النفسي أو العقلي. لأن العكس هو الصحيح. فالجهل بنفس المرأة وعقلها أشد انتشاراً من الجهل بجسم المرأة.

لقد فرضت الظروف الاجتماعية منذ تاريخ بعيد أن تكون المرأة جسداً فحسب، وساعد ذلك على اندثار نفسها وعقلها في طي النسيان، وجهل الناس بمرور الزمن ان المرأة يمكن أن يكون لها نفس وعقل كنفس الرجل وعقله.

وقد قال كينيث ووكر: «إن جهل الرجل بالمرأة لا يعني جهله بجسم المرأة ورغباتها والوظائف الفسيولوجية للجنس فحسب، ولكنه يعني أيضاً الجهل بما هو أهم وأخطر. ذلك هو الفهم الانساني للمرأة كانسان مثله تماماً».

ولا شك أن تلك المحظورات والقيود التي فرضها المجتمع على المرأة وبالذات على أعضائها التناسلية (لأسباب سأورد ذكرها فيما بعد) قد ساعد على تشويه معنى العلاقة الجنسية، وارتبطت في الاذهان بالاثم والخطيئة والنجاسة، وغير ذلك من التعبيرات المعيبة، التي جعلت الناس يخشون الحديث عن الجنس والأعضاء الجنسية، وبالتالي أصبحوا يجهلون عنه وعنها الكثير.

والجهل هنا لا يعني غياب المعلومات، لكن ترويج المعلومات الخاطئة أشد أنواع الجهل. وقد يكون من الأفضل للانسان أن يواجه الحياة بلا معلومات على الاطلاق على أن يواجهها بمعلومات خاطئة تفسد فطرته وذكاءه الطبيعي.

وقد انتشرت المعلومات الخاطئة عن الجنس والأعضاء الجنسية بسبب التكتم أو السرية التي تحاط بها شأنها في ذلك شأن الاشاعات التي تروج في الخفاء ويتهامس بها الناس سراً فإذا بالحقائق تسقط من الأفواه حقيقة بعد حقيقة ومن فم إلى فم.

* * *

بالرغم من أن جسد المرأة كان أكثر حظاً من نفسها وعقلها، وأنه لم يتعرض لذلك الانكار الذي تعرضا له، إلا أن المجتمع لم يترك جسد المرأة على حالته الطبيعية.

إن الفكرة التي شاعت خطأ منذ التاريخ البعيد على أن الرجل سيد المرأة، وانها ليست إلا أداة لإمتاعه ووعاء لأطفاله قد أباحت للمجتمع أن يستأصل من جسد المرأة ما يشاء ويهمل ما يشاء لتصبح المرأة مجرد الرحم الذي ينجب الأطفال.

وخيم الظلام والإهمال على أعضاء المرأة التي لا تلعب دوراً في عملية الإنجاب والولادة. بل إن بعض هذه الأعضاء كانت تستأصل من جسد المرأة تماماً، وبالذات تلك الأعضاء التناسلية الحساسة لمتعة الجنس.

وكم من رجل عاش مع امرأة سنوات وسنوات ومارس معها الجنس وأنجب منها عشرات الأطفال ثم مات دون أن يعرف أن هذه المرأة تحتوي في جسمها على أعضاء تناسلية أخرى غير ذلك المهبل الذي عرفه عن طريق علاقته الجنسية بها والرحم الذي حملت فيه اطفاله، ودون ان يعرف ان هذا المهبل وهذا الرحم اقل اعضاء المرأة التناسلية إحساساً بالجنس لأن وظيفتهما الأساسية ليست الجنس وإنما الحمل والولادة.

ولا شك أن «البظر» (عضو المرأة التناسلي الخارجي) هو اكثر اعضاء المرأة حظاً من الجهل والتجاهل والاهمال وفي بعض الأحيان ينظر إليه المجتمع نظرة عداء ويستأصله بالمشرط كما تستأصل الزائدة الدودية.

والبظر في جسم المرأة ليس زائدة دودية بل انه العضو الأساسي الذي عن طريقه تعرف المرأة لذة الجنس. فالبظر (شأن عضو التذكير في الرجل) يتميز بأنه العضو

الـوحيد الذي يشتمل على أنسجة قابلة للانتصاب أثناء الاثارة الجنسية وعلى أكثر الأعصاب حساسية بلذة الجنس وهو الذي يقود العملية الجنسية من أولها إلى آخرها، وبدونه لا تصل المرأة إلى قمة اللذة التي يصاحبها الانزال وتنتهي به العملية الجنسية.

ويتشـابه البظر مع عضو التذكير عند الرجل في شكله وتكوينه وشدة حساسيته وأهمية دوره في الجنس. ولا عجب في ذلك ولا غرابة، فأصلهما واحد في الجنسين، والخلايا التي تصنع البظر هي نفسها الخلايا التي تصنع عضو التذكير. لكن الذي يحدث خلال تطور الجنين أن البظر في الأنثى يتوقف عن النمو في مرحلة من المراحل وان عضو الذكر يستمر في النمو فترة أطول.

لكن المجتمـع وقد قرر لأسباب اقتصادية أن دور المرأة الوحيد في الحياة هو الإنجاب وخدمة الزوج والأولاد فقد رأى حرمان المرأة من اللذة الجنسية التي قد تشغلها عن الدور الذي رسمه المجتمع لها.

وقد نتج عن هذا أنْ جهل الرجل بظر المرأة وتجاهله، ولم يعرف إلا المهبل لأنه الأداة الوحيدة لإمتاعه.

وتصور الرجل بسبب الجهل انه ما دام يصل هو الى قمة اللذة عن طريق مهبل المرأة فلا بد ان المرأة ايضاً تصل إلى قمة اللذة عن طريق المهبل. وبسبب الأنانية لم يستطع الرجل ان يكتشف خطأه ويتعرف على الطريق الذي يمكن أن يصل بالمرأة الى اللذة.

وتصور بعض الرجال أن عنق الرحم (وهو الجزء السفلي من الرحم الذي يسد فتحة المهبل العلوية) هو أكثر أعضاء المرأة إحساساً بالجنس، ويظنون أن عضو الرجل إذا لامس هذا العنق أثناء العملية الجنسية فان ذلك أكبر مؤثر من حيث بلوغ المرأة قمـة اللذة. ومن هنـا جاء الاعتقـاد بأن حجم عضو الرجل عنصر هام في الكفاءة الجنسية، وان الرجل الأقوى جنسياً هو صاحب العضو الأكبر أو الأطول، لأن مثل هذا الطول كفيل بالوصول به إلى عنق الرحم.

ولا يدري هؤلاء الرجال أن حجم العضو لا يدل بحال على الكفاءة الجنسية عند الرجل، وأن عنق الرحم ليس أكثر أعضاء المرأة إحساساً بالجنس كما يظنون، بل إنه أقـل أعضـاء المـرأة احساساً بالجنس والحقيقة ان عنق الرحم لا يحس شيئاً على

الاطلاق، لا الجنس، ولا اللذة، ولا الألم، وان كان أشد أنواع الألم كالذي ينتج عن الكي بالنار أو الكهرباء. والدليل على ذلك أن المرأة حين تصاب بقرحة في عنق الرحم وتذهب الى الطبيب فإنه يعالجها بالكي الكهربائي لعنق الرحم دون أن يعطيها أي مخدر ودون أن تشعر بأي ألم.

وقد حرمت الطبيعة عنق الرحم من الاجساس حتى لا تموت المرأة من الألم حين يمر رأس الطفل المولود من فتحة ذلك العنق الضيق. فالمعروف أن عنق الرحم والمهبل يصنعان القناة التي يولد منها الطفل، وأنه لا بد لهذين العضوين أن يتمددا ويتسعا ليهبط الطفل بغير ألم، أو بألم بسيط تحتمله الأم الطبيعية. لقد خلق الرحم والمهبل ليخدما الولادة وليس الجنس.

لكن الرجل لا يعرف ذلك، ويركز في علاقته الجنسية مع المرأة على المهبل أو عنق الرحم ويتجاهل البظر، وهذا هو أحد الأسباب في أن معظم النساء يتزوجن وينجبن عشرات الاطفال ثم يمتن ويُدفنّ قبل أن يعرفن لذة الجنس أو يصلن مرة واحدة إلى قمة اللذة.

ومن ضمن المعلومات الخاطئة أن الرجل يتصور أنه الوحيد الذي يقذف حين يصل إلى قمة اللذة مع أن المرأة أيضاً حين تصل إلى هذه القمة يحدث لها شيئاً مشابهاً يسمى الانزال. لكن الرجل لا يدرك ذلك لأن المرأة قلما تصل إلى القمة معه مهما طالت مدة العملية الجنسية. وأحد أسباب ذلك هو جهل الرجل بأعضاء المرأة الحساسة وأهمها البظر.

وفي أبحاث كينزي (١٩٥٣) وجد أن ١٠٠٪ من الذكور يعرفون قمة اللذة في الجنس قبل بلوغهم سن ١٧ سنة، على حين أن ٣٠٪ فقط من الاناث يعرفن هذه اللذة قبل الزواج، وأن قمة اللذة في الجنس لا تعرفها النساء معرفة حقيقية قبل سن ٣٥ سنة وذلك بسبب الخبرة، أو زيادة كمية الدم التي تغذي أعضاء المرأة بعد الحمل، أو لتغلب المرأة على عقدها النفسية.. الى غير ذلك من الأسباب.

وفي بحث والين (١٩٦٠) على ٥٤٠ زوجة وجد أن معظم هؤلاء الزوجات لم يعرفن قمة اللذة (الأورجازم) في علاقتهن مع أزواجهن، وأن هذه العلاقة الزوجية لم تكن تشبع رغبتهن في الجنس ولكنها كانت ترضيهن نفسياً من حيث القرب من الزوج وارضاؤه وكان هذا الرضا النفسي يصرفهن عن الرغبة في بلوغ قمة اللذة في الجنس.

وكذلك وجد شيفرز (١٩٦٤) في أبحاثه أن المرأة لم تكن تنظر الى بلوغها قمة اللذة في الجنس كعنصر هام من عناصر أنوثتها، كما أنه وجد أن بلوغ المرأة لقمة اللذة لم يكن تلقائياً بقدر ما كان مصنوعاً أو أمراً تتدرب عليه المرأة.

وأهم النتائج التي وصل اليها ماسترز وجونسون من أبحاثهما هي ما يأتي:

١ - بصرف النظر عن الفروق التشريحية فإن بلوغ قمة اللذة في الجنس عند الرجل والمرأة متشابهان من الناحية الفسيولوجية. ففي كلا الجنسين تحدث نفس العمليات الفسيولوجية من حيث رد الفعل، واستجابة العضلات، واندفاع الدم في الأعضاء حتى درجة معينة، وان قمة اللذة تحدثها العضلات نفسها في الذكور والإناث.
٢ - ليس هناك ما يسمى ببلوغ قمة اللذة عن طريق المهبل وحده بدون بلوغ قمة اللذة عن طريق البظر. فإن قمة اللذة عن طريق المهبل والبظر تكونان وحدة تشريحية واحدة. وان بلوغ قمة اللذة عملية تنتشر في جميع أعضاء المرأة الجنسية، وهي عملية واحدة لا تتغير بتغير شكل الاثارة الجنسية أو موضعها.
٣ - إن البظر يلعب دوراً هاماً واساسياً في بلوغ المرأة قمة اللذة.
٤ - إن المرأة شديدة الحساسية للمؤثرات النفسية، وعليها ان تتخلص من عقدها النفسية وخوفها أو خجلها، فان أي شرود لذهنها يقلل من درجة انفعالها.

وقد أضاف شيرفي (١٩٦٦) بعض النتائج الأخرى أهمها الآتي:

إن البظر أكثر أهمية وأكبر حساسية للجنس من الثلث السفلي من المهبل. وعلى هذا فان البظر هو أكبر عضو حساس للجنس عند المرأة وليس المهبل. ولهذا فان البحث عن لذة الجنس من خلال المهبل كنوع من النضج الجنسي والنفسي للمرأة إنما هو بحث غير طبيعي.

وينقسم المهبل إلى جزئين. الجزء العلوي ويكوّن ثلثي المهبل وهو جزء غير حساس ليس له دور في الجنس أو اللذة الجنسية. اما الجزء الثاني وهو الثلث السفلي من المهبل فهو حساس للجنس ولكنه أقل حساسية من الشفرتين، وهاتان أقل حساسية من البظر.

وتقول د. باردويك: إن النساء اللائي يتصورن أنهن يصلن إلى قمة اللذة عن طريق المهبل فقط يتجاهلن الاثارة التي تحدث للبظر وهن يحاولن بذلك أن يظهرن

«نضوجهن الجنسي» ـ فهناك فكرة نفسية خاطئة توهم المرأة أن النضج الجنسي معناه أن يكون المهبل هو مبعث اللذة الجنسية، وأن إثارة البظر إنما هي رغبات الطفولة أو المراهقة وليس المرأة الناضجة.

إن اللذة الجنسية عند المرأة واحدة، ليس هناك شيء اسمه لذة عن طريق البظر، ولذة أخرى عن طريق المهبل. فاعضاء المرأة متصلة اتصالاً عضوياً لا انفصام فيه. لكن هذا الفصل بين لذة البظر ولذة المهبل قد حدث صناعياً بسبب أفكار فرويد ونظرية التحليل النفسي التي اعتبرت البظر عند المرأة عضواً ذكرياً ايجابياً وضع خطأ في جسد المرأة السلبي.

وبسبب هذا فقد أصبحت النساء يفضلن الاثارة عن طريق المهبل لأسباب نفسية، ويفضلن الاثارة عن طريق البظر لأسباب جنسية.

وبهذا التخبط وعدم الفهم، وبسبب العقد النفسية أيضاً واعتبار اللذة الجنسية إثماً وعيباً فإن معظم النساء لا يعرفن شيئاً عن قمة اللذة. وكل ما يعرفنه في الجنس هو تلك اللذة الضعيفة أو الرضا النفسي بسبب ارضاء الرجل.

وتصف د. باردويك ثلاثة أنواع من قمة اللذة عند المرأة. النوع المنخفض، والنوع المتوسط، والنوع المرتفع. وتقول باردويك: إن النوع المرتفع يشبه قمة اللذة عند الرجل، وتصل اليه المرأة بعد خبرة معينة، وبعد أن تتدرب المرأة على أن تتخلص من عقدها النفسية وخوفها وخجلها وتستجيب للذة بطريقة طبيعية. ولو أن المرأة عاشت حياة طبيعية خالية من الخوف والعقد منذ الطفولة فانها تبلغ قمة اللذة بسهولة وتلقائية كالرجل سواء بسواء.

إن عدم إحساس المرأة بلذة الجنس يسمى علمياً باسم (البرود الجنسي) وهو أكثر الأمراض الجنسية والنفسية شيوعاً بين النساء. ولا اعتقد ان هناك احصائية علمية صحيحة يمكن أن تدلنا بحال من الأحوال على نسبة اصابة النساء بالبرود الجنسي. فالمرأة الباردة جنسياً قد تجهل انها مصابة بالبرود الجنسي، ذلك انها تجهل الجنس ذاته، وتجهل معنى لذة الجنس، أو قمة هذه اللذة، وتظن ان الجنس ليس له لذة. أو ليس له قمة. ومن المعروف طبياً أن البرود الجنسي قد يقترن أثناء العملية الجنسية بتهيج مهبلي شديد، بل إن هذا التهيج قد يحدث بدون أي مؤثر مباشر للأعضاء التناسلية للمرأة.

وفي بعض حالات اخرى يستجيب المهبل استجابة ضئيلة، رغم كل المؤثرات المباشرة للاعضاء التناسلية للمرأة اثناء العملية الجنسية ويرجع بعض العلماء السبب في ذلك إلى أن كثيرا من النساء يعانين من القلق خشية الحصول على قمة اللذة، وان هذا القلق اقوى من رغبتهن أو ارادتهن في الحصول على اللذة.

وتنعكس عقد الرجل النفسية والجنسية على المرأة وينتج عنها البرود الجنسي. ولعل أهم عقد الرجل النفسية والجنسية أنه يفصل بين الحب والجنس فهو في معظم الأحوال يشتهي المرأة التي لا يحبها، أما المرأة التي يحبها فانه قد يعجز عن الاتصال بها جنسياً أو انه يتصل بها جنسياً بشرط أن تظل هي المحبوبة العذراء العفيفة وبمعنى آخر الباردة جنسياً. وتعتقد الزوجات على هذا النحو أن البرود الجنسي هو صفة الزوجة المحترمة، فاذا بها تتفاخر ببرودها الجنسي. ويصبح الاستمتاع الطبيعي بالجنس إنما هو صفة المومسات والعشيقات فحسب. ويستمتع كثير من الرجال بهذا الانفصام في شخصياتهم، وتصبح لكل منهم زوجة باردة شبه مهجورة وعشيقة مرغوبة ولكنها محتقرة.

مفهوم العذرية

اغلب الناس يجهلون الكثير عن ذلك الشيء الذي اسمه غشاء البكارة ويعتقدون ان كل بنت لا بد وان يحتوي جسدها على هذا الغشاء، وان هذا الغشاء لا بد وان يفض في اللقاء الاول بين الفتاة والرجل، وان نتيجة هذا الفض لا بد وان يكون دما احمر تراه العين فوق الملاءة. فهل هذا صحيح؟ والاجابة عن هذا السؤال هي: لا.

ان غشاء البكارة ليس نوعاً واحداً وانما عدة أنواع. النوع الشائع ويوجد في حوالى ٧٥٪ من البنات. وهو غشاء رقيق غير مطاط يسد مدخل المهبل وفي منتصفه فتحة دائرية صغيرة يمر منها الحيض كل شهر وهي فتحة ضيقة تسمح بمرور طرف الأصبع. وهذا الغشاء حين يتمزق (لأسباب مختلفة منها الاتصال الجنسي بالرجل) تسقط منه بعض قطرات دم وقد تشعر الفتاة بألم خفيف أو لا تشعر بأي ألم على الاطلاق وهذا يتوقف على حجم عضو التناسل عند الرجل وعلى الطريقة التي يفض بها الغشاء.

أما بقية البنات (٢٥٪ تقريباً) فقد خلقن بأغشية مختلفة لا يسيل منها عند الاتصال الجنسي بالرجل قطرة دم واحدة. احد أنواع هذه الأغشية هو النوع المطاط الذي يسمح بمرور عضو الرجل دون ألم ودون دم. (حالة العروس السابقة). وهناك الغشاء ذو الفتحة المتعرجة حيث لا تكون الفتحة دائرية ومنتظمة وانما متعرجة وبالتالي يصبح محيطها أكثر اتساعاً من الفتحة الدائرية بحيث يحدث الاتصال الجنسي دون تمزق خاصة اذا كان عضو التناسل عند الرجل اصغر قليلاً من المعتاد.

وهناك أيضاً الغشاء ذو الفتحات الصغيرة المتعددة «كالغربال» الذي يتمزق بسهولة بلا ألم أو دم. ومن المعروف طبياً أن نسبة قليلة من البنات يولدن بغير غشاء على

الاطلاق، كما أنه في بعض الحالات النادرة أيضاً تولد البنت بغشاء سميك مسدود يحتاج إلى مشرط الطبيب عند البلوغ ليخرج منه دم الحيض.

ومن الناحية الطبية فان غشاء البكارة ليس له أهمية فسيولوجية أو بيولوجية ولا يكون مثله مثل الزائدة الدودية، وليس هناك من ضرر على صحة الفتاة سواء وجد الغشاء ام لم يوجد، وفيما إذا كانت فتحته دائرية متعرجة أو منتظمة، كل ما يهم الطب أن تكون هناك فتحة تسمح بمرور الحيض.

ومن المعـروف أن أعضاء الجسم الانساني تناسلية أو غير تناسلية تختلف في أحجامها وليس هناك جسم مماثل للجسم الآخر تماماً كالبصمات فلكل منا جسمه وبصمته وتكوينه الخاص به. وكذلك تختلف الأعضاء التناسلية للرجال والنساء، وكما يتفاوت حجم عضو التناسل من رجل الى رجل كذلك ليس هناك مقياس ثابت موحد لفتحة غشاء البكارة في جميع البنات، ولكن ما أتعس تلك الفتاة التي تتزوج بالصدفة رجلاً يقل محيط عضو تناسله عن محيط فتحة غشائها ملليمترا أو بضع ملليمترات.

* * *

فتاة ريفية في السادسة عشرة تقريباً جاءت إلى عيادتي مع زوجها. كانت شاحبة الـوجـه نحيلة يخيل لمن ينظر اليها انها طفلة في الثانية عشرة فجسمها أصغر من المعتاد. وتصورت ان سوء التغذية هو سبب ضمور جسمها، أما اصفرار لونها الشديد فجعلني أشك في أن هناك تسمماً في الدم. وحينما خلعت ملابسها الريفية الواسعة لاحظت كبر بطنها وقال زوجها إنه تزوجها منذ عام واحد وانها بدأت تشكو من الألم في بطنها وانه يعتقد انها حامل في الشهر الخامس او السادس .

وسألتها السؤال التقليدي: منذ متى انقطع عنك الحيض؟

فردت قائلة انها لم تر في حياتها دم الحيض.

وقال زوجها انها لا تزال صغيرة السن ولم تبلغ الرشد بعد وربما يكون الحمل هو السبب في عدم ظهورالحيض.

وبفحص الفتاة اتضح لي عدم وجود أي جنين في بطنها في الشهر السادس أو الخامس وانما هناك ورم غامض الملامح، وبالطبع لجأت إلى فحص الرحم عن طريق المهبل وهنا ظهرت لي حقيقة دهشت لها. فقد كان المهبل مسدوداً تماماً بغشاء سميك

مطاط انضغط تحت أصبعي بمرونة شديدة وكاد طرف أصبعي يصل الى عنق الرحم لا يفصله عنه الا سمك الغشاء.

وسألت الزوج عما يذكره عن ليلة الزفاف.
ويسرعة قال الزوج: ليلة الزفاف اتصلت بزوجتي ولم يكن هناك دم لكني لم أشك في الأمر لأنها كانت لا تزال طفلة صغيرة ولم تبلغ الرشد.

وقلت للزوج: ان زوجته لا تزال عذراء وانها ولدت بغشاء بكارة سميك مسدود وأن هذا الورم في بطنها هو دم الحيض الذي تكون شهراً وراء شهر ولم يجد منفذاً الى الخارج.

وبالمشرط فتحت الغشاء فاندفع الدم القديم المتراكم الى الخارج. ونهضت الفتاة من فوق المنضدة وكأنما تفتح عينيها لأول مرة بعد مرض مزمن أو تسمم طويل الأمد.

وقد قرأت مرة عن حادثة قتل تشبه هذه الحالة. فقد عثر البوليس على جثة فتاة حامل واعتقد جميع الناس انها قتلت دفاعاً عن الشرف ولكن الطبيب الشرعي شرح الجثة وأعلن ان كبر بطن الفتاة لم يكن بسبب الحمل وانما هو دم الحيض المتجمع شهراً وراء شهر بسبب غشاء البكارة السميك المسدود.

* * *

وكم من حوادث أليمة قرأنا عنها في الصحف والمجلات. ولعل أحدث قصة قرأتها في المجلة الطبية العراقية الصادرة في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٧٢ بلسان طبيب شرعي عراقي معروف اسمه الدكتور وصفي محمد علي قال بالحرف الواحد:

«أتذكر وقفة لي أمام المحكمة الكبرى ببغداد استشرتُ خلالها عن تصرف أحد الأطباء الرسميين وابداء الرأي فيما اذا كان يتفق والسلوك المهني الصحيح، وقد طلب إليه فحص بنت بغية التأكيد من أنها مزالة البكارة قديماً أو حديثاً أو أنها لا زالت بكراً، والسبب الذي ألجأ الحاكم إلى طلب الفحص هو أن زوجها أخبر أهلها ليلة زفافها بأنه يشك في عفاف البنت بحجة عدم حصول أي نزف دموي اثر الجماع. وفحص الطبيب البنت وخرج فسأله أهلها عن النتيجة وألحوا عليه فقال لهم إن البنت ثيب (ليست بكرا) ومن مدة قديمة، فوقع الخبر عليهم كالصاعقة واشتدت ثورة الغضب عند ابن عمها فقتلها بعد يوم واحد، بالرغم من انها ـ كما أخبر القاتل المحقق ـ أكدت

له بأن ما ذكره الطبيب لا يتفق مع الواقع وأن بشراً لم يمسها. وقد شكل الحاكم لجنة لفحص الجثة، وقدمت اللجنة تقريرها بأن غشاء البكارة كان غير ممزق وهو من النوع المطاطي وهكذا اتضح خطأ تشخيص الطبيب».

وفي نفس المقال كتب الدكتور وصفي محمد علي ان الغشاء المطاطي ليس نادراً في العراق كما يتضح من الوقائع التي قام بفحصها خلال سنين طويلة. فقد ظهر ان نسبة وجوده لآخر إحصاء هي ١١,٢٠٪ كما يتضح من الجدول الآتي:

عدد ونوع الأغشية البكارية ـ تبعاً لطبيعة نسجها ـ المفحوصة في معهد الطب العدلي (الطب الشرعي) ـ بغداد خلال سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٧٠.

النوع	العدد	النسبة المئوية
متوسط	١٢٦٥	٤١,٣٢
سميك	٩٥٩	٣١,٣٢
رقيق	٤٩٥	١٦,١٦
مطاطي	٣٤٣	١١,٢٠
المجموع الكلي	٣٠٦٢	١٠٠,٠٠

من الحقائق الطبية المعروفة كما سبق أن ذكرت أن غشاء البكارة له فتحة صغيرة قد تضيق وقد تتسع وقد تتعرج وقد تنتظم وانه في معظم الفتيات يتمزق عند أول لقاء بالرجل وينتج عن هذا التمزق ألم بسيط وبضع قطرات دم. وهذه الحقيقة بطبيعة الحال تثبت لنا أن هذا الغشاء رقيق، لأنه لو كان سميكاً ومتيناً لما كان من السهل أن يمزق على هذا النحو ولا يصاحب عملية التمزق آلام أشد ونزيف أكثر.

وهناك حالات نادرة حين يكون الغشاء سميكاً على غير المعتاد وتصبح عملية فضه في ليلة الزفاف مؤلمة للفتاة وقد تحتاج إلى طبيب وينتج عن تمزق الغشاء نزيف وليس مجرد بضع قطرات دم.

وهناك حالات نادرة أيضاً حين يكون الغشاء رقيقاً جداً أرق من المعتاد فاذا به يتمزق عند البنت أثناء استخدامها لفوطة الحيض.

أما الشائع والمعتاد فهو ذلك الغشاء الذي يتمزق في أول لقاء بالرجل ولا يصحب ذلك إلا ألم طفيف وقطرات قليلة من الدم. ولكن هذا الغشاء قد يتمزق لاسباب أخرى ولا ينتج عن تمزقه إلا ألم طفيف وبضع قطرات دم.

* * *

فتاة في الثامنة عشرة جاءتني مع والدها. والقصة انها فتاة رياضية تمارس ركوب الخيل والدراجات. قرأ والدها صدفة في احدى المجلات أن بعض الرياضات مثل ركوب الدراجات أو ركوب الخيل أو القفز من مكان مرتفع قد يتسبب في تمزيق غشاء البكارة عند الفتاة. ومنذ ذلك الحين وهو قلق وقد منع ابنته من ممارسة رياضتها ولكنه يريد أن يطمئن على سلامة غشائها قبل أن يزوجها لابن خالتها.

وسألت الفتاة عن الرياضة التي كانت تزاولها وعما إذا كانت تذكر حادثة معينة اصابتها بشيء من الألم أو أي قطرات من الدم لكن الفتاة أجابت بأنها لم تتعرض لأي حادث وان أباها مبالغ في قلقه وانه حرمها من رياضتها التي تحبها كما تحب الحياة وقالت بشيء من الأسى: «إذا كان الزواج معناه ألا أمارس الرياضة فأنا لا أريد أن اتزوج وأفضل الرياضة على الزواج».

وكنت مقتنعة تماماً بحق الفتاة في الرياضة ونصحت الأب بان يكف عن قلقه وأن يترك فتاته تمارس رياضتها لكنه لم يقتنع وألح على أن افحصها ليطمئن.

وفحصت الفتاة، واتضح لي أن الغشاء من النوع المعتاد ذي الفتحة المنتظمة الدائرية ولكن في أحد جانبيه شق صغير طوله ملليمتران أو ثلاثة وقد نتج هذا الشق من تمزق جانبي بالغشاء اثناء الحركة الرياضية العنيفة. وشرحت الأمر للأب فزاد قلقه واضطرابه وسألني عما إذا كان التمزق الصغير قد أفقد ابنته عذريتها وانه لن يكون هناك «دم» ليلة زفافها؟ وقلت للأب الحقيقة وهي أن مثل هذا التمزق قد زاد بطبيعة الحال من اتساع فتحة الغشاء وانه قد لا يكون هناك «دم» ليلة الزفاف خاصة اذا حدث ان تزوجت رجلاً له عضو تناسلي أصغر من المعتاد.

وهنا بلغ بالأب القلق حداً كبيراً فارتجف وهو يتساءل في حيرة : وما العمل يا دكتورة ؟

وقلت: لا شيء. عليك فقط ان تشرح الأمر للرجل الذي سيتقدم للزواج من ابنتك.

وقال الأب في حزن شديد: هذه أكبر كارثة ألمت بي.؟
وقلت: ما الكارثة؟ هل فقدت ابنتك ذراعها أو ساقها أو عيناً من عينيها؟
وقال الأب: لو فقدت عيناً لكان ذلك أخف ولكن أن تفقد اعز ما تملك!
وهونت الأمر على الأب وقلت له ان أعز ما تملكه ابنته ليس هذا الغشاء الذي تمزق دون ان تشعر وهي تمارس رياضتها وان أعز ما تملكه ابنته هو أعز ما يملكه أي انسان وهو إرادته الحرة وصدقه مع نفسه ومشاركته في صنع حياة فضلى له وللمجتمع.

لكنه قال: ومن سيصدق انها الرياضة يا دكتورة ما من أحد إلا وسيشك في أخلاقها وشرفها.

وردت الأبنة في غضب: أنا واثقة من نفسي ولا تهمني أي شكوك والرجل الذي سيشك في شرفي لن أقبله!

واعجبتني الفتاة لثقتها في نفسها لكن الأب كان قد أصبح على وشك الانهيار وطلب مني أن أوقع شهادة طبية تثبت ان التمزق الذي حدث في الغشاء كان بسبب الرياضة وليس شيئاً آخر. وأعطيته الشهادة لأهدئه فامسكها بين يدين بعناية وحرص وكأنه يمسك حياته ذاتها وأخذ ابنته يداً بيد وانصرف .

* * *

فتاة في العشرين من عمرها جاءتني مع امها التي تعمل ناظرة احدى المدارس الابتدائية. طلبت مني الأم أن أفحص ابنتها واطمئنها على سلامة غشائها. وسألت الأم عن السبب الذي جعلها تشك في سلامة غشاء ابنتها. وقالت الأم انها اكتشفت ان ابنتها تعودت كل صباح حين تغتسل ان تمد أصبعها إلى الغشاء لتقيس فتحته وانها تخشى أن تكون ابنتها بهذا الفعل قد أصابت غشاءها بسوء دون أن تدري.

وبسؤال الفتاة قالت ان أمها كانت تحذرها دائماً من القفز أو نط الحبل خشية ان يتمزق غشاء بكارتها لكن الفتاة كانت تحب «نط الحبل» وكانت تمارسه في المدرسة. لكن كلام أمها كان قد ترسب في نفسها وجعلها تعيش في خوف دائم على غشائها. وفي يوم وهي تغتسل بلغ بها القلق مداه فمدت يدها لتطمئن إلى وجود الغشاء، وحينما عثرت بطرف أصبعها على الفتحة الصغيرة فزعت وظنت ان الغشاء تمزق. لكن احدى صديقاتها قالت لها ان لكل غشاء فتحة صغيرة تسمح بمرور الحيض. ومن هنا بدأت الفتاة تقيس هذه الفتحة لتطمئن على انها فتحة ضيقة لا تتسع يوماً بعد يوم بعد نط الحبل.

وفحصت الفتاة واتضح ما أكد كلامها. فالغشاء سليم ولكن فتحته كانت قد اتسعت ليس بسبب نط الحبل ولكن تكرار وضع الأصبع في الفتحة جعل محيطها يرتخي بعض الشيء فاتسعت الفتحة. وكثيراً ما يحدث هذا الاتساع في فتحة الغشاء في الفتيات اللائي يمارسن العادة السرية بكثرة في فترة المراهقة.

وقالت الأم في ذعر: هل سيؤثر ذلك على عذريتها؟

قلت للأم الحقيقة وهي ان ابنتها حين تتزوج قد لا تكون هناك قطرات دم في اللقاء الأول مع الرجل.

وكادت تصاب الأم بانهيار عصبي لكنني هدأتها واعطيتها شهادة طبية تبرىء ابنتها من المسؤولية. وكانت الابنة بريئة فعلاً، أما المذنب الحقيقي فهو الأم بتربيتها الخاطئة لابنتها وبث الذعر والقلق في نفسها على الغشاء. بل لعل الأم أيضاً بريئة بسبب جهلها بالتربية السليمة وان المذنب الحقيقي هو المجتمع الذي جعل مقياس الشرف ودليله غشاء رقيقاً معرضاً لكل ما يمكن أن يتعرض له غشاء رقيق في الجسم من اصابات وارتخاء ورضوض وخدش وتمزق. ويمكننا أن نتصور الضرر النفسي البالغ الذي تصاب به الفتيات في مجتمعنا حين يدركن ان في نهاية مهبلهن غشاء رقيقاً هو أعز ما يملكن وعليه يتوقف مستقبلهن وشرفهن وحياتهن، وان عليهن المحافظة عليه بكل الوسائل وان اقتضى ذلك أن تكف الفتاة عن الحركة والرياضة وان تمشي وساقاها ملتصقتان وأن يتراكم الشحم فوق جسدها الكسول البطيء، وأن يتراكم الوهم في نفسها، وان تعيش في قلق دائم على غشائها، وأن تفقد كل مقومات النفس القوية والجسم الصحي القوي فلا تكاد تصلح بعد ذلك إلا لحياة باهتة باردة راكدة تعيشها في كنف زوج أثبتت له

شرفها ليلة الزفاف ببضع قطرات دم، وتحاول كل ليلة أن تثبت له هذا الشرف بجهلها وتجاهلها أي حركة أو أي متعة توشي بخبرتها بذلك الذي يطلق عليه اسم الجنس.

* * *

عرفنا الآن بعض معلومات عن ذلك الغشاء الذي يجهله كثيرون منا، وعرفنا ان عدم انسياب قطرات الدم ليلة الزفاف ليس معناه ان هذه الفتاة مارست الجنس من قبل. واذا أضفنا إلى نسبة الخمسة والعشرين في المائة من البنات اللائي يولدن غير عذراوات بمفهوم العذرية السائدة الخمسة في المائة من البنات اللائي يفقدن هذه العذرية بسبب حادث غير جنسي أدركنا ان حوالي ثلاثين في المائة من الفتيات يظلمن ظلماً بينا ليلة الزفاف. وكيف يقبل المجتمع ان يدين هؤلاء الفتيات وأن يوقع عليهن عقوبات وهن بريئات لا يدرين شيئاً عن الذنب الذي يعاقبن من أجله.

ولكن المجتمع يقول انه لا بد وأن يكون هناك دليل مادي على شرف البنت وانه اذا كانت الأقلية تظلم من وجهة النظر الطبية فان الأغلبية من البنات (حوالي ٧٠٪) يمكن الحكم على شرفهن بوجود هذا الغشاء، والا فكيف يمكن الحكم على شرف البنت؟!

وللرد على هذا السؤال أسوق نموذجاً من بعض الحالات التي كانت تتردد على عيادتي:

جاءتني حامل في الشهر الخامس. وحينما هممت بأن أفحصها عن طريق المهبل هبت مذعورة وافهمتني انها لا تزال عذراء. وقصت علي قصتها. انها طالبة بالجامعة ولها زميل يحبها وهي تبادله شعوره لكنهما لم يفكرا في الزواج لأنه فاشل في دراسته ولا تعرف مستقبله بعد. لكنهما كانا يلتقيان ومن حين إلى حين يمارسان الاتصال الجنسي السطحي، دون أن يصاب غشاء البكارة بسوء. وفعلاً ظل غشاء البكارة سليماً، لكن أحد الحيوانات المنوية استطاع في مرة من مرات الاتصال السطحي أن ينفذ من خلال فتحة غشاء البكارة وأن يسبح صاعداً إلى الرحم. وحملت الفتاة جنيناً في أحشائها رغم بقائها عذراء.

وطلبت مني الفتاة أن اخلصها من الجنين عن طريق فتح بطنها حتى تحتفظ بعذريتها فاعتذرت عن إجراء مثل هذه العملية وانصرفت الفتاة، لكني التقيت بها بعد

بضع سنوات وعرفت أنها ذهبت إلى طبيب آخر وأخرج لها الجنين من بطنها وأنها تزوجت مهندسا ناجحاً وأنجبت طفلين.

وتخيلت يومها هذا المهندس الناجح في ليلة زفافه وهو يقوم بالإجراءات والخبرات التقليدية للتأكد من عذرية فتاته ويسعده كل السعادة أن يجد غشاءها سليماً، ولا يكاد يهمه أن يرى شقاً طويلاً في بطنها، بل لا يهمه أن يجد شقاً بأي طول في قلبها أو كبدها أو مخها، ولكن أن يجد في غشاء بكارتها شقاً وإن كان طوله لا يزيد عن ملليمتر فهذه هي الطامة الكبرى.

ولا اظن أن المجتمع يجهل أن هناك من الوسائل الصناعية ما يعيد إلى الفتاة عذريتها التي فقدتها لأي سبب، وأن الدم الذي يظهر ليلة الزفاف ليس دائماً دم العروس وإنما قد يكون دم دجاجة وضع في كيس أو دم الحيض ذاته حين تزف العروس وهي حائض ليظهر دم الحيض على أنه دم العذرية وغير ذلك من الحيل التي تجيدها الدايات والنساء من ذوات الخبرة بالرجال والحياة.

وكم من القصص والحالات شهدتها بعيني حينما كنت طبيبة بالريف. فلا تزال تقاليد الزفاف الغريبة سائدة في بعض قرانا، حين تأتي «الداية» وتمسك العروس من ساقيها كما تمسك الدجاجة قبل الذبح، وتمد اصبعها ذا الظفر الطويل المدبب كالسكين (غالباً ما تطيل الداية ظفر اصبعها من أجل هذه المناسبة) ـ وبهذا الأصبع تفض الداية غشاء بكارة العروس وتجفف الدم الذي يسيل في «بشكير» ابيض يختطفه منها ابوالعروس ويرفعه عالياً ليراه كل الناس ويشهدوا بأعينهم على شرفه وشرف ابنته.

وقد حضرت بنفسي بعض هذه الأفراح، وبلغ بي الاستطلاع مداه في بعض الاحيان فجلست بجوار الداية لأشهد بدقة ما تفعله. في احدى المرات مدت الداية أصبعها بعنف داخل مهبل العروس وحينما لم تسقط إلا قطرات قليلة خدشت بظفرها المدبب جدار المهبل فسال الدم غزيراً كالنزيف وغرق البشكير بالدم وارتفعت الزغاريد ودقات الطبول، وقلت للداية بصوت منخفض انها أحدثت جرحاً في المهبل، لكنها همست في أذني أن ذلك ضروري ليكون الدم كثيراً فالناس يحكمون على شرف العروس بمقدار ما يسقط على البشكير من دم.

وقالت الداية المجربة : بعد أن أفض الغشاء قد تسقط قطرات قليلة من الدم لا يراها بوضوح عجائز الفلاحين ذوو الالسنة الطويلة ولهذا تدربت على أن أخدش بظفري الطويل جدار المهبل ليحدث ذلك النزيف. وقد أصبحت لي سمعة طيبة في البلد وكل الأسر تحرص على أن أقوم أنا (دون الدايات الأخريات) بفض أغشية البكارة في الأفراح.

ومعظم الاطباء الذين عملوا بالريف صادفوا كثيراً من الحوادث الأليمة بسبب هذه العادة المصرية الغريبة في فض غشاء البكارة بالاصبع. وفي بعض الأحيان يكون هذا الأصبع هو أصبع الداية المجربة، وفي أحيان أخرى يكون أصبع الزوج، وضرره في هذه الحالات اشد بشاعة لأنه أصبع جاهل غليظ لم يعرف إلا قبضة الفأس، فاذا بهذا الأصبع يندفع بغلظته وجهله الأعمى في مهبل الفتاة الصغيرة، يمزق الأنسجة الرقيقة ويغوص في اللحم والأعصاب محدثاً تهتكات قد لا تشفى مدى العمر. ولن أنسى تلك العروس التي حملوها إلي في منتصف ليلة زفافها تنزف من مهبلها نزيفاً شديداً وحينما فحصتها اتضح لي ان هناك ثقباً كبيراً في المثانة بسبب أصبع الزوج الطويل الغليظ الذي نفذ من جدار المهبل ووصل حتى جدار المثانة فثقبه ثقباً كبيراً. وهناك كثير من الحالات والحوادث المشابهة التي يصادفها معظم الأطباء في الريف.

ولا يتسع هذا الكتاب إلى أن أسرد الحالات التي مرت بي سواء داخل عيادتي أو خارجها والتي تثبت للمجتمع أن وجود غشاء البكارة أو أن سقوط قطرات الدم ليس دليلاً على شيء.

وحينما تتضح هذه الحقائق لبعض الناس يتساءلون في ذعر وهلع : وكيف نحكم اذن على شرف البنت؟ ولكن ما هو مفهوم الشرف لدى هؤلاء، هل الشرف هو مجرد أن يحافظ الانسان على أعضائه التناسلية؟ هل البنت الشريفة هي تلك التي تحافظ على سلامة غشائها ولا تحافظ على سلامة تفكيرها وصدقها وقدراتها على العمل والانتاج في الحياة؟ هل البنت التي تكذب تصبح شريفة لمجرد أنها ولدت بغشاء بكارة؟ هل من الممكن أن يكون الشرف صفة تشريحية يولد بها الانسان أو لا يولد؟ واذا كان غشاء البكارة هو دليل شرف البنت فما هو الدليل على شرف الرجل؟

ويقول بعض الناس ان شرف الرجل في غير حاجة الى دليل. فهل معنى ذلك ان كل الرجال في حكم المجتمع شرفاء؟ ويرد البعض قائلين ان شرف الرجل يختلف

عن شرف المرأة «الرجل لا يعيبه إلا جيبه» مثل من الأمثلة الشعبية الشائعة في مجتمعنا. ومعنى ذلك ان الرجل شريف طالما هو يعمل ويكسب مالاً بصرف النظر عن علاقاته الجنسية بالنساء، بل إن الرجل في مجتمعنا يفخر بتعدد علاقاته مع النساء ويعتبر ذلك نوعا من الانتصار والفوز.

ومن هنا ندرك أن للمجتمع مقياسين للحكم على الشرف وانه فرض العفة على النساء وحدهن ونتج عن ذلك تلك الظاهرة الاجتماعية الغريبة، وهي ان المرأة تتحاشى الرجل لتحافظ على شرفها، لكن الرجل يطارد المرأة لأنه يريدها ولأن مطاردتها والاتصال بها لا يعيبه في شيء، ويظل الرجل يطارد الفتاة مستخدماً في ذلك شتى الحيل، مرة الحب الجارف، ومرة الوعود بالزواج، ومرة التفاني في الاخلاص إلى الأبد. وحينما تثق به الفتاة وتصدقه يقول عنها المجتمع انها سقطت وإذا غدر بها الرجل ولم يتزوجها يحكم عليها المجتمع بعدم الشرف ويقضي عليها وعلى مستقبلها ومستقبل طفلها، أما الرجل فينطلق سعيداً ناجحاً يكرر تجاربه تحت سمع المجتمع وبصره.

* * *

جاءتني الى العيادة ذات يوم، فتاة في السابعة عشرة تقريباً، نحيلة شاحبة، أصابع يديها مشققة متورمة. أدركت على الفور أنها خادمة في بيت من بيوت الأسر المتوسطة، تغسل كل يوم تلالاً من الصحون الملوثة بالسمن والدهن والزيت والطبيخ. كانت تبكي وبارتجاج جسدها النحيل وهي تنشج لاحظت انتفاخ بطنها. وقصت علي قصتها. جاءت مع أبيها من الريف إلى القاهرة لتعمل خادمة عند موظف كبير بوزارة العدل. قالت لي إنه وكيل الوزارة أو شيئاً من هذا القبيل. وفي البيت الكبير ذي العدد الكثير كانت تعمل ليل نهار، تغسل وتمسح وتساعد الطباخ في طهو الطعام واعداد المائدة. كانت ترص أطباق اللحم أمام أفراد الأسرة ولا يكاد يتبقى لها إلا الفتات، وأول كل شهر يأتي أبوها ويأخذ راتبها ويذهب الى القرية. ولا يترك لها شيئاً. كان الطباخ ينام في حجرة فوق السطح أما هي فكانت تنام على دكة خشبية في المطبخ. كانت راضية بحالها تعمل بلا كلل أو ملل لترضي سيدتها صاحبة البيت ولترضي أباها في القرية. وكان كل شيء يمكن أن يسير على هذا الحال لولا أن سيدتها تلقت نبأ وفاة أحد أقاربها فسافرت إلى الزقازيق بضعة أيام.

ومسحت الفتاة دموعها وهي تقول: لم أكن أتصور أن سيدي البيه يمكن أن يفعل هذا.

وسألتها: ماذا فعل؟
قالت: جاءني في الليل ولم استطع أن أمنعه.
وقلت: ثم ماذا؟

قالت: لم أكن اعرف شيئاً وظننت أن شيئاً لم يحدث، وحينما عادت سيدتي خفت أن أقول لها شيئاً. ومرت الأيام وأحسست أن بطني يكبر وظننت أنها ليست إلا السمنة، لكن سيدتي لاحظت كبر بطني فسألتني وهددتني بالطرد فذكرت لها حادثة سيدي البيه. وكنت أظن أنها ستعاقبه هو لكنها عاقبتني أنا وطردتني من بيتها وهددتني بأن تفضحني لدى أبي اذا انا ذكرت اسم سيدي البيه. وهربت من أبي لأنه لو عرف سيقتلني. ذهبت الى طبيب ليجهضني لكنه طردني من العيادة وقال ان القانون يمنع الاجهاض مع انني سمعت من بعض الناس انه يجهض النساء لقاءَ عشرين جنيهاً للعملية. ولكني لا أملك إلا سبعين قرشاً وفرتها من البقشيش الذي كنت آخذه من ضيوف سيدتي.

لا أظن أن أحداً يستطيع أن يتهم هذه الفتاة البائسة بأنها غير شريفة ومع ذلك فأنها في نظر المجتمع فتاة حامل بغير زواج أي فقدت شرفها وبالتالي تستحق العقاب. وتواجه هذه الفتاة التعسة المجتمع وحدها وقد تنتهي حياتها بيدها أو بيد أبيها أو من أثر محاولتها التخلص من الجنين أو تعيش حياة ذليلة راكدة هي والموت سواء بسواء. أما سيدها البيه فيظل يعيش في المجتمع الواسع العريض يستمتع بحياته ونجاحه وشرفه المصون في ظل حماية المجتمع والقانون.

وأظن أنه لا يخفى على أحد ما تتعرض له البنات الصغيرات احياناً من حوادث اعتداء، وقد لا تكون البنت قد بلغت الثامنة من العمر بعد وتفاجأ بذلك الشاب الطائش الذي يعتدي عليها، وقد يكون هذا الشاب خادماً أو بواباً، وقد يكون أحد أفراد أسرتها. ولا أعني بأحد افراد أسرتها ابن العم أو ابن الخال فحسب، ولكنه قد يكون العم نفسه أو الخال نفسه، وفي بعض الاحيان يكون الأخ ذاته.

وقد تنسى الطفلة الصغيرة الحادث أو تذكره كالحلم المزعج وتفاجأ حين تكبر وفي ليلة الزفاف أنها غير عذراء. وقد لا تنسى تماماً، ويظل ذلك الحادث الأليم كامناً في نفسها يعذبها ويفتك بصحتها النفسية طوال حياتها، هذا اذا نجت من العقاب الذي

يتربص بها حين تكبر، وقلما تنجو من العقاب في معظم الأحوال.

ومما يزيد المأساة أن الرجل المعتدي لا يبوح بالسر، ولا يعترف بفعلته لينقذ الفتاة، بل إنه أحياناً ما يشترك في العقاب أو يوقعه بنفسه على الفتاة من أجل حماية شرفه أو شرف الاسرة.

وكم سمعنا أو قرأنا عن مثل هذه المآسي، لعل أقربها تلك التي قرأناها في جريدة الاخبار بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٧٢ تحت عنوان «أحب العم ابنة شقيقه فأرغمه اخوها على قتلها بالسم»، وتقول كارين هورني الطبيبة النفسية العالمية ان الناس يظنون أن مثل هذه الحوادث نادرة، ولكن نظراً لأنها تحدث في سرية شديدة فلا أحد يعرفها مع انها شائعة. وفي سن الثامنة يمكن ان تفقد البنت غشاءها بسهولة وتنسى الحادث.

* * *

اعتقد اننا في حاجة إلى أن نفهم جيدا ماذا نعني بكلمة الشرف. من هو الانسان الشريف؟ واذا كان الشرف هو الصدق مثلاً فان الرجل الصادق يصبح شريفاً وكذلك المرأة الصادقة تصبح شريفة. ان المقاييس الأخلاقية التي يضعها المجتمع لا بد أن تسري على جميع أفراده بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو الطبقة الاجتماعية. فإذا كان المجتمع يؤمن بالعفة في الجنس كقيمة خلقية فلا بد أن تسري هذه القيمة على جميع أفراد المجتمع، أما أن تسري على جنس دون الجنس الآخر أو على طبقة دون الطبقة الأخرى فهذا يدل على أن هذه العفة ليست قيمة أخلاقية وإنما هي قانون فرضه النظام الاجتماعي القائم. وقد رأينا في المجتمعات الرأسمالية كيف كان الحكام الرأسماليون يفرضون على العمال والاجراء قيماً اخلاقية معينة تضمن زهدهم في الحياة وقناعتهم بأجورهم الضئيلة وخضوعهم للقوانين الرأسمالية الجائرة وتطوعهم في الجندية للدفاع عن مصالح هؤلاء الحكام وأطماعهم الاستعمارية، هذا في الوقت الذي يستمتع فيه الحكام الرأسماليون بقيم الجشع والنهم والربح المتزايد والافراط في كل المتع التي حرموها على الطبقات الكادحة.

واذا كان الرجال هم السادة في المجتمع دعوا النساء إلى الالتزام بقيم الشرف والعفة ليضمنوا خضوعهن على حين ينطلق الرجال مبيحين لأنفسهم الاستمتاع بكل ما حرموه على النساء.

ويخفي المجتمع الدوافع الاقتصادية والاستغلالية من وراء هذه القيم ويسوق دوافع اخلاقية منها الشرف والفضيلة والعفة. وحينما نسأل المجتمع لماذا يفرض العفة وحدها على المرأة يرد المجتمع بأن هذا طبيعي لأن المرأة غير الرجل، وان الطبيعة هي التي صنعت كل الفروق بين الرجل والمرأة وليس المجتمع. وحينما نسأل المجتمع ما هي الفروق بين الرجل والمرأة يصيح قائلاً أنها فروق ضخمة جداً احدها أن المرأة هي التي تحمل ثمرة العلاقة الجنسية في رحمها جنيناً. ونسي المجتمع أن الحمل والولادة لم يصبحا قيداً على المرأة إلا بفعل المجتمع حين قرر أن الجنين الذي ينمو في احشائها ويتغذى من دمها ولحمها ليس من حقها وإنما هو من حق الرجل وحده. يمنحه اسمه فيصبح طفلاً شرعياً ويعترف به المجتمع، أو لا يمنحه اسمه فيحكم عليه المجتمع بالاعدام وهو ما زال وليداً يرضع.

ان المجتمع هو الذي قيد المرأة لأسباب من عنده، أما الطبيعة فهي بريئة وحقائق العلم والطب التي سأورد ذكرها فيما بعد تؤكد أن الفروق الضخمة التي وضعت بين الرجل والمرأة ليست من صنع الطبيعة.

البنت

حينما تولد البنت، وبالرغم من أنها لا تستطيع النطق أو التعبير عن نفسها إلا انها تستطيع أن تدرك من نظرات من حولها أنها ليست مثل أخيها الولد ومنذ أن تبدأ الطفلة تحبو أو تمشي تتربى على الحذر والخوف على أعضائها التناسلية.

وتنشأ البنات في معظم الأحيان في جو مليء بالتحذير والتخويف من كشف أو لمس أعضائهن التناسلية. وتشعر الأم (أو الأب) بالذعر حين تمتد يد الطفلة الصغيرة ابنة الخامسة من العمر لتستكشف أعضاءها فتنهرها بشدة وعنف وقد تعاقبها بالضرب أو التأنيب حتى لا تعود إلى ذلك مرة أخرى.

ولا يمكن أن ننكر أن الأطفال من الذكور أيضاً يعاملون بالمثل ازاء هذه التصرفات، لكن نصيب البنت من هذا التخويف والتحذير هو أضعاف نصيب الولد بسبب القيود والمحظورات التي فرضها المجتمع على الاناث وبالذات على اعضائهن التناسلية، وبالتالي يترسب في نفس البنت أكثر من الولد الخوف والكبت والعقد النفسية والجنسية التي تمنع نموها الطبيعي ونضوجها في مراحل العمر المختلفة.

ولا تدري الأمهات والآباء انه من الطبيعي بل ومن الصحي أيضاً أن يلمس الأطفال ذكوراً واناثاً اعضاءهم التناسلية رغبة منهم في استكشاف أنفسهم، ولأنهم يشعرون أيضاً بشيء من اللذة أثناء هذا اللمس.

والناس جميعاً دون استثناء يشعرون برغبة جنسية تحتاج الى اشباع . إنها رغبة طبيعية وصحية كالرغبة في الطعام يشعر بها جميع البشر في جميع مراحل العمر.

وكما تختلف الشهية الى الطعام من شخص إلى شخص، ومن ظرف إلى ظرف فان الرغبة الجنسية أيضاً تختلف وتعبر عن نفسها بوسائل تختلف باختلاف الاشخاص. لكن وظيفتها الاساسية تظل من اجل اشباع الاحتياج الطبيعي في الانسان وتأكيد وجوده واثراء حياته الجسمية والنفسية والفكرية والمحافظة على النوع.

وتتفاوت شدة الرغبة الجنسية في مراحل العمر المختلفة ولكنها لا تظهر فجأة (كما يعتقد الكثيرون) في مرحلة البلوغ، فهي جزء هام من طبيعتنا وتكويننا ينمو بنمونا منذ لحظة الولادة حتى نهاية العمر. ويرى بعض العلماء ان الرغبة الجنسية لا تضعف بالتقدم في السن وانها تستمر بنشاطها المألوف إلى آخر العمر. ويرى بعض علماء الجنس انها أحياناً ما تقوى وتشتد في الكهولة والشيخوخة بدرجة ملحوظة أطلقوا عليها اسم «الشباب الثاني» وأرجعوا ذلك إلى ان الجهاز التناسلي أقدم الأجهزة تكويناً وأقواها وظيفة وان زوال مشاغل الانسان من ناحية وزيادة نضجه الجنسي من ناحية اخرى كفيلان بزيادة قوته الجنسية ونشاطها رغم تقدم العمر.

وينكر هؤلاء العلماء وفي مقدمتهم العالم الانجليزي «كوبر» وجود شيء اسمه سن اليأس سواء للرجل أو للمرأة.

ومن الطبيعي ان الرغبة الجنسية تعبر عن نفسها أثناء الطفولة والمراهقة بطريقة مختلفة عنها في مرحلة النضوج. حينما يمص الوليد ثدي أمه فهو يشبع حاجته الى الطعام ويملأ فراغاً يستشعر خلال ملئه باللذة. لكنه في نفس الوقت يبدأ يستمتع بأول تلامس مع شخص آخر غير نفسه، وهذا إحساس له لذة.

وحين يفطم الطفل فانه قد يمص أصبعه ليعيد الى ذاكرته الاحساس السابق بالرضا. وقد يظل الفم عند الطفل لفترة بمثابة عضو الاستكشاف لكل ما يحيط به من أشياء غريبة لم يعرفها من قبل.

ويلمس الاطفال بنين وبنات اعضاءهم التناسلية بطريقة طبيعية وصحية رغبة منهم في استكشاف انفسهم ولأن هذا اللمس يمنحهم شيئاً من اللذة لا تسبب لهم أي ضرر بل انها ضرورية للنمو والتطور الطبيعيين لجسم الطفل ونفسه وعقله.

ويلعب الأطفال من الجنسين ما بين الخامسة والحادية عشرة ألعاباً بريئة لا ضرر منها، احداها لعبة «الدكتور» حيث يقوم احد الاطفال بدور الطبيب ويفحص جسم

الطفل الآخر بكل وقار واهتمام واستطلاع كأي طبيب. وفي بعض الاحيان يتبادل الاطفال لمس اعضاء بعضهم البعض بطريقة مباشرة وقد يقلدون الاتصال الجنسي الذي يمارسه الكبار.

كل هذا لا يحدث ضرراً للطفل وليس خطراً على أي طفل ذكراً كان أو أنثى لكن الضرر كله والخطر في ذلك التحذير والتخويف الذي يناله الطفل من مثل هذه التصرفات الطبيعية.

أذكر انني وانا طفلة صغيرة كنت اشعر بالذعر وترتجف اصابعي رعباً اذا ما لامست يدي بطريق الصدفة اعضائي الخارجية، وكنت اخاف احياناً من احتكاك ملابسي بهذه الاعضاء وأظن ان مثل هذا الاحتكاك كفيل بإحداث ضرر أو تلف بالغ بها قد يؤثر على حياتي كلها.

وكان هذا الخوف ينمو معي حتى بلغ قمته في اليوم الذي ادركت فيه أن هناك غشاء ما رقيقاً، وانه موجود في مكان ما قرب السطح بين ساقي، وانني يجب ألا اقفز عالياً من فوق السلم وإلا أتعرض للتمزق فتصيبني أنا وجميع أفراد أسرتي كارثة بالغة.

وحينما تقدمت قليلاً من العمر تغير نوع الخوف الذي كان يجعلني اخشى القفز وأسير بخطوات بطيئة مريضة حذرة، وأصبحت اخاف من الغرباء وأخشى الخروج بمفردي من البيت. فقد ادركت ان خطراً ما يكمن لي في ذلك العالم الخارجي وانني يجب ألا اكلم الغرباء وبالذات الرجال منهم وإلا فسوف يحدث لي شر مستطير.

واستطعت من حيث لا أدري ان اربط بين الرجال وبين ذلك الغشاء الرقيق القائم قرب السطح بين ساقي. وكنت كلما جلست بالصدفة بجوار رجل من غير افراد اسرتي أضم فخذي بكل قوتي حتى لا يتسرب الهواء الذي يتنفسه الرجل ويتسلل بين ساقي ويصيبني بالضرر.

لا أدري كيف بلغ بي الخوف الى ذلك الحد لكني كنت سألت أمي ذات يوم بعد ان ولدت أخي الاصغر كيف ولماذا تلد الأمهات. وردت علي أمي يومها قائلة ان الأم تلد حين تتزوج. وسألتها بالطبع ككل الاطفال: ولماذا تلد الأم حين تتزوج. وردت عليّ أمي قائلة: لأنها تعيش مع الأب وتأكل معه وتتنفس الهواء الذي يتنفسه. وتصورت بسرعة بعقل الأطفال ان الهواء هو الذي يتجمع في بطن الأم ويصنع ذلك

الجنين الذي يجعل بطنها تكبر، لكنني تعجبت لهذه الفكرة ولم اصدقها فوجهت إلى أمي سؤالاً آخر قائلة: ولكن كيف يمكن للهواء ان يصنع الطفل؟ وهنا لاحظت بوادر الغضب أو الضيق على وجه أمي وابعدتني عنها بيدها وهي تقول في ضجر: لا تكفين عن الاسئلة! اذهبي ورتبي السرائر!

* * *

ولا أظن ان احداً يمكن ان يتصور (باستثناء النساء) ما تشعر به مثل هذه الطفلة حين تفتح عينيها ذات صباح فترى دماً احمر يسيل من بين فخذيها. ما زلت أذكر لون وجهي في المرآة ذلك الصباح القاتم. كان لونه ابيض وأصبحت شفتاي بيضاوين تشوبهما زرقة، وذراعاي يرتجفان وساقاي ترتعدان وقد تصورت ان الكارثة التي كنت أخشاها قد وقعت وان رجلاً ما غريباً اقتحم حجرة نومي بالليل وسبب لي هذا الضرر. وقد كنت أتصور ذلك من قبل كثيراً وأتأكد قبل أن أنام من احكام غلق النافذة التي تطل على الشارع.

ومن الطريف انني كنت قد تلقيت في المدرسة في اليوم السابق لهذا اليوم الكئيب درساً في مرض البلهارسيا الذي يصيب الفلاحين حين ينزلون بأرجلهم في القنوات المائية فتدخل البلهارسيا إلى اجسامهم وتصيبهم بحرقة أثناء التبول ودم احمر في البول.

ولهذا ظننت ضمن ما ظننت من أسباب لهذه الكارثة انني أصبت بمرض البلهارسيا اللعين وكنت اعتقد في ذلك الوقت ان تلك الفتحة الصغيرة الكائنة بين فخذي إنما هي فتحة البول فحسب.

وبسذاجة طفلة في العاشرة من عمرها تصورت ان هذا المرض قد يشفى وحده بعد لحظةواخرى.

لكنه لم يتوقف، بل كان يزيد ساعة بعد ساعة، واضطررت في اليوم التالي أن اتغلب على الخوف والخزي اللذين كنت اشعر بهما وذهبت إلى أمي وطلبت منها أن تأخذني إلى طبيب.

وعجبت في ذلك اليوم كيف بدت أمي باردة هادئة ولم يفزعها مرض بنتها الخطير.

ثم بدأت اعرف منها الحقيقة حين قالت لي ان هذا المرض يصيب كل البنات والنساء وانه سيتكرر مرة كل شهر لبضعة ايام، وانني في اليوم الأخير يجب ان أتطهر من هذا الدم الفاسد بالاستحمام الجيد.

ورنت تلك الكلمات في أذني: مرض شهري! دم فاسد! لا بد من التطهير بالاستحمام الجيد! وتصورت بخيال الطفلة ان فساد هذا الدم معناه النجاسة، وان النجاسة أمر معيب مزرٍ وانني يجب ان أخفي مظاهر ذلك المرض عن جميع الأعين، وبالذات عن أبي الذي كان يتصورني فتاة مثالية ويعجب بذكائي وتفوقي في المدرسة. ورجوت أمي ان تكتم الأمر بيني وبينها.

ولزمت غرفتي أربعة ايام متتالية لا املك الشجاعة على ان أواجه أبي أو أخي أو حتى الخادم الصغير وحينما أذهب الى الحمام أتلفت حولي خشية أن يلمحني احد، وقبل ان اخرج من الحمام اغسل بلاطه غسلاً جيداً وكأنني أطمس أثر جريمة شائنة، ثم أغسل يدي وذراعي بالماء والصابون عشرات المرات لأزيل عني أي أثر لرائحة ذلك الدم الفاسد.

* * *

وبالإضافة إلى كل تلك المشاكل النفسية والجسمية التي تتعرض لها البنت الصغيرة في مرحلة البلوغ بسبب الجهل والتجهيل بأعضائها ورغباتها فانها تبدأ بدخولها سن المراهقة في التعرض لمزيد من المحظورات والقيود التي تقابلها بطبيعة الحال بمزيد من الخوف والانكماش والكبت.

ومن المعروف أن الرغبة الجنسية في البنين والبنات تزداد حدة عند البلوغ، وأن البلوغ يصاحبه تغيرات عميقة في الانسان بسبب التغير في التوازن بين مختلف الغدد الصماء وزيادة كبيرة في إفراز الغدد التناسلية. ويصاحب هذا التغير الجسمي والفسيولوجي تغيراً عميقاً في نفس الانسان وتفكيره ومشاعره.

ويقول علماء النفس ان الانسان في هذه الفترة بالذات يحتاج الى أن تزول التحذيرات والضغوط من حوله ليأخذ فرصته في النمو والنضج والاستقلال بشخصيته عن الآخرين.

لكن الذي يحدث هو العكس فإن التحذيرات والضغوط تزداد من حول الانسان

في فترة البلوغ عنها في أي فترة أخرى، ويتعرض الولد أيضاً للضغوط، ولكن بنسبة أقل كثيراً من البنت، كما أن الضغوط التي يتعرض لها الولد تختلف عن الضغوط التي تتعرض لها البنت، وكذلك تختلف نظرة المجتمع إلى بلوغ كل منهما وإلى مظاهر هذا البلوغ.

ففي الوقت الذي يعترف فيه المجتمع بالرغبة الجنسية عند الولد البالغ فإنه ينكرها على البنت. وبهذا يمكن القول ان بلوغ الولد ايجابي يؤكد به غريزته ورغبته في الجنس الآخر، أما بلوغ البنت فمعناه نكران الجنس ونفيه. ويصبح من الطبيعي أن يغازل الولد البنت ويصبح من الانحراف أن تتقبل البنت غزل الولد، ولا أقول ان تغازله كما يغازلها.

وتشعر البنت بالفروق الضخمة التي يضعها المجتمع بينها وبين اخيها الولد. أخوها يخرج ويلعب ويقفز ويتقلّب أما هي اذا ما جلست وانحسر الرداء عن سنتيمتر من فخذها فإن أمها ترشقها بنظرة مخلبية حادة لتخفي عورتها. وتشعر البنت وهي لم تتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها ان كل شيء فيها عورة تستوجب التستر والإخفاء.

ومن الطبيعي أن تشعر البنت بعد كل ذلك بالعداء نحو جسمها وأعضائها التناسلية والجنس وتربط بين كل هذه الأشياء والرجل فتشعر نحوه بالكراهية.

وقد تُقاوم البنت وتصارع فترة أو فترات ضد المصير الذي يقوده اليها المجتمع بيد حديدية باردة.

ومن مذكرات طفلة في العاشرة من عمرها كتبت: «لم أكن أهرب إلى عالمي الصغير وكتبي المصورة وأقلامي الملونة حتى تجرني امي الى المطبخ وهي تقول: مصيرك إلى الزواج. يجب أن تتعلمي الطبخ، مصيرك إلى الزواج! الزواج! تلك الكلمة البغيضة التي كانت ترددها أمي كل يوم حتى كرهتها، ولم أكن اسمعها حتى أتمثل أمامي رجلاً له بطن كبير في داخله مائدة طعام. ارتبطت في ذهني رائحة المطبخ برائحة الزوج. وكرهت اسم الزوج، وكرهت رائحة الأكل».

التربية والكبت

إن الانسان مهما ورث من صفات فان الصفات التي يكتسبها من البيئة المحيطة به وعن طريق التربية هي التي تكون صفات شخصيته وشكلها النهائي. فالانسان يعيش داخل مجتمع يتأثر به ويؤثر فيه، والحياة هي ذلك التفاعل المستمر بين الانسان ومجتمعه.

وبهذا يكون التبادل أساس الانسان داخل المجتمع من ولادته حتى موته. ويتميز الانسان عن سائر الحيوانات بقدرته على السيطرة على شعوره والاختيار. هذه القدرة تنمو في مراحل العمر المختلفة. فالطفل في أول مراحل عمره لا يستطيع الاعتماد على نفسه ثم يتعلم كيف يعتمد على نفسه. أي أن الطفل يفقد بالتدريج سلبيته واحتياجه للآخرين ويكتسب الايجابية والقدرة على الاختيار وحرية الفعل وهذا هو معنى النمو.

والنمو لا يعني نمو الجسم فحسب. فكما ينمو جسم الطفل ينمو عقله وتنمو نفسه . إن النمو النفسي والعقلي هو حركة نحو مزيد من استقلال الشخصية والقدرة على الاختيار والحرية الشخصية والمسؤولية . هذا النمو ضروري وأساسي ليحرر الانسان من ارادات الغير ومحاكاتهم .

لكن المجتمع بنظمه وقوانينه ومؤثراته وضغوطه يكبت المرأة فيعوق هذا الكبت نموها الفكري والنفسي، ويحول دون تحررها من السلبية والاعتماد على الآخرين، وتظل كالطفل في مراحله الأولى من النمو عاجزاً عن الاستقلال والايجابية وحرية الفعل. لكنها تختلف عن الطفل في ان جسمها لا يكون طفلاً صغيراً وإنما يكون قد اصبح جسداً كبيراً ناضجاً.

ولعل هذا هو السبب في اننا نرى نساء كبيرات ناضجات في أجسامهن أما نفوسهن وعقولهن فلا تزال في مرحلة متخلفة من مراحل النمو، وهذا التخلف هو أهم سبب وراء معظم الانحرافات والمشاكل الاجتماعية أو النفسية أو الجنسية.

إن عدم النضج هو السبب الرئيسي وراء معظم هذه المشاكل، عدم نضج المرأة وكذلك عدم نضج الرجل. فالرجل وإن كان أكثر حظاً من المرأة في الحرية وفي فرص النضج إلا انه يتعرض أيضاً لضغوط اجتماعية تعرقل نضجه النفسي والعقلي، كما أن التفرقة الكبيرة بين الرجل والمرأة في المجتمع والضغوط الشديدة على المرأة تزيد من احساس الرجل بإيجابيته فاذا بها تتحول إلى مبالغة في السيطرة فميل إلى الأنانية والسادية (الرغبة في الإيلام)، وتزيد أيضاً من إحساس المرأة بسلبيتها لتصبح مبالغة في الخضوع والماسوشية (الرغبة في استشعار الألم).

إن سلبية المرأة ليست صفة طبيعية في المرأة ولكنها صفة غير طبيعية نتجت عن ضغوط المجتمع وكبته لنموها، وكذلك أيضاً جميع الصفات الأخرى التي ألصقها المجتمع بالمرأة والأنوثة، وكلها صفات غير طبيعية دخيلة على طبيعة المرأة السوية.

فالبنت تولد طبيعية ثم تتعلم لحظة ولادتها كيف تصبح أنثى وكذلك الولد يتعلم كيف يصبح ذكراً. وكما قالت «مرجريت ميد»: ان الفتاة تتعلم أن تجلس وتضم ساقيها وتحافظ على بكارتها وتخجل من جسمها ثم تنتظر دورها السلبي في الحياة كامرأة. أما الولد فيحرك ساقيه بحرية ويفخر بجسده ويدخل الى عالم الرجال بإيجابية. ولو ان البنت تلقت التربية نفسها التي يتلقاها الولد لما كانت هناك تلك الفروق بين الرجل وبين المرأة أو بين الرجولة والأنوثة.

وقالت سيمون دي بوفوار: إن صفات الأنوثة نتاج صناعي لوضع المرأة السفلي في المجتمع. وكتب كينيث ووكر في كتابه (الجنس والمجتمع) ان احساس الذكر بذكورته والأنثى بأنوثتها، ومعنى هذا الإحساس، وفرص اشباع الرغبة الجنسية، والظروف التي يحدث فيها هذا الإشباع، كل هذا يخضع للمجتمع من حولهما وما فيه من تقاليد وضغوط في البيت أو في المدرسة أكثر مما يخضع لصفاتهما الموروثة من أبيهما وأمهما.

وقد أهمل علماء النفس التقليديون وعلى رأسهم فرويد المجتمع وأثره في تشكيل حياة الانسان الجنسية، وكانوا يهتمون بداخل الانسان أكثر من اهتمامهم بالبيئة

الخارجية ولهذا فقدوا الكثير، وثبت قصور نظرية فرويد التي تقول بأن الذي يحكم سلوكنا الواعي إنما هي دوافع العقل الباطن، فقد اتضح أن كل تغير في شكل أو مضمون وعينا إنما هو رد فعل أو تفاعل لتغير في البيئة من حولنا، وان الصراعات التي يعاني- منها الطفل والتي أرجعها فرويد إلى الاحباط الجنسي والغيرة ليست إلا نتاجاً لتفاعل الانسان مع القوى والضغوط الاجتماعية التي تفرض عليه.

وقد أخطأ فرويد وأتباعه في فهمهم لنفس المرأة وأحاسيسها ورغباتها. ومردّ هذا الخطأ أنهم لم يستطيعوا ادراك القوى الاجتماعية والضغوط وأثرها في نفس المرأة، وأنهم أيضاً كانوا رجالاً ولم يكونوا نساء.

* * *

وتواجه البنت منذ طفولتها تناقض المجتمع، ففي الوقت الذي تحذر فيه من الرجال وتخوف من الجنس وتفرض عليها العفة فهي تشجع على أن تكون أداة جنس وتعلم كيف تكون جسداً فقط وكيف تجمّل هذا الجسد وتزينه لتجذب الرجّل.

وينعكس هذا التناقض على شخصية المرأة بتناقض آخر، فهي تريد الرجل ولا تريده. وهي تقول (لا) وتعني بها (نعم). ويظن المجتمع ان هذه هي طبيعة المرأة وينسى انه هو الذي فرض عليها هذا التناقض.

وتسبب التربية التي تتلقاها البنت سواء في البيت أو المجتمع كثيراً من المشاكل والعقد النفسية. فالبنت تتدرب منذ الصغر على ان تنشغل بجسمها وملابسها وزينتها طول الوقت ولا تجد وقتاً أو اهتماماً لتقرأ أو تنمي قدرتها العقلية والنفسية. وتتحمل الفتاة متاعب التجميل وآلامه وتتدرب على ان تخفي طبيعتها وحقيقتها.

وكم تصاب البنات بالقلق والامراض النفسية المختلفة بسبب حرصهن الشديد على استيفاء مقاييس الجمال الموضوعة. وتشعر البنت أن مستقبلها في الحياة يتحدد حسب طول انفها واتساع عينيها وامتلاء شفتيها. وحينما تجد البنت ان انفها اطول او اقصر من اللازم فانها قد تعيش في قلق دائم، وقد تشعر بالخجل من انفها وتحاول ان تخفيه بيدها من حين لآخر بحركة لا ارادية. وقد تتصور الفتاة خطأ انها يجب ان تخفي رائحة جسمها الطبيعية أو ان هذه الرائحة ليست عطرة كما يجب فاذا بها تبلل نفسها بالعطر عدة مرات كل يوم. وهناك من ترى ان اسنانها بارزة او اكبر مما يجب

فتمنع نفسها من الابتسام او الضحك، واذا حدث وضحكت فهي تزم شفتيها أو تضع يدها على فمها.

ولا يمكن لأحد ان يتصور كم تشتغل البنات بتوافه الأمور، وكم تصبح بضع ملليمترات تنقصها الرموش عن طولها المعتاد مشكلة حادة في حياة فتاة من الفتيات، وكم من فتاة ترعبها بضع قطرات مطر لأنها تفسد تسريحة شعرها، وكم من فتاة تفسد مشيتها وقوامها الطبيعي بالتأرجح على كعب عال رفيع، وكم من امرأة لا تستطيع ان تواجه الناس بغير ان تضع على وجهها المساحيق والظلال والخطوط.

وهناك من الفتيات بطبيعة الحال من ينجو من مثل هذا القلق والمشاكل النفسية لمطابقة مقاييس الجمال عليهن لكنهن يعشن أسيرات لهذا المفهوم الضيق للجمال، أسيرات لفكرة ان مستقبلهن هو الرجل والزواج، هذا في الوقت الذي يعد فيه اخوانهن الذكور للعمل في الحياة العامة والمشاركة في بناء المجتمع.

وتقلل هذه التربية من طموح البنت وتعتقد ان سنوات الدراسة أو العمل بعد التخرج ليست إلا فترة انتظار تنتهي بالعثور على الزوج.

وينتج عن هذه التربية أن يصبح الزوج هو كل حياة المرأة أما الزوجة فليست إلا جزءاً من حياة الرجل. وحيث ان المرأة تربت منذ طفولتها على ان تنكر الجنس وتكبت رغباته فهي تعجز بطبيعة الحال عن اداء دورها الجنسي المفروض مع الزوج وتتهم بالبرود ويصبح من حق زوجها ان يطلقها، أو ان يبقيها خادمة بالبيت وينطلق هو مبيحاً لنفسه التمتع بكل من يستطيع من النساء.

* * *

إن الطبيعة لم تفرق بين الرجل والمرأة فلكل منهما رغبة جنسية وطاقة لا بد ان تصرف في اتجاهها الصحيح. ومن خصائص الطاقة انها تولد ثم تصرف ثم تولد ثم تصرف وهكذا تستمر الطاقة او القوة التي تحرك الانسان طالما هو يعيش.

وإذا ما تعرض الانسان في حياته لقوى خارجية تكبت هذه الطاقة فانها لا تفقد أو تكبت بمعنى الكبت ولكنها تنحرف وتصرف في اتجاه آخر غير اتجاهها السليم. ولهذا تنحرف طاقة المرأة الجنسية بسبب ضغوط المجتمع وتسبب للنساء الكثير من الأمراض النفسية والعصبية. وما هذه الآلام الشديدة التي تصاب بها النساء أثناء الطمث

أو الولادة إلا بسبب انحراف هذه الطاقة عن مسارها الطبيعي لتحطم نفس المرأة.

إن نفسية المرأة تصبح مشوهة ومريضة بسبب أثر الطاقة المحطم على نفسها. ومنذ الولادة حتى الشيخوخة تنحرف طاقة المرأة الجنسية. وتتعلم البنت منذ طفولتها أن تنكر الجنس وتقتل رغبة البحث والاستطلاع عندها سواء في علاقاتها الجنسية أو علاقاتها غير الجنسية فاذا ما جاء الوقت الذي يجب ان تحس فيه الجنس عجزت، لأن القالب الذي وضعت فيه اصبح من القوة بحيث انه تغلب على رغبتها الطبيعية واستطلاعها.

ويريد المجتمع بضغوطه على المرأة ان تصبح بغير رغبات جنسية أو بغير جنس. ويأتي علماء النفس ليضعوا النظريات التي تفسر ما يقع في المجتمع وتبرره، فاذا بفرويد يقول ان الأنثى ذكر بغير عضو تناسل، أو ان الأنوثة هي ذكورة بغير رغبة جنسية أو بغير «الليبدو».

ويأتي علماء الأخلاق والقانون ليضعوا القيم والقوانين التي تفرض على المرأة سلوكاً يتفق مع نظرة المجتمع اليها والدور الذي وضع لها.

أما اطباء النفس فيقومون بدورهم الفعال في تنفيذ قيم المجتمع وتحطيم البقية الباقية من شخصية المرأة باسم التكيف الاجتماعي.

* * *

إن التربية التي يتلقاها الطفل في مراحل عمره المختلفة تعرقل نموه الطبيعي. فالطفل لا يترك لحظة ليواجه نفسه بنفسه أو يتخذ قراراً مستقلاً عن إرادة الكبار الذين يربونه. وكما قال «دافيد كوبر» ان التربية الحديثة تمنح الطفل الأدب والطاعة وتفقده نفسه وشخصيته. وعبر «كينيث ووكر» عن نفس هذا المعنى حين قال: «إننا نتعلم من المهد إلى اللحد أن نستبدل قيمة انفسنا بالقبول الاجتماعي وتكامل شخصياتنا وأرواحنا بالتكيف الاخلاقي». وهكذا فان ثمن الحصول على الأمن هو فقدان النفس، وكم يكون هذا الثمن باهظاً لأنه ثمن الحياة ذاتها.

والتربية التي يتلقاها الطفل في مجتمعنا الحديث هي سلسلة متصلة من الممنوعات والعيب والحرام والذي لا يصح. ويكبت الطفل رغباته ويفرغ نفسه من نفسه ويملؤها برغبات الآخرين. ويتضح من ذلك ان هذه التربية عملية قتل بطيئة لروح

الانسان ولا يبقى من الانسان بعد ذلك إلا غلافه الجسدي الخارجي جامداً فاقداً للحياة كالنابض يحركه الآخرون .

ولا شك أن نصيب البنت من هذه التربية أكبر بكثير من نصيب الولد. وان نصيبها من الكبت أضعاف نصيبه. ولهذا فان انسحاق نفسها وروحها أشد وأفدح.

ففي الوقت الذي يسمح فيه للولد بالخروج الى الشارع ومخالطة أصدقائه تعزل البنت في البيت بحجة حمايتها من خطر العالم الخارجي. وتشعر البنت بالخوف من الغرباء وتحس انها قد تكون فريسة في أي وقت، وتنكمش داخل البيت حيث الأمان، وهي لا تدري ان هذا الأمان إنما هو الخطر بعينه لأنه يعزلها عن المجتمع ويجتث جذورها يوماً بعد يوم من الحياة وخبراتها فتموت وهي على قيد الحياة.

وهناك بعض الفتيات بل الكثيرات منهن يصارعن ضد هذا القتل البطيء.
وقد كنت في طفولتي احدى هؤلاء البنات اللائي يصارعن ويقاومن. كنت أرفض الخدمة بالبيت والمساعدة في المطبخ وأصر على الذهاب إلى المدرسة. كنت أرفض أن يصبح شعري طويلاً مقيداً في ضفائر وأشرطة. لم أكن أفهم لماذا تهتم أمي بملابسي وفساتيني وتشتري لي منها الكثير في الوقت الذي ترفض أن تشتري لي كتاباً أقرأه. كنت أتفوق دائماً في الدراسة على أخي فلا يهنئني أحد ولا يغتبط أحد وحينما أفشل مرة واحدة في اتقان الطبخ يؤنبني الجميع.

وتختلف البنات في صراعهن ضد الفروق المفتعلة بينهن وبين البنين باختلاف ظروفهن وشخصياتهن. هنـاك بنت تصارع حتى مرحلة البلوغ فاذا بحادث الطمث المفـاجىء والذي لم تُعد له يصيبها بالضربة القاضية فتستسلم لمصيرها وتعتقد ان الطبيعة هي التي حكمت عليها بهذا العقاب كما تسمع من حولها. وبنت أخرى أكثر طموحاً وثقة بنفسها تصر على مواصلة الصراع إلى الحد الذي تنكر فيه جسدها وتلغي رغباته وتنشد التفوق في الحياة متحدية الرجال. ومن النادر ان نجد تلك البنت التي تستـطيع أن تعيش حياتها الطبيعية كجسم وعقل ونفس وأن تمارس رغبات جسمها ونفسها وعقلها دون أن يضطرها المجتمع الى الغاء أحدها على حساب الآخر.

إن المجتمع لا يستطيع ان يعترف ان المرأة يمكن أن تتفوق وتنبغ دون ان تتحول إلى رجل. فالتفوق والنبوغ في نظر المجتمع صفة الرجل فحسب، فإذا ما اثبتت امرأة

نبوغها بما لا يدع مجالاً للشك اعترف المجتمع بنبوغها وسحب منها شخصيتها كامرأة وضمها الى جنس الرجال.

وكم طاردتني كلمة «رجل» كلما تفوقت في دراستي أو عملي. اذا حافظت على كلمتي ووفيت وعدي قالوا «رجل» كأنما المرأة ليست لها كلمة وليس من المفروض أن تفي بوعدها. اذا سرت بخطوات سريعة وحذاء منخفض قالوا «رجل» وكأن المرأة لا بد ان تمشي ببطء وكسل وتراخ وتتأرجح على كعب عالٍ. اذا مارست الرياضة واكتسبت عضلات جسمي قوة قالوا «رجل» وكأن المرأة لا بد أن تكون ضعيفة العضلات هزيلة الجسم، تسقطها على الأرض نفخة رجل وتنكسر عظامها تحت قبضته القوية.

وهذا المفهوم الاخير يكشف عن العلاقة السادية الماسوشية التي تلون معظم علاقات الرجال بالنساء. فالرجل هو السادي الذي يقتحم ويغتصب ويكسر، والمرأة هي الماسوشية التي يقع عليها الاقتحام والاغتصاب والتكسير، الرجل هو الفاعل دائماً والمرأة هي المفعول به. الرجل هو الايجابي والمرأة هي السلبية.

المجتمع يفرض على المرأة أن تكون السلبية وأن تكون ماسوشية ثم يسمي السلبية والماسوشية طبيعة المرأة. ويأتي فرويد ليؤكد هذا المفهوم علمياً ويعرف الرجولة بالسادية والأنوثة بالماسوشية.

* * *

حينما بلغت السادسة عشرة من عمري وجدت نفسي في مدرسة داخلية. عرفت أن أهلي يخشون علي من ركوب المواصلات العامة والاختلاط بالبنين أو التعرض لمعاكساتهم أو اغراءاتهم. وكنت قد فهمت بحكم التربية وقراءة كتب المطالعة والأخلاق وكل ما حولي من تعليقات ونظرات وتصرفات ان الاتصال بالشبان أكبر عيب وأكبر خطر يمكن أن يطيح بمستقبلي وسمعتي كفتاة على خلق.

لكني كنت أحس أن في داخلي طاقة ضخمة تجذبني نحو الجنس الآخر. وكنت أسمع الأغاني الملتهبة بالغرام كل يوم في الراديو ونداءات وتأوهات المطربة وهي تنادي على حبيبها فيزيد تأججي.

وكنت أشعر بالذنب وتأنيب الضمير حين يراودني وأنا نائمة حلم وأجد نفسي بين

ذراعي رجل مجهول. وكان يزيد من شعوري بالذنب انني كنت أجد في ذلك متعة شديدة.

ولم أكن أفهم نفسي تماماً. كنت متناقضة جداً في تصرفاتي. ففي الوقت الذي ألتهب فيه من الأعماق يبدو مظهري بارداً جامداً. لم أكن أتظاهر بالبرود. كنت في حقيقة الأمر لا أحب الشبان بل كنت أكرههم. أما هذا الشاب المجهول الذي كان يأتيني في الأحلام فقد كان مختلفاً. لم أكن أعرف وجه الخلاف فقد كان يشبههم تماماً. لكني كنت أعتقد أنه رجل آخر غير كل الرجال، وانه الوحيد الذي خلق لي. وقد ضيعت من عمري سنين كثيرة أبحث عن هذا الرجل ثم اكتشفت بعد فوات الأوان انه شخص وهمي لا وجود له وانني أنا التي صنعته بخيالي الرومانتيكي وان الرجل الحقيقي الطبيعي أفضل منه بكثير.

إن الرومانتيكية مرض يصيب البنات بسبب ذلك التناقض الحاد الذي يعشن فيه، وبسبب ذلك الكبت الذي يفرض على غرائزهن في الوقت الذي يطفح المجتمع بالأغاني الرومانتيكية المريضة والفن والأدب الرومانتيكي السقيم الذي ساد ولا يزال يسود في قرننا العشرين.

إن أكبر مظهر من مظاهر مرض الرومانتيكية هي أن الفتاة تفصل بين جسد الرجل والرجل ذاته. انه نوع من الشيزوفرينيا أو الانفصام تلحقه الفتاة بالرجل لتهرب من الشعور بالإثم. فهي بحكم التربية والتقاليد السائدة تربط بين الإثم والاتصال بجسد الرجل ويكون الرجل الوحيد الذي يناسب كبتها هو أن تطلق العنان لخيالها وتصنع رجلاً وهمياً.

وحينما تكبر الفتاة تصاب بخيبة أمل كبيرة إذ تجد الحقيقة دائماً أقل من الخيال، ويصدمها أن تجد للرجل جسداً وعضو تناسل ولحماً ودماً، وانه يبصق، ويدخل دورة المياه ويبول كسائر البشر العاديين، ولا تصيبها قبلة الرجل الحقيقية بتلك الرعشة التي كانت تحدث لها مع فارس الأحلام. ويمكننا أن نتصور مدى التعاسة التي تعيشها الفتاة في أول حياتها الزوجية وقد تصيبها خيبة الأمل هذه بالبرود الدائم، وقد تستطيع اذا حظيت برجل ناضج واع (وهذا نادر جداً) أن تشفى من مرض الرومانتيكية وأن تبدأ تستمتع بحياتها الطبيعية بعد سنوات طويلة.

وقد كتبت جيرمان جرير تصف هذه الحالة في كتابها «إخصاء الأنثى» قالت: «وكمعظم البنات كنت أحلم بفارس الأحلام الذي سيحملني على جواده الأبيض ويوقظني بتلك القبلة السحرية التي قرأت عنها في روايات الأدب الشهيرة. ولكن حينما جربت أول قبلة والثانية وغيرها من بعد ولم أحصل على النتائج التي كنت أتوقعها شعرت بخيبة أمل كبيرة، وإنه لم يكن إلا بعد سنوات وبعد ان خبرت الوصول إلى قمة اللذة في الجنس (الأورجازم) حين عرفت فجأة معنى تلك القبلة السحرية التي قرأت عنها».

* * *

إن الطاقة الجنسية في الانسان رجلاً كان أو امرأة طاقة ضخمة جبارة وليس هناك من تعبير عن نقص الانسان ورغبته في الكمال أبلغ من الرغبة الجنسية. الجوع الجنسي ينشأ عن رغبة الجسم والعقل والنفس في البحث عن شيء يلبي احتياجاتها جميعاً. هذه الغريزة القوية قادرة على تحريك كل ملكات الانسان في الخيال والابتكار. وكما قال نيتشه: ان الطاقة الجنسية في الانسان تمتد بطبيعتها إلى أعلى قمة في نفس الانسان وروحه وكيانه.

وحيث ان الطاقة اذا كبتت لا تضيع أو تفقد، وإنما تنحرف عن مسارها الطبيعي إلى مسار آخر، لهذا تنحرف الطاقة الجنسية المكبوتة عند البنات إلى طريق آخر غير الرجل.

وقد بدأ كثير من العلماء اخيراً الاعتراف بخطأ احصاءات كينزي التي كانت تقول ان ٩٣٪ من البنين يمارسون العادة السرية. وان ٦٢٪ فقط من البنات يمارسنها مرة واحدة على الاقل. كذلك اتضح خطأ الكثير من المفاهيم العلمية التي كانت سائدة عن العادة السرية سواء في الذكور أو الاناث. ان كل انسان ذكراً كان أو أنثى يمر بمرحلة من مراحل عمره حين يجد لذة طبيعية وصحية حين يمسك أعضاءه التناسلية ويداعبها حتى يصل إلى قمة اللذة. وهكذا يمكن القول بأن غالبية البنين والبنات يمارسون العادة السرية في فترة من فترات حياتهم، ثم يكفون عنها بانتقالهم إلى مرحلة أكثر نضجاً ويبحثون عن هذه اللذة التي خبروها مع الجنس الآخر.

وبعض علماء النفس يعتقدون أن ممارسة البنت أو الولد للعادة السرية في هذه الفترة المحدودة عمل صحي للنضج واكتشاف لذة الجنس وخبرتها. فقد اتضح لهم

ان المعلومات النظرية عن اللذة الجنسية تختلف عن التطبيق.

وفي مقابلة لي مع الدكتور ميسجيلب وهو استاذ بكلية طب برلين ورئيس تحرير مجلة «صحتك» في المانيا الشرقية ومسؤول عن الرد على بريد القراء والقارئات بالمجلة قال لي: حينما ترسل إليَّ فتاة رسالة تقول فيها انها تمارس العادة السرية وانها تشعر بالذنب والخوف أرد عليها بأنه لا داعي على الاطلاق للشعور بالذنب أو الخوف بل بالعكس إن ممارسة العادة السرية لفترة محدودة يفيد الفتاة ويجعلها تنضج بسرعة وتدرك معنى اللذة الجنسية، ولا تجد صعوبة في الوصول إلى قمة اللذة مع الرجل الذي تختاره. وقال ايضاً: ان من أسباب عجز أغلب النساء عن الوصول إلى قمة اللذة مع رجالهن هو ان هؤلاء النساء لم يمررن بجميع مراحل النضج الجنسي وإحدى هذه المراحل هي مرحلة العادة السرية، وذلك بسبب ما أحيطت به هذه العادة من معلومات خاطئة ومفاهيم مشوهة دفعت الكثيرين من البنات. (والبنين أيضاً) إلى الإحجام عنها، ويكفي أنها سميت باسم العادة السرية لتصبح ضمن الانحرافات والأمراض الجنسية. إن هذه المرحلة تصبح صحية في فترة المراهقة حين لا يصاحبها احساس بالذنب أو الخوف، لأنها تساعد البنت أو الولد على اكتشاف لذة الجنس واضعاف التوتر الجنسي.

على أن ذلك لا يعني كما يقول الدكتور ميسجيلب أن تفرط في ممارسة هذه العادة لأن هذا الإفراط له جوانب سلبية كثيرة احدها أن الفتاة لا تنتقل بسرعة إلى مرحلة النضج التالية لتمارس الجنس مع الرجل، كما انها حين تنتقل إلى هذه المرحلة (ويكون ذلك متأخراً) تشعر بأن علاقتها بالرجل لا ترضيها بالقدر الذي تعودته من خلال العادة السرية. ولا شك أن المجتمعات التي تفرض الضغوط على الفتاة وتحول بينها وبين الرجل تشجع بناتها على الإفراط في العادة السرية وبالتالي يحرمن من النضج الطبيعي وتصاب معظمهن من بعد في حياتهن الزوجية بالبرود أو العجز الجنسي.

* * *

اكتشفت حين عدت إلى قراءة بعض مذكراتي القديمة التي كتبتها وأنا تلميذة بمدرسة حلوان الثانوية الداخلية انني طوال الخمس سنوات من عمري في هذه المدرسة كنت أعيش حباً ضخماً جارفاً ملك علي كل مشاعري. ولم يكن الحبيب

سوى «مس سنية» مدرسة اللغة الانجليزية. كنت أبكي بكاء مراً طول الليل اذا ما قابلتني في الفناء ولم تبتسم لي أو تقول لي صباح الخير. وكنت أقفز في الهواء فرحاً حتى يصطدم رأسي بالسقف أو يكاد اذا ما جاملتني مرة أثناء الحصة وجعلتني أول من يقرأ الدرس. وفي إحدى الليالي سهرت حتى الفجر اكتب لها رسالة عتاب طويلة لأني تغيبت عن الحصة يوماً فلم تسأل عن سبب غيابي.

ولم أكن أنا البنت الوحيدة التي تحب مدرستها، كانت بنات الفصل جميعاً قد وقعن في حب المدرسات كل حسب ذوقها واختيارها. وكم من مشاجرات حدثت بين البنات بسبب التنافس على حب مدرسة واحدة.

ويقول علماء النفس ان مثل هذا الانجذاب والتعلق الذي يحدث بين أفراد الجنس الواحد سواء بين البنين والبنات طبيعي في مرحلة من مراحل نمو الانسان ونضجه الجنسي وانه لا يعد شذوذاً جنسياً.

ولكن الشذوذ هو أن يظل الانسان في هذه المرحلة ولا ينتقل إلى المرحلة التالية من النضج ويجد معه المتعة التي ينشدها.

لكن ضغوط المجتمع وتحريمه اتصال الفتاة بالجنس الأخر يشجعها على أن تتجمد مشاعرها عند هذه المرحلة وتصبح علاقتها ببنات جنسها ليست تلك العلاقة العاطفية المؤقتة وإنما علاقة عضوية جنسية تستبدل بها الرجل بالمرأة وتشعر بلذة الجنس مع النساء فحسب.

ولأن المرأة أكثر تعرضاً لضغوط المجتمع من الرجل فهي أكثر تعرضاً للاصابة بالشذوذ الجنسي. ولكن الاحصاءات والبحوث العلمية لم تثبت ذلك لأن معظم هذه البحوث تكرس لخدمة الرجل ودراسة الانحرافات أو العجز الذي يمكن أن يحدث له. أما المرأة فقلما يتحمس العلماء لدراسة أسباب الانحرافات أو العجز أو البرود الجنسي الذي تتعرض له كثيراً.

والسبب في ذلك واضح. فإن أهمية المرأة في نظر المجتمع ترتكز على انجابها للأطفال، وحيث أن برود المرأة الجنسي لا يحول دون انجابها للأطفال فإن المجتمع لا يهتم ببرودها ويقابله ببرود أشد.

الانجاب هو كل ما يهم المجتمع لأثره المباشر على مصلحة المجتمع.

الاقتصادية. وأوضح دليل على ذلك هو ما يحدث في حالتي تحديد النسل أو اطلاقه بدون تحديد. فحينما يعاني المجتمع من نقص في السكان وبالتالي في الأيدي العاملة اللازمة للإنتاج فانه يكرس جهوده لاكتشاف وسائل زيادة الاخصاب وعلاج أسباب العقم عند النساء فاذا ما زادت الأيدي العاملة عن حاجة الانتاج وهدد المجتمع اقتصادياً زيادة السكان فانه يكرس جهوده لاكتشاف وسائل لمنع الحمل وتعقيم النساء.

أما ان معظم النساء لا يشعرن في حياتهن الزوجية الطويلة باللذة الجنسية الكاملة فهذا لا يهم المجتمع في شيء.

وقد استردت المرأة بعض حقوقها في البلاد المتقدمة ولهذا أصبحت البحوث في السنوات الأخيرة تتجه لدراسة أسباب البرود الجنسي عند المرأة أو الشذوذ الجنسي أو غيرها من الانحرافات التي تتعرض لها المرأة. ولعل هذا يفسرلنا سبب ازدياد حالات الشذوذ الجنسي بين النساء. اذ الحقيقة ان هذه الزيادة ليست بسبب الحرية التي نالتها المرأة ولكنها بسبب ازدياد البحوث التي تهتم بالنساء، فالحرية التي تستردها المرأة شيئاً فشيئاً لا شك تساهم في علاج الكبت الذي تعاني منه المرأة وتعالج معه كل أنواع الأمراض والانحرافات ومنها الشذوذ الجنسي.

وقد كان العلماء في بحوثهم عن أسباب الشذوذ الجنسي عند الرجال يهملون المجتمع وضغوطه وينشغلون بالأسباب البيولوجية للشذوذ. ولعل آخر اكتشافاتهم في هذا المضمار هو ان انخفاض نسبة هرمون الذكورة في الدم (بسبب كسل ما في خلايا «لايدك» الموجودة بالخصية) يؤثر على مركز في المخ مسؤول عن العلاقات الجنسية، فيصبح الرجل أكثر ميلاً للرجال.

وحيث انه لا يوجد شيء في الانسان يمكن تفسيره بيولوجياً فحسب لذلك فان الفصل في أي بحث بين الأمور البيولوجية والأمور الاجتماعية تنتهي به إلى أن يكون بحثاً فردياً. والأفضل للعلماء اقتصاداً للجهد والوقت والمال ان يبحثوا داخل المجتمع عن أسباب الشذوذ أكثر من بحثهم داخل خلايا الانسان، فالجنس ليس وظيفة لا إرادية مستقلة بذاتها عن البيئة من حولها، والشذوذ الجنسي كالضعف الجنسي ظاهرة من ظواهر توقف نمو الشخصية بسبب ضغوط المجتمع.

وقد أثبتت أبحاث وتقارير أزوالد شوارز ان حالات الشذوذ الجنسي بين الذكور غير موجودة تقريباً في المدارس المختلطة التي تجمع بين الجنسين، كما اتضح ايضاً

زيادة حالات الشذوذ داخل السجون والمعتقلات وبين الجنود وفي المدارس الداخلية وغير ذلك من الظروف التي يفصل فيها بين الرجال والنساء.

وهذا شيء طبيعي لا غرابة فيه، فالطاقة الجنسية عند الانسان قوية، لا تفقد ولا تضيع، ولا بد لها من طريق تصرف منه لتعود وتولد من جديد. فاذا وجدت الطريق الطبيعي مسدوداً انحرفت الى طريق آخر. اذا لم يجد الانسان الجنس الأخر اتجه إلى نفس الجنس، واذا لم يجد نفس الجنس في حالة الانعزال عن الناس استعاض بنفسه عن الآخرين ومارس العادة السرية. وفي حالات الحرمان القصوى قد يلجأ الانسان الى الحيوانات وبالذات في الريف حين يسكن الحيوان مع الانسان بيتاً واحداً، وفي حالة الأرامل العجائز حين لا تجد المرأة إلا كلبها العزيز الوفي.

* * *

إن الانسان مهما ورث من صفات فإن الصفات التي يكتسبها من البيئة المحيطة به وعن طريق التربية هي التي تكون صفات شخصيته وشكلها النهائي. ولهذا لا بد لنا أن ندرك أهمية التربية الصحيحة منذ الصغر. وقد أثبت علم الوراثة الحديث أن الصفات المكتسبة عن طريق التربية تورث من جيل إلى جيل، وأن الإنسان عن طريق التربية منذ الصغر يمكن أن يكتسب صفات جميلة نفسية وجسمية واجتماعية وأن يورثها لأطفاله. وكما قال عالم الوراثة الروسي ميتشورين: إننا يمكننا التدخل في تحسين نوع الإنسان ومورثاته ونصنع أجيالاً أفضل دائماً. فلا ينبغي لنا أن ننتظر الحسنات من الطبيعة بل علينا ان ننتزعها انتزاعاً وندفع الإنسان الى التغير إلى الأفضل.

الطبيعة بريئة

يختلط على كثير من الناس الأسباب التي من اجلها يضع المجتمع المرأة في مرتبة أقل من الرجل، ويفرض عليها قيوداً وضغوطاً لا يفرضها على الرجل، ويحدد لها دوراً معيناً في الحياة يرتكز أساساً على الخدمة بالبيت ورعاية الأطفال.

وقليل جداً من الناس من يدرك الأسباب الحقيقية وراء تلك الفروق الضخمة التي يضعها المجتمع بين الرجل والمرأة ويدعي أن الطبيعة هي التي وضعتها.

لكن الحقائق العلمية تثبت ان هذه الفروق بين الرجل والمرأة فروق صناعية من صنع المجتمع بدليل أنها تتغير من مجتمع إلى مجتمع ومن عهد إلى عهد ومن نظام إلى نظام. ثم إن علوم الطب والتشريح والفسيولوجيا والبيولوجيا تثبت ان الانسان مزدوج الجنس (بايسيكسوال) وانه ليس هناك من هو ذكر ١٠٠٪ أو من هي أنثى ١٠٠٪، وكل رجل داخله امرأة وكل امرأة داخلها رجل، وان هرموني الذكورة والأنوثة يفرزان في كل من الرجل والمرأة، لكن نسبة هرمون الأنوثة تزيد في المرأة، وفي الرجل تزيد نسبة هرمون الذكورة، وان هذه النسب تختلف من شخص إلى شخص، ومن سن إلى سن، ومن وقت إلى وقت. وقد أثبتت الحقائق العلمية النفسية ان الانسان ليس مزدوج الجنس بيولوجياً فحسب، ولكنه مزدوج الجنس أيضاً من الناحية النفسية والوجدانية، وقد وصف نيومان (١٩٥٤) نوعين من الشعور داخل الانسان: الشعور الأبوي، والشعور الأموي وان لكل انسان امكانيتين احداهما ذكرية والأخرى انثوية، ويفصح كل جنس من الجنسين عن الامكانية التي حددها له المجتمع، بينما تبقى الامكانية الأخرى كامنة في نفسه. ومعنى ذلك أن الرجال يظهرون صفاتهم الذكورية

ويخفون صفاتهم الأنثوية، وكذلك النساء يظهرن صفاتهن الأنثوية ويخفين صفاتهن الذكرية.

وقد خرجت ليتلجون وماكوبي (١٩٦٣) من أبحاثهما العلمية بأن النساء المبدعات ذوات القدرة على الخلق والابتكار يُظهرن ميولاً ذكرية وكذلك المبدعون من الرجال يظهرون ميولاً أنثوية، وذلك لأن هؤلاء الأشخاص الممتازين سواء كانوا نساء أو رجالاً يشعرون بقدرة على الخروج على تقاليد المجتمع، ولا يعانون من الكبت الذي يعاني منه غيرُ المبدعين.

وقد خرج بارون (١٩٥٧) من دراساته العلمية بأن كثيراً من الناس يضحون منذ الطفولة بنبوغهم وقدراتهم الابداعية وذلك من أجل اخفاء احدى الامكانيتين الذكرية والأنثوية، والمحافظة على صفات جنسهم ذكوراً كانوا أو اناثاً.

وكتبت كارين هورني تقول: (إن ازدواجية الجنس عند الانسان تظهر في الأطفال بوضوح أكثر من غيرهم، لأنهم لا يدركون كالكبار تحديد جنسهم. وقد ترى عند بعضهم رغبات جنسية مزدوجة ساذجة وبريئة، فتشعر البنت أحياناً أنها ولد، ويشعر الولد أنه بنت. لكن المجتمع يحدد لكل منهما صفاته ودوره فيكبت الولد شعوره بالأنوثة وتكبت البنت شعورها بالذكورة). ولهذا فان الرغبات الذكورية التي تظهر على البنت أحياناً ليس لأنها تحسد أخاها الذكر (كما قال فرويد) لأنه يمتلك عضو التناسل، ولكن لأن هذه الرغبات موجودة فعلاً بالطبيعة في كلا الجنسين. ونحن لا نرى بوضوح رغبة الولد في أن يكون بنتاً لأن المجتمع يميز الذكر وبذلك يصبح من العسير على الولد أن يترك ميزاته ليصبح بنتاً، أما البنت فان ميزات الذكر الاجتماعية تشجعها على اظهار ميولها الذكرية.

وإذا كان الجهاز التناسلي يختلف في بعض اجزائه ووظائفه في المرأة عن الرجل فانه يتشابه في البعض الآخر وذلك بسبب ان اعضاء الرجل هي اعضاء المرأة من حيث الأصل التشريحي. لكن عضو التناسل عند الرجل زاد في نموه وحجمه عن عضو المرأة الذي ظل صغيراً ليكون البظر. وأعضاء المرأة الخارجية الأخرى يقابلها كيسا الرجل الخارجيتان. والخصيتان هما المبيضان ولكنهما هبطا من البطن إلى ما بين الفخذين وهكذا.

وإذا كانت وظيفة الخصية هي إفراز الحيوانات المنوية ووظيفة المبيض هي إفراز

البويضة وان الجنين ينمو في رحم المرأة وليس في رحم الرجل فليس هذا الاختلاف في وظيفة عضو من الأعضاء مبرراً لكل هذه الفروق الضخمة التي وضعت بين الرجل والمـرأة. وبالمثل فان الزيادة في نسبة الميلانين بجلد الزنوج ليست مبرراً للفروق الضخمة التي وضعت بين البيض والسود.

ومن حيث البيولوجي والفسيولوجي والتشريح فقد يختلف الرجل عن الرجل أو المرأة عن المرأة فلكل انسان جسمه الخاص به كالبصمة ولا يمكن لمجتمع عادل ان يفرق بين الناس في حقوقهم الاجتماعية وواجباتهم بسبب اختلاف ما فسيولوجي أو بيولوجي لعضو من اعضائهم.

وإذا كانت المرأة هي التي تحمل الجنين تسعة أشهر في رحمها قبل ان تلده فليس معنى ذلك ان يصبح دورها الوحيد في الحياة هو الحمل والولادة. واذا كان الرجل هو الذي يحمل الخصية التي تفرز الحيوانات المنوية فليس معنى ذلك أن يصبح دوره الوحيد في الحياة هو إفراز الحيوانات المنوية واخصاب المرأة. لا يمكن ان يعيش الانسان حياته كلها ليلعب دوراً وحيداً يقوم به عضو واحد من اعضائه. لا يمكن ان تعيش المرأة كرحم فحسب وكذلك لا يمكن ان يعيش الرجل كخصية، وإلا كان معنى ذلك تعطيل وإبطال كافة الأجهزة والأعضاء الأخرى.

ويثبت علم الجينـات والكـرومـوسـومـات ان الضعف والسلبية اللذين ينسبهما المجتمع إلى طبيعة المرأة ليس لها اساس علمي بل انه يتضح ان تكوين المرأة من الناحية الجسمية يعطي المرأة فرصاً اكبر من الرجل من حيث متانة التكوين أو الايجابية في الحياة. وبالتالي فان فكرة سيادة الرجل على المرأة لأنه الجنس الأقوى أو الايجابي ليست إلا من صنع المجتمع.

إن عدد الذكور الذين يولدون في كل انحاء العالم يفوق عدد الاناث (١٠٦ ذكر لكل ١٠٠ انثى) ومع ذلك فان عدد الذكور يتساوى مع عدد الاناث عند سن الخمسين في البلاد الصناعية المتقدمة. اما في البلاد الزراعية المتخلفة نسبياً فان عدد الذكور يتساوى مع عدد الاناث عند سن الخامسة والعشرين.

إن هذا الارتفاع في نسبة الوفيات عند الذكور مقارناً بالاناث يؤدي إلى انه في سن الثمانين لا يبقى على قيد الحياة سوى سبعين رجلاً لكل مائة امرأة.

ولو عرفنا ان جنس المولود يتحدد عن طريق الحيوانات المنوية، وان السائل المنوي يحتوي على عدد متساوٍ من الحيوانات المنوية ذات الصفات الذكرية او الصفات الأنثوية فإنه من المفروض ان يولد عدد متساوٍ من الذكور والاناث في اي مكان وزمان.

ولكن عند دراسة حالات الإجهاض اتضح ان نسبة الأجنة الذكرية تفوق بكثير الأجنة الأنثوية. وهكذا عند الولادة نجد ان عدد المواليد الذكور يفوق عدد الاناث بنسبة تتراوح بين (١٢٠ و ١٥٠) ذكرا مقابل (١٠٠) انثى. وترجع هذه الكثرة في المواليد الذكور إلى محاولة الطبيعة تعويض الكثرة التي تحدث في وفيات الذكور في كل مرحلة من مراحل العمر. اي انها عملية تعويض طبيعية تهدف إلى سد الثغرة الناتجة عن ضعف الذكور النسبي امام المرض والموت.

وقد اثبت العلم ان عمر المرأة اطول من عمر الرجل بنسبة سبع سنوات في المتوسط، وقد فسر عمر الذكر النسبي بأن الرجال يتحملون من أعباء الحياة اكثر مما تتحمله النساء. ولكن اتضح خطأ هذا التفسير بعد اجراء بحث استقصائي بين ثلاثين الف راهبة وعشرة آلاف راهب يعيشون نفس الظروف المادية والاجتماعية والمعنوية، فقد اتضح من هذا البحث أيضاً ان عمر الاناث يفوق عمر الذكور بسبع سنوات في المتوسط، وهي نفس المدة التي لوحظت بين الناس العاديين.

فما هو السبب إذن في طول عمر المرأة؟

إن التقدم الذي حققه علم الوراثة في الانسان، والدراسات التي أجريت على أنواع مختلفة من الحيوانات أوضحت ان ضعف الذكور النسبي (مقارناً بالاناث) أمام المرض والموت قد نتج من الفارق بين التراث الوراثي في الذكر والتراث الوراثي في الأنثى. ويتكون التركيب الوراثي للانسان من اربعة وعشرين زوجاً من الجزئيات الوراثية تسمى الكروسومات. وهي توجد في نواة جميع الخلايا التي يتشكل منها جسم الانسان. ولو اننا نظرنا إلى احد هذه الخلايا من خلال عدسة مكبرة تزيد من حجم الخلية ٢٠٠٠ مرة لرأينا داخلها هذه الكروموسات على شكل خيوط رفيعة، منها ثلاثة وعشرون زوجاً يتكون كل منها من كروموسومين متشابهين تمام التشابه وتسمى هذه الأزواج المتشابهة بالاتوسومات، (أو الكروموسومات الجسمية غير الجنسية)، وتتشابه كلها في الذكر والأنثى. أما الذي يحدد جنس الجنين (ذكراً أو أنثى) فهو الزوج الرابع

والعشرون ويسمى زوج الكروموسوم الجنسي، وهو يشبه الاتوموسومات شكلاً ولكن يختلف في وظيفته لأنه هو الذي يحدد الذكر من الأنثى.

وقد وجد ان هذا الزوج في خلية الانثى يتكون من كروموسومين متشابهين اطلق عليهما (× ×)، اما خلية الذكر فهي تحتوي على كروموسوم (×) واحد فقط أما الكروموسوم الثاني فهو اصغر حجماً (١ / ٥) حجم الكروموسوم × وسمي كروموسوم (Y)، كما انه يحتوي على عدد أقل من خيوط المادة الوراثية التي تتحكم في مختلف العمليات البيولوجية، ووظيفته أقل ايجابية من الكروموسوم (×). وبالتالي فانه حين يخصب الحيوان المنوي الذي يحمل كروموسوم (Y) البيضة فانه يضعف نسبة الأنوثة المطلوبة لإحداث جنين أنثى، وهكذا يرث الجنين الذكر مع ذكورته عدداً من الصفات المرتبطة بجنسه والتي تضعفه عن الأنثى أو تشوهه.

إن ظهور الشعر الغزير في مناطق متعددة من جسم الرجل قد يكون مشوهاً في بعض الأحيان. وقد اتضح ان الضعف النسبي للذكور امام المرض والموت مرتبط إلى حد كبير بالكروموسوم الذكري (Y) الصغير والسلبي نسبياً. وان كل تغير او تشوه يصيب احد الخيوط الوراثية في الكروموسوم له انعكاسات متباينة الخطورة على العمليات الكيماوية الحيوية (التحليل والتمثيل) في الخلايا، وبالتالي على مختلف أجهزة الجسم الانساني. وان التحكم في العمليات الكيماوية الحيوية يتم عن طريق الأنزيمات والخيوط الوراثية التي تسمى أيضاً «جينات» والتي تسيطر على تكوين الانزيمات.

وحيث ان الخلايا في الأنثى تحتوي على زوج من الكروموسومات الجنسية من النوع (×) فإن أي نقص أو تشوه يصيب الجينات في أحد هذين الكروموسومين يمكن أن يعوض بسهولة عن طريق الجينات الطبيعية الموجودة في الكروموسوم الآخر. ولكن اذا حدث أي نقص أو تشوه في تكوين أو وظائف الجينات الذكرية الموجودة في الكروموسوم (Y) فانه يستحيل تعويضه لعدم وجود كروموسوم آخر من نفس النوع في الذكر.

وقد ينتج عن ذلك ظهور قصور عضوي، أو وظيفي بسبب غياب بعض الانزيمات الاساسية أو تكوين أنزيمات غير سليمة. ومن هنا حدوث بعض الامراض الوراثية المرتبطة بجنس الذكور مثل مرض الهيموفيليا (النزف الوراثي الناتج عن عدم تجلط الدم) وهو مرض ينتقل عن طريق كروموسوم الأنثى ويصيب الاطفال الذكور فقط لعدم وجود الكروموسوم المعوض. ولنفس السبب تحدث الامراض الوراثية الأخرى في

الـذكور مثل مرض عمى الألوان، وبعض أنواع الأنيميا والضمور العضلي وغيرها. ويصل عدد هذه الأمراض الوراثية إلى مائة، وهي جميعاً تصيب الذكر دون الأنثى.

ومن المحتمل أن ضعف مقاومة الرجال النسبي إزاء أمراض الدورة الدموية ينبع من هذه الظواهر الوراثية أيضاً.

إن جهاز الغـدد الصماء يلعب دوراً هاماً فيما يتعلق بأمراض الدورة الدموية، فالخصيتان في الذكر تفرزان هرمون الذكورة (التستو ستيرون) تحت التأثير المستمر للمراكز المخية العليا والجزء من المخ المسمى الهيبوثالاماس (تحت السريرين) والذي يتحكم في الانفعالات البدائية وفي جهاز الغدد الصماء. أما في الانثى فان المبيض يفرز هرمونين اثنين احدهما هرمون الاستروجين والثاني هرمون البروجسترون.

ومن المسلم به الآن ان هرمون الاستروجين يمارس نوعاً من الحماية لجهاز الدورة الدموية كما يتضح من الانخفاض المفاجىء لقدرة المرأة على مقاومة امراض الدورة الدموية عند وصولها الى سن انقطاع الطمث وهذه الظاهرة ملحوظة في المرأة في هذه السن وعلى الاخص في حالات السكتة القلبية «التي تصيب الرجال من كل الاعمار» ولكنها لا تصيب النساء إلا في الفترة التي تلي انقطاع الطمث. ومن ناحية اخرى فهناك من يرى أن بعض الصفات الذكرية مثل الميل الى العدوان ترتبط بالتكوين الهرموني للذكر. وقد أجريت بعض التجارب في هذا الشأن، وحقنت بعض الاناث من الحيوانات بهرمون التستوسترون الذكري فنتج عن ذلك سلوك عدواني في هذه الاناث.

وبرغم سلامة مثل هذه التجارب من الناحية العلمية البحتة إلا ان العلم الحديث اصبح يتشكك في مثل هذه التجارب المعملية، حيث أن عنصر العوامل البيئية والتربوية غير متوافر فيها. ومما لا شك فيه أن صفات الانسان وسلوكه في الحياة يتحدد حسب التربية التي يتلقاها منذ الطفولة وحسب الضغوط الاجتماعية التي يتعرض لها وليس حسب نسب الهرمونات التي تجري في دمه، بدليل ان النساء الامريكيات أكثر ميلاً للعدوان من الرجال في بعض البلاد الاخرى.

إن علم البيولوجي الحديث أوضح أن المرأة أقوى بيولوجياً من الرجل. أما القوة العضلية التي ارتبطت بالحياة القبلية فمما لا شك فيه ان الرجل كان يعتبر متفوقاً، لكنه اتضح ان هذا التفوق في القوة العضلية كان يرتبط بوظيفة الرجل في الحياة أكثر من ارتباطه بتكوين الرجل البيولوجي، بدليل أن الرجل المثقف في المدينة أقل من ناحية

القوة العضلية من العامل الزراعي في الريف والفلاحة المصرية أقوى من الناحية العضلية من الموظف القاهري.

هذا وان القوة العضلية في ظل المجتمع العصري لم تعد لها أهمية خاصة. فالانتصار في الحروب الحديثة لم يعد مرتبطاً بقوة الانسان العضلية، بل على العكس أصبحت عوامل التفوق الذهني والتقدم التكنولوجي في وسائل الإبادة الجماعية هي العنصر الحاسم. وفي حروب أخرى كحرب فيتنام يرتكز الانتصار على الايمان العميق بقضية عادلة.

وتشير نتائج البحوث الطبية الاجتماعية الحديثة ان تفوق الرجال على النساء لم يكن إلا اشاعة من صنع الرجال أنفسهم، فالأطفال الذكور هم الضحايا الأساسيون في الحوادث القاتلة التي تصيب قطاع الناس الذين يقل سنهم عن ١٥ سنة (٦٨٪ من هذه الحوادث تصيب هؤلاء الأطفال الذكور). أما في البالغين فان النساء لا يتحملن سوى مسؤولية ١٠٪ من حوادث الطرق، و٦٪ من الحوادث القاتلة أثناء قيادة السيارات مع اجراء المقارنة على نفس المسافات كما انهن لسن مسؤولات إلا عن نسبة ضئيلة جداً من حالات التشرد والإجرام: ١,٥٪ من الأحكام التي تصدر بالحبس بالسجن، ١٠٪ من الغرامات أو الأحكام بوقف التنفيذ، أقل من ٣٪ من الجنح الخاصة بالسكر، وذلك مقارنة بالرجال الذي ينتمون إلى نفس المهن والبيئة التعليمية والاجتماعية.

وإن حالات الانتحار بين الرجال تفوق عدد الحالات بين النساء بمقدار يصل إلى ثلاثة أو خمسة اضعاف حسب اختلاف البلاد. وان عدد مدمني المشروبات الروحية بين الرجال يصل إلى خمسة عشر ضعف الحالات المسجلة وسط النساء.

ورغم صفات الضعف والعاطفية التي الصقت بالمرأة فإن النساء يتحملن ظروف التهجير والغارات أكثر من الرجال. وقد لوحظ ان الأمراض النفسية العضوية (أمراض جسمانية تنتج عن عدم التكيف إزاء الضغوط الاجتماعية والعاطفية) لا تصيب النساء بنفس القدر الذي تصيب به الرجال. إن عدد حالات الإصابة بقرحة في المعدة في الرجال تصل إلى ثلاثة اضعاف مثيلاتها في النساء. كما أن الرقم يصل الى خمسة اضعاف في حالات السكتة القلبية.

ومن المعروف ان المرأة تتعرض أكثر من الرجل لظروف اجتماعية قاسية ولاضطرابات نفسية بسبب الدورة الشهرية وانقطاع الطمث الذي يؤثر على المراكز

العصبية المرتبطة بالغدد الصماء ومع ذلك فان عدد الرجال الذين يعالجون في مستشفيات الأمراض العقلية والنفسية يفوق كثيراً عدد النساء. ورغم دخول أعداد كبيرة من النساء في مضمار الحياة العامة والعلم فإن شيئاً لم يتغير في هذا الوضع. ولا يزال عدد الرجال الذين يهربون من الحياة إلى المخدرات أو الانتحار أو الإجرام أكثر بكثير من النساء، برغم ان المرأة أصبحت تتحمل في الحياة أعباء مضاعفة بعملها داخل البيت وخارجه وفي الظروف الاجتماعية السيئة نفسها التي تحرمها من كثير من الحقوق التي يتمتع بها الرجل. ويقول بعض العلماء: إن الجهاز المخي والعصبي يصبح أكثر عرضة للإصابة بالخلل كلما كان أكثر تطوراً لأنه يصبح أكثر حساسية. ويدعون بذلك ان المرأة تتمتع بقدرة أكبر على التحمل لأن جهازها المخي والعصبي أقل تطوراً، وهذا ادعاء غير علمي لأن الجهاز المخي والعصبي في الرجل لا يختلف عنه في المرأة، وقد أثبتت الاحصاءات والبحوث العلمية التي أجريت في بعض المدارس الابتدائية ان البنات عامة أكثر ذكاء من البنين وانهن يحصلن على درجات أعلى في التحصيل والذكاء وقوة الذاكرة.

وفقاً لابحاث بعض العلماء مثل جيسيل وتيرمان فإن الأطفال البنات يتكلمن قبل الأطفال الذكور وان البنات يتقدمن في النمو أسرع من الأولاد. وقد قال بعض العلماء ان تفوق البنات على البنين في الدراسة ليس بسبب تفوق الذكاء وإنما بسبب تربية البنت الصارمة التي تفرض عليها النظام والطاعة وعدم الخروج من البيت فتعطي وقتاً أكبر للمذاكرة. ويؤكد هذا ان بعض علماء النفس أثبتوا ان امتياز البنات على البنين في المراحل الاولى من التعليم لا يستمر إذ أن القوى العقلية للبنت تهبط في مرحلة البلوغ وما بعدها بسبب الكبت الذي تبدأ البنت في المعاناة منه بسبب التربية الصارمة نفسها والصراعات والتناقضات والضغوط التي يفرضها عليها المجتمع.

وقد أثبتت مارجريت ميد في أبحاثها ان المجتمع وليس الطبيعة هو الذي يحدد ميول الأطفال ويشكلها منذ الصغر سواء كانوا ذكوراً أو اناثاً. وقد أجرت مارجريت ميد تجربة علمية طريفة في جزيرة مانوس بغينيا الجديدة، وأثبتت خطأ الرأي الشائع بأن حب الأطفال البنات للعب بالدمية «العروسة» سببه دوافع أنثوية طبيعية، وعدم اهتمام الأطفال الذكور بهذا النوع من اللعب إنما سببه اختلاف بيولوجي أساسي في استجابتهم الوجدانية. وقد اختارت مارجريت ميد هذه الجزيرة لأن اللعب بالدمى لم يكن معروفاً بها. وعندما قدمت مارجريت ميد بعضاً من هذه الدمى إلى مجموعة من

الأطفال الذكور والاناث كان الذكور وليس الاناث هم الذين اهتموا بها، بل راحوا يغنون لها ويهدهدونها لتنام كما تفعل البنت مع دميتها في مجتمعنا. وقد فسرت مارجريت ميد السبب في ذلك، وهو ان عادات وتقاليد جزيرة مانوس تقتضي أن يتولى الرجال (لما لديهم من وقت فراغ) رعاية الأطفال. على حين تنشغل النساء بالعمل خارج البيت.

وقد حاول بعض العلماء في السنوات الأخيرة معرفة أثر الجنس على المخ. فمن المعروف ان هرمونات الجنس تدخل المخ مع الدم. لكن البحوث العلمية حتى الآن لم تثبت وجود أي علاقة بين هذه الحقيقة الفسيولوجية وبين القدرة الفكرية أو السلوك.

وكان البعض يعتقد ان قدرة المرأة الفكرية أقل من الرجل لأن مخها أقل وزناً من مخه لكن اتضح خطأ هذا المفهوم بعد أن ثبت أن وزن مخ المرأة بالنسبة لوزن جسمها أثقل من وزن مخ الرجل بالنسبة لوزن جسمه.

ثم اتضحت حقيقة أهم من هذا كله وهي أن وزن المخ لا علاقة له بالقوة الفكرية.

ويعتقد بعض العلماء ان المرأة أذكى من الرجل لأن الفص الامامي من مخها (والذي يعتبر مركز الذكاء) أكثر تطوراً منه في الرجل. على أي حال فإن المخ لم يعرف معرفة كاملة. ولم يستطع العلم بعد أن يكشف عن أسرار وظائفه.

ومن حيث النبوغ والعبقرية والابتكار فليس هناك بحوث تثبت أن الرجل أكثر عبقرية من المرأة. ولكن عدد الرجال النابغين يفوق عدد النساء بسبب الظروف الاجتماعية التي تعيشها النساء والتي تحول بينهن وبين النبوغ. وكما قالت ماري استيل: «يجب على الرجل ألا يفخر أنه أكثر نبوغاً من المرأة ما دام هو يحظى بفرص أكثر من التعليم العالي والعمل في الحياة الواسعة خارج البيت فكأنه يفخر بشجاعته لضرب رجل قيدت يداه وقدماه».

ويشير تورانس إلى أن قلة عدد النابغات من النساء ليس لفروق جنسية كما عرف خطأ، ولكن لأن الإبداع يتطلب الحساسية والاستقلال. وطبقاً لقيم المجتمع ونظمه فإن الاستقلال من ميزات الرجولة فحسب وعلى ذلك تفقد النساء الاستقلال وتفقد معه القدرة الإبداعية.

وفي علم النفس حقيقـة علمية تثبت وجود علاقة بين الكبت وانخفاض القدرة الفكرية في الانسان، وان القدرة على الابتكار والخلق تعتمد على انعدام الكبت. وكما قال «بارون»: «إن الاصالة تعتمد على تجاوب الانسان الحر لمشاعره». وحيث ان نصيب المرأة من الكبت منذ طفولتها حتى مماتها أضعاف نصيب الرجل فلا بد ان قدرتها الفكرية تنخفض بسبب ذلك الكبت.

كما أن انعزال المرأة عن الحياة داخل البيت وانشغالها بأعمال البيت والأولاد يحول بينها وبين التفرغ للأعمال والتدريبات اللازمة لتنمية قدرتها الفكرية أولاً بأول. وقد تطور علم النفس الخـاص بالمـرأة في السنـوات الأخيرة وأثبت علماء النفس خطأ المفاهيم التقليدية عن سيكولوجية المرأة. وقد كتب ديلياس يقول: (إن علم النفس الخاص بالمرأة ليس إلا رواسب رغبات الرجال وخيبة آمالهم).

وقد اتضح ان الفروق النفسية الضخمة التي وصفها فرويد بين الرجل والمرأة لا أساس لها من الصحة. ويقول هارولد كيلمان: «ان فرويد تربى في مجتمع رجالي، ونشأ في بيت كان فيه الرجل السيد والمرأة العبد». وقد أخطأ فرويد في فهمه للمرأة، واستخلص أفكاره عنها من الحالات المرضية التي كان يراها بين نساء أوروبا الخاملات العاطلات، ومن بعض مريضات وشواذ الطبقة البرجوازية في مجتمع فيينا المتآكل، وحكم فرويد بهذه الأفكار الشاذة على جميع نساء العالم، وحكم بها عليهن من بعده جميع تلاميذه ومقلدوه، ومريدوه وتابعوه من أطباء النفس.

وتمثل عقلية فرويد عقلية القرن التاسع عشر حين كان العقل البشري في بداية تفتحه ومعرفته بالعلوم الطبيعية، ولم يكن أدرك بعد أثر المجتمع والظروف في نفس الانسان. وأخرج فرويد كذكر «علم نفس مذكر» يرتكز على ان مصير الانسان يتحدد حسب أعضائه التناسلية والتشريحية.

وترتكز أفكار فرويد عن نفس المرأة ان البنت تكتشف في طفولتها انها لا تملك عضو التناسل الذي يملكه أخوها فتشعر نحوه بالحسد. ويقول فرويد: «إن النساء لسن كمـا هن نسـاء، ولكنهن ذكـور، ينقصهن عضـو التناسل. وهن يرفضن قبول هذه الحقيقة، حقيقة أنهن مخصيات، ويعشن بأمل أنهن سيحصلن على عضو تناسل رغم أي شيء».

والمرأة السوية في نظر فرويد هي تلك التي تستبدل برغبة الحصول على العضو

رغبة الحصول على طفل وهو يعني بذلك ان الأمومة عند المرأة ليست إلا رغبة ثانوية بديلة عن الرغبة الأصلية وهي الحصول على عضو الذكر.

ويقول فرويد ان البنت تلقي اللوم على أمها في حرمانها من هذا العضو، ولهذا فهي تبتعد عن أمها وتقترب من أبيها بأمل الحصول على طفل. لكن سرعان ما تشعر بخيبة أمل في أبيها لأنه يخذلها ولا يحقق لها رغبتها في الحصول على الطفل، وبهذا تشفى من ميولها الأوديبية وتستسلم لدورها الأنثوي، وترضي أمومتها ودورها الجنسي عن طريق الألم وامتهان النفس وقبول الاغتصاب.

هذه هي سيكيولوجية المرأة السوية الطبيعية في نظر فرويد، أما المرأة غير السوية فهي تلك التي تعجز عن أن تستبدل برغبتها الأولى الرغبة الثانية، وتعيش في حسرة دائمة لأنها حرمت من عضو الذكر، وقد ترفض دورها كأنثى في الحياة رفضاً تاماً، أو قد تصبح ميولها ذكرية وتأخذ دور الذكر.

وقد أثبت كثير من العلماء خطأ هذه الأفكار، وتقول كارين هورني (وهي من أشهر طبيبات النفس في العالم): «إن البنت لا تحسد الولد لأنه يملك عضو التناسل، ولكنها تحسده للميزات التي يعطيها المجتمع الرجالي للذكر»، وتتفق كارين هورني مع هارولد كليمان وغيره من العلماء في أن الثقافة اليهودية والمجتمع الذي عاش فيه فرويد ترك بصماته على أفكاره. وتقول هورني: «ان الثقافة اليهودية كما وردت في التوراة ثقافة أبوية ذكرية وهذه الحقيقة تظهر في دينهم اليهودي حيث لا توجد إلهة أنثى أو إلهة أم، كالإلهة الأم القديمة. وفي قصة آدم وحواء أنكرت الديانة اليهودية قدرة المرأة على الإنجاب وأعطت هذه القدرة للرجل إذ قالت ان حواء ولدت من ضلع آدم، وأن لعنة قد ألصقت بحواء إلى الأبد ذلك أن تلد في الألم والأسى. وان حواء هي السبب في شقاء آدم لأنها أغرته بأن يأكل من شجرة المعرفة كإغراء جنسي»، وتعتقد كارين هورني أن الديانة اليهودية بهذه الأفكار هي التي أفسدت العلاقة بين الرجل والمرأة منذ العصور القديمة حتى الآن، وخلقت بينهما الكراهية والقلق ـ هذه الكراهية وهذا القلق اللذان بنى عليهما فرويد أفكاره.

ويتجه علم النفس الحديث إلى إلغاء كل تلك الفروق الضخمة المصطنعة بين نفسية المرأة ونفسية الرجل. ويرى بعض العلماء ان الانسان مزدوج الجنس نفسياً كما هو مزدوج الجنس بيولوجياً. وقد وصف نيومان نوعين من الشعور داخل الانسان:

الشعور الأبوي والشعور الأمومي وأن لكل إنسان إمكانيتين إحداهما ذكرية والأخرى أنثوية. ويرى بعض العلماء أن تكوين المرأة النفسي كتكوينها البيولوجي أكثر متانة من الرجل. وتعتبر المرأة في رأي هؤلاء الجنس الأقوى وليس الجنس الاضعف كما أشيع.

ولعل هذا الاعتقاد يتفق مع الاعتقاد البدائي بقوة المرأة، وقد كانت الإلهة القديمة هي الأم والأنثى. ولم تكن الإلهة الأم تمثل الأمومة الروحية ولكنها كانت تمثل الأمومة بمعناها الطبيعي البدائي. إن الأم الإلهة القديمة كانت إلهة الأرض، خصبة الأرض، تخلق الحياة الجديدة وتغذيها. إن هذه القوة الخالقة في المرأة وهي قوة بدائية هي التي ملأت الرجل بالإعجاب. ومن المعروف علمياً ان الانسان يعجز بحكم طبيعته البشرية أن يحتفظ بإعجابه بقدرة ما، دون الشعور بالكراهية لهذه القدرة، التي لا يملكها هو، ويملكها غيره. ومن المعروف أن الكراهية تولد الخوف أو أن الخوف يولد الكراهية، ولهذا فإن خوف الرجل من قوة المرأة قديم قدم الزمن، مدفون في اللاوعي يزداد حدة في فترة إخصاب المرأة، ويظهر بوضوح عند بعض القبائل البدائية.

إن بعض القبائل الافريقية تؤمن بأن المرأة اذا خطت فوق ساق رجل نائم فإنه يعجز جنسياً. وقبيلة أرونتا تعتقد أن المرأة يمكن بالسحر أن تجعل زوجها عاجزاً جنسياً وتسقط عنه أعضاءه التناسلية. وهناك حتى الآن اعتقاد في الريف المصري بأن المرأة قد تعمل سحراً لزوجها اذا هجرها فيعجز جنسياً. وان سكان ميري في البنجال لا يسمحون للنساء بأن يأكلن كالرجال لحم النمر خشية ان يصبحن قويات، وأن قبيلة واتاولا في شرق افريقيا يخفون سر عمل النار عن النساء خشية أن تحكمهن النساء، ويعتقدون ان الرجل الذي يلمس المرأة في فترة الحيض يسقط ميتاً. وهناك اكثر من الامثلة على شدة خوف الرجل من مظاهر إخصاب المرأة كالحيض والحمل والولادة. وهناك فكرة واحدة وراء كل هذا الخوف وهو أن المرأة كائن له قوة غامضة قادرة على الاتصال بالأرواح وقادرة على السحر وإيذاء الرجل.

وكان من الطبيعي ان يقاوم الرجل خوفه من المرأة بوسائل شتى، منها ازدراء صفات المرأة البيولوجية الطبيعية كالحيض والحمل والولادة، وتحقير أعضاء المرأة وتمجيد أعضاء الرجل الى غير ذلك من الاساليب الدفاعية التي يلجأ اليها الخائف ضد الشيء الذي يخيفه. وتركز خوف الرجل من المرأة في الناحية الجنسية بالذات، لأنه أثناء الجنس يسلم عضوه التناسلي لها فاذا بها تسحب منه سائله المنوي وتسحب معه

صلابته ثم تتركه هامداً بغير الصلابة التي كان عليها. ومن هنا الاعتقاد الشائع بأن المرأة تسحب قوة الرجل أثناء الجنس. وفي الأساطير الافريقية، إن المرأة هي التي تسبب الموت في العالم. وكذلك الاعتقاد بان الأم الإلهة القديمة هي التي كانت تبعث الموت والدمار. وكأنما أدرك الانسان البدائي ان الذي يصنع الحياة هو القادر على أخذها.

وكم يدلنا التاريخ القديم على حقائق غريبة تلقي ضوءاً على تلك الأفكار التي أحاطت بعلاقة الرجل والمرأة والمفاهيم الخاطئة عن المرأة جسداً أو نفساً. وقد كان فرويد بغير شك أحد هؤلاء الرجال الذين عانوا من خوفهم القديم الدفين من المرأة، ولأنه كان عبقرياً فقد صنع من خوفه حقائق علمية لم يكتشف خطؤها للأسف إلا مؤخراً.

الأسباب الحقيقية

لم تعد الأسباب الحقيقية التي دعت المجتمع الى خلق الفروق الضخمة بين الرجل والمرأة خافية على هؤلاء الذين يقرأون التاريخ ويدرسون حركة التطورات الاجتماعية والاقتصادية ، تاريخ البشرية منذ وجد الانسان حتى أيامنا هذه .

ولست بصدد سردها وتحليلها من البداية حتى الآن ولكني سأسوق بعض الحقائق التي تكشف عن تلك الأسباب وعن أن المجتمع هو صانعها وليس الطبيعة.

في عهد الصيد وعهود ما قبل التاريخ كان الانسان البدائي ينتقل من مكان إلى مكان ليصيد طعامه، وكان الرجال والنساء يعيشون معاً ويتزاوجون، وحينما يولد الأطفال يصبحون أفراداً في القبيلة أو العشيرة بصرف النظر عن آبائهم أو أمهاتهم. ولم يكن الاخوة أو الاخوات هم أبناء أو بنات أب واحد أو أم واحدة. كانوا جميعاً أبناء القبيلة بالتساوي. وكانت المرأة تتزوج عدداً من الرجال والرجل يتزوج عدداً من النساء وأطلق «باكوفين» على هذا النوع من العلاقات المتعددة بالزواج الجماعي.

وقد توصل بعض الباحثين في عهود ما قبل التاريخ الى هذا النوع من العلاقات الجماعية التي كانت تخجل الباحثين لاعتقادهم انها كانت تدل على همجية الانسان البدائي وعدم تمدّنه. ولكن أحدهم وهو «ليتورنو» كان أكثر شجاعة وأمانة وقد استطاع أن يصف هذه العلاقات الجنسية. ويشرح «فردريك انجلز» في كتابه «أصل العائلة» كيف تطورت العلاقة الزوجية في عهود ما قبل التاريخ، وان تعدد العلاقات الزوجية ليس معناه انحطاط الانسان الأول وان الوحدانية في التزاوج ليس معناه سمو الانسان الحديث. وكتب انجلز «إذا كانت الوحدانية في التزاوج هي قمة الفضائل فلا بد أن اكثر الكائنات فضيلة هي الدودة الشريطية التي يشتمل كل جزء من أجزاء جسمها

(والتي تتراوح ما بين ٥٠ و٢٠٠ جزء) على جهازي التذكير والتأنيث» .

وكشف ليتورنو من أبحاثه العلمية في مختلف أنواع القرود والثدييات عن انه لا توجد علاقة في الثدييات بين درجة الذكاء وشكل العلاقة الجنسية .

وكان «بيكوفين» أول من اكتشف النظام الأمومي الذي كان يسود في العهود البدائية والبربرية. ففي هذه الأسر الجماعية لم يكن من السهل معرفة الأب، لكن الأم كانت معروفة لأنها هي التي تلد الأطفال، ولهذا نسب الأطفال إلى أمهاتهم وكانت الأم هي عصب العائلة.

وكانت المرأة تقوم بأكثر أعباء الحياة وكانت لها مرتبة أعلى من مرتبة الرجل وكانت العشيرة تحترمها احتراماً كبيراً.

ثم عرف الانسان تربية الماشية والأغنام ولم يكن يملك إلا البيت والملابس وأدوات للطعام وقوارب صيد وأدوات للزينة، ولم يكن ينتج إلا طعامه. لكن تربية الماشية والأغنام، ثم بعض الأعمال المعدنية البدائية والنسيج ثم زراعة الأرض جعلت انتاجه يزيد عن حاجته فتجمعت لديه بعض الثروة وأصبح مالكاً لأرضه.

ولأن تناسل الانسان لم يكن بالسرعة التي تتناسل بها الأغنام والماشية فقد بدأ المالك البدائي يشعر بحاجته إلى أشخاص آخرين ليعاونوه في الزراعة وتربية الماشية. وبدأ الانسان الأول يغزو القبائل الأخرى ويصطاد منها بعض الأسرى يسوقهم معه إلى أرضه وبيته ليكونوا خدماً وعبيداً.

ولم يستطع المالك البدائي أن يورث أبناءه أرضه لأن أولاده كانوا ينسبون إلى أمهاتهم وكانت الأرض تذهب إلى أقارب الأم بحكم قرابة الدم.

وحينما زاد الانتاج وزادت الثروة وزادت معها الملكية الخاصة فرض الرجل سيطرته أكثر وأكثر وانتزع من الأم حقها الأول لينسب أولاده اليه ويورثهم أرضه وأملاكه.

ويقول انجلز: ان ضياع حق الأم في النسب كان هزيمة النساء التاريخية الكبرى. فقد سيطر الرجل على البيت أيضاً وأصبحت المرأة عبداً له تقوم على خدمة شهوته وتكون أداة لانجاب أطفاله، وأعطى نفسه حق قتلها كما كان يقتل عبيده.

وبدأ النظام الأبوي يتطور أكثر وأكثر لصالح الرجل بطبيعة الحال. وفرض الرجل

على المرأة أن تكون له وحده حتى لا يختلط أولاده بأولاد الغير، وأعطى نفسه حق تعدد الزوجات والخليلات فأصبحت الوحدانية في الزواج فرضاً على المرأة وحدها.

ومن هنا نبعت القيم الاخلاقية التي تحكم على المرأة بالعفة والوحدانية في الزواج وتعطي الرجل حرية الاتصال بمن يشاء من النساء وتعدد الزوجات. وقيدت المرأة بالقوانين التي تسحب من أطفالها شرعيتهم إذا لم يعترف بهم أبوهم. سلب الرجل حق الأم في الجنين الذي ينمو في احشائها وجعل نفسه مالكاً لهذا الجنين، يمنحه اسمه فيصبح ابناً شرعياً يستحق الميراث ويستحق الحياة في المجتمع، أو لا يمنحه اسمه وينكره فيصبح طفلاً غير شرعي يحكم عليه المجتمع وعلى أمه بالموت أو الحياة الذليلة التي هي والموت سواء بسواء.

ويخفي المجتمع الدوافع الاقتصادية الاستغلالية التي نشأت بنشوء الملكية الخاصة والتي فرضت العفة على المرأة وليس الرجل، ويسوق دوافع اخلاقية. لكن الحقائق التاريخية والعلمية تثبت في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع أن القيم الاخلاقية والقوانين تخضع للضرورة الاقتصادية. وليس أدل على ذلك من التطورات التي حدثت في علاقة الرجل والمرأة بعد أن تغير المجتمع من الزراعة إلى التصنيع ومن التصنيع إلى عهد التكنولوجيا والآلات الحديثة. كذلك تغيرت علاقة الرجل والمرأة في بعض البلاد بانتقال المجتمع من الرأسمالية إلى الاشتراكية.

في الفترات الاولى لعهد التصنيع كان المجتمع فقيراً يعاني من انخفاض شديد في المستوى الاقتصادي للناس، وكانت ولادة الاطفال خارج الزواج تهدد المجتمع اقتصادياً. ولم تكن المرأة تعمل وتعول نفسها بل كانت عالة على الرجل، ولهذا اشتدت القيود الاخلاقية على النساء وحرمت العلاقة الجنسية خارج الزواج وأدانت الأطفال غير الشرعيين.

وحينما انتعش المجتمع اقتصادياً بتطور الصناعة وزادت الثروات وارتفع المستوى الاقتصادي والثقافي للناس وبالتالي انخفض عدد المواليد انخفاضاً مريعاً أصبح المجتمع يعاني من نقص في السكان فإذا به يتغاضى عن ولادة الاطفال بأي شكل سواء داخل الزواج أو خارجه.

وهذا هو ما يحدث الآن في بعض البلاد المتقدمة ومنها السويد. فقد سبب التطور الصناعي ارتفاعاً كبيراً في الثروات كما ان المدنية والتقدم الثقافي وخروج المرأة إلى

العمل قد أحدث هبوطاً كبيراً في عدد المواليد. وبسبب الازدياد المطرد في الثروات والقلة المطردة في عدد الايدي العاملة والسكان فقد اضطر المجتمع السويدي مثلاً إلى دفـع مكافآت للأم التي تلد طفلاً سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة. وهكذا حصلت الأم غير المتزوجة على مكافأة المجتمع عن طفلها الوليد بدل العقاب القديم وتمتع الطفل غير الشرعي بجميع الحقوق التي يتمتع بها الطفل الشرعي.

وهناك عامل اقتصادي آخر هو خروج المرأة للعمل خارج البيت، ولم يسمح لها المجتمـع بذلـك الـدور الجـديد خارج البيت الـذي قيدها به إلا بسبب الضرورة الاقتصادية التي نشأت مع التصنيع. فقد أصبح المجتمع في أشد الحاجة إلى الأيدي العاملة وبالذات في فترات الحروب حين كانت الحروب تسحب كثيراً من الأيدي العاملة من الرجال، واضطر المجتمع إلى الاستعانة بالنساء بل والأطفال أيضاً. ولم تحظ النساء بطبيعة الحال في مثل ذلك المجتمع الاستغلالي بالمساواة مع الرجال في الاجور أو حقوق العمل الاخرى، لكنها تحررت من الانغلاق داخل البيت، وتحررت من كونها عالة على الرجل، وأصبحت قادرة على اعالة طفلها الذي تلده سواء اعترف به الرجل أو لم يعترف. ومن هنا حصلت المرأة في كثير من البلاد الصناعية المتقدمة على حقها الطبيعي القديم في منح اسمها لطفلها. ولم تعد مثل هذه المجتمعات تفرق بين الاطفال الحاصلين على اسماء أمهاتهم وهؤلاء الحاصلين على أسماء آبائهم سواء داخل الزواج أو خارجه. وفي بعض البلاد يحصل الطفل على أسمي الأب والأم معاً ثم يختار من بعد الاسم الذي يفضله لنفسه.

وقـد ينـدهش بعض النـاس حين يدركون أن القيم الاخلاقية تتغير وتتبدل في المجتمـع حسب الضـرورة الاقتصادية، بل لعلهم يندهشون أكثر حين يدركون ان الحقائق العلمية ذاتها تتغير بتغير النظام الاجتماعي والاقتصادي. وقد لا يكون غريباً أن تتغير بعض النظريات والحقائق في العلوم المتصلة بالنظام الاجتماعي كعلم القانون أو علم المجتمع أو علم الاقتصاد، ولكن أن تتغير الحقائق والنظريات العلمية في علوم مثل الطب أو علم النفس فهذا يدل على ان العلم في المجتمعات الاستغلالية يستغل أيضاً ويصبح رجال العلم كرجال القضاء والبوليس أحد أدوات الحكم.

وقد كشف بعض علماء النفس أخيراً عن خطأ الكثير من الحقائق والنظريات التي نشرها علماء النفس في ظل المجتمع الرأسمالي وعلى رأسهم سيجموند فرويد. مثال ذلك نظرية «التسامي» وهو الاصطلاح الذي وضعه فرويد لعملية توجيه الطاقة الجنسية

في الانسان إلى أعمال في المجتمع غير جنسية.

ويقول علماء النفس الجدد ان مفهوم «التسامي» نبع من الضرورة الاقتصادية التي سادت المجتمع الرأسمالي في بداية عهده بالتصنيع حين كان المجتمع ينتقل من الزراعة إلى الصناعة. كان المجتمع في ذلك الحين محدود الامكانيات ولم تكن الصناعة تقوم على الآلات وانما على الجهد الانساني، ولهذا كان المجتمع في أشد الحاجة إلى عرق العمال وجهدهم ليل نهار. ولم يكن يستطيع المجتمع أن يحقق هذا إلا بالقوة عن طريق القهر المادي أو الاجتماعي وكذلك بجعل العمل والصناعة ضرورة نفسية عن طريق خلق قيم اخلاقية تمجد العمل وتجعله واجباً مقدساً وليس مجرد واجب فحسب.

ولهذا فقد صاحب تجميع رأس المال في تلك الازمنة الاولى للرأسمالية مجموعة من قيم اخلاقية ترتكز على العفة والتطهر والعزوف عن متع الحياة والاستقامة بشتى أشكالها، وسميت هذه القيم بالقيم الاخلاقية البيوريتانية (أو العظيمة النقاء).

وقد ظهرت هذه القيم البيوريتانية في انجلترا وبلاد أوروبا المختلفة على شكل الاخلاقيات البروتستانتية المتزمتة.

وكان علماء النفس في ذلك الحين وعلى رأسهم فرويد قد خرجوا إلى الناس بذلك المفهوم الذي أطلقوا عليه «التسامي» ويرتكز على أن الإنسان الذي يكبت غريزته الجنسية ويحولها إلى أعمال أخرى غير الجنس فهو يتسامى بها إلى أعمال أخرى أكثر قيمة وأكثر نبلاً.

وحينما بلغ المجتمع درجة عالية من التصنيع، وارتفع مستوى المعيشة، وانخفض عدد ساعات العمل، ولم يعد العمل يعتمد على القوة الجسمية للانسان. حينما أصبحت قوة الإنسان مرتفعة الثمن. وحينما استدعى التطور التكنولوجي واستمرار التطور الاقتصادي زيادة في استخدام الآلات والماكنات، حينئذ فقدت القيم الأخلاقية البيوريتارنية وظيفتها. وأصبح من الطبيعي لمجتمع استهلاكي ألا يمجد قيم العزوف عن متع الحياة والاستقامة والادخار والتسامي وغيرها من القيم التي تقلل استهلاك الفرد.

وبدلاً من ذلك أصبح المجتمع في حاجة إلى أن يصنع لنفسه اخلاقيات أخرى تعتمد على اشباع رغبات الإنسان وحاجاته. بل وخلق احتياجات جديدة في الإنسان،

وتمجيد معنى الانفاق والاستمتاع بالحياة.

ومما لا شك فيه ان التغيير الأخير الذي حدث في نظرة البلاد الرأسمالية المتقدمة إلى القيم الاخلاقية وفي اتجاه هذه البلاد إلى تحطيم المحظورات التقليدية على علاقة الرجل والمرأة وتحرير الجنس من قيوده القديمة هذا التغيير لم يحدث إلا نتيجة تغير الوسائل لتجميع رأس المال.

ان «التسامي» وتحويل الطاقة الجنسية إلى أعمال أخرى لم تعد ضرورية كما كان من قبل، حيث ان اشباع الرغبة الجنسية لم يعد يؤثر على الانتاج كما كان يؤثر عليه في مجتمع غير آلي.

ويقـول بعض العلماء انه بالإضافة إلى ما سبق فإن الحرية الجنسية أصبحت ضرورية لحماية المجتمع الرأسمالي من التمرد والثورة. فقد نتج عن التقدم التكنولوجي والآلي ان انخفضت كمية الجهد والوقت اللذين يبذلهما الإنسان في العمل. وبازدياد وقت الفراغ عند الناس بدأت الأذهان تتنبه إلى مساوىء النظام الرأسمالي وإلى مظاهر عدم المسـاواة أو الـظلم الـواقع على الطبقات الكادحة من المجتمع. وهكذا رأى الرأسماليون تصريف هذه الطاقة الى الجنس بدلاً من أن تتجمع وتصبح قوة تمرد وثورة ضد المجتمع القائم.

على ان هذا الوضع الجديد لا يعني ازدياد الحرية الجنسية فحسب. ان الاهتمام في المجتمع الاستهلاكي يمكن أن يتحول أيضاً إلى اصطناع احتياجات في الإنسان لشراء الاشياء وامتلاكها. ان هذه الاحتياجات تصبح مصنوعة حين تدفع الإنسان إلى شراء أشياء لا يحتاجها وانما يرغب في امتلاكها فحسب.

وتختلف المجتمعـات الرأسمالية في الاسلوب الذي تتحرر به من الاخلاقيات البيوريتارنية باختلاف التقاليد الموروثة في المجتمع. هناك مجتمع مثل مجتمع السويد والدانمارك مثلاً قد ورثا تقاليد قوية تحرم الاجرام والعنف بينما التقاليد الموروثة التي تحرم الجنس أقل قوة. والعكس صحيح في الولايات المتحدة الامريكية حيث ورث المجتمع الامريكي (من كثرة الحروب الأهلية والصراع العنصري) تقاليد تبيح العدوان والعنف وتجعل المجتمع يتقبلها أكثر من تقبله للتحرر الجنسي. ولهذا فقد أصبح المجتمع الامريكي يميل إلى اباحة العنف والجريمة أكثر من اباحته للحرية الجنسية.

حينما كنت في نيويورك سنة ١٩٦٦ كدت اقتل في منتصف النهار في ميدان واشنطن بإحدى الرصاصات الطائشة التي كانت تنبعث من سيارة طويلة أنيقة ركبها عدد من الشباب.

ومن كثرة الجرائم وانتشارها فقد عززت ولاية مدينة نيويورك (في ذلك العام الذي عشته فيها) قوات الامن وبالذات في القطارات التي تسير تحت الأرض، وأصبح بكل عربة رجل بوليس على الأقل. وكانت صديقاتي الأمريكيات ينصحنني بعدم الخروج ليلاً.

وقد زرت السويد والدانمارك في سنة ١٩٧١، وكنت أهبط من حجرتي في الفندق بعد منتصف الليل لأسير في شوارع ستوكهولم أو كوبنهاجن الهادئة الآمنة، الخالية إلا من بعض العاشقين والعاشقات.

وقد شهدت بالطبع مقدار الحرية الجنسية التي يبيحها المجتمع السويدي والدانماركي لأفراده الرجال والنساء، واطلعت على بعض الأبحاث التي أجريت في السنوات الأخيرة في السويد والتي تثبت أن ٩٨٪ من الأزواج والزوجات سبق لهم ممارسة الجنس قبل الزواج وان ٢٪ فقط من الرجال أو النساء لا يمارسون الجنس قبل الزواج. هذا وقد أصبح الشباب من الجنسين في هذه البلاد يميلون أكثر وأكثر إلى نبذ فكرة الزواج بعقد مكتوب.

ولم تعد هناك فروق بين الرجل والمرأة من حيث الحرية الجنسية وكما كان من حق الرجل ان يمارس الجنس حين يشاء ومع من يرغب من النساء أصبح من حق الفتاة ان تفعل المثل.

وتلاشت القيمة الاخلاقية التي كانت تعد ممارسة الجنس بغير عقد الزواج خطيئة وإثماً. ومن أقوال روبرت بريفولت في كتابه (الاثم والجنس) سنة ١٩٣١: «ان المساواة الاقتصادية والسياسية للرجال والنساء تفرض المساواة الاخلاقية. وهكذا تكون النتيجة المنطقية ان اخلاقيات المرأة في المستقبل ستصبح كاخلاقيات الرجل الفيكتوري المسيحي المحترم. وهذا يعني بطبيعة الحال انهيار الاخلاقيات المسيحية».

ولا شك ان استقلال المرأة الاقتصادي بسبب العمل خارج البيت هو العامل الأساسي في مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات ومنها حق الحرية الجنسية.

على أن هناك عاملاً لعب دوره أيضاً، وهو اكتشاف وسائل منع الحمل. فقد أصبحت العلاقة الجنسية لا تؤدي إلى ولادة طفل بغير إرادة الأم.

كما ان حق الأم في الاجهاض أصبح مكفولاً في بعض المجتمعات المتقدمة وأصبح الاتجاه الى اباحة الاجهاض يزيد شيئاً فشيئاً في مجتمعات متعددة، ومنها الولايات المتحدة الامريكية وتساوت النساء في عديد من البلدان من حيث الحصول على اجهاض نظيف وتحت إشراف طبي وبأجر زهيد دون التعرض لاستغلال بعض الاطباء لمثل هذه العملية حين تجري من وراء القانون.

وقد اعترفت هذه المجتمعات (للأسباب السابق ذكرها) بحق المرأة في اللذة الجنسية كالرجل، وأدى ذلك إلى اهتمام العلماء بالمرأة وبدراسة الاسباب التي تحول بينها وبين الاحساس بلذة الجنس. ولعل أهم هذه الاسباب هو ما يسمى بالبرود الجنسي الذي يصيب النساء بسبب الكبت وضغوط المجتمع.

وقد أجرى كينزي سنة **١٩٥٣** بحثاً بين الزوجات الأمريكيات اللاتي لم يمارسن الجنس قبل الزواج فاتضح له أن ٤٠٪ منهن لم يعرفن قمة اللذة في الجنس خلال السنة الاولى من الزواج، وأن ٢٥٪ منهن لم يعرفنها بعد ١٠ سنوات من الزواج.

وقد زاد اهتمام العلماء والباحثين بدراسة البرود الجنسي عند المرأة وخرجوا بأن الكبت والضغوط الاجتماعية هي السبب الاساسي لهذا البرود. وتعددت البحوث الطبية التي تدرس أثر الكبت والحرمان على المرأة والرجل على السواء، وفي جميع مراحل العمر من الطفولة حتى الشيخوخة، وخرجت هذه البحوث بأن للكبت والحرمان آثاراً شديدة الضرر على جسم الإنسان ونفسه وعقله في مراحل النمو المختلفة منذ الولادة حتى الممات وأن الضرر على الجهاز العصبي والغددي لا يقل عن الضرر على الجهاز التناسلي بل يزيد.

إن أي جهاز في الجسم يحتاج إلى تنشيط لينمو. وكذلك الجهاز التناسلي إذا حرم من التنشيط حرم من النمو.

وعلى حسب درجة الحرمان من التنشيط تكون درجة الحرمان من النمو. إذا كان الحرمان من التنشيط (أو الكبت) شديداً أصيب الجهاز التناسلي بضمور يسمى طبياً باسم الضمور التكويني الناشىء من الخمول الوظيفي، ويصاب مثل هذا الشخص

بضعف جنسي ويظهر هذا الضعف بوضوح على الاشخاص المكبوتين الذين يمتنعون عن مزاولة أي نشاط جنسي ـ وحينما يتزوجون متأخراً يصابون بتلك الحالة المعروفة طبياً باسم «الارتخاء الجنسي الناشىء من الامتناع» ويؤدي هذا الحرمان أو الكبت الشديد إلى تعطيل النمو العقلي وينتج عن ذلك ضعف في الادراك والشعور والسلوك.

وقد صور الدكتور يوسف حلمي جنينة استاذ الامراض العصبية بجامعة القاهرة أثر هذا الكبت الجنسي على الجهاز العصبي وقال: من المعروف ان حرمان المخ من المؤثرات الصوتية أو الضوئية في الصغر يؤدي إلى الصمم والبكم أو العمى، فإذا كان المخ يتأثر لهذه الدرجة بحرمانه من مثل هذه المؤثرات الخارجية المكتسبة فماذا يكون مصيره إذا حرم من المؤثرات الجنسية الغريزية المتعلقة باستمرار الحياة؟ ويقول الدكتور جنينة: إن كثيراً من التربويين لا يزالون يعتقدون ان الاعلاء المبكر للغرائز أكبر صيانة لها من الجموح والانحراف، وهذا في رأيه اعتقاد خاطىء لأن عملية الاعلاء الجنسي التي تقوم بها المراكز المخية العليا تتطلب طاقة جنسية وهذه الطاقة تتطلب مادة وهذه المادة تتطلب نمواً ونضجاً جنسياً وهذا النمو الجنسي يتطلب تنشيطاً، أي أن الإعلاء لا يحدث في رأيه إلا بعد اتمام عملية النمو والنضج الجنسي وما يتطلبانه من تنشيط مستمر.

علاقات نفعية

يتضح مما سبق أن الضرورة الاقتصادية في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة قد أباحت للمرأة بعض الحريات والحقوق التي سلبتها منها من قبل ضروريات اقتصادية من نوع آخر.

وكما أدرك الزنجي ان اللون الأسود الذي صبغت به الطبيعة وجهه ليس مبرراً لأن يكون عبداً للرجل الأبيض كذلك أدركت المرأة أن الحمل الذي اختصتها به الطبيعة ليس مبرراً لأن تكون عبداً للرجل أو تابعاً أو مملوكاً.

ولكن ليس هذه إلا بضع خطوات على طريق تحرير النساء واستقلالهن ومساواتهن الحقيقية بالرجل، ولا يزال الطريق وعراً، تحكمه القيود التي وضعها الرجال الاقطاعيون والرأسماليون. بل أقول أيضاً: ان هذه الاقلية من نساء العالم المتقدم التي استردت بعض حقوقها لا تزال محرومة من كثير من الحقوق التي يستمتع بها الرجال، ولا تزال تواجه مشاكل كثيرة في العمل خارج البيت وداخله وفي تربية الأطفال، وفي الحصول على أجور متساوية مع أجور الرجال وفي الحصول على الوظائف العالية ومناصب الحكم التي يحتكرها الرجل لنفسه.

ولا يزال كثير من المجتمعات المتقدمة تستغل النساء في العمل داخل البيت وخارجه. وقد أثبتت الاحصاءات والبحوث التي أجريت في بلاد أوروبا الشرقية والغربية أن النساء العاملات المتزوجات أقل فئات المجتمع على الاطلاق حصولاً على وقت للراحة. فالمرأة تعمل خارج البيت عدد الساعات نفسها التي يشتغلها الرجل ثم تعود الى البيت لتخدم زوجها وأطفالها. وقد بدأت الحركات التقدمية في العالم تكشف هذا الاستغلال الشديد للنساء وبدأت بعض البلاد التي تحاول تطبيق الاشتراكية والعدالة أن توفر دور الحضانة وأن تحمل عن المرأة مهمة تربية الأطفال وأن تخفف

عنها بعض أعبائها المنزلية بالوسائل المختلفة. لكن ما من دولة حتى الآن استطاعت أن تحقق هذا الأمل لجميع الأمهات. ولا يستمتع بدور الحضانة إلا نسبة قليلة من الأطفال ولا تزال الاغلبية الساحقة من الأمهات العاملات مرهقات بالعمل خارج البيت وداخله، خاصة وان الرجل في أكثر البلاد تقدماً لا يزال يعتقد أن أعمال البيت وتربية الأطفال إنما هي مسؤولية المرأة وحدها، ويتجاهل الرجل ان المرأة تشاركه أيضاً الإنفاق على الاسرة والاطفال.

حينما كنت في المانيا الشرقية في نوفمبر سنة ١٩٧١ عرفت أن الدولة لم تستطع أن توفر من دور الحضانة إلا ما يكفي ٣٠٪ فقط من أطفال النساء العاملات، وان هناك مشكلة كبيرة تواجه أغلبية الأمهات العاملات، اذ أن الرجل الالماني ما زال يعتقد ان اعمال البيت وتربية الأطفال إنما هي مهمة المرأة وحدها سواء كانت متفرغة بالبيت أو عاملة. وقد قال لي أحد أطباء النفس الالمان! ان حل هذه المشكلة يحتاج الى وقت حتى تتعمق المفاهيم الاشتراكية والمساواة في نفوس الرجال الالمان. خاصة وان المانيا تأثرت بالطبع بالحكم النازي، وكان هتلر: يقول ان حياة المرأة تتلخص في الاطفال والمطبخ والكنيسة، وإنه ما من صراع يمكن ان يوجد بين الجنسين طالما ان كل جنس يقوم بالمهام التي فرضتها عليه الطبيعة.

وبهذا كانت أفكار هتلر عن المرأة تتفق مع أفكار فرويد وغيره من علماء النازية والاستعمار الرأسمالي.

وعلى هذا فاننا ندرك ان المرأة العاملة في اكثر البلاد تقدماً لا تزال مستغلة لجمعها بين عملها داخل وخارج البيت، ولا تزال هذه المشكلة تحول بين المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة، ولا تزال تعوق المرأة عن إثبات قدراتها الحقيقية في العمل والانتاج.

وقد استطاعت بعض البلاد المتقدمة تحس ضخامة هذه المشكلة وبدأت بعض الآراء في السنوات الاخيرة تنادي بتغيير المفهوم التقليدي لدور كل من المرأة والرجل في الحياة. ويرتكز هذا الرأي الجديد على ان المرأة تعمل خارج البيت كالرجل ولهذا يجب على الرجل ان يشارك المرأة مسؤوليتها داخل البيت وفي تربية الأطفال.

إن المفهوم التقليدي بأن المرأة هي المسؤولة عن تربية الأطفال والخدمة بالبيت وان الرجل هو المسؤول عن العمل خارج البيت إنما هو مفهوم خاطىء نابع من الوضع

الاجتماعي الذي وضعت فيه المرأة، ونتج عن هذا تخلف المرأة وعدم قدرتها على النبوغ في الحياة العامة والعلوم والفنون. ونتج عنه أيضاً أطفال لا تكتمل صحتهم النفسية. فقد أوضحت بعض البحوث والدراسات النفسية ان النزعات العدوانية تكمن في نفوس معظم الاطفال بسبب طغيان شخصية الأم على حياتهم في سنوات عمرهم الأولى في الوقت الذي لا يشعرون فيه بشخصية الأب.

ولا شك ان ظاهرة تعلق الطفل الشديد بأمه وكراهيته لأبيه (عقدة أوديب) إنما هي نتيجة عدم التوازن في الارتباط العاطفي بين الطفل ووالديه، والتصاقه الشديد بأمه التي تتفرغ لتربيته، وابتعاده عن أبيه الذي يعتقد ان تربية الاطفال انما هي مسؤولية الأم. وقد بدأت بعض البلاد المتقدمة تستعين بالرجال والنساء معاً في العمل بدور حضانة الأطفال حتى ينشأ الطفل وأمامه الصورتان معاً صورة الأب وصورة الأم، وليس من الضروري في هذه المجتمعات أن يكون الأب هو أباه ذاته صاحب الحيوان المنوي الذي أخصب بيضة الأم، كما انه ليس من الضروري ايضاً أن تكون أمه هي صاحبة الرحم الذي حمله، فقد يكون هذا الأب وهذه الأم أقل مقدرة من غيرهما في تربية الطفل، وإنما من الضروري أن يقوم على تربية الطفل رجال ونساء فهموا معنى التربية الصحيحة.

إن الطفل لا يختار أباه ولا أمه، ولكنهما يفرضان عليه، فما ذنب الطفل الذي يلده أبوان لا يحسنان تربيته وتغذيته ولا يمنحانه فرص التعليم والنبوغ في الحياة؟.

وما ذنب الطفل الذي يلده أبوان لم يوقعا عقد الزواج؟ إن الطفل، أي طفل، من حقه المطلق أن يعيش ويأكل ويتعلم ويعمل دون أي اعتبار لأبويه، هل هما متزوجان أم لا، هل هما منفصلان أم لا، هل هما قادران على العمل والكسب أم لا، فالطفل المولود يجب ألا يحاسب عن كيفية مجيئه الى الحياة لأنه لم يشترك في هذه العملية ولم يكن له يد في أن يأتي إلى هذه الدنيا أو لا يأتي كل ما في الأمر انه وجد في هذه الحياة بغير إرادته وبغير علمه فليس من العدل ولا من المنطق ان يحاسب على شيء لم يرده ولم يعرفه ولم يشترك فيه. ان المجتمعات التي تفرق بين الاطفال وتعاقبهم على ما حدث قبل ولادتهم إنما هي مجتمعات بلغت أشد أنواع القسوة والظلم لانها تصدر حكماً على أبرياء صغار لم يشتركوا في الخطيئة التي يحاكمهم عليها المجتمع وليس في مقدورهم الدفاع عن انفسهم. ولكن هذه القسوة ليست إلا امتداداً للقسوة والظلم الواقعين على المرأة التي يتنكر لها الرجل ولا يمنحها

شرف الزواج منه، وإلا فكيف يمكن للمجتمع أن يعاقب الأم غير المتزوجة؟ كيف يمكن أن يعاقبها دون أن ينكر شرعية هذا الطفل الذي تلده ويحرمه من شرف اسم الرجل؟

* * *

جاءتني إلى العيادة سيدة شابة في الثلاثين من عمرها. كانت تعاني من آلام والتهاب في الرحم. سألتها عن حياتها فعلمت ان أباها كان موظفاً بإحدى المصالح الحكومية. تقدم إليه «أرمل» في الخامسة والخمسين من عمره، تاجر أقمشة ثري، ويمتلك قطعة أرض. لم يتردد الاب في تزويجه ابنته وكان عمرها في ذلك الوقت ثمانية عشر عاماً. وعاشت هذه الزوجة اثني عشر عاماً مع رجل عجوز غريب عنها. ولم تنجب منه أي اطفال. كانت العلاقة الجنسية بينها وبينه تسبب لها حالة نفسية غريبة من الاشمئزاز وتنتهي بحالة جسمية غريبة من ألم في الرحم ورغبة في القيء.

وقالت لي الزوجة في أسى: كنت أحس يا دكتورة في كل ليلة انني أبيع جسدي كالمومس لهذا العجوز الغريب نظير بضع جنيهات أعطاها لأبي.

فهل يمكن أن نُسميّ هذه العلاقة بين هذا الزوج وزوجته علاقة شريفة؟
هل الشرف ان يتاجر الأب بابنته باسم الزواج ؟
هل الشرف أن يشتري العجوز بماله فتاة في عمر حفيدته؟
هل الشرف أن تعيش فتاة صغيرة كل هذه الاعوام ضد رغبتها وضد انسانيتها وتحرم من كل متعة وكل حق حتى متعة الأمومة؟

إذن ليس عقد الزواج هو الذي يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة شريفة. ولا يكفي للمرء ان يوقع عقد الزواج ليصبح انساناً شريفاً.

إن تحويل المرأة الى سلعة تباع وتشترى باسم الزواج نوع من البغاء المقنع بقناع من الشرعية المزيفة التي تتناقض مع جوهر الشرف ومعناه السامي. فالشرف في جوهره ضد الزيف وضد ملكية انسان لإنسان أو استغلال انسان لإنسان، الشرف في جوهره ضد الرق والعبودية وينادي بكرامة الانسان ويبني العلاقة بين البشر على أساس من المودة والحب والارادة المتبادلة والاختيار الحر. الشرف ضد المتاجرة في الناس سواء كانوا عبيداً أو نساء وبالتالي فهو ضد الزواج الذي بني على المتاجرة وبيع المرأة

بالمال. الشرف في جوهره يحرم مثل هذا الزواج ويعده زواجاً غير شرعي لأنه علاقة ضد شرف الانسان وضد كرامته وضد إرادته الحرة وضد اختياره النابع من شعوره الصادق.

* * *

ولكن كم ينسى الناس جوهر الشرف، وكم يتجاهل المجتمع المعنى الاساسي لزواج رجل بامرأة، وبمرور الزمن يضيع هذا المعنى ومضمونه الحقيقي ويتمسك الناس بالشكل ويحافظون عليه، فيصبح الشكل بديلاً للمضمون، ويصبح عقد الزواج أو قطعة الورق بديل الحب والارادة والكرامة والشرف. وتصبح إجراءات الزواج أشبه بإجراءات بيع العقارات أو تأجيرها، ويخلو الزواج من مضمونه ومقوماته الانسانية ويرتكز على العلاقات التجارية.

ولعل هذا هو السبب في فشل كثير من الزيجات فشلاً علنياً بالطلاق أو فشلاً سرياً بالخيانات الزوجية المتفشية في معظم المجتمعات أو جدب العلاقة بين الزوجين وبرودها وخلوها من كل بهجة لتطفح بالمنغصات، ويصبح نفور الزوج من زوجته أو الزوجة من زوجها شيئاً عادياً. وينتج عن ذلك أن يصبح للانسان في مثل هذه المجتمعات حياتان متناقضتان: حياة زوجية اجتماعية ظاهرية ومزيفة، وحياة حقيقية سرية بعيدة عن المجتمع. ولا يمكن أن ننكر ما يحدثه هذا الانقسام في شخصية الانسان من انحرافات نفسية أو جسدية وفكرية، وما ينتج عنها من مشاكل اجتماعية، وخلق مناخ غير صحي يتربى فيه الاطفال فينشأون بنفوس وشخصيات ضعيفة أو مريضة، ويسيرون بطبيعة الحال في نفس الطريق الذي سار فيه آباؤهم وأمهاتهم.

إن العلاقة بين الرجل والمرأة تفقد شرفها وهدفها السامي إذا بنيت على أسس تجارية أو نفعية. وهذا هو معنى الدعارة. فالمرأة المومس هي التي تتلقى أجراً عن علاقتها بالرجل. والرجل المومس هو الذي يدفع أجراً عن علاقته بالمرأة.

ولا شك ان الرجل هو الذي يسعى الى المرأة المومس وهو الذي يدفع لها، أي انه الطرف الإيجابي في ممارسة الدعارة، وبالتالي فان نصيبه من المسؤولية يجب أن يكون أكبر من نصيب المرأة، ومع ذلك فان المجتمع لا يدين إلا المرأة وحدها، ولا يستخدم كلمة «مومس» إلا للنساء فقط.

وإذا كان تعريف المومس انها المرأة التي تقبل العلاقة الجنسية بالرجل لأسباب

تجارية ونفعية فلا بد أن يسري هذا التعريف على أي امرأة تقبل العلاقة الجنسية بالرجل لاسباب تجارية ونفعية. وبهذا لا تختلف العلاقة الزوجية القائمة لمصلحة تجارية أو نفعية في جوهرها عن الدعارة. ربما كان هناك اختلاف في الشكل من حيث توقيع عقد الزواج الشكلي، وان الاجر الذي تتلقاه الزوجة يختلف في طريقة دفعه عن الاجر الذي تتلقاه المومس، لكن المضمون واحد من حيث افتقاد العلاقتين للحب الحقيقي والذي بدونه تصبح العلاقتان غير شريفتين.

وقد أثبتت الاحصاءات والبحوث وجود تناسب عكسي بين عدد المشتغلين والمشتغلات بالدعارة في مجتمع ما وبين تحرر النساء في هذا المجتمع ومساواتهن بالرجال في الحقوق والواجبات. إذ كلما تحررت النساء وحصلن على المساواة انخفض عدد الذين يمارسون الدعارة.

وقد أوشكت بعض البلاد الاشتراكية المتقدمة أن تخلو تماماً من ذلك النوع من النساء الذي يطلق عليه اسم: المومسات. فالمرأة في مثل هذه المجتمعات تعلمت وعملت وأصبحت تتقاضى أجراً عن عملها كالرجل ولم تعد هناك امرأة في حاجة إلى ان تعول نفسها أو اسرتها عن طريق الاتجار بالجسد.

وكم يصاب السياح المحرومون جنسياً بخيبة أمل حين يسافرون إلى بلد من هذه البلاد فلا يجدون تلك الملاهي والمرابع الليلية التي تعرض العلاقات الجنسية، ويجوبون الشوارع بحثاً عن مومس واحدة فلا يجدون.

وفي زيارتي لألمانيا الشرقية عام ١٩٧١ لاحظت انه بمجرد ان تغرب الشمس يتهافت بعض الرجال العرب على مغادرة برلين الشرقية إلى برلين الغربية. والسبب معروف، فالمرأة في برلين الشرقية تعمل كالرجل والمجتمع الاشتراكي لا يتخذ من الجنس تجارة أو سلعة. أما في برلين الغربية فهناك حوانيت الجنس التي تعرض الافلام الجنسية التجارية وهناك دور اللهو التي تنتشر في المجتمعات الرأسمالية لتستغل النساء المومسات في الاتجار بالجنس وسحب الاموال من السياح الاجانب.

وكم يظهر واضحاً وجلياً الفرق الكبير بين نظرة كل من المجتمع الاشتراكي والمجتمع الرأسمالي إلى المرأة. المرأة في المجتمع الاشتراكي انسان لها جسم وعقل ونفس كالرجل سواء بسواء، أما في المجتمع الرأسمالي فهي لا تزال مجرد ذلك الجسد الذي يستغل في الخدمة بالبيت، أو يستغل خارج البيت في الاتجار بالجنس.

وليس هذا بالغريب، فان انجلز وماركس - مؤسسي الفلسفة الاشتراكية في العالم - هما اول من كشف النقاب عن مظاهر استغلال المرأة وعبوديتها وأسبابها الحقيقية الكامنة في المجتمع الرأسمالي. وقد كتبا في معظم ما صدر لهما من فلسفة وأفكار أن الرأسمالية جعلت المرأة مجرد أداة للانجاب وسلعة تباع وتشترى باسم الزواج.

وقد بدأت بعض البلاد الرأسمالية المتقدمة مثل الولايات المتحدة تدفع النساء الى العودة إلى البيت بعد أن اصبحت حاجة الانتاج في غنى عنهن، وفعلاً أثبتت الاحصاءات في السنوات الاخيرة أن الزوجة الأمريكية أصبحت تترك عملها وتمكث بالبيت بمجرد إنجابها الطفل الأول.

وكما يقول كارل ديجلر ان المرأة الامريكية أصبحت تنحدر منذ سنة ١٩٢٠، وأصبح طموحها يقل في العمل خارج البيت، ويقتصر اهتمامها على الزواج والإنجاب وتربية الاطفال.

وقد تزايد عدد الزوجات والأمهات غير العاملات منذ سنة ١٩٢٠ حتى بلغ ٧٠٪ من النساء عامة، أما في المانيا الشرقية فإن ٨١,٥٪ من النساء عاملات أي ١٨,٥٪ من النساء غير عاملات. كما ان أغلب النساء الامريكيات العاملات يشغلن وظائف صغيرة لا تحتاج إلى مهارات فنية عالية مثل أعمال الخدمة والسكرتارية والاعمال الصناعية التي لا تتطلب خبرة أو مهارة.

ويقول كارل ديجلر: ان المرأة الامريكية لا توجد في الاعمال الفنية والوظائف العالية إلا بنسب قليلة جداً. ان جملة عدد النساء الامريكيات العاملات في مجال الطب والقانون والهندسة والبحث العلمي مجتمعة لا يزيد عن ٧٪ من عدد النساء العاملات حسب احصاء ١٩٥٠ وان ٦٪ فقط من الأطباء الأمريكيين نساء، ومن المحامين والقضاة ٤٪ فقط نساء. وعلى عكس ذلك في الاتحاد السوفياتي فإن ٧٥٪ من الأطباء السوفييت نساء.

لقد سافرت إلى الاتحاد السوفياتي في يوليو ١٩٦٩ وزرت مدنه وقراه شمالاً وجنوباً من لينينجراد إلى إليانوس إلى موسكو الى ألمآتا إلى طشقند، وشهدت بعيني كثرة النساء العاملات في كافة المجالات العلمية والطبية، واحتلال النساء لكثير من المناصب القيادية سواء في العلم أو في الحياة العامة والسياسية. وقد رأيت الشيء نفسه في زيارتي لألمانيا الشرقية. إن نسبة عدد القضاة النساء في المانيا الشرقية هي ٣٤٪،

ومن أعضاء البرلمان البالغ عددهم ٥٠٠ عضو هناك ١٥٩ إمرأة، على حين في المانيا الغربية ٣٤ إمرأة من ٥١٨ عضواً بالبرلمان.

ومن المعروف ان الحياة السياسية الأمريكية لا نصيب للمرأة فيها إلا فيما ندر.

وتقول أليس روزي انه اذا حدث وأصيبت أم امريكية بالطموح الطبيعي لها كإنسانة، وأرادت أن تمارس عملاً خارج البيت فان العلماء النفسانيين والاجتماعيين الأمريكيين ينصحونها بالبقاء في البيت مع أطفالها وقاية لهم من الضرر النفسي الذي يحدث بسبب غياب الأم، ويسمونه الحرمان من الأمومة. أما الحرمان من الأبوة الذي هو ظاهرة شائعة وعامة حيث يعمل الأب طول النهار بعيداً عن أطفاله فلا أحد من هؤلاء الاجتماعيين أو النفسانيين يذكره، أو ينبه إلى ضرره.

إن المجتمع الرأسمالي يدعي ويهول من الضرر النفسي الذي يمكن أن يحدث للطفل اذا خرجت أمه للعمل حتى يقيد هذه الأم بالبيت وتظل مستغلة.

وقد كشف علماء المجتمع الجدد المتقدمون عن خطأ هذه الأفكار النفسية والعلمية التي لم تكن تظهر إلا للتمويه وإخفاء الحقائق الفعلية. ويقول هؤلاء العلماء الجدد: ان التاريخ البشري في عهوده الأولى قبل التاريخ وفي القرون الوسطى وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يعرف شيئاً اسمه الأمومة المتفرغة طول الوقت مثلما حدث في قرننا العشرين بالنسبة لأمهات الطبقة المتوسطة. كانت الأمهات منشغلات بأعمال أخرى غير الالتصاق بأطفالهن طول النهار، وكان الأطفال يشتركون في الأعمال خارج البيت وداخله، وكانت صحتهم النفسية أفضل من صحة الاطفال النفسية في مجتمعنا الحديث. ولم تكن الأم في تلك الأزمنة كالأم في العالم الحديث تعاني الملل والوحدة وتواجه عشر ساعات في النهار تقضيها وحدها مع أطفالها.

ولعل هذا يدلنا على سيطرة الرجل على المرأة منذ سلب منها حقها الطبيعي في الحياة كانت تتزايد وتنمو بنمو المجتمع الاستغلالي، وتتخذ أشكالاً ومظاهر مختلفة بعضها يختفي وراء ستار من التقدم المزيف والمدنية الحديثة كأن يسمح للمرأة أن تدخن وأن تعري ساقيها وفخذيها في الميني جيب، وبعضها يكون سافراً واضحاً يكشف سيطرة الرجل على المرأة مثل ما يحدث حين يدفع الرجل المرأة إلى البيت سواء بالقوة والإجبار أو بالإقناع والتمويه.

ولعل السبب الحقيقي الذي دفع معظم النساء في العالم إلى الاقتناع بالبقاء في البيت هو تلك النظريات العلمية الخاطئة التي ادعت أن المرأة حين تخرج إلى العمل وتترك أطفالها تسبب لهم ضرراً نفسياً بالغاً. وكذلك أيضاً تلك النظريات التي كانت تقنع المرأة أن تحقيق ذاتها كأنثى ليس إلا عن طريق الانجاب وتربية الأطفال.

وقد أثبتت البحوث العلمية الجديدة خطأ هذه المفاهيم جميعاً بل وكشفت عن أن الرجل استغل الأطفال ليربط المرأة بهم في البيت، وأثبتت بحوث بورشينال روزمان أن نمو الأطفال لا يتأثر بغياب الأم في العمل سواء حدث هذا الغياب في الثلاث سنوات الأولى من عمر الطفل أو بعد ذلك.

وكان من نتيجة هذا التمويه أن الأم اعتقدت أن تربية الأطفال إنما هي مسؤوليتها وحدها، وحينما تفكر في العمل تشعر بالذنب لأنها قد تتسبب في ضرر أطفالها. وحينما تمتلك شيئاً من الطموح لتعمل خارج البيت يواجهها الرجل بالسؤال: والأطفال؟ فإذا بها تصمت وتعجز عن الرد. ويمكن للمرأة الناضجة الواعية أن ترد الآن على هذا السؤال قائلة ان تفرغ الأم لأطفالها مضر لها وللأطفال، وان مسؤولية الأبوة كمسؤولية الأمومة تماماً لا تقل عنها شيئاً. ولهذا فليس على الرجل أن يسأل الأم وحدها عن الأطفال وإنما لا بد أن يسأل نفسه بالمثل أيضاً.

وقد ثبت علمياً ان افضل وسيلة لتربية الأطفال هي وسط اطفال آخرين في دار للأطفال تضم عدداً من الرجال والنساء المتخصصين في التربية الصحيحة، وان يلي ذلك في الأفضلية هو اشتراك الأب والأم بالتساوي في رعاية الأطفال وتقسيم الوقت بينهما بالتساوي في رعايتهم والبقاء معهم في البيت.

ان اسس التربية النفسية الحديثة هي أن يتوازن لدى الطفل رؤيته لأبيه وأمه، وأن يتساوى عنده الاحساس بالأم والأب سواء في الرعاية أو الواجب والحنان.

لكن المجتمع الرأسمالي يحرف الحقائق العلمية ليضع أمام خروج المرأة للعمل العراقيل المادية والنفسية، ثم يفرض عليها في النهاية إذا أصرت على العمل أن تختار بين عملها خارج البيت وعملها داخل البيت ويلوح لها بالخطر والإثم لو اختارت العمل خارج البيت.

وقد أصبحت المرأة الواعية الآن تدرك أساليب المجتمع الاستغلالي، وأصبحت لا تشعر بالتردد أو الحيرة أو الشعور بالذنب حين تختار لنفسها أن تعمل خارج البيت،

فقد أدركت أن هذا العمل هو حياتها وهو بقاؤها كإنسانة، وهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذاتها، كما أدركت معنى الأمومة الصحيحة ومسؤولياتها، ومعنى الأبوة الصحيحة ومسؤولياتها.

ولا شك أن الرجل لا يواجه مثل هذه المشكلة أبداً في حياته ولا يخيره المجتمع بين عمله خارج البيت أو داخل البيت. ذلك أن المجتمع ينظر إلى ان الرجل غير مسؤول عن كل ما هو داخل البيت من خدمات وأعمال وانما هي مسؤولية المرأة وحدها.

وتواجه المرأة بالإضافة إلى ذلك مشاكل عدة بعد أن تنجح في اتخاذ قرار بالعمل خارج البيت، فتلقى من المعوقات في المجتمع ما يحول بينها وبين ممارسة العمل الذي تختاره أو المجال الذي تحب ان تنبغ فيه، ثم أن المشاكل الزوجية ومشاكل البيت، تحول بينها وبين اتقان عملها والنبوغ فيه. وبهذا يضع المجتمع العراقيل أمام المرأة في كل خطوة تتخذها نحو العمل بالإضافة إلى هضم حقوقها في العمل وخفض أجرها بحيث يصل إلى نصف اجر الرجل عن نفس العمل في كثير من الاحيان.

لكن ذلك يجب الا يثبط همة المرأة واصرارها على العمل خارج البيت، فالبيت هو مقبرة المرأة، وهو ذلها وهوانها وعبوديتها. لان البيت معناه ان تحرم من خبرات الحياة التي تنضجها وتحقق ذاتها كإنسانة، كما أن البيت معناه أيضاً أنها لا تعمل ولا تحصل على ايراد وبالتالي فإنها تعيش عالة على الرجل.

ولا يمكن للمرأة التي تحتاج إلى الإعانة أن تتحرر من علاقتها النفعية بالرجل ولا بد لزواجها منه أن يرتكز على المصلحة الاقتصادية والاجتماعية والحماية والإعالة وغير ذلك من الاسباب التي تدرج هذه العلاقة الزوجية ضمن العلاقات التجارية حيث تدرج الدعارة أيضاً.

السيد والعبد

ان العالم الذي تعيش فيه يتميز بالسرعة الشديدة في التقدم العلمي والبطء الشديد في التقدم الانساني وهكذا تزداد الهوة بين النضج العقلي والمادي من ناحية، وبين النضج الاجتماعي والانساني من الناحية الاخرى.

ولم تكن الحربان العالميتان السابقتان أو الحروب التي لا تزال تشتعل في مناطق متعددة من العالم وتهدد بحرب عالمية ثالثة إلا نتيجة مجتمع بشري نما عقله وعلمه وتضاءل وجدانه وإنسانيته، مجتمع بشري يتنافس في الطمع والملكية وامتلاك أقصى ما يستطيع. مجتمع غلبت فيه القيم التجارية على القيم الإنسانية وأصبحت القيمة الاجتماعية للإنسان تعتمد على مقدار ما «يملك» لا مقدار ما «يكون».

الملكية هي سبب العدوانية والأنانية في عالمنا الراهن وهي الصخرة الكبيرة التي تقف في سبيل التقدم الإنساني. والإنسان قد يمتلك الأرض أو المباني أو أدوات الإنتاج أو أي شيء من الأشياء، ولكن أقسى أنواع الملكية هو ملكية الإنسان للإنسان.

وقد عرفنا في التاريخ كيف امتلك الأسياد الرقيق، وكان العبد يباع ويشترى بالمال. وحين يشتري السيد عبداً يصبح هذا العبد خادماً لهذا السيد بغير أجر. لا يستطيع أن يترك خدمته إلا إذا أطلق السيد سراحه أو باعه في سوق الرقيق لسيد آخر. وكان من واجب العبد الطاعة المطلقة ومن حق السيد المطلق أن يفعل بهذا العبد ما يشاء دون أن يحاسبه أحد، كأن يستأصل بالمشرط خصيتي العبد فيصبح رجلاً بلا ذكورة ويخدم نساء سيده دون أن يخشى السيد منه شيئاً.

ولا تختلف ملكية الرجل للمرأة كثيراً عن ملكية السيد للعبد. فالرجل يشتري المرأة بمقدم الصداق وينص عقد الزواج في أول بنوده على أن الزوجة ملك لزوجها

واجبها الطاعة المطلقة. وتخدم الزوجة في بيت زوجها بغير اجر، فإن عصت أو تذمرت أو مرضت أو وهنت بأعها الرجل بحقه المطلق في الطلاق.

وأود أن أنقل هنا نص أحد مواد قانون الزواج في مجتمعنا، وهو نص المادة ٦٧ «لا تجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها بدون حق، أو اضطرت إلى ذلك بسبب ليس من قبل الزوج. كما لا تستحق النفقة إذا حبست ولو بغير حق، أو اعتقلت، أو اغتصبت، أو ارتدت، أو منعها أولياؤها، أو كانت في حالة لا يمكن الانتفاع بها كزوجة».

ولا شك أن هذا النص دليل واضح على نوع العلاقة بين الزوج والزوجة التي تشبه العلاقة بين السيد والعبد بل ان العبد كان في ظل تقاليد الرقيق يعالج إذا مرض ويتحمل سيده العلاج حتى يشفى أما الزوجة فليس لها هذا الحق إذا مرضت ولم تستطع أن تلبي رغبة زوجها الجنسية فمن حقه أن يلفظها ويلقي بها خارج بيته وتسقط عنها النفقة وعليها أن تتجول في الشوارع أو تتسول، أو تتحول إلى مومس. كذلك إذا حبست هذه الزوجة ولو بغير حق أو اعتدى عليها رجل واغتصبها فمن حق زوجها أن يطردها وتسقط عنها النفقة أيضاً.

كذلك إذا دفعت الزوجة شبابها من أجل زوجها وأطفالها ثم استهلكت أو أرهقت أو مرضت أو عجزت عن الوفاء بكل هذه الالتزامات وأصبحت في حال لا يمكن الانتفاع بها كزوجة فمن حق زوجها أن يلفظها كالنواة.

ان تعبير «لا يمكن الانتفاع بها كزوجة» يدل على أن العلاقة الزوجية في أساسها وجوهرها قائمة على انتفاع الرجل من المرأة واستغلاله لها استغلالاً بشعاً، أشد بشاعة من استغلال المالك للأجير أو السيد للعبد الذي كان يتحرج من بيع العبد وهو مريض أما الزوجة فهي حين تمرض (بنص قانون الزواج) تعود إلى أهلها ليتولوا علاجها لأن زوجها غير مسؤول عن هذا العلاج.

ثم ان عبارة «تسليم نفسها» تدل على نوع العلاقة بين الرجل والمرأة وان المرأة هي التي تسلم نفسها والرجل هو الذي يتسلم هذه النفس، وكأنها شيء من الأشياء أو بضاعة من البضائع.

وحينما تطلق المرأة بسبب أو بغير سبب فإن ثمنها ينخفض في سوق الزواج كأي

سلعة ينخفض ثمنها إذا ما استعملت من قبل.

وفي بحث للدكتور سيد عويس المستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عن أهم العوامل التي تواجه تنظيم النسل في مجتمعنا قال: ان من أهم هذه العوامل انخفاض مكانة المرأة المصرية للأسباب الآتية:

- حيث أن الأسرة المصرية هي أسرة أبوية وليست أسرة أمومية ومن ثم فالذكور هم المسؤولون. وانتساب الأبناء إلى أبيهم وليس إلى أمهم.

- وحيث تعد الأنثى لتكون (ست بيت) ومن ثم فأدوارها الاجتماعية خارج أسرتها محدودة للغاية. (البنت مصيرها البيت) مثل شعبي.

- وحيث يحرم على الانثى المصرية بعض الأعمال الخطيرة ويقتصر العمل فيها على الذكور (مثل اعمال الحاكم والمشرع ورجل الدين والقاضي والجندي ورجل الشرطة مثلاً).

- وحيث يكون حق الانثى المصرية في سن معينة في أن تنتخب وتنتخب حقاً اختيارياً.

- وحيث تتزوج المرأة لخدمة الذكر الزوج ومفهوم الخدمة هنا يتضمن كل الأدوار التي يفترض أن تقوم بها الزوجة مثل دور العمل في البيت ودور أم الأولاد ودور العشيقة.. الخ.

- وحيث تنخفض مكانة الأنثى المصرية إذا تزوج زوجها بغيرها.
- وحيث تنخفض مكانة الأنثى المصرية إذا لم تتزوج أو «تبور».

- وحيث تواجه الانثى المصرية تقلبات السوق ويتفاوت مهرها حسب كونها «بكراً» أو «عزبة». فإذا كانت بكراً فهي أغلى سعراً، وإذا كانت مطلقة أو عزبة فهي أرخص سعراً، ويا ويل الانثى البالغة التي لم تتزوج، «بارت» فإن سعرها يكون في الحضيض.

- وحي ترغم الأنثى المصرية على الزواج في كثير من الاحيان.
- وحيث تكون الزوجة في نظر الذكر الزوج مجرد «متاع».
- وحيث تعيش الزوجة في كنف زوجها في ظل المعاملة السيئة التي لا ترقى إلى المعاملة الرشيدة. فهي تصبر على المكاره (الزواج بأخرى) وتصبر على ألوان الضيم

(منها الشتم والضرب) من أجل لقمة العيش أو من أجل أن يحميها رجل. . (ظل راجل ولا ظل حيطة) مثل شعبي.

- وحيث تعيش الزوجة في وجل وخوف من شبح «الضرة».

- وحيث تطلق الأنثى المصرية لأنها لا تنجب الذكور، أو تطلق أحياناً لأتفه الأسباب.

- وحيث لا يستحب اذاعة اسم الانثى المصرية إذا كانت زوجة أو أماً.

- وحيث ان الابن الذكر مفضل عند الأب والأم معاً.

- وحيث ان الاسرة المصرية إذا سارت في الطريق مع أحد رجال الأسرة تسير من ورائه.

- وحيث يستخدم مفهوم (امرأة) (مرة) استخداماً سيئاً، ويعتبر سبأ وشتيمة إذا وجه إلى ذكر.

- وحيث لا تمارس الانثى المتزوجة حق الطلاق إلا إذا كانت العصمة بيدها وهذا نادر.

- وحيث تخطب الانثى المصرية لحسبها ونسبها.

- وحيث يحرم على الاناث المصريات في سن معينة وفي ظروف معينة الاختلاط بالذكور.

- وحيث ينظر إلى النساء على انهن ناقصات عقل ودين.

- وحيث نجد أن نسبة العاملات الماهرات من الاناث المصريات نسبة ضئيلة.

- وحيث تعمل الاناث المصريات الماهرات منهن وغير الماهرات في ظل سيطرة الذكر المصري في أغلب الأحيان. وإذا اعتبرنا أن الاناث المصريات الريفيات يعملن فانهن يعملن في ظروف بائسة يسيطر عليها الذكور كذلك.

- وحيث ترث الانثى أقل من الذكر، ولا تمنع الأنثى الأقارب من غير المقربين من الميراث.

- وحيث ان نسبة الأمية بين الاناث نسبة مرتفعة للغاية قد تصل في بعض القرى المصرية في بعض الأحيان إلى ١٠٠٪ أو تقل عن ذلك قليلاً.

* * *

وكما كان العبيد يخصون لتفرض عليهم العفة وهم يخدمون حريم السيد فقد كانت الاناث في مجتمعنا وفي كثير من المجتمعات الأخرى تجري لهن عملية جراحية أشبه ما تكون بالاخصاء لفرض العفة عليهن.

فما أن تبلغ البنت التاسعة أو العاشرة من عمرها وقبل أن تبدأ مرحلة البلوغ حتى تأتي المرأة المسماة «بالداية» وتمسك الطفلة من ساقيها كما تمسك الدجاجة قبل الذبح، وتستأصل بالموسى «البظر». وقد عرفت هذه العملية بختان البنات وكانت شائعة إلى عهد قريب في مجتمعنا ولا تزال بعض الأسر حتى الآن تحرص على ختان بناتها.

وكثيراً ما استدعيت لانقاذ حياة بعض البنات أثر هذه العملية البشعة، فقد كانت الداية لجهلها ولاعتقادها انها إذا ما اوغلت بالموسى في لحم الفتاة واستأصلت البظر من جذوره فإن ذلك يضمن عفة الفتاة وزهدها الأكبر في الجنس ، وكانت الموسى الحادة تحدث نزيفاً غزيراً وفي بعض الأحيان تفقد الفتاة حياتها قبل أن تنقذ . ولم تكن الداية تعرف شيئاً عن التعقيم بطبيعة الحال وكانت الموسى القذرة تسبب الالتهابات في معظم الحالات أما الصدمة النفسية لهذه العملية المهينة على الطفلة الصغيرة فقد كانت بالغة لا شك ، وتظل صورة هذه المذبحة الصغيرة راسخة في ذاكرة الطفلة مما يسبب لها في حياتها الزوجية مشاكل كثيرة أحدها ذلك البرود الجنسي الذي ينعكس على الرجل بالانحرافات الجنسية وادمان الحشيش .

وهناك مجتمعات أخرى أخصت نساءها بعمليات أخرى أكثر قسوة من عملية استئصال البظر. لقد فوجئت وأنا طبيبة حديثة التخرج سنة ١٩٥٥ حين فحصت سيدة سودانية لأول مرة فإذا جميع أعضائها التناسلية الخارجية قد استؤصلت تماماً ولم يبق مكانها إلا جرح قديم طويل تتوسطه فتحة صغيرة مستديرة لخروج الحيض. ومن الطبيعي أن مثل هذه الفتحة الصغيرة تتمزق عند ولادة أول طفل وتتعرض المرأة للنزيف الشديد أو المضاعفات الخطيرة.

وهناك في التاريخ وفي مختلف العصور والمجتمعات أمثلة عديدة متنوعة تبين لنا كيف ان المجتمع الرجالي كان يستبيح لنفسه تشويه جسم المرأة ونفسها باسم العفة. وقد عرف التاريخ «حزام العفة» وهو حزام من المعدن يغطي أعضاء المرأة التناسلية وبه ثقبان أحدهما للبول والآخر للبراز عند فتحتي البول والشرج.

ويقول «ديزموند موريس» في كتابه «القرد العاري» إن التاريخ عرف عهداً كانت

أعضاء البنات التناسلية الخارجية تغلق قبل الزواج بواسطة دبابيس معدنية أو بالحياكة بالابرة والخيط. وكتب ديزموند موريس يصف رجلاً صنع في شفرتي امرأته الخارجيتين ثقبين أدخل فيهما قفلاً حديدياً يغلقه بالمفتاح بعد كل عملية جنسية كما يغلق دكانه.

وقد يندهش بعض الناس لهذه الحقائق التاريخية ولكني اعتقد ان دهشتهم تقل كثيراً حين يذكرون ان التاريخ عرف عهداً استباح فيه المجتمع دفن البنات وهن على قيد الحياة.

كان كل ذلك يحدث باسم العفة والأخلاق. فالمجتمع الذي يستأصل بظر البنت يعتقد ان البظر هو أكثر أعضاء المرأة احساساً بلذة الجنس وبالتالي فإن استئصال البظر يفقد المرأة الكثير من هذا الاحساس فتصبح أكثر زهداً في الجنس ويضمن الرجل عفتها. ألا تشبه هذه العملية في مضمونها وجوهرها عملية اخصاء العبيد؟ أليس هذا دليلاً على أن الرجل امتلك المرأة كما امتلك العبد؟ لكن امتلاك الرقيق حرم بحكم القانون أما النساء فلا تزال الاغلبية الساحقة منهن رقيقاً بحكم تقاليد الزواج والطلاق والطاعة.

وفي الوقت الذي يفرض فيه المجتمع العفة على المرأة ويعقمها ويقتل رغباتها فهو يترك الرجل حُراً، لا يفرض عليه العفة، بل يشجعه على الاستمتاع بكل رغباته فيبدل من الزوجات ما يشاء ويشرد من الأطفال ما يشاء ويضمن له النظام والقانون الحماية المدنية والشرعية والاخلاقية.

والويل للمرأة إن هي استجابت لاغراءات الرجل ومحاولاته غير اليائسة لايقاعها في الشرك، وعليها أن تقمع مشاعرها وتكبتها وتقاوم مطاردة الرجل واغراءه ووعوده. وأصبحت المرأة ذاتها تتخلى عن قيمة نفسها كانسانة وعن صدق مشاعرها لتضمن الشرف الاجتماعي الظاهري. وتعلمت المرأة الزيف وعرفت كيف تعامل المجتمع كما يعاملها، تعلمت كيف ترضي الرجل وتمارس معه الجنس دون أن تفقد عذريتها، تعلمت كيف تبيع نفسها بعقد الزواج وتكبت حبها الحقيقي إلى الأبد أو تمارسه في الخفاء.

* * *

جاءتني إلى العيادة وهي في أزمة نفسية فتاة في العشرين أحبها أحد أقاربها الذي كان يتردد على بيت اسرتها. شعرت نحوه بالحب ووعدها الشاب بالزواج بعد أن يعثر

على شقة. وفي يوم زارها الشاب في البيت وكانت وحدها. غلبته مشاعره وحاول الاتصال بها لكنها تذكرت انهما لم يتزوجا فامتنعت، فقال لها الشاب في احتجاج: ان الحب الصادق هو الذي يجب أن يجمعهما معاً بارادتهما هما وليس بتصريح من المأذون وارادته واقتنعت الفتاة بكلامه وكانت تحبه بصدق فعلاً وحدث بينهما اللقاء الجنسي. واضطربت الفتاة لكن الشاب طمأنها إلى أنه سيتزوجها. لكنه لم يتزوجها كما يحدث في كثير من مثل هذه الحالات وقال لها في النهاية انه لن يتزوج فتاة سلمت نفسها لشاب قبل الزواج وان كان هو هذا الشاب.

أصيبت الفتاة بالصدمة النفسية التي تصيب الفتيات في مثل هذه الظروف وكان من الممكن أن تفقد ثقتها بالرجال وتعاملهم بمثل ما عوملت به «الكذب والخداع» لكنها كانت فتاة قوية النفس والشخصية تؤمن بذاتها وتحترم مشاعرها وصدقها وساعدها على ذلك أنها كانت تعمل وفي غير حاجة إلى أن يعولها رجل. وحينما تقدم اليها شاب ليتزوجها وشعرت أنها تميل اليه أفضت اليه بسرها قبل أن يتزوجها لتبدأ معه حياة أساسها الصدق والشرف. لكن الشاب لم يحترم صدقها فسرعان ما تركها. وجاءتني الفتاة تتساءل عما إذا كان لا بد من الكذب لتستطيع أن تتزوج؟. وقلت لها ألا تتنازل عن صدقها بأي ثمن وان كان هو الزواج - وعليها أن تبحث عن الرجل الذي يرتفع بفكره ومشاعره عن التقاليد الشكلية ويحترم صدقها وشخصيتها.

* * *

ان حق الرجل في اللذة الجنسية مقدس في نظر المجتمع، ويجب أن يناله في التو واللحظة حين يطلبه. أما المرأة فواجبها المقدس أن تلبي رغبة الرجل متى شاء وليس من حقها أن تشعر باللذة، وإذا حدث وشعرت فيجب أن تخفي هذا الشعور.

وأعضاء الرجل الجنسية في نظر المجتمع لها قيمتها واحترامها، وكفاءة الرجل الجنسية لها قيمتها واحترامها، أما المرأة فانها قد تعيش في برود جنسي طوال حياتها بسبب الكبت فلا يقلق المجتمع ولا يهتم. ولا تحظى أعضاء المرأة الجنسية في المجتمع بالاحترام بل لقد استعار المجتمع أسماء بعض هذه الأعضاء لتكون نعات تحقير وسباب.

وكما يحترم المجتمع أعضاء الرجل فإنه يحترم ما تفرزه هذه الأعضاء، وينظر المجتمع إلى السائل المنوي نظرة احترام بالغة، ويعده أكسير الحياة وخلاصتها

الخالصة. ولا شك ان هذا السائل يحتوي على الحيوانات المنوية التي يتحد الواحد منها ببيضة المرأة ليحدث الجنين.

ورغم ان الحيوان المنوي والبيضة يتساويان في قيمتهما لتكوين الجنين إلا أن المجتمع لا يساوي بينهما من حيث القيمة والأهمية والاحترام أسوة بعدم المساواة في كل ما يتعلق بالرجل أو المرأة. وفي الوقت الذي يبجل فيه المجتمع السائل المنوي ويقدسه فإنه ينظر إلى الطمث كدم فاسد ونجاسة. مع ان هذا الطمث يحتوي في كل مرة على البيضة الوحيدة التي يفرزها أحد المبيضين مرة واحدة في الشهر الواحد، كما انه ليس هناك ما يسمى بالدم الفاسد لأن دم الإنسان هو دم الإنسان سواء كان في رأسه أو في كبده أو في أعضائه التناسلية. وإذا ارتفعت نسبة ثاني أكسيد الكربون في الدم الذي يجري في الأوردة فليس معنى ذلك انه دم فاسد ولكنه يسمى علمياً بالدم غير المؤكسد لتفرقته عن الدم المؤكسد الذي يجري في الشرايين ويحتوي على نسبة أعلى من الأكسجين.

ولا شك ان الدم هو أثمن ما في جسم الإنسان، وهو الذي يمكن أن يسمى حقاً بأكسير الحياة لأنه عن طريقه يتغذى الإنسان ويتجدد وبغيره لا يستطيع أن يحيا.

وبرغم أن الدم الذي قد يسيل من جرح في العنق أو الاصبع هو نفس الدم الذي يسيل من رحم المرأة أثناء الطمث، بالاضافة إلى احتواء الأخير على البيضة إلا أن الدم الأول يعد دماً بكل ما للدم من قيمة، لكن دم الطمث يعد شيئاً فاسداً ونجساً. ويعتقد بعض الرجال ان مجرد مصافحتهم للمرأة الحائض يفسد طهارتهم أو وضوءهم. ويرجع الاعتقاد السائد بنجاسة المرأة أثناء الحيض إلى ارتباط الدم في المجتمعات البدائية بالكوارث والجروح وهجوم الحيوانات المفترسة والموت كما أنه من رواسب الخوف القديم الذي كان يشعر به الرجل نحو مظاهر إخصاب المرأة.

ويفرز السائل المنوي كل يوم عدة مرات، وفي كل مرة يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية يخصب واحد منها فقط البيضة في حالة حدوث العملية الجنسية مع المرأة وتموت بقية الملايين الأخرى. وفي غير العلاقة بالمرأة هذه الملايين من الحيوانات المنوية تقذف إلى الخارج ولا تخصب شيئاً كما في حالات الاحتلام والعادة السرية وغيرهما.

وقد نشأت فكرة تخويف المراهقين الذكور من العادة السرية أو كثرة الاحتلام

بسبب ارتفاع قيمة السائل المنوي في نظر المجتمع وان فقدان هذا السائل الثمين يهلك صحة المراهق.

وقد اتضح خطأ هذه الفكرة. فإن فقدان هذا السائل بسبب العادة السرية أو الاحتلام لا يحرم الجسم شيئاً هاماً، فإن هرمون الذكورة الذي تفرزه الخصيتان والذي هو الشيء الهام لا يقذف إلى الخارج مع السائل المنوي ولكنه يعود مباشرة إلى الدم. وعلى هذا فإن فقدان السائل المنوي بسبب تكرار الاستحلام أو العادة السرية لا يسبب أي ضرر للانسان، بل انه مفيد وصحي.

ويتمثل عدم المساواة بين الرجل والمرأة بوضوح في تلك التفرقة الكبيرة بينهما بالنسبة لموضوع تحديد النسل.

ان المجتمع في جميع أنحاء العالم يحمل النساء العبء الأكبر، ويشجعهن على ابتلاع تلك الكميات الكبيرة من حبوب منع الحمل دون أن يهتم بأثرها على صحة المرأة جسمياً أو نفسياً. كل ما يهمه هو أن يجد حلاً لمشكلة الزيادة السكانية التي تهدده اقتصادياً. وقد انقضت سنوات كثيرة منذ استخدام النساء لهذه الحبوب قبل أن يكتشف العلماء انها تصيب ٣٠٪ من النساء بالاكتئاب بالاضافة إلى بعض المضاعفات العضوية أو النفسية الأخرى التي قد تحدث لعدد قليل أو كثير من النساء.

أما الرجل فإنه لا يحمل من هذا العبء الا شيئاً قليلاً جداً في بعض الحالات. وحين يقترح أحد بأن يتساوى الرجل مع المرأة في تحمل مسؤولية وعبء تحديد النسل، وأن يبحث العلماء عن وسائل تحديد النسل لدى الرجل كما يبحثون عنها لدى المرأة ترتفع الأصوات العالية بالاحتجاج. وكم من معارضات قامت في كثير من المجتمعات ضد عملية التعقيم السطحية للرجل على حين تقابل عملية تعقيم النساء الأكثر خطورة وتعقيداً بالتشجيع أو الرضا أو على الأقل بالسكوت وعدم الاعتراض.

قيم متناقضة

يضع المجتمع النساء في تناقض حاد، ففي الوقت الذي يجري لهن عمليات جسمية ونفسية ليفرض عليهن العفة ويعدم احساسهن بمتعة الجنس يطالبهن بامتاع ازواجهن وارضاء شهواتهم حين يشاؤون وكيفما يشاؤون فإذا عجزت الزوجة عن أن تلبي رغبة زوجها طلقها أو تزوج غيرها أو هجرها وخرج ليعربد خارج البيت مع المومسات أو غيرهن من النساء .

وفي الوقت الذي يبيح فيه المجتمع لأسباب تجارية واقتصادية اذاعة الأغاني الملتهبة بالشبق والتأوهات وعرض الأفلام والرقصات الجنسية المثيرة للغرائز يحرم على البنات والنساء التأثر بهذا السيل الذي لا ينقطع ليل نهار من أجهزة الراديو والتليفزيون والسينما والمسارح وغيرها من وسائل اعلامية .

وإذا كان المجتمع حريصاً على العفة التي يدعيها، وإذا كان المجتمع حريصاً على الحفاظ على القوانين الاخلاقية التي يتظاهر بالحفاظ عليها من أجل الشرف، فكيف يفسر المجتمع تنازله عن هذه القيم الاخلاقية بإباحته عرض أجساد النساء عارية في الأفلام والرقصات، وعرض أجساد النساء عاريات فوق المجلات المصورة وفوق اعلانات زجاجات الخمر وغيرها من الاعلانات؟ أليس هذا دليلاً على ان الذي يحرك المجتمع حقيقة ليست هي القيم الاخلاقية وانما هي القيم التجارية ومنطق الربح والخسارة؟ .

وما أسهل أن يتنازل المجتمع عن قيمه الاخلاقية إذا ما تعارضت مع قيمه التجارية، ويغض الطرف عن التهتك والانحلال الذي يشيع في الفنون الرخيصة ووسائل اللهو الفاسدة، ولا يضيره أن يكون جسد المرأة العاري هو أساس الاعلان عن البضائع من أجل الربح، بل لقد أصبحت المجتمعات الرأسمالية تبيح الحرية

الجنسية لأفرادها من الرجال والنساء من أجل تكديس رأس المال وتقوية النظام الرأسمالي الاستغلالي.

وتتحمل النساء أكثر من الرجال وزر زيف المجتمع. وتدفع النساء أكثر من الرجال ثمن التعارض الذي يواجهه المجتمع بين قيمه التجارية وقيمه الاخلاقية، والسبب في ذلك هو أن الرجل هو الذي يحتكر الحكم في المجتمع وهو الذي يصدر القرارات التجارية والاخلاقية المتعارضة.

وتعيش المرأة التناقض الاجتماعي بحدة، فهي يجب أن تكون باردة عفيفة طاهرة لا تحس الجنس، وهي يجب أن تكون أداة متعة، تشبع زوجها بالجنس حتى الثمالة، وجسدها عورة يجب اخفاؤها بمقاييس الاخلاق، وجسدها مباح ويجب تعريته بمقياس الترويج التجاري والاعلانات عن البضائع. ولا أظن أن هناك استغلالاً أشد من هذا الاستغلال، ولا امتهاناً أشد من هذا الامتهان اللذين تعيشهما المرأة، فهي تصبح فريسة بين قوتين متنازعتين متضاربتين، كقطعة لحم بين فكين ضاريتين.

وكل هذا طبيعي في مجتمع فقدت فيه المرأة مكونات شخصيتها وأفرغت من انسانيتها وتحولت إلى شيء أو أداة. فهي تارة أداة للاعلان، وهي تارة أداة للشراء والاستهلاك، وهي تارة أداة للامتاع وخدمة الشهوات، وهي تارة وعاء للاطفال، وهي تارة سلعة تباع وتشترى في سوق الزواج.

ويسري بالطبع عليها ما يسري على الاشياء، فهي أكثر قيمة حين تكون جديدة أو «بكراً» لم تستخدم من قبل، ويهبط ثمنها بالاستخدام السابق أو الزواج السابق وتصبح امرأة نصف عمر، لا تجد من يتزوجها إلا رجلاً من ذوي العاهات أو الأمراض يعد نفسه مناسباً لها.

وتستمد الفضائل مضمونها من هذه النظرة المبتورة إلى المرأة: فالمرأة التي خبرت الرجل والحياة لا تصبح أقل من المرأة الجاهلة الساذجة فحسب ولكنها تصبح مرفوضة كأنما الخبرة عاهة.

ولأن الرجل يشتري المرأة بالزواج لتخدمه وتكون أداة امتاعه ووعاء ينجب أطفاله فهو يختار تلك الفتاة التي تصغره في السن بأعوام كثيرة ليظل جسدها شاباً قادراً على الخدمة والانجاب طوال حياتها معه لا تكدرها الشيخوخة أبداً طالما هو على قيد الحياة.

وان أصبح عجوزاً في التسعين من عمره. ان رجلاً في الأربعين لا يتردد في الزواج من طفلة في السادسة عشرة بل انه قد يكون في الخمسين أو الستين ويعد نفسه مناسباً لفتاة في العشرين أو أقل من ذلك أيضاً.

والرجل يفضل الفتاة الغريرة الساذجة أو «القطة المغمضة» فلا تعرف لنفسها حقوقاً ولا تدرك لجسدها رغبات ولا تفطن إلى أن عقلها له احتياجات وطموح. وهذا طبيعي بمنطق البيع والشراء فالذي يذهب الى السوق ليشتري عبداً أو يستأجر خادماً فإنه يختار الأكثر شباباً ليعمل كثيراً بغير كلل أو ملل، والأقل ذكاء والأقل حاجة لما يأكل ويشرب ولا يطالب لنفسه بشيء، وبهذا يكون انتاجه أكبر مما يمكن واستهلاكه أقل مما يمكن ويحصل مالكه أو مستأجره من ورائه على ربح كبير.

ومن هنا نظرة الرجل إلى المرأة كجسد يجب أن يكون شاباً دائماً، ويقل سعر المرأة كلما تقدمت في العمر. ومن هنا مفهوم المجتمع لشباب المرأة وجمالها: شباب المرأة هو تلك السنوات التي تكون فيها قادرة على الخدمة قادرة على الانجاب، وتبدأ من يوم ابتداء الطمث (في المتوسط يكون عمر الفتاة ١٥ عاماً تقريباً) وتنتهي بانقطاع الطمث (في المتوسط يكون عمر المرأة ٤٥ سنة تقريباً).

وهكذا ينكمش عمر المرأة عن عمر الانسان الطبيعي ويصبح ثلاثين عاماً فقط تعيشها (هذا إذا أسعدها الحظ واستطاعت أن تنجو من المشاكل العديدة التي تتربص بها)، فإذا ما انقطع الطمث قيل انها وصلت سن اليأس واصبحت وكأنما انتهت حياتها.

وبالرغم من أن تكوين المرأة الجسمي والنفسي يساعدها على أن تعيش عمراً أطول من عمر الرجل في معظم الأحيان، إلا أن المجتمع حكم على المرأة بعمر يكاد يكون نصف عمر الرجل، ففي الوقت الذي يصل فيه الرجل في نظر المجتمع إلى قمة النضوج الانساني وقمة الشباب (٤٠ ـ ٤٥ سنة) تصل فيه المرأة إلى سن اليأس وتصبح وهي في قمة نضوجها وشبابها واكتمال خبرتها بالحياة عجوزاً عاقراً انتهت مهمتها في الحياة وتدفن اجتماعياً وهي على قيد الحياة.

ويستمد الجمال مفهومه من هذه النظرة المحدودة إلى المرأة، فالمرأة الجميلة هي الفتاة الصغيرة صاحبة الجسد الغض وان كان عقلها جاهلاً أو مشوهاً. يحكم المجتمع على جمال المرأة بمقاييس جسمية فحسب، ويصبح جمال المرأة مرهوناً بحجم أنفها

وحجم شفتيها ونهديها وردفيها، ويعيبها أن يزيد حجم أنفها بضع ملليمترات أو أن تقل استدارة ردفيها بضع سنتيمترات، أما الرجل فلا شيء يعيبه إلا «جيبه» وان كان له بدل الأنف اثنان وبدل البطن كرش منتفخة.

ويثبت الفن والأدب هذا المفهوم المحدود للجمال. وكم من أغان وأشعار وروايات ترنمت بتلك الحسناء التي يتهدل شعرها على كتفيها الناصعتين المستديرتين، وعينيها دواتي الأهـداب الطويلة، وشفتيها القرمزيتين، ونهديها البارزين، وخصرها الضامر، وساقيها.. الخ. وكأنما جمال المرأة ليس إلا جمال جسدها أما عقلها وشخصيتها فلا أحد يهتم بهما.

وكمـا استمد الجمال مفهومه القاصر من النظرة الاجتماعية القاصرة إلى المرأة كذلك يعبر مفهوم الأنوثة عن هذه النظرة ذاتها. فالأنوثة هي الضعف والسذاجة والسلبية والاستسلام. وهي صفات كلها تتفق مع الدور الذي حدده المجتمع للمرأة وهو خدمة الرجل وارضاؤه. الأنوثة هي أن تتميز المرأة بصفات الخدم المطيعين المستسلمين الضعفاء. أما الرجولة فهي أن يتميز الرجل بصفات الأسياد من قوة ايجابية وحزم وعقل وحكمة.

واستمد الشرف مفهومه من هذه النظرة. شرف البنت مثل عود الكبريت يولع مرة واحدة وبعدها تنتهي البنت وتلقى في وعـاء القمامة كعود الكبريت المستهلك. أما شرف الرجل فيمكن أن يولع آلاف المرات أو ملايين المرات ولا يستهلك أبداً.

ولن تتغير مثل هذه المفاهيم ما لم تتغير نظرة المجتمع إلى المرأة كجسد فحسب. لن تتغير هذه المفـاهيم إلا بعد أن تصبح المرأة في نظر المجتمع انسانة متكاملة العناصر جسماً وعقلاً ونفساً.

حينئذ يصبح جمال المرأة هو جمال جسمها وعقلها ونفسها، ويصبح جمال الرجل هو جمال جسمه وعقله ونفسه. ولن يكون الجمال مفروضاً على المرأة وحدها بل على كل انسان رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً أو كهلا يجب أن يكون جميلاً بهذا المعنى الشامل للجمال (جمال الجسم والنفس والعقل). جمال النفس هو ذلك الجمال الذي يشع منه نفس سليمة بغير عقد، هو تعبير الصدق والحب في العينين، هو حيوية النفس ومرحها واقبالها على الحياة. وجمال العقل هو ذلك الجمال الذي يشع منه الأفكار المتقدمة التي تحقق للانسان يوماً بعد يوم مزيداً من الرقي والحب والاخاء والعدالة

والمساواة.

وجمال الجسم ليس مجرد استيفاء مقاييس موضوعة وإنما هو صحة الجسم ورشاقته وخفته وقدرته على أداء وظائفه بأعلى كفاءة. القوام لا يكون جميلاً إلا إذا تحرك الجسم كله برشاقة وخفة من أجل هدف ورغبة صادقة. العينان الجميلتان لا تكونان جميلتين إلا بمقدار ما تعبران عن صدق المشاعر والأفكار. الجمال هو الصدق والصدق هو الطبيعة والطبيعة هي قدرة الجسم والعقل والنفس على اداء وظائفها بأعلى كفاية ممكنة. الساقان خلقتا لتسيرا وليس للانثناء فوق الأريكة، والمخ خلق ليستقبل المعلومات ويستنتج منها أفكاراً جديدة وليس للجمود داخل الجمجمة حبيس الأفكار القديمة والخزعبلات. القبح هو أن يطل الكذب من العين (أي عين) وان رسمت بمهارة فائقة بخطوط وظلال حديثة. واليد خلقت لتعمل وتبتكر، أما اليد التي لا تعمل شيئاً سوى أن تدلك أصابعها بالكريم فهي يد عاطلة قبيحة مهما بلغت أصابعها من النعومة والبضاضة. والأعضاء التناسلية خلقت لتمارس وظيفتها الجنسية وليس لأن تخصى أو تبتر اجزاؤها. الشرف هو صدق الجسم وصدق العقل وصدق النفس في كل انسان سواء كان رجلاً أو امرأة، والانوثة هي ايجابية المرأة في الحياة وقدرتها على استخدام جسمها وعقلها ونفسها بأعلى كفاءة والرجولة هي ايجابية الرجل في الحياة وقدرته على استخدام جسمه وعقله ونفسه بأعلى كفاءة.

وهكذا نجد أن الفروق بين الرجل والمرأة تتلاشى، وتتلاشى معها الصفات والمفاهيم التي تفرق بينهما، والتي تجعل الرجولة نقيض الانوثة، والانوثة نقيض الرجولة.

٥

الأسرة والمدنية

ان الاسـرة الابـويـة التي بدأت بيـداية الملكية وازدهرت في العهود الاقطاعية واستمرت في العهود الرأسمالية أصبحت تمر بمرحلة دقيقة خطرة بعد أن ساعدت المدنية والتقدم الصناعي المتزايد على عزلها شيئاً فشيئاً، وتقليل عددها وتقطيع أواصرها وصلاتها، حتى أصبحت الأسرة حين تغلق بابها عليها تصبح وكأنما انفصلت عن الدنيا وانفصلت الدنيا عنها.

ويجمع علماء المجتمع على أن الأسرة في المجتمعات الصناعية المتقدمة قد وصلت إلى مرحلة التناقض عن المجتمع، ولعل هذا هو السبب في ذلك التفكك الذي أصاب الأسرة، وأصبح كالظاهرة العامة في معظم هذه البلاد المتقدمة. فالزوج اما هارب أو يفكر في الهرب من زوجته، والزوجة اما كسرت قيود الملل والوحدة والخدمة أو فكرت في كسرها، والأبناء والبنات ضجروا من آبائهم وأمهاتهم وهربوا من البيت المنعزل البارد وتجمعوا على شكل حركات ثائرة متمردة بعضها « هيبز » وبعضها « بيتينكس » وبعضهـا « بيتليز » الـخ ، يستعينون بـالمخدرات والمنبهـات على خلق المجتمـع الذي يريدون .

ولا شك أن كثيراً من النـاس لا يدركـون التغير الـذي يحـدث في العلاقات الاجتماعية، لأنها تتغير ببطء. كذلك بالنسبة للعلاقات الأسرية التي تتأثر بطبيعة الحال بنظام المجتمع. ولو أننا تتبعنا تغير المجتمع الإنساني من البدائية إلى البربرية إلى المجتمع الزراعي ثم الصناعي لأدركنا التغيرات التي حدثت في الأسرة بتغير نظام المجتمع.

ويمكن لنا أن ندرك أثر التصنيع على الأسرة التي شكلها من قبل المجتمع الزراعي إذا تتبعنا ما فعلته المدنية (التي نتجت عن التصنيع والتقدم العلمي) بالمجتمع. فقد

أحدثت المدنية تقسيماً في جميع الأعمال والوظائف التي كانت تتم داخل الأسرة. ان التقسيم الاقتصادي للعمل في المجتمع المتمدن الحديث يرتكز على الفصل بين وحدات الإنتاج ووحدات الاستهلاك، وعلى أن وحدات الإنتاج بدورها تنقسم إلى عديد من الفروع والتخصصات.

وفي مجتمعنا الحديث يمكننا أن نفرق بين تخصصات وقطاعات مختلفة مثل الاقتصاد والسياسة والثقافة والتعليم والشؤون الاجتماعية والشؤون الدينية.. الخ.

وهكذا سببت المدنية الفصل بين العلاقات التي كانت قائمة داخل الأسرة الجماعية البدائية. ولا شك ان هذا الفصل قد أتاح نوعاً من الاستقلال وانعزال كل قطاع عن الآخر، ولم يعد من الممكن (إلا لقلة قليلة من الناس) أن تحتفظ بنظرتها الشاملة لمختلف القطاعات وان تلمس تأثير أحدها على الآخر.

ولعل أهم نتائج هذا الفصل هي تلك التي حدثت من الفصل بين أعمال الفرد الواحد، فالذي يعمل مثلاً في قطاع السياسة وفي قطاع الثقافة لا بد وأن تكون له وظيفتان ولا بد أن يقسم نفسه بين مركزيه.

وقد وقع هذا الفصل بشكل حاد واضح حين انتقلت أعمال الإنتاج خارج البيت والأسرة وانتقلت معها علاقات العمل أو العلاقات المهنية. ولم يكن هذا الفصل عضوياً فحسب لأن العلاقات داخل الأسرة تختلف كثيراً عن العلاقات في المجتمع الكبير. ان العلاقات الاسرية في أساسها علاقات شخصية وعاطفية أما العلاقات في مختلف قطاعات المجتمع فهي في أساسها علاقات نفعية غير شخصية.

وقد قسم علماء المجتمع الوظائف الأساسية الضرورية لاستمرار بقاء المجتمع إلى خمسة أقسام:

● **اولا: الوظيفة البيولوجية أو التناسل:**

ان شرطاً أساسياً لاستمرار أي مجتمع وبقائه أن يعوض موتاه بالمواليد الجديده. وان جميع الأسر بجميع أنواعها البدائية والمتحضرة تقوم بهذه الوظيفة.

● **ثانياً: الوظيفة الاقتصادية:**

ان احتياجات الحياة لا بد أن تنتج وتوزع بين أفراد ذلك المجتمع.

● **ثالثاً: الوظيفة السياسية:**

على كل مجتمع أن يخلق الوسائل التي بواسطتها يحقق نظاماً داخلياً وخارجياً لمواجهة الصراعات.

● **رابعاً: الوظيفة التعليمية:**

ان الأحداث والنشء والأطفال الصغار لا بد أن يتدربوا ليصبحوا أعضاء عاملين يشاركون في أعمال المجتمع المختلفة.

● **خامساً: الوظيفة الدينية:**

لا بد أن توجد الوسائل لحل الأزمات العاطفية والاحتفاظ بالإحساس بمعنى الحياة، وان يوجد الانسجام بين أهداف الفرد وأهداف المجتمع.

ويقول علماء المجتمع: ان هذه الوظائف كانت تتم جميعاً داخل الأسرة الزراعية قبل عهد التصنيع. كانت الأسرة كبيرة العدد يعيش فيها الأب مع أبنائه وأحفاده. كانت الأسرة تنتج وتستهلك ما تنتجه وتكفي ذاتها. وكان الابناء يتعلمون من آبائهم ثم يعملون معهم. وكانت النساء والبنات يقمن بأعمال البيت واعداد الطعام.

كانت الاسرة وحدة سياسية بذاتها وكان رؤساء القبائل هم أصحاب السلطة وهم الذين يضعون القرارات ويحكمون سياسياً. كانت قوة الفرد تعتمد على قوة أسرته ولم يكن في إمكان فرد بغير أسرة أن يفعل شيئاً أو تكون له قوة ما. وكان وضع المرأة أقل من وضع الرجل بعد أن أصبح الرجل هو مالك الارض وسلب منها حقها في النسب وأصبح هو صاحب الحق في الانتاج وحرم المرأة حقها من الانتاج وترك لها حق الاستهلاك فحسب. وهكذا أصبح هو الذي يعول وهي التي تخدم.

وتطور المجتمع وعرف الصناعة. وتطورت الصناعة وحدثت المدنية وانعكس كل ذلك على الاسرة. ويقول علماء المجتمع: إن هذا الثلث الاخير من القرن العشرين يشهد نوعين من الاسر هما نتاج التطور الصناعي والمدنية الحديثة: النوع الحديث جداً من الاسرة الذي يسميه العلماء بالاسر الجماعية أو «الكوميون». والنوع الثاني هو الاسرة التقليدية الشائعة في معظم أنحاء العالم ويسميها العلماء بالاسرة الوحيدة النواة، وتتكون من الاب والام وأولادهما فقط. أما في الأسر الجماعية أو الكوميون

فإن مجموعة من الناس تعيش معاً داخل هذا الكوميون يتقاسمون كل شيء بالتساوي فإذا ما حدث زواج بين رجل وامرأة فإنهما يحصلان على حجرة واحدة لهما وحين تلد الأم طفلها فهي لا تحتفظ به في حجرتها وإنما تأخذه إلى دار الاطفال المنشأة في ذلك الكوميون، حيث يقوم على رعايتها عدد من النساء والرجال المتخصصين في رعاية الاطفال. ويمكن للأم إذا أرادت أن ترضع طفلها بنفسها فتزوره في دار الأطفال في مواعيد الرضاعة. أما إذا لم تستطع إرضاعه لنقص في لبنها أو لأي سبب آخر فهناك الرضاعة الصناعية. ويزور الاب والام أطفالهم من حين إلى حين ليداعبوهم ويتحدثوا إليهم.

وجميع الاعمال في هذا الكوميون مفتوحة للرجال والنساء بالتساوي، والمرأة تعمل كالرجل ولها نفس الحقوق والواجبات ولا تفقد اسمها بالزواج ولا تتحمل مسؤولية تربية طفلها.

وقد أصبحت في هذا الكوميون جميع الوظائف الخاصة بالانتاج والاستهلاك خارج الاسرة. ولم يعد استهلاك الفرد يتأثر بطبقة الاسرة الاجتماعية.

وقد قام عدد من الباحثين بدراسة هذا النوع من الاسر وخرجوا من هذه الابحاث بأن كثيراً من المشاكل التي تعترض الاسرة التقليدية قد حلت، فقد تحرر الاب والام من قلق وعبء مسؤولية الانفاق على أطفالهما ورعايتهم، وأصبحت العلاقة بين الآباء والأبناء علاقة عاطفية خالصة وحرة لا تفسدها مطالب الابناء الاقتصادية الملحة وقلق الأباء الدائم لتأمين مستقبل أبنائهم وتعليمهم. وتحررت المرأة من مسؤولية أعمال البيت والاطفال وتفرغت كالرجل للعمل خارج البيت ولم تعد مشاغل البيت والأولاد تعطلها أو تؤخر فرص نبوغها وتنمية قدراتها الفكرية. وتحرر الأبناء من سيطرة الام والاب عليهم، وتحرروا من الفروق الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تفصل بينهم حسب ارتفاع أو انخفاض طبقتهم وأسرهم، وحظوا جميعاً بفرص متكافئة في النمو والتغذية والتعليم والعمل. وتوصل الباحثون إلى أن كثيراً من الأمراض النفسية والعقد التي كانت تصيب الطفل في الاسرة الصغيرة قد انتهت. فقد كان الطفل في الاسرة الصغيرة يعيش معظم وقته في عزلة موحشة بسبب الانعزال الذي أحدثه التطور الصناعي والمدنية على الاسرة وبسبب الاتجاه الحديث إلى الاقلال من عدد الاطفال وتحديد النسل. وفي مثل هذه الاسرة المنعزلة القليلة العدد يحرم الطفل من كثير من العلاقات الاجتماعية والانسانية الضرورية لصحته النفسية ولنمو شخصيته ونضوجها.

وقد كشفت بحوث العلماء في المجتمعات الصناعية المتقدمة أن ازدياد التطور الصناعي قد زاد من عزلة الاسرة بتكوينها الراهن، وان المشاكل تعددت داخل الاسرة وشملت جميع أفرادها سواء اكانوا آباء أو أمهات أو أبناء إلى الحد الذي جعل الاسرة في وضع يتناقض وصالح المجتمع ويعرقل تقدمه.

وحيث أن المجتمع لا بد أن يبقى ويستمر فلا يمكن للأسرة أن تبقى إلا إذا تغيرت واتخذت شكلاً آخر لا يتناقض مع المجتمع.

وقد وصف أحد العلماء الحال التي وصلت اليها الاسرة في معظم بلاد أوروبا وأمريكا في مجتمعنا الحديث، فقال: ان معظم الاسر تتكون من الاب والام وطفل أو طفلين. وان الاب في معظم الاحيان هو الذي يعمل ويغيب طول النهار عن البيت. وان الام في معظم الاحيان هي التي تبقى في البيت لتعد الطعام وتنظف البيت وترعى الاطفال.

وقد اتضح أن غياب الاب الطويل يترك أثره السلبي في نفسية الطفل كما أن وجود الام الدائم يسبب للطفل كثيراً من المشاكل النفسية الاخرى منها عقدة أوديب. وقد أثبتت أبحاث الدكتور جاروسلاف كوخ في تشيكوسلوفاكيا أن قدرات الطفل تتعطل عشرة أضعاف بسبب الدور الذي يلعبه كطفل أمه ولعبتها المدللة. وقد وضع الدكتور جاروسلاف في بحثه الاطفال الحديثي الولادة في بيئة معينة بعيداً عن أمهاتهم وكانت النتيجة أنهم أصبحوا قادرين على تسلق السلم في ٨ شهور فقط.

وحيث أن معظم الاسر أصبحت تحدد نسلها بحكم التطور الاقتصادي والمدنية فقد أصبح الطفل في معظم الاحيان بغير أخوة أو أخوات وافتقد بذلك كثيراً من العلاقات الضرورية لتكوين خبرته في الحياة.

وتنعكس هذه المشاكل على الطفل ووالديه وتتوتر العلاقة بين الآباء والابناء وما أن يبلغ الابن سن الرشد حتى يفكر في الهروب من أسرته ليعيش مع من يختار.

وبالرغم من أن التطور الصناعي قد ساعد على أن تخرج المرأة الى العمل خارج البيت وأن تسترد بحكم هذا العمل بعض حقوقها المسلوبة إلا ان الدور الذي فرضه عليها المجتمع من حيث الخدمة بالبيت وتربية الاولاد يجعلها عاجزة في كثير من الاحيان عن الجمع بين العمل خارج البيت وداخله، وتضطر إلى البقاء بالبيت. ويقول

العلماء انه ما لم يحمل المجتمع عن المرأة أعباء البيت وتربية الاولاد فلن تحظى النساء ابداً بالمساواة أو الحرية أو تكافؤ الفرص.

ولأن تربية الاطفال وتعليمهم والإنفاق عليهم هي مسؤولية الاسرة الصغيرة المكونة من أب وأم فإن تحقيق المساواة والعدالة بين الاطفال وتحقيق تكافؤ الفرص بينهم لا يمكن أن يحدث مهما تشدق المجتمع بهذه الشعارات. وقد قام أحد علماء المجتمع ببحث في السويد بين طلبة الجامعات فاتضح له أن ١٤٪ فقط من طلبة الجامعات ينتمون إلى الطبقة العاملة على حين أن الطبقة العاملة تمثل ٥٢٪ من الشعب السويدي. وعلى هذا فإن عدداً كبيراً من أطفال الاسر من الطبقة العاملة يحرمون من التعليم العالي بسبب عجز آبائهم عن دفع نفقات التعليم.

ويقسم العلماء العلاقات داخل الاسرة إلى ثلاثة أنواع:

- **الزواج**: حيث تنظم قوانين علاقة الرجل بالمرأة.
- **الابوة (والامومة)**: حيث تنظم العلاقة بين الاجيال المتعاقبة.
- **الاخوة**: حيث تنظم علاقة الاطفال من نفس الابوين.

ويقوم الزواج على التفرقة بين دور الجنسين في الحياة. فالرجل يعمل خارج البيت ويعول الاسرة. والمرأة تعمل داخل البيت ويعولها الرجل. وهكذا يقوم الزواج على تأكيد الفروق بين الرجل والمرأة ويثبت العلاقة بينهما من حيث العائل والمعال، والمالك والمملوك، والخادم والمخدوم. وتختلف قوانين الزواج والطلاق من مجتمع إلى مجتمع في تفصيلاتها ولكن جوهرها واحد، تمتد جذوره بعيداً منذ بدء الملكية الخاصة وسلب الرجل لحق الام الطبيعي، ويشتد عوده في المجتمع الإقطاعي ويستمر في المجتمع الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة والاستغلال.

وكم يفاجأ المرء حين يطلع على بعض نماذج من قوانين الزواج والطلاق في مختلف المجتمعات. بعضها يبدأ بالنص على أن الزوج يملك زوجته وله حق تأديبها. وبعضها يعطي الحق للزوج أن يطلق زوجته إذا خانته ولا يعطي الزوجة حق تطليق زوجها إذا خانها. وبعضها يعطي الحق للزوج أن يسلب اسم زوجته فتسمى باسمه، ويسلب أموالها ويتصرف في أملاكها كما يشاء. وبعضها يحرم الزوجة من الارث ويفضل عليها أقارب الزوج من الرجال. وبعضها يحرم الزوجة من أطفالها اذا طلقت

أو يحرمها من نفقة الزوج . . الخ ، نماذج متعددة تدل على نوع العلاقة التي يفرضها الرجل على المرأة.

أما النوع الثاني من العلاقات في الاسرة فهو الابوة والامومة. وقد اتضح للعلماء الذين درسوا هذا النوع من العلاقة أن سلطة الاب أو الام هي أبرز صفة لهذه العلاقة. فالعلاقة بين الاب وابنه تقوم على سلطة الاب على ابنه فهي علاقة صاحب سلطة وشخص صغير بغير سلطة. هي علاقة كبير أعلى بصغير أدنى. ويقول العلماء: ان مثل هذه العلاقة لا بد وان تقوم على الأوامر من قبل صاحب السلطة والطاعة للشخص الصغير. وهذا يفسر تلك المشاكل المتعددة التي تنشأ بين جيل الآباء وجيل الابناء وذلك العقاب الذي يوقعه الآباء بأبنائهم أحياناً حين يحرمونهم من الإعالة أو نفقات التعليم وذلك الصراع المستمر بين الآباء والابناء بسبب رغبة الابناء في التحرر من قبضة الآباء، وإصرار الآباء على تشكيل أبنائهم بالشكل الذي يريدونه ووضعهم في القالب الذي وضعوا هم فيه من قبل.

وكما يقول دافيد كوبر: ان نتاج التربية داخل الاسرة هو ابناء حصلوا على الطاعة ولكنهم فقدوا أنفسهم وارادتهم وشخصيتهم.

هذا بالاضافة إلى الاضرار النفسية التي ثبت انها تحدث للاطفال بسبب أمومة أمهاتهم الزائدة عن الحد. فالأم في الاسرة الصغيرة الباردة المنعزلة تعوض عن وحدتها بالتصاق شديد بطفلها وبهذا الحنان المريض تعطل قدرته عن الاستقلال عنها. وقد اتضح ان حالات الشذوذ الجنسي التي أصبحت تتزايد بين الذكور احد أسبابها تلك الامومة المريضة في الاسر الحديثة. فالأم تفطم طفلها عن اللبن لكنها تعجز عن فطامه نفسياً لا بسبب حب الام ولكن بسبب انانية الام التي تشعر بالوحدة والانعزال. ويختار الابن الشذوذ الجنسي كمحاولة من جانبه ليزيد من احساسه بذاته عن طريق الاختلاف عن الآخرين. انها محاولة لينكر ان ذاته لم تنفصل عن أمه وليخفي عجزه عن هذا الانفصال. كما أنها أيضاً رغبة من الابن في ارضاء أمه وعدم اثارة غيرتها وذلك بأن يحب رجلاً وليس امرأة.

أما النوع الثالث من العلاقات داخل الاسرة فهو علاقة الاخوة. وهي العلاقة الوحيدة في الاسرة التي تقوم على المساواة الحقيقية، لانها تتم بين أفراد متساوين في الحقوق والواجبات. لكن الاسرة في العالم الحديث أصبحت تفتقد هذه العلاقة السوية

رويداً رويداً بسبب تحديد النسل والنقص الشديد في عدد الاخوة والاخوات داخل الأسرة.

ويقول العلماء: ان افتقار الاسر الحديثة لهذه العلاقة هو الذي يدفع الشباب إلى البحث عنها خارج الاسرة، وذلك عن طريق تجمعاتهم الخاصة حيث يعيشون علاقة الاخوة التي يفتقدونها في أسرهم، وان تجمعات الهيبز وما شاكلها ما هي إلا محاولات الشباب لتعويض هذه العلاقة الاساسية التي تنقصهم داخل بيوتهم.

ويعتقد البعض ان بدء ظهور الاسرة الجديدة الجماعية أو الكوميون ما هي إلا بسبب عجز الاسرة الصغيرة عن تلبية حاجات أفرادها، وان علاقة الاخوة هي العلاقة الاساسية داخل هذه الكوميونات، فالاطفال في دارهم يعيشون معاً ويمارسون علاقة الاخوة مع زملائهم من نفس السن. وقد ثبت ان هذه العلاقة هي التي تساعد على نمو شخصياتهم وتكسبهم خبرة بالحياة على أسس من المساواة والتبادل العادل وتلعب دوراً كبيراً في اثراء نفوسهم بالحب والاخاء وتنمية ملكاتهم على الابداع والخلق.

ان انعزال الطفل داخل اسرته الصغيرة في المجتمع الصناعي الحديث يفقر شخصيته ويحرمه من الخبرة والعلاقات الإنسانية المتعددة، ويعلمه الانانية والانغلاق على نفسه، كما ان علاقته بأبيه وأمه تقوم على الفرض لا الاختيار، فإذا ما مني طفل بأب سكير أو أم سكيرة فلا بد له أن يستسلم لهذا القدر لانه لا يستطيع أن يختار غيرهما.

ويرى بعض الباحثين ان تحرر الاطفال (في الكوميونات) من سلطة الآباء والامهات جعلهم أسرع في النمو الجسدي والنفسي والفكري، وان اختلاطهم بزملائهم خلصهم من الانانية والاثرة، كما ان الآباء أيضاً تخلصوا من كثير من الانانية التي تربت معهم داخل أسرهم، وأصبحوا يشعرون بالحب لاطفال الغير كما يشعرون بالحب لاطفالهم. وكذلك الاطفال أصبحوا يحبون عدداً كبيراً من الناس ولا يخافون الغرباء.

وقد ساعد هذا على ازدياد درجة الإنسانية في الفرد، ولم تعد العلاقة البيولوجية أو رابطة الدم هي التي تفرض نفسها على الافراد، ولم يعد الاخ يتحيز لاخيه خاطئاً أو مصيباً لانه أخوه، ولم يعد رئيس العمل يتحيز لقريبه لانه من اسرته، ولم يعد الاب يحنو على ابنه فحسب ويقسو على أبناء الآخرين. وحلت العلاقات الانسانية الارادية

محل العلاقات البيولوجية اللاارادية، ولم يعد هناك طفل يتحمل وزر أخطاء أبيه أو أمه، ولم تعد هناك امرأة تخدم ورجل يسود، فقد تخلص الزواج من مفهوم النفعية وأصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على أساس من تبادل الحب الحقيقي.

ويقول هؤلاء العلماء: ان هذه الاسرة الجماعية الجديدة بالرغم من بعض المشاكل التي تواجهها إلا أنها استطاعت أن تتخلص من ذلك التناقض الحاد القائم بين مصلحة الفرد داخل الاسرة الصغيرة وبين مصلحة المجتمع الكبير. ان الانانية التي تفرضها الاسرة على الاب والام وأطفالهما تعزلهم عن المجتمع وتضعف امكانياتهم في الاحساس بمشاكل الآخرين.

ان الاب في أكثر المجتمعات تقدماً في العالم الحديث يستطيع أن يمر بعربته الفارهة بجوار طفل راقد على الرصيف فلا يكاد يشعر بأي ألم أو احساس يدفعه إلى التوقف لحظة، ويعود إلى بيته حيث يطبع قبلة الرضا والسعادة على وجه ابنه الراقد في راحة ونعيم تحت أثمن دثار.

ما هو الحب

يمكن القول الآن ان «الحب» الذي يحدث بين الرجال والنساء في عالمنا الحديث أو الذي كان يحدث في المجتمعات السابقة منذ أن امتلك الرجل الارض وامتلك معها المرأة ليس هو الحب. فالحب لا يمكن أن يحدث بين سيد وعبد أو بين صاحب سلطة وخاضع للسلطة، أو بين أقوى وأضعف، أو بين أعلى وأدنى.

الحب لا يمكن أن يحدث من أجل الانتفاع والنفعية، ولا يمكن أن يحدث من أجل الاستغلال، أو من أجل المصلحة الاقتصادية أو الحماية الاجتماعية. ان علاقة الحب ليست علاقة تجارية، ولا يمكن أن يشتريها الانسان بماله أو عقاراته أو سطوته.

لكن الذي حدث في التاريخ هو تلك النكسة الانسانية التي جعلت جنساً يسود على الجنس الآخر وفقدت العلاقة بين الرجال والنساء تكافؤها الطبيعي بحكم أنهم جميعاً من البشر وان المرأة انسان كالرجل لها جسم وعقل ونفس.

وبفقدان هذا التكافؤ لم يعد من الممكن أن تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة بسبب الحب الحقيقي وانما لأسباب أخرى متعددة.

ان شرطاً من شروط الحب هو التكافؤ ومعنى التكافؤ هو أن يكون المحبان متكافئين. إذا كان أحدهما انساناً له جسم ونفس وعقل فلا بد أن يكون الانسان الآخر انساناً له جسم ونفس وعقل. ولا يمكن للحب أن يحدث بين انسان متكامل العناصر وبين آخر ليس له إلا جسد فحسب. لأن الحب هنا يفقد شرط وجوده وهو التبادل. التبادل الجسمي والنفسي والعقلي.

لكن المجتمع استأصل من المرأة عقلها ونفسها فلم يعد في امكان الرجل أن

يبادلها الحب. كل ما كان يمكن أن يحدث بينهما هو نوع من الاتصال الجنسي، ليس هو الحب بأي حال من الأحوال، وانما هو تلك الحركات الجنسية اللاارادية التي تدفع الذكر الى الانثى من أجل الاخصاب والمحافظة على النوع في جميع الكائنات الحية ابتداء من الديدان والحشرات إلى الزواحف والثديات.

ولكن الانسان يتميز عن الحيوانات والحشرات بقدرته على استخدام عقله ونفسه بطريقة ارادية واعية، وتختلف العلاقة الجنسية في الانسان عنها في سائر الحيوانات لما يحظى به الانسان من تلك الصفات العقلية والنفسية. ان هذه الصفات هي التي تؤهله للاختيار والحرية والمسؤولية.

ويقول العالم وادمنجتن: «الانسان كائن يتميز بالوعي والارادة وهو مسؤول عن أفعاله. هذه المسؤولية هي أرقى صفة يملكها الانسان. ان أي مزيد من الارتقاء هو ارتقاء بهذا المعنى. وهذا هو سبب ذلك الارتباط الوثيق بين حياتنا الجنسية وهذا الارتقاء. ان الجنس ليس هو عملية انجاب الأطفال فحسب ولكنه في الحقيقة عملية نتجت من عمليات التطور والارتقاء التي حدثت للكائنات الأدنى وهي تواصل بذكاء خارق عملية تطورها وارتقائها داخل الكائن فتنقله دائماً إلى كائن أكثر رقياً».

ومعنى هذا ان الغرض من علاقتنا الجنسية هو احداث عملية النمو والارتقاء ودفعها إلى الامام، هو خلق مزيد من الأصالة والحرية والمسؤولية للانسان وقد خلقت الطبيعة الرغبة الجنسية لتكون اداة لهذا الغرض العظيم، وهذا هو سبب تأثيرها القوي في الإنسان، وكم يكون هذا التأثير مدمراً للانسان إذا انحرفت هذه الرغبة عن مسارها الطبيعي بسبب الكبت وضغوط المجتمع.

الجنس اذن ليس رغبة الجسم وحده، ولكن رغبة الجسم والعقل والنفس. ولهذا لا يمكن لنا أن نفسر الجنس بيولوجياً فنقول انه ضروري للتناسل، أو نفسره فسيولوجيا فنقول انه بسبب التغيرات التي تحدث في نسب الهرمونات في الدم. ان الجنس أكبر بكثير من هذه التفسيرات العملية المحدودة، والتناسل ليس إلا أحد وظائف الجنس المتعددة الشاملة لجميع مكونات الإنسان. التناسل وظيفة الجهاز التناسلي في الإنسان أما الجنس فهو وظيفة أجهزة الإنسان جميعاً جسماً ونفساً وعقلاً.

الجنس عمل انساني يرتبط بكيان الانسان لا من أجل التناسل وانما من أجل النمو الروحي في الانسان. وكما قال «برديف» في كتابه «مصير الإنسان»: «ان معنى اتحاد

الرجل والمرأة ليس بسبب استمرار النوع ولكن بسبب نمو شخصية الانسان ورغبته الجامحة لبلوغ الكمال والخلود». ويقول بيتر فليتشر: «البحث عن الحب انما هو بحث لمعرفة الذات ورغبتنا في الحب هي رغبتنا لأن يعترف بنا لا من أجل ما (نفعل) ولكن من أجل ما (نكون). الحب قد يحتوي على عاطفة ولكنه ليس عاطفة. وقد يحتوي على اعجاب ولكنه ليس اعجاباً. انه ما يتبقى بعد أن ترضى الرغبة وتنفق العاطفة، ذلك الاحتياج لأن يرى المرء حقيقته في حقيقة شخص آخر».

ان مضمون معظم الاديان التي ظهرت في تاريخ البشرية هو ان الله هو الحب. الحب هو اله الحياة في الإنسان ويقابله نقيضه وهو اله الموت. الحب يبني ويثري الإنسان والحياة، ونقيض الحب يفقر ويهدم الإنسان والحياة.

حين يولد الطفل لا يعرف كيف يفرق بين نفسه والعالم الخارجي. انه يرى نفسه والعالم الخارجي شيئاً واحداً، ولهذا فهو يحب الاشياء من حوله كما يحب نفسه. يحب نور الشمعة كما يحب يده، فإذا ما لمست يده نور الشمعة وشعر بالألم أدرك من خلال الألم ان الشمعة ليست جزءاً من نفسه. ويتعرف الطفل شيئاً فشيئاً على نفسه، وكلما عرفها أحبها وأحب ما يشبهها. الطفل يحب الدمية أو اللعبة لأنها تشبهه. وقد بدأت الحياة الانسانية حين أحب آدم حواء وأحبت حواء آدم. لقد وجد كل منهما في الآخر شبيهاً له أقرب إليه من سائر الحيوانات الأخرى.

وتقول جيرمان جرير: ان التشابه دعامة الحب وليس الاختلاف. وقد فهم الرجل خطأ انه يحب المرأة لأنها تختلف عنه، وبسبب تضخيم المجتمع للفروق بين الرجل والمرأة فقد أصبح يفضل الجلوس والسهر مع صديقه على امرأته. انه يجد في الرجل انساناً شبيهاً له، له جسم وعقل ونفس، أما المرأة فإنه يجدها جسماً فقط، فكأنما قد أصبحت من فصيلة أخرى غير فصيلته.

وهذا أمر طبيعي فالحب يقوم على التبادل، والتبادل لا يمكن أن يحدث بين كائن من فصيلة أعلى وآخر من فصيلة أدنى. التبادل لا يمكن أن يحدث بين شخصين غير متساويين أو غير متكافئين. ان عدم التساوي أو عدم التكافؤ يجعل أحدهما في وضع أقوى. وتصبح العلاقة بينهما علاقة بين قوي وضعيف أو بين أعلى وأدنى. ومن هنا لا يحدث التساوي المطلوب في التبادل لأن الأقوى بحكم وضعه سيستغل الأضعف،

ولأن الاضعف بحكم ضعفه سيحتاج إلى حماية الأقوى ويتنازل عن بعض حقوقه من أجل هذه الحماية.

والحب لا يمكن أن يقوم على علاقة يشوبها استغلال، أو يشوبها احتياج للحماية من أي نوع. الحب لا يقوم لأن الإنسان يريد أن يأكل ويشرب أو يتناسل. الحب لا يقوم لأن الإنسان يريد أن يحصل على حماية أو وصاية. الحب ليس هروباً من مشاكل الحياة، وليس رغبة في الحصول على المأوى أو الأمان أو الضمان الاجتماعي. الحب ليس تبادلاً للمنفعة، وليس بحثاً عن الراحة في الحياة أو التكيف المريح معها. الحب ليس هروباً من وحدة أو ملل أو فشل.

والحب ليس امتلاكاً، وليس سيطرة، وليس شعوراً من طرف واحد مهما كان هذا الشعور.

ان هذا الحب الذي تطفح به الأغاني الملتهبة الملأى بالنواح والعويل ليس حباً، وليس حباً ذلك الذي ساد في أدب القرن التاسع عشر والعشرين حيث القصص الملأى بعذابات الحب من طرف واحد.

ان هذه الصفات التي شاعت عن الحب من حيث أنه أعمى وانه مجنون وانه قدر يحل بالانسان من أول نظرة كالسهم القاتل فيصبح أسيراً له فاقد الارادة، فاقد الوعي، فاقد البصر، هذه الصفات ليست صفات الحب.

فالحب ليس سهم كيوبيد ينطلق ويصيب الإنسان، الحب ليس مرضاً، وليس انهياراً مؤقتاً، وليس حالة من الطغيان العاطفي. الحب ليس جنوناً، والحب ليس أعمى.

ان هذا الحب المريض كان نتيجة طبيعية للوضع الذي وضعت فيه المرأة منذ سلبها المجتمع عقلها ونفسها واعتبرها جسماً فقط. ان صفات الإنسان النفسية والعقلية هي التي تميزه عن سائر الحيوانات الأخرى. وهذه الصفات هي التي تمنحه القدرة على الاختيار والوعي والارادة، فإذا ما فقدها فقد القدرة على الاختيار والوعي والإرادة.

وبرغم ان المجتمع لم يسلب من الرجل ما سلبه من المرأة إلا أن الحب المتكامل لا يمكن أن يحدث من طرف واحد، ولا يمكن للرجل أن يتبادل صفاته النفسية والعقلية مع فراغ. وهكذا عجزت صفات الرجل النفسية والعقلية عن ممارسة التبادل الضروري

لنموها وازدهارها، وتعطلت شأنها شأن صفات المرأة النفسية والعقلية. ولم يبق أمام الرجل والمرأة إلا جسماهما. والرغبة الجسمية (المجردة عن الرغبة النفسية والعقلية) رغبة محمومة لا ارادية، تعتمد على ذلك الانجذاب اللاارادي الذي يحدث بين المواد بسبب تغيراتها الكيميائية والفيزيوكيمائية.

هذا الانجذاب العشوائي الذي يحدث بين كتلة وكتلة، انجذاب بلا وعي، وبلا ارادة، وبلا اختيار وبلا مسؤولية.

وما أبعد هذا الانجذاب الأعمى عن علاقة الحب الانسانية الحقيقية. فالحب عند الإنسان عملية واعية ترتكز في أساسها على الاختيار الحر والإرادة.

الحب أرقى عملية يمارسها الإنسان لأنه من خلالها تستطيع مكوناته الجسمية والنفسية والعقلية جميعاً أن تمارس أعلى وظائفها وأعمقها تغلغلاً في كيان الإنسان. الحب عملية واعية فاهمة عميقة بل لعلها العملية الوحيدة التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يصل إلى أعمق أعماق شخصيته.

ومن الحقائق العلمية ان الكائن الحي حين يفقد جزءاً من أجزائه فإنه يعوض عن فقدان هذا الجزء بتضخيم الأجزاء الأخرى. وهذا هو ما حدث عند الانسان. ان هذا التضخيم الذي حدث للعلاقة الجسمية بين الرجل والمرأة لم يكن إلا للتعويض عن فقدان العلاقة النفسية والعقلية بينهما. ان هذا التضخيم للانجذاب الجسدي بين الرجل والمرأة لم يكن إلا بسبب فقدان الانجذاب النفسي والعقلي. فالحب يقع من أول نظرة حين تقع عينا الرجل على المرأة ويرى شفتيها الممتلئتين المتوردتين، ونهديها البارزين، وردفيها المكتنزين. وأغاني الحب وقصص الحب كلها تتغنى بجمال الشفتين والساقين والنهدين والخصر والردفين.

وهذا هو السبب وراء تفشي علاقات الحب المريضة سواء في الأدب أو الفن أو حياة الناس الواقعية. والأصل في ذلك يرجع إلى اليوم الذي انقسم فيه الناس إلى نوعين: نوع أعلى ويستحق السيادة والحكم وهم الرجال، ونوع أدنى ويستحق التبعية والخضوع والطاعة وهم النساء.

وتعرضت المرأة لجميع أشكال الضغوط والقيود بسبب القوانين التي وضعها الرجل

الحاكم. ومن المعروف ان الحكام يضعون القوانين لتسري على المحكومين فحسب وليس على الحكام.

واضطرت المرأة ازاء هذه الضغوط والقيود المفروضة عليها بالقوة أن تكبت رغباتها الطبيعية. ويقول علم النفس. ان الكبت ينتج عن الخوف بسبب القوة الضاغطة وليس بسبب الخطر الذي يمكن أن يحدث.

ويضطر الإنسان أمام هذه القوة التي يخافها أن يلغي نفسه. فالكبت اذن هو الغاء النفس أمام الآخرين، هو أن يفرغ الإنسان نفسه من نفسه ويملأها برغبات الغير، وبهذا يقضي على خوفه منهم. ان المرؤوس الخاضع المطيع لا يخاف رئيسه لأنه في عملية الخضوع والطاعة تخلص من شخصيته وتخلص معها من خوفه.

هذا هو ما حدث للمرأة. لقد ألغت نفسها أمام الرجل. لقد تخلصت من شخصيتها لتحصل معهما على الخضوع والطاعة وتحصل معهما على الحماية والامن ورضا الرجل.

انها عملية وقائية تلجأ اليها كل الكائنات الحية في مواجهة القوى المحيطة بها والتي يمكن أن تهددها أو تخيفها. ان الانسحاب من أمام القوة وسيلة من وسائل المقاومة عند جميع الكائنات الحية ابتداء من الاميبا إلى الإنسان. وان الاغماء الذي يحدث للانسان أحياناً حين يستشعر الخطر ما هو إلا محاولة لالغاء النفس أمام هذه القوة.

وكذلك التماوت أو التظاهر بالموت الذي تجيده بعض الحيوانات حين تواجه قوى أكبر منها.

في قمة الصراع واليأس يتجاوب الإنسان بالاغماء، أو الشلل، أو عدم الاحساس، أو أية طريقة أخرى للانكماش المؤقت. انه تخدير في الحواس لتفادي الصراع واليأس.

هذا التخدير في الحواس قد لا يكون نفسياً أو عقلياً فحسب، ولكنه قد يكون جسمياً وعضوياً أيضاً. إن عضواً من أعضاء الجسم قد يفقد احساسه تماماً ويصاب بالشلل.

وقد قاومت المرأة الكبت المفروض عليها منذ طفولتها وطوال مراحل عمرها

بالانكماش وتخدير الحواس. وأصبحت حواس المرأة مخدرة باردة يصعب اثارتها.

ويصف علم النفس كيف يقاوم الإنسان الكبت والمراحل التي يمر بها حتى يصل إلى مرحلة البرود وتخدير الحواس. فمنذ أن تتولد رغبة ما في الانسان تحدث تغيرات داخل الإنسان تولد الطاقة اللازمة لتحقيق هذه الرغبة عن طريق الفعل. فإذا لم يحدث الفعل وكبتت الرغبة حدث في الإنسان ضغط كضغط البخار محدثاً أحاسيس جسمية ونفسية سميت في علم النفس بـ «العاطفة».

ويصف العلماء ثلاث مراحل يمر بها الإنسان حين تثار عاطفته، أي حين يشعر برغبة ما ثم لا يحقق هذه الرغبة بالفعل:

١ ـ **مرحلة حدوث المؤثر**: وتبدأ بتولد الرغبة في الإنسان بسبب مؤثر ما وتصاحبها تغيرات جسمية مثل زيادة النبض وسرعة التنفس.

٢ ـ **مرحلة المقاومة**: وفيها يستعد كل عضو في الإنسان للعمل وفق هذا المؤثر. وهي مرحلة بناء تثري الإنسان وتقويه وتجدد نشاطه. ولهذا فإن غياب كل التحديات ليس صحيحاً، ولا بد للانسان من أن يواجه تحديات وصعوبات ليقاومها، فإذا ما انتصر عليها فاز بالنضوج.
أما إذا كانت هذه التحديات أكثر قوة منه فانتصرت عليه فإنه يدخل إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة الارهاق.

٣ ـ **مرحلة الارهاق**: ويصبح فيها الإنسان أقل حساسية لهذه الضغوط والمؤثرات الاجتماعية. يصبح جلده أقل حرارة، ويصبح ذكاؤه أقل. أي أنه ينطوي على نفسه لا ليبتعد عن هذه المؤثرات فحسب ولكن ليبتعد عن الحياة ذاتها. وتزيد عملية الهدم داخله عن عملية البناء. انها مرحلة هدم اذن يقتل فيها الإنسان نفسه شيئاً فشيئاً.

وهذا هو ما يحدث للمرأة. انها تقاوم ثم تنهزم وتستسلم لمصيرها بعد أن تمر بمرحلة ارهاق تتركها باردة الجسم والنفس والعقل. وهذا هو السبب في أن المرأة لا تثار جنسياً في معظم الأحيان إلا إذا ضربها الرجل أو شد شعرها أو قرصها أو عضها. ان هذه الرغبة في استشعار الألم ما هي إلا رغبة في احداث درجة أعلى من الانفعال للتغلب على التخدير الذي حدث في الحواس.

الكبت اذن هو السبب وراء ماسوشية المرأة وسادية الرجل. ومن هذا الكبت نبع الحب المريض والأدب المريض الذي يتغنى بالآلام والحرمان والعذابات والتأوهات.

الحب الحقيقي لا يقوم على الحرمان وانما على شرط من شروط الحب هو التبادل والارتواء. ان الحرمان هو «عدم الفعل» أو الكبت، وهو دمار لشخصية الإنسان، أما الحب فهو «عدم الكبت» هو أن نتصرف ونتخذ قراراً بأنفسنا وعلى مسؤوليتنا. والفعل هنا يثري أنفسنا بصرف النظر عن نجاحه أو فشله لأنه فعل حقيقي صدر عن الشخص ذاته وليس رد فعل للآخرين.

الفعل شرط من شروط الحب الحقيقي. أما الحب الرومانتيكي فهو حب مريض بغير فعل. هو حب محروم يتغذى بالحرمان ويعيش على ردود الفعل.

لم يكن أمام المرأة المكبوتة الا ان تضحي بالفعل وتصبح حياتها رداً لفعل الرجل. فالرجل هو الذي يفعل والمرأة تنتظر فعل الرجل وجميع التعبيرات الجنسية تصف الرجل دائماً بانه الفاعل، وهو الغازي، وهو الفاتح، وهو المقتحم، أما المرأة فهي المفعول به.

الفعل شرط من شروط النمو النفسي والعقلي ونضوج الإنسان واستقلاله. فالذي لا يفعل لا يتعلم، والذي لا يتعلم لا ينضج، والذي لا ينضج لا يستقل.

ان معنى الاستقلال هو أن يتخذ الإنسان قراراً بنفسه ويتصرف على مسؤوليته وحده وهذا هو الفعل. أما رد الفعل فهو أن ينتظر الإنسان قراراً لآخرين فيتصرف وفق قرارهم وعلى مسؤوليتهم. ان الإنسان الضعيف غير المستقل غير الناضج هو الذي يتحرك بردود فعل الآخرين. انه يخاف المسؤولية ويفضل عليها راحة الطاعة والخضوع.

والانسان انسان بقدر ما لديه من قدرة على الحرية والارادة والاختيار والمسؤولية. والحب بين انسان وانسان يصبح حباً انسانياً بقدر ما لديهما من قدرة على الحرية والارادة والاختيار والمسؤولية.

لكن المرأة كانت عاجزة بحكم قيود المجتمع أن تحظى بشرف المسؤولية. فرض الرجل على المرأة وصايته وحمايته وأصبح مسؤولاً عنها. فالأب مسؤول عن ابنته والأخ مسؤول عن اخته والزوج مسؤول عن زوجته بل ان الابن الذكر يكون مسؤولاً عن أمه:

شهدت بعيني رأسي منذ أيام مشادة وقعت بين الشاب وأمه التي ربته والتي تبلغ

من العمر الخامسة والأربعين. كانت الأم ترتدي ملابسها استعداداً للخروج فإذا بالابن يمنعها قائلاً انه مسؤول أمام المجتمع عن تصرفاتها.

والزواج في جوهره وقوانينه يجعل الرجل مسؤولاً عن زوجته، مسؤولاً عن اعالتها، مسؤولاً عن تصرفاتها، مسؤولاً عن خروجها ودخولها بحيث ينص على أن الزوجة حين تخرج من البيت يجب أن تحصل على اذن زوجها وحين تسافر أن تحصل على موافقة كتابية من زوجها وإلا منعت من السفر.

ان افراغ المرأة من مسؤوليتها افراغ لشخصيتها من لب الانسان وجوهره وتميزه عن سائر المخلوقات، وبهذا الافراغ لم يعد للمرأة إلا قشرتها الخارجية الظاهرة أمام الأعين، لم يعد للمرأة إلا غلافها الجسدي الخارجي.

ولم يعد أمامها إلا أن تنشغل بهذا الغلاف الجسدي، فهي تدلكه وهي تنعمه، وهي تزيل الشعر من فوقه كلما نما، وهي تعريه تارة وتخفيه تارة، وهي تنفق عليه كُل ما يقع تحت يدها من مال وكل ما تجد عندها من وقت.

ويؤكد لها المجتمع من حولها هذه الحقيقة؛ فالصحف والمجلات حين تخاطب المرأة تخاطبها كطبقة من الجلد تحتاج إلى تدليك بأنواع خاصة من الكريم، وكرموش تحتاج إلى تقوية وتغذية، وكشفاه تحتاج إلى طلاء بلون الورد، وكشعر يحتاج الى صبغات تتناسب مع لون الفستان وهكذا.

والرجل حين يلتقي بها يفرغ في مهبلها سائله المنوي فيضيع توتره البيولوجي الناتج عن ضغط هذا السائل على اعضائه، ويشعر براحة تشبه تلك التي يشعر بها حين يفرغ مثانته من البول، وكما يشيح بوجهه عن الوعاء الذي بال فيه كذلك يشيح بوجهه عن المرأة التي اتصل بها جنسياً ويدير لها ظهره ، وأحياناً يبصق بالقرب منها أو بعيداً عنها حسب مستواه الاجتماعي .

ويعجز الرجل بطبيعة الحال عن حب المرأة لأنه يرى نفسه انساناً، أما هي فلا يراها إلا وعاء. فالقدرة على الحب تعتمد على قدرة الانسان على ادراك حرية الشخص الآخر وحقيقته واحترامها. حين يكف الشخص الواحد عن التصرف وفق رغبته فحسب ويدرك الشخص الآخر ويحترمه ويعترف به. وهذا يفرق علاقة الإنسان بالأشياء وعلاقته بالإنسان الآخر الذي ليس شيئاً وانما انسان مثله تماماً.

هذا التماثل هو أصل الحب. لأن التبادل لا يمكن أن يحدث بغير التماثل. ان الفروق الضخمة التي وضعها المجتمع بين الرجل والمرأة جعلهما غير متماثلين فلم يعد في الامكان حدوث التبادل بينهما، وأصبحت العلاقة أخذاً من طرف وعطاء من الطرف الآخر.

وتعلم الرجل الأنانية. تعود على أن يأخذ فحسب. تعود على أن رغبته هي التي تحركه فحسب. أما رغبة المرأة فهو لا يعرف عنها شيئاً ولا يتصور وجودها. إن معظم الأزواج لا يمارسون العلاقة الجنسية مع زوجاتهم إلا حين يرغبون هم، وحين يريدون هم، وبالطريقة التي يريدون، وبصرف النظر عن رغبة الزوجة أو استعدادها لذلك. وان قانون الزواج يفرض على الزوجة أن تلبي رغبة زوجها في أي وقت من الليل أو النهار حسب مشيئته ورغبته، فإذا ما عجزت لتعب أو مرض اعتبرت في حال لا يمكن الانتفاع بها كزوجة ويحق لزوجها أن يتركها ويسقط حقها في النفقة.

ان الأنانية هي الصفة الأولى لعلاقة الرجل بالمرأة. وما هذه الغيرة التي يشعر بها الرجل على امرأته إلا بسبب الانانية وليست بسبب الحب. فالمرأة تصبح ضمن ممتلكات الرجل مثل سيارته أو دراجته أو حماره. انه يخاف عليها أن تسرق منه، وحقده على السارق أكثر من حقده على الشيء المسروق. ومن هنا تلك المشاهد التي رأيناها كثيراً في الحياة الواقعية وفي الفن والأدب وعلى الشاشة حين يضبط الرجل رجلاً يغازل زوجته أو حبيبته فإذا به يشمر أكمامه ليضربه أو يستل سيفه ويبارز الرجل على حين تقف المرأة تتفرج على القتال.

وازاء انانية الرجل كانت هناك تضحية المرأة. فالمرأة تضحي وتعطي، وتسلم نفسها، وتستسلم، وكل هذه التعبيرات التي تصف علاقة المرأة بالرجل.

وكما لا يقوم الحب على الأنانية، كذلك لا يقوم الحب على التضحية. فالمرأة التي تقول للرجل انها ضحت بنفسها من أجله امرأة لا تشعر بالحب. فالحب ليس تضحية بالنفس وليس نكراناً للذات. ان نكران المرأة لذاتها أنانية مقنعة. فهي تضحي بنفسها لسبب واحد هو انها لم تكن تملك هذه النفس. فهي تضحي بشيء لا تملكه.

والإنسان الذي فقد ذاته أو نفسه لا يستطيع أن يحب. فالحب توكيد لثقة الإنسان في ذاته، وامتداد لحبه لنفسه ليحب سائر البشر. والمرأة من خلال ضغوط المجتمع والكبت فقدت ذاتها وفقدت ثقتها في نفسها. ولعل أكبر دليل على عدم ثقة المرأة

بنفسها هو تلك المساحيق الكثيرة التي تحاول بها اخفاء حقيقتها وتلك الطبقة السميكة من الطلاء التي تتنكر تحتها. لقد فقدت المرأة ثقتها في نفسها إلى الحد الذي أصبحت فيه عاجزة عن أن تواجه الناس بوجهها الحقيقي. ومن النادر أن نجد امرأة على قدر من الشجاعة والثقة بالنفس إلى الحد الذي تخرج به من بيتها بوجه مغسول نظيف بغير مساحيق.

ان تشدق المرأة بكلمات التضحية في الحب ليس إلا نوعاً من التجارة. انها شخصية غير مستقلة وفي حاجة إلى حماية ومن أجل أن تكسب حماية الرجل فهي تدعي أنها تعطيه نفسها، والحقيقة انها فقدت هذه النفس منذ زمن طويل حين قبلت سيادة الرجل ووصايته وتنازلت عن حقها الطبيعي في تحمل المسؤولية وفي الارادة والحرية.

ولكن ما من طريق آخر تجده المرأة أمامها. ان الزواج الذي تسعى اليه لتحتمي في رجل لا يمثل لها بر الأمان. فهي في ظل الزواج مهددة دائماً بأن يتركها الرجل بسبب أو بغير سبب. وهي بغير رجل لا تستطيع ان تعيش. انها في حاجة دائماً الى الرجل ليعولها أو ليحميها اجتماعياً، أو نفسياً، أو جسدياً. وشتان بين هذه الحاجة والحاجة إلى الحب الحقيقي. فالحب هو تلك الحاجة التي يشعر بها الإنسان المستقل بعد أن يشبع كل ضروريات الحياة. أما المرأة فهي تحتاج إلى الرجل لأنها بغيره لا تستطيع أن تشبع ضروريات حياتها.

وهذا يفسر لنا كثيراً من الظواهر التي نراها في الزواج أو في علاقة الرجل بالمرأة. فالزوجة تسعى بكل ما أوتيت من جهد أن تربط زوجها بها حتى لا يتركها بسهولة. فهي تخدمه وتطيعه وتلبي كل رغباته. انها تدعي البلاهة والغباء أحياناً لتصدق أكاذيبه وتفاهات غروره. انها ترضي غروره. وتوهمه انه الرجل الوحيد على الأرض. انها تربطه بالبيت بوسائل مختلفة، متعددة، مرة تستخدم الأطفال وتلد له منهم أكبر عدد، ومرة تستخدم غريزة حب الطعام فتصنع له كل يوم طبقاً جديداً، ومرة تستخدم الغريزة الجنسية فتتفنن في اغرائه وفي اثارته.

تفعل ذلك كل يوم، وكل ليلة بغير كلل أو ملل. انها تعلم ان التكرار يصنع العادة، وان العادة حين تتمكن من الانسان تسيطر عليه فلا يتخلى عنها.

ان الزواج الذي يستمر ونسميه زواجاً ناجحاً، لم ينجح بسبب الحب وانما بسبب

العادة. والزوج هنا كالمدمن الذي يسوقه ادمانه كل يوم إلى زوجته. انه قد يكرهها وقد يملها وقد يود في أعماقه لو تخلص منها لكن قدميه تسوقانه إلى داره كل يوم بحكم العادة.

والحب ليس عادة، وليس ادماناً، وليس عملاً لا ارادياً، وليس عملاً غير واع. الحب عملية ارادية واعية تتم بسبب قدرة الإنسان على الاختيار الحر. هذه القدرة لا تكون إلا في إنسان مستقل.

ان الاستقلال شرط من شروط نضوج الشخصية، ونضوج الشخصية شرط من شروط تحقيق الذات، وتحقيق الذات شرط من شروط الحب.

وهكذا ندرك ان القدرة على الحب هي أعلى قدرات الانسان وانضجها وأكثرها وعياً. وليس هناك من تعبير عن حاجة الانسان إلى الكمال أبلغ من الحب. فالحب ينشأ عند الانسان بعد أن يلبي كل احتياجاته. الحب جوع يشعر به الانسان بعد أن يشبع كل رغباته وغرائزه. هذا الحب قادر على تحريك كل ملكات الانسان في الخيال والابتكار وتفجير كل طاقاته الجسمية والنفسية والعقلية.

والحياة الخالية من الحب هي حياة ناقصة مهما كانت الانجازات التي يحققها مثل هذا الشخص في أي ميدان من ميادين النشاط. فالحب هو تحقيق الذات ولا يستطيع الانسان أن يخدم غرضاً أسمى من تحقيق ذاته، أو ان الانسان لا يستطيع بدون تحقيق ذاته أن يدرك من تحقيق الأغراض الأخرى شيئاً.

وإذا كان مفهوم «التسامي» قد كشف أنه ليس هناك ما هو أسمى من الجنس بمعناه الصحيح في حياة الانسان، وان الشرف ليس هو نكران الجنس والاعراض عنه ولكن الشرف هو الصدق، صدق الانسان المتكامل جسداً ونفساً وعقلاً. الشرف هو صدق الجسد وصدق النفس وصدق العقل. وإذا كان الحب ينبع من ارادة الانسان وحريته واستقلاله وإذا كانت الحضارة تعرف بأنها قدرة الانسان على السيطرة على حوافزه وغرائزه فإن الانسان يصبح أكثر تقدماً حين يصبح أقوى ارادة وبالتالي حين يتحرر من ارادات الغير والضغوط الاجتماعية التي تفرض عليه.

ولا يمكن للارادة أن تنمو وتشتد إلا بالتدريب والممارسة شأنها شأن عضلات

الجسم تقوى بالتدريب الرياضي المستمر وممارسة الحركات الضرورية للنمو الدائم منذ الطفولة.

ان مكونات الانسان الجسمية والنفسية والعقلية تنمو وتتطور منذ الطفولة حتى نهاية العمر. ويتوقف هذا النمو والتطور على مقدار الخبرات والتجارب التي يمارسها الانسان منذ لحظة ولادته حتى لحظة مماته.

كما ان اجهزة الجسم المختلفة لا تقوى إلا بالتدريب والممارسة الفعلية لمختلف أنواع النشاط الجسمي كذلك فإن النفس لا تقوى إلا بالتدريب والممارسة الفعلية لمختلف أنواع نشاطها، وكذلك العقل، وكذلك جميع أجهزة الانسان وأحدها الجهاز التناسلي.

ولا يعني هذا القول ان الخبرة بالجنس لا تكتسب إلا بتعدد العمليات الجنسية مع أكبر عدد من الأشخاص. فإن الرجل الذي يطلق عليه اسم « دون جوان » أو «زير النساء» أقل الرجال خبرة بالجنس بمعناه الصحيح وبالتالي فهو أكثرهم فشلا في علاقاته مع النساء، وهذا الفشل هو السبب الحقيقي وراء انتقاله من امرأة إلى امرأة.

ان الجنس ليس حركات جنسية تؤدى، وليس هروباً من فشل ما أو تعويضاً عن نقص ما. الجنس هو التقاء شخصيتين متكاملتين لقاء حراً، فإذا ما خبر انسان ما (رجلاً كان أو امرأة) هذا الجنس فإن هذه التجربة تصبح في حياته خبرة انسانية حقيقية تثري حياته وتساعد على ازدهار شخصيته وتزيد من قدراته على التفكير الحر والابتكار.

ان النضوج الانساني يحدث حين تتراكم لدى المرء الخبرات بالحياة والناس. ولا يمكن لانسان أن ينضج وتكتمل شخصيته إذا ما عاش وحيداً منعزلاً عن الناس والمجتمع. وقد حرمت معظم نساء العالم من النضوج بسبب انعزالهن داخل البيوت وحرمانهن من الخبرات الضرورية للحرية واكتمال الشخصية. وبالاضافة الى هذا الحرمان فان ضغوط المجتمع الاخلاقية جعلت المرأة تكبت رغبتها الجنسية وتكبت معها أيضاً الرغبة في الحرية الشخصية بصفة عامة. فالرغبة الجنسية ليست رغبة جسمية فحسب ولكنها رغبة نفسية للحب والحرية.

ان الشخصية الناضجة هي وحدها التي تستطيع أن ترغب الحرية وتسعى اليها دون أن تخشاها، فالحرية تخيف الانسان غير الناضج غير المستقل، ومن خوفه منها فإنه يفضل عليها العبودية وأمن التوافق الاجتماعي.

وهذا هو ما حدث للمرأة. لقد حرمها المجتمع من نضوج الشخصية والاستقلال وبالتالي عجزت عن أن ترغب الحرية.

ان عزل المرأة داخل البيت حرمها من الخبرة والوعي، وأصبحت المرأة تجهل الحياة وتجهل الرجل وتجهل نفسها.

والجهل هنا لا يعني غياب المعلومات، ولكنه يعني أيضاً وجود المعلومات الخاطئة والخزعبلات التي ملأت رأس المرأة بسبب تقاليد المجتمع المختلفة.

فما أجهل تلك المرأة التي تتصور أن دمها أثناء الطمث نجاسة، وما أجهل تلك المرأة التي تتصور ان قطع بظرها ضروري لتصبح طاهرة نظيفة.

والجهل الذي فرض على المرأة فرض بطبيعة الحال على الرجل، لأن الرجل هو الذي خلق هذه الاشاعات والمعلومات الخاطئة عن المرأة وهو الذي روجها لصالح سيادته وسيطرته.

ويهبط جهل الرجل والمرأة بالعلاقة بينهما إلى درجات دنيا تزيد بزيادة ذلك الجهل. ولا يمكن للعلاقة بينهما أن ترقى إلى مستوى الحب ما لم يقضيا معاً على جهلهما. والقضاء على ذلك يستلزم أول ما يستلزم أن تعود العلاقة بين الرجل والمرأة إلى طبيعتها الأولى بحيث لا تكون هناك سيادة لأحد على أحد.

التمويه

ولا شك ان خروج المرأة من بين جدران البيت الى العمل هو الحجر الأساس الذي يبنى عليه استرداد المرأة لحقوقها الطبيعية كانسانة.

لكن هذا العمل ينبغي ألا يكون نوعاً من الاستغلال الجديد للمرأة، ويجب ألا يكُون تحت سيطرة الرجل كما يحدث في الريف حيث تعمل الفلاحات في الحقل والبيت تحت سيادة الرجل، وفي ظل القوانين الجائرة التي تهضم حقوق المرأة.

ان خروج المرأة للعمل تحت سيطرة الرجل وفي ظل القوانين الحالية لا يعني إلا مزيداً من الاستغلال للمرأة، كما يحدث الآن للمرأة العاملة التي أصبحت تعمل خارج البيت وداخله والتي يسبب لها الارهاق الجسدي والنفسي كثيرا من الأمراض والمشاكل تحول بينها وبين الحياة الصحية السليمة ولا أقول التحرر أو الحرية التي تنشدها.

ان الطريق أمام المرأة صعب وشاق يحتاج إلى كفاح طويل، كفاح واع تدرك فيه المرأة الأسباب الحقيقية التي تحول بينها وبين الحرية والمسؤولية، ولا تخدعها تلك الحركات المتمردة التي تقوم بها بعض النساء من حين إلى حين في مختلف انحاء العالم للتحرر في ظل المفاهيم القديمة وفي ظل سيادة الرجل.

ان مثل هذه الحركات غير الواعية لا تفيد إلا أن تمد الصحافة من حين إلى حين بمادة مثيرة طريفة، تجني من ورائها توزيعاً أكثر ربحاً.

وعلى المرأة الا تنخدع بتلك المعلومات الخاطئة والاحصاءات التي تستغلها بعض الحركات التي تقاوم التقدم.

فمن الطبيعي ان المجتمعات الرأسمالية في مختلف انحاء العالم لا تسلم بغير مقاومة، ولا تعطي الحقوق إلى من سلبت منهم الحقوق وعلى قمتهم النساء بغير

مقاومة. وتختلف أساليب المقاومة وأسلحتها من مجتمع إلى مجتمع. ومن وقت إلى وقت. مرة تستخدم سلاح الدين وتستغل تغلغله في نفوس بعض المجتمعات، ومرة تستخدم سلاح القيم الاخلاقية وتستغل عدم ادراك الناس بأن هذه القيم من صنع المجتمع ذاته، ومرة تستخدم بعض الاحصاءات والأرقام لتثبت للناس ان المرأة العاملة أقل انتاجاً من الرجل وبالتالي تنادي بعودة النساء إلى البيوت انقاذاً للاقتصاد من الانهيار. ومرة تستغل بعض البحوث العلمية القاصرة لتثبت أن المرأة لا تصلح إلا لأعمال التمريض والسكرتارية والتدريس والخدمة، وبذلك تحول بين المرأة وبين المناصب العليا والأعمال الهامة في المجتمع.

ومرة تستخدم علماء النفس من تلامذة وأتباع فرويد الذين دعموا النظام الرأسمالي بالنظريات النفسية الخاطئة. ويسعى هؤلاء بنظرياتهم التقليدية المتخلفة أو نظرياتهم الجديدة التي ترتكز على نفس المفاهيم القديمة إلى أن يجهضوا أي ثورة تقوم بها النساء، أو يقوم بها الزنوج أو الشباب أو العمال وغيرهم من الفئات المغبونة من الشعب.

ويحاول هؤلاء الفرويديون التقليديون أو تلامذتهم ممن يسمون أنفسهم بالفرويديين الجدد إلى تفسير ثورات الشباب أو الزنوج أو النساء بسبب خلل داخل نفسية الإنسان الثائر وليس بسبب خلل في النظام الاجتماعي القائم. وليس هذا إلا امتداداً لنظرة فرويد إلى التمرد على السلطة على انه نتيجة لعقدة أوديب، وحيث تمثل السلطة شخص الأب أمام الإنسان المتمرد. ويحاول الفرويديون الجدد أن يعبروا عن نفس هذا المفهوم وانما بأسلوب آخر فيقولون: إن التمرد على السلطة ليس إلا تعبيراً خارجياً عن عدم مقدرة الإنسان المتمرد على علاج صراعاته الانفعالية الباطنية في اللاشعور.

ويكتب هربرت هندين (أحد تلامذة فرويد المؤمنين بالتحليل النفسي) عن الشباب الثائر ضد سياسة نيكسون فيقول في نيويورك تايمز (١٧ يناير سنة ١٩٧١):

«ان هؤلاء الشباب الراديكاليين يعانون من اهمال أسرهم لهم التي أصابتهم بخيبة الأمل في تحقيق ما تحتاج اليه شخصياتهم والتي تمعن في تجاهلهم كأشخاص وأفراد مستقلين من البشر».

وقد كانت الحركات الثورية للعمال والشباب والنساء والزنوج التي ظهرت مع بداية

الأزمة الاقتصادية في أوائل الثلاثينات والمستمرة حتى اليوم سبباً في تعديل الأفكار الفرويدية الكلاسيكية لتتمشى مع الواقع الجديد، بعد أن عجزت نظرية التحليل النفسي القائمة على غريزة الجنس والموجهة للسلوك عن أن تسوق التبريرات المقنعة لهذه الحركات الثورية.

كما ان علم الأجناس في السنوات الأخيرة توصل إلى نتائج وشواهد كبيرة أثبتت زيف بعض الافتراضات المبدئية لفرويد ومنها غريزتا الجنس والموت، ومراحل الجنسية الطفلية وعقدة أوديب. وانتهى روبرت سيرز (نيويورك تايمز ١٩٤٢) إلى أن التحليل النفسي ليس علماً حقيقياً بالقياس إلى معايير العلوم الطبيعية.

وأصبحت مهمة الفرويديين الجدد ومنهم اريك فروم وهربرت ماركيوز مساعدة المجتمع الرأسمالي في إجراء بعض الاصلاحات لأفكار فرويد الكلاسيكية بحيث تلائم العصر، وبحيث تمتص ثورات الشباب والعمال والنساء والزنوج.

ان الرأسماليين يقاومون أي ثورة أو تمرد ضدهم بجميع الوسائل الممكنة، وأحد هذه الوسائل هي تقديم أفكارهم الاستغلالية في أثواب متنوعة الألوان وتحت عناوين مختلفة الأشكال توحي للناس انها تغيرت على حين انها لم تتغير.

وهناك محاولات علمية خادعة يقوم بها الفرويديون الجدد لمزج المبادىء الاشتراكية بالمبادىء الفرويدية، ومن هؤلاء فروم وماركيوز ورايخ. انهم يحرفون الحقائق التي تفسر الفكر والانفعال والسلوك الانساني، ويدعون ان ثورات الشباب والنساء والزنوج ليست إلا صراعات داخل الإنسان أو في اللاشعور.

وكما يقول جوزيف رينولدز: «وماذا يمكن أن يسعد الطبقة الحاكمة أكثر من اقناع الناس بأن مشاكلهم ليست إلا نتاج الصراعات اللاشعورية داخل أنفسهم؟ أو ان تاريخ الانسان ـ بحروبه وتفرقته العنصرية واضطهاده ـ ناتج عن القوى اللاشعورية للتدمير والليبدو والكبت الجنسي، وليس ناتجاً عن عمل الرأسمالية؟!.

ان علماء النفس الرأسماليين يدفعون الانسان إلى البحث عن مشكلاته داخل نفسه، وبهذا يقل وعيه فلا يشترك في الكفاح مع الآخرين ضد الأسباب الحقيقية.

ولقد شوهت نظرية فرويد عن التحليل النفسي وأفكارها عن السلوك القهري

اللاشعوري كفاح الشباب والنساء والعمال والزنوج من أجل تحقيق العدالة والمساواة بين البشر.

ولا بد لكل امرأة أن تدرك ان نظرية فرويد للتحليل النفسي الصقت بالمرأة كل صفات النقص الممكنة مثل الهستيريا والماسوشية والسلوك الطفلي والسلبية والغيرة وعدم الاحساس بالمسؤولية. ويجب أن تدرك المرأة أيضاً ان تلامذة فرويد وأتباعه الفرويديين الجدد يبقون على هذه الأفكار المتخلفة عن المرأة، وانهم يروجونها للاقلال من قيمة أي حركة ثورية تقوم بها النساء. ولهذا فإن جميع حركات تحرير المرأة الواعية ترفض جميع الأفكار الفرويدية القديم منها والجديد.

وتدرك المرأة الناضجة الواعية ان ثورة الانسان ليست بسبب صراعات داخلية في اللاشعور ولكنها بسبب صراعات خارجية في المجتمع الاستغلالي، وان النشاط الاجتماعي للفرد هو العامل الأساسي في تكوين نفسيته، وان الابوين والأسرة والمدرسة والشارع والعمل والصراعات الاجتماعية كلها تلعب دوراً هاماً في تكوين الانفعالات والمواقف والسلوك وشخصية الإنسان. وحيث ان وعي الانسان انعكاس للواقع الاجتماعي فإنه يلعب الدور الرئيسي في تشكيل سلوك الانسان. تدرك المرأة الواعية ان الانسان ليس كائناً عصابياً عاجزاً وعبداً لغرائزه كما يريد له فرويد وعلماء التحليل النفسي، ولكنه انسان له قدرة على الارادة والاختيار الحر وتغيير العالم من حوله من خلال قدراته الثورية الخلاقة، وانه قادر أيضاً على تغيير نفسه وتطويرها دائماً إلى الأفضل والأرقى.

ويعتبر الدين من أقوى الأسلحة التي يستخدمها المجتمع الرأسمالي لمقاومة حركات التمرد والثورة التي تقوم بها الفئات المضطهدة من الشعب وبالذات النساء، لشدة الارتباط بين القيم الدينية والقيم الاخلاقية التي تحكم النساء فحسب.

ولا شك ان تلك الموجة الدينية التي أصبحت تجتاح في السنوات الأخيرة بعض المجتمعات الرأسمالية المتقدمة مثل أمريكا وانجلترا ليست إلا إحدى وسائل المقاومة يستخدمها المجتمع الرأسمالي لمقاومة التقدم.

في زيارتي الأخيرة لبريطانيا في أواخر عام ۱۹۷۱ لاحظت زيادة اهتمام الدولة بالدين والأخلاق، وقالت لي الأستاذة فانيسا فينتون وهي إحدى الباحثات في مجال تنظيم الأسرة: إن الجهل بالجنس ظاهرة عامة في بريطانيا وان هذا الجهل يؤدي إلى

مشاكل كثيرة أقلها تلك الزيادة في نسبة المصابين بالأمراض التناسلية، ومع ذلك فإن الحكام وأعضاء البرلمان ورجال الكنيسة والمسؤولين عن التعليم يعارضون فكرة تدريس الجنس بحجة المحافظة على الدين والأخلاق.

وفي الأيام القليلة التي عشتها في لندن في شهر سبتمبر من ذلك العام قرأت في الصحف أكثر من مرة عن تلك الحركات التي تسمي نفسها بالحركات الاخلاقية والتي يقودها رجال من عتاة المجتمع الرأسمالي، ومن حين إلى حين تخرج إلى شوارع لندن وميادينها الرئيسية مجموعات من الناس يحملون لافتات تنادي بالعودة إلى حظيرة الدين والأخلاق.

وتمتد هذه الموجة إلى كثير من المجتمعات الرأسمالية الأخرى، وقد نشأت في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة عدد من الجمعيات الدينية والاخلاقية تدعو الناس إلى تعاليم الكنيسة والمحافظة على التقاليد، وتهاجم التحرر أو ما تسميه بالانحلال الأخلاقي.

وقد لاحظت هذه الجمعيات ان اكتشاف حبوب منع الحمل قد لعب دوراً في سبيل مساواة النساء بالرجال واسترداد المرأة لبعض حقوقها الضائعة فبدأت هذه الجمعيات تهاجم حبوب منع الحمل بحجة ان نسبة الاصابة بالأمراض التناسلية كالزهري والسيلان ارتفعت في السنوات الأخيرة في هذه البلاد. وارجعت هذه الجمعيات هذا الارتفاع إلى حبوب منع الحمل التي ساعدت على الحرية الجنسية وانهيار الخلق.

وتضع مثل هذه الجمعيات على واجهتها لافتة اسمها التسلح الاخلاقي لتخفي وجهها الحقيقي الذي يحاول أن يشد الناس إلى الوراء ليبقى المجتمع الرأسمالي قوياً راسخاً.

وتستغل هذه الجمعيات جهل الناس بكثير من الحقائق العلمية؛ فإن زيادة الاصابة بالأمراض التناسلية في أي مجتمع ليس بسبب الحرية التي منحتها حبوب منع الحمل للنساء، ولكن بسبب الجهل بالجنس الذي يتفشى في جميع أنحاء العالم دون استثناء. وهناك مجتمعات شرقية لم تسمح بدخول حبوب منع الحمل اليها (لأسباب أو معتقدات دينية) ومع ذلك فإن نسبة الاصابة بالأمراض التناسلية فيها تزيد عن أي نسبة في أي بلد من البلاد التي تستخدم حبوب منع الحمل.

لكن التاريخ يزخر بمثل هذه الجمعيات السياسية والنفعية التي ترتدي ثوباً اخلاقياً أو دينياً، وتحاول أن تعكس الحقائق وتشكك الناس فيما تريد أن تشككهم فيه، مستغلة تعاطف الناس مع كل من يتكلم باسم الأخلاق أو الدين.

وإذا كانت جمعية التسلح الخلقي في أمريكا مثلاً جمعية اخلاقية حقاً أو جمعية مبادىء ودين حقاً فلماذا لا تدعو باسم الخلق والدين إلى وقف الحرب في فيتنام، أو إلى مساواة الزنجي بالأبيض؟ لماذا تقتصر دعوتها على محاربة التمرد في نفس الانسان، وإلى العودة إلى الصلاة وتعاليم الكنيسة وطاعة الرب. لماذا تحاول اقناع الناس بأن الانهيار الأخلاقي الذي يهدد العالم ليس إلا بسبب تمرد الانسان وعدم قناعته بما أعطاه الرب؟ ولعلها تتصور ان الرب هنا هو المجتمع الرأسمالي!

ولا شك ان هذه الجمعيات هي التي تعمل ضد الأخلاق وضد الدين الحقيقي، لأنها تقف ضد المساواة بين البشر، وضد العدالة، وضد السلام، بوقوفها مع الذين يؤيدون الحرب والذين ينادون بالتفرقة العنصرية، وبمعاداتها للحركات التحررية التي يقوم بها الزنوج والنساء، وتسميها حركات تمرد وعصيان الرب.

أما حبوب منع الحمل (وغيرها من وسائل منع الحمل) فقد لعبت دوراً كبيراً في التخفيف من حدة الجهل الجنسي المتفشي في العالم، وذلك عن طريق توضيحها بعض الشيء لمعنى الجنس الصحيح بفصلها بين عملية التناسل البيولوجية والعملية الجنسية.

ان استخدام وسائل منع الحمل في معظم البلاد الآن يرقى بالعملية الجنسية من وظيفة بيولوجية إلى مستوى العمل الانساني الناضج، ويستبدل عملية تناسلية عشوائية تسيطر على الانسان بعملية أخرى انسانية يسيطر عليها الانسان بإرادته واختياره الواعي. وهذا هو المفهوم الصحيح لمعنى الجنس.

ان ادانة حبوب منع الحمل أو ادانة الحرية سواء كانت جنسية أم غير جنسية، أو ادانة ثورات الشباب أو النساء، ليست إلا تستّراً على المجرم الحقيقي ألا وهو نظام المجتمع الرأسمالي، الذي لا يسوي بين الناس، المجتمع الذي يحترم الآلة أكثر من الانسان، المجتمع الذي يفرق بين الرجل والمرأة، بين صاحب العمل والأجير، بين زنجي وأبيض. المجتمع الذي يقتل الملايين في حرب الطمع والاستغلال، المجتمع الذي يقتص من الأطفال لأخطاء الكبار، المجتمع الذي يحترم عقداً من ورق

أكثر من احترامه لشعور الانسان وإرادته، المجتمع الذي يقبل الزيف في حجرات النوم كما يقبله في حجرات الاجتماعات.

على المرأة ألا تنخدع بمثل هذه الحركات، وعليها أن تواصل كفاحها من أجل الحرية والمسؤولية، وعليها أن تدرك أن واجبها الأساسي في الحياة ليس هو الانجاب وليس هو الخدمة بالبيت، وان واجبها الأساسي في الحياة هو المشاركة في تغيير المجتمع إلى الأفضل والسعي لرقي الانسان.

فالرقي الانساني هو قدرة الانسان المطردة على أداء وظائف في الحياة تزيد على وظائفه البيولوجية والتي يشاركه في القدرة على ادائها جميع الكائنات الحية بما فيها وحيدات الخلية وأقل أشكال الحياة تطوراً.

خطوات على الطريق

والسؤال الذي لا بد أن يسأل الآن هو: كيف يحدث التغيير؟ كيف يمكن أن نصحح الأخطاء، كيف يمكن أن نقضي على الجهل، كيف يمكن أن تتغير الظروف الاجتماعية التي تحكم على المرأة بالكبت والتناقض الذي تعيش فيه. كيف يمكن القضاء على استغلال الرجل للمرأة في العلاقة الزوجية؟

وقد اتضح مما سبق ان تحرير المرأة لا يمكن أن يحدث في مجتمع رأسمالي، وان مساواة المرأة بالرجل لا يمكن أن تحدث في مجتمع يفرق بين فرد وفرد، وبين طبقة وطبقة. ولهذا فإن أول ما يجب أن تدركه المرأة أن تحريرها انما هو جزء من تحرير المجتمع كله من النظام الرأسمالي وقيمه التجارية والأخلاقية وان كفاحها من أجل التخلص من قيم الرأسمالية وتقاليدها ونظمها هو الكفاح المجدي.

وعلى المرأة أن تدرك أيضاً ان الاشتراكية بمعناها الحقيقي من حيث العدالة والمساواة بين البشر لا تكون واقعاً لمجرد اعلان الشعارات الاشتراكية، أو اصدار القوانين الاشتراكية. ان تغيير القوانين ضروري، ولكنه لا يكفي لاحداث التغيير، فكم من قوانين تظل حبراً على ورق.

ان احداث التغيير يقتضي جهوداً شاقة طويلة في جميع مجالات الحياة على اختلافها وتنوعها.

ولا شك أن من العوامل الهامة في احداث التغيير هو التربية. تربية جديدة ترتكز على المساواة الكاملة بين المرأة والرجل في جميع مراحل العمر منذ الولادة حتى الممات، مساواة في الحقوق والواجبات خارج البيت وداخله وفي تربية الأطفال.

ومعنى ذلك ان البنت حين تولد يجب ألا تشعر بفرق بينها وبين أخيها أو بينها

وبين الأطفال الذكور سواء في البيت أو في المدرسة أو في الشارع. وتتلقى البنت التربية التي تنمي نفسها وعقلها وجسمها وتعدها للعمل في المجتمع والمشاركة في مختلف مجالات الحياة، ويتلقى الولد التربية نفسها. وتفهم البنت منذ طفولتها ان دورها في الحياة لا يختلف عن دور الذكر. وان كليهما يجب أن يعد اعداداً صحيحاً لممارسة هذا الدور. وتحظى البنت بالثقة والحرية ولا تخوف من الجنس ويصبح دور الأم والأب المساعدة على أن تفهم البنت مشاعرها ورغباتها وان تمر بجميع المراحل اللازمة لنضوج شخصيتها. ويكون اهتمام الأم والأب بتفوق البنت الدراسي مساوياً لاهتمامهما بتفوق الولد الدراسي. ويكون اهتمام الأم والأب بملابس البنت ومظهرها مساوياً لاهتمامهما بملابس الولد ومظهره. وإذا أظهرت البنت ميلاً إلى الجرأة والإقدام وقوة الشخصية أكثر من أخيها فلا ينظر اليها على انها مسترجلة أو شاذة، وان البنت يجب أن تكون هادئة وادعة مستسلمة رقيقة، ولا ينظر إلى أخيها على انه هو الذي يجب أن يكون الأقوى والأشجع والأكثر إقداماً. يجب أن تنمى صفات البنت الطبيعية وتحصل على شخصيتها على كل الفرص للنمو دون أن تفرض عليها صفات معينة يجب أن تتحلى بها البنت لمجرد انها بنت. قد تتفوق البنت على الولد في الذكاء أو في قوة الشخصية وقد تقل عنه، المهم هو أن يحظى كل طفل (ولداً كان أو بنتاً) بجميع الفرص التي تظهر نبوغه أو قوته في أي مجال من المجالات.

كذلك يجب ألا يطلق على الولد الوديع الخجول الهادىء انه بنت أو ضعيف الشخصية. فلكل طفل شخصيته واستعداده، وقد ينبغ هذا الطفل الخجول فيما بعد في أعمال فنية تناسب شخصيته وتكوينه. كذلك يجب ألا يطلق على البنت الجريئة غير الخجـول انها ولد. فهذه البنت قد تصبح فيما بعد نابغة في الأعمال القيادية والسياسية وغيرها من المجالات التي تناسب شخصيتها.

والتربية ليست بالكلام فحسب وانما بالعمل والنموذج. لا بد أن يشعر الأطفال ان أمهم مساوية لأبيهم في الحقوق والواجبات. وانها تخرج إلى العمل مثله وتشترك معه في الانفاق على البيت. وانه يشترك معها في تربية الأطفال واطعامهم وترتيب البيت.

ولا بد للبنت أن تقوم بنفس المسؤوليات والأعمال التي يقوم بها أخوها الولد. فهي تذهب إلى المدرسة مثله، وتذاكر مثله، وهي لا تتحمل مسؤوليات أو أعمال منزلية لا يتحملها هو. إذا كان النظام في البيت يستدعي أن يرتب كل فرد سريره فيجب أن

يرتب الولد سريره كما تفعل اخته. ويجب أن يساعد الولد في اعداد المائدة إذا كانت اخته تساعد في اعداد المائدة... وهكذا لا يشعر أحدهما أن هناك أعمالاً معينة يجب أن يؤديها لمجرد انه ذكر أو انثى.

وليس معنى ذلك أن تهمل الميول الخاصة والاستعدادات الخاصة. مثلاً إذا أظهرت البنت ميلا إلى أعمال كانت تقتصر على الأولاد مثل اصلاح الأدوات الكهربائية في البيت، أو أعمال النجارة، أو اصلاح صنابير المياه وغيرها فلا بد أن يشجع ميلها وينمى ولا يقال لها ان هذه أعمال الأولاد وعليها أن تتقن الطبخ مثلاً.

كذلك إذا أبدى ولد من الأولاد ميلاً إلى أعمال الخياطة أو ترتيب البيت أو الطبخ فيجب ألا ينهر على أساس ان هذه الأعمال نسائية ولا يصح للرجل أن يمارسها.

ان مثل هذه التربية في البيت منذ الطفولة ستضع أسس المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة في حياتهما الناضجة، وتقضي على كثير من العقد النفسية التي يعاني منها الرجال والنساء الذين يؤمنون عقلياً بالمساواة ولكنهم يعجزون نفسياً عن ممارستها، بسبب التربية الخاطئة التي حددت منذ الطفولة دور كل من الرجل والمرأة في الحياة.

ويجب أن يفهم الاطفال بالتدريج رغباتهم الطبيعية، ولا يخوفون منها. يجب أن تعرف البنت الصغيرة ما الذي سيحدث لها عند البلوغ. والتغيرات الجسمية التي ستحدث لجسمها، وكيفية حدوث الحيض، وكيفية نمو الثديين والردفين، ومعنى الرغبات الجنسية التي تشعر بها أحياناً وهكذا.

وكذلك الولد يجب أن يعرف ما الذي سيحدث عند البلوغ، فلا يفاجئه الاحتلام بالفزع، أو التشكك بقدرته الجنسية أو أي شيء آخر. ويجب أن يتساوى البنت والولد في حقهما من الحرية ومن الاحساس برغباتهما الطبيعية التي خلقت معهما وتنمو بنموهما.

ولا بد أن تصبح التربية في المدارس امتداداً للتربية في البيت وترتكز على نفس المفهوم. فلا يفرق بين التلميذات والتلاميذ في أي شيء. يتلقون الدروس نفسها والمواد نفسها ولا تكون هناك مواد خاصة بالبنات كالتدبير المنزلي والخياطة ومواد خاصة بالبنين كالفلاحة والنجارة وغيرها. لا بد أن تكون جميع الفصول مختلطة تجمع البنات والبنين، ولا بد أن يحصلوا جميعاً بنات وبنين على كل المواد بما فيها التدبير المنزلي والخياطة والفلاحة والنجارة وكل شيء.

ان تلقي التلميذ الولد لدروس التدبير المنزلي يجعله في المستقبل قادراً على مشاركة المرأة مسؤوليات البيت نفسياً وعملياً. فهذه الدروس بالاضافة إلى انها تزوده بالمعلومات ذاتها إلا أنها تقنعه نفسياً بأن هذه الاعمال لا تعيب الرجل إذا أداها، وانها جزء من مسؤوليته مثله مثل المرأة سواء بسواء.

وان تلقي البنت لأعمال النجارة والفلاحة تجعلها قادرة على مشاركة الرجل جميع الاعمال دون أن تشعر بأي حرج أو خجل، أو تنتظر الرجل ليقوم بها.

وبهذا تحتاج المدارس إلى اسلوب جديد في التربية، وإلى تغيير في بعض المناهج، وإلى تغيير في بعض الكتب والصور التي تعرض على التلاميذ والتلميذات.

أذكر ان أول كتاب تعلمت منه القراءة كانت فيه صورة لبنت تلبس فوطة المطبخ وقد كتب تحتها «سعاد تطبخ» وصورة مقابلة لها لولد جالس إلى المكتب وقد كتب تحتها «عماد يكتب». ان مثل هذه الكتب والصور يجب أن تتغير. وتصور البنت جالسة إلى المكتب وإلى جوارها الولد جالساً إلى المكتب، ثم صورة أخرى وهما معاً يعملان في الحديقة، أو وهما معاً يعملان في المطبخ.

ولن يتسع هذا الكتاب لما يجب أن يحدث من تغيير في التربية وأساليبها سواء في البيوت أو في المدارس، وانما كل ما يهمني هو التركيز على أن هذه التربية الجديدة يجب أن تسوي بين البنت والولد في كل شيء، وأن تكون هناك لكل منهما فرص متكافئة للنبوغ في أي مجال يناسب شخصياتهم وميولهم وقدراتهم الذاتية بصرف النظر عن الجنس.

وبالاضافة إلى هذا فإن التربية في حاجة إلى مبادىء وأسس جديدة سواء من ناحية المضمون أو الاسلوب. لا بد أن ترتكز التربية على عدم اخفاء الحقائق وعلى التعرف بكل مكونات الإنسان جسماً ونفساً وبيئة. أما اسلوب التربية فلا بد أن يعتمد أساساً على المناقشة وعلى اشتراك التلاميذ والتلميذات الايجابي فيها، وعلى تعودهم على ابداء آرائهم وعدم الجلوس صامتين كأجهزة استقبال فحسب يتلقون المعلومات وآراء الغير بالتسليم المطلق دون مناقشة.

لا بد أن يتعود المدرس أو المدرسة على أن يعارضه التلاميذ والتلميذات ويختلفون معه في الرأي ومن خلال المناقشة يحدث الاقتناع وليس من خلال الطاعة والاصول

والادب. ان المثل الشائع في مجتمعنا الذي يقول بأن من علمني حرفا صرت له عبداً يجب أن يتغير. فالعبد لا يستطيع أن يناقش سيده أو يختلف معه في الرأي. يجب أن تتحـرر أمثالنا الشعبية من كلمة العبد والعبودية لأي احد ولأي سبب، فإن هذا الاحساس بالعبودية سواء للمدرس أو الاب أو الام أو رئيس العمل أو كل من كان في موقع السلطة احساس متخلف يحول بين الناس والنضوج والاستقلال.

وكما سبق ان ذكرت ان النموذج الذي يراه الطفل (سواء في البيت أو المدرسة) له أهمية بالغة. ان البنت والولد ينظران إلى أمهما وأبيهما كنموذج، أو ينظران إلى المدرس أو المدرسة كنموذج. ولهذا لا بد أن تكون الام نموذجاً للمرأة التي تؤمن بعملها خارج البيت وتحب هذا العمل وتحترمه وتحرص على النجاح فيه، ليس بسبب الأجر الذي تتقاضاه وانما لأنها عن طريق هذا العمل تحقق ذاتها كإنسانة.

وقد أجرت روث هارتلي بحثاً بين عدد من الامهات الامريكيات العاملات من الحاصلات على درجات جامعية عالية. واتضح لها في هذا البحث ان معظم هؤلاء الامهات بالرغم من تعليمهن العالي وبالرغم من انهن يتولين مناصب فنية عالية وانهن يحببن عملهن ولا يعملن من أجل المال أو الأجر فحسب، إلا أنهن يقلن لابنائهن وبناتهن انهن يعملن من أجل الحصول على المال. وقد سألت الباحثة هؤلاء الأمهات لماذا يخفين حبهن للعمل ويظهرن فقط السبب المالي؟ وكان رد الامهات هو: «وأي عذر آخر نلتمسه لخروجنا للعمل وابتعادنا عن أولادنا وبناتنا؟ حينما نقول لهم اننا نخرج ونعمل من أجلهم ومن أجل تلبية احتياجاتهم المالية فإنهم يغفرون لنا الساعات التي نغيبها عنهم».

وتقول الباحثة: إن مثل هؤلاء الأمهات لا يعرفن التربية الصحيحة وانهن يرسبن في نفوس أولادهن وبناتهن مفهوماً خاطئاً للعمل عامة، ولعمل المرأة خاصة. فالعمل في حياة الإنسان ضرورة نفسية واجتماعية يحقق من خلاله ذاته ويسعى عن طريقه إلى تطوير إلى الأفضل والأرقى. أما الأجر المالي الذي يتقاضاه الإنسان عن عمله فليس إلا أحد نتائج هذا العمل وليس الهدف من العمل.

والأم التي تذهب إلى العمل وتشعر بالذنب لأنها تغيب عن أولادها لم تتخلص بعد من التخلف النفسي والعقلي الذي تعيشه معظم النساء بسبب التربية الخاطئة منذ الصغر التي تحدد وظيفة المرأة في الحياة بوظيفة الانجاب وتربية الأولاد.

ولا بد للأم العاملة من ان تتخلص من تخلفها ، وتدرك ان عملها خارج البيت واشتراكها في بناء المجتمع وتطويره هو وظيفتها الأساسية في الحياة. أما دورها بالنسبة للزوجة والانجاب وتربية الاولاد فهو كدور الرجل بالنسبة للزوج والانجاب وتربية الاولاد، ومسؤوليات الامومة مساوية لمسؤوليات الابوة تماماً، وكلاهما في حاجة إلى مفاهيم جديدة غير مريضة تتساوى فيها الام والاب في منح الحب والحنان والرعاية لاطفالهما. ويدرك الاب انه يجب ألا يقضي النهار بطوله خارج البيت ولا يرى أطفاله إلا لماماً ويترك مسؤولية رعايتهم للأم كاملة. ان الابوة بمعناها الصحيح هي أن يمنح الاب أطفاله حبه وحنانه ويخصص لهم وقتاً يقضيه معهم. وكذلك الام يجب ألا تقضي النهار بطوله ملتصقة بأطفالها في البيت ترضعهم حناناً مريضاً وتعفي الاب من مسؤوليات أبوته بل يجب أن تفهم معنى الامومة الصحيحة من حيث القدرة على منح أطفالها كل فرص النضوج والاستقلال ومنحهم من الحنان والحب القدر المطلوب حتى يمكن أن تكتمل للأطفال صحتهم النفسية.

وبهذا لا تشعر بالذنب حين تخرج من بيتها إلى العمل، بل انها تشعر بالذنب حين تبقى بالبيت طول النهار مع اولادها. لقد ثبت ان بقاء الام طول الوقت مع أطفالها يضر بصحة الاطفال النفسية ويؤجل نضوجهم ويسبب لهم أنواعاً مختلفة من العقد.

وفي أبحاث سنة ١٩٥٠ في أمريكا ثبت ان أبناء النساء العاملات لا يعانون من المشاكل النفسية التي يعاني منها أبناء النساء القابعات بالبيوت .

هذا بالإضافة إلى أن بقاء المرأة في البيت اهدار لإنسانيتها وقدراتها النفسية والعقلية التي يجب من خلال العمل في المجتمع أن تنمو وتتطور.

ان العمل يساعد على نضوج المرأة فتصبح شخصية مستقلة حققت ذاتها. وحين تحقق المرأة ذاتها من خلال العمل فإنها لن تحتاج إلى أن تعيش من خلال أطفالها وتحقق ذاتها من خلالهم ومن خلال حاجتهم الدائمة اليها، فتلتصق بهم ذلك الالتصاق الذي يحول دون الاستقلال عنها، والذي يشعرهم بالذنب إذا هم استقلوا عنها. وتشعر مثل هذه الام بالاسى حين يستقل عنها ابنها الشاب مثلاً، أو يخطب فتاة ليتزوجها. ومثل هذه الام هي الحماة الانانية التي تتشبث بحقها في ابنها حتى بعد أن يتزوج وتحقد على زوجته لانها خطفت منها ابنها واستحوذت على حبه واهتمامه. وحينما ينصف الزوج زوجته تتهمه أمه بأنه لم يكن يستحق أن تنفق حياتها لتربيته وتشعر

بالندم لانها أعطت لمن لا يرد، فيشعر الابن بالاثم وقد يظن ان زوجته هي سبب المشاكل وتفسد حياة ثلاثتهم . ومن المعروف ان مشكلة الحموات شائعة في جميع انحاء العالم وسببها هو بقاء الام بالبيت مع اطفالها.

ولا شك ان الاتجاه العام الى تحديد النسل يجعل الام غير العاملة تركز كل حياتها وتصوب كل أمومتها المتضخمة المريضة نحو طفل واحد أو طفلين بعد ان كانت توزعها على عدد من الاطفال فيخف الضرر على الواحد منهم كلما زاد عددهم. بالاضافة الى ان الاقلال من عدد الاطفال يمنح الام سنوات أكثر من الفراغ والوحدة القاتلة فتصبح في حاجة أكثر إلى العمل والاستفادة من الوقت.

ان تأكيد معنى العمل وهدفه لتحقيق الذات يمنح السعادة لجميع النساء العاملات ، ولن تشعر المرأة التي لم تنجب انها لم تحقق ذاتها أو لم تصنع في حياتها شيئاً ولن ينظر اليها المجتمع نظرته القديمة كامرأة عاقر بغير فائدة .

ان تحقيق الذات عند الإنسان رجلاً كان أو امرأة لا يمكن أن يكون عن طريق انجاب الأطفال، ومن الخطأ والتخلف أن تشعر النساء بالرضا بحياتهن والسعادة لمجرد انجاب الأطفال. ان العمل ضرورة انسانية أما الانجاب فليس إلا وظيفة بيولوجية تقوم بها جميع الكائنات الحية ابتداء من الاميبا إلى القرود.

ان الإنسان الذي لا يفهم معنى العمل وهدفه الحقيقي لا يستطيع أن ينبغ في هذا العمل، ولا يستطيع أن يجدد فيه ويطوره إلى الأفضل، ويظل كالآلة يؤديه ويكرر نفسه كل يوم بغير ابتكار أو تجديد. ولا شك ان مثل هذا الشخص يظل قانعاً بالأعمال الصغيرة في المجتمع، غير قادر على النشاط في مجالات أكبر. ولهذا فإن معظم النساء العاملات وبسبب عدم ايمانهن بالعمل وفهمهن لهدفه الصحيح فانهن يقنعن بأعمال السكرتارية والتمريض وغيرهما من أعمال الخدمة، والقلة القليلة منهن من تخوض في مجالات فنية كبيرة تثبت فيها نبوغها وقدرتها على الخلق والابتكار.

من احصاءات أخيرة عن المرأة العاملة في الولايات المتحدة اتضح ان ١٤٪ فقط من النساء العاملات يشغلن وظائف مهنية وفنية عالية أما الباقي فيشتغلن بأعمال تندرج تحت اعمال الخدمة والسكرتارية وغيرها.

وقد اتضح ان الزوجة الذكية الطموح في كثير من الأحيان والتي قد تنبغ في مجال ما من المجالات تخشى نبوغها، وقد تفوت على نفسها فرصة هذا النبوغ حماية لحياتها

الزوجية من المشاكل. فالرجل الزوج ما زال يشعر بالحرج أو الغيرة حين تتفوق زوجته عليه أو يزيد نجاحها على نجاحه. والعلاج في مثل هذه الحالات ليس هو أن تتخلى المرأة عن ذكائها وتتظاهر بالغباء لتهبط إلى مستوى زوجها الفكري ولكن العلاج هو أن يدرك الرجل ان تفوق زوجته عليه ليس عيباً بالنسبة إليه، وليس داعياً لأن يصيبه بمركب النقص، فليس من الضروري أن يكون الزوج دائماً هو الأكثر ذكاء والأكثر نجاحاً من زوجته، بل ان الزوجة قد تكون هي الأكثر ذكاء والأكثر نجاحاً فلا ينتقص ذلك شيئاً من الزوج ولا يكون سبباً في انهيار الحياة الزوجية او خلق المشاكل.

أما إذا أصر الزوج على نظرته المتخلفة إلى زوجته وإلى نفسه وإلى العلاقة الزوجية بينهما فيجب على الزوجة ألا تضحي بنبوغها من أجل هذا الزوج وإلا فقد أخطأت في حق نفسها وفي حق المجتمع الذي يحتاج إلى نبوغها ليتطور إلى الأفضل.

ان غيرة الأزواج وأنانيتهم وخوفهم من تفوق زوجاتهم لا يعني أبداً أن تظل الزوجات خاملات فاشلات ارضاء لهؤلاء الأزواج، والأجدر بهؤلاء الأزواج أن يتغيروا، ويغيروا نظرتهم القديمة إلى المرأة الزوجة.

ان الرجل الحديث قد يقبل أي امرأة رئيسة له في العمل، فيما عدا زوجته. كذلك الرجل الذي يعمل كطباخ في فندق مثلاً. انه يطبخ كل يوم لمئات الرجال والنساء الوافدين على مطعم الفندق، لكنه إذا عاد إلى بيته شعر بالحرج والضيق إذا طبخ هو ولم تطبخ زوجته، واعتبر ممارسته للطبخ في بيته عيباً. أما ممارسته للطبخ في الفندق فليس عيباً. والواقع أن الطبخ هو الطبخ بصرف النظر عن المكان الذي يحدث فيه، لكن نظرة الرجل إلى الزوج والمرأة هي التي تجعله يشعر أن زوجته لا بد أن تخدمه وان تطعمه، وانها لا بد أن تكون أقل منه ذكاء ونجاحاً في الحياة لتستقيم الحياة الزوجية بينهما وتسير في طريقها المعتاد المألوف في المجتمع.

ويظن بعض الناس ان نبوغ المرأة وقوة شخصيتها وقدرتها على السيطرة والقيادة تفقدها أنوثتها وتقلل من قدرتها الجنسية والعاطفية. لكن «ماسلو» أثبت خطأ هذه الفكرة في بحث له بين ١٣٠ شابة أمريكية ممن يحملن شهادات جامعية. فقد اكتشف ماسلو انه كلما كانت شخصية المرأة قوية ومسيطرة زادت متعتها في الجنس وزادت قدرتها على الحب الحقيقي، ذلك أن المرأة ذات الشخصية القوية تشعر بأنها حرة وانها حققت ذاتها واستطاعت ان تكون نفسها الحقيقية الطبيعية وهذا كله ضروري في

الحب والجنس بمعناهما الحقيقي.

وهؤلاء هن النساء بالمعنى الحقيقي للأنوثة أما المعنى التقليدي لمفهوم الأنوثة الموروث عن فرويد ونظريات التحليل النفسي، فقد ثبت بعده عن العلم الصحيح وعن الحقيقة.

وقد أثبت ماسلو أيضاً ان هؤلاء العاملات القويات الشخصية أكثر سعادة من النساء الاخريات اللاتي يعشن في البيت ويخدمن أزواجهن وأطفالهن، ووجد هوفمان (١٩٦١) أن الأم العاملة أكثر دفئاً في علاقتها مع أطفالها من المرأة غير العاملة، وأنها أكثر تعاوناً ورقة وهدوءاً، وفي بحث آخر اتضح ان ٩٠٪ من هؤلاء الأمهات غير العاملات لا يتمنين لبناتهن أن يعشن الحياة التي عشنها هن. وهذا يوضح عدم رضا الأم غير العاملة عن حياتها وان تظاهرت بالرضا أو بأنها تحقق ذاتها من خلال زوجها وأطفالها. ان مثل هذه الأم تكتشف بعد فوات الأوان انها ضيعت نفسها وحياتها.

* * *

ان حركة تحرير النساء في مجتمعنا العربي أو ما يسمى بالنشاط النسائي يركز الاهتمام على تغيير القوانين التي تنظم العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة أو ما تسمى بقوانين الأحوال الشخصية. ولا شك أن تغيير مثل هذه القوانين المجحفة بالمرأة ضروري لإقرار مبادىء المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات، لكن التغيير الاجتماعي المنشود يتطلب أن تتحول هذه القوانين الجديدة إلى ممارسة يومية في حياة الناس الخاصة والعامة وان تنصهر المفاهيم الجديدة لتصبح نسيج المجتمع الجديد.

ان عملية تحويل القوانين الى خيوط في نسيج المجتمع ليس بالعملية السهلة فالناس قد يتحمسون لتغيير قانون الزواج أو قانون الأحوال الشخصية ويؤيدون أن تنص مواده على مساواة المرأة بالرجل، ولكنهم يقاومون مظاهر هذه المساواة في حياتهم الشخصية. ولهذا فإن حركة تحرير المرأة أو النشاط النسائي لا يستطيع أن يحقق الشيء الكثير بالاهتمام بتغيير القوانين فحسب. وانما لا بد من أن يقترن الكفاح من أجل تغيير القوانين بكفاح مماثل بل أشد من أجل تغيير المؤسسات الاجتماعية التي من خلالها يتحقق تطبيق هذه القوانين. وبغير هذا التغيير في المؤسسات الاجتماعية لا يمكن للقوانين الجديدة أن تطبق وتظل حبراً على ورق، ويصبح الانتصار الذي تشعر

به النساء لمجرد تغيير القوانين انتصاراً أجوف بغير معنى، لأنه ليس انتصارا، ولأن مساواة المرأة والرجل لم تحدث ولم تترجم إلى واقع عملي يعيشه الناس.

ولا شك أن المؤسسات التربوية والتعليمية (أي المدارس والمعاهد والجامعات) هي أهم هذه المؤسسات التي يجب أن تغير مضمونها وأسلوبها، لأن تربية الأطفال كما سبق ان ذكرت هي الأسس التي تبنى عليها الشخصية والتكوين النفسي والعقلي للإنسان، والتي تتحكم فيه في مراحل النضوج جميعاً.

ومن المؤسسات الاجتماعية الأخرى التي لا تقل أهمية عن سابقاتها هي المؤسسات الثقافية والاعلامية وتشمل الاذاعة والتليفزيون والمجلات والصحف والكتب وغيرها من وسائل توصيل المعلومات إلى الناس. يجب أن تتحرر هذه المؤسسات من القيم التجارية التي تقوم على تحقيق الربح بأي شكل، وبالتالي تكون في غنى عن افتعال الموضوعات المثيرة واستغلال الجنس وجسد المرأة في ترويج بضاعتها للناس وان تحل قيم المساواة الجديدة محل هذه القيم التجارية. ان برامج الاذاعة والتليفزيون برامج للنساء والرجال معاً. ويجب أن تلغى تلك البرامج التي تسمى بالبرامج النسائية والتي يقدم فيها طرق الطهو والغسل وعروض الأزياء ومستحضرات التجميل. يجب أن توجه البرامج الثقافية للمرأة والرجل على السواء وتلعب دوراً في تغيير ذلك المفهوم التقليدي الذي يحدد وظيفة المرأة بالطهو والغسل والتزين.

وبالمثل يجب الغاء كل ما هو نسائي في الصحف والمجلات والا تقسّم الثقافة التي تعطى للناس حسب اختلافهم ذكوراً أو اناثاً. ان ذلك القسم أو الركن الذي يسمى ركن المرأة والذي يقدم لها نصائح لتحافظ على نعومة بشرتها وغزارة شعرها وطول رموشها يجب أن تلغى. وليس معنى ذلك أن تقاطع الصحف والمجلات الجمال وكيفية التجمل. ولكن المطلوب هو أن تنشر هذه الصحف والمجلات المعنى الشامل للجمال كجمال الجسم وجمال النفس وجمال العقل. ويجب أن تقدم للناس رجالاً ونساء كل المعلومات التي تساعدهم على تجميل أجسامهم ونفوسهم وعقولهم. وبالطبع سوف يحتاج تجميل الجسم إلى وسائل ومستحضرات معينة، ولكنها في ذات الوقت لن تكون هي كل ما يقدم عن الجمال، كما انها لن توجه إلى النساء وحدهن وانما إلى جميع الناس.

ولا شك ان الزواج والأسرة إحدى المؤسسات الاجتماعية التي يجب أن يشملها

التغيير. وسواء تغيرت قوانين الزواج القديمة أم لم تتغير فيجب على الزوجة أن تعرف حقوقها وواجباتها وتعرف انها مساوية تماماً لزوجها وتتعامل معه على هذا الأساس.

يجب أن تدرك المرأة انها مسؤولة عن الانفاق على الأسرة بالتساوي مع زوجها طالما انها تتقاضى عن عملها أجراً مساوياً لأجره. ويجب أن تدرك ان عملها خارج البيت ليس شيئاً كمالياً وانما ضرورة، وان مشاركتها في الانفاق على الأسرة ليس تطوعاً منها وانما واجب كالرجال سواء بسواء.

كذلك يجب أن يدرك الزوج انه مسؤول عن أعمال البيت وتربية الأولاد بالتساوي مع زوجته العاملة، وان واجبات الابوة مساوية لواجبات الأمومة وقضاء الأب بعض الوقت مع أطفاله بالبيت له نفس أهمية قضاء الأم بعض الوقت مع أطفالها.

وكما يتساوى الزوج والزوجة في واجبات الابوة والامومة كذلك يجب ان يتساويا في حقوق الابوة والامومة ولا تزيد حقوق الابوة عن حقوق الامومة في أي شيء بما في ذلك حق النسب وحق تسمية الاطفال.

ولا تقتصر المساواة بين الزوج وزوجته على الحقوق والواجبات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافة ولكنها يجب أن تشمل أيضاً المساواة في الحقوق والواجبات الشخصية والجنسية. يجب أن تدرك المرأة ان حقها في الحصول على قمة اللذة الجنسية (الاورجازم) مساوٍ لحق الرجل، وكما يطالبها الرجل بهذا الحق ولا يشعر بالحرج فيجب أن تطالبه هي أيضاً بهذا الحق دون حرج، وتساعده على أن يحققا في الجنس متعته الكاملة لهما هما الاثنين. يجب أن تدرك الزوجة ان الايجابية في الجنس ليس واجب الزوج فحسب وانما هي واجبها أيضاً ويجب أن تشترك مع زوجها ايجابياً في كل شيء وان تتبادل معه كل شيء، وانه ليس هناك من عيب الا أن يخفي الإنسان مشاعره الحقيقية ويتظاهر بغيرها.

يجب على الزوجة أن تدرك ان تظاهرها بأنها بلغت قمة اللذة في الجنس بالرغم من انها لم تبلغها انما هو العيب أو عدم الشرف لأنه نوع من الكذب. وبصرف النظر عن هدفها لارضاء الزوج واشباع غروره إلا أنه يظل كذباً، وينعكس أثره النفسي السيء على الزوجة، بالاضافة إلى انه يضلل الرجل. والاجدر بالزوجة التي لا تبلغ قمة اللذة أن تصارح زوجها بالحقيقة وان تشترك معه في ازالة الاسباب التي تحول دون تحقيق هذه اللذة.

وقد لا يستطيب الزوج التقليدي مثل هذه المصارحة من زوجته ويعدها نوعاً من قلة الشرف عند المرأة، لكن العلاج ليس هو أن تخفي المرأة الحقيقة من أجل ارضاء الرجل التقليدي، ولكن العلاج هو أن يتغير الرجل التقليدي وان يدرك ان حقوق زوجته في المتعة الجنسية مساوية لحقوقه تماماً، وان الشرف ليس معناه اخفاء الرغبات والمشاعر الحقيقية وانما الشرف هو الصدق في التعبير عن هذه المشاعر.

ولا أظن انني بحاجة في مثل هذا الكتاب إلى شرح علمي لتكنيك العملية الجنسية بين الرجل والمرأة والمراحل التي تمر بها ابتداء من التمهيد النفسي إلى الاعداد والمداعبة واثارة المناطق الجسمية الحساسة وتعاون الرجل مع المرأة على اكتشاف جسميهما معاً وعلى ادراك أفضل الوسائل لبلوغ قمة اللذة. لست بحاجة إلى هذا لأني اعتقد ان فشل العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ليس بسبب جهلهما بتكنيك العملية الجنسية، وانما بسبب الجهل الأعظم، وهو جهل الرجل بالمرأة كانسان مثله ومساوية له في جميع الحقوق والواجبات في الحياة بما فيها الجنس. وكذلك جهل المرأة بنفسها وبقيمتها كإنسانة مساوية للرجل تماماً في جميع الحقوق والواجبات الجنسية وغير الجنسية.

ان تصحيح نظرة الرجل إلى المرأة، وتصحيح نظرة المرأة إلى نفسها يتبعه بالضرورة تصحيح لكل العمليات التي تحدث بينهما في حياتهما المشتركة بما فيها العملية الجنسية. فالعملية الجنسية ليست مجرد تكنيك معين، أو حركات تؤدى، أو أوضاع معينة، أو ان لها زمناً محدداً، أو مواصفات معينة لشكل وأحجام الأعضاء التناسلية، أو مراحل معينة يجب أن تمر بها مرحلة بعد مرحلة بنظام دقيق لا يتغير.

العملية الجنسية ليس لها قاعدة ثابتة محددة، وانما هي تختلف باختلاف الأشخاص، والأوقات، والظروف. ولا يمكن لأي شخص أن يحدد لزوجين ما يجب أن تكون عليه العملية الجنسية بينهما. انهما هما وحدهما، وبالتعاون بعضهما مع بعض، يمكن لهما أن يكتشفا أفضل الوسائل وأفضل الطرق التي يمارسان بها العملية الجنسية.

* * *

ولا يقل عن المؤسسات السابق ذكرها في الأهمية مؤسسات العمل على اختلاف أنواعه ومجالاته السياسية والاقتصادية والمهنية والتشريعية والتنفيذية وغيرها. ولا يمكن

أن تتحول قوانين المساواة بين الرجل والمرأة في حقوق العمل وواجباته إلى حقيقة فعلية ما لم تشترك المرأة مع الرجل على قدم المساواة في جميع هذه المجالات دون استثناء. يجب ألا تكون هناك مجالات أو وظائف قاصرة على الرجل مثل وظيفة الحاكم والمشرّع والقاضي والجندي ورجل الشرطة وغيرها. لا بد أن تعطى المرأة فرصاً مساوية لفرص الرجل في ممارسة العمل الذي تختاره والذي تريد أن تنبغ فيه. ان الرجل لمجرد انه ذكر لا يتمتع بصفات عقلية أو نفسية تجعله ينجح في مهمة القاضي مثلاً أكثر من المرأة. قد تكون هناك امرأة أكثر قدرة على ممارسة مهنة القضاء أكثر من رجال كثيرين، ومن الظلم أن نحرمها من اثبات تفوقها في هذا المجال لمجرد انها امرأة. وهكذا في المجالات الأخرى.

وحيث ان عدد النساء العاملات والمثقفات أقل بكثير من عدد الرجال فإن تمثيل المرأة في جميع المؤسسات الاجتماعية والتشريعية والسياسية أقل بكثير مما يجب أن يكون عليه، وبالرغم من أن هذا التمثيل يجب أن يكون ٥٠٪ على الأقل ليعبر تعبيراً صحيحاً عن نسبة عدد النساء الى عدد الرجال في المجتمع إلا أن الأرقام الحقيقية تدل على ان المرأة لا تزال غير ممثلة فعلاً. ان وجود خمسة أو ستة نساء في مجلس يضم ٣٠٠ أو ٤٠٠ رجل لا يمكن أن يسمى تمثيلاً بأي حال من الأحوال. ولهذا لا يمكن لمثل هذا المجلس سواء كان تشريعياً أو تنفيذياً أن يتحمس لشيء يمس حياة المرأة واحتياجاتها الجسمية والنفسية والعقلية أو يسعى لتحقيق المساواة بين النساء والرجال السعي المطلوب.

لا بد أن يتزايد عدد النساء العاملات في جميع المجالات وبالذات المجالات الهامة مثل السياسة والتشريع والقضاء والأعمال الفنية والمهنية العالية ليصبح عددهن مساوياً لعدد الرجال في هذه المجالات. حينئذ يصبح صوت المرأة مسموعاً كصوت الرجل وتصبح قوة النساء الاجتماعية مساوية لقوة الرجال. وبهذه القوة الاجتماعية يمكن للمرأة أن تحقق المساواة التي تنشدها ويمكن أن تحول القرارات والقوانين من حبر على ورق إلى حقيقة عملية يعيشها الناس كل يوم.

ولكن هناك حقيقة لا يمكن اغفالها، وهناك عائق لا يمكن تجاهله يحول دون قدرة المرأة المتزوجة على العمل خارج البيت وهو المسؤوليات الملقاة على عاتقها وحدها داخل البيت من أعمال الطهي والخدمة وتربية الأطفال. وإذا كان المجتمع ينشد المساواة فعلاً بين الرجال والنساء فلا بد أن يزول هذا العائق بشتى الطرق. كأن يتحمل

المجتمع عن الأم هذه المسؤوليات بأن ينشىء دوراً للحضانة والأطفال في كل مكان، وان ينشىء المطاعم العامة التي تعفي المرأة من الطهو، وأن يصبح غسل الملابس تابعاً لمؤسسات عامة في المجتمع، وكذلك وسائل تنظيف البيوت وما شاكلها. ولا بد حتى اتمام هذه المنشآت أن يساهم الزوج مع زوجته في تحمل أعباء البيت والأطفال بالتساوي حتى لا يحرمها من العمل خارج البيت.

ان مطالبة المرأة العاملة بأن تجمع بين عملها خارج البيت وداخله دون معاونة من الزوج أو المجتمع ما هو إلا تعجيز للمرأة واستنزاف لصحتها الجسمية والنفسية والعقلية، بحيث تصل إلى مرحلة من الارهاق تصيبها بالضرر والمرض وتقلل من انتاجها وفرصها في النبوغ ولا أقول مجرد مواصلة العمل. والحل ليس في أن تتخلى المرأة عن عملها خارج البيت كما يحدث في معظم الأحيان، لأن تخلي المرأة عن عملها معناه تخلي المرأة عن حياتها كانسانة. ولهذا فإنه إذا ما اضطرت يوماً أن تختار بين عملها خارج البيت وعملها داخل البيت فالاجدر بها كانسانة أن تختار عملها خارج البيت. ان أي تضحيات تدفعها المرأة من أجل مواصلتها العمل خارج البيت أقل في رأيي من التضحيات التي تدفعها حين تبقى في البيت وتستسلم للمصير الذي استسلمت له من قبل أمها وجدتها. ان هذه التضحيات لن تزيد عن غضب زوجها الذي قد يؤدي إلى فشل حياتهما الزوجية. لكن الفشل في الحياة الزوجية أقل ضرراً للمرأة من الفشل في الحياة كلها وفقدان نفسها بين جدران البيت.

ولا شك في أن التاريخ يثبت ان معظم النساء النابغات فشلن في حياتهن الزوجية أو رفضن الزواج على الاطلاق، ومنهن جورج اليوت وجورج صاند، وسيمون دي بوفوار اللائي رفضن الزواج.

وفي رأيي انه إذا تعارض الزواج مع عمل المرأة خارج البيت ونبوغها في الحياة فالذي يجب أن يتغير ليس هو عمل المرأة أو ارادتها في النبوغ وانما الزواج هو الذي يجب أن تتغير اسسه ومفاهيمه وقوانينه حيث لا يتعارض وعمل المرأة ونبوغها.

* * *

وأخيراً فليس هذا كله إلا خطوات على الطريق، وعلى النساء الناضجات الواعيات أن يدركن ان الطريق طويل وشاق، وانه يحتاج إلى مزيد من الشجاعة والقوة والصبر والتآزر، وإلى مزيد من المعرفة والوعي، ولعل هذا هو هدف كتابي. وعليهن أن يدركن

ان أي محاولة للتصحيح لا بد وان تتجه نحو المجتمع والظروف التي يعيش فيها الناس والمعلومات التي تغزو عقولهم ونفوسهم منذ الصغر.

وعلى المرأة أن تدرك ان نجاح حركتها للتحرير يرتكز على مقدار نجاحها في المساهمة في تغيير المجتمع وتحويله إلى مجتمع اشتراكي حقيقي يحقق المساواة والعدالة لجميع البشر بصرف النظر عن لونهم أو جنسهم أو طبقاتهم الاجتماعية.

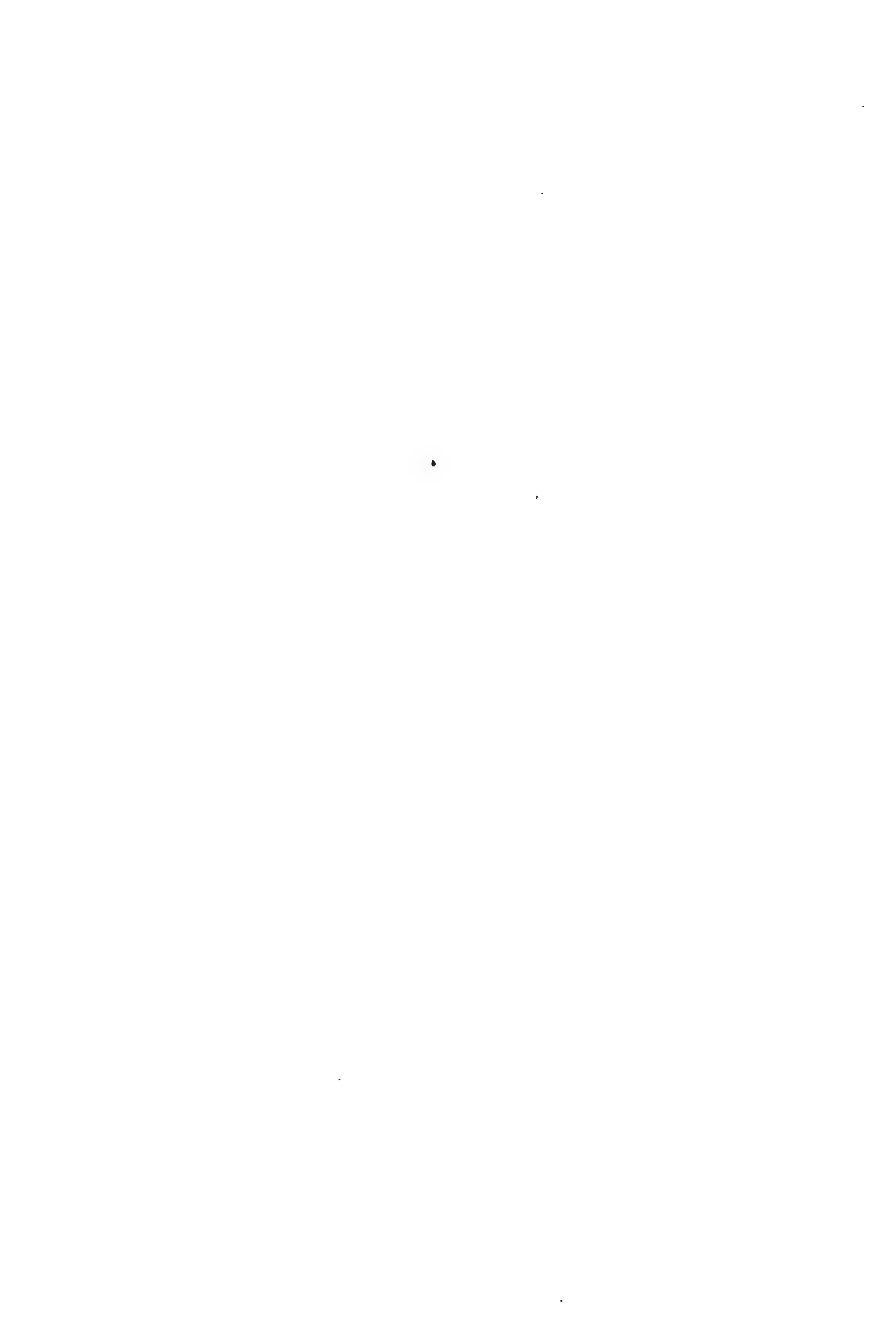
الأنثى هي الأصل

إهـــداء

إلى الـدكتـور/ شريف حتـاتـه، أحـد الـرجـال

العظماء القلائل الذين قابلتهم في حياتي

نوال السعداوي
فبراير ١٩٧٤



مقدمة

دق جرس التلفون الساعة الواحدة صباحاً في بيتي، كانت الليلة باردة، والسرير دافئاً، وترددت في رفع سماعة التلفون، فقد أغلقت عيادتي الطبية، ولست مسؤولة (هكذا تصورت وأنا تحت الأغطية الصوفية) عن أي نوع من المرضى الآن، سواء كانوا مرضى بأجسامهم أو نفوسهم. وشددت الغطاء فوق رأسي. لكن الجرس ظل يرن في سكـون الليل، وتذكرت على الفور أنه لا بد احدى هؤلاء النساء أو البنات اللائي أصبحت في السنين الأخيرة (منذ صدور كتابي المرأة والجنس) ملجأ لهن ولمشاكلهن النفسية والجسمية. ورفعت السماعة بسرعة. وجاءني الصوت النسائي باللهجة والنبرة واللهفة التي ألفتها أذناي، والتي بدت إلى الأبد الراحة في حياتي.

قالت: أنا فاطمة.

كدت أن أسأل فاطمة من، لكنني تذكرت أنها لا بد أن تكون إحدى الفاطمات اللائي قابلتهن في أية ظروف.

قلت: نعم يا فاطمة؟...

قالت: سأموت يا دكتورة.

سألتها: لماذا؟

قالت: ألا تذكرين حين جئت اليك في بيتك؟

كدت أخطىء مرة أخرى وأقول لها لا أذكر،

لكنني قلت: ولكن ما الذي حدث الآن؟

قالت: سأقتل نفسي الآن.

قلت: أرجوك، اهدئي يا فاطمة، وفي الصباح تعالي إليَّ لأفهم الموضوع.

قالت: لن أنتظر الصباح يا دكتورة. لن أنتظر شيئاً بعد الآن. لم أعد احتمل!

وانفجرت في البكاء، وحاولت أن أهدئها، ونجحت في اقناعها بتأجيل عملية الانتحار حتى تأتيني في الصباح.

وجاء الصباح ولم تأتِ هي ولم تتصل بي في التلفون. وتصورت أنها انتحرت فعلاً، وأنني كان يمكن أن أنقذها حين لجأت إلي، وبدأت ألوم نفسي. لكن صوتها جاءني من خلال التلفون بعد أيام قليلة. كان صوتاً متعباً منخفضاً متلعثماً ينم عن لسان ثقيل مخدر. قالت انها تكلمني من حجرتها باحدى المستشفيات النفسية، وأن الطبيب أعطاها صدمة كهربية منذ ساعات، وأن أسرتها هي التي أخذتها إلى المستشفى بعد انقاذها من محاولة الانتحار. وطلبت مني أن أذهب اليها لتتحدث معي. وفعلا ذهبت اليها بالمستشفى. وفي أكثر من ثلاث ساعات حكت لي قصتها. وبينما هي تحكي أدركت مأساتها، ومأساة معظم النساء والفتيات ذوات المشاكل النفسية اللائي كن يترددن على عيادتي أو بيتي أو مكتبي في مجلة الصحة، وكان معظمهن يتمتعن بذكاء واضح. المأساة كما أدركتها هي أن المرأة من هؤلاء تشعر أنها غير مفهومة على حقيقتها، وأن أقرب الناس اليها لا يفهمها، كالأب أو الأم، أو الأخ أو الأخت أو الصديق أو الحبيب أو الزوج أو الأستاذة في الكلية أو الرئيس في العمل، أو حتى الطبيب النفسي الذي تلجأ اليه أو تأخذها أسرتها اليه.

وبينما كانت فاطمة تحكي مأساتها، كانت الفكرة تتجمع في رأسي، فكرة أن أقوم ببحث جديد لمحاولة معرفة حقيقة المرأة، نفساً وجسداً. ولقد راودتني الفكرة منذ ثمانية عشر عاماً حين كنت طبيبة امتياز بمستشفى القصر العيني، واخترت قسم الأمراض النفسية لأعمل فيه بضعة شهور، لكنني هجرت الفكرة وهجرت معها قسم الأمراض النفسية بعد أن عجزت عن الاقتناع بآراء أستاذ القسم، وبتلك الصدمات الكهربية التي تعطى لكثير من المرضى والمريضات.

والحقيقة انني حين هجرت هذا القسم لم أهجره إلا بجسمي فقط، لأنني ظللت أعيش فيه بمشاعري وتفكيري. كنت أشعر أن الرابطة التي تربطني بالمرضى والمريضات أقوى من تلك التي تربطني بالأطباء.

وبعد مرور ثمانية عشر عاماً أجدني أجلس في قسم الأمراض النفسية (بكلية عين شمس هذه المرة). المكان مختلف. والزمن مختلف. والأستاذ مختلف. لكن الأشياء كلها تبدو مألوفة، وكأن ثمانية عشر عاماً لم تمر. كل الاشياء متشابهة. لكن الفكرة

في رأسي مسيطرة علي تماماً، ووجه فاطمة، بل وجوه الفاطمات والزينبات والعائشات والخديجات اللاتي قابلتهن في عيادتي أو بيتي أو مكتبي أو في العيادات أو المستشفيات النفسية، هذه الوجوه أمامي، عيونهن البائسة تلح علي أن أفعل شيئاً، أي شيء!

ولم يكن أمامي شيء أفعله سوى أن أستخدم العلم. ان العلم هو السلاح الوحيد في يدي الذي أستطيع أن أستخدمه. إن العلم هو الذي يمكن أن يقف في وجه الجهل. ومنذ تلك اللحظة صممت على اجراء بحث علمي (نفسي وجسمي) عن ذلك المخلوق غير المفهوم الذي اسمه «المرأة».

ان حماسي للعلم هذا لا يعني أنني من هؤلاء الذين يقدسون الحقائق العلمية. فالحقائق العلمية كالحقائق التاريخية والسياسية تتغير على الدوام بتطور عقل الانسان، وقدرته المتزايدة على كشف الحقيقة المزيفة من الحقيقة غير المزيفة.

والحقيقة المقدسة في زمن من الأزمان قد تصبح في زمن آخر حقيقة غير مقدسة، أو غير صحيحة بالمرة.

هذه ميزة الانسان على الحيوان. إن الانسان له عقل، وأمام عقل الانسان ليس هناك حقائق ثابتة. كان هناك وقت حين كان تكوين العالم والأرض والشمس والقمر والنجوم كلها من الحقائق الثابتة المقدسة. لكن العلماء من أمثال كيلبر وكوبرنيكس وجاليليو وباسكال استطاعوا أن يغيروا هذه الحقائق. وبالرغم من أنهم أدينوا ووضعت كتبهم في قوائم الكتب المعدومة منذ ثلاثة قرون من الزمان إلا أن عقولهم رفضت التسليم بالحقائق الثابتة. وإلى عهد قريب كان يدان العلماء الذين يبحثون عن حبوب منع الحمل لكن ذلك لم يمنع اكتشاف حبوب منع الجمل من بعد وإقبال معظم المجتمعات عليها الآن. وكم يدان في أيامنا الحاضرة هؤلاء الذين يخوضون بموضوعات يرى بعض الناس أنها غير قابلة للمناقشة، ثم يأتي المستقبل وتصبح الأفكار غير المقبولة مقبولة. كل شيء أمام عقل الانسان قابل للمناقشة والتغيير والتطوير. ولهذا السبب تتقدم الحياة الانسانية تقدماً سريعاً مستمراً، وتبقى حياة الحيوان كما هي.

وقد يتوقع بعض الناس أن هذا البحث الذي أقدمه عن المرأة، يخص المرأة وحدها، أو يخص الأسرة مثلاً، أو الأطفال، أو الأزواج، أو المشكلات العاطفية أو

الجنسية أو النفسية التي تقفز إلى الأذهان بمجرد ذكر كلمة «امرأة» وقد تعودنا أن ندرج البحوث عن المرأة في ذيل قائمة البحوث أو في البحوث الخاصة المحدودة بقطاع معين والمحدودة بمشاكل معينة ضيقة، هي دنيا المرأة الضيقة التي لا تخرج عن مشاكل الأسرة والأطفال، ولا ترقى إلى المشاكل الكبرى السياسية أو القضايا الانسانية العامة مثل قضية الحرية أو قضية الاشتراكية أو العدالة أو غيرها. لكن المتعمق في أي بحث عن المرأة، والمتحرر من النظرة المحدودة إلى المرأة كوعاء للانجاب يدرك أن أي بحث عن المرأة انما هو بحث يمس جوانب الحياة جميعاً، هو أحد القضايا العامة الهامة، هو بحث سياسي بالدرجة الأولى لا يفترق في قليل أو كثير عن قضية البحث عن الحرية، أو البحث عن الحقيقة.

إن هدف أي بحث علمي (عن المرأة أو الرجل أو أي شيء آخر) هو البحث عن الحقيقة. والبحث العلمي الذي لا يهدف أولاً وأخيراً إلى البحث عن الحقيقة يصبح بحثاً غير علمي، أو بحثاً أجوف، يستوفي جميع شروط البحث العلمي من ناحية الشكل فحسب، اما المضمون فهو فارغ أجوف. وكم تكتظ جامعاتنا كل عام بمئات البحوث العلمية الشكلية الجوفاء، حيث أن الهدف في معظم الأحيان ليس هو البحث عن الحقيقة وانما هو الحصول على الشهادة أو الدرجة العلمية. وكم يصاب «الباحث» أو «الباحثة» عن الحقيقة وليس عن الشهادة بعقبات وحواجز، قد تدفعه في النهاية إلى صرف النظر عن البحث، اللهم إلا إذا كان جباراً في عناده، شديد الرغبة والحماس لهذه القضية التي يبحث فيها.

إن القدرة على التفكير النقدي نادرة في بحوثنا العلمية. هذه القدرة على التفكير النقدي ـ تقتضي ثقة بالنفس وشجاعة وحرية، وهذه الصفات الثلاث لا تغزو الانسان فجأة بمجرد اتخاذه قراراً بارجاء بحث علمي، ولكنها صفات تنمو مع الانسان بالتدريج منذ الطفولة وفي مراحل العمر المختلفة أو تقتل في الانسان وبالتدريج أيضاً منذ الطفولة وفي مراحل العمر المختلفة.

ان الباحث عن الحقيقة في أي مجال لا بد أن يكون محرراً من الخوف والأفكار المسبقة المتسلطة وكم من أفكار متسلطة يحتوي عليها العلم في أي فرع من الفروع وبالذات علم النفس وعلى الأخص علم النفس الخاص بالمرأة. وكم يشعر الباحث العلمي برهبة أمام تلك الكتب الضخمة والآراء والأفكار التي أصبحت مقدسة، وبسبب عجزه عن التفكير النقدي النابع من ذاته فإنه يختار الطريق السهل الممهد الذي سار

فيه الآلاف ممن سبقوه.

ان قمع التفكير الذاتي الأصيل النابع من نفس الباحث، وان الالتزام بالموضوعية المفهومة فهما محدوداً ضيقاً، كل ذلك يسلب البحث العلمي أصالته، وقدرته على خلق الجديد من الفكر. وكما يقول «اريك فروم»: ان الذاتية الأصيلة الصادقة أكثر موضوعية من الموضوعية التقليدية التي يفقد الانسان فيها تفكيره الأصيل ويصبح تفكيره نمطاً مشابهاً للآخرين.

الموضوعية اذن ليست هي قمع التفكير الذاتي ولكن الموضوعية هي ألا يكون الانسان متأثراً بآراء الغير وأفكارهم وأن يكون قادراً على التفكير الحر في الظواهر التي يراها ويكتشفها. وبمعنى آخر أن يناضل الانسان ضد الأفكار العلمية المتوارثة وأن يصبح بتفكيره الأصيل فوق العلم[1].

وكم هو نادر وصعب أن يشعر الباحث العلمي أنه فوق العلم. ولكن لا بد أن يصبح الانسان فوق الغلم ليستطيع أن ينقذه. هذا الصعود فوق العلم لا يقتضي فحسب الالمام وتجميع المعلومات في العقل كأي مرجع ضخم، ولكنه يقتضي أيضاً تلك القدرة النفسية في الانسان على استخدام عقله والتفكير بلا خوف وبلا رهبة.

وفي موضوع المرأة بالذات، وفي مجتمعاتنا العربية بالذات، يشعر الباحث (أو الباحثة العلمية) أنه يسير في أرض مليئة بالألغام، وأنه في كل خطوة من خطواته يصطدم بالأسلاك الكهربية العارية، والمقدسات الحساسة في المجتمع ولا يمكن لأي باحث أن يجري بحثاً علمياً أو طبياً أو نفسياً في أي شيء يتعلق بالمرأة إلا وبرزت أمامه الأفكار والتقاليد الدينية (التي هي في أغلبها ليست من صميم الدين ولا في جوهره) وكم يستخدم بعض الناس الدين سلاحاً مشهراً في وجه أي باحث أو باحثة عن الحقيقة. ولكني أشعر بقوة أمام هؤلاء الناس. فالدين الحق لا يفرق بين انسان وانسان ولا بين رجل ولا امرأة ولا بين فقير ولا غني ولا أسود ولا أبيض والدين الحق لا يقول للناس اكذبوا، واخفوا مشاعركم الحقيقية أو زاولوها سراً في الخفاء وأظهروا العفة أمام الناس. الدين الحق ضد الكراهية، ومع الحب الصادق النابع من النفس

---

(١) أنظر اريك فروم، الخوف من الحرية، روتلدج، ١٩٦١، صفحة ٢١٢ ـ ٢١٣

(1) Erich Fromm, Fear of Freedom, Routledge, 1960. 2pp12 - 213.

وليس الحب المفروض لسبب اقتصادي أو اجتماعي. الدين الحق مع سعادة الانسان وصحته الجسمية والنفسية ولا يمكن للدين الحق أن يكون ضد سعادة الانسان وضد صحته الجسمية أو النفسية. الدين الحق مع الحقيقة، ومع أي إنسان يحاول الوصول إلى الحقيقة.

وهذا البحث هو محاولة للوصول إلى حقيقة المرأة. ماذا نعني حين نقول «امرأة».

إنها محاولة لتعرية نفس المرأة، وفهمها فهما انسانياً. قال لي أحد الأساتذة حين قلت له الهدف من بحثي: ستجرين بحثاً علمياً أم ستكتبين رواية فنية؟!

وبدأ يحدثني عن الفرق بين العلم والفن. لكن كلامه لم يقنعني، فأنا لا اؤمن بتلك الفروق الموضوعة بين العلم والفن. كلاهما يهدف إلى كشف الحقيقة، وكلاهما يتطلب القدرة على الخلق. ان معظم الناس يستمتعون بالفن أكثر من استمتاعهم بالعلم لأنهم يشعرون أن الفن يخاطبهم ويعاملهم كبشر لهم مشاعر أما العلم فيجدونه ثقيلاً معتداً بارداً برودة الآلات الحديدية. والسبب في ذلك كما يدعي العلماء لأن العلم موضوعي عاقل، والموضوعية والعقل تستدعي البرودة وأن الفن ذاتي يخاطب المشاعر لا العقل وبالتالي فهو دافىء قريب من الانسان. والحقيقة - في رأيي - غير ذلك، فالانسان وحدة واحدة وليس هناك فاصل بين العقل والجسم أو بين العقل والنفس، أو بين التفكير والشعور. ان دفء الفن وقربه من الناس سببه أن الفن يهتم دائماً بالناس. أما برودة العلم (وبالذات العلم الحديث) فسببها أن العلم يهتم بالأشياء أكثر من اهتمامه بالناس ولهذا يعرف العلم الحديث عن الآلات اكثر مما يعرف عن الانسان ويعرف عن الرجل اكثر مما يعرف عن المرأة. والسبب في ذلك واضح، فالعلم يهتم بما تهتم به السلطة في أي زمان ومكان. اذا كانت السلطة تسخر الانسان وتستغله وتفضل عليه الآلة اهتم العلم بالآلة اكثر من الانسان. إذا كانت السلطة تهتم بالرجال أكثر من النساء اهتم العلم بالرجال أكثر من النساء.

وإذا استعرضنا السلطة في معظم بلاد العالم الحديث نجد أنها سلطة رأسمالية أبوية، ولهذا تهتم معظم البحوث العلمية بالآلات والتكنولوجيا وفي الحالات القليلة الخاصة بدراسة الانسان فان هذا الانسان هو الرجل في معظم الأحيان. اما المرأة، فلم تصبح بعد أحد المواد التي يهتم بها العلم وهذا هو سبب ندرة البحوث العلمية عن المرأة.

ان البحث العلمي كالعمل الفني يحتاج إلى قدرة على الصدق وقدرة على الخلق. والخلق معناه الجديد. والجديد يختلف عن القديم وإلا ما سميناه جديداً، ولكن كم من الناس يخافون الجديد ويفضلون عليه القديم الذي درجوا عليه وألفوه وورثوه. إن هذا الخوف من الجديد هو الذي يجعلنا سجناء الماضي. إن الكثيرين منا يعيشون في الماضي ومع ذكريات الموتى. وكما يقول «ماسلو»: «لا يستطيع أن يتعامل مع المستقبل إلا الانسان ذو التفكير الخلاق المرن، وهو الانسان الوحيد الذي يستطيع أن يواجه الجديد بثقة وبغير خوف. انني أعتقد أن ما نسميه الآن «بعلم النفس» انما هو دراسة للحيل التي نستخدمها لنتفادى القلق الذي نشعر به ازاء الجديد، وذلك بأن نضع في أذهاننا أن المستقبل سيكون مشابهاً للماضي[1].

وكم يشتد هذا الخوف حينما يتعلق البحث بالمشاعر الانسانية الدفينة، أو بالرغبات أو بالغرائز أو بالجنس، أو بعبارة أخرى بذلك المخلوق الشائك المحاط بالمقدسات والخزعبلات على حد سواء، ألا وهو المرأة.

ان البحث رغم أنه بحث نفسي بالدرجة الأولى، الا انه لا يمكن لأي بحث يتناول دراسة الانسان الا أن يحيط الباحث أو الباحثة بجوانب الانسان جميعاً: النفسية والجسدية والتاريخية والاجتماعية. ولا أظن أنه بغير الربط بين هذه العلوم الانسانية المختلفة يمكن للباحث أن يلمس جذور الدوافع والعوامل التي تشكل نفسية الانسان، رجلاً كان أو امرأة.

---

(1) Rolo May. Existential Psychology. Random House, 1961, p. 36.

المبادىء الأساسية التي يرتكز عليها الكتاب

١ ـ قضية تحرير المرأة قضية سياسية بالدرجة الأولى لأنها لا تمس حياة نصف المجتمع فحسب ولكنها تمس حياة المجتمع كله. ان تخلف المرأة وتكبيلها لا يؤخر النساء فحسب ولكنه ينعكس على الرجال وعلى الأطفال، وبالتالي يقود إلى تخلف المجتمع كله.

٢ ـ الهدف من تحرير المرأة هو اطلاق امكانياتها الفكرية جميعاً من أجل اثراء المجتمع فكرياً، واثراء حياة وشخصية النساء بالعمل المنتج والمشاركة في تطوير المجتمع. أي أنها قضية حرية فكرية للنساء من أجل العمل الخلاق، وفي ظل المساواة الكاملة بين الجنسين، وليست مجرد حرية جنسية من أجل قتل الفراغ والملل، وامتصاص الطاقة المعطلة.

٣ ـ أثبت العلم أن أي قيود على الانسان، رجلاً أو امرأة، وسواء كانت هذه القيود فكرية أو نفسية أو جسدية، فانها تعرقل تطوره الطبيعي، وتؤخر نضوجه الفكري أو النفسي أو الجسدي، وبالتالي تتعارض وصحته الجسدية والنفسية. وعلى هذا فان القيود المفروضة على النساء فكراً ونفساً وجسداً تضر بصحتهن وتضر أيضاً بصحة الرجال، وصحة الأطفال، وينشأ الجميع في مناخ غير صحي، يزيد من التخلف.

٤ ـ ان العدالة والمساواة بين جميع افراد المجتمع لا تتعارض مع الاديان، ولا يمكن ان يتعارض أي دين مع الصحة الجسدية والنفسية لجميع أفراده رجالاً ونساء. ولهذا ليس علينا إلا أن نعرف الطريق الذي يقود إلى صحة الانسان (رجلاً وامرأة) فيكون هو طريق الدين، لأن الدين خلق لسعادة الانسان وصحته ولم يخلق لتعاسته ومرضه.

٥ ـ ان النساء وحدهن لا يمكن أن ينلن الحرية والمساواة في مجتمع لا يحقق الحرية والمساواة لجميع فئاته المختلفة، ولهذا لا يمكن فصل قضية تحرير النساء في أي

مجتمع عن تحرير الفئات الأخرى المظلومة.

٦ - ان شرف الانسان رجلاً أو امرأة، هو الصدق، صدق التفكير وصدق الاحساس وصدق الأفعال. إن الانسان الشريف هو الذي لا يعيش حياة مزدوجة، واحدة في العلانية وأخرى في الخفاء.

٧ - ليس هناك أي دليل علمي في البيولوجيا أو الفسيولوجيا والتشريح ما يثبت أن المرأة أقل من الرجل عقلاً أو جسداً أو نفساً. ان الوضع الأدنى للمرأة فرض عليها من المجتمع لأسباب اقتصادية واجتماعية لصالح الرجل ومن أجل بقاء واستمرار الأسرة الأبوية، التي يملك فيها الأب الزوجة والأطفال كما يملك قطعة الأرض.

١ - الأنثى هي الأصل

كنت أندهش، كلما أوغلت في قراءة تاريخ البشرية القديم، قبل ظهور الأديان، وقبل نشوء الأسرة الأبوية، لتلك القيمة الانسانية الكبيرة التي كانت تتمتع بها انثى الانسان (المرأة كما نسميها الآن)، والتي كانت تتزايد كلما اخذتني القراءة بعيداً في أقدم عصور التاريخ، في الفترات الأولى من حياة الانسان الطبيعية البدائية. في تلك العهود كان الانسان طبيعياً، أي انه كان يعيش حياته كما هي، ويتصرف تلقائياً، وفق رغباته ومشاعره وتفكيره. كان الانسان (ذكراً أو أنثى) وحدة واحدة. لم يكن هناك انفصال بين جسم الانسان وعقله أو نفسه. لم تكن الأديان قد ظهرت بعد وفصلت بين الحلال والحرام. ولم يكن علم الفلسفة قد ظهر بعد وظهر معه الفلاسفة الذين فصلوا بين الجسم والعقل، ولم يكن علم النفس أو السيكيولوجيا قد ظهر بعد، أو تلك العلوم الأخرى كالبيولوجيا والفسيولوجيا وأحدثت هذه المسافات بين الجسم والنفس.

في تلك العهود البدائية الطبيعية التي لم تؤثر فيها بعد هذه العلوم والفلسفات والتي لم يكن قد حدث فيها بعد انفصام بين عقل الانسان وجسمه، كان الذكر والأنثى على طبيعتهما، وكان لكل منهما قيمته النابعة من طبيعته أو تكوينه البيولوجي (بلغة عصرنا الحديث).

وقد أدرك المجتمع الانساني البدائي المكون من الذكور والاناث ان الانثى بالطبيعة أصل الحياة بسبب قدرتها على ولادة الحياة الجديدة، فاعتبروها أكثر قدرة من الذكر وبالتالي أعلى قيمة. ومن هنا سادت الفكرة في تلك العهود أن الآلهة أنثى، وأنها آلهة الاخصاب والولادة والخضرة والوفرة والخير وكل شيء مفيد.

استمرت هذه العهود آلاف السنوات، ولا أحد حتى الآن يعرف كم ألفاً من

السنوات استمرت، لأن علم التاريخ لم يكن قد ظهر بعد، ونشوء علم التاريخ بالنسبة لنشوء أول الحياة الانسانية يعتبر شيئاً حديثاً. لكن معظم علماء التاريخ والانثروبولوجيا في العالم يجمعون على أنه في المجتمعات الانسانية البدائية كانت للأنثى قيمة انسانية واجتماعية وفلسفية أكثر من الذكر، وأن الإله القديم كان أنثى وأنه قبل نشوء الأسرة الأبوية كان المجتمع البدائي أموميًا وكانت الأم هي الأصل وهي العصب وهي التي ينسب اليها أطفالها.

وفي التاريخ نجد عهوداً أخرى (غير العهود البدائية الأولى) حيث ارتفعت مكانة المرأة ارتفاعاً كبيراً. ونحن ـ المصريين والمصريات ـ لا بد أن نكون أكثر الشعوب ادراكاً لهذه الحقائق، لأن هذه العهود كانت في زمن قدماء المصريين، وإذا كانت شعوب العالم المتقدم الآن تفخر بأنها تساوي بين الرجل والمرأة (وهذا أمر لم يحدث بعد) فاننا نستطيع أن نفخر بأن هذه المساواة بل أكثر منها كانت سائدة عند قدماء المصريين، وأن تشويه العلاقة بين الجنسين وسيادة جنس على جنس آخر لم تكن إلا نتيجة التشويه الانساني الذي طرأ على الحضارة القديمة بسبب الأطماع الاقتصادية التي اصبحت تتزايد مع تزايد وسائل استغلال الانسان للانسان.

والذي يقرأ تاريخ القدماء المصريين يدرك أن هذه الحضارة التي هي أقدم حضارات البشرية وأعرقها قامت منذ البداية على المساواة بين الجنسين، وعلى ارتفاع مكانة المرأة الاجتماعية ارتفاعاً كبيراً. كانت المرأة تصل إلى مرتبة الإله كما يصل الرجل اليها. لم تكن الألوهية منصباً ذكرياً فحسب، ولكن تاريخ مصر القديم حافل بالآلهات اللاتي كان يقدم اليهن القرابين وتقام لأعيادهن حفلات رائعة، ومنهن إلهة العدل وإلهة الحقول وإلهة السماء وإلهة الكتابة وإلهة الحصاد وإلهة الحب والجمال والخصب وإلهة السرور والموسيقى وإلهة الولادة.

أما بالنسبة للمرأة من عامة الشعب فقد كانت المرأة الفرعونية تعمل في المصانع بالغزل والنسيج وصنع السجاجيد وتعمل بالتجارة في الاسواق، وتشارك زوجها أعمال الصيد. وكانت الزوجة ترسم على المقبرة حتى الأسرتين الثالثة والرابعة «٢٧٨٠ قبل الميلاد» بحجم زوجها، كدليل على المساواة في الشرف والمكانة والحقوق والواجبات. وفي تمثال «بانجم» (في معبد الكرنك) تتقدم الزوجة زوجها. وهناك نصب تذكاري خاص بالسيدة «بيسيشت» من عصر الدولة القديمة يبين أنها كانت مديرة للأطباء. وقد حوكم أحد الأزواج لأنه سب زوجته فأصدر القاضي حكما بجلد الزوج

مائة جلدة، كما قضى بحرمانه من نصيبه من المال الذي كسبه بالاشتراك معها إذا عاد إلى سبها.

وكان للمرأة المصرية القديمة حظ كبير من الثقافة، ويحكي موظف اسمه (ختوم ردي) أنه كان أميناً لمكتبة سيدة عظيمة تدعى «نفرو كابيث» ويقول إن هذه السيدة قد عينتني في دندرة مشرفا على خزائن الكتب الخاصة بأمها، وكانت تحب العلوم والفنون[1].

ومارست المرأة الرياضة والسباحة والأعمال البهلوانية كالرجل سواء بسواء وكان النساء كالرجال يشربن الخمور في الحفلات بل ويسرفن في الشرب ويقرعن كؤوسهن مع الرجال وتقول احداهن: ناولني ثمانية عشر قدحاً من النبيذ، إنني أريد أن أشرب حتى انتشي، إن داخلي مثل القش[1].

وكان للمرأة نصيب كبير في تولي العرش، وإذا مات الملك عن ذرية أكبرها بنت أصبح العرش من نصيبها.

ويعتقد بعض علماء الآثار المصرية مثل (أرمان) و(موريه) و(برستد) ان الابن الشرعي كان ينسب إلى أمه أكثر مما ينسب إلى أبيه في معظم الأحوال، وهذا يدل على سيادة الأمومة على الأبوة في نسب الأبناء، وهي امتداد للعصر الذي كان يعد فيه نسب الأم أقوى من نسب الأب. أما الطفل غير الشرعي فانه ينسب إلى امه في جميع الأحوال. وكان للمرأة حق الملكية وحق البيع والشراء واداء الشهادة في المحاكم وكانت تتساوى مع الرجل في الميراث بل إن نظام التوريث في أسر النبلاء في عصر الدولة الوسطى (٢٦٤٠ ق.م) كان يأتي عن طريق الاناث لا الذكور، فلم يكن الابن هو الذي يرث وانما كانت كبرى البنات، واشتغلت المرأة كل الأعمال، كانت حامية، وحاكمة وملكة، وكاهنة، وإلهة. الالهة (ماعت) كانت ربة الحقيقة، و(نايت) إلهة الحرب، وكذلك الالهة سخمت والالهة حتحور الهتين للحرب وكانت الالهة (نايت) تتقدم الملك في المعارك الحربية، وتضع على رأسها تاج الوجه البحري، كما سموها أيضاً إلهة الفيضان التي تسكن شواطىء النيل. ومن الملكات المصريات القديمات الشهيرات: حتب، حرس، وخنت، كاوس، كليوباتره، واماح، وحتشبسوت وتي، ونفرتيتي، وغيرهن ممن لعبن أدواراً بارزة في التاريخ المصري القديم.

كانت المرأة المصرية القديمة تعرف قيمة نفسها كانسانة لها عقل وذكاء، ونظر

اليها المجتمع نظرة متساوية مع الرجل، فساهمت في الحضارة الفرعونية وشاركت في أول حضارة انسانية ظهرت على وجه الأرض، وحاربت في أول حرب لتحرير البلاد من المستعمرين، واشتركت في تأسيس أول امبراطورية عرفها التاريخ القديم قبل ظهور الأديان بآلاف السنين.

ولم تعرف المرأة المصرية القديمة الحجاب، وكانت تختلط بالرجال، وتشاركهم العمل والانتاج والحرب والتجارة والعلوم والفنون والافراح والسهرات والشراب وكل شيء. وكانت أيضاً سيدة البيت في أسرتها لها مكانتها العالية داخل البيت وخارجه.

والذي يدرس شخصية الملكة المصرية حتشبسوت يدرك قوة المرأة النابعة من شخصيتها وذكائها وقدرتها على القيادة والحكم، ولهذا ظهرت تماثيلها على شكل أبي الهول لها رأس انسان وجسد أسد رمزاً للعقل والقوة معا. وكان عصر حتشبسوت يتميز بالازدهار والتعمير، وأثبتت كفاءتها كحاكمة وملكة أكثر من ملوك كثيرين. لكنها بعد أن ماتت خلفها تحتمس الثالث، وأمر بتدمير تماثيلها وتشويه رسومها، ونقوشها، وكأنما أراد أن يمحو من التاريخ السنوات الاثنتين والعشرين («١٤٨٣» ق. م إلى «١٥٠٤») التي حكمتها.

ويمثل تحتمس هنا بوضوح انتقام الرجل من المرأة بسبب تفوقها وذكائها وقوتها. وكما حاول تحتمس أن يشوه حقيقة حتشبسوت وينكر ذكاءها وقوتها حاول من بعده رجال كثيرون تشويه حقيقة المرأة وانكار ذكائها وقوتها، فكيف كان ذلك؟!

٢ ـ تشويه حقيقة المرأة

وقد بدأ علماء التاريخ والأنثرولوجيا في النصف الثاني من القرن العشرين يعيدون دراسة التاريخ بعين محايدة (الى حد ما) بعد أن أثبتت علوم البيولوجيا والفسيولوجيا والتشريح كذب الافتراضات والنظريات التي تفرق بين الرجل والمرأة جسداً ونفساً وعقلاً. ولهذا السبب تسرب النور بعض الشيء إلى علاقة المرأة بالرجل في العصور المظلمة من التاريخ، وفي العصور الوسطى، وما قبلها، وما بعدها. وبدأ العلماء يفهمون الأسباب الحقيقية التي شوهت العلاقة بين الرجل والمرأة، وشوهت حقيقة المرأة، وسلبت منها مكانتها الأولى الطبيعية حين كانت مساوية للرجل في كل شيء، لها كل حقوقه وواجباته في الحياة من عمل وانتاج وعلم وفن ولذة وميراث وتولي عرش الألوهية أو الملوكية ونسب الأطفال والشرف وغير ذلك من المناصب والحقوق والقيم.

ويسوقنا التاريخ بعد هذا العهد المجيد للمرأة، الى الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية التي قلبت علاقة الرجل والمرأة رأساً على عقب، وبعد أن كانت المرأة إلهة الاخصاب والخير ـ والوفرة والخضرة والحياة أصبحت حليف الشيطان ورمزه الوحيد المجسد على الأرض، وبعد أن كانت المرأة ملكة داخل البيت وخارجه أصبحت خادمة خارج البيت وجارية داخله.

ولم يعد خافياً الآن على من يلم إلماماً شاملاً بالتاريخ أن يدرك الأسباب الاقتصادية التي دعت إلى كل هذا، وكل تلك الظروف التي جعلت الرجل يتعلم الجشع والطمع وملكية الأرض وملكية العبيد وملكية أطفاله ومن ثم ملكية المرأة وسلب النسب منها والشرف.. الى غير ذلك مما أوضحته كتب التاريخ وغيرها من المراجع الاقتصادية والبحوث المختلفة في هذه الميادين[1].

وفي تاريخنا المصري القديم تبدو هذه الظروف واضحة للدارسين والدارسات.

لأن الحضارة المصرية القديمة هي أول الحضارات التي عرفت، وعرف عنها المؤرخون الكثير. وقد اكتشف علماء التاريخ أن المرأة المصرية القديمة بعد أن كانت ترسم على الجدران بحجم زوجها تماماً دليل التساوي في المكانة والقدر أصبحت ترسم بحجم أصغر من زوجها، ومعنى ذلك أنها أصبحت أقل قدرا من زوجها. بدأ ذلك الانخفاض في مكانة المرأة مع بدء ملكية الأرض وعصر الأسرة السابعة حتى الأسرة العاشرة (٢٤٢٠ إلى ٢١٤٠ سنة ق.م) واستمر وضعها منخفضا في عصر الدولة الوسطى في الأسرة الحادية عشرة حتى الأسرة الثالثة عشرة، وعصر الهكسوس، بسبب تفشي الاقطاع والظلم، ولم تسترد شيئاً من مكانتها الضائعة إلا في عصر الدولة الحديثة (١٥٨٠ سنة قبل الميلاد) بعد ثورة النساء والعبيد والشعب المصري القديم كله ضد المستعمرين والإقطاع[٢].

واستردت المرأة مكانتها الأولى في تلك الفترة وعرفنا الملكات الشهيرات من الأسرة الثامنة عشرة كالملكة نفرتيتي، والملكة حتشبسوت ذات الشخصية الفذة القوية والذكاء الشديد والتي حكمت مصر اثنتين وعشرين سنة (من ١٥٠٤ إلى ١٤٨٣ قبل الميلاد).

حدث ذلك قبل ظهور أول الأديان السماوية وهو الدين اليهودي. وقد نشأت فلسفة الدين اليهودي وأفكاره من القيم الاقتصادية التي سادت في ذلك الوقت، وهي القيم الاقطاعية القائمة على ملكية الأرض والعبيد والأطفال والنساء. وكان لا بد للرجل الاقطاعي من فلسفة وقيم اخلاقية معينة يدعم بها قيمه الاقتصادية والاقطاعية والاستغلالية. وحينما أدرك الرجل أن المرأة بالطبيعة أقدر منه على خلق الحياة الجديدة، وأن هذه القدرة أعطتها مكانة عالية في المجتمع، قال لنفسه: ولماذا أدعي لنفسي هذه القدرة رغم أنف الطبيعة؟!. وجلس آدم بينه وبين نفسه (وكان فنانا وقادراً على خلق القصص والروايات) ثم خرج الى العالم بقصة آدم وحواء الشهيرة في التاريخ. وفي هذه القصة سلب آدم من حواء قدرتها على الولادة وخلق الحياة الجديدة، وأعطى نفسه هذه القدرة، قائلاً إنه هو الذي ولد حواء، وأنها جاءت من أحد ضلوعه (لم يستطع آدم في ذلك الوقت أن يخدع الناس بيولوجيا أيضاً ويقول إنها جاءت من رحمه لان الناس كانت تعرف أن الذكور ليست لهم أرحام) وعلى هذه القصة (وعلى قصص أخرى مماثلة) بدأ الدين اليهودي يكون فلسفته ومبادئه وأخلاقياته. ولهذا

أصبح الرجل هو السيد في الفلسفة والأخلاق والدين لتدعيم سيادته الاقتصادية والاستغلالية.

والذي يدرس الدين اليهودي، كيف نشأ، ولماذا، ويتعرف على مبادئه وقصصه يندهش لكثير من الحقائق التي يطمسها التاريخ عن قصد وعن غير قصد. ونحن نقرأ في التوراة عن قصة «لوط» مثلاً، كيف أنه قدم بناته من أجل حماية رجلين. لقد اعتبر كرامة صديقيه من الرجال أعلى من كرامة بناته الأطفال وشرفهن. (كنت لا أفهم لماذا يسمى الرجل الذي يمارس الجنس مع الرجال باسم «اللوطي» ولكني فهمت ذلك بعد قراءة هذه القصة).

وباستعراض أفكار الدين اليهودي نجد أن أساس هذا الدين يقوم على سيادة جنس الذكور على جنس النساء وأن عقل الرجل جزء من الذات الإلهية أما المرأة فهي من سلالة الحيوانات والشياطين.

وهذا هو السبب في أن الرجل اليهودي يقول كل صباح حين يصلي: « أحمدك يا رب .. لأنك لم تخلقني « امرأة » . بينما تصلي المرأة اليهودية كل صباح وتقول: « أحمدك يا رب .. لأنك خلقتني وفي مشيئتك وإرادتك »[٣] .

ويمضي بنا التاريخ ويعرّفنا كيف بنيت الديانة المسيحية من بعد اليهودية على أفكار مشابهة، جذورها واحدة، وفي عصر كعصر العصور الوسطى كانت الكنيسة هي السلطة الحاكمة، وقد رأينا كيف كانت النظرة إلى المرأة وكيف كانت تحرق وتعذّب باسم الدين وباسم المحافظة على القيم والأفكار السائدة. ولم تكن الأفكار السائدة في ذلك الوقت تقنع هؤلاء الذين وهبوا شيئاً من الذكاء الطبيعي الفطري. فكيف يمكن أن يؤمن شخص ذكي بأن الوقوف أمام باب الكنيسة أو لمس بعض قطرات من الماء (كان يسمى الماء المقدس) يمكن أن يشفي جسد الانسان من الأمراض المعدية أو يمنع ظهور الأوبئة أو العواصف أو الأمطار؟!

ولكن الويل كل الويل أن يكون الشخص موهوب الذكاء خاصة إذا كان امرأة. ولم تكن المرأة التي أطلقوا عليها اسم «الساحرة الحكيمة» في العصورالوسطى سوى امرأة موفورة الذكاء، أدركت بفطرتها ودقة ملاحظتها وفهمها السريع أن هناك بعض النباتات تشفي بعض الأمراض، واستطاعت أن تشفي فعلاً بعض المرضى. لكن الكهنة الرجال رعاة الكنيسة يغضبون. فكيف تتجرأ امرأة أن تشفي المرضى في حين

أن هذه المقدرة من صفات الكنيسة وحدها أو ممثليها من الكهنة الرجال الذين يملكون وحدهم الماء المقدس والقدرة الإلهية؟!

وكان الناس يتجمعون عند باب الكنيسة ليحظوا ببضع قطرات من الماء المقدس[٤] أملاً في الشفاء من المرض أو الوقاية منه. وكان الكهنة يسيطرون على الناس بهذه الفكرة. ولهذا كان ظهور أي ساحرة حكيمة مهدداً لسلطتهم وكانوا يحكمون عليها بالتعذيب والموت شأن زميلتها الأخرى التي كانوا يسمونها «الساحرة الشريرة» أو المجنونة وهي المرأة الذكية المتمردة التي اكتشفت بذكائها الفطري ذلك الظلم الفادح الواقع على جنس النساء لمجرد أنهن نساء، ولم يكن لها علاقة بشفاء المرضى كالساحرة الحكيمة، لكنها كانت تتهم أنها سبب الأمراض والأوبئة التي يعجز الماء المقدس عن شفائها.

ويذكر التاريخ ان مصير الساحرة الحكيمة لم يكن أحسن حالا من أختها الساحرة الشريرة ـ المجنونة بل ان عقابها في معظم الأحيان كان أشد، لأن تهديدها لسلطة الكنيسة ونفوذها كان أشد. وتكتب ميشيليه قائلة[٥]: «كانت الكنيسة تعلن ـ في القرن الرابع عشر ـ أنه لو تجرأت امرأة وعالجت الأمراض بغير دراسة، فهي ساحرة، ولا بد أن يحكم عليها بالموت».

وكانت الدراسة في العصور الوسطى تعني دراسة تعاليم الكنيسة (وأحدها أن الماء المقدس يشفي)، وكان هذا العلم بيد الكهنة وحدهم (خدام الكنيسة) ولم يكونوا يسمحون لأحد أن ينافسهم في هذه المهنة. ومن هنا نشأ حقدهم وكراهيتهم لأي شخص يظهر ذكاءه في علاج الامراض خاصة إذا كان امرأة. إن الصفة الوحيدة التي كان يمكن أن تدمر حياة المرأة تماماً في تلك العصور هي صفة الذكاء وقدرتها على علاج بعض الحالات المرضية. ولقد دهشت حين وجدت في تاريخ تلك العصور ما يثبت أن الساحرة الحكيمة كانت مكروهة من الكنيسة أكثر من الساحرة الشريرة، لأنها كانت اكثر تهديداً لسلطة الكنيسة، وأكثر منافسة لأعضاء مهنة الطب في ذلك الوقت وهم الكهنة ورعاة الكنيسة.

ان أحد هؤلاء واسمه «وليم بيركنيز» وهو «صياد الساحرات» الانجليزي الشهير (كان لقب «صياد الساحرات» يعطى لهؤلاء الرجال الذين كانت مهنتهم اصطياد الساحرات والتفتيش عنهن بين الناس بشتى الطرق) هذا الكاهن كان يقول:

«ان شفاء الأجسام والأرواح من اختصاص الإله وحده، وهؤلاء الذين عينهم ممثلين له فوق الأرض، ألا وهم الكهنة، لهذا فان الموت هو الجزاء العادل للساحرة الحكيمة»[٦].

كان هؤلاء الكهنة يعدون أنفسهم طبقة الحكام الأسياد، ولم تكن كرامتهم الدينية تسمح بأن يندس بين صفوفهم أحد من الطبقات المحكومة خاصة إذا كان من جنس النساء الشيطاني.

وكانت التقاليد الدينية في ذلك الوقت تشيد بالطبقية والاقطاع، وتقول إن الإله هو الرب، الاقطاعي صاحب الأرض، وحيث إن هذا الإله قد عين الكهنة ممثلين له على الأرض فانهم أصحاب الأرض من غير جدال، وبذلك انقسم الناس إلى أسياد وهم أصحاب السلطة والارض والعلم (تعاليم الكنيسة) وعبيد من الفقراء والاجراء، وفي النهاية جنس النساء المنحط. ولهذا يشهد التاريخ أن معظم الساحرات الشريرات والحكيمات المجنونات اللاتي عذبهن وحُرقن كن من الفقيرات، وان الرجال الذين اتهموا بالسحر والشر والجنون (عددهم كان قليلاً بالنسبة لعدد النساء) كانوا جميعاً من الفقراء.

ويعتبر بعض العلماء الآن الساحرة الحكيمة التي عذبت في العصور الوسطى هي الأم الحقيقية للطب الحديث، ويقولون انها بذكائها الفطري استطاعت أن تكتشف انواعاً مختلفة من العلاجات، لكن هذه اندثرت في التاريخ بسبب اهمال المؤرخين لها وعلماء النفس القدامى والمحدثين، (ومعظمهم من الرجال) الذين كانوا أنفسهم متأثرين بأفكار من سبقوهم وألصقوا بها تهمة الجنون وظلت هذه التهمة تنتقل من عصر إلى عصر دون أن يحاول أحد مراجعتها أو مناقشتها.

وقد ورث بعض رجال العصر الحديث عن رجال العصور السابقة كراهيتهم الشديدة لذكاء المرأة. انهم يفضلون عليها المرأة الغبية، التي تعتقد أن سيادة الرجل وخضوع المرأة انما هي أشياء طبيعية لمجرد أنه ذكر وهي أنثى. وهناك كثير من الرجال ما زالوا يعتقدون أن عقل المرأة يشوه أنوثتها، وأن ذكاءها يفسد طبيعتها. ذلك أن في أعماقهم تلك الفكرة القديمة منذ العصور الوسطى بأن عقل الرجل انما هو جزء من عقل الإله، وأن الإله قد اختص جنس الذكور وحدهم بذلك العقل والحكمة. أما المرأة فهي بطبيعتها أقرب إلى الجنون منها إلى العقل.

وقد سيطرت هذه الفكرة على رواد علم النفس القديم سيطرة شديدة، والدليل على ذلك أنهم أطلقوا اسم «الهستيريا» وترجمتها الحرفية «رحم المرأة» على حالات الجنون التي صادفتهم. كأنهم بذلك يقولون إن كل امرأة لها رحم فهي حالة من حالات الهستيريا. وإن كل حالة من حالات الهستيريا لا بد وأن يكون لها رحم.

وفي القرن السابع عشر حين تضاءلت قوة الكنيسة تضاءلت معها ظاهرة السحر والشيطنة بين النساء وحلت محلها ظاهرة الجنون والمرض النفسي والعصاب والهستيريا. وتقول سجلات التاريخ إن معظم المرضى بهذه الأمراض العقلية والنفسية كانوا نساء، ولهذا أطلقوا اسم «هستيريا» على هذه الأمراض، وقد تصوروا من كثرة حالات النساء أن هذه الأمراض أمراض نسائية لها صلة ما بالرحم.

ويصف توماس زاس هؤلاء النساء قائلاً: «كان لهن عقل يفكر وينتقد كثيراً. هؤلاء الرافضات غير المتكيفات مع المجتمع ومع قيمه التي تجعل الرجال أسياداً والنساء عبيداً وجواري. ولهذا كان وجودهن يهدد المجتمع ونظامه القائم. وكان واجب المعالجين النفسيين والأطباء في ذلك الوقت (وهم الذين خلفوا الكهنة في مهنة العلاج والتطبيب) أن يحموا المجتمع منهن ومن تمردهن على الأفكار السائدة»[٧].

ويكتب جريجوري زيلبورج عن (الماليأس مالفيكارم)، وهي (الوثيقة التاريخية التي تعد المرجع الأساسي لحياة السحر في العصور الوسطى)، يكتب عنها قائلاً: «ان هذه الوثيقة (الماليأس مالفيكارم) قد تصلح بشيء من التعديل البسيط أن تكون مرجعاً ممتازاً للطب النفسي الاكلنيكي في القرن الخامس عشر لو أن كلمة «الساحرة» استبعدت بكلمة «المريضة»، واستبعدت كلمة «الشيطان»[٨].

ولو أننا تفقدنا بعض أعمال أطباء النفس، ابتداء من «بنيامين روش» (سنة ١٨١٢) لوجدنا ان الطب النفسي في ذلك الوقت كان يميل الى تفسير جميع أنواع السلوك غير العاديه على أنها نوع من المرض النفسي. وكان «فيليب بنييل» (١٧٤٥ ـ ١٨٢٦) يعتقد أن الساحرات كن مريضات نفسياً، وكذلك اعتقد تلميذه «جان اتيان دومينيك اسكيرول» (١٧٧٢ ـ ١٨٤٠) الذي كوّن نظرية أن الساحرات كن مريضات العقول. وجاء «جان مارتن شاركوت» (١٨٢٥ ـ ١٨٩٣) وأكد أن ظاهرة الساحرات كانت مشكلة عصبية، وحاول أن يوضح أن أعراض «الهستيريا» في تلك العصور هي نفسها أعراض الهستيريا في عهده. وقد فعل شاركوت مثلما فعله اسكيرول، وذلك أنه تلقى صفات

الساحرات كما هي وفعل فرويد الشيء نفسه، لكنه قال ان ظاهرة الساحرات مشكلة نفسية[٩] وليست عصبية كما قال شاركوت. وقد فاته أن يسأل نفسه أولاً هل هن مريضات أم لا، لكنه تسلم التركة ممن سبقه وتلقى تشخيص كهنة العصور الوسطى لهؤلاء النساء كمريضات وراح يدرس نوع المرض هل هو عصبي أم نفسي. وقد حاول فرويد أن يعثر على تشابهات بين نظرية الشيطنة[١٠] أو (الممسوسات بالجان) وبين نظرية التحليل النفسي لمرضى الهستيريا.

وقد تصور فرويد أن هستيريا هؤلاء النساء أو صراخهن الحاد من الألم والأسى بسبب حزنهن على ضياع عضو الذكر إلى الأبد، ونسي أن هؤلاء النساء كن يصرخن ويولولن بسبب الابر الطويلة الحادة التي كان يغرسها في أجسامهن صيادو الساحرات بحثاً عن علامة الشيطان. وان اعترافهن بالجرائم الجنسية علناً أمام قضاتهن من الكهنة لم تكن بسبب انحرافاتهن الجنسية وإنما بسبب رغبة هؤلاء القضاة في سماع بعض الكلمات الجنسية المثيرة. ولم يكن أمام هؤلاء النساء (ازاء التعذيب الشديد) إلا أن يعترفن بالجرائم التي يلقنها لهن القضاة، والتصريح علناً أن الأرواح الشريرة والشياطين تسكن أجسادهن. وقد جهل فرويد كل هذه الحقائق لأنه عجز عن فهم الظروف الاجتماعية الحقيقية التي عاشتها هؤلاء النساء، وكان لعجزه سببان: السبب الأول انه رجل متحيز بحكم نشأته اليهودية لجنس الذكور الأسمى، والسبب الثاني لأنه بحكم انتمائه لطبقة العلماء والأطباء كان يأخذ بوجهة نظر أصحاب السلطة الحاكمة وينسى وجهة نظر المحكومين من العبيد والنساء. وقد وقع في هذا الخطأ نفسه عدد غير قليل من العلماء والمؤرخين[١١] والاطباء وبالذات أطباء النفس.

وقد كان تحيز فرويد (غير الواعي) لجنسه الذكري أحد أسباب عجزه عن فهم حقيقة المرأة. ولأن فرويد يعتبر الأب الاساسي للطب النفسي الحديث ولأن الكثيرين من بعده اعتنقوا أفكاره وتأثروا بها إلى حد كبير فقد شاعت نظريته المشوهة لسيكلوجية المرأة وطبيعتها النفسية، إلى حد أن المرأة الطبيعية أصبحت هي المريضة والمريضة هي الطبيعية، ولم يعد في الامكان، إلا لقلة من علماء النفس، التخلص من هذه الافكار الشائعة ومحاولة فهم حقيقة المرأة بروح محايدة وذهن واسع متفتح قادر على التعمق.

وبعض هؤلاء القلة من العلماء رجال، وبعضهم نساء. ومن الرواد النساء: كارين هورني، كلارا تومسن، مرجريت ميد، سيمون دوبوفوار، بتي فريدان كيت ميليت،

الجرال: ليستر وورد ومالينوسكي وأدلر وسولفيان ورايخ ولينج وسجريست وكوبر وتوماس زاس. ويكتب هنري سيجريست[١٢] العالم الشهير في تاريخ الطب: «ان هؤلاء النساء اللائي سمين بالساحرات (Witches) واللائي عذبن حتى الموت اتهمن بأنهن شخصيات مريضة نفسياً، على حين لم يتهم هؤلاء الذين كانوا يعذبونهن حتى الموت بأي مرض نفسي. ولم يكن ذلك إلا بسبب أن المجتمع آمن في ذلك الوقت بالسحر وارواح الشياطين نتيجة فلسفة معينة كانت سائدة.

وهذا هو الحال في معظم عهود التاريخ ،فان الاعتداء والتعذيب والقتل يصبح شيئاً طبيعياً وصحياً إذا صدر عن أصحاب السمو والمكانة والأرض والسلطة، ولكنه يصبح المرض والجريمة والجنون إذا صدر عن أصحاب الفقر أو العزل من السلاح أو جنس النساء الادنى، بل إن مجرد دفاع هؤلاء عن انفسهم أو الصراخ من الألم يعتبر المرض والجنون.

ان انتشار ظاهرة الساحرات الشيطانات في العصور المظلمة لا تختلف في اسبابها الجذرية عن انتشار ظاهرة المريضات بالهستيريا في عصر فرويد، ولا تختلف عن انتشار ظاهرة المريضات نفسياً والعصبيات في النصف الأخير من القرن العشرين.

انها النتائج الطبيعية للعلاقة بين نوعين من الناس، نوع يملك السلطة والسمو وهم الذكور، ونوع مضطهد بهذه السلطة يصارع من أجل الحرية وهم النساء. ويؤكد هذه الحقيقة أيضاً العالم النفسي الشهير مالينوسكي حين يكتب: «ان الأساطير والخزعبلات لا تحتضن ظاهرة السحر فحسب ولكنها تحتضن أية قوة في المجتمع تقوم على امتيازات لبعض الناس دون البعض الأخر»[١٣].

ولا شك في انه لكي نفهم الخزعبلات التي احاطت بالمرأة وبعلاقتها بالرجل فلا بد أن ندرك الامتيازات التي حظي بها الرجال دون النساء في مختلف العهود البشرية. ومن أجل أن تعود علاقة الرجل والمرأة الى شكلها الطبيعي غير المشوه فلا بد أن تحارب هذه الامتيازات في كل مكان وزمان، وتحارب الخزعبلات في التاريخ وفي كل العلوم. وقد يندهش بعض الناس ويتساءلون أيمكن أن يحتوي العلم أيضاً على خزعبلات ولكن ما هو العلم؟ لقد عرفنا أن ورثة الكهنة كانوا العلماء، وكما كان الكهنة خدام الكنيسة في العصور الوسطى كان العلماء خدام الاقطاع ثم رأس المال (أو السلطة) في القرون التي تلت ذلك. وكما عاشت سلطة الكنيسة في العصور

المظلمة على الخزعبلات؟ فقد عاشت سلطة الاقطاع ورأس المال في العصور التي تلتها على بعض الخزعبلات أيضاً. وبهذا ليس لنا أن نندهش حين نصادف بعض الخزعبلات في العلم، وقد كتب دانهام[١٤] يقول: «ان الخزعبلات سوف تصادفنا، وسوف نجدها منتشرة في عدد من المجلدات الضخمة القيمة، بل وفي قلب العلم ذاته سوف نجدها».

إن التشويه لحقيقة المرأة وطبيعتها الجسمية والنفسية حدث في التاريخ في عهود مختلفة متعددة، وهو لم يحدث للمرأة فحسب، ولكنه حدث لأجناس مختلفة من البشر، عوملوا كفصائل أدنى من الانسان، لأسباب اقتصادية واستغلالية. لكن الانسان (لكونه إنساناً له عقل قادر على التحليل والتبرير) استطاع أن يبرر أسباب الاستغلال (كي يستريح ضميره) بأسباب أخرى، استطاع أن يغلفها بالعلم تارة، وبالأخلاق تارة أخرى. الأشياء التي لم يستطع أن يثبتها بالعلم أثبتها بالأخلاق، وما عجز عن إثباته في علم الأخلاق أثبته في الفلسفة وهكذا. ولا يسع الباحث أو الباحثة في علوم الطب (جسدا أو نفسا) إلا أن يندهش لتلك المحاولات العلمية التي أراد بها الإنسان الأبيض أن يثبت بيولوجيا أن مخ الانسان «الأبيض» أكثر تطوراً ورقياً من مخ الإنسان «الأسود»، وان يثبت نفسياً أن «العبد» له نفس تختلف عن نفس «السيد» وعرفنا في علم النفس ما يسمى «بسيكلوجية العبد». وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة، وكم من محاولات علمية في مختلف العلوم الطبية والبيولوجية والنفسية لإثبات فروق (لصالح الرجل) بين مخ الرجل ومخ المرأة، وبين أعضاء الرجل وأعضاء المرأة، وبين نفس الرجل ونفس المرأة، وعرفنا في علم النفس ما يسمى «بسيكلوجية الأنثى» على غرار ما سمي «بسيكلوجية العبد».

وحينما ثار العبيد، وأصبحت ثورتهم قوة اجتماعية تهدد السلطة والنظام الاقتصادي السائد بدأ العلم يهتم بهم، وبدأ العلماء (بوحي أو بأمر من السلطة الحاكمة) يراجعون الحقائق العلمية التي وصفوا بها العبيد جسداً أو نفساً. وظهرت حقائق علمية جديدة تلغي الفروق البيولوجية بين مخ السيد ومخ العبد، وتلغي الفروق النفسية بين نفس العبد ونفس السيد، واكتشف العلم أن العبد لا يولد بنفس خانعة، وأن النفس الذليلة ليست نفس العبد الطبيعية ولكنها تصبح نفسه من أثر الاضطهاد الاجتماعي الطويل.

وانتقلت ثورة العبيد إلى غيرهم من الفئات المضطهدة من البشر، وبدأت النساء في انحاء مختلفة من العالم تثور ضد الوضع الأدنى الذي فرض عليهن. وبدأ العلماء

(بسبب قوة النساء المتزايدة) يراجعون الحقائق العلمية التي وصفوا بها النساء جسداً ونفساً.

وظهرت حقائق علمية جديدة تلغي الفروق البيولوجية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وتلغي الفروق النفسية بين نفس المرأة ونفس الرجل، واكتشف العلم أن المرأة لا تولد بنفس خاضعة، وأن الخضوع والسلبية والضعف والماسوشية ليست صفات نفسية المرأة الطبيعية، ولكنها تصبح صفاتها من أثر الاضطهاد الاجتماعي الطويل.

لكن الثورات لا تبدأ في أول أمرها قوية، لأنها في البداية لا تشمل أعداداً كبيرة من الفئة المضطهدة. إن الذي يبدأ دائماً أفراد قلائل، يرفضون الظلم ويثورون، وتنتقل الثورة منهم إلى غيرهم شيئاً فشيئاً حتى تشمل الجميع وحينئذ تصبح الثورة قوة اجتماعية ضاغطة تستطيع أن تغير النظم والمفاهيم والحقائق العلمية أيضاً.

هناك اذن فترة يكون فيها الثائرون أو الثائرات قلة قليلة، بلا حول ولا قوة أمام القوة الاجتماعية والعلمية القائمة، ولأنهم يرفضون القيم السائدة، ولأنهم يثورون على المفاهيم المنتشرة، ولأنهم أفراد قلائل بلا قوة وبلا سلطة فان مصيرهم معروف في كل عهود التاريخ: القتل أو السجن أو الاتهام بالجنون! ومن الذي يستطيع أن يتهمهم بالجنون سوى الطبيب النفسي أو من يقوم مقامه حسب اختلاف العهود؟

في العصور الوسطى كان الكاهن أو رجل الدين هو الذي يشخص جنون الرجال أو النساء الذين يرفضون القيم السائدة في ذلك الوقت. كان معظم هؤلاء من النساء وكانوا يسمون الساحرات الشريرات ويعاقبن بالقتل أو الحرق أو السجن في مستشفى الأمراض العقلية. وقد كتب «جيكوب برنجر» و«هنريك كرامر» في أهم وثيقة تاريخية (ماليا‌س مالفيكارم) عن السحر في العصور الوسطى: «ان السبب في أن السحرة الأشرار كانوا غالباً من النساء أن عملية السحر تأتي من الشبق الجنسي، والذي هو في النساء لا يرتوي أبداً. أما الرجال فانهم في مأمن من هذه الجريمة الشنعاء لسبب واحد هو أن المسيح كان رجلاً... تبارك في علاه، هو الذي حمى جنس الرجال من مثل هذه الجريمة الكبيرة، لأنه طالما سمح لنفسه بأن يولد، وأن يتعذب من أجلنا فهو قد ضمن اذن للرجال هذه الميزة على النساء[١٥]، ويقول توماس زاس: إن هذه الوثيقة التاريخية (ماليا‌س مالفيكارم)، ضمن أشياء أخرى، اعتبرت في العصور الوسطى نظرية دينية علمية تثبت سمو جنس الرجال على النساء، وتبرز، بل تطلب

تعذيب النساء لأنهن أعضاء الجنس الأدنى، الجنس الخطر وصاحب الإثم والجريمة الشنعاء.

وكم يندهش الباحث في التاريخ والعصور الوسطى حين يقف على انواع العقاب والتعذيب الذي تعرضت له أذكى نساء تلك العصور لمجرد رفضهن التسليم ببعض الخزعبلات السائدة، وفي بعض الأحيان لمجرد اختلاف المرأة مع زوجها وفي أحيان أخرى دون أن تفعل شيئاً، وانما اتهمت بواسطة الكهنة انها السبب في حدوث وباء من الأوبئة التي لم يكن الطب بعد قد اكتشف اسبابها الحقيقية، أو لأنها سبب تغير شديد في الطقس أو هبوب عاصفة.

ان مؤلفي هذه الوثيقة (مالياس مالفيكارم) يكتبان ان ظهور مرض من الأمراض على نحو مفاجيء دليل على انه بسبب هؤلاء الساحرات الشريرات، ويسوقان قصصاً من حياة بعضهم ليؤكدا هذه الصلة أو الرابطة بين الوباء المفاجيء وبين المرأة الساحرة. وها هي احدى الحالات التي عرضاها في كتابهما:

«كان هنا مواطن محترم من (سبايرز)، له زوجة، من ذلك النوع من النساء العنيد، كان يحاول ارضاءها بشتى الطرق لكنها لم تكن تخضع في معظم الأيام لرغباته، وفي يوم من الأيام كان يدخل بيته حين قابلته زوجته كالعادة بكلماتها التي تضايقه، فأراد أن يخرج مرة أخرى لكنها أغلقت الباب بالمفتاح وصاحت بأنه لن يكون مخلصاً لها إلا إذا ضربها. وإزاء كلماتها هذه رفع الزوج يده، لم يكن يتعمد ايلامها، وضربها برقة بكفه على عجزها. وفي هذه اللحظة سقط على الأرض فاقداً الوعي، وظل ملازماً الفراش أسابيع طويلة بسبب المرض الخطير الذي داهمه فجأة. وإنه لواضح الآن أن هذا المرض لم يكن مرضاً طبيعياً، ولكن سببه المرأة الساحرة الشريرة. وقد وقعت حوادث كثيرة من هذا النوع، ويعرفها الكثيرون منا»[١٦].

من هذه القصة يتضح لنا كيف كان الرجال في العصور الوسطى يفهمون النساء، ويفهمون سبب الأمراض المفاجئة، وكيف توصف العلاقة بين الزوج وزوجته. فالزوج (كما يصفه المؤلفان) حمل وديع بريء براءة الملائكة أو القديسين، حتى أنه حين رفع يده ليضرب زوجته (بناء على رغبتها هي) فانه لم يكن يقصد ايلامها، وضربها برقة، ومع ذلك فقد سقط مريضاً ضحية سحر هذه المرأة الشريرة.

وقد ذكرتني هذه القصة حين قرأتها بقصص مشابهة (مع بعض الاختلاف الشكلي

بسبب تغير العصور) عشتها مع بعض المريضات نفسياً اللاتي قابلتهن خلال هذا البحث، وحين كنت أجلس مع بعض أزواجهن وأسمع رأيهم في زوجاتهم، اندهش لعقلية بعض الرجال في الثلث الأخير من القرن العشرين التي تختلف كثيراً عن عقلية رجال العصور الوسطى. أحد هؤلاء الأزواج قال لي: إن زوجته مريضة نفسياً لأن روحاً شريرة ركبتها. وقال لي زوج آخر: إن زوجته على صلة بالشيطان.

ان ارتباط المرأة بالشيطان فكرة سادت في العصور الوسطى بسبب النظرية الدينية العملية (كما وردت في الماليا‌س مالفيكارم) التي تقول بسمو الرجل لمجرد أنه ذكر وأن المرأة حليفة الشيطان والجريمة الشنعاء وكأن «القديس» هو الوجه الآخر المناقض للشيطان، و«القـديس» هو حليف الله يمثـل الله، ويمثله على الأرض الـرجـال القديسون، وهم مسؤولون عن تنفيذ أعمال الله الخيرة، وأولها معاقبة حلفاء الشيطان ألا وهم النساء الساحرات الشريرات.

وكانت احدى هؤلاء النساء الساحرات الشريرات هي «جان دارك» التي أحرقوها حتى أصبحت رماداً، سنة ١٤٣١ بسبب اتهامها في ذلك الوقت بالسحر والشر والجنون والشيطنـة، ولم تكن جان دارك إلا واحدة من هؤلاء النساء الذكيات اللاتي رفضن الاستسلام للقيم والخزعبلات السائدة وكانت على قدر من الشجاعة فأعلنت رفضها وحولت الرفض إلى ثورة ايجابية، سجلها التاريخ فيما بعد، لكن جان دارك عذبت واتهمت بالجنون وأحرقت، ولم يفهمها الرجال على حقيقتها إلا بعد موتها بحوالي خمسمائة عام، سنة ١٩٢٠، حين كرمت واعتبرت شهيدة قديسة[١٧].

ولعل أعجب ما صادفني وأنا أقرأ عن هذه العصور الوسطى هو تلك الطريقة التي كان يتبعها الكهنة (وكان الناس في ذلك الوقت يقولون عنهم الأطباء أيضاً) لتشخيص السحر أو الشر أو الجنون وذلك باكتشاف بعض مظاهر معينة على جسم المرأة. ويكتب «روبينز» يصف عملية فحص سيدة اسمها ميشيل شاندرون من جنيف اتهمت بالسحر، يقول: «كان الأطباء يفحصون جسمها بحثاً عن علامات الشيطان، فتغرس في جسمها ابر طويلة، وتبكي وتصرخ ميشيل من الألم وينزف الدم من الثقوب التي أحدثتها الابرة. وحين لا يعثر الأطباء على علامة واحدة من علامات الشيطان (كانوا يعتقدون أن هذه العلامة جزء من جسم المرأة إذا غرست فيه الابرة لا ينزف دماً ولا يسبب لها ألماً)، يأمر القضاة بتعذيب المرأة حتى تعترف بذنبها فتثبت عليها التهمة قولاً بعد أن عجزوا عن إثباتها جسداً بعلامة الشيطان. وبعد اعترافها (كان معظم هؤلاء النساء من شدة

الآلام يعترفن بكل ما يطلب منهن الاعتراف به)، يأخذ الأطباء المرأة مرة ثانية ويبحثون بالإبر الطويلة في جسمها عن علامة الشيطان. وحينئذ يعثرون على دائرة صغيرة فوق فخذ المرأة تغرس فيها الإبرة فلا تصرخ المرأة من الألم ولا يظهر الدم الأحمر. وهذا طبيعي لأن المرأة بعد هذا التعذيب تفقد الاحساس بالألم وقد تموت بعض أجزائها فعلا فلا تنزف الدم). ويأخذون المرأة بعد ثبات الاتهام الى حيث تشنق أو تحرق»[١٨].

وكان هناك طريقة أخرى لإثبات مثل هذا الاتهام على المرأة، وكانت تسمى طريقة «السباحة» وتتكون من ربط المرأة المتهمة بالحبال بحيث يكون إبهامها الأيمن فوق اصبع قدمها اليسرى، وإبهامها الأيسر فوق اصبع قدمها اليمنى (على شكل صليب)، ثم يلقون بها في حوض ماء عميق القرار كالبئر، ثلاث مرات إذا لزم الأمر. فاذا طفت فوق سطح الماء فهي مذنبة، وإذا لم تطفُ وبقيت في القاع فهي بريئة. وفي هذه الحالة الأخيرة يحاولون انتشالها من الماء لأنقاذها، لكنها تكون في أكثر الحالات قد غرقت فعلاً.

وقد كتبت كريستينا هول تقول: «لم يكن أحد يعرف عن يقين من هي المرأة الساحرة والشريرة»[١٩].

وهذا القول يمكن أن ينطبق أيضاً على الأمراض النفسية، فلا أحد يعرف عن يقين من هي المرأة المريضة نفسياً ومن هي المرأة غير المريضة نفسياً. فان معظم وسائل وطرق الفحص النفسي لا تختلف كثيراً عن البحث عن علامة الشيطان. انها اكثر تهذيباً ورقياً بلا شك (بسبب التقدم التكنولوجي) ولكنها كإبرة طبيب العصور الوسطى تضرب في الظلام مهتدية في طريقها بتعاليم الاب «سجموند فرويد» الذي قال بأن المرأة الطبيعية هي ذكر بغير عضو تناسل، وأن جميع النساء يعشن حياتهن بحثاً عن استرداد ذلك العضو الضائع بلا جدوى، فالاحباط مصيرهن وقدرهن المحتوم تماماً كما قال كهنة واطباء العصور الوسطى بأن جميع النساء بعن نفوسهن للشيطان، وأن الانسان يكفيه أن يكون امرأة ليصبح شريراً، ويكفي قولهم: امرأة! بتلك اللهجة التي تعني قولهم الشيطان! وقولهم: رجل! ومعناه: العظيم الشجاع القوي. وقد ورث العهد الحديث كل هذه المعاني، التي ترجع إلى فكرة رجال العصور الوسطى الذين اعتبروا أنفسهم ممثلي الله والخير والحق، والنساء يمثلن الشيطان والضلال والشر، وأنهن اعداء الله، اللائي يتمردن ويخرجن عن طاعته. وطاعة الله معناها طاعة الزوج، لأن الزوج هو ممثل الله. ولهذا كان يكفي أن تخالف المرأة زوجها في تلك العصور لتتهم بالسحر

والشر أو الجنون وتعذب وتحرق أو تسجن في مستشفى الامراض العقلية. بل لم يكن الأمر يستدعي أحياناً أن تخالف المرأة زوجها، كان يكفيها أن تكون امرأة متزوجة.

ويمكن أن نتصور كيف انتقلت هذه الأفكار عبر العهود المختلفة، حين نعلم أنه حتى سنة ١٨٦٠ لم يكن ضروريا للانسان أن يكون مجنوناً ليوضع في أحد المستشفيات العقلية الأمريكية، بل كان يكفيه أن يكون امرأة متزوجة. وحينما حبست السيدة باكارد (الشهيرة في التاريخ الأمريكي) في مستشفى «جاسونفيل» العقلي، لأنها اختلفت في الرأي مع زوجها القس أو راعي الكنيسة، فان هيئة المحكمة في ولاية الينوي اوضحت بصريح العبارة قائلة: «انه يمكن في حالة النساء المتزوجات أن يحبسن في المستشفى العقلي إذا طلب ازواجهن ذلك (أو ولي أمرهن) دون حاجة إلى إثبات مظاهر الجنون أو أعراضه التي يجب أن تثبت في الحالات الأخرى»[٢٠].

هؤلاء النساء كن يعتبرن مريضات بالجنون لمجرد اختلافهن مع أزواجهن أو اولياء أمورهن، وكما يقول توماس زاس إن ثلاثمائة عام مرت دون أن يحاول علماء النفس كشف هذه الحقيقة، بل لعلهم شاركوا في اخفائها. والسبب في ذلك يرجع (في رأيه) إلى سببين اثنين، أحدهما: أن هؤلاء العلماء رجال وليسوا نساء، والسبب الثاني: انهم كغيرهم من الرجال وكغيرهم من اصحاب المهنة الواحدة فانهم يتعاطون في معظم الأحوال مع مصالحهم المهنية والاقتصادية، بل إنه ما زال حتى الآن من ينظر إلى المرأة التي تخالف زوجها (خاصة إذا كان ذا منصب مرتفع) نظرة شبيهة بتلك النظرة القديمة. انها قد لا تتهم بالجنون صراحة، وقد لا تحبس في المستشفى العقلي أو النفسي، ولكنها تعتبر امرأة عصابية (Neurotic) وهو نوع من المرض النفسي أخف من الجنون الكامل، ويعالج بالحقن المهدئة أو الحبوب المنومة، أو بالتحليل النفسي الذي يقنعها بأنها انسانة محبطة إلى الأبد بسبب بحثها اللامجدي عن عضو الذكر، وأن علاجها الوحيد هو اليأس الكامل من الحصول على هذا العضو والتسليم بالأمر الواقع وقبول جسدها الناقص عضوا، ونفسها الضعيفة الماسوشية، ووضعها الأدنى كامرأة، فإن قبلت المرأة هذا المنطق الفرويدي قيل أنها شفيت من عصابها، وإذا رفضته قيل إنها لا تزال في حاجة إلى علاج وإلى جلسات نفسية أخرى، أو جلسات كهربية، لتغير الكهرباء من تفكيرها المعوج، ولتستسلم إلى الأبد إلى حقيقة كونها ذكراً مخصياً جسداً ونفساً.

ولعل من أهم ما جعلني اهجر قسم الامراض النفسية منذ ثمانية عشر عاما هو

رغبتي في الفرار من منظر هؤلاء المرضى والمريضات الذين كان يسلط على رؤوسهم كل يوم تيار كهربي عنيف، وتدوي الصرخة الحادة في الجو، ثم تتقلص عضلات الجسد والعنق تقلصاً شديداً، وتضغط الأسنان على اللسان (إذا نسي الممرّض أن يضع بين الفكين قطعة مطاط) وينزف الدم. كنت أقرأ عن فوائد الصدمة الكهربية في الكتب، وحين أرى هذا المنظر أدرك أنني غير مقتنعة على الاطلاق بهذا النوع من العلاج، وحينما كنت أصرح بذلك للأستاذ ينظر إليّ من علياء كما ينظر معظم الاساتذة الى طبيب أو طبيبة الامتياز ويقول بصوت مليء بالزهو والكبرياء: هذه الجلسات الكهربية مفيدة جداً، وتأثيرها على كيمياء المخ ثابت في المراجع الطبية.

ولم أكن بطبيعتي ممن يقدسون الكلمات المطبوعة في الكتب، وقرأت شيئاً عن أثر الصدمة الكهربية على المخ وتحسن بعض الحالات بعدها، لكنني ظللت غير مقتنعة بهذه الوسيلة البربرية في علاج هؤلاء المرضى والمريضات، ومعظمهم لا يمرض إلا من فرط حساسيته وفرط رقته وانسانيته، فاذا به يربط بالحبال أو يقيد الممرض ذراعيه وساقيه ثم يسلط على رأسه التيار الكهربي العنيف.

وظللت اختزن كراهيتي لهذا النوع من العلاج النفسي طويلاً، وكلما وقع تحت يدي كتاب جديد في الطب النفسي أخذت أبحث فيه عن رأي يدين الجلسات الكهربية. وكم كانت فرحتي منذ خمس سنوات تقريباً، حين كنت احضر أحد المؤتمرات النفسية في كوبنهاغن عاصمة الدانمارك، وسمعت أحد المحاضرين يدين الجلسات الكهربية، وصفقت طويلاً حتى كدت أمزق يدي، وحين صافحت الاستاذ كدت أعانقه، وعرفت بعد ذلك أن كثيرين غيره أدانوا هذا النوع من العلاج، واستطعت أن احصل على عدد من الكتب والابحاث الجديدة التي جعلتني اؤمن بأن إحساسي كان صادقاً منذ ثمانية عشر عاماً.

وقد شعرت بنوع من الراحة حين قرأت هذه الكلمات على لسان البرفسور «يوجو سيرليتي» وهو الرجل الذي بدأ الصدمة الكهربية كعلاج نفسي، لكنه حين نظر في أواخر أيام حياته الى الأثر الذي صنعته يداه، قال لأحد زملائه: «حين أتذكر ما كان يحدث للمريض أفكر بيني وبين نفسي أن هذا العلاج يجب أن يمحى من الوجود»[٢١].

وقد أصبحت أحب قراءة التاريخ (رغم أن الطريقة التي تعلمت بها التاريخ في

المدرسة الابتدائية والثانوية جعلتني أكره التاريخ سنوات طويلة)، وسبب حبي للتاريخ أنني وجدت فيه تفسيراً لكثير من الظواهر الحاضرة التي لا أقتنع بها. فالتاريخ يصل الماضي بالحاضر في تسلسل، والحاضر سيشكل المستقبل. وأصبحت كلما تحيرت في ظاهرة ما من حولي أعود الى التاريخ وأبحث عن أصلها وجذورها، فإذا بالشيء غير المفهوم يصبح مفهوماً، والشيء المجهول السبب يعرف سببه الحقيقي البعيد.

ولقد تحيرت في ظاهرة الصدمات الكهربية كعلاج نفسي للمرضى، وأخذت أبحث عن جذورها في التاريخ، وقادني التاريخ إلى حقيقة غريبة. ففي العصور الوسطى كانت ظاهرة سمو جنس الرجال وانحطاط جنس النساء قد بدأت بوضوح وارتبطت في الأذهان بتلك الفكرة الدينية التي نادت بأن الرجال حلفاء الله وأن النساء حلفاء الشيطان. وأعطى ممثلو الله على الأرض (الكهنة) لأنفسهم الحق في حرق أو تعذيب النساء الساحرات الشريرات اللائي يرفضن أوامر الله (يعني أوامر الكهنة الرجال أو أزواجهن أو أولياء أمورهن). وكان التعذيب يشمل تثقيب جسم المرأة بالإبرة الطويلة حتى الموت، أو ربطها في كرسي حديدي ثم إشعال النار تحت هذا الكرسي وحرقها. وعرف هذا الكرسي باسم (Whitch chair) «كرسي الساحرة الشريرة»، ومنه تطور «الكرسي المهدىء» (Tranquilizer chair) ، في القرن الثامن عشر، حيث تجلس المرأة المصابة بالجنون أو الهستيريا (كان اسمها من قبل الساحرة الشريرة) ويربط ذراعاها وساقاها معاً على أن يرفع رأسها في وضع ثابت بواسطة جهاز معين، وتترك هكذا مدداً طويلة حتى تشفى من جنونها أو من الهستيريا. والشفاء هنا هو أن تخضع وتطيع زوجها أو ولي أمرها. وفي القرن التاسع تطور هذا الكرسي وأصبح معطفاً حديدياً تدخل فيه المرأة وسمي بمعطف الخصر (Waist Coat) ، وفي القرن العشرين تطور ذلك الى الصدمة الكهربية بمرور تيار كهربي في الجسم. أو الصدمة الكيماوية بالحقن بالأنسيولين، أو المعطف الكيماوي المسمى بالمهدئات.

ان التشابه بين الكرسي الكهربي الذي يقتل به بعض المساجين والصدمة الكهربية التي يعالج بها بعض المرضى والمريضات نفسياً ليس تشابهاً بالصدفة، فالتاريخ يعرّفنا بان السجن والمستشفى العقلي كانا مكانا واحداً يوضع فيه الخارجون والخارجات على قيم المجتمع. في سنة ١٧٧٨ كان «السالبتريير» (Salpetriere) في فرنسا هو أكبر مستشفى وسجن في اوروبا. وكان يوضع فيه السجينات من النساء والمريضات بالصرع والجنون والهستيريا والشلل والعمى وغيرها. وكان فيه قسم للبنات المتمردات، وقسم للنساء

الحوامل، وقسم للرجال المرضى من كبار السن. ولم يكن هذا المستشفى يقدم أي نوع من العلاج ولكنه كان بمثابة سجن يحمي المجتمع من هؤلاء الذين يهددون استقراره واستقرار قيمه السائدة[٢٢].

ان عدم التكيف مع المجتمع كان يعتبر مرضاً معدياً كالتدرن الرئوي والزهري، يمكن أن ينتقل بسرعة إلى الآخرين ويهدد النظام والسلطة القائمة بالانهيار، ولذلك كان لا بد من عزل هؤلاء غير المتكيفين في مكان بعيد عن الناس، أو علاجهم بالكهرباء أو الحقن أو الأقراص ليصبحوا متكيفين مع المجتمع متقلبين مع القيم والأفكار السائدة.

ولأن القيم والأفكار السائدة تتغير من عهد إلى عهد باختلاف السلطة فإن عدم التكيف أيضاً يختلف من عهد إلى عهد. ويوضح لنا التاريخ أن القيم والأفكار السائدة ليست بالضرورة هي الأفكار الحقيقية أو الأفكار الصحيحة ولكنها أفكار السلطة الحاكمة في ذلك العهد. وكم تصبح الحقيقة أحياناً مخيفة إلى حد اتهام قائلها بالجنون. وكما يقول كيركجارد: «الحقيقة.. لا... إن الانسان بطبيعته يخشى الحقيقة أكثر مما يخشى الموت، وهذا شيء طبيعي تماماً لأن الحقيقة مفزعة للانسان أكثر من الموت[٢٣].

أن الصراعات الأساسية في الحياة البشرية ليست صراعات بين نوعين من الأفكار، أفكار حقيقية، وأفكار غير حقيقية، ولكنها صراعات بين نوعين من الناس، نوع معه السلطة، ونوع مضطهد ينشد التحرر من السلطة، ومن الطبيعي أن يحمي أصحاب السلطة سلطتهم بأفكار معينة، ويضربوا بيد من حديد كل من يهدد سلطتهم بتشكيك الآخرين في حقيقة تلك الافكار السائدة.

وقد اكتشف علماء التاريخ والنفس والانثروبولوجيا في السنوات الأخيرة أن من سبقهم من العلماء وقعوا في الأخطاء نفسها التي وقع فيها من سبقهم، واولئك وقعوا في أخطاء من سبقوهم، وهكذا... انتقلت الخزعبلات والأفكار الخاطئة من عصر إلى عصر. وبسبب قصر عمر الانسان الفرد بالنسبة لعمر الانسانية، وبسبب السرعة، والسطحية، وتحيز الرجال لأنفسهم (معظم العلماء من الرجال)، فقد ضاعت الحقائق في ظلام أحقاب الماضي والتاريخ، وأصبح على العلماء الجدد من ذوي النظرة

المحايدة إلى الرجل والمرأة أن ينقبوا تحت ركام التراب والزمن عن جذور الحقائق الضائعة. ويقول هربرت مولر:

«لقد اتضح لنا الآن أن الرجال (قليلي الحظ) الذين عاشوا في الماضي قد اعتنقوا أفكاراً مضحكة، ولكننا ننسى أن علماء التاريخ في المستقبل سوف يشيرون الينا ويقولون «إننا أيضاً عشنا واعتنقنا أفكار وخزعبلات مضحكة»[٢٤].

٣ - سيكولوجية الأب الغيرة من المرأة

«لو أننا قارنا طاقة النساء المعنوية بتلك التي للرجال، وراعينا ما تعرضت له النساء من اضطهاد اجتماعي وقانوني وجنسي، وتذكرنا عدد النساء اللائي تعرضن للسخرية أو التعذيب أو القتل، وصمودهن وتمسكهن بمبادئهن، وبشجاعتهن وبسالتهن، وعظمة عقولهن، فسوف نجد أننا لا نملك بأي حال من الأحوال أي دليل على أن المرأة أقل من الرجل. واننا لن نعرف المزيد عن قضية مساواة المرأة بالرجل إلا في ضوء الملاحظات الجديدة»(١).

هذه كلمات «رجل» كان من اوائل الرجال في العالم الذين استطاعوا بسبب اتساع أفقهم وعقولهم وصدق أحاسيسهم أن يدركوا الظلم الواقع على المرأة والفكرة الخاطئة النابعة من الفلسفة الذكورية والتي تقول بسمو جنس الرجال على جنس النساء، وكان اسمه «جان كوندورست» وهو أحد رجال الثورة الفرنسية.

ومن رواد الأفكار الجديدة عن المرأة منذ بداية هذا القرن العشرين عالم عظيم، استطاع بذكائه وملاحظاته وصدق احساسه ألا يقع في شرك الأفكار المتوارثة. هذا العالم هو «ليستر وورد»، لاحظ أن الظاهرة الاجتماعية التي تقول بسمو جنس الرجال ليست طبيعية في الانسان، وليست طبيعية ايضاً في حياة الكثير من الفصائل الحيوانية والنباتية. وكتب يقول: «لو لاحظنا بعض النباتات كالمدقة والسداة لوضح لنا أنه في فصائل النباتات العليا عامة لا يكون الذكر إلا مخصباً للأنثى فحسب. أما الأنثى فتظل وتستمر وتنضج الثمرة. إن ذكور هذه النباتات تذبل وتموت بمجرد أن تفرز مادة الاخصاب فليس لهم وظيفة أخرى»(٢).

ويخرج ليستر وورد من ملاحظاته في عالم النباتات والحيوانات بأن الوظيفة الأصلية للذكر في الحياة الأولى كان مؤقتاً وثانويا بالنسبة لوظيفة الأنثى، وأن هناك بعض أنواع

من الذكور لم يكن يحتوي جسمهم إلا على تجويف كبير بداخله الخصية، وأحياناً كان يتضاءل الذكر ليصبح مادة الاخصاب فقط، واحياناً لا يكون إلا خصية تعيش طفيلياً على الأنثى[٣].

ويكوّن ليستر وورد نظريته من ملاحظاته الطويلة للحياة الطبيعية بين أشكال الحياة الأولى، ويقول إنه نتيجة لعملية الانتجاب الطبيعي فان علمية جديدة خرجت إلى الوجود، هي علمية الاخصاب، وقد حدثت أول الأمر بواسطة عضو داخل الكائن ذاته (الخنثى) ثم انفصل هذا العضو عن الكائن الأساسي وأصبح كائناً صغيراً جديداً يختلف عن الكائن الأصلي. وعاش هذا الكائن الجديد أول الأمر طفيلياً على الكائن الأصلي ثم أصبح ملحقاً به وحمل في كيس تطور لهذا الغرض[٤].

وعلى هذا يقول «وورد» بعد ملاحظاته في عالم النبات والحيوان الأرقى ان الأنثى في الحياة منذ نشأتها الأولى هي الأصل والذكر فرع لها، وهو يتبنى من بعد ذلك نظرية أن الانثى في الحياة أسمى من الذكر ودورها أكثر أصالة وأهمية.

ويرد «وورد» على حجة أن بعض ذكور الطيور والحيوانات أكبر حجما من الأنثى وأبهى منظراً وأكثر قوة أن هذا ليس بسبب سمو الذكر، وانما هو نتيجة الانتخاب الطبيعي الذي فرض على الذكر بواسطة قوة الانثى الأصلية وقدرتها على الانتخاب واختيار الأحسن فالأحسن من الذكور، ولم يكن أمام الذكر أي اختيار سوى أن يصبح أحسن فأحسن ليرضي متطلبات الأنثى المتزايدة. ويكشف «وورد» في حقيقة ما سمي بعدوانية الذكر قائلاً: «ان المعارك بين الذكور، رغم عنفها، نادراً ما تسبب الوفاة. وليس حقيقياً أن أقوى الذكور تخضع الاناث. ان الأنثى - حتى وان كانت أقل من الذكر حجماً وقوة - فهي تفرض سيطرتها وتمارس اختيارها بالقوة والاصرار والدقة نفسها كتلك الحالات التي تكون فيها اكثر قوة منه ولذلك فإني أرفض اصطلاح «التفوق الذكري» من أجل تلك الحالات القليلة نسبياً التي اكتسب فيها الذكر حجما أو قوة أكثر من الأنثى، أو اكتسب تلك الألوان أو الريشات التي جمّلته بها الأنثى. وليس هناك ما هو أكثر زيفاً من ترديد ذلك المفهوم الذي أوحت به الى العالم الفلسفة الذكرية، وهو أن الذكور الأقوياء يوهبون هذه القوة المكتسبة لحماية الصغار وإطعام الأنثى. ان هؤلاء الذكور في الطيور والحيوانات الثديية الذين اكتسبوا قوة أو جمالاً مثل الطاووس، والديك الرومي، والدراج، وديك الفراخ في الطيور، والأسد والغزال والخروف في الحيوانات الثديية، هؤلاء الذكور لا يفعلون شيئاً لأسرهم تقريباً. إنها

الأم، والأم وحدها هي التي تحمي الصغار وتطعمهم وتحارب من أجلهم عند الضرورة. إنها هي التي تثبت الشجاعة الحقيقية، الشجاعة في مهاجمة الأعداء الذين يهددوّن بقاء الفصيلة. ان حيوانات كثيرة مفترسة تهرب من أمام الانسان، والاستثناء الوحيد هو الأنثى مع صغارها. انها الوحيدة التي تمثل الخطر للانسان. ان الأسد الذكر في الحقيقة ليس إلا جبانا، ويتعلم الصياد الانسان كيف يحذر خطر اللبؤة... وماذا يفعل الثور أو العجل أو الديك لحماية صغاره؟ ليس عليك إلا أن تقترب من الفرخ الصغير ولسوف تكون الفرخة الكبيرة هي التي تنكش ريشها تحفزاً وهي التي تتجرأ على مهاجمتك»(٥).

ويرى «وورد» أن ليس هناك حتى الآن من سبب علمي لنعتقد أن الإنسان تطور بطريقة أخرى غير الطريقة غلتي تطورت بها الحيوانات الشديية، إلى مرحلة تشكل وتطور جنين الانسان الى ذكر وأنثى. ولا يعرف العلم إلا قليلاً جداً عن تلك المرحلة البيولوجية في بداية ذلك التشكل، لكن «وورد» يقول: ان المرأة البدائية كانت تمتلك قوة أكثر من الرجل، بصرف النظر عن حجم الجسم، وإنها هي التي سيطرت على الحياة والنسل لفترات طويلة جداً من الحياة البشرية. وقد وضح ذلك من الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخ. وقد سمى « وورد» هذه المراحل الأولى باسم «مرحلة البروتوبلازم الاجتماعي»(٦) وقد كان اختيار الأنثى للذكر حراً بل هو الأساس وهو النهائي. ولا تزال بقايا هذه المجتمعات الأموية في بعض القبائل الافريقية حتى اليوم. ان المرأة في قبيلة «أويمبا» في شرق افريقية هي التي تحدد العلاقة بينها وبين الرجل، وهي التي تختاره، وحين تختاره فهو لا يستطيع أن يرفضها. وفوق ذلك فانها إن لم تنجب منه طفلاً خلال السنة الأولى من علاقتهما فهي تطرده وتختار رجلاً غيره. وهذه السلطة والحرية أيضاً تتمتع بها المرأة في «أوغنده» و«داهومي»، حيث تجلس النساء على مثل العرش الذي تجلس عليه نساء «أويمبا»(٧).

ويعتقد «وورد» أن اكتشاف الرجل لأبوته التي ظلت مجهولة فترة طويلة هو الذي جعله يحاول تحقيق ذاته وذلك بأن يثور على المرأة ويعزلها عن عرشها الذي هيأته لها طبيعتها البيولوجية. وتشير معظم المصادر الأنثروبولوجية عن هذه الفترة من تاريخ البشرية إلى تلك الكراهية المبكرة التي شعر بها الرجل نحو ملكته الأصلية وهي أمه. وكان على هذه الأم بالطبع أن تفطمه وتفصله عنها. وكانت البنات الصغيرات يشعرن بالرضا والثقة بأنفسهن لأن المستقبل أمامهن كان مفتوحاً ليصبحن كأمهاتهن النساء

ذوات السلطة والحرية والاختيار. أما الأولاد الذكور الصغار فكانوا على عكس ذلك، يشعرون بوضعهم الطفيلي على الأم، وحاجتهم الشديدة لها لتطعمهم، ولم يكن امام الذكور ازاء اختيار المرأة القوية الشكيمة العنيدة الممتلئة ثقة بنفسها، والتي كانت بغريزتها الطبيعية، لا تختار إلا أقوى ما ينتجه الجنس البشري من ذكور، ولم يكن أمام الذكور في مثل هذه التربة النفسية إلا أن يشعروا بالكراهية والحسد لجنس النساء.

ويرجع بعض علماء النفس الذين احتاروا في معرفة أسباب تلك الكراهية الدفينة التي يظهرها بعض الرجال من المرضى «بالشيزوفرينيا» إلى أن هذه الكراهية قد نبتت في أعماق ذكر الانسان في هذه الفترة الأولى من حياة البشرية. ويرجحون أيضاً أن في هذه التربة النفسية الأولى التي عاشها الذكر نبتت الجذور الأولى لتلك الظاهرة التي تسمى في علم النفس باسم «حسد المرأة» (Woman Envy) ، أو ذلك الحنين الدفين في نفس الذكر للأمومة ولأن يكون أنثى تحمل وتلد والذي يظهره بوضوح بعض الرجال المرضى بالانفصام أو الأمراض النفسية الأخرى، وأيضاً الظاهرة المسماة ظاهرة (كوفاد) (Phenomenom of Gouvade) وغيرها من الظواهر النفسية التي صادفت معظم أطباء وعلماء النفس بين حالات الرجال، حين يشعر الرجل بالحنين إلى أن يكون امرأة أو يحاول ذلك فعلاً.

ويتابع العلماء من أصحاب هذه النظرية في تطور الذكر والأنثى في الانسان: إن الرجل ظل يتطور ويقوى من أجل أن تختاره المرأة، إلى أن اكتسب قوة كافية استطاع بها أن يرتكب أول حادث اغتصاب في التاريخ البشري، وكأنما أراد أن ينتقم بشكل ما من المرأة التي يكبت لها منذ زمن تلك الكراهية وذلك الحسد والغيرة. ويعتقد هؤلاء العلماء أن الجريمة الأولى التي وقعت في حياة البشرية لم تكن جريمة قتل الأب ولكنها كانت جريمة الاغتصاب هذه. وربما اعتقد فرويد ذلك أيضاً حين كتب في ختام كتابه «الطوطم والتحريم»[٨]: «في البدء كان الفعل» ويقول العلماء انه يرجع إلى ذلك «الفعل الأول»، تلك الحالات المتكررة التي تصادف أطباء النفس حين تسيطر على بعض المريضات تخيلات وأحلام تدور كلها حول اغتصاب الرجل لها. وقد يكون هذا الاحتمال صحيحاً في بعض الحالات، ولكن هناك حالات أخرى من النساء تتخيل الاغتصاب وتحلم به بسبب التخويف الشديد من الذكر الذي ترسبه التربية المتزمتة في نفس الطفلة البنت، وكذلك أيضاً بسبب الكبت والحرمان الجنسي الذي قد تعاني منه المرأة طوال حياتها فلا تجد سبيلاً إلى الاشباع الجنسي إلا عن طريق

التخيلات والأحلام. ولارتباط الاشباع الجنسي في ذهنها بالاثم منذ الطفولة فان الحل الوحيد لا يكون إلا بأن يغتصبها الرجل، وبذلك لا يكون لها يد، في ذلك الفعل الآثم، وتنام بعدئذ مستريحة الضمير.

ان مثل هذه الاجتهادات العلمية وغيرها تلقي بعض النور على تطور علاقة الرجل والمرأة بيولوجياً، لكن هذه الدراسات البيولوجية لا يمكن فصلها عن الدراسات الاجتماعية والحضارية والثقافية والاقتصادية التي أثرت تأثيراً كبيراً على هذه العلاقة بين الجنسين والتي كان تأثيرها وتطورها يواكب التطور البيولوجي بطبيعة الحال، لأن الانسان حيوان اجتماعي، يؤثر في المجتمع من حوله ويتأثر به على الدوام، ويتشكل بيولوجيا ونفسيا حسب هذا التأثر من أجل البقاء ومن أجل التطور أيضاً.

ويبدو أنه منذ البداية لم يكن سعي الرجل إلى المرأة لأخذها بالقوة (أو اغتصابها) بسبب حبه لها أو حبه في انجاب الأطفال بل كان رغبة عدوانية (سادية) للانتقام وانتزاع السلطة منها، ومعنى ذلك أن الدافع اليها لم يكن هو الحب، وانما كان الحاجة إلى امتلاك هذه السلطة. وقد وجد في الدراسات الانثروبولوجية أنه في هذه الأونة بدأت الملكية الخاصة.

ويشرح «وورد» معنى الملكية، بأنها امتلاك الانسان لأشياء تزيد عن حاجته، ولأن حاجة الانسان تزداد بالتدريج فان رغبته في امتلاك الأشياء تزداد. ولهذا حاول ذكر الانسان بعد انتزاعه السلطة من الأنثى وامتلاكه لها أن يمتلك عدداً من العبيد وقطعة أكبر من الأرض. ومن هنا نشأت «الاسرة».

وفي ضوء هذا التطور البيولوجي والاجتماعي والاقتصادي يرى علماء الأنثروبولوجيا أن «الأسرة» لم تنشأ بدافع حب الرجل للمرأة والأطفال، وانما نشأت بدافع الاستغلال الاقتصادي والطمع والكراهية. ويرون بهذا أن غيرة الرجل على امرأته وفرضه عليها العفة والعذرية والوحدانية في الزواج لم تنشأ بسبب «الحب»، وانما بسبب الرغبة في الامتلاك والسيطرة. وأوضح «أوجاست كومت» (Auguste Comte) أن كلمة «الأسرة» تعني في أصلها اللاتيني الخدم أو العبيد[٩].

ويكتب «وورد» موضحاً هذه الحقيقة ويقول: «وهكذا يتضح لنا مهما بدت الأسرة في البلاد المتحضرة أنها في أصلها ومنشئها لم تكن إلا مؤسسة لاستبعاد المرأة والأطفال أكثر فأكثر، ولأنها قلبت الأوضاع الطبيعية التي كانت فيها الأم هي الملكة

وهي التي تحدد من يكون الأب، وهي التي تحمي الأطفال بحب الأم الذي وجد فيها بالطبيعة لهذا الغرض. إن الأسرة البدائية لم تكن إلا عضواً ذكرياً زائداً ومتطفلاً على المجتمع الانساني[١٠].

ويقول بعض علماء النفس إن الرجل لم يؤهل بطبيعته البيولوجية وبوظيفته الأساسية كمخصب للأنثى فقط أن يرتفع إلى ادراك معنى «الأبوة» نفسياً وانسانياً. لقد استطاع باكتسابه بعض القوة العضلية على الأنثى أن يخضعها ثم استطاع بطمعه الاقتصادي أن يمتلك العبيد وأن ينشىء الأسرة، وكان مدفوعاً دائماً إلى كل ذلك بأنانيته ورغبته في السيطرة، ولهذا يقول هؤلاء العلماء: إن الرجل منذ البداية لم يكن لديه أي ادراك عاطفي أو نفسي لمعنى «الأبوة» أكثر من إدراك «الجرو» أو «ديك الفراخ» لمعنى الأبوة، بل إن رغباته البيولوجية والجنسية قد فشلت في فتح عينيه على الحاجة إلى الأبوة. إن هذا الأب البدائي صاحب الأسرة البدائية كان يغضب حين تنشغل امرأته عنه باطعام طفلها، وكان لا يعنيه إلا أن ترضي المرأة حاجته إلى الطعام أو الجنس، وكان يعتبر الطفل الجديد مخلوقاً مفروضاً عليه، ومعطلاً لأمه عن تلبية مطالبه، ولهذا ضمر له الكراهية، وفي بعض الأحيان كان يقتله. وعرف التاريخ تلك الفترة حين كان الأطفال يقتلون بواسطة آبائهم بسبب عدم حاجتهم الاقتصادية إلى هؤلاء الأطفال.

ولعل هذا هو السبب في تلك الكراهية التي يخفيها أو يظهرها أحياناً بعض الآباء المتحضرين في عالمنا هذا لأطفالهم، ولا يبدأ الأب في ادراك معنى الأبوة نفسياً وعاطفياً إلا بعد أن يكبر الطفل ويصبح نافعاً اقتصادياً. ومعنى هذا أن الأب البدائي لم يكن «أباً» بالمعنى النفسي والانساني الصحيح، وأنه تخلف عن المرأة كثيراً نفسياً وانسانياً، وانه إذا كان هناك من هو «أسمى» من الآخر أو «أكثر تطوراً» نفسياً وانسانياً فانها المرأة وليس الرجل.

لقد كان الرجل بطيئاً في تطوره النفسي كأب، وقد انشغل بنفسه وغرائزه عن أي شيء آخر، ولهذا كان يكره أن تكون المرأة أماً، وانما كان يريدها لتخدمه وتطعمه وتشبع رغبته الجنسية فحسب، على عكس أمومة المرأة التي تطورت منذ البداية كشعور عاطفي انساني، والتي صمدت طويلاً بقوة وعنف أمام بطش الرجل بأطفاله وعدوانه الأناني المتخلف على الجنس البشري ذاته الذي ينتمي اليه، وربما انقرض هذا الجنس البشري بسبب عدوان الذكر لولا ذلك الصمود من المرأة وقوتها العظيمة السامية في المحافظة على النوع. وهذا هو السبب في تلك الصيحة التي أطلقها العالم الكبير

ليستر وورد حين قال: «ان هذه الظاهرة كلها المسماة تفوق الرجل أو سمو جنس الرجال على جنس النساء ليست إلا وصمة عار في جبين الانسانية».

وكان الرجل البدائي، بسبب عجزه النفسي وتخلفه الانساني عن الاحساس بمشاعر الأبوة، كان يقتل أطفاله أو يستعبد الذكور منهم ويشغلهم كالعبيد سواء بسواء، أما الاناث منهن فكان يستخدمهن كأدوات جديدة لارضاء غريزته الجنسية، لكنه ظل رغم كل هذا العدوان الاقتصادي والجنسي والذي اشعره بنوع من القوة على المرأة، ظل يشعر في أغوار أعماقه أن هذه المرأة التي سلبها حريتها وسيادتها السابقة لا تزال هي الأقوى وهي الاسمى وهي التي تمتلك تلك القوة الفريدة من نوعها على البشرية والانسانية جمعاء. انها هي التي تنجب الأطفال وهي التي تحبهم، وهم يحبونها ويتشبثون بها ويكرهون الاقتراب منه. انه هو وبرغم أنه «السيد» فقد كان عاجزاً عن أن يكسب ثقتهم أو مشاعرهم أو شيئاً من ذلك الحب العارم الذي يكنونه لأمهم. وهكذا فانه لم يكن غريباً أن يكره الرجل المرأة ويحسدها على هذا الحب الذي يحوطها وتلك المشاعر الدافئة والأمان والطمأنينة ومشاعر الانسانية والحنان والنفس المعطاءة القادرة على أن تحب وعلى أن يحبها الآخرون. لقد ظل الرجل عبر العصور المتتالية يحسد المرأة على كل هذا السمو النفسي والانساني الذي عجز عن الوصول إليه رغم كل ما بذله من جهد وقوة وسيطرة وعلم وحضارة وتكنولوجيا. ولم يكن في امكان الرجل أن ينزع من نفسه ذلك الاحساس تجاه سمو جنس المرأة، وان حاول بمختلف العلوم والفنون أن يثبت العكس أحيانا، أو يقلب الأوضاع ويجعل من هذه القوة الانثوية ضعفاً، ويغير مسارها الطبيعي فبدلاً من ان تكون مصدراً لحرية المرأة وسيادتها تصبح عليها قيداً وعبودية. ولعل هذا هو السبب في تلك العبارة الشهيرة في تاريخ البشرية «ستلدين في الألم والأسى»، ولعل هذا أيضاً هو سبب محاولة الرجل انتزاع خاصية الولادة والانجاب، فهو تارة يلد المرأة من ضلعه (حواء من ضلع آدم) وهو تارة يلدها من رأسه (اتينا من رأس زيوس)، ولعل هذا يفسر شيئاً من تلك الهلاوس التي يراها بعض الرجال المرضى بالعصاب أو الشيزوفرينا حين يخيل اليهم ان الجنين يولد من رأسهم أو من عضو التناسل. وقد نستطيع في هذا الضوء أن نفهم كثيراً من الأساطير التي سادت عبر العصور والتي نبعت من خيالات ذكر الانسان بسبب الكراهية والغيرة والعجز النفسي عن الوصول إلى مرتبة المرأة.

وقد صدق العالم النفسي الشهير «جريجوري زيلبورج» حين قال: إن هذه

الحقيقة، حقيقة سمو جنس المرأة على جنس الرجل غير قابلة للشك، وأنه لا يستطيع إدراك ذلك إلا أصحاب العقول المتحررة المتفتحة او الذين ألموا بالكثير من المعلومات البيولوجية. وأنه إذا كان هناك بين الجنسين من هو شعر يوماً بأنه الجنس الأدنى بيولوجياً ونفسياً فهذا هو الرجل وليس المرأة.

إن هذا الشعور لدى الرجل بأنه أقل من المرأة وما ترتب على ذلك من كراهية هو الذي أوجد في الأمراض النفسية ظاهرة الكوفاد (Couvade) وتتلخص في ان الرجل المصاب بها يتمثل شخصية الأم، ويصبح هو الأم نفسها بطريقة سحرية، أو بفكرة اجبارية عصبية مسلطة على تفكيره، ويقول: «زيلبورج» انه من خلال هذا التمثيل بالأم استطاع الرجل ان يدرك معنى الأبوة نفسياً، ومنها تطورت سيكلوجية الأب الانسان الذي يستطيع أن يعطي الحب ويتلقاه.

وبهذا المفهوم يعيد «وورد» و «زيلبورج» وغيرهم من اصحاب هذا الرأي، يعيدون الأوضاع إلى طبيعتها بين الجنسين سواء بيولوجياً أو نفسياً، وينقدون الأساس العلمي والفكري الذي بنى عليه «فرويد» نظريته في سيكولوجية المرأة، إذ بنى فرويد هذه النظرية على ما سماه «الغيرة من عضو الذكر»، فالحقيقة هي أن المرأة لا تغار من عضو الذكر، ولكن غيرة الرجل من المرأة هي التي كانت الاساس التي بنيت عليها سيكلوجية الرجل. ويمكننا أن نتصور كيف تنهار بذلك نظرية فرويد عن المرأة وعن ضعفها النفسي وصفات السلبية والماسوشية التي ألصقها بها. لقد عجز «فرويد» عن أن يفرق بين صفات المرأة الطبيعية وبين الصفات التي فرضت عليها بواسطة الرجل ليخضعها ويضمن بقاءها تحت سيطرته، وربما أيضاً ورث «فرويد» شيئاً من تلك الكراهية والغيرة من المرأة، ولأنه كان ذكياً فقد صنع من كراهيته وغيرته نظرية علمية. على انه من الإنصاف أن أذكر أن «فرويد» لم يدع أن نظريته هي الحقيقية، واعترف اكثر من مرة في أعماله أنه لا يفهم المرأة بدرجة كافية، وأن أفكاره عنها ليست نهائية، وهو مستعد لتغيير أفكاره دائماً بتغير ملاحظات ومشاهدات وأفكار الآخرين وملاحظاتهم، وقال: ان الباحث العلمي لا بد أن يغير أفكاره بالسهولة نفسها التي تغير بها الحرباء لونها حسب لون الأرض التي تقف عليها. ولعل هذه عبقرية فرويد أو أي عالم عبقري آخر فالعبقرية (في رأيي) هي تلك القدرة العقلية المستمرة على نقض القديم وتقبل الأفكار الجديدة إذا كانت اكثر اقتراباً من الحقيقة.

٤ ـ الطبيعة الجنسية البيولوجية للمرأة

ان البحوث الجديدة في علم الأجنة (Embryology) أثبتت خطأ الفكرة التي قالت بأن الجنين يكون في أول تكوينه مزدوج الجنس. وقد وجد أن الجنين في كل الحيوانات الثديية يكون في أول مراحله أنثى. وكذلك في حالة الانسان. فإن الجنين ينشأ في الأصل انثى، ويستمر حتى الأسبوع السادس حين يبدأ الهرمون الجنيني الذكري فعله حتى الشهر الثالث من حياة الجنين. ان أعضاء الأنثى تتكون وحدها[1] في الجنين منذ البداية دون حاجة إلى فعل الهرمونات المؤنثة. وقد وجد أنه لو استؤصل المبيضان من الجنين الأنثى قبل الاسبوع السادس من عمرها، فإن هذا الجنين يظل أنثى وينمو أنثى مكتملة الصفات، بل إنها تمر كفتاة بجميع مراحل النمو الطبيعي بما في ذلك المراهقة أيضاً إذا ما حقنت بالهرمونات التي تعوضها عن غياب المبيضين. أما في حالة الجنين الذكر، فقد وجد أنه إذا استؤصل منه الخصيتان فانه يصبح جنين أنثى، وينمو ويتطور كأنثى، ويمر بجميع مراحل النمو الطبيعي في فترة المراهقة التي تمر بها أي فتاة إذا ما أعطي الهرمونات اللازمة.

ومن هذا الاكتشاف العلمي الجديد وجد علماء الاجنة والبيولوجيا أن الهرمونات الذكرية أقل شمولية أو أكثر تحديداً في نشاطها من الهرمونات المؤنثة غير المحدودة في نشاطها الجنيني وهذا هو السبب في أن المرأة تكون أكثر حساسية للهرمونات في مراحل حياتها بعد ذلك، وخاصة هرمون الذكور، لأن بعض الهرمونات الانثوية تكون متوافرة خلال الحياة الجنينية وتؤثر بقوة نشاطها الانثوي (estrogenic) على الجنين وتعطي هذه الحساسية القدرة الفسيولوجية لأعضاء الانثى فتنمو جنسياً بسرعة أكثر. وقد وجد في الحيوانات الثديية الراقية ان الأعضاء الجنسية للانثى، أو الجهاز البظري فيها، (Clitoral system) يتطور بقوة وسرعة، وكذلك بعض الصفات الانثوية الثانوية ومنها احساس الجلد الشبقي، ودرجة (الاديما)[2] (edema) الجنسية العالية في أسفل الحوض

أو العجان (Perineum) ، وهي تحدث بفعل الهرمون الانثوي «برجسترون» الذي يحتوي أيضاً على نشاط ذكري قوي.

وجد أن كل هذا يتجمع عند اناث الثدييات الراقية (الأدنى من الانسان مباشرة) ما كان يمكن أن تتطور على هذا النحو إذا كانت تتعارض مع الامومة وإرضاع الأم لنسلها. ولهذا فإن هذه القدرة الجنسية اللامحدودة تحدث فقط في فترة الحرارة القصيرة (estrus) وتختفي تماماً في الفترات اللاجنسية الأخرى الطويلة من حياة اناث الثدييات وتسمى الفترات غير الحارة (anestrus) . وهكذا فإن ميزة الانجاب تزود الانثى بمقدرة جنسية لا محدودة او لانهائية، وهذه القدرة في اناث الثدييات الراقية (الادنى من الانسان) ما كان يمكن أن تتطور على هذا النحو إذا كانت تتعارض مع الامومة وارضاع الام لنسلها. ولهذا فإن هذه القدرة الجنسية اللامحدودة تحد فقط في فترة الحرارة القصيرة (estrus) وتختفي تماما في الفترات اللاجنسية الاخرى الطويلة من حياة اناث الثدييات وتُسمى الفترات غير الحارة (anestrus)

وقد وجد أن الانسان لا يختلف كثيراً عن هذه الحيوانات الثديية، وأن هذه الظواهر لها ما يقابلها في المرأة فسيولوجيا وجنسياً. ووضح ذلك «ماسترز» وجونسون6،7 في بحثهما، وفيما يلي ملخص لما وصلا اليه بالنسبة لطبيعة المرأة الجنسية أو ما يسمى باسم الدورة الجنسية عند المرأة (Sexual response cycle) .

١ ـ لا يوجد أي فارق في المرأة بين قمة اللذة أو الأروجازم المهبلي (vaginal orgasm) وبين الاورجازم البظري (clitoral orgasm) . إن طبيعة الاورجازم في المرأة واحدة بصرف النظر عن المنطقة المثارة في جسم المرأة. ويتكون الاورجازم من الانقباضات المنتظمة للعضلات المهبلية الخارجية والتي تدفع في انقباضها شبكة الاوردة المتضخمة بالدم والتي تحيط بالمهبل، وكذلك الانسجة المحيطة بالثلث الاسفل من المهبل، والتي تحوط فتحة المهبل، والتي تمتلىء بالدم أثناء الاثارة الجنسية.

٢ ـ أثناء العملية الجنسية فإن طبيعة اعضاء المرأة الجنسية الأخرى الحساسة[٤] تحافظ على استمرار اثارة البظر الذي انكمش اثناء تواجد العضو الذكري في المهبل. ان استمرار الحركة القوية المنتظمة داخل المهبل تساعد على الضغط وشد هذه الاعضاء بانتظام (التي تعمل جميعاً كوحدة واحدة) مما يزيد من اثارة رأس البظر.

وتحدث الاثارة للبظر بالشد المنتظم المستمر للغشاء المسمى غشاء البظر (Prepuce) والذي تورم وتضخم بسبب امتلائه بالدم . وتحدث الاثارة نفسها للبظر إذا حدثت هذه الاثارة له مباشرة باليد .

٣ ـ ان النساء بطبيعتهن قادرات في حالة حدوث الاثارة الجنسية الكاملة على الوصول إلى الاورجازم أكثر من مرة بل مرات متعددة، قد تصل إلى ست مرات أو أكثر خلال العملية الجنسية الواحدة. ووجد أنها قد تصل أحياناً إلى ٥٠ مرة أو أكثر إذا استمرت الاثارة للمنطقة البظرية واستطاعت المرأة ن تتحكم في توترها الجنسي وتحتفظ بمدد أطول من الاثارة.

وقد خرجت «شيرفي» من هذه الملاحظات ومن ملاحظات بيولوجية أخرى بنظرية جديدة تتلخص في الآتي:

١ ـ ان رأس البظر أكثر حساسية للاثارة الجنسية من الثلث الأسفل للمهبل. وفي تطور القدرة الجنسية في الثدييات الراقية وجد ان هذه القدرة انبثقت أساساً من الانتخاب التكيفي لتورم العجان (Perineum) والجهاز البظري، وليس من المهبل.

٢ ـ ان قدرة النساء الأورجازمية (في حالة الاثارة الكافية) قد تكون مشابهة لقدرة اناث الثدييات الراقية. وفي الحالتين فان أعلى درجة من الأورجازم لا تتحقق إلا بدرجة عالية من التورم والانتفاخ بالدم للأوردة والأنسجة أسفل الحوض والتي تصاحب فترة الحرارة (esturs) في الثدييات وفترة (Luteal phase) (*) من الدورة الشهرية في النساء، أو بالاثارة الطويلة المستمرة. في هذه الحالات فان مع كل مرة من مرات الأورجازم يزيد انتفاخ أوردة وأنسجة الحوض بالدم، وهذا يساعد على تكرار الوصول إلى الأورجازم فيزيد هذا من امتلاء أوردة وانسجة الحوض بالدم، فيزيد عدد مرات الأورجازم، وهكذا يستمر الحال حتى يتسبب الإجهاد الجسدي في التوقف.

٣ ـ وعلى هذا يتضح أنه في اناث الثدييات وفي النساء تطورت قدرة جنسية دائرية لا محدودة نتج عنها تلك الحالة المزدوجة المتناقضة وهي عدم الاشباع الجنسي مع وجود قمة الاشباع الجنسي. وقد كان لهذه الحالة أهمية في تطور أرقى فصيلة من الثدييات إلى الانسان.

٤ ـ ان الحضارة الحديثة قد قامت لأسباب متعددة، لكن قيامها اقترن بقمع هذه القدرة الجنسية الدائرية في المرأة لأن:

أ ـ ارتفاع درجة تركيز الهرمونات في المرأة البدائية بالاضافة إلى القدرة الجنسية العالية وفترة الحمل الطويلة كان دافعاً قويا في أنثى الانسان للتخلص من فترة الحرارة (estrus) كفترة جنسية قصيرة ومحدودة، وكذلك ـ بل الأهم من ذلك ـ التخلص من فترة الارضاع اللاجنسية. وهكذا أصبحت قدرة المرأة الجنسية مستمرة بغير انقطاع طوال الشهر، وفي ظل تلك القدرة العنيفة المستمرة لم يكن ممكناً على الرجل أن ينشيء الأسرة وقيودها بغير ان يكبح جماح المرأة، ويقمع هذه الطبيعة العنيفة ويفرغها لرعاية الأطفال وخدمته بالبيت.

ب ـ بنشوء النظام الاقتصادي المقترن بنشوء الزراعة المستقرة بدأت ملكية الرجل للأرض واقترنت قوانين ملكية الأرض مع قوانين امتلاك الاطفال أو قوانين النسب، التي أعطت النسب للأب.

ولم يكن لهذه الأسر الكبيرة العدد، والتي لا بد أن يعرف فيها الأب أن توجد وأن تستمر، بغير أن تقمع تلك القدرة الجنسية اللامحدودة في المرأة.

* * *

وتحاول «شيرفي» بهذه الافكار أن توضح بشكل جديد أسباب بعض المشاكل الجنسية عند المرأة وكيفية علاجها. وترجع أسباب البرود الجنسي عند بعض النساء للآتي:

١ ـ عدم كفاية الاثارة الجنسية.
٢ ـ عدم الامتلاء الكافي بالدم للأوردة والانسجة الحساسة القابلة للانتصاب.
٣ ـ عدم امتلاء أنسجة أسفل الحوض بالدم الكافي، وعدم تورمها الكافي، وما ينتج عن ذلك من توتر الأنسجة.
٤ ـ عدم الاستجابة الكافية للعضلات في هذه المنطقة. وقد يتجمع عدد من الأسباب البيولوجية التي تسبب درجات مختلفة من البرود الجنسي، ونادراً ما تعمل هذه الاسباب البيولوجية وحدها، ولكنها تخلق دائماً أسباباً نفسية تزيدها الضغوط الاجتماعية والثقافية شدة. وقد يحدث العكس وهو أن تخلق الأسباب النفسية والضغوط الاجتماعية الاسباب البيولوجية التي تصيب المرأة بالبرود الجنسي، وهكذا في حلقة خبيثة لا نهاية لها. . . ولهذا كان من الصعب التفريق بين البرود الجنسي النفسي والبرود الجنسي البيولوجي في المرأة. وفيما يلي عرض لبعض العوائق

البيولوجية والجسمية التي تؤثر في قدرة المرأة الجنسية وتسبب لها نوعاً من البرود.

تمزق في أعضاء المرأة بسبب الولادة:

أكد معظم العلماء على أن تكرار الحمل يزيد من قدرة المرأة على الاستمتاع بالجنس، لأن الحمل يغرق جهاز المرأة بالهرمونات الجنسية، ويزيد من توافر الدم ونمو الانتفاخ وامتلاء الأوردة وأسفل الحوض بدرجة عالية قدرة تزيد على تلك الدرجة التي تحدث اثناء النمو الجنسي الشديد في فترة المراهقة. ولعل هذه الصفة والميزة للحمل هي التي ساعدت خلال التطور من الثدييات إلى الانسان أن تحافظ الطبيعة على تلك القدرة الجنسية في المرأة. لكن الحمل كانت له مشكلة أخرى. ذلك أن جهاز الأنثى التناسلي في الثدييات كان معدًا لولادة نسل له رأس صغير.

لكن الذي حدث أن حجم رأس الانسان ازداد بأسرع مما زاد به اتساع حوض المرأة(٦). وبرغم اتساع حوض المرأة على مر آلاف وملايين السنين إلا أن عدداً كبيراً من النساء يصاب حتى عصرنا هذا بتمزق اثناء الولادة. وانه قليلاً ما تلد المرأة اول طفل لها دون أن تصاب بتمزق في بعض انسجة جهازها التناسلي أو أعضائها الجنسية. وأحياناً يشق الطبيب بمشرطه أو مقصه فتحة (Episiotomy) في أقل أنسجة المرأة حساسية ليتفادى التمزق العشوائي برأس الطفل.

ان التمزق البسيط الذي يحدث عادة نادراً ما يعطل قدرة المرأة للوصول إلى الأورجازم، لكنه في بعض الأحيان يضعفها، بالاضافة إلى أن هذا التمزق يحدث عادة عند ولادة أول طفل، فاذا أصيبت به المرأة قبل أن تنضج جنسياً أو تحصل على كل كفاءتها الجنسية فان هذا التمزق قد يلعب دوراً كبيراً في اصابتها بالبرود الجنسي، خاصة إذا شمل هذا التمزق جزءاً هاماً من الجهاز البظري أو غيره من الاعضاء الجنسية الحساسة(٧).

الاختلافات التشريحية:

استطاع ماسترز وجونسون أن يلاحظا أن هناك بعض الاختلافات التشريحية في الأعضاء الجنسية لبعض النساء مما يسبب نوعا من البرود الجنسي إذا لم تعرف المرأة أو زوجها الطريقة الصحيحة لبلوغ الاثارة الكافية. ان الغشاء الذي يحوط رأس البظر (prepuce) قد لا يكون واحداً فقط، وانما قد يكون اثنين أو ثلاثة، أو تكون له زوائد

اضافية، وقد يكون ناعماً أو متعرجاً، سميكاً أو رقيقاً قصيراً أو طويلاً. وبالمثل أيضاً قد تكون الشفرتان الداخليتان مزدوجتين وعددها اربعة بدل اثنتين، أو تكون لها زوائد اضافية، وقد تكون ايضاً ناعمة أو متعرجة، طويلة أو قصيرة. وكذلك فان حجم البظر قد يكون كبيراً وقد يكون صغيراً، فلا تصل اليه الاثارة الكافية للحصول على الأورجازم، وفي هذه الحالة لا بد من توجيه الاثارة اليه مباشرة وبدرجة كافية.

طفولة اعضاء المرأة:

بعض الفتيات المراهقات يتأخرن في النضوج، وقد تحتفظ الواحدة منهن بحوض وأعضاء نصف طفولية حتى الحمل الأول. وفي هذه الحالات قد يكون الطمث قليل الكمية، والثديان صغيرين، والجسم صبيانياً، مع وجود البرود الجنسي. ومن المفهوم أن نسباً معينة من الهرمونات الجنسية لا بد أن تكون متوافرة لتساعد على تطور انتفاخ الأوردة الدموية وتورم الأنسجة بالاديما، وهي التي تصنع التمدد الشديد، في الانسجة المحيطة بالمهبل والانتفاخ الذي هو ضروري لوصول المرأة إلى الأورجازم حين تحدث العملية الجنسية مع الرجل. ان الحصول على هذه النسب المعينة من الهرمونات يتم ببطء في هذه الحالات من الفتيات، وقد يستمر بطيئاً طول العمر في حالة استمرار تلك الحالة الطفولية، والتي تمنع التمدد والانتفاخ الكامل للأوعية الدموية، وبهذا فإن أي نشاط من الجهاز البظري والشفرتين لا يكون مؤثراً بالدرجة المطلوبة. ان كل ما يمكن ان تحصل عليه المرأة حينئذ هو نوع من الأورجازم السطحي في الانسجة السطحية المحيطة بفتحة المهبل إذا ما أثيرت اثارة مباشرة باليد.

عدم كفاية الاثارة الجنسية:

ان عدم كفاية الاثارة الجنسية هو السبب وراء معظم حالات البرود الجنسي البيولوجي عند المرأة. وقد اوضح «ماسترز وجونسون»[٨] عدداً من النقاط التي تستحق الاشارة اليها هنا.

١ ـ الاثارة المستمرة:

من المعروف أن درجة التأثر الجنسي تهبط عند المرأة بسرعة إذا انقطعت الاثارة أو توقفت، وإلى هذا السبب ترجع نسبة كبيرة من البرود الجنسي، لأن معظم الرجال في سن الثلاثين (واحيانا تحت الثلاثين) لا يستطيعون أن يؤجلوا القذف إلى حين أن

يكتمل امتلاء وانتفاخ الاوردة والانسجة في منطقة أسفل الحوض عند المرأة، والحالة الوحيدة التي تحول دون برودة المرأة في تلك الحالات هو قدرة الرجل على ممارسة القذف عدة مرات دون أن يفقد الانتصاب. ومن المحتمل أن تصاب المرأة بالبرود الجنسي إذا كان زوجها عاجزاً عن الوصول إلى الأورجازم عدة مرات متتالية، أو يصل إلى ذلك قليلاً، أو إذا كان عاجزاً عن الاحتفاظ بالانتصاب لأكثر من أربع أو خمس دقائق.

٢ ـ بطء المرأة في الاثارة:

لوحظ طبياً أن البرود الجنسي يصيب المرأة إذا عجزت رغم ازدياد الخبرة الجنسية أن تختصر الوقت الذي يستنفد في المداعبات والتمهيد السابق للعملية الجنسية. ان الرجل إذا كان سريع الاثارة، ولم يكن قد تدرب على تأجيل القذف (أو يخشى ذلك التأجيل) فان النتيجة في كثير من الأحيان هو برود المرأة.

٣ ـ فترة الاثارة في الدورة الشهرية (Luteal phase) [٩]:

لقد وجد أنه من الطبيعي لمعظم النساء في جميع أيام الشهر ما عدا فترة (Luteal phase) أن يعجزن عن الحصول على الأورجازم عدة مرات، أو تقل درجة احساسهن بالأورجازم، أو تقتصر هذه القدرة الأورجازمية على الاثارة الشديدة باليد. على أنه لوحظ أن حالات البرود نادرة في تلك الفترة (Luteal) من الدورة الشهرية، وخاصة البرود الجنسي الكامل (حين لا تحدث إلا المرحلة الأولى من التوتر)، أو حين تعجز المرأة عن الوصول إلى الأورجازم رغم حدوث درجة من التمدد والانتفاخ في الانسجة. ان هذه الحالات من البرود نادرة بحيث يصعب معرفة اسبابها الحقيقية.

٤ ـ محاولة اثارة البظر أثناء العملية:

أكد «ماسترز وجونسون» أهمية اثارة البظر باستمرار طوال العملية الجنسية. لكن هذا قد لا يكون ممكناً، خاصة في الوضع الشائع للعملية الجنسية حين تكون المرأة في وضع أسفل الرجل، وبذلك لا تصل الاثارة إلى البظر إلا في حالة وجود فتحة واسعة للمهبل، وبغير ذلك فان ضغط العضو الذكري يسبب ضغطاً على المستقيم (نهاية الأمعاء الغليظة قبل فتحة الشرج) وقد يسبب ألماً للمرأة أو ضيقاً.

٥ ـ بعض مشاكل يسببها الحمل والخبرة الجنسية:

لوحظ أن حدة الاورجازم تكون أشد طبيعياً في شباب الرجال عنها في شباب النسـاء الـلائي لم ينجبن، لكن هذا الاختلاف يضيع تقريباً بعد سن الثلاثين في الرجال، وبعد ولادة الطفل الثاني أو الثالث في النساء، أو بعد خبرة جنسية كافية في حالـة النساء اللائي لم ينجبن، بل لوحظ أن قدرة المرأة الأورجازمية واشتداد حدة الاورجازم وتعدده، تفوق قدرة الرجل، وذلك بتقدم المرأة في العمر، وازدياد خبرتها الجنسية، وممـارستهـا للحمل والولادة. وتعتقد «شيرفي»: ان الظاهرة المنتشرة بين الأزواج والزوجات، وهي أن الزوجة تبدأ أوجها الجنسي حين يقترب زوجها من نهايته، ليس سببها هو تخلص المرأة من مخاوفها وعقدها النفسية الناتجة من الكبت، وانما سببها هو الخبرة الجنسية وأثر الحمل والولادة. وتقول «شيرفي» أن المرأة في العصر الحـديث أصبحت تؤجل الحمل إلى سن متأخرة بسبب انتشار وسائل منع الحمل وبسبب تأجيل سن الـزواج أيضـاً، وهذا يؤخر حصول المرأة على قدرتها الجنسية المكتملة إلى سن الثلاثين او ما بعدها، لأنها لا تلد طفلها الثاني أو الثالث إلا في هذه السن أو بعدها.

وتدعو «شيرفي» العلماء إلى أن يعيدوا دراسة أسباب حالات الشبق غير العادي الذي يصيب بعض النساء (rymphomenia) ، وحالات الرغبة في ممارسة الجنس مع عدد متغير من الرجال (promiscuity) (دون ان يصاحب ذلك برود جنسي). وهي ترى أنه حتى اليوم لا يعرف الكثيرون أنه سواء كانت بظرية أو مهبلية، فان تعدد مرات الأورجازم المتكـررة بانتـظام وبغير توقف (حتى يحـدث الارهاق الجسدي) قد تكون الطبيعة البيولوجية لقدرة المرأة الجنسية. بل إن المرأة التي لم تنجب مطلقاً تستطيع أن تصل إلى الدرجة التي تصل اليها المرأة التي أنجبت عدداً من الأطفال، وذلك عن طريق الخبرة الجنسية الطويلة وخلو حياها من أسباب الكبت الجنسي. وقد تكون تلك المرأة المسماة بالمرأة الشبقية (oversexed) هي المرأة الطبيعية جنسياً.

٦ ـ بعض المشاكل بسبب ظاهرة الاشباع المصاحب لعدم الاشباع:

قد يفهم مما سبق أن المرأة لا تصل أبداً إلى درجة الاشباع مهما تعرضت للاثارة الجنسية ولأية مدة من الزمن. وهذا صحيح نظرياً من حيث أن المرأة يمكنها أن تحصل على أي عدد من الأورجـازم ولا يوقفهـا إلا الارهـاق الجسدي وقد وجد أن مرات

الأورجازم المتكررة، والتي تقود إلى تلك الحالة من الاشباع المصاحب لعدم الاشباع، تحدث (في النساء اللائي أنجبن، واللائي خبرن الجنس) أثناء الفترة بعد خروج البيضة من المبيض حتى ظهور الطمث (Luteal) أكثر من حدوثها في أية فترة أخرى من فترات الدورة الشهرية. وهذا يمثل أهم فارق بيولوجي بين الأنثى والذكر في الانسان والثدييات الـراقية، وهـذا الفارق قد وجد بسبب قدرة الأنثى على احداث تلك الاديما وذلك الانتفاخ الشديد، في الأوعية الدموية والأنسجة أسفل الحوض. هذه القدرة تنبع من مجموعة الهرمونات الجنسية في الانثى التي ترفع كفاية الخلايا والانسجة في امتصاص السوائل من الجسم، وهي لا توجد إلا في الانسان والثدييات الراقية وبعض الفصائل الثديية الأدنى. وتقول «شيرفي»: إن هذه الظاهرة لا تعني أن المرأة لا تشعر بالرضا الجنسي أبداً. فهناك فارق بين الرضا والاشباع. فان المرأة قد ترضى عاطفياً كل الرضا في غياب أي شكل من أشكال الأورجازم (بالرغم من أن هذا يكون نادراً جداً بعد سنوات من الممارسة الجنسية والاثارة المتعددة). وقد وصف «ماسترز» هذه الظاهرة من الاشباع المصاحب لعدم الاشباع حين قال: «إن المرأة» سوف ترضى عادة بثلاث إلى خمس مرات من الأورجازم».

وتقول «شيرفي»: إنه من النادر أن نقول عن الرجل أنه «سوف يرضى» بثلاث إلى خمس مرات من القذف، ولكنا نقول إن الرجل «يرضى» أما المرأة فهي «سوف ترضى» ومعنى ذلك أنها تحاول بارادتها أن ترضى، وذلك لأنها غير واعية لقدرتها الضخمة على الأورجازم. وتتوقع «شيرفي» أن هذه الحقيقة قد تصدم بشدة كثيراً من النساء اللائي بدركن بالفطرة عدم حصولهن على الاشباع.

وتخرج «شيرفي» من كل هذا بأن السبب الأساسي لمعظم حالات البرود الجنسي عند النساء يرجع الى غياب الممارسة الجنسية لفترات طويلة أو ممارستها بشكل متقطع ولفترات قصيرة. وهذه الحقيقة يؤيدها أيضاً ماسترز وجونسون(١١)، اللذان حاولا في بحثهما علاج مجموعات من الأزواج والـزوجات المصابين بالبرود الجنسي وكان جميعهم قد حصل من قبل على علاج طبي ونفسي دون جدوى. وكان العلاج، (في حالة الزوجة التي لم تصل إلى الأورجازم بعد خمس سنوات فأكثر من الزواج)، يتألف من تدريب الزوج على استخدام طرق الاثارة الضرورية لجميع النساء والخاصة بزوجته ايضاً. وقد كان هذا وحده كافياً لعلاج كثير من الحالات. وفي حالات أخرى كان العـلاج يتـألف من حث الـزوجين على ممارسة العملية الجنسية بكثرة وكل يوم أو

استخدام بعض الوسائل الصناعية لرفع درجة الاثارة أو زيادة مدتها لفترة طويلة، وبهذه الطريقة شفيت معظم النساء من البرود الجنسي. وأصبحن قادرات على الوصول إلى الاورجازم عدة مرات ولم يعدن بحاجة إلى العلاج السابق بمجرد حصولهن على قدرتهن الطبيعية. وعلى أية حال فان هذا الموضوع ما زال جديداً، وما زال في حاجة إلى المزيد من الدراسات.

وضع المرأة في المجتمع وهذه الافكار العلمية الجديدة:

«ان طبيعة المرأة الجنسية كما وضحت لنا مما سبق، تدل على انه بمثل ما لم يعمل مهبل المرأة لولادة الأطفال ذوي الرؤوس الكبيرة، فان قدرة المرأة الجنسية اللامحدودة لم تعمل للأنظمة الاجتماعية والثقافية التي تفرض على المرأة الوحدانية في الزواج، أو الحياة المكبوتة أو الخاملة. وليس من المعقول أن نتصور أن هذه القدرة الجنسية الضخمة للمرأة يمكن أن ترضى في ظل الحضارة الذكورية القائمة على كبت المرأة. ويزداد الأمر صعوبة بالذات في حالة ذلك التأجج الجنسي المتأخر الذي يحدث للنساء بعد سن الثلاثين، والذي حين تبدأ المرأة في الحصول عليه يكون زوجها قد بدأ يضعف جنسياً عن ذي قبل»[11] ويبدو أن عدم الاتفاق هذا في تطور القوى الجنسية للرجل والمرأة لم يحدث إلا في القرن الاخير، لأنه منذ أقل من مائة عام كانت المرأة تلد طفلها الثالث أو الرابع ببلوغها سن الثامنة عشرة، أو التاسعة عشرة، (وهذا يحدث حتى اليوم عندنا في الريف) ولم يكن متوسط عمر الانسان يزيد عن خمسة وثلاثين عاما في معظم انحاء العالم.

وتدل النتائج التي خرجت بها «شيرفي» وغيرها من العلماء أنه لا المرأة ولا الرجل (وعلى الاخص ليست المرأة) قد تكونا بيولوجيا لنظم الوحدانية في الزواج، أو الزوج الواحد، أو المراهقة الطويلة التي تفرضها عليهما نظم التعليم في العصر الحديث. وبصفة عامة لم يخضع الرجال أبداً لنظام الزوجة الواحدة إلا نظرياً. أما المرأة فقد فرض عليها الزوج الواحد بالقوة، وقد دفعت إلى قبول ذلك عن طريق القانون الصارم الذي وضعه الرجل على المرأة ولم يضعه لنفسه.

وتقول «شيرفي»: إن نظام الاسرة الدائمة، ونسب الاطفال إلى الأب، وفرض الزوج الواحد على المرأة، كان شرطا ضروريا لبقاء الرجل واستمراره رجلاً. وقد وجد انه في كل العصور والنظم والثقافات التي درست فان الانتقال من مرحلة الصيد إلى

مرحلة الرعي المتنقل إلى مرحلة الزراعة المستقرة كانت بدايتها هي بداية نشوء الاسرة ثم الحضارة الحديثة ثم الرجل المتحضر. وفي مجتمعات ما قبل الزراعة كان الطعام قليلاً، وكان قتل الاطفال ضروريا لبقاء القبيلة، لكن بنشوء الثورة الزراعية وتربية المواشي اصبح بقاء القبيلة لاول مرة في تاريخ البشرية يحتاج إلى الاسرة وملكية الارض، ونسب الاطفال الى الاب ليورثهم ارضه، وأهم من هذا كله الحاجة إلى عدد كثير من الاطفال ليشغلهم الاب في ارضه ثم يورثهم هذه الارض.

وقد تزايدت العوامل بالتدريج إلى تفسير أسباب نشوء الأنظمة الأبوية، القائمة في معظمها على تعدد الزوجات، وكيف صاحب ذلك ازدياد الصرامة في قمع طبيعة المرأة الجنسية (والتي قمعت بالضرورة أيضاً كل طاقتها العاطفية والفكرية). وكان هذا القمع ضروريا لاستمرار الأسرة الأبوية ونشوء حضارة الرجل حيث أن قوة الغريزة الجنسية عند المرأة البدائية كانت عنيفة ومتغيرة وغير قابلة للخضوع لرجل واحد أو التفرغ لاطعامه وخدمته، ولكثرة الأطفال. وحيث أصبحت الأبوة مطلوبة، ولا بد أن تعرف، لينسب اليها الأطفال الذين سيرثون الأرض. ولم يكن من الممكن في ظل طبيعة المرأة الجنسية العنيفة المتغيرة واللامحدودة أن يعرف الأب بحال من الاحوال إلا عن طريق القمع الجنسي الصارم وفرض واحد على المرأة.

وتدل الدراسات لعصور ما قبل التاريخ أن عملية اخضاع المرأة استنفدت خمسة آلاف سنة حتى أمكن أن تتم. وتدل معظم المعلومات عن الفترة ما بين ١٢,٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ ق.م، أن المرأة قبل بدء الحضارة كانت تستمتع بحرية جنسية كاملة، وتعتقد «شيرفي» أن أحد أسباب تلك الفترة الطويلة التي انقضت من ١٢,٠٠٠ سنة ق.م إلى (٨٠٠٠ - ٥٠٠٠ سنة ق.م) والتي تأخر فيها ظهور الحضارة الذكرية رغم بدء الزراعة، لم يكن إلا تلك الطبيعة الجنسية غير المحدودة وغير المحكومة للمرأة. ولهذا كان التحكم في هذه الطبيعة أمراً ضرورياً لقيام الحضارة الذكرية والأسرة الأبوية المبنية على ملكية الأرض وتوريثها للاطفال ولا شك أنه بسبب قوة طبيعة المرأة فقد استلزم الأمر قمع هذه القوة بجميع الوسائل القانونية، والفلسفية، والدينية، والاخلاقية. وكان لا بد لجميع هذه العوامل أن تعمل معاً بقوة وشدة وصرامة من أجل التحكم في تلك الطبيعة العنيفة للمرأة، وهذا أمر طبيعي، فان قوة الشيء هي التي تحدد القوة المطلوبة لاخضاعه أو التحكم فيه، ولهذا فإن أشد القوانين عنفاً وصرامة تلك المتعلقة بالتحزيمات والمحظورات على حياة المرأة الجنسية. ولا زالت المرأة حتى يومنا هذا

تقتل في اماكن مختلفة من العالم (صعيد مصر أحد الأمثلة) إذا مارست الجنس في غير الحالات التي ينص عليها القانون أو التقاليد التي لها فعل القانون. ويمتلىء التاريخ في مختلف العصور على حالات من التعذيب أشد من القتل، وكلها بسبب خروج المرأة (ولو قيد أنملة) على القانون الصارم الذي يحكمها جنسياً.

وازاء هذه المعلومات الجديدة عن طبيعة المرأة يبرز السؤال الآن: هل استطاعت هذه السبعة آلاف سنة الماضية والتي تم فيها التحكم واخضاع غريزة المرأة، هل استطاعت أن تضعف هذه الغريزة وتفقدها صفاتها الأصلية القوية غير المحدودة؟!

وهل أصابتها بنوع من البرود الجنسي شبه الدائم، والذي يمكن أن يسمى «البرود الجنسي الاجتماعي العام للمرأة في العصر الحديث».

ولا يمكن لأحد بحال من الأحوال أن يعلن أن هذه المعلومات البيولوجية الجديدة عن المرأة هي الحقيقة، أو أنها ليست الحقيقة. ان كل ما أردته من عرض لمثل هذه الافكار أن أقول إن الفكرة القائلة بأن جنس الرجل أقوى من جنس النساء، أو أن طبيعة المرأة أضعف من الرجل، أو أن الطبيعة هي التي جعلت الرجل يسود والمرأة تستعبد. كل هذا يحتاج إلى تفنيد علمي والى اثبات والى حقائق بيولوجية وتاريخية ونفسية. وقد أصبحت الحقائق البيولوجية الجديدة تفيد بأن طبيعة المرأة الجنسية والبيولوجية قد لا تساوي الرجل فحسب ولكنها قد تكون أقوى.

ولا أظن أنه من الممكن الآن بعد وضوح بعض هذه النواحي البيولوجية في طبيعة المرأة وقوتها أن نقتنع بتلك الأفكار التي تقول بأن الرجل يحظى بحرية جنسية اكثر من المرأة لأنه بطبيعته البيولوجية الجنسية لا يستطيع الاكتفاء بزوجة واحدة كما تستطيع المرأة ان تكتفي بزوج واحد، وأن غريزته أقوى من غريزة المرأة، وإلى غير ذلك من الأفكار التي يحاول أن يبرر بها الرجل الحرية الجنسية التي يعطيها لنفسه ويحرم المرأة منها. ان الطبيعة ليست بحال مسؤولة عن تلك القيود الجنسية (والتي تقتضي بالضرورة أيضاً قيوداً نفسية وفكرية واجتماعية) المفروضة على المرأة ولكنه الأب الرجل، الذي اكتشف أبوته متأخراً حين امتلك الارض ورغب في نسل يورثه، ولم يكن من الممكن لأبوته الحديثة، الضعيفة الجذور، الفاقدة لمشاعر الحب ولدليل الاثبات أيضاً، لم يكن لهذه الأبوة لضعفها وعدم ثبوتها أن تصمد أمام الأمومة القوية الثابتة المؤكدة معنى وشعوراً ودليلاً مادياً، لم يكن للأبوة ان تظهر وتقوى وتسيطر إلا باساليب القمع العنيفة

والبطش. ولا يدل على هذا البطش إلا تلك القوانين التي صنعها الرجل في فترات من التاريخ والتي أعطت له حق قتل زوجته لمجرد مخالفته، ولا تزال بعض صور هذا البطش موجودة بشكل ظاهر أو خفي في القوانين التي تنظم علاقة الرجل والمرأة في عصرنا الحديث، ويعرف الكثيرون أن ضرب الرجل لزوجته إذا خالفته مباح حتى اليوم في بعض المجتمعات عرفا أو قانونا. وقد دهشت أثناء بحثي حين علمت أن عدداً غير قليل من الزوجات المصريات المثقفات لا زلن يتعرضن للضرب من ازواجهن لأتفه الاسباب، أما بين الزوجات غير المتعلمات أو الزوجات الفلاحات فالضرب من الزوج اكثر انتشاراً وشيوعاً. وكم سمعت من الازواج المصريين هذه العبارة: «ان زوجتي لا تطيع إلا إذا ضربت». وبعض الرجال يتصورون أن المرأة بطبيعتها تحب الضرب، وقد تصور هذا أيضاً علماء كبار من أمثال فرويد، الذي قال: إن المرأة ماسوشية بطبيعتها وتحب الايلام والاذلال، بل إن المرأة نفسها قد تنخدع وتظن أنها تحب الايلام والاذلال وتقتنع نفسها بذلك حتى تقتنع أو تكاد. وكم تصبح المهمة شاقة بعد كل ذلك لايضاح الحقيقة، ولكشف كل تلك الطبقات المتراكمة من التبريرات والاوهام والافكار المعكوسة التي خلعها الرجل على المرأة لمجرد أن يثبت أبوته المتأرجحة بين الشك واليقين، والتي لم يكتشفها أصلاً إلا بسبب امتلاك الارض والتوريث وليس بسبب الحب أو المشاعر الانسانية كما حدث مع الامومة منذ نشأتها الاولى.

٥ ـ مشكلة الذكورة والأنوثة

لو عاد كل منا بذاكرته إلى الوراء، حين كان طفلاً، كيف عرف لاول مرة في حياته أنه ذكر أو أنثى، أنه ولد أو بنت. ربما نسي الكثيرون منا كيف حدث ذلك بالضبط، أو متى، وقد يتصور البعض أن الطفل يعرف ذلك تلقائياً دون أن يعرفه أحد، ودون أن يعرف أن ذلك العضو هو عضو الذكر أو عضو الأنثى.

وقد أجرى العلماء والباحثون محاولات عديدة في السنوات الاخيرة لكشف النقاب عن تلك العوامل التي ترسب في الانسان احساساً بالذكورة أو الانوثة. ولعل من أشهر هؤلاء العلماء في هذا المجال هم ماني وهامبسون[1] وروبرت ستولر[2]، الذين وجدوا في بحوثهم أن الطفل الذكر الذي يولد بغير عضو الذكر (Penis)، لا يتشكك في أنه ذكر اذا اعتقد والداه أنه ذكر وعاملاه على هذا الاساس. ان غياب هذا العضو من جسمه يسبب له حين يكبر بعض المشاكل الجنسية بلا شك، ولكنه يعيش ويسلك في الحياة كذكر. وقد وجد ستولر النتيجة نفسها مع البنت حين تولد بغير بظر أو حين يبتر هذا العضو أو يستأصل المهبل في عملية جراحية طبية، فإن الانثى لا تتشكك في أنوثتها إذا عوملت بواسطة الاسرة على انها أنثى وهي تشب وتكبر وتسلك في الحياة كأنثى، وبالطبع تصادفها مشكلات جنسية بسبب غياب هذا العضو كما حدث في حالة غياب عضو الذكر.

وقد وصل إلى هذه النتيجة نفسها «ماسترز وجونسون»[3] في بحثهما في تلك الحالات من النساء اللائي أجريت لهن عمليات استئصال المهبل (لمرض ما بالمهبل) وقد وجدا أن المرأة في تلك الحالات تظل أنثى طبيعية من النواحي البيولوجية والفسيولوجية، بل انها تصل إلى الأورجازم الطبيعي حين يعمل لها مهبل جديد من قطعة من الجلد.

وقد رتب ستولر العوامل التي تجعل الانسان يدرك أنه ذكر أو أنثى كالاتي حسب أهميتها:

١ ـ موقف الوالدين والاخوة والاسرة تجاه هذا الطفل كذكر أو كأنثى.
٢ ـ أعضاء هذا الطفل الجنسية من الناحيتين التشريحية والفسيولوجية.
٣ ـ القوة البيولوجية داخل هذا الطفل والتي تشكل إلى حد ما الآثار المترتبة على موقف الأسرة والأهل[٤].

وبهذه النتائج العلمية نقدت نظرية «فرويد» عن التطور الجنسي عند المرأة، والذي أعلن بها فرويد أن: «حياة المرأة الجنسية تنقسم إلى مرحلتين: المرحلة الأولى هي مرحلة لها صفة الذكورة، والمرحلة الثانية هي مرحلة أنثوية»[٥]. وقد أثبت عدد من العلماء ومنهم ستولر أن هذه النظرية شوهت حقيقة تطور الحياة الجنسية في كلا الجنسين: الرجل والمرأة. فقد أصر فرويد على أن يبدأ نظريته بالمرحلة القضيبية (phalic phase) لكنه لاحظ بعد ذلك الأهمية القصوى لعلاقة الطفل بأبويه وخاصة علاقته بأمه قبل مرحلة تكون العقدة المسماة بعقدة أوديب. ولهذا جاء وصف فرويد مشوهاً للحياة الجنسية في الطفولة، والتي عنى بها تطور القدرة على الاحساس باللذة الجنسية وكذلك تكون الشخصية الذكرية أو الأنثوية. ويرجع فشل فرويد إلى أن ما اعتبره المرحلة الجنسية الأولى عند البنت ليس إلا مرحلة ثانوية، نتجت بسبب تزايد ادراك البنت بأن هناك جنساً آخر من غير جنسها يتمتع بحرية وامتيازات وسعادة أكثر منها ألا وهو جنس الذكور. وكان من أوائل من وضح هذه الحقيقة كارين هورني وارنيست جونز في العشرينات من هذا القرن، ثم جريجوري زيلبورج في الأربعينات. وقد استطاع هؤلاء الرواد الثلاثة وغيرهم أن يكتشفوا الخطأ الذي وقع فيه فرويد. وقد كتب ارنيست جونز[٦] في سنة ١٩٣٣ يقول: «... ان اعتبار «فرويد» للمرحلة القضيبية كالصفة الأساسية في كلا الجنسين يدل على اعتقاده بأن العضو الجنسي الوحيد الموجود في العالم هو عضو الذكر». وقد أيد هذا الرأي أيضاً جريجوري زيلبورج حين كتب: «ان هذه النقطة التي نبحثها قد تبدو قليلة الأهمية، ولكنها أساسية، لأنها تناقش هل الانوثة صفة أساسية في المرأة المتحضرة أم أنها ثانوية وإحدى مخلفات الذكور الأصلية[٧].

وقد خرج ستولر من أبحاثه بأنه حتى البنت التي ليست أنثى بيولوجيا (وتسمى «المعادل»[٨] بيولوجيا) هذه البنت تنشأ وتكبر كامرأة إذا عوملت كامرأة بواسطة أهلها

ولم يتشكك أحد من نوع جنسها. انها تعرف أن هناك نقصاً عضوياً فيها لكن شخصيتها تتشكل كأي أنثى أخرى، وتتصرف، وتلبس، وتحاول أن تبدو جذابة في عيون الرجال وترغب في الزواج وانجاب الأطفال كأية امرأة اخرى.

ويتضح من هذا خطأ فرويد حين قال: «ان الخطوات الأولى نحو الأنوثة المؤكدة تحدث فقط عن ذلك الطريق الدائري»، ويعني بذلك أن الأنوثة الأولى المؤكدة لا تحدث إلا بعد المرحلة القضيبية (من سن ٣ إلى ٤ سنوات) وقد قال فرويد أيضاً إن زواج المرأة الثاني يكون عادة أنجح من زواجها الأول، لأنها تنفس في الزواج الاول عن غضبها الناتج من حسد عضو الذكر (penis envy) وقد عرف الجميع رأي فرويد في المرأة (بسبب الاختلافات التشريحية بينها وبين الرجل)، حين قال أنه لا يستطيع أن يتخلص من فكرة أن للنساء قيماً اخلاقية تختلف عن الرجال، وان الأنا العليا (Super ego) عند المرأة لا تكون أبداً مستقلة عن جذورها العاطفية كما في الرجل، الذي تكون فيه الانا العليا اكثر موضوعية (ليست ذاتية) وأقل دماثة وتهذيباً، وان الصفات الشخصية التي وصفت بها المرأة في مختلف العصور، ذلك أن المرأة أقل تعقلاً من الرجل، وأقل قدرة على الحكم الصحيح على الأمور، وأقل ادراكاً لضروريات الحياة الهامة وان المرأة تغلبها عاطفتها سواء كانت حبا أو كرها، كل هذه الصفات يوافق عليها فرويد ويفسرها بان الانا العليا عند المرأة تتشكل وتتطور منذ طفولتها عن طريق ذلك الطريق الدائري الملتوي الذي تسير فيه شخصيتها نحو الانوثة الكاملة بعد ان تجتاز المرحلة القضيبية، وعقدة حسد عضو الذكر وعقدة الاخصاء، وعقدة أوديب وعقدة اليأس من الحصول على العضو، واستبدال ذلك العضو بالطفل، وعقدة الحصول على رجل من أجل الحصول على طفل، ثم الاستسلام النهائي للرجل في ظل عقد الماسوشية والالم والمهانة، لتصبح بذلك الانثى الكاملة الانوثة، والتي تعتبر وضعها الادنى ونقصها جزءاً يأبى الانفصال عن طبيعتها الانوثية.

وبرغم أن فرويد لاحظ أن القوة الليبيدية (الجنسية) عند الاطفال متساوية في الذكور والاناث إلا انه عجز عن تفسير ذلك وانما قال: «لقد وجدنا أن القوى الليبيدية نشطة في الطفلة الانثى تماماً كما هي في الطفل الذكر، وقد استطعنا أن نقنع انفسنا أن هذه القوى تتبع الطريق نفسه في الولد والبنت لفترة من الوقت، لكنها تنحرف عند البنت عن أهدافها الاساسية بسبب عوامل بيولوجية، وتسبب ذلك النشاط الذكري الجنسي الذي يسري في جسم البنت[٩]. ومن الواضح أن فرويد لم يكن محايداً في

ملاحظاته لانه لاحظ حقيقة معينة أولى حين قال: «لقد وجدنا أن القوى الليبيدية نشطة في الطفلة الأنثى تماماً كما هي في الطفل الذكر». لكنه لم يحاول فهم هذه الملاحظة الصحيحة فهما علمياً محايداً، وانما استطاع أن يقنع نفسه بشيء آخر حين قال: «وقد استطعنا ان نقنع أنفسنا. . .» ومعنى ذلك انه لاحظ شيئاً لكنه تجاهله واقنع نفسه بشيء آخر.

وقد أراد فرويد أن يقول بنظرية الدائرة الملتوية عن بلوغ المرأة انوثتها إن انوثة المرأة ليست اصلية وقائمة في ذاتها في الانثى منذ الولادة، (بل قبل الولادة حين كانت جنيناً[10])، بل انها ثانوية للذكورة، وناتجة عن احساس الانثى بأنها ذكر ينقصه العضو.

وقد اتضح للعلماء ان أول وأهم عامل يحدد اساس الشخص بكونه ذكراً أو انثى هو نظرة الأسرة (ومن حوله) اليه كذكر أو انثى. ووضح لهم من البحوث العلمية ان الولد أو البنت (رغم سلامة الاعضاء التناسلية كلها بيولوجيا وفسيولوجيا) يتغير احساسهما بالذكورة أو الانوثة حسب نظرة الاسرة، وقد يكتسب الولد صفات أنثوية لأن أسرته تنظر اليه كأنثى وليس كذكر، وقد تكتسب البنت صفات ذكورية لأن أسرتها تنظر اليها كذكر وليست كأنثى.

والعكس صحيح فان غياب بعض الاعضاء الجنسية من الذكر أو الانثى لا تمنع تطور كل منهما نحو الانوثة أو الذكورة طالما ان الاسرة لم تتشكك في حقيقة كونهما ذكراً أو أنثى. وعلى هذا فان العوامل الاجتماعية والثقافية والتربوية تحدد أنوثة المرأة أو ذكورة الرجل.

* * *

لكننا يجب هنا أن نلقي بعض الضوء على العوامل البيولوجية التي سماها فرويد «الصخرة» التي تواجه نظريته السيكولوجية في الانسان، وهي أساساً ذلك الإزدواج الجنسي (Bisexuality) الفسيولوجي والبيولوجي في الانسان وانعكاس ذلك على سلوك الانسان. والمعروف بيولوجيا وفيسيولوجيا أنه ليس هناك من هو ذكر خالص مائة في المائة، ومن هي أنثى خالصة مائة في المائة، بل إن الاعضاء الجنسية والهرمونات الجنسية في كلا الجنسين تتداخل، ويحتفظ الرجل ببقايا اعضاء انثوية منذ كان جنيناً، وتحتفظ المرأة ببقايا اعضاء ذكرية ويجري في الجنسين في مختلف مراحل العمر هرمونات مؤنثة ومذكرة.

وقد تحير فرويد طويلاً أمام هذه الحقيقة البيولوجية، واعترف أنها تقف «كالصخرة» امام افكاره، وان جميع أنشطته الذهنية تقف أمام هذه الصخرة وتنتهي عندها. وهذه هي كلماته: «كنا نشعر دائماً اننا بوصولنا إلى «الرغبة في الحصول على عضو الذكر» (في الأنثى)، «ورفض الانوثة» (في الذكر) قد اخترقنا كل الطبقات النفسية وأصبحنا أمام الصخرة، وهكذا فان جميع انشطتنا تنتهي. وهذا قد يكون صحيحاً لانه في المجال النفسي فإن المجال البيولوجي يلعب في الحقيقة دور الصخرة الراكدة في القاع، ولم يستطع فرويد أن يقول إن رفض الذكر للانوثة أو رغبة الانثى في الحصول على عضو الذكر لهما أساس بيولوجي، لانه لم يستطع أن يبرهن على ذلك. وقد اعتنق فرويد هذه الافكار حين لاحظ أن هذه الظواهر موجودة في كل الحالات، وبسبب عجزه عن علاجها بالتحليل. ويقول ستولر ان معظم المحللين النفسيين ومنهم فرويد حين يواجهون بظاهرة ما موجودة في الكل وغير قابلة للتحليل فانهم يفكرون على الفور فيما هو«ميتابيولوجي» أو فيما هو «فوق البيولوجي». (على شاكلة الميتافيزيقي أو ما فوق الطبيعة)، مثال ذلك تفسير «لاماركين» للازدواجية الجنسية في الانسان على انها بقايا موروثة من العصر الثلجي، وان العامل الميكانيكي وغريزة الموت يفسران ماسوشية المرأة، وان الذكورة تساوي الحركة والأنوثة تساوي السلبية لأن الحيوان المنوي يتحرك لكن البيضة تنتظر في سكون.

ويخرج «ستولر» وغيره من العلماء في بحوثهم الاخيرة في الحيوانات والانسان ببعض النقاط الهامة والتي اوضحت ان الانوثة والذكورة في الانسان يمكن ان تتشكل منذ الطفولة وبشكل نهائي بواسطة القوى النفسية المتعارضة مع الحالة البيولوجية الموجودة اصلاً. وتتلخص هذه النقاط في الآتي:

١ ـ في حالة الاطفال الذين يولدون بغير جنس محدد (خنثى)، فانهم يكتسبون شخصية الخنثى[١١] اذا نظر اليهم الاهل على هذا النحو وتشككوا في كونهم ذكوراً أو اناثا، ولكن حين لا يكون لدى الاهل هذا الشك فان هؤلاء الاطفال رغم عدم وضوح نوع اعضائهم الجنسية فانهم يكتسبون شخصية الذكر اذا نظر اليهم الاهل كذكور، أو يكتسبون شخصية الانثى اذا نظر اليهن الاهل كاناث.

٢ ـ ان الذكور الذين يتحولون إلى اناث (بعمليات جراحية أو بسبب حوادث معينة كتلك التي تحدث حين يبتر عضو الذكر خطأ اثناء طهارته أو لاسباب اخرى). فإن التحول من الذكورة إلى الانوثة يتم كاملاً، ويعيشون كنساء طبيعيات، ويطلبون تغير

اجسامهم لتصبح كأجسام النساء تماماً، وهم رغم كل هذا طبيعيون بيولوجيا.

٣ ـ في تلك الحالات التي يظهر بهذا الذكر على أنه أنثي (يسمى بالمخنث) في ملابسه، وحركاته، وصوته، كنتيجة لمواقف معينة وسلوك الأب والأم فانه يسلك بطريقة تمزج بين صفات الأنوثة والرجولة، أو الصفات المخنثية، من أجل الدفاع عن ذكورته المهددة (القلق الناتج عن الخوف من الاخصاء) هذه الحالات امثلة لما أطلق عليه فرويد اسم «العامل الطارىء» لكنه أدرك بعد ذلك أن هذا العامل الطارىء ليس طارئاً في الطفولة، وأنه ظاهرة في جميع الأطفال ذكوراً وبناتاً، وعلى هذا كان الحل الوحيد هو نظريته [الرغبة في الحصول على عضو الذكر (في الانثى) ورفض الأنوثة في الذكر] وأخذ فرويد يبحث عن أسباب ذلك ويتساءل مثلاً: لماذا يشعر الولد برفض للأنوثة؟ هل إنه يحاول التخلص من صورة امه التي تمثلها وهو طفل؟ ولكن لماذا يحاول الذكر التخلص من صورة أمه؟! هل هي صورة قبيحة؟ والبنت؟ لماذا ترغب في الحصول على عضو الذكر؟ هل لأنها عرفت أنها ناقصة بيولوجيا وانها الجنس الادنى؟! وهكذا يعكس فرويد شعوره الداخلي للمرأة على نظريته ويغرق في تعقيدات لا طائل تحتها لمجرد أنه عاجز عن اجتياز تلك الصخرة التي تقف في وجهه، والتي تقول له ببساطة ووضوح إن البنت والولد كليهما مزدوج الجنس بيولوجيا وفسيولوجيا، ولأنه عاجز أيضاً عن التخلص من نظرته غير المحايدة للمرأة.

وقد اوضحت الدراسات البيولوجية والفسيولوجية الأخيرة بعضاً من الغموض الذي كان يكتنف هذه الازدواجية الجنسية. هذا وان البحوث الجديدة على الحيوانات وعلى الانسان تنبىء بأن المستقبل يحمل الكثير من الحقائق التي تجعل الانسان يعرف المزيد عن نفسه، أي عن الأنوثة، وعن الذكورة، كذلك البحوث الجديدة عن مخ الانسان، والبحوث عن ظواهر الازدواجية الجنسية في السلوك الطبيعي، وتلك الاكتشافات الجديدة عن التشابهات الكيميائية للهرمونات المؤنثة والمذكرة. واكتشاف علماء الغدد بأن كثيراً من أنسجة الذكر تتفاعل مع الهرمونات المؤنثة (مثل الثديين والجلد والشعر، والمناطق الدهنية)، وأن كثيراً من أنسجة الأنثى تتفاعل مع الهرمونات المذكرة.

وقد بدأ علماء فسيولوجيا المخ يصلون إلى فهم العمليات المركزية للسلوك في

الحيوانات، بما في ذلك السلوك الخاص بالأنوثة، والسلوك الخاص بالرجولة. وهذا لا شك يمزق الحجب عن تلك القوى (الخفية سابقاً) والتي يتألف من خلايا مخية مرتبة ترتيباً تصاعدياً، وتتأثر بالهرمونات، والمؤثرات الخارجية والداخلية على حواس الانسان، والمراكز المخية الأخرى، وخلايا أرشيف ذكريات التجارب السابقة، وخلايا التجارب النفسية الجديدة.

وقد اكتشف العلماء هنا شيئاً جديداً غريباً، ذلك أن الحالة الأصلية للعمليات المركزية المخية هي الأنثى. أي أن مخ الجنين (الهيوثلاماس - hypothalamus) لا ينتج عنه سلوك ذكري الا إذا تأثر بفعل الهرمونات المذكرة. ولو أن هذه الهرمونات المذكرة تعطلت بسبب أو آخر في الذكر فان الأنوثة تحدث على الفور. ومعنى هذا أن مخ الجنين يحتاج إلى تنشيط من هرمون الذكور ليشكل أعضاء الذكر ولكنه بغير هذا التنشيط فانه يصبح الأنثى[١٢].

وهذا يتفق مع الحقيقة التشريحية، التي تقول بأنه في تطور الجنين فان عضو الذكر يتطور من بظر الأنثى، أي أن عضو الذكر ليس إلا بظرا مذكراً[١٣] وقد اوضحت الدراسات الفسيولوجية للجهاز العصبي حقيقة أن مخ الذكر ليس إلا مخ الأنثى بعد أن أصبح مذكراً بفعل الهرمون الذكري.

وقد وجد أن القوة البيولوجية (التي كانت العامل الثالث التي قد تشكل صفات الأنوثة والذكورة) تصل في طريقها النهائي إلى المخ، وقد ظهرت هذه الحقيقة في تجارب على الحيوانات؛ حيث يتحول المؤثر الكيميائي الكهربي إلى دافع وفعل. وبدراسة بعض الحالات في الانسان وجد بعض العلماء ومنهم جون ماني (John Money) أن هذه القوة البيولوجية موجودة في الانسان أيضاً على نحو مشابه لتلك الحيوانات. وفيما يلي ملخص لبعض الحالات التي درست في الانسان:

١ - فحصت بعض الحالات المصابة بما يسمى أعراض تيرنر (Turner Synchrome)[١٤] وفي هذه الحالة فان الانسان يكون ناقص الكروموسومات. وليس لديه إلا الكروموسومات المؤنثة. وكذلك ليس لديه مبيضان ولا خصيتان. ومن المعروف أن الانسان طبيعياً يملك نوعين من الكروموسومات: الاناث عندهن كروموسومات مزدوجة من الكرموسومات (X). والذكور لديهم كروموسوم واحد (x)، وكروموسوم آخر (Y). (هذه الحروف أخذت من شكل الكروموسوم تحت الميكروسكوب). وبالرغم

من أن هؤلاء الأشخاص يفتقدون الكروموسوم الذكري وكذلك يفتقدون المبيض والخصيتين التي تفرز الهرمونات الجنسية، فان نموهم التشريحي يقودهم إلى أن يصبحوا اناثا، كما سلوكهم في الحياة يكون أنثوياً، ولكنهم يميلون إلى الجنس الآخر كاختيار جنسي. (heterosexual).

٢ ـ في حالات الذكور ذوي الكروموسومات[١٥] (XY) فان الشخص ينمو ويتطور ويصبح امرأة طبيعية المظهر رغم نقص الهرمونات الجنسية. وهذه الحالات من الصعب شرحها بالتفصيل هنا حيث أن الكروموسومات الذكرية (Y) والأنثوية (X) موجودة، وكذلك كمية من الهرمونات الذكرية في الدم، ولكن يبدو أن أنسجة الجسم لا تتأثر التأثير الكافي بالتنشيط الذكري الذي يحدث في الذكور الطبيعيين. وتحتاج مثل هذه الحالات إلى دراسات اكثر لمعرفة هل هذا التطور الأنثوي بسبب عدم تأثير المخ (الانثوي أصلاً) بالهرمون الذكري.

٣ ـ هؤلاء الذكور[١٦] الذين يظهرون عند الولادة بأجسام طبيعية، ثم في المراهقة يكتشف أن الخصيتين تفرزان هرمون الذكور بكميات قليلة جداً منذ كان الشخص جنيناً. ومعظم هؤلاء يكتسبون صفات أنثوية منذ الطفولة أو بعدها، ويقولون إنهم يفضلون أن يكونوا بناتا.

٤ ـ في حالات اضطراب الفص الصدغي للمخ[١٧] فان عدداً من التقارير التي تتضمن اضطرابات في الشخصية الجنسية (الذكورة أو الانوثة) لم تحدث إلا في الرجال (ويكون السلوك عادة تشبه الرجل بالانثى في الملابس)، ويحدث هذا السلوك بسبب موجات كهربية معينة تنبعث من الفص الصدغي للمخ.

وقد وجد أنها تعالج أو تتحسن بأثر بعض الادوية التي تعطى للشخص وتؤثر على هذه الموجات الكهربية.

٥ ـ في الحالات التي تتلقى الجنين[١٨] الانثى تنشيطاً ذكرياً شديداً حين تتناول الام أثناء الحمل كميات كبيرة من هرمون البروبترون (للوقاية من الاجهاض) فإن هؤلاء الاناث يأخذن سلوك الذكور ولكنهن يفضلن الجنس الآخر كاختيار جنسي (heterosexual).

٦ ـ إن الغدد الفوق كلوية (adrenal) التي تفرز عدداً من الهرمونات، تفرز أيضاً جزءاً

صغيراً من الهرمون الذكري. وهي مصدر الهرمونات المذكرة في الانثى. وفي هذه الاضطرابات التي يزداد فيها نشاط هذه الغدد[١٩] فإن كمية كبيرة من الهرمون الذكري يفرز، وقد يحدث ذلك للجنين قبل ولادته، فيتسبب في تذكير أعضاء الجنين الانثى، ويسلكن سلوكا ذكريا وان كن يحتفظن برغبتهن في الجنس الآخر - (heterosexual).

ولا شك في أن هذه الملاحظات في الانسان ليست بقوة التجارب التي أجريت على الحيوانات، ولكنها توصي ببعض الحقائق التي نتجت من تجارب الحيوانات وهي أنه في حالة الذكر، فإن الازدواجية الجنسية يمكن أن تعزى إلى التذكير (بفعل الهرمون الذكري) الذي حدث للمخ الانثوي أصلاً. ولكن هل معنى ذلك أن مخ الانثى ليس مزدوج الجنس كمخ الرجل؟! وهذا هو السؤال الذي لم يستطع «ستولر» أن يجيب عنه، ولم يستطع أحد من علماء البيولوجيا أن يرد عليه. ويعترف هؤلاء أن هذه البحوث والاكتشافات الجديدة ليست إلا ضوءاً خافتاً في ذلك الخضم الكبير المظلم المسمى بالبيولوجيا، وبالذات بيولوجيا الجنس، أو الازدواجية الجنسية، أو الذكورة أو الانوثة، وعملياتها المعقدة في المراكز العليا للمخ والجهاز العصبي.

لكن الذي يتفق عليه معظم العلماء المحدثين الآن هو أنه فيما يختص بالانسان فليس هناك جنس يعتبر أسمى من الجنس الآخر، وأنه اذا فرض وكان هناك جنس أسمى من جنس فإن الجنس الاسمى ليس هو الجنس الذكري بالتأكيد، وإنما قد يكون هو الجنس الانثوي بسبب تلك الحقائق البيولوجية والفسيولوجية السابق ذكرها، وكذلك الحقائق التاريخية منذ قديم الأزل، والسبق التطوري الذي أحرزته الامومة على الابوة بيولوجيا ونفسياً وإنسانياً.

٦ ـ الطريق الملتو، نحو الأنوثة

بدأت الافكار الجديدة تتحدى الافكار القديمة عن سيكلوجية المرأة بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى واضطرار المجتمع (لاسباب اقتصادية) الى دفع النساء إلى شغل الاماكن الخالية (بسبب تجنيد الرجال في الحرب) في مختلف نواحي الإنتاج والصناعة والوظائف المختلفة ومنذ ذلك الحين بدأت أعداد النساء في الانتاج والاعمال الاخرى تزداد.

وبرغم أن الدوافع الحقيقية لعمل المرأة خارج البيت كانت اقتصادية، إلا أن المجتمع كعادته دائماً مع النساء لا يظهر الاسباب الاقتصادية.

لكن خروج المرأة للعمل ومشاركتها في الإنتاج واستقلالها الاقتصادي عن الرجل وكذلك أيضاً انتشار الافكار الاشتراكية في العالم، جعل المرأة تكسب صفات جديدة، فهي قوية ايجابية شجاعة مثابرة قادرة على تحمل مشاق العمل خارج البيت وداخله، وهي تدخن وتشرب وتسهر وتختار بنفسها رجلها وتقرر مصيرها بيدها ولا تخاف. ومعظم هؤلاء النساء اللائي خرجن الى العمل وحظين بشيء من الحرية والاستقلال والمساواة مع الرجال أثبتن كفايتهن وقدراتهن العقلية والنفسية، ولم يعد في استطاعة أحد أن يقول عنهن انهن سلبيات أو ضعيفات أو ماسوشيات وغير ذلك من الصفات التي ألصقتها نظرية التحليل النفسي بالمرأة.

وقد عجزت نظرية التحليل النفسي (التي أرست منذ بدايتها قواعد الاختلاف بين نفسية المرأة ونفسية الرجل)، عجزت عن أن تفسر هذا التغير في صفات المرأة منذ خروجها إلى العمل بعد الحرب العالمية الاولى بل إنها عجزت عن مناقشته مباشرة، وإنما لجأت إلى البحث عن الفروق البيولوجية بين الجنسين. ثم وجدت في بعض الفروق التشريحية تبريراً لافكارها. ولهذا أشار فرويد بعبارة نابليون «التشريح هو

المصير» (Anatomy destiny) ، وبهذا شاركت نظرية التحليل النفسي في تعميق الفروق بين الرجل والمرأة نفسياً، كما شاركت في ذلك أيضاً علوم البيولوجيا والاجتماع والفلسفة والحضارة الرأسمالية الذكورية ككل.

وقد حاول عدد من رواد التحليل النفسي خوض ميدان سيكلوجية المرأة والفروق بينها وبين الرجل، ومن هؤلاء كارل أبراهام، هيلين دوتيش، كارين هورني، جوسين مولر، ايرنست جونز، ميليني كلاين، فان افيوجين، مولر برونسويج وغيرهم وكان سيجموند فرويد بطبيعة الحال على رأسهم.

وقد دخل فرويد هذا الميدان مدعماً بشهرته وعبقريته واهتمامه العميق باكتشاف نفس الانسان. وفي سنة ١٩٢٧ وضع فرويد كتابه المسمى: «بعض النتائج النفسية للفروق التشريحية بين الجنسين» وفي سنة ١٩٣٢ حاول أن يوضح أفكاره أكثر عن المرأة في أجزاء متعددة من هذا الكتاب، ولا أظن أحداً لم يسمع عن ذلك الاصطلاح الفرويدي «حسد عضو الذكر» (penis envy) أو عقدة الخصي عند المرأة، أو عقدة أوديب.

وليس هناك بلا شك ما يوضح رأي فرويد في المرأة الا كلمات فرويد نفسها، وسوف أسوق بعضاً منها هنا، لنرى كيف نظر فرويد إلى المرأة على أنها جنس أدنى من الرجل، وكانت هذه النظرة هي التي شكلت نظريته عن سيكلوجية المرأة.

كتب سيجموند فرويد يقول: «ان (النساء) يرفضن قبول الحقيقة بأنهن مخصيات، ويعشن بأمل الحصول على عضو الذكر في يوم ما، وبالرغم من كل شيء... انني لا أستطيع أن أتخلص من الفكرة (رغم ترددي في التعبير عنها) بأن القيم الاخلاقية التي تحكم النساء تختلف عن تلك التي تحكم الرجال، وعلينا ألا ننسى هذه الحقيقة لأن الثائرات من النساء يرفضنها، هؤلاء النساء اللائي يرغبن في دفعنا إلى اعتبار المرأة مساوية للرجل في المركز والقيمة»(١).

ويقول فرويد أيضاً: «ونقول أيضاً عن النساء ان اهتماماتهن الاجتماعية أضعف من اهتمامات الرجال، وإن قدرتهن على اعلاء رغباتهن أقل من الرجال... ويبدو أن طريق التطور الشاق الذي يقود إلى الانوثة يستنفد كل امكانيات المرأة»(٢).

والحقيقة أن الذي عقد طريق المرأة إلى الأنوثة هو فرويد نفسه بنظريته المعقدة

عن أن البنت الطبيعية حين تولد تحسد أخاها الولد بسبب امتلاكه عضو الذكر، وأنها تتقرب إلى ابيها بأمل الحصول على طفل يعوضها عن فقدان عضو الذكر، وحين يخذلها أبوها ولا يمنحها الطفل فهي تشفى من عقدتها الأوديبية، لكنها تظل تأمل في الحصول على الذكر بلا جدوى، ثم تقبل الحقيقة، وهي أنها ذكر مخصي، وتحاول أن تعوض عن نقصها بالحصول على طفل، وبهذا تسعى إلى الرجل.

وقد اتضح من الدراسات الجديدة عن سيكلوجية المرأة أن المرأة الطبيعية لا تمر بهذا الطريق الملتوي المعقد نحو الأنوثة، أو نحو الأمومة. واتضح أن وصول المرأة إلى الأمومة أسهل وأبسط من وصول الرجل إلى الأبوة. وأن أمومة المرأة تطورت نفسياً على نحو طبيعي بسيط، أما أبوة الرجل فقد كان عليها لتتطور نفسياً أن تشق طريقاً أصعب.

وقد شاركت هيلين دوتيش مشاركة ذكية في نظرية التحليل النفسي، لكن مفهومها عن المرأة ظل في اتفاق مع أفكار فرويد وابراهام وغيرهم من أعضاء نظرية التحليل النفسي.

وقد استطاع ارنست جونز في كتابه سنة ١٩٢٧ عن «المراحل الأولى لتطور جنسية المرأة»(٣)، ثم في كتابه سنة ١٩٣٣ عن: «المرحلة النظرية» أن يضيف بعض الأفكار الذكية المختلفة، لكنه لم يخرج كثيراً عن افكار فرويد، لأنه كان يميل إلى اعتبار المـرحلة البظرية(٤) في النساء كظاهرة عصابية ونكوص اكثر مما كان يعتبرها مرحلة طبيعية في النمو الجنسي. وكان يرى أن الخوف من التدمير الجنسي الذي سماه (aphanisis) عند المرأة يتساوى في الأهمية والعمق مع عقدة الخوف من الاخصاء عند الرجل.

وتعتبر «كارين هورني» من رائدات الاتجاه الجديد في سيكلوجية المرأة. وبالرغم أنها كانت تعتبر تلميذة لفرويد إلا أنها لم ترث كل أفكاره كقضية مسلمة، وإنما استطاعت بذكائها وشجاعتها أن تنقد بعض هذه الأفكار وتأتي بأفكار جديدة، وقد كانت من اوائل طبيبات النفس في العالم التي كشفت عن الأخطاء التي اعتنقتها نظرية التحليل النفسي عن المرأة.

وقد لخصت كارين هورني أفكار نظرية التحليل النفسي وأفكار فرويد بهذا الجدول الذي نشرته في كتابها بعنوان «سيكلوجية المرأة»، والذي يوضح الاختلافات

الطبيعية بين نفسية الولد ونفسية البنت منذ الطفولة[1].

أفكار الولد	أفكارنا (نظرية التحليل النفسي) عن تطور الأنوثة
١ ـ التصور الساذج أن البنات مثل الأولاد لهن عضو الذكر.	١ ـ انه عضو الذكر وحده الذي يمكن أن يلعب أي دور في كلا الجنسين.
٢ ـ اكتشاف أن البنات ليس عندهن عضو الذكر.	٢ ـ الاكتشاف الحزين بأن عضو الذكر غير موجود.
٣ ـ اعتناق الفكرة أن البنت ليست إلا ذكراً مخصياً أو مشوهاً.	٣ ـ اعتناق الفكرة بأن البنت كانت تمتلك في يوم ما عضو الذكر ثم فقدته بسبب الإخصاء.
٤ ـ الاعتقاد بأن البنت تلقت العقاب الذي يهدده أيضاً.	٤ ـ الاعتقاد بأن الإخصاء كان نوعاً من العقاب الذي أصابها.
٥ ـ النظر إلى البنت كجنس أدنى منه.	٥ ـ نظرة البنت إلى نفسها كجنس أدنى من الذكر. حسد عضو الذكر (Penis envy).
٦ ـ عجز الولد عن تصور كيف يمكن للبنت أن تعوض هذا النقص أو الحسد.	٦ ـ عجز البنت الأبدي عن التخلص من الإحساس بالنقص والوضع الأدنى من الذكر، وعليها أن تتحكم على الدوام في رغبتها لأن تكون رجلاً.
٧ ـ خوف الولد من حسد البنت له.	٧ ـ رغبة البنت طوال حياتها كلها في الانتقام من الرجل بسبب امتلاكه للعضو الذي فقدته.

وتثبت هورني في بحوثها خطأ هذه الأفكار، وتقول إنها لا تعبر عن حقيقة سيكلوجية الأنثى، وإنما هي تعبر عن وجهة نظر الرجل في الأنثى بسبب تلك الحضارة الذكورية والعلوم التي صنعها الرجال. وتقول «هورني» اننا لو حررنا عقولنا من تلك الأفكار الذكورية فإننا سنرى موضوع سيكلوجية الأنثى على نحو مختلف تماماً. ولعل

أول ما رأته «هورني» هو أن الفروق التشريحية بين الولد والبنت هي التي كانت أساساً لسيكلوجية المرأة في نظرية التحليل النفسي، وأن هذه النظرية أغفلت تماماً كثيراً من العوامل الأخرى، ومنها اختلاف الوظيفة البيولوجية التناسلية لكل من الذكر والأنثى، وأن الأنثى هي التي تلد الذكر وأن قدرة المرأة على الانجاب (هذه القدرة التي لا يملكها الرجل) قد لعبت دوراً هاماً في أن يحسد الرجل المرأة منذ القدم، لا أن تحسد المرأة الرجل بسبب امتلاكه عضو التناسل.

ان محاولة الرجل لعكس الأمور والحقائق المتعلقة بالمرأة شيء معروف في التاريخ وفي العلوم. ويظهر ذلك بوضوح في نظرية «فيرنزي» ومفهومه عن الأمومة. انه يرى أن المعنى الحقيقي للعملية الجنسية عند كلا الجنسين ليست إلا رغبة الذكر في العودة إلى رحم الأم[٦]. وقد استطاع أن يحقق الرجل ذلك بواسطة عضوه الذكري، ولم يكن أمام المرأة إلا أن تخضع لعدوان الرجل عليها، وأن تعوض ذلك عن طريق حصولها على طفل ترعاه. ولهذا تحاول المرأة أن تجد في الولادة لذة تعوضها عن اللذة المفقودة مع الرجل.

ومعنى مثل هذه الأفكار أن المرأة لا تشعر بلذة جنسية، وأن اتصالها الجنسي بالرجل ليس في نظرها الا تعويضاً لها عن شيء آخر. وهذا بالطبع إنكار للحقيقة التاريخية والبيولوجية التي تؤكد سمو الأمومة وأصالتها وقوتها. وكم سببت هذه القدرة على خلق الحياة الجديدة في الرجل البدائي من كراهية للمرأة وغيرة منها. ـ وتتضح تلك الغيرة في نفوس الذكور من الأولاد وتقول كارين هورني إنها دهشت حين كانت تفحص الرجال نفسياً وتكتشف تلك الغيرة الدفينة من قدرة المرأة على الحمل والولادة والأمومة ووجود الثديين والقدرة على الإرضاع[٧]. ولم يكن أمام الرجل لعلاج غيرته هذه الا أن يجعل من هذه الصفة (التي تثير غيرته) قيدا على المرأة، بل وصفة ضعف ونقص. وكم استخدم الرجل صفة الحمل والولادة ليقيد المرأة ويكبلها ويربطها في البيت لتخدمه وتخدم الأطفال.

أما أن المرأة لا تشعر بلذة جنسية وإنما تخضع لرغبة الرجل فهذا أيضاً لا يتفق مع الحقائق البيولوجية من قدرة المرأة الجنسية، تلك القدرة التي اتضح من الدراسات البيولوجية الحديثة أنها عنيفة ودائرية ومستمرة وأن الرجل لم يستطع أن ينشىء أسرته الأبوية وحضارته الذكورية إلا عن طريق قمع هذه القدرة الجنسية الحساسة (عملية ختان البنت أخف صورة منها)، أو ذلك الكبت الجنسي المفروض على المرأة في

مختلف عصور التاريخ حتى اليوم بالقوانين الذكرية والمحرمات والمحظورات الواقعة على المرأة وحدها. ولا شك أن صرامة هذه القوانين وشدة هذا القمع من جانب الرجل تدل بوضوح على أنه حاول أن يخضع مارداً جباراً، أحس به، وأدركه منذ البداية، وهذا هو قدرة المرأة الجنسية العنيفة واللامحدودة كما عبر عنها ماسترز وجونسون وشيرفي، بأنها قدرة دائرية مستمرة تشبع ولا تشبع في الوقت نفسه.

وبرغم وضوح أصالة الأمومة عند المرأة، وأن المرأة عرفت أمومتها الجسدية والنفسية منذ أول الحياة الانسانية، وان هذه الأمومة كانت عنيفة بيولوجياً، وكانت سامية نفسياً بسبب قدرتها على اعطاء الحب لأطفالها وأن الرجل لم يكتشف أبوته النفسية إلا حديثاً، وان الذي ربطه بأطفاله أو الذي جعله ينشيء الأسرة أو ينسب إليه الاطفال لم يكن هو الحب الأبوي وانما كان هو العامل الاقتصادي وامتلاكه الارض ورغبته في توريث الأرض لأطفاله، رغم هذا فان هذه الامومة بترت وشوهت في الحضارة الذكرية وفي نظرية التحليل النفسي.

ومن المهم لنا هنا أن نعرف كيف رأى فرويد الامومة وكيف فسرها. وتتلخص نظرية فرويد[٨] عن الامومة في ان البنت الطبيعية حين تكتشف أنها لا تملك عضو الذكر تشعر أنها تحسد الذكر على هذا العضو، ويزيد هذا الحسد (penis envy) من رغبتها الليبيدية من أجل الحصول على طفل وعلى الرجل أيضاً. لكن رغبتها في الحصول على الرجل تنشأ عندها منفصلة عن رغبتها في الحصول على طفل. وتطورت أفكار فرويد من هذه الفكرة الاولى وأصبح أكثر ميلاً إلى أن يعتبر أن هذا الحسد (penis envy) يتحول عند البنت ليصبح الرغبة في الحصول على الطفل، وان رغبة الامومة عند المرأة تنبع فقط من ذلك الحسد وخيبة أمل المرأة الابدية بسبب عدم حصولها على عضو الذكر، بل ان تلك الصلة العاطفية التي تربطها بالرجل لم تنشأ إلا عن ذلك الطريق المعقد الملتوي وهو الرغبة في الحصول على عضو الذكر واستبدالها بالحصول على طفل.

ويقتنع الرجل من زملاء فرويد وتلاميذه بهذه الافكار الغريبة، إلى حد أن يسأل أحدهم وهو جروديك (Groddeck) قائلاً انه يفهم أنه من الطبيعي للولد أن يحتفظ بصورة أمه كموضوع حب ولكنه لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن للبنت الصغيرة أن تتعلق بالجنس الآخر[٩]!

وقد خرجت كارين هورني من بحوثها في حالات مختلفة من النساء والبنات أن هذه الرغبة التي يظهرها عدد كبير من النساء والبنات في أن يكن ذكوراً ليست بسبب حسد عضو الذكر والرغبة في الحصول عليه ولكن بسبب حياة الانثى المفروضة عليها من المجتمع، أي أن هذه الرغبة ليست أصلية[10] في المرأة أو البنت بسبب تكوينها النفسي ولكنها رغبة ثانوية نشأت لاسباب اجتماعية وثقافية.

وتقول كارين هورني أنه من أجل أن نفهم الاسباب التي من أجلها تحاول الانثى الهروب من انوثتها المفروضة لا بد لنا أن ندرس الحياة التي تتعرض لها البنت منذ طفولتها، وبالذات حياتها الجنسية، وكذلك العادة السرية، التي هي في مفهوم نظرية التحليل النفسي التعبير الجسدي عن عقدة أوديب.

وفي موضوع العادةالسرية عند البنات الصغيرات، فالمعلومات قليلة جداً (بالنسبة لتلك المعلومات عن الولد) وغامضة أيضاً، وغموضها ليس إلا لأنها معلومات تعبر عن وجهة نظر الرجال. إن العادة السرية ليست إلا نشاطاً ذكرياً في رأي نظرية التحليل النفسي، والبنت حين تمارس العادة السرية فهي تمارسها بسبب ذلك القلق الناتج عن الإخصاء الذي وقع لها (وهو بتر عضو الذكر من جسمها). ولذلك فإن البنت تمارس العادة السرية ليس عن طريق المهبل ولكن عن طريق البظر، والذي نظر اليه بالتالي (من أصحاب نظرية التحليل النفسي) على أنه عضو ذكوري نبت خطأ في جسم الأنثى، وأن نضوج المرأة الجنسي والنفسي وبلوغها الأنوثة الحقيقية لا يتحقق إلا بانتقال منطقة الإثارة والحساسية الجنسية من البظر إلى المهبل. وحيث أن هذا الإنتقال كان مستحيلاً بيولوجياً وفسيولوجياً فقد وقع فرويد وزملاؤه وتلاميذه في حيرة حينما اكتشفوا أن معظم النساء الناضجات (في نظرهم) باردات جنسياً، وأن البظر منطقة جنسية حساسة في المرأة، والمهبل يظل منطقة غير حساسة، ولهذا لم يجدوا حلاً لحيرتهم سوى أن يزعموا أن البظر عضو ذكري، لأنه عضو نشط جنسياً، وهذا النشاط الجنسي صفة الذكور والأعضاء المذكرة فحسب. وربما كان ذلك احد الأسباب القديمة في بتر البظر من جسم البنات (في بعض المجتمعات القديمة وفي بعض المجتمعات العربية حتى اليوم) من أجل تطهير الأنثى من ذلك العضو النشط الآثم، ولتصبح بعد ذلك الأنثى الكاملة الأنوثة، والتي لا أثر للذكورة فيها، وليصبح النشاط الجنسي من حق الذكور فقط، أما الإناث فليس لهن إلا الحسد والأمل اليائس إلى الأبد.

إن هؤلاء العلماء لو كانوا ينظرون إلى المرأة نظرة علمية حقيقية لوجدوا أن المرأة خلقت بهذا العضو النشط جنسياً، وأن هذا البظر موجود في جسمها بالطبيعة، وكان الأجدر بهم أن يدرسوا نشاطه، ويعترفوا بمظاهر هذا النشاط الذي يرى في البنت الصغيرة على شكل العادة السرية.

ويرى عدد من العلماء أن العادة السرية نشاط جنسي طبيعي عند الولد والبنت سواء بسواء، لكن كارين هورني تعتقد أن هناك بعض الاختلافات بين الذكور والإناث في ميكانيزم هذا النشاط، رغم أنها تمارس في الجنسين على نحو تلقائي. وكان تحليل كارين هورني يرتكز على نظرية التحليل النفسي للعادة السرية، والاختلافات بين الجنسين بالنسبة لما عرف بعقدة أوديب. وهي ترى أن الخيالات الأوديبية عند البنت الصغيرة ترتكز على خوفها الناشىء من كبر حجم الأب، الذي تتخيل الاتصال به من أجل الحصول على الطفل وذلك الخوف من التمزق الذي سيحدث لأعضائها أثناء الولادة. وتعتقد «هورني) أن هذه الخيالات الأوديبية وهذا الخوف من تمزق المهبل تدل على أن المهبل والبظر يلعبان دوراً في التكوين الجنسي للمرأة منذ الطفولة، وأن البرود الجنسي قد يرجع في بعض الحالات إلى هذا، أو ذلك الخوف الدفين في المرأة من الولادة. (بسبب كبر حجم رأس الطفل بالنسبة لفتحة المهبل)[11]. هذا وإن الرغبة للاتصال بالأب جنسياً لا يقابل عند البنت الصغيرة بالإحساس بالذنب نفسه الذي يشعر به الولد الصغير حين يرغب الاتصال جنسياً بأمه، وذلك لأن البنت تجد في ولادة الطفل تبريراً مريحاً أما الولد فليس لديه تبرير بالمثل.

هذا عن الخيالات الجنسية في الطفولة، أما الممارسة ذاتها التي تتم عن طريق العادة السرية، فتقول «هورني» إن الولد يختلف عن البنت في أنه يجد أثر الممارسة واضحاً بسبب كبر عضوه بالنسبة لبظر البنت الصغير، التي تظل هذه العملية أمامها غير مؤكدة، ولهذا تقول «هورني» إن مخاوف الولد من هذه الممارسة أثناء الطفولة والمراهقة أكثر من مخاوف البنت.

ولا شك أن «كارين هورني» كانت عضواً من أعضاء نظرية التحليل النفسي، وكانت تعتنق بعض أفكار فرويد عن عقدة أوديب سواء في الولد أو البنت، لكنها استطاعت فيما يختص بسيكلوجية المرأة أن تنتبه إلى الأسباب الاجتماعية والضغوط الثقافية التي تؤثر في طبيعة المرأة وتشوهها، وأن تلاحظ أن البنت الطبيعية لا تحسد الولد بسبب امتلاكه عضو التناسل ولكن بسبب الميزات الاجتماعية والحرية التي يتمتع

بها لمجرد كونه ذكراً، وأن البنت لا تهرب من أنوثتها وتتمنى أن تكون ذكراً لتحصل على هذا العضو، وإنما لتحصل على تلك الميزات الاجتماعية والحرية التي يستمتع بها. وتكتب كارين هورني تقول: إن البنت في الحقيقة تتعرض منذ ولادتها حتى مماتها لتلك المحاولة الصارمة أو غير الصارمة (التي تتخذ أحياناً شكل الرقة) لإقناعها بنقصها ووضعها الأدنى، وهذا بطبيعة الحال يثير فيها على الدوام رغبتها في أن تكون رجلاً (عقدة الذكورة). . . وبسبب أن الحضارة هي حضارة ذكورية فقد كان صعباً على المرأة أن تحقق أي نوع من الاعلاء (Sumblimation) لهذه الرغبة الذكورية، لأن كل المهن في الحياة كان يشغلها الرجال. وهذا بالطبع رسب في نفس المرأة مزيداً من الإحساس بالنقص. . وأنه لواضح تلك العلاقة الوثيقة بين العوامل الاجتماعية والنفسية، وخطورتها بحيث تستحق الدراسة. . . وقد أثرت العوامل الاجتماعية نفسها على التطور النفسي للرجل، ولكن على نحو مختلف. فهي جعلته يكبت رغبته في أن يكون أنثى، بسبب وضع الأنثى الأدنى، كما ساعدته أيضاً على إعلاء هذه الرغبة بنجاح[١٢].

وبرغم انتماء كارين هورني إلى أعضاء نظرية التحليل النفسي إلا أنها استطاعت أن تقدم شيئاً جديداً يلقي بعض الضوء على نفسية المرأة.

لكن علماء التحليل النفسي في جملتهم ظلوا عاجزين عن تقديم الجديد فيما يتعلق بسيكلوجية المرأة. وظل الطريق السيكلوجي نحو الأبوة بالنسبة للرجل ممهداً وسهلاً وأكثر بساطة وطبيعية من طريق المرأة نحو الأمومة الذي أحيط بالتعقيد والغموض ومزيج من الخزعبلات الفلسفية والتاريخية والعلمية. بل لم تستطع نظرية الإزدواجية الجنسية أيضاً أن تخلص سيكلوجية المرأة من الأفكار الخاطئة المحيطة بها.

وليس أدل على هذا العجز من أنه منذ سنة ١٩١٨ حين كتب فرويد كتابه عن «التحريم والعذرية»[١٣] حتى سنة ١٩٣٢ حين أصدر كتابه: «جنسية المرأة»[١٤]، لم يستطع فرويد نفسه أن يقترح أي مفاهيم علمية جديدة في هذا المجال، وصرح فرويد حينئذ أن هناك الكثير في موضوع المرأة الذي لا زال مجهولا وأن تلك المحاولات والنظريات النفسية التحليلية التي بدأت في اوائل العشرينات لم تساعد في فهمنا لحقيقة المرأة، بل لعلها زادت الموضوع تعقيداً وغموضاً. لكن أحداً لم يعترف بفشل نظرية التحليل النفسي في فهم المرأة.

ولكن كيف كان يمكن الاعتراف بفشل نظرية التحليل النفسي في فهم المرأة،

هذه النظرية التي اعتبرت في ذلك الوقت ثورة علمية ليس في مجال علم النفس فحسب وإنما في العلوم الإنسانية والاجتماعية كالانتروبولوجيا والسوسيولوجيا والتاريخ بل وفي علم الأمراض العضوي الباثولوجيا أيضاً والبيولوجيا والفسيولوجيا، بل وفي الأدب والفن والثقافة بوجه عام؟.

ولا يمكن لأحد منا أن ينكر أنه رغم تلك المحاولات المستمرة في تاريخ البشرية للإقلال من قيمة المرأة واعتبارها الجنس الأدنى، إلا أن موضوع المرأة جسداً ونفساً ظل مسيطراً على اذهان الرجال والعلماء والكتاب والمفكرين والشعراء والأدباء، والذي يستعرض إنتاج هؤلاء على مر العصور يندهش لهذا الكم الهائل من الموضوعات والكتب والروايات والأشعار التي تتناول المرأة. ان معظم هذه الكتابات تصور المرأة تصويراً خاطئاً أو متناقضاً، لكنها تدل على أن موضوع المرأة يحتل في أذهان الرجال (عن وعي أو عن غير وعي) أجزاء كبيرة ان لم يكن أكبر الأجزاء.

وفي أدبنا العربي الكثير من هذه النماذج. لقد كنت أدهش وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية لكثرة قصائد الغزل المقررة علينا والتي نحفظها ونسمعها في حصة المحفوظات. وحينما بحثت في الشعر العربي القديم والحديث وجدت أن أكثر القصائد قيلت في الغزل وفي الشوق إلى المرأة، والحب، والهجران، واللوعة، ووصف الحبيبة جسداً ونفساً.

وحين قرأت أجزاء من الأدب العالمي دهشت أيضاً حين وجدت أن أذهان الرجال في العالم لم تكن أقل انشغالاً بموضوع المرأة من الرجال العرب. وقد انشغل «ترجنيف» بشدة وبعمق في معظم أعماله بالمرأة والأنوثة ودورها في الحضارة، وكذلك كان ابسن وتولوستوي وزولا وجورج برنارد شو وغيرهم. وقد كان تولوستوي يرى أن سلبية المرأة التامة تحقيق تام لرسالتها البيولوجية في الحياة، وأشاد بحماس شديد بقصة «تشيكوف» المسماة «حبيبتي» والتي تغزل فيها تشيكوف في سلبية المرأة. وفي «نورا» «إبسن، وكانديدا» برنارد شو، و«سارة» عباس العقاد، و«دعاء الكروان» طه حسين وغيرها، نجد ذلك الصراع الأبدي داخل ذهن الرجل بين المرأة الام والمرأة العشيقة.

ولا يمكن أن نغفل أن نظرية التحليل النفسي حاولت أن تفسر أسباب هذه التراجيديا الأنثوية في فكر الرجل، وأن تدرس طبيعة ذلك الصراع وتلك الحرب الداخلية بين الجنسين. لكنها في الحقيقة عجزت عن فهم الأسباب الحقيقية، وفشلت

في القاء ضوء على كراهية الرجل الدفينة للمرأة، ولم تسق الينا تبريراً أكثر من أن العالم هو عالم الرجل، وأن المرأة تحيا فيه حياة قاسية، وأن هذا هو قدرها وعليها أن تستسلم لهذا القدر. وقد كانت نظرية التحليل النفسي إحدى النظريات في الحضارة الحديثة التي دعمت الأفكار القديمة منذ العصور الوسطى ونشرت الفكرة التي تقول بأن المرأة ناقصة جسداً ونفساً وعقلاً.

وفي كتابه بعنوان «التحريم والعذرية»(١٥)قال فرويد: «. . . ان من عادة الرجل أن يسقط كراهيته الداخلية العميقة على العالم الخارجي، أن ينسبها إلى أي شيء يكرهه أو أي شيء لم يألفه. وينظر الرجل إلى المرأة أيضاً على أنها مصدر للخطر، . وأول علاقة جنسية بينه وبين المرأة تظل في ذاكرته محفوفة بالخطر».

وقد وقع فرويد بهذه العبارة فيما وقع فيه أجداده رجال العصور الوسطى .ولا تزال بعض القبائل الافريقية تؤمن بان المرأة إذا خطت فوق ساق رجل نائم فإنه يعجز جنسياً(١٦) أو أن الرجل الذي يلمس المرأة في فترة الحيض يسقط ميتاً. وتدل عبارة فرويد على أن الرجل يقترب من المرأة وهو يكرهها أصلاً، وعلى هذا فان خوفه من خصيها له قد يكون هو الدافع إلى أنه يسقط عليها كراهيته.

وقد أكد فرويد فكرة أن الغريزة الجنسية عند الرجل تحتوي في أصلها على الكراهية، هذه الكراهية التي يوجهها الرجل إلى الرجل الآخر الذي ينافسه في المرأة. ويتضح ذلك من كلمات فرويد الشهيرة: «ان الحاجة الجنسية لا توحد الرجال ولكنها تفرق بينهم» وهذه الكراهية أيضاً يوجهها إلى المرأة التي يقربها كما يرى فرويد في عبارته السابقة.

وقد رأى جوسين مولر وايرنست جونز أن البنت تشعر بالذنب ليس بسبب خوفها من الاخصاء ولكن بسبب خوفها من ألا تنجب أطفالاً، أو بمعنى آخر خوفها من أن يحدث تدمير لأحشائها الداخلية فتصبح غير قادرة على الحمل والولادة. لكن كارين هورني رأت أن خوف البنت هو خوف من الاغتصاب، وترغب في الانتقام من الرجل الذي يفض بكارتها، ويخيل اليها جسدها سوف يدمر، أو يغتال أو يمتص.

وقد أخذ فرويد فكرة أن جنس الرجال أعلى من جنس النساء على أنها شيء طبيعي، وأن من حق الرجل امتلاك المرأة، وقال في كتابه «التحريم والعذرية» أن أهمية أن تكون البنت عذراء حتى تتزوج ليس إلا نتيجة طبيعية لحق الرجل المطلق في امتلاك

المرأة، وهذا هو أساس فكرة الوحدانية في الزواج (monogamy) وهي ليست إلا امتداداً لهذا الاحتكار، احتكار الرجل للمرأة، منذ الماضي. وبرغم مناقشة فرويد لكثير من المحظورات والمحرمات الجنسية والفلسفية في عصره، إلا أنه لم يناقش فكرة امتلاك الرجل للمرأة كحق مطلق لجنس الذكور، وتركها دون مناقشة، بل لعله أكدها بنظريته السيكلوجية عن أن المرأة ناقصة عن الرجل جسداً ونفساً.

ولهذا نجد أن فكرة فرويد (وزملائه) لا تختلف كثيراً عن فكرة رجال العصور الوسطى عن المرأة. لقد ورث فرويد افكار أجداده عن النساء كما هي، وورث فلسفتهم اليهودية التي يصلي فيها الرجل كل صباح ويشكر الرب لأنه لم يخلقه امرأة. وبالرغم من إلحاد فرويد العقلي، إلا أنه ظل يهوديا في وجدانه وشعوره، وليس أدل على ذلك من النظرية النفسية التي وضعها عن المرأة، والتي لا تختلف كثيراً في مضمونها عن نظرة كهنة العصور الوسطى إلى الساحرات الشريرات أو الحكيمات الساحرات.

٧ ـ حياة المرأة الجنسية

معظم الناس يعرفون أن حياة الرجل الجنسية لا تبدأ ليلة الزفاف، وإنما قبل ذلك بكثير، ولكن معظم الناس يتصورون (أو يحاولون تصور) أن حياة المرأة الجنسية تبدأ فقط ليلة الزفاف. وهم بذلك يغمضون أعينهم عن حقائق كثيرة، ويتناسون طفولتهم (إذا كانوا آباء أو أمهات).

واني أتخيل هؤلاء الناس كالنعام الذي يضع رأسه في الرمال، متوهماً أنه في مأمن، وأن أحداً لا يراه، على حين ان بقية جسمه خارج الرمال ظاهرة وواضحة وضوح الشمس.

وقد أدرك هذه الحقيقة عدد من العلماء في بداية هذا القرن، وأجريت عدة بحوث علمية للتعرف على الحياة الجنسية للإنسان (ذكراً وأنثى) في جميع مراحل حياته، في الطفولة والمراهقة والشباب، والكهولة حتى الممات. ومن أهم البحوث العلمية في هذا الميدان بحوث كينزي التي ظهرت نتائجها في الخمسينات، وبحوث ماسترز وجونسون التي ظهرت نتائجها في الستينات، وأخيراً بحوث شيرفي، وجون ماني، وهامسون وبيتش وستولر وغيرهم. وقد أجمع هؤلاء العلماء على أن حياة الانسان الجنسية (ذكراً وأنثى) تبدأ منذ الولادة وتنتهي بالممات. وقد كان فرويد من أوائل العلماء الذين واجهوا العالم بحقيقة ان الاطفال لهم حياة جنسية، وانهم يشعرون باللذة الجنسية ويمارسونها بطريقتهم الطفولية الخاصة بهم، لكنه فسر بعض ملاحظاته عن الاطفال ذكوراً وإناثاً تفسيراً خاطئاً كما اتضح من البحوث العلمية الجديدة.

وقد اعتقد فرويد ان الجنين في نموه التكويني يمر بمراحل الازدواجية الجنسية، التي تنعكس على حياته النفسية بعد أن يولد. وانه نتيجة لهذه الازدواجية الجنسية التكوينية: «فإن الطفلة البنت تملك عضواً ذكرياً (البظر) والذي هو مصدر اثارتها

الجنسية خلال مرحلة الطفولة، ولهذا فهي تصادف صعابا للتخلص من الازدواجية الجنسية أكثر من الصعاب التي يواجهها الطفل الذكر الذي لا يملك عضواً انثوياً له مثل ذلك النشاط».

وقد اوضحت البحوث في البيولوجيا وعلم الغدد انه لا يوجد أي دليل علمي على هذه الازدواجية التكوينية في الجنين. بل على عكس ذلك أوضحت البحوث الجديدة ان الجنين في بداية تكوينه لا يكون مزدوج الجنس (او خنثى) ولكنه يكون انثى، وان اعضاء الجنين الأنثوية لا تتشكل لتصبح أعضاء ذكرية إلا بعد تأثر الهرمونات الجنينية الذكرية. وبهذه النتائج تنهار نظرية فرويد وزملائه عن أن النشاط الجنسي عند الانثى مصدره عضو ذكري تخلف فيها عن طريق الازدواجية الجنينية. كما اتضح ان نظرية فرويد عن ان شخصية الانثى تتشكل بسبب حسد عضو الذكر، وصراعها الأبدي من اجل الحصول عليه ليس لها أساس بيولوجي ايضاً.

ولقد اوضحت بحوث جون ماني[1] وهامبسون[2] ان شخصية الانسان تتحدد ذكراً أو انثى استناداً على الخبرات النفسية والاجتماعية التي تؤكد للانسان نوع جنسه، وذلك من محيط الأسرة والمجتمع الذي حوله. وقد ثبت أن الانسان يتأكد من نوع جنسه ذكراً أو أنثى حين يصبح في الثالثة من عمره. وبذلك أيضاً تنهار نظرية فرويد عن المرحلة «القضيبية» وما بعد المرحلة القضيبية، Phallic and Post Phalic Psychosexual Stages وان هاتين المرحلتين لا يمكن أن يلعبا الدور الرئيسي (كما فكر فرويد) في تحديد الانوثة أو الذكورة، وتنهار معها أسس نظرية التحليل النفسي عن سيكلوجية الأنثى والتي تقول: «انه في المرحلة القضيبية (أو البظرية عند الانثى) فانه من المستحيل للشخصية الانثوية أن تتحقق بيولوجيا، حيث أن «البظر» هنا هو أساس الاثارة والرغبة الجنسية.

وقد اثبتت البحوث الجديدة التي اجريت على الاطفال البنات والذكور عدداً من الحقائق الجديدة عن مرحلة الطفولة، كما انه بذلت ايضاً محاولات مع البحوث التي أجريت على الشباب وكبار السن من أجل تذكر فترة الطفولة وخيالاتها والتغلب على الظاهرة التي سميت في علم النفس «فقدان ذكريات الطفولة» (infantile amnesia)

وبالنسبة لحياة الاطفال البنات الجنسية فقد اتضح من بحوث كينزي[3] وماسترز وجونسون[4] أن الطفلة البنت (كالطفل الذكر) تعرف الجنس مبكراً جداً في حياتها،

وأحياناً قبل أن تصل الثالثة من عمرها، لكن البنت تنسى معظم الذكريات الجنسية عن الطفولة (وكذلك الولد) بسبب طبيعة هذه المداعبات الجنسية وتلقائيتها، وبسبب ان البنت تشعر انها يجب أن تخفي هذه الممارسات عن امها وعن أي فرد في الأسرة، وما ينتج عن ذلك من احساس بالذنب لدى البنت يصيبها بالعجز النفسي عن تذكر مثل هذه الذكريات الآثمة، وتنساها فعلاً، ولكن رغم تسيان الطفلة للتجربة أو التجارب التي مرت بها، فانها تكون قد حصلت على خبرة معينة قد تؤثر على سلوكها الجنسي فيما بعد.

وقد وجد كينزي ان ١٪ من النساء اللائي اجرى عليهن البحث (٨٠٠٠ امرأة) يتذكرن المداعبات الجنسية التي مارسنها مع الأطفال الذكور وهن في سن الثالثة من العمر، ٨٪ يتذكرن هذه الممارسات وهن في سن الخامسة من العمر، ١٨٪ يتذكرنها وهن في السابعة من العمر، ٣٠٪ يتذكرنا وهن في السن قبل البلوغ أو قبل المراهقة.

ويقارن الاطفال أعضاءهم التناسلية كما يقارنون اصابعهم وانوفهم، ويفعلون ذلك بتلقائية وطبيعية، لأن الاعضاء الجنسية مثلها مثل أي اعضاء اخرى في الجسم، لكن تحذير الكبار لهم وتخويفهم هو الذي يربكهم ويجعلهم اكثر رغبة للممارسة الخفية من وراء اعين الكبار. لكن الاحساس بالذنب يسود معظم هذه التجارب المبكرة، ويترك آثاراً نفسية ضارة بالبنت الصغيرة (الولد ايضاً) وتزداد الحالة سوءاً لو اكتشفها أحد الكبار، وعوقبت بالضرب مثلاً أو الاهانة. ان مثل هذا الاحساس بالذنب يجعلها لا تقبل العلاقة الجنسية حين تتزوج، وان قبلتها عن وعي فانها لا تقبلها عن غير وعي. أما إذا لم يظهر الكبار أي فزع عند اكتشافهم لمثل هذه الممارسات فان الطفلة لا تشعر بالذنب ولا يؤثر ذلك على تقبلها الجنس فيما بعد.

وتنقطع هذه الممارسات الجنسية الطفولية قبل المراهقة بقليل أو أثناءها حسب ضغوط الأسرة والمجتمع، ولولا هذه الضغوط الإجتماعية لاستمرت هذه الممارسات طبيعية وقد ظن فرويد وزملاؤه أن هذا الانقطاع فترة انكماش وسماها الفترة الكامنة (Latency).

أما العلماء الآخرون فيرون أن هذه الفترة هي فترة «عدم نشاط» تفرض على البنت بوسطة المجتمع وليست هي فترة كمون بيولوجي كما اعتقد فرويد. وقد وجدوا أن

معظم البنات يمارسن العادة السرية في هذه الفترة، وهذا يدل على أن النشاط موجود ولكنه مختفٍ ومكبوت.

وقد وجد ان نسبة غير قليلة من البنات الأطفال يتعرضن لاعتداءات جنسية مختلفة من الرجال الكبار وأن نسبة كبيرة منهن ينسين هذه الحوادث، خاصة إذا كان هذا الرجل المعتدي أحد أفراد الأسرة المحرمين مثل الأخ أو العم أو الخال أو الأب.

ووجد كينزي في بحثه أنه من بين ٤٤٤١ امرأة هناك ١٠٧٥ امرأة تذكر أنه حدث لها أثناء الطفولة اتصال جنسي بأحد الرجال الكبار أي بنسبة ٢٤٪ (٧٦٪ من النساء لم يذكرن هذا)، ووجد كينزي أن معظم هذه الحالات من الطبقات الفقيرة حيث الزحام في الحجرات وتلاصق الأجسام. وتقل هذه النسبة قليلاً عن النسبة التي نتجت عن البحث الذي قمت به على ١٨٠ إمرأة مصرية العام الماضي.

وقد صنف كينزي أنواع الرجال الكبار الذين مارسوا هذه الاعتداءات الجنسية على الأطفال البنات كالآتي:(*):

نوع الرجل الكبير	نسبة حوادث الاعتداءات على الاطفال البنات	
غرباء	٪٥٢	
معارف واصدقاء	٪٣٢	
الخال او العم	٪٩	٪٣٢
الاب	٪٤	
الأخ	٪٣	
الجد	٪٢	
أقارب آخرون	٪٥	

أي أن أفراد الأسرة والأقارب يمثلون ٢٣٪ أما هاميلتون (١٩٢٩) (Hamilton) فقد وجد ان هؤلاء يمثلون ٢٠٪، ولانديز (١٩٤٠) Lanxdıs etal وجد انها ٣٥٪، وباومان (١٩٥٢) (Bawman) وجد انه من ٤٩ حالة فإن ٧ فقط كانت من الغرباء، والباقي من أفراد الأسرة والأقارب.

وقد درس هؤلاء العلماء مشاعر الطفلة النفسية، في تلك الحالات ووجدوا أن هذه المشاعر كالآتي:

- اهتمام.
- استطلاع.
- سرور ولذة.
- شعور بالحرج.
- خوف أو فزع.
- شعور بالذنب أو الاثم.

وقد وجدوا ان اكتشاف الاسرة للحادث، أو البوليس، أو المدرسة، يسبب ذعراً للطفلة البنت أكثر من العمل الجنسي ذاته. وتكتم البنت في معظم الاحوال هذه الحوادث بسبب الشعور باللذة الذي قد يكون ضئيلاً جداً احياناً، ولكنه يكفي لأن يجعل البنت تشعر بالخوف والذنب. وفي معظم هذه الحالات لا تحدث اضرار جسمية للبنت، إلا في حالات نادرة جداً حين يحدث نزيف شديد، أو قطع في الانسجة، ولكن معظم الحالات تمر بغير اضرار جسمية، واحياناً يتمزق غشاء البكارة، وفي احيان اخرى لا يتمزق. ولا يعتبر هؤلاء العلماء تمزق الغشاء من الاضرار الجسمية، لأنه لا يضر بصحة الفتاة الجسمية، ولكنه قد يؤثر على حياتها النفسية فيما بعد إذا كانت تعيش في مجتمع يعتبر ان سلامة غشاء البكارة دليل على شرف الفتاة.

وتصل البنت إلى المراهقة جسدياً أسرع من الولد. ويرى العلماء أن هذه القدرة البيولوجية في الانثى على النمو والنضوج بأسرع من الذكر تتفق مع الحقائق البيولوجية الجديدة التي تقول ان الجنين يبدأ أنثى، وبذلك يكون تكوين الانثى البيولوجي اكثر متانة وكفاءة (لأنه الاصل) من تكوين الذكر ولهذا يكون نموه ونضوجه ابطأ من نموها.

وتتأخر مراهقة الولد عن مراهقة البنت سنة أو سنتين، كما أنها تمتد فترة اطول ٤ سنوات أو اكثر. وهكذا تنضج البنت جسدياً أسرع من الولد. لكن الضغوط الاجتماعية على البنت قد تعرقل نموها النفسي والجنسي وتعطله عن الولد.

وكان هناك اعتقاد بأن مراهقة البنت تبدأ بالحيض، وهذا غير صحيح لأن المراهقة تبدأ قبل ذلك. معظم البنات تبدأ عندهن بظهور شعر العانة، وقد يبدأ مبكراً في بعض البنات سن ٨ سنوات، وقد يتأخر حتى سن ١٨ سنة (المتوسط عند سن ١٢,٣).

نمو الثديين قد يصاحب شعر العانة وقد يسبقه، قد ينمو الثديان مبكراً عند سن ٨ سنوات، وقد يتأخر نموهما حتى سن ٢٥ سنة (المتوسط ١٢,٤). ويتوقف طول قامة البنات من ٩ سنوات إلى ٢٥ سنة (المتوسط ١٥,٨) ويبدأ الحيض من ٩ سنوات إلى ٢٥ سنة (المتوسط ١٣ سنة). والحيض قد يكون أول علامات المراهقة، وهو حادث مفاجيء، ويجب أن تعد له البنت من قبل، وإلا أصابها بصدمة نفسيةوفزع. وقد وجد كينزي ان ٩٠٪ من البنات يفاجأن بالحيض دون سابق معرفة، وان ٨٪ يعرفن عن الحيض من مصادر غير الام، وان ٢٪ فقط يعرفن من الأم. ويتفق هذا مع النتائج في البحوث الاخرى وايضاً البحث الذي اجريته (حيث يمر بك في هذا الكتاب) ويدل على تلك العلاقة الصامتة بين الامهات وبناتهن والآثار النفسية السيئة لاخفاء الامهات لابسط حقائق الحياة عن بناتهن.

وقد يفرز المبيضان البيض الناضج قبل ظهور الحيض، وهناك حالات حمل حدثت قبل ظهور الحيض بسبب افراز البيض الناضج. لكن في معظم البنات لا يفرز البيض الناضج إلا بعد ظهور الحيض بعدة سنوات، وتسمى هذه الفترة بعقم المراهقة (adolescent sterility) وهو ليس عقما كاملاً، لأنه احيانا تفرز بيضة ناضجة من حين إلى حين. لكن إفراز البيض الناضج شهرياً بصفة منتظمة لا يحدث عند الفتاة إلا في سن من ١٦ ـ ١٨ سنة.

وقد وجد أن اكتساب الفتاة لأية كفاءة في الاستجابة الجنسية تتوقف على نوع الخبرة الجنسية التي خبرتها في الطفولة والمراهقة وعلى العوامل الاجتماعية التي تؤثر عليها نفسياً وتجعلها تكبت رغباتها.

وقد وجد كينزي أن العادة السرية هي أكثر الأنشطة الجنسية التي تسبب الأورجازم (قمة اللذة) للمرأة وأن ٩٥٪ من النساء يصلن إلى الاورجازم من خلال العادة السرية. ووجد دافيز ١٩٢٩ (Davis) أن هذه النسبة ٨٨٪.

أما في الزواج فقد وجد أن كثيراً من النساء يفشلن في الوصول إلى الاورجازم، وذلك بسبب محاولة الزوجة إخفاء كثير من الحقائق عن زوجها، وإخفاء رغباتها، ومحاولة التكيف مع رغباته هو. أما في العادة السرية فهي تعرف كيف تتصرف مع جسدها دون أن تخشى شيئاً.

وقد وجد كينزي أن ٥٨٪ من النساء يمارسن العادة السرية في أي مرحلة من

مراحل عمرهن. ووجد أن ممارسة العادة السرية تزداد بين النساء كبار السن، بسبب خبرتهن الجنسية، وبسبب عدم إقبال الرجال عليهن في هذه السن. وقد وجد أن ٣٦٪ من النساء لم يعرفن الاورجازم من أي نوع قبل الزواج، وإن عدم معرفة الاورجازم قبل الزواج تسبب تأخر المرأة في الاستجابة الجنسية ثلاثة أضعاف عن استجابة النساء اللائي عرفن الاورجازم قبل الزواج. ووجد أن ٥٠٪ فقط من النساء من يعرفن الاورجازم بصفة منتظمة قبل الزواج.

وقد اعتقد خطأ أن الذكور فقط هم الذين يمارسون الأحلام الجنسية (الاحتلام)، وقد وجد أن الأحلام الجنسية تمارس في كلا الجنسين، وتسبب الاورجازم والقذف في كلا الجنسين. وقد تكونت فكرة خاطئة من أن الاحتلام في الذكور يحدث بسبب تجمع السائل المنوي في الخصيتين، وأنه حين تمتلىء الخصيتان فإن السائل يسبب ضغطاً، وهذا بدوره يقود إلى الاورجازم ثم القذف أثناء النوم.

وقد أثبت التشريح والفسيولوجيا خطأ هذه الفكرة. فإن السائل المنوي يتكون من إفرازات غدة البروتستاتا والحويصلتين المنويتين، ويضاف إليه شيء صغير جداً (ميكروسكوبي) من الحيوانات المنوية من الخصيتين. وليس هناك ما يوضح الضغط في البروتستاتا أو الحويصلتين المنويتين أو أي غدة أخرى يؤثر على المراكز السفلى للنخاع الشوكي، وهي المراكز التي تصنع الإستجابة الجنسية. ثم إن النساء يمارسن الأحلام الجنسية إلى حد الاورجازم دون أن يكون لهنّ خصيتان أو بروتستاتا أو حويصلتان منوية. وهذا كله يعطي دليلاً على أن الضغط داخل الغدد لا دخل له في القذف الليلي عند الذكر.

وقد اعتقد خطأ أيضاً أن الاحلام الجنسية عند المرأة ليست إلا تعبيراً عن حالة عصابية مريضة[٦] (Neurotic) وأن المرأة السليمة نفسياً لا تمارس الأحلام الجنسية حتى الاورجازم. وقد اعتقد ذلك لأن العلماء كانوا يجهلون الكثير عن حياة المرأة الجنسية، ويتصورون أن نسبة قليلة منهن تمارس هذه الأحلام. ومن المعروف في الطب النفسي أن أي ظاهرة غير معروفة لدى الأطباء فإنهم سرعان ما يفسرونها على أنها بسبب المرض والعصاب. ولكن حين اتضح أن حوالي ٧٠٪ من النساء يمارسن الأحلام الجنسية لم يعد في إمكان هؤلاء الاطباء اعتبار أن ٧٠٪ من النساء مصابات بالعصاب.

ولم يعرف علمياً حتى الآن مبعث هذه الاحلام الجنسية في الانسان (ذكراً أو

أنثى)، لأنه لم يعرف مبعثها في الحيوانات الثديية، وقد وجد ان بعض الحيوانات الثديية (ذكوراً وأناثاً) تمارس الاحلام الجنسية. ولوحظ انتصاب عند الكلب وهو نائم، والقطط تقذف وهي نائمة، ومهبل الكلبة يتورم وهي نائمة ويفرز (ابحاث فورد وبيتش ١٩٥١ Ford and Beach) ولكن وجد أنه من الصعب معرفة هذه الأحلام في حيوان لا يفصح عنها، ولا شك أن الابحاث في المستقبل ستوضح مبعث هذه الاحلام في فصائل أخرى من الثدييات، وكذلك في الانسان.

وقد وجد ان الاحلام الجنسية تزيد عند المرأة كلما كبرت في السن حتى سن ٤٥ سنة أو إذا حرمت من عقار ادمنت عليه (كالأدوية المهدئة أو المنومة). ولكن النساء بصفة عامة يمارسن الاحلام الجنسية أقل من الرجال (٨٠٪ من الرجال يمارسون الاحلام الجنسية)، وقد يرجع ذلك إلى الضغوط الاجتماعية النفسية التي تزيد على النساء والتي قد تعطل مختلف الانشطة الجنسية عندهن ومنها العادة السرية والأحلام الجنسية.

وقد وجد أن الاحلام الجنسية عند الرجال تكون أكثر ما تكون في سن ٢٠ سنة، ولكن عند النساء في سن ٤٥ ـ ٥٠ سنة (معظمهن متزوجات أو سبق لهن الزواج، الاقلية لم يتزوجن) وقد تصل المرأة سن السبعين، وتمارس الأحلام الجنسية.

وفسر ذلك على ان الزواج أو الممارسة الجنسية المنتظمة تنشط المرأة جنسياً وتزداد كفايتها بازدياد الممارسة. وقد وجد أن الأحلام الجنسية تزداد ايضاً حين يغيب الزوج، أو في حالة المسجونات. لكن وجد ان الأحلام ليست تعويضاً عن حرمان فحسب، ولكنها تنشط مع أي نشاط جنسي آخر كالعادة السرية أو ممارسة الجنس مع الزوج. وقد يكون الحلم إعادة للاورجازم الذي حدث في الليلة نفسها مع الزوج.

ووجد فرويد أن ٢٥٪ من النساء يحصلن على الاورجازم من العادة السرية والاحلام الجنسية، وان البقية وهي ٧٥٪ تحصل على الاورجازم عن طريق الاتصال الجنسي السطحي مع الذكور قبل الزواج، وعن طريق العلاقات الجنسية مع الزوج خلال الزواج، وعن طريق العلاقة الجنسية مع نفس الجنس (النساء مع النساء).

وقد لاحظ العلماء أن الاتصال الجنسي السطحي أو المداعبات الجنسية ليست صفة في الانسان وحده، ولكن بعض فصائل الثدييات تمارس المداعبات الجنسية، وفي بعض الفصائل تستمر هذه المداعبات الجنسية ساعات طويلة، وأحياناً أياما دون

الاتصال الجنسي الكامل، لدرجة أن بعض الباحثين كانوا ينتظرون أياماً وهم يراقبون هذه المداعبات وفي النهاية تحدث العملية الجنسية.

هذه الفصائل هي البقر، الخيول، الخراف، القطط، الأسد، اللبؤة، الكلاب، الارانب، الفئران، القرود الشمبانزي، وغيرها. وتتم المداعبات في الحيوانات عن طريق اللسان والشم والقفز والقبل وملامسة الاعضاء الجنسية. وتستخدم الحيوانات اللسان والأنف في هذه المداعبات أكثر من الانسان، الذي يستخدم يده أكثر بسبب تطور يده عن الحيوانات.

وفي بعض الفصائل الحيوانية تكون الإناث اكثر ايجابية من الذكور في هذه المداعبات وخاصة في فترة الحرارة (estrus)، وهي التي تبدأ، وقد تكون عدوانية كما هو الحال في بعض النساء، ولكن الذكر هو الذي يبدأ في فترة عدم الحرارة، إذ عادة تكون الانثى هادئة وغير مثارة جنسيا كالذكر.

والمداعبات الجنسية في الانسان طبيعية، ولكن بعض الناس يتصورون أنها غير طبيعية، وأن العملية الجنسية المعروفة بين الرجل والمرأة هي الشكل الطبيعي الوحيد للممارسة الجنسية، لأنها التي تسبب الحمل والإنجاب، أما الممارسة الجنسية التي لا تسبب الحمل والإنجاب فينظر اليها من بعض الناس على أنها غير طبيعية. وهذه النظرة خاطئة للنشاط الجنسي في الانسان. ان المداعبات الجنسية نشاط جنسي طبيعي في جميع الثدييات ومنها الانسان. وان كبت الرغبة في ممارسة هذه المداعبات هو الشيء غير الطبيعي.

ويظن بعض الناس أن هذه المداعبات بدعة من هذه الطبقات المثقفة التي تبحث عن تنوع النشاط الجنسي، وعن وسائل متنوعة للذة الجنسية، ولكن الذي يلاحظ حياة الحيوانات والثدييات يدرك أن هذه المداعبات الجنسية ليست بدعة الانسان المثقف أو المتحرر، وإنما هي طبيعة الحيوانات والانسان. وقد يكبتها الانسان أحياناً حين لا يجد الوقت أو الوعي أو القدرة على تحطيم المحظورات التقليدية حول الجنس. وقد وجد كينزي أن ٤٠٪ من النساء في البحث الذي أجراه مارسن المداعبات الجنسية قبل وصولهن سن ١٥ سنة، وأن ٧٠ ـ ٩٥٪ مارسنها بوصولهن سن ١٨ سنة. ووجد أن ١٠٠٪ من النساء المتزوجات لهن تجارب في المداعبات الجنسية قبل الزواج، وأن ٣٩٪ فقط يصلن إلى الاورجازم عن طريق هذه المداعبات.

والقبلات نوع من انواع المداعبات الجنسية، وقد تكون قبلات بسيطة أو قبلات عميقة. القبلات البسيطة قد تثير المرأة جنسياً وقد لا تثيرها. ولكن القبلات العميقة لها تأثير قوي، لأن الشفتين واللسان وداخل الفم كلها غنية بالاعصاب، وقد تصل المرأة احيانا إلى الاورجازم من مثل هذه القبلات وحدها دون أي اتصال جنسي آخر. وبعض النساء يرفضن القبلات بسبب تربية معينة ولكنهن يوافقن على مداعبات أخرى. وقد تفقد المرأة عقدها النفسية بالتدريج بعد استمتاعها بالقبلات. والثدي من المناطق الحساسة في المرأة، ولكن هناك بعض العقد النفسية الخاصة بالثدي لأنه مصدر ارضاع الطفل، وقد ظل المجتمع الصيني لعدة قرون يعتبر ثدي المرأة بغير جاذبية جنسية بل منفرا، بسبب المحظورات على الجنس، ولان الثدي يرضع الطفل.

ومن المفاهيم الشائعة الخاطئة ان الرجل وحده هو الذي يشعر بضيق وألم إذا أثير جنسياً ولم يصل إلى النهاية أو القذف، ولكن اتضح أن المرأة ايضاً تشعر بضيق وألم اذا لم تصل إلى الاورجازم، وهذا له سبب فسيولوجي كما في حال الرجل تماماً، وله سبب نفسي أيضاً. وبعض النساء يمارسن العادة السرية للتخلص من الألم أو التوتر. ان الإثارة الجنسية غير المكتملة تسبب نوعاً من التوتر «العصبي العضلي». وإذا لم يحدث الاورجازم فإن هذا التوتر يبقى فترة طويلة قد تصل إلى ساعات قبل أن يضيع. ولكن الأورجازم يضيع هذا التوتر في ثوان أو دقيقتين. وتشعر المرأة كالرجل بالراحة الكاملة ما لم يكن هناك شعور بالذنب أو الإثم أو الندم أو الخوف من الحمل.

وقد وجد كينزي[٧] (١٩٥٣)، وديل (١٩٣٠)، وتيرمان (١٩٣٨)، وليفي ومونرو (١٩٣٨)، وسكوير (١٩٣٨) ولانديز (١٩٤٠) وبول لانديز (١٩٤٥)، وماكاندرو (١٩٤٦)، وبراون وكيمتون (١٩٥٠) وتبرمان (١٩٥١)، وجد كل هؤلاء العلماء في بحوثهم أن المداعبات الجنسية لكلا الجنسين تمهد لحياة جنسية أكثر نضوجاً في الزواج، وتساعد النساء بعد الزواج على الوصول إلى الاورجازم. وقد وجد كينزي ان ٤٤٪ من الزوجات اللائي لم يعرفن الاورجازم على الإطلاق قبل الزواج فشلن في الوصول إلى الاورجازم فشلاً تامًا في السنة الأولى للزواج. على حين أن ١٣٪ فقط من الزوجات اللائي عرفن الاورجازم من قبل فشلن في الوصول إليه في السنة الأولى من الزواج (كينزي ١٩٥٣ ص ٢٦٥).

وقد وجد كينزي أن ٦٤٪ من النساء خبرن الاورجازم قبل الزواج عن طريق مختلف الأنشطة الجنسية ابتداء من العادة السرية إلى الأحلام إلى المداعبات السطحية مع

الجنس الآخر أو الجنس نفسه إلى العملية الجنسية ذاتها. لكن العملية الجنسية لم تمثل إلا ١٧٪ فقط من الأسباب التي تسبب الاورجازم قبل الزواج.

وتباح العملية الجنسية بين الجنسين في عدد من المجتمعات قبل الزواج. وهناك مجتمعات تبيحها للرجال فقط ولا تباح للنساء. ولذلك يضطر هؤلاء الرجال إلى ممارستها مع المومسات أو مع الخادمات ونساء الطبقة الأدنى. وقد أباحت بلاد أوروبا وأمريكا جميعاً العلاقة الجنسية للرجال والنساء بعد انهيار الأخلاقيات المسيحية، وكانت السويد والبلاد الإسكندنافية في مقدمة هذه البلاد.

وفي بحث كينزي وجد أن ٥٠٪ من النساء الأمريكيات مارسن العلاقة الجنسية الكاملة مع الجنس الآخر قبل الزواج. وان ثلثين فقط حصلن على الاورجازم. ووجد أن ٨٧٪ من هؤلاء النساء تزوجن الرجل الذي مارسن معه الجنس قبل الزواج. ووجد أن ٥٣٪ من النساء مارسن الجنس قبل الزواج مع رجل واحد فقط، وأن ٣٤٪ مارسن مع ٢ ـ ٥ رجال، وأن ١٣٪ مارسن مع ٦ رجال فأكثر. وقد وجد أن ٤٥٪ من الزوجات الأمريكيات يمارسن الجنس في الوضع الأعلى للزوج، والباقيات ٥٥٪ يمارسنه في الوضع الأسفل الشائع.

وقد وجد أن ٦٩٪ من النساء اللائي مارسن الجنس قبل الزواج لم يشعرن بالندم على ذلك، والباقيات ٣١٪ شعرن بالندم. كما وجد أن ٤٠٪ من الرجال الأمريكيين يفضلون العذراء في الزواج، وأن ٣٢٪ من النساء يفضلن الرجل البكر أيضاً (لم يسبق له ممارسة الجنس).

ويقول معظم علماء الجنس ان الطريقة المتحفظة والقيود الصارمة على بنات الأسر المتوسطة والعالية تدفع الرجل إلى أن يعرف أكثر طرق المومسات في الجنس وطريقتهن عن أن يعرف طريقة الفتاة التي سيتزوجها. كما أن هذه التربية نفسها تجعل الأزواج يشعرون باحترام لزوجاتهم كأمهاتهم وأخواتهم، وبالتالي لا يشعرون بلذة جنسية معهن، وبعد الزواج يظل عدد كبير من الأزواج يسعون إلى ممارسة الجنس مع المومسات من أجل الحصول على المتعة الجنسية التي تعودوا عليها.

أما البنت فان القيود الصارمة التي تفرض عليها، والحرمان الطويل الذي تعيشه، يجعلانها بعد الزواج عاجزة عن التخلص من عقدها النفسية والجسدية. ولا يمكن ان نتصور ان الفتاة يمكن بطريقة سحرية (لسبب ما سحري في حفل الزواج) ان تتخلص

فجأة من عقدها. وتوضح نتائج البحوث ان معظم النساء ومعظم الرجال أيضا، يجدون صعوبة بعد الزواج في استعادة طبيعتهم الحرة التي كانوا عليها في الطفولة، ويصعب عليهم ان يستجيبوا للرغبة واللذة بدون القيود الجسدية والنفسية التي فرضت عليهم وفرضوها على أنفسهم.

ان الوصول إلى الاورجازم قدرة جنسدية ونفسية تحتاج إلى ممارسة وخبرة، ودليل ذلك أن المرأة المتزوجة لا تصل إلى الاورجازم إلا بعد عدة سنوات من الزواج قد تصل إلى ٢٨ سنة، وقد وجد كينزي ان ٧٥٪ من النساء اللائي خبرن الجنس إلى الاورجازم قبل الزواج وصلن إلى الاورجازم في السنة الأولى للزواج.

ووجد أيضاً أنه في السنة الأولى للزواج يـرغب الرجـل في الجنس اكثر من المـرأة، وبمرور السنين تتغلب الزوجة على عقدها وحين تصبح قادرة على الجنس وراغبة فيه، (ويكون ذلك عند ٤٠ ـ ٥٠ سنة من عمرها) تكون قدرة زوجها الجنسية قد انخفضت (الزوج غالباً يكبر زوجته بعدة اعوام) ويكون الزوج أيضاً قد تعود منها عدم الاستجابة الكافية أو الرفض. ولهذا تلجأ بعض هؤلاء الزوجات الكبيرات السن الى الشباب من أجل الاشباع الجنسي الذي فقدته في سنوات شبابها.

ومن الأفكار الشائعة الخاطئة ان الوضع الطبيعي الوحيد للمرأة في الجنس هو الوضع الأسفل، والرجل أعلى، ولكن بعض علماء الجنس يرون أن وضع المرأة أعلى وضع أكثر طبيعية ويسهل عليها الوصول إلى الاورجازم. وكذلك الرجل، بسبب سهولة التلامس الكلي للأعضاء، كما أن هذا الوضع يساعد المرأة على الحركة والايجابية أكثر من الوضع الأسفل. وقد وجد أن في السنين الاولى للزواج تتغير الاوضاع ويتبادل الزوجان ثم يستقران في النهاية على الاوضاع التي تعطيهما اللذة القصوى.

وتـدل معظم البحوث أن كثيراً من الزوجات لا يصلن إلى الاورجازم، ولكنهن يشعرن بالرضا حين يرضى الرجل، ويستمر الزواج ناجحاً رغم ذلك، لأن المرأة تعودت على التضحية بنفسها ورغباتها من أجل الرجل، لكن ذلك ينعكس على صحتها النفسية فيما بعد. وقد وجد أن المداعبات الجنسية قبل العملية الجنسية ذاتها تساعد الزوجة على الحصول على الاورجازم، وتستمر هذه المداعبات عادة من ٤ دقائق إلى ٢٠ دقيقة، واحياناً إلى ٣٠ دقيقة، وخاصة بين المثقفين المتحررين من العقد، ولكن هناك بعض الازواج والزوجات يكرهون هذه المداعبات ويتصورون أنها نوع من الانحراف

أو الفسق. وتتصور بعض الزوجات أن خلع ملابسهن كلها أثناء الجنس نوع من الحرام أو العيب. وبعض الزوجات لا يستطعن ممارسة الجنس إلا في الظلام التام بسبب الخجل والحرج، والشعور بالذنب. ومعظم الزوجات مصابات بالبرود الجنسي بدرجات متفاوتة حسب التربية في الطفولة والمراهقة وفي الحالات التي تصل فيها الزوجة إلى الاورجازم فانها تكون عادة أبطأ من زوجها في الوصول، وذلك بسبب الكبت الذي تعانيه أكثر من زوجها. ووجد أن في الزوجات غير المكبوتات فإن المرأة قادرة على الوصول إلى الاورجازم عدة مرات (من ٤ إلى ٢٠ مرة) في الوقت الذي يقذف فيه زوجها مرة واحدة فقط.

ووجد العلماء أن الاستجابة الجنسية تعتمد على ثلاثة عوامل:

١ ـ نوع المؤثر وقوته.
٢ ـ القدرة الجسمية والنفسية.
٣ ـ نوع التجربة السابقة والقيود الاجتماعية السابقة.

وقد وجد أن أهم العوامل هي نوع التجارب السابقة ثم نوع الرجل الذي مع المرأة ثم القدرة الجسمية من حيث الجهاز العصبي والعضلي والدوري وغير ذلك من النواحي الفسيولوجية والبيولوجية التي قد تساعد المرأة أكثر على الوصول إلى الاورجازم.

وقد وجد كينزي أن ٢٤٪ من الزوجات الامريكيات يمارسن الجنس خارج الزواج من أجل الحصول على الاورجازم وتختلف قدرات النساء على الوصول إلى الاورجازم، وهناك بيانات عن اطفال بنات سن ٤ شهور وصلن إلى الاورجازم، وهناك نساء لم يصلن إلى الاورجازم حتى سن ٥٠ سنة ثم وصلن بعد ذلك، وهناك نساء وصلن الاورجازم مرة واحدة أو مرتين في كل حياتهن، وهناك نساء يصلن عدة مرات في كل اتصال جنسي، وقد وجد أن المرأة حتى سن ٩٠ سنة تستجيب للجنس وتصل إلى الاورجازم، لكن الكبت والضغوط تجعل معظم النساء لا يعرفن الاورجازم إلا نادراً. (والاطفال الذكور يصلون إلى الاورجازم ولكن دون قذف، لأن غدة البروتستاتا لا تكون قد أفرزت بعد.

ومن المعروف علمياً أن تجويف المهبل عند المرأة (كتجويف الامعاء الغليظة) فقير جداً في الاعصاب الحساسة للمس، بعكس البظر والشفرتين الداخليتين. وقد أخطأ بعض علماء النفس حين ابتدعوا ذلك الاصطلاح وهو الاورجازم المهبلي، وهو

الاورجازم الذي تشعر به المرأة فقط حين يكون العضو الذكري داخل المهبل واعتبروه اورجازم المرأة الناضجة. وقد أدرك فرويد أن البظر حساس في البنت. والمهبل غير حساس عندها ولكنه قال: إن نضوج المرأة الجنسي معناه انتقال الاحساس من البظر إلى المهبل، ونمو الاحساس في المهبل. لكن ليس هناك في علم التشريح ما يثبت صحة ذلك التحول في الاحساس، والاعصاب لا تنمو في المهبل حين تكبر البنت، ومن المستحيل أن تنزرع أعصاب جديدة فجائية في البنت بمجرد أن تصبح زوجة أو امرأة.

(وقد كتب فرويد سنة **١٩٣٣** ص ١٦١): «إن البظر عند البنت (في المرحلة البظرية) يسيطر على المنطقة الحساسة، لكنه لا يستمر كذلك، فانه بالتحول نحو الانوثة فإن البظر يعطي للمهبل حساسيته».

وحيث أن هذا التحول مستحيل عضويا، وليس له أي دليل تشريحي عن انتقال الأعصاب من البظر إلى المهبل، فإن التبرير الوحيد الغامض الذي ساقه فرويد هو أن هذا التحول يحدث نفسياً. ولكن السؤال الآن: كيف يصبح عضو بدون أعصاب حساساً نفسياً؟!

وفي نظرية التحليل النفسي بقيادة فرويد فإن المرأة التي لا يحدث لها تلك الاعجوبة النفسية (التي بغير أساس تشريحي أو فسيولوجي) فإنها تصبح امرأة مصابة بالبرود الجنسي.

(ويكتب فرويد **١٩٣٥** ص ٢٧٨): «في هؤلاء النساء الباردات جنسياً فان البظر يعاند ويحتفظ بحساسيته». ويكتب آخرون[٨] يقولون: «البرود الجنسي معناه أن المرأة تعجز عن الحصول على الاورجازم المهبلي». ويكتب ابراهام[٩] يقول: «في حالة البرود الجنسي فإن البظر يظل مبعث الإحساس الجنسي، أما المهبل فليس كذلك».

وقد ثبت خطأ هذه الفكرة من أساسها، لأنه في الاورجازم تتدخل أجزاء متعددة من الجهاز العصبي وجميع اعضاء الجسم التي يتحكم فيها الجهاز العصبي. وفي بعض النساء تكون الانقباضات العضلية المصاحبة للاورجازم عنيفة وفي جميع أجزاء الجسم وتستمر مدة طويلة، وفي بعض النساء تكون أقل قوة وقصر مدة. وفي هؤلاء النساء اللائي يحدث لهن الانقباضات في كل الجسم فإن انقباضات المهبل تكون قوية أيضاً. والآخريات اللائي يحدث لهن انقباضات ضعيفة تكون انقباضات المهبل

ضعيفة وهذا كله لا علاقة له بالنضوج. ليس هناك ما يثبت علمياً أن المهبل يستجيب وحده كعضو منفصل عن بقية اعضاء الجسم. اما أن تشعر المرأة أو الرجل بالرضا النفسي اكثر حين تشتد انقباضات المهبل فهذا شيء نفسي بحت ولا علاقة له بما يحدث في الجسم حقيقة وكم ضاع وقت أطباء النفس من أجل علاج النساء المصابات بالبرود الجنسي لكي يحولوا الاستجابة البظرية إلى استجابة مهبلية دون جدوى، وكم اضطربت النساء نفسياً وعصبياً لعجزهن عن تحقيق هذه الاعجوبة المستحيلة بيولوجياً وتشريحياً وفيسيولوجياً.

ومن الاخطاء الشائعة أيضاً أن ثدي المرأة وحدها هو الحساس للمس والإثارة الجنسية[10] ولكن عدداً من العلماء وجدوا أن ثدي الرجل أيضاً حساس للمس والاثارة الجنسية، ولكن بسبب المحظورات الاجتماعية على ايجابية المرأة في الجنس ولصغر حجم ثدي الرجل، فلم يُعرف أنه حساس للمس إلا في بعض حالات الاتصال الجنسي بين الرجل والرجل. وهذا ليس بسبب اختلاف أحاسيس هؤلاء الرجال عن الآخرين من الرجال الذين يفضلون الجنس مع المرأة، ولكنه بسبب أن قليلاً من النساء من يحاولن لمس ثدي الرجل أو اثارته، ولكن هذه الإثارة تحدث من زميله الرجل اكثر من المرأة ويعرف أن الثدي عند الرجل حساس أيضاً.

وقد وجد العلماء أيضاً أنه بسبب المحظورات الاجتماعية على لذة المرأة الجنسية، ولصغر حجم البظر عند المرأة، فلم يعرف الرجال أنه أشد حساسية من المهبل، لكنه وجد أن النساء اللاتي يمارسن الجنس مع النساء يركزن على البظر، وليس ذلك بسبب اختلاف أحاسيس هؤلاء النساء عن الأخريات اللائي يفضلن الجنس مع الرجل، ولكن سببه ان القليل من الرجال من يفهم أهمية البظر وأهمية اثارته، لكن هذه الاثارة البظرية تحدث من زميلتها المرأة التي تفهم جسم المرأة أكثر مما يفهم الرجل. وكذلك تحدث الاثارة البظرية في العادة السرية عند المرأة لأنها تفهم جسمها.

وبمقارنة الرجال والنساء توصل علماء الجنس إلى النتائج الآتية:

١ ـ في الجنسين بالتساوي تلعب نهايات الأعصاب في الجسم الدور الأساسي في الاثارة الجنسية، وهي موجودة وموزعة في اعضاء الجسم عند الذكر والانثى بالتساوي، ولهذا ليس هنا ما يثبت أن هناك فروقاً بين حساسية جسم المرأة والرجل للجنس في جميع اعضاء الجسم المتشابهة والمناطق المتشابهة.

٢ ـ أعضاء المرأة والرجل الجنسية أصلها التشريحي واحد ولها نفس الوظائف والاحاسيس تقريباً. ان عضو الذكر (رغم كبر حجمه) لم يعرف عنه علمياً انه أكثر ثراء بنهايات الأعصاب من البظر الأصغر حجماً. وهما على نفس الأهمية من الحساسية للإثارة الجنسية. لكن كبر حجم العضو عند الذكر قد يكون له تأثير نفسي، وأيضاً قد يتلقى تأثيرات مباشرة (أكثر من البظر) بسبب بروزه خارج الجسم.

٣ ـ الشفرتان الداخليتان وفتحة المهبل مناطق حساسة في المرأة لا يقابلها مناطق مثلها عند الرجل. وهذا يزيد من حساسية المرأة ويعوضها عن كبر عضو الرجل.

٤ ـ ان كبر حجم عضو الرجل ووجود تجويف للمهبل عوامل قد تساعد على تحديد دور كل جنس أثناء العملية: المرأة قد تجد راحة نفسية في تلقي عضو الرجل داخل المهبل، والرجل يشعر براحة نفسية من قدرته على ذلك. ولكن هذا لا يفسر ايجابية أو عدوانية الرجل وسلبية المرأة، فلا يوجد في الفروق التشريحية والفسيولوجية للذكر والانثى ما يجعل الذكر أكثر عدوانية من الأنثى أثناء الجنس. ان هذه العدوانية اجتماعية وثقافية ونفسية وليس لها أي أسباب داخل جسم الإنسان، وليس هناك ما يثبتها علمياً في التشريح أو الفسيولوجيا أو البيولوجيا.

٥ ـ مهبل المرأة ليس له مقابل عند الرجل، ولكن أهميته قليلة جداً في الجنس. انه قد يثير الرجل ولكنه لا يلعب دوراً في إثارة المرأة.

٦ ـ مناطق الجسم المختلفة في الرجل والمرأة متساوية الحساسية وتغذيها الاعصاب نفسها عدداً وكمية. والثدي ايضاً متساوي الحساسية في الجنسين، ولا توجد فروق في الاحاسيس السطحية أو العميقة لأي عضو أو منطقة في جسم المرأة تختلف عن جسم الرجل.

٧ ـ ليس هناك ما يثبت وجود فروق في استجابات الرجل أو المرأة تجاه البصر أو الشم أو السمع أو التذوق.

٨ ـ لا توجد فروق بين الرجل والمرأة تشريحياً وفي الوظائف الأساسية للجنس.

٩ ـ الرحم عند المرأة ليس له مقابل عند الرجل، وليس له أهمية في الجنس كالمهبل، ولكنه العضو الذي ينمو فيه الجنين حتى الولادة.

وقد وجد أن القيم الاجتماعية الصارمة والخوف من عقاب المجتمع يفعل عند الانسان ما يفعله الألم العضوي عند الحيوان فتبتعد المرأة عن الرجل خوفاً من المجتمع مثل ما يبتعد الحيوان عن شعلة من النار أو فخ مؤلم. ان معظم الاستجابات العكسية استجابات تعلمها الحيوان والانسان من خبراته السابقة، وهي لا تمثل الاستجابات الطبيعية.

ان ابتعاد المرأة عن الرجل أو البرود الجنسي أو عدم صحة العلاقة بين الازواج والزوجات ليست إلا نتيجة التشويه الاجتماعي للاستجابات الطبيعية في كلا الجنسين. ان الجنس في الانسان إنساني، من أجل الحب واللذة والسعادة والانسانية، وليس من أجل التناسل فحسب. لكن التربية الخاطئة والتعليم الخاطىء يسبب ما سمي في الفسيولوجيا وعلم النفس بالارتباط الشرطي، (Gonditioning).

ان من خصائص المادة الحية انها تتكيف وتكيف نفسها حسب التجربة والخبرة السابقة في جميع مراحل العمر منذ الولادة حتى الممات. وقد ركز «فرويد» على خبرة الطفولة لكنه ثبت ان خبرة المراحل الأخرى كالمراهقة والشباب لا تقل اهمية عن خبرة الطفولة.

ولا شك ان الانسان أكثر قدرة على التعلم والتكيف من الثدييات الأخرى بسبب تطور فص المخ الامامي عند الانسان. ان الانسان أو الحيوان لا يتعلم وظائفه الفسيولوجية ولكنه يولد بها، ولكن عملية التعلم هي التي تشكل العلاقات الجنسية بين البشر.

وعملية التعلم تتكون من:

التجربة السابقة، مشاركة الآخرين عند سماع تجاربهم ـ العقاب أو اللذة الناتجة، نظرة المجتمع، الأشياء المصاحبة للتجارب الجنسية، الاصوات، الروائح، الأشكال، حركات معينة، كل ذلك قد تصبح أقوى من المؤثر الجنسي المباشر.

ومن هنا خطر التعليم الخاطىء وخطر التجارب السيئة السابقة وخطر التخويف والعقاب، وخطر تعليم الأطفال الكذب واخفاء الحقائق وخطر تعويد الشباب على التلصص وسرقة اللذة الجنسية، ثم الوقوع بعد ذلك فريسة العذاب النفسي والاحساس بالذنب خاصة عند البنات والنساء اللائي يفرض المجتمع عليهن قيوداً لا يفرضها على الرجال.

٨ ـ هل المرأة تعشق التعذيب

برغم تلك المكـانة الرفيعة والسيادة الاجتماعية والجنسية التي كانت تتمتع بها المـرأة البدائية، إلا أن الحضارة الذكورية صورت لنا العكس دائماً، وانطبعت في أذهاننا تلك الصورة عن الرجل البدائي العنيف الذي يشد المرأة من شعرها الى داخل الكهف ثم يغتصبهـا. وقـد امتـلأت الثقافة الذكورية بصور متعددة ومتنوعة من هذا الاغتصاب، وانتشرت في الأدب والفن وأجهزة الاعلام والافلام والصور الملونة إلى حد أن جعلوا الاغتصاب حلماً يراود الفتاة المراهقة في أحلامها، ويصبح هو واللذة الجنسية جزءاً يأبى الأنفصال.

وقد حاول «فرويد» ومعظم زملائه من أعضاء نظرية التحليل النفسي أن يبحثوا عن سبب هذه الظاهرة في الفروق التشريحية بين أعضاء المرأة والرجل، وخرجوا بالنظرية التي تقول أن المرأة بطبيعتها الانثوية تعشق تعذيب الرجل لها، وان «الماسوشية» إحدى الصفات الأساسية للأنوثة المكتملة. وهكذا لم يختلف هؤلاء العلماء عن كهنة العصور الـوسـطى حين جهلوا الميكـروبـات واعتقـدوا أن الـذي يسبب الأمراض هو سحر الساحرات من النساء، لأن المرأة بطبيعتها الجنسية تميل إلى الشر ولها صلة وثيقة بالشيطان.

ومن المهم هنا أن الخص نظرية التحليل النفسي فيما يتعلق بما سمته «ماسوشية المرأة». قال هؤلاء العلماء أنصار هذه النظرية إن الرغبة في الاشباع الجنسي عند المرأة، وفي اشباع الأمومة أيضاً له طبيعة ماسوشية. وذلك لأن الخيالات الجنسية التي تتخيلها الطفلة الصغيرة مع أبيها هي خيالات تنطوي على الرغبة في الاخصاء بواسطة الأب. إن دم الحيض في الأنثى يكتنفه المعنى الخفي بتلك الخبرة الماسوشية، وان ما ترغب فيه المرأة «سريا» في العملية الجنسية انما هو الاغتصاب والعنف والمجال

الجنسي، أو المهانة والإذلال في المجال النفسي. وان عملية الولادة المؤلمة تمنحها نوعاً من الرضى الماسوشي غير الواعي، وكذلك أيضاً علاقتها الأمومية بطفلها. ان بعض الرجال أيضاً يمارسون الماسوشية في الخيالات أو في الواقع فهذا ليس إلا لرغبتهم في أن يلعبوا دور الأنثى.

وبرغم تناقض هذه الأفكار مع كثير من الظواهر والحقائق التاريخية والبيولوجية في حياة الانسان فان عدداً من أنصار نظرية التحليل النفسي أخذوها كقضية مسلمة، وبدأوا يبحثون عن أسباب ماسوشية المرأة في خلاياها وفي هرموناتها وفي الكرموسومات داخل خلاياها وغير ذلك. وأحد هؤلاء العلماء امرأة هي «هيلين دوتيش»، اعتبرت وجهة نظر الرجل في المرأة حقيقة علمية وراحت تبحث التفصيلات دون أن تناقش الجوهر. وتصورت هيلين دوتيش[١] أن ماسوشية المرأة ترجع إلى عوامل بيولوجية وراثية، وأن هناك عاملاً جينياً (genetic) في الموضوع. وأيد هذه الفكرة أيضاً بعض العلماء ومنهم «ساندر رادو»[٢] الذي أشار الى وجود عامل جيني في المرأة يدفع بتطورها الجنسي نحو الماسوشية. ويرتكز هؤلاء العلماء في نظريتهم عن الماسوشية في المرأة على الفكرة الثابتة لديهم بأن الطفل البنت تصيبها صدمة قوية في أول حياتها حين تكتشف غياب عضو الذكر من جسمها. كيف تكونت هذه الفكرة لديهم؟ لقد تكونت لأنهم لاحظوا أن الخيالات التي تتخيلها النساء العصابيات (المريضات بالعصاب neurotic) تنطوي على رغبة في الحصول على عضو الذكر، وأن الطفلة البنت أيضاً تظهر رغبتها في الحصول على هذا العضو.

ولم يسأل هؤلاء العلماء هل هذه الرغبة للحصول على عضو الذكر موجودة عند النساء غير المريضات بالعصاب. وليس هناك رد على هذا السؤال لأن بحوث هؤلاء العلماء النفسيين لم تكن إلا عن الحالات العصابية. والسؤال الثاني أيضاً هو: هل هذه الرغبة للحصول على عضو الذكر متساوية عند كل النساء وفي كل العصور وفي مختلف الظروف الاجتماعية والثقافية؟ وهل كانت المرأة ذات السيادة والمكانة الاجتماعية الرفيعة والتي كانت تنسب أطفالها إليها وتتحكم في جميع أمور حياتها ومن بينها علاقتها بالرجل، هل كانت هذه المرأة ترغب في الحصول على عضو الذكر؟ وفي غياب الردود على هذه الأسئلة لا يمكن لأي عقل علمي أن يقول إن هذه الرغبة في المرأة جزء من طبيعتها، أو أساس تطورها الجنسي الذي آمن به هؤلاء العلماء،

والذين تجاهلوا بعض الملاحظات المهمة في الطفلة، وفسروها تفسيراً ملتوياً من أجل أن تتفق مع نظريتهم.

مثال ذلك أنهم لاحظوا أن البظر عند البنت الصغيرة له نشاط جنسي إيجابي وسادي أيضاً «أي عدواني على نقيض الماسوشية» يشبه تماما نشاط عضو الذكر في الطفل الذكر، وأنها تجد في ممارسة العادة السرية اللذة والأورجازم نفسه الذي يجده الذكر، ولم يكن أمامهم إزاء هذه الحقيقة سوى حلين: إما أن يعتبروا هذا البظر عضواً ذكرياً نبت خطأ في جسم الأنثى، أو يعتبروا أن المرحلة البظرية السادية عند البنت تنحرف لأسباب ما بيولوجية (لم يفكروا بالأسباب الإجتماعية والثقافية) لتأخذ طريقها الأنثوي نحو النضوج أي نحو الماسوشية. وقد جمعت نظرية التحليل النفسي بين هذين الحلين. وتقول هيلين دوتيش ما يأتي: «إن هذا النشاط الجنسي العدواني «السادي» للبظر يصطدم بذلك المتراس داخل نفس البنت وهو اكتشافها لنقص في جسمها بسبب غياب عضو الذكر. ولهذا فإنه ينحرف دائماً في اتجاه «نكوصي» تراجعي نحو الماسوشية.. وإن هذا النكوص نحو الماسوشية جزء من مصير المرأة التشريحي[٣]. وقد كان الاعتقاد الفرويدي السائد حينئذ أن الفروق التشريحية هي التي تحدد مصير الإنسان.

وقد وقع أصحاب هذه النظرية في خطأ بيولوجي كبير، فكيف لعضو من أعضاء الجسم (البظر) أن يكون له نشاط جنسي بيولوجي عدواني سادي ثم إذا به ينحرف داخلياً أو نفسياً ليصبح ماسوشياً، وليفقد نشاطه الإيجابي أيضاً ويصبح سلبياً؟ وقد حاولت هيلين دوتيش أن تدرس كما أسمته «الطبيعة الأنثوية السلبية الماسوشية» في حياة المرأة النفسية. وقد أكدت أن الماسوشية هي القوة الفطرية الأولى في حياة المرأة النفسية. واعتقد بعض العلماء الفرويديين الآخرين أن النرجسية هي الصفة النفسية الطبيعية للمرأة. وقالوا إن البنت الطفلة حين تكتشف غياب عضو الذكر من جسمها تصيبها صدمة نرجسية (narcissistic shock)، وتشعر بألم لأنها تتصور أن الذكر يحصل من ممارسة العادة السرية على لذة أكثر منها. وأن هذا الألم يكون شديداً إلى حد أنه يحطم كل اللذة التي تحصل عليها البنت من العادة السرية[٤]. فتكف عن ممارستها.

وقد أثارت هذه الفكرة غير المنطقية دهشة العلماء من ذوي المنطق والذين نقدوا هذه الأفكار بشدة، وأحد هؤلاء هي « كارين هورني » التي لم تستطع ـ رغم مناصرتها لنظرية

التحليل النفسي ـ إلا ان تصيح في دهشة : « وكيف يمكن ان نطبق هذه الفكرة في الحياة اليومية ؟ إنها تشبه حالة الرجل الذي يعتقد أن « جريتا جاربو » أكثر جاذبية من النساء الأخريات ، ولكنه لا يجد الفرصة لمقابلتها ، وأنه إزاء « اكتشافه » لجاذبيتها المتفوقة يفقد كل لذة في الاتصال بأية امرأة اخرى يمكنه الاتصال بها »(٥) .

ولكن كيف تتكون الماسوشية عند المرأة؟ يقول «رادو»: «إن الألم النفسي الشديد الذي يحدث للبنت الصغيرة حين تكتشف غياب عضو الذكر يثيرها جنسياً، وهذه الإثارة الجنسية تعوضها عن النقص الذي شعرت به، ولكن حيث أنها حرمت من الوسائل الطبيعية للإشباع فلا يصبح أمامها إلا طريق واحد للإشباع الجنسي، وهو العذاب. وهكذا تصبح رغبتها الجنسية ماسوشية وتستمر على هذا النحو طوال حياتها(٦).

وتنقد كارين هورني بذكاء هذا التسلسل غير المنطقي لهذه الأفكار وتتساءل: كيف يمكن للألم أن يثير البنت جنسياً؟ وإذا كان الألم يسبب إثارة جنسية ماسوشية، فلماذا لا يصبح الولد الذكر ماسوشياً أيضاً؟ فإن كل الأولاد الذكور يرون أن أعضاءهم الجنسية أصغر حجماً من أعضاء آبائهم الكبار (كما ترى البنت أن بظرها أصغر من عضو أخيها)، وعلى هذا فإن هذا الأب يحصل على لذة أكثر منهم، وعلى هذا فإن الألم الناتج عن هذا الاكتشاف يفسد لذة الولد في العادة السرية، فيكف عنها، ويشعر بالألم، وهذا الألم يثيره جنسياً، ويجد فيه تعويضاً، وبهذا تصبح رغبته الجنسية ماسوشية.

لكن هذا التساؤل لم يخطر ببال هؤلاء العلماء الفرويديين، لأن أسلوب تفكيرهم فيما يتعلق بسيكلوجية الأنثى يختلف عن اسلوبهم فيما يتعلق بسيكلوجية الذكر، وهذا يكشف أنهم لم يسلكوا المنهج العلمي الصحيح في تفكيرهم الخاص بالمرأة، وانهم لم يحاولوا فهم طبيعتها الحقة، وإنما صنعوا للمرأة طبيعة جديدة تتفق مع وجدانهم الذكري الذي ورث عن اجدادهم فكرة أن الرجل شيء، والمرأة شيء آخر، أو جنس آخر، له صفات أدنى وأقل، ولا يخضع إلا بالضرب والتعذيب، وعلى هذا فلا بد أن يفرض هذا الضرب وهذا التعذيب كرغبة طبيعية في المرأة، وإذا قالت المرأة أنها لا تحب الضرب ولا التعذيب، قالوا: لأن هذه الرغبة سرية (أي مدفونة في عقلها الباطن أو اللاوعي)، وإذا قالت المرأة أنها لا تحب الضرب ولا التعذيب لا علناً ولا سراً، قالوا: لأنها مريضة نفسياً أو منحرفة، أو بسبب عقدة الحسد وكراهية الرجال الدفينة فيها بسبب غياب عضو الذكر من جسمها، والا فكيف يمكن لهذه المرأة الشاذة الا

تحب التعذيب وترفض انوثتها وماسوشيتها الطبيعية؟!!

لا يمكن لأي عقل علمي محايد أن يقتنع بأن الماسوشية جزء من طبيعة المرأة إلا إذا عملت الدراسات العلمية التي تجيب عن هذه الأسئلة:

١ ـ ما هي نسبة أساليب الضغط والقمع والايلام والتعذيب التي تواجهها النساء في مختلف الظروف الاجتماعية والثقافية؟
٢ ـ ما هي نسبة الماسوشية في كل من النساء والرجال في مختلف الظروف الاجتماعية والثقافية؟

وقد عرفنا من الدراسات الانثروبولوجية والبيولوجية الحديثة أن المرأة بيولوجياً تتمتع بقدرة جنسية ضخمة، وانه لم يكن في إمكان الرجل أن ينشىء أسرته الأبوية بغير قوانين صارمة تقمع قوة المرأة البيولوجية وتفرض عليها رجلاً واحداً، من أجل أن يعرف هذا الرجل أنه الأب الحقيقي للأطفال، فينسبهم اليه، ويورثهم الأرض. وبسبب قوة المرأة وقدرتهااللامحدودة فقد استلزم هذا القمع وسائل متعددة من التعذيب الشديد حتى القتل لكل من وسوس لها الشيطان وخرجت عن النظم الأبوية وقوانين الأسرة.

وكان أحد وسائل القمع هي أن تجرد المرأة لا من قدرتها البيولوجية فحسب، وانما أيضاً من قدرتها الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية وأن تصبح حياتها تعتمد في كل شيء على الرجل. وهكذا جردت المرأة من حقها في أن تعمل وتنال أجراً عن عملها لتظل تعتمد على الرجل اقتصادياً، وسمح لها بالعمل فقط داخل البيت (من أجل خدمة الرجل والاطفال)، وبغير أجر، حتى تظل عالة على الرجل دائماً، ولا تجد لنفسها مأوى غيره، ولا سبيلاً للخلاص مهما لاقت من زوجها الهوان والاذلال.

وجردت المرأة أيضاً من كثير من حقوقها الاجتماعية والاخلاقية، وضيقوا الخناق عليها حتى لم يعد في امكان المرأة أن تعيش في المجتمع إلا في كنف رجل، ليعولها اقتصادياً، وليحميها اجتماعياً، وليعطيها «الشرف»، الذي يمتلكه وحده، ولا يمكن لها أن تكون امرأة شريفة إلا إذا اقترنت برجل، ومعنى هذا لا بد لها أن تصبح زوجة، ومعنى هذا ان تصبح خاضعة لقانون الزواج الذي وضعه الرجل، والذي في ظله يقودها زوجها إلى السجن أو العذاب، أو الموت إذا خانته بل إذا خالفته الرأي.

ووجدت المرأة نفسها في وضع يفرض عليها الاحتفاظ بزوجها بأي شكل ومهما

كان، حتى وان كان سكيرا، عربيداً، وزير نسـاء، وله وجه قرد، ويضربها كل يوم بالسوط. انها تحاول الاحتفاظ به رغم كل هذا، وتخشى أن يتركها ويذهب إلى امرأة أخرى! ولهذا فإن المرأة تشعر بما سمي «الغيرة» أكثر مما يشعر بها الرجل. وقد لاحظ فرويد هذه الصفة في النساء، فقال: إن الغيرة في المرأة كالماسوشية جزء من طبيعتها بسبب الفروق التشريحية بينها وبين الرجل وبسبب عقدة الحسد وعقدة الاخصاء... الخ.

لكن «غيرة» المـرأة على زوجهـا ليست إلا محاولة واعية منها للاحتفاظ بذلك الـزوج، الـذي لو تركهـا، فقـد انتهت حياتهـا الاقتصـادية والاجتمـاعية والجنسية والاخلاقية، إنها خارج الزواج لا تستطيع أن تعيش اقتصاديا ولا تستطيع أن ترضي رغبتها الجنسية، وإذا تشجعت ومارست الجنس خارج الزواج فانها لا تستطيع أن تنسب طفلتها اليها، وعليها ان تقبل الموت أو العار أو العذاب أو تعود مرة إلى جحيم أشد خارج الزواج، فهي تفضل الجحيم داخل الزواج.

ويلتقط فرويد (وزملاؤه) هذه العبارة (المرأة تفضل الجحيم...) فلا يحاولون أن يعرفوا أول القصة بل يحاولون أن يعرفوا آخرها أيضاً وهي كلمة «داخل الزواج» التي تكمل العبارة. لكنهم رغم كونهم علماء، والعلم يفرض على العلماء تقصي الحقائق من أولهـا إلى آخـرهـا، رغم ذلك، فانهم يكتفون بذلك الجزء الصغير من القصة الطويلة، ويخرجون بنظرية علمية تقول: إنه حيث أن المرأة تفضل الجحيم، فمعنى ذلك انها تفضل العذاب، فمعنى ذلك أنها تعشق الألم، فمعنى ذلك انها ماسوشية، وهذه الماسوشية من أين جاءت؟ من أين جاءت؟ آه! لا بد أنها جاءت من عقدة الحسد الذي تكنه المرأة للرجل بسبب امتلاكه العضو الذكري.

٩ ـ غضب المرأة ومرض الاكتئاب

خدعت المرأة في العصر الحديث أكثر مما خدعت في العصور القديمة، ذلك أن حقيقة وضعها الأدنى وسلبها من حقوقها أصبح مغلفاً بالاحترام الظاهري، والاتيكيت، والمعاملة الرقيقة أمام الناس، وبسبب هذا الغلاف الخارجي لم تر المرأة أن وضعها ما زال هو الأدنى، وأن زوجها وان كان يفتح لها باب العربة، أو يجعلها تدخل من الباب قبله، فهو ما زال الوصي عليها (كما لو كانت طفلاً قاصراً) بحكم قانون الزواج، وما زال من حقه أن يعاشر أي امرأة يشتهيها، ويتزوج غيرها في أي وقت، ويطلقها في أي وقت، ويتحكم في دخولها وخروجها وسفرها وجسدها وكل شيء. أما هي فلا تستطيع أن تفعل أي شيء من هذا، وليس لها أن ترفض أو تتذمر وانما تطيع وتستكين وتهدأ، لأن الطاعة والاستكانة والهدوء صفات الأنوثة الكاملة، أما الرفض والتذمر فهي صفات ذكرية عدوانية تسيء اليها في نظر الناس، وتشوه انوثتها، وتجعلها من هؤلاء النساء غير الطبيعيات أو المريضات نفسياً. ولهذا السبب تستكين معظم النساء، ويكبتن في أعماقهن الكراهية للرجال وللحياة ولكل شيء بما في ذلك أنفسهن، وبسبب كراهية انفسهن فانهن يكرهن النساء الأخريات أيضاً، وبالذات اولئك النساء اللائي يكشفن الظلم الواقع عليهن، فكأنهن يكشفن عن الجرح العميق المؤلم الذي ينزف كل يوم وببطء. وبسبب الألم والذعر والكراهية تمقت معظم النساء اولئك القلة القليلة من بنات جنسهن اللائي يرفضن الظلم ويحاولن الاصلاح أو ينادين بالمساواة والحرية للمرأة.

وانها لقصة قديمة معروفة في التاريخ، فأصحاب السلطة متى حصلوا على السلطة فليسوا على استعداد أبداً للتفريط فيها إلا بالقوة والضغط المفروض عليهم من ثورة المحكومين والمظلومين. ولم تمثل النساء أبدا تلك القوة الثورية التي يمكن بها أن تفرض على الرجال رفع الوصاية عنهن. لماذا لم تصبح النساء قوة ثورية في أي مجتمع

من المجتمعات الأبوية الحديثة رغم شدة الظلم الواقع عليهن؟! لماذا لم تصبح النساء قوة رافضة وغاضبة وثائرة؟. السبب في ذلك ليس في أن النساء سعيدات راضيات بحياتهن وألمهنّ، وليس في أن النساء بطبيعتهن سلبيات عاجزات عن التغيير. ولكن السبب الحقيقي هو أن القهـر الذي وقع على المرأة لم يكن قهراً قانونياً واقتصادياً واجتماعياً وجسدياً فحسب ولكنه كان قهراً نفسياً أيضاً.

ويتمثل القهر النفسي في أن المرأة (عن طريق علماء النفس الرجال من أمثال فرويد) عجزت عن الغضب، والغضب عند الانسان ثلاث مراحل:

١ ـ أن يشعر الانسان بالاساءة.
٢ أن يكره الانسان الشخص الذي أساء اليه.
٣ ـ أن يعبر الانسان عن كراهيته بفعل خارجي أو عدواني ضد ذلك الشخص الذي اساء اليه.

ان الثورة ليست إلا هذا الغضب بصورة جماعية يشترك فيها أغلبية المظلومين أو المقهورين، لكن النساء عجزن عن الغضب، والسبب في عجزهنّ عن الغضب ليس لأن النساء بطبيعتهن البيولوجية لا يغضبن، لكن السبب هو أن الرجل حين قهر المرأة لم يسلب منها النسب والشرف فحسب ولكنه سلب منها الغضب أيضاً، وجعل الغضب من نصيب الرجال، والغضب صفة الذكورة أما الأنوثة فمعناها أن تظل المرأة باسمة مهما حدث لها. إن المرأة التي لا تبتسم دائماً يشك في انوثتها ورقتها ودعتها، أما المرأة التي تكشر أو تقطب جبينها فهي ليست امرأة. ان التكشيرة او التقطيبة يجب ألا تظهر على وجه الانثى وتتعلم البنت الصغيرة أن تبتسم، وأن يشرق وجهها بالابتسام دائمـاً، فهذا يزيد من جمالها الأنثوي. أما التكشيرة فهي تعطي وجه الرجل ذكورة ورجـولة. وهكذا تعلمت المرأة كيف تخفي غضبها، وكيف حين يساء اليها تكبت الكراهية في قلبها، وحين تتراكم الكراهية يوماً بعد يوم تتعلم كيف تكبتها أكثر وأكثر، وحين تضغط الكراهية على قلبها وصدرها واحشائها وتكاد تخنقها فهي تفضل أن تختنق داخلياً عن أن يخرج جزء من هذه الكراهية على شكل فعل خارجي أو عدواني. إن العدوانية أقبح صفة يمكن أن توصف بها المرأة، وهي ليست صفة فحسب. إنها مرض أو شذوذ، وإذا أصبحت المرأة عدوانية فهي في حاجة إلى عقاب أو علاج نفسي، أو جلسات كهربية لتعود إلى طبيعتها الأولى الهادئة الراضية المكبوتة.

في مرة من المرات حين كنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الطب (في السابعة عشرة

من عمري تقريباً)، ركبت الاتوبيس كعادتي يومياً لأعود إلى البيت،وبينما أنا واقفة في الاتوبيس، أحسست برجل يلتصق بي من الخلف فاستدرت ونظرت اليه ليخجل من نفسه، لكنه لم يخجل، فقلت له بصوت سمعه الآخرون أن يكف عن هذه التصرفات غير اللائقة، لكنه لم يكف وغضبت ومن شدة غضبي رفعت يدي وصفعته على وجهه صفعة قوية، وكنت في تلك اللحظة اتصرف التصرف الطبيعي لأي انسان أسيء اليه. وكنت أتصور أن راكبي الاتوبيس (وكان بعضهم رجالاً وبعضهم نساء) سوف يكونون معي ضد هذا الرجل. لكن العكس هو الذي حدث تماماً. لقد حظي الرجل بشفقة الرجال وتآزرهم معه. وقال احدهم: «لماذا تخرج النساء من بيوتهن إذا لم يعجبهن هذا الحال؟!» وقال آخر: «لم نر في حياتنا امرأة تضرب رجلاً، هذه اهانة لنا جميعاً» وصوب إلي الرجال عيونهم مليئة بالكراهية والغضب. اما النساء الراكبات فقد انضممن (لدهشتي الشديدة) إلى الرجال وقالت واحدة منهن بصوت انثوي ناعم: «كلنا مثلك واقفات في الاتوبيس فلماذا أنت الوحيدة التي غضبت بهذا الشكل؟» ورد عليها رجل عجوز كان ملتصقاً باحدى الراكبات: «ومن قال انها مثلكن، تلك التي تضرب رجلاً، انها رجل بغير شك!».

وحينما ذهبت إلى بيتي وحكيت لأمي ما حدث نصحتني بألا أصفع أي رجل، وانه من الأفضل لي أن انزل من الاتوبيس وأن أذهب إلى الكلية سيراً على الأقدام من الجيزة إلى القصر العيني. وتشاء الصدف أن يعود أخي في ذلك اليوم ويحكي لأمي عن أحد زملائه في المدرسة صفعه على وجهه فرد له الصفعة صفعتين ورفسة بالقدم، وصاحت امي تشجعه: «برافو، لا بد أن تضرب الذي يضربك وتنتصر عليه».

هذا هو ما يحدث دائماً. إن البنت منذ صغرها تدرب على ألا تغضب، ولا تعبر عن غضبها بفعل ظاهر، وعليها أن تتفادى الاساءة بقدر الإمكان وإذا كانت هذه الإساءة قد فرضت عليها بالزواج أو النظام أو القانون فعليها أن تكتم غضبها وانفعالها وتبتسم لتكون أنثى كاملة. بعكس الرجل الذي يربى على أن الرجولة هي القوة ورد الإساءة بأشد منها. ان الإنسان الطبيعي هو الذي ينفعل حين يسيء اليه أحد. هذا الانفعال يسمى الكراهية، وهي في الإنسان السليم نفسياً توجه إلى الخارج كرد فعل، ولكنها عند المرأة تكبت، أو ينقلب مسارها إلى الداخل، إلى النفس، ولهذا تصاب النساء «بالاكتئاب» أكثر من الرجال. إن «الاكتئاب» وليس «العدوانية» هو رد الفعل الأنثوي للتعبير عن الكراهية أو خيبة الأمل في شيء من الأشياء. هذا الاكتئاب ما كان ليحدث

للمرأة لو انها وجهت انفعالها إلى الخارج كما يفعل معظم الرجال. ولكن الخارج هذا (بعبارة اخرى: المجتمع) يرفض انفعالات المرأة الطبيعية سواء كانت كراهية أم حباً، ويفرض عليها أن تكون مخلوقاً بغير انفعالات، إذا اساء اليها احد وانفعلت بالكراهية عليها ان تكبت هذه الكراهية ولا تحولها إلى عدوان مماثل وإلا اتهمت بالرجولة والإنحراف، عن المرأة الطبيعية.

المرأة الطبيعية إذن هي المرأة المكبوتة. ولا اريد أن أقول إن الرجل أيضاً لا يكبت، ولكن المجتمع بصفة عامة يسمح للرجال (خاصة إذا كانوا من الطبقة العالية) بحرية اكثر من النساء، وبذلك يتمتع الرجل بامكانية التعبير عن انفعالاته، حباً كانت أو كرهاً، دون ان يتعرض للعقاب أو النقد الذي تتعرض له المرأة.

وقد اوضحت الدراسات الخاصة بسلوك الاطفال أن الاولاد الذكور يحولون إلى العيادات النفسية بسبب ميولهم العدوانية ونزعتهم إلى التحطيم والتنافس، اما البنات فيحولن بسبب اضطرابات الشخصية مثل: الخوف والخجل والجبن وعدم الثقة بالنفس والاحساس بالنقص. وكذلك الحال بالنسبة للكبار ايضاً.

ان أعراض الرجال تعكس في معظم الاحيان كراهية مدمرة للآخرين واستغراقاً وتعلقاً شديداً بالذات. أما أعراض النساء فهي تعكس نزعة قاسية لنقد الذات، وإنكار الذات، وتحطيمها[1].

وفي دراسة لزيجلر (E. Zigler) وفيليبس (L. Phillips)، قورنت الاعراض النفسية للرجال المرضى والنساء المريضات، ووجد أن الرجال أكثر ميلاً للعدوان والنزوع الى الدوافع المضادة للمجتمع مثل السرقة والاغتصاب[2] ووجد أن المريضات من النساء يملن إلى امتهان النفس والاكتئاب والحيرة والافكار الانتحارية أو الاقدام على الانتحار فعلاً.

معظم المريضات يعانين مما سمي «بالأمراض النفسية الانثوية» مثل الاكتئاب والبرود الجنسي وتسلط فكرة الاضطهاد أي إن أعراض النساء عامة تندرج تحت عنوان «الخوف من السعادة» وهو التعبير الذي استخدمه توماس زاز Thomas Szazs ليصف به أهم ميزات «علم النفس الخاص بالعبيد» (Slave psychology) ان الخوف من السعادة أو الخوف من الرضا أو الخوف من اللذة شيء لا يحدث للانسان إلا في حالات الاضطهاد. مثل حالات العبيد والنساء، وكما يكبت العبد احساسه الحقيقي عن سيده تكبت المرأة احساسها باللذة أو السعادة خوفا من الزوج أو الاب أو بديليهما. وهناك

وجه شبه بين نفسية المرأة ونفسية العبيد[٣] ولا عجب في ذلك فإن النساء أول مجموعة بشرية في التاريخ استعبدت بمجموعة أخرى.

ولم يكن فرويد «أبو علم النفس الحديث وصاحب الأفكار السائدة حتى الآن عن نفسية المرأة»، لم يكن باحثا في التاريخ، ولا عالما من علماء المجتمع، ولكنه كان طبيباً نفسياً، مادته التي يبحث فيها هي النفس الانسانية في حدودها المحدودة بجسد الانسان. ولهذا فقد كان هو صاحب النظرية التي تقول إن مصير الإنسان يحدده التشريح Anatomy is destiny وحينما جاءته النساء بأعراض الاكتئاب والخوف والاحساس بالنقص، وامتهان النفس، تصور أن هذه هي خصائص سيكلوجية الانثى، وان الأنوثة هي الخضوع والسلبية والماسوشية أو الرغبة في امتهان النفس وإيلامها. وورث أطباء النفس عن فرويد هذه الأفكار السيكلوجية الانثوية، وأصبح الطبيب النفسي لا يرى المرأة كما هي، ولا يعرفها على حقيقتها، ولكنه يعكس عليها النظريات التي درسها عنها. وليست هذه المشكلة خاصة بالمرأة وحدها ولكنها مشكلة في الطب النفسي كله. فإن الاخصائيين النفسيين الذين ينتمون إلى مدارس مختلفة سوف يفسرون الحلم نفسه الذي يحلمه مريض ما تفسيرات مختلفة حسب النظرية والمدرسة التي ينتمون إليها[٤].

لقد وجد في معظم البحوث النفسية أن مرض الاكتئاب النفسي بين النساء منتشر بنسبة أكبر منها بين الرجال . ومنتشر في النساء المتزوجات أكثر منه في النساء غير المتزوجات . واتضح أن هذا الاكتئاب ليس إلا تلك الكراهية ، المتراكمة المكبوتة التي توجهها المرأة الى الداخل بدلاً من أن توجهها الى الخارج على شكل فعل عدواني .

ووجد ان هذه الكراهية حين توجهها المرأة الى داخل نفسها فهي تشوه نفسها، وتضعفها، وتجعلها أكثر عجزاً عن التعبير عنها، وبالتالي تتراكم الكراهية داخلها أكثر واكثر، وتصبح المرأة أضعف فأضعف عن التعبير عنها. ويأتي يوم تنظر فيه المرأة إلى وجهها الباسم الهادىء في المرآة، فإذا بها ترى في أعماقها ذلك الوجه الأسود المكفهر الطافح بالكراهية المتراكمة، وتذعر المرأة ذعراً شديداً، وقد تكسر المرآة بيدها دون أن تدري. وحين يأخذها زوجها إلى الطبيب النفسي يدرك أنها كانت تريد أن تصفع وجه زوجها وليس وجه المرآة، وقد تحاول أن تصفع زوجها لتشفى من مرضها وليزول عنها الاكتئاب إلى الابد. لكن الطبيب النفسي يمنعها (الطبيب النفسي بالطبع رجل كزوجها)، وبدلاً من العلاج الصحيح، يعطيها الطبيب أقراصاً مهدئة وأقراصاً منومة

وينصحها باحترام زوجها وطاعته، وهكذا تدور الدائرة، وتعيش معظم الزوجات في حالة من الاكتئاب شبه الدائم.

وقد أدركت أخيراً لماذا كنت دائماً أشعر بالحيرة حين أرى تلك الابتسامة الغريبة على وجوه معظم الزوجات. لم أكن أعرف سر غرابتها في عيني. ولكني أصبحت أفهمها الآن. إنها تلك الابتسامة الحزينة. تلك الابتسامة الرقيقة التي تشف من تحتها الشقاء (الذي تدركه المرأة بوعي أو بغير وعي). ولأنها متناقضة فهي تبدو أحيانا مخيفة، كوجه طفل باسم من تحته وجه عجوز مجعد.

وقد أدرك الطب النفسي الحديث أن علاج الاكتئاب لا يمكن أن يتحقق إلا بعلاج السبب الحقيقي فيه. أي بعلاج الكراهية المتراكمة داخل النفس وتوجيهها إلى الخارج على شكل فعل.

لقد أصبح الطبيب النفسي المتنور الآن ينصح المرأة بالانفصال عن زوجها الذي تكرهه، والانفصال عن أي حياة تكرهها، والإقبال على الحياة التي تحبها والأشخاص الذين تحبهم وتختارهم. أصبح علاج الاكتئاب هو أن تغضب المرأة من الإساءة، أن تغضب علنا لا سراً، وتعلن عن غضبها بفعل قوي يراه الأخرون واضحاً أمام عيونهم. وإذا فتح الأخرون عيونهم في دهشة واستنكار وصاحوا: «هذه امرأة عدوانية فاقدة الأنوثة» فلتفتح المرأة ذراعيها للشفاء في شجاعة وجرأة ولتقل لنفسها: «مرحبا بالصحة النفسية ولتذهب تلك الأنوثة إلى الجحيم».

ولكن هل كل امرأة قادرة على الغضب من الإساءة والانفصال عن زوجها الذي يسيء إليها، أو اختيار الحياة أو الشخص الذي تريده؟

ان الاختيار والإرادة في حياة أي إنسان لا يمكن تحقيقها إلا إذا كان الإنسان مستقلًا. واستقلال الإنسان له دعامتان: الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي، والاستقلال النفسي والعاطفي والشخصي. فإذا اعتمدت المرأة على الرجل (اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً وعاطفياً وشخصياً) فلا يمكن لها بحال من الأحوال أن تفكر في الانفصال عنه، وعلى هذا فلا يمكن لها بحال من الأحوال أن تغضب إذا أسيء إليها،

وليس أمامها إلا كبت الغضب وتجميع الكراهية في أعماقها، وبمعنى آخر ليس أمامها إلا الاكتئاب النفسي كمرض لا شفاء لها منه، إلا إذا كافحت من أجل أن تحصل على الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي والنفسي والعاطفي والشخصي، وحينئذ تستطيع أن تعلن عن غضبها وتتخذ فعلا وقراراً وتغير حياتها الشقية بحياة أخرى أفضل.

* * *

١٠ ـ المرأة والأنا العليا

كشفت الحقائق العلمية عن أن الإنسان، ذكراً أو أنثى، له عقل يفكر، وله قدرات ذهنية تزداد أو تقل حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والتربوية التي يعيشها، وأن الفروق التشريحية بين الرجل والمرأة، لا علاقة لها بالقدرات الذهنية لكل منهما، وأن الرجل العبد أو المستعبد يظهر غباوة لا تقل عن غباوة المرأة المستعبدة. وهناك أحدث المعلومات البيولوجية التي تقول إن المخ البشري في بداية تكوينه الجنيني داخل الرحم يكون أنثى، وأن مخ الرجل ليس في أصله إلا مخ الأنثى ثم حدثت له عملية تذكير طارئة بفعل الهرمون الذكري. والحال نفسه في الجنين كله الذي ينشأ أصلاً أنثى، وليس مزدوج الجنس، كما عرف سابقاً في علم الأجنة.

ولا يمكن لأحد من العلماء حتى اليوم أن يدعي أنه وصل إلى فهم حقيقة المخ البشري أو عمليات مراكزه العليا، فلا يزال هذا المخ الصخرة العاتية التي تواجه الطب والعلم، هذا المخ الذي ما زال سراً مغلقاً، ولم يعرف من مفاتيحه إلا الشيء الضئيل.

وحيث أن «النفس» مركزها المخ فما زال فهم الإنسان «لنفسه» لا يزيد وضوحاً عن فهمه «لعقله»، وإن كان هذا التقسيم للإنسان كجسم وعقل ونفس ما هو إلا تقسم نظري فحسب من أجل الدراسة والتخصص الدقيق الذي يقود إلى معلومات أكثر وأوضح، وإن كان هذا التخصص الدقيق كالسيف له حدان، فهو يوضح بعض التفصيلات الدقيقة، لكنه يطمس المعنى الكلي الشامل ويمزق الإنسان إلى علوم منفصلة تزداد بينها المسافات كلما زاد العلم تقدماً وزادت معه التخصصات. وهذا التمزيق والفصل بين العلوم قد يقود إلى جهل أشد بالإنسان ما لم يذكر المرء دائماً أن الإنسان وحدة كاملة لا تتجزأ.

إن وحدة الإنسان، بصفته حيواناً اجتماعياً تتكون من الجسم والنفس (أو العقل)

والمجتمع. ولهذا فإن النظرية العلمية الصحيحة للإنسان لا يمكن أن تتجاهل أثر المجتمع على الإنسان بمثل ما لا يمكنها أن تتجاهل أن له جسماً أو له نفساً أو عقلاً، وأن كل هذه العناصر تكون وحدة واحدة لا انفصام فيها.

إن الباحث (في أي علم من العلوم الإنسانية) الذي يتجاهل المجتمع في بحثه يصبح كمن يهبط فجأة فوق جزيرة من العبيد الأغوات (الذين بترت خصيهم بواسطة أسيادهم المماليك) وحين يفحصهم ولا يجد الخصيتين يصرخ قائلاً: إن كل العبيد يولدون بغير خصيتين. ويتصور أن هذه هي طبيعة العبيد.

ولا يمكن لأحد أن يقول إن هذا الباحث قد أخطأ حين لاحظ ظاهرة اختفاء الخصيتين عند هؤلاء العبيد. إن ملاحظته صادقة وحقيقية، ولكن الاستنتاج الذي خرج به من هذه الملاحظة هو الخطأ، لسبب بسيط، ذلك أنه لم يلاحظ القهر الواقع على العبيد من أسيادهم في المجتمع.

وقد فعل «فرويد» بالمرأة ما فعله هذا الباحث بالعبيد. لقد لاحظ «فرويد» أن النساء (في مجتمعه المحيط به) لا يظهرن الذكاء أو القدرات الذهنية التي يظهرها الرجال عامة، وانهن أقل من الرجال اهتماماً بالشؤون العامة في الحياة، وأنهن أقل طموحاً من الرجال، وأقل تعقلاً، وأقل موضوعية وحكمة... الخ.

وربما كان «فرويد» صادقاً في هذه الملاحظة بالنسبة لهؤلاء النساء اللائي عشن في ذلك المجتمع في ذلك الوقت. لكن الخطأ الذي وقع فيه «فرويد» أنه فسر هذه الظاهرة كالذي فسر اختفاء خُصى العبيد، وقال إن المرأة بطبيعتها أقل من الرجل في هذه النواحي الذهنية، لأن «الأنا الأعلى» (Super ego) عند المرأة أضعف من «الأنا الأعلى» عند الرجل. وسألوه لماذا تكون الأنا الأعلى عند المرأة أضعف؟، قال لأن البنت الصغيرة عادة لا تكبت عقدة أوديب. وسئل أيضا: لماذا لا تكبت البنت الصغيرة عقدة أوديب؟ فقال: لأنها تدخل المرحلة الأوديبية بعد أن تقبل حقيقة كونها قد خصيت (بسبب عدم وجود عضو الذكر في جسمها) ولهذا فهي لم تعد تشعر بالخوف الذي يدفعها إلى أن تكبت عقدة أوديب وإلى تكوين الأنا الأعلى. وقد انساق العلماء الآخرون (من أعضاء نظرية التحليل النفسي) مع تحليل فرويد هذا واستنتجوا أن الأنا الأعلى عند النساء ضعيفة التكوين، ولهذا فإن ضمير النساء أضعف من ضمير الرجال، واعتقاداتهن الفكرية أضعف، ومبادءهن أضعف، ولذلك تميل المرأة دائماً إلى تغيير

رأيها واعتناق رأي الرجل زوجها، أو رأي أي رجل آخر تعتمد عليه في معيشتها.

وكم تبدو هذه الافكار بعيدة كل البعد عن العلم حين تصدر هكذا وحدها بمعزل عن الظروف الاجتماعية التي تدفع المرأة إلى تملق زوجها مثلاً واعتناق رأيه حتى لا يطلقها فتفقد العائل الوحيد الذي يعولها، لأن المجتمع لم يجعل لها عملاً تتعيش منه إلا الزواج. وما رأي «فرويد» (وزملائه) في العبيد الذين كانوا يموتون دفاعاً عن أراء أسيادهم دون أن يؤمنوا بها، ورغم أن هذه المبادىء كانت تظلم هؤلاء العبيد؟ بل ما رأي فرويد في موظف الحكومة الذي يعتنق رأي رئيسه في العمل حتى لا يفصل أو ينقل أو يضطهد؟ بل ما رأي «فرويد» في آلاف أو ملايين الرجال الذين يحكمون احياناً بواسطة حاكم ديكتاتوري، فإذا بهم جميعاً خوفاً على وظائفهم وارزاقهم، يعتنقون رأي الحاكم، بل ويمجدونه تمجيداً عظيماً، ويكبتون في اعماقهم آراءهم الحقيقية!؟

وإذا كان هناك حكم ديكتاتوري في التاريخ فليس هناك من نظام أكثر ديكتاتورية من نظام الزواج، إن الزوجة تفقد ملكيتها لجسمها وشخصيتها واسمها وحريتها في الخروج والتنقل والسفر، وفي بعض المجتمعات تفقد ملكيتها لأموالها التي ورثتها عن اسرتها، وفي بعض قوانين الزواج تفقد حقها في الحياة ويصبح هذا الحق بيد زوجها فيقتلها حين يشاء كما يقتل الدجاجة أو القطة. هذا وإن معظم قوانين الزواج تعطي للزوج حرية تطليق زوجته متى شاء، وله الحق في أن يتزوج عدداً من الزوجات في وقت واحد، لكن فرويد لا يلاحظ كل هذا، ويتصور أن المرأة تغير رأيها وتعتنق رأي زوجها لأن الأنا الأعلى عند المرأة أضعف، أو لأن عقلها أقل، وكل ذلك بسبب غياب عضو الذكر من جسمها.

ويضيف «فرويد» أيضاً (فيما يتعلق بقدرات المرأة الذهنية) إن المرأة تفقد قدرتها الذهنية أبكر من الرجل. ويقول إن المرأة حين تصل إلى الثلاثين تصبح قدرتها الذهنية عاجزة عن التطور، في حين أن هذه السن تعتبر عند الرجل بداية ازدهاره العقلي. ويحاول فرويد أن يجد تفسيراً لهذا في اعضاء المرأة الجنسية أو تطورها الجنسي لكنه لا يجد شيئاً علمياً يمكن ان يستند عليه، فاذا به يقول: «إن هذه العملية وكأنها توقفت وعجزت عن التطور نحو المستقبل، ويبدو أن ذلك الطريق الطويل الشاق الذي تتطور به الأنوثة يستنفد كل امكانيات المرأة».

والحقيقـة أن الـذي يستنفـد امكانيات المرأة ويعطل قدرتها الذهنية عن النمو الطبيعي ليس هو طريق فرويد الطويل الشاق، ولكنه طريق المجتمع والأسرة والقوانين التي تمنع المرأة من التعليم أو تحول بينها وبين التعليم المستمر وتحول بينها وبين تنمية قدرتهـا الذهنية بحبسها في البيت زوجة وخادمة لزوجها وأطفالها، ومنعها من العمل والمساهمة في الانشطة العامة. إن نجاح المرأة في المجتمع معناه أن تنجح في غسل الصحون ورتق الجوارب والطبخ وكيفيةالاحتفاظ بالزوج. ان النجاح الفكري للمرأة أو الذكاء أو التفوق كلها تعتبر عيوبا بالنسبة للمرأة المكتملة الانوثة، فكيف يمكن إذن للمـرأة أن تنمي قدرتهـا الـذهنية، بل كيف يمكن لها أن تظهر ذكاءها أصلاً؟؟! ان ذكاء الزوجة يخدش رجولة الزوج، ولا بد للمرأة أن تخفي ذكاءها لتحافظ على حياتها الزوجية من الانهيار. وهكذا تصبح كل الزوجات غبيات. الغباء مرادف للنجاح في الزواج.

لكن المـرأة في السنـوات الأخيرة (عن طريق عملهـا خارج المنزل واستقلالها الإقتصادي) لم تعد تقبل الخضوع للزوج، لأنه لم يعد المأوى الوحيد لها. إنها تجد مأوى لها في عملها وفي أجرها الذي تناله عن هذا العمل. وقد ساعد الاستقلال الاقتصـادي المـرأة على أن تستقـل نفسياً واجتمـاعياً عن الـرجـل. وفي كثير من المجتمعـات الآن أصبحت المـرأة تملك جسـدها أيضاً وتتمتع بالحرية الاجتماعية والشخصية والجنسية التي يتمتع بها الرجل كما ان لها أيضاً الحق في نسب أطفالها اليها.

وقد لاحظ العلماء أن صفات هؤلاء النساء الجدد تختلف تماماً عن الصفات التي وصفها فرويد وزملاؤه عن المرأة. فالمرأة من هؤلاء قوية الشخصية، شجاعة، تعتد برأيها، إيجابية في العمل والحياة والجنس، لا تحب الإهانة ولا الاذلال ولا الضرب، أي لا تعاني الماسوشية، وقدرتها الذهنية لا تضعف بعد سن الثلاثين، وطموحها في الحياة لا يقل عن طموح الرجل، والأنا العليا عندها لا تقل عن الأنا العليا عند الرجل.

وعلى هذا لم يكن أمام هذه الظاهرة الجديدة في النساء إلا شيئان: إما أن نظرية فرويد (وزملائه) في المرأة خاطئة وعجزت عن فهم طبيعة المرأة الحقيقية. وإما أن هؤلاء النساء غير طبيعيات وشاذات ومنحرفات. وقد كان الرجال (وما زال الكثيرون منهم) يميلون إلى اعتناق الرأي الثاني، لأنه الرأي الذي يتمشى مع مصلحتهم، كل واحد منهم رئيس اسرة ابوية ويحتاج إلى زوجة خاضعة ومطيعة لتخدمه). ولكن كان

هناك دائماً أيضاً هؤلاء الرجال (رغم قلتهم) الذين ارتفعوا بمنهجهم العلمي وتفتحهم الـذهني والإنسـاني فوق مصـالحهم الخاصة وقالوا بصدق وعلم: لقد أخطأ فرويد وصدقت النساء.

لقد أدركوا أيضاً أن مصالحهم على اعتبارهم رجالاً لا تكون إلا مع المرأة الجديدة القوية، المستقلة، الشجاعة، الذكية، الإيجابية، الحرة.

فإن هذه المرأة هي التي تستطيع أن تفهم معنى الحب الحقيقي، ومعنى العمل، ومعنى الحياة، ومعنى التبادل، ومعنى الجنس، ومعنى الأمومة، ومعنى الأبوة، ومعها يستطيع الرجل المتنور أن يتذوق طعماً للحياة أكثر عمقاً وأكثر لذة وأكثر إنسانية، ومعها يدرك الرجل المتنور أن الرابطة التي تربطهما رابطة حرة صادقة أساسها الاختيار وليست تلك الرابطة القديمة الإجبارية التي كان أساسها الخوف من الجوع أو البحث عن مأوى.

* * *

١١ ـ المرأة والعصر الحديث

حينما نقول المرأة الحديثة، أو المرأة العصرية، نتصور على الفور تلك المرأة التي ترتدي أحدث الأزياء وآخر الابتكارات، تلك المشغولة ليل نهار بشعرها وجسمها وجلدها وأظافرها. وبمعنى آخر تلك المرأة المشغولة بنفسها، أو العاشقة لنفسها، أو المرأة النرجسية.

والنرجسية إحدى الصفات التي ألصقت زوراً بطبيعة المرأة. فالنرجسية معناها حب النفس. وقد اشيع ان المرأة نرجسية بسبب اهتمامها الشديد بملابسها وشكلها. لكن الذي يتعمق قليلاً إلى أبعد من السطح الخارجي للمرأة يدرك أن العكس هو الصحيح. وان حب النفس في النساء نادر جداً، وانه في تلك الحالات النادرة التي تحب فيها المرأة نفسها فإن المجتمع الذكوري لا يسمح ولا يحتمل مثل هذا الحب.

وقد اتضح لعلماء النفس أخيراً أن اهتمام المرأة بشكلها وملابسها ليس إلا رغبة في التعويض عن حب النفس المفقود، أو محاولة من المرأة للتعويض عن عضو الذكر الضائع منها إلى الأبد كما قال فرويد.

إن التضحية بالنفس، وليس حب النفس، هي صفة المرأة. وهي ايضا صفة غير طبيعية في المرأة. ان المجتمع هو الذي يفرض على المرأة ان تضحي بنفسها من أجل زوجها. ان الثقافة والقوانين الذكورية ترغم المرأة أن تكون مضحية، وتجعل الرجل نرجسياً وأنانياً. ان المرأة تضحي بطموحها الفكري ومستقبلها الثقافي الخلاق من أجل أن تغذي طموح زوجها فيتفوق هو في العلم أو الفن أو الأدب، وتظل هي راكدة في البيت تغسل جواربه.

وقد لاحظ فرويد وزملاؤه من العلماء ان نسبة قليلة جداً من النساء يظهرن عبقرية أو نبوغا في الفن أو الأدب أو العلم. ولم يرجعوا ذلك إلى الظروف الاجتماعية التي

تفرض على المرأة الانغلاق داخل جدران البيت، وتضييع الوقت في خدمة الآخرين والغسل والطبخ، وإنما أرجعوا ذلك إلى الفروق التشريحية بين المرأة والرجل وبعضهم أخرج نظرية تقول ان قدرة المرأة على الخلق تمتصها بيولوجيا وظيفتها كأنثى تحمل وتلد. واستطاع هؤلاء بطريقة ملتوية معقدة أن يقولوا إن المرأة تخلق الاطفال بولادتهم، ولهذا فهي لا تشعر بحاجة إلى الخلق في مجال آخر كمجال الفن أو الأدب أو العلم. وحيث ان الرجل لا يلد الاطفال فإنه يستطيع ان يخلق في المجالات الأخرى. وبهذا أغلقوا مجالات الخلق الثقافية والفكرية أمام المرأة ولم يتركوا لها إلا الوظيفة البيولوجية وهي ولادة الأطفال كسائر الحيوانات.

وقد أنصف المرأة، ونظر إليها نظرة علمية محايدة عدد من العلماء الرجال والنساء، وكان لهم فضل تنبيه الاذهان إلى الاسباب الاجتماعية التي عطلت قدرات المرأة الفكرية والفنية، وبالذات في مجال الأدب والكتابة.

وتكتب مادلين شابسال تقول: «ان الكتابة عملية فردية عالية المستوى وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف الاجتماعية أي أنها تعتمد على درجة حرية الفرد في المجتمع... وقد حرمت المرأة من هذه الحرية قرونا، وبالذات في القرن التاسع عشر، فإن الشيء الوحيد الذي حرم بشدة على البنات والنساء المتزوجات هو حرية الكلام، إن المجتمع كان يشك (وهذا الشك في موضعه) ان حرية الكلام ستقود إلى حرية التفكير ثم إلى حرية الفعل»[1].

ان هذه القيود على «لسان» المرأة، ثم على عقلها، ثم على «أفعالها» كانت ضرورية لعملية القمع الجنسية، لتخضع المرأة رغم الطبيعة (وليس بسبب الطبيعة) لنظم الأسرة الابوية والزواج بالرجل الواحد «الأب للأطفال».

وهذا يدل على أن عملية القمع الجنسي تقتضي بالضرورة عملية قمع فكري. ومن أجل أن تنصرف المرأة تماماً عن المجالات الفكرية والخلق الفني، أوهموها أن الولادة نوع من الخلق الفكري وليس البيولوجي، وأوهموها أن في الولادة سعادة لها تفوق سعادة الرجل الفكرية والفنية.

إن عملية اقناع المرأة بهذه الفكرة غير المنطقية لم تكن سهلة على الرجل فالمرأة انسان لها عقل، وعقلها يدلها على أن ولادة الأطفال وظيفة بيولوجية لا تزيد عن أي وظيفة بيولوجية أخرى، وأنها إذا اكتفت بحياتها على ولادة الأطفال فلن تكون أفضل

من القطة التي تلد أيضاً.

ولهذا السبب تشعر النساء بالاكتئاب بعد انقطاع الطمث، وقد فسر هذا الاكتئاب الذي سموه «اكتئاب سن اليأس» تفسيراً خاطئاً وارجعوه إلى أسباب بيولوجية وهرمونية، والحقيقة أن هذا الاكتئاب سببه أن المرأة تكتشف بعد فوات الأوان أنها ضيعت عمرها هباء في الحمل والولادة والغسل والكنس والطبخ، وانها قتلت طموحها الفكري أو أنها أجبرت على قتله.

وقد استخدم الرجل في قمعه للمرأة جميع الوسائل المادية والثقافية، ونجحت الثقافة الذكورية على مدى القرون في اقناع النساء عامة بأن طموحهن الفكري ليس إلا انحرافاً عن طبيعتهن، أو نشاطاً ذكوريا نبت خطأ في طبيعة الأنثى ويجب أن يستأصل كما يستأصل البظر.

وجاء وقت أصبحت فيه النساء عقيمات الفكر، وفقدن اهتمامهن بالنواحي الفكرية في المجتمع والحياة، ولم يشعرن بأي نقص لأنهن تصورن أن عقم المرأة ليس إلا عجزها عن ولادة الأطفال.

وفي العصر الحديث لم يستخدم الرجل المتحضر حزام العفة الحديدي ليقمع المرأة جنسياً وفكرياً، ولكنه استخدم وسيلة عصرية أخرى، هي النظريات النفسية العلمية الخاطئة التي تصنع للمرأة طبيعة مشوهة لا تقل في تشوهها عن فعل الحزام الحديدي بجسم المرأة، أو استئصال بعض أعضائها الجنسية.

ان خصي المرأة جنسياً كان يقتضي بالضرورة خصيها فكرياً أيضاً، فالحرية في الانسان لا تتجزأ، وإذا منحت المرأة الحرية لتتكلم، فسوف تقود حرية الكلام إلى حرية التفكير إلى حرية الفعل. وهنا الخطر كل الخطر، لأن المرأة التي تصبح حرة في افعالها، قد تفعل أي شيء، ومعنى ذلك انها قد تذهب إلى رجل آخر غير الرجل المفروض عليها بالزواج، وهنا الخطر كل الخطر الذي يتهدد المؤسسة الأبوية الذكرية.

والواضح أنه بعد كل تلك السنين من القمع، اصبحت المرأة الحديثة حرة إلى حد ما، ولم يعد هناك حزام عفة حديدي، لكن أثر الحزام لا زال موجوداً، بل ان المرأة نفسها تصنع الحزام خوفاً من تلك الحرية الجسدية التي لم تتعود عليها. وهي في هذه الحال أشبه بالسجين الذي قيدت قدماه بالسلاسل الحديدية سنين طويلة،

وحين رفعت السلاسل أصبح خائفاً من مجرد السير على قدميه، وقد يفضل القيود مرة اخرى على تلك الحركة الجديدة التي لم يألفها.

والمرأة أيضاً اصبحت تحب قيودها، وليس ذلك للفروق التشريحية بينها وبين الرجل، ولكن بسبب القهر الاجتماعي الطويل، وخوفها الدفين الآن من أية حركة أو حرية.

وهذا هو السبب في ذلك الذعر الشديد الذي تبديه الأمهات (أكثر من الأباء) حين يلمحن في بناتهن أية حركة نحو أية حرية. وهذا هو سبب تلك الكراهية التي تشعر بها البنت نحو أمها.

ان العلاقة بين الأم وابنتها علاقة مريضة، بنيت على القهر والخوف وفي مثل هذا القهر والخوف تفسد العلاقات بين أعضاء الجنس المقهور. ان أشد أنواع الكراهية تنبت بين المقهور والمقهور، أو بين العبد وزميله العبد. هذا شيء غير طبيعي، ولكن الاشياء غير الطبيعية تنمو في المناخ غير الطبيعي، وفي ظل القهر غير الطبيعي يكره العبد زميله بدلاً من أن يحبه، وينافسه متوهماً أنه عدوه بدلا من أن يتآزر معه ضد العدو الحقيقي.

وهذا ما يحدث للنساء. ان المرأة تنافس المرأة وتكرهها. والأم تحب ابنها الذكر أكثر من ابنتها وتتصور أن ابنها يعوضها عن الاحباط الذي حدث في حياتها كأنثى، أما ابنتها فليست إلا مثلها أنثى، أي أنها تنتمي إلى ذلك الجنس الأدنى.

وهذا الشعور من الأم ينعكس على ابنتها، فتشعر البنت بالأسى والحزن وخيبة الأمل في أمها، التي كانت تظن أنها ستقف في صفها لأنها مثلها.

ويتصور فرويد وزملاؤه أن كراهية البنت لأمها هذه ليست إلا بسبب الفروق التشريحية بين الرجل والمرأة، وغياب عضو الذكر من جسم الأنثى، وتلك الصدمة التي تشعر بها البنت بسبب هذا النقص التشريحي، واتجاهها نحو الأب ليمنحها الطفل الذي يعوضها عن هذا النقص، لكن الأب يخذلها بسبب وجود امرأة أخرى معه هي أمها، وهكذا تكره البنت أمها لأنها تنافسها في حب أبيها. وقد سمى فرويد هذه التركيبة كلها عقدة أوديب أو «الكترا» واعتبرها مرحلة نفسية تمر بها جميع البنات على أنه بالاضافة إلى كل هذا فهناك شيء آخر سماه فرويد عقدة «الاخصاء». وهذه العقدة هي أن البنت الصغيرة تتخيل أن أمها هي التي أخذت منها عضو الذكر وهي طفلة

صغيرة، أي أن أمها هي التي سببت لها ذلك الاخصاء. وهذا أيضاً يزيد من كراهية البنت لأمها.

وقد هوجم فرويد وزملاؤه بشدة من هؤلاء الرجال الذين يذعرهم أي شيء يتهدد كيان الأسرة الأبوية، وأنكروا بشدة وجود عقدة أوديب سواء عند الولد أو البنت، وأنه لا شيء اسمه كراهية داخل هذه الأسرة الأبوية القائمة على الحب وأنه ليس هناك ما يشوب ذلك الحب.

لكن فرويد كان صادقاً في ملاحظاته، وكانت ملاحظاته حقيقية عن وجود ذلك الشعور بالاخصاء عند البنت الصغيرة لكن السبب في هذا الشعور ليس هو عزل عضو الذكر عن جسدها، وإنما هو عزلها عن الحياة، واخصاؤها الفكري والانساني، وحبسها في البيت أو حبسها النفسي عن طريق التحذيرات والتحريمات المفروضة عليها هي فقط وليس على أخيها الولد.

والبنت لا تكره أمها لأنها أخذت منها عضو الذكر، ولكنها تكرهها لأنها تحاول أن تشدها إلى دنيا النساء المحدودة القبيحة التي تفوح منها رائحة البصل والثوم وغسل الصحون والانغلاق عن الحياة الفكرية والثقافية في المجتمع الكبير وتكره البنت أباها بالمثل حين يفرض عليها مثل هذه القيود، لكن الأب عادة يترك مهمة تقييد البنت لأمها. انه يلعب في هذه الحال لعبة مدير السجن، فهو الذي يصدر قرار الحبس، أو قرار الاعدام، لكنه لا يلوث يديه بالدم، أو بتراب السلاسل الحديدية، وأنه يترك عملية تنفيذ الحكم لذلك الجنس الأدنى من الفقراء الذين يعملون كسجانين أو جلادين.

وكم يبالغ الجلاد أو السجان في قسوته، ليس لأنه قاسٍ بطبيعته، وليس لأنه يكره المسجون. وإنما هو يبالغ في قسوته ليرضي مدير السجن أكثر ويتملقه، ليحصل على علاوة.

والأم لا تقسو على ابنتها، ولا تبالغ في فرض القيود عليها إلا من أجل إرضاء الأب أو الزوج من بعد. ومن أجل هذا الارضاء تفعل الأم المستحيل لتحول ابنتها إلى دمية أو عروسة في انتظار الزوج. إن عملية التحويل هذه أشبه ما تكون بالاخصاء فعلاً، لأن البنت تتعلم أن تهتم بكرانيش فساتينها أكثر مما تهتم بتنمية عقلها وقراءتها وثقافتها.

تتعلم البنت كيف تبدو جميلة تجذب عين الرجل. أي تتعلم أن تكون جذابة جنسياً، ولكنها في نفس الوقت وفي نفس اللحظة تتعلم أن تكبت رغبتها الجنسية. أي أنها تتعلم أن تكون جنسية ولا جنسية في الوقت نفسه. وهذه الحالة تدفع البنت الطبيعية إلى الجنون، أو الهستيريا.

ان القانون الذكري الصارم المتناقض يدفع بالمرأة الطبيعية إلى أن تصاب بالهستيريا، ولهذا اشتقت كلمة الهستيريا من «هيستر» ومعناه باللاتينية «رحم» المرأة. وحين لاحظ فرويد أن معظم حالات الهستيريا من النساء تصور أن الفروق التشريحية والهرمونات المؤنثة تجعل المرأة أكثر قابلية للاصابة بالهستيريا.

ولم يكن علاج الهستيريا في العصر الحديث أكثر نجاحاً من علاج الهستيريا في العصور الوسطى، وكما كانت تساق الساحرات إلى كرسي الحرق، ثم إلى الكرسي الكهربي، ثم إلى الكرسي المهدىء، سيقت نساء العصر الحديث إلى الجلسات الكهربية وإلى الاقراص المهدئة والمنومة، وإلى الكرسي لدى الطبيب النفسي المؤمن بـ فرويد ونظرية التحليل النفسي، فيقنعها أن الهستيريا ليس سببها ذلك القهر الواقع عليها، وانما سببها رفضها لأنوثتها، ورفضها لحقيقة كونها ذكراً مخصياً ناقصاً.

وينجح التحليل النفسي في اقناع المرأة بنقصها، وانها الجنس الأدنى وتستحق ما هي فيه من قهر وذل، وعليها أن تحب هذا الذل وتعشقه، لأنه يتفق مع طبيعتها الماسوشية.

وتعود المرأة إلى بيتها مستسلمة هادئة، بل أكثر هدوءاً، ذلك الهدوء الذي يشبه الموت. وتحاول بالجزء الباقي من نفسها وجسمها أن تتكيف مع الواقع المفروض عليها، وأن تقبله وتحبه. وتبدأ المرأة في محاولة تعويضية كبيرة، تعوض بها عما أخذ منها عنوة، ولا تجد سبيلاً للتعويض إلا اطفالها الذكور (بناتها تكرههن لأنهن أيضاً سيكونن ضعيفات مثلها). انها تحب أولادها الذكور، لأنها تجد في قوتهم الاجتماعية تعويضاً عن ضعفها وقهرها. وتتعلق الأم بابنها الذكر تعلقاً مريضاً، فتفسد طفولته، وتفسد شبابه، وتفسد كهولته بسبب هذا الحب غير الطبيعي.

وحين يلاحظ «فرويد» أن الطفل الذكر يحب أمه ويكره أباه يتصور أن ذلك بسبب ما سماه عقدة أوديب، وسبب عقدة أوديب في الطفل الذكر أيضاً هو تلك الفروق التشريحية بين الولد والبنت، وأن الولد يخشى أن يصاب بالاخصاء كالبنت ويقطع

عضوه الذكري ويصبح أنثى مثل اخته. وهو يشعر بالرعب من عملية تحويله إلى انثى، (لانـه بالطبع سيفقد الحرية، والمميزات الاجتماعية التي يتمتع بها الذكور فقط)، ويكره اباه ويخاف منه لأنه يتصور أن هذا الأب ينافسه في حبه لأمه وأنه سيخصيه كنوع من العقاب.

إن ملاحظات فرويد في معظمها صحيحة، لكن تفسيراته هي الخاطئة. ومن أجل أن نحمي الاطفال ذكوراً واناثا من عقدة الاخصاء وغيرها لا بد أن تكون الأم انسانة طبيعية، ولا بد أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة أو الاب والأم علاقة طبيعية انسانية قائمة على الحب والمساواة وليس على الفرض والقهر. ومعنى أن نرفع القهر عن المرأة هو أن نرفع عنها ذلك الفرض بأن دورها في الحياة هو دورها كزوجة وأم فقط، وإن الرجل لا يفرض عليه أن يكون زوجاً وأبا فقط، ولكنه يكون مهندساً أو طبيباً أو كاتباً أو محاسباً، وهو ايضاً إلى جانب ذلك يكون أبا وزوجاً، وأن أبوة الرجل أو كونه زوجاً لا يحرمه من الأدوار الأخرى التي يقوم بها في الحياة. لكن المجتمع يفرض على المرأة ان تلعب دوراً واحداً محدوداً وهو ان تكون زوجة وأماً فقط.

وحين يسمح المجتمع للمرأة بأن تعمل فعملها مباح بشرط ألا يتعارض وواجبها الأول في الحياة (زوجة وأمّا)، وإذا تعارض فلا بد لها ان تعود فوراً إلى البيت ودورها الأول (زوجة وأمّا). بل ان خروج المرأة للعمل ليس (في منطق المجتمع) من أجل ان تنمي قدرتها الفكرية وترضي طموحها الانساني والفكري، وإنما من أجل ان ترفع المستوى الاقتصادي للاسرة الابوية وان تساعد الأب في النفقات، وتساهم في دفع نفقات المدارس. ولهذا يسمح المجتمع للمرأة العاملة بحريات معينة ويحرمها من حريات اخرى. إنه يمنعها من التطور الفكري المستمر أو الوعي المتزايد وإلا اكتشفت الظلم الواقع عليها. ومن هنا ذعر المجتمع وقسوته على اية امرأة تظهر مزيداً من الوعي ومزيداً من الذكاء أو التطور الفكري.

ان الزوج يسمح لزوجته أن تتأخر عن البيت بسبب الاوفرتايم (العمل الاضافي الذي تأخذ عليه أجراً إضافياً) لكنه لا يسمح لها أن تتأخر في حفل أو سينما أو زيارة، ولهذا تزيد نسبة الأمراض النفسية في النساء العاملات عن النساء ربات البيوت. فالمرأة العـاملة تقوم بجميع واجباتها تجاه العمل كزوجة، لكنها لا تحصل على الحريات والحقوق الاجتماعية أو الفكرية أو الجنسية التي يتمتع بها زوجها، وبالاضافة إلى ذلك فهي تعود إلى البيت وعليها أيضاً أن تخدم هذا الزوج وتخدم اطفالها وإلا اتهمت

بالتقصير ونالها العقاب الذي يتفاوت من مجرد اللوم والتأنيب إلى الضرب أو الطلاق أو الزواج بأخرى أو التشهير بأنها لا تعرف واجباتها كأنثى، وانها ناقصة الانوثة، أو منحرفة أو مريضة نفسياً . . . وتذهب إلى الطبيب النفسي، الذي لا يفكر إلا في الفروق التشريحية بين الذكر والانثى. . . وهكذا تدور الدائرة من جديد وتلف المرأة في الدوامة.

وهنا قد يتساءل بعض الناس: أليست المرأة العاملة أسعد حالاً من المرأة غير العاملة؟ ألا يعالج العمل كثيراً من مشاكل المرأة النفسية؟. . . وللاجابة على هذا السؤال لا بد لنا من التعمق قليلاً في موضوع عمل المرأة.

ان العمل بصفة عامة وكما قال علماء النفس اهم وسيلة تربط الانسان بواقع الحياة وحقيقتها، لأن الانسان عن طريق العمل يحتك بجزء من هذه الحقيقة وهو المجتمع الانساني.

لكن العمل في حياة المرأة لا يأخذ هذا الشكل. وفي ظل المناخ العام الذي يقهر المرأة وفي ظل القانون الذي لا يساوي بين المرأة والرجل لا يمكن ان يكون مجرد «عمل المرأة» هو العلاج لتعاستها وامراضها النفسية. ان المرأة أو أي انسان، لا يمكن ان يعمل عملاً إلا اذا تم اعداده لهذا العمل إعداداً سليماً مبنياً على تربية سليمة ودوافع للعمل صادقة.

ان هذه الدوافع هي التي تشكل المثل الأعلى في حياة الانسان، واهدافه من حياته، والقيم التي يقيس بها نفسه، والرغبة في بلوغ القيمة التي رسمها لنفسه بكل جهده وامكانياته، ان كل هذه القيم والمثل تترسب في اعماق الانسان عن طريق التربية منذ الطفولة والمناخ العام الذي يعيش فيه وتتمثل فيه هذه القيم، وتصبح مؤثرات تدفعه نحو الطريق الذي يساعده على تحقيق اهدافه.

ان المثل العليا والقيم التي تتمثلها المرأة منذ طفولتها حتى مماتها، في الأسرة والمدرسة، والشارع والصحافة والاذاعة والافلام والصور والكتب، كلها تدفع بها لا إلى طريق العمل وإنما إلى اصطياد رجل بأي شكل، والزواج منه بأي شكل، وإلا فقد فاتها القطار وفاتتها جنة الله على الأرض.

ولهذا تنظر المرأة إلى العمل كأنه محطة انتظار ليس إلا. إذا جاءها عريس غني

فهي تترك العمل فوراً. وإذا جاءها عريس فقير، فهذا حظها، وعليها ان تعمل حتى يصبح اقل فقرا، ثم تترك العمل اذا ما سمحت الحالة الاقتصادية بذلك. واذا لم تسمح الحالة الاقتصادية بأن تترك العمل أبدا فهذا حظها، وعليها أن تعمل خارج البيت وداخله، وفي أعماقها تحسد زوجة الرجل الذي يمنعه ثراؤه (ورجولته أيضاً في مفهومها) من تشغيل زوجته، مثلما هي تشتغل.

قليل جداً من النساء العاملات من يعتبرن ان العمل أهم من الزواج. أو أن تحقيق ذاتها على اعتبارها انساناً مفكراً في المجتمع أهم من الزواج وإنجاب الأطفال. من النادر جداً للمرأة أن ترسم لنفسها قيمة فكرية عالية في المجتمع، وإلا اتهمت بالذكورة فهذا الطموح الفكري صفة الرجال فحسب. وتخفي المرأة ذكاءها من أجل أن تكون مكتملة الأنوثة. وهذا كله ناتج من المناخ العام والثقافة الذكورية التي تتعرض لها المرأة منذ ولادتها حتى مماتها، والدور الذي يفرض عليها (دور الزوجة والام) بكافة الوسائل التي توهمها بان هذه هي أنوثتها وهذا هو جمالها، وهذا هو سحرها وجمالها. كيف يمكن لها ان تحارب الطبيعة؟ وعلى هذا النحو ترضى المرأة بدورها المفروض، وتحبه، وتسعى اليه، وتتفاخر به، وكم من نساء يتفاخرن بأنهن لسن إلا زوجات وأمهات، وكم من نساء يتفاخرن بأنهن لا زلن أطفالاً ولا زلن ساذجات، وكم من نساء يتفاخرن بتصرفاتهن البلهاء، وكم يتفاخرن بالغباوة، وكم يشعرن بالسعادة الانثوية الكاملة.

وكما يقول جيته (Goethe) الفيلسوف الألماني الشهير : «ليس هناك من هو أكثر عبودية من ذلك العبد الذي يظن أنه حر على حين أنه ليس حراً».

ان استعباد الرجل للمرأة استمر آلاف السنوات، وقد صارعت المرأة ضد هذا الاستعباد آلاف السنوات أيضاً. والصراع بين الجنسين حقيقة تاريخية وأنثروبولوجية ونفسية. قد يظهر الصراع الى السطح أحياناً وقد يختفي في القاع أحياناً أخرى. قد يصبح صراعاً واعياً وملموساً وقد يكون صراعاً خفياً مدفوناً في العقل الباطن واللاوعي.

ويتميز النصف الأخير من القرن العشرين بأن صراع المرأة من أجل تمزيق قيودها وانهاء عبوديتها قد أصبح صراعاً واعياً وملحوظاً، وقد خرج بفضل الدراسات النفسية الحديثة من منطقة اللاوعي إلى منطقة الوعي. لكن المرأة لم تنجح في صراعها حتى الآن في أي مجتمع من المجتمعات. ان عدم نجاح المرأة في إنهاء عبوديتها يشبه

إلى حد كبير عدم نجاح العالم في إنهاء الحروب بين البشر. وقد تصور علماء النفس أيضاً أن الرغبة العدوانية في القتل والحرب والتنافس والطمع رغبة طبيعية في الذكر. ولا شك أن هذا التفسير البيولوجي للحرب يعمي العيون والأذهان عن الأسباب الحقيقية، وهي النظم الاقتصادية والسياسية والثقافية القائمة على الاستغلال. استغلال صاحب السلطة لمن لا سلطة له، واستغلال صاحب المال لمن لا مال له، واستغلال الدول القوية الغنية للدول الفقيرة النامية. ان الدعاية النفسية التي يستخدمها الرجال لتمجيد الحروب والقتل تشبه إلى حد كبير الدعاية النفسية التي يستخدمها الرجال لتمجيد صفات الضعف والاستسلام والخضوع والتضحية في المرأة.

وهنا يقول ايرك فروم (Erich Fromm) : «ان الحرب بين الجنسين قد استمرت منذ آلاف السنين، وان دعاية الرجال عنها في مثل سخافة دعايتهم عن الحروب بين الدول. إن الرجال يدعون ان النساء أقل شجاعة منهم، والحقيقة ان النساء أكثر شجاعة منهم. ويدعون ان النساء أقل واقعية منهم، والحقيقة ان النساء أكثر واقعية منهم. ان النساء اكثر اهتماماً بموضوع السلام والحرب من الرجال».

ان المرأة التي تعلمت في عصرنا الحديث وخرجت الى العمل في أي مهنة تشعر بالقيود من حولها وبالكراهية أيضاً في جو العمل (المناخ العام لجو العمل). والويل لها اذا اظهرت تفوقاً أو ذكاء أو نبوغاً. ان الذكورة هي أقل صفة يمكن ان توصف بها. وان القيود التي تقف في وجه المرأة العاملة لا تنبع فقط من هذه الكراهية العامة التي تحوطها، وإنما تنبع ايضاً من ذلك الشك الذي يملأ نفسها عن قيمة ذلك العمل بالنسبة اليها. إنها لو حظيت بظروف (وهذا نادر بالطبع) تؤكد لها قيمة هذا العمل وقيمة الاستمرار والتفوق فيه، فهي كثيراً ما تقع فريسة التشكك والاحساس بالذنب، لأنها ليست في مكانها الصحيح الذي خلقت من أجله، ألا وهو البيت.

ان العمل في حياة المرأة شيء جديد، وكثير من النساء العاملات يتعرضن للمشاكل النفسية لسببين: الأول: وهو بيئة العمل الذكورية المليئة بالكراهية لهن. والثاني هو قلقهن الداخلي وتمزقهن بين ما هو الصحيح وغير الصحيح لهن كنساء. ولهذا تفشل معظم النساء العاملات في عملهن، أو على الأقل يتخلفن عن زملائهن الرجال الذين لا يواجهون مثل هذه القيود والمصاعب. بالإضافة إلى ان المرأة العاملة تقوم بوظيفتين داخل البيت وخارجه والرجل لا يقوم إلا بوظيفة واحدة. ولهذا تفشل المرأة العاملة في التفوق ويصبح فشلها مرة أخرى برهانا لعلماء النفس على ان المرأة

بسبب الهرمونات والفروق التشريحية لم تخلق إلا للبيت والخدمة والإنجاب. ويصبح هذا الفشل غذاء جديداً للثقافة الذكورية تؤكد به وتبرر به وصاية الرجل على المرأة. وبدلاً من أن تكشف الاسباب الحقيقية التي تعطل حركة المرأة وتفوقها تخفى وتطمس، وبذلك لا تتجه الأذهان إلى علاجها وازالتها من طريق المرأة.

ولا يمكن أن ننكر أن بعض النساء العاملات (رغم كل هذه المعوقات) يتفوقن في مهنهن أو يظهرن نبوغاً في العلم أو الفن أو الأدب. ولكن هؤلاء النساء قلة قليلة بالطبع. كما ان هؤلا النساء (رغم كونهن طبيعيات جداً) يفاجأن حين يجدن أن باب الزواج أصبح مغلقاً في وجوههن. وسبب ذلك ليس لأنهن مسترجلات أو منحرفات أو شاذات ولكن السبب هو أن الرجال يرفضون الزواج منهن، وإذا حدث وتزوج رجل واحدة منهن فكثيراً ما يفشل الزواج، إما لأن الرجل لا يطيق ان تتفوق المرأة عليه، وإما لأن المرأة نفسها بعقلها المتفتح اصبحت غير راضية بالحياة مع زوج له عقل مغلق.

وبرغم التقدم العلمي وازدياد التعلم في العصر الحديث وانتشاره فإن الأسرة الأبوية هي الخلية الأولى التي يتعلم فيها الولد والبنت، ولهذا يتقدم العصر في الاكتشافات العلمية والتكنولوجية وتبقى عقلية الرجل والمرأة ايضاً متخلفة، مغلقة على القيم القديمة التي تقوم على أن المرأة خلقت لتخدم الرجل وليس للنبوغ الفكري أو التفوق الثقافي في المجتمع. ولهذا فان العصر الحديث قد حرم من عقول ونبوغ نصف سكانه، وهم النساء.

ويكتب جون ستيوارت[٢] ميل يقول: «انه لمن الخطأ أن يظل المبدأ الذي يحكم العلاقة الاجتماعية بين الجنسين قائماً على اخضاع النساء بالقانون للرجال. وهذا هو أهم الأسباب التي تعوق التقدم الإنساني ولهذا يجب علينا أن نستبدل هذا القانون بقانون آخر يحقق المساواة للجنسين في نواحي الحياة كافة».

ان النساء في معظم انحاء العالم (البلاد المتقدمة والبلاد النامية) ما زلن يخضعن بالقانون للرجال. وان هذا القانون ليس هو القانون الجائر الوحيد في العصر الحديث. ان معظم قوانين العصر الحديث جائرة، فهي تخضع المرأة للرجل، وتخضع الفقير للغني، وتخضع الأسود للأبيض، وتخضع الاغلبية للقلة وتخضع الشعوب الفقيرة النامية للدول الاستعمارية الكبرى.

ان مهنة الطب، الجسدي والنفسي، ليست إلا احدى مؤسسات العصر الحديث، وليست إلا جزءاً من الثقافة والحضارة الذكورية العامة، ولهذا تلعب مهنة الطب (كغيرها من المهن) دورها في «تثبيت القيم الذكورية التي تحكم علاقة الجنسين. ويقنع الاطباء (عن وعي أو غير وعي) النساء بأن ذلك الاكتئاب الذي يصيبهن بعد الاربعين من العمر ليس إلا بسبب اضطراب الهرمونات نتيجة لانقطـاع الطمث. وتخرج الكتب الطبية والنظريات التي تقرر ان ٨٥٪ من النساء بعد سن الاربعين يصبن بحالة اكتئاب (طبيعية) بسبب الهرمونات، وان النسبة الباقية منهن ١٥٪ ينجون بأعجوبة من هذا الاكتئـاب لسبب بيولـوجي آخـر مجهـول. ويصف الاطباء لهؤلاء النسـاء المكتئبات العلاج، أي: بعض الأقراص أو الحقن، وبالطبع تأخذ النساء الدواء، لكن الاكتئاب يظل، وتعود النساء إلى الاطباء ويصرف الاطباء لهن مزيداً من الأقراص أو الحقن وتأخذ النساء الدواء لكن الاكتئاب يظل. وتكون النتيجة في النهاية هي امتلاء جيوب الأطباء بالمال، وامتلاء جيوب شركات الأدوية والصيادلة بالمال، لكن اكتئاب النساء يظل على حاله.

اما الأطباء من تلامذة فرويد والتحليل النفسي فإن مهمتهم هي اقناع المرأة بدورها الطبيعي في الحياة وهو البيت، والتكيف مع الظروف التي قتلت طموحها الفكري ونبوغها، لأن السعادة العظمى للمرأة ليست إلا في غسل جوارب الزوج وولادة الأطفال كالارانب.

ان اشد ما يذعر له المجتمع الذكوري ان تثبت المرأة تفوقها في التعليم والعمل في المجالات العلمية والفكرية، وسبب الذعر هو خوفهم من أن تتذوق النساء سعادة العمل الفكري ولذته (اللذة المحرمة) فينجرفن في ذلك الطريق ولا يجد الرجال من يخدمهم في البيت ويطبخ لهم ويغسل سراويل الأطفال.

ان المجتمع الذكوري حساس، شديد الحساسية لمصلحته، كأي مجتمع قائم على الاستغلال. ان المجتمع الأمريكي كان يكره تعليم الزنوج وفتح المدارس العالية لهم (الموقف نفسه مع النساء)، والسبب في ذلك ان المجتمع الأمريكي كان يخشى ان يتذوق الزنوج سعادة العمل الانساني الفكري الراقي فينجرفوا في هذا الطريق، وتعـاني البيوت الأمريكية من نقص في الخدم والطباخين وخدم المائدة والخادمات ومربيات الأطفال.

ومن اجل ابعاد المرأة عن المجالات الفكرية الجادة يدعي الرجل انه يشقى في عمله ويتعب (ينكر اللذة والسعادة بالطبع)، ويتظاهر بأنه يحسدها على الراحة التي تتمتع بها في البيت. وحينما تطلب منه ان يبادلها فيأخذ راحتها وتأخذ هي شقاءه يرفض بالطبع، وبلا وعي يقول لها أو لنفسه: ان غسل الصحون أو الطبخ لا يمكن ان يرضي طموحي في الحياة!

ان غسل الصحون والطبخ لا يمكن ان يكون مهنة الرجل الذكي الطموح المحترم، ولكنها قد تكون مهنة الرجل الفقير الجاهل، الذي حرم من التعليم بسبب فقره.

اما المرأة فانها مهما بلغت من الذكاء والتعليم ومهما بلغت من النبوغ فإن مهنة الطبخ وغسل السراويل والجوارب هي مهنتها الأولى والوحيدة في الحياة ولهذا فإن المرأة (من الطبقات الراقية) حين تجد من يغسل ويطبخ بدلاً منها، فهي تصبح على الفور امرأة عاطلة يقتلها الملل والفراغ، فتخرج إلى الشوارع تتسكع امام نوافذ عرض الملابس والابتكارات، أو تقتل الوقت في الحفلات والشرب والرقص والعربدة الجنسية والفسق. رغم كل هذه المحاولات تظل تشعر بالاكتئاب، والحزن في أعماقها، لأن عمرها ضائع وحياتها ضائعة. وتذهب الى الطبيب النفسي للعلاج. وتجلس في حجرة الانتظار مع النساء الأخريات، العاملات، وغير العاملات، وكلهن مريضات بالاكتئاب، وتعددت الأسباب والاكتئاب واحد.

وليس غريباً أن تصاب معظم النساء (عن وعي أو عن غير وعي) بالاكتئاب والتعاسة، فالسعادة أو الصحة النفسية كما عرفها فرويد وغيره من علماء النفس هي أن يعمل الانسان ويستخدم كل امكانياته الفكرية وطاقاته، وأن يحتك بالمجتمع ويرتبط بحقيقة الحياة. ويقرر فرويد[٣] ان العمل المهني في المجتمع (Professional work) هو الذي يحفظ شخصية الانسان، وسلامته الداخلية أي صحته النفسية. لكن يبدو أن فرويد كان يتصور أن صحة الانسان النفسية شيء، وصحة المرأة النفسية شيء آخر.

وتشاء الصدف أن تنبغ ابنة فرويد فكرياً، وهي «أنا» (Anna) وتكون هي الوحيدة من كل أبنائه الذكور، التي أسهمت في العلم والبحوث العلمية النفسية. وقد غيرت هذه الحقيقة (التي فرضت نفسها على فرويد) بعضاً من أفكاره عن المرأة في أواخر حياته، فإذا به في سنة ١٩٣٢ ينصح تلاميذه بألا يحددوا الصفات النفسية أو الشخصية للانسان حسب الذكورة أو الأنوثة، بما في ذلك صفة (السلبية) و(الإيجابية) التي درج

فرويد وعلماء التحليل النفسي على اعتبار ان الأولى صفة المرأة الطبيعية، والثانية صفة الرجل الطبيعي. وقد حاول فرويد ان يراجع بعض أفكاره عن المرأة حين كتب: «حقاً، ان الوظيفة الجنسية لها أثر كبير في حياة الشخص، ولكن علينا الا نتجاهل ان المرأة قد تكون إنساناً في النواحي الأخرى من الحياة».

واعترف فرويد اخيراً بأن معلوماته عن المرأة قليلة جداً، وكتب يقول: «إذا أردت أن تعرف المزيد عن الأنوثة فحاول أن تعرف ذلك من تجاربك في الحياة، أو اقرأ الشعراء، أو انتظر حتى يستطيع العلم أن يزودك بمعلومات أكثر عمقاً وأكثر منطقية»[4].

ولم يحاول تلامذة فرويد الرجال الانتباه إلى هذا الكلام الأخير. وظلت نظرية التحليل النفسي سائدة في الطب النفسي والسبب في ذلك أن طلبة الطب يدرسون الطب القديم لا الطب الحديث، وقد ظهرت سيكلوجية جديدة تماماً للمرأة في السنوات الأخيرة، لكن كليات الطب هي آخر من يعلم. والسبب في ذلك شيئان: الأول أن اساتذة الطب لا يجدون الوقت لقراءة البحوث الطبية الجديدة بسبب انشغالهم ليل نهار في عياداتهم الخاصة ووقوعهم تحت سطوة الثراء واغراءاته. والسبب الثاني أن تطوير التعليم الطبي (وبالذات في المجتمعات النامية) يسير ببطء شديد كالسلحفاء، على حين أن البحوث الطبية والعلمية الجديدة تسير بسرعة الصاروخ.

١٢ ـ المرأة والزواج

الذي يدرس قوانين الزواج في مختلف انحاء العالم يدرك على الفور ان القهر الاساسي للمرأة ينبع ويصب في هذه القوانين التي لا تجعل الرجل وصياً على المرأة فحسب وانما مالكا لجسدها ونفسها وكل شيء. ان عقد الزواج ليس إلا عقد تمليك، تفقد فيه المرأة ملكيتها لنفسها وتسلمها للزوج. وفي ظل قوانين الزواج يملك الرجل لا المرأة فحسب وحدها ولكنه يملك اطفالها ايضاً.

ونادراً جداً ما ترفض المرأة الزواج، بل انها تسعى الى الزواج، لأنه الشكل الوحيد الرسمي الشرعي والقانوني والاخلاقي الذي يمكن من خلاله ان تعيش اقتصاديا (إذا لم يكن لها عمل أو ايراد) وتحمى اجتماعياً (المرأة غير المتزوجة متهمة دائماً) وترضى جنسياً، (لا يسمح للمرأة ان تمارس الجنس خارج الزواج إلا إذا كانت مومساً) بالاضافة الى ان الزواج اكتسب نوعاً من الحماية الدينية واصبح شبه مقدس، ولم يعد من السهل لأي امرأة ان ترفضه أو تنقده.

ومن المعروف أن القانون الظالم، يفسد المظلوم ويفسد الظالم ايضاً. انه يعود المظلوم على الخنوع والذل، ويعود الظالم على القسوة والبطش والعدوان. وهذا هو ما حدث لكل من شخصية المرأة والرجل في ظل قوانين الزواج الجائرة. ان شخصية الرجل لا تترك لطبيعتها تنمو في مناخ عادل ولكنها تنمو في مناخ يفرض عليه أن يكون مسيطراً، وظالماً لزوجته أو بناته اللائي هو يحبهن لو ترك لطبيعته. وفي ظل الزواج يضحى بالزوجات والبنات من أجل طموح الرجال.

ويرغم ادراك المرأة لهذا المصير التعيس لها إلا انها تدرك ايضاً أنه المصير الوحيد المقبول لها اجتماعياً. ان المرأة لا تختار بين الزواج أو عدم الزواج، ولكنها يجب أن تتزوج، وإلا فان المجتمع لا يقبلها، ولا يحترمها، وفوق كل ذلك لا يعتبرها امرأة

طبيعية. ومهما بلغت المرأة من الذكاء وتفوقت في عملها ونبغت، ثم لم تتزوج فلا بد أن هناك عيباً فيها.

وقد أفسد الزواج مفهوم الرجولة كما افسد مفهوم الانوثة. ان مفهوم الرجولة أصبح يعني امتلاك القوة، وما يتبع امتلاك القوة من تميز. ان الزوجة التي تطلب أن تتساوى بزوجها تتهم بأنها تحاول ان تسلب رجولة زوجها أو تجعله بغير رجولة، ولهذا تخشى الكثير من الزوجات المطالبة بهذا الحق. ويصبح الزوج الذي يساوي بين نفسه وبين زوجته أقل رجولة من ذلك الذي يحكمها ويجعلها خاضعة (يسمونه الرجل الحمش) ويحاول كل رجل أن يثبت رجولته، وذلك بأن يكون «حمشا» وأن يحكم زوجته بيد من حديد. وهذه المحاولة تضع على الرجال عبئاً نفسيا مستمراً، لأن عليه ان يقدم الدليل على رجولته عن طريق اظهار قوته وسيطرته، وبهذا يتعلم الرجل كيف يكون ديكتاتوراً، تخدش رجولته أي مخالفة صغيرة من زوجته أو أطفاله، ولا يطيق أن يناقشه أحد، ويزيد من بطش الرجل انه الذي ينفق على زوجته واولاده، وانهم (إذا غضب وامتنع عن الانفاق اليهم) لا يجدون أي مأوى آخر. كثيراً ما سمعت من الأبناء والبنات هذه الجملة: «انه ينفق علينا ولهذا فنحن نطيعه خوفاً من ألا يدفع لنا مصاريف الكلية ويضيع مستقبلنا». والزوجة التي لا تعمل والتي يعولها زوجها ايضاً تقول لنفسها: «انه ينفق علي» ولهذا أطيعه خوفاً من أن يطلقني فلا اجد المأوى».

ويصبح الرجل مطالباً بأن يكون أقوى من زوجته، وان لم يكن أقوى منها حقيقة فلا بد ان يظهر للناس انه الأقوى بأي شكل. ويتعلم الولد ان يكون أقوى من اخته البنت، فإذا لم يكن اقوى منها فلا بد ان يظهر للناس انه الأقوى، لكنه يشعر في اعماقه انه اضعف، ويعذبه هذا الشعور، ويحاول اخفاءه بجهد نفسي اكبر، وبذلك يبالغ في سيطرته وقسوته ليظهر للناس ان له رجولة قوية، لكن هذا المظهر القوي والمبالغ في قوته يصبح اكثر تناقضا مع حقيقته الداخلية، وهو انه ضعيف، وبذلك يزداد احساسه بضعفه، ويضطر الى مضاعفة قوته الظاهرية، وهكذا.... حتى يصبح الرجل كالبالونة المنفوخة، كبيراً من الخارج، ومن الداخل خاوياً، او كالديك المنفوش، الذي يزيد من حجمه بأن ينفش ريشه. وكثير من الازواج يبدون كالديوك المنفوشة حجمهم اكبر من حقيقتهم، وقسوتهم الظاهرية تخفي رغبة عنيفة في البكاء على كتف امرأة بشرط الا اتكون زوجته. ولهذا يتسلل معظم الازواج في الليل من جوار زوجاتهم ويلجأون إلى امرأة اخرى. ان الذي يدفعهم إلى ذلك في معظم الاحيان

ليس هو الحرمان الجنسي، وانما هو الحرمان من ان يكون الرجل على طبيعته وان يظهر ضعفه الذي يخفيه امام زوجته الى الأبد. ان بعض النساء اللائي قابلتهن في سجن القناطر، والمحبوسات في قضايا الدعارة، ويطلق عليهن المومسات، بعض هؤلاء اعترفن لي ببعض الحقائق، والتجارب التي مرت بهن. قالت احداهن لي ان بعض الرجال كان يطلب منها ان تأخذ هي وضع الرجل وان يأخذ هو وضع الانثى. وقالت أخرى: ان بعض الرجال كان يطلب منها ان تقسو عليه ببعض الكلمات القاسية حتى يبكي، وقالت اخرى: ان بعض الرجال كان يطلب منها ان تصفعه او تضربه، حتى يشعر باللذة.

وقد وجد كينزي وماسترز وجونسون في بحوثهم عن الحياة الجنسية للرجال والنساء، ان الرجال لا يختلفون عن النساء في رغباتهم ومنها رغبة الماسوشية. وقد لاحظ فرويد وزملاؤه أن كثيراً من الرجال مصابون بالماسوشية. لكنهم لم يحاولوا ان يفهموا الاسباب الحقيقية لهذه الماسوشية، وانما ارجعوها إلى الفروق التشريحية ايضاً بين الجنسين، وإلى عقدة اوديب في الطفولة. وقال فرويد: ان الماسوشية ليست إلا سادية موجهة إلى النفس وقد عارض ارنست جونز نظريات فرويد عن ماسوشية المرأة وسادية الرجل وقال: ان منبع الماسوشية والسادية هو الطفولة التي يعاني منها الطفل من ازدواجية الشعور[1]، وهو الحب والكراهية في الوقت نفسه لأبيه وامه، وان عقدة أوديب في الولد والبنت هي منبع ذلك، لكن ارنست جونز كان متأثراً بأفكار فرويد ولم يصل إلى الاسباب الاجتماعية التي تجعل الطفل يعاني من ازدواجية الشعور، وتصور ان سبب ذلك هو عقدة الاخصاء في الطفل الذكر أو عقدة حسد عضو الذكر في الطفل الانثى، أي انه عاد مرة اخرى إلى الفروق التشريحية بين الذكر والانثى.

وقد كان «الفريد أدلر»[2] هو اول طبيب من اطباء النفس يرفض افكار فرويد عن الفروق التشريحية بين الجنسين، واول من ينبه الاذهان إلى الاسباب الاجتماعية في الفروق النفسية بين الجنسين سواء في مرحلة الطفولة او مراحل العمر بعد ذلك. وقد كتب أدلر يقول[3] «ان الاسباب الاساسية لهذه الظاهرة غير السعيدة (في حياة الاطفال والرجال والنساء) ترجع الى الاخطاء في حضارتنا.

ان ما يميز حضارتنا هو الاضطهاد، وهذا الاضطهاد يمتد ويؤثر في جميع نواحي حياتنا. ان هذه الاكذوبة بأن المرأة جنس أدنى، وما يقابها من اكذوبة اخرى بأن الرجل جنس أعلى تفسدان على الدوام علاقة المرأة بالرجل وتشوهان الانسجام بينهما. وقد

نتج عن ذلك حدوث توتر غير طبيعي في جميع العلاقات الجنسية، هذا التوتر يهدد، بل انه يقضي تماماً على أية فرصة للسعادة بين الرجل والمرأة. ان جميع أشكال الحب في حياتنا قد تسممت، وشوهت، وفسدت بذلك التوتر. وهذا هو السبب في أننا من النادر جداً أن نصادف زواجا سعيداً. وهذا هو السبب في أن كثيراً من الأطفال يكبرون ويكبر معهم الشعور بأن الزواج شيء كريه بالغ الصعوبة والخطر... ويكفي أن الاطفال يجبرون على أن يتبعوا ذلك السلوك الشائع وهو إلغاء واحتقار الجنس الآخر (النساء).

وقد اوضح بعض علماء النفس المتنورين في السنوات الأخيرة اسباب الاضطرابات النفسية التي يعاني منها الأزواج والزوجات، ويسمونها «أمراض الزواج النفسية»، وأهمها تلك العلاقة السادية الماسوشية التي تتميز بها علاقة الرجل والمرأة الجنسية، وغير الجنسية أيضاً. وقد وجد أن كلا الجنسين يمارسان السادية والماسوشية معا، واتضح ان الماسوشية والسادية وجهان لعملة واحدة، وأن الشخص السادي لا بد أن يكون ماسوشيا أيضاً سواء كان ذكراً أو انثى. وقد وجد أن الأزواج والزوجات (في ظل قانون الزواج الجائر) يصابون جميعا بالسادية والماسوشية، أو السادوماسوشية Sadomac-hosism وان هذا المرض النفسي ينتقل الى الاطفال بالطبع منذ أول يوم في ولادتهم، لأنهم يعيشونه في جو سادوماسوشي، ويلقنون عن طريق التربية المبادىء السادوماسوشية، ويصبح الطفل مزدوج الشعور. فالطفل سواء الذكر أو الانثى يحب أباه لكنه يكرهه (بسبب خوفه من سيطرته وقوته) والطفل سواء الذكر أو الانثى يحب امه ولكنه يكرهها ايضاً (بسبب احتقاره الداخلي لها كجنس أدنى). والطفل الذكر يحب اخته لكنه يكرهها (لأنه يخاف أن يكون مثلها ينتمي الى الجنس الادنى). والطفلة الانثى تحب اخاها لكنها تكرهه (لأنها تحسده وتود أن تصبح مثله وتنتمي الى الاجنس الأعلى). وهكذا يدور افراد الأسرة الأبوية في دوامة ازدواجية المشاعر، ويتمزقون (منذ الولادة حتى الممات) بين مشاعر الحب الانسانية الطبيعية فيهم، وبين مشاعر الكراهية المفروضة عليهم اجتماعياً من قانون الزواج الجائر. وحيث أن الزواج هو مصير الناس جميعاً فان العلاقات الاجتماعية بين البشر فسدت وتمزقت بين الحب والكراهية، ولم ينتج عن هذا الوضع إلا الخلل الانساني في العلاقات جميعاً، سواء على مستوى الأفراد، أو الجماعات، أو الشعوب أو الدول، و(أصبحت لغة التفاهم بين البشر هي الحرب والقتل والسطو. البلاد الكبيرة تسطو على البلاد الصغيرة، وحين تهب البلاد الصغيرة للدفاع عن نفسها تنشب الحرب في العالم، ولهذا نشبت الحرب العالمية

الأولى والثانية ، وأصبح العالم مهدداً بحرب ثالثة يتوقعها الجميع وينتظرونها بين لحظة وأخرى) .

وكما يدعي الزوج أن قسوته علىَ زوجته ليست إلا بسبب الحب والرغبة في الحماية، فإن البلاد الكبيرة التي تشعل الحرب والدمار في البلاد الصغيرة تدعي أن هذه الحرب وهذا الدمار في البلاد الصغيرة ليس إلا بسبب الحب والإنسانية والرغبة في الحماية. ان كلمة «الحماية» ارتبطت بكلمة الحرب والاستعمار. وهكذا تحت ستار الحب والحماية تحدث أشد الأعمال ظلما وفتكا واستغلالاً. وقد كتب رونالد لينج يقول: «إننا نحطم أنفسنا بالعنف الذي يتنكر في زيّ الحب»[٤] .

ان النظرة العلمية الشاملة للحياة والناس هي التي تجعلنا ندرك مساوىء القوانين الظالمة، وندرك آثار هذه القوانين الضارة الممتدة الى مختلف نواحي الحياة. لكنني (عن طريق البحث العلمي في مختلف قوانين الزواج في العصور المختلفة حتى عصرنا هذا) وجدت أنه ليس هناك من قانون ظالم على وجه الأرض أكثر من قانون الزواج وليس هناك من اضطهاد في تاريخ البشرية مثل اضطهاد الرجال للنساء واليكم بعض الأمثلة من مختلف العصور ومختلف الشعوب.

كان من حق الرجل ان يقتل زوجته كما يقتل عبيده في العهد الأول لانشاء الأسرة الأبوية، ولم يكن لأحد ان يسأله عن السبب، وكان من حق الرجل ايضاً ان يقتل اطفاله. فقد كان هؤلاء يعتبرون ملكا خاصاً للرجل كقطعة الأرض التي يملكها وله حرية التصرف فيها. وكانوا جميعاً يسمون بالعبيد (الاطفال والنساء الذين يملكهم الأب)، وان كلمة اسرة (Family) في اصلها اللاتيني جاءت من كلمة (Familia) ومعناها عدد العبيد الذين يملكهم رجل واحد.

وفي العصور الوسطى لم يكن حال الزوجات بأحسن حالاً من هذا، وكانت مخالفة الزوجة لزوجها في أي شيء يعتبر نوعاً من الجنون أو السحر والاتصال بالشياطين، وكان هؤلاء النساء او الساحرات الشريرات يسقن إلى السجن أو المستشفى العقلي أو التعذيب أو الحرق حتى الموت.

ان الذي يدرس التاريخ، ويتتبع تطور الزواج في المجتمعات المختلفة يندهش لهذا الظلم الذي وقع على المرأة سنوات طويلة ممتدة، منذ انشاء الرجل اسرته الأبوية. وفي التاريخ المصري القديم كان الزوج والزوجة متساويان تماما في الأسرتين الثالثة

والرابعة. كانت المرأة في ذلك الوقت تنسب إطفالها اليها. وعندما سيطر الحكم الأقطاعي(*) على السلطة في عهد الأسرة الخامسة فرض الرجل نظامه الابوي ليرث الاب أبناءه، وبدأ مع النظام الابوي تعدد الزوجات ثم نظام التسري (المحظيات) وبدأ الأطفال غير الشرعيين. وقد حدثت اول ثورة اشتراكية في التاريخ البشري ضد الاقطاع سنة ٢٤٢٠ قبل الميلاد، في عهد الاسرة السابقة، وهي الثورة التي عرفت باسم ثورة (منف) ضد الاقطاع والملوك، وقد خرق المصريون القصر الملكي نفسه، وطالبوا بتكافؤ الفرص في الامتيازات الجنائزية، ونادوا باحتقار الملكية. لكن بعض المؤرخين صوروا هذه الثورة بشكل معاد، وصوروا الازمة على انها مجرد تغيير الأيدي القابضة على الثروات. وقد كتب بعض هؤلاء يقول: «ان اولئك الذين لم يكن في مقدورهم ان يأمروا بصنع صندل لاقدامهم قد استولوا على الكنوز»[٦].

وقد عاد الاقطاع مرة اخرى، وثار الشعب مرة ثانية سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد ضد الاقطاعيين من الفراعنة، وجاءت الأسرة العاشرة ونظام «الرودو» وقضي على نظام التسري، واختفت ظاهرة الاطفال غير الشرعيين ثم عاد الاقطاع في عهد الاقطاع الثاني عام ١٠٩٤ قبل الميلاد حين استولى «حرحور» الكاهن الأعظم على السلطة، وعاد نظام التسري، واصبح للرجل وحده حق الطلاق.

وفي عهد الملك بوكخوريس من الاسرة ٢٤ بعد القضاء على العهد الاقطاعي الثاني عام ٦٦٣ ق.م. تحرر الابناء من سلطة الأب، واستردت المرأة حقوقها وتحرر الزواج من سلطة الكهنة فلم يعد الزواج ذا قدسية دينية. وقد اتضح أنه مع النظام الأبوي لا بد من وجود نظام تعدد الزوجات والتسري (المحظيات).

وقد قال خطيب اليونان الشهير «ديموستين»: «نحن نحتفظ بالعشيقات لمتعتنا وبالمحظيات ليقمن على خدمتنا اليومية، اما الزوجات فلكي يكون لنا الابناء الشرعيون وليكن مدبرات امينات لبيوتنا»[٧].

وفي الأسرة العبرية الأبوية كان من سلطة الأب أن يقتل أبناءه. وقد خضع إسحق لأبيه ابراهيم عندما أراد أن يذبحه للإله «يهوه» «أو يهودا». أما الملك سليمان (كاتب نشيد الانشاد) فقد كانت له ٧٠٠ من النساء، و ٣٠٠ من السراري[٨].

وقد كان اخناتون (١٣٧٢ق.م) هو أول من بدأ شريعة توحيدية، واتخذ معبوداً واحداً هو رع حاراختي الذي يتألق في الأفق بمظهره (شو النور، ويكمن في قرص الشمس[٩].

وقد توالى على المجتمع المصري بعد حضارة الفراعنة، حضارات الإغريق، ودخول الاسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ق.م. ثم الرومان منذ ٣٠ ق.م. وانتشار المسيحية في ظل الامبراطورية الرومانية قبل الفتح الإسلامي. وقد كان للعرب حضارة قبل الحضارة الاسلامية، ويقول المؤرخون ان المرأة في العصر الذي سمي بعصر الجاهلية كانت هي التي تختار زوجها وتحادثه في أمر الزواج وكان الأطفال ينسبون للأم في بعض القبائل. والمرأة العربية في البادية لم تعرف الحجاب وكانت تخالط الرجال،بعكس حياة المرأة في المدن. ومن ملوك العرب قبل الاسلام من نسب لأمه كعمرو بن هند، ومنهم من نسب إلى أبيه. وكان نظام القرابة في تلك القبائل يقوم على أساس الأم لا الأب، وتبقى المرأة بعد زواجها فرداً في عشيرتها، وينتقل زوجها للعيش معها. وكان لها الحق في اختيار زوجها وتطليقه. ويكتب أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، يقول: «والبدويات منهن حين يطلقن أزواجهن يحولن خيامهن ان كانت الى الشرق فإلى الغرب أو كانت الى الجنوب فإلى الشمال» [١٠] وكان الطلاق يتم بمجرد أن تحول المرأة باب خيمتها. أما في المدن فلم يكن للمرأة حقوق نساء البادية وكان الزواج عقد بيع وشراء.

وكان في العصر الجاهلي نوع من الزواج يسمى ب.«زواج المشاركة»، وهو صورة من نظام تعدد الأزواج، حيث تتزوج المرأة بعدد من الرجال بشرط الا يزيد على عشرة رجال وإلا اعتبرت من البغايا.

وعن حديث للسيدة عائشة[١١] عن الجاهلية تقول: «أن يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فيصيبونها فإذا حملت ووضعت ترسل اليهم فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع. فإذا اجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان... تسمي من أحبت باسمه. فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل».

وكان عند العرب ايضاً نوع من النكاح يسمى نكاح الاستبضاع. وصفته السيدة عائشة في حديثها بأن الرجل كان يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها «ارسلي إلى فلان فاستبضعي منه»، ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه (غالباً رجل عظيم لأن الزوج يريد ابناً من نسل ممتاز فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب». وكان الطفل المولود يعتبر ولداً للزوج الشرعي وليس للرجل العظيم الذي جاء من صلبه. ونكاح الاستبضاع صورة أخرى من نظام تعدد الأزواج،

وما زال أثره واضحا في حالات بعض النساء العاقرات حتى يلدن[11].

وكانت الاسيرات يعتبرن كما اعتبرهن الإسلام فيما بعد ملكاً لليمين. وقد عرف العرب نوعين من الزواج: بالشراء، وزواج الصديقة. وكان الزواج بالشراء هي أن تصبح الزوجة جارية لزوجها لا يطلقها إلا حين يبيعها لسيد آخر لو أراد. أما زواج الصديقة فهو ألا تكون المرأة جارية. وإنما زوجة صديقة لزوجها، وقد أخذ الاسلام بالنظام الثاني فقط، وهو زواج الصديقة، ولذلك سمي المهر «بالصداق». وقد أباح الاسلام معاشرة الزوج الجنسية للرقيقات (ما ملكت ايمانهم)، الجواري، دون أن يسمي ذلك زواجا بل سماه «تسريا»، والسيد ليس ملزماً مطلقاً بأن يعترف بالولد الذي تلده احدى جواريه، وإذا اعترف يصبح الولد حراً، وتصبح أمه حرة بعد وفاة سيدها.

وقد اباحت المسيحية ايضا للزوج ان يحتفظ بنساء أخريات في منزله مع زوجته وسمى هؤلاء النساء بالسراري. وما زال المجتمع الحبشي المسيحي حتى اليوم يبيح للزوج أن يحتفظ بهؤلاء السراري في بيته. وقد ألغي نظام السراري أو التسري في مصر في نهاية القرن العاشر (في عهد الأنبا أبرام بطريق الاسكندرية الذي قتل بسبب ذلك سنة ٩٧٠)

وينص قانون نابليون (عنه أخذ القانون المصري) على حق الرجل في خيانة زوجته ما دام لا يحضر عشيقته إلى منزل الزوجية، أما الزوجة فانها عرضة لأشد العقاب إذا أقدمت على خيانة زوجها.

ومن كثرة الخيانات الزوجية قضت المادة ٣١٢ قانون نابليون على أن الطفل الذي يولد اثناء الزواج يعتبر ابنا للزوج. وقال الإمام أبو حنيفة أن عقد الزواج الصحيح وحده سبب في ثبوت نسب الولد لأبيه.

وكانت مصر تاخذ بهذا الرأي حتى سنة ١٩٢٩، ثم أخذت برأي أحمد ابن حنبل والشافعي ومالك الذين يقولون أن الدخلة أو الدخول لا بد أن يكون ممكناً ليثبت النسب. والشريعة اليهودية تجرد المرأة من جميع حقوقها في مختلف مراحل حياتها، وتجعلها تحت وصاية أبيها وأهلها قبل زواجها، وتنزلها في كلتا الحالتين منزل الرقيق. وتبيح الديانة اليهودية للأب الفقير ان يبيع ابنته بيع الرقيق لقاء ثمن من المال[13]، وإذا مات شخص دون أن ينجب ذكوراً تصبح أرملته (تسمى عند اليهود «ياباماه») زوجة لشقيق زوجها أو أخيه لأبيه سواء رضيت بذلك أم كرهت).

وتنص الشريعة الهندية البرهمية على أن المرأة تظل طول حياتها تحت سيطرة الرجل، وتنص المادتان ١٤٧، ١٤٨ من قوانين مانو على «أنه لا يحق للمرأة في أي مرحلة من مراحل حياتها، أن تجري أي أمر وفق مشيئتها ورغبتها الخاصة حتى لو كان ذلك الأمر من الأمور الداخلية لمنزلها (مادة١٤٧). ففي مراحل طفولتها تتبع والدها، وفي مرحلة شبابها تتبع زوجها، فإذا مات زوجها تنتقل الوصاية عليها إلى أبنائها الذكور، فإن لم يكن له أبناء انتقلت الوصاية إلى عمومتها أو الأقرباء، وفي حالة عدم وجود هؤلاء انتقلت الولاية إلى الحاكم (ماده ١٤٨). وورد في المادة ٣٣ من الكتاب الثالث من قوانين مانو (وهو كتاب مقدس لديهم يؤمنون أن مؤلفه اله منبثق عن الاله الخالق براهما[١٤] أنه: «إذا استولى رجل على امرأة بالقوة وسباها من منزل أهلها وهي تبكي وتصرخ في طلب النجدة، وانتصر على من حاولوا مقاومته فقتلهم أو جرحهم فإن طريقته هذه تسمى طريقة الجبابرة أو العمالقة «Mode des Geants» وتنص المواد ٢٣، ٢٥، ٢٦، من الكتاب الثالث على أن: طريقة الجبابرة طريقة مشروعة للزواج في طبقة الكشتريين (رجال الحرب).

والمرأة في القانون الروماني ليست أحسن حالاً منها عند الشريعةالهندية البرهمية، بل يزيد على ذلك أن الآب ليس له حق بيعها كالرقيق فحسب ولكن له حق قتلها أيضاً، وبعد الزواج يحل الزوج محل الأب في السيطرة عليها وامتلاكها[١٥]. وقراءة تاريخ العرب إبان العصر الجاهلي تقودنا الى ان ندرك أن العبيد والاماء (الرقيق) كانوا قوام الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت، وأنهم كونوا من كثرتهم طبقة اجتماعية كبيرة . وكانت الاماء (العبيد من النساء) يستخدمن بواسطة مالكهن في الخدمة بالبيت والطهو وجمع الحطب والغناء والرقص وإشباع رغبات الرجل الجنسية أيضاً، وفي بعض الأحيان كان المالك يشغلهن بالبغاء من اجل كسب المال من ورائهن .

ويكتب الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه عن القيان والغناء في العصر الجاهلي يقول: «ولم يكن هؤلاء الساده يكتفون بأن تكون اماؤهم القوامات على شؤون منازلهم ورعاية امورهم، وان يكن في الوقت نفسه متاعاً فنيا لهم أو متعة جسدية، بل تجاوزوا ذلك كله إلى أن اتخذوهن متجراً ومكسبا ومأكلة يدررن عليهم الربح كما تدره أنواع المعايش الأخرى. ذكر ابن حبيب أن من سننهم في الجاهلية «أنهم كانوا يكسبون بفروج امائهم، وكانت لبعضهن راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها» (المحبر: ٢٤٠)وكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء. وقد روي عن ابن عباس

(تفسير الطبري الميمنية بمصر ١٨: ٩٢-٩٣) أنه قال: كانوا في الجاهلية يكرهون اماءهم على الزنا يأخذون اجورهن فجاءت الآية الكريمة في القرآن: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن اردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم». وذكر النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) - على هامش الطبري ١٨: ٨٧) أنه «كان لعبدالله بن أبي رأس النفاق ست جوار: معاذة واميمة ومسكية وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء أي الزنا، فشكت اثنتان منهن: معاذ ومسكية إلى رسول الله»[١٦].

ويحكي التاريخ عما كانت تتعرض له هؤلاء الجواري من تنكيل وتعذيب وقتل إذا تمردن على أسيادهن، أو خالفنهم أو إذا تغنين بأشعار تهجو عظماء القوم أو زعماء القبائل. وكان بعض هؤلاء الجواري من الجرأة والتمرد أنهن كن يتغنين بهجاء المسلمين ورسول المسلمين. ويقول ناصر الدين الأسد[١٧]. ان ممن امر الرسول بقتلهم يوم دخل مكة هي «سارة» تلك الجارية المغنية التي كانت تهجو المسلمين. وقال البلاذري (فتوح البلدان- ابريل سنة ١٨٦٦-١: ١٠٢)، كان بالنجير نسوة شمتن بوفاة الرسول ﷺ، فكتب أبو بكر رضي الله عنه، في قطع ايديهن وارجلهن،منهن: الشجاء الحضرمية وهند بنت يامين اليهودية». ويصف الطبري (تاريخ الطبري ٤: ٢٠١٤-٢٠١٥) كيف كان مثل هؤلاء الجواري تقطع ايديهن وتنزع أسنانهن وثناياهن، وكان نزع الثنية رمزا لعقاب الغناء. ويروون أن هؤلاء النسوة كن يخضبن ايديهن ويظهرن محاسنهن ويضربن بالدفوف، جراءة منهن على الله، واستخفافا بحقه وحق رسوله، ولهذا كان لا بد من قطع ايديهن ونزع ثناياهن.

وكان نظام العرب في الجاهلية يعطي الرجال الوصاية على النساء والتحكم فيهن، وكان الأب يزوج ابنته على كره منها من أجل المال، وكانت الزوجة إذا مات زوجها، جاء أخوه أو عمه والقى ثوبه على زوجة المتوفى وقال: أنا أحق بها، ثم ان شاء ابقاها لنفسه، وان شاء زوجها غيره وقبض ثمنها رضيت بذلك ام كرهت، وان شاء حرمها من الزواج تماما لتفتدى بما ورثت من زوجها من مال.

وكانت المرأة عند بعض قبائل العرب، تؤخذ بالقوة، ويباح للرجل الذي يستولي عليها بالقوة وينتصر على غيره من الرجال في الاستيلاء عليها بالقوة أن يعاشرها معاشرة الأزواج، سواء حدث ذلك السبي في حرب نظامية أو عن طريق المباغتة والخطف. ويكتب حاتم الطائي يصف هذا في شعره:

فمـا أنـكـحـونـا طائـعـين بنـاتهم ولـكـن خطبنـاهـا بأسـيافـنـا قسـرا

وكان النساء يبذلن ما ملكن من جهد وحيلة للخلاص من هذا السباء ولو الى الموت، أنفة واستحياء على ذكر آلهن وذويهن. ومن أمثلتهن في ذلك: «المنية ولا الدنية» كما حدثوا أن فاطمة بنت الخرشب لما أسرها جمل بن بدر رمت بنفسها من الهودج منكسة فماتت (الأغاني ج١٦ ص ٢١).

وكـان الاب يقتـل ابنته المولودة، وسمي ذلك بوأد البنات، وكانت هناك قبائل تمارس وأد بناتها مثل ربيعة وكندة وتميم[١٨].

وللعرب في الجاهلية غير السباء والوأد حالات أخرى اضطهدوا فيها المرأة في نواحي أخرى من الحياة. لكن المرأة كأم كانت لها قيمتها، وكان الأطفال ينسبون إلى الأم وليس الى الأب في قبائل مثل خندق وجديلة[١٩]، وكان رسول المسلمين نفسه ينسب إلى امه ويقال عنه محمد ابن آمنة، وكان يقول عن نفسه: انا ابن العواتك من سليم (عاتكة بنت هلال، وعاتكة بنت مرة، وعاتكة بنت الأوقص).

ولم تكن المرأة الفرنسية بأحسن حالاً من العربية أو الرومانية أو الهندية. ويجعل القانون الفرنسي من الرجل وصيا على المرأة وتنص المادة ٢١٧ من قانون نابليون على: «ان المرأة المتزوجة، لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض، بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية.

ومعظم القوانين في الغرب والشرق تسلب من المرأة حقها ليس في مالها فحسب وانما في جسدها ايضاً. فهذا الجسد ملك لزوجها وليس ملكها. والزوج لا يعاقب على خيانته زوجته إلا إذا أتى بعشيقته في بيت زوجته (نص قانون العقوبات المصري)، والـرجل لا يعاقب قانونا على ممارسة البغاء لكن المرأة هي التي تقاد إلى السجن وحدها، والزوجة التي تخون زوجها في أية حالة تحبس سنتين، والزوج الذي يأتي بعشيقتـه إلى بيت زوجته ويمارس معها الخيانة لا يحبس إلا ستة اشهر فقط على الأكثر[٢٠].

وفي معظم القوانين في أوروبا وامريكا حتى اليوم تفقد المرأة اسمها بمجرد الزواج وتحمل اسم زوجها رسمياً، وهذا يدل على الغاء المجتمع لشخصية المرأة وتضيع

شخصيتها في شخصية زوجها.

ولعل من نواحي التقدم في المرأة العربية انها لا تفقد اسمها بالزواج، ونبع ذلك من ان زوجات المسلمين في عهد الرسول لم يحملن اسماء ازواجهن، بل ان زوجات محمد نفسه لم يحملن اسمه وظلت عائشة هي عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وغيرهن، منسوبات إلى الأب وليس إلى الزوج.

وكم ابتسمت بسخرية حين كنت أحضر حفلاً في القاهرة يضم عدداً من نساء الطبقة الراقية وأسمعهن يسمين أنفسهن وصديقاتهن من الزوجات بأسماء الأزواج، وتنطق الواحدة منهن عبارة «مدام مصطفى» مثلاً بفخر وكبرياء متصورة أن قمة التحضر للمرأة المصرية هو أن تفقد اسمها وتسمى باسم زوجها كما يحدث في أوروبا وأمريكا. وتتسع ابتسامتي الساخرة بالطبع حين أسمع هذه السيدة نفسها تتحدث بحماس عن حرية المرأة، وقد يعتبرها من حولها احدى زعيمات حركة تحرير المرأة في مصر والعالم العربي.

ولست بصدد مناقشة البنود الخاصة بالمرأة في مختلف القوانين وبالذات قانون الأحوال الشخصية في مجتمعنا. ولكني أود أن أشير فقط إلى ذلك الظلم الفادح الذي لا زال واقعا على المرأة حتى اليوم، والذي يقرأ البند (٦٧) من قانون الزواج والطلاق عندنا يستطيع أن يرى نموذجا واضحاً لاضطهاد الزوجة بواسطة زوجها[٢١].

نص المادة ٦٧ «لا تجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها بدون حق، أو اضطرت إلى ذلك بسبب ليس من قبل الزوج، كما لا تستحق النفقة إذا حبست ولو بغير حق، أو اعتقلت، او اغتصبت، أو ارتدت، أو منعها اولياؤها، أو كانت في حال لا يمكن الانتفاع منها كزوجة».

وليس أدل على ان قانون الزواج ما زال ظالماً في مجتمعنا من تلك الصيحات العالية التي يطلقها في كل العهود أصحاب وصاحبات الفكر المتنور، واصحاب الضمير الانساني الحريص على العدالة والحق والشرف الحقيقي.

* * *

١٣ ـ الأمومة والأبوة

ان الانتاج البشري (ولادة الأطفال) كأي انتاج آخر في المجتمع يخضع للنظام الاقتصادي والاجتماعي السائد. إذا كانت الموارد الغذائية والمادية قليلة وعدد الأطفال الذين يولدون كثيراً، فإن المجتمع (خوفا من الجوع) يبيح أي شيء من أجل أن يحدث التوازن بين الموارد الغذائية والمادية وبين عدد الأطفال، وذلك عن طريقين:

١ ـ اما زيادة انتاج الموارد الغذائية والمادية.

٢ ـ أو خفض انتاج الأطفال.

وفي العصور البدائية لم يكن العلم قد تقدم ليزيد انتاج الموارد الغذائية والمادية، ولم تكن أيضاً قد عرفت وسائل تحديد النسل أو عمليات الاجهاض ولهذا كان الحل الوحيد أمام المجتمع هو قتل الأطفال بعد ولادتهم، ولم يكن ينظر إلى قتل الأطفال كجريمة أخلاقية، بل العكس، كان ينظر اليها كفضيلة أو بمعنى آخر واجباً وطنياً مقدساً. ولم تكن عواطف الأمومة (كما نعرفها اليوم) ولا مشاعر الأبوة (كما نعرفها ايضاً) تمنع قتل الأطفال، لأن الضرورة أم الحاجة، والمشاعر والعواطف كالقيم الأخلاقية تتغير وتتكيف تبعاً للضرورة الأقتصادية. وهناك رأي يقول أن الأمومة من الناحية البيولوجية ومن الناحية الانسانية أكثر قدرة على إعطاء الحب للأطفال من الأبوة، وقد يكون هذا الرأي صحيحاً، وطبيعياً، ولكن حينما تصبح المسألة حياة او موتاً من الجوع فان الانسان (رجلاً أو امرأة) يمكن أن يفعل أي شيء من أجل أن يأكل. والمجتمع البشري أيضاً، حينما تصبح المسألة بالنسبة اليه حياة أو موتاً فانه يمكن أن يضع أي قوانين وأي قيم أخلاقية ويجعلها مقدسة من أجل أن يعيش ويبقى. ان الحرية الجنسية وانجاب الأطفال بكثرة خارج الزواج أو داخله قد تصبح واجبا وطنياً تكافأ عليه الأم (المجتمع السويدي اليوم) من أجل زيادة الانتاج البشري وبالتالي الايدي العاملة. وقد يكون انجاب أكثر من طفلين داخل الزواج (وليس خارجه) حدثا تستحق عليه الأم

العقاب في بعض المجتمعات النامية التي تدعو الى تحديد النسل اليوم. وبرغم أن القيم الأخلاقية والدينية قد تتعارض في بعض المجتمعات مع الحرية الجنسية، أو مع الاجهاض، أو مع تحديد النسل، أو مع عقاب الأم التي تلد أكثر من طفلين أو. . أو. . .، إلا أن المجتمع قادر دائما على تطويع القيم الأخلاقية والقيم الدينية حسب ضروراته الاقتصادية، بل حسب النظام الاقتصادي الذي يفرضة أصحاب السلطة والحكم. ويستطيع رجال الدين دائماً في كل عصر من عصور التاريخ أن يطوعوا دينهم حسب النظام الاقطاعي مثلاً، فإذا تغير النظام الاقطاعي وأصبح رأسماليا فان رجال الدين يجدون بسرعة في دينهم ما يتفق مع الرأسمالية، فإذا تغير النظام الرأسمالي وأصبح اشتراكيا فان رجال الدين يجدون بسرعة في دينهم ما يتفق مع الاشتراكية. . . وهكذا. .

ولهذا فإن الذي يدرس بعمق علاقة رجال الدين برجال السلطة في مختلف الأنظمة والعصور، يندهش كيف يمكن للدين الواحد مثلا أن يجمع بين كل هذه المبادىء والقيم المتناقضة، كأن يجمع بين القيم الاقطاعية والقيم الرأسمالية والقيم الاشتراكية، والقيم التي تحرم تحديد النسل والقيم التي تبيح تحديد النسل والقيم التي تحرم الاجهاض، والقيم التي تبيح الاجهاض، والقيم التي تحرم عمل المرأة خارج البيت، والقيم التي تمجد عمل المرأة خارج البيت (حين يحتاج المجتمع الى سواعد النساء).

ولا يختلف علماء النفس كثيرا عن رجال الدين في علاقتهم برجال السلطة.

وكما تتغير سيكلوجية الطفولة وسيكلوجية الأمومة والأبوة حسب النظام الاقتصادي السائد، حينما لا يحتاج المجتمع إلى سواعد النساء بسبب توافر سواعد الرجال والأيدي العاملة فإن بقاء المرأة في البيت وتفرغها لرعاية اطفالها يصبح ضرورة لصحة الاطفال النفسية، وايضاً لصحة الام النفسية، وحسب مقتضيات سيكلوجية الانثى الطبيعية. فإذا ما نشبت الحرب وامتصت الأيدي العاملة من الرجال واصبح المجتمع في حاجة إلى سواعد النساء إذا بعلماء النفس يسرعون في تقديم نظريات جديدة ويصبح غياب الأم في المصنع أو العمل مفيداً لصحة الأطفال النفسية، وايضاً لصحة الأم النفسية، وان العمل ضرورة نفسية للمرأة كالرجال تماما. . وهكذا. .

ان القيم الاخلاقية والنفسية كالملابس التي يرتديها البشر فوق اجسامهم، تتغير وتتبدل حسب الظروف الاقتصادية. (الملابس تلعب دور الاعلان عن طبقة الشخص الاجتماعية أكثر مما تلعب دور اخفاء الجسم أو تدفئته). في المجتمعات البدائية

والفقيرة كان العري شيئاً طبيعياً، لكنه في بعض المجتمعات اليوم يعتبر عملاً غير اخلاقي وقد يقود إلى السجن. ومن يدري ربما يصبح العري فضيلة أو واجباً وطنيا في بعض المجتمعات في المستقبل حين يمنع الفقر الشديد أغلبية الناس من شراء الملابس.

وهكذا نرى أنه من المهم أن ندرس الانثروبولوجيا لنعرف الدوافع الحقيقية وراء بعض النظريات النفسية عن الأمومة، أو علاقة الطفل بالأم والأب، وألا نأخذ هذه النظريات كمسلمات غير قابلة للمناقشة.

ان علاقة الأم الفلاحة الفقيرة باطفالها التسعة أو العشرة تختلف تماماً في المجتمع نفسه عن علاقة الأم الثرية الارستقراطية غير العاملة بطفلها الوحيد. وعلاقة الأم باطفالها في افريقية تختلف عنها في آسيا كما تختلف عنها في امريكا واوروبا، وكذلك علاقة الأم بطفلها في النظم الأمومية تختلف عن علاقة الأم بطفلها في النظم الأبوية، وهكذا، فإن النظام الاجتماعي والاقتصادي والثقافي هو الذي يحدد مفهوم الامومة، ومفهوم الطفولة، ومفهوم الابوة، وعلاقة كل هذه المفاهيم بعضها ببعض، ودور كل منها في الحياة:

وتكتب مارجريت ميد تقول: «ان الطفل المولود في قبيلة اياتمول (Iatmul) بمجرد أن يبلغ بضعة اسابيع من عمره، فان امه تكف عن ان تحمله أو تجلسه في (حجرها)، ولكنها تجلسه في مكان بعيد عنها على (دكة) عالية، حيث تتركه يبكي طويلاً من شدة الجوع قبل أن تطعمه... وفي قبيلة «موندوجومر» (Mundngumor)، فان النساء يشعرن بكراهية شديدة نحو الاطفال ونحو عملية انجابهم وتربيتهم، وتحمل الأم طفلها في سلة خشنة تؤلم جلد الطفل، ثم حين يكبر قليلاً تضعه على كتفها بعيداً عن صدرها وترضع الأم اطفالها وهي واقفة، ثم تدفعه بعيداً عنها قبل أن يشبع أو يكاد[1]».

والفلاحة المصرية الكادحة التي تعمل ليل نهار في الحقل وفي البيت، تترك طفلها عاري الارداف على الارض، يبكي ويزحف ويلعق التراب بأنفه ولسانه، ويبول ويتبرز عدة مرات على الأرض، ويلعب بأصبعه الصغيرة في التراب المبلل بالبول والبراز. وحين تنتهي الأم الفلاحة الكادحة من عملها تلتفت الى طفلها، وتدس في فمه ثديها

الضامر الناحل (من قلة التغذية وكثرة الاجهاد)، ويصرخ الطفل من شدة الجوع وهو يشد حلمة الثدي الخالي من اللبن تقريبا.

وفي معظم الاحيان يصاب هذا الطفل بالنزلة المعوية بالاضافة الى نقص التغذية، ويقضي بضعة أيام وهو في بركة صغيرة عفنة من القيء والبراز السائل المندفعين بغير انقطاع من فمه وفتحة الشرج على التوالي. كل ذلك والأم (بسبب فقرها وبسبب جهلها وبسبب انشغالها فيما هي فيه) عاجزة عن فعل أي شيء. ويموت هذا الطفل بالطبع، وتلفه الأم في قطعة من الملابس القديمة البالية، وتدفنه بيديها في حفرة في الأرض، كما تدفن ارنباً ميتاً.

كنت أرى هذه المناظر بعيني حين عشت في الريف، وحين اشتغلت طبيبة في احدى القرى الفقيرة. وكنت أرى الأم تلد خمسة عشر طفلا، فلا يعيش منهم إلا ثلاثة أو أربعة ويموت الباقي. وكان موت الأطفال ـ لكثرته[1] يعتبر شيئا طبيعياً كموت كتاكيت الفراخ، وقد تحزن الأم الفلاحة أكثر على موت الكتاكيت. وليس ذلك لقسوة الأم، وإنما لقسوة الظروف الاقتصادية التي لا تعطي الأم الطاقة النفسية أو الجسدية لحب أطفالها.

وقد تتدخل الظروف الاجتماعية القاسية وتجعل الأم (من الطبقة المتوسطة أو فوق المتوسطة) تقتل طفلها الوليد أو تتركه وحده في الليل بجوار جامع لأن الأب رفض الزواج منها، وقد تتخلى الأم المطلقة عن أطفالها تماماً من أجل أن تعيش في كنف زوج آخر يرفض بقاء أطفالها معها. . . . وهكذا، تتعدد الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية التي تغير من علاقة الأم بأطفالها.

وكذلك تتغير علاقة الاب باطفاله حسب الظروف الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات التي تشترك فيها الأم والأب في الأعمال الانتاجية والاقتصادية فإن الأب يشترك مع الأم في أعمال البيت وتربية الأطفال (معظم المجتمعات الاشتراكية اليوم وبعض المجتمعات الصناعية المتقدمة في اوروبا وأمريكا).

وهناك بعض المجتمعات تنفرد فيها الأم وحدها بالعمل والانتاج ويترك تربية الأطفال ورعايتهم للزوج الذي من شدة التصاقه بالأطفال تتولد لديه مشاعر قوية تربطه بهم، ويستجيب لهم انفعاليا، ويشعر نحوهم بمشاعر الأم، ومن شدة تمثله لدور الأم

فانـه يشعـر مثلهـا بآلام الـولادة [٢] (قبائل غينيا الجديدة ومانوس (Manus) (وقبائل التشامبولي) (Tchambui).

هذه ليست إلا أمثلة توضح أن تقسيم العمل بين الزوج والزوجة يتوقف على النظم الاجتماعية والاقتصادية اكثر مما يتوقف على كونهما رجلاً أو امرأة. وأن رعاية الاطفال قد تكون من نصيب الأم أو الأب، أ. قد ترفع عن كاهلهما هما الاثنين وتصبح مهمة المجتمع ودور الحضانة المتخصصة كما هو الحال في بعض المجتمعات الاشتراكية المتقدمة لكن الحضارة التي يعيشها العالم الحديث هي حضارة أبوية قائمة على سلطة الرجل داخل الاسرة الابوية والتي انتزع فيها الأب من الأم النسب، وأعطى لنفسه دور الانتـاج والخلق الفكـري، وترك لها دور الخدمة في البيت وتربية الأطفال. ويقول فردريك انجلز[٤]: «ان التقسيم الأول للعمل (في تاريخ الانسان) حدث بين الرجل والمرأة من أجل رعاية الاطفال، وكان أول صراع طبقي في التاريخ هو الصراع بين الـرجل والمرأة في ظل الزواج الأحادي (monogamy) وان أول خضوع طبقي كان خضوع الزوجة لزوجها. لقد كان هذا الزواج (monogamy) تقدماً تاريخياً من ناحية، لكنه من الناحية الأخرى أنتج الرق (العبيد) والملكية الخاصة. وتلك الظاهرة المستمرة حتى اليوم، وهي أن كل تقدم ليس إلا تأخراً نسبياً، حيث أن تقدم مجموعة من الناس تكون على حساب شقاء وتخلف مجموعة أخرى.

وقد دلت البحوث النفسية الأخيرة أن صحة الأطفال في الاسرة الأبوية تتأثر بعلاقة الأب والأم غير المتساوية، أو المشاكل الاقتصادية أكثر مما تتأثر ببقاء الأم في البيت طوال الوقت أو خروجها الى العمل. وأوضحت «ماكوبي»[*] أن عمل المرأة خارج البيت هو أقل العوامل تأثيراً في صحة الأطفال النفسية، ووجدت «ماكوبي» أن نسبة المشاكل النفسية بين المراهقين متساوية في الطبقات الفقيرة سواء عملت الأم خارج البيت أم لم تعمل، ووصل إلى هذه النتيجة أيضاً علماء آخرون من أمثال وولتر (Walter) وباندورا (Bandora) وجلوكز (Gluckes)، الذي توصل أيضاً إلى ان مشاكل المراهقين النفسية تزيد في العائلات التي تتفرغ فيها الأمهات لأعمال البيت والاطفال؛ وفي بحث رومان ١٩٥٧ (Roman) اتضح أن الأمهات العاملات يتمتعن بصحة نفسية أفضل من الأمهات المتفرغات بالبيوت.

١٤ ـ المرأة والبغاء

لايمكن لأي نظام غير عادي أن يكون منصفا، والنظم الظالمة لا بد أن تنتج عنها ظواهر غير معقولة، ومتناقضة؛ وان الحضارة الذكورية التي يعيشها العالم الحديث نتجت عنها ظواهر لا معقولة.

إن أمريكا تدفع خمسين مليون دولار لكل رجل واحد ترسله الى الفضاء وتدفع ألف دولار لكل رجل واحد تقتله في الشرق الأقصى أو الشرق الأوسط؛ على حين أن آلاف البشر يموتون في الهند جوعا، ولا يتكلف انقاذ الواحد منهم اكثر من عشرة دولارات، وآلاف البشر يموتون في افريقيا وآسيا من الأمراض، ولا يتكلف انقاذ الواحد من الملاريا مثلا إلا دولاراً واحداً. وان ملايين البشر الذين يعيشون في المنطقة العربية مثلا والذين يعانون من الفقر والجهل والمرض كان يمكن أن يعيشوا حياة أفضل، لو لم تمتص الدول الرأسمالية الاستعمارية مواردهم الخام بأبخس الأسعار ثم تعيدها اليهم بضائع مصنعة بأغلى الاسعار ان الأغلبية الساحقة من ملايين البشر في العالم تعاني من الفقر والجوع والمرض من أجل أن يثرى ثراء فاحشا حفنة من الرأسماليين في أمريكا وأوروبا.

ومن السهل أن ندرك التناقض في معظم القيم الاقتصادية والسياسية والأخلاقية التي تفرضها الدولة الأقوى على الدولة الأصغر، أو المجموعة القوية على المجموعة الضعيفة، أو الفرد الأقوى على الفرد الأضعف.

لا يمكن لأي قانون (في ظل عدم التساوي) أن يكون عادلاً، ولهذا لا يمكن لأي قانون يتناول علاقة المرأة بالرجل أن يكون عادلاً، لأن الحضارة الذكورية منذ نشأتها الأولى، ومنذ بداية الأسرة الأبوية، أعطت السلطة للرجل، وفرضت على المرأة الخضوع بالقوة. ولعل ظاهرة البغاء التي بدأت مع بداية الأسرة الأبوية، تدلنا على

تلك التناقضات الأخلاقية الصارخة التي تميز المجتمعات الذكورية والحضارة الحديثة.

والبغاء معناه حدوث عملية جنسية بين رجل وامرأة، لتلبية حاجة الرجل الجنسية، ولتلبية حاجة المرأة الاقتصادية، وبالبرغم أن الحاجة الجنسية (في الحضارة الذكورية عامة) ليست في أهمية الحاجة الاقتصادية،إلا أن المجتمع يعتبر حاجة المرأة الاقتصادية أقل أهمية من حاجة الرجل الجنسية، وهذا هو الأمر دائما في حالة عدم التساوي بين الأفراد. ان حاجة الحاكم مهما كانت ثانوية فهي أهم من حاجة المحكوم مهما كانت ضرورية. ان حاجة السيد الى المتعة أو الترفيه أهم من حاجة العبد إلى الطعام أو النوم.ان حاجة الزوج إلى المتعة الجنسية أهم من حاجة الزوجة المريضة أو المرهقة إلى النوم. ان حاجة الرجل إلى المتعة الجنسية أهم من حاجة المرأة أو اطفالها إلى الطعام أو الكساء... وهكذا.

وبذلك يعطى الرجل الحق في اشباع حاجته الجنسية (داخل الزواج أو خارجه عن طريق تعدد الزوجات والخليلات والمحظيات والجواري والسراري وما ملكت يمينه) وكذلك أيضاً عن طريق المومسات؛ فلا يعاقب الرجل الذي يضبط مع مومس، وانما يكون شاهداً عليها فقط، وكذلك ايضاً لا يعاقب الرجل المتزوج إذا مارس الجنس مع المومسات أو العشيقات بشرط ألا يحضر عشيقته إلى بيت الزوجية[1] (القانون المصري حتى اليوم).

أما المرأة فهي التي تعاقب في جميع الاحوال، وفي جميع الظروف التي تدفعها إلى ممارسة الجنس، سواء كانت حاجة اقتصادية؛ أو حاجة جنسية؛ ولا يسمح للمرأة بممارسة الجنس إلا مع زوجها فقط. والسؤال الذي يجب ان يسأل هنا هو: لماذا لا يسمح للرجل أيضاً بعدم ممارسة الجنس إلا مع زوجته فقط؟ (زوجة واحدة وليست اكثر من ذلك كما في حالة المرأة). لماذا يعطي المجتمع للرجل حرية جنسية داخل الزواج وخارجه بغير شروط، وفي جميع الظروف، وجميع الامكنة (ما عدا مكاناً واحداً هو بيت الزوجية في حالة الرجل المتزوج). هل هناك سبب بيولوجي يبرر هذه التفرقة في معاملة الجنسين؟ لقد اتضح من جميع هذه العلوم التي تتعلق بالجسد أو النفس، أنه ليس هناك من سبب علمي يعطي الرجل حرية جنسية أكثر من المرأة، بل العكس هو الصحيح كما اتضح من البحوث البيولوجية الحديثة، التي اوضحت أن الطبيعة زودت المرأة بقدرة وحاجة بيولوجية وجنسية أشد من الرجل[2].

ان الاسباب التي دعت إلى اعطاء حرية جنسية للرجل ليست موجودة داخل جسم الانسان، وانما علينا ان نبحث عنها خارج الانسان، أي في المجتمع. والسؤال الآن هو اذن:ـ متى بدأ البغاء في العالم البشري؟!

وتدلنا معظم المصادر العلمية على أن البغاء بدأ في العالم البشري مع بدء الأسرة الأبوية، شأنه شأن «الرق» الذي بدأ ايضاً مع بدء الأسرة الأبوية. إن الانسان البدائي (قبل نشوء الأسرة الابوية) لم يعرف شيئاً اسمه البغاء ويقول علماء الانثروبولوجيا من أمثال (مارجريت ميّد)؛ (وبروست)، و(ساجنر) و(دوبوميري)، و(شورتز)[٣] ان البغاء لم يظهر في المجتمعات البدائية لأن الحرية الجنسية كانت ممنوحة للشباب من الجنسين. ولم تعرف المجتمعات الاموية البغاء لأن مكانة المرأة الاجتماعية كانت عالية، وكانت لها الحرية الكاملة كالرجل. وهذا شيء منطقي كما ان البغاء لا يمكن أن يحدث ايضاً في مجتمع يساوي بين الجنسين في القيود الجنسية. ان المساواة بين الجنسين سواء في الحرية او في القيود تمنع حدوث البغاء، ان البغاء لا يحدث إلا إذا اعطيت الحرية لجنس وفرضت القيود على الجنس الآخر. وهنا يأتي السؤال: كيف يمكن ان يستخدم الجنس (الحر) حريته ؟ ومع من يمكن أن يمارسها ما دام الجنس الآخر مقيداً ؟ وبهذا كان لا بد من خلق مجموعة من الجنس الآخر تكون مهنتها الوحيدة هي إرضاء رغبات الجنس الحر وهذا ما حدث في التاريخ . إن الرجل حين سلب من الأم النسب ، وانشأ الأسرة الابوية ، لم يكن في امكانه ان ينسب اولاده اليه إلا إذا فرض على المرأة زوجاً واحداً . لكنه لم يفرض على نفسه زوجة واحدة ، إنه لو فرض على نفسه زوجة واحدة كما فعل مع المرأة ، لما ظهر في التاريخ البغاء ، ولأصبح كل النساء زوجات وكل الرجال ازواجاً .

لكن الرجل الذي اخذ السلطة في يده، أدرك منذ البداية أنه لن يكتفي بزوجة واحدة، وأن المرأة ايضاً لن تكتفي بزوج واحد (كان الرجل بالفطرة واعيا بطبيعته وطبيعة المرأة). ولذلك صنع الرجل لزوجته حزام العفة الحديدي، وخصص لمتعته الجنسية نساء اخريات خارج نظام الزواج واطلق عليهن اسم: المومسات. وقد اتضح لعلماء اللانثروبولوجيا أن نظام الزواج (الابوي) لم يكن من الممكن له أن يعيش ويستمر لولا وجود البغاء. فالبغاء هو الوجه الاخر للزواج، لأنه من غير البغاء لم يكن من الممكن للازواج ان يرضوا جنسيا، إلا إذا فرض عليهم حزام العفة كما فرض على النساء. لكن السلطة والقوانين كانت بيد الرجال، ولم يحدث في التاريخ ان اصحاب السلطة

يفرضونه على انفسم ما يفرضونه على المحكومين.

والذي يدرس تاريخ البغاء يندهش كيف برر الرجل ذهابه الى امرأة اخرى غير زوّجته. انه بالطبع لم يشر إلى رغبته الجنسية اول الأمر، لكنه ألبس هذه الرغبة (كعادته دائماً) رداء دينيا مقدسا، وجعل البغاء عملاً مقدساً، وواجباً دينياً تؤديه المومس في المعبد، وتنكر الرجل في زي الاله أو الكاهن، ومارس الجنس مع المومس على انها عملية مقدسة.

ويقول الباحثون[٤] في تاريخ البغاء ان الفتاة (قبل الزواج) كانت تهب نفسها جنسياً الى الإله الذي يمثله كائن مقدس. (لا بد ان هذا الإله أو هذا الكائن المقدس كانت له اعضاء جنسية وإلا كيف يمكن ان تمارس معه الفتاة العملية الجنسية). وبعد ممارسة الجنس مع هذا الرجل المقدس تكتسب العذراء التقديس، وتصبح امرأة ومقدسة في وقت واحد.

وقد ظل هذا السلوك في تقديس ازالة البكارة موجوداً بعد قيام نظام الكهنة، فأصبح الكاهن يمثل الإله، وحلت البغي المقدسة محل المرأة التي تزال بكارتها. وفي عصور متأخرة كان الساحر أو الملك هو الذي مثل الاله وانتقلت عادات من هذا النوع إلى الغرب واصبحت اساساً لحق الملك في بعض الشعوب في مواقعة كل امرأة ليلة زفافها[٥]

وقد انتشر في اوروبا في العصور الوسطى حق السيد الاقطاعي في ازالة بكارة الفتيات في اقطاعيته ليلة زفافهن، وقد ورث السيد هذا الحق عن ملوك وأمراء وحكام هذه العصور وكان يطلق عليه (Jus Primae Noctis)[٦]

وقد استطاع الرجل (وبالذات صاحب السلطة) بهذه الطريقة ان يمارس الجنس خارج الزواج مع فتيات ونساء غريبات عنه تحت اسم الواجب المقدس وعلى اساس ان الاله قد منحه قوة خارقة للطبيعة[٧] في فض بكارة الفتيات.

وفي بعض الشعوب كان الأب هو الذي يقوم بنفسه بازالة البكارة (شعوب أورانجساكي في الملايو وسومطرا وسيلان). لكن الاغلبية الساحقة كانت من الرجال الغرباء.

ويقول العلماء: إن البغاء المقدس تطور عن تلك العملية المقدسة، وهي ازالة

الرجال الغرباء لبكارة العذارى وكان هدف البغاء المقدس عند هؤلاء الرجال هو رغبة الرجل في امداد البغي بالقوة الخارقة التي تضمن اهليتها للانتاج، وأن البغي المقدسة تنوب عن الآلهة في منح روادها قوةالاخصاب(٨). ولست ادري لماذا رفضت الآلهة أن تنوب عنهم (الزوجة) في هذه المهمة بدلاً من امرأة أخرى اسموها (البغي المقدسة)؟

وكان يلحق بالهياكل (في سومر) عدد من النساء منهن خادمات، ومنهن سراري للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الارض (الرجال)، ولم تكن خدمة الهياكل على هذا النحو (الجنسي) تعتبر عاراً بل ان الأب كان يفخر بأن يهب ابنته لتخفف مما يعتري حياة الكهنة المقدسة من ملل وكآبة، وكان الأب يحتفل بادخال ابنته في هذه الخدمة المقدسة، ويقدم القرابين في هذا الاحتفال، كما يقدم بائنة ابنته إلى المعبد الذي تدخله(٩)

وكان على كل امرأة من نساء بابل (كما ذكر المؤرخون ومنهم هيرودوت) ان تذهب مرة في حياتها إلى معبد الآلهة ميليتا (Mylitta) حيث تجلس تنتظر أي رجل يدخل الى المعبد، فاذا أعجب الرجل بشكلها ألقى في حجرها قطعة من الفضة، ثم مارس معها العملية الجنسية، داعياً لها أن ترعاها الآلهة ميليتا، ولم يكن مسموحاً للمرأة أن ترفض ما القي في حجرها مهما قلت قيمته، وليس مسموحاً لها أيضاً أن ترفض الرجل الذي اختارها مهما كان. فاذا ما انتهت العملية الجنسية وانتهى معها واجبها الديني تركت المعبد وعادت إلى منزلها. وكانت الجميلات من النساء لا يمكثن طويلا بالمعبد، اما المرأة الدميمة فكانت تبقى بالمعبد ثلاثة أو اربعة أعوام(١٠) في انتظار الرجل الذي يمارس معها الجنس لتعود إلى بيتها . وكان ما يدفعه الرجل من مال يذهب أول الأمر الى مذبح الآلهة، ثم تطور الأمر واصبحن يحتفظن بهذا المال ليدخرن منه مهور زواجهن.(١١)

وكانت عقائد البابليين تصور لهم أن الآلهة تذهب ليلاً إلى النساء المؤمنات في فراشهن لتستولدهن أبناء(١٢).

وقد استمر البغاء المقدس في بابل حتى القرن الرابع قبل الميلاد. ، ثم أمر بالغائه الامبراطور قسطنطين حوالي سنه ٣٢٥ ق.م.

وكان اسم الهة المعبد يتغير من بلد الى بلد، في بابل كانت البغايا المقدسات يخدمن في معبد الآلهة ميليتا، وفي كلدانيا وسوريا وفينيقيا حلت محل الآلهة

«عشتروت» (Astartc). وفي بلاد الفرس كان هناك معبد الآلهة ميترا (Mithra) وفي ارمينيا معبد انايتيس (Anaitis) وعلى حدود بلاد العجم معبد الآلهة أرتيمس (Artemis)، وفي مصر القديمة كان هناك الاله امّون الذي كانت تختار له اجمل بنات الأسر الشريفة في طيبة، فإذا كبرت الواحدة منهن في السن ولم تعد ترضيه أخرجت من خدمته بمظاهر التشريف والتعظيم، وتزوجت ولقيت الترحيب والاجلال في أرقى الأوساط[١٤] وكانت الفتيات يتعاطين البغاء (كما يقول سترابون) حتى وقت حيضهن التالي عندما يتزوجن[١٥]، وكانت البغايا المقدسات يتألفن من طبقة الكاهنات يطلق عليهن «حريم الاله» أو حريم آمون[١٦]. واشتهرت في روما معابد الرومان البغايا المقدسات لدى الآلهة برياب وباكوس وموتينوس وغيرها.

وفي قبرص ذكر هيرودوت أنه كان على كل امرأة ان تمارس الدعارة بتقديم نفسها للرجال في مذبح المعبد قبل زواجها[١٧]

وقد ظل البغاء المقدس موجوداً حتى عصرنا هذا في بلاد منها الهندواليابان. وتفتح المعابد ابوابها في الهند والسند لاستقبال الفتيات اللائي يهبن انفسهن للآلهة، ويخصص بعض هؤلاء الفتيات لإرضاء شهوات الكهنة، والبعض الآخر لارضاء شهوات حجاج المعبد. ولا تقوم هؤلاء الفتيات بارضاء حاجة الرجال الجنسية فحسب، ولكنهن يشتغلن أيضاً كخادمات في المعبد، فينظفن أرضه، ويغسلن الصحون (المقدسة)، ويرقصن ويغنين، ويطربن الرجال، ويمارسن معهم الجنس، وغير مسموح لهن أن يتزوجن. ويدفع الرجال الذين يزورون المعبد ثمن اتصالهم الجنسي بالبغايا المقدسات، ويرأس كل مجموعة من البغايا رجل يتولى تحديد أجر كل واحدة منهن ويدير شؤونهن. وإذا حملت البغي وولدت أنثى أصبحت بغيا كأمها ومنعت من الزواج، وإذا كان المولود ذكرا أصبح خادما في المعبد[١٨]

وقد كان الآباء في مناطق مختلفة (فينيقيا ومستعمراتها) يقدمون بناتهم لارضاء الأجانب الوافدين على البلاد[١٩]، وفعل ذلك أيضاً الآباء في قبرص وغيرها من الشعوب، وامتد هذا البغاء الذي سمي بالبغاء «الضيافي» إلى أوروبا واستمر في القرون الوسطى، حين كانت الحكومات تخصص بعض البغايا لضيوفها السياسيين، وكانت تضع في برامج حفاوتها بهم نظاماً يكفل قضاء شهواتهم مع البغايا، كما كان الأمر في برلين وأولم وبون وزيوريخ، وكانت المجالس البلدية في القرن الرابع عشر في مدن أوجسبرج وهامبورغ وفييناتضع تحت رعايتها بعض منازل البغاء لهذا الغرض[٢٠].

ويقول جيمس وعدد آخر من العلماء ان منازل البغايا حلت كتطور طبيعي محل المعابد المقدسة، وظلت تؤدي الوظيفة الاساسية لها، وهي ارضاء شهوات زوار هذه المنازل، والذين كانوا من قبل زوار المعابد.

وظلت منازل البغايا تؤدي وظيفتها الهامة للمجتمع في العصور الوسطى، وفي بداية انتشار المسيحية في أوروبا كان هناك بقايا صلة دينية بين البغاء والكنيسة[٢١]

وقد ظل البغاء طوال فترة العصور الوسطى جزءاً من الحياة الاجتماعية، وفي سنة ١٤١٤ حين جاء الامبراطور سيجموند (Sigismund) بجيشه في زيارة لبيرن بسويسرا فإن أبواب منازل البغايا فتحت على مصراعيها له ولجنوده كنوع من الحفاوة. وقد وقف الأمبراطور في حفل عام وشكر أصحاب السلطة في بيرن على حسن ضيافتهم[٢٢]

وفي القرن الثامن عشر حين عرف ذلك النظام المسمى الآن بالبوليس، بدأت منازل البغايا (كتطور طبيعي أيضاً) تخضع لنظام البوليس، ثم خضعت للقوانين التي كانت تضعها المجتمعات المختلفة لتنظيم البغاء، والاشراف عليه طبياً (حتى لا تنتقل الامراض التناسلية الى الرجال)، وأيضاً من أجل تحصيل ضرائب تأخذها الحكومة من البغايا.

وحينما اشتد خطر البغاء، بسبب انتشار الأمراض التناسلية، وبسبب ازدياد البغايا (ومردّه ازدياد الفقر مع تزايد السكان وانخفاض المستوى الاقتصادي لهم) واضطراد تزايد أعدادهن، فأصبحن يمثلن مشكلة اجتماعية واقتصادية وطبية، واضطرت بعض المجتمعات في أماكن مختلفة في العالم الى اصدار قوانين بمنع البغاء تماماً. لكن هذا المنع لم يحدث إلا على الورق فقط، وظل البغاء يمارس كما كان ولكن في الخفاء. وأوضحت الدراسات أنه في أي مكان يحرم فيه البغاء قانونا، فإن ذلك لا يعالج المشكلة وانما يدفع بها إلى الممارسة السرية وما ينتج عن ذلك من مشاكل أخطر[٢٣] .

ويقول جيمس أنه قد ثبت أن ظاهرة البغاء غير قابلة للمنع وليس لها من حل في أي وقت قبل المسيحية أو بعدها، ولا حتى في تلك الأوقات التي حصلت فيها الكنيسة على أقصى قوة سياسية[٢٤] .

لقد اتضح لعدد من العلماء أن البغاء ظل جزءاً متمما للحياة الزوجية في العصور

الوسطى. وقد وصف ادوارد الاول سنة ١٢٨٥ كيف أن الزواج في العصور الوسطى لم يكن ناجحا بسبب افتقاده الحب، وبسبب الوضع الأدنى للنساء والأطفال[٢٥].

ويعتقد بعض العلماء ان البغاء ظاهرة اقتصادية، وأنه لا بد أن يوجد في البلد التي لا توفر العمل لجميع أفرادها رجالاً ونساء[٢٦] أما البلاد التي تتيح العمل لجميع أفرادها رجالاً ونساءً فإن البغاء ينقرض بغير قوانين. لقد انقرض البغاء من معظم المجتمعات الاشتراكية، وأصبح من المعروف الآن ـ للرجال الذين يزورون هذه البلاد أن عملية البحث عن المومسات عملية يائسة تماماً، وأن عليهم أن يبحثوا عنهن في البلاد الأخرى، حيث تكون الدعارة (وحوانيت الاتجار بالجنس والفن الجنسي الرخيص) جزءاً لا يتجزأ من النشاط التجاري والرأسمالي في البلد.

ان عملية بيع الجسد نظير المال عملية غير إنسانية، لا يقدم عليها الانسان (امرأة أو رجلاً) إلا اضطراراً لحاجة اقتصادية معينة ومن المعروف أن تجارة الدعارة في أي مجتمع هي في إيدي الرجال أساساً، والمرأة في معظم الاحيان ليست إلا أداة في يد رجل قواد، ويستغل المال الذي تكسبه بجسدها وهوانها، ولا يعطيها إلا ما يسد رمقها. . . ان الرجال هم الذين يكسبون من وراء البغاء مالياً أو جنسيا، أما المرأة فهي التي تدفع الثمن، وتؤدي الضريبة، وتتحمل العار وحدها والهوان، وتساق عند اللزوم وحدها الى السجن والعقاب.

ان هذا القطاع من النساء اللائي أطلق عليهن «المومسات» ليس إلا إحدى الظواهر الاجتماعية للحضارة الذكورية القائمة على الأبوية وكان على هؤلاء النساء التعيسات ان يكن كبش الفداء لهذة الحضارة من أجل أن تقوم وتستمر وتزدهر.

وكان هناك أيضا قطاع آخر من البشر لا بد وأن يكون كبش فداء لهذه الحضارة القائمة على الظلم والاستغلال وعدم المساواة بين الجنسين. هذا القطاع من البشر هم الاطفال الذين كانوا ينتجون عن ممارسة الرجال للجنس خارج الزواج او الاسرة الأبوية، والذين أطلق عليهم «الاطفال غير الشرعيين». ان هذه الظاهرة ليست إلا مظهرا من مظاهر التناقض الأخلاقي والانساني للحضارة الذكورية غير الأخلاقية وغير الانسانية. لكن شهوة السلطة تفقد الرجال المنطق، وتصبح قوانينهم متناقضة وتنتج عنها ظواهر لا معقولة، وقيم عكسية. ففي الوقت الذي يدعي فيه الأب الانسانية والأبوة والحب في علاقته بأطفاله، نجد هذا الأب نفسه يقسو ويتنكر لأطفاله، لماذا؟ لأن

أطفاله من النوع الأول ولدوا من المرأة التي اختارها الرجل للزواج، اما اطفاله من النوع الثاني فقد ولدوا من المرأة التي اختارها للعشق فقط!

ان الرجل في كلا الحالين (الزواج أو العشق فقط) هو الذي يختار وهو الذي يحدد العلاقة زواجا ام عشقا فقط . . . وان الرجل في كلا الحالين هو الأب لجميع الأطفال الناتجين عن زواجه أو عشقه. ومع ذلك فإن هذا الرجل الواحد لا يعامل أطفاله بالتساوي. لماذا؟ والسبب واحد هو توريث أطفاله من داخل الزواج فقط من أجل استمرار بقاء النظام الابوي.

وهذا يكشف أن الرجل في علاقته بأطفاله لا يعرف الحب ولا الانسانية ولا الأبوة الحقيقية. لأن الحب بين الأب وأطفاله لا يمكن أن يكون حقيقيا إلا إذا منح هذا الحب للأطفال جميعا وليس لجزء منهم دون الجزء الآخر، خاصة وأن الطفل المولود ياتي الى الحياة بغير إرادته وليس من العدل ولا المنطق ولا الانسانية جعله كبش فداء للنظام الأبوي القائم.

وكم من قصص أليمة عن حياة الأطفال الذين عرفوا بالأطفال غير الشرعيين، كم يحرمون من جميع الحقوق الاخلاقية والانسانية والاقتصادية والاجتماعية التي يحظى بها اخوانهم الشرعيون. والغريب أن الرجل مهما تنور ومهما بلغ من الثقافة أو العلم أو الفن فإنه يتهرب من أطفاله غير الشرعيين، ويحرمهم من المال مهما بلغ ثراؤه.

ان رجلاً برز (في الحضارة الذكورية الحديثة) كعملاق في الفن هو بيكاسو، ترك بعد وفاته ثروة يقدرونها بأكثر من (١٠٠) مليون دولار، ومع ذلك فقد حرم في وصيته اثنين من أولاده غير الشرعيين وهما: ابنته «بالوما» وأخوها «كلود» من عشيقته فرانسواز جيلو[٢٧].

هذا يدلنا على أن ممارسة المرأة للجنس خارج الزواج قد يقدس (البغاء المقدس) وقد يلعن ويصبح عاراً على المرأة وحدها واطفالها، فالمسألة هنا ليست الفعل ذاته، وانما هي نظرة الرجل الى هذا الفعل، قد يقدسه وقد يلعنه، حسبما يتراءى له ذلك.

١٥ ـ الكبت والخوف والكذب

الكبت هو عدم الفعل، وقد كبتت المرأة، وحرمت من الفعل، ولذلك لم تستطع أن تعيش الحقيقة، وعاشت في أحلام وخيالات، وهذا يعرضها دائما للصدمات النفسية حين يصطدم الواقع بخيالها، فاذا بها تعيش صراع العالمين الحقيقي والخيالي في ذهنها.

ويقول «كير كجارد» إن الحقيقة لا توجد في حياة الانسان إلا اذا اوجدها الانسان من خلال العقل. ويقول جان بول سارتر «أفعالنا هي نحن»، ويؤكد وليم جيمس على اهمية اتحاد الفعل والتفكير لسلامة الانسان النفسية. ويعرف «هيدجر» الحقيقة بأنها حرية الفعل ، ويقول بول تليش: ان الانسان لا يصبح انسانا حقيقة الا في لحظة اتخاذ قرار بالفعل.

لكن الكبت المفروض على المرأة من المجتمع يحرمها من الفعل او يسبب انفصاما بين تفكيرها وفعلها. انها تفكر في شيء معين ثم لا تفعله أو تفعل شيئاً آخر قد يكون مناقضا لما هي تفكر فيه. وهذا يسبب لها القلق. هذا القلق الناتج من خوفها من الافكار، ومن الصراع الدائر على الدوام بين هذه الافكار وبين افعالها التي تعبر عن هذه الافكار، او عن عدم قيامها بالفعل الذي تريده. وكم من فتاة وامرأة قالت لي هذه العبارة: «اذا فعلت او صرحت بما اشعر به او افكر فيه حقيقة لأصبحت مرفوضة من المجتمع الذي حولي» ولهذا كثيراً ما كنت أرى اختلافا كبيرا بين ما تقوله المرأة بلسانها وبين ما تعبر عنه بعينيها.

ان المرأة من اجل ان تكون مقبولة في المجتمع تضطر الى ان تكبت حقيقتها. ان عملية التكيف مع المجتمع التي تقوم بها المرأة ليست الا عملية قتل لوجودها الحقيقي. والمرأة التي تسمى بالمرأة الطبيعية هي المرأة التي نجحت في قتل وجودها

الحقيقي. اما المراة التي تسمى بالمراة العصابية فهي التي فشلت في قتل وجودها الحقيقي. ولهذا يقول رولوماي[1]: «كم هو خاطىء تعريفنا للعصاب على انه الفشل في التكيف مع المجتمع. ان هذا التكيف هو العصاب بالضبط. ان هذا التكيف معناه ان يقبل الانسان قتل الجزء الاكبر من وجوده من اجل الابقاء على جزء صغير جداً من هذا الوجود. . . . وان ما نراه من اعراض العصاب ليس الا اعراض الانسان الذي يحاول الحفاظ على انسانيته ووجوده. . . ان القلق هي حالة الانسان عندما يصارع تلك القوة التي تحاول تحطيم وجوده».

وينتج عن هذا ظاهرة الكذب المتفشية في المجتمع. هذا الكذب الذي يحدث انفصاما بين حقيقة المرأة(والرجل ايضا) وبين ما تتظاهر به امام الناس. والانفصام يحدث في الاسرة ايضا. فيصبح للانسان حياة اسرية ظاهرية هي علاقة الازواج بالزوجات الظاهرية، ثم حياة اخرى خفية هي علاقة الازواج بالعشيقات او الزوجات بالعشاق، ويحدث الانفصام في المجتمع ايضا، فاذا بالتناقض الواضح بين القيم الاخلاقية والدينية وبين القيم التجارية والاقتصادية.

على ان المرأة اكثر تعرضا لهذا الانفصام من الرجل بسبب المحظورات المفروضة اكثر على المرأة. ولهذا تتمزق شخصية المرأة الى عدة اجزاء، ويتناقض كل جزء مع الاخر. إن عقلها يختلف مع مشاعرها، ومشاعرها تختلف مع إرادتها، وإرادتها تختلف مع افعالها. إن مشاعر الحب او الكراهية عند المرأة يجب أن تكبت، أو تظهر على النحو المقبول اجتماعياً فقط، انها يمكن أن تظهر كراهيتها للخادمة التي عندها مثلاً وأن تعبر عن هذه الكراهية بعدوانية يقبلها المجتمع (ضرب الزوجات للخادمات مقبول اجتماعيا) ولكنها يجب أن تكبت كراهيتها لزوجها، أو أبيها أو رئيسها أو أي رجل آخر في موضع السلطة أو في طبقة أعلى. وهذا يحدث ايضاً في حالة مشاعر الحب، فهناك حب محرم على المرأة أن تظهره وهناك حب يجب على المرأة ان تبالغ في إظهاره، كحبها لأطفالها، وتفانيها في خدمة زوجها، أو أبيها أو أفراد الأسرة.

ان القلق لايحدث للانسان إلا اذا اصبح واعيا بوجوده وان هذا الوجود يمكن أن يتحطم، وانه قد يفقد نفسه ويصبح لا شيء. وكلما وعى الانسان وجوده كلما زاد قلقه على هذا الوجود وزادت مقاومته للقوى التي تحاول تحطيمه. وهذا هو السبب وراء انتشار القلق بين النساء المثقفات عنه بين النساء غير المثقفات، لان المراة المثقفة اكثر وعيا بوجودها من المرأة غير المثقفة، وبالتالي فهي اكثر قلقا من اجل حماية هذا

الوجود من القوى الاجتماعية التي تبغي تحطيمه. اما الخوف فهو اكثر انتشارا بين النساء غير المثقفات عن النساء المثقفات. وهناك فارق كبير بين القلق والخوف. إن الشعور الذي تشعر به المرأة وهي راقدة على منضدة العمليات ليجري لها الطبيب عملية جراحية (فتح خراج مثلا) هو شعور الخوف، وهو ينتهي بانتهاء العملية وعودتها الى بيتها. اما القلق فهو شعور آخر، تشعر به المرأة الناجحة في عملها مثلا حين تدرك ان زوجها يكره نجاحها او يغار منها. إن شعور القلق يلازمها ليل نهار، وتصبح مهددة في حياتها الزوجية إذا استمرت في نجاحها، او تصبح مهددة في نجاحها اذا أرادت أن ترضي زوجها وتحمي حياتها الزوجية. ولأن الاثنين مهمان عند المرأة فهي تشعر بالقلق لا الخوف. ان القلق شعور قوي يتعلق بكيان الانسان كله، كيانه من خلال عمله وتحقيق ذاته، من خلال نجاحه. ولان الزواج والامومة لا يزالان في نظر المرأة ركنا اساسيا في كيانها، لذلك هي تشعر بالقلق حين يصبح نجاحها في العمل مهددا. وهذا هو السبب وراء انتشار القلق بين النساء المثقفات عن النساء غير المثقفات وعن الرجال ايضاً. فالرجل لا يعتبر حياته الزوجية أو أبوته ركنا اساسياً في كيانه، وهو يشعر بالقلق النفسي حين يصبح نجاحه في عمله مهددا، اما نجاحه أو فشله في الزواج فليس إلا شيئا ثانويا في حياته بعكس المرأة. وقد استطاعت بعض النساء المثقفات الذكيات ان ينظرن الى الزواج كشيء ثانوي في حياتهن، وهذا في رأيي ازدياد في الوعي وتقدم فكري ونفسي، يمكن أن يحمي المرأة من مشاكل نفسية عديدة.

وهناك فرق آخر بين القلق والخوف، وهو أن القلق ينطوي دائما على صراع داخلي هو صراع الإنسان بين أن يكون أو لا يكون، أو بين أن يوجد أو لا يوجد. ولهذا لا تشعر بهذا الصراع المرأة غير الواعية بوجودها وكيانها، أو المرأة التي حظيت ببعض الحرية والامكانيات الثقافية والنفسية التي تحقق بها وجودها، فإن نجاحها (ولو جزئيا) في تحقيق هذا الوجود يتضمن تحطيماً لذلك الأمن الاجتماعي والنفسي الذي تشعر به المرأة العادية التي تخلت عن وجودها تماماً من أجل زوجها وأطفالها الآخرين، ومن هنا تشعر المرأة المثقفة الواعية بالقلق. فالقلق هنا قلق إنساني رفيع المستوى، وليس ضعفاً، وليس مرضاً، ولكنه نوع من الصراع القوي والصمود الانساني العنيف في مواجهة القوى المعادية لوجود الأنسان. وكما يقول «رولوماي»[٢] إن القلق يرتبط ارتباطاً عميقا بمشكلة الحرية. إن المرأة (او الرجل) التي لا تحظى بأية حرية (ولو

ضئيلة) لتحقق شيئا من وجودها وكيانها فهي لا تشعر بالقلق. وقد وصف «كير كجارد» القلق على أنه «زغل الحرية» وأنه يحدث قبل أن تصبح الحرية حقيقة ملموسة وايجابية.

إن النساء كأفراد، وجماعات، يتنازلن عن الحرية من أجل التخلص من القلق غير المحتمل. إن الاحساس بالقلق في حد ذاته دليل على أن المرأة تشعر بامكانية وجودها وكيانها، وأنها مهددة بالحرمان من هذه الامكانيات، وبأن تصبح لا شيء، أو بغير وجود مستقل.

هذا الوجود المستقل يتحقق للانسان (امرأة أو رجلا) بالعمل الخلاق المنتج والحب، وهما لا يتحققان إلا في ظل الحرية المسماة بالحرية الايجابية، وهي ليست مجرد غياب القيود (الحرية السلبية)، ولكنها حركة ايجابية نحو الخلق والابداع في العمل وممارسة جميع الطاقات الانسانية من خلال الحب الحقيقي.

ان الطموح الفكري والرغبة في الابداع والخلق والتجدد معناه ان يكون المستقبل أفضل من الماضي. هذا الطموح والتطلع نحو مستقبل أفضل من الماضي صفة انسانية. إن الحيوانات لا تعرف المستقبل. وهناك بعض حيوانات تستطيع أن تتوقع حدوث عقاب لها مثلا في الدقائق العشر المقبلة، والكلاب تستطيع أن تتوقع ذلك في النصف ساعة المقبلة وليس أكثر من ذلك (ابحاث ليدل Liddell). لكن الإنسان يستطيع أن يستحضر الماضي الذي مضى عليه آلاف السنوات كمعلومات ترشده في الحاضر، ويستطيع أيضاً أن يتطلع بخياله إلى المستقبل، ليس لمدة نصف ساعة فقط، وإنما لأسابيع، وسنوات، وقرون. إن هذه القدرة على اجتياز فواصل الزمن التي تفصل الماضي عن الحاضر عن المستقبل، وهذه القدرة على رؤية المستقبل في ضوء أحداث الماضي، وهذه القدرة على التعلم من الماضي، والتخطيط للمستقبل وتطويره، هذه القدرة إنما هي ميزة فريدة للوجود الإنساني.

وكم تحرم أغلبية النساء من هذه الميزة حين يفرض عليهن أن يكن بلا ماض وبلا مستقبل، وأن يعشن كحيوان يأكل ويشرب ويتناسل ويدور في الساقية أو يحمل الأثقال فوق ظهره.

ان التخويف والكبت والقمع وغيرها من العمليات التي تسد منافذ الوعي عند المرأة ليست في حقيقتها إلا محاولات لقطع أواصر تلك الحلقات الزمنية المتصلة في

حياة الانسان، وفصل الماضي عن الحاضر وعن المستقبل ويصبح من الخطر على المرأة أن تحتفظ بماضيها كجزء متصل بحاضرها ومستقبلها، ولهذا تبتر المرأة ماضيها من حياتها، وإن عجزت عن بتره تماماً فهي تحمله معها لا كجزء منها، وإنما كجسم غريب عنها تضطر لحمله معها أو فوق كاهلها كالعبء، ولهذا كثيرا ما تسبب أحداث الماضي في حياة الفتيات والنساء مشاكل نفسية وعصابية، وبالذات تلك الأحداث الجنسية التي تحدث في طفولة معظم البنات، (الاعتداءات من الرجال الكبار، بسبب الكبت الجنسي الذي يعانيه الرجال الكبار)، وأيضاً العادة السرية التي تمارسها معظم البنات في الطفولة والمراهقة كمرحلة طبيعية من مراحل النمو الجنسي، وأيضاً المداعبات الجنسية التي تحدث بين الجنسين قبل الزواج. كل ذلك تضطر الفتاة أن تسلخه عنها وتبتره كأنما لم يحدث وهي عملية نفسية شاقة لا تترك آثارها بطبيعة الحال في نفسية المرأة؛ فهي تعيش في قلق دائم بسبب ذلك الماضي الذي قد يؤثر في حياتها الحاضرة او المستقبلة. انها تشعر بالقلق خشية ان يحدث شيء في المستقبل بسبب ذلك الماضي. وكما يقول فرويد ان القلق ليس إلا التخوف من حدوث شيء في المستقبل.

وتنجو من القلق والعصاب هذه المرأة الشجاعة التي استطاعت أن تجعل ماضيها جزءاً لا ينفصل عن حياتها، تستفيد منه في حاضرها ومستقبلها، فالماضي لا يمثل لها عبئاً أو جسما غريبا عنها تضطر لحمله، وإنما هو جزء منها يفيدها ويغذي حاضرها ومستقبلها بالتجارب والخبرات الضرورية لنضج الانسان. لكن هذه الشجاعة لا تصيب المرأة غير الواعية بحقوقها الإنسانية. ان ادراك المرأة بأن خبرة الماضي ميزة انسانية وحق من حقوق الانسان هو الذي منحها الشجاعة في الاعتراف بأن هذا الماضي وهذه الخبرة جزء منها يضيف اليها الكثير وليس عيباً أو عاهة يجب عليها إخفاؤها. لكن هذا الادراك لا يحدث لكل النساء المثقفات في مجتمعنا. إنه يحدث لبعض المثقفات فحسب، هؤلاء البعض اللائي حظين بقدر اكبر من الوعي والاستقلال في الشخصية والنجاح في العمل بحيث تصبح الواحدة منهن قادرة على ان تعترف بماضيها، وتعتز بكل تجربة مرت بها، لانها جزء منها، وتفرض على الآخرين احترامها. وهذا هو الصدق الشجاع الذي يمنح الانسان مقومات الصحة النفسية لأن الانسان في تلك الحالة (امراة أو رجل) يصبح متصالحا مع جميع اجزاء حياته (الماضي والحاضر والمستقبل)، ويستفيد بكل منها على التوالي دون أن يضع الحواجز بين كل منها،

او يلغي احدها، فيصبح كالبناء الذي انهار منه احد اركانه.

ان المـرأة المثقفـة التي تتمتـع بصحـة نفسية هي المـرأة المتكاملة البناء في شخصيتها، ومعنى ذلك أنها المرأة التي استطاعت ان تحطم التقاليد داخلها وخارجها التي تفرض عليها أن تكذب على نفسها أو على الآخرين واستطاعت بذلك أن تؤسس مستقبلها على اساس متين هو ماضيها الذي تعتز بكل ما فيه . وهذا ينطبق على الرجل.

إن الافراد هنا كالشعوب، فالفرد القوي الصحيح نفسياً هو الذي تتصل جميع حلقات حياته (الماضي والحاضر والمستقبل)، ويكون تراثه جزءاً منه، يستفيد منه في تخطيط المستقبل، وليس جسما غريباً عنه يحمله رغم أنفه ويخجل منه، أو ان يبتره وينساه ويهمله. ان نسيان الماضي أو اهماله أو بتره يعني أن المسقبل يبنى على غير اساس متين. ولهذا يضعف مستقبل الافراد والشعوب التي تستاصل ماضيها، وقد ادرك الاستعمار (في مختلف اشكاله وفي جميع الازمنة) هذه الحقيقة، وكان الاستعمار العسكـري أو الاستعمـار الاقتصـادي يحتـاج دائما اىي الاستعمار النفسي، ويبذل المستعمرون جهودا مضنية لطمس ماضي الشعوب التي يستعمرونها، أو وضع الفواصل بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، بحيث يصبح المستقبل معلقا في الهواء. فما هي الا هزة حتى يسقط.

وكم تعـرض مجتمعنـا المصـري على مر العصور والازمنة لهؤلاء المستعمرين الاجـانب الذين أرادوا الفصل بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، لنعيش حياة مفككة الاواصر والحلقات، ونصبح شعبا ضعيف البناء، غير متماسك القوى مما يسهل على الاستعمار اخضاعه واستنزاف موارده.

وما يحدث للشعوب يحدث للأفراد، إن علاقة الاسياد بالعبيد كعلاقة الاستعمار بالمستعمرات، كعلاقة أي فرد يريد استغلال الفرد الاخر، كعلاقة الرجل بالمرأة.

ان المرأة القوية الصحيحة نفسيا المتكاملة البناء في شخصيتها تمثل صعوبة أمام الرجل الذي يريد ان يستغلها لصالحه. ولهذا تفشل النسـاء القويات الواعيات الذكيات في الزواج، وتنجح النساء الضعيفات غير الواعيات في الزواج. وترتفع نسبة الطلاق بين النساء القويات الواعيات الذكيات عنها بين النساء الضعيفات غير الواعيات. ويمجد الرجل في المرأة الضعف وعدم الوعي والغباء والسذاجة، ويلعن الرجل في المرأة الذكاء والوعي وقوة الشخصية وتكاملها. ويصبح على المرأة ان تخفي ذكاءها ووعيها

إذا أرادت النجاح في الزواج، وهذا يسبب لها صراعا نفسيا، وقد تعالجه بالطلاق او عدم الزواج (اذا استطاعت) أو تعالجه بالاقراص المهدئة(اذا لم تستطع) ولا يمكن ان انكر ان هناك بعض الرجال الذين لايريدون استعمار زوجاتهم او استغلالهن. واذا حظيت المرأة المثقفة الواعية الذكية برجل من هؤلاء فهي تعفى من هذا الصراع ولا تكون مضطرة الى اخفاء ذكائها ووعيها من اجل انجاح زواجها. ولكن هذا النوع من الرجال قليل ونادر، والاغلبية الساحقة من الرجال لا تزال تفزع من ذكاء المراة ووعيها، وتفضل المراة التي يسهل استغلالها، والتي تستسلم لحياة العبودية دون تذمر او مقاومة.

ان العصاب هو الثمن الذي تدفعه المراة المثقفة الذكية من اجل ان تظل زوجة واما. وهي لا تستطيع ان تنجو من العصاب الا في حالتين اثنتين: اما ان تستغني تماماً عن الزواج والامومة، وهذا امر غير سهل على عدد غير قليل من النساء، واما ان تحظى بزوج متفتح الذهن لا يريد استغلالها، وهذا امر نادر. ولهذا تصاب معظم النساء المثقفات الذكيات بالعصاب.

وكلما نضجت المرأة الذكية كلما اصبحت اقل عرضة للاصابة بالعصاب، لان النضج يجعلها أقل حاجة إلى الزواج وأكثر قدرة على مواجهة اي مشاكل فيه. وقد وجدت ان المرأة المثقفة الذكية المتمتعة بصحة نفسية هي تلك المراة التي اصبح الزواج في حياتها شيئا ثانويا، ولم يعد الرجل يمثل لها كل حياتها، وانما جزءا فقط من حياتها، والاجزاء الاخرى من حياتها لعملها وانتاجها في المجتمع. إن المرأة لا تمثل إلا جزءاً من حياة الرجل، والأجزاء الأخرى من حياته لعمله وانتاجه في المجتمع، ولهذا لا يصاب الرجل بالعصاب حين تفشل علاقته بالمرأة. انه قادر في معظم الاحوال على بدء علاقة جديدة، وتخطي العلاقة القديمة. وهذا ما تفعله المرأة المثقفة الذكية الصحيحة نفسيا، أما العصاب فلا يصيب الا المرأة المثقفة الذكية التي لم يصل وعيها بعد الى تلك الدرجة التي يصبح فيها الرجل جزءاً من حياتها وليس كل حياتها وعلاج العصاب في تلك الحالة ليس خفض درجة الوعي عند المرأة (بالاقراص او الكهرباء) لتتكيف مع زوجها، ولكن العلاج هو رفع درجة وعيها أكثر لتصبح قادرة على رفض الزواج الفاشل، واختيار الرجل الاصلح لها، وان لم تعثر عليه فأمامها حياتها الواسعة الاخرى في العمل والانتاج في المجتمع.

ومن هنا اهمية العمل في حياة المرأة ليس أي عمل، ولكن العمل الخلاق الذي

تحبه وتستطيع ان تخلق فيه وتبدع. ولهذا تنجو من العصاب المرأة التي تمارس عملاً فنيا خلاقا. انها تحقق ذاتها من خلال فنها وعملها الخلاق وتجد في هذا الفن معنى لحياتها ووجودها، وبذلك تقف صلبة قوية متماسكة الشخصية في وجه مشاكلها الاخرى المتعلقة بالزواج والاطفال والبيت، ولا تصاب بالعصاب ولا تشعر بحاجة الى اقراص مهدئة.

ولكن كم من النساء المثقفات الذكيات يخترن العمل الذي يحببنه، وكم منهن اللائي يمارسن عملا فنيا خلاقا مبدعا؟! ان معظم الناس (نساء او رجالاً) لا يختارون العمل الذي يحبونه، ولا يمارسون اعمالاً فنية خلاقة ومبدعة، ولكن معظم الناس يفرض عليهم العمل ومعظم الناس يمارسون اعمالاً رتيبة غير خلاقة، ولذلك لايكون العمل في معظم الاحيان متعة تقبل عليها النفس وتثرى به، ولكنه يكون عبئا تتحمله النفس من أجل الاجر المالي او لاسباب اخرى متعددة، منها التحكم في بعض المرؤوسين، أو شغل الفراغ.

ويصاب الرجال بالعصاب ايضاً بسبب عدم تحقيق ذواتهم في العمل الذي يمارسونه، ولكن نسبة العصاب بين الرجال اقل منها في النساء، لأن الرجل يستطيع ان يعوض بعض فشله في العمل عن حقوقه الممنوحة له وحده داخل الزواج وخارجه، أما المرأة فهي محرومة من جميع هذه الحقوق، بل إن اطفالها الذين تلدهم لا يحملون اسمها مهما بلغت من النجاح في عملها، ويحملون اسم الرجل مهما بلغ من الفشل في عمله.

ومن العوامل الهامة التي تسبب العصاب للنساء هو الكبت الجنسي وعدم الاشباع الجنسي. ويؤدي الى هذا الكبت وعدم الاشباع اسباب متعددة تبدأ منذ طفولة البنت بسبب التربية والختان والتخويف والتفرقة بين البنات والذكور واعتبار اللذة الجنسية اثما، الزواج بغير حب، وأنانية الرجل وعدم مساواة المرأة بالرجل، وجهل الرجال والنساء بالحب والجنس عامة. ويمثل عدم الاشباع الجنسي ظاهرة تكاد تكون عامة بين النساء. لكنها لا تظهر بوضوح في النساء اللائي نطلق عليهن الطبيعيات أو المتكيفات مع المجتمع، وذلك لأن المرأة من هؤلاء قد استسلمت للكبت ولفكرة الاخصاء ولم تعد تشعر برغبات جنسية، او برغبات جنسية ضعيفة جدا: يمكن أن ترضى بفتات رجل. أما المرأة الواعية بحقوقها كانسانة لها عقل وجسم يجب أن تشبعهما فهي تشعر بالحاجة الى الاشباع واذا لم تشبع جنسيا فهي تشعر بالاكتئاب

او القلق. والمرأة الواعية الذكية لا تفصل بين الحب والجنس، ويصبح على الرجل ان يقنعها فكريا وعاطفيا وجسديا معا. ولذلك لا يمكن لها ان تشبع جنسيا مع رجل لا تحبه مهما بلغت قوته الجسدية. والمراة الواعية الذكية اقل كبتا لرغباتها من المراة الاقل وعيا وذكاء، ولذلك فهي اكثر عرضة للعصاب اذا لم تشبع رغباتها ولذلك ايضا هي اكثر ممارسة للعادة السرية ، او العلاقات خارج الزواج، وكلها محاولات للاشباع وعدم الاستسلام للكبت والتكيف مع المجتمع.

ويعالج اطباء النفس مثل هذه الحالات بطرق مختلفة حسب المدارس النفسية التي ينتمون اليها، ومعظمهم يساعدون المرأة على اطفاء البقية الباقية من رغباتها الجنسية واقناعها ان المراة المثالية هي التي تضحي بكل شيء من اجل الامومة والاطفال (لا يمكن ان يحاول طبيب نفسي منهم ان يقنع رجلاً بان يضحي برغباته الجنسية من اجل الأبوة والأطفال) وقلة قليلة من أطباء النفس المتنورين الذين يقنعون المرأة في الاشباع الجنسي والعاطفي ويشجعونها على تغيير حياتها الزوجية اذا كانت خالية من الاشباع العاطفي والجنسي.

وقد عاينت حالات من الفتيات والنساء اعترفن فيها ان الطبيب النفسي في بعض الاحيان كان يتصرف كاي رجل اخر محروم جنسيا ويحاول ان يشبع رغبته مع احدى مريضاته، منتهزا فرصة تلك العلاقة الحميمة التي تنشأ بين المريضة نفسيا وطبيبها، موهما اياها انه يحبها او يعالجها. وقد اطلعت على بعض القضايا التي رفعتها بعض الاسر ضد الطبيب النفسي الذي مارس الجنس مع ابنتهم المريضة. هذا وان بعض المريضات لا يعترفن لاسرهن بهذه الممارسات باعتبار انها تسيء اليهن قبل أن تسيء الى الطبيب، كما ان كثيرا من الاسر يحجمون عن رفع قضايا في مثل هذه الحالات حفاظا على سمعة الأسرة وسمعة ابنتهم. ولهذا لا يمكن لنا ان نحكم على عدد هذه الممارسات بعدد القضايا التي تذهب الى المحاكم. والحال نفسه ينطبق على الاعتداءات الجنسية التي تتعرض لها البنات في طفولتهن من الرجال الكبار. ان البنت الصغيرة من شدة الخوف والخزي تكتم الامر كسر دفين في نفسها، ثم في الحالات التي تصرح فيها البنات، او ينكشف الرجل ويضبط اثناء الاعتداء، فإن كثيرا من الاسر يحجمون عن اعلان الأمر واللجوء في القضية الى المحكمة، بل ان القضية حين تذهب الى المحكمة فان المحكمة ذاتها احيانا ما تحفظ القضية حفاظا على سمعة البنت الصغيرة وأسرتها وبذلك ينجو الرجل من العقاب.

وقد اطلعت على بعض قضايا من هذا النوع والتي تصل الى الطب الشرعي حيث يفحص الطبيب البنت الصغيرة ويقرر ما اذا كان الاعتداء قد افقدها غشاء البكارة أم لا. وقد علمت من احدى الباحثات الاجتماعيات في الطب الشرعي ان مدرسا باحدى مدارس البنات مارس المداعبات الجنسية بل الجنس ذاته مع تلميذات فصله جميعا، وان معظم اسر هؤلاء البنات يفضلون كتمان الامر عن اعلان الفضيحة، وكذلك المجتمع ايضاً. وعلمت ان قضايا هتك العرض غير قليلة كما نتصور، وأن الأطفال البنات في سن مبكرة جدا يتعرضن لاعتداءات من الرجال الكبار.

قالت لي الباحثة الاجتماعية ان في سجلاتها حوادث لأطفال بنات في سن الثالثة من العمر تعرضن لمثل هذا الاعتداء. وقرأت لي الباحثة عن حالة أم جاءت اليهم مذعورة تشتكي ان طفلتها التي تبلغ من العمر ثلاث سنوات قد اعتدى عليها بواب العمارة (باصابعه) حين كان يحملها على كتفه ليداعبها. وفي زياراتي للمستشفيات النفسية طلبت الاطلاع على بيانات جرائم هتك العرض، وتحدثت مع بعض الرجال نزلاء المستشفى الذين هتكوا أعراض بنات صغار ثم حولوا الى المستشفى النفسي لاشتباه اصابتهم بمرض نفسي. واتضحت لي حقيقة غريبة. ان معظم هؤلاء الرجال شديدو التدين، وبعضهم طلاب بالمعاهد الدينية، او مدرسون للدين. وفي قسم المذنبين بمستشفى الخانكة قال لي احد المرضى الذي حول الى المستشفى بسبب هتكه لعرض طفلة صغيرة: « تربيت في جو ديني ونشأت طفلا خجولا متدينا، منطويا على نفسي. كنت تلميذا متفوقا في دراستي وكانت حياتي عبارة عن مثلث: «منزل - مسجد - مدرسة» تخرجت مدرسا ابتدائيا وانا اشعر انني ناقص وانني لم اتعلم شيئا رغم تفوقي الدراسي. كنت آمل ان ادخل الجامعة لاكمال تعليمي لكن الظروف حالت دون ذلك. وفجأة دون مقدمات وقعت الكارثة. امسكت طفلة عمرها ست سنوات واعتديت عليها. وفي قسم البوليس حرر لي محضر واتهمت من النيابة العامة بهتك عرض الطفلة الصغيرة. واعترفت بما فعلت وقلت لهم انني تعبان نفسيا، وان اليوم الذي حدثت فيه الجريمة - وقتها - كنت خارجا من المسجد بعد صلاة الظهر. وانتهى كل شيء بالكشف علي وحولت الى مستشفى الامراض النفسية بالخانكه قسم المذنبين. وانا الان بالمستشفى منذ سنة تقريبا ولا اعرف ما هو مرضي. فانا والحمد لله طبيعي جدا. لست مريضا ولا اعرف كيف ساخرج من هذا المستشفى. انا انسان متدين جدا حتى الان، وانا سريع الاحساس وابكي كثيرا لسوء حظي، ولا يهمني الناس بقدر ما يهمني حكم الله. فانا اعتديت على الطفلة ولكن من الخارج فقط واتضح من

فحص الطبيب الشرعي انها لا تزال عذراء. انا لم امارس العادة السرية في حياتي كلها، واعلم ان الكبت الجنسي الشديد هو الذي دفعني الى هذه الكارثة التي حطمت مستقبلي. انا اخاف الله كثيرا، واخفي وجهي حينما ارى اي فتاة جميلة حتى لا ينتقض وضوئي، وهذه هي اول غلطة في حياتي ارتكبتها، ولكن سوء حظي هو الذي جعلها تنكشف بهذا الشكل. وكل انسان يخطىء ولكني ادفع ثمن هذه الغلطة بكل مستقبلي وحياتي، واصبحت اعيش كشخص مجنون وينظرون الي كمجنون مع انني عاقل ومتدين واعترف بخطئي، ولكن لم يعد احد يسمعني، ولا اعرف كيف او متى ساخرج من هذا المستشفى؟!.

وبينما انا استمع الى كلام هذا الشاب التف حولنا عدد كبير من نزلاء هذا القسم (قسم المذنبين)، وقال شاب ريفي بلهجة ريفية: ان الله غفور رحيم، ولكن الناس لا ترحم. انا مثلا كنت جالسا في الحقل تحت شجرة، وجاءت البنت الصغيرة تلعب معي، ووضعت اصبعي دون ان اقصد اي سوء، ولم تصرخ البنت، كانت مسرورة من ذلك، ولم يحدث لها اي شيء ولكنهم ضربوني واتهموني بهتك العرض وسلطوا على رأسي الكهرباء.

وتنافس زملاؤه الواقفون حولنا على الكلام، وكل يريد ان يحكي قصته وكلهم يطلق عليهم اسم: المذنبين، بعضهم متهم بجرائم جنسية معظمها هتك عرض بنات صغيرات، وبعضهم متهم بقتل زوجته، أو قتل شخص اخر. وقد حصلت على معلومات كثيرة من هؤلاء النزلاء بالمستشفى، كما حصلت على بيانات اخرى من ادارة المستشفى، ولكني احتفظ بكل هذا لكتاب اخر حيث ان المجال هنا لا يتسع لكل هذا.

ولكن ما اريد توضيحه هنا هو علاقة التدين الشديد بالكبت الشديد، وعلاقة الكبت الشديد بالانفجار او التعب النفسي، كما حدث في حالة الشاب الذي لم تكن حياته الا المسجد والمدرسة والبيت، وانه اعتدى على الطفلة بعد خروجه من الصلاة وهذه الحالة في حاجة الى شرح وتوضيح اعمق، خاصة وانه يقول انه يخاف الله كثيرا ويخفي وجهه عندما يرى اية فتاة جميلة حتى لا ينتقض وضوؤه. وتذكرني هذه الحالة بتلك الحالات الاخرى المتعددة كحالة الشاب الجامعي الذكي الذي كان يرفض مصافحة زميلاته في الكلية لان ذلك حرام، ثم اذا به يقع في حب زميلة له، وحين يدرك ان لها خطيبا اخر يصاب بانهيار نفسي. وايضا تلك الطالبة الذكية المتدينة جدا

والتي تعتقد ان صوت المرأة عورة، وحينما تفاجأ برغبتها الطبيعية الصادقة في الحب، ويفرض عليها ابوها زوجا اخر تصاب بانهيار نفسي، بسبب تمزقها بين الرغبة في طاعة ابيها، والرغبة في الحب الصادق، الى غير ذلك من الحالات التي تعيش صراعا يمزقها بسبب التناقضات الموجودة في المجتمع وداخل النفس ، والتي سبق عرضها.

والسؤال الذي لا بد ان يطرح الآن: ما هي علاقة الدين بالصحة النفسية؟ هل التدين والتمسك بمبادىء الدين يقود الى الصراعات الداخلية في النفس والى الاصابة بالامراض النفسية؟ هل هناك تعارض او تناقض بين المبادىء الدينية (والاخلاقية) وبين الرغبات الصحية الصادقة للجسم والنفس والعقل؟! وللاجابة عن هذا السؤال اخصص الفصل الاخير من هذا البحث، وهو فصل يخاطب الانسان سواء كان امرأة أو رجلا، ولا يخاطب النساء وحدهن وقد يتصور البعض انه بعيد بعض الشيء عن موضوع المرأة، ولكنني اعتقد انه لا يمكن الفصل بين مشاكل الانسان النفسية بصفة عامة ومشاكل المرأة لان المراة انسان اولا واخيرا.

١٦ - الدين والاخلاق والصحة النفسية

ان جميع الاديان وجميع المبادىء الاخلاقية الانسانية تدعو الى الصدق والحب والحرية والعدالة بين البشر على اختلافهم (نساء او رجالاً او اطفالاً او فقراء او اغنياء او سودا او بيضا او صفرا او حمرا) . وليس هناك اي تعارض بين هذه المبادىء وبين الصحة النفسية. فان مقومات الصحة النفسية هي الصدق والعدالة والحرية والحب.

ولكن الناس يستمعون الى هذه المبادىء تتلى عليهم في الجوامع او في الكنائس مثلاً، ثم يخرجون الى حياتهم العادية في البيوت اوالمدارس او الاسواق او المكاتب او الدواوين فاذا بهم يفعلون العكس تماماً. انهم يكذبون وينافقون ولا يعدلون ويفرضون القيود ويشعرون بالكراهية ويصبح الانسان (رجل او امرأة) الذي يتمسك او يمارس المبادىء السابقة مجنونا او مريضا نفسيا او أبله أو غبيا أو طفلا. ويدرس الناس تلك الازدواجية الواضحة بين المبادىء الانسانية الصادقة وبين الواقع الذي يعيشه الناس، ولكنهم يقفون امام هذه الازدواجية مكتوفي الايدي، يعترفون بالعجز الانساني، والضعف البشري امام ابليس او الشيطان، وان الشر جزء من طبيعة البشر (لأنهم ليسوا ملائكة) وان الله غفور رحيم لجميع الذنوب، وهم لذلك يذنبون ثم يصلون الى الله من اجل ان يغفر ذنوبهم، وبعد الصلاة وبعد ان يستغفروا الله يعودون الى حياتهم العادية ويذنبون ثم يصلون وهكذا تدور الحلقة الخبيثة.

وحينما نسأل هؤلاء الناس عن سبب الازدواجية الاخلاقية في المجتمع، وسبب الفساد المختفي تحت طبقة سطحية من ادعاء الفضائل فإنهم إما يكذبون على انفسهم وعلى الاخرين وينكرون وجود الفساد وينكرون ذنوبهم، واما انهم يتهمون غيرهم ويقولون ان السبب في كل هذا هو ابتعاد الناس عن الدين. وان الحل الوحيد هو العودة الى حظيرة الدين. ولكن ما هو الدين؟ هل الدين هو تلك الفرائض والعبادات التي

تؤدى داخل المساجد والكنائس؟ ام ان الدين هو سعي الانسان لتحقيق الصدق والعدالة والحرية والحب بين البشر؟!

ان التاريخ الانساني منذ نشأته الأولى، وعلى مر العصور المختلفة يدلنا على أن سعي الانسان وكفاح الانسان كان من اجل الصدق والعدالة والحرية والحب بين البشر. وانه لولا هذا لانقرضت مهمة الفلاسفة والانبياء والفنانين والزعماء الشعبيين على مر العصور وهي تذكير الناس بهذه المبادىء، ومقاومة الحكومات والسلطات التي كانت تحطم هذه المبادىء.

ان هؤلاء الفلاسفة والانبياء والفنانين والزعماء الشعبيين كانوا يدركون دائما هذه المبادىء الاربعة: الصدق والحرية والعدالة والحب، وكانو يدركون انها الاسس لسعادة الانسان، او بعبارة اخرى الاسس لصحة الانسان النفسية. ولكن هؤلاء كانوا يلقون المقاومة والاضطهاد، لا من جموع البشر العاديين او الشعب وانما من تلك الفئة القليلة من الناس التي ملكت السلطة والقوة المسلحة والمال. ومن الحقائق المعروفة انه اذا ارادت الاقلية ان تحكم الاغلبية فلا بد ان تلجأ الاقلية الى البطش والظلم والكراهية والقيود والا لما تيسّر لها ان تحكم الأغلبية وتستغلها.

وعلى هذا تتضح المشكلة. فالمشكلة هي مشكلة السلطة التي تحاول استغلال الاغلبية وبالتالي لا يمكن لها ان تطبق مبادىء العدالة والحرية والصدق والحب، ولكنها يمكن أن تغطي افعالها بكلمات عالية وتتشدق بالعدالة والحرية والصدق والحب، اما الممارسات الفعلية فهي عكس ذلك تماما، ومن هنا تنشأ الأزدواجية، وتنتقل الأزدواجية الى جميع مرافق الحياة والى البيوت والمدارس والجوامع والكنائس والمكاتب والأسواق.

ويعتنق معظم الناس الازدواجية من أجل التكيف مع المجتمع والشعور بالأمن الاجتماعي، وعدم التعرض لبطش السلطة، ويرتبط النجاح في العمل والمجتمع بمقدار ما ينافق الانسان السلطة، وبمقدار ما يتكيف مع هذه الازدواجية فتصبح له حياة علنية يدعي فيها المبادىء الأربعة الانسانية السابقة (الصدق. الحرية. الحب العدالة) وحياة خفية سرية يمارس فيها أشياء أخرى مناقضة لما يصرح به امام الناس.

ويرتبط الفشل في العمل والمجتمع بمقدار ما يكون الانسان صادقا مع نفسه والاخرين، وبرفضه التكيف مع الازدواجية، وتصبح له حياة واحدة هي حياته العلنية

التي يمارس فيها المبادىء الاربعة (الصدق، الحرية، الحب، العدالة)، وهذا قد لا يقوده الى الفشل فحسب، ولكنه قد يقوده الى السجن، أو الى مستشفى الامراض النفسية.

ومن هنا ندرك ان المبادىء الدينية أو جوهر الدين لا يتعارض مع الصحة النفسية، ولكن الذي يتعارض مع الصحة النفسية هو الازدواجية في القيم وانفصام حياة الانسان الى شطرين، شطر علني، وشطر سري خفي.

ولكن الامر ليس بهذه البساطة، لان الامور في حياة البشر لا تسير بهذا الوضوح ولا بهذه البساطة، وقد يلعب الدين في حياة البشر دورا غير الدور الذي وجد من اجله. ولكي نفهم كيف يحدث ذلك لا بد ان نعرف اولا ما هو الدور الحقيقي للدين في حياة الانسان (امراة ورجل). ولكي نعرف الدور الحقيقي للدين لا بد ان نعرف اولا ماذا نعني حين نقول «الدين».

ان التاريخ القديم يدلنا على ان الانسان (قبل نشوء الاديان السماوية) كان يحتاج دائما الى وجود اله، وهو لا يعرف تماما ما هو هذا الاله، ولكنه يعتبره القوة المجهولة وراء مظاهر الحياة والطبيعة المجهولة. كان المصريون القدماء مثلا لايعرفون أي سبب لفيضان النيل وتصوروا ان وراء ذلك قوة الهية وبذلك عبدوا اله الفيضان، وحينما كانت الارض تتأخر في انتاج المحاصيل الزراعية كانوا يصلون لاله الخصوبة والخضرة، وحينما كانت تحدث الكوارث اوالعواصف او الامراض كانوا يصلون للالـه، ويطلبون منها ان تمنع عنهم الكوارث او العواصف، او تشفي المرضى، وهكذا. . ونستنتج من ذلك انه كلما تقدم العلم وكشفَ عن اسباب الامراض والكوارث واسرار الطبيعة كلما تقلص دور الآلهة والاديان.

وهنا ياتي السؤال الثاني: هل يقتصر دور الدين في حياة الانسان على تفسير ظواهر الطبيعة والحياة المجهولة؟! او بعبارة اخرى: هل دور الدين في حياة الانسان دور علمي فقط؟! (العلم هو دراسة القوانين التي تفسر ظواهر الطبيعة والحياة)، ام ان الدين له دورٌ آخر روحي أو نفسي؟ ومعنى ذلك ان الانسان (رغم كشفه بالعلم لظواهر الطبيعة) يظل في حاجة نفسية الى الدين ليشعر بالراحة النفسية والسعادة. ما هي هذه الحاجة النفسية الى السعادة؟ اننا لو سألنا أي انسان هذا السؤال: ماهي سعادتك؟ هل اذا أكل الانسان حتى شبع، وارتدى أحسن الملابس، وسكن احسن البيوت، هل

هذه هي السعادة؟ ان معظم الناس سيقولون ان سعادة الانسان اكبر من مجرد الاكل والشرب والسكن. ومعظم علماء النفس ايضا سيقولون ان السعادة والصحة النفسية للانسان اكبر من مجرد ان يعيش الجسد ويستمتع، وان الانسان يختلف بلا شك عن الحيوان، لان الانسان لا يكفيه ان ياكل ويشرب ويتناسل، ولكنه يريد ان يستخدم عقله من اجل الوصول الى الحق والعدالة والحرية والحب بين البشر. السعادة عند الانسان هي اذن استخدام الانسان لعقله من اجل الوصول الى الحق والعدالة والحب بين البشر. والصحة النفسية هي قدرة الانسان على استخدام عقله من اجل الوصول الى الحق والعدالة والحرية والحب.

لقد ظل الانسان في حاجة دائما الى تحقيق هذه المبادىء الاربعة ليشعر بالسعادة وليشعر بالصحة النفسية.

لكن عقل الانسان سلاح ذو حدين. فهو يرفع الانسان عن مرتبة الحيوانات لكنه يبصره ويفتح عينيه على معرفة الكون الضخم الذي لا يمثل فيه الانسان الا جزءا صغيرا جدا. ان الحيوانات والنباتات (لانها لا تفكر كالانسان) تعيش في انسجام كامل مع الكون؛ كجزء لا ينفصل عن الطبيعة، ولذلك لا تشعر الحيوانات والنباتات باي صراع بينها وبين الكون الخارجي الضخم. لكن الانسان فقد الانسجام مع الكون بسبب عقله الذي يفكر والذي دله على انه ذات منفصلة مستقلة عن الكون. ومن هنا نشأ الصراع الانساني الخاص بالانسان وحده. فالانسان يعيش برغبتين متناقضتين: انه يحاول دائما ان يحقق ذاته كفرد مستقل وهو في نفس الوقت لا يستطيع ان يعيش وحده، ويشعر بالعجز والضآلة وحده، ويواجه الموت وحده، ولا بد له من الاتصال بالاخرين والانتماء الى المجتمع، أو الى شيء اكبر منه، من اجل اعادة الانسجام بينه وبين الكون، ومن أجل مقاومة الموت، او البقاء بعد الموت، كاثر خالد، او جزء حي من الكون. ومعنى ذلك ان الانسان يريد ان يكون منفصلا عن الكون ومتصلا بالكون في الوقت نفسه. انه يريد ان يكون فردا مستقلا بذاته المنفردة وان يكون جزءاً من مجتمع اكبر في الوقت نفسه وهذه معادلة صعبة حيرت الانسان كثيرا، وسببت له كثيرا من المعاناة وهي تشبه معاناة الطفل وسط اسرته. ان الطفل يريد ان يستقل عن الاب والام ويصبح فردا مستقلا، ولكنه يشعر ايضا بالرغبة في الالتصاق بالام والاب والانتماء الى الاسرة والاحتماء فيها من خطر العالم الخارجي.

وقد كان «فرويد» من العلماء النفسيين الاوائل الذين حاولوا تفسير ظاهرة الدين

في حياة البشرية على اساس نظريته في سيكولوجية الطفل. وفي كتابه عن مستقبل الوهم[1] حاول فرويد ان يفسر حاجة الانسان الى الدين تفسيرا سيكولوجيا، وقال ما معناه ان اصل الدين في حياة البشر يرجع الى احساس البشر بالعجز في مواجهة قوى الطبيعة الخارجية وقوى الغرائز داخل النفس، وان الدين نشأ في المرحلة المبكرة للتطور البشري حين كان الانسان عاجزا عن استخدام عقله في مواجهة هذه القوى الخارجية والداخلية، وكان عليه ان يكبت هذه القوى او يعزوها الى قوى اخرى يجهلها. وبدلا من ان يشغل الانسان عقله لفهم هذه القوى الداخلية والخارجية ويسيطر عليها، فانه يخلق ما سماه فرويد بالوهم «Illusion» ، الذي يستعيره الانسان من خبرته السابقه وهو طفل حين كان صغيرا، يشعر بالاحتماء بالاب[2] من مخاطر العالم الخارجي. هذا الاب الذي يمثل له القوة والحكمة، والذي يستطيع ان يحظى بحبه وحمايته له اذا اطاع اوامره وابتعد عن كل ما يغضبه.

وهكذا راى فرويد ان الدين هو تكرار لخبرة الطفل. وان الانسان يعالج القوى التي تهدده بالطريقة نفسها التي يعالجها بها الطفل. انه كطفل قد تعلم ان يعالج خوفه من هذه القوى بالاعتماد على ابيه وطاعته والاعجاب به والخوف من عقابه. وقد قارن فرويد الدين بالعصاب المسلط الذي يحدث في الاطفال، ولهذا يرى فرويد ان الدين «عصاب جَماعي» Collective neurosis

وقد حاول فرويد ان يبحث في الاسباب النفسية التي دعت الانسان الى تكوين فكرة وجود الاله، وهو لا يكتفي بان يقول ان الدين مجرد وهم« illusion » ولكنه ايضا خطر« danger » لأنه يمنع الناس من استخدام عقولهم او التفكير النقدي في امور حياتهم، وبذلك يضمحل ذكاؤهم وتفتقر عقولهم . ويقول فرويد إن عدم استخدام العقل او التفكير النقدي في أمر من الامور يعطل التفكير النقدي في الامور الاخرى. ويرى «فرويد» ان الدين خطر ايضا على القيم الانسانية الاخلاقية الاساسية، والتي يسميها: الحب الاخوي بين البشر (Menschenliebe)، والحق والحرية. ويقول فرويد ان الانسان اذا تخلص من الوهم الذي يجعله يعتمد على الإله الأب، فانه يواجه وحدته وضالته في العالم الكبير، ويصبح شبيها بالطفل الذي ترك بيت ابيه لكنه يقول ان النضوج الانساني لا يمكن ان يتحقق الا بالخلاص من هذا التعلق الطفولي، وان الانسان لا بد ان يعلم نفسه كيف يواجه الحقيقة دون الاعتماد على قوة اخرى خارجية. اذا عرف الانسان انه ليس هناك من شيء يعتمد عليه سوى نفسه وقوته فهو سوف يتعلم

كيف يستخدمها. ان الانسان الذي يستطيع أن يستخدم قوته هو الذي تحرر من السلطة التي تحكمه او التي تهدده. ان الطفل لا ينضج ولا يستقل ويعتمد على نفسه ويستخدم قوته الا بعد ان يتحرر من الاعتماد على ابيه او الخوف منه.

وقد افترض فرويد بطبيعة الحال بهذا المنطق انه ليس هناك علاقة بين الاب الطفل والام وافترض ايضا ان هناك علاقة وحيدة بين الاب والطفل وهي علاقة الخوف وطاعة الاوامر رغبة في الحماية. وبنى عليها ان علاقة الانسان بالاله هي علاقة مشابهة اي انها علاقة الخوف وطاعة الاوامر رغبة في الحماية. ولكن الا توجد علاقة اخرى بين الطفل والاب او بين الطفل والام قائمة على الحب وليس على الخوف؟ الا يمكن ان تكون العلاقة بين الطفل والاب او بين الطفل والام قائمه على المناقشة والاقناع وليس على الطاعة العمياء للاوامر؟! والسؤال الثاني هو: هل علاقة الانسان بالاله في جميع الاديان البشرية قائمة على الخوف والطاعة العمياء للاوامر. اليست هناك اديان قائمة على الحب والمناقشة والاقتناع؟

وهناك كثير من الاديان تنص في جوهرها على ان الله هو الحب، وان حب الله ليس معناه الا أن يحب الانسان اخاه الانسان وتكون معاملته للناس على اساس الصدق والعدل والحرية والمساواة. ولا شك ان هناك كثيرا من المسلمين والمسيحيين الذين يفهمون دينهم على هذا الاساس.

ويقول اريك فروم في كتابيه[4] (الانسان لنفسه) و(التحليل النفسي والدين) ما معناه ان الاديان التي تقوم فيها العلاقة بين الانسان والاله على الحب هي انسانية humanistic ويفرق بينها وبين الاديان التي تقوم فيها العلاقة بين الانسان والاله على الخوف والتي يسميها أديان استبدادية او authoritarian. ويقول اريك فروم ان الاديان الانسانية القائمة على الحب تساعد الانسان على استخدام عقله وقوته الذاتية من اجل اسعاد الاخرين وتطوير المجتمع الى الافضل، اما الاديان الاستبدادية القائمة على الخوف فهي تشل عقل الانسان ولا تساعده على استخدام قوته الذاتية، لانه يعتمد على قوة اخرى غير نفسه، يسقط عليها كل الصفات الطيبة كالعدل والحق والحكمة ولا يبقي لنفسه الا الصفات الشريرة، وبذلك يجد الانسان تبريرا منطقيا لافعاله الشريره المناقضه للعدل والحق والحكمة. انه يستاصل من نفسه الجزء الطيب فيه ويسقطه على قوة اخرى خارج نفسه ينظر اليها في خوف وهلع، لانه يشعر امامها انه مذنب دائما وانه آثم دائما، وتصبح علاقة الانسان بالله قائمة على الاحساس بالذنب والخوف

من العقاب والايذاء، اي تصبح العلاقة ليست علاقة حب، وانما هي علاقة ماسوشية ، يحاول الانسان فيها ان يتخلص من ذنبه ومن خوفه وذلك بمزيد من الخضوع وامتهان النفس واذلالها رغبة في الحماية والافلات من العقاب.

ويشعر الانسان ايضا بالاغتراب عن نفسه. لقد استأصل من نفسه الجزء الطيب وأسقطه على قوة خارجية بعيدة عنه، وهكذا تصبح نفسه الطيبة بعيدة عنه ، غريبة عنه، ومن هنا ينشأ الشعور المسمى بالاغتراب. ويحاول الانسان ان يعالج هذا بعبادة الله. انه في هذه العبادة يحاول ان يصل الى هذا الجزء الطيب من نفسه الذي فصله عنه.

ويقول اريك فروم ان هذه الاديان الاستبدادية هي التي تشبه علاقة الاب المستبد بطفله، وهي التي وصفها فرويد بانها نوع من العصاب، والرغبة في الاعتماد على الاب، وكسب حمايته بالخضوع الكامل له وطاعته طاعة عمياء دون مناقشة، وعدم الرغبة في الانفصال عنه خوفا من الاستقلال والحرية التي تعني له ان ينفصل عن ابيه ويخرج من بيته، ويهيم على وجهه باحثا عن حياة خاصة به وذات مستقلة عن ذات ابيه. انه يسقط كل القوة على الاب الذي يمثل له الحماية وتكون علاقته به علاقة خضوع وطاعة، ويجرد نفسه من القوة فيشعر بالضعف وهذا يحدث ايضا في علاقته بالدين ايضا وفي علاقته بالحاكم او كل من كان في موضع السلطة العلوية.

اما في الاديان الانسانية فان اريك فروم يرى ان الانسان لا يسقط الجزء الطيب فيه على قوة اخرى خارجة. ان الانسان يدرك ان صفات العدل والحق والحكمة والحرية والحب داخل الانسان وليس خارجه، ومعنى ذلك ان الله داخل الانسان وليس خارجه وان على الانسان ان يمارس الصدق والعدل والحرية والحب ليحقق ذاته كلها ويشعر بالسعادة المتكاملة ويتمتع بالصحة النفسية. ومن هنا يتضح ان ممارسة الصدق والعدل والحرية والحب تقضي ان يدرك الانسان ان هذه الصفات موجودة فيه وان عليه ان يبحث عنها داخل نفسه، ويمارسها في حياته اليومية. وبذلك تصبح ممارسة الصدق والحب والعدل والحرية هي الوسيلة الوحيدة لتقرب الانسان من الله او من نفسه الكليه وهذا هو جوهر الدين الانساني.

لكن الذي يحدث في حياةالبشر ان الناس اذا عجزت عن تحقيق الجوهر لجأت الى التمسك بالشكل كنوع من ارضاء الضمير او التبرير او التقليل. لكن ضمير الانسان

(وهو الله في الدين الانساني) لا يخدعه الشكل والحركات الخارجية، ويدرك الحقيقة من الكذب. ولذلك يتعذب ضمير بعض الناس حين لا يمارسون الصدق او العدل او الحب او الحرية. وبعض الناس الذين ماتت ضمائرهم لا يتعذبون وهم يمارسون الكذب والظلم والكراهية.

ويقول اريك فروم ان الانسان الذي يتعذب وهو يمارس الكذب والنفاق افضل من الانسان الذي لا يتعذب وهو يمارس الكذب والنفاق ولا شك ان عذاب الانسان الاول يسبب له العصاب او المرض النفسي، ولكن هذا الانسان اكثر صحة نفسية من الانسان الآخر الذي مات ضميره تماما ولم يعد يشعر باي عذاب، وقد يبدو للاخرين انه اكثر صحة نفسية لانه اكثر تكيفا مع المجتمع الذي تسود فيه قيم الكذب والنفاق. اما في المجتمع الذي تسود فيه قيم الصدق والعدل والحرية والحب فان الانسان ذا الضمير الحي لا يشعر بالعذاب لانه يمارس هذه المبادىء في حياته اليومية.

ويقول اريك فروم ورونالد لينج ودافيد كوفر وتوماس زاس وغيرهم من علماء النفس ان تفكير الناس يتكون حسب تكوين شخصياتهم، وان شخصياتهم تتشكل حسب ممارساتهم اليومية، او بعبارة اخرى حسب النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي يحكم المجتمع، إذا كان المجتمع محكوماً بأقلية تسيطر على الاغلبية وتستغلهم لصالح الأقلية فإن الانسان الفرد يعيش في خوف دائم من بطش السلطة، ويمنعه الخوف من النضوج والاستقلال والاحساس بقوته وإرادته. ولهذا تشجع مثل هذه الانظمة الاستبدادية الاديان الاستبدادية وتستغل حاجة البشر الى الدين الانساني (بمعناه الانساني السابق) وتحوله الى دين استبدادي إرهابي قائم على الخوف والهلع والعجز والحماية، وليس قائماً على الحب والقوة والاستقلال، ويصبح الله عند الناس ملجأ وهروباً سلبياً من الحياة وليس مواجهة للحياة وتطويرها إلى الافضل.

وان تاريخ معظم الاديان يدلنا على ذلك الترابط بين النظام الاجتماعي والاقتصادي الحاكم وبين نوع الدين الذي يفرض على الناس. ان الدين المسيحي في بدايته كان دين الفقراء الذين بدأوا يحاربون السلطة الحاكمة المستبدة بالناس الظالمة لحقوقهم. والدين الاسلامي ايضا كان دين الفقراء الذين قاوموا السلطة الحاكمة المستغلة لجماهير الناس. وكذلك ايضا معظم الاديان. ان معظم الاديان تبدأ بدايات انسانية، ولكنها بمرور الزمن، بانتصار النظم الاستبدادية الحاكمة، ووقوع الاغلبية الساحقة تحت رحمة الاقلية المسيطرة المستغلة، يصبح على الحكام ان

يستغلوا الدين ضمن اي شيء اخر في حياة الناس فيجردوا الدين من معناه الانساني ومن مبادئه الاساسية الجوهرية، ويجعلوه سيفا مسلطا على رقاب الناس، ويصبح الدين استبداديا يتفق مع الحكم الاستبدادي ويساعده على استغلال الناس تحت ستار من الكلمات والشعارات الرنانة، فالعمل والكفاح والقناعة بالاجر الضئيل والموت في سبيل الوطن كلها قيم عظيمة مفروضة على الاغلبية المحكومة، اما الاقلية الحاكمة فهي تستمتع بالراحة والجشع والثراء والاجور المرتفعة والبعد عن خطر الموت في سبيل الوطن. وتسود في تلك الانظمة بطبيعة الحال الازدواجية في كل شيء. وذلك لان الحكام يقولون امام الناس اشياء ويمارسون في الواقع اشياء اخرى عكسية. وتنتشر الكلمات المعكوسة المزدوجة الكاذبة ويتشدق الجميع بالصدق والعدل والحرية والحب، ويطفح الواقع بالكذب والنفاق والظلم والكراهية والقيود والسجون ونزلاء المستشفيات النفسية. وفي تلك الانظمة يصبح افضل البشر إما داخل زنزانة السجن او داخل زنزانة المستشفى النفسي. والفرق بين الاثنين ليس كبيرا فالثائر السياسي هو الشخص الذي يرفض الكذب والظلم والكراهية ويسعى جاهدا بكل قوته من اجل تغيير النظام الاجتماعي بنظام آخر يقوم على العدل والحرية والحب. والمريض نفسيا (رجلاً او امرأة) هو الشخص الذي لم يستطع ان يكون بطلا ثائرا كالسابق، ولكنه لم يستطع ايضا ان يقتل ضميره تماما (كما فعل الاخرون) ولذلك يتعذب وهو يمارس الكذب والكراهية والظلم، ويقوده العذاب الى العصاب، والقلق، والارق، والاكتئاب، والهيستيريا.

ويتوقف علاج الطبيب النفسي للمرضى أو المريضات نفسيا حسب موقفه من النظام الاجتماعي الاستبدادي الحاكم. وحيث ان معظم الاطباء لا يعرفون شيئا في السياسة او المجتمع، وحيث ان معظم الانظمة الحاكمة الاستبدادية تفرض على الاطباء او غيرهم من اصحاب المهن ان يفصلوا بين العلم والسياسة، او بين الطب والسياسة، ويصبح التعليم في المدارس والجامعات ليس تعليما من اجل المعرفة وفهم حقائق الحياة والمجتمع ولكن مجرد معلومات متفرقة غير مترابطة تؤهل الشخص للحصول على شهادة من اجل الحصول على وظيفة من اجل سد الرمق فحسب.

لهذا يصبح معظم اطباء النفس بغير موقف تجاه النظام الاجتماعي الاستبدادي الحاكم، ومعنى ذلك انهم يستسلمون بغير تفكير لاية سلطة تحكمهم، معتبرين ان السياسة ليست من اختصاصهم، وهكذا يتفرغون لمصالحهم الخاصة، ويفصلون بين

المريض والمجتمع، ولا يدركون الأسباب الاجتماعية الكامنة وراء المشاكل المرضية للانسان، ويصبح كل همهم كيفية الاستفادة من مهنة الطب والاثراء عن طريق العيادة الطبية الخاصة، وهكذا يصبحون جزءا من النظام الاستغلالي الحاكم، وينظرون الى الخارجين على هذا النظام او الرافضين له كمرضى بالعصاب او الجنون، ويتصورون ان الشخص العادي المتكيف مع النظام اكثر صحة من الشخص المصاب بالعصاب والذي تمزقه الصراعات والعذابات. ويصبح العلاج في نظر هؤلاء الاطباء هو ان يتكيف المريض نفسيا مع المجتمع، ولا يكون ذلك الا بقتل البقية الباقية من ضميره وتفكيره الحر المستقل عن طريق غسيل المخ بالصدمات الكهربية او الحقن المهبطة للتفكير او الاقراص المهدئة او المنومة.

وقد اصبحنا نعلم الان ان مقومات الصحة النفسية عند المرأة هي نفسها مقومات الصحة النفسية عند الرجل. فالمرأة انسان والرجل انسان، ومقومات الصحة النفسية للانسان هي قدرته على النضوج والاستقلال واستخدام عقله وقوته الذاتية من اجل ممارسة الصدق والعدل والحب والحرية لنفسه ولغيره من البشر.

ولكن هل يسمح الآباء والامهات لبناتهم (وابنائهم) بتلك الفرص التي تساعدهم على النضوج والاستقلال؟ هل تقوم العلاقة بين الآباء (والامهات) وبين بناتهم (وابنائهم) على الحب والحرية والمناقشة والاقناع، ام تقوم على الخوف والطاعة والكبت؟!

لا بد من الاعتراف بان معظم علاقة الآباء (والامهات) بالبنات (والاولاد ايضا) تقوم على الخوف والطاعة اكثر مما تقوم على المناقشة والحرية والحب. ان كثيرا من الآباء يتصورون ان الصرامة والشدة والتخويف كلها ضرورية لتربية البنات (والاولاد) تربية جيدة. وهم لا يدرون خطورة هذه التربية على الصحة النفسية لبناتهم واولادهم. انهم يتصورون ان الطاعة صفة حميدة، وقد يتماخرون بان بناتهم واولادهم يطيعونهم ولايعصون لهم امرا والحقيقة ان هذه الطاعة ليست صفة حميدة، ولكنها مرض نفسي لا بد من شرحه هنا.

عندما تخضع الابنة (او الابن) لاوامر ابيها القاسي الصارم، عندما تخافه لدرجة انها لاتستطيع ان تخالفه، تصبح الفتاة مطيعة مؤدبة، وتكبر شابة مطيعة مؤدبة، ولا تظهر عليها اي اعراض تلفت اليها نظر اطباء النفس، ويقولون عنها انها تتمتع بصحة نفسية.

لكن علم النفس الحديث يكشف النقاب عن هذه الصحة المزيفة ويقول ان هذه الابنة (او الابن) بينما هي تكيف نفسها مع صرامة ابيها يحدث لها شيء داخلها، انها تقهر عداوة متراكمة ضد ابيها، وتكبتها، لانها تشعر بالخطر لو اظهرتها، بل لو كانت على وعي بها. هذه العداوة المكبوته (رغم انها خفية) تخلق في نفس الفتاة قلقا قد يفضي الى خنوع عميق، وقد يفضي الى تحد غامض، ليس موجها ضد الاب بل موجه ضد الحياة بصفة عامة. وفي كلتا الحالتين، الخنوع العميق او التحدي الغامض غير المصحوب بفعل، تبدو الفتاة امام الناس مطيعة مؤدبة، او بمعنى اخر، متكيفة مع الظروف الخارجية.

ان هذا التكيف مع الظروف الخارجية (وخاصة في سن الطفولة المبكرة) غير صحي لنمو وتطور الانسان نفسيا، فهذا الطفل الذي لا يستطيع ان يخالف والده ويقمع في نفسه قدرته على التفكير النقدي، وباستمرار عملية القمع يفقد الشخص القدرة على التفكير النقدي نظرا لان الاحتفاظ بهذه القدرة امر خطير وداع لليأس ايضا وهكذا تصبح الابنة او الابن مستعدا لقبول افكار ابيه كما لو كانت افكاره هو وحين تصبح شابة او شابا يكون مستعدا دائما لقبول افكار الأخرين كما لو كانت افكاره هو. وهذا هو ما يسمى في علم النفس بالتفكير الزائف لانه ليس نتاج تفكير الانسان نفسه. والتفكير الزائف يفضي بطبيعة الحال الى رغبات زائفة والرغبات الزائفة تفضي الى افعال زائفة.

هذه النشاطات الذهنية الثلاثة (التفكير ـ الرغبة ـ الفعل) هي التي تكون النفس الأصلية للانسان. وحينما لا تكون هذه النشاطات الذهنية خاصة بالانسان، بمعنى انها ليست نتيجة نشاطه الذهني الخاص، وانها لم تصدر عنه بل وضعت فيه من الخارج، وانه يستشعرها ذاتيا كما لو كانت منه هو، حينما يحدث ذلك يكف الانسان عن ان يصبح نفسه. انه يعتنق نوع الشخصية المقدم له من جانب المجتمع، ولهذا فانه يصبح تماما كما يتوقع منه الآخرون ان يكون.

والشخص الذي يتنازل عن نفسه ويصبح آلة متطابقة مع ملايين الآخرين من الآلات المحيطة به يشعر بما يسمى الأمن الاجتماعي. لقد اختفى منه الخوف الشعوري بالاختلاف، وهو لم يعد بحاجة الى أن يشعر بالوحدة أو القلق، إنه يشعر بالحماية والأمن الاجتماعي لكن الثمن الذي دفعه في سبيل هذه الحماية غال جداً إنه فقدان نفسه.

وبالرغم من صفات الطاعة والادب والتكيف والنجاح الاجتماعي التي يتميز بها هذا الشخص إلا إنـه أصبـح من وجهة نظر علماء النفس لا يتمتع بصحة نفسية. فالصحة النفسية هي قدرة الانسان على الاحتفاظ بنفسه الأصلية. وحيث ان النفس الاصلية تتكون من ثلاثة عناصر: (تفكير ـ رغبة ـ فعل)، فإن الصحة النفسية هي قدرة الانسان على أن تكون أفكاره ورغاباته وأفعاله أصليه، ونابعة منه حقيقة، معبرة عنه حقيقة.

إن اي كبت لأي عنصر من عناصر النفس الثلاثة يستأصل اجزاء من نفس الانسان الحقيقية، ويفرض بديلاً من الشعور الزائف او التفكير الزائف عـلى المصاب بـالكبت وعلى هذا يمكن القول ان الصحة النفسية تحتاج الى ان يعيش الانسان في جو خال من الكبت على افكاره او رغباته او افعاله. بمعنى انه في حاجـة لأن يتحرر من القيـود. لكن هذه الحرية من القيود ليست كل شيء انه لا يكفي للانسان ان يتحرر من قيود العالم الخارجي ليستمتع بالصحة النفسية. ان هذه الحرية حرية سلبية كما يقول اريك فروم(٥) وهذه الحرية السلبية تفصل الانسان عن العالم الخارجي كما ينفصل الجنين عن جسد امه. حينما يولد الطفل ينفصل جسده عن جسد امه وبذلك يصبح جسده متحررا من جسد امه ولكنه يظل يعتمد على امه بضع سنوات حتى يستطيع الاعتماد على نفسه وبذلك يتحرر منها نفسيا ويصبح انسانا مستقلا اي حرا بجسده الخاص ونفسه الخاصة. هذه الحرية الجسدية والنفسية التي حدثت للطفل هي حرية سلبية. لقد تحرر الطفل من جسد امه وتحرر من حاجته البيولوجية والنفسية لها. اي انه تخلص من القيد الذي كان يربطه كالوتد بامه، وهو الان يقف منفصلا حرا، وحيدا، يواجه الحياة وحده ككائن منفصل ومستقل. هذه الحرية تعني الوحدة وتعني المسؤولية وتعني ايضا القلق والخوف والاحساس بالخطر. ذلك ان الانسان قد انفصل عن جسد الام او عن جسد الكون وفقد ذلك الامان الذي تعوده حين كان جزءا صغيرا في شيء كبير، ولم يكن مسؤولا عن شيء بل كان جسد الكون هو الذي يحركه وهو المسؤول عنه.

ولهـذا يصاحب هذه الحرية السلبية الاولى إحساس بالقلق والخوف والوحدة. ويحاول الانسان ان يتغلب على وحدته وعزلته وقلقه وخوفه بأن يبحث عن وسائل تجعله يتحد مرة اخرى بالكون او ان يكون جزءا من شيء اكبر، وحيث ان الانسان لا يمكن بحال ان يعود الى رحم امه، اذن لا بد ان يجد في المجتمع من حوله «حبلاً سرياً»

جديداً يصله بالعـالم ويصـل العالم به، حينئذ يشعر بالأمان ويضيع منه الأحساس بالوحدة والأنعزال والقلق.

ولكن هل يجد الانسان في المجتمع هذا «الحبل السري»؟ أو بمعنى اخر هل يوفر المجتمع للانسان الظروف التي تجعله يقيم مع العالم علاقات حميمة؟ وبشكل أوضح :هل يعطي المجتمع للانسان الحرية لان يتحد مع العالم والناس.

والاجابة عن هذا السؤال هي (لا). ربما كان مجتمع العصور الوسطى مختلفا، ولكن بالنسبة لمجتمعنا الحديث الذي تقوم فيه العلاقات بين الناس على التنافس وليس التعاون، والذي يواجه الانسان قدره وحيدا منعزلا عن الآخرين، ويا ليتهم آخرون سلبيون لا شأن لهم به، ولكنهم آخرون متنافسون عدوانيون، ما ان يستشعر الواحد منهم ضعف الأخر حتى ينقض عليه كالسمك يأكل كبيره صغيره.

ولهذا فان القلق والوحدة والخوف كلها امراض عصرية يعاني منها انسان المجتمع الحديث، الذي حصل على حرية سلبية ولم يحصل على حرية ايجابية. الذي تحرر من الـروابط الاولية بالعلم لكنـه عجز عن خلق روابط جديدة بالعالم. ان الحرية الحقيقية هي تلك الحرية الاخيرة التي يشعر بها انسان حر مستقل نجح في أن يتحد بالعالم والناس.

ويقول علماء النفس: ان نجاح الانسان الحر المستقل في الاتحاد بالعالم والناس يتحقق بالحب والعمـل الخـلاق المنتج. ولهذا فان المجتمع الذي لا يوفر للناس الظروف التي تساعدهم على الحب وعلى العمل الخلاق المنتج هو مجتمع يشعر فيه الانسان الحر المستقل بالقلق والوحدة والشك في معنى حياته وقيمتها وجدواها. ولهذا تزداد مأساة الانسان في عصرنا الحديث كلما زادت حريته الفردية وزاد استقلاله لأنه يتلفت حولـه في العالم ولا يعرف ماذا يفعل بحريته واستقلاله، وليس عليه الا ان يخوض حياة البورصة القائمة على التنافس وعدوان القوي على الضعيف وبهذا تصبح القوة هدف الانسان كي يسيطر على غيره، وهذه القوة لا تمنح الانسان الحرية الايجابية او الحرية في الاتحاد بالعالم والناس عن طريق الحب والعمل الخلاق المنتج، بل هذه القوة تسبب لصاحبها قلقا أشد، بسبب الخوف من فقدانها، ومن ثم التعرض لانتقام الاخرين الذين سبق له ان أخضعهم.

أن انتشار الامراض النفسية بالذات في عصرنا الحديث، وعلى الاخص في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة إنما هو نتيجة حصول الانسان على وجه واحد من الحرية هو الحرية السلبية، أما الحرية الايجابية التي تساعد الانسان على أن يحقق ذاته المستقلة من خلال عمله الخلاق المنتج او من خلال حب حقيقي مع الاخرين، هذه الحرية الايجابية لم تحصل عليها الاغلبية الساحقة من البشر في معظم المجتمعات، ربما حصل عليها بعض افراد قلائل استطاعوا أن يحققوا ذواتهم المستقلة من خلال عمل خلاق وحب حقيقي، ولكن الأغلبية من الناس يعملون عملا متكررا يبعث على الملل وليس فيه خلق جديد والهدف منه الحصول على لقمة العيش، وكذلك الأغلبية من الناس لايحبون حبا حقيقيا ولكنهم يدخلون في علاقات نفعية من اجل الحصول على قوة أو مال أو حماية من أي نوع.

وقد أجمع علماء النفس على أن الحرية الايجابية هي الوسيلة الوحيدة التي يحصل بها الانسان على الهدوء والامان والانسجام مع العالم. هذه الحرية لا يمكن ان تتحقق في مجتمع يقوم على التنافس والاستغلال وإنما تتحقق في مجتمع يقوم على التعاون بين الناس. لكن التعاون بين الناس لا يمكن أن يحدث إذا شعر الناس أنهم غير متساوين، فالاحساس بالمساواة شرط من شروط التعاون. ولهذا يرتبط دائما التعاون بالمساواة، والتنافس بالاستغلال وعدم المساواة.

وبغير التعاون لا يحدث الحب، وبغير الحب يشعر الانسان بالقلق والوحدة وعبث الحياة. وهذا هو السبب في انتشار هذه الاعراض عند الشباب في مختلف أنحاء العالم، وانتشارها ايضا في أدب القرن العشرين وفنونه، ذلك الأدب أو الفن الذي يعبر عن أزمة الانسان الحديث، أزمة انسان حصل على وجه واحد من الحرية هو الحرية السلبية التي مزقت صلاته القديمة بالعلم والناس وتركته عاريا وحيدا يواجه معارك البطش خائفا مذعورا، ذلك أنه يشعر دائما بأنه وحيد وبأنه منعزل عن الاخرين، وأن الاخرين يقفون له بالمرصاد.

إن فقدان الحب في حياة الناس هو الذي يسبب لهم الأمراض النفسية. ولكن الحب مرتبط بالمساواة بين البشر والعدالة والصدق والحرية، ولهذا تزيد نسبة الامراض النفسية بين النساء، لأن المجتمع لا يساوي بين الرجل وبين المرأة ولأن المرأة تفرض عليها قيود أكثر من الرجل. إن الرجل وبالذات من الطبقات الكادحة والمحكومة يتعرض لقيود سياسية واقتصادية ونفسية في عمله خارج البيت، أما المراة فهي تتعرض

بالاضافة إلى ما سبق إلى قيود أخرى خاصة بها وحدها كامرأة سواء داخل الاسرة او في المجتمع الخارجي ولهذا يقع الظلم على المرأة مضاعفا. وفي ظل هذا الظلم لا يمكن أن ينشأ الحب بين الرجال والنساء فالقيود تفرض على المرأة أن تكذب والحب لا يمكن أن يوجد في ظل الكذب.

الحب هو أن يشعر الانسان بصدق، ويرغب بصدق، ويفعل بصدق. الحب هو فعل المشاعر والرغبات الصادقة ومن أهم ما قاله كير كجارد ان الحقيقة لا توجد في حياة الانسان إلا من خلال العقل، وحيث ان الصحة النفسية تضيع بضياع الحقيقة من حياة الانسان لهذا فان الفعل ضروري لصحة الانسان النفسية. والعقل معناه أن يعمل الانسان فعلا، أن يطبق أفكاره النظرية في الحياة الواقعية الحقيقية. فالعمل هو النتاج الطبيعي للفكر. والفكر الذي لا يعقبه عمل يظل فكرا بعيدا عن واقع الانسان أي بعيدا عن حقيقته، بمعنى آخر، يظل فكرا خياليا. والصحة النفسية لا ترتبط الا بالحقيقة وبالافكار الحقيقية، أما الخيال فهو مرحلة سابقة للحقيقة فحسب وأي خيال لا يتحقق أو غير قابل للتحقق يصبح من الاوهام وليس من الأفكار.

أن يفكر الانسان، وأن يعبر عن أفكاره بحرية أمر ضروري للصحة النفسية، فالفكر كما سبق أن ذكرت أحد الانشطة الذهنية الثلاثة المكونة للنفس الاصلية للانسان. إن الكبت كبت الفكر داخل الرأس والخوف من ابداء الرأي يجعل الانسان متوترا في أعماقه، ويتصارع فيه الجزء الحقيقي من نفسه مع الجزء المزيف، الجزء الذي يريد ان يعبر بصدق عن نفسه والجزء الذي يريد أن يزيف نفسه خوفا من الأذى. إن الاب الذي يعاقب ابنه أو ابنته لأنه عبر عن أفكاره بصدق أو المجتمع الذي يعاقب أي انسان لأنه عبر عن افكاره بصدق يخلق امام الناس جوا من الخوق يجعلهم يكبتون افكارهم وتتصارع اعماقهم فاذا انتصر الجزء الحقيقي من الانسان عاش الشخص قلقا ينتظر وقوع العقاب بين لحظة واخرى. واذا انتصر الجزء المزيف عاش الانسان مطمئنا من الناحية الاجتماعية لكنه قلق من الناحية النفسية بسبب فقدانه لجزء هام من نفسه.

ومن الافكار التي تكبت بسرعة تلك الافكار التي تتعلق بامور حساسة في المجتمع. ويختلف كل مجتمع عن الآخر في درجة حساسيته ونوعيتها. لكن معظم المجتمعات في العالم تجد حساسية متفاوتة الشدة (حسب نوع المجتمع) تجاه امور ثلاثة في الحياة هي الدين والجنس والسياسة، ولهذا فان معظم الافكار التي تكبت هي تلك الافكار المتعلقة بامر من هذه الامور الثلاثة.

ويتميز العقل البشري بقدرته على التفكير والتحليق في أي سماء، خاصة العقل الشاب الذي لم يفقد مرونته وشجاعته بعد ولهذا كثيرا ما نرى شبانا وشابات بالذات في سن ما حول العشرين مصابين بالقلق والتوتر النفسي، حين يبدأ عقلهم يناقش موضوع الوجود والله، وحينما يبدو لهم ان هناك بعض التناقضات بين الافكار التي تجول في عقولهم، وبين المسلمات التي يجب ان يؤمنوا بها . ويصاب الشاب او الشابة منهم بحيرة شديدة يزيدها خطرا انه يخشى ان يفاتح احداً بافكاره فيتهم بضعف الايمان. او انه يتجرأ ويفاتح اباه مثلا، فاذا بالاب يلومه ويتهمه ولا يناقشه، ويشعر الشاب بالذنب وان افكاره آثمة، وان عقله فاسد لانه يفكر في امور لا يصح التفكير فيها. ، ويفضي الاحساس بالذنب بطبية الحال الى الرغبة في عقاب النفس وقد يوقع الشاب او الشابة العقاب على نفسه، بالانطواء والانعزال عن مباهج الحياة وقد يجد في ايلام نفسه بعض الراحة او اللذة (بدء الماسوشية) وقد تصل الرغبة في ايلام نفسه الى حد الايذاء الشديد او قد يجد الراحة الكبرى في ان يقتل نفسه جسديا او فكريا بطريقة او باخرى.

وفي احيان اخرى تكون الشابة اوالشاب محظوظا فتسوقه الظروف الى انسان منفتح العقل والقلب، يستطيع ان يحظى معه بنقاش حر هادىء، يخرج منه سليم النفس والعقل، فهو لا يشعر بالذنب لانه يفكر ولكنه يتعلم كيف يستمع الى افكار الغير، وكيف يناقشها وكيف يكون ايمانه باي شيء عن اقتناع حقيقي وليس عن خوف او تقليد. ويصبح مثل هذه الشابة او الشاب في المستقبل انسانا غير مكبوت الفكر. انه يملك القدرة على التفكير بحرية في اي شيء ويكسب المجتمع مفكرا جديدا، او على الاقل مواطنا يشغل عقله في امور الحياة، وليس ذلك الشخص المعطل العقل الذي تحركه عقول الاخرين.

ويأتي بعد الدين موضوع الجنس، هذا الموضوع الحساس الذي يكاد يمثل في العالم اجمع مشكلة لصحة الشباب النفسية. ان مجرد التفكير في هذا الموضوع (ولا اقول الممارسة الفعلية) قد يصيب الشاب بالقلق والحيرة والاحساس بالذنب، هناك تلك الفتاة التي تصل الى الاعتقاد بانها آثمة ومدنسة وتستحق العقاب حتى الموت لانها تحلم برجل في فراشها، وقد تحاول الانتحار عدة مرات. وكم من شبان وشابات عانوا وتعذبوا نفسيا بسبب الاحساس بالمهانة والعار لممارستهم العادة السرية. وبالرغم من ان علماء النفس والاطباء كتبوا الكثير في السنوات الاخيرة عن العادة السرية؛ وانها

مرحلة من مراحل النمو الجنسي من الطفولة الى المراهقة، وان الخوف منها هو الذي يخلق كل ما يصاحبها من اضطرابات نفسية او جسدية، الا ان كثيراً من الشباب لا يزالون يشعرون بالذنب والاثم حين يمارسونها.

ان اجسام الشبان والشابات قوية ورغباتهم ومتطلباتهم ايضا قوية، وحقيقية كملمس اجسامهم، لكن متطلبات المجتمع ايضا قوية وضاغطة ويتولد الصراع الحاد في نفس الشابة والشاب بين ما يحسه ويرغبه بقوة، وبين ما هو واجب ومفروض عليه بقوة ايضا، ويشعر بعض الشبان بالازمة النفسية حين يحسون بوضوح التناقض الحاد بين متطلبات اجسامهم البيولوجية والنفسية وبين متطلبات المجتمع الاخلاقية.

ويصبح من الصعب في ظل هذا الصراع ان يتمتع الشاب او الشابة بصحة نفسية. انه لو اطاع رغباته في الخفاء (تفاديا لعقاب المجتمع) تولد لديه احساس بالذنب يفتك بصحته النفسية. وهو لو ضرب عرض الحائط برغباته وكتبها اصبحت كالبخار المضغوط الذي يفتك بلا شك بصحته النفسية. ويتعرض عدد غير قليل من الشباب من الجنسين لهذا الصراع في الفترة ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، اي في تلك السنوات العشر الحرجة في حياة الانسان، حين يكون الشاب اوالشابة من وجهة النظر الطبية والصحة النفسية مؤهلا بل في حاجة شديدة الى الجنس، لكنه من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية لم يصبح مؤهلا للزواج بعد.

اما الامر الحساس الثالث، وهو السياسة، فهواكثر الامور حساسية حتى الان في معظم مجتمعات العالم. وهناك بعض المجتمعات التي سمحت لافرادها ببعض الحريات في مناقشة امور الدين، او ببعض الحرية في ممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج، الا ان اكثر المجتمعات تحررا في هذه النواحي لا تزال ترهب رفع الحظر عن موضوع السياسة، ولا يزال الانسان في اي مكان من العالم معرضا للضرر (يتفاوت الضرر من مجرد التشهير إلى التجويع إلى الحبس او حتى القتل) إذا ما تناقضت أفكاره وافكار القوى المسيطرة في المجتمع.

ويعاني الشباب والشابات اكثر من غيرهم من هذا الكبت الفكري السياسي لأنهم وبحكم سنهم اكثر براءة وصدقاً من الذين تقدم بهم العمر وتدربوا على الكياسة والسياسة والدهاء والمداهنة. ويعيش الشاب أو الشابة منهم الصراع بحدة إذا أراد أن يعيش صادقاً، فإذا انتصر صدقه أقلقه الشعور بالتهديد والخطر الذي يطارده في عمله

وفي بيته. واذا انهزم صدقه اقلقته نفسه التي تؤنبه على خنوعه ونفاقه. وكلا الحالين بطبيعة الحال يبعدان صاحبهما عن الصحة النفسية.

ان الصحة النفسية للانسان مرتبطة ارتباطا وثيقاً بقضية الحرية في أي مجتمع من المجتمعات. فالحرية لصحة النفس كالهواء أو الأكسجين لصحة الجسد، ان قل الأكسجين فسد الدم وإذا انعدم مات الجسد كلية، وكذلك بالنسبة للحرية. إذا قلت فسدت النفس، وإذا انعدمت ماتت النفس وان ظل الجسد حياً يرزق. لكن حياة الجسد في تلك الحالة ليست إلا حياة عضوية أو بيولوجية كحياة الكائنات الأدنى من الزواحف ووحيدات الخلية.

والحرية المعنية هنا ليست مجرد ان يتحرر الانسان من قيود العالم الخارجي (أو ما تسمى الحرية السلبية) ولكنها الحرية الايجابية يهدف بها الانسان لتحقيق ذاته من خلال العمل المنتج الذي يحبه والذي عن طريقه يستعيد روابطه بالعالم الخارجي، لكنها الآن ليست روابط مفروضة أو قيوداً ولكنها صلات انسانية تربط الفرد الحر المستقل بخير مجتمعه الأكبر وتطوره المستمر نحو تحقيق العدالة بين البشر والحق والحب والحرية.

ان نفس الانسان هي نفس الانسان سواء كان ذكراً أم انثى، وان الايجابية والقوة والصدق والعدل والحرية والحب هي صفات المرأة الصحيحة نفسياً كما هي صفات الرجل الصحيح نفسياً. ان الصحة النفسية للمرأة لا تتحقق الا من خلال الحب والعمل المنتج تماما كالصحة النفسية للرجل، وان ثالوث النفس (الفكر ـ الرغبة ـ الفعل) عند المرأة يحتاج الى الحرية نفسها التي يحتاجها الرجل، وان أي كبت لأي عنصر من عناصر النفس يسبب عند المرأة القلق والضيق والمرض الذي يسببه للرجل، وان المرأة في حاجة إلى الحرية الايجابية (وليس السلبية فحسب) لتحقق ذاتها كعضو منتج في المجتمع ولا يكفي المرأة ان تحقق ذاتها من خلال الزواج او ولادة الاطفال. ان الامومة وحدها لا تكفي المرأة لتستمتع بالصحة النفسية، تماماً كالأبوة التي لا تكفي الرجل ليتمتع بالصحة النفسية. فالمرأة كالرجل تحتاج لتحقيق ذاتها الى عمل منتج في المجتمع، تحتاج الى فعل، تحتاج الى ان تفكر وان تكون افكارها نابعة من نفسها وليس من الآخرين، وتحتاج الى ان تكون رغباتها صادقة نابعة من نفسها وليس ممن حولها.

الهوامش

الفصل الاول:

١ ـ انظر: وليم نظير، المرأة في تاريخ مصر القديم، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٥، ص ٢٠.
٢ ـ المصدر السابق، ص ٦٨.

الفصل الثاني:

1) K. Marx and F. Engles, Selected Works, Progress Publishers. 1970, P.P 191 - 316.

٢ ـ انظر: وليم نظير، المرأة في تاريخ مصر القديم، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٥.

3) Quoted in Simone De Beauvoir. The Second Sex. P. XXI.

4) Jules Michelet. Satanism and Witchcraft, P. 225.

5) Ibid., P XIX.

6) Quoted in Christina Hole, Witchcraft in England, P. 130.

7) Thomas S. Zsass. the Manufacture of Madness. Routhledge. 1971. P. 13.

8) Gregory Zilboorg. the Medical Man and the Witch During the Renaissance, P. 58.

9) T. Zasass. The Manufacture of Madness. Routledge, P. 73.

10) Sigmund Freud. Essay on (A Seventeenth Century Demotological Neurosis 1923), in The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, vol. XIX, PP. 67 - 105; P. 72.

11) Franz G. Alexander and Sheldon T. Selesnick, The History of Psychiatry, P. 68.

12) Henry Sigerist. Preface in Zilboorg. Medical Man and the Witch, PP. VIII - IX.

13) Bronislaw Malinowski. Magic. Science and Religion, P. 84.

14) Borrows Dunham. Man against Myth. P. 18.

15) Thomas Zsass, Manufacture of Madness. Routledge and Kegan Paul, 1971, P. 8, Sprenger and Kramer, P. 47.

16) (Jacob Sprenger and Heinrich Kramer, Malleurs Maleficarum) P. 87.

17) Joan of Arc, Encyclopaedia Britanica (1949). vol. 13. PP. 72 - 75.

18) Russel Hope Robbins, The Encyclopaedia of Witchcraft and Demonology. P. 401. 493.

19) Christina Hole, Witchraft in England, p. 75.

20) Illinois Statute Book, Sess. Laws 15. Cert. 10. 1851. Quoted in E. P. W. Packard. the Prisoners Hidden Life, p. 37

21) Quoted in Frank J. Ayd. Jr. Guest editorial: Ugo Cerletti. M. D., 1877 - 1963. Psychosomatics. 4: A/6 - A/7 (Nov. Dec. 1963).

22) Quoted in George Rosen, Social attitudes of irrationality and madness in 17th and 18th. Century. J. His Med. All. Sc., 1963; p.233.

23) Sőren Kierkegard. The Last Years, p. 132.

24) Herbet J. Muller, Freedom in the Western World, pp. 40-41.

الفصل الثالث :

1) Marie Jean Condorcet, Quoted in Lester F. Ward, Pure Sociology; A treatise on the Origin and Spontaneous, Development of Society (New York: Macmillan, 1914), p. 350.

2) Ibid., p. 320.

3) Ibid., p. 315.

4) Ibid., p. 373.

5) Ibid., p. 330 - 331.

6) Protosocial or Stage of Social Protoplasm.

7) J.P. Unwin. Sex and Culture (London. Oxford University Press, 1934) pp. 142 - 43.

8) Totem and Taboo, Sigmund Freud.

9) The philologists have traced the word "family" back to The Oscar world famel which the Latin famulus. Slave, also proceeds.

10) Lester. F. Ward. Pure Sociology. Macmillan 1914, p. 353.

الفصل الرابع :

1) Mary Jane Sherfey. the Nature and Evolution of Female Sexuality, Vintage Books; 1973, p. 40.

(٢) الأديما (edema) ومعناها الاستسقاء او زيادة كمية السوائل داخل الأنسجة والخلايا في الجسم.

3) Masters W. H., "The Sexual Response cycle of the Human Female". Western Journal of Surgery. Obstetrics and Gynecology, vol. 68, 1960. pp. 57 - 72.

(٤) هذه الاعضاء الجنسية الاخرى الحساسة هي : ١ـ راس البظر. ٢ـ الشفرتان الداخليتان المحيطتان بفتحة المهبل. ٣ ـ الغشاء الذي يحوط راس البظر ويسمى prepuce ، والذي يصنع مع الشفرتين الداخليتين غشاء مخاطيا يمتد حول فتحة المهبل وحول راس البظر.

(٥) النصف الاخير من الدورة الشهرية، وذلك من بعد خروج البيضة من المبيض (اليوم الرابع عشر من الدورة الشهرية تقريبا عند المرأة) حتى بداية ظهور الطمث التالي، وتسمى Luteal Phase)

(٦) استنفدت الثدييات الراقية ٧٥ مليون عاما لتصنع الانسان، صاحب الراس الكبير الذي من اجل ان يولد كان لا بد من تمزيق انسجة الام الى ما قبل ٥٠٠٫٠٠٠ عام، حين ازداد اتساع حوض المرأة بالتدريج.

(٧) من المفهوم بطبيعة الحال أن أي تمزيق لهذه الاعضاء لسبب آخر غير الولادة يؤثر على قدرة المرأة الجنسية او يُسبب لها نوعا من البرود. ولا شك ان استئصال البظر في حالة ختان البنت يحرمها من عضو هام أو يسبب لها نوعا من البرود الجنسي، تزيده شدة العوامل النفسية المصاحبة واخطاء تربية البنت والضغوط الاجتماعية المختلفة.

8) Masters. William and Johnson. Virginia. Human Sexual Response. Boston: Little. Brown, 1966.

(٩) هي الفترة من بعد خروج البيضة من المبيض الى ظهور الطمث التالي.

(١٠) اشارت «شيرفي» « ان ماسترز وجونسون قد وصلا ايضا الى هذه الحقيقة من خلال بحث لهما لم ينشر بعد ولكنه سينشر قريبا».

11) Mary Jane Sherfey. the Nature and Evolution of Female Sexuality. Vintage. 1972. p. 137.

الفصل الخامس:

1) Money. John: Hampson. J. G.. and Hampson J.L. "Imprinting and the Establishment of Gender Role" Archives of Neurology and Psychiatry 77 (1957) : 333 - 36.

2) Stoller, Robert "The Sense of Maleness" Psychoanlytic Quarterly 34 (1965) : 207 - 18.

3) Masters, William and Johnson. Virginia E., The Artificial Vagina. Western Journal of Surgery. Obstetrics and Gynecology 69 (1961): 192 - 212.

(٤) وجد ان هذه القوة البيولوجية مركزها النهائي في المخ وسيشرح ذلك فيما بعد.

5) S.Freud. Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction between the Sexes (1925). In Standard Edition. vol. 19. London: Hogarth Press, 1961.

6) Ernest Jones. The Early Development of Female Sexuality. International Journal of Psycho-Analysis 8 (1927): pp. 459-72

7) Gregory Zilboorg. Masculine and Feminine, a paper in J. B. Miller Psycho-Analysis of women. Pelican, 1973. pp. 69-131.

8) Biologically neuter girl (the syndrome of Ovarian agenesis) : chromosomally XO. without gonads or any physiologically significiant levels of female hormones.

9) S. Freud, Some Psychical Consequences of the Anatomic Distinct between the Sexes (1925). In Standard Edition, vol. 19, 1961.

(١٠) واثبتت البحوث البيولوجية الاخيرة ان الجنين يكون انثى في اول تكوينه حتى الاسبوع السادس ثم يتشكل بعد ذلك ليصبح ذكرا او يستمر انثى.

(١١) شخصية الخنثى هي ان يعتقد الشخص انه ليس ذكرا وليس انثى او يعتقد انه ذكر وأنثى في الوقت نفسه.

(١٢) تتفق هذه النتائج مع النتائج الاخرى الجديدة التي وجدت ان في الكروموسومات فان الكروموسوم الذكرى المسمى (Y) ليس الا كروموسوم (X) الانثوي ولكن بشكل اقل تطورا، واقل حجما، واقل نشاطا. ويتفق ايضا مع النتائج البيولوجية الاخرى التي وجدت ان الجنين يبدأ أنثى.

13) Robert J. Straller, Bedrock of Masculinity and Feminity Paper in J. Miller, psycho-analysis of women, Pelican, 1973.

14) Feminization-Chromosomal-Abnormality XO.

15) Testicular Feminization Syndrome.

16) Constitutional Male Hypogonadism.

17) Temporal Love Disorder.

18) Masculinization - Progesterone Effect.

19) Androgenital Syndrome.

الفصل السادس :

1) Sigmund Freud, Some Psychological Consequences of the Anatomical Distinct Between Sexes, Collected Papers. vol. 5. (London: Hogarth Press, 1956)

2) Sigmund Freud, New Introductory Lectures in Psychoanalysis New York: W.W. Norton, 1933).

3) Ernest Jones, Development Female Sexuality 1922.

4) Ernest Jones, Phallic Phase, 1933.

5) Karen Horney, Feminine Psychology, Norton, 1973, p. 57-58.

6) Ferenczi, Versuch eine Genitaltheoric (1927).

7) Karen Horney, Feminine Psychology, Norton, 1937, p. 61.

8) Freud. On the Transformation of Instinct with Special Reference to Anal Erotism. Collected Papers, vol. II. No. XVI.

9) Quoted in Karen Horney. Feminie Psychology. Norton, 1973 P. 63. (Groddeck, Pas Buch. Vom E S).

10) Ibid., p. 64.

11) Karen Homey, Feminine Psychology, Norton, p. 66.

12) Ibid., p. 69 - 70.

13) The Taboo of Virginity, 1918. In Standard Edition, vol. 11. London: Hogarth Press. 1957.

14) Freud, Female Sexuality, 1931, In Standard Edition, vol. 21. London : Hogarth Press, 1961.

15) Sigmund Freud, the Taboo of Virginity (1918). In Standard Edition, vol 11. London : Hogarth Press, 1957.

(١٦) انظر : المرأة والجنس ، ص ٦٦ .

الفصل السابع :

1) Money, J. "Sex Hormones and other Variables in Human Eroticism". In Sex and Internal Secretions, edited by William G. Young, 3rd ed. Baltimore, Williams and Wilkins Co., 1961.

2) Hampson, J L. and Hampson, Joan, G. "The Ostogenesis of Sexual Behavior in Man." In Sex and Internal Secretions, edited by William G. Young, 3rd ed. Baltimore: Williams and Wilkins Co., 1961.

3) Kinsey, Sexual Behavior in the Human Female, W. B. Saunders, 1953.

4) Masters, W. and J., Virginia. Human Sexual Response, Boston: Little Brown, 1966.

5) Kinsey, Sexual Behavior in the Human Female, W.B. Saunders, 1953, p. 118.

6) (Kisch 1907. Krafft-Ebing acc. Heyr 1924: 60 Heyr a 1924: 63)

7) Kinsey, 1953; Dell 1930; Terman 1938; Levy and Munroe, 1938; Squice in folson, 1938; Landis et al 1940; Paul H. Landis 1945, Macandrew 1950; Brown and Kempton 1950; Terman, 1951.

8) Hilschman and Burglen, 1936, p. 20.

9) Abraham (1927) 1948, p. 359.

10) Kinsey 1948, p. 575; Kinsey, 1955, p.587: Van de Velde 1930, p.164; Fere 1932, p. 105; Pillary 1950, p.81.

الفصل الثامن :

1) Helene Deutsch, The Significance of Masochism in the Mental Lif Mental Life of Women (Part 1: Feminine Mosochism and its Relation to Frigidity), International Journal of Psycho-Analysis 11 (1930): 48-61.

2) Sandor Rado, Fear of Castration in Women, Psycho-Analysis Quarterly 2 Nos. 3-4 (1933): 425-75.

3) Part of Woman's anatomical destiny.

4) Sandor Rado, Fear of Castration in Women, Psycho-Analysis, Quarterly 2 Nos 3-4 (1933): 425-75.

5) Karen Horney, Feminine Psychology, Norton, 1973, P.219.

6) Sandor Rado, Fear of Castration in Women.

الفصل التاسع :

1) Nancy Milford. Zelda (New York: Harper and Row, 1970).

2) Jessie Bernard, The Paradox of the Happy Marriage, in Vivian Gornick and Barbara K. Moran, eds., Woman in Sexist Society: Studies in Power and Powerlessness (New York: Basic Books, 1971).

3) Phyllis Chesler, Woman and Madness, Doubleday and Company, Inc. New York, 1972, p. 40.

4) Rollo May, Existential Psychology, Random House, 1961, p.30

الفصل العاشر :

1) Madeline Chapsal, Feminine Plural, Present, New York Times Book Review, 12 March, 1967.

2) John. Stuart Mill, The Subjection of Women, in "three Essays" London; Oxford University Press, 1912.

3) Sigmund Freud, Civilization and its Discontents (New York: W. W. Norton, 1962, p. 27.

4) S. Freud, Analysis Terminable and Interminable, 1937, In the Standard Edition of the Complète Psychological Works of S. Freud, vol. 23. London: Hogarth Press, 1964.

الفصل الثاني عشر:

1) J. C. Fleugel, Man Morals and Society, Peregrime Book, 1962, p. 127.

٢ ـ ولد الفريد ادلر في فيينا سنة ١٨٧٠، وكان زميلا لفرويد، لكنه انشق عنه، وترك مدرسة فرويد ١٩١١، وبدأ مدرسة خاصة به سماها «علم النفس للانسان الفرد» Individual Psychology ومات أدلر سنة ١٩٣٧، اما «كارين هورني» فهي تعتبر اول طبيبة من طبيبات النفس تنقد افكار فرويد عن سيكلوجية المرأة، وقد ولدت «كارين هورني» في هامبورج بالمانيا سنة ١٨٨٥ وماتت في نيويورك سنة ١٩٥٢. وخلال العشرينات والثلاثينات كان «ارنت جونز» و«جوزن مولر» و«كارل مولر برونشويج» من الذين نقدوا بعض الأسس لنظريات فرويد.

3) Alfred Adler, Sex, A Paper in J.B. Miller, Psycho-Analysis and Women, Penguin, 1937, p.49.

4) Ronald D. Laing The Bird of Paradise, Penguin Books, 1970, p. 50.

(٥) ـ انظر: كتاب الزواج وتطور المجتمع، عادل احمد سركيس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

(٦) ـ انظر: مصر تأليف: جان يويوت، ترجمة سعد زهران، الالف كتاب (باشراف الادارة

العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي) ١٩٦٦، ص ٦٦.

(٧) ـ المصدر السابق، ص ٨١.

(٨) ـ سفر الملوك الاول، ص ١١ : ٣.

(٩) ـ مصر الفرعونية، جان يويوت، ترجمة سعد زهران، الالف كتاب (وزارة التعليم العالي بالقاهرة) ١٩٦٦، ص ١٢٩.

(١٠) ـ الاغاني لابي الفرج الاصفهاني، جزء ١٦، ص ١٠٢.

(١٢) ـ عادل احمد سركيس، الزواج وتطور المجتمع، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٧، ص ١٠٨.

(١٣) ـ انظر : سفر الخروج، فقرات ٧ ـ ١٢.

(١٤) ـ علي وافي، الاسفار المقدسة في الاديان السابقة للاسلام ص ١٦١ ـ ١٦٣.

15) V. Girard : Droit Romain, p. 180 et suiv. et V. Glatz: La Solidarité de la Famille en Grèce, p. 31 et suiv.

(١٦) ـ انظر: الدكتور ناصر الدين الأسد، القيان والغناء في العصر الجاهلي، ١٩٦٠، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(١٧) ـ انظر: المصدر السابق، ص ٩١ ـ ١٣.

(١٨) ـ انظر: عبدالله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها واسلامها: مطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر، ١٩٢١، ص ١٩٥٠.

(١٩) ـ المصدر نفسه، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٢٠) انظر :المجلة الجنائية القومية، مارس ١٩٦٥، ص ١١٩، ضمن مقال سمير الجنزوري عن الجرائم ضد العائلة وضد الاخلاق الجنسية.

(٢١) انظر : المرأة والجنس ، ص ٨٣ .

الفصل الثالث عشر :

1) Margaret Mead, Male and Female, Pelican, 1962, p. 82.

(٢) وفيات الأطفال الرضع في مصر كانت في عام ١٩٥٢ (١٢٧ في الألف من المواليد) وقد انخفضت هذه النسبة فأصبحت في عام ١٩٦٩ (١١٨,٥ في الألف من المواليد) ، من تقرير وزارة الصحة عام ١٩٧١ .

3) Margaret Mead, Male and Female, Pelican, 1962, p. 84, 106, 107.

4) Frederick Engeles, the Origin of the Family, Selected Works, Progress Publishers, Moscow, 1970, p. 240

5) Maccoby. E. F., Effects upon Children and their Mother's Outside Employment, From a modern Introduction to the Family. By Bell and Vogell. London Rout Kegam Paul, 1960 (First Edition) p. 520.

الفصل الرابع عشر:

(١) ـ انظر: الجنزوري، الجرائم ضد العائلة الجنسية، المجلة الجنائية القومية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، مارس ١٩٦٥، ص ١١٩.

(٢) ـ انظر لهذا الكتاب (ابحاث ماسترز وجونسون وشيرفي وغيرهم.

3) Margaret Mead. Sex and Temperement. G. Routledge, London, 1935, De Pomerai, Marriage, Past and Future, London. 1930, T. E. JJames. Prostitution and the Law. W. Heinemann. 1951, Ellis Prost and Shurtz.

4 - Gordon, Sauger. Armand. Ellis Prost, Scott, Haire, James

انظر جرائم البغاء، د. محمد نيازي حتاته، دار مطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦١، ص ٩ ـ ٢٤.

(٥) ـ انظر: جرائم البغاء، د. نيازي حتاته، ص ٩.

(٦) ـ أنظر المصدر السابق، ص ١٠. James. P. 18.

7) Scott, p.65.

8) Ellis Prost, P. 27.

(٩) انظر ول ديوارنت ج٢ ص٣٢ عن :

Wolley. C.L. The Sumerians 106

(١٠) نقلة ول ديورانت ج٢ ص٢٣٠ Ellis Prost. P. 25. عن :

Herodotus. I. 199. Strabo. XVII. i. 20 Baruch. VI.

(١١) انظر: Sauger. P.42.

(١٢) انظر جرائم البغاء، م. نيازي حتاته، ص١٣

(١٣) نقلة ول ديورانت ج٢ص٢١٤ـ٢٣١ عن:

Cah. i.532. Briffault. iii.220.

(١٤) انظر: جرائم البغاء، م. نيازي حتاته، ص ١٤ عن ول ديورانت جـ٢ ص٩٩ عن:

Sumner folkways. 541 G. Maspero. Struggle of the Nations, 536.

(١٥) نقلة جوردون، ص٢٨ عن : Strabon XVIII I 4 d.

(١٦) انظر: اتيين دريوتون وجاك فانديه، مصر، تعريب عباس بيومي مطبعة مصر، ١٩٥٠، ص ٥٢٤.

17) T. E. James . W. Heinemann. London, 1951 P.16: the GoldenBough, Adonis, Athis and Osiris, U.D.V., Macmillan and Co. London, 1935, P. 36

(١٨) انظر: دنيا الجنس اللطيف، محمد ثابت ، دار الفكر العربي ، القاهره، طبعه اولى ، ص ١٥٤ ـ ١٥٦، جرائم البغاء حتاته، ص ١٧

(١٩) انظر

19) Sauger, p. 42.

(٢٠) انظر: جرائم البغاء، محمد نيازي حتاته، ص١٨ ـ ١٩

(٢١) أنظر :

21) T.E. James, 1951, p. 21.

22) Encyclopaedia Britanica, op. cit., vol. 22. "Prostitution".

23) James, p.22; and Reckless, Vice in Chicago; and Gladys M. Hall, op. cit., p. 72; Havelock Ellis op. cit., p. 285.

24) James, p. 22. The Origin of the Family, F. Engels.

25) Sin and Science, Oyson Carter, Progress Books, Toronto. Canada, 1945; Medicine and Health, H.E. Sigerist, op. cit., Women in the Soviet East, F. Halle, 1938, Red Virtue, T. Woody, Now York, 1932.

(٢٦) أنظر : جريدة الاهرام، القاهرة، ٢٧ مارس سنة ١٩٧٤ ، الصفحة الاخيرة تحت عنوان اخبار الصباح.

الفصل الخامس عشر:

1) Sigmund Freud, the Future of an Ellusion.

(٢) تجاهل فرويد هنا احتماء الطفل بامه، لان احتماء الطفل بالام (وهو حقيقة لا يمكن تجاهلها) تغير الاساس الذي بنى عليه فرويد سيكلوجية الطفل وسيكلوجية الدين.

(٣) يشير فرويد هنا الى الذكاء الطبيعي المتقد في الاطفال والى تبلد الذهن والافتقار الى المنطق في تفكير الشخص العادي، Den ksch wäche

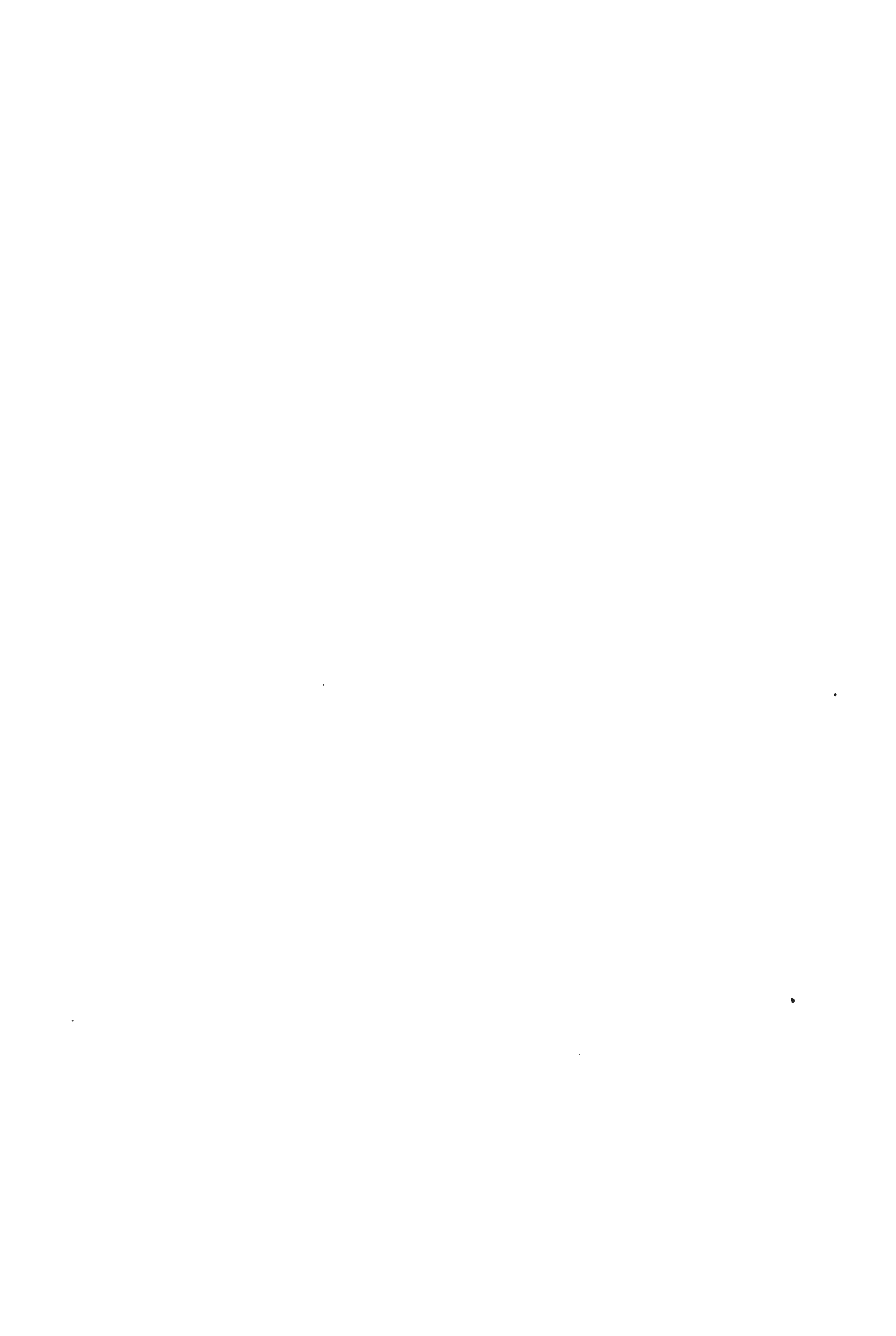
4) Erich Fromm, Man For Himself, Richart and Company, 1947. And Psycho-analysis and Religion, Bantam Books, 1950.

5) Erich Fromm, Fear of Freedom, Routledge, 1960.

الفصل السادس عشر:

1) Rollo May, Existential Psychology, Random House, 1961, pp. 81,83.

2) Rollo May, Existence, Basic Books, 1960, p.52.



الرجـــل والـجـنـس

الإهداء

إلى أول امرأة عظيمة عاشت
وماتت لتصبح كبش فداء لجميع
آثام الرجال، حواء



المقدمة

لا بد لي من الاعتراف ان فكرة عمل بحث علمي عن الرجل والجنس لم تكن في ذهني، وأن دراساتي كانت تتجه الى المرأة بسبب القهر الذي عانت منه في مجتمع سيطر عليه الرجال. لكني ما ان اصدرت كتبي السابقة عن المرأة حتى اصبح الرجال هم الاغلبية ضمن هؤلاء الذين يطلبون مني للرأي والمساعدة لعلاج مشكلاتهم النفسية والجسدية. ولانني اغلقت عيادتي الطبية منذ سنين طويلة ولا أؤمن بأنني يمكن ان افتح عيادة اخرى ابيع فيها الصحة او النصيحة الطبية والنفسية للناس فقد اصبح تليفون بيتي يرن على الدوام وينقل الي اصوات رجال ونساء يعانون الالم والتمزق والمرض، واصبحت حجرة المكتب في بيتي اشبه بعيادة مجانية بغير مواعيد سابقة وبغير اخطار بالزيارة افاجأ بالمرأة او الرجل أو بالزوجين معا وقد دقا الجرس ودخلا البيت.

وقد جاءني كثير من الرجال من مختلف الاعمار والطبقات، لكنني توقفت طويلا امام مشكلة احد الازواج ، وكان يعاني خوفا وقلقا شديداً، ويظن انه قد فقد قدرته الجنسية أو على وشك ان يفقدها، وان زوجته سوف تكتشف ضعفه أو عجزه فتذهب الى رجل آخر. وكنت قد مررت بكثير من الحالات الشبيهة وادركت ان عددا كبيرا من الرجال ينطوون في اعماقهم على خوف او قلق من هذه الناحية.

وبدأت أدرس هذه الظواهر بعد ان اكتشفت أن هذا الخوف أو هذا القلق يفسد حياة الرجال النفسية والجسدية بدرجات متفاوتة حسب شدة القلق ودرجة الخوف . وقادتني الدراسة، وهي على ما تبدو تدخل تحت علم الجنس أو تحت علم النفس، الى علوم أخرى مثل الاقتصاد والفلسفة والدين والمجتمع والاخلاق بالاضافة الى علم البيولوجي والفسيولوجي والتشريح.

ووجدت نفسي كالذي يسير بين الالغام فعلا، فالارض كلها ملآى بافكار قديمة

مقدسة نسبت الى الأديان، والطريق ايضا وعر شديد الوعورة، لم يمهده من قبل الا قليلون جدا من العلماء (رجالاً ونساء) من ذوي الشجاعة الخاصة ومن ذوي العقول المتكاملة والنظرة الشاملة الى الانسان، لا يفصلون بين الجسد والنفس ولا يفصلون بين الانسان والمجتمع، وبالتالي لا يمكن لهم ان يفصلوا بين العلوم الجنسية او النفسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. بمعنى اخر لايفصلون بين علم التاريخ وعلم الاحياء والطبيعة والكيمياء والطب وعلم النفس وعلم الجنس وعلم الاقتصاد وعلم السياسة.

من اهم اخطاء وعيوب الحضارة والعلم الحديث انهما قاما على التخصص وعلى فصل العلوم بعضها عن بعض. ونتج عن ذلك علوم ناقصة وحقائق مشوهة. اول مبادىء العلم هو أن ظاهرة ما (مادية أو غير مادية) لا يمكن دراستها في ضوء الحاضر فقط وانما لا بد من دراسة ماضيها. لان هناك قانونا عاما في الحياة هو قانون المسببات والسببيات يقول ان لكل شيء سببا Cause & effect لكن التخصص جعل بعض العلماء يدرسون المسببات، وهم علماء التاريخ والاقتصاد والمجتمع والدين والفلسفة، وعلماء آخرون يدرسون السببيات أو الظواهر التي نتجت عن هذه الاسباب وهم علماء الاحياء والطبيعة والكيمياء والجنس والطب والنفس، ونتج عن ذلك الانفصال جدار كبير يحجز بين الاسباب وظواهرها. العلماء الذين يدرسون الاسباب لا يواصلون بحثهم لدراسة ظواهر هذه الاسباب، حيث ان هذه الظواهر تقع في مجال وتخصص علماء آخرين. وكذلك الذين يدرسون الظواهر لا يواصلون بحثهم لدراسة اسبابها، لان هذه الاسباب تقع في مجال وتخصص علماء آخرين.

مثلا لو اخذنا ظاهرة ما واضحة في حياتنا اردنا دراستها مثل ظاهرة «العدوان»، فالحضارة التي نعيشها اصبحت تتسم بالعنف والعدوان والقتل والحروب المشتعلة فى كل مكان. ياتي علماء الطب أو الاحياء (البيولوجي) ويذهبون الى السجون او يأخذون عينات من الخنازير او الرجال، ويجرون عليهم ابحاثا في المعامل من حيث رسم المخ وقدرات الذكاء وشكل الجمجمة وشكل الكروموسومات وعدد الجينات ونسب الهرمونات الذكرية والانثوية في الدم. . . الخ ثم يخرجون الى العالم بنتائج تقول ان العدوان طبيعة بشرية ذكورية بسبب الكروموسومات الذكرية او الهرمونات او الجينات.

لكن العلماء الذين درسوا التاريخ والمجتمع والفلسفة يصلون الى نتائج اخرى ويقولون ان العدوان لم يكن موجودا في المجتمعات البشرية قبل ان يعرف الانسان الملكية وامتلاك الارض. وأن الرغبة في الامتلاك هي التي جعلت الرجال يتنافسون

ويتقاتلون. وأن الملكية امتدت من الارض الى امتلاك العبيد والنساء فاصبح جسد العبد وجسد المرأة ملكا للرجل، والرجل له مطلق الحرية في التصرف فيما يملك سواء كان قطعة ارض او جسد امرأة او جسد عبد، ويضربون لنا الامثلة والدلائل على ذلك في مختلف العهود والمجتمعات..

بالطبع لا يمكن ان ننكر ان هناك بعض امراض المخ العضوية الناتجة عن حادث تمزق او التهابٌ في بعض خلايا المخ بسبب ميكروب ما وغيرها من الامراض العضوية في المخ التي تصيب بعض مراكز الذاكرة او الغرائز او الكلام او النطق، والتي قد يصاحبها بعض الانحرافات في السلوك مثل الميل الى الاجرام او الانحرافات الجنسية الشاذة. لكن عدد هذه الحالات قليل جدا ونسبة الاصابة بين البشر بهذه الامراض العضوية ضئيلة بحيث لا يمكن تعميمها والقول بأن ظاهرة العدوان والتنافس والحروب وانتشار العنف والجريمة في عالمنا الراهن سببها بعض خلايا مخ الانسان، او الهرمونات الذكرية او الكرموسومات الموروثة من الاب.

وقد تعلمنا في الطب ان العلاج الصحيح لمرض ما أو ظاهرة ما لا يمكن ان يحدث الا بعد ان نعرف الاسباب الحقيقية لهذا المرض أو هذه الظاهرة. والعلاج هو القضاء على الاسباب. ومن هنا اهمية معرفة الاسباب الحقيقية لاية ظاهرة نريد علاجها.

لا يمكن ان نعالج ظاهرة العدوان والعنف والجريمة في عالمنا الراهن اذا تصورنا ان السبب داخل مخ الانسان ووجهنا العلاج نحو مخ الانسان. قرأت ان بعض العلماء في امريكا يقولون ان في مخ الانسان «مراكز للعدوان» ويمكن ان يعالج العدوان باستئصال هذا الجزء من المخ او اضعافه بالكهرباء او الادوية او الاجهزة الالكترونية. ولكن هل مثل هذه العلاجات تقضي على ظاهرة العدوان في العالم؟ انها قد تعالج بعض امراض المخ العضوية (نسبتها لا تزيد عن ٢٪) ولكنها لا تعالج الظاهرة المنتشرة في العالم. ام هل يشير هؤلاء العلماء باستئصال خلايا العدوان من مخ الرئيس الامريكي قبل ان يعلن الحرب على بلد صغير في اسيا او الشرق الاوسط او افريقيا؟ وهل يشير هؤلاء العلماء باستئصال خلايا العدوان من مخ الرؤساء والحكام الذين يسحقون الاغلبية من شعوبهم قهرا وجوعا وظلما؟ وهل تستأصل خلايا العدوان من امخاخ رجال السينما والتلفزيون والاذاعة واجهزة الاعلام التي أصبحت ترتكز في معظم مواردها على الجريمة والعنف؟ وهل تستأصل خلايا العدوان من رؤوس الازواج الذين

يعتدون على زوجاتهم او اطفالهم بالضرب العنيف لأي سبب؟

ان علم التاريخ وعلم الاقتصاد يقولان ان امتلاك الارض (عامل اقتصادي) ادى الى امتلاك انسان لانسان آخر (العبيد والنساء والاطفال) اي أن الملكية أنتجت الرق من ناحية ومن ناحية اخرى امتلاك الرجل لجسد المرأة[1] وأصبح عقد الزواج عقدا اقتصاديا وجنسيا في وقت واحد.

وقد نتج عن امتلاك الرجل لجسد المرأة مشاكل جنسية ونفسية لكل من المالك والمملوك. كما انتج الرق مشاكل اجتماعية واقتصادية ونفسية لكل من الاسياد والعبيد.

ومن هنا لا يمكن الفصل بين علم الاقتصاد وعلم الجنس او علم النفس. ان الجشع الاقتصادي قد ادى الى قهر جسدي وجنسي والى ازدياد مطرد في العنف والعدوان بازدياد الرغبة في الملكية والتوسع في الاملاك.

واذا كنت في هذا البحث احاول دراسة مشاكل الرجل الجنسية وخوفه من فقدان القدرة الجنسية او خوفه من الجنس بصفة عامة فانني بالضرورة لا استطيع ان افصل الاسباب عن ظواهرها (او المسببات والسببيات).

ولهذا يجد القراء ان هذا البحث بالرغم من انه يتناول المشاكل الجنسية والنفسية للرجال الا انه لم يستطع الا ان يتعرض ايضا لبعض الافكار الاخرى المدرجة تحت الفلسفة او الدين او التاريخ او المجتمع.

وليس الغرض من هذا البحث هو وضع الرجل في قفص الاتهام واصدار الاحكام ضده، ولكن الغرض الاساسي هو محاولة فهم الاسباب التي ادت الى تشويه حياة الرجال والنساء معا ومحاولة القضاء على هذه الاسباب من اجل بناء مجتمع افضل واسرة افضل وحياة اكثر سعادة وعدالة وحبا.

---

(١) سبق شرح هذا بالتفصيل في البحثين الأول والثاني من هذا الكتاب (المرأة والجنس والأنثى هي الأصل).

الفصل الاول

الآلة الذكر والأنثى الآثمة

اذكر انني رايت وجه استاذ التشريح يحمر قليلا ويده ترتجف بعض الشيء حين امسك احد الاعضاء الجنسية لجثة في المشرحة مع انه كان يمسك الاعضاء الاخرى كالرئة او الكبد او الطحال في الجثة نفسها دون ان يحمر وجهه او ترتجف يده.

واذكر ايضا (وكنت طالبة في كلية الطب) أن ضمن الاشياء التي حيرتني موقف استاذ الفسيولوجي المتناقض ازاء نظرية التطور التي تقول بان الانسان تطور عن القرود والفكرة القديمة بان المرأة ولدت من ضلع الرجل.

وكان هذا الاستاذ نفسه هو الذي اعطاني كتاب دارون (اصل الانواع) لأقرأه، وهو الذي شرح لنا نظرية التطور وكيف تطور الجنس البشري من احدى فصائل الثدييات الراقية وهي الغوريلا، وعرض علينا الهياكل العظمية والجماجم التي تثبت التشابه والتسلسل التطوري بينهما.

وحدث حوار بيني وبين هذا الاستاذ لا انساه حتى اليوم ودار على هذا النحو:
قلت له: تقول ان الغوريلا هي التي ولدت اول انسان ظهر في تاريخ البشرية.

قال: نعم.

قلت: وحيث ان هذا الانسان الاول عرف باسم «آدم» فان آدم ولد من رحم الغوريلا.

قال: نعم (وأذكر ان وجهه احمر قليلا وارتجفت شفتاه بعض الشيء وهو يقول نعم.)

قلت: وبالمنطق نفسه فان اول انسان انثى (أي المرأة) ولدت من بطن الغوريلا.

قال: بالطبع.

قلت وحيث ان هذا الانسان الانثى عرف باسم «حواء»فان حواء ولدت من رحم الغوريلا.

قال: نعم (وأذكر ايضا ان وجهه احمر قليلا وارتجفت شفتاه بعض الشيء).

وادركت على الفور شيئا. ان هذا الاستاذ كان يفكر بطريقة منطقية علمية حينما كنا نتحدث عن الانسان الاول لكن ما ان اعطى هذا الانسان الاول اسم (آدم) او اسم «حواء» حتى اعترى تفكيره العقلي شيء من العاطفة والانفعال ظهر على وجهه وفي نبرة صوته.

في حوار اخر حول الموضوع نفسه مع استاذ الاجنة (الامبريولوجي) اتضح لي ان هذا الاستاذ الكبير يعتقد ان الانسان تطور فعلا عن القرود لكنه يعتقد في الوقت نفسه ان المراة ولدت من ضلع الرجل. بمعنى اخر انه يضع الغوريلا في وضع اعلى من الوضع الذي وضع فيه المرأة. فالغوريلاهي الاصل الذي خرج منه الجنس البشري اما المرأة فليست الا فرعا صغيرا ينسب الى الجنس البشري كعضو خارجي.

وقد وجدت من بعد ان هذا الاستاذ ليس هو الاستاذ الوحيد الذي يقسم عقله الى حجرتين منفصلتين يضع في كل منهما حقيقة او فكرة تناقض الفكرة الثانية ويفصل بين الحجرتين بجدار سميك.

ان الذين يعيشون في هذا القرن العشرين والذين تابعوا العلم في مختلف فروعه لا بد ادركوا ان العلم الحديث.قد كشف عن خطأ الفكرة المقدسة القديمة التي كانت تقول بان الارض مسطحة واثبت العلم ان الارض كروية. كذلك كشف العلم عن كثير من الافكار الخاطئة والتي كانت مقدسة او شبه مقدسة، وعرف الناس بحقائق لم يكونوا يعرفونها.

ومن اهم علامات العصر الحديث هي التفسيرات العلمية للكون والتطور والحياة والانسان التي قادها علماء مثل نيوتن واينشتاين وجاليلو وداروين وبافلوف وابن سينا وغيرهم ممن قضوا على كثير من الخرافات التي كانت تبدو للناس كالحقائق الثابتة.

على ان من اهم علامات الحضارة التي نعيشها ايضا ان معظم المفكرين والعلماء كانوا رجالا، وكل الفلاسفة كانوا رجالا، وكل رجال الاديان الذين فسروا الدين كانوا رجالا. بمعنى آخر يمكن القول ان الافكار التي وصلت الينا هي من انتاج الرجال.

نحن اذن في هذه الحضارة التي نعيشها نتعامل في كل وقت وفي كل مجال من حياتنا مع الفكر الرجولي. اي اننا نتعامل مع نصف عقول البشر فحسب.

ولا يمكن ان ننكر ان نساء نادرات ساهمن في هذه الحضارة (وان عددهن يزداد باستمرار) لكن عددهن كان ولا يزال قليلا جدا بالنسبة لاعداد الرجال.

هذا الفكر الرجولي الذي يسود العالم له سمات وصفات معينة. وقد لوحظ ان اهم سمات هذا الفكر ما يلي:

١ - تقسيم العقل الى حجرات منفصلة يوضع في كل حجرة حقائق تتناقض مع الحقائق الموضوعة في الحجرة الاخرى، وذلك من اجل الهروب او التوفيق الظاهري بين الافكار العلمية الجديدة وبين الافكار القديمة الموروثة.
٢ - الاستمرار في الاعتقاد بان المرأة اقل من الرجال عقلا بالرغم من الظواهر الجديدة التي صاحبت خروج المرأة وإسهامها في الحياة الفكرية بل وتفوق عقول بعض النساء.
٣ - الاستمرار في الاعتقاد بان الجنس نوع من الاثم وان حواء هي التي اغرت آدم بهذا الاثم، فاصبحت مسؤولة عن الخطيئة في العالم ومن بعدها تحملت النساء الوزر نفسه.
٤ - الاستمرار في الاعتقاد بان الملكية هي التي تحدد قيمة الانسان وان الذي يملك اعلى من الذي لا يملك، وان ممتلكات الرجل: الزوجة والاطفال.
٥ - الاعتقاد بان العدوان جزء من طبيعة الرجل من اجل حماية املاكه وازديادها ومن هنا تبرير التنافس والحروب المشتعلة في كل مكان.

والسؤال الآن الذي لا بد ان نسأله هو: لماذا نظر الرجال الى المرأة على انها اقل من الرجال؟ لماذا نظر الى الجنس على انه اثم؟ وتقتضي الاجابة عن هذين السؤالين ان نعود الى التاريخ ونبحث في حياة الرجال القديمة والحديثة عن البذرة التي انبتت هذه الفكرة.

ويقودنا البحث بطبيعة الحال الى اول رجل واول امراة ظهرا على الارض وقد عرفا

باسم آدم وحواء. لابد انهما ظهرا على الارض منذ ١٢٠ مليون عام لانه ثبت اخيرا ان عمر البشرية ليس ٢٠ مليون عام فقط وانما عثر على ما يدل على ان الانسان كان يعيش منذ ١٢٠ مليون عام فوق هذه الارض.

وقد عرف الانسان من حجم عظام الجمجمة وليس من الاسنان كما كان يظن بعض العلماء. ووجد ان الكائن الذي تطور عنه الانسان كان حجم مخه حوالي ٥٠٠ سم اما حجم مخ الانسان فيبدأ من ٦٧٠سم. وقد عثرّ على جماجم بشرية عمرها ملايين السنين وكان هناك نوع من الانسان منذ حوالي ١٥٠,٠٠٠ عام يسمى Neanderthal يختلف قليلا عن الانسان الذي نعرفه والذي يسمى علميا homo sapiens وكان هذا الانسان القديم يمارس بعض العادات مثل دفن الموتى[١] واستنتج بعض العلماء من هذا ان الانسان القديم كان يؤمن بحياة اخرى بعد الموت. ولكن هناك حيوانات تدفن موتاها،فهل معنى ذلك ان هذه الحيوانات تؤمن بحياة اخرى؟! وتدل المصادر على ان اقدم التماثيل كانت لنساء. احدها تمثال قالوا ان الفنان القديم رمز به الى المراة البدائية وهو يصور امراة مليئة باللحم، لها ثديان كبيران متدليان، وبطن بارز، وفخذان سمينتان والاعضاء الجنسية منحوتة بوضوح وتضخم كبير. وهذا يدل على تمجيد الانسان القديم لاعضاء المرأة الجنسية واعجابه بقدرتها على الحمل وخلق الحياة.

ومعظم الدراسات توضح ان الانسان في علاقته الجنسية البدائية كان ينشد المتعة واللذة وليس الانجاب فحسب. كان الانجاب امرا ثانويا وهناك رسوم عثر عليها في كهف «لاسيل» في فرنسا تصور المراة الراقدة في كبرياء وعظمة الالهة القديمة، والرجل راكع، رافع يديه نحوها في نداء جنسي واضح فيه ابتهال وخشوع ورغبة عنيفة.

لم يعثر على تماثيل ورسوم اخرى في هذه العصور القديمة فيما عدا هذه الرسوم والتماثيل التي تصور العلاقة الجنسية بين الرجل والمراة. والمراة دائما هي صاحبة الكبريا والعظمة والرجل يكاد يستجديها راكعا في محرابها. لم يعثر على رسوم تصور المراة كام، او كزوجة، وانما كانت العلاقة بين المرأة والرجل من اجل المتعة الجنسية فحسب.

---

(١) انظر:

The Religions Experience of Mankind, Collins, The Fontana Library, London, 1973.

لم يكن الجنس اثما ولا خطيئة ولكن كان عملا يكاد يكون مقدسا من الطريقة التي يركع بها الرجل امام المرأة.

وفي عهود ما قبل التاريخ عثر على آثار ونقوش تدل على ان الالهة كانت انثى والأم الهة الحياة والخصوبة. وفي بعض الكهوف في اسبانيا في (Cogni) عثر على نقوش ورسومات لنساء كاملات اما الذكر فقد رسم على شكل عضو التناسل. وعثر على مثل هذه النقوش والاثار في بقاع مختلفة من العالم في الصين والهند.

على اننا لا نعرف الا القليل عن هذه الفترات الاولى في عمر البشر ولم يصبح تاريخ الانسان معروفا الى حد ما الا منذ خمسة الاف عام تقريبا من آثار قدماء المصريين وحضارتهم الاولى في تاريخ الانسان.

وقد كان قدماء المصريين يعبدون عددا من الآلهة. وكانت دياناتهم لا تفرق بين الذكر والانثى، وتمجد الحياة والاخصاب والجسد والولادة والمطر والزرع والخير. وكانت الالهة القديمة الانثى هي الهة الخير والخصوبة والنمو والحياة. لم يكن ينظر الى الانثى على انها اقل من الذكر، ولم يكن ينظر الى العلاقة الجنسية كإثم وعيب ولم يكن الرجل يمتلك المرأة والاطفال بل كانت المراة هي التي تلد الاطفال وينسب الاطفال بالطبيعة الى الأم، وينتقل الميراث الى البنات. وكان اذا مات المالك انتقل العرش الى ابنته ولذلك كان الاخ يتزوج اخته حتى لا يضيع منه العرش.

والحال نفسه كان في مختلف انحاء العالم، في اسبانيا وفي الصين والهند، في اليونان. وعرف عن الديانات الاغريقية القديمة انها كانت تمجد الحياة وتمجد الاخصاب والجسد ولا تفرق بين الذكر والانثى، والالهة الانثى القديمة هناك كانت ايضا ترمز الى الخير والنمو والخصوبة والحياة، ولم يكن ينظر الى الجنس كإثم. وكانت ولادة الاطفال أمراً طبيعيا وانتساب الاطفال الى امهم شيئا طبيعيا وكانت الام هي التي تلد الذكور والاناث على حد سواء ولم يعرف ان رجلا ولد طفلا بحال من الاحوال.

لكن الامر لم يستمر على هذا الحال. تغلب الرجل على المراة بالقوة (وهناك آراء عدة عن كيفية اكتساب الرجل لهذه القوة التي استطاع بها ان ينتصر على المرأة[1]

---

(١) انظر الموضوع اخول والثاني من هذا الكتاب (المرأة والجنس والأنثى هي الأصل).

وعزلها عن عرشها في الدين وفي الدنيا. لم تعد الانثى هي الاله وانما ظهر الإله الذكر. وتدل المصادر على ان معظم الاديان بعد ذلك قامت على ان الاله الذكر انتصر على الانثى التي كانت كالوحش. واصبح الاطفال ينسبون الى الاب واصبح الميراث يذهب الى الذكور بدلا من الاناث.

وكان الدين اليهودي هو اول الأديان السماوية الذي دعم فكرة الاله الذكر وسمو جنس الذكر على جنس الاناث. ومع ظهور الدين اليهودي ظهر الى الناس اسم «آدم» واسم «حواء» على انهما اول رجل واول امرأة ظهرا على الارض. ومنذ ذلك الحين تغيرت النظرة الى الجنس فاصبح إثماً وتغيرت النظرة الى المرأة فاصبحت اقل سموا من الرجل ورمز الاثم وتجسيد الخطيئة. واصبح في مقدور الرجال فجأة ان يلدوا من اضلاعهم (حواء من ضلع آدم) او يلدوا من رؤوسهم (آتينا من رأس زيوس).

وانتشرت في ذلك الوقت القصة التي تقول ان حواء هي التي اغرت آدم بان يأكل من شجرة التفاح التي حرمها الله، وان هذه الشجرة او التفاحة ترمز الى العلاقة الجنسية بينهما لانه في اللحظة التي اكلا فيها التفاحة انكشفت اعضاؤهما الجنسية وغطياها بورق التوت.

وقد فاقت هذه القصة والطريقة التي فسرت بها الفكرة التي ارتكزت على دعامتين اثنتين كالآتي:

١ ـ ان الجنس اثم والاعضاء الجنسية عورة.

٢ ـ ان حواء هي السبب في هذا الاثم.

ومن هنا نسب الجنس والاثم الى حواء ومنها اصبح صفة كل النساء. وشاعت تلك الفكرة في العصور الوسطى وبين رجال الكنيسة. وصدق الناس ان الرجال هم ممثلو الله على الارض لان الله ذكر والرجل صورة من الله، اما النساء فهن سلالة الشيطان وامهن حواء الآثمة.

حينما كنت تلميذة بالسنة الاولى في حلوان الثانوية طلب مني مدرس اللغة العربية ان اعرب الكلمات في هذه الجملة «مصطفى يحمد الله». وقلت: مصطفى اسم مذكر مبتدأ مرفوع، يحمد فعل مضارع، الله مفعول به منصوب بالفتحة. وهنا اسرع المدرس قائلا استغفر الله. وشرح لي انني يجب ان اقول: الله صاحب الجلالة اسم مذكر مفعول به منصوب بالفتحة. ورددت وراءه قائلة: الله صاحب الجلالة اسم مذكر.

وتوقفت عند كلمة مذكر قليلا فقد خطر ببالي سؤال على الفور: لماذا يكون الله مذكرا ولا يكون مؤنثا؟ وانتفض مدرس اللغة العربية في غضب واستياء وصاح: استغفر الله! كيف يمكن ان يكون الله مؤنثا يابنت يا عديمة الادب! كيف تجرئين وتنسبين الله إلي جنس الاناث؟ وجميع الآيات تخاطب الله بضمير المذكر «هو»، وليس ضمير المؤنث «هي».

واعطاني في ذلك اليوم صفرا في الاعراب، وهددني بان مثل هذا السؤال الغريب كفيل بان يجعلني ارسب في اللغة العربية في نهاية العام لولا انه سيغفر لي افكاري الشريرة على الا اعود اليها مرة اخرى.

الا انني لم اكف عن التفكير. قلت لنفسي حين كبرت اكثر ان الفرق الوحيد بين الذكر والانثى هو ان الذكر له عضو تناسل بارز. واذا كان مدرس اللغة العربية يقول ان الله مذكر وليس مؤنثا فهل معنى ذلك ان الله له عضو تناسل؟.

وسالت ابي عن الحقيقة، وكان ابي انسانا واسع الافق عودنا منذ الطفولة على التفكير الحر والجدل وعدم الاعتقاد بشيء الا عن طريق الاقتناع.
وقال لي ابي ان الله مذكر ولكن بغير اعضاء جنسية لانه روح فقط وليس له جسم مثل البشر.

وسالت ابي: هل هناك روح مذكرة وروح مؤنثة؟
ورد ابي: لا. الروح هي الروح وهي تختلف عن الجسد في انها بغير جنس.

قلت: لماذا قلت اذن ان الله مذكر؟
قال ابي: انه روح، لا مذكر ولا مؤنث.
قلت: لماذا اذن تخاطبه جميع الايات بضمير المذكر «هو» وليس بضمير المؤنث «هي»؟

وقال ابي: لانه لا يصح ان يخاطب الله بضمير المؤنث.
وقلت: لماذا؟ هل ضمير المؤنث فيه عيب او نقص غير موجود في ضمير المذكر؟

وقال ابي: نعم. ان سمو جنس الذكر عن جنس الانثى هو الذي جعل الانبياء يخاطبون الله بضمير المذكر «هو». ان كل الانبياء كانوا من الذكور ولم نسمع عن اية امراة كانت نبيا. كما ان ادم كان اكثر سموا من حواء لانه كان الاصل وكان الاقوى

اما حواء فلم تكن الا احد اضلاعه، وهي التي اغرته بان يأكل من الشجرة المحرمة ووقع تحت تاثير اغرائها وخالف امر الله.

قلت بدهشة: ولكن هنا تناقضا كبيرا يا ابي. فكيف تكون حواء جزءا صغيرا من آدم (ضلع فقط) وهي الاضعف منه، ومع ذلك تصبح هي الاقوى فجأة فتقنعه بان يخالف الله ويسمع آدم كلامها ولا يسمع كلام الله؟ ان حواء هنا ليست ضعيفة وليست سلبية بل إنها قوية. اقوى من ادم لانها استطاعت ان تقنعه، وهي الطرف الايجابي وادم هو الطرف السلبي.

وقال ابي: نعم، ولكن ايجابية حواء كانت في الشر فقط.
قلت: ولكنها كانت ايجابية وقوية وآدم انساق وراءها وخضع لتفكيرها.

وقال ابي: نعم. لولا حواء لبقي ادم في الجنة. ولهذا السبب فان الانثى اميل الى الشر من الرجل. وقد نسب الشر الى حواء ونسب الخير الى الرجل، وهذا هو السبب في مخاطبة الله بضمير المذكر «هو».

قلت لابي: ولكن حواء لم تكن السبب في الشر. لان ابليس هو الذي اشار عليها بان تغري آدم بالاكل من الشجرة المحرمة. اي ان ابليس هو سبب الشر في العالم. وابليس «مذكر» بدليل انه يخاطب دائما بضمير المذكر «هو» اي ان الذي فعل الشر في العالم مذكر وليس مؤنثا فلماذا الصقت تهمة الشر والشيطنة واغراء ادم الى حواء؟!

وقال ابي: لان حواء هي التي اغرت آدم.
وقلت: وابليس هو الذي اغرى حواء.
وقال ابي: ولماذا سمعت حواء كلام ابليس؟
قلت: ولماذا سمع ادم كلام حواء؟
قال ابي: من اجل ان يحدث الجنس بينهما ليتناسلا ويعمرا الارض بالبشر كما اراد الله.

قلت: اذا كان تعمير الارض بالبشر لم يكن يحدث لولا ذلك الاتصال الجنسي بين ادم وحواء فلماذا اصبح هذا الفعل الجنسي نوعا من الاثم، ولماذا نسب هذا الاثم الى حواء فقط؟
وقال ابي: هذه هي ارادة الله.

قلت: ولماذا اراد الله ان ينسب الاثم الى حواء؟

وظهر على وجه ابي انه لم يعد مقبلا على استمرار الحوار معي، وانني يجب ان اكف عن الاسئلة.

بعد ان كبرت اكثر وقرات تفسيرات متعددة مختلفة لقصة ادم وحواء ظلت الاسئلة في رأسي بغير جواب وكانت كالآتي:

١ ـ لماذا استخدم ابليس حواء وسيطا بينه وبين ادم؟ لماذا لم يوجه جهوده مباشرة الى ادم؟ هل كان يخاف من ادم؟ ولكن ابليس لم يخف من الله ورفض ان يطيعه فكيف يخاف من ادم الذي سبق له ان احتقره ورفض ان يسجد له كما امره الله وتمرد على الله قائلا انه لايستطيع ان يسجد لادم لان ادم ادنى منه حيث خلق من طين.

لم يكن ابليس حسب الشخصية الاسطورية التي عرفت عنه هيابا ولكنه كان قويا شجاعا جبارا بلغ جبروته انه تحدى الله حين طرد ادم من الجنة وقال له في كبرياء وتحد بلغ حد الصلف انه سوف يغري عباده ويغويهم ويحرضهم ضده ويوسوس لهم حتى يعصوا اوامره. وانطلق فعلا في العالم ينفذ التهديد الذي هدد به الله.

ولكنه حينما بدأ نشاطه الشيطاني هذا لم يبدأه مع آدم ولكنه بدأه مع حواء بالرغم من ان هدفه النهائي كان هو ادم. كان يريد ان يجعل آدم يعصي الله ليطرده من الجنة.

٢ ـ كيف سمع ادم كلام حواء ولم يسمع كلام الله مع ان حواء حسب القصة لم تكن الا ضلعا من ضلوعه؟

٣ ـ لماذا نسب الاثم الى حواء مع انها لم تكن الا اداة بين ابليس وادم؟

واخذت ابحث في بعض التفسيرات وفي الكتب واراء الفلاسفة ووجدت ما يقول ان الله واجه حواء وسألها عما فعلت بادم حيث انها اغرته وجعلته يخالف الله ويفعل الشيء المحرم (الجنس).

واجابت حواء على الفور قائلة: «لقد اغرتني الحية واكلت من الفاكهة المحرمة. ولعن الله الحية ثم قال لحواء: «سوف اضاعف ألمك في الولادة. ستلدين في الاسى والالم، لكن رغبتك ستظل لزوجك، وزوجك سوف يحكمك». وفيما يلي نص التوراة عن هذه الواقعة. «اختبأ ادم وحواء من وجه الرب الاله في وسط شجر الجنة فنادى الرب الاله ادم وقال له اين انت[1]. فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لاني عريان

---

(١) انظر التوراة: سفر التكوين، الاصحاح الثالث، ٣، ٤.

فاختبات. فقال من اعلمك انك عريان. هل اكلت من الشجرة التي اوصيتك ان لا تاكل منها. فقال ادم المراة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة فاكلت. فقال الرب الاله للمراة ما هذا الذي فعلت. فقالت المراة الحية اغرتني فاكلت. فقال الرب الاله للحية لانك فعلت هذا ملعونة انت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين وترابا تاكلين كل ايام حياتك. واضع عداوة بينك وبين المراة وبين نسلك ونسلها. وهو يسحق راسك وانت تسحقين عقبه. وقال للمراة تكثير اكثر اتعاب حبلك. بالوجع تلدين اولادا والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك». (انظر التوارة. سفر التكوين. الاصحاح الثالث: ٣، ٤).

وقيل ان الذي اغرى حواء لتاكل من الشجرة هو ابليس، وسوس ابليس لحواء ان تاكل من الفاكهة وان تغري ادم بها. لم يعطها التفاحة الا بعد ان اقسمت أن تجعل ادم ياكل منها ايضا. وافقت حواء وقالت: «حينما اقسمت لابليس ذهب وصب على الفاكهة سمه الشرير (وهو الشهوة الجنسية) التي هي اصل وبدء كل الاثام وقرب الغصن من الارض واخذته واكلتها.

وتشعر حواء على الفور بالخجل من عورتها وتغطي نفسها. وهي تشارك ادم سرها وتغـريه بان ياكل مثلها الفاكهة، وياكل ادم ، وعلى الفور تفتح عيناه ويرى عورته ويعرفها. ويقول لها: ايتها المراة الشريرة، ماذا فعلت لك حتى تحرميني من عظمة الله؟

وكان ابليس هو الذي اراد ان يحرم ادم من الله بعد ان غضب ابليس من الله لانه طرده من الجنة ولانه ايضا كان يحسد ادم الذي كان يتمتع بثقة الله وحبه لدرجة ان الله خلق ادم صورة منه. وظل ادم صورة الله السامية عن اي خطأ أو اثم الى ان جاءت حواء التي هي سبب الشر. اي ان ادم بريء. انه لم يفعل شيئا سوى ان تذوق الفاكهة (اللذة الجنسية) التي قدمتها له حواء. اما حواء فهي التي عرفت هذه اللذة الجنسية باتحادها الآثم بالشيطان. ان الشيطان لم يلمس ادم، ولكنه اغواه عن طريق حواء التي جلبت لادم السقوط ثم الموت. (كان ادم قبل ذلك ملاكا خالدا في الجنة لا يموت ابدا. لكنه بعد ان عرف الجنس اصبح معرضا للموت والفناء ومن هنا ارتبط الجنس بالموت وان المراة سبب الموت والدمار في العالم).

بسبب خطيئة حواء جاءت البشرية كلها، وبسببها ايضا نموت. وأصبحت المراة

كبش فداء لكل اثام الرجال. ان الرجل ليس آثماً بالطبيعة لانه صورة من الله ويحتوي في داخله على روح الله. نفخ الله من روحه في مريم العذراء فحملت وولدت يسوع المسيح ذكرا مقدسا سيدا ممنوعا من النساء لايمارس اي علاقة جنسية بالنساء. ولهذا السبب كان الانبياء كلهم من الرجال وكهنة العصور الوسطى كلهم من الرجال، واعتبروا انفسهم ممثلي الله على الارض وحكموا بالقتل والحرق على عدد من النساء حيث اطلقوا عليهن اسم الساحرات الشيطانات لمجرد ان الواحدة منهن خالفت زوجها او خالفت الكاهن او لمجرد هبوب عاصفة، وكانوا يرجعون سبب العواصف والكوارث الى جنس النساء[1]. وكانوا يؤمنون بان المراة يمكن ا ن تعاشر الشيطان جنسيا، وكان عليهم ان يبحثوا عن هؤلاء النساء ويقتلوهن على الفور. وتركت لنا العصور الوسطى رسوما متعددة لنساء راكعات خلف الشيطان يحاولن تقبيل مؤخرته. وفي القرن ١٣ آمن بعض رجال الكنيسة مثل توماس الاكويني والبرتوس ماجنوس وهما من اكبر اساتذة اللاهوت في ذلك الوقت ان المراة يمكن ان تتصل بالشيطان جنسيا. وكانت محاكم التفتيش تبحث عن النساء اللائي عاشرن الشيطان لتحرقهن. اما كيف تعرف المرأة التي عاشرت الشيطان فهذا كان من اختصاص صيادي الساحرات. وكانت هناك علامات معينة سموها علامات الشيطان. وقد لا تكون الا منطقة صغيرة من الجلد كالوشمة او كالدمل القديم وتحرق المرأة فورا.

وفي هذه العصور قتلت ملايين النساء لمجرد الاشتباه في انهن عاشرن الشيطان!

وفي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة والدولة تقتل هؤلاء النساء بتهمة الجنس كانت تتستر بل تبارك النشاط الجنسي المنحرف الشاذ لطبقة النبلاء والاقطاعيين والفرسان وكل من يملكون الاموال والارض والسلطة. بل ان الصلة الجنسية بين رجال ونساء هذه الطبقة ارتدت ثوبا دينيا مقدسا بما فيها الخيانات والانحرافات والاتصال بالمومسات.

وكان الرجال في ذلك الوقت من طبقة الحكام يمارسون الجنس بشتى اشكاله والوانه. عرف التاريخ في ذلك العهد الدوق وليم التاسع الذي اشترك في الحروب الصليبية بجيش كبير قيل ان عدد المومسات فيه كان اكثر من عدد الجنود، وانه عاد

---

(١) انظر هذا الجزء بالتفصيل في بحث «الانثى هي الأصل» من هذا الكتاب.

مهزوماً بعد ان فقد كل جنوده ولم يبق من جيشه الا المومسات[1].

اصبحت المراة سبب الكوارث والالام في الحياة، واصبحت كبش فداء لكل اثام الرجال واخطائهم ولكل الشرور في العالم. واصبح الرجل هو ممثل الله، وهو ممثل الخير والسمو. والمراة اصبحت ممثلة الشيطان، والاثم والجنس.

ومن هنا اوجد الرجل المبرر الذي يحكم به المرأة. واعتمد في هذا التبرير على شيئين:

١ ـ ان الشر سيظل موجودا في العالم على الدوام طالما ان المراة منبعه.

٢ ـ يجب ان يحكم الرجل المرأة حتى لا ينتصر الشر ومن اجل ان يعم الخير.

وقد ضرب الرجل عصفورين بحجر واحد. ذلك أنه حكم المرأة وفي الوقت نفسه اعترف بوجود الشر على الدوام وبانه (اي الرجل) سيمارس الشر ما دام الشر موجودا على الدوام.

وقد استمر الرجل فعلا على مدى العصور منذ بدء اسطورة حواء وادم يمارس الشر والعدوان ويعطي نفسه كل المبررات للقتل من اجل الامتلاك والجشع. وبالمثل اعطى نفسه حق ممارسة الجنس خارج الزواج وداخله، يمارسه مع الخليلات والجواري والسراري والمومسات والزوجات ومن ملكت ايمانهم. يمارسه بالليل والنهار ويخدع البنات ويدفع للمومسات ولا يكف ابدا عن ممارسة الجنس. ومع كل ذلك فهو بريء براءة آدم من الفعل الجنسي لان حواء الشريرة هي السبب. وقد حكم الرجل المرأة وفرض عليها العفة والعذرية طوال حياتها فيما عدا حالة واحدة هي ان يختارها احد الرجال لتكون زوجة له. حينئذ يكون مباحا لها ان تمارس ذلك الفعل الجنسي الآثم مع زوجها فقط (لا تذهب الى رجل آخر والا قتلت)، وهي حين تمارس هذا الفعل مع زوجها فهي تمارسه من اجل انجاب الاطفال وليس من اجل اللذة الآثمة. وهي تكفر عن ذنبها وذلك بان تلد في الاسى والالم وتصبح بعد ذلك طاهرة من الاثم. ولذلك اصبحت ولادة الاطفال عملا طاهرا بعكس العمل الجنسي الآثم. مع ان العملين عمل واحد وان العمل الجنسي يقود الى ولادة طفل، وولادة الطفل لا يمكن ان تحدث بغير الفعل الجنسي.

لكن الرجل فصل بين ولادة الاطفال وبين الجنس. كان الرجل يحتاج الى الاطفال

---

(١) انظر: Livingsohn. A History of Sexual Habits

ليورثهم ارضه ولاسباب اخرى منفعية فجعل من ولادة الاطفال عملا شريفا بل مقدسا، ووضع الامهات بالتالي في وضع مرتفع يكاد يكون مقدسا في بعض الاحيان. اما جميع النساء الاخريات (فيما عدا الامهات) فهن مدنسات: الزوجات اللائي لم يلدن والعشيقات والمومسات والخليلات والسراري والجواري. بالطبع هناك عشيقات ومومسات وجوار يلدن اطفالا لكنهن لا يصبحن امهات ابدا. ان المراة منهن تظل مدنسة بل تزداد بولادة الطفل دناسة، وطفلها ايضا يصبح مدنسا وغير شرعي ويحرم من الشرف ومن اسم ابيه.

وهنا نضع اصبعنا على المشكلة الاساسية: مشكلة الميراث واسم الاب. كان المجتمع البشري قبل نشوء الاسرة الابوية مجتمعا أمومياً. ينسب الاطفال الى الام. وكان للام حرية واسعة تشبه الى حد كبير حرية الاب في مجتمعنا الحاضر. فهي التي تختار الرجل، وهي التي تتركه وتختار رجلا اخر. والرجل كان حرا ايضا. لكن حرية الرجل كانت اقل من المراة. لان المراة تعرف اطفالها وتنسبهم اليها اما الرجل فلا يعرف اطفاله لانه لايلدهم. وحينما زادت ملكية الرجل للارض واراد ان يعرف اطفاله ليورثهم انتزع النسب من الام وانشأ اسرته الابوية. ولم يكن في امكان الرجل ان ينشيء اسرته الابوية ولا ان تستمر هذه الاسرة دون ان يفرض على المرأة سيطرته بالقوة وبالقانون.

ومن هنا انشأ الرجل قوانينه الاقتصادية التي تحرم المرأة من الانتاج والعمل لتكون عالة على زوجها وتحت رحمته. وفرض عليها القوانين الاجتماعية التي تبيح للزوج ان يقتل زوجته اذا خانته او خالفته. وفرض عليها القوانين الجنسية التي تفرض عليها العفة والعذرية. وفرض عليها القوانين الاخلاقية والدينية التي تجعلها الجنس الادنى، والجنس الملوث الذي يجب ان يتطهر من الذنوب والدنس.

ان المرأة في رأيه مخلوق مدنس وبالذات في ايام الدورة الشهرية وفترة الولادة. بل في بعض الاحيان يعتبر الطفل المولود مدنسا حتى يعمد (baptism)

في مجتمعات الامومة كانت هناك ديانات قديمة والهة قديمة. لكن الالهة لم تكن ذكورا فقط وانما كانت هناك الهة ذكور والهة اناث. وكانت الديانات تؤكد الحياة ولا تفرق بين الذكور والاناث وتحترم الجنس. بعكس الديانات في المجتمعات الابوية التي اصبحت ترتكز على الموت وعلى تاثيم الجنس والتفرقة بين الذكور والاناث.

الديانات المصرية القديمة كانت تؤكد الحياة وتحترم الولادة والمراة وترفع مكانة المراة عاليا في الحياة وتجعلها مثل ازيس الهة الخلق والخير والحياة. بعد سيطرة الرجل تغيرت الديانة واصبحت ترتكز على الموت والدمار وتقلل من شأن المراة وسيطر على المجتمع الجشع والملكية والاقطاع والتقاتل على توسيع الاملاك.

وما حدث للديانة المصرية القديمة حدث للديانة الاغريقية القديمة. تحولت من احترام الجسد واحترام المراة الى تأثيم الجسد والهروب الصوفي منه بعد ان سيطر الرجل في الاسرة والمجتمع وبدا الجشع والاقطاع والحروب حتى فقد الاغريق حريتهم تحت سيطرة امبراطورية الاسكندر الاكبر.

معظم الالهة القديمة كانت اناثا، ويرمزن الى المطر والخضرة والخير مثل الالهة باليزم (Baalism) والالهة استريت (Astrate) والالهة ماجنا (Magna) ، وايزيس (Esis) .

كانت الديانات القديمة تمجد الحياة والطبيعة والانسان وتمجد جسد الانسان ورغباته وتحترم النساء والرجال وتحترم العلاقة بينهما.

بعد سيطرة الرجل وانتشار الملكية والاقطاع والتوريث تغيرت الافكار واصبحت تفصل بين جسد الانسان ونفسه او روحه. واعتبرت المراة ممثلة للجسد والرجل ممثلا للروح. ومجدت الروح ليمجد الرجل وحقر الجسد لتحقر المرأة.

الديانة اليهودية كانت اول ديانة تبرز هذه التفرقة بين الجسد والروح وبين المراة والرجل، الى حد ان الرجل اليهودي يقول كل صباح حين يصلي «احمدك يا رب... لانك لم تخلقني امراة»[1].

وبالرغم من ان هناك نصا اخر صريحا في التوراة يقول «الله خلق الانسان في صورته هو، في صورة الله خلق الانسان، ذكرا وانثى، هو خلقهما». بالرغم من هذا النص فان رجال الدين اليهودي اكتفوا بالجزء الاول من هذه العبارة، واستبدلوا كلمة الانسان بالرجل، وخرجوا منها ان الله خلق الرجل في صورته هو . وان الله هو روح الرجل أو عقله. اما الجسد فهو المراة.

وكانت الديانة المسيحية في بدايتها تتمثل روح المسيح الذي دعا الى المساواة

---

(١) انظر: Simone De Beavior, Second Sex

بين البشر لا فرق بين ذكر وانثى، ولم ينظر الى اللذة الجنسية كإثم، بل انه رأى ان هدف الزواج هو العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة وليس مجرد الانجاب، ولهذا لم يكن يسمح بالطلاق اذا لم ينجب الزوجان وقال ان الزواج صلة باركها الله ولا يفصم عراها الا الله، اي موت احد الزوجين. وهذا يدل على ان مفهوم المسيحية عن تأثيم اللذة الجنسية والتكفير عنها لم ينبع من المسيح نفسه وانما من خلفائه. وبالمثل ايضا لم يساندالمسيح الاثرياء والحكام كما فعل رجال الكنائس من بعد لكنه كان يؤمن بان (مرور جمل من ثقب ابرة اسهل من دخول ثري الى ملكوت الله). لكن الظروف الاجتماعية والاقتصادية القائمة على الملكية والاقطاع وسيطرة الرجل حولت المسيحية الى ديانة تفصل بين الجسد والروح وتفصل بين جنس الرجال وجنس النساء وتعتبر الرجال هم الجنس الاسمى ويمثلهم على الارض المسيح ابن الله او روح الله. اما جنس النساء فهو الجنس الادنى لانه يمثل الجسد.

وبهذا اتجهت المسيحية مثل اليهودية الى ذلك الاغتراب عن الجسد وعن حقيقة الحياة ونتج عن ذلك تلك الحالة التي اطلق عليها «تجربة الاغتراب عن الحقيقة» (Aleinated experience of reality) وما احدثته من ازدواجية في حياة الانسان. واصبح هناك رأيان يتصارعان :

١ ـ الرأي الانساني القديم القائل بالطبيعة الخيرة لجسد الانسان (وهو مستمد من الديانات القديمة المؤكدة للحياة قبل اليهودية في مصر القديمة والاغريق).

٢ ـ الرأي الاخر الذي انتشر بعد اليهودية والمسيحية والذي يقود الى اغتراب الجسد عن الحقيقة والهروب من العلم المادي الى عالم الروح وقد ساعد ذلك على تسهيل قيام الامبراطوريات والمستعمرات.

وقد ظل الصراع بين هذين الرأيين على مر العهود. يقف مع الرأي الاول ذوو العقول المستنيرة المتقدمة من البشر والذين يؤمنون بالمساواة والعدالة لا فرق بين فقير وغني او ذكر وانثى. ويقف مع الرأي الثاني ذوو العقول الجامدة والذين يؤيدون الاستغلال والتفرقة بين البشر على اساس الجنس واللون والطبقة..

ظهر هذا الصراع واضحا في القرن الثاني بين الجناح اليميني المتزمت من العلماء الروحانيين وبين الجناح اليساري المتقدم من المسيحيين. قال العلماء المتزمتون ان

العلم خلق من خلال خطيئة «الشر» «والإثم» ولذلك فان مصير هذا العالم نحو عالم آخر روحي بعيد عن ذلك العالم الشرير.

لكن العلماء الاكثر تقدماً رفضوا هذا الفصل الشديد بين العالمين (عالم الشر وعالم الخلاص والتطهير) واكدوا نوعاً من الوحدة بين الاب «الله» أبو المسيح وبين الله الخالق الذي انزل التوارة والانجيل إلى الارض والبشر. اي هناك اتصال بين عالم الروح وعالم الارض او الجسد.

في القرن الثالث حاول احد المفكرين الاغريقيين (اوريجن) ان يوفق بين الصراع بان قال انه في البداية كان هناك عالم روحاني ثم ظهر عالم مادي بسبب سقوط الارواح في الخطأ. لكن العالم الروحاني هو مأوى الانسان الحقيقي والذي يعود اليه بعد التكفير والتطهير والخلاص(١).

وفي القرن الرابع طور الاغريقيون نظرية اوريجن ووراوا المخلوق الاول والانسان شيئا واحدا روحانيا ويقابله مخلوق فرعي آخر جسدي مزدوج الجنس (فيه ذكر وانثى) وكان اوريجن قد طور نظرية القديس بول عن «الجسد الروحي» ليشير الى مخلوق اصلي كان نوعا من « الجسد اللاجسدي» والذي ذابت فيه مادة جسد الانسان في روحه بطريقة جعلت المخلوق الاول «روحانيا».

في القرن الثاني ظهر في الغرب بعض المفكرين من امثال جاسين، تيرتيولبن، ايرونوس، الذين دافعوا عن المخلوق الاصلي الجسدي وقد ادى ذلك الى انتشار النزعة الحسية في الغرب عن الشرق(٢).

وطور رجال الكنيسة هذه الافكار قائلين ان هناك مخلوقا جسدياً اصليا لم يكن حسيا تماما. ثم بعث جسد اخر لم يكن جسديا ولكنه تحول الى جسد روحي. ولكن هذا التطور والتوفيق بين الجسد والروح لم يزد الامر الا غموضا ولم يحل الصراع.

وظلت المسيحية والاغريقية واللاتينية مؤمنة بالروحانية والافلاطونية وفلسفة العالم

---

(١) انظر: Origen, De Principus, 28, 1

(٢) انظر:

Justin Maryr Dial, 80 PP, Tertulliam Adi. Mavcion. 3, 24;

De spec. 30; Ivenaens. Adu. Hear. 5, 32, 1.)

الاخر والبعث والخلود والحساب والخلاص والتطهر من الآثام كرفض للجسد وهروب الروح من الحسية المادية.

واصبحت المرأة في المسيحية كما كانت في اليهودية من قبل كبش الفداء الذي يقع بين فكي هذا الصراع الضاري بين الروح والجسد او بين الخير والشر. وقالوا ان الله خلق الرجل صورة منه وان الله روح، روح مائة في المائة، ليس لها جنس ولا اعضاء جنسية. لكنهم اصطدموا بالفكرة الأخرى التي توفق بين الجسد والروح ونتج عنها ان الله ليس ذكرا وليس انثى وانما مزدوج الجنس، وقالوا اما ان الروح لها جنس او ان الله له جسد. وحيث انه من الكفر الاعتقاد بوجود جسد لله او اعضاء مذكرة او مؤنثة فالفكرة يجب ان تشطر نصفين بحيث تفسر صورة الله على انها روحية فقط لا جنسية، اما الجنس فيعزى الى شيء اخر فقد الصق الجنس بالمرأة والصقت بها كل التهم.

وقال المفكرون في ذلك الوقت ان الازدواجية تكون فقط في الاشياء الحسية المادية . اما الله فهو روحي خالص وليس مزدوجا. كما ان صورة الله في الرجل لا يمكن ان تكون مزدوجة. وخرج من هذه الفكرة راي يقول ان الله لا جنسي وكذلك اول الخليقة البشرية (آدم) لم تكن محددة الجنس.

في القرن الرابع جاء ابو الكنيسة الاغريقية (جريجوري نيسا) وقال ان الله روحي خالص وان الجنس بعيد عن الله، وبعيد عن ادم، وانما اضيف اليه فقط حين سقط بسبب حواء او الجنس ومن ثم الموت، ولو ان ادم التصق بروح الله من خلال طاعته للحكمة الالهية التي من صورتها خلقت روحه لكان من الممكن ان يكون خالدا ولا يموت ابدا. ان جسده المادي يمكن ان يظل في كيانه الروحي على نحو ما يجعله غير قابل للتغير او الموت. ولكن الانسان له صفة مادية اخرى لم تات من عند الله، ولكن من «العدم» الذي وجد منه العالم المادي. ان المادة التي خلقها الله «خيرة» ولكن لها صفة سلبية مأخوذة من العدم الذي انتصر عليه الله بحلق العالم المادي، والذي يعود مرة اخرى الى العدم اي من حيث اتى. لكنه يقول انه لو كان ادم اطاع الله لاصبح جسده مرتبطا بالروحانية الالهية وبقي خالدا ولكن حينما ادار ادم ظهره لله من اجل هذه الرغبة الجسدية الفانية فقد اصبح كيان الانسان كله قابلا للفناء ولم يصبح له من عزاء عن الخلود او علاج للموت الا التناسل.

ولم يكن نيسا (Nyssa) واثقاً من ان الجنة سيكون بها زواج ، وانما نوع من التكاثـر الملائكي الروحاني الذي نتج عنه تكاثر في عدد الملائكة بغير زواج او جنس ، وان ادم نتاج هذا التناسل الروحاني اللاجنسي السامي . .

اما اوجستين[1] فقد قال ان الرجل هو الروح السامية وان الانثى هي الادنى ذات الجسد والشهوة الجنسية. ان الرجل في صورة ادم هو الزوج التي هي صورة من صور الله. وفي رايه ايضا ان ادم مزدوج لانه يمتلك روح الذكر الالهية السامية وجسد الانثى المادي الارضي والادنى. لذلك حين جاءت حواء فقد جاءت فقط لتكون زوجة ادم وتلد اطفاله أي دورها هو دور الام فقط اما ادوارها الاخرى الروحية والطينية والفكرية فهي مرفوضة تماما. وقال اوجستين ان الرجل فقط صورة كاملة من الله وان المراة لا تصبح صورة من الله الا اذا انضم اليها زوجها الذي هو راسها! ويرتكز اوجستين في هذه الفكرة على الاية الموجودة في التوراة التي تنص على ان يصلي الرجل لله دون ان يغطي راسه لا نه صورة من الله ، . اما المراة فلا بد ان تغطي راسها وهي تصلي . .

وفسر ذلك ان المراة ناقصة، والذي ينقصها بالذات هو «الرأس» فهي جسد بغير راس ومن هنا فكرة ان المراة لاعقل لها او ان عقلها ناقص وحيث ان الفرق بين الانسان والحيوان هو العقل فان الرجل انسان كامل اما المراة فهي جسد شهواني حيواني ينطوي على الاثم والخطيئة بالطبيعة وبارادة الله.

من هذا الاعتقاد الديني والفلسفي جاءت الفكرة العلمية التي قالت بان المراة كمخلوق اقل تطورا من الرجل وانها في نظام الطبيعة والكون والتطور تاتي بعد الرجل. بل ان العلماء الذين آمنوا بنظرية داروين (والتي تناقض الافكار السابقة في كيفية خلق الانسان والكون) لم يتخلصوا من فكرة ان المرأة اقل من الرجل تطوراً وان الرجل هو الاصل والمراة هي الفرع فقال بعض العلماء ان ذكر الانسان تطور قبل الانثى من القرود وانه سبقها في الكفاءة البيوليوجة وان عقله سبق عقلها في التطور ولذلك حكم الرجاال النساء في الاسرة وفي المجتمع.

ومن الافكـار الطبية التي ورثناها هي تلك التي تفتقت عنها عقول رجال الدين، ورجال الكنيسة في العصور الوسطى والذين رغم جهلهم بالبيولوجيا او جسم المراة او جسم الرجل او علم الاجنة فقد اصدروا قرارا يقول ان الجنين يظل ميتا حتى

---

(١) انظر: Augustine, De civitate Dei 14, 11; De Genesi ad. Lit. 11, 42.

يبلغ من العمر اربعين يوما ثم تدب فيه «الروح» اذا كان ذكرا. اما اذا كان انثى فانه يظل ميتا لفترة ضعف فترة الجنين الذكر، اي ثمانين يوما، ثم تدب «الروح» في الجنين الانثى. واصبح مصرحا باجهاض الجنين الانثى قبل ثمانين يوما اما الجنين الذكر فلا يجهض بعد الاربعين يوما. وكيف عرفوا الجنين الذكر من الانثى في هذه الايام الاولى التي يعجز الطب الحديث عن معرفتها؟! بالطبع كانت لهم وسائلهم الخاصة. فالمراة الحامل في الانثى تفقد وزنها وتصبح شاحبة عليلة بسبب الانثى داخلها. اما المراة الحامل في الذكر فيكسو وجهها اللحم والنضارة لانها تحمل الجنس الاعلى. وما زال كثير من الناس يؤمنون بمثل هذه الخرافات حتى اليوم في ريف مصر بل في مدنها ايضا.

وقد ورث اطباء العصر الحديث هذا التراث الطبي من العصور الوسطى وتسربت هذه الخرافات الى علوم البيولوجيا وظهر علماء رجال يعتقدون بانه ما دامت « الروح» تدب في الجنين الذكر قبل الانثى فان الذكر بيولوجيا اعلى درجة من الانثى، وانه ينضج روحيا باسرع من الانثى اي انه ينضج عقليا اسرع منها، ودعمت الفكرة الشائعة التي تقول بان عقل المراة اقل من الرجل. ولهذا السبب فان معظم العلماء والمفكرين من الرجال وليسوا من النساء. وبمثل هذه الافكار الخرافية قال هؤلاء العلماء ان عقل الرجل الابيض في اوروبا وامريكا سبق عقل الرجل الاسود في افريقيا من حيث التطور ومن حيث الكفاية ولذلك حكم الرجل الابيض الاسود، ومعظم المفكرين والعلماء من الرجال البيض وليسوا من الرجال السود.

وقد ثبت خطأ هذه النظريات جميعا. واتضح ان انثى الانسان هي التي سبقت ذكر الانسان في التطور من الحيوانات الثديية[1] واثبت علم البيولوجيا الحديث ان تكوين المراةالبيولوجي اقوى من الرجل وان مخ المراة مثل مخ الرجل الابيض مثل مخ الرجل الاسود من حيث التكوين والكفاءة. اما ان الرجل حكم المرأة وان الرجل الابيض حكم الرجل الاسود فهذا يرجع الى اسباب اخرى واساليب ضد الطبيعة وضد الانسان مثل الاغتصاب والعدوان والقتل والخيانة والغدر والكذب والمؤامرات السياسية وفرض القوانين الظالمة القائمة على الاستغلال والقهر الجسدي والنفسي والاقتصادي والفكري. وهذا هو السبب في ان عدد المفكرين والعلماء الرجال كان اكثر من عدد

---

(١) انظر : بحث الأنثى هي الأصل في هذا الكتاب.

النساء وان عدد الرجال البيض من علماء ومفكرين كان اكثر من عدد الرجال السود، وان عدد المفكرين من الطبقات العليا اكثر من المفكرين من الطبقات الدنيا.

هذه كلها افكار حديثة خرج بها العلماء والبحوث الجديدة التي قام بها الرواد من الرجال والنساء وكشفوا النقاب عن كثير من الافكار الفلسفية الخاطئة التي وقع فيها الفلاسفة الذين عاشوا في عهود الاقطاع والظلم، والذين تصوروا ان العنف والعدوان جزء يأبى الانفصال من الطبيعة البشرية، وان الرجل «جسد ورأس» وانسان كامل وصورة كاملة من الله اما المرأة فهي جسد بغير رأس وعليها ان تغطي رأسها وهي تصلي. ولا ادري كيف يمكن ان يكون رأس المراة غير موجود اصلا ثم يطلب منها ان تغطيه؟

لكن «تيرتولين» وهو فيلسوف اخر كان واسع الشهرة كاوجستين قال ان النص في التوراة الداعي الى أن تغطي المرأة راسها يرجع الى ان حواء هي المسؤولة عن الأثم كله، ولهذا يجب ان تغطي رأسها احتقارا لهذا الرأس المدنس الآثم. ويخاطب تيرتولين حواء في هذا الصدد قائلا[1]: انت الباب الذي يقود الى الشيطان. انت التي فتحت الطريق الى تلك الشجرة المحرمة. انت اول من عصا امر الله. انت التي اغريته حين عجز الشيطان ان يغريه. انت حطمت بسهولة صورة الرجل الالهية. انت سبب الموت، وبسببك ايضا يموت ابن الله».

وقد تاثر كثير من الفلاسفة ورجال الدين بهذا الكلام الى حد ان قالوا ان المراة تخجل ويحمر وجهها خجلا وعارا حينما تفكر في الطبيعة التي خلقت بها.

ونقل هذا الكلام عن تيرتولين كثير من المفكرين في الغرب والشرق واصبح كثير من المفكرين يتفاخرون بعدائهم للمراة. كنت اندهش وانا تلميذة صغيرة كيف يفخر مفكر كالعقاد او توفيق الحكيم بانه عدو للمراة. وقد قرات لاحد المفكرين العرب وهو زكي مبارك كلاما يشبه كلام تيرتولين عن حواء، اذ كتب يقول:

«المراة تملك اصول الشهوات، وهي باب الدمار والخذلان والمراة هي الجحيم هي البلاء يصبه الله على رؤوس العباد، هي الشقاء والكرب الذي يسبق الموت، والمراة في جميع احوالها مصدر فساد ولها مداخل الى الفتنة يعجز عنها ابليس».

وردد هذا الكلام كثير من فلاسفة الغرب ومفكريه ومنهم جان جاك روسو

---

(١) انظر : Terdullianus. De Lultn Fem., 1. 1.

والفيلسوف الالماني ارتور شوبنهور الذي قال:

«يكفيك ان تنظر كيف تكونت المرأة لتدرك انها لم تخلق للعمل الجاد سواء كان فكريا او عضليا. ان نصيب النساء من الحياة هو التحمل والصبر وليس الفعل والعمل». اما روسو فقال ان الرجال يعيشون حياة فضلى بدون النساء اما النساء فلا يمكن لهن العيش حياة فضلى بدون الرجال.

وسوف نفهم في الفصول القادمة من هذا الكتاب كيف ان مثل هذا العداء للمرأة ليس الاإحساس الرجل بالنقص والضعف امامها. وقد اتضح ان معظم الرجال من اعداء المراة عانوا من مشاكل جنسية ونفسية في علاقاتهم بها، من أمثال تيرتولين الى اوجستين الى افلاطون الى ارسطو الى اوريجن الى جان جاك روسو الى شوبنهور الى المعري الى العقاد الى مبارك وغيرهم كثيرون..

ولم يحاول تيرتولين ولا زملاؤه من الفلاسفة ان يفكروا بعقول هادئة موضوعية. لانهم لو فكروا على هذا النحو لأدركوا التناقض الصارخ الموجود في افكارهم في ذلك الحين. فكيف تكون المرأة بغير رأس، وبغير عقل ثم تستطيع ان تفعل بآدم ما عجز الشيطان ان يفعله؟ وتستطيع ايضا ان تحطم صورة الله وتسبب الموت للعالم وتسبب الموت لابن الله؟! انها بهذه القدرة الجبارة لا تملك رأساً فحسب ولكنها تملك قوة وجبروتا وايجابية وذكاء وعقلا لا يملكة الا الاله بل انها استطاعت ان تحطم صورة هذا الاله.

وربما احس اوجستين هذا التناقض الصارخ فخرج بفكرة جديدة تجرد حواء من شرف الايجابية والقوة (وان كانت قوة شريرة) وقال ان حواء اقل من ان تدفع ادم الى السقوط، لكن السقوط حدث حين اراد ادم ان يسقط وليس حين ارادت حواء.

فان ارادة الله او ارادة صورة الله هي في النهاية التي تحكم الموقف. ووقع اوجستين في تناقض جديد يخالف الفكرة الاساسية الاولى التي تقول بمسؤولية حواء عن الإثم كله. لانه بهذه الفكرة الجديدة يقول ان ادم او ارادة الله هي المسؤولة عن الاثم وان حواء ليس الا اداة. وحاول اوجستين ان يوفق بين التناقضات فقال ان المراة ليس جسدا فقط ولكن يمكن ان يكون لها عقل ايضا ويمكن ان تنقذ نفسها بالتغلب على جسدها وشهوتها وتصبح العذراء الطاهرة التي لا تمارس الجنس.

وانتشرت في القرنين الرابع والخامس الافكارالتي تمجد العذرية. كان سوء

الاحوال الاقتصادية يحول دون كثرةالانجاب، وقد بدأ في تلك الفترة انهيار الامبراطورية الرومانية، وترددت الفكرة القائلة: روح العذراء الطاهرة يمكن ان تكون عروسا للمسيح. وبهذا شجعوا البنات بالاكتفاء بزواج المسيح في خيالهن.

ومن هنا مفهوم العذرية والشرف والطهر والتطهير والخلاص الذي انتشر وساد في المسيحية وبين رجال الكنيسة في ذلك الوقت. كانت الفكرة هي ان الله لعن المرأة لانها اغرت ادم وجعلها تلد في الاسى والالم (لم تعد المراة الحديثة تلد في الاسى والالم واصبحت تلد بغير الم بسبب تقدم الطب الحديث) وان يحكمها زوجها كعقاب لها على إثمها لكن العذراء هي القمة التي يجب ان تصل اليها اية امرأة تريد ان تبرا تماما من الاثم. لان العذراء تنسى طبيعتها الانثوية المدنسة وتعيش كالرجل تستمد من طبيعته الفضيلة لتقوي جنسها الضعيف. لهذا تتحرر العذراء من عبودية جسدها الذي هو بالطبيعة يجب ان يكون تابعا للرجل. ان الخطيئة جزء من طبيعة المراة والعذرية تحرر المرأة من الخطيئة ومن الطبيعة الانثوية ايضا فتصبح العذراء رجلا او كالرجل. ان المراة في الاصل ليست الا جسدا بغير رأس (راسها هو زوجها) ولهذا فهي اما ان تكون غير قابلة للتطهير والخلاص وتظل امرأة او قابلة للتطهير والخلاص وذلك بان تتحول الى رجل وتترك طبيعتها الانثوية المنحطة. ان العذراء التي تحولت الى رجل يصبح لها عقل وحكمة. ومن هنا جاءت الفكرة التي شاعت في ذلك الوقت من انه بعد البعث سيكون في العالم الاخر ذكور فقط لان كل الاناث تحولن الى ذكور واصبحن ملائكة.

ان المرأة هي رمز الجنس والجسد ولهذا فان خلاصها الوحيد هو بنكران جسدها اي نكران طبيعتها لتكون طاهرة. وهذا السبب وراء الحكمة التي امرتها بان تغطي رأسها(ثم تطورت هذه الحكمة بان امرتها بان تغطي جسدها كله) وان تخلع كل ادوات الزينة التي يمكن ان تجعلها جذابة للرجل. انها لابد ان تتجرد من كل زينة لتصبح غير جذابة في عين الرجل ويجب ان تغطي جسدها لان جسدها يجذب الرجل. والسؤال هنا لماذا يجذب الرجل الذي هو صورة الله الكاملة الى الجسد المدنس؟ اما كان الأجدر بهذا الرجل ان يكون روحانيا ساميا كما قيل عنه فلا يجذبه هذا الجسد المدنس؟ الم يفكر احد الفلاسفة في ان انجذاب الرجل الى الجسد المدنس، معناه ان طبيعة الرجل ليست روحانية وليست سامية كما اشيع عنه! لو انهم فكروا على هذا النحو لكان العلاج ليس هو تغطية اجساد النساء وانما هو تهذيب طبيعة الرجال، او

على الاقل الاعتراف بان طبيعة الرجل وشهوته الجسدية لا تقل عن شهوة المرأة وان الرجل ليس راسا او روحا فقط والمرأة ليست جسدا بغير رأس ولكنهما الاثنان: الرجل والمرأة كلاهما يشتمل على الجسد والراس وكلاهما يمارس الجنس وكلاهما له عقل ومسئول عن ممارسته الجنسية وغير الجنسية في الحياة بمختلف نواحيها.

وتقول المصادر التاريخية ان (اوريجن) استأصل خصيتيه من اجل الامتناع الكامل عن الجنس المدنس ولكي تصبح روحه طاهرة. لكن الذي حدث ان روح اوريجن لم تطهر على الاطلاق، لان استئصال الخصيتين يزيد من خيالات الرجل الجنسية كتعويض عن الشيء المفقود، ولا شك ان الروح الطاهرة لا يمكن ان يكون لها خيال آثم، لان الطهارة ليست الامتناع عن الفعل فقط، وانما الطهارة هي الامتناع عن الفعل وعن التفكير في الفعل ايضا.

ولكن الفلاسفة قالوا في ذلك الوقت ان الرجل ينجذب الى المرأة ويحبها كروح قابلة للتطهير والخلاص ولكنه يحتقرها كجسد وجنس. وقد ورث العالم الحديث حتى اليوم هذه الافكار وقسم الرجال النساء الى نوعين:

١ - امهات طاهرات تم تطهيرهن بسبب الامومة المقدسة والزواج (نساء عفيفات باردات غير جذابات).

٢ - عشيقات ومومسات (وما شابههن) مدنسات ومحتقرات (لكنهن جذابات وملتهبات جنسياً).

وكتب اوجستين[١] يقول «ان المسيحي الصالح يتزوج المراة لانه يرغب (كمخلوق الله) في ان يحولها ويطهرها لتصبح الام، ويكره فيها الاتصال الجسدي والفساد وجميع وظائفها الجسدية كزوجة» ووصف اوجستين حب الزوج لزوجته بان قال: «انت تحب زوجتك كحبك لعدوك» ان التناسل في رأيه هو السبب الوحيد الذي جعل هناك اناثا مختلفات عن الذكور وقال: ان المرأة آلة لتوليد الاطفال. ومن هنا نفهم لماذا عارضت الكنيسة الكاثوليكية في اوروبا فكرة تحديد النسل ووسائل منع الحمل على انها فكرة ضد الدين المسيحي وضد الكنيسة وضد الاخلاق. حدث ذلك في عصرنا الحديث في النصف الاخير من القرن العشرين وما زال يحدث حتى اليوم ليس في اوروبا وحدها وانما في بقاع كثيرة من العالم، وليس بسبب الدين المسيحي فحسب وانما بسبب اديان

(١) انظر: Augnstine, De Sermone Dom. in Monte, 41.

اخرى متعددة تفصل بين التناسل والجنس ، وتعتبر الأمهات مقدسات ، وما عدا أولئك من النساء فهن مدنسات .

وقال اوجستين ايضا ان الرجل حين يرضخ لجسد المرأة او الجنس الأثم فانه يفقد حكمته الالهية. لان الجسد هنا ينتصر على العقل، ومعنى ذلك ان عضوه الجنسي ينتصب وحده بدون سيطرة العقل، وتكون المرأة هنا آلة بيولوجية صرفة يمارس معها الرجل شيئا اشبه بالعادة السرية.

وقد وصف اوجستين بذعر شديد عضو الرجل المنتصب والقى اللوم كل اللوم والمسؤولية كل المسؤولية ، على ذلك العضو السيء الذي ينتصب بعيدا عن العقل. وقد ذكر بعض علماء النفس المعاصرين لاوجستين ان ما قاله اوجستين ليس الا تعبيرا عن عقدة نقص كان يشعر بها اوجستين وانه كان يعاني من مشكلة جنسية وضعف في الانتصاب.

وبنى أوجستين على فكرته السابقة فكرة اخرى وقال ان انتصاب العضو هو جوهر الاثم، وبذلك فان المرأة ليست هي الجوهر وانما هي اداة فقط لتحريك ذلك الجوهر او انها امتداد له. وخرج من ذلك بقوله ان المرأة ليست الا اداة تحت سيطرة الرجل. فقد تكون اداة ولادة وقد تكون اداة جنسية (عادة سرية فقط)، وهي لا يمكن ان تظهر ابدا كشخص مثل الرجل، والعلاقة بينهما لا يمكن ان تكون علاقة بين شخصين، وانما هي علاقة بين شخص وبين شيء، هذا الشيء قد يستخدم بطريقة صحيحة اذا استخدم في ولادة الاطفال ، وقد يستخدم بطريقة خاطئة اذا استخدم في الجنس. ونتج عن تجريد المرأة من شخصها وتحويلها الى شيء ان اصبحت تبدو في نظر رجال الكنيسة على شكل ثلاث صور اساسية:

١ ـ المرأة كعاهرة
٢ ـ المرأة كزوجة.
٣ ـ المراة كعذراء.

المراة العاهرة هي امراة جنسية ومحتقرة. والمرأة الزوجة هي امرأة جنسية ايضا ولكنها محكومة بعقل الزوج وخاضعة لحكمته الالهية من اجل هدف واحد فقط هو ولادة الاطفال (اللذة الجنسية هنا محرمة على الزوجة) اما العذراء فهنا فقط ترتفع المرأة الى الروحية والمساواة بالرجل. ومن هنا نشات مريم العذراء وارتفعت مكانتها في المسيحية لانها ضربت عصفورين بحجر واحد:

١ ـ ظلت عذراء ولم يلمسها رجل ولم تمارس الجنس.
٢ ـ اصبحت اما وولدت طفلا (المسيح).

وبرغم استحالة هذا الوضع بيولوجيا وعقليا وعلميا لكن الله اراد لها ذلك بان نفخ من روحه فيها فولدت ابن الله كما قالوا.

وقد استطاع اوجستين وغيره من الفلاسفة ان يطوعوا الحقائق الواضحة والظواهر الى افكارهم الذاتية الخاصة وان يقعوا في تناقضات صارخة لا يقبلها العقل الذي قالوا عنه انه من ممتلكات الرجل فحسب وان عقل الرجل جزء من روح الله.

ان الفكرة القائلة بتعدد الزوجات دافع عنها اوجستين وبررها قائلا انها ليست من اجل لذة الرجال، ولكن من اجل التناسل وزيادة العدد كارادة الله وطاعة امره لان الله قال «تزايدوا وتكاثروا»، من اجل تقوية بني اسرائيل الذي سيظهر منهم في المستقبل المسيح المنتظر.

وانتشرت في العالم بعد كل ذلك الأفكار التي انتقصت وضع المرأة وجعلت المرأة المتزوجة اقل من العذراء، والزوجة رأسها هو زوجها، وزوجها يملك جسدها وله حق قتلها اذا خالفته الزوجة. انخفضت مكانة المرأة في المجتمع المسيحي عنها في المجتمع الروماني السابق له. مع ان هناك نصا صريحا في الانجيل يقول انه ليس هناك من هو يهودي او اغريقي، ليس هناك من هو عبد او حر، ليس هناك من هو ذكر او انثى، لان كلكم واحد في يسوع المسيح.

لكن الفلاسفة ورجال الدين تجاهلوا هذا النص الواضح من اجل ان تسود القيم الاقتصادية المطلوبة في ذلك الوقت وهي القيم القائمة على الملكية والاقطاع والتوريث، وفرض النظام الابوي ليورث الآباء اطفالهم الشرعيين فحسب اما اطفالهم الاخرون غير الشرعيين المدنسون الذين ولدتهم نساء مدنسات (عشيقاتهم وجواريهم ومومساتهم) فلا حق لهم في الارض ولاالميراث ولا حق لهم في اسم الاب.

وقد بلغ من شدة تأثيم الجنس ان حرم على الكهنة الزواج ، حتى يؤدوا الصلاة بالناس كل يوم وهم طاهرون. وقد سمي الجنس بعبارة: «وحش مفترس في البطن» الذي اذا ما تساهلت «واعطيته شبرا واحدا فسوف يمتد ويحتل ميلا كاملا» وهذا يدل على ان الذين قالوا هذا الكلام لا بد احسوا قوة هذه الرغبة الجنسية داخلهم.

وكما حثت المسيحية على عدم زواج الكهنة امرت الراهبات بـ« متناع الكامل عن الجنس، وتغطية الجسم والابتعاد عن كل شيء يمكن ان يجعل الجسد جذاباً حتى لو كان الاستحمام وتنظيف الجسم. وقد قال جيروم (وهو فيلسوف اخر في مستوى اوجستين) عبارة شهيرة هي: «الجسم النظيف يعني عقلا قذرا» وكان يشجع العذراء على عدم الاستحمام حتى لا تفكر في الجنس. وان العذراء بغير هذا الاستحمام تصبح ملائكية! وقد ذكر علماء النفس الذين عاصروا جيروم وحللوه نفسيا انه كان لا يمارس الجنس في حياته الحقيقية لكنه كان اسير خيالات جنسية شديدة الشهوة مع نساء لم يعرفهن. وانه كان يعاني كبتا جنسيا شديدا ادى به الى ان يعلن احيانا افكارا غريبة بعيدة عن العقل. وقالوا ايضا ان اوجستين كان يرفض العلاقة الجنسية مع النساء لانه كان اسير علاقته بأمه التي كان يحبها ويكرهها في الوقت نفسه.

وقد انتشرت بعد ذلك الافكار التي تمجد العذراء عامة، ومريم العذراء خاصة واعطوا مريم لقب الهة السماء والهة الارض(وهو لقب الالهة الانثى القديمة قبل اليهودية) وام الله، وتوجوها بالقمر ونجوم «ازيس» فوق رأسها، وفي حجرها الطفل المقدس ابن الله. وهي صورة قديمة اخذت من ازيس وحوريس، وبذلك اعطوا مريم مجد الالهات الاناث في الديانات المصرية والاغريقية القديمة. ثم اعطوها بعد ذلك عرش الله واجلسوها على عرش الله بجوار اله اليهود القديم وابنه المسيح الذي حكم السماء ذات يوم بعظمة ابوية منقطعة النظير.

ومجدت الكنيسة العذراء والعذرية منذ ذلك الحين حتى قرننا العشرين واصبحت مريم العذراء رمز الطهارة والقدسية وحواء رمز الجسد والاثم. اصبحت مريم الام العذراء التي ولدت بغير جنس اما حواء فهي المرأة الجنسية التي اغرت الرجل ولم تلد ابن الله او الاله وانما ولدت الشر الذي قتل اخاه وصنع الجريمة والموت.

ورثت العصور الوسطى هذه الافكار وجاء «توماس» فيلسوفها ومفكرها (كانوا قد قدموه قربانا وهو في الخامسة) واكد ما قاله «ارسطو» من ان الرجل خلق للانشطة النبيلة والمعرفة الفكرية اما المرأة فرغم ان لديها روحا عاقلة الا انها وجدت من اجل الجنس فقط وليست الا وسيلة للتناسل من اجل حفظ النوع[1]

---

(١) انظر: Thomas Aquinas, Summa Theologica, ed: English Dominican Province. 3 Vols 1947, 1, 76, 1.

ويتبع توماس ارسطو ايضا في نظريته البيولوجية ان الانثى انسان ناقص وهي تكونت انثى بسبب حادث وقع للحيوان المنوي الذكري، الذي هو بالطبيعة يحتوي على انسان كامل هوالرجل.

وقالوا ايضا ان آدم لم يكن مؤسس البشرية واصلها فحسب ولكنه كان ايضا المادة التي اخرجت منها المرأة الاولى.

وهكذا فان المرأة جزء من الرجل اما الرجل فانسان كامل. وخرجوا من ذلك بان المراة ادنى من الرجل جسديا واخلاقيا ونفسيا وروحا ودينا.

وقد سلبوا حواء كل شيء حتى حقها في ان تكون ناجحة في الشر ومستقلة به. فقالوا انها اغرت ادم حقا لكن اغراءها لم يكن الا اداة وادم هو الذي حسم وقرر واراد وليست هي. ومع ذلك قالوا ايضا ان الشر في العالم سببه حواء وهي مسؤولة عنه وادم بريء منه. كيف؟! لكن هذا على غرار: انت عضضت الكلب!.

لكنهم اعترفوا بعد ذلك بسقوط ادم وقالوا ان سقوط ادم كان يقتضي التكفير عنه في صورة المسيح الذي مسح ذنب ادم وذنوب الرجال فقط لان المسيح كان رجلا ولم يكن امرأة. ومن هنا تساءل توماس تساؤله الشهير: (لماذا تجسد المسيح في جسد رجل ولم يتجسد في جسد انثى او خنثى او «لوجوس» مخلوقا لا جنسيا؟!») ان سقوط ادم الاول قد مسح بتكفير ادم الثاني (سمّوا المسيح ادم الثاني) وان الكهنة هم امتداد المسيح فوق الارض ومن ثم الرجال ايضا.

لكن هؤلاء الفلاسفة نسوا انهم قالوا من قبل ان مريم العذراء بعذريتها وطهرها وكونها الام التي لولاها ما جاء المسيح قد كفرت عن اثم حواء. فلماذا لم تمسح ذنوب النساء كما مسح المسيح ذنوب الرجال؟ ولماذا اصبح الكهنة والرجال امتداداً للمسيح ولم تصبح النساء امتداداً للعذراء؟

لكن يبدو ان هؤلاء الفلاسفة كانوا يرون الامور بعين واحدة (هي العين الذكرية) ويفكرون بنصف عقولهم فقط (لابد انه كان نصف عقولهم الذكري ايضا).

وقد فكر هؤلاء الفلاسفة ايضا في شكل الاتصال الجنسي الذي سيحدث في الجنة (يبدو انهم اعتقدوا ان الجنه لا يمكن ان تكون جنة بغير اتصال جنسي وهذا يناقض نظرتهم الى الجنس كاثم) وقالوا ان الاتصال الجنسي في الجنة اتصال روحي

بغير لذة الجنس وبغير الم الولادة وبغير تمزيق غشاءالبكارة،لان كل الاناث في الجنة عذراوات. ولهذا نظر الى الزواج في تلك الفترة على انه من أسوأ الاختيارات امام المرأة. والافضل للمرأة ان تظل عذراء (لتضمن مكانا لها في الجنة) والاختيار الثاني هو ان تكـون «ارملة» (تـربي اولاد زوجهـا الذي مات وبالطبع لا تمارس الجنس). والاختيار الثالث هو الذي لا تفعله الا عند الضرورة وهو الزواج. كانت هناك نصيحة دينية وفلسفية عامة لجميع النساء تقول: عند الضرورة تزوجي!

وكان ارسطو من قبل قد خرج للناس بنظريته الفسيولوجية عن ان العامل الاساس الايجابي في التناسل هو الحيوان المنوي الذكري الذي يحتوي على الجنين الانساني الكامل[١] ولا يحتاج فقط الا الى تجويف داخلي (الرحم) من اجل ان ينمو ويتغذى (لم يعرف ارسطو ان الجنين يتكون من التحام بيضة المراة بحيوان الرجل المنوي وبدون البيضة لا يتكون اي جنين) وظن ارسطو ان المراة اذا ساهمت في صنع الجنين فهي تساهم بمادة خام غير حية اما الرجل فهو وحده الذي يمنح الطفل الحياة. وقال ايضا ان ممارسة الجنس مع منع الحمل هو الاثم بعينه ليس لان المراة تنتهك امومتها ولكن لان في ذلك انتهاكا للحيوان المنوي الذكري وغايته العظمى.

وقال ارسطو ان المراة تكفر عن خطئها الجنسي (حين تتزوج) بولادة الاطفال وبان واجبها الاساسي بعد انجاب الاطفال هو ان تلقنهم التعاليم الدينية وحب الله وطاعته. لكن توماس اختلف هنا مع ارسطو وقال ان تعليم الابناء هي مهمة الرجل وليست المرأة لان الرجل يملك القوة والسيطرة والحكمة اللازمة للتعليم. واصر توماس[٢] بهذا الرأي على ان يضم الاطفال الى الاب في حالة طلاق الزوجين، على ان يبقوا مع الام ثلاث السنوات الاولى من العمر فقط.

على ان ارسطو وتوماس اتفقا اتفاقا كاملا على اعتبار الزواج عملا غير اخلاقي، وان ولادة الاطفال تخفف من ذلك الخطأ وذلك الفعل غيرالكريم، وان تعليم الاطفال الدين يساعد على التخفيف من هذا الخطأ وان العفة واعلاء الغريزة هما قمة الفضائل[٣].

---

(١) انظر: Borren. P. 199

(٢) انظر: Ziegler Die Ehelehere, P. 133

(٣) انظر: ST. 11-11.152, 4, Concl.

وقال توماس ان لهيب الشهوة الجنسية جزء من العقاب بسبب سقوط حواء، وانها (اي الشهوة) تعكس فقدان العدل الاصلي، وان هذه الشهوة لا تشبع ولا تقاوم والزواج علاج لها ومن اجل الا تحدث خيانة. وقال ان شهوة المرأة اشد لان كل كيانها بني على الجنس والولادة ولهذا فان المرأة اضعف من الرجل في مقاومة الشهوة وهي اكثر من الرجل خيانة.

ثم قال بعد ذلك ان المرأة يجب ان تمنع من ممارسة الجنس اثناء الحيض حتى لا تنجب طفلا مشوها، ولكنها يجب ألّا تمتنع عن الرجل اذا رغبها وهي حائض لانها اذا رفضته فقد يعرض الرجل للزلل والخيانة والإثم.

لم يدرك توماس انه ناقض نفسه هنا لان هذا معناه ان شهوة الرجل عنيفة الى حد انه لا يستطيع ان يصبر يوما او يومين او ثلاثة حتى ينتهي الحيض. كما انه صرح للرجل ان يمارس الجنس مع زوجته الحائض (من اجل اطفاء شهوة الرجل وحتى لا يعرض للاثم) وان نتج عن ذلك طفل مشوه[1]. اي ان مصلحة الطفل عنده اقل من اشباع شهوة الرجل وعلاج الاثم اهم من مصلحة الطفل. وهذا يناقض تمجيده السابق للاطفال وتحقيره للشهوة الجنسية.

وقال ايضا ان الزوجة يجب الا ترفض رغبة زوجها المريض بالجذام رغم ان الاطفال معرضون للاصابة. اما هي فيمكنها ان تتفادى الاصابة بالا تعيش مع زوجها تحت سقف واحد. وقد تصور توماس ان الجذام لا ينتقل الى المرأة عن طريق العملية الجنسية او لعله تصورذلك. لكن اشباع رغبة الزوج كانت لديه اهم من صحة الزوجة والاطفال. وهذا هو منهج الفلسفة الذكرية المتناقضة القائمة على السلطة الابوية وتشويه الحقائق وبترها وقلبها من اجل اثبات اشياء ابعد ما تكون عن العقل وعن الحقيقة.

ثم قال توماس: ان الرجل هو الذي يبدأ ويرغب الجنس وعلى المرأة ان تستجيب له. مع انه قال سابقا ان شهوة المرأة اشد، وان اثم المراة اشد. وقد اعتقد توماس انه من المضر لصحة الرجل ان يختزن السائل المنوي ولهذا وجدت المرأة من اجل صحة الرجل، وان البغاء مقبول كشر لا بد منه لان طبيعة الرجل تحتاج إلى هذا البغاء كصمام امان وحتى لا يختزن السائل المنوي داخل الرجل. الا يناقض هذا الكلام ما سبق ان قاله توماس وغيره من الفلاسفة عن ادم وحواء والاثم والجنس والشهوة؟!

(١) انظر: ST. Suppl. 64, 3, Concl.; 64, 4, Concl.

لقد حلل الرجل لنفسه الآن الجنس ليس داخل الزواج فحسب وانما مع المومسات ايضا كصمام امان وحتى لاتتضرر صحة الرجل بتخزين السائل المنوي، ولان شهوة الرجل لا يمكن ان تؤجل. هذا الرجل الذي كان منذ قليل الروح السامية، وصورة الله والرأس بغير جسد، والذي اغرته حواء الآثمة المدنسة!

لم يكن توماس يعرف ما نعرفه الان من ان رغبة الرجل كرغبة المرأة، وان صحة المرأة تتضرر ايضا اذا شعرت برغبة وامتنعت عنها مثل الرجل. لم يعرف توماس ان تخزين السائل المنوي لا يضر الرجل كما تصور. ان الجسم يفرغ السائل المنوي اولا باول عن طريق الممارسة الجنسية او عن طريق الاحتلام او الاشباع الذاتي (العادة السرية) او اي شكل من اشكال الممارسة الجنسية وان الرجل اذا كانت زوجته حائضا فيمكنه ان ينتظر يوما او يومين او عشرة اوحتى عشرين دون ان يصيبه شيء.

بعد انتشار هذه الافكار في العالم اصبحت الفلسفة في العصور الوسطى وعند الكنيسة ترتكز على «ان الرجل ينتمي الى نفسه والمرأة تنتمي الى الرجل» واصبح للرجل حريات ليست للمرأة من حق الرجل ان يخون زوجته ويمارس الجنس مع جميع النساء فيما عدا الزوجات، لانه بذلك يعتدي على املاك رجال اخرين. وليس من حق الرجل ان يعتدي على حق رجل اخر. اما النساء فليس لهن حقوق. ان الخيانة محرمة على المرأة تحريما قاطعاً في كافة الظروف والاحوال. المرأة الارملة لا تمارس الجنس مرة اخرى ولا تتزوج مرة اخرى ولكن عليها ان تربي اطفال زوجها من عشيقاته الاخـريات. ان مسؤولية المراة في الخيانة اشد من الرجل لانها مسؤولة عن تربية الاطفال والحفاظ على الاسرة الابوية. (اما الاب او الرجل الذي تنتسب اليه هذه الاسـرة فليس مسؤولا عن الحفـاظ عليهـا)؟! تبرير للازدواجية الاخلاقية بازدواجية اجتماعية والحجة هنا اقبح من الذنب.

وبالرجوع الى الافكار السابقة نجد ان الرجال دانوا الفعل الجسدي اي الجنسي وفصلوه عن الحب، وعرفوا الحب على انه شيء روحي متصل بالله. وفي القرون الوسطى ايضا استمر هذا الاتجاه نحو فصل الجنس عن الحب. وقالوا ان الحب من عند الله اما الجنس فهو من عند المرأة او الجنس الانثوي المدنس. ولهذا كان محرما على المراة وبالذات المرأة الحائض ان تدخل الكنيسة. وقالوا ان دم الحيض يجذب الشياطين والارواح القذرة. وان المرأة الحائض تفسد اللبن وتقتل العشب اذا سارت عليه وفرضوا على النساء الا يتكلمن الا نادرا. ولا يتكلمن ابدا اثناء الاكل. اما فيليب

دو نوفير احد مفكري ذلك العصر الكبار فلم يكن يريد للمرأة ان تقرأ حتى لا تتعرض للشر[1]. (يبدو انه كان يعرف ان الكتابات وكلها من انتاج عقول الرجل ملأى بالشر). وبالرغم من اعتقادهم بان المراة بطبيعتها هي الشر المجسد الا انهم هنا يناقضون ما سبق، فالمرأة الان ساذجة بريئة تمنع من القراءة حتى لا تتعرض للشر.

وقال فيليب دو نفير ايضا ان مهمة المرأة الوحيدة في الحياة هي ان تتزوج وان تخلص لزوجها وان لم يكن مخلصا لها. وقال هذا المفكر حكمة شهيرة سادت طويلا هي : كلما كان الرجل شريرا او خائنا احتاج الى زوجة فاضلة مخلصة! وقال ايضا ان روح المرأة ليست مساوية لروح الرجل ويجب الا يسمح لها بالخروج الى الحياة العامة والفكرية لان:

١ ـ المرأة وقع عليها العقاب وهي تحت سيطرة الرجل ويجب الا تتذوق طعم السيطرة.
٢ ـ نشاط المرأة في المجتمع قد يكون خطرا على الرجل باثارة شهوته الجنسية.
٣ ـ حكمة المرأة ناقصة وعقلها ناقص ولهذا فان مكانها الوحيد هو البيت.

وقد دارت مناقشات في القرن التاسع حول مريم العذراء والرحم المغلق بين راترامنوس Ratramnus ورادبيرتوس Radbertus عارض راترامنوس الرأي القائل بان رحم المراة قذر ومنحط ولذلك لا يمكن ان يخرج منه المسيح. وقال راترامنوس ان المسيح ولد ولادة طبيعية من رحم مريم ،وان مريم كاي ام اخرى تطهرت بعد الولادة من الذنب، لكن رادبيرتوس اكد الرأي الاخر القائل بان المسيح لم يولد ولادة طبيعية من رحم مريم لان رحم المرأة قذر. وقد ساد هذا الرأي واصبح هو الرأي المقبول حتى القرن الثالث عشر. وسمي رحم مريم بالرحم المغلق. اي انه الرحم الذي لم يفتح ابدا ولم يلوث ابدا لا بالعملية الجنسية ولا بالولادة، وان المسيح ولد بطريقة سحرية فوق الطبيعة وخالية من الاثم.

وظل هذا الموضوع، موضوع الرحم المغلق، مثار نقاش حامي الوطيس بين الفلاسفة الرجال وبين برنارد وتوماس ايضا. قال برنارد ان مريم العذراء كانت نموذجا للراهبة. وقال توماس ان مريم ويوسف تزوجا زواجا روحيا لانه تم دون التحام الجسدين. وقال توماس ايضا ان ولادة المسيح تمت بغير الم كما يحدث في الجنة. ولكن لا ادري ماذا يكون راي توماس الان في الطب الحديث الذي جعل الولادة تتم

(١) انظر: Philippe de Novaire, in Hentsch, P. 84.

بغير الم. هل يقول ان الطب الحديث ضد الدين وضد ارادة الله الذي جعل الالم عقابا للنساء ليتطهرن من الاثم؟ ام انه يقول إن الجنة اصبحت فوق الارض؟! ونحن نعلم في عصرنا الحديث هذا ان الفاتيكان عارض الولادة بغير الم لانها ضدالدين.

لكن الافكار تغيرت بعد القرن الثالث عشر وبدأ المفكرون يرون مريم بشرا وكتب روبرت Rupert of deutz عن مريم يقول «ان خالقك اصبح زوجك. لقد احب جمالك. اراد ان يتحد بجمالك وقد رغبك، اسرعي لتقابليه، قد تنالين منه قبلة، قبلة من فم الله، وتحظين بعناقه»[1].

بعد ذلك ارتفعت مكانة الزواج واصبح ينظر اليه كأنبل شيء. وتغيرت النظرة الى الجنس واصبح شيئا نبيلا في ظل الزواج. والمراة اصبح لها عظمة الامومة، وانها رغم الم الولادة والاسى المفروض عليها بارادة الله فهي تجد لذة في الامومة وتحقيقا لذاتها ووجودها. وكان هذا التغيير سبقه تغيير الظروف الاقتصادية واصبح المجتمع في القرن ١٥ في حاجة الى مزيد من الايدي العاملة لتشغيلها في الصناعات الجديدة والاعمال المتزايدة، فقد نشطت التجارة على اثر اكتشاف امريكا والدوران حول راس الرجاء الصالح وفتح اسواق في الهند والصين، وظهرت الالات والورش الكبيرة.

وأحد المفكرين الذين اشتهروا في ذلك الوقت هو «لوثر» الذي قال: «اذا راى رجل امراة والتهبت شهوته فان الاثم ليس في عينيه وانما في قلبه غير النقي لان العينين واليدين والقدمين كلها هدايا من عند الله[2]». (لا ادري لماذا يعتبر القلب ايضا هدية من عند الله)! وقال لوثر ان علاج الشهوة ليس بالهروب داخل المعبد في زي الكاهن لتلافي رؤية المرأة ولكن بالتعلم كيف تستخدم هذه الاشياء. وقد ثار رجال الكنيسة ضد «لوثر» الذي حاول ان يصلح الكنيسة بعد ان لاحظ ان دخل كنيسة روما يأتي اساسا من الضرائب على بيوت الدعارة، وقد المه ان يرى ان الكنيسة تمد يدها للشيطان وتحصل منه على طعامها بل وتنشيء بهذه الايرادات الملوثة الشيطانية قصورها المهيبة المقدسة. ولعل اكثر ما المه ان الدخل الرئيسي لحصيلة صندوق النذور في الكنائس كان يدخل عن طريق زبائن بيوت الدعارة الذين كانوا يمرون بالكنيسة ويدفعون شيئا في صندوق النذور قبل ذهابهم الى المومسات ابتغاء غفران الله على الاثم الجنسي الذي هم في طريقهم اليه.

(١) انظر: Graef, Mary, A History of Doctrine and Devotion PP. 215-216.

(٢) انظر: Enarrationes in 1 Mose, WA 43, 344, 25-29.

ولم يستطع «لوثر» ان يصلح الكنيسة. واتهم انه رجل جنسي فاسق لانه تزوج رغم ان قانون الكنيسة لا يسمح له كقس بالزواج. لكن لوثر خرج على قانون الكنيسة وتزوج وانجب. وحين مات «لوثر» اتهم بان شيطان الجنس ركبه، وان رائحة الشيطان الكريهة كانت تتصاعد من قبره.

اما «كالفن» فقال « ان الروح المقدسة موجودة دائما اثناء اي اجتماع جنسي بين زوج وزوجته، ودافع عن حق المرأة في الا يضطهدها زوجها[1] لكنه لم يوافق على ان تنفصل الزوجة عن زوجها الذي يضطهدها وعليها ان تبقى معه وتكافح حتى اخر نفس من اجل اصلاحه الا في حالة واحدة اذا كانت حياتها معرضة للخطر. كان من المستحيل قبل ذلك انفصال المرأة عن زوجها (وان كانت حياتها معرضة للخطر) ولم يكن لها حق الزواج مرة اخرى بعد وفاته.

تغيرت الافكار بعد ذلك وارتفعت مكانة المرأة شيئا فشيئا وفي عهدالنهضة زادت مكانة النساء، وكان المذهب الفلسفي الانساني قد اخذ القيادة في تغيير وضع المرأة في القرنين ١٥، ١٦.

لم يحدث هذا التغيير في المذهب الفلسفي الا بعد التغيير الاقتصادي والاجتماعي الذي احدثته حركة التمرد بين الطبقات الدنيا والأجراء والعمال والفقراء والنساء ورغبة المطحونين والمستعبدين في التحرر من سيطره الاقطاعيين والملاك والاسياد.

وبدا الناس يثورون على الاوضاع والانظمةالحاكمة، وبداوا يتمردون على المؤسسات الموجودة في المجتمع والتي تحكمهم وتبرر لهم ما هم فيه من فقر وذل واستعباد. احدى هذه المؤسسات كانت الكنيسة التي قالت ان حق الحكام والملوك نابع من السماء وليس من الارض، وان الملكية والثراء حق الهي اعطاه الله للاقطاعي، وعلى الاجير ان يطيع ويقبل امر الله. وان السيطرة للرجل الذكر وعلى المرأة ان تطيع وتقبل امر الله.

وشعر العبيد والسود والاجراء بالاغتراب عن كنيسة طبقية واله طبقي وديانة طبقية، تحفظ حق طبقة الحكام والاثرياء ولا تحفظ حقوق الاجراء والعبيد والمطحونين.

---

(١) انظر: Co 51, 735-746.

وشعرت النساء بالاغتراب عن كنيسة ذكرية وإله ذكر وديانة ذكرية تؤمن بان الله له الحق في الامر والنهي والطاعة وان الرجال يشاركون هذا الحق مع الله.

وقد ظل الفكر الديني الرجولي حائرا حتى قرننا العشرين في تفسير ذلك الحادث الجنسي الاول في حياة البشرية (ادم وحواء) او العلاقة بين الرجل والمرأة وما زال بعضهم ومنهم «كارل بارث» يكتب في الخمسينات من هذا القرن قائلا: ان كلمة الله تجسدت في المسيح، وان الله تكلم بصوت الذكر[1]، وان النساء مستمعات فقط. وقال ان الفرق بين الله والرجل امتد ليكون ايضا بين الرجل والمرأة. ورفض «بارث» فكرة ان المسيح انثى وذكر معا، أي: انسان كامل. لكن احد العلماء الاخرين المعاصرين هو تيليش Tillich اختلف مع «بارث» وقال: ان إضافة الانثى إلى المسيح محاولة لجعله انسانا كاملاً، لكن (بارث) رفض هذه الفكرة وظل يعتقد بان المراة ادنى من الرجل وان تفكير الرجل كامل في حد ذاته، وتفكير المراة ناقص.

وكان من الغريب بعد هذه الافكار التي تنتقص من قدر المرأة وقيمتها العقلية والانسانية ان يكتب «بارث» بعد ذلك ما يفيد ان طبيعة المراة اسمى من الرجل وانبل، وحياتها اسعد، وانه اذا استسلم لرغبة مستحيلة فهذه الرغبة هي ان يصبح امراة[2]

اما «تيليش» فقد حاول ان ينصف المرأة كانسان له عقل كالرجل وحاول ان يبني جسرا يصل ما بين العقل والعاطفة. وكان ينشد من ذلك تحقيق نوع من المعرفة الكاملة وعلاج الانفصام الذي حدث فلسفيا ودينيا بين العقل والعاطفة، وعارض ما سمي بالتفكير الذكري (وهو العقل) والتفكير الانثوي (وهو العاطفة) وقال ان التفكير الذكري ليس هو التفكير الوحيد، وان الفهم الكامل ياتي من التفكيرين معا، وان التفكير الذكري وحده نتج عنه معرفة مشوهة ناقصة، غامضة، بل ومحطمة ايضا.

وقال ايضا: ان الازدواجية داخل النفس الواحدة، وان الله ليس ذكرا وليس انثى، وإن الافكار الدينية والفلسفية التي اعطته الذكورة اخطأت واعلن ان الفكر الديني مطالب الان بتحرير الله من افكار الفلاسفة ورجال الدين واعطائه الصفة الكاملة.

وشرح تيليش تفسيره لقصة آدم وحواء. وقال ان هذه القصة الدينية ليست الا قصة

---

(١) انظر: The Humanity of God, Bartah, 1956.

(٢) انظر: Schleirmachers Leban I. quoted in Barth. church Dogmatics. 111/4.155.

رمزية والمفروض ان نفهم ما وراءها من معنى . وقال ان هذه القصة ليست الا رمزا للمرحلة التي يمر بها الفرد في اجتيازه من الطفولة او الاتحاد بالأم او الوجود الاصلي الى ان يصبح ناضجا كفرد مستقل. انها المرور من مرحلة الحلم بالبراءة الى المعرفة الحقيقية بالواقع والحقيقة. وفي هذا المرور يشعر الانسان بازمة تشبه ازمة المراهق حيث يكتشف الجنس فيشعر بالاثم. لكن هذه الازمة ضرورية لنمو المراهق النفسي لانه بدون اكتشاف الجنس يفقد الفرد نفسه تماما. بمعنى اخر ان سقوط ادم في رأي تيليش ليس الا رمزا لسقوط المراهق وهو سقوط ضروري لتحقيق الذات، ولكن من ناحية اخرى يرسب الشعور بالاثم والذنب.

ويكاد الفكر الديني عند تيليش يقترب من الفكر الفرويدي عن النفس والجنس مع الفارق الكبير في فلسفة كل منهما ومنهجه في التفسير.

ولا اظن ان هذا الكتاب يتسع لعرض متعمق لازمة الفكر الديني والفلسفي في الحضارة الذكورية الغربية[1] التي تسود العالم. لكن ما اردت ان اوضحه من هذا العرض السريع لنماذج من افكار بعض رجال الدين من مختلف العصور القديمة والحديثة هو نوع من الاشارة الى التناقضات الصارخة التي وقع فيها الكثيرون منهم على مدى عشرين قرنا واكثر، وكيف ان افكارهم واستنتاجاتهم افتقرت حتى لاكثر ادوات التفكير العقلي بدائية بالرغم من ادعائهم بان الرجل هو العقل والمرأة هي الجسد بغير عقل. وكيف خرجوا الى الناس بحقائق لا يمكن ان يصدقها عقل طفل ولا اقول امرأة او رجل. وهل هناك عقل يصدق ان المرأة جسد بغير رأس وزوجها هو راسها؟! هل هناك عقل يوافق على ان رجلا وامرأة اشتركا معا في فعل واحد فاذا بالرجل بريء والمرأة وحدها ينسب اليها الفعل؟ لقد مارس الرجل والمرأة اول فعل جنسي في تاريخ البشرية، ولولا هذا الفعل ما جئنا وما جاءت البشرية وما جاء الفلاسفة ورجال الدين،فهل هناك عقل يقول بعد ذلك ان هذا الفعل هو الاثم؟! وان حواء كانت السبب؟!

---

(١) لم اتعرض للفكر الديني في المنطقة العربية ولا في الاسلام لان الاسلام من حيث التسلسل التاريخي جاء بعد المسيحية واليهودية، ويحتاج في مناقشته الى كتاب آخر. كما انه لا يمكن أن ننكر ان الحضارة الذكورية الغربية قد اثرت تأثيرا كبيرا على جميع المناطق في العالم، وبالذات الشرق الاوسط وآسيا وافريقيا، وذلك بسبب الاستعمار الثقافي الذي يتبع بالضرورة الاستعمار الاقتصادي والعسكري.

الغريب ان كثيراً من العقول في عصرنا الحديث هذا لا تزال تؤمن بكثير من الافكار السابقة. معظم هؤلاء لم يدرسوا تاريخ البشرية ولم يدركوا الاسباب الحقيقية التي من اجلها اضطهدت المرأة هذا الاضطهاد الجنسي والاجتماعي. معظم هؤلاء لم يربطوا بين التاريخ الاقتصادي والتاريخ الفلسفي والاخلاقي للبشرية. وبغير هذا الربط لا يمكن للانسان أن يفهم الاسباب الحقيقة لظاهرة الاضطهاد الجنسي للنساء أو الاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي لطبقات معينة في المجتمع، او الدوافع الحقيقية لنظم معينة في الزواج او الطلاق او القيم الاخلاقية.

مثلا كان اضطهاد المرأة في الهند شديدا الى حد ان انتشرت (الى عهد غير بعيد) عادة حرق المرأة بعد وفاة زوجها. وكان رجال الاديان يصرون على حرق الارملة الثرية بالذات لان اموالها كانت بعد وفاتها تذهب الى رجال الدين بحكم القانون!

كان سهلا دائما على البشر في كل العهود ان يغيروا نظم الزواج، ونظم العلاقات الجنسية حسب الحالة الاقتصادية دون اي اعتبار لما سمي بالقيم الاخلاقية. في فترات الفقر وازدياد عدد السكان يباح قتل الاطفال ويباح الاجهاض، وتحرم العلاقات الجنسية خارج الزواج، ويشجع الناس على عدم الزواج، او على الزواج مع تحديد النسل. ويستطيع اي مجتمع في اي وقت ان يستخرج من قيمه الدينية والاخلاقية ما يتمشى مع مصالحه الاقتصادية. وفي فترات الرخاء النسبي وقلة الايدي العاملة يشجع الناس على الانجاب داخل الزواج وخارجه. في بعض المناطق جنوب الهند رأيت بعض القبائل الفقيرة تبيح تعدد الازواج، وليس الزوجات، إذ ان عدداً من الرجال او الاشقاء يتزوجون امراة واحدة. وهذا بالاضافة الى توفير النفقات فانه يقلل من عدد الاطفال. وقد حدث تعدد الازواج في عهود كثيرة لاسباب اقتصادية مختلفة، عند العرب قبل الاسلام وفي «اسبارطة» في اليونان القديمة كان القانون يبيح تعدد الازواج بشرط ان تنجب الزوجة طفلا واحدا. وكان الاطفال الزائدون عن حاجة الدولة يقتلون بان يلقوا في مقبرة سموها مقبرة (تايجيتوس).

وكان اليونانيون يسمحون بجميع العلاقات الجنسية خارج الزواج بشرط الا تؤثر على ثروة الزوج، او تنقل ميراثه الى طبقة ادنى او اطفال رجل اخر.

في المجتمع الروماني كان من حق الرجل ان يتبنى ابنا مجهول الاب. وكان السبب في ذلك اقتصاديا بحتا متعلقا بالوارثة والملكية.

في المجتمع الروماني كان من حق الرجل ان يتبنى ابناً مجهول الام ويصبح ابنه، امـا المرأة فلم يكن من حقها أن تتبنى ابناً مجهول الاب. وكان السـبب في ذلك اقتصادياً بحتاً متعلقاً بالوراثة والملكية.

حين نشبت الحرب بين أثينا وسبارطة في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ابتلعت الحرب اعداداً من الرجال الذين طالت غيبتهم والذين خلفوا وراءهم زوجات وحيدات. وهنا فكر الرجال (الذين لم يذهبوا إلى الحرب) في الوسائل التي تمكنهم من الاتصال جنسياً بهؤلاء الزوجات. وظهرت على الفور أفكار تدعو إلى تحرير النسـاء جنسياً. ونشطت عقول الرجال في تبرير هذه الدعوة. أحد هذه العقول كان للطبيب اليوناني الشهير أبـوقراط الذي بدأ يفكر في رحم المرأة كعضو جنسي هام. وقال أبـوقراط إن هذا الرحم في حاجة دائمة إلى تغذية يحصل عليها الرجل (لم يكن احد من الرجال من قبل يفكر في حاجة الرحم). وان حرمان الرحم من هذا الغذاء الضروري يصيب المرأة بنوع من العصبية سماها «هيستيريا» (معناها باليونانية الرحم). وقد عاشت النساء من قبـل ذلـك في حرمان جنسي دائم لكن أحداً لم يفكر في اشباعهن. وبسبب «هيستيريا» النسـاء قرر الرجال الاتصال بالزوجات الوحيدات من أجل صحة هؤلاء النساء، وليس من أجل اشباع رغبة الرجال!.

وفي الوقت الذي انتشر فيه حزام العفة الحديدي في القرون الوسطى زاد الفسق بين الـرجـال وانتشرت الدعارة. وكان معظم الازواج في تلك الفترة يسافرون كثيراً لاعمال تجارية ويتركون زوجاتهم وحيدات. ولهذا ابتكر الرجل حزام العفة الحديدي لتلبسه المرأة فوق اعضائها الجنسية ويغلقه زوجها بالمفتاح ثم يسافر مطمئناً إلى أن أحداً لن يعتدي على أملاكه.

أما هذا الزوج فكان نشاطه الجنسي مع المومسات والمحظيات اكثر من نشاطه التجاري، لكنه لم يكن يأبه بهذه العلاقات لان أطفاله من هؤلاء النسوة لم يكن لهم نصيب في ميراثه.

ولم يكن الكهنـة ورجـال الـدين أقـل نشـاطاً من الناحية الجنسية عن الرجال الآخـرين، وانتشـر الفسـاد وازداد عدد المومسات والأطفال غير الشرعيين في جميع الاوقات بما في ذلك الوقت الذي أعلنوا فيه الصوم الجنسي وحرم الزواج على رجال الدين والقسس.

وجاء الوقت الذي أصبحت فيه المومس جزءاً لا يأبى الانفصال عن الحياة وضرورة لا يمكن الاستغناء عنها سواء في السلم أو في الحرب.

وقد عرف الرجال دائماً انه لا يمكن جمع أي جيش للحرب والمحافظة على صحته وقدرته على المواجهة دون اشباع غرائز الجنود الجنسية، ولهذا كان على قيادة أي جيش ان توفر بالاضافة إلى احتياجات الجنود نفقات الطعام والمأوى للمئات او الالوف من المومسات حسب تعداد الجيش. ويقال إن مهنة الدعارة ازدهرت إبان الحروب الصليبية، وأنه كان على الصليبيين في عام واحد فقط ان يدفعوا نفقات الطعام والمأوى لثلاث عشرة ألف مومس. وعندما انتهت هذه الحرب أصبح أمام المجتمع الاوربي مشكلة البحث عن مأوى لهذا الجيش الجرار من المومسات. وكان كثير من القسس يديرون بيوتاً للبغاء في ذلك الوقت. ومنهم أسقف اسمه «منيز»[1] قيل أن عدد المومسات في بيوت البغاء التي ملكها كان يقارب عدد الكتب في بيته.

وقد انتشرت الامراض التناسلية بالطبع بسبب نشاط الرجال الجنسي مع المومسات والمحظيات وبلغ من انتشار هذه الامراض ابان عصر النهضة أن أصبحت وباء عاماً يهدد صحة الجميع، وأصدر احد أباطرة أوربا في ذلك الوقت بياناً قال فيه أن هذا الوباء الخطير غضب من الله على البشر بسبب خروجهم على الدين واستسلامهم لشيطان الجنس.

ولم يكن سبب هذا الوباء قد عرف بعد، ولهذا نسبوه إلى المرأة وسموه المرض «الفينوسي» نسبة إلى «فينوس» إلهة الجنس اليونانية. وقد أصبح هذا الاسم يطلق من بعد على جميع الأمراض التناسلية كالزهري والسيلان وتعرف هذه الأمراض حتى الآن في أوربا باسم «الأمراض الفينوسية».

وهكذا نرى أنه بمثل ما ألصقت تهمة الجنس والاثم بحواء، فقد الصقت تهمة المرض بفينوس، وظل الرجل بريئاً طاهراً والمرأة سبب الخطيئة وسبب المرض.

بعد كل هذا يمكن القول أن الحضارة التي نعيشها والافكار التي لا زالت سائدة حتى اليوم في معظم بلاد العالم تقوم على الركائز الاساسية التالية:

١) احتكار الرجل للمال والسلطة والاطفال والميراث.

---

(١) انظر: التاريخ الجنسي للانسان، صلاح حافظ، الكتاب الذهبي.

٢) احتكار الرجل للدين والاخلاق والفلسفة والفكر.
٣) احتكار الرجل للجنس والمتعة الجنسية.

وبرغم أن المرأة خرجت إلى التعليم والعمل بعد الحرب العالمية الاولى (لحاجة المجتمع إلى سواعدالنساء بعد ان امتصت الحرب الرجال) الا أن المرأة حين خرجت إلى العمل لم تكن الا اداة اقتصادية لسد النقص في ايدي الرجال العاملة، ولسد نفقات الاسرة ومساعدة الزوج أو الاب في الانفاق. أما بالنسبة للمجالات الثلاثة السابق ذكرها فقد ظلت المرأة مطرودة منها.

إن النساء حتى اليوم في معظم بلاد العالم لا يمكن لهن بأي حال من الاحوال دخول أي مجال من المجالات السابقة التي احتكرها الرجل لنفسه. ولا يمكن لنا أن ننكر الآتي:

١) المرأة لا تزال مطرودة من مجال السلطة والحكم والسياسة.
٢) نصيب المرأة في الميراث أقل من الرجل. في بعض الاحيان تحرم المرأة تماماً من الميراث. وفي حالة عدم انجاب ذكر يرث الاقارب بصرف النظر عن وجود البنات.
٣) المرأة لا تملك أطفالها وإنما يملكهم الاب اسماً وشرفاً وقانوناً.
٤) المرأة لا تملك في الاديان الا الخضوع للزوج والطاعة.
٥) المرأة لا تملك الاخلاق الا ان يعترف بها رجل والا فعليها أن تظل عذراء.
٦) المرأة لا تملك في الفلسفة الا وضع التابع للرجل والاقل منه عقلاً.
٧) المرأة لا تملك في الجنس والمتعة الجنسية الا ان تكون مومساً محتقرة.

هذا هو وضع المرأة بصفة عامة في معظم البلاد المتقدمة والمتخلفة. وقد حظيت المرأة ببعض الحقوق في بعض المجتمعات الاشتراكية لكن الاغلبية الساحقة من نساء العالم ما زلن تابعات للرجال، في أمريكا وأوروبا والشرق والغرب.

ولا تزال النساء في مجتمعنا العربي محرومات من معظم حقوقهن، وما زالت الاغلبية منهن متخلفات محجبات العقل والنفس. وبالرغم من أن الاسلام كدين يعد اكثر تقدماً مما سبقه من أديان وأنه اعطى المرأة بعض الحقوق التي حرمت منها في أديان اخرى الا أن رجال الدين على مر العصور استطاعوا أن يفسروا الدين لصالح

الرجل باستمرار، إلى حد أن المرأة في عصرنا هذا حرمت من كثير من الحقوق التي كانت تتمتع بها وقت ظهور النبي محمد رسول المسلمين.

وينسب بعض رجال الدين إلى النبي محمد أنه قال إن النساء ناقصات عقل ودين، في حين ان المصادر الاسلامية تقول إن الرسول محمداً قال للرجال من حوله وهو يشير إلى زوجته السيدة عائشة: «خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء». وكلمة الحميراء هنا تعني أن وجهها كان مشرباً بالحمرة.

ومن كثرة التفسيرات المتعددة والمتناقضة للكثير مما جاء في الاسلام فلا يكاد أحد يعرف بالضبط الآتي:

١) هل المرأة مساوية للرجل أم أنها اقل منه؟

٢) هل العلاقة الجنسية بين الزوجين محرمة إذا منع الحمل؟ ان ما حدث في مجتمعنا المصري بشأن هذه النقطة بالذات يجعلنا لا نعرف على الاطلاق هل تحديد النسل مباح في الاسلام أم محرم. أفتى عدد كبير من رجال الدين أنه حلال، وأن المسلمين في عهد الرسول كانوا يحددون النسل عن طريق العزل (وهو قذف السائل المنوي خارج المهبل)، وقالوا: إن الصحابة كانوا يفعلون ذلك، والوحي ينزل، وانه جاء في الصحيحين عن جابر «كنا نعزل على عهد الرسول والقرآن ينزل». وفي صحيح مسلم قال «كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغ ذلك الرسول فلم ينهنا» وغير ذلك من الاسانيد التي تثبت ان تحديد النسل حلال. وبناء على كل ذلك فقد أنشأت الدولة جهازاً كبيراً لتحديد النسل في سنة ١٩٦٥. ونشط هذا الجهاز عشر سنوات كاملة حتى سنة ١٩٧٥، فاذا بقرار يذاع على الناس من المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي يقول ان تحديد النسل حرام في الاسلام. وجاء في القرار[1] ما يأتي: وقد ثبت طبياً ان تناول الدواء المانع من الحمل يلحق ضرراً بليغاً بالامهات أو بأولادهن إذا لم ينفع في منع الحمل وولدن. ولا يعتد بالاسباب الواهية التي يذكرها انصار تحديد النسل كخوفهم من كثرة السكان وتعذر التغذية وفساد التربية. ففي الآية الكريمة الجواب عن ذلك (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم) فالرزق على الله وهو مكفول،

(١) انظر: جريدة الاهرام ١٨ ابريل ١٩٧٥ الصفحة ١١ بعنوان: مشكلة قديمة تثار من جديد: هل تحديد النسل حرام.

(ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب). وساق القرار أسانيد أخرى تحرم النسل. ومن المعروف أن هناك بعض البلاد العربية الاسلامية تبيح تحديد النسل.

٣) جاء في الاسلام ان الرجال قوامون على النساء بما أنفقوا من أموالهم، فهل إذا انفقت المرأة على الرجل اصبحت هي القوامة؟ وهل اذا تساوت المرأة مع الرجل في تحمل مسؤولية الانفاق تصبح مساوية للرجل؟

٤) جاء في التفسيرات ان المرأة ترث نصف ما يرث الرجل لانها غير مسؤولة عن الانفاق. فهل اذا اصبحت مسؤولة عن الانفاق مثل الرجل (كما يحدث في كثير من الأسر التي تعمل فيها المرأة) يصبح من حق المرأة ان ترث نصيباً كالرجل، وأن تصبح الانثى كالذكر في منع الأقارب من الميراث؟

٥) جاء في الاسلام أن شهادة الرجل تقابلها شهادة امرأتين، فهل إذا تعلمت المرأة وأصبحت وزيرة مثلاً أو طبيبة أو استاذة بالجامعة هل تظل عاجزة على أن تدلي بشهادتها وحدها في الوقت الذي يفعل ذلك أي رجل وان كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟

ان قانون القضاء المصري رقم ١٨ سنة ١٩٥٢ لا ينص على أن القاضي لا بد ان يكون رجلاً، وانما تنص المادة ٢ منه على انه لا يجوز تعيين احد في وظيفة قاض الا بعد التحقق من كفايته وصلاحيته للقضاء. لكن الرجال المهيمنين على القضاء استطاعوا أن يمنعوا دخول المرأة فيه. يقول هؤلاء الرجال إنه لما كانت المرأة أقل رتبة من الرجال في الشهادة (شهادة الرجل تقابلها شهادة امرأتين) فالمرأة إذن ليست مؤهلة بطبيعتها لتولي عمل القاضي، لان الشهادة لا تزيد عن تقرير حادثة، في حين أن القضاء حكم في نزاع.

وهل الحكم في نزاع اشد خطورة من أسعاف مريض وانقاذ حياته من الموت، العمل الذي تفعله آلاف الطبيبات المصريات كل يوم؟ وهل تصبح المرأة مسؤولة عن أرواح الناس وتعجز عن الحكم في نزاع حول قطعة أرض أو الاداء بشهادة في حادث سرقة؟!

٦) هل حقاً لا توجد ولاية للمرأة على الاطلاق في الاسلام؟ ذهبت احدى استاذات

الجامعة بالقاهرة إلى الضابط المسؤول في مصلحة الجوازات لاستخراج جواز سفر لابنتها الطالبة بالجامعة والتي حصلت على بطولة رياضية وقررت الجامعة تسفيرها مع الفريق الرياضي إلى فرنسا.

وقال الضابط للاستاذة : لا أستطيع أن أستخرج جواز سفر لابنتك بدون موافقة ولي أمرها.

وقالت له الاستاذه : أنا ولية أمرها منذ ولدت. فقد طلقني أبوها وهي طفلة وتوليت الانفاق عليها وأصبحت وصية عليها. وأخرجت الاستاذة الام ورقة تثبت انها وصية على ابنتها.

وقال الضابط : الوصاية شيء والولاية شيء آخر يا سيدتي. والقانون هنا أنه لا ولاية للمرأة في أي ظرف من الظروف.

وسألت الاستاذة : وما سلطة هذه الولاية؟!

وقال الضابط : الولاية للرجل، وهو الذي يقرر سفر ابنته إلى الخارج، أو زواجها. المرأة لا يمكن أن تنوب عنه في هذين الامرين لاي سبب من الاسباب.

وهكذا حرمت الابنة من السفر، وحرمت الاستاذة الام من حق يتمتع به الرجل الذي طلقها وأهمل ابنته ولم يفكر في رؤيتها أو السؤال عنها ولا أقول الانفاق. فهل مثل هذه القوانين الظالمة يقرها الاسلام؟!

٧) هل حقاً ان الاسلام يبيح للرجل ان يطلق زوجته ويشرد أطفاله من أجل نزوة جنسية؟!

٨) هل حقاً ان الاسلام يوافق على المادة ٦٧ من قانون الاحوال الشخصية في مصر والتي تنص على الآتي:

لا تجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها بدون حق، أو اضطرت إلى ذلك بسبب ليس من قبل الزوج. كما لا تستحق النفقة إذا حبست ولو بغير حق، أو اعتقلت، أو غصبت، أو ارتدت، أو منعها أولياؤها، أو كانت في حالة لا يمكن الانتفاع بها كزوجة.

٩) هل حقاً ان الاسلام يوافق على أن الحاكم في البلد هو سلطان الله ومن يهن هذا

الحاكم يهنه الله كما قال ذلك واحد من اكبر رجال الدين الأسلامي في مصر حين وقف على منصة الاتحاد الاشتراكي في المؤتمر القومي العام الذي عقد بالقاهرة يوم ٢٣ يوليو ١٩٧٥، وقد نشرت جريدة الاهرام كلمة فضيلة الشيخ في ٢٤ يوليو ١٩٧٥ الصفحة الخامسة وفيها ما يأتي: «الذي يعنيني في موقفي هذا حديث عن رسول الله: من أعز سلطان الله أعزه الله. ومفهوم المخالفة: ومن أهان سلطان الله أهانه الله، وسلطان الله أمير في الخليج أو ملك في مملكة أو رئيس في جمهورية، هؤلاء جميعاً يطلق عليهم سلطان الله لا ريب».

١٠) هل حقاً ان الاسلام يوافق على أن تعيش الاغلبية الساحقة من شعب من الشعوب في فقر وجوع على حين تكنز الاقلية الذهب والفضة؟

ولست بصدد مناقشة وضع المرأة في الاسلام، وفي الفلسفة الاسلامية، فهذه المناقشة تحتاج إلى كتاب آخر. ولكني قبل أن أنهي هذا الفصل أود أن أذكر الآتي:

١) ان الدين (الاسلامي أو المسيحي أو اليهودي أو الهندوكي أو البوذي أو غيرهم) ظاهرة روحية نقية في حياة البشر، ترتكز على الحق والمساواة وليس على الظلم والتفرقة وترتكز على الثورة والتقدم وليس على الجمود والتخلف. لقد جاء عيسى ومحمد بالذات ثورة على الظلم ودفاعاً عن حقوق الفقراء والنساء.

٢) بدراسة المجتمع البشري منذ نشوء الملكية والتوريث والاسرة الابوية حتى عصرنا الحديث نجد أن الاديان (بسبب النظم الاقطاعية والرأسمالية والاستغلال) قد تحولت من دعوة الحق والمساواة إلى الدعوة لمبادىء النظام الحاكم السائد، وأصبحت الاديان ضمن الاسلحة والمؤسسات التي يستخدمها الحكام في قهر النساء والطبقات الادنى من الرجال. وقد دافعت معظم الاديان عن هذه الافكار الثلاثة في معظم العهود:

أ) الملوك والحكام وأصحاب الارض قد عينوا بأمر الله وكذلك الكهنة أو رجال الدين الذين هم ممثلو الله فوق الارض.

ب) أن الرجال امتداد لروح الله على الارض لان الله ذكر وقد اختار الذكور ليكونوا «الروح» التي تمثل الفضيلة والخير أما الانثى فهي جسد فقط والنساء امتداد لحواء الآثمة التي كانت السبب في سقوط آدم ومن ثم الفساد والرذيلة والموت.

جـ) أن الزوج هو الذي يحكم المرأة لان الرجل (مهماً فسد) هو اكثر عقلاً وحكمة من المرأة (مهما عظمت).

الفصل الثاني

الرجل والعلم والجنس

حين يسمع الناس كلمة الجنس والعلم فان أول اسم يخطر لاذهانهم هو سيجموند فرويد. وكـان فرويد فعلاً من اوائل العلماء في العالم الذين درسوا الجنس دراسة علمية، وحرروا الجنس من كثير من الافكـار القديمة، وألبسوه ثوباً علمياً خاضعاً للمناقشة والبحث والتطوير وليس اتهامات أو إرادات إلهية عليا.

على ان هناك علماء آخرين سبقوا فرويد بمئات السنوات، لكن العالم لم ينتبه اليهم بمثل ما انتبه لفرويد لأسباب متعددة.

أحد هؤلاء العلماء والمفكرين القدامى هو الشيخ أبو علي الحسن بن علي بن سينا (الشهير بابن سينا) والذي توفي سنة ٤٢٨هـ. وقد سبق ابن سينا علماء وفلاسفة الغرب في نظرته العلمية الشاملة للانسان وتقديره للجسد والاحاسيس الحسية. وكان ابن سينا من الاوائل في العالم أجمع الذي طالب بعدم الفصل بين الجسد والنفس واعادة الصلة الاصلية الموجودة في الانسان بين الجنس والحب. فالانسان وحدة واحدة لا تتجزأ.

وفي كتابه الشهير «القانون في الطب» كتب ابن سينا يقول[1]: «والقوة النفسانية تشتمل على قوتين هي كالجنس لهما احداهما قوة مدركة والاخرى قوة محركة والقوة المدركة كالجنس لقوتين، قوة مدركة في الظاهر وقوة مدركة في الباطن والقوة المدركة في الظاهر هي الحسية».

(١) انظر: القانون في الطب، الشيخ ابوعلي الحسن بن علي بن سينا، الجزء الاول ص ٧١

ومن هذا الكلام نرى أن ابن سينا لم يسبق علماء الغرب فحسب في عمل جسر بين النفس والجسد ولكنه سبق «سيجموند فرويد» في التعريف بالعقل الظاهر والعقل الباطن. ولم يكن فرويد هو أول عالم عرف ذلك كما يقول الغربيون. ومن أهم ما قدمه ابن سينا أيضاً رسالته في العشق[1]. وقد تمكن في هذه الرسالة لاول مرة أن يمنح الحب البشري دوراً ايجابياً. ففي هذه الرسالة تغلب ابن سينا على الهوة التي تفصل نشاط النفس الحيوانية (حسب التعبير في ذلك الوقت) عن نشاط النفس الناطقة في الانسان.

واستطاع أن يصل بين طرفي الحب الجسدي الطبيعي والحب الروحي وأعطى النفس الدنيا (الجسد) دوراً تشارك به النفس الناطقة العاقلة. وجعل حب الجمال الظاهري أي الحب الجنسي عوناً على الاقتراب من الله. وابن سينا في هذه الرسالة قد طبق فكرته الاساسية في النفس وأجزائها، وقد حاول أيضاً أن يجد لها مكانها الصحيح في فكره الفلسفي المتكامل. وقد تفوق بذلك ابن سينا على كل سابقيه لانه استطاع ان يحقق لاول مرة انسجاماً متدرجاً بين الجسد والنفس بينما لم ير اسلافه الا الصراع والتنافر المستمر بينهما.

لكن ابن سينا بالطبع وقع في بعض الاخطاء التي وقع فيها بعض الرجال ومنهم فرويد، وظن أن الرجل شيء والمرأة شيء آخر، بل إنه تصور أن بول النساء أقل رونقاً من بول الرجال بسبب فضولهن[2]، وكتب في كتابه قانون الطب يقول: «بول النساء على كل حال أغلظ وأشد بياضاً وأقل رونقاً من بول الرجال وذلك لكثرة فضولهن وضعف هضمهن وسعة منافذ ما يندفع عنهن ولما يتحلل إلى آلات أبوالهن من أرحامهن».

رغم ذلك فانني أعتقد أن ابن سينا كان عالماً ومفكراً وفيلسوفاً عظيماً وأن العالم الغربي لم يعطه حقه وقدّم عليه علماء غربيين أقل منه قدراً. والسبب معروف، فنحن لا نعيش في عالم محايد وحضارتنا بمثل ما تحيزت للرجال فقد تحيزت أيضاً للعقل

---

(١) انظر: غوستاف فون غربناوم: دراسات في الادب العربي ص ٨٣. رسالة ابن سينا في العشق ترجمة الدكتور احسان عباس.

Aj. Denomy. Aniquiry into the origins of courtly love. in medieval Studies 1945. vol. 6. P. 175.

(٢) القانون في الطب لابن سينا ص ١٤٦ (طبعة الحلبي) مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة.

الغربي الأبيض. ولم يكن هذا التحيز بسبب ما أشيع علمياً أن مخ الرجل الغربي اكثر تطوراً وذكاء وانما بسبب خطة الدول الغربية الاستعمارية في طمس تراث الشعوب في المستعمرات وفصل ماضيها عن حاضرها وحاضرها عن مستقبلها مما يسهل على الدولة الاستعمارية اضعاف الشعب، ومن ثم اخضاعه واستغلاله.

وعلى أية حال فان تحيز ابن سينا لبول الرجال لم يكن اكثر غرابة وبعداً عن التفكير العلمي الموضوعي من تحيز فرويد لعضو الذكر الجنسي بحيث بنى نظريته في سيكلوجية المرأة على غياب هذا العضو من جسمها وقال: «ان النساء لسن كما هن نساء، ولكنهن ذكور، ينقصهن عضو التناسل. هن يرفضن قبول هذه الحقيقة، حقيقة انهن ذكور مخصيات، ويعشن بأمل الحصول على عضو الذكر في يوم ما بالرغم من كل شيء[1]».

رغم هذا النظرة القاصرة إلى المرأة فان فرويد لعب دوراً كبيراً في تحطيم كثير من الافكار القديمة عن الجنس وعن النفس وعن الاحلام، ويحتل الفكر الفرويدي علامة في الحضارة والعلم الحديث ترك بصماته في تفكير الناس طوال هذا القرن العشرين.

وفي كتابه الطوطم والتحريم[٢] حاول فرويد تفسير العلاقات الجنسية في العشائر البدائية، ونشوء المحرمات الجنسية (تحريم الام على الاطفال الذكور) ونشوء الاديان والاحتفالات الدينية الطوطمية.

وقد رأى فرويد أن أول احتفال في تاريخ البشرية كان هو الاحتفال بقتل الاب. وقال إن هذه المأدبة الطوطمية التي ربما هي أول عيد للانسانية، كانت احتفالاً بذكرى هذا العمل الاجرامي الذي أصبح نقطة البدء للتنظيمات الاجتماعية والقيود الاخلاقية والاديان وقد تصور فرويد أن العشيرة البدائية كان لها حيوان طوطمي يقوم مقام الاب. وكان محرماً على العشيرة أن تقتل هذا الحيوان شبه المقدس، ولكنها كانت تقيم احتفالاً كبيراً بعد موته ثم تطلق عنانها للحزن عليه. وفسر فرويد هذا التناقض العاطفي البدائي بالتناقض العاطفي عند الطفل الذي يحب أباه ويكرهه في الوقت نفسه.

(1) Sigmund Freud, some psychological consequences ot the anatomical distinct between sexes, collected papers, vol. 5Hogarth press, 1959.

(٢) انظر: S. Freud Totem and Taboo.

وواصل فرويد نظريته حول التطور التاريخي للجنس والجريمة في حياة البشر قائلاً انه في العشيرة الانسانية البدائية كان الاب يغار من أبنائه الذكور الذين كانوا ينافسونه في العلاقة الجنسية بنساء العشيرة، ولذلك تجمع هؤلاء الذكور الصغار واتفقوا على قتل الاب ثم أكلوه. لكنهم بعد جريمة القتل أقاموا احتفالاً كبيراً لذكرى الاب الذي كانوا يحبونه والذي رعاهم من قبل. لكن بعد قتل الاب يشعر الابناء بالذنب وتأنيب الضمير، ولذلك يصبح الاب بعد موته اكثر قوة مما كان في حياته، ومن أجل التخلص من الاحساس بالذنب ومن أجل الوفاء لهذا الاب يطيع الابناء أوامره التي رفضوها في حياته، ويتنازلون عن حقهم في أية علاقة جنسية من نساء أبيهم. ويرى فرويد أن هذا هو بداية تحريم الام وغيرها من المحارم.

وقد اختلف بعض العلماء ومنهم «مورجان» «وانجلز» مع فرويد في أن العشيرة البدائية عرفت منذ البداية الغيرة من الاب، لأن هذه العشيرة البدائية لم يكن بدأ فيها الزواج بعد، ولم يكن هناك حق للرجل وحده في الاتصال الجنسي بالنساء وانما كان هذا الحق للجميع رجالاً ونساء. وخرج مورجان من دراساته الطويلة بين الهنود الايروكيين ودراسته لتطور المجتمع الانساني (من الوحشية إلى البربرية إلى المدنية) أن الزواج بمعناه المعروف لم يكن موجوداً في العشائر الانسانية الاولى، وكان هناك ما سمي «بالزواج الجماعي» بمعنى أن الاعضاء المكونين لعشيرة ما، كانوا يستطيعون الاتصال الجنسي بأي رجل وأية أمرأة من هذه العشيرة، وكان الاطفال ينسبون إلى الام لانها هي التي تلد الاطفال. وقال انجلز إن الشعور بالغيرة الجنسية لم يكن موجوداً في ذلك الشكل الجماعي للزواج الذي تنتمي فيه جماعات كاملة من الرجال إلى جماعات كاملة من النساء بالتبادل.

واعتقد بعض العلماء ومنهم «وورد» أن جهل الرجل لابوته في هذه الفترة من تاريخ البشرية هو الذي أنبت الشعور بالغيرة من المرأة أو الام التي كانت تعرف اطفالها بحكم أنها هي التي ولدتهم.

أي أن بداية الشعور بالغيرة في تاريخ البشرية كان هو غيرة الرجل من المرأة وليس هو غيرة الابناء الذكور من الاب. وأن الجريمة الاولى في تاريخ البشرية ليس كما قال فرويد أنها قتل الاب ولكنها جريمة سيطرة الرجل على المرأة واغتصابها حقها بالقوة. وقد شمل هذا الاغتصاب معنى الاغتصاب الجنسي والاغتصاب الاجتماعي ايضاً من حيث نسب الاطفال إلى الاب.

وقد ارجع فرويد نشوء الشعور بالاثم في تاريخ البشرية إلى جريمة قتل الاب البدائي. وقال ان الانا الاعلى في الانسان هو الذي يحمل تقاليد الابوين والمجتمع، ولهذا نبع الشعور بالاثم من جريمة قتل الاب. ويدل على ذلك أنه في الفكر المسيحي يلعب الشعور بالاثم النابع من شعور ضد الاب «الرب» الدور الاكبر في تكفير هذه الخطيئة وذلك عن طريق تضحية الابن الذي يتوحد بالاب بعد عملية التكفير ويصبح شبيهاً بالرب. وفي سر القربان المقدس (وهو الاحتفال الطوطمي للمسيحيين) يؤكل الابن، ويتوحد المشتركون في هذا الاحتفال بالاب. وعلى هذا فان الخطيئة الاولى وما صاحبها من احساس بالذنب المتولد عن أول ثورة ضد الرب (الاب) تنتقل من جيل إلى جيل.

ولا شك أن فرويد وكذلك انجلز ومورجان وورد (رغم اختلافاتهم الفكرية) قد أوضحوا الاساس الجنسي للتاريخ البشري. رأى انجلز ان تطور التاريخ الانساني ارتكز على الصلات الجنسية لكنه أدى إلى النمو والتقدم في العمل والانتاج إلى أن أصبحت العلاقات الاقتصادية هي التي تسيطر على النظام الاجتماعي. لكن هذا التطور لا يلغي الدور الاساسي للعوامل الجنسية، لان الطاقة الجنسية قادرة على التحول أو التسامي. بمعنى أنها تتحول من فعل إلى جنس إلى فعل انتاجي في المجتمع.

وقد عبر فرويد عن هذه الفكرة نفسها حين قال: «حين نطق الانسان لاول مرة كانت أصواته نداء على الرفيق الجنسي، ثم أصبحت جذور اللغة لتنظيم العمل في المجتمع البدائي. وبهذا تغير الاهتمام الجنسي ليصبح اهتماماً بالعمل، كأنما العمل لم يكن عند الانسان البدائي الا بديلاً للنشاط الجنسي. لذا فان الكلمة التي كانت تنطق أثناء العمل الجماعي كان لها تعبيران: تعبير عن الفعل الجنسي، وتعبير عن العمل الاجتماعي الايجابي الشبيه بهذا الفعل الجنسي، ثم أخذت الكلمة تنفصل بالتدريج عن معناها الجنسي لتلتصق نهائياً بالعمل[1]».

وقد أسس فرويد نظريته عن التسامي والكبت من هذه الفكرة، واعتقد أن الكبت الجنسي عمل ضروري من أجل استمرار المجتمع والحضارة وكتب يقول: «اني أعتقد أن الثقافة نتجت على حساب إشباع الغرائز واستخدام طاقاتها لدفع ضرورات حيوية».

(١) انظر: Freud. Introduction to Paychoanalysis P. 152.

لكن العلماء نقدوا فرويد في هذه النظرية عن التسامي والكبت وأوضحوا ان الطاقة الجنسية لا تتحول إلى عمل انتاجي أو فكر خلاق ولكنها تنحرف عن مسارها الطبيعي لتتخذ أشكالاً متنوعة من الانحرافات الجنسية والعصاب والمشاكل النفسية.

وقد تأثر فرويد في نظريته عن التسامي والكبت بإلحاح الظروف الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت والتي أدت إلى تمجيد العمل الانتاجي. فقد كان المجتمع الاوربي حينئذ محدود الامكانيات ولم تكن الصناعة تقوم على الآلات وانما على الجهد الانساني. ولهذا كان المجتمع في أشد الحاجة إلى عرق العمال وجهدهم، ولم يكن في استطاعة المجتمع الرأسمالي أن يحقق ذلك الا بالقوة عن طريق القهر، وأيضاً بجعل العمل شيئاً مجيداً بل مقدساً[1].

وأوضحت الدراسات النفسية[2] الجديدة عن وجود علاقة بين الكبت الجنسي وانخفاض القدرة الفكرية في الانسان. وكتب بارون: «ان الاصالة الفكرية تعتمد على تجاوب الانسان الحر لمشاعره».

ويكاد فرويد ينتهي إلى هذه الفكرة ويناقض مفهومه السابق عن التسامي والكبت فيقول إن الكبت ليس الا رد فعل ضد صعوبات اقتصادية واجتماعية وكتب: «ان الاساس الذي بني عليه المجتمع البشري هو في النهاية من طبيعة اقتصادية، ذلك أن المجتمع حين يعجز عن تقديم وسائل العيش لافراده دون عمل، يجد نفسه مضطراً إلى الحد من عدد افراده وتحويل طاقتهم من النشاط الجنسي إلى العمل، ونحن هنا أمام هذه الحاجة الحيوية الازلية التي ولدت مع الانسان وما زالت مستمرة حتى يومنا هذا[3].

وبرغم الثغرات المتعددة في الفكر الفرويدي الا أنه لا يمكن أن ننكر أن هذا الفكر قد أضاء بعض جوانب الانسان بطريقة علمية قابلة للمناقشة والملاحظة والتغيير حسب التطور الفكري للانسان. وبالمثل أيضاً فعل مورجان وأنجلز وماركس وغيرهم من العلماء والفلاسفة الذين حاولوا دراسة الانسان والمجتمع على نحو علمي.

ولعل الميزة الاساسية للفكر الفرويدي والفكر الماركسي هو أنهما أعطيا القرن العشرين نوعاً من التفسير العلمي للصعوبات التي يعيشها الانسان كطفل (فرويد) أو

(١، ٢) انظر: المرأة والجنس،

(٣) انظر: Freud, Introduction to Psychoanalysis

طفولة المجتمع البشري (ماركس).

لكن الفكر الفرويدي بسبب انحصاره داخل النفس وايمانه بأن مصير الانسان يتحدد حسب تشريح جسمه عجز عن تفهم الظروف الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية التي جعلت الرجل يسيطر على المرأة، وفسر فرويد هذه السيطرة على أن «الانا» العليا «عند المرأة أضعف من «الانا العليا» عند الرجل، وان ضمير النساء أضعف من ضمير الرجال واعتقاداتهن الفكرية أضعف. وبنى فرويد نظريته عن نفسية المرأة على أنها ذكر حرم من العضو الذكري وجعل هذا العضو يلعب الدور الاساسي في تشكيل كل من نفسية الرجل والمرأة.

وهذه هي أهم الثغرات في الفكر الفرويدي والتي كشفها كثير من علماء النفس الذين أدركوا أثر الظروف الاجتماعية على نفسية الانسان. وكان من هؤلاء العلماء الطبيبة النفسية كارين هورني[1]، وكذلك «أرنست جونز» الذي كتب يقول: «إن الانسان أولاً وقبل كل شيء مخلوق اجتماعي، ولهذا فان تقسيم علم النفس إلى علم نفس فردي وعلم نفس اجتماعي انما هو تقسيم خيالي. ان عقل الانسان يتكون من مجموعة من ردود فعل تنشأ بينه وبين الآخرين في المجتمع، ولم يعرف أن الفرد يمكن أن يتطور بشكل آخر[2]

وكان «الفريد أدلر» من أوائل أطباء النفس في العالم الذي رفض أفكار فرويد عن الفروق التشريحية بين الجنسين، وقد نبه الاذهان إلى الاسباب الاجتماعية في الفروق النفسية بين الجنسين سواء في مرحلة الطفولة أو مراحل العمر المختلفة. وكتب أدلر يقول: إن الاسباب الاساسية لهذه الظاهرة غير السعيدة (في حياة الاطفال والرجال والنساء) ترجع إلى الاخطاء في حضارتنا.

وقد نجح إنجلز في كشف هذه الاخطاء في الحضارة حين تتبع الاسباب الاقتصادية والاجتماعية في تاريخ البشرية والتي قادت إلى أن يسيطر الرجال على النساء وقال في كتابه: أصل العائلة: «إن التقسيم الاول للعمل» في تاريخ الانسان «حدث بين الرجل والمرأة من أجل رعاية الاطفال، وكان أول صراع طبقي في التاريخ هو الصراع بين المرأة والرجل في ظل الزواج الأحادي » (Monogamy) «وكان أول خضوع طبقي هو خضوع الزوجة لزوجها. لقد كان هذا الزواج تقدماً تاريخياً من ناحية، لكنه

---

(١) انظر: المرأة والجنس، والانثى هي الأصل.

(٢) انظر: Ernest jones, Free Association, Hogarth Press, 1959, P. 153.

من الناحية الاخرى أنتج الرق (العبيد) والملكية الخاصة، وتلك الظاهرة المستمرة حتى اليوم، وهي أن كل تقدم ليس الا تأخراً نسبياً، حيث أن تقدم مجموعة من الناس تكون على حساب وشقاء وتخلف مجموعة أخرى[1]».

وقد اختلف الفكر الفرويدي عن الفكر الماركسي في كثير من الاساسيات لكنهما اتفقا على فكرة أساسية تقول إن الانسان في حياته منذ الولادة حتى الممات يخضع لقوى أكبر منه تعطل نموه وتعوق وجوده. وتنتمي هذه القوى في الفكر الماركسي إلى العالم الاقتصادي والاجتماعي، وفي الفكر الفرويدي تكمن هذه القوى داخل الانسان، في الجزء الذي سماه فرويد «بالأنا السفلى» «Ed»، حيث الغرائز الطبيعية وتحتوي ضمن ما تحتوي على غريزة العدوان وغريزة الموت والغريزة الجنسية وكلها غرائز لا تعرف الا اللذة والاشباع بصرف النظر عن المجتمع الخارجي. لكن فرويد عاد في مؤلفاته الاخيرة (عن الحضارة ومستقبل الوهم) وغير بعض افكاره، وربط بين علم الاقتصاد والتاريخ وبين علم النفس والطب، وقال: «إن المرض النفسي لا ينبع من داخل الانسان وانما هو انعكاس للمجتمع والحضارة الخاطئة» ويكاد يقترب هذا المفهوم من الفكر الماركسي الذي ربط البناء الاقتصادي التحتي (قوى الانتاج) بالبناء العلوي النفسي بعد الفصل الطويل بينهما وما نتج عن هذا الفصل من اغتراب الانسان عن نفسه وعن مجتمعه.

ويعبر الفكر الماركسي عن نظرة شاملة للانسان والمجتمع، وهي تشبه نظرة أرسطو مع الفارق الكبير الزمني والحضاري بينهما. قال أرسطو: «الانسان الذي يعيش خارج المجتمع إما حيوان أو اله». وقد اتفق الفكر الماركسي مع فكر أرسطو في المعنى الاساسي لهذه العبارة من حيث أن الانسان لا يمكن أن يفصل عن المجتمع، وأن المجتمع هو الوسيلة الوحيدة التي بواسطتها يستطيع الانسان انماء ما لديه من انسانية. ولعل أهم ما وجه من نقد للفكر الماركسي أنه انشغل بتحقيق السعادة للمجتمع ولم يهتم بسعادة الفرد، على حين أن فرويد انشغل بتحقيق السعادة للفرد ولم يهتم بسعادة المجتمع.

وقد صدر هذا النقد من بعض العلماء الذين لم يدرسوا الفكر الماركسي دراسة كافية. لان الفكر الماركسي ذهب إلى أبعد ما ذهب اليه الفيلسوف «كانت» ورأى أن

---

(١) انظر: Fredrick Engles, The Origin of the Family.

السعادة هي زوال عبودية الانسان للقوة الاقتصادية والاجتماعية وفي القضاء على هذه الظروف التي يصبح بها الانسان وسيلة لا غاية.

وكانت الاغلبية من البشر قد حولوا إلى وسائل وأدوات لاثراء قلة قليلة امتكلت المال والسلطة.

وقد أشيع عن الفكر الماركسي أنه يحول الفرد إلى أداة في يد المجتمع. مع أن العكس هو الصحيح، فان أساس الفكر الماركسي يرتكز على القضاء على كل الظروف التي تقهر الانسان وتجعله أداة أو شيئاً أو وسيلة. وهو يرتكز أيضاً على مساعدة الانسان في الوقوف أمام القوى الاجتماعية والاقتصادية التي تهدده أو تهدر إنسانيته.

وهذا هو هدف العلم. ان هدف العلم ليس تأكيد عجز الانسان وتأكيد ضعفه أمام قوى مجهولة باطشة في السماء أو قوى مدمرة داخلية في نفسه. ولكن هدف العلم وهدف أي بحث علمي هو مساعدة الانسان على تقوية نفسه وتأكيد قدرته أمام هذه القوى، وتعريف الانسان بحقيقة هذه القوى وليس تجهيله بها.

ولقد لعب الفكر الفرويدي دوره العلمي أيضاً في تعريف الانسان بهذه القوى التي تتهدده، لكن فرويد تصور أن هذه القوى داخل الانسان وهي التي سماها «بالأنا السفلى» (Ed) حيث تكمن غريزة التدمير أو الموت، (Thanatos) . وهنا أيضاً يتضح الخلاف الجوهري بين الفكر الفرويدي والفكر الماركسي. كلاهما يعترف بوجود قوى أكبر من الانسان تسعى إلى تدميره أو تعطيل نموه وحركته. هذه القوى في نظر الفكر الماركسي في المجتمع الخارجي، وفي نظر الفكر الفرويدي في داخل الانسان ذاته. أما في الفكر المثالي فيقول الفلاسفة إن هذه القوى غير معروفة للانسان وهي قوى فوق مستوى الفهم الانساني ورمز اليها «بالاله»، وقال البعض الآخر من أصحاب هذه الفلسفة إن الحقيقة الخارجية هي من فكرنا فحسب، بمعنى: «ان العالم الخارجي غير موجود الا في عقولنا». لكن «كانت» رأى هذه الفكرة غير علمية، لانها تعني أن الكون لم يوجد الا بوجود عقل الانسان وهذه الحقيقة تناقض علم الجيولوجيا والفلك والعلوم الاخرى التي أثبتت أن «الكون» وجد قبل ملايين السنين من ظهور الانسان أو الحياة. وارتكزت فلسفة «كانت» على أن العالم كما يبدو لنا ليس العالم كما هو. بمعنى أن هناك عالمين: عالم ظاهري وعالم حقيقي.

وقد أدرك فرويد في أواخر أعماله الارتباط القوي بين علم النفس والطب وعلم

الفلسفة والكون وإرتباط الدين والاخلاق بالامراض النفسية والانحرافات الجنسية بسبب الاحساس بالاثم وعقدة الذنب. وهذا هو الذي دعاه إلى تأليف كتابه «مستقبل الوهم» الذي حاول فيه أن يفسر ظاهرة الدين من الناحية النفسية. وقد وقع فرويد رغم نظرته العلمية في بعض الاخطاء، منها أنه تجاهل دور «الام» في المجتمع الانساني البدائي، وتصور أن «الرب» ليس الا «الاب» البدائي، وأن علاقة الانسان بالرب تشبه علاقة الطفل بالاب من حيث وجود الحب والحاجة إلى الرعاية والرغبة في الارضاء جنباً إلى جنب مع الكراهية والرغبة في الانفصال والخوف من العقاب.

ولا يستطيع فرويد أن يتخلص من كونه رجلاً (وليس امرأة) ويكتب قائلاً: «يظل خلق العالم منسوباً إلى إله غالباً ما يكون ذكراً، برغم الاشارة إلى إلهات إنـاث، وكثير من الاديان تجعل بدء خلق العالم انتصار الاله الذكر على قوة أنثوية شبيهة بالوحش».

وهذا التعبير في حد ذاته يكشف لنا عن أن العالم (في نظر فرويد أو في الفكر الرجولي بصفة عامة) لم يبدأ الا حينما انتصر الذكر على الانثى التي شبهت بالوحش.

والسؤال الذي يبرز هنا: ألم يكن هناك عالم قبل ان ينتصر الذكر على الانثى؟

وتدل معظم المصادر العلمية والانثروبولوجية أن العالم كان موجوداً قبل انتصار الذكر على الانثى بل قبل وجود الذكر والانثى على حد سواء. وأن الانثى في الحياة البشرية كانت هي الاصل بيولوجياً ونفسياً واجتماعياً وكانت هي الاله، ولم يعرف في ذلك الوقت الا الالهة القديمة الانثى التي رمزت إلى الخير والخصوبة والولادة[1] والحياة.

وأوضحت الدراسات الحديثة للمجتمع البشري القديم ان الذكر خضع لهذه الانثى البدائية القوية فترة طويلة، كان يشعر طوالها بالخوف من قوتها، هذا الخوف الذي رسب في نفسه شعوراً بالكراهية والغيرة منها. ويرجع العلماء أن هذه الفترة هي التي أنبتت في نفس الذكر الجذور الاولى لتلك الظاهرة التي عرفت في علم النفس باسم حسد المرأة أو (Woman Envy) . وان الذكر ظل يتطور ويقوى من أجل أن يحظى باختيار هذه الانثى القوية، وتفضيلها له عن الذكور الآخرين، إلى أن اكتسب قوة كافية استطاع بها أن يرتكب اول حادث اغتصاب في التاريخ البشري، وكأنما اراد

---

(١) انظر: الانثى هي الأصل في هذا الكتاب.

أن ينتقم بشكل ما من المرأة التي يضمر لها منذ زمن طويل ذلك الخوف وتلك الكراهية والغيرة.

ويعتقد هؤلاء العلماء أن الجريمة الاولى التي وقعت في حياة البشرية لم تكن جريمة قتل الاب كما قال فرويد ولكنها كانت جريمة اغتصاب الرجل للمرأة. وربما عبر فرويد عن هذا المعنى نفسه حين قال إن بداية العالم كانت انتصار الذكر على الانثى الشبيهة بالوحش (تعبير بدائي عن القوة الشديدة)، وعبر عن الفكرة نفسها حين قال في ختام كتابه «الطوطم والتحريم[1]»: «في البدء كان الفعل».

---

(١) انظر: Freud. Totem and Taboo.

الفصل الثالث

خوف الرجل من المرأة وعقدة النقص

في احدى زياراتي للهند زرت بعض المناطق في الجنوب بالقرب من «كونور» وجدت أن هذه المنطقة تسكنها مجموعة من القبائل الهندية التي يعيش رجالها ونساؤها حياة تختلف عن الحياة التي نعيشها. فالرجال لا يعملون شيئاً سوى الاشراف على المعابد والرقص في الحفلات الدينية والتزين بالمساحيق البيضاء والحمراء، وشعورهم طويلة وآذانهم يتدلى منها «الحلق» الذي يشبه الحلق الذي تزين به الفلاحة المصرية أذنها. أما النساء فانهن يعملن نهاراً في حقول الشاي والبطاطس وفي آخر النهار يعدن إلى البيوت ليطبخن ويغسلن ويطعمن الازواج والاطفال. وقد دعيت يوماً لاشهد حفلاً دينياً مع قبيلة من هذه القبائل اسمها «كوتاس» (Kothas) في قرية (Drichijadi) ورأيت الرجال بشعورهم الطويلة ومساحيقهم وحلقانهم يرقصون حول المعبد، أما النساء والبنات فقد جلسن بعيداً عن المعبد في مكان مخصص بحيث يشهدن الاحتفال من بعيد.

وسألت رئيس القبيلة عن سبب ذلك فقال لي إن قطعة الارض من حول المعبد مقدسة ولا يجوز للاناث ان يسرن فوقها بأقدامهن وكذلك يحرم على النساء والبنات (والاطفال البنات) دخول المعبد.

وعرفت أن هذه القبيلة لها معبدان. معبد الاله «شيفا» وبداخله تمثال صغير من الحجر للاله «شيفا» ولا يدخل هذا المعبد الا الرجال. والمعبد الثاني هو معبد الالهة «برافاتي» زوجة شيفا وهي احدى الالهات الاناث اللائي يعبدهن الهنود. والغريب ان رجال القبيلة حرموا على النساء دخول هذا المعبد أيضاً بالرغم من أ ن التمثال الذي يعبد داخله هو تمثال الانثى. وسألت رجال القبيلة عن السبب في ذلك فقال لي رئيسهم

ما معناه أن الدين للذكور والدنيا للاناث. وطلبت منه أن يشرح إلى هذا المعنى فقال ان النساء يملكن كل شيء في الدنيا، انهن يعملن في الحقل وفي البيت ويطعمن الجميع ويملكن الاطفال لانهن هن اللائي يلدن، أما الرجال فلا يمكن لهم بأي حال من الاحوال أن يعرفوا أطفالهم من أطفال الغير وليس لهم في هذه الدنيا الا الاله والمعبد، وقال لي إن من حق الرجال أن يحتكروا لانفسهم الآلهة والمعابد والا فسوف تحكمهم النساء وتسيطر عليهم.

وبدراسة الحياة في بعض هذه القبائل وجدت أن الاطفال ينسبون إلى الام لان الام تتزوج باكثر من رجل، وان الاب مجهول في حالات كثيرة. وبالرغم من أن الام هي عائل الاسرة وهي التي تعمل وتنفق على الازواج والاطفال الا أن زعماء القبيلة قد وضعوا تقاليد وقوانين معينة قالوا عنها انها جاءت من الاله شيفا وتنص على أن الرجل هو الحاكم وهو الذي يصدر القرارات ويوزع الرزق على الناس. وباسم هذه القوانين استولى الرجال على الاجور التي تكسبها النساء ونصب الرجل نفسه حاكماً على الاسرة، وأصبحت النساء مجرد عاملات يعملن تحت سيطرة الرجال وبدأ بعض الرجال بهذه السلطة ينسبون الاطفال اليهم ويفرضون على المرأة زوجاً واحداً حتى تصبح الابوة معروفة.

وتعتبر هذه القبائل مرحلة متوسطة (بين مجتمع الامومة في «كيرالا» جنوب الهند وبين المجتمع الابوي السائد في الولايات شمال الهند)، وتمثل مرحلة الانتقال من المجتمع القديم الذي سادت فيه المرأة إلى المجتمع الحديث الذي ساد فيه الرجل. وقد اتضح أن الرجل لم يستطع أن ينزع من المرأة سيادتها التي أعطتها إياها الطبيعة الا عن طريق ادعاء قوانين إلهية جاءت من عند الألهة، وباحتكار الالهة ومعابدهم للذكور، وتحريم دخولها على النساء. وظهر أن الرجال لم يحتكروا الالهة والمعابد الا حينما شعروا بقوة المرأة في الحياة الدنيا. فالمرأة تملك القدرة على خلق الحياة والولادة وهم لا يملكون هذه القدرة. ويبدو ان المرأة البدائية كانت اقوى من الرجل في نواح اخرى غير الخلق والولادة. فقد لاحظت أن النساء الهنديات في هذه القبائل أشد واكثر صلابة من الرجال وأن يد المرأة غليظة مشققة قوية كيد الفلاح المصري، أما يد الرجل فقد رأيتها ناعمة بضة. وكنت أرى الرجال جالسين طوال اليوم أمام البيوت في الشمس يدخنون ويشربون ويلعبون النرد أما النساء فكنت أراهن في الحقول يعملن طوال النهار من شروق الشمس حتى غروبها.

في أساطير اليونان القديمة انتشرت قصة النساء المحاربات اللائي اطلق عليهم اسم «الامازونيات» وهن نساء قويات قادرات على الحرب والقتال والسيطرة، وقد حكمن المجتمع اليوناني فترة من الوقت وتمتعن باحترام كبير في الادب اليوناني. لكن الصور التي رسمت لهن فيما بعد كانت صور نساء بغير صدور، من أجل تجريد النساء من مظاهر انوثتهن وتحويلهن إلى رجال. كأنما يقول هؤلاء الرسامون إن المرأة لا يمكن أن تكون قوية بغيز أن تتحول إلى رجل.

لكن المصادر تقول ان هؤلاء النساء كن نساء، وكن يمارسن الجنس مع الرجال ثم يتركن الطفل بعد الولادة للرجل ليرعاه ويطعمه. ذلك أن هؤلاء النساء كن مشغولات بشؤون الدولة والحكم ولم يكن لديهن الفراغ لرعاية الاطفال. هذه المهمة كانت وظيفة الرجال المقيمين بالبيوت.

ولم يكن اليونانيون في ذلك الوقت يستنكرون هذا الوضع. كان أمراً طبيعياً للغاية يتفق مع الظروف السياسية والاقتصادية وكون النساء هنّ اللائي يمسكن مقاليد الحكم والجيش وشؤون الدولة الأخرى.

ويقال ان هؤلاء النساء الامازونيات كن شديدات القسوة مع الرجال، وأن المرأة منهن كانت احياناً تقتل الرجل بعد العملية الجنسية كما يحدث لذكر النحل.

والغريب أيضاً ان بعض المصادر تقول بأن مثل هذا النوع من النساء كان يعيش حول نهر الامازون في امريكا وأن بعض قبائل الهنود الحمر كانت فيها النساء قويات وهن اللائي يحكمن، وقد عرف عنهن قسوة نساء الامازونيات اليونانيات.

وهذه المعلومات تغذي هذا الفريق من العلماء الذي يتبنى نظرية أن المرأة البدائية كانت في عهود الامومة أقوى من الرجل وكانت هي التي تحكم. وكان الرجل خاضعاً لها. وانه في هذه الفترة بالذات شعر الرجل بالاضطهاد وأضمر للمرأة الخوف والكراهية والغيرة، وظل من أجل أن يعزلها عن عرشها ويجلس مكانها. وحين جلس الرجل مكان المرأة كان عليه أن يثأر منها بسبب قسوتها القديمة عليه. وكان في حاجة دائمة إلى أن يقهرها ويقيدها خشية أن تستولي على الحكم مرة أخرى.

وتشير معظم المصادر الانثروبولوجية أن المرأة البدائية كانت تمتلك قوة اكثر من الرجل بصرف النظر عن حجم الجسم، وأنها هي التي سيطرت على الحياة والنسل لفترات طويلة جداً من الحياة البشرية. ولا تزال بقايا مجتمعات الامومة هذه في بعض

مناطق في افريقيا (اويمبا ـ أوغندا ـ داهومي وغيرها) وفي بعض مناطق في آسيا والهند وامريكا والجزر من حولها. وقد اتضح من الدراسات الجديدة في علم النفس وعلم البيولوجي ان المرأة اقوى من الرجل نفسياً وبيولوجياً. وتتفق هذه النتائج الجديدة مع الاعتقاد البدائي القديم بقوة المرأة. وكانت الالهة القديمة هي الانثى الام، ترمز إلى الخصوبة والقدرة على خلق الحياة وولادتها وتغذيتها. وتشير معظم المصادر عن هذه الفترة من تاريخ البشرية إلى ذلك الخوف المبكر الذي شعر به الرجل نحو امه. فهي المرأة الاولى التي يعرفها في حياته، وهي اكبر منه وأقوى، وهو يحتاج اليها لتطعمه، وهو يريد أن ينفصل عنها ليصبح فرداً مستقلاً، و لا يريد ان ينفصل عنها لانها الانثى الاولى في حياته، والجسد الاول الذي عرفه واشتهاه، وهو يشعر بالعجز امامها، والرغبة فيها، والخوف من قوتها وقدرتها على الحمل والولادة.

أما البنات الصغيرات فلم تمثل الام لهن مثل هذا الخوف لانهن كن يرين انفسهن مثل الام، والمستقبل أمامهن مفتوح ليصبحن كامهاتن ذوات الحرية والاختيار والقدرة على خلق الحياة والولادة. ولم يكن أمام الذكور في مثل هذه التربية النفسية الا أن يشعروا بالخوف من جنس النساء.

وقد تحير كثير من العلماء في معرفة اسباب ذلك الخوف الدفين من المرأة الذي يظهره أحياناً بعض الرجال المرضى بالانحرافات الجنسية أو ذلك الحنين الدفين في نفس بعض الرجال لان يكونوا نساء يحملن ويلدن وتلك الظاهرة المسماة (كوفاد) (phenomenon of couvade) حين يشعر الرجل برغبة في ان يكون أنثى أو يحاول ذلك عن طريق ارتداء ملابس النساء والذهاب إلى جراح ليحوله إلى امرأة.

وتشير المصادر إلى أن خوف الرجل من المرأة تركز في الجنس والولادة ومظاهر الخصوبة. وأن الخوف هنا كان سببه الجهل بهذه المظاهر وبهذه القدرة التي تملكها المرأة ولا يملكها هو. ولهذا ارتبط خوف الرجل من المرأة بمظاهر خصوبتها من حمل وحيض وولادة. وهذا هو السبب في أن خوف الرجل من المرأة تركز في الناحية الجنسية بالذات. وانه بالاضافة إلى فقدانه القدرة على الحمل والولادة فهو يسلم عضوه التناسلي للمرأة أثناء الممارسة الجنسية فاذا بها تسحب سائلة المنوي وتسحب معه صلابته وقوته. ومن هنا الاعتقاد الشائع بأن المرأة تسحب قوة الرجل أثناء الجنس. وبعض القبائل الافريقية حتى اليوم لا زالت تؤمن ان المرأة إذا خطت فوق ساق رجل نائم فانه يعجز جنسياً. وتعتقد قبيلة أرونتا أن المرأة يمكن بالسحر أن تجعل زوجها

عاجزاً جنسياً وتسقط عنه أعضاءه التناسلية، وفي الريف المصري حتى اليوم اعتقاد شائع بأن المرأة قد تعمل سحراً لزوجها إذا هجرها فيعجز جنسياً. ويحرم سكان ميري في البنجال على نسائهم أكل لحم النمر كالرجال خوفاً من أن يصبحن قويات، وفي شرق افريقية (قبيلة واتاولا) يخفون سر عمل النار عن النساء خوفاً من ان تحكمهن النساء، ويؤمنون بان الرجل الذي يلمس امرأة في فترة الحيض يسقط ميتاً. ومن هنا عزل النساء عن الرجال في فترة الحيض. ثم اعتبار الحيض نوعاً من الدناسة والنجاسة وعزل المرأة الحائض عن الحياة. هناك كثير من المجتمعات في الهند حتى اليوم تعزل البنت ايام الحيض في حجرة منفصلة وتغلق عليها الباب حتى لا تخرج، ويلقى اليها الطعام كل يوم من شق في الباب. بعض الرجال في مجتمعنا حتى اليوم يعتقدون أن مصافحة المرأة الحائض تفسد طهارتهم ونظافتهم. وكثير من المعابد تمنع المرأة الحائض من دخولها. وكانت الكنائس في فترة ما تمنع النساء من الدخول. وفي الهند حتى اليوم معابد كثيرة يحرم دخولها على النساء جميعاً بصرف النظر عن الحيض.

وهناك عديد من الامثلة على شدة خوف الرجل من المرأة ومن مظاهر خصوبتها. هذا الخوف الذي جعله يطردها من المعابد ويحتكر لنفسه الآلهة والدنيا الآخرة ما دامت هي قد ملكت الحياة الدنيا وملكت القدرة على خلق الحياة. هذا الخوف القديم قدم الزمن والذي يشعر به الرجل ويعيه، وقد لا يشعر به ولا يعيه وانما يظل هناك كامناً في عقله الباطن لا يظهر الا عندما يشعر الرجل بالخطر من المرأة في أية ناحية من نواحي الحياة، وبالذات الناحية الجنسية.

ويقول علماء النفس إن هذا الخوف الدفين القديم في نفس الرجل من المرأة هو الذي ولد لديه نوعاً من الاحساس بالنقص، وإن هذا الاحساس بالنقص هو الذي دفع الرجل إلى أن يشوه حقيقة المرأة، فيدعي انها جسد بغير رأس، أو يدعي أن جميع مظاهر خصوبتها كالحمل والحيض والولادة نجاسة ودناسة، أو ان أعضاءها الجنسية تستحق الازدراء والتحقير اما اعضاء الذكر الجنسية فتستحق التمجيد والفخر. أو أنها سبب الاثم والشر والموت وهو مصدر الخير والفضيلة أو أنه امتداد روح الله وممثل الله فوق الارض وهي تمثل الشيطان والخطيئة. وبذلك جعل الرجل نفسه «الروح» وجعل المرأة هي «الجسد». ومن هنا نشأت افكار الفلاسفة الرجال الذين قالوا ان الرجل يمثل الله، أو يمثل الروح أو العالم الروحي وأن المرأة تمثل الجسد أو العالم الارضي. وهذا القول يشبه كلام رئيس قبيلة «كوتاس» الهندية حين قال لي إن الدين للذكور والدنيا

للاناث. ومعنى ذلك أن الله للذكور والارض للاناث، لكننا نعرف كيف استولى الرجل بعد ذلك على الارض أيضاً واصبح الدين والدنيا للرجال والطاعة والخضوع للنساء. وأصبح دور المرأة الوحيد في الحياة هو خدمة زوجها والتفرغ للولادة والاطفال الذين أصبحوا ملك الاب. على أن الفصل بين الروح والجسد أدى إلى الفصل بين الحب والجنس، ونتج عن ذلك الفصل علاقات مشوهة بين الرجال والنساء، لانها علاقات ناقصة على الدوام، فهي إما علاقات عاطفية بغير جنس، أو علاقات جنسية بغير حب - وكلا النوعين ناقص بل ضار أيضاً.

وقد اتضح أن الرجل لم يلجأ إلى هذا الفصل الا بسبب خوفه من المرأة وخوفه من الجنس وان هذا الخوف رسب في نفسه احساساً دفيناً بالنقص، فادعى لنفسه الالوهية والكمال والسمو الروحي، والصق بالمرأة الضعف والنقص والانحطاط الجنسي.

ويعتقد كثير من العلماء ان إحساس الرجل بالنقص يزيد أو ينقص تبعاً لعلاقته بأمه وبأبيه. ويرى بعضهم أن العلاقة بين الام والاب داخل الاسرة الابوية الحديثة تزيد من احساس الطفل بالنقص وذلك لسببين:

١ - سيطرة الاب بسبب قوانين الاسرة.

٢ - شدة التصاق الام بطفلها بسبب تفرغ الامهات للامومة.

وأثبت بعض علماء النفس أن العلاقات غير المتكافئة داخل الاسرة رسبت في نفوس الاطفال الذكور والاناث عقد النقص. لكنهم وجدوا ان احساس الذكر بالنقص يختلف عن احساس الانثى بسبب اختلاف التربية التي يتلقاها كل منهما. فالولد يتربى على أن الذكورة قوة وسيطرة وامتلاك، وتتربى البنت على أن الانوثة ضعف وخضوع وطاعة وارضاء للرجل بأي شكل. وأصبح جمال الرجل في قوته الذكورية وسيطرته وثروته التي يمتلكها من مال أو أرض، واصبح جمال المرأة في جسدها وشعرها وبشرتها ورموشها.

ويرتبط الشعور بالنقص في كل من الرجل والمرأة حسب هذه المقاييس التي وضعت للذكورة والانوثة فالمرأة قد تتصور أنها غير مرغوبة جنسياً (لسبب من الاسباب وأهمها عند المرأة الا تكون جميلة الشكل)، وتفقد الثقة في نفسها كامرأة، وتشعر بعقدة نقص، أي تشعر ان انوثتها أقل من غيرها من النساء. وقد تكون هذه المرأة

جميلة فعلاً بالمقاييس السائدة لجمال المرأة، لكنها تعتقد في اعماقها أنها ليست مرغوبة. والمهم هنا هو الاحساس الداخلي وليس المظهر الخارجي، فالجمال شأنه شأن المال لا يمكن أن يعطي احساساً بالثقة لانسان يفتقد هذه الثقة أصلاً داخل نفسه.

ان المرأة الجميلة قد تطرب لسماع كلمات الاعجاب من الرجل ولكنها تشعر في أعماقها أن هذا الاعجاب ليس موجهاً اليها ذاتها كشخص وانما هو موجه إلى شكلها الخارجي، وهناك أيضاً الرجل الثري الذي يرضيه أن يكون محاطاً بالاصدقاء والمريدين ولكنه يشعر أن هؤلاء الناس يصادقونه من اجل ماله وليس لانهم يسعدون بصداقته وصحبته.

وهناك أيضاً الرجل القوي جنسياً الذي يرضيه اقبال النساء عليه لكنه يشعر أن هذا الاقبال يرجع إلى قوته الجنسية وليس إلى كونه شخصاً يحب.

هذا الفصل بين الحب «للشخص ذاته» وبين الحب لاسباب مادية كالجمال الجسدي. والقوة الجنسية ترجع إلى الفكرة القديمة في التاريخ البشري التي فصلت بين جسد الانسان ونفسه، وان حب الجسد ليس هو حب النفس. لم يكن هذا الانفصال موجوداً في حياة البشر البدائيين حين كانت الحياة طبيعية والرجل لم يسيطر بعد. كان الجسد هو النفس، وكان الحب إذا حدث فهو حب للجسد والنفس معاً بغير انفصال.

والحياة البشرية البدائية تشبه حياة الطفل الذي لا يفرق بين جسده ونفسه، والذي حين يشعر بحب أهله له يدرك أن هذا الحب بغير مقابل وغير مشروط وأنه موجه إلى شخصه كله. لكن ما أن يكبر الطفل قليلاً حتى يدرك أن حب الام أو الاب له ليس على هذا النحو الكامل، وأنه حبٌ له شروط، وأنه حب يتقبل أشياء ويرفض اشياء، وأهم ما يرفضه هذا الحب هو ما يتعلق بالجنس أو الرغبات الجسدية. ويكتشف الطفل أيضاً أن ما يرفضه الاهل (وهي رغباته الجسدية) هي الرغبات التي تسبب له اكثر لذة واكثر سعادة من أي شيء آخر. ولا يجد الطفل من حل الا أن يقسم نفسه إلى جزءين: هذا الجزء الذي يحبه أهله والذي هو الاهم طالما أنه يحتاج إلى هؤلاء الاهل. والجزء الثاني هو ذلك الذي لا يحظى بحب الاهل لكنه يمنحه اكبر لذة وسعادة. وعلى هذا يكبر الطفل وهو يشعر انه شيئان، شيء غير جنسي (اي جسد فقط) في محيط اهله وأسرته وما شابه، ثم مخلوق جنسي (أي جسد فقط) في محيط آخر، وذلك بدلاً من أن يشعر أنه شيء واحد أو مخلوق واحد، وأن جسده جزء لا ينفصل عن نفسه، وأنه

يـوجد بين الناس في جميع الظروف والاحوال بجسده ونفسه معاً.

ونفهم أنه كلما كان رفض الاهل لرغبات الطفل الجسدية كبيراً أصبح هذا الطفل في المستقبل اكثر ميلاً للفصل بين جسده ونفسه. على أن بعض الاطفال يستطيعون بعد أن يكبروا وينفصلوا عن أهلهم أن يسدوا تلك الثغرة بين الجسد والنفس، ويصبح الواحد منهم قادراً على الحب كشخص واحد كامل (جسد ونفس) كما كان يشعر وهو طفل صغير. وهذه بالطبع احدى سمات نضوج الشخصية لكن هناك بعض الرجال (والنساء) الذين لا يصلون إلى النضوج بحال من الاحوال، كما أن في حياة كل فرد منا فترة من حياته قبل النضوج وقبل التحام جسده بنفسه حين يشعر ان جسده شيء وأن نفسه شيء آخر، وأن هناك من يحب جسده ولا يحب نفسه، أو يحب نفسه ولا يحب جسده.

ان إحساس الثقة بالنفس ينبع أساساً من هذه القدرة داخل الانسان على جعل جسده ونفسه شيئاً واحداً. وبالرغم من أن الجمال الجسدي وحده أو كفاية الرجل الجنسية تقود إلى أن يخوض هذا الرجل عدداً من العلاقات مع النساء الا أن هذا الرجل يظل عاجزاً عن إقامة علاقة حب حقيقية مستقرة ومشبعة مع أية امرأة طالما انه يفتقـد الاحساس الداخلي بالثقة في نفسه وقيمته كشخص متكامل. وكم من رجل جذاب جنسياً أو قوي جنسياً (فاقد الثقة في نفسه) يسرع في انهاء علاقته بالمرأة في بدايتها خوفاً من انها لو استمرت قليلاً فسوف تكتشف المرأة انه غير جدير بحبها وتقطع هي العلاقة، ولهذا يبدأ هو بقطعها، وكأنما يقول لنفسه (بيدي لا بيد عمرو)

أن هذا الرجل المتعدد العلاقات مع النساء، الذي يتفاخر بعدد النساء اللاتي اتصل بهن، والذي يقال عنه « دون جوان » ليس الا رجلاً فاقد الثقة بنفسه، يشعر بعقدة نقص، يحاول جاهداً أن يسد تلك الثغرة بين نفسه وجسده، وهو يعيش حياة جنسية وعاطفية غير مشبعة وغير ناضجة تستحق منا الاشفاق ومحاولة لوسائل العلاج ولا تستحق بحال من الاحوال أي اعجاب.

لو عرف الرجال هذه الحقيقة العلمية فسوف يكف الكثيرون منهم لا شك عن التفـاخر بعدد غزواتهم النسائية والجنسية، ويحولون جهودهم بدلاً من ذلك إلى ما يساعدهم على التئام الجرح وسد الثغرة بين اجسادهم ونفوسهم، بحيث يصبح الواحد منهم قادراً على ان يكون شخصاً متكاملاً يستطيع التعامل مع المرأة كشخص متكامل. خاصة لو عرفوا أن المرأة (في معظم الاحيان) تحب الرجل الناضج الواثق من نفسه

وان ضعفت عضلاته الجنسية اكثر مما تحب الرجل غير المتكامل الشخصية مهما بلغت عضلاته الجنسية من قوة وجبروت.

ولعل هذا يفسر لنا تلك الدهشة التي يظهرها الرجال من ذوي العضلات حينما يرون امرأة تحب رجلاً بغير عضلات. إنهم يتهكمون دائماً على مثل هذه الحالات، وهذا التهكم ليس الا مداراة لشعورهم الحقيقي، الا وهو الالم العميق بسبب عجزهم عن اقامة علاقة حب حقيقية، وإدراكهم الدائم لهذا النقص داخلهم. وينطبق هذا الكلام أيضاً على النساء اللائي يشعرن بالنقص وإن حظين بدرجة عالية من الجمال الجسدي أو الجاذبية الجنسية. وقد تكون الواحدة منهن ملكة جمال أو شيئاً من هذا القبيل، والرجال يتزاحمون عليها، ومع ذلك يظل احساسها بالنقص باقياً، وبأنها ليست المرأة الكاملة القادرة على خوض علاقة حب حقيقية واحدة.

لقد لوحظ أن اكثر النساء تزيناً وبهرجة وإظهاراً لجمالهن الجسدي الانثوي هن أكثر النساء احساساً بالنقص، وأن محاولتهن الدائبة للمبالغة في التجمل والتزين ليست الا مداراة أو تعويضاً عن ذلك الاحساس الدفين بالنقص وبأنهن نساء غير كاملات.

وكذلك الرجال، لوحظ أن اكثر الرجال استعراضاً وابرازاً لعضلاتهم الجنسية والذكورية والصفات التي أشيعت عن الذكورة والرجولة من حيث القوة والقسوة وعدم الاكتراث بالنساء، لوحظ أن هؤلاء الرجال هم اكثر الرجال احساساً بالنقص، وان محاولتهم الدائبة للمبالغة في ابراز العضلات واستعراض صفات الرجولة ليست الا مداراة أو تعويضاً عن ذلك الاحساس الدفين بالشك في رجولتهم.

وهناك من الاسباب الكثيرة في مجتمعنا ما يشكك الرجال في رجولتهم والنساء في انوثتهن وما يرسب عقد النقص في نفوس الكثيرين من الشباب والشابات.

ان اجهزة الاعلام وبالذات التليفزيون، وكذلك الصحف والمجلات وبالذات المجلات المصورة، تعرض على الناس كل يوم بغير انقطاع ذلك السيل من الاعلانات التجارية لترويج البضائع ،هذه الاعلانات التي ترتكز اساساً على اجساد النساء العاريات الجميلات الرشيقات الانيقات أو أجساد الرجال ذوي القوة والعضلات والاسنان الناصعة البياض، ينظر الناس العاديون إلى هؤلاء بحسرة، يقارنون أنفسهم بهم، ويشعرون بعد كل مقارنة بتلك المسافة الكبيرة التي تفصل بينهم وبين الجمال، ويتحسرون في أعماقهم، ويخجلون من أجسادهم وتترسب في نفوسهم عقد النقص،

وانهم أقل ذكورة (أو أنوثة) من هؤلاء الرجال أو النساء.

من أجل ترويج البضائع بهذه الاعلانات، من أجل أن تثرى ثراء فاحشاً هذه القلة من أصحاب السلع والصناعات المختلفة يتعذب ملايين الرجال والنساء في أعماقهم بسبب ذلك الاحساس بالنقص وعدم الاكتمال.

وقد اتضح ان عدد الرجال الذين يشعرون بنقص في رجولتهم أو ذكورتهم أكثر من النساء اللائي يشعرن بمثل هذا النقص في انوثتهن. إن الرجل في حاجة دائمة إلى أن يثبت رجولته وذكورته. وإنه في حاجة دائمة إلى ما يؤكد له أنه رجل، وأن رجولته قوية لا تضعف. وهو في حاجة إلى من يجدد له هذا التأكد من حين إلى حين حتى يظل واثقاً من نفسه ورجولته.

قال لي بعض الازواج ان أكثر شيء يؤرقهم ليس هو الخوف من أن يطردوا من عملهم أو يجوعوا أو يتعروا ولكن ما يؤرقهم دائماً هو أن يفقدوا قوتهم الجنسية يوماً ويصبح عضوهم الذكري عاجزاً عن الانتصاب. وسألت أحدهم : وما الذي يخيفك من هذا؟ قال : زوجتي.

قلت : وماذا ستفعل زوجتك؟

قال : سوف تذيع على الناس أنني لم أعد رجلاً.

قلت : لا اظن ذلك. انها أمرأة طيبة ومثلها لا يفعل ذلك.

قال: إذا لم تتكلم فهي على الاقل سوف تشعر بأنني لا أرضيها وقد تبحث عن رجل آخر.

سألته : هل تخاف اكثر من هذا الاحتمال أم من الاحتمال الاول. أعني هل تخاف على سمعتك بين الناس كرجل أم تخاف من ذهاب زوجتك إلى رجل آخر؟

قال : أخاف من الاثنين، لكن ذهاب زوجتي إلى رجل آخر يخيفني اكثر.

سألته : لماذا؟

قال : لانها زوجتي. هل هناك رجل في العالم يقبل أن تذهب زوجته إلى رجل آخر؟!

وقد وجدت من خلال الحديث مع عدد من الازواج أن أغلبهم يتفقون مع رأي الزوج السابق في أن فقدان الانتصاب أو القوة الجنسية هو اكثر ما يؤرق الرجل ويبعث في نفسه الخوف والقلق بالذات حين يتعدى الاربعين أو الخمسين وانه في حاجة دائمة

إلى ما يؤكد له انه مكتمل الرجولة، وأن رجولته أي قوته الجنسية لا تقل ولا تضعف.

والسؤال الذي يجب أن يسأل الآن هو: لماذا يحدث هذا للرجل اكثر مما يحدث للمرأة؟ وقد أجاب بعض العلماء على هذا السؤال اجابات علمية قاصرة منها ان الرجل هو الطرف الايجابي في الجنس وهو الذي يبدأ وهو الذي ينتصب وهو الذي يفعل وعليه يقع عبء الفعل ومسئوليته، أما المرأة فهي الطرف السلبي الذي يستقبل عضو الرجل فقط، وهي لا تفعل شيئاً ولا تنتصب ولا يقع عليها عبء الفعل. لكن هذه الاجابة قاصرة لانه ثبت أن المرأة ليست طرفاً سلبياً في الجنس وانها ايجابية كالرجل، ولا بد أن يحدث لها انتصاب في البظر واثارة كالرجل، وان تصبح عضلاتها الجنسية قادرة على الممارسة الجنسية الكاملة حتى تصل إلى قمة اللذة (الاورجازم) كما يصل الرجل، وأن أي نقصان في كفاءتها الجنسية يسبب لها درجات متفاوته من البرود الجنسي والذي يقابله الضعف الجنسي عند الرجل. اذن يمكن القول انه من الناحية البيولوجية والفسيولوجية (١) فان المرأة كالرجل في حاجة دائمة إلى كفاءة جنسية معينة والا تعرضت للاحساس بالنقص أو البرود الجنسي.

وحينما لم يجد العلماء في علم البيولوجي وعلم الفسيولوجي ما يرد على السؤال السابق اتجهوا إلى علم النفس، وقالوا إن السبب الذي يجعل الرجل اكثر من المرأة تشككاً وقلقاً على رجولته هو أن الطفل الذكر يبذل جهداً اكبر من الطفلة الانثى للانفصال عن أمه لادراكه المبكر انه مختلف عنها. أما الطفلة الانثى فيمكنها ان تظل متحدة بأمها لكونها من جنس واحد. لكن تعلق الطفل الذكر بأمه يقابله تعلق الطفلة الانثى بأبيها، وإذا كان الطفل يبذل جهداً للانفصال عن أمه فان البنت تبذل جهداً كبيراً للانفصال عن أبيها. لكنهم يقولون هنا ان علاقة الام بالابن ليست كعلاقة الاب بالبنت. لماذا؟ لان الام موجودة في البيت طوال النهار أما الاب فهو غائب معظم النهار في العمل ومن هنا قوة الرابطة بين الام والابن اكثر من الاب والبنت.

لكن بقاء الام بالبيت وغياب الاب عن البيت ظاهرة اجتماعية اقتصادية بسبب تقسيم العمل بين الجنسين بنشوء الاسرة الابوية، بدليل أنه في مجتمعات الامومة وفي بعض القبائل حتى اليوم في أفريقيا[٢] وآسيا وامريكا يوجد رجال يعملون داخل البيت

---

(١) انظر: الجزء الثاني من هذا الكتاب (الانثى هي الأصل).

(٢) سبق شرح هذه النقطة في الجزء الثاني من هذا الكتاب (الانثى هي الأصل).

ونساء يعملن خارج البيت، والتصاق الآباء بأطفالهم اكثر من التصاق الام بأولادها.

ويرجع الفرويديون هذه الظاهرة إلى عقدة أوديب وعقدة الاخصاء التي يشعربها الطفل الذكر ولا تشعر بها البنت. وملخصها أن الطفل الذكر يكتشف وجود عضو. ويكتشف اللذة حين يمسكه وهذه هي العادة السرية التي تبعث في نفس الطفل اللذة والخوف معاً: الخوف من عقاب الاهل الذين يحذرون ضد الجنس. وحينما يكتشف الطفل أن أخته لا تملك العضو الذي يملكه يظن أنها قد عوقبت وأخصيت، ويزداد خوفه من أن يخصى مثلها. هذا الخوف يجعله في قلق دائم على عضوه، وعلى وجود هذا العضو وعدم فقدانه، أو عجزه عن الانتصاب.

لكن علماء النفس الجدد فندوا هذه النظرية وقالوا ان البنت ايضاً تكتشف وجود البظر، وأنها تكتشف اللذة حين تمسك أو تداعب هذا العضو، وأن الاطفال البنات يمارسن العادة السرية كالاطفال الذكور. وأن هذه العادة السرية تبعث في نفس البنت اللذة والخوف معاً. بل ان خوفها من العقاب أشد من خوف الولد، لان الكبت والمحظورات من حولها اشد مما حوله.

وهناك من يقول إن اهتمام الرجل بالجنس أشد من اهتمام المرأة، وبالتالي قلقه على الجنس أشد من قلق المرأة، لان طبيعة الرجل الجنسية أعنف من طبيعة المرأة، وان الرجل لا يستطيع ان يمتنع عن الجنس لفترة طويلة كما تستطيع المرأة، وأن الرجل في حاجة إلى اشباع اكثر من المرأة ولهذا السبب فان طبيعة الرجل الجنسية تميل إلى التعدد والتنوع اكثر من المرأة التي هي احادية بطبيعتها، اي انها تكتفي بزوج واحد طوال حياتها، ومن هنا اباحة تعدد الزوجات للرجال اجتماعياً وأخلاقياً ودينياً وتحريم تعدد الازواج للنساء.

على أن هذا التفسير أيضاً ليس له دلائل بيولوجية، فقد أثبت علم البيولوجي في السنوات الاخيرة ان طبيعة المرأة الجنسية ليست اقل منها في الرجل، ربما تزيد عليه وذلك لأسباب ترجع إلى مراحل التطور الجنسي في الحيوانات الثديية إلى أن نتجت انثى الانسان (المرأة) وذكر الانسان الرجل[١].

يتضح من كل ذلك ان علينا أن نبحث عن الاجابة المطلوبة خارج جسم الانسان.

---

(١) انظر: أعمال شيرفي وكينزي وماسترز وجونسون، وقد سبق شرح هذه النقطة في الجزء الثاني من هذا الكتاب (الانثى هي الأصل) .

بمعنى آخر علينا أن نبحث عن الاجابة في المجتمع وفي الاسباب الاجتماعية والتاريخية التي جعلت الرجل اكثر قلقاً على قدرته الجنسية من المرأة.

ان دراسة المجتمع وتاريخ الانسان تدلنا على ان الرجل البدائي حين انتزع من المرأة النسب لينشىء أسرته الابوية التي يعرف فيها أطفاله وينسبهم اليه من أجل أن يورثهم أرضه، لم يكن في إمكان الرجل ان يفعل هذا الا بفرض الزواج الاحادي على المرأة، أي فرض زوج واحد للمرأة (لو تزوجت المرأة رجلين لاستحال على الرجل أن يعرف اطفاله من أطفال الآخر).

لكن فرض زوج واحد على المرأة البدائية كان شديد الصعوبة، لان طبيعية المرأة الجنسية كانت عنيفة، وكانت متعددة (كانت المرأة تتزوج عدداً من الرجال وتنسب اطفالها اليها ولم يكن يعرف الاب) ومن اجل أن ينشىء الرجل اسرته الابوية ومن اجل استمرار بقاء هذه الاسرة الابوية كان لزاماً على الرجل ان يقمع طبيعة المرأة بشتى وسائل القمع الجنسي (حزام العفة الحديدي وغيره من الوسائل). ومن اجل ان ينجح القمع الجنسي كان لا بد أن يصاحبه قمع اقتصادي بحيث يحرم على المرأة العمل والانتاج وقصر وظيفتها في الحياة على الزواج والامومة بغير اجر سوى اعالة زوجها لها. ومن اجل ان ينجح القمع الجنسي والاقتصادي كان لا بد ان يصاحبها قمع فكري وفلسفي وديني وأخلاقي بحيث يحكم بالاعدام (جسدياً أو نفسياً أو اخلاقياً) على المرأة التي تخرج على قوانين الاسرة الابوية الصارمة واهمها قانون الزوج الواحد.

وضع الرجل كل هذه القوانين الصارمة ضد المرأة التي احس منذ البداية انها اقوى منه وانه لا يستطيع ان يحكمها الا بفرض هذه القوانين. ان احساس الرجل القديم بقوة المرأة وخوفه الشديد من هذه القوة هو الذي جعله يفرض عليها كل هذه القيود العنيفة وهذا امر طبيعي فان قوة الشيء هي التي تحدد القوة المطلوبة لاخضاعه وحكمه.

وقد ادرك الرجل وهو يضع قانون الزوج الواحد للمرأة، أن مثل هذا القانون يتعارض مع طبيعة المرأة الجنسية القوية، لكنه تصور انه يستطيع ان يحارب هذه الطبيعة (أو يضعفها على الاقل) من اجل انشاء مؤسسته الاقتصادية الصغيرة القائمة على الملكية والتوريث. كما أنه تصور أيضاً أنه باضعافه لطبيعة المرأة (بكل وسائل القمع السابقة) فسوف يستطيع الزوج الواحد أن يرضي زوجته ويكفيها بحيث لا تفكر في الذهاب إلى رجل آخر.

ومن هنا فرض الرجل على نفسه عبئاً أدرك منذ البداية أنه عبء كبير، لكنه كان مضطراً إلى تحمل هذا العبء (أو التظاهر بأنه قادر على حمله) من أجل نشوء الاسرة الابوية وملكية أطفاله.

ويمكن القول إن الرجل أدرك منذ البداية ضخامة العبء الذي فرضه على نفسه، وأدرك أيضاً عجزه عن القيام بهذا العبء. وبهذا مزق الرجل نفسه بين شيئين متناقضين:

١ ـ انه قادر على القيام بهذا العبء بالضرورة الاقتصادية والاجتماعية.

٢ ـ أنه عاجز عن القيام بهذا العبء بالضرورة البيولوجية والنفسية.

هذا هو الوضع الصعب الذي وضع الرجل نفسه فيه ، والذي يفسر الى حد كبير ذلك القلق الشديد الذي يشعر به الرجال خوفاً من فقدان قوتهم الجنسية ، أو خوفاً من عجزهم عن ارضاء زوجاتهم جنسياً . ان هذا القلق مبعثه الخوف من ان يعجز الرجل منهم عن ارضاء زوجته فتذهب الى رجل آخر . وبرغم ان الأسرة الابوية في العصر الحديث قد فقدت (في كثير من المجتمعات الاشتراكية والطبقات الفقيرة) السبب الأساسي الذي قامت من اجله وهو الملكية والتوريث ، برغم ان كثيراً من الآباء في عصرنا هذا لم يعودوا يملكون شيئاً يورثونه لأطفالهم وان النظام الأبوي بالتالي ، قد فقد أهم ركن فيه ، إلا ان الرجل ما زال متمسكاً بأسرته الأبوية ، مستعذباً سلطته كأب وزوج بعد ان تعود على هذه السلطة التي منحته صفات الذكورة التي يتفاخر بها ، ومنحته ملكية الأطفال والزوجة ومنحته ايضاً الشرف والاسم الذي يعطيه للطفل وإلا أصبح غير شرعي .

وقد ظل النظام الابوي سائداً في حياة البشر آلاف السنين، واستطاع ان يغير الكثير من طبيعة كل من الرجل والمرأة، وأن يعرض على الانسان نوعاً واحداً من الرجال هم الرجال ذوو السلطة والقوة الجنسية والايجابية، ونوعاً واحداً من النساء هن النساء من ذوات صفات معينة هي الطاعة والخضوع والعفة الجنسية (أو البرود الجنسي) والسلبية والتضحية من أجل الزوج والاطفال.

ليس من السهل الآن بعد كل هذه السنوات وبعد أن فقد النظام الابوي في كثير من الحالات أسباب وجوده أن يتحول الرجال والنساء إلى طبيعة الانسان الاولى، وليس من السهل على الحضارة الذكورية أن تعود وتصبح الابوة فيها مجهولة (وهذا أمر لا

مفر منه إذا ما عاد النسب إلا الأم).

أن إصرار الرجل الحديث (الذي لا يملك شيئاً يورثه لاطفاله) على معرفة ابوته ليس له ضرورة اقتصادية وانما له ضرورة نفسية واجتماعية واخلاقية.

لكن علماء التاريخ يقولون ان الضرورة الاقتصادية هي التي تتحكم في مسار تاريخ البشرية، وإن أي ظاهرة أو نظام في حياة البشر يبدأ أولاً لاسباب اقتصادية ثم يدعم نفسه بالاسباب الاخلاقية والدينية والنفسية والاجتماعية[1]. على أنه بزوال السبب الاقتصادي ينهدم الركن الاساسي وسوف يتبعه بفترات متفاوتة زوال الاسباب الاخرى واحداً بعد الأخر.

ان قلق الرجل على قوته الجنسية قلق نفسي واجتماعي وسوف يتخلص منه الرجل حينما يدرك أنه غير مطالب من قبل زوجته أو من قبل مجتمعه ان يثبت دائماً كفاءته أو فحولته الجنسية. وحينما يشعر الرجل أنه غير مطالب دائماً ان يرضي زوجته جنسياً والا انتهزت فرصة ذهابه إلى العمل وذهبت إلى رجل آخر، حينما يغير المجتمع مفهومه عن الرجولة، ويغير معنى كلمة «رجل» فلا تعني الذكورة أو الفحولة الجنسية أو القدرة على إشباع الزوجة جنسياً، حينما يدرك الرجل انه بغير حاجة إلى أن يثبت ابوته البيولوجية وانه يستطيع انسانياً أن يحب اطفال رجال آخرين كما يحب اطفاله، حينما يدرك المجتمع انه حين فرض على البشرية نوعاً واحداً من الرجال (وهو النوع الذي يظهر صفات الذكورة فقط من حيث القوة الجنسية والعدوان والسيطرة) أنه قد سبب القلق والعذاب للاغلبية الساحقة من الرجال الذي يشتملون بالطبيعة على جزئين: الذكري والانثوي معاً، وأنهم من أجل التكيف مع المجتمع يدعون من الصفات ما ليس فيهم ويتظاهرون بقوة ليست عندهم، ويحاربون على الدوام الاجزاء الانسانية والرقيقة فيهم.

وكم يتخلص كثير من الرجال من قلقهم ويستريحون حينما يدركون أنهم غير مطالبين على الاطلاق بأن يكونوا «رجالاً» بمعنى الكلمة، أو أن يتقمصوا هذا النمط الواحد من الرجال الذي فرضوه على أنفسه؟!

والمشكلة الآن ليست فقط تحرير النساء من سلطة الرجال واضطهادهم، ولكن المشكلة أيضاً هي تحرير الرجال من أنفسهم ومن نظامهم الذي فرض عليهم القلق

(١) سبق شرح هذه النقطة في بحث المرأة والجنس من هذا الكتاب.

والعذاب بمثل ما فرض على المرأة التعاسة والحرمان والقهر.

ان هذا الادراك القديم الدفين في نفس الرجل أنه غير قادر على إرضاء المرأة هو أحد الاسباب الذي يصيب كثيراً من الرجال بالاحساس بالنقص، وما يتبعه هذا الاحساس من محاولة لتغطية النقص بقشرة خارجية من التكبر والاستعلاء وادعاء العظمة والقوة. ان عقدة الأحساس بالعظمة هي الوجه الآخر لعقدة الاحساس بالنقص وهما وجهان لعملة واحدة، ولهذا يقول علماء النفس ان الرجل الذي يعاني من عقدة العظمة يعاني في الوقت نفسه من عقدة النقص (مثل الماسوشية والسادية وهما أيضاً وجهان لعملة واحدة). وكلما زادت عقدة النقص زادت عقدة العظمة.

ومن هنا نستطيع أن نفهم حقيقة هؤلاء الرجال الذين ينفشون أوداجهم (كالديوك) الذين ينظرون إلى الناس (وبالذات النساء) شذرا، الذين يبرمون شواربهم ويبرزون عضلاتهم ويدقون الارض غطرسة وكبرياء، الذين يقول الواحد منهم عن نفسه أنه «حمش»، هؤلاء هم اكثر الرجال معاناة من عقدة النقص.

إن نضج الرجل (أو المرأة) مرتبط بقدرة هذا الرجل على التخلص من الاحساس بالنقص، هذا الاحساس الذي يترسب في نفسه كطفل تربى وعاش وسط أسرة أبوية احتلت فيهاالعلاقات الانسانية بين الام والاب من ناحية، وبين الاطفال والاهل من ناحية اخرى.

وإن نضج الرجل (أو المرأة) مرتبط أيضاً بقدرة هذا الرجل على التخلص من الاحساس بالذنب، هذا الاحساس الذي يترسب في نفسه كشخص عاش في أسرة ومجتمع بشري مزق الانسان إلى جزئين متنافرين متناقضين هما الجسد والنفس، والصق تهمة الاثم بالجسد.

إن الرجل الناضج هو الذي لا يفصل بين جسده ونفسه ويحس في أعماقه أنه شيء واحد، وهو ذلك الرجل الذي لا يشعر أنه أقل من ذلك الرجل الوسيم ذي العضلات الذكورية الذي يطل عليه كل يوم من شاشة التلفزيون معلناً عن بضاعة جديدة، أو مؤدياً لدور البطل في فيلم من الافلام. انه الرجل الذي تصالح هو ونفسه وجسده وتآلف هو وجميع أجزائه الذكرية والانثوية فلم يعد يخجله أن يبكي تأثراً، ولم يعد يخيفه أن يفشل عضوه الجنسي في الانتصاب أحياناً، ولم يعد يخفي رقته وحنانه وإنسانيته خوفاً من أن يتهم بأنه ليس رجلاً، أو بأنه امرأة. إنه الرجل الذي وثق في نفسه وتغلب على عقدة النقص والخوف القديم من المرأة واصبح يشعر أنه ليس أقل

منها وأنها ليست أقوى منه وأن الرجل كالمرأة والمرأة كالرجل ولا يمكن الفصل بينهما، ولا يمكن اعتبار احدهما أسمى من الآخر.

إن مجرد تشبيه الرجل بالمرأة (لفظياً) يعد نوعاً من أشد الشتائم والاهانات للرجل ومن هنا ندرك كم يصبح النضج الحقيقي شيئاً متعذراً لكثير من الرجال، وكم يفضل الاغلبية الساحقة من الرجال ان يكونوا كما فرض عليهم المجتمع أن يكونوا بدلاً من أن يكافحوا من أجل ان يكونوا على حقيقتهم.

أن يصبح الرجل نفسه الحقيقية امر بالغ الصعوبة في مجتمعنا وفي معظم مجتمعات العالم، لكن ذلك لا يمنع من أن هناك رجالاً استطاعوا أن يتحدوا المجتمع وأن يفرضوا انفسهم الحقيقية غير عابئين بتقييم المجتمع لذكورتهم أو رجولتهم. إنهم لا شك قلة من الرجال، ولكنها القلة العظيمة ذات العبقرية العلمية والفنية التي استطاعت أن تسهم في تغيير كثير من الظواهر والحقائق الثابتة من حولنا. انها هذه القلة من الرجال الذين لم يعد في أعماقهم الدفينة أي خوف من المرأة، أو أي احساس بالنقص أمامها.

على أنه هناك من الرجال الذين برزوا في الحضارة، ومع ذلك كانوا يعانون من مشاكل في علاقتهم بالمرأة بسبب الخوف منها وعقدة النقص. وليس ذلك لان طاقاتهم الجنسية تحولت إلى فكر وفن وثقافة، وإنما لانهم كانوا أذكياء العقل وذوي مواهب استطاعت الا تنهزم امام المشاكل النفسية والجسدية ولانهم قاوموا نقصهم بارادة حديدية. ومن يدري لو كانت أتيحت لهم فرص أفضل للنضج الجنسي والنفسي ربما كانوا اخرجوا إلى العالم افكاراً وفنوناً اعظم من التي أخرجوها. ومن هؤلاء يذكر التاريخ دافنشي ورفائيل ومايكيل انجلو وبتهوفن وموزار وجوجول وتشيكوف ودوستوفسكي وبودلير وبروست وأفلاطون والمعري وابن الفارض والحلاج والشهراوردي والعقاد وديكارت وسبينوزا وكانت وشوبنهور وهيجل وكير كجارد ونيتشه ورسو وبلزاك وغيرهم.

ان بعض هؤلاء من شدة خوفه من المرأة كان يفضل عليها الاشباع الذاتي (العادة السرية) أو يفضل الرجال أو الاطفال، أو المومسات. بعض الرجال لا يستطيعون ممارسة الجنس الا مع مومس. ان وضع المومس الادنى اجتماعياً واقتصادياً يقلل من خوفه من المرأة فيعالج من عجزه الجنسي. وكثير من الازواج يتسللون من فراش زوجاتهم الجميلات ليذهبن إلى فراش المومس حيث الراحة النفسية وعدم الخوف.

إن الرجل لا يشعر بخوف مع المومس، لان علاقته بها مؤقتة وسريعة، وهو يدفع نظير الممارسة الجنسية ثم يخرج دون أن يتعامل مع هذه المرأة في مختلف نواحي الحياة الاخرى كما يحدث مع زوجته. وهناك ابيات من الشعر اليوناني القديم بتوقيع شاعر اسمه «انتيبانز» كتب يقول مخاطباً المومس التي كان يذهب اليها:

* بستة قروش اشتريك يا «يوريا» يا فتنة اثينا...
* لا اشعر بحرج بين ذراعيك ولا ضيق ولا خوف ...

الفصل الرابع
الاحساس بالذنب

لا يمكن لاي رجل (أو امرأة أن ينكر انه مهما بلغ من إدراك معنى الجنس فلا يزال هناك في أعماقه البعيدة احساس بالذنب يصاحب ممارساته الجنسية أو مجرد التفكير فيها. هذا الاحساس بالذنب ليس الا رواسب الفكرة القديمة بأن الروح طاهرة والجسد آثم مدنس، وهو أيضاً رواسب باقية من الطفولة، حفرت في الذاكرة والعقل منذ سمع الطفل لاول مرة في حياته كلمة «عيب» من أمه أو من أبيه.

ومن المعروف علمياً أن الشعور بالذنب يعوق النموالطبيعي للسلوك الجنسي محولاً الطاقة الجنسية عن مسارها الطبيعي إلى مسار آخر اكثر التواء وتعقيداً.

يمكننا ان نقول اذن أن الانحرافات الجنسية اكثر انتشاراً حينما ينتشر الكبت والتربية المتزمتة والجهل بالجنس. ولهذا انتشرت الانحرافات الجنسية في الماضي عنها في الحاضر، وقد لعب علماء النفس والجنس في القرن الاخير دوراً هاماً (لاسباب اقتصادية اساساً) في تنبيه الاذهان إلى موضوع الجنس وأهميته، وأصبحت تربية الاطفال أقل تزمتاً مما سبق، الا أن الحضارة التي نعيشها لا تزال حضارة ذكورية تمشي على ساق واحدة، ولا زال الفصل قائماً بين الجسم والعقل، وبين الحب والجنس، وبين الرجل والمرأة، وبين الفقير والغني، والابيض والاسود، والسيد والاجير والغربي والشرقي.

ولا زال الجنس ضمن الموضوعات المحاطة بالضباب والخزعبلات والاثم، أو الشعور بالذنب، هذا الشعور الذي يفسد (بدرجات متفاوتة) حياة الناس الجنسية، أو يحول طاقتهم الجنسية الطبيعية إلى نواح اخرى تسمى بالانحرافات. وقد يكون هذا الانحراف أحياناً نوعاً من الهروب من العملية الجنسية الكاملة مع الجنس الآخر والتي

ترسبت في اعماق الشخص على انها نوع من الاثم، وبذلك تصبح الممارسة مع الجنس نفسه او العادة السرية أو استبدال جسد المرأة بملابسها الداخلية وغير ذلك، تصبح هذه الممارسات اقل إثماً في نظر فاعلها من العلاقة الكاملة مع الجنس الآخر.

ان شكل وحجم الاحساس بالذنب في نفس الشخص منا يتحدد حسب موقف ابيه وأمه من الجنس منذ كان طفلاً، وحسب موقف المجتمع الذي يعيش فيه تجاه الجنس.

قليل جداً من الناس من يستطيع ان يتحرر تماماً من هذا الاحساس بالذنب في مجتمع مثل مجتمعنا العربي الذي يقوم على التدين الشديد والعفة والتزمت (نظرياً أو ظاهرياً) والقيم التقليدية التي سادت مئات السنوات والتي نظرت إلى الجنس كاثم وعيب، وفصلت بين النساء والرجال.

ولا أظن ان هناك مجتمعاً في عالمنا البشري تخلص من القيم التقليدية التي تنظر إلى الجنس كاثم وعيب. فالمجتمعات الاوروبية (وإن تحررت جنسياً بعض الشيء لاسباب اقتصادية) الا أنها لا تزال ترزح تحت وطأة النظم الرأسمالية الاستغلالية ولا يزال عالقاً بها بقايا المبادىء المسيحية المتزمتة التي مجدت الرهبنة والعذرية والامتناع عن الجنس، ولا تزال تخضع للنظام الابوي الذي يعطي الرجال جميع الحقوق في البيت والمجتمع وفي الدنيا والآخرة ولا يعطي النساء الا الخضوع والطاعة واحياناً بعض الحريات الظاهرية السطحية التي لا تزيد من انسانية المرأة بقدر ما تنقصها وتجعلها أداة جنس مربحة تجارياً أو متعة فراغ ولهو.

على أنه هناك حقيقة لا يمكن اغفالها، وهي أن معظم الناس تؤمن نظرياً بمبادىء معينة لكنها عند الممارسة الفعلية تمارس شيئاً آخر قد يكون مناقضاً تماماً للمبادىء النظرية التي تؤمن بها. وينطبق هذا الكلام على النشاط الجنسي اكثر مما ينطبق على أي نشاط آخر. وقد خرج كينزي وزملاؤه من بحثهم الجنسي المعروف الذي أجري في المجتمع الامريكي على أن ٩٥٪ من الرجال الامريكيين يقعون تحت طائلة القانون بسبب ممارساتهم الجنسية غير القانونية. وقال أحد العلماء الباحثين في علم الانسان إن المبادىء الدينية والاخلاقية التي تحرم جميع الممارسات الجنسية (فيما عدا ما كان منها داخل مؤسسة الزواج) لا يمكن أن تسري الا في ٥٪ من مجموع العدد الكلي للبشرية.

ان الفكرة التي قالت بان الامتناع عن ممارسة الجنس نوع من السمو الانساني والاخلاقي لم تعد فكرة مقبولة علمياً او خلقياً لانه ثبت ان الانسان الذي لا يعيش علاقة جنسية سوية ومستقرة ومشبعة يصبح عاجزاً عن تبادل الحب أو الصداقة الحقيقية مع الآخرين. بمعنى آخر يصبح عاجزاً عن ان يكون أنساناً.

ومع ذلك هناك كثير من الناس لا زالت كلمة «الجنس» عندهم مرادفة لكلمة «الاثم» ما زال في مجتمعنا كثير من الآباء والامهات ممن يصمتون حين يفاجئهم الطفل بسؤال عن الجنس، أو يردون ردوداً مبهمة أو مضللة أحياناً، وبالذات إذا جاء سؤال الطفل أمام عدد من افراد الاسرة أو الغرباء. بعض الناس يعترفون بأهمية الجنس سراً أو مع شخص يثقون فيه لكنهم ينكرون ذلك علناً أمام الآخرين، سبب هذا الانكار انهم خائفون من إبداء رأيهم الذي يتعارض مع الرأي الجماعي العام المنحيز ضد الجنس، وهذا الرأي الجماعي أيضاً من ضمن الاسباب التي تساهم في خلق الاحساس بالذنب وما يعقبه من انحرافات جنسية.

احدى صفات الانسان انه ولد ضعيفاً عاجزاً في حاجة إلى حماية أهله ورعايتهم لعدة سنوات حتى يستطيع أن يمشي على قدميه، ويطعم نفسه. خلال هذه الفترة التي يحتاج فيها الطفل إلى أهله (والتي قد تطول وقد تقصر باختلاف الطبقات والمجتمعات) يصبح الطفل بسبب هذه الحاجة الملحة اليهم عاجزاً عن مخالفتهم، لانه بذلك يعرض نفسه للحرمان من رعايتهم. هذا الخوف من فقدان رعاية الاهل هو الذي يفرض على الطفل الطاعة، وكبت رغباته الحقيقية، وتبني رغبات أهله. إن تجربته أيضاً تعلمه أن تبني رغبات أهله يجلب له الثناء ومزيداً من الرعاية والحب وأن العصيان يجلب له التأنيب واللوم.

ويقبل الطفل قيم أهله بغير مناقشة ويهضمها منذ سنوات عمره الاولى : ما هو إثم في نظرهم يصبح اثماً في نظره، وما هو خير عندهم يصبح خيراً عنده.

ان التمرد على قيم الاهل لا يحدث الا بعد ان يكبر الطفل ويصبح قادراً على ادراك أن قيم أهله وأفكارهم ليست هي القيم والافكار الوحيدة في الحياة، وأن هناك قيماً وأفكاراً أخرى. حينئذ يبدأ ..يه الاحساس بالذنب، إذ أنه يكتشف أنه يشعر في أعماقه برغبات أدرجها (حسب مقاييس أهله) تحت قائمة العيب والممنوع والحرام والشر والخطأ. مثل هذا الشعور يفقده الامان الذي كان عليه، ويضعف ثقته بنفسه بالرغم من أنه قد يكون في ذلك الوقت قد انفصل عن أهله ولم يعد بحاجة اليهم

ولم يعد يخاف منهم، ولم يعد معرضاً لرضائهم أو غضبهم.

وهناك من الاسباب التي تجعل الاحساس بالذنب يصاحب الممارسة الجنسية اكثر من اي ممارسة أخرى، والسبب الاول كما ذكرت سابقاً هو موقف المجتمع المعادي للجنس. هذا الموقف يؤثر على أي فرد في المجتمع مهما تصور هذا الفرد أنه لا يأبه بالمجتمع. إن ضغط المجتمع على الفرد الواحد يشبه الضغط الجوي، قد يحسه الفرد وقد لا يحسه، ولكنه موجود دائماً وله آثاره التي تكثر وتقل حسب قوة شخصية الفرد ونضجها وحسب نوع المجتمع.

والسبب الثاني هو ان الآباء والامهات بالرغم من أن كثيراً منهم في السنين الاخيرة قد غيروا موقفهم من الجنس (حتى لا يرسبوا في نفوس أطفالهم الاحساس بالخوف أو الاثم) الا انه من النادر جداً أن يشير أب أو أم إلى الجنس بكلمة طيبة فيها شيء من الثناء أو القبول. لقد أصبح عدد كبير من الآباء والامهات يمتنعون عن التأنيب أو العقاب القديم، لكن موقفهم من الجنس ما زال موقفاً سلبياً، بحيث أنهم لا يرفضون ولا يقبلون، وهذا الصمت في حد ذاته اشارة إلى أن الجنس ما زال شيئاً شائكاً. على أن اغلب الآباء والامهات لا زالوا حتى اليوم يفزعون حين يرون طفلهم يداعب اعضاءة الجنسية؛ وقد لا يتلقى الطفل صفعة على يده أو وجهه كما كان يحدث قديماً لكن النظرة المستاءة من الام أو النصيحة من الاب بأن مداعبة الدمية أو اللعبة أفضل من مداعبة جسده تجعل الطفل يدرك أنّ الجنس شيء غير مباح أو غير لائق.

وهنـاك كثير من الاطفـال يربطون بين الجنس والقذارة (وبالذات في الطبقات المستريحة اقتصادياً) بسبب مبالغة الاهل في تنظيف الطفل وصرامتهم في تدريبه على التبول والتبرز بحيث لا يلوث نفسه، مرسبين في نفسه احساساً بأن افرازات جسده قذارة. ولان الاعضاء الجنسية ملاصقة وقريبة من فتحات الشرج والبول، ولهذا يربط الطفل بين هذه القذارة والجنس، ويصبح الجنس في نظره شيئاً ملوثاً، باعثاً على الغثيان.

ان الآباء والامهات المتحررين يستطيعون ان يخففوا من وطأة الاحساس بالذنب عند أطفالهم، لكنهم لا يستطيعون بحال أن يخلصوا أطفالهم تماماً من هذا الشعور بالاثم. ذلك ان الطفل منذ طفولته يشعر برغبة جنسية، تتجه بالطبيعة نحو الاشخاص الذين يعيشون معه في البيت (الاب والام والاخوات) لكنه يكبت هذه الرغبة ويجعلها

سرا بينه وبين نفسه مع احساس كبير أو صغير بالذنب حسب علاقته بأهله ودرجة نموه النفسي والجنسي.

لا يستطيع الطفل أن يتمرد على أهله خاصة إذا كانوا من النوع المتحرر المحب، وليسوا من النوع المسيطر، فالانسان عادة يستطيع ان يتمرد على السلطة اكثر مما يستطيع أن يتمرد على الحب.

إن الاطفال الذين يكبرون حاملين معهم عبء إحساس بالذنب ثقيلاً هم في أغلب الاحيان هؤلاء الاطفال الذين عجزوا عن التمرد على آبائهم أو أمهاتهم بسبب الحب اكثر من اي سبب آخر، ولانهم عجزوا عن التفرقة بين أنفسهم وبين آبائهم أو أمهاتهم، الذين كانوا محبين ومتحررين، لكنهم كانوا من هذا النوع من الآباء أو الامهات الذين يوثقون علاقتهم العاطفية بأطفالهم إلى حد أن يعجز الطفل عن الخروج عليهم.

لا يستطيع الطفل أن يدرك الاسباب الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي جعلت المجتمع يحرم الاتصال الجنسي بين الام وابنها أو بين الاب وابنته، لكن الطفل يشعر بهذه الرغبات، وقد تظل معه هذه الرغبات فترة طويلة حتى بعد أن يكبر. هناك رجال يظلون عاجزين عن الزواج بسبب تعلقهم الشديد بأمهاتهم، وهناك أيضاً البنت التي ترفض الزواج لتبقى مع ابيها الذي تحبه، واحياناً يفشل هؤلاء في حياتهم الزوجية بسبب ذلك الحب والتعلق الشديد بالام او بالاب.

ولان المجتمع يحرم على الطفل الاتصال باحد افراد الاسرة فانه يبحث خارج الاسرة عن وسيلة لاشباع رغبته. ويمكن القول ان الجنس هوالذي يفرق بين الطفل وأسرته، ولهذا يصاحب الجنس احساس بالذنب.

إذا أدرك الآباء والامهات هذه الحقيقة فان واجبهم يستدعي منهم الا يتدخلوا أو يتطفلوا على حياة أولادهم أو بناتهم الجنسية. إن من المهم للاولاد والبنات ان تكون لهم حياتهم الخاصة إذا ما كنا نريد لهم أن يكونوا اشخاصاً مستقلين. ولا شك أن نمو الرغبات الجنسية هو الذي يشكل النواة التي تساعد على استقلال الابن أو الابنة. وهناك رأي يقول إن قليلاً من الاحساس بالذنب ليس ضاراً بالمراهق (أو المراهقة) لانه يشجعه على البحث عن رفاق من عمره يفهمونه ويتقبلون رغباته الجنسية اكثر مما

يتقبلها اهله. ولكن الافضل ان يحدث هذا بسبب نمو المراهق جنسياً ونفسياً وليس بسبب الاحساس بالذنب.

ومن المفروض ان الاحساس بالذنب لا بد وان يتلاشى بعد أن يكبر الانسان ويصبح قادراً على إقامة علاقة مستقرة ومشبعة مع الجنس الآخر. لكن هذا لا يحدث في كثير من الاحيان. فالحب الذي يمارسه الرجال مع النساء ليس حباً كاملاً في معظم الاحيان، ومن النادر أن يحدث ذلك الحب الناضج الذي يتحد فيه الرجل والمرأة اتحاداً جسدياً ونفسياً، ومن أهم الاسباب التي تجهض الحب وتجعله ناقصاً (إما حباً جسدياً صرفاً أو روحياً صرفاً) هو ذلك الاحساس بالذنب الناتج عن التعلق بالاب او الام.

كلما كان الطفل متعلقاً بأمه كلما عجز عن الانفصال عنها، . وحتى إذا انفصل عنها فانه يحاول أن يجد بين الآخرين بديلاً لها. إنه يبحث عن أمه بين النساء الأخريات، ويتزوجها، ويشعر في علاقته الجنسية مع زوجته بنوع من الذنب يشبه الاحساس بالذنب الذي شعر به (وهو طفل) نحو امه، وهذا هو السبب في أن كثيراً من الرجال لا يشعرون باشباع جنسي حقيقي مع زوجاتهم ولا يجدون هذا الاشباع الا مع نساء غير زوجاتهم كالعشيقات او المومسات. ومن هنا يقسم الرجال النساء إلى قسمين: نساء عفيفات محصنات طاهرات هن الزوجات والحبيبات (أو بديلات الام)، ونساء ساقطات قادرات على منحهم المتعة الجنسية. يميل الرجال إلى الفصل بين الحب «الطاهر» والجنسي «الملوث» بسبب ذلك الاحساس بالذنب الذي ترسب في طفولتهم إزاء شعورهم الجنسي نحو امهاتهم، وكبتهم هذا الشعور في عقلهم الباطن.

ويقول العلماء ان الطفل حينما يرفض أن ينظر إلى أمه كمخلوق جنسي فانه يخلق فكرة امكان وجود «المرأة بغير جنس» والتي يسقطها على كل امرأة تذكره بامه أو كل أمرأة يحاول أن تعوضه عن علاقته العاطفية بأمه.

قال لي أحد الازواج إنه ظل عاجزاً عن الاتصال الجنسي بعروسه شهر العسل كله مع أنه كان يمارس الجنس بكفاءة مع عشيقته القديمة، وقد نجح في الاتصال بعد أن كسر قدسيتها في عينه وذلك بأن جعلها ترتدي قميص نوم متهتك جعلها أشبه بعشيقته منها بأمه. وزوج آخر قال لي إنه اكتشف بعد الزواج ان زوجته لها صوت مثل صوت أمه وأنه بمقدار ما كان يحب هذا الصوت فقد اصبح يكرهه لانه يسبب له نوعاً من الضعف الجنسي الذي يصل احياناً إلى العجز الكامل.

وقال لي شاب تزوج فتاة عن حب شديد أنه ظل شهرين كاملين عاجزاً عن الاتصال بها، لانها كانت تبدو امامه كالملاك الطاهر، وكلما كان يحاول لمسها يتراجع مستغفراً الله كأنه مقبل على إثم كبير. وقال لي معبراً عن شعوره في ذلك الوقت: كانت تبدو في عيني ملاكاً طاهراً إلى حد انني تصورت ان ابليس نفسه لا يستطيع أن يلمسها.

وقد وجدت أن معظم الازواج يعانون بدرجات متفاوتة من هذه المشكلة (حسب درجة تعلقهم بالأم) وان الرجل مهما بلغ من النضج النفسي والعاطفي والجنسي فان علاقته الجنسية بزوجته يظل يشوبها شيء ما يحول بينه وبين الاشباع الجنسي الكامل الخالي من أي احساس بالذنب.

والـزوجـة هنـا أيضـاً تلعب دوراً لا يمكن إغفاله. ان معظم الزوجات يحاولن (للاسباب السابقة ولاخطاء التربية والكبت) ان يدعين العفة والملائكية والقداسة في نظر أزواجهن، وبهذا يساعدن على تعميق الاحساس بالذنب في نفوس رجالهن.

وعلى هذا قلما تخلو علاقة زوجية جنسية من الاحساس بالذنب اللهم الا في القليل النادر حين يلتقي بالصدفة رجل ناضج مستقل بامرأة ناضجة مستقلة. فينشأ بينهما حب حقيقي ناضج يتحد فيه الجسد والعقل اتحاداً خالصاً بغير احساس بالاثم. وهذا أمر نادر جداً بسبب المحظورات والمحرمات المنتشرة في جميع المجتمعات وبسبب تراث البشرية الطويل المتحيز ضد الجنس والمرأة.

أن اكثـر الـرجـال ميلاً لفصل الحب عن الجنس هم هؤلاء الذين عجزوا عن الانفصال العاطفي عن امهاتهم وهؤلاء يعيشون فيما يسمى «بالخيالات الجنسية». انهم في الحقيقة عاجزون عن اقامة علاقة حب مع امرأة حقيقية ولذلك هم يحلقون في الخيال صانعين لانفسهم امرأة تتناسب مع احلامهم الجنسية.

ان الوقوع في الحب كما يقولون ينتج حينما يلتقي الرجل بامرأة حقيقية تقترب على نحو ما من المرأة التي صنعها في خياله . وقد اتضح ان صورة الام تحتل جزءاً كبيراً من خيال الرجل الذي احب امه وارتبط بها فترة طويلة . ومن هنا أهمية انفصال الابن مبكراً عن امه ليعيش الحياة الحقيقية مع الجنس الآخر وليتحرر خياله من صورة أمه ويصبح خياله ناضجاً أيضاً ومستقلاً. ولهذا يجب ان تنشغل المرأة بأعمال خارج البيت في المجتمع وألا تتفرغ ابداً للبيت والأمومة ، الى ان ينفصل عنها الابن بسهولة .

ان الاحساس بالذنب المصاحب للممارسة الجنسية يعني ان الانسان يرفض هذه

الممارسة ولا يحبذها، ولهذا فان استمرار وجود الاحساس بالذنب لدى اي شخص تعني ان طاقته الجنسية لا تعبر عن نفسها بشكل صادق كامل أو أنها تنحرف عن مسارها الطبيعي. والعلاج في هذه الحالات هو أن يدرك الانسان الاسباب الحقيقية التي ولدت لديه الاحساس بالذنب، ويمكنه على هذا النحو التخلص من هذا الاحساس وقبول الممارسة الجنسية على نحو طبيعي.

ولعل الآباء والامهات يدركون الآن ان الحب الذي يعطى للطفل كالدواء له جرعة معينة ان زادت قد تمرض الطفل وقد تقتله وكم من أمهات يقتلن أطفالهن بذلك التعلق والحب الشديد. وهذه ظاهرة منتشرة في اسر الطبقات المستريحة اقتصادياً حيث تكون الامهات عاطلات بغير عمل داخل البيت أو خارجه (الخدم يقومون باعمال البيت، والتقاليد أو عدم اكمال التعليم يمنعها من العمل خارج البيت) هؤلاء الامهات العاطلات لا يجدن أمامهن من عمل سوى الالتصاق الشديد بأطفالهن والعناية الشديدة بهم، متصورات أن هذا الحب وهذه العناية هي قمة الامومة المثالية المؤدية لواجباتها كاملاً، غير مدركات أنهن يفسدن حياة اطفالهن في المستقبل، وأنهن ايضاً يملأن الفراغ الضخم داخلهن، والذي كان يجب ان يملأ بعمل خلاق منتج في المجتمع الكبير.

نفهم بعد هذا أن حياة الاطفال والرجال النفسية والعاطفية والجنسية تفسد وتشوه بسبب فراغ الامهات في البيوت، وبسبب تضخيم المجتمع الذكوري وتمجيده الشديد لدور الأم وعلاقتها بأطفالها، وجعل تربية الاطفال وحبهم مهمة الام الاساسية والوحيدة (لتظل في البيت) واختفاء دور الاب في تربية الاطفال وحبهم. وقدنشأ هذا الوضع بسبب القيم القديمة التي ارتكزت عليها الحضارة التي نعيشها والتي تشكل الاسرة الابوية نواتها الاساسية وما تبع ذلك من تقسيم العمل بين الرجال والنساء.

ولعل هذا هو السبب في أن بعض العلماء أصبحوا يصفون هذه الحضارة بأنها عرجاء، أو انها تمشي على ساق واحدة، لأنها أحدثت خللاً في التوازن بين العلاقات الانسانية جميعاً، في الحب والجنس والصداقة والعمل والسياسة والفن. وقد تصور الرجل خطأ ان سعادة اسرته الابوية واستمرارها انما يرتكز على قهر النساء نفسياً وجنسياً واقتصادياً ليصبح الرجل هو المسيطر والحاكم والمرأة هي الخاضعة المحكومة. وقد نجح الرجل في قهر المرأة وتشويه حياتها النفسية والجنسية والفكرية. لكنه لم يدرك انه بمثل ما شوه حياة النساء فقد شوه حياة الرجال أيضاً النفسية والجنسية والفكرية،

وانه لم يفقد السعادة داخل اسرته الابوية فحسب، ولكنه سبب التعاسة في المجتمع البشري كله الذي أصبح قائماً على قهر الكبير للصغير، والقوي للضعيف، والغني للفقير، والسيد للاجير وأصبحت العلاقة بين الافراد وبين الدول قائمة على التنافس والاستغلال والحرب والقتل والعنف الذي هو أهم السمات البارزة في هذه الحضارة.

لقد بدأ العلماء الناضجون (من الرجال والنساء) ينبهون إلى المضار النفسية والفكرية والاجتماعية التي نتجت عن تقسيم العمل حسب كون الشخص ذكراً أو أنثى. واصبح معروفاً الآن أن وظيفة النساء في الحياة لا يمكن ان تكون الزواج والامومة فقط، وأن قصر وظيفة الزواج والامومة على المرأة احدث خللاً في علاقة الام باطفالها، وفي علاقة الاب بالام، وفي جميع العلاقات الانسانية داخل الاسرة وفي المجتمع الكبير..

وقد خرجت في السنين الاخيرة اعداد كبيرة من النساء إلى العمل خارج البيت والمساهمة في الانتاج والخلق الفكري، ونحن نتوقع أن يتلاشى بالتدريج في نفوس الصغار والكبار الأثار النفسية والانحرافات التي نتجت عن العلاقة الوثيقة بين الاطفال الذكور وامهاتهم المتفرغات للامومة فحسب.

وقد اوضحت البحوث النفسية الحديثة[1] أن اطفال الامهات العاملات (خارج البيت) اكثر استقلالاً وأسرع نمواً من الناحية النفسية.والجنسية والاجتماعية من أطفال الامهات المتفرغات بالبيوت.

---

(١) انظر الجزء الأول والثاني من المرأة والجنس في هذا الكتاب.

الفصل الخامس

الرجل والسادية

أشيع عن أن الرجل يميل إلى «السادية» في الجنس، وأن المرأة تميل إلى «الماسوشية». «والسادية» اصطلاح عرف في علم النفس على أنه نوع من الانحراف الجنسي بسبب أن اللذة الجنسية لا تحدث الا بعد احداث الم بالشخص الآخر. «والماسوشية» هي أن تحدث اللذة بعد استقبال الالم الذي يحدثه الشخص الآخر. وقد اتجه علم النفس اخيراً إلى ضم الاصطلاحين في كلمة واحدة هي «السادوماسوشية» حيث لوحظ ان الشخص الذي يجد لذة في احداث الالم يجد لذة بالمثل في استقبال الالم، وان الانسان «السادي» يصبح «ماسوشيا» ايضاً والعكس صحيح.

وقد يتغلب العنصر السادي داخل الشخص احياناً اكثر من العنصر الماسوشي (أو العكس)، على أنه وجد أن الذي يظهر ميولاً سادية يشعر أيضاً بميول ماسوشية.

وقد جاءت كلمة «السادية» من اسم الماركيز «دي ساد» الذي عرف بالتاريخ بميله الشديد إلى العدوان والسيطرة واحداث الالم بالآخرين. أما كلمة «الماسوشية» فقد جاءت من اسم رجل آخر هو «ساشر» «ماسوش» الذي عرف بميله إلى استقبال الالم والخضوع للاخرين. لكن الذين درسوا شخصية هذين الرجلين وجدوا أن الماركيز «دي ساد» كان يجد لذة في أن تضربه المرأة احياناً، وأن «ساشر» «ماسوش» كان يتحول في بعض الاحيان إلى رجل عدواني شديد القسوة.

وقد خلف هذان الرجلان من بعدهما كتابات كثيرة عرف منها الناس عنهما انحرافات جنسية أخرى، منها أن الماركيز «دي ساد» كان يجد لذة في الاتصال الجنسي بالحيوانات، وأن «ساشر ماسوش» كان يثيره فراء المرأة اكثر من المرأة ذاتها.

وجد «كينزي» وزملاؤه في بحثهم المعروف أن افلام الجنس وغيرها من التجارة الجنسية المتفشية في المجتمع الامريكي (حيث عمل البحث) تقوم اكثر ما تقوم على العنف واثارة الناس جنسياً عن هذا الطريق، ولذلك انتشرت السادية والماسوشية عند معظم الناس، وأصبح من النادر أن يتحرر منها رجل أو امرأة. وينطبق هذا الكلام على معظم المجتمعات المتشبهة والمتأثرة بالمجتمع الامريكي والاوروبي. ولا شك ان مجتمعنا العربي احد هذه المجتمعات. والافلام الامريكية الجنسية ترد الينا بسرعة الصاروخ، ويشاهد الرجال والنساء والاطفال حلقات التليفزيون القائمة على الجنس والجريمة أو الجريمة الجنسية، أو الجنس المجرم، وكلها الوان من العنف والبطش والالم والايلام التي تشعل خيال الرجال والنساء والاطفال بالصور السادية والماسوشية للجنس.

وعلى هذا يمكنني أن اقول اننا جميعاً قد أصبنا بدرجات متفاوتة من السادية والماسوشية هذا بالاضافة إلى العوامل التاريخية والاجتماعية والنفسية التي ورثناها من أجدادنا القدامى والتي جعلت الاغتصاب الجنسي مبعثاً للذة عند كثير من الرجال والنساء.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الاغتصاب الجسدي للمرأة كان مصاحباً للاغتصاب الاجتماعي والاقتصادي والاخلاقي الذي أوقعه الرجل بالمرأة. ان الذي يدرس قانون الزواج في معظم انحاء عالمنا يدرك أن عقد الزواج هو عقد اقتصادي وجنسي في وقت واحد قائم على اغتصاب الرجل لحقوق المرأة الجنسية والاقتصادية معاً.

ولم يكن لهذه الحضارة الذكورية أن تقوم وتستمر وتزدهر لولا عقد الاغتصاب هذا. وقد بنى الرجل اغتصابه على فكرة من دعامتين:

١ ـ الاقوى هو المالك.
٢ ـ الرجل هو المالك.

ولم يكن في وسع الرجل ان يحافظ على وضعه من حيث القوة ومن حيث الملكية الا بالعنف والعدوان. ولم يكن للاسرة الابوية ان تستمر وتزدهر الا بالعنف والعدوان. ولم يكن للحضارة ان تستمر وتزدهر بغير العنف والعدوان والا فكيف يحكم الرجال النساء، وكيف تحكم الاقلية (التي تملك) الاكثرية التي لا تملك؟!

ان العنف هو السلاح الوحيد لمن لا يملك قوة الاقناع العقلي. ولا يمكن لاي عقل ان يقتنع أن الزوج (وان كان أغبى الاغبياء) هو الوصي على زوجته (وان كانت أذكى الاذكياء).

العنف أو العدوان اذن ليس الا احد الظواهر التي ولدتها هذه الحضارة القائمة على دعامتين غير انسانيتين. العنف هو وسيلة غير انسانية للحكم والاخضاع، لكنه الوسيلة الممكنة في مجتمع قائم على الاستغلال واغتصاب الحق من صاحبه.

والاغتصاب قد يكون اقتصادياً حينما اغتصب الاقطاعيون والرأسماليون جهود الطبقات الادنى والعبيد. وقد يكون الاغتصاب اقتصادياً وجسدياً كما حدث حين امتلك الرجل جسد المرأة بقانون الزواج وحين حرم عليها العمل والاستقلال الاقتصادي.

وقد لوحظ ان الرجل يميل إلى العنف والسادية مع من هم أقل منه درجة أو طبقة، ولكنه يعامل من أعلى منه برقة وأدب. فالرجل يرفع صوته على مرؤوسه أو خادمه لكنه يخفض صوته حين يتكلم مع رئيسه. والرجل قد يصفع زوجته في لحظة غضب لكنه لا يستطيع ان يصفع زميلته في العمل أو رئيسته إذا كانت امرأة.

وتتغير معاملة الرجل للمرأة جنسياً حسب وضع هذه المرأة في المجتمع. ولا شك ان وضع المومس الاجتماعي اقل من وضع الزوجة ولذلك يمارس الرجل ساديته أو ماسوشيته مع المومس بحرية اكثر مما يمارسها مع زوجته.

لقد قابلت عدداً من المومسات في سجن القناطر (المتهمات بالدعارة) ودرست حياة بعض منهنّ دراسة مستفيضة. قالت لي احداهن إن أحد الرجل كان يحمل معه في كل زيارة لها سوطاً (كرباج) لتضربه به ضرباً مبرحاً قبل أن يصيب عضوه الجنسي شيئاً من الانتصاب. وقد صرح لها هذا الرجل انه لا يستطيع ان يطلب من زوجته ان تضربه والا استغلت فيه هذه الناحية وأصبحت هي المسيطرة وليس هو، وانه لا يستطيع ان يحقق رغبته الجنسية الماسوشية هذه الا مع المومسات. وامرأة اخرى قالت إن بعض الرجال كانوا يضربونها قبل الاتصال بها، وأن هؤلاء الرجال كانوا يتحرجون من ضرب زوجاتهم إما لان الزوجة من طبقة أعلى منه ويخشى أهلها، واما لانه رجل مثقف ولا يريد أن يهبط من نظر زوجته.

على أننا نعرف أنه ما زال عندنا كثير من الازواج الذين يضربون زوجاتهم، والذين يتوقون إلى أن تضربهم الزوجات بالمثل لكن الواحد منهم يكبت هذه الرغبة خشية

أن يقول عنه الناس: إنه زوج تضربه زوجته، والافضل له أن يشاع عنه العكس. وهو في النهاية يستطيع أن يذهب إلى مومس ويدفع لها من ماله نظير أن تضربه.

لا شك أن نضج شخصية الرجل (من حيث الثقة بالنفس واتحاد الجسد بالنفس والتخلص من عقدة الذنب) تحرر الرجل من بقايا السادية والماسوشية التي ورثها من الظروف التي احاطت به في الاسرة والمجتمع. على أن هناك بعض علماء الجنس الذين يقولون إن جذور المشاعر الانسانية مترابطة، وإن مشاعر اللذة ليست بعيدة عن مشاعر الالم بهذا القدر الذي يتصوره الناس. وقد وجد هؤلاء العلماء واحدهم كينزي ان سلوك الانسان الذي يشعر بقمة اللذة الجنسية يشبه إلى حد كبير سلوك الانسان الذي يعاني قمة الالم. وقد كتب كينزي يقول: «ان الشخص (رجلاً كان أو أمرأة) الذي يشعر بقمة اللذة الجنسية يحرك جسده بعنف، تنقبض عضلاته بقوة مستمرة شديدة، فيصبح ظهره مقوساً، وتلتوي رأسه وعنقه، وتندفع ذراعاه وساقاه إلى الخارج، يتمتم بكلمات، يئن، يتوجع، أو يصرخ على نحو يشبه حالة شخص يعاني من قمة الالم والعذاب».

وقد حاول بعض العلماء، منهم فرويد، دراسة حياة الاطفال النفسية والجنسية من اجل تفسير ظاهرة السادية. لاحظ فرويد مثلاً ان الطفل الذي يشهد العملية الجنسية بين ابيه وأمه كان يميل إلى الاعتقاد بأنها اعتداء من الرجل على المرأة. ان مثل هذا التلاحم العنيف بين جسدين يرتبط في عقل الطفل بالعدوان والايلام لانه كطفل لم يعرف من خبرته القليلة في الحياة هذا النوع من التلاحم الجسدي، وكل ما يعرفه أن الاجسام حين تتلاحم بهذة القوة العنيفة فانها لا تسبب الا الالم. ولا شك ان العملية الجنسية في حياة الانسان هي الحالة الوحيدة التي يتلاحم فيها الجسدان بعنف وقوة دون أن يؤلم احدهما الآخر. ومن عادة الانسان أن يفسر غير المألوف بما هو مألوف. ان بعض الاطفال الذين يكتشفون أن ضرب زملائهم أو ربطهم بالحبال مثلاً يسبب لهم اثارة جنسية يستبدلون بهذه العملية المألوفة عملية اخرى غير مألوفة.

ان مثل هذه النزعات السادية مثل الضرب او الربط بالحبال أو احداث الالم تستمر لاصقة بهؤلاء الاطفال الذين يعجزون (بسبب الاحساس بالذنب وعقدة النقص وغيرهما) ان ينضجوا وأن يكتسبوا القدرة على الحب الناضج المتبادل، وعلى هذا يستمرون بأحاسيسهم الطفولية الاولى ويبقى الضرب أو فكرة الايلام ماثلة في أذهانهم

تحمل شحنة اللذة نفسها التي يشعر بها الشخص الناضج من علاقة الجنس الطبيعية بغير ايلام أو ايذاء.

وقد لوحظ أيضاً أن بعض الرجال من ذوي الميول السادوماسوشية يحاولون عن طريق الايلام الوصول إلى لذة عنيفة لها صورة معينة في خيالهم لا يصلون اليها من خلال علاقة حب بغير ايلام. ان علاقة الحب لدى هؤلاء أرق وأسمى أن تهزم جنسياً. ولذلك كثيراً ما نلاحظ التناقض الذي يعيش فيه الرجل من هؤلاء. إنه قد يكون اكثر من غيره حرصاً على عدم ايلام زوجته أو حبيبته، ويدفعه هذا الحرص إلى أن يكون أقل ايجابية في الجنس من الرجل الطبيعي، لكنه يحاول عن طريق خيالاته السادية الماسوشية أو علاقته السادية الماسوشية بالمومسات أن يعوض عن هذا الحرمان الذي يعيشه في ظل الزواج أو الحب.

وبهذا نعود إلى الاسباب التي تجعل الرجل يفصل بين الحب والجنس، وبين الجسد والنفس، والاسباب التي ترسب عنده الاحساس بالذنب وعقد النقص، وهي أسباب معظمها اجتماعية وتاريخية.

ان معظم الناس رجالاً ونساء يشعرون من حين إلى حين برغبات سادية ماسوشية، ولا يمكن أن يدعي أي زوجين انهما لم يمارسا معاً أي لعبة من تلك اللعب السادية الماسوشية، كأن يشد الرجل شعر المرأة، أو يتظاهر بأنه سيضغط عليها حتى الموت، وهذه المرأة التي تدعي أنها تتألم، أو ان قبضة الرجل قد هشمت عظامها إلى غير ذلك من اللعب التي يتفنن فيها الازواج والزوجات كتمهيد للعملية الجنسية أو كوسيلة لرفع درجة الاثارة أو الرغبة.

على أن هذه المداعبات والملاعبات الجنسية وإن كانت تدرج تحت السادية والماسوشية الا أنها بعيدة كل البعد عن أفعال المركيز دي ساد وأمثاله القساة الذين يضربون ويسفكون الدم، أو «ساشر ماسوش» وامثاله الذين عشقوا الذل والمهانة ولسع الكرباج.

ويمكن القول إن نضج الشخصية يحرر الانسان من الرغبات السادية الماسوشية، كلما زاد النضج ضعفت هذه الرغبات أو تلاشت. والنضج هو قدرة الرجل (أو المرأة) على الحب بمعناه الحقيقي من حيث التبادل القائم على التساوي. أن يشعر الرجل أن المرأة مساوية له وأن تشعر المرأة أن الرجل مساو لها. وأن يشعر الرجل أنه يحب

بكل كيانه جسداً ونفساً بغير انفصام بينهما وبغير احساس بالنقص أو الذنب. وأن تشعر المرأة انها تحب بكل كيانها جسداً ونفساً بغير انفصام بينهما وبغير احساس بالنقص والذنب. فهل يمكن أن تحدث مثل هذه العلاقة المتساوية بين الرجل والمرأة في ظل الحضارة القائمة على سلطة الرجل وخضوع المرأة؟

ان الامر يستدعي كفاحاً شاقاً مستمراً من جانب الرجل والمرأة على حد سواء للوصول معاً إلى النضج المنشود، الذي هو أمر نادر فعلاً. ان هؤلاء الذين تساعدهم ظروفهم الاجتماعية والنفسية للوصول إلى هذا النضج يكتشفون سعادة لم تعرفها الاغلبية من الرجال والنساء.

ان السيطرة يقابلها الخضوع، وان الحرية تقابلها العبودية، وإن الحكم الاستبدادي المطلق يقابله الخضوع الذليل المطلق. هذه هي الاضداد التي تصنع الاساس الذي تقوم عليه السادية والماسوشية، والتي يكون فيها الالم شيئاً ثانوياً. ومن أجل ان نفهم هذا لا بد لنا من تتبع حياة الطفل وكيف تنمو داخله تلك النزعة المسماة بالنزعة العدوانية.

وقد اختلفت آراء علماء النفس والجنس حول منشأ هذه النزعة العدوانية في الانسان. ويميل العلماء من ذوي النظرة الجزئية إلى الحياة البشرية إلى اعتبار أن العدوان غريزة طبيعية في الرجل. وقد كان فرويد أحد هؤلاء العلماء الذين قالوا إن العدوان غريزة نابعة من داخل الانسان. وقد ميز فرويد بين نوعين من الغرائز : النوع الاول ينشد المحافظة على النوع وهو الغريزة الجنسية، والنوع الثاني متعلق بالمحافظة على الفرد ذاته أي غريزة «الأنا». وبعد دراسات للصراعات بين هذه الغزائر، سمى فرويد الغزيرة الاولى بغريزة الحياة «Eros » والثانية بغريزة التدمير أو الموت «Thamatos » .

وقد شرح فرويد السادية والماسوشية على أنهما امتزاج الغريزة الجنسية وغريزة التدمير.ورأى فرويد أن جميع الدوافع الغريزية تنبع من امتزاج هاتين الغريزتين بدرجات مختلفة. فالماسوشية هي الميل إلى تدمير الذات والسادية هي الميل إلى تدمير الآخر أو العدوان. ومن هذا المعنى يقول فرويد إن غريزة العدوان في كل شخص وأنها إن لم توجه إلى العالم الخارجي فسوف توجه إلى الداخل لتحطيم الذات. اي ان الشخص من اجل ان يحمي نفسه من التدمير الذاتي فلا بد له من تدمير اشخاص آخرين أو اشياء اخرى.

وقد عبر فرويد عن هذا الرأي بوضوح حين كتب إلى اينشتاين يقول له : «ان الحرب ليست الا تحويلاً لغريزة التدمير وذلك بتوجيهها نحو العالم الخارجي».

ولا يختلف عن هذا الرأي العلماء الذين يقولون ان العدوان ينبع من بعض خلايا المخ، وهي افكار تدل على تجاهل هؤلاء العلماء ومنهم فرويد للعوامل الاجتماعية والبيئية والتربية التي تعلب الدور الاكبر في تشكيل الشخصية العدوانية.

ان ارجاع العدوان والحروب في العالم إلى خلايا المخ أو غريزة التدمير في كل انسان معناه ان هذه الحروب ضرورة بيولوجية ولا يمكن للانسان ان يعالجها او يتحكم فيها الا باستئصال بعض خلايا المخ وهذا تبرير للحروب ولكل انواع التعذيب الوحشي الذي تحدثه الانظمة الاستبدادية والاستغلالية بالناس.

وقد رفض كثير من العلماء هذا التبرير البيولوجي للحرب، أو إرجاع اسباب الحرب إلى الطبيعة البشرية لان هذا التبرير يصرف أذهان الناس عن النظم الاجتماعية والاقتصادية التي تسبب الحروب، كما انه يعني ان الحرب لا بد وأن تظل ملازمة للانسان كجسده. ذلك أنها جزء من الطبيعة البشرية الثابتة.

ان النظرية العلمية الحديثة في تطور المجتمعات الانسانية وعلاقتها بفكرة الطبيعة البشرية تنكر وجود ما يسمى بالطبيعة البشرية الثابتة أو الدائمة، وانما الطبائع البشرية هي ظواهر نسبية تتغيّر وتتكيف حسب البيئة التي نعيش فيها. وقد اصبح معظم العلماء الآن لا يحبذون اصطلاح «الغرائز البشرية»، ويفضلون عليه اصطلاح «الدوافع البشرية» التي يتعلم الانسان معظمها خلال سنوات الطفولة.

إن نزعة العدوان التي عرفت بين الرجال ليست غريزة أو طبيعة أصلية ثابتة وملازمة لذكورة الرجل ولكنها ظاهرة زمنية وحضارية وتاريخية تلعب فيها العوامل البيئية والتربوية الدور الاكبر. بل ان بعض العلماء أثبتوا أنه في الحيوانات ايضاً لا يوجد شيء أسمه طبيعة ثابتة ودائمة ولكن هناك صفات تتغير دائماً حسب التربية والتعليم.

بعض هذه التجارب قام بها أحد علماء النفس الامريكيين واسمه «كيو» على عدد من القطط ليرى ما إذا كان عداء القطط للفئران صفة طبيعية في القط أم صفة مكتسبة. اخذ الباحث مجموعات من القطط الوليدة[1] وعرضها لظروف مختلفة فصل بعضها عن

(١) انظر: H.J. Eysenck, uses and Abuses of Psychology. Pelican 1962. P. 179.

الام وعن البيئة الخارجية وعزلها في جو بعيد عن الفئران، أو جعلها تعيش مع امهاتها من القطط. وفيْ نهاية التجربة وجد ان المجموعات التي ربيت مع امها بالطريقة المألوفة وفي البيئة المألوفة اعتبرت الفئران طعاما لها وراحت تأكلها، أما المجموعات التي عزلت فلم تظهر اي عداء للفئران ولم تعتبر الفأر طعامها.

وخرج «كيو» وغيره من العلماء الـذين اجروا مثل هذه التجارب أن الصفات التي نعتبرها طبيعية ليست الا صفات مكتسبة من الظروف.

ويدل على ذلك أيضا أننا في معظم المجتمعات نعتبر ان الصفة الطبيعية للرجل هي السيطرة والقوة وأن الصفة الطبيعية للمرأة هي الخضوع والضعف. ولكن هناك قبائل في افريقيا وآسيا تخالف ذلك. في قبيلة «ارابيش» في غينيا الجديدة وهي منطقة جبلية وجد ان الرجال والنساء جميعا لهم صفات مما نسميها انثوية. انهم لا يميلون الى السيطرة أو التنافس أو العدوان، وإنما ترتكز علاقتهم على تبادل الثقة والتعاون والحب. وهم لا يفرقون مثل ما نفرق بين الرجل والمرأة أو بين الكبار والاطفال ويقترب مجتمعهم من المجتمع المثالي بغير طبقات بل إن لعب الاطفال عندهم لا يقوم على التنافس أو التقاتل كما يحدث عندنا. وقد سمى بعض العلماء قبيلة ارابيش بانها اسرّة واحدة كبيرة وسعيدة.

وعلى عكس الارابيش نجد قبيلة «موندو جومر» في غينيا الجديدة ايضا. هناك يتصف الرجال والنساء جميعا بالصفات التي نطلق عليها صفات ذكورية. انهم يميلون الى العنف والعدوان والسيطرة والتقاتل لاي سبب تافه. يبدأ الطفل حياته هناك في جو تشيع فيه الكراهية والعدوان وهو يتعرض للضرب من الكبار واحيانا للقتل. والامهات هناك لا يمارسن تلك الامومة التي نسميها طبيعية في مجتمعنا. وفي قبيلة «تشامبولي» نجد ان المرأة هي القوية المسيطرة والرجل هو الطرف الخاضع الاضعف ان المرأة هناك هي التي تختار الرجل، والعلاقات بين النساء سهلة وسوية وقائمة على الثقة والعمل والجهد، اما العلاقات بين الرجال فهي متعثرة، قائمة على الشك والريبة والنميمة. ويعتمد الرجال على النساء في حياتهم الاقتصادية والجنسية والاجتماعية ولذلك يتصفون بالضعف والخجل وعدم الاستقلال. المرأة هي التي تكد وتعمل اما الرجال فهم يرقصون او يغزلون او ينشغلون ببعض الفنون مثل الرسم والغناء. وقد رأيت في جنوب الهند قبائل من هذا النوع يعيشون في المناطق الجبلية حيث يزرع الشاي والبطاطس وتعمل النساء في الحقول وداخل البيوت ولا يفعل الرجل شيئا الا الاشراف

على المعبد والزينة والرقص في الحفلات الدينية. وقد رأيت يد الرجل منهم ناعمة الاصابع وصغيرة، اما يد زوجته فهي كبيرة غليظة خشنة.

وهناك كثير من الادلة الاخرى التي لا يمكن حصرها والتي تدل على ان الصفات التي نطلق عليها الصفات الطبيعية للذكر او للانثى ليست الا صفات مكتسبة من المجتمع والبيئة والتربية، وان العلاقة بين الجنسين ليس لها نمط واحد ازلي، وان الاخلاق الجنسية تتغير وتتبدل حسب النظم الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع. اوضحت احدى الدراسات الجديدة للبوشيمان Bochimans بصحراء كالاهاري (Kalahari) العلاقة بين الضرورة الاقتصادية والاخلاق جنسية. هؤلاء البوشيمان يعيشون في مجموعات اسرية صغيرة حول آبار مياه جديدة قليلة لا تكاد تكفي السكان. ولهذا فان قانونهم الجنسي غاية في القسوة، والاختلاط بين الجنسين ممنوع منعا باتا. والسبب في ذلك انهم لا يريدون مزيدا من الاطفال. وهم يقتلون الطفل الثاني في احيانٍ كثيرة[1].

ان الصفات الجنسية لدى الانسان تتشكل (كأي صفات اخرى) حسب المجتمع والبيئة والظروف والتربية. وقد افترض العلماء ان الصفة الطبيعية هي الصفة الشائعة في المجتمع او الصفة الموجودة عند الاكثرية من الافراد. وهذا افتراض غير صحيح، لان هناك مجتمعات مثل المجتمع المصري والسوداني مثلا التي تفرض البرود الجنسي على الاغلبية من البنات والنساء وذلك بقطع بظورهن في عملية الختان الشائعة، فهل يمكن ان نقول ان الصفة الطبيعية للمرأة المصرية هي البرود الجنسي لمجرد ان الاغلبية من النساء باردات جنسيا. وقد اكتشف كينزي في بحثه ان اكثر من ٣٠٪ من الرجال الاميركيين قد مارسوا الشذوذ الجنسي في فترة ما من الفترات، وهذه نسبة عالية قد تصدم عددا كبيرا من الناس الذين يؤمنون بالطبيعة الثابتة.

وهناك ايضا امثلة اخرى من بحث كينزي الذي اجراه في منتصف هذا القرن على النساء والرجال الامريكيين. وقد كان كينزي مهتما بالسلوك الجنسي عند الانسان، واكتشف كينزي ان النشاط الجنسي عند الانسان والذي يقود الى الاورجازم ينقسم الى ستة أنواع رئيسية:

١ ـ اثارة الشخص لنفسه (العادة السرية او الاشباع الذاتي).

---

(١) انظر: Elizabeth Thomas, The Harmless people, Secher and Warburg, 1959

٢ ـ الاحتلام اثناء النوم حتى الاورجازم.
٣ ـ مداعبات جنسية سطحية بين الجنسين حتى الاورجازم دون ممارسة العملية الجنسية الكاملة.
٤ ـ العملية الجنسية الكاملة بين الجنسين.
٥ ـ الجنسية المثلية او ممارسة الجنس مع الجنس نفسه (الشذوذ الجنسي).
٦ ـ الاتصال الجنسي بالحيوانات وفصائل اخرى.

وقد حاول كينزي ان يدرس الانشطة الجنسية المختلفة للنساء والرجال من مختلف الطبقات داخل المجتمع الامريكي ومن مختلف الثقافات. وقد اتضح له ان النشاط الجنسي يختلف من طبقة الى طبقة، ومن شخص الى شخص حسب درجة الثقافة ونوعها. ومن مكان الى مكان حسب نوع البيئة التي يعيشها الانسان.

وبعد ان تفقد كينزي نتائج بحثه كتب يقول: «ان النتائج والارقام التي خرجت بها من البحث تكشف عن اختلافات شديدة في الانشطة الجنسية بين الطبقات المختلفة التي تعيش في مدينة واحدة او في حي واحد من المدينة. ان هذه الاختلافات لا تقل عن الاختلافات التي اكتشفها علماء الانثروبولوجيا بين مختلف الاجناس في اقصى الاماكن في العالم».

ومن اهم الاختلافات التي خرج بها كينزي هي تلك التي تتعلق بالعادة السرية بين مختلف المجموعات. لقد وجد ان ٩٠٪ من طلبة الجامعة يمارسون العادة السرية والاحتلام والمداعبات الجنسية السطحية مع الجنس الآخر، وان ١٠٪ فقط لهم اتصال جنسي كامل بالبنات او النساء. لكن بين الشباب من الطبقات الاقل والذين لم يدخلوا الجامعة فان ٦٧٪ منهم يمارسون الاتصال الجنسي الكامل بالمرأة كنشاطهم الجنسي الاساسي. وتختلف ايضا نظرة الناس الى النشاط الجنسي حسب طبقتهم الاجتماعية ودرجة ثقافتهم. في مجتمعنا المصري ينظر افراد الطبقة العاملة وذوو الدخل المحدود الى العادة السرية كانحراف جنسي يقود الى الجنون او العمى وانها حرام ومخالفة للدين. وهو موقف يشبه موقف الناس في المجتمعات البدائية جدا. في الطبقات المتوسطة المتعلمة ينظر الى الشاب الذي يمارس العادة السرية على انه افضل خلقا من الذي يمارس العملية الكاملة مع الجنس الآخر. ولذلك تنتشر العادة السرية في الاسر المتوسطة وبين المتعلمين عنها بين افراد الطبقة العاملة. وفي الطبقات الكادحة والعاملة والارياف تنتشر العلاقات الجنسية بين الجنسين وخارج الازواج حيث ان القيم

الاخلاقية اقل تزمتا من الطبقة المتوسطة. لقد وجد انه كلما تأزمت الحالة الاقتصادية لمجموعة من الناس قل تمسكهم بالقيم الاخلاقية السائدة واصبحت الاولوية لسد الحاجات الاقتصادية. ان الآباء في الاسر الفقيرة قد يبيعون بناتهم بالزواج وبغير الزواج من اجل سد الرمق.

تدل المصادر التاريخية ان القيم الاخلاقية لم تثبت على حال، فهي تتغير من عهد الى عهد، ومن طبقة الى طبقة. وهي ترتبط بالظروف الاقتصادية اساسا اي بالملكية والتوريث. في الطبقات الثرية ذات الاملاك لا خوف على العلاقات الجنسية الا من حيث تأثيرها على الميراث، اين يذهب الى طفل من صلب الرجل ام الى طفل رجل آخر. ان الرجل في مثل هذه الطبقة الثرية لا يهمه ان تذهب زوجته الى رجل آخر بشرط الا يكون هناك اطفال من هذا الرجل. والزوج ايضا يذهب الى نساء اخريات غير زوجته بشرط الا يرث اطفاله غير الشرعيين او اطفاله من الجواري والعشيقات. بمعنى آخر فان الحرية الجنسية مكفولة لهذه الطبقة بشرط الا تمس هذه الحرية الثروة والميراث.

أما في الطبقة الفقيرة الكادحة فان الجوع والفقر يجعل الرجال والنساء اكثر انشغالاً باشباع حاجات غريزة الاكل وغريزة البقاء اكثر من انشغالهم بالاخلاقيات والقيم الآتية من السماء. ان معركتهم الاساسية لا تزال فوق الارض وليس لديهم من الفراغ او الجهد ما يساعدهم على الارتخاء لحظة والتساؤل ما إذا كان ما يفعلونه يندرج تحت الخير أو الشر، او الفضيلة أو الرذيلة. ان كل ما يسد رمقهم ويحفظ حياتهم من الموت جوعاً هو الفضيلة، وان كان هو التفريط في الجسد. ان التفريط في الحياة أهم عندهم من التفريط في الجسد. وهم لا يفرقون كثيراً بين حاجة الجسد إلى الطعام وحاجته إلى الجنس. إن حياتهم أقرب إلى الطبيعة وإلى الصدق من تعقيدات الفلاسفة من الطبقة المتوسطة.

بل ان القيم الاخلاقية في الطبقة المتوسطةليست ذات طابع فلسفي أو فكري بحت. انها ترتكز على القيم الاقتصادية اساساً. فالرجل لا يعيبه شيء الا جيبه. وما دام جيبه ممتلئاً بالفلوس فهو يتزوج من يشاء ويدفع المهر، ويغير زوجاته كما يشاء ما دام قادراً على الانفاق على بيوته وزوجاته. والمرأة لا بد لها أن تتزوج رجلاً واحداً فقط حتى يرث الاطفال مال ابيهم بغير منازع من طفل غريب. والمرأة التي تخون زوجها تعاقب بشدة، لان مال الاب هنا مهدد بالذهاب إلى دم رجل غريب. اما إذا

كانت المرأة ذات مال أو حسب فهي قد تسيطر على زوجها بمالها وحسبها، وفي هذه الحالة يغمض زوجها عينيه عن خروجها ودخولها، وقد يشتم الخيانة لكنه لا يفتح فمه لانها هي التي تنفق على البيت.

تحدثت كثير من الصحف في القاهرة وخصوصاً في العامين (١٩٧٤ ، ١٩٧٥) عن تلك الظاهرة التي أصبحت تنتشر، وهي أن كثيراً من الاسر التي تعاني من المشاكل الاقتصادية (بسبب الازمة الاقتصادية الراهنة) قد أصبحت تتاجر في بناتها بعقود زواج شبه رسمية للرجال من البلاد العربية الثرية.

وتحدثت كثير من الصحف في القاهرة أيضاً عن ظاهرة العنف أو العدوان التي اصبحت منتشرة في المجتمع المصري هذا العام (١٩٧٥) . حوادث خطف البنات والنساء . حوادث الاغتصاب . حوادث القتل والأمواس التي اصبح يحملها عدد متزايد من الشباب والرجال .

وفي احدى الصحف[1] ظهر برواز بالخط الاسود العريض تحت عنوان «اقتراح اليوم» يطلب: «اقامة نظام القاضي» الليلي «يقدم اليه الذين يخطفون البنات أو يعتدون على رجال الامن، أو يعتدون على الناس بالمطاوي فيحكم عليهم في نفس الليلة، هذا نظام موجود في بعض البلاد المتقدمة».

ولم تحاول الجريدة بالطبع أن تبحث عن أسباب هذه الظاهرة، لانها كانت تتبنى في تلك السنين الاخيرة الافكار الرأسمالية الاقتصادية وتساند الاتجاه الذي بدأ يقوى حينئذ في المجتمع المصري من اجل هدم بعض القواعد الاشتراكية في الاقتصاد المصري، هذه القواعد التي بدأت ثورة يوليو ١٩٥٢ في وضعها سنة ١٩٦٢، والتي ما كانت تبدأ حتى تتعثر لاسباب متعددة اهمها ذلك الصراع الرهيب بين الاقلية التي تملك كل شيء والاغلبية الساحقة الكادحة التي حرمت كل شيء حتى التنظيم السياسي الذي يمثلها حقيقة ويجمعها على شكل قوة.

في هذه الفترة بالذات في السنتين الاخيرتين (١٩٧٤، ١٩٧٥) تأزمت الحياة الاقتصادية للاغلبية الساحقة من الشعب المصري وأصبح الحصول على ضرورات الحياة كالسكر والارز أو قطعة صابون مشكلة المشاكل للملايين من الكادحين والكادحات.

---

(١) انظر: جريدة الاخبار الصادرة بالقاهرة صباح يوم ٢٥ اغسطس ١٩٧٥ الصفحة السادسة في برواز خاص بعنوان «اقتراح اليوم».

وبمثل ما يحدث في جميع المجتمعات وفي جميع الأزمنة ،تبدأ الازمة الاقتصادية أولاً ثم تتبعها ازمات أخرى اجتماعية ونفسية واخلاقية تتمخض عن ظواهر كالسرقة والاختلاس والرشوة (تكلمت الصحف عن هذه الظواهر التي انتشرت أخيراً) والعنف والعدوان والادمان، وانتشار بيع المخدرات وتعاطيها (وبالذات بين الطبقات الدنيا من الناس) كنوع من الهروب من المشاكل الاقتصادية اليومية التي يعجزون عن حلها ولا يجدون من وسيلة للتنفيس عن عجزهم الا رفض الواقع أو الهروب منه بالعقاقير المخدرة.

والذي يتابع الدراسات لمثل هذه الظواهر في العالم يكتشف الآتي :

١ ـ هذه الظواهر منتشرة في المجتمعات الخاضعة لنظم رأسمالية متقدمة مثل امريكا وبعض البلاد الاوروبية.

٢ ـ هذه الظواهر بدأت تنتشر في البلاد النامية التي تخضع للنظم الرأسمالية أو تربط نفسها بها.

٣ ـ هذه الظواهر نادرة في معظم المجتمعات الاشتراكية وفي بعض البلاد الرأسمالية التي تتبع بعض التعديلات الاشتراكية في نظمها الاقتصادية بحيث تؤجل حدوث ازمة او هوة بين اصحاب الاموال والعمال مثل المجتمعات الاسكندنافية شمال اوروبا، والمجتمع الياباني والمجتمع الانجليزي، الا أن بعض هذه المجتمعات كثيراً ما تواجه الازمة أو التناقض الاساسي بين الرأسماليين والعمال وتصبح في حاجة إلى مزيد من التعديلات الاشتراكية، أو التعرض لمشاكل التضخم والبطالة، ومن ثم مشاكل العنف والجريمة والادمان وانتشار المخدرات وغير ذلك من ظواهر.

والذي يدرس الظروف الاقتصادية التي يعيشها المجتمع المصري في السنين الاخيرة، وكيف ارتفعت الاسعار بشكل جنوني، مع عدم زيادة الاجور، ونشط تجار السوق السوداء والتهريب والسرقة والرشوة، ومئات الطوابير من الفقراء والكادحين الواقفين بالساعات أمام الجمعيات للحصول على علبة شاي أو قطعة صابون أو كيلو سكر، وكيف صاحب ذلك هذه الظواهر من عنف واجرام، وأيضاً كيف انتشرت المخدرات وبيع الحبوب المخدرة، ليدرك الارتباط بين العوامل الاقتصادية والظواهر المرضية النفسية والاجتماعية.

لكن الربط بينهما يكشف عن الاسباب الحقيقية لهذه الظواهر، ومن ثم الخطورة

أو التهديد الذي يمكن أن تتعرض له الاقلية التي تملك وتسيطر.

وهذا هو السبب في أن الربط لا يحدث والتفسير الحقيقي لهذه الظواهر لا يتم، وإنما نقرأ تفسيرات تبعد الاذهان عن الاسباب الحقيقية، فيكتب البعض يقول إن العنف او العدوان ينبع من داخل المخ وعلاجه هو علاج المخ بالكهرباء. أو يقول بعض الاطباء (غير الواعين بالعوامل الاقتصادية) إن الادمان مرض نفسي بسبب مرض خلايا المخ والعلاج هو تسليط موجات الكهرباء على رأس المدمن.

وضمن هذه الاجتهادات أيضاً القول بأن العنف والعدوان يرجع إلى انتشار الحبوب المخدرة[1] أو أن انتشار المخدرات ادى إلى انتشار العدوان والجرائم، وهكذا... يدور النـاس في فلك الظواهر في حلقة مفرغة، وتنفصل الاسباب عن ظواهرها أو تنفصل المسببات عن السببيات ويتوه العلاج بينهما.

وقـد انتشرت المخدرات والمنبهات في العالم الرأسمالي في السنوات الاخيرة انتشاراً شديداً بين الشباب إلى حد أنها اصبحت تمثل خطراً من أخطار الصحة النفسية العامة. وخرج عدد من العلماء الذين درسوا مشاكل الادمان أن هذه الظاهرة ليست مرضاً في نفوس الشباب وعقولهم ولكنها ظاهرة لمرض اجتماعي واقتصادي خطير جعل الشباب يؤمنون بفساد الحكام وفساد النظم والقوانين داخل الاسرة وفي المدارس وفي أماكن العمل.

وقد أصبح المجتمع الامريكي بالذات (كاكبر مجتمع رأسمالي في العالم) مهدداً بثورات الشباب والنساء والزنوج، وأصبح الادمان واقبال الشباب من الجنسين على المخـدرات والمنبهـات إحـدى مشكـلاته الاجتماعية والرئيسية تليها مشكلة العنف والجرائم التي أصبحت تتم في النهار أيضاً.

وقد اوضحت الدراسات أن مثل هذه المشكلات الاجتماعية تنتج عن مشكلات اقتصـادية بسبب ازدياد معـدل البـطالة (اكثر من ١٠٪ سنة ١٩٧٤ ايضاً). وهذان المعدلان يكشفان عن أزمة الاقتصاد الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة، والتي تتفجر أزمته من حين إلى حين بسبب اتساع الفجوة المستمرة بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج.

---

(١) انظر: جريدة الجمهورية ٢١ اغسطس ١٩٧٥ الصفحة الخامسة تحت عنوان: الحبوب المخدرة وراء حوادث العنف الاخيرة. وجريدة الاهرام ١٨ اغسـطس ١٩٧٥ الصفحة الثالثة.

حينما زرت الولايات المتحدة في ديسمبر سنة ١٩٧٤، شهدت بعض مظاهر هذه الازمة كان التلفزيون في مدينة نيويورك لا يكف عن عقد الندوات التي تبحث أزمة البطالة الشديدة التي حدثت هذا العام ونتج عنها اخراج العديد من الرجال والنساء من أعمالهم. وبالمثل كان علماء النفس يبحثون أسباب انتشار الجرائم. ولم يكن معظم العلماء ينبهون إلى الازمة الاقتصادية الراهنة التي أدت إلى صراع حاد بين العمال والرأسماليين ترتب عليها تضخم في الاسعار وبطالة بين العمال، ولكنهم كانوا يحاولون اثبات أن مركز العدوان في المخ. والسؤال الذي لم يتناولوه هو: لماذا ينشط هذا المركز في مجتمعات ويضعف في مجتمعات اخرى؟ لماذا تتمتع بعض المجتمعات بالامن والسلام والتعاون بين البشر، وتقوم بعض المجتمعات الاخرى على العنف والقتل والعدوان؟ لقد اشتهر المجتمع المصري مثلاً بأنه مسالم لا يعشق الحرب، فهل معنى ذلك ان خلايا العدوان في أمخاخ المصريين ضعيفة أو غير موجودة؟ وإذا انتشرت ظاهرة العنف والعدوان هذه السنين الاخيرة فهل معنى ذلك ان تنشيطاً ما حدث في خلايا مخ المصريين بسبب تغيرات اثيرية في الجو أو قوى مجهولة في السماء؟!

ان الصراع الدائر في هذه الحضارة الرأسمالية الرجولية ليس صراعاً بين نوعين من الافكار: أفكار حقيقية وافكار غير حقيقية، ولكنه صراع بين نوعين من الناس: نوع معه السلطة والمال، ونوع مضطهد ينشد التحرر من السلطة ومن الفقر. ومن الطبيعي حينما تكون السلطة والمال في قبضة الاقلية القليلة فانها لا تتمكن من حماية سلطتها ومالها الا بالقوة والقهر والعدوان والضرب بيد من حديد على كل من يهدد سلطتها أو مالها.

يقول بعض العلماء الامريكيين إن السلوك العدواني يحدث للانسان بسبب نشاط بعض خلايا المخ، وأنه يمكن علاج العدوان باستئصال جزء من المخ بجراحة، أو إضعاف مركز العدوان في المخ بالعقاقير أو الأجهزة الالكترونية. ويدعم هؤلاء العلماء رأيهم بتجارب معملية على خنازير ونسانيس وأسود ورجال مجرمين داخل السجون. إحدى التجارب تقول إن جزءاً من مخ الرجل المجرم أستؤصل بالجراحة فاصبح الرجل من بعدها مسالماً غير ميال للاجرام. وأيضاً هناك العقاقير التي تقوم مقام الجراحة من حيث ابطال عمل بعض خلايا المخ، أو وسائل كالكهرباء أو الاجهزة الالكترونية.

من المعروف أن هناك أمراضاً عضوية تحدث لبعض خلايا المخ وتسبب انحرافات

جنسية او تخلفاً عقلياً أو انحرافاً في السلوك كالاجرام. لكنها حالات قليلة جداً، وتحتاج في علاجها إلى الوسائل السابقة من حيث الادوية أو الجراحة أو غيرهما.

لكن من المعروف أيضاً ان السلوك العدواني حينما يصبح ظاهرة فإنها تشمل أعداداً كبيرة من الناس، وأن المشاكل الجنسية والنفسية حينما تصبح منتشرة بين الرجال والنساء والشباب فان ذلك يعني أن هناك أسباباً في المجتمع وفي الاسرة وفي التربية تؤدي إلى انتشار مثل هذه الظواهر المرضية.

وقد أثبت عدد من العلماء ومنهم الدكتور ميكالو ساكون ولينج وكوبر وزاس ورايخ ان الاسباب الحقيقية للعدوان ليست في خلايا المخ وإنما في الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها الناس، وان علاج العدوان يجب الا يوجه إلى رأس الرجل وانما إلى المجتمع والاسرة التي يعيش فيهما هذا الرجل.

وقد اتضح ان مناخ الاسرة الابوية بكل ما فيها من علاقات غير متساوية بين الاب والام وبين الكبار والاطفال تنبت البذور الاولى للعدوان في نفس الطفل.

ومن اجل التبسيط في الشرح والتوضيح يمكن لنا ان نستخدم التعريف العلمي التقليدي لمعنى العدوان في علم النفس، وهو يعرف على انه نوع من الطاقة النفسية التي تساعد الانسان على أن يميز نفسه كفرد مستقل. بمعنى آخر انه الدافع وراء رغبة الانسان في تأكيد ذاته، أو الرغبة في القوة، أو الرغبة في أن يصبح الانسان في نظر نفسه فرداً مستقلاً منفصلاً عن الآخرين. ويقول علماء النفس ان كبت هذه الرغبة في الطفل توقف نموه النفسي وحين يكبر ليصبح رجلاً يظل يشعر بالنقص، وبأنه شخص بلا شخصية مستقلة، وبلا وجود، وأنه لا شيء أو لا احد، يعيش كالظل، أو كظل الآخرين.

ويمكن القول أن الطفل (ذكراً كان أو انثى) يشعر منذ البداية الاولى لحياته بدافع إلى تحقيق الذات، والبحث عن شخصيته المستقلة وتفرده كشخص، وأن هذا الدافع لا يقل قوة عن الدافع إلى الجنس. إن احدى صفات الاطفال المميزة انهم يميلون دائماً إلى اثبات ذواتهم، وأن جزءاً كبيراً من خيالهم الطفولي يمتلىء بتلك الرغبات والتصورات مثل: أنا كبير، أنا قوي، أنا أستطيع أن أفعل أي شيء.

ويشعر معظم الاطفال أن البيت سجن كبير، وان الاهل هم السجانون. وتختلف درجة هذا الشعور باختلاف عقلية الآباء والامهات. على أن الاسرة الابوية التقليدية

ترسب هذا الشعور في نفوس معظم الاطفال، بسبب الكبت والتربية الصارمة القائمة على سلطة الاب المطلقة.

ويحاول معظم الاطفال كسر القيود والفكاك من هذا السجن، يساعدهم في هذه المحاولات ذلك الدافع الانساني إلى تحقيق الذات المنفردة والاستقلال. انها محاولة صعبة ينجح فيها بعض الاطفال ويفشل البعض الآخر، يتوقف النجاح أو الفشل في نهاية الامر على مدى سيطرة الاب ومدى استخدامه لسلطة الاب المطلقة والتي تخول له أن يمتلك اطفاله (وزوجته) كما يمتلك ملابسه الداخلية. ان القوانين التي تحكم الاسرة الابوية في حضارتنا الذكورية الحديثة تمنح الاب السلطة المطلقة على زوجته وأطفاله، وتفرض على هؤلاء الطاعة العمياء والخضوع الكامل والا تعرضوا للبطش أو الطرد وعدم الاعالة.

وقد وجد انه كلما زادت سيطرة الاب زادت معها رغبة الطفل في الافلات من هذه القبضة والتحرر من هذه السلطة، ومن هنا ازدياد الرغبة العدوانية عند الطفل من اجل التحرر والاستقلال والانفصال عن أبيه.

ويكبر الطفل وينمو، وفي عملية النمو يزداد ادراك الطفل بقوته وفي الوقت نفسه تتضاءل في نظره قوة أبيه. وهكذا يكبر الطفل وينضج ويستقل عن طريق ازدياد قوته مع الانخفاض المستمر لقوة ابيه.

لكن هناك من الآباء من يقاوم النمو الطبيعي للطفل ، هؤلاء الآباء الذين يصرون على ان يظلوا اقوياء مسيطرين إلى الأبد ، والذين اذا ما احسوا لحظة ان هذه القـوة أو هذه السيطرة قد مسها او خدشها من قريب أو بعيد ابن او ابنة او زوجة فإنهم سرعان ما يبرزون أسلحتهم حفاظاً على رجولتهم وذكورتهم وسلطتهم الأبوية الممنوحة لهم من قبل المجتمع والحضارة بغير قيد ولا شرط .

مثـل هؤلاء الآباء (وما اكثرهم) يعطلون نمو اطفالهم ويحولون دون استقلالهم الكامل، ويحمل هؤلاء الاطفال معهم (بعد ان يكبروا) قدراً كبيراً من العدوان يقابله قدر مماثل من الاعتماد على الغير وعدم الاستقلال. ولهذا نجد أن الرجل العدواني يميل في حقيقة الامر إلى الاعتماد على غيره. وتظهر حقيقة هؤلاء الرجال في علاقاتهم العاطفية والجنسية، وهي اكثر العلاقات كشفاً لحقيقة الانسان. ان الرجل من هؤلاء يتعامل مع المرأة التي يحبها أو يرغبها كما يتعامل الطفل مع أبيه. انه لا يعرف في علاقته بها الا واحداً من اثنين: اما أن يخضعها، وإما ان تخضعه. وإما ان يؤلمها

او تؤلمه. ومن هنا تنشأ السادية والماسوشية. مثل هؤلاء الرجال يعجزون عن الحب المتبادل القائم على التساوي في الاخذ والعطاء وليس فيه خضوع ولا اخضاع، فالحب علاقة سوية تقوم على الحرية والارادة والثقة بالنفس والاستقلال.

لكن الرجل العدواني لا يشعر بالامان في مثل هذه العلاقة السوية الحرة، انه يشعر بأمان اكثر في ظل العلاقة الاخرى التي تقوم إما على الاخضاع، فيصبح هو الطرف الأقوى المسيطر وتمنحه السيطرة نوعاً من الأمان. أو العلاقة التي تقوم على الخضوع، فيصبح هو الطرف الخاضع ويشعر بالامان لأنه سلبي يعتمد على الطرف الآخر، ولا يتحمل عبء شيء.

ويمكن القول إذن ان العلاقات السادية الماسوشية هي اعادة خلق العلاقات الطفولية بحيث يلعب احد الطرفين دور الطفل ويلعب الطرف الآخر دور الأب. انها احدى مظاهر عدم النضوج وتعطل نمو الشخصية بسبب سيطرة الرجل المطلقة في ظل النظام الابوي الذي هو العمود الفقري للحضارة الحديثة المعاصرة.

ومن المعروف ان القيم الاسرية والاجتماعية والاخلاقية التي نعيشها والتي ترتكز على نكران الجنس (ولو ظاهرياً) ترسب في نفوس الاطفال احساساً بالنقص واحساساً بالذنب. ولو عدنا إلى ما شرحناه عن السادية والماسوشية لوجدنا ان السادية هي نوع من التعويض او التنفيس عن إحساس بالنقص وإحساس بالذنب. كما ان الماسوشية نوع من التعويض او التنفيس عن الإحساس بالذنب. وكأنما يقول الماسوشي لنفسه: ليس لي ذنب فيما يحدث لأنه يحدث رغم أنفي وبالقوة القاهرة وبالالم الذي اشعر به الآن. ان لذة الماسوشي تزيد بمقدار ما يحس أنه غير مسؤول، وأن لا يد له فيما يحدث من اثم. بمعنى آخر تزيد لذة الماسوشي بمقدار ما يعود طفلاً ليس عليه ان يتخذ اي قرار. أو يتحمل مسؤولية اختياره أو ارادته الواعية. ان الطرف الآخر يصبح في نظره السلطة المطلقة والتي كلما ناله منها العقاب زال شعوره بالاثم وتحرر من الاحساس بالذنب. ومن هنا تحدث إثارته الجنسية.

أي ان العقاب يزيل عن الماسوشي الاحساس بالذنب. ويصبح قادراً مرة اخرى على معاودة الاثم ثم ينال العقاب الذي يمسح عنه الاثم فيعود إلى مزاولة الاثم مع العقاب الذي يمسحه وهكذا يدور في الدائرة المفرغة.

من هنا ندرك ان السلطة المطلقة التي تثير في الشخص الرغبة في اللغة والعقاب

معاً تشعل في الناس الاثارة الجنسية وفي الوقت نفسه تنهى عنها بشدة. وهذا التناقض هو الـذي يفسـر ظاهـرة انتشـار التجارة الجنسية والافلام والفنون والآداب الجنسية الرخيصة ويفسر ايضاً أن هذه التجارة الجنسية كثيراً ما تشتمل على صورة خيالية شديدة السادية، منها نساء يضربن الرجال بالسياط ، أو رجال اشداء يغتصبون نساء، واثارة استعذاب السلطة والاخضاع والاستعباد أو الخضوع والعبودية والمذلة.

مثـل هذه التجارة الجنسية تخفف عن الناس بعض الشيء من التوتر الجنسي المصحـوب بالاحساس بالذنب، لانهم يجمعون في خيالهم الصورتين معاً، صورة العشيقة المشتهاة (أو العشيق) مع صورة الاب المسيطر صاحب السلطة.

وتلعب الام المسيطرة ايضـاً الـدور الذي يلعبه الاب المسيطر في تشويه حياة أطفالها الجسية من الذكور والإناث، لكن سلطة الام في ظل الاسرة الابوية وسيطرة الاب لا تكون موجودة في معظم الحالات. أما ان الام في الاسرة الابوية قد فرغت للزواج والامومة فهذا يدفعها إلى المبالغة في الحب والالتصاق باطفالها مما يعطل ايضاً نموهم النفسي واستقلالهم ومما يفسد ايضاً حياتهم الجنسية فيما بعد.

عرفنـا ممـا سبق أن الرجل السادي أو الماسوشي رجل عجز عن الوصول إلى النضوج،بمعنى آخر انه عجز عن التحرر من احساسه بالذنب أو النقص. انه يعجز عن ممارسة الحب الحقيقي، ويعجز عن الوصول إلى قمة اللذة (الاورجازم) من خلال علاقة عاطفية جنسية سوية. ومن المعروف ان هذه القدرة، قدرة الانسان على الوصول إلى قمة اللذة (الاورجازم) تعتمد اكثر ما تعتمد على قدرة الانسان على أن «يعطي نفسه» عطاء كاملاً في لحظة معينة، بمعنى آخر قدرة الانسان على ان يترك نفسه للآخر تماماً، أن يترك جسده ونفسه معاً. أن يفقد ذاته أو وجوده في تلك اللحظة بغير خوف أو قلق.

وقد لوحظ أن الرجال غير الناضجين لا يحصلون على هذه القدرة. ان خوفهم أو قلقهم (بسبب احساسيس النقص والذنب) يحول بينهم وبين الارتخاء الكامل بين ذراعي المرأة. ان الرجل منهم يظل مشدود العضلات، خائفاً من تلك اللحظة التي يمكن أن يعطي فيها نفسه وجسده عطاء كاملاً. انه يخشى (بسبب عدم ثقته في نفسه) أنه لو أعطى نفسه عطاء كاملاً فسوف يعجز عن استردادها. ويزيد هذا الخوف بازدياد عقدة الخوف عند الرجل. ولهذا يحاول الواحد منهم أن يعطي جزءاً منه فقط. قد يعطي جزءاً من نفسه أو جزءاً من جسده ويحتفظ بالباقي كنوع من صمام الامان الذي

يساعده على استرداد ما اعطاه مرة اخرى . معظم هذا النوع من الرجال يمارسون الجنس مع النساء بأعضائهم التناسلية فقط ، أما بقية اجسادهم وعقولهم ونفوسهم فتصبح كالحارس أو رجل البوليس الذي قد يتدخل عند اللزوم من اجل الحماية أو العدوان حسب الظروف .

ان مثل هؤلاء الرجال شديدو اليقظة خوفاً من ضياع ذواتهم، شديدو الحساسية سريعو العدوان لو أن أحداً مس من بعيد او قريب ذواتهم او كرامتهم. انهم يدركون في أعماقهم أن ذواتهم هشة وأن كرامتهم هشة وان أي خدش لهذه الذات أو هذه الكرامة خليق بأن يجعلها تنهار سريعاً وتصبح رماداً تذروه الريح.

هؤلاء الرجال يمكن التعرف عليهم بسهولة من عضلات وجوههم المشدودة. وهم ايضاً يعانون من الامساك المزمن بسبب عضلات أمعائهم المشدودة دائماً وعجزهم عن الارتخاء أثناء قضاء الحاجة.

إن تربية الاطفال في حضارتنا القائمة على سلطة الرجل وذكورته تفرق ما بين الاطفال الذكور والاطفال البنات. فالطفل الذكر يلقن منذ البداية كيف يؤكد ذاته كذكر يعد لحياة الرجل حيث الايجابية والمسؤولية والسيطرة والقوة. أما البنت فهي تلقن منذ البداية كيف تنطوي وتنكمش وتخفي ذاتها لانها انثى تعد لحياة المرأة حيث السلبية والضعف والخضوع والاعتماد على الرجل.

هذه التفرقة تفسد شخصية الاثنين معاً، الولد والبنت، وهي تحول دون نضوج أي منهما إن المبالغة في اشعار الولد بذاته وذكورته تصيبه بعقدة النقص لانه يحس في أعماقه أنه اقل من الصورة التي يصنعونها له. وان المبالغة في حث البنت على الانطواء والانكماش والسلبية (باسم الانوثة والرقة) يصيبها بعقدة العظمة لانها تحس في اعماقها انها أفضل من الصورة التي يصنعونها لها. وقد علمنا ان عقدة النقص مثل عقدة العظمة هما وجه لعملة واحدة، مثلهما مثل السادية والماسوشية سواء بسواء. ان الولد الذي يشعر بعقدة النقص يشعر في الوقت نفسه بعقدة العظمة كتعويض، وكذلك البنت التي تشعر بعقدة العظمة تشعر في الوقت نفسه بالنقص.

ان حياة الاطفال ذكوراً واناثاً وسط مناخ الاسرة الابوية حيث العلاقة غير متكافئة بين الاب والام، وان التربية الشائعة القائمة على التفرقة بين البنت والولد، كل هذا يسبب تلك المشاكل النفسية والجنسية التي يعاني منها الرجال والنساء في مجتمعنا.

ان من أهم مقومات الصحة الجنسية وسلامتها وقدرتها على احداث اللذة والسعادة المطلوبة هي ان يكون الانسان قادراً في لحظة من اللحظات ان ينسى ذاته، أن ينسى «الأنا». ان القدرة على نسيان «الانا» أو الغائها تماماً في هذه اللحظة هي أهم أسباب الوصول إلى قمة اللذة (الاورجازم) التي بدونها لا يتحقق الاشباع الجنسي الكامل وبالتالي التمتع بالصحة الجنسية.

ان الغاء «الانا» امر خطر بالنسبة للرجل غير الناضج، لانه لا يستطيع وحده تحمل مسؤولية هذا الالغاء، والاسهل له أن يعطي هذه المسؤولية لشخص آخر أو سلطة أخرى أو إرادة غير إرادته. انه في حاجة دائماً إلى هذه الارادة الاخرى من اجل أن تراقبه وتحميه حين يفقد هو إرادته. انه يشعر بالامان والطمأنينة حيث يعطي نفسه إذا ما سمحت السلطة الاخرى بذلك، كالطفل الذي يشعر بالأمان إذا ما أذن له الاب. ويصبح الاب هو المسؤول عن فعل الطفل وليس الطفل نفسه. ومن هنا يتضح أن الرجل الماسوشي ينشد (بالاضافة إلى التخفيف من عبء الاحساس بالذنب) أن يضرب عصفورين بحجر واحد، ذلك ان يكون في حالة من الاستمتاع الجنسي ومن الاحساس بالامان في وقت واحد. وهو يحقق هدفه هذا بأن يجعل الشخص الآخر مسيطراً على الموقف كله.

أما الرجل السادي فهو يكاد يكون عكس ذلك. انه في حاجة إلى أن يشعر أنه مسيطر على الموقف كله قبل أن تتحقق له اللذة الجنسية. وإذا قلنا عن الرجل الماسوشي أنه يسلم زمام الموقف كله للشخص الأخر ويخرج نفسه منه، فان الرجل السادي يأخذ زمام الموقف كله ويخرج المرأة منه. إن وراء هذه الرغبة السادية في السيطرة الكاملة على الموقف (بدون مشاركة الطرف الآخر) احساساً داخلياً عميقاً بالضعف، وهذه الرغبة السادية ليست الا محاولة للتعويض عن هذا الضعف. ان الرجل السادي لا يحتمل ان يعطي المرأة اي قوة، لانه يخشى لو أعطاها شيئاً من القوة فسوف تؤلمه أو تخصيه أو تحطمه وتسحقه.

وهذا هو ما يفعله الخوف بالرجل، الخوف الذي ترسب في نفسه منذ الطفولة. ومن المعروف ان الانسان حين يخاف فليس أمامه الا أحد امرين:

١ ـ اما ان يستسلم تماماً وبهذا الاستسلام الكامل ينزع عدوه سلاحه، وتلجأ الحيوانات إلى هذه الطريقة لمواجهة ما هو أقوى منها.

٢ ـ واما ان يجرد الانسان عدوه من كل الأسلحة ويجعله عديم القوة بحيث لا يستطيع أن يؤذيه.

والرجل السادي يختار (او تفرض عليه) الحالة الثانية، اما الرجل الماسوشي فيلجأ إلى الحالة الاولى وهي الاستسلام الكامل.

لا بد من الاشارة هنا إلى ان الايلام، أو احداث الالم في حد ذاته ليس هو هدف الرجل السادي. ان كثيراً من الصور السادية التي يتخيلها الرجال هي مجرد ان تصبح المرأة بغير حول ولا قوة، وأن تكون تحت رحمته تماماً يفعل بها ما يشاء. وكم تمتلىء الافلام والقصص الجنسية بهذه الصور السادية. بل كثيراً ما تتعدى هذه الصور الحياة الجنسية إلى نواح اخرى في الحياة مثل السياسة او الرياضة أو الفنون. وكم يشعر الرجال بلذة خفية حين يرون امرأة مقيدة بالحبال، أو مضغوطة في جدار، أو مهشمة العظام. وكم يشعر الرجال بلذة وهم يشاهدون المباريات الرياضية العنيفة او التعذيب السياسي. ان الخوف الملازم لحياة الاطفال بسبب العلاقات غير المتكافئة داخل الاسرة الابوية وخارجها في المجتمع الذكوري القائم على انتصار الاقوى على الاضعف والاكبر على الاصغر، هذا الخوف هو السبب الحقيقي وراء سادية الرجل.

ان الرجل السادي حين يجرد المرأة من قوتها لتصبح بلا حول ولا قوة انما يخلق موقفاً يشعر فيه أنه قادر على ان يفعل بها ما يشاء، سواء رغبت هي أو لم ترغب. بمعنى آخر ان الرجل السادي يتشكك في أن المرأة يمكن ان ترغبه طواعية بمحض اختيارها وكامل حريتها. ولهذا فان عليه ان يحصل بالقوة والاجبار على ما يحصل عليه الرجل الناضج بسهولة طبيعية وحرية.

لا يستطيع الرجل السادي أن يحصل على لذته الجنسية الا حينما يشعر انه المسيطر تماماً وأن المرأة اصبحت كلها تحت رحمته. في هذه الحالة فقط يتلاشى خوفه من المرأة. وحينما يتلاشى خوفه يصبح قادراً على الاحساس باللذة.

قال لي أحد الازواج من هذا النوع السادي انه يعاني حرماناً شديداً من اللذة الجنسية لان زوجته قوية الشخصية ولا تعرف كيف تستسلم له تماماً وتصبح في العملية الجنسية تحت رحمته. وهذا هو السبب في انه يذهب إلى مومس تستطيع أن تلهب رغبته الجنسية حينما تتظاهر بالاغماء وتهمس له قائلة: (افعل بي ما تشاء)!

وحينئذ فقط يكتشف الزوج فحولته الجنسية.

وقد ذكرتني حالة هذا الزوج ببعض الافلام الجنسية التي شاهدتها في السويد وبعض البلاد الغربية الاخرى. كانت معظم هذه القصص تدور حول مشاكل جنسية بين الزوجين بسبب عناد الزوجة أو تكبرها أو رغبتها في التساوي مع الرجل. ويحاول الرجل ان يخضعها دون جدوى. واخيراً يأخذ الرجل زوجته العنيدة إلى احدى المؤسسات الجنسية الحديثة حيث تتدرب الزوجة على كيفية الاستسلام والخضوع لزوجها.

ويشتمل هذا التدريب على صورة متكررة من الاعتداء على الزوجة بالقوة والضرب والاذلال. وفي نهاية الفيلم تبدو الزوجة وقد صبحت أنثى عظيمة الانوثة ماهرة في اغراء زوجها واشباعه جنسياً بعد أن تدربت على الخضوع واستعذاب العبودية.

ان الرجل السادي، وبالرغم من عدوانه الظاهري على المرأة الا أنه في حقيقة الامر يرغب أو يأمل في أن تستمتع المرأة بالالم الذي يحدثه لها. ومعنى ذلك أن رغبته الحقيقية ليست هي الايلام وانما احداث اللذة والاستمتاع. ومن اهم المشاكل التي تواجه الرجال الساديين والرجال الماسوشيين هي صعوبة حصولهم على المرأة التي يشعرون معها انها فعلاً تحصل على اللذة بهذه الطريقة السادية او الماسوشية. وهذا هو السبب في ان هؤلاء الرجال لا يجدون أمامهم الا المرأة المومس التي تدعي على الاقل انها مستمتعة، والتي لا يمكن لها ان ترفض ما يفعله الرجل معها نظير ما دفعه من المال. وهناك أيضاً عدد غير قليل من الزوجات (بسبب القهر داخل الاسرة الابوية ولانها تحتاج إلى اعالة الزوج وتخشى الطلاق) هؤلاء الزوجات يتظاهرن بالاستمتاع مع أزواجهن، وهن في حقيقة الامر يشعرن بالضيق أو الغثيان.

الفصل السادس

الرجل والأورجازم الجنسي

بمثل ما انتجت الحضارة الذكورية «علماء نفس» يضخمون الفروق النفسية بين الذكورة والانوثة فقد أنتجت «علماء جنس» يعتقدون أن الاورجازم (وهو الاصطلاح العلمي لمعنى قمة اللذة) عند الرجال يختلف عن «الاورجازم» عند النساء. وان النشاط الجنسي أو مراحل الاثارة الجنسية يختلف في الرجل عنه في المرأة.

لكن الدراسات الجنسية الجديدة[1] اوضحت خطأ هذه النظريات القديمة، وكشفت عن كثير من الحقائق العلمية التي تقول ان النشاط الجنسي في الرجل لا يختلف عنه في المرأة سواء من ناحية ابتداء الاثارة أو طريقة الاشباع او المراحل التي تمر بها عملية الاشباع حتى الاورجازم أو اعلى درجات اللذة ثم مرحلة الهبوط والعودة إلى الحالة الاولى التي كان عليها الانسان قبل حدوث الاثارة.

وقد وجد ان كلا من الرجل والمرأة يمر بأربع مراحل منذ حدوث الاثارة الجنسية حتى العودة إلى الحالة الاولى قبل حدوث هذه الاثارة. وتتلخص هذه المراحل في الآتي :

١ ـ مرحلة الاثارة (Excitement)

٢ ـ المرحلة المرتفعة (platean)

٣ ـ مرحلة الاورجازم (Orgasm)

٤ ـ مرحلة الهبوط (Resolution)

---

(١) انظر الجزء الاول والثاني من هذا الكتاب (المرأة والجنس والانثى هي الاصل).

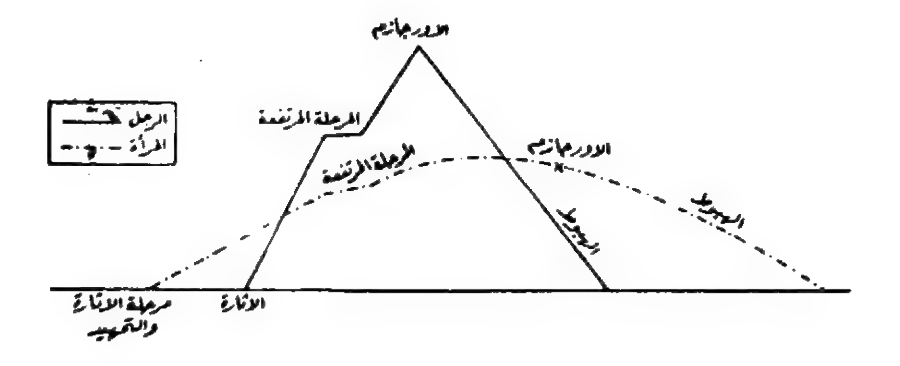
وقد وجد أن أي نشاط جنسي يمر بهذه المراحل الأربع من اجل ان يحدث ما يسمى بالاشباع. ولا تختلف هذه المراحل في الرجل عنها في المرأة. وكان هناك اعتقاد بأن مرحلة الاورجازم غير موجودة عند المرأة، وان المرأة لا يحدث لها اورجازم لانها لا تقذف السائل المنوي الذي يقذفه الرجل عند وصوله الاورجازم وقد تصور هؤلاء العلماء ان القذف عملية ذكورية بسبب وضوحها وبسبب الكمية الكبيرة التي تقذف. وبالمنطق نفسه تصوروا ان نشاط الرجل الجنسي اشد من نشاط المرأة لأن عضو الذكر اكبر من البظر حجماً وشكلاً.

لكن هذه الافكار تغيرت وخرج علماء الجنس في السنين الاخيرة بحقائق تثبت ان المرأة يحدث لها الاورجازم، وانها تقذف في قمة هذا الاورجازم، وأن النشاط الجنسي للبظر يشبه النشاط الجنسي للعضو الذكري.

وقد كان الاعتقاد القديم يقول إن مرحلة الاثارة عند المرأة سلبية، أي انها تتلقى الاثارة من الرجل، وتنتظر منه ان يكون هو البادىء بالاثارة، لان الرجل هو الايجابي. لكن اتضح أن المرأة تصبح ايجابية كالرجل حين تشعر باستقلالها وكيانها.

وكان بعض علماء الجنس يظنون أن المرحلة المرتفعة عند الرجل تصل إلى قمة عالية حادة كقمة الهرم (وهي التي يحدث عندها الاورجازم والقذف). أما عند المرأة فهذه المرحلة لا تصل أبداً إلى هذه القمة الهرمية وانما هي تشبه السفح أو الهضبة التي لا ترتفع إلى قمة حادة ابداً. وكانوا يظنون ايضاً ان مرحلة الهبوط عند المرأة بطيئة ولا تنتهي بسرعة انتهاء الاورجازم والقذف كما يحدث عند الرجل. وكانوا يدللون على ذلك بان الرجل ينتهي من العملية الجنسية بسرعة وتتلاشى رغبته في المرأة بانتهاء مرحلة الهبوط السريعة ولذلك يشعر الرجل برغبة في الانفصال بسرعة عن جسم المرأة وكثير من الرجال يعطون ظهورهم لزوجاتهم بمجرد انتهاء العملية. أما المرأة فانها تظل راغبة في الجنس لفترة اطول بسبب طول مرحلة الهبوط عندها.

وكنا نرى هذا الرسم البياني الذي يصور الفروق بين مراحل العملية الجنسية عند الرجل والمرأة:



يتضح من الرسم الآتي :

١ ـ الاورجازم عند المرأة أضعف منه عند الرجل ولا يصل إلى القمة العالية.
٢ ـ سرعة الرجل في جميع المراحل وسرعة الهبوط.
٣ ـ بطء المرأة في جميع المراحل وطول مرحلة الهبوط.

وقد اوضحت البحوث الجديدة ان الرسم الخاص بالمرأة لا يصور المرأة الطبيعية المنطلقة من القيود، وانما يصور المرأة المكبوتة أو الباردة جنسياً. وقد وجد أن هذا الرسم يختلف من امرأة إلى امرأة حسب درجة الكبت والبرود الجنسي، وأن هناك نساء (وبالذات اللائي قطعت بظورهن في عملية الختان) لا يصلن على الاطلاق إلى مستوى هذا الرسم، والبعض منهن لا يحظين بهذه المراحل الأربع وانما هي مجرد استجابة ضعيفة لنشاط الزوج الجنسي (من باب الواجب الزوجي أو الواجب الديني). وقد يصاحب هذه الاستجابة الضعيفة شيء من اللذة المصحوبة بالاثم والخجل، أو شيء من الالم (بسبب سادية معظم الرجال)، أو شيء من النفور والغثيان (بسبب جهل الرجل بانسانية المرأة واعتبارها مجرد مهبل يفرغ فيه طاقته الجنسية بمثل ما يمارس العادة السرية).

وبسبب برود المرأة الجنسي بصفة عامة (لاسباب اجتماعية واقتصادية وليست بيولوجية) وجد بعض العلماء أن المرأة تحتاج اكثر من الرجل إلى مرحلة تمهيد طويلة قبل أن تشعر بالاثارة الجنسية. ولهذا نرى في الرسم الخاص بالمرأة مرحلة التمهيد أما عند الرجل فلا توجد هذه المرحلة. ويزداد طول مرحلة التمهيد في النساء حسب درجة برودهن ودرجة الكبت اللتين تعرضن لهما في الطفولة وما إذا كان البظر موجوداً

وسليماً أو تعرض لعملية الختان، هذه العملية التي تتم في معظم الاحيان بواسطة الدايات الريفيات الجاهلات وكثيراً ما تقطع الداية بالموسى البظر كله، وتحدث الموسى الحادة بعض التهتك والتمزق في الاعصاب التي تغذي البظر. في مثل هذه الحالات يلتئم الجرح بعد عملية الختان لكن تظل هناك منطقة حساسة «كالعصب العاري» ما ان يضغط عليها عضو الذكر (أو يده) في العملية الجنسية حتى تشعر المرأة بالم يشبه المس الكهربي الضعيف يحول بينها وبين الشعور باللذة ولا أقول الوصول إلى الاورجازم. وقد واجهت كثيراً من هذه الحالات، وعلاجها يستوجب عملية جراحية اخرى تصلح الجرح القديم، وتتخلص المرأة من الالم الشبيه بالمس الكهربي، وبالطبع لا تعود اليها اللذة الطبيعية لانه لا يمكن اعادة العضو الذي استؤصل من قبل بالموسى.

وهذه احدى مآسي عدد كبير من النساء في مصر والسودان والصومال وبعض البلاد العربية والاسلامية التي انتشرت فيها عادة ختان البنات من اجل الحفاظ على العذرية والعفة. وهي ليست احدى مآسي النساء فحسب، ولكنها أيضاً احدى مآسي الرجال، لان الرجل في معظم الحالات يعجز عن اثارة المرأة بالطرق العادية السهلة ويضطر احياناً إلى استخدام بعض الدهانات أو العقاقير التي يشيع عنها تجار الادوية انها تقوي الاعصاب وتؤجل القذف، واحياناً لا يكون امامه الا الحشيش أو المخدرات من اجل اطالة العملية الجنسية وتأجيل القذف.

لكن الذي يحدث في بعض الاحيان أن مثل هذه الجهود من جانب الرجل تبوء بالفشل، وبدلا من الحصول على انتصاب قوي وتأجيل القذف يحدث العكس بالضبط. اذ يصاب الرجل بضعف في الانتصاب او سرعة في القذف، وفي معظم الاحيان بالاثنين معا.

والسبب في ذلك ان الجنس ليس عملية بيولوجية بحتة، وليس عملية كيميائية يمكن ممارستها بواسطة العقاقير المنبهة او المخدرة، وانما هي عملية انسانية بالدرجة الاولى، تحتاج الى ان يشعر الرجل انه انسان عاقل وليس حيوانا اعجم غائبا عن الوعي، تحتاج الى ان تشعر المرأة انها انسانة عاقلة وليست جثة مبتورة الاعضاء باردة الاحاسيس، وتحتاج من الاثنين معا التبادل الانساني بحيث ينظر كل منهما الى الآخر على انه انسان مثله تماما، وليس هناك من هو اقل من الآخر او ادنى.

وهذا بالطبع امر مفقود في معظم الحالات بسبب الحضارة الذكورية والنظم الابوية

التي تفرض على المجتمع ان ينظر الى المرأة على انها اقل من الرجل. وتوارث المجتمع النظرة المشوهة لحقيقة المرأة جيلا وراء جيل.

لكن بعض العقول المتفتحة من العلماء الرجال والنساء خرجوا الى العالم بدراسات[1] وحقائق جديدة عن النشاط الجنسي عند الرجل والمرأة. وتوضح معظم هذه الدراسات ان المراحل الجنسية عند المرأة تشبه المراحل الجنسية عند الرجل من حيث الزمن ونوع الاثارة وقمة الاورجازم ومرحلة الهبوط. واتضح ان الفكرة القديمة التي قالت بطول مرحلة الهبوط عند المرأة سببه ان البرود الجنسي يجعل المرأة عاجزة عن الحصول على الاشباع الكامل، ولذلك تظل تشعر برغبة جنسية بعد انتهاء الرجل، وقد تستمر هذه الرغبة معها الى اليوم التالي وتسبب لها صداعا او توترا عصبيا معينا. ووجد ان الزوجات المصابات بالصداع الدائم او العصبية الزائدة عن الحد يعانين من حرمان جنسي بسبب عجز الازواج عن اشباعهن جنسيا لعوامل متعددة تتعلق بالزوجات وبالازواج معا.

على ان الحقائق العلمية الجديدة قد كشفت عن كثير من العيوب والمشكلات الجنسية التي عانى منها الرجال والنساء طويلا دون ان يفهم احدهما الآخر، ودون ان يدرك الرجل او تدرك المرأة ان النقص ليس في واحد منهما فقط ولكن النقص فيهما كليهما بسبب الحضارة المشوهة لكلا الرجل والمرأة.

وقد توصل العلماء لهذه الحقائق الجديدة بعد ان خرجت المرأة الى العمل وحصلت على استقلالها الاقتصادي والنفسي والجسدي واستطاعت بعض النساء الجديدات ان يتغلبن على كثير من عقد الكبت والخوف والذنب التي كانت تعوق نشاط المرأة الجنسي وتسبب لها البرود. وكذلك ايضا تغير نظرة المجتمع الى المرأة والمناداة بمساواة المرأة والرجل، وظهور اجيال جديدة من الشباب (رجالا ونساء) لا يعترفون بالفروق القديمة بين الذكر والانثى.

ولا شك ان البرود الجنسي الذي كان يصيب معظم النساء في العالم (بسبب القيود الاجتماعية وقوانين الزواج والعفة المفروضة على النساء فقط) هو الذي ضلل معظم علماء الجنس. فقد كان البرود الجنسي في الحضارة الذكورية هو صفة معظم النساء، وتصور الكثيرون من العلماء ان هذا البرود هو صفة المرأة الطبيعية، كما تصور «فرويد»

---

(١) انظر ابحاث كينزي وماسترز وجونسون وشيري وماني ورايخ وغيرهم.

ان السلبية الماسوشية والضعف هي صفات الانوثة الطبيعية.

ولم يستطع معظم هؤلاء العلماء معرفة الاسباب الاجتماعية لهذا البرود الجنسي (بسبب انفصال علم الطب والجنس عن علم التاريخ والمجتمع) وقالوا ان المرأة بطبيعتها بطيئة، او ابطأ من الرجل سواء في مرحلة الاثارة او المراحل الاخرى التي تليها. وان اسباب هذا البطء هو اختلاف الرجل عن المرأة بسبب الفروق البيولوجية والتشريحية والهرمونات الذكرية النشطة، وافرازات الغدد الصماء وغير ذلك.

لكن الذين درسوا الاسباب الحقيقية لهذا البطء او البرود الجنسي وصلوا الى هذه النتائج:

١ ـ في المجتمعات التي تعطي للنساء حريات اجتماعية اكثر فان هذا البرود يقل بشكل ملحوظ، وتكاد تقترب النساء من الرجال في سرعة الاثارة والاورجازم.
٢ ـ في المجتمعات التي تزيد من القيود على النساء فان هذا البرود يزيد الى حد أنه قد يمثل مشكلة للازواج الرجال الذين يضطرون الى تعاطي الحشيش وغيره من المخدرات التي تؤجل حدوث الاورجازم عند الرجل الى حين حصول المرأة على شيء من الاشباع. وهذه الظاهرة منتشرة في بعض المجتمعات العربية وبالذات المجتمع المصري والسوداني الذي لا يكتفي بالقيود القانونية والاخلاقية والاجتماعية على النساء ولكنه يستأصل بظور البنات بعمليات جراحية تسمى الطهارة او الختان[1].
٣ ـ لا يزال المجتمع البشري خاضعا بصفة عامة للحضارة الذكورية والاسرة الابوية القائمة على العذرية والعفة والزواج الاحادي للنساء وتعدد الزوجات والتجارب الجنسية (في العلانية او في السر) للازواج، ولذلك فان الاغلبية من النساء ما زلن باردات جنسيا بدرجات متفاوتة حسب زيادة القيود او انخفاضها.
٤ ـ ما زالت الاغلبية الساحقة من النساء في العالم يعشن في كنف الزوج ولم ينلن بعد الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي.

وقد اتضح ان رغبات الاطفال الجنسية تتشابه في الاطفال الذكور والاناث، وان النشاط البظري في البنت الطفلة لا يقل عن نشاط العضو الذكري عند الطفل. وقال

---

(١) انظر: المرأة والجنس.

فرويد[1]: «لقد وجدنا ان القوى الليبيدية نشطة في الطفلة الانثى تماما كما هي في الطفل الذكر».

لكن حين يكبر الطفل والطفلة ويدخلان مرحلة المراهقة فان القيود الجنسية تفرض على الفتاة من اجل المحافظة على عذريتها، اما الشاب الذكر فانه يعطى حريات جنسية لا تعطى لاخته البنت.

والسؤال الذي يبرز الآن: مع من يمارس الشاب الجنس! وبعبارة اخرى كيف يصرف الشاب طاقته الجنسية طوال سنوات المراهقة والشباب حتى يتزوج؟.

ولا شك ان هذه احدى المشاكل الجنسية والنفسية الرئيسية في مجتمعنا العربي والمصري للاسباب الآتية:

١ ـ الازدواجية الاخـلاقية من حيث فرض القيود الاخـلاقية والجنسية على نصف المجتمع (الاناث) واباحة الحرية الجنسية والاخلاقية للنصف الأخر (الذكور).
٢ ـ رغم اباحة الحرية الجنسية للذكور فان النظرة العامة للجنس لا تزال على انه الاثم والدنس ويربى الاطفال (ذكورا واناثا) منذ الصغر على الكبت وعلى الاحساس بالذنب والنقص بسبب رغباتهم الجنسية الطبيعية.
٣ ـ انتشار الكتب الدينية والمواعظ الدينية والاخلاقية التي تدعو الى الفضيلة والبعد عن الرذيلة (الجنس) وبالذات في المراحل الوطنية الحرجة حين تلجأ بعض القوى الاقتصادية الاجنبية او الداخلية الى اشعال الحماس الديني او خلق نعرات للتغطية على ازمات اقتصادية وسياسية معينة.

٤ ـ إنتشار الافلام الجنسية والمجلات والمسرحيات والاغاني والرقصات الخليعة العارية التي تلهب الرغبات الجنسية، وتفشي الاعلانات في اجهزة الاعلام القائمة على جسد المرأة العاري من اجل تصريف البضائع والمنتجات على غرار ما يحدث في المجتمعات الرأسمالية.
٥ ـ الفصل بين الجنسين في معظم قطاعات المجتمع وفي حالة اباحة الاختلاط يفتقد المجتمع وسائل الاختلاط من حيث الاندية والانشطة التي تساعد على تنمية الصداقة والعلاقة بين الجنسين بل العكس هو الصحيح بمعنى ان الاختلاط يباح

---

(١) انظر: الانثى هي الاصل.

شكلا ومظهرا فقط ولكن تعاقب اي فتاة تصادق زميلا لها (مجرد صداقة ولا اقول الحب).

٦ ـ الازدياد المستمر في عدد سنوات المراهقة والاعتماد على الاسرة في الاعالة بسبب طول فترة التعليم، وطول الفترة التي يقضيها الشاب بعد التعليم من اجل اعداد نفسه للزواج اقتصاديا بعد ان ارتفعت الاسعار وازدادت ازمة المساكن وتزايد عدد الشباب العاجزين عن الزواج لاسباب اقتصادية. ونتج عن كل ذلك ازدياد المسافة بين نضوج الشاب بيولوجيا وحاجته الشديدة الى الجنس ونضوجه الاقتصادي بحيث يحصل على مرتب يساعده على الزواج. هذه المسافة في المتوسط لا تقل عن عشر سنوات (من ١٥ ـ ٢٥ سنة) فكيف يصرف الشاب طاقته الجنسية خلال هذه السنوات؟

ومن الحقائق التي اصبحت معروفة ان الطاقة الجنسية كأي طاقة اخرى لا تضيع اذا كبتت ولكنها تنحرف عن مسارها الطبيعي الى طرق اخرى غير طبيعية.

وبدراسة الحياة الجنسية للشباب في مجتمعنا نجد ان الشباب يتحايلون على إشباع حاجتهم الجنسية والعاطفية بشتى الطرق وبأي الطرق. ويمكن تلخيص هذه الطرق كالآتي:

١ ـ ممارسة الجنس مع النفس (العادة السرية). وتعتبر هذه العادة من اكثر الطرق انتشارا بين الشباب لانها لا تكلف الشاب مشقة الحصول على امرأة، كما ان الاحساس بالذنب الذي يصاحبها اقل من الاحساس بالذنب الذي يصاحب العملية الجنسية الكاملة مع الجنس الآخر.

٢ ـ ممارسة الجنس مع الجنس نفسه (الجنسية المثلية او ما يسمى بالشذوذ الجنسي[1]) بسبب ان الاختلاط مباح بين الذكور ولان الجنس الآخر غير متوفر.

٣ ـ الخيالات الجنسية واحلام اليقظة والاقبال على رؤية الافلام الجنسية والصور العاريات وكثرة الحديث عن الجنس كنوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة لا تجد لها مخرجاً.

٤ ـ اللجوء الى المومسات في حالة هؤلاء الشباب القادرين ماليا خاصة بعد ان ارتفع سعر المومسات اسوة بارتفاع اسعار السلع الاخرى.

---

(١) انظر الفصل ٨ من هذا البحث.

٥ ـ الاعتـداء الجنسي على الخادمات في حالة هؤلاء الشباب من الاسر والطبقات القادرة على تشغيل الخادمات في البيوت. او الاعتداء على الفتيات من الطبقات الاقل بصفة عامة.

٦ ـ الاعتداء الجنسي على الاطفال البنات (وايضا الذكور) من داخل الاسرة او من خارجها. وقد وجدت في احد البحوث ان نسبة هذه الاعتداءات ليست قليلة كما يتصور الكثيرون[٢].

٧ ـ خداع الفتيات المراهقات والشابات باسم الحب او الزواج من اجل تصريف الحاجة الجنسية فحسب ثم نقض الوعد او الاختفاء من حياة الفتاة، وتكرار العملية مع فتيات اخريات.

٨ ـ التنفيس عن الطاقة الجنسية بطرق مرضية مثل الالتصاق بالنساء في المواصلات العامة المزدحمة، او الاستعراضات الجنسية او التعلق بملابس المرأة الداخلية[٣] او الاصابة بالعصاب او الارق او العنف او العدوان او الاغتصاب الجنسي او غير ذلك من الانحرافات الجنسية والامراض النفسية.

هذه الطرق هي المتاحة امام الشباب في مجتمعنا. ولا يمكن ان ننكر ان هناك قليلا من الشباب من الجنسين الذين حظوا باسر متفتحة وظروف فضلى من ظروف الاغلبية من الشباب وسمحت هذه الظروف بنشوء علاقات سليمة بين الجنسين سواء كانت صداقة ام حبا.

لكن هؤلاء هم الاستثناء وليسوا القاعدة. والسبب في ذلك ان الازدواجية الاخلاقية والاجتماعية تنعكس على نفوس الناس. مثلا لو اخذنا الازدواجية الاخلاقية المنتشرة في مجتمعنا والتي تقول:

١ ـ التجارب الجنسية في حياة الرجل فخر ورجولة.
٢ ـ التجارب الجنسية في حياة المرأة عار وانحطاط.

ما الذي يمكن ان ينتج عن هذه الازدواجية!

ان الذي ينتج بطبيعة الحال ان ينطلق الذكور في المجتمع ينشدون التجارب

---

(٢) انظر الجزء الاول والثاني من هذا البحث، وانظر جريدة اخبار اليوم بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٧٤ الصفحة العاشرة، والفصل ١١ من هذا البحث.

(٣) انظر الفصل التاسع والفصل العاشر من هذا البحث.

الجنسية بأي شكل وبأي ثمن من اجل الحصول على الفخر وتأكيد الرجولة (وليس فقط من اجل الاشباع الجنسي). بل ان هؤلاء الرجال الذين يعجزون عن ممارسة هذه التجارب يدعون كذبا للاخرين انهم مارسوها من اجل عدم الاحساس بالنقص او الاتهام بفقدان الرجولة.

من اهم المشاكل التي تعاني منها طالبات الجامعة في مجتمعنا ان الطالبة منهن ما ان تبتسم في وجه زميل او تقول له «صباح الخير» حتى تنطلق الاشاعة بعد بضعه ايام بان هناك علاقة بين الطالبة وزميلها، ويتضح ان الذي بدأ الاشاعة هو هذا الزميل نفسه.

على ان هناك كثيرا من الشباب الذين لا يطلقون مثل هذه الشائعات من اجل التفاخر فحسب، ولكنهم يظنون ايضا ان الفتاة التي تقول صباح الخير او تبتسم لزميل فالمعنى الوحيد لذلك انها تدعوه الى السرير، او على الاقل لا تعترض اذا هو طلب.

* * *

كان الاعتقاد القديم ان العادة السرية تفتك بصحة الشاب. لكن الدراسات والحقائق الجديدة اوضحت ان جميع الذكور والاناث يمارسون العادة السرية في فترة ما في المراهقة، وانها مرحلة طبيعية من مراحل النمو الجنسي[1].

الاشباع الذاتي أو العادة السرية يعرف علمياً باسم «الاونانية» نسبة إلى قصة «أونان وتامار» التي جاءت في التوراة، والتي قالت أن أونان لم يكن يحب زوجته وكان يمارس الاشباع الذاتي قاذفاً سائله المنوي وبذور اخصابه على الارض فلعنه الله.

ووجد العلماء أخيراً أن الاشباع الذاتي مرحلة طبيعية من مراحل النضوج الجنسي عند المراهقين والمراهقات. وأنه ليس عملاً شاذاً، ووجدوا أن جميع الحيوانات تمارسه أحياناً، وتمارسه دائماً في حالة غياب الجنس الآخر.

أما تحريم هذا النشاط الجنسي اخلاقياً أو دينياً فيرجع إلى اسباب اقتصادية إذ أن المجتمع كان يشجع ولادة الاطفال وزيادة النسل ولم يكن هذا النشاط الذاتي يزيد من عددالاطفال بأي حال من الاحوال.

---

(١) انظر الجزئين الأول والثاني من هذا البحث.

لكن من الحقائق المعروفة ايضاً أن التربية الخاطئة والكبت والفصل بين الجنسين يؤدي إلى أن يفرط الشباب في ممارسة العادة السرية وأن يزاولوها فترة أطول بحيث تؤثر على حياتهم الجنسية مع زوجاتهم فيما بعد.

لقد اتضح مثلاً أن من أهم اسباب القذف السريع المنتشر بين الازواج والرجال والشباب هو الافراط في العادة السرية. فان الافراط في هذه الممارسة لفترات طويلة بسبب اشتداد حساسية رأس العضو (glans pénis) ثم ينتج عن ذلك نوع من الاحتقان والتهاب الانسجة والاغشية المخاطية، وبمرور الوقت ومع كثرة الممارسة يحدث القذف أو نزول السائل المنوي لمجرد لمس العضو باليد، (وفي حالة الزواج بمجرد لمس مهبل المرأة)، وفي مثل هذه الحالات تضعف اللذة الجنسية. وهذا يدفع الشباب إلى الممارسة الاشد من أجل الحصول على اللذة التي تعودوها، لكن اشتداد الممارسة يزيد من الاحتقان والالتهاب الذي يسبب بدوره مزيداً من الضعف في اللذة، وهكذا يدور الشاب في حلقة مفرغة حتى يحدث القذف بغير لذة، وأحياناً يحدث القذف بغير انتصاب على الاطلاق. وبهذا تكون الحالة قد وصلت الى احتقان بالبروستاتا وبعض المجاري البولية، وتدخل تحت باب الامراض العضوية.

ويلجأ الشباب إلى الافراط في العادة السرية بسبب الكبت والقيم المزدوجة وفصل الجنسين ولهذا ينتشر بين الشباب مشكلة القذف السريع بدرجات متفاوتة حسب درجات ممارسة العادة السرية. ويمثل القذف السريع ايضاً مشكلة جنسية أو نفسية لكثير من الازواج الشباب في بدء حياتهم الزوجية، لان الواحد منهم ما أن يلمس زوجته حتى يقذف، أو ان مراحل العملية الجنسية الاربع لا تستغرق الا بضع ثوان. ويمكن تلخيص اسباب سرعة القذف في النقاط الآتية:

١ ـ الخوف من العلاقة الجنسية بالمرأة لاسباب متعددة سبق شرحها.
٢ ـ عقدة النقص والاحساس بالذنب منذ الطفولة.
٣ ـ اللهفة الشديدة بسبب الحرمان والكبت الطويل الامد.
٤ ـ الافـراط في العادة السرية للاسباب السابق شرحها، وأيضاً لنعومة مهبل المرأة بالنسبة ليد الشاب.
٥ ـ فصل الجنس عن الحب، واعتبار الحبيبة أو العروس ملاكاً ظاهراً، والجنس نوعاً من الدنس.
٦ ـ ختان الذكور الذي يزيد من حساسية رأس العضو (glans penis) .

٧ ـ ختان البنات الذي يقلل من حساسية المرأة الجنسية.

٨ ـ سرعة الذكور في الوصول إلى الاورجازم بسبب الحرية الجنسية المتاحة لهم نسبياً.

٩ ـ تاخر المرأة في الوصول إلى الاورجازم بسبب الكبت الاشد المفروض على المرأة.

١٠ ـ الخوف من ضعف الانتصاب أو ضعف القدرة الجنسية وعدم اثبات الذكورة او الفحولة.

١١ ـ الخوف من الامراض التناسلية (بسبب الممارسات السابقة مع المومسات).

١٢ ـ العجز عن التخلص من الخيالات الجنسية السابقة والتي تكون دائماً اكبر من الواقع. وقد وجد أن مثل هذه الاسباب قد لا تسبب القذف السريع فحسب، ولكنها قد تسبب عجزاً جنسياً كاملاً وعدم القدرة على الانتصاب وبالذات ليلة الزفاف ويسمى طبياً «عجز ليلة الزفاف» وقد يستمر هذا العجز الليلة الاولى فقط بسبب الخوف وتهيب الرجل من اللقاء الاول مع زوجته، وقد يستمر فترة اطول حسب التجارب الجنسية السابقة لهذا الرجل ودرجة مخاوفه من المرأة والجنس ودرجة احساسه بالاثم أو النقص.

أما الاعتداء على الخادمات فهذه احدى الظواهر الاجتماعية المتفشية في الطبقات المتوسطة وفوق المتوسطة والعالية. والاعتداء قد يقع على الفتاة الصغيرة الفقيرة من الابناء الذكور ومن صاحب البيت أيضاً. إذا لم تظهر علامات الحمل على الخادمة بقيت بالبيت تشتغل بالنهار، وفي الليل تؤدي دورها في التنفيس عن الطاقات الجنسية المكبوتة لدى الذكور. لا يمكن لمثل هذه الخادمة أن تبوح لاحد بهذه الاسرار خوفاً من أبيها الريفي أو الصعيدي، وخوفاً من أن تطردها صاحبة البيت.

أما إذا ظهرت علامات الحمل على هذه الفتاة فان المشكلة تظهر على السطح، ولا يكون لها الا أحد هذه الحلول:

١ ـ تتستر الاسرة على الخادمة خوفاً على ذكور العائلة وتأخذها إلى طبيب يجهضها نظير أجر كبير ثم تعود الخادمة إلى البيت أو تطرد وتذهب إلى بيت آخر وتتكرر المأساة في كل بيت تقريباً.

٢ ـ تنكر الاسرة وبالذات الذكور علاقتهم بالخادمة، وتتهم الخادمة بانها منحرفة السلوك ولها علاقات بالبواب والمكوجي والجزار. وتطرد الخادمة لتبحث بنفسها

عن الحل. أو تطلب الاب ليأتي ويتسلم ابنته.

٣ ـ مصير الخادمة المسكينة إذا عرف ابوها القصة وكان «عصبياً» أو «صعيدياً» القتل والدفن سراً من أجل التكتم على الفضيحة.

٤ ـ إذا لم يعرف الاب شيئاً، أو استطاعت الفتاة الهرب بأي شكل فانها تحاول اجهاض نفسها بالطرق الريفية (عود ملوخية) وقد تنزف حتى الموت بعد الاجهاض، وقد تنجو وتعيش وتعود إلى الخدمة بالبيوت وتتكرر المأساة.

٥ ـ قد يعطف على الفتاة طبيب انسان ويجهضها بغير أجر لكن معظم الاطباء يطردونها لانها لا تملك الاجر. ثم تعود الفتاة إلى الخدمة بالبيوت حيث لا تملك عملاً آخر ولا تستطيع العودة إلى أهلها أو قريتها.

٦ ـ بعض هؤلاء الخادمات من ذوات المواهب الفنية الخاصة يلجأن إلى الحياة الفنية فيمارسن الرقص البلدي أو الغناء أو التمثيل. أو يشتغلن في حانات الليل مومسات متنقلات بالاجر.

* * *

أما المومسات المستقرات في بيوتهن فهن أحسن حالاً من هؤلاء المتنقلات، وغالباً ما يكون صاحب الحانة والبيت رجلاً قواداً يشغل عدداً من النساء والفتيات بالدعارة ويستغلهن مالياً وجنسياً ويهددهن بالقتل أو الفضيحة إذا ما طالبت واحدة بحقها أو فكرت في الهرب. وتضطر الواحدة منهم للبقاء خوفاً من أسرتها أو خوفاً من التشرد والضياع والجوع.

وقد كان البغاء في مصر[1] قانونياً وتحت اشراف الدولة لكنه أصبح منذ سنة ١٩٥١ غير قانوني. الا أن تحريم البغاء لم يمنع وجود البغاء، لانها ظاهرة اجتماعية لها أسبابها الاقتصادية والاخلاقية ولا يمكن أن تنتهي بقرار أو قانون. بل ان الدارسين لمجتمعنا يعرفون أن البغاء زاد انتشاراً إلى حد أن الصحف في السنين الاخيرة أطلقت عليه اسم «تجارة الرقيق الابيض».

وبدراسة تاريخ نشوء البغاء في الحضارة الذكورية ندرك أن البغاء نشأ مع نشوء الاسرة الابوية التي فرضت على المرأة زوجاً واحداً وأعطت للرجال الحرية الجنسية.

(١) انظر : فصل «المرأة والبغاء» في «الأنثى هي الأصل»، في هذا الكتاب.

ولهذا خلق المجتمع الذكوري فئة المومسات والجواري والسراري وغيرهن ليمارس الرجال معهن الجنس خارج الزواج. ويتضح أيضاً أن مشكلة الاطفال غير الشرعيين نشأت بنشوء الاسرة الابوية إذ أن الرجل لا يعطي اسمه لاطفاله من هؤلاء النساء اللائي يمارس معهن الجنس خارج الزواج. بمعنى آخر لقد أنتج النظام الابوي في اللحظة التي نشأ فيها مشكلتين من أخطر المشاكل الاجتماعية والانسانية هما:

١ ـ البغاء.
٢ ـ والاطفال غير الشرعيين.

ولأن المجتمع هو الذي انتجهما فقد كان لا بد أن ينشىء لهما مؤسسات تحت اشراف الدولة، ومن هنا نشأت مؤسسات البغاء الرسمية، ومؤسسات ملاجىء الأطفال اليتامى وغير الشرعيين ومؤسسات الاحداث... الخ.

وهذه كلها وصمات عار في جبين هذه الحضارة غير الانسانية التي تجعل النساء والاطفال الابرياء كبوش فداء لشهوات الذكور الذين ألبسوا زوجاتهم حزام العفة الحديدي ثم انطلقوا يعربدون مع المومسات والعشيقات والجواري ومن ملكت يمينهم.

* * *

أما هؤلاء الرجال الذين يحاولون تصريف طاقتهم الجنسية في المواصلات العامة المزدحمة عن طريق الالتصاق بالنساء أو الاحتكاك بهن من الامام أو الخلف، فان هؤلاء الرجال نوعان:

١ ـ نوع طبيعي، ولكنه مكبوت جنسياً ولا يجد وسيلة للاشباع الجنسي غير هذه الوسيلة.
٢ ـ نوع آخر، وهؤلاء هم الرجال الذين يحتكون بالنساء من الخلف. والسبب في ذلك أنهم يفضلون فتحة الشرج، لانها أقل تهديداً لهم من مهبل المرأة بسبب الخوف من المرأة. أرجع فرويد مثل هذه الحالات إلى عقدة الاخصاء التي يشعر بها الطفل الذكر. وقال فرويد ايضاً ان فتحة الشرج تظل عند بعض الرجال مركزاً للاثارة الجنسية بسبب خبرة طفولية قديمة ارتبطت باخراج الفضلات واللذة معاً، فضلاً عن أن الاحساس بالذنب المترسب منذ الطفولة يجعل الرجل يبتعد عن مهبل المرأة الذي ارتبط بالاثم. لكن كثيراً من العلماء رفضوا نظرية فرويد بأكملها

عن الفترة التي سماها «الفترة الشرجية» عند الطفل Anal stage على أن التجارب أثبتت أن فتحة الشرج ترتبط في أذهان بعض الناس بلذة اخراج الفضلات ولها عندهم شحنة عاطفية وجنسية معاً.

وقد وجد أن هؤلاء الرجال الذي يفضلون فتحة الشرج يميلون إلى ممارسة الجنس مع امثالهم من الرجال (يسمى بالشذوذ الجنسي)، وفي الريف يميلون إلى هذه الممارسة مع الحيوانات.

ويقول بعض العلماء والباحثين إن الرجال بصفة عامة يشعرون بالحسد تجاه الحيوان حين يمارس الجنس، لان الحيوان يمثل لهم الجسد فحسب بغير عبء الاحساس بالاثم أو الذنب. وربما يكون هذا أحد الاسباب في انهم يفضلون الاتصال الجنسي بالحيوانات من اجل التخلص من الاحساس بالذنب أو التخفيف منه.

ويتضح لنا مما سبق أن الطاقة الجنسية لا تضيع حين تكبت، ولكنها إذا وجدت الطرق الطبيعية مسدودة أمامها انحرفت إلى طرق أخرى تؤدي بها إلى تفريغ شحنتها من أجل الوصول إلى الاورجازم.

ولكن الاورجازم الذي ينتج عن العلاقات الناضجة بين الجنسين القائمة على الحب والتبادل والتساوي يبعث في نفس كل من الرجل والمرأة احساساً اعمق واشمل بالسعادة واللذة لا يمكن أن يحصل عليها الشخص من الممارسات الاخرى البديلة. ذلك ان الجنس الناضج لا يمكن أن يتم بغير حب ناضج، والحب الناضج لا يمكن أن يحدث الا بين اشخاص ناضجين، والنضوج لا يمكن أن يحدث في ظل الكبت والخوف والكذب والازدواجية والاحساس بالنقص والذنب.

ان الاورجازم أو قمة اللذة ليست عملية فسيولوجية أو بيولوجية فحسب يمكن أن تتم عن طريق العادة السرية أو مع الحيوانات، ولكنها قمة الاحساس بالشخص الآخر وقمة الاحساس بالنفس، ولا يمكن أن تحدث بهذا المعنى الانساني الشامل المتبادل الا بين انسانين ناضجين، يلتقيان جسداً ونفساً وعقلاً كوحدة واحدة لا تتجزأ، على اساس من الاختيار الحر، والحب، والتبادل المتساوي، والصدق، بحيث لا يفصل بينهما جدار من العقد والرواسب، او أحاسيس النقص والذنب والكذب.

بمعنى آخر ان الاورجازم الجنسي لا بد وان يصاحبه في اللحظة نفسها اورجازم نفسي حتى تتحقق تلك اللذة القصوى التي لا يعرفها الا القليلون جداً من النساء

والرجال. والتي عجز عن وصفها الشعراء وعلماء البيولوجيا على حد سواء، بسبب انفصال الفن عن العلم[1] في حضارتنا الذكورية القائمة على فصل العقل عن الشعور، والجسد عن النفس.

ان هذه اللحظة الرائعة حين تتحقق شعورياً وجسدياً وعقلياً فانها يمكن أن تفجر في الانسان كل طاقاته الخلاقة وجميع قدراته الابداعية. وهي ليست معجزة، وليست إلها ما يهبط من السماء، ولكنها وعي وجهاد طويل من اجل النضوج الانساني جسداً ونفساً في ظل ظروف اجتماعية فُضلى. انه الطريق الصعب والوحيد نحو الحب.

---

(١) كثير من الناس في مجتمعنا يبدون دهشة (ممزوجة بالاستنكار) حين يرون طبيبا يكتب الشعر أو الادب. وقد تعرضت لهذا السؤال من كثير من الناس: كيف تكتبين أدبا وقصصا وانت طبيبة، أو كيف تمارسين الطب وانت أديبة. وهل يمكن الجمع بين الاثنين؟

الفصل السابع

حنين الرجل لأن يكون أنثى

إذا واجه الرجل، أي رجل، نفسه بصدق وشجاعة وثقة، فسوف يدرك أنه يشعر، أو شعر في يوم من الايام، بحنين دفين لان يكون انثى.

هذا الحنين المدفون في العقل الباطن لكل رجل ليس انحرافاً أو شذوذاً. إنه شعور طبيعي يشعر به كل جنس تجاه الجنس الآخر.

ينشأ هذا الشعور في كل الاطفال: فالطفل (لانه لم يغير نفسه بعد وفقاً للضغوط الاجتماعية) لا يزال محتفظاً بنفسه الكلية، وهي نفس مزدوجة، فيها الانثى والذكر معاً، ولهذا لا يفرق الاطفال بين الذكر والانثى كما يفرق الكبار.

وكان الفكر اليوناني القديم يعتبر الجمال صفة منفصلة عن الذكورة والانوثة بل انهم صوروا اله الجنس «ايروس» في صورة جسم بديع متناسق يشتمل على أعضاء الذكر والانثى معاً. ومن المعروف أن كلمة (هيرما فروديت» (hermaphrodite) وتعني علمياً «الخنثى» قد أخذت من الاسطورة اليونانية عن «هرمس» الذي عشقته «أوفرديت» ورجت الالهة أن يندمج جسده في جسدها. وأجابت الالهة دعوتها وولد «هرما فروديت» الخنثى.

وهذا يدل على أنه رغم جهل اليونانيين في ذلك الحين بالبيولوجيا ونظرية ازدواجية الجنس في الانسان الا أنهم استطاعوا أن يدركوا ذلك بمشاعرهم وأحاسيسهم الفطرية.

وتقول كارين هورني في هذا المعنى: ان ازدواجية الجنس عند الانسان تظهر في الاطفال بوضوح اكثر من غيرهم، لانهم لا يدركون كالكبار تحديد جنسهم. وقد ترى عند بعضهم رغبات جنسية مزدوجة ساذجة وبريئة، فتشعر البنت أحياناً أنها ذكر، ويشعر

الذكر أنه بنت. لكن المجتمع يحدد لكل منهما صفاته ودوره فيكبت الذكر شعوره بالانوثة وتكبت البنت شعورها بالذكورة[1].

ومن الناحية البيولوجية والتشريحية ايضاً فان جسم الانسان مزدوج الجنس. البظر يقابل عضو الرجل. ويلعب في الجنس دوراً مشابهاً ويمتلىء بالدم وينتصب. ان ثدي الرجل حساس للجنس كثدي المرأة، ويمكن أن يكبر حجمه بحقن الهرمونات المناسبة.

بمعنى آخر ان التكوين التشريحي والبيولوجي للانسان لا يضع فروقاً كبيرة بين الجنسين، وانه ليس هناك من هو ذكر ١٠٠٪ أو أنثى ١٠٠٪.

لكن المجتمع هو الذي يضع الفروق من اجل ان تنقسم الوظائف داخل الاسرة الابوية وتخارجها إلى وظائف ذكرية ووظائف انثوية.

ان عملية التكيف الاجتماعي التي تحدث لكل انسان تحدث في عقله الواعي فقط. ان العقل الواعي في الرجل هو الذي يجعله ذكراً حسب المقاييس والاوصاف الاجتماعية السائدة للذكورة. وان العقل الواعي في المرأة هو الذي يجعلها انثى حسب المقاييس والاوصاف الاجتماعية السائدة للانوثة. والعقل الواعي في الانسان ليس الا جزءاً من عقله الكلي. اما الجزء الآخر الاعمق فهو العقل الباطن، وهو الذي يحتفظ بصفات الانسان الاصلية المزدوجة التي تجمع الذكر والانثى معاً، والتي وصفها «يونج» وسمى الجزء الانثوي في الرجل (Anima) والجزء الذكري في المرأة (Animus).

ان معظم المشاكل النفسية والجنسية ترجع إلى ذلك الصراع الدائم بين الفترة الواعية من المخ وبين الجزء الآخر الاعمق من العقل الذي يسمى بالعقل غير الواعي. ان مرض انفصام الشخصية المعروف بالشيزوفرينا يتميز بعجز الانسان عن أن يكون نفسه الكلية أوعقله الكلي. بمعنى آخر أن عقله الواعي وغير الواعي أصبحا عقلاً واحداً واعياً، ناضجاً.

على أن أغلبية الناس تقع في منتصف الطريق ما بين النضوج الكامل والانفصام الكامل. ان معظم الناس يشعرون بالصراع بين العقل الواعي (تعاليم الاهل والمجتمع) وبين العقل غير الواعي (الرغبات الحقيقية).

---

(١) انظر المرأة والجنس ص ٣٧.

وإني اعتقد ان تسمية العقل الباطن بالعقل غير الواعي تسمية غير صحيحة. إذ من الخطأ أن نتصور ان العقل الباطن لا يعي. انه يعي كل شيء، بل إن وعيه قد يكون اكثر وأعمق من العقل الظاهر الذي يخضع بسرعة ويدخل في القالب الذي وضعه له المجتمع. والمشكلة في حالة الانحرافات والامراض النفسية والجنسية ليست في أن العقل الباطن لا يعي وأن العقل الظاهر هو الواعي. لكن المشكلة ان المسافة التي تفصل العقلين كبيرة ولذلك يصبح الصراع عنيفاً.

كلما ضاقت المسافة بين العقلين الظاهر والباطن اقترب الانسان من النضوج. فالنضوج هو التحام العقلين معاً في عقل واحد واع. النضوج هو ان يكون للانسان عقل واحد أو نفس واحدة هي نفسه الحقيقية. وأن يكون وحدة واحدة لا انفصال فيها بين الجسد والنفس.

وقد قسم «فرويد» النفس إلى «الانا الادنى» «والانا الاعلى» وقال ان الانا الادنى هي الغرائز الطبيعية وتحتوي على غريزة الحياة وغريزة الموت والغريزة الحيوانية التي تؤمن بمبدأ اللذة والاشباع فقط بصرف النظر عن المجتمع الخارجي.

اما «الانا الاعلى» فهي الجزء من العقل الذي يدمج قيم الوالدين والمجتمع فيه ويمثل السلطة الابوية والاجتماعية والتقاليد والقوانين والاخلاق.

وقال فرويد إن «الانا» وهي الانسان ذاته تتأثر بالانا الاعلى وتحاول اخضاع الانا الادنى، وتتوقف شخصية الانسان النهائية على النتيجة الاخيرة للصراع بين الانا الادنى والانا الاعلى من خلال «الانا».

لكن كثيراً من العلماء ومنهم هورني وفروم نقدوا فكرة فرويد عن «الانا» «والانا الادنى».

وإذا عدنا إلى حياة الطفل فان الطفل يولد بعقل واحد، وأنه يظل هذا العقل الواحد فترة قصيرة إلى أن يبدأ يشعر بضغوط الاهل والمجتمع فينقسم إلى عقل ظاهر يتكيف اجتماعياً وإلى عقل باطن يحتفظ بالصفات الاصلية.

وفي مرحلة العمر من الطفولة إلى النضوج يجاهد الانسان من اجل ان يصير مرة اخرى العقل الواحد الذي كان عليه وهو طفل. وهذا هو السبب في ان الانسان حين يصل إلى النضوج يشعر بسعادة يقول عنها انها تشبه سعادته الخالصة وهو طفل. وهذا

هو السبب في تلك الطفولة التي تراها أحياناً عند أعظم الفنانين والعباقرة والانبياء والزعماء الناضجين. ان وصولهم إلى الاحساس بنفسهم الكلية أو عقلهم الكلي يمنحهم شعوراً بالتكامل النفسي الذي خبروه وهم اطفال قبل ان يعرفوا ضغوط الأهل والمجتمع . وهذا هو السبب ايضاً في ان الذين يحبون حباً ناضجاً تبدو عليهم احياناً (مثلهم مثل الفنانين والعباقرة) سمات طفولية فإذا بهم على طبيعتهم كالأطفال ، وسعادتهم تشبه سعادة الأطفال .

ان الانسان الناضج كالطفل يتعامل بنفسه الكلية مع الناس من حوله. انه حين يحب فانه يحب بنفسه الكلية، وحين يعمل شيئاً فانه يعمل بنفسه أو عقله الكلي. ومن هنا أهمية النضوج لاي فنان يريد أن يكون فناناً عظيماً. فالفن العظيم لا يتحقق الا حينما يعطيه الانسان نفسه الكلية. بقدر ما تعطي الفن يعطيك، وبقدر ما تعطي الحب يعطيك.

والطفل في حياته الاولى يحب الناس من حوله بنفسه الكلية. وأول شخص يراه امامه هو أمه ولذلك يحب الطفل أمه وهناك بعض اطفال يحبون الاب إذا كان الاب هو الذي يرعى الطفل اكثر من الأم. وقد لا يكون هذا الشخص الأول هو الأم ولا هو الاب وانما انساناً آخر يربي الطفل ويحنو عليه. المهم عند الطفل هو أن يحصل على الرعاية والغذاء والحنان والحب.

ويشعر الطفل بالحب والتعلق بهذا الشخص الذي يعطيه الحب. انه يحب أمه ويحب أباه ويحب كل من يعطيه الحب. ولان الام هي التي تعطي الطفل اكثر فهو يحبها أكثر. إنه يحبها كطفل. اي انه يتعامل معها بنفسه الكلية بغير انفصام بين الجسد والنفس أو العقل الواعي والباطن أو الذكر والانثى أو الحرام والحلال. إنه يحبها بنفسه وجسده وكل شيء فيه.

لكن الام ترفض تعامله الجسدي (بسبب ان الام من المحرمات) وتقبل تعامله النفسي، ومن هنا بدء الانفصال بين الجسد والنفس. كما انها تنهره إذا لمس اعضاءه الجنسية ومن هنا الاحساس بالذنب. وهي تنهره إذا بكى أو ضعف وتقول له: انت صبي ولست بنتاً ومن هنا الاحساس بالذكورة . ونتج عن ذلك كله، كما سبق ان ذكرت، الاحساس بالنقص .

لهذا لا يستطيع ان يحب الطفل امه حباً خالصاً. ان حبه لها يشوبه دائماً احساس بالخوف منها. فهي اكبر منه، وهي قادرة على نهره أو ضربه احياناً، وهي قادرة على

الاضرار به. وهو يحتاج اليها لكي يعيش.

ويعيش الطفل الصراع بين حاجته إلى أمه وخوفه منها. وبقدر ما يحتاج اليها بقدر ما يخاف منها. انها تبدو في نظرة قويه متسلطة، (في حالة غياب الاب في معظم الاسر الابوية وتفرغ الام للطفل) تمثل الام في نظره الجنس الاقوى المسيطر. ولهذا يشعر معظم الاطفال ذكوراً واناثاً في بدء طفولتهم أن الجنس الاقوى هو الام. وهذا أمر قد يبدو في نظر الطفل الذكر مشكلة. لانه كذكر لا بد وأن يؤكد نفسه كالجنس الاقوى. وبما أن الام تمثل له هذا الجنس الاقوى فهو يتمثل شخصية الام. بمعنى آخر انه يحاول أن يكون كأمه: انثى، أو انه على الاقل يتمنى أن يكون كذلك. الا أنه سرعان ما يكتشف أن الانثى ليست هي الجنس الاقوى بحال من الاحوال، وأن أخته تحرم من الميزات الممنوحة له، وأن اباه في وضع أعلى من أمه، وبذلك يشفى من رغبته في أن يكون أنثى ويتجه إلى شخصية أبيه فيتمثلها ليصبح مثل أبيه.

لكن هناك بعض الاطفال الذين لا ينتقلون إلى مرحلة تمثل الاب ويظلون برغبتهم في تمثل الام. وقد اختلف علماء النفس والجنس في أسباب هذه الظاهرة عند بعض الرجال. ترى الرجل منهم وقد ارتدى ملابس المرأة وجلس امام المرآة واخذ يمارس العادة السرية بلذة كبيرة. وهناك من يذهب إلى الطبيب الجراح من أجل ان يقطع عضوه ويحوله إلى أنثى. وهناك حالات أخف من ذلك كثيراً حين تسيطر على الرجل الفكرة فحسب دون أن يخرجها إلى حيز التنفيذ.

يقول بعض العلماء إن مثل هذه النوع من الرجال يحاول عن طريق هذا الانحراف أن يخلق المرأة التي في خياله. وفي خيال كل رجل امرأة معينة. انه يرتدي ملابس وشخصية المرأة التي يريدها. قد تكون المرأة التي يريدها حنوناً أو قاسية، قوية متسلطة أو ضعيفة خاضعة. انه يرتدي بالضبط ما يريدها أن ترتدي، ويسلك معها بالضبط كما يشاء ويرغب دون أن يواجه الموقف الذي يضطر فيه إلى فرض رغبته على امرأة حقيقية. وحين يجلس أمام المرأة فانه يقوم بالدور الذي كثيراً ما تمنى أن تقوم به الانثى نحوه، لكنه كان يفشل دائماً (بسبب خوفه من المرأة الحقيقية) في أن يجد المرأة التي يمكن ان تلعب له هذا الدور. وهناك من يقول إن الرجل من هؤلاء يتوحد بشخصية الانثى، أي انه يصبح هو المرأة نفسها بعد أن عجز عن أن يعثر على هذه المرأة في واقعه.

وتتفق الآراء على أن هذا الانحراف يحدث بسبب عدم نضج الرجل، وعجزه عن اقامة علاقة مشبعة مع امرأة حقيقية، لانه فاقد الثقة في رجولته، يشعر في أعماقه أنه

لن يرضي المرأة، -لانها اقوى منه، لانها مثل أمه، (الجنس الاقوى في نظر الطفل)، والجنس الذي يخاف منه.

ويقـول بعض العلمـاء إن الخوف البدائي القديم من المرأة يظل عالقاً ببعض الرجال، الخوف من المرأة، الالهة الانثى القديمة القادرة على خلق الحياة وتدميرها في الوقت نفسه. الخوف القديم من أن المرأة في العلاقة الجنسية بالرجل تحتوي عضو الرجل داخلها وقد تحطمه أو تسحقه.

وتقول بعض الآراء إن مثل هذا النوع من الرجال لا يمارس الجنس الا مع الرجال. اي أن هذا الانحراف يصاحبه أيضاً شذوذ جنسي. لكن كينزي اشار إلى أن هذين النوعين من الانحرافين منفصلان، وانه في حالات قليلة فقط يجتمع الانحرافان في رجل واحد.

ويقول فرويد إن الرجل الذي يتمثل الانثى يفعل ذلك بسبب حبه لامه وهو طفل، ورغبته في أن يكون مثلها. فالذي يحب شخصاً يرغب في ان يكون مثله. ويقول «هافلوك إليس» إن رغبة الرجل في أن يكون انثى ليس الا نوعاً من المبالغة في الميل الطبيعي عند أي انسان، ذلك أن يصبح مثل من يحب. كم من رجل يقول للمرأة التي يحبها: كم أود أن اكون أنا أنت. وانت أنا. وهي رغبة طبيعية وبسيطة. تحدث للرجل حين يحب، وتحدث للمرأة حين تحب. هي بقايا خيالات طفولية، قبل أن يعرف الطفل معنى الذكر والانثى، وقبل أن يتحدد من داخله ومن خارجه كل جنس على حدة.

في احدى روايات الحب يقول الرجل لحبيبته: لا ادري يا حبيبتي ماذا يمكن أن أشعر حين أصبح أنا أنت. حين أصبح مركز الكون في نظر انسان آخر. حين اكون جميلاً ورقيقاً وساحراً، حين اعيش تحت هذا الشعر الناعم، وأملك هاتين العينين الساحرتين، والخصر الضامر النحيل، حين املك القوة والضعف معاً، وأملك هذا الجسد وأعرف كيف يتنفس وكيف تصبح له رائحة تجعل قلبي يخفق وصوابي يفقد!

ان العلاقات الانسانية العميقة لا تفرق بين الاشخاص أو الاجناس أو الذكور أو الاناث. العلاقات الانسانية العميقة تقوم على الغاء الفروق بين الناس. ان الرجل الذي يجد المرأة مخلوقاً مختلفاً عنه، أو أنها لغز لا يفهمه، أو شيء محاط بالاسرار، وكذلك المرأة التي تجد الرجل غامضاً غير قابل للفهم، هذان الاثنان يعجزان عن اقامة

علاقة انسانية عميقة بينهما، أو يعجزان عن الحب. لان المحبين يشعرون بالتشابه، ويفرحون بأي تشابه جديد في الذوق أو النظرة إلى الحياة، أو الميول الفنية . . . الخ .

ولهذا فان الحنين داخل كل رجل ليكون امرأة، وداخل كل امرأة لتكون رجلاً ليس الا حنيناً طبيعياً، وجزءاً من كل انسان، وقد تميز اعظم الفنانين بقدرتهم على تصوير هذا الحنين وغيره من المشاعر الانسانية الدفينة.

أما الانحرافات التي سبق وصفها فهي مبالغات مرضية لهذا الحنين تنتج عن الخوف الذي يعيشه الاطفال والاحساس بالذنب والنقص. وهي تظهر اكثر في الرجال لان الرجل الذي يريد أن يكون امرأة يبدو منحرفاً في نظر المجتمع الذكوري اكثر من المرأة التي تريد أن تكون رجلاً لان الرجل بذلك يخسر رجولته ذات القيمة العالية، اما المرأة فهي لا تخسر وانما قد تكسب لانها تنضم إلى الجنس الاسمى.

كلما ازداد الرجل نضوجاً وثقة بنفسه كلما قلّ تحرّجه من اظهار الرقة والضعف والحنان ويبكي احياناً، بمعنى آخر لا يخجل من أن يظهر جزءه الانثوي. وكذلك المرأة كلما ازداد نضوجها وثقتها في نفسها لم تعد تتحرج من اظهار القوة والايجابية والشهامة والمروءة والشجاعة والاقدام، بمعنى آخر لا تخجل من اظهار جزئها الذكري.

وهذه قصة حديثة جداً تشرح هذا المعنى: التقى شاعر عالمي بارز في احد المؤتمرات الادبية بامرأة أديبة بارزة. وشعر الشاعر أنه ينجذب لهذه المرأة. وفي اليوم الاخير في المؤتمر التقى الشاعر بالاديبة في الحفل الختامي فقال لها معبراً عن شعوره الجياش نحوها:

يا عزيزتي ان جزئي الانثوي قد انجذب إلى جزئك الذكري.

وابتسمت الاديبة ابتسامة عريضة وقالت له: هذه أجمل عبارة غزل سمعتها في حياتي.

الفصل الثامن

الرجل والشذوذ الجنسي

لعل أهم سلاح لجأ اليه الذكر البدائي في حربه على الانثى البدائية كان هو عضوه الذكري. وقد ادرك الرجل أن المرأة تملك القدرة على خلق الحياة وهي التي تسيطر على الحياة بالطبيعة فضمر لها الخوف والكراهية معاً، حتى حانت الفرصة فانقض عليها وعزلها عن عرشها. ولم يكن يملك في ذلك الوقت من أسلحة سوى عضوه الذكري،ولهذا قيل ان حادث الاغتصاب هذا كان حادثاً جنسياً انتقلت فيه السلطة من المرأة إلى الرجل لأسباب لا علاقة لها بالشهوة الجنسية او الحب وانما لاسباب اقتصادية متعلقة بالارض والنسب والارث.

ومنذ ذلك العهد بدأت تظهر الرسومات والتماثيل التي تمجد عضو الذكر بعد ان كانت هذه الرسومات تصور المرأة واعضاءها ككائنات ضخمة قوية إلهية وإلى جوارها الذكر ليس الا عضو تناسل صغيراً. وفي آثار قدماء المصريين بعد أن كانت المرأة تصور بحجم مماثل لحجم الرجل أو اكبر منه اصبحت تصور بحجم اصغر من الرجل.

أما الفن اليوناني القديم فلم يفرق بين الرجل والمرأة، واعتبر الجمال صفة منفصلة عن الذكورة والانوثة. لم يكن الذكور يسيطرون على المجتمع، وكانت النساء قويات وقد سيطرن على الحكم فترة من الزمن. وصور اليونانيون القدامى إله الجنس «ايروس» في صورة جسم متناسق الاعضاء يشتمل على اعضاء الذكر والانثى معاً.

لكن سرعان ما تغيرت نظرة اليونانيين الفنية بعد ان سيطر الرجال على المجتمع وأصبح الفن يركز على عضو الذكر. وانتشر الاعتقاد بأن عشق الرجل للرجل أعلى قدراً من عشق الرجل للمرأة، وعبد اليونانيون ذكورتهم وبالذات العضو الجنسي. وكانوا يفخرون بأن عشق الرجل للرجل كان يمارسه اجدادهم الاوائل «الدوريان»، وفي كل

عام يقيمون كرنفالاً ضخماً سمي «ديو نيسيوس» وكان كرنفالاً ذكرياً خالصاً لا يحضره الا الذكور فقط حيث يجتمعون معاً ويعبدون عضوهم الذكري في هذا المهرجان الضخم.

وقد كان افلاطون نفسه شاذاً جنسياً، وكتب في «محاوراته» على لسان ارستوفان أن الرجال الذين يهبون انفسهم الشذوذ الجنسي جسداً ونفساً هم الذين يصلحون للحكم فقط. ويفرق افلاطون بين نوعين من الحب. الحب المدنس وهدفه الوحيد الاشباع الجنسي. والحب المقدس وهو التوافق الروحي والفكري ولا يمكن أن ينشأ الا بين الرجال. وبهذا لم يكن للنساء مكان في الحب الافلاطوني ولا في مدينته الفاضلة! وهكذا يستطيع الرجل دائماً أن يضع ثوب الفضيلة والقدسية على كل رغباته حتى الشاذة منها. أما المرأة فان رغباتها الطبيعية مدنسة لمجرد انها امرأة.

وكان «مايكل انجلو» شاذاً جنسياً، ويقال ان هذا هو السبب في انه كان في رسومه يضخم عضو الذكر تضخيماً ليس له مثيل في العالم الفني.

وقد انتشر الشذوذ الجنسي بين الرجال في العصور الوسطى، وزاد في الفترات التي حقرت فيها المرأة، أو نادى فيه رجال الكنيسة بالصوم الجنسي وتحريم الاتصال بالانثى تشبهاً بالمسيح الذي لم يلمس امرأة. أو تشبها بالعذراء التي لم يلمسها رجل. وفي هذه الفترات التي اشتدت فيها الدعوة الى الامتناع عن النساء كان الانجذاب نحو الرجال يبدو وكأنما هو اقل خطيئة. وقد انتشر الشذوذ الجنسي بين الرجال، وبالذات رجال الكنيسة الذين حرم القانون عليهم الزواج.

في بداية انقشاع ظلام العصور الوسطى وانفتاح العقول قليلاً بعد بدء الثورة الصناعية وتشجيع المجتمع الزواج لزيادة عدد السكان تلبية لحاجات الصناعات الجديدة الناشئة، لم يعد يهم المجتمع كثيراً كيف يجيء الاطفال (من زواج شرعي أو غير شرعي) المهم أن يزداد عدد الاطفال بأي شكل. ولهذا زاد الاطفال الشرعيون وغير الشرعيين، ولهذا لا يكاد يعرف التاريخ اسم رجل بارز الا ويجد له طفلاً غير شرعي. بل ان معظم البارزين في ذلك العصر كانوا أنفسهم أبناء غير شرعيين مثل بوكاشيو وليوناردو دافنشي وأرتينو وجورجيون وغيرهم. ولم يكن للابن غير الشرعي أن يرث شيئاً عن ابيه. وكان هؤلاء جميعاً رجالاً مكافحين أرادوا أن يعرضوا بفنهم وفكرهم ما فقدوه من ثروة الاب. ولم يكن هؤلاء الابناء غير الشرعيين يفقدون شيئاً الا الميراث اما الشرف الاجتماعي فكان لهم مثل اخوتهم الشرعيين، والسبب في ذلك أن الملوك

ورجال الكنيسة كان لهم جميعاً من الابناء غير الشرعيين اكثر مما لهم من الابناء الشرعيين.

وقد اصطدمت حاجات المجتمع الجديدة بالافكار الدينية التي تؤمن بها الكنيسة، لكن الصراع سرعان ما أسفر عن انتصار الافكار الجديدة المتصلة بالحاجات الاقتصادية والاجتماعية وانهزمت الكنيسة، واضطرت، حتى لا تعترف بالهزيمة صراحة، أن تطور في أفكارها بحيث تعترف بالقيم الجديدة دون أن يفقد الناس ايمانهم بها.

وبدأت تجتاح اوروبا تلك الموجة من الانفتاح الجنسي بعد انغلاق العصور الوسطى. وصاحب هذا الانفتاح ظهور رجال يفخرون بأي ممارسة جنسية وإن كانت شاذة.

ومن اشهر هؤلاء جان جاك روسو، الذي نشر «اعترافاته» الشهيرة، والتي ظهرت في القرن الثامن عشر وفتحت الطريق امام الرجال، واخذوا يتبارون في نشر اعترافاتهم الجنسية الشاذة والطبيعية معاً.

وقد ثار جان جاك روسو على قيم العصور الوسطى ونادى بالحب وبأن يكون الحب هو سبب الزواج وليس المال أو المصالح الاجتماعية. لكنه قوبل بعاصفة من رجال الدين الذين تعرضوا لحياته الجنسية الخاصة. وكان روسو يمارس طريقة الاشباع الذاتي (العادة السرية) في الجنس بسبب علاقته الوثيقة بمربيته التي احبها اكثر من الام، هذه العلاقة التي اعجزته عن الاتصال بامرأة اخرى الا من نفس النوع، اي الاكبر منه سناً والتي تعامله كابنها. وبالطبع لم يكن يوفق روسو في العثور على المرأة التي يريدها وبسهولة فكان يلجأ إلى طريقة الاشباع الذاتي. لكنه انجب عدداً من الاطفال من بديلات الام اللائي عاشرهن وأرسل جميع أطفاله إلى بيوت الاطفال غير الشرعيين، التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، ويقال ان في فرنسا والمانيا فاق عدد الاطفال غير الشرعيين الاطفال الشرعيين، وكانت الدولة هي التي تفتح لهم البيوت وترعاهم بل وتشجع على زيادتهم بسبب الحاجة الملحة إلى الايدي العاملة في الصناعات الجديدة الناشئة ولحاجة اوروبا إلى اعداد اكثر من الرجال تلبية لحاجات الحرب.

وابتداء من روسو الذي كان يمارس الاشباع الجنسي الذاتي الى الماركيز دوساد الذي كان مريضا بالسادية وحب التعذيب واراقة الدم، توالى عدد من الرجال البارزين

في الحضارة الحديثة ومنهم اوسكار وايلد الذي حبس بسبب شذوذه الجنسي، واخيرا اندريه جيد الذي تفاخر بشذوذه الجنسي علنا.

كان هذا التيار الجنسي القوي الذي كسر قيود العصور السابقة وتزمت الكنيسة مدعما بالحاجات الاقتصادية الملحة من اجل الحصول على مزيد من الاطفال. وقد استفاد من هذا التيار الداعي الى التحرر كل الرجال، ذوي الميول الشاذة وذوي الميول غير الشاذة. وبدأت البلاد الاوروبية تقبل الاثنين معا الشاذ وغير الشاذ بل حدثت مباراة او شبه مباراة بين الدول الاوروبية لاعلان تحررها الجنسي وذلك بالغاء القوانين القديمة التي كانت تفرض على الناس نمطا معينا من السلوك، واعتبر السلوك الجنسي مسألة خاصة جدا بالانسان ولا دخل للدولة فيه الا في حالة الاعتداء على شخص آخر بالقوة. وكانت انجلترا هي اول دولة اوروبية تلغي القانون الذي يحرم الشذوذ الجنسي بين الرجال. وبدأ العلماء يرفضون استخدام اصطلاح الشذوذ الجنسي على اساس ان النشاط الجنسي ليس فيه ما هو شاذ ولا ما هو طبيعي، وان النشاط الجنسي الصحيح هو الذي يحقق لصاحبه الاشباع واقصى لذة ممكنة بصرف النظر عن شكل هذه الممارسة.

وبدأ مثل هذه الاصطلاحات كالشذوذ الجنسي والانحرافات الجنسية تحذف من قواميس لغة الجنس الحديث، بعد ان اتضح للعلماء ان النشاط الجنسي عند الانسان واسع التنوع وشديد الاختلاف من فرد الى فرد ومن مجتمع الى مجتمع، ومن طبقة الى طبقة، بل انه يختلف عند الفرد الواحد من وقت الى وقت ومن ظروف الى ظروف.

ولعل هذه احدى سمات الطاقة الجنسية عند الانسان. فالحاجة الى الجنس او الى الغريزة الجنسية عند الانسان تختلف عن الغريزة الى الطعام. ان الانسان حين يشعر بالجوع او فراغ معدته، فانه يملأ هذه المعدة بالطعام. والطعام هنا «شيء» يملأ به الانسان فراغا. أي ان التعامل هنا بين الانسان وبين شيء من الاشياء.

لكن الجنس في حياة الانسان تعامل مع شخص آخر. وهذه ميزة الجنس في حياة الانسان، لكنها ايضا مشكلته الكبرى. لان التعامل مع الاشياء اسهل من التعامل مع الاشخاص. علاقة الانسان بالطعام تنتهي بمجرد ان يستقرَّ الطعام داخل معدته. لكن العلاقة بين الاشخاص ليست التهاما، وليست واحدا يأكل الآخر، ولا تنتهي بانتهاء العملية الجنسية.

وهذا الفارق الكبير بين الغريزة الجنسية في الانسان وبين غريزة الطعام هو الذي جعل «فرويد» يؤسس نظريته عن التسامي، اي استخدام الطاقة الجنسية في اعمال اخرى غير جنسية كالاعمال الفكرية والفنية والثقافية. اذ قال فرويد ان الغريزة الى الطعام ليس لها بديل في حياة الانسان. اي انها لا يمكن ان تكبت. ولا يمكن لاي انسان جائع ان يملأ معدته بأي شيء الا الطعام. لا يمكن ان تتحول الرغبة في الطعام الى رغبة في الادب والفن، ولا يمكن ان تملأ المعدة بالقصص والاشعار. اما الطاقة الجنسية فقد ظن فرويد انها يمكن ان تكبت، ويمكن ان تتسامى وتتحول الى انتاج فكري وادبي وثقافي.

وقد اتضح خطأ هذه الفكرة، ووجد ان الطاقة الجنسية لا تتحول الى فكر خلاق ولكنها تنحرف عن طريقها الطبيعي الى طرق اخرى معقدة وملتوية. ووجد ان الاختلاف بين غريزة الطعام والغريزة الجنسية ليس ان الاولى لا يمكن ان تكبت والثانية يمكن ان تكبت، ولكن الرجل مع الطعام يتعامل مع «شيء» ومع الجنس يتعامل مع انسان مثله، هو المرأة.

وربما غاب عن بعض العلماء ومنهم فرويد هذه الحقيقة البديهية لانهم لم ينظروا الى المرأة كانسان مثل الرجل، ولان الحضارة الذكورية قامت على «تشييء» المرأة اي تحويلها الى «شيء» أو اداة.

واصبحت علاقة الرجل بالمرأة اشبه بعلاقته بالطعام. رغبة في الالتهام السريع وملء الفراغ، والانتهاء منها بمجرد الشبع.

ولعل هذه هي اهم مشكلات الحضارة التي نعيشها. لان عملية «تشييء» المرأة لم تسلب منها انسانيتها وتسبب لها المشاكل فحسب، ولكنها سببت المشاكل للرجل ايضا.

احدى هذه المشاكل ان الرجل اصبح يفضل علاقته بالرجل (سواء كانت صداقة او حبا او جنساً)اكثر من علاقته بالمرأة. انه يرى الرجل شخصا مثله، وانسانا، وليس مجرد شيء كما يرى المرأة. وهذا هو احد الاسباب في انتشار الشذوذ الجنسي بين الرجال. بل ان بعض الرجال قد يفخرون بشذوذهم الجنسي وكأنما يقولون: نحن نتعامل مع الجنس الاعلى والاقوى وليس الجنس الادنى والاضعف!

وربما هذا هو احد الاسباب في اهتمام المجتمع بشذوذ الرجال اكثر من اهتمامه بشـذوذ النساء. فالجنس الاعلى دائما محط الانظار، وتحت الاضواء، اما الجنس الادنى فلا شيء يلفت اليه النظر وان كان هو الشذوذ ذاته.

وقد ظل الاعتقاد قائما بان نسبة الشذوذ بين الرجال اعلى منها بين النساء الى ان اتضح اخيرا في بعض البلاد كامريكا وبعض البلاد الاوروبية ان الشذوذ الجنسي منتشر بين النساء، بل ان بعض النساء الآن في امريكا اصبحن (كجزء من الثورة على الرجل) يتفاخرن بشذوذهن الجنسي وينشئن اندية وجمعيات للنساء الشاذات جنسيا وكأنما يقلن للعالم: لم نعد نحتاج الى الرجال في الجنس أيضاً.

وقد التقيت بعدد من هؤلاء النساء وقرأت كتبهن عن الشذوذ الجنسي بين النساء وادركت ان المـرأة اصبحت تحارب الرجل بنفس اسلحته. ولم اقتنع بان هذه هي الطريقة المنشودة لتحرير النساء والرجال معا، وانما هي احدى الطرق في ظل ظروف ومجتمـع محـروم من الحب الحقيقي ومن العلاقات الانسانية القائمة على التبادل المتساوي وليس الاستغلال.

من الحقائق العلمية المعروفة انه في حالة غياب الجنس الآخر فان الرجال والنساء وكثيرا من فصائل الحيوانات عندها القدرة على ممارسة الجنس مع نفس الجنس. وهذا طبيعي لان الطاقة الجنسية لا بد وان تفرغ شحنتها عن اي طريق متاح.

وقد اختلف كثير من العلماء حول اسباب الشذوذ الجنسي عند الرجال. وقال البعض ان الوراثة هي السبب، وان الرجل يرث تكوينا جنسيا وبيولوجيا مختلا. وقال البعض الآخر ان الجينات والكروموسومات هي السبب. لكن الادلة العلمية كانت غير كافية بل قاصرة عن اثبات الحقيقة ولم تكن العوامل الاجتماعية تدخل في الاعتبار.

ومن الحقائق العلمية المعروفة ان الانسان «مزدوج الجنس» وأن الرجل تجري فيه هرمونات مؤنثة والمرأة تجري فيها هرمونات مذكرة ولذلك وجد ان الحنين الى الجنس نفسه شعور دائم في كل انسان، لكنه يختفي في مراحل، ويظهر في مراحل اخرى منها مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة.

ومن هذه الفكرة قال بعض العلماء ان الحنين للشذوذ داخل كل رجل. ووجد كينزي ان ٣٧٪ من الرجال الامريكيين مارسوا الشذوذ الجنسي. في مجتمعات اخرى

خرج بعض العلماء بنسب اكبر من نسب كينزي. اما في السجون والمعتقلات والمدارس الداخلية فقد وجد ان ١٠٠٪ من الرجال يمارسون الشذوذ الجنسي. وهذا يدل على ان العوامل الاجتماعية هي التي تلعب الدور الاساسي في مثل هذه الممارسة، وليست الجينات او الكروموسومات.

وقد درس العلماء العوامل الاجتماعية والنفسية داخل الاسرة وفي المجتمع التي تقود الرجل الى ممارسة الجنس مع الرجال وليس مع النساء، واتضح ان من اهم هذه العوامل هي العلاقة داخل الاسرة الابوية بين الابن والاب من ناحية وبين الابن والام من ناحية اخرى.

وقد وجد ان علاقة الابن بأبيه تقوم على الكراهية اكثر من الحب بسبب بعد الاب عن البيت وسيطرته المطلقة، وهذا على نقيض علاقة الابن بأمه التي تقوم على حب زائد والتصاق زائد بسبب التصاق الام بالبيت وتفرغها للطفل. وبدراسة نفسية الرجل الشاذ جنسيا وجد الآتي:

١ ـ كان هذا الرجل في طفولته ينشد نموذج الذكر ليتحد به ويصبح ذكرا.
٢ ـ الاب كان اول ذكر في حياته.
٣ ـ كان الاب بعيدا عن ابنه، او مهملا له، او يغار منه بسبب استيلائه على حب الام وجهدها.
٤ ـ رغبة الابن في الابتعاد عن أبيه وفي أن يكون مختلفا عنه ما امكن (بسبب كراهيته له).
٥ ـ شعور الابن بالخوف من هذا الاب المكروه، واحساسه بالنقص والعجز عن تحقيق ذاته نفسيا وجسديا في مواجهة الاب الاكبر والاقوى والمسيطر.
٦ ـ حب الام الزائد (بسبب رغبتها في التعويض عن حياتها الناقصة غير المشبعة مع الزوج) يجعل الابن منجذبا بقوة الى امه، وفي نفس الوقت يشعر بتأنيب الضمير والذنب لانها محرمة عليه.

وقد اتضح ان جميع الامهات في النظام الابوي يمثلن تهديدا لاطفالهن، «وضرورة» لا غنى عنها. ويتمزق الابن بين شعورين قويين متناقضين:
١ ـ حب الام الشديد والرغبة في الاتحاد بها.
٢ ـ رغبة شديدة في الانفصال عن الام والاستقلال ليكون ذكرا.

وهناك بعض الأراء تقول ان الرجل الشاذ جنسيا ينطوي في أعماقه على خوف من المرأة، وان هذا الخوف ينبع اساسا من عجزه (كليا او جزئياً) عن الانفصال عن امه.

ان الوقوع في حب امرأة يعني لمثل هذا الرجل العودة مرة اخرى الى الذراعين اللتين تمثلان له الحب والسجن معا، هذا السجن الذي لم يهرب منه الا جزئياً.

وهذا هو الخوف الذي تنطوي عليه اعماق جميع الرجال تقريبا بدرجات متفاوتة، حسب علاقة كل منهم بأمه وابيه.

وعلى هذا يمكن القول ان الرجل الشاذ جنسيا لا يستطيع ان يتصل بالمرأة لانه يخافها. ان اتصاله بالرجل يمثل له خطرا اقل، او «لا» خطر.

كما ان كراهية الابن لابيه تجعله ينجذب الى رجال اكبر منه يمنحونه الحب، وينشد فيهم الاب. وقد يتعلق الشاب ببطل من ابطال الرياضة او الاعلانات او الافلام التي تقدم في معظم الاحيان نموذج الذكر المبالغ في ذكورته. يتخيل الشاب انه احد هؤلاء الابطال، او يحب رجلا شبيها بالبطل ويسقط عليه نموذجه الذكري، هذا النموذج الذي كان يريد ان يكونه ولم يستطع.

ويكتشف الشاب في نفسه (بالتوحد مع هذا البطل) قوة وشجاعة وتحملا وغير ذلك من الصفات المحببة الى النمط الذكري السائد. وقد وجد ان بعض حالات الشذوذ تبدأ باعجاب شديد ببطل من الابطال.

وفي مرحلة معينة من العمر يكون الصبيان جماعات ذكورية ينجذب فيها بعضهم الى بعض وينظرون الى الاناث كمخلوقات أقل. وهذه بعض آثار التربية التي تلقوها وهم اطفال في ظل الأسرة الابوية، والتي لا تزال عالقة بهم بسبب صغر سنهم وعدم نضوجهم كرجال بعد. وقد تتوقف مشاعر بعضهم عند هذا الحد بسبب معوقات النضج الاجتماعية والنفسية، ويظل هذا الصبي يتطلع الى الرجال وينجذب اليهم لأنه يشعر انه لم يصبح واحداً منهم بعد.

وقد وجد ان معظم الرجال الشواذ ينجذبون الى الرجال الاشداء الاقوياء. واتضح ذلك من صور المجلات التي تصدر عن اندية الشذوذ الجنسي، والتي تصور رجالا

عراة ذوي فحولة جنسية، من اجل ارضاء رغبات الاعضاء الشواذ والكسب المالي من وراء ذلك الانحراف.

ولعل رسومات «مايكل انجلو» التي زين بها سقف الكنيسةالسيكستسية(نسبة الى البابا سيكستس)خير معبر عن الفن الذي يمكن ان يخرج من خيال رجل شاذ جنسيا. ان هذه اللوحات تعتمد في خطوطها وحركتها على المبالغة الى درجة التشويه في عضو الذكر الجنسي بالنسبة الى اعضاء الجسم الاخرى. ان هذه اللوحات تعبر باوضح ما يكون التعبير عن اتجاه مثل هذا الرجل الى المبالغ في تمجيد الذكور والعضو الذكري، ولهذا صعدت هذه اللوحات في نظر سكان العالم الذكوري الى قمة الفن والعبقرية. ولا شك في ان اعجاب الرجال بهذه اللوحات لا يدل على شيء سوى ان الرجال ينبهرون دائماً بالصفات التي لا يملكونها.

ويظهر هذا الاتجاه واضحا عند الرجال الشواذ والذين يعمدون دائما الى اظهار انبهارهم الشديد بالعضو الذكري. وهذا دليل على أن الشذوذ نوع من عدم النضوج أو التوقف عند مرحلة المراهقة. فمن المعروف أن جميع الصبيان شواذ وغير شواذ يظهرون اهتماما شديدا بحجم اعضائهم الذكرية ومقارنة عضو الواحد منهم بالآخر. انهم يظنون ان هناك علاقة بين حجم العضو وكفاءته في الجنس، مع أنه ثبت ان هذه العلاقة ليس لها وجود، وان العضو الاكبر ليس هو الاكفأ أو الاقوى، بل قد يكون العكس هو الصحيح. فالعضو النحيف اكثر كفاءة من العضو السمين. لان الشحم يعرقل الحركة، كما ان الشحم اذا تراكم على جدران الاوعية الدموية يقلل كمية الدم المندفعة فيها. ان عملية الانتصاب التي تحدث للعضو الذكري ليست الا اندفاع الدم الى هذا العضو بكميات كبيرة الى حد الامتلاء والانتفاخ. ولا شك في ان زيادة الانسجة الدهنية التي تتراكم على الأوعية الدموية يقلل من هذا الامتلاء.

هذا من ناحية سمك العضو، اما من ناحية الطول، فلا دخل لهذا الطول بقدرة العضو على اشباع المرأة جنسيا. لان حصول المرأة على اللذة الجنسية لا علاقة له بقدرة العضو على الوصول الى عنق الرحم (كما يظن الكثيرون) لان عنق الرحم غير حساس للذة ولا للألم بسبب فقدانه الاعصاب[1].

لكن معظم الشباب الذكور ينشغلون بحجم اعضائهم التناسلية. ويتفاخرون اذا

---

(١) انظر المرأة والجنس.

كان حجمها كبيرا، ويخجلون اذا كان صغيرا. مع أن هذا الاتجاه يقل كثيرا كلما سار الشاب قدما الى النضوج. ويظل الرجال الشواذ عاجزين عن النضوج، متوقفين عند مرحلة المراهقة، ويظل اهتمامهم بالعضو الذكري شديدا. بعضهم تسيطر عليه الرغبة في ان ينظر على الدوام الى اعضاء الرجال الآخرين، وقد يصبح العضو (مثل الكعب الانثوي العالي عند بعض الرجال الشواذ) الشيء الوحيد الذي يثيرهم جنسيا لانه الشيء الوحيد الذي يوحي اليهم بالثقة في انفسهم كذكور. وفي غير ذلك يشعرون بعدم الثقة والخوف من الجنس ومن العلاقة بالمرأة. بمعنى آخر يصبح منظر هذا العضو هو الشيء الوحيد الذي يمنحهم الانتصاب، وفي غير ذلك يعجزون.

ولا شك ان مثل هؤلاء الرجال يستحقون من المجتمع الرعاية والعلاج وليس العقاب والازدراء. انهم ضحايا الاسر الابوية وهم رجال وجدوا امامهم باب النضوج مغلقا. ان الرجل منهم يبحث عن ذكورته التي ضخمها له المجتمع والاسرة الابوية، والتي لا يجدها في نفسه ويظن انه قد يجدها في رجل آخر. بعبارة اخرى انه رجل بحث عن عضو ذكري ضخم (حسب المقياس الاجتماعي) والذي لا يجده عنده. فاذا ما وجده عند رجل آخر (أو خيل اليه ذلك) فان هذا الرجل يصبح بالطبع جذابا في عينه، قريبا منه، يحبه ويتوحد به ليكون مثله أو يصبح هو ذاته. انها محاولة لان يصبح هو نفسه الرجل الآخر الذي يملك هذا الشيء العظيم او الدليل الاعظم على الذكورة القوية. وقد ثبت ان الرجال غير الراضين عن احجام اعضائهم هم اكثر الرجال اندفاعا وراء البحث عن الرجل الآخر صاحب العضو الاكبر.

وهناك نوع آخر من الرجال الشواذ من ذوي الميول الجنسية لرجال ناعمين، او لشبان فيهم وسامة وشيء من الرقة او الانوثة. هذا النوع من الرجال يبحث عن المرأة، لكنه يخاف المرأة الحقيقية ومن ثم يختار اقرب الرجال الى المرأة أو الى نموذج المرأة في خيالهم. وينكر معظم هؤلاء الرجال انجذابهم الجنسي نحو النساء، لكن الدراسات كشفت عن ان الرجل منهم تعلق بأمه أو اخته جنسيا، وانه ايضا يعيش بعض الخيالات الجنسية مع المرأة، وقد يكون مارس الجنس مرة مع احدى النساء ثم فشل.

ويجمع العلماء على انه من غير الممكن ان تضع خطا فاصلا بين ما يسمى بالرجل الطبيعي والرجل الشاذ. واثبت علماء الجنس في بريطانيا مثلا ان ٢٥٪ من افعال الشذوذ الجنسي (رجال مع رجال) يقترفها رجال متزوجون. ويمكن لبعض الشواذ بجهد بسيط ان يصبحوا رجالا طبيعيين. كما ان بعض الرجال الطبيعيين يظهرون ميولا

جنسية مزدوجة اي للجنسين معا، وفي امكانهم الاستمتاع بالعلاقات الجنسية بالنساء وبالرجل اذا ما سنحت لهم الفرصة بذلك.

بعض العلماء يرى ان الرجال الشواذ نوعان: نوع ايجابي ويلعب دور الذكر، ونوع سلبي ويلعب دور الانثى. ويتبادل الطرفان الادوار احيانا حسب الظروف والاحوال.

على انه اتضح ان معظم العلاقات لا تشبع الطرفين. فالواحد منهم يشعر دائما انه غير مشبع عاطفيا وجنسيا، ويلازمه شعور بالنقص، يجعله غير راغب في الاقتراب من النساء. انه يخاف دائما ان تكتشف المرأة نقصه، وهذا الخوف هو السبب الاول الذي ابعده عن المرأة منذ البداية.

هناك نسبة صغيرة من الرجال يصابون بهذا الشذوذ الجنسي لاسباب عضوية بحتة، او لظروف طارئة تؤثر على خلايا المخ. مثال ذلك شرب الخمر بكثرة أو تعاطي بعض العقاقير التي قد تسبب تسمما في المخ، ويصبح الرجل عاجزا عن السيطرة على سلوكه، ويندفع وراء رغبات طفولية دفنت في الجزء العميق جدا من المخ أو في اللاوعي. وقد لوحظ انتشار الشذوذ الجنسي بين المدمنين على انواع معينة من المنبهات او المخدرات.

وقد تحدث الشيخوخة احيانا للمخ ما تحدثه الخمر او العقاقير. وهناك بعض حالات من تصلب الشرايين في المخ قد تسبب شذوذا في السلوك الجنسي الى جانب اعراض مرضية اخرى مثل ضعف الذاكرة، واضطرابات في النطق، وتغيرات في رسم المخ الكهربي وغير ذلك من الاعراض التي تصاحب مختلف امراض المخ العضوية. وتعالج هذه الحالات بالطبع بالادوية المناسبة. وهناك بعض امراض المخ تزيد الرغبة الجنسية الى حد التأجج المستمر وتعالج بالهرمونات المناسبة لاضعاف الرغبة واضعاف نشاط الغدد الصماء. وقد وجد ان اعطاء الهرمون الانثوي «ايستروجن» للرجل المريض يضعف نشاط الخصيتين ويقلل الرغبة الجنسية ويقلل افراز السائل المنوي. لكنه وجد ان كمية هذا الهرمون الانثوي اذا زادت عن نسبة معينة فان ثديي الرجل يكبران ويصبحان كثديي المرأة ولهذا لا بد من معرفة الكمية المناسبة التي لا تزيد عن الحد المطلوب، وبالمثل ايضا تعطى المرأة المريضة الهرمون الذكري «تستستيرون» بالكمية المطلوبة والا فسرعان ما ينبت الشعر على وجه المرأة وصدرها. وكانت مثل هذه الحالات تعالج قديما باخصاء الرجل «قطع خصيتيه» لكن هذا العلاج لم يعد يلجأ

اليه احد من الاطباء لانه وجد ان الاخصاء قد يشفي الحالة المرضية الجنسية لكنه لا يؤهل الرجل بعد ذلك لعلاقات انسانية سوية وتزداد الحالة سوءا..

ويلجأ بعض الاطباء الآن، في علاج الادمان وبالذات ادمان الخمر، الى نظرية الارتباط الشرطي (التي اكتشفها بافلوف)، وذلك باعطاء المدمن على الخمر حقنة ابو مورفين (Apomorphine) تجعله يتقيأ على الفور، ويرتبط في ذهنه طعم الخمر بالقيء، فاذا ما اعطي الخمر بعد فترة بدون حقنة يتقيأ، ومن ثم يفقد رغبته في شرب الخمر.

وهنـاك وسـائـل عـلاج كثيـرة ومتعـددة لمثـل هـذه الحـالات المـرضيـة. أمـا الشذوذ الجنسي في معظم الرجال فلا يرجع الى اسباب مرضية عضوية في خلايا المخ ولكنه كما سبق أن ذكرت، احد مظاهر عدم نضوج الشخصية بسبب أحاسيس النقص والذنب والخوف وغير ذلك من المشاعر المترسبة من الطفولة والمراهقة.

والعلاج هنا لا يمكن ان يتم بالعقاقير والادوية ولكن العلاج يتجه أساسا الى ازالة معوقات نمو الشخصية والنضوج سواء داخل الاسرة أو في المجتمع. ومن أهم خطوات العلاج أيضا ان يشعر الشخص انه ليس شاذا او ليس هو الشاذ الوحيد في العالم وانما يشاركه في هذا الشعور ملايين آخرون من الناس، وان العيب ليس فيه، وانما العيب في الظروف الاجتماعية والاسرية التي عاشها. وبذلك يتحرر الشخص بعض الشيء من عقدة الذنب وعقدة النقص ايضا، وهذه احدى الخطوات الاولى نحو النضوج، ومن ثم الشفاء.

والشفاء هنا ليس مجرد ان ينجذب الرجل الى النساء بدلا من الرجال ولكنه نمو الشخصية والسلوك والقدرة على اقامة علاقات انسانية مشبعة في مختلف مجالات الحياة.

بمعنى آخر الشفاء يعني اكتساب الرجل للقدرة على الحب والاخذ والعطاء بغير خوف من الآخـرين وخـاصـة النساء. ان الحب بمعناه الحقيقي هو الذي يجعل العـلاقات الجنسية سوية وصحية. اي انه يمكن ان نقول ان الانحرافات الجنسية والشذوذ الجنسي ليس الا تلك الممارسات الجنسية بغير الحب.

الفصل التاسع

الرجل والاستعراض الجنسي

اذكر وانا في العاشرة من عمري انني كنت حين اطل من الشرفة ارى رجلا في البيت المواجه لبيتنا. وكان هذا الرجل لا يقف كما يقف الناس في النوافذ والشرفات لكنه كان يخلع سرواله ويظهر عضوه الجنسي للناس الذين يسكنون البيوت المجاورة. وكنت ارى النساء يسرعن ويغلقن نوافذهن اما انا فقد كنت اظل واقفة انظر الى وجه هذا الرجل الغريب واتأمل حركاته، فقد كان يمسك عضوه بيده ويعرضه للناس. وبعد ايام قليلة اختفى هذا الرجل وسمعت ان بعض الجيران بلغوا الشرطة وانه نال العقاب على افعاله الغريبة.

وقد يندهش كثير من الناس لتصرف هذا الرجل ويعتبرونه رجلا شاذا فاسد الاخلاق ويستحق العقاب الشديد.

والحقيقة غير ذلك. فهذا الرجل ليس هو الوحيد في العالم الذي يريد ان يستعرض ذكورته. ان معظم الرجال يرغبون في استعراض ذكورتهم بدرجات متفاوتة وبوسائل مختلفة. والسبب في ذلك ان هذه الحضارة التي نعيشها قامت على اكتاف ذكور اقنعوا انفسهم والعالم ان الذكورة امتياز وشرف والانوثة مهانة وضعف ولم يكن هناك من فرق بارز بين الذكر والانثى سوى العضو الذكري، ولهذا اتجه المجتمع الرجولي في عهود متعددة الى تمجيد عضو الذكر.

وبلغ تمجيد هذا العضو وتفخيمه حدا جعل اكثرية الرجال يشعرون بالنقص حين ينظرون الى اعضائهم الحقيقية.

وهناك رجال يبلغ شعورهم بالنقص حدا كبيرا فلا يجدون وسيلة لاثبات انهم ذكور

سوى الكشف عن اعضائهم الذكرية ليراها الناس باعينهم فيصدقوا انهم ذكور وليسوا اناثا، ويعتبر هذا الفعل في كثير من المجتمعات (التي يرتدي فيها الناس الملابس) منافيا للاداب العامة، ومن يفعله يقع تحت طائلة القانون. وهناك بعض المجتمعات الرأسمالية الحديثة مثل السويد مثلا وبعض اجزاء في امريكا واوروبا قد اعترفت بوجود هذه الرغبة عند كثير من الرجال، وصرحت لهم بانشاء نواديهم الخاصة (نوادي العراة، ونوادي الرجال الذين يحبون الرجال، ونوادي النساء اللواتي يحببن النساء) واصبح لكل رغبة انسانية، طبيعية كانت او غير طبيعية ناد خاص يلتقي فيه الاعضاء يزاولون هواياتهم الجنسية دون ان يتعرض لهم القانون.

وقد ينبهر كثير من الناس حين يسافرون الى مثل هذه البلاد ويرون هذه النوادي متصورين انها قمة التحرر والحرية الشخصية المكفولة لكل فرد. لكن الذي يتعمق في قوانين هذه المجتمعات الرأسمالية الحديثة يدرك ان الحرية ليست مكفولة لكل فرد فعلا، وان هناك حرية للحكام لا يتمتع بها المحكومون، وحرية لاصحاب المصانع لا يتمتع بها العمال وحرية للرجال لا تتمتع بها النساء، وان الحرية غيرمتوافرةللاغلبية الساحقة من الناس وخاصة الحرية الاقتصادية والاجتماعية، بل ان الحرية الجنسية ايضا ليست متيسرة الا لهؤلاء القادرين عليها، لهؤلاء الذين تمنحهم ظروفهم الاقتصادية الجهد والوقت والفراغ والمال لممارسة هواياتهم الجنسية داخل النوادي. اما الاغلبية من الناس فهي تكدح وتعمل في المصانع ولا تمنحهم ظروفهم الا العودة آخر النهار الى الزوجة المكتئبة او المكدودة في عمل البيت ورعاية الاطفال، او الى اغراق الهمّ في حانة من الحانات مع كأس رديء النوع أو مومس منهكة مريضة.

ولا ادري هل اصبح للعري ناد في بريطانيا الآن، وهل عدل قانون تعرية الجسد، كما عدل قانون الشذوذ الجنسي. لكني قرأت انه في سنة ١٩٥٤ في بريطانيا بلغ عدد الرجال الذين عوقبوا قانونيا بسبب تعرية اعضائهم في الشارع ٢٧٢٨ رجلا، وانه في احد البحوث العلمية الجنائية بجامعة كمبردج في العام نفسه وجد ان من بين ١٩٨٥ رجلا ممن اقترفوا جرائم جنسية كان هناك ٤٩٠ رجلا كانت جريمتهم فقط تعرية العضو الجنسي في الشارع دون ايذاء احد.

ومن المعروف علميا وعمليا ان الرجال فقط هم الذين يصابون بمثل هذا الانحراف، ويسمى علميا الاستعراضية الجنسية. هناك بالطبع نساء يستعرضن اجسامهن كل ليلة في دور اللهو وعلب الليل في تلك المشاهد المسماة «الاستربتيز»

ولكنهن يفعلن ذلك من اجل تسلية الجماهير والحصول على اجر من صاحب الحانة وليس من اجل انهن يشعرن بمتعة او لذة.

وقد وجد أن الرجل المصاب بالاستعراضية الجنسية (Exhibitionism) يعاني من فكرة مسلطة تدفعه الى هذا الفعل رغم ارادته ورغم تعرضه للعقاب اكثر من مرة. ويعمد هذا الرجل الى تعرية عضوه وهو منتصب امام النساء السائرات في الشارع، وبالذات امام الفتيات تحت سن السادسة عشرة. ويعقب هذا الاستعراض قيامه بالعادة السرية دون ان يلمس اي فتاة او يقترب منها. ومن هنا وجد ان هدف مثل هذا الرجل هو افزاع الفتاة او اثارتها او اغضابها وليس الاتصال بها جنسيا. وهذه هي احدى الطرق البدائية التي تساعد الرجل على الاحساس بانه رجل. إنه يأمل عن طريق هذا الفعل البدائي واظهار ذكورته ان يصدم المرأة، وأن هذه الصدمة كرد فعل قوي من جانبها تؤكد له انه ذكر، طالما انه ما زال قادرا على التأثير عليها، وان كان تأثيرا سيئا، بعد أن فشل في التأثير عليها بطرق أخرى.

مثل هؤلاء الرجال، رغم انهم في معظم الاحيان ازواج، الا ان علاقتهم بزوجاتهم غير مشبعة ويلازمهم دائما الاحساس بالضعف والقلق على كفاءتهم كأزواج. ومن شدة هذا الاحساس بالنقص والضعف فان الرجل منهم يفضل ان يلفت الانظار اليه كرجل شاذ اكثر من أن يعيش ويموت دون ان يلتفت اليه احد. تماما كالطفل الصغير الذي يشعر وهو بين الكبار انه مهمل ولا احد ينتبه اليه فاذا به يكسر شيئا او يسلك سلوكا منفرا ينال بسببه العقاب ومن ثم يفرض على الكبار ان ينتبهوا الى وجوده. ان العقاب هنا افضل من اللامبالاة والاهمال الكامل. وهذا هو السبب في ان مثل هؤلاء الرجال لا يكفون عن عرض اعضائهم بالرغم من كثرة العقاب الذي نالوه.

ان رغبة الرجل الاستعراضية قد تخفي تحتها أيضاً رغبة سادية في ايذاء مشاعر الناس، واحداث صدمة لهم حين يرون عضوه العاري. انها رغبة في ان يقول لهم: انا أملك عضوا عظيما يستحق الاستعراض. بمعنى آخر يقول لهم انا اعظمكم لانكم جعلتم العظمة في هذا العضو. وانا قادر على ان افعل ما لا تستطيعون وهو أن اعري جسدي. لكنه في الوقت نفسه يقول لنفسه: انا اكثرهم انحطاطا واثما وذنبا ونقصا.

قابلت في مستشفى الامراض النفسية بالخانكة رجلا من هذا النوع، وضعوه في قسم المذنبين (مع هاتكي الاعراض وقاتلي الزوجات) وقال لي هذا الرجل وهو يكاد

يبكي: الناس لا تفهم شيئا. الناس كذابون ادعياء. إنهم يفكرون دائما باعضائهم الجنسية وحينما يواجههم واحد مثلي بحقيقتهم يفزعون. لا ادري ما الذي يفزعهم حينما يرون عضوي العاري! انني اعبر عن خيالهم وعن حقيقتهم ومع ذلك يقبضون عليَّ ويقولون عني انني مجنون. وسكت هذا الرجل قليلا ثم قال لي: انا اشجع الرجال. ثم بكى وقال بحسرة: وانا احط الرجال ايضا! هل تفهمينني يا دكتورة؟

قلت له: نعم افهمك.

بدراسة حياة هذا الرجل اتضح لي انه كان ينام (حتى بلغ التاسعة من عمره) في الحجرة نفسها التي ينام فيها ابوه وأمه. وانه ظل حتى التاسعة من عمره يشهد تلك المسرحية الليلية التي تحدث بالقرب منه بين ابيه وامه. وكان ضوء الشارع يسقط على عضو ابيه الكبير (بالنسبة لطفل في تلك السن) فيبدو له هذا العضو ضخما عاريا مفزعا وسرعان ما ينقض كالوحش على امه التي كانت تئن وتتوجع بصوت غريب. هذا يحدث كل ليلة تقريبا. اما في النهار فان الاب والام يرتديان قناع الازواج والزوجات المعروف، وحينما يلمس هذا الطفل عضوه ليكتشف جسمه تضربه امه على يده وتقول له: عيب! وحينما اصبح في التاسعة سأل اباه عن علاقة الرجل بالمرأة وكيف ولد في هذه الحياة فاذا بالاب ينهره ثم يطرده من حجرة النوم. واصبح الطفل ينام وحده في الحجرة المجاورة، لكنه ظل يسمع اجزاء من المسرحية الليلية من خلال الجدار.

ومن هنا نستطيع ان نفهم الصراع النفسي والجنسي العنيف الذي عاش فيه هذا الطفل سنوات طويلة، والذي حال بينه وبين النضوج، وحول طاقته الجنسية الطبيعية الى عرض عضوه العاري على الناس في الطريق. انه بهذا التصرف الجنسي المنحرف كأنما يريد ان يصفع أباه وأمه (وكل امثالهم من البشر) صفعة حادة على وجوههم بسبب كذبهم عليه، لكنه لا يستطيع ان يصفع أباه أو أمه أو أي أحد من الناس، ولا يملك الا جسده الذي يعريه أمامهم.

نفهم من هذا ان هؤلاء الرجال المصابين بمثل هذا الانحراف الجنسي الاستعراضي ليسوا في معظم الاحيان الا مرضى بالسادية في أشد صورها، وهم ضحايا طفولة مزقتها القيم الاخلاقية المزدوجة والتقاليد المتزمتة والكذب واعتبار الجنس اثما مع انه يمارس سرا في كل وقت.

بالطبع لا يتعرض اكثرية الاطفال لما تعرض له الطفل السابق. لكن الذي يدرس

المجتمع وبالذات الحياة التي تعيشها الأسر الكادحة، حيث تسكن الأسرة الواحدة حجرة واحدة، ويبيت الاب والام والاطفال في حجرة واحدة، ندرك ان عددا غير قليل من الاطفال يشهد المسرحية الليلية والتي غالبا ما يلعب فيها العدوان والايلام دورا بارزا. وهناك ايضا الامهات من الاسر المرتاحة اقتصاديا، هؤلاء الامهات ذوات الامومة المتضخمة المريضة، شديدات الالتصاق بأطفالهن الى حد ان الطفل يستمر فترة طويلة (قد يصل الى السابعة او الثامنة) وهو ما زال يبيت في الحجرة نفسها التي يبيت فيها أبوه وامه.

هذا يحدث في الوقت الذي ما زال فيه معظم الأباء والامهات يدعون العفة والزهد امام اطفالهم، أو على الاقل يصمتون ولا ينطقون شيئا فيما يتعلق بالجنس، مع أنهم لا يكفون كل ليلة عن اداء المسرحية الهزلية والدرامية معا.

تزداد حدة هذه المشاكل ويزداد الصراع عند الطفل في الأسرالشديدةالتدين، حيث يرى الطفل اباه بالنهار ممسكا بالسبحة، متمتما بالآيات، داعيا الى الفضيلة، ناهيا عن الرذيلة، ثم اذا جاء الليل انقلب رأسا على عقب، فاذا به الرذيلة نفسها مجسدة على شكل شيطان عاري الجسد شديد العدوان.

في زيارتي لمستشفى الامراض النفسية بالخانكة دخلت الى الورشة الفنية حيث يشغل الفنانون من المرضى فراغهم في عمل التماثيل واللوحات. ورأيت أحد الشباب المرضى منهمكا في عمل تمثال صغير. واقتربت من الشاب وانا اتأمل التمثال، ورأيت أنه تمثال رجل يرتدي عمامة كبيرة ورداء واسعا على شكل القفطان.

سألت الشباب: من صاحب هذا التمثال؟

قال الشاب: إنه أبي.

قلت: كان رجلا صالحا متدينا.

قال الشاب: نعم.

ثم اذا به يشد من تحت القفطان خيطاً رفيعاً فإذا بعضو التمثال الجنسي يبرز الى الامام منتصبا. وضحك زملاء الشاب من المرضى الذين يعملون معه في الورشة الفنة وضحك الطبيب الذي كان يرافقني في جولتي داخل المستشفى ورأيت شيئا يلمع ـي عيني الشاب نزيل المستشفى، كانت هي الدموع. وسألته: أتبكي؟!

وانفجر الشاب غاضبا فجأة وألقى بالتمثال في الارض وخرج من الورشة جريا وهو يصيح بغضب: «متى اخرج من هذا السجن! لست مريضا! لست مجنونا! العالم كله هو المجنون!».

من المعروف ان الكشف عن العضو الذكري هو أحد الطرق البدائية للاعلان عن الذكورة خاصة لدى هؤلاء الرجال الذين فقدوا الصفات الرجولية الاخرى ولم يعد لديهم إلا ذلك العضو الذي يثبت لهم ولغيرهم انهم رجال. وهو أيضاً رغبة طفولية تبقى مع الرجل الذي عجز عن النمو النفسي والنضوج بالرغم من أنه كبر وجاوز مرحلة الطفولة بسنوات كثيرة.

ان معظم الاطفال يشعرون بميول مختلفة تجاه كشف أعضائهم ولمسها. وفي المدارس يتبارى الاطفال الذكور (بسبب المجتمع الذكوري الذي جعل من العضو الذكري قيمة عالية تستوجب التفاخر) في عقد المقارنات بين أعضائهم والتنافس على من هو صاحب العضو الاكبر أو الاجمل. ان حجم العضو وشكله يمثل مصدرا هاما من مصادر السعادة والرضا عن النفس عند معظم الرجال، وكثير منهم من شدة الرضا لا يملون النظر الى أعضائهم في المرآة. وهناك من لا يكتفي بالنظر، بل يضاعف اللذة بممارسة العادة السرية أيضاً أمام المرآة. ان اعتقاد الرجل بأنه يملك عضوا كبيرا مؤثرا يمنحه الكثير من القوة الجنسية خاصة اذا افتقد الرجل الاسس الاخرى التي ترتكز عليها شخصيته وتقديره لنفسه كرجل وانسان، ويظن الرجل أن المرأة تنبهر بعضوه الذكري كما ينبهر هو. لكن الحقيقة أن المرأة لا تنظر الى العضو الذكري كشيء باهر. انها تنظر إليه نظرة عملية، تنظر اليه كعضو من الاعضاء يمكن أن يؤدي الوظيفة التي وجد من اجلها. بمعنى آخر تنظر اليه نظرة فسيولوجية وليس نظرة جمالية مليئة بالاعجاب كما يفعل الرجال.

على أن هناك بعض النساء اللائي يُظهرن إعجابا وانبهارا بأعضاء أزواجهن. وبدراسة هؤلاء الزوجات والازواج وجد أن الزوجة لا تفعل ذلك إلا ارضاء لزوجها النرجسي الذي عشق ذاته متمثلة في عضوه، وأصبح يتغزل في هذا العضو، ويطلب من زوجته أن تفعل المثل. ومن أجل أن تُبقي الزوجة على حياتها الزوجية، أو خشية الطلاق، أو انصياعا وراء القيم الاخلاقية والدينية التي تحث الزوجات على طاعة الزوج واشباع رغبته أنى شاء وكيف شاء، من أجل كل ذلك تفعل الزوجة ما يطلبه منها زوجها وهي راضية أو تدعي الرضا.

وتتعرض البنات في مجتمعنا وفي كل المجتمعات لهذا النوع من الرجال احيانا. لا تكاد تخلو حياة اي طفل او بنت من ذكرى منظر رجل كشف عن عضوه أمامها. في البحث الذي أجريته في كلية طب عين شمس بالقاهرة سنة ١٩٧٣ على ١٦٠ امرأة وفتاة وجدت ان ٥٠٪ منهم يذكرن شيئا من هذا القبيل. أما النصف الآخر فقد أنكرن تماما حدوث هذا ومن المعروف ان ذاكرة الاطفال تنسى الحوادث وبالذات الجنسية منها لاسباب متعددة[1].

ولكثرة عدد الرجال الذين يمارسون هذه الاستعراضات لاعضائهم فقد اصبح الاتجاه في العالم الآن الى تعريف البنات الصغار بهذه الحقيقة حتى لا تفزع الواحدة منهن حين ترى واحدا من هؤلاء. ووجد ان مثل هذه الحوادث لا تضر البنات نفسيا ولا تؤثر عليهن في شيء طالما أنهن عرفن من قبل أن مثل هذه الامور تحدث من بعض الرجال، وأنهم في معظم الاحيان لا يعتدون على البنت، وانما هي رغبة للاستعراض فحسب.

الضرر الوحيد الذي قد يحدث أن البنت الصغيرة قد يفزعها منظر العضو المنتصب، وربما أيضا يسبب لها شيئا من الاثارة الجنسية، وهكذا تكتم الامر كسر من الاسرار تشعر معه بالذنب. على أن معظم هؤلاء الرجال الاستعراضيين لا يسببون من الضرر أكثر من هذا. وهذا هو السبب في أن أحدا لا يكتشفهم ولا يكتشف عددهم الذي يقولون عنه انه غير قليل، وأن مثل هذه الرغبة الاستعراضية قد يقوم بها بعض الرجال في فترات الحرمان من الممارسة الجنسية الكاملة مع المرأة. ووجد أن بعض الازواج يلجأون الى ذلك كنوع من تخفيف التوتر الجنسي حين تكون زوجاتهم مريضات، أو حوامل، أو غير ذلك. وهو يبدو في هذه الحالات كنوع من الاعادة لسلوك طفولي سبق أن حدث، وضاع من ذاكرة الرجل. وعلى هذا الاساس حاول بعض العلماء تفسير هذه الظاهرة على انها طبيعة ذكورية تظل باقية ومدفونة في مكان ما من ذاكرة الرجل.

لكن الدراسات النفسية الجديدة اوضحت أن هذه الظاهرة كغيرها من الظواهر الجنسية الذكورية تنشأ اكثر ما تنشأ بسبب التربية والمجتمع والحضارة والقيم الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية.

---

(١) انظر: الانثى هي الاصل.

ولا يختلف أحد من العلماء حول أن الحضارة من حولنا في العالم هي حضارة ذكورية قامت على تمجيد الذكورة من أجل أن يسود الاب على الام في الاسرة الابوية. ولما كان الفرق الوحيد الظاهر بين جسد الرجل وجسد المرأة هو وجود هذا العضو بشكل اكبر من بظر المرأة فقد عمد الرجال في العصور الاولى لمنشأ الاسرة الابوية أن يبرزوا هذا الفرق بل يزيدون عليه من خيالهم ومن فنهم مستخدمين في ذلك أدوات بدائية أول الأمر، ثم أدوات ووسائل اكثر رقيا وحضارة وفنا (كما حدث في لوحات مايكل انجلو) في عهد من العهود. ويقول التاريخ ان الرجال كانوا يرتدون من حول عضوهم الذكري خرطوما صنع من جلد الحوت يضم العضو والخصيتين معا بطريقة تبدو للعين وكأن العضو كبير الحجم أو منتصب على الدوام. وبعد أن هجرت أسلوب جلود الحوت أصبح الرجال يرتدون سراويل مزينة بالاقواس أو أدوات مشابهة حتى يجذبوا أنظار النساء الى الشيء العظيم. ونحن نرى هذا الاتجاه بوضوح في اللوحات التي تصور ملابس الرجال في اوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ولم يكف الرجال عن استخدام مثل هذه السراويل التي تعبر عن ميولهم الاستعراضية الجنسية الا في القرن الثامن عشر، وبعد الثورة الفرنسية وانتشار الافكار المنادية بالمساواة بين حقوق البشر سقطت في الماضي هذه السراويل والاقواس واتجه الرجال نحو سراويل اخرى اكثر تطورا. على أن من الواضح في عصرنا الحديث أن الاصرار من جانب الرجال (وهم الذين يصنعون القيم والقوانين والأساليب والازياء) على أن يكون للرجال ازياء معينة، وللنساء أزياء معينة، وأن يرتدي الرجل السروال بالذات ليس الا بقايا رغبات استعراضية ذكورية، حيث أن البنطلون (وان كان بغير اقواس) إلا أنه اكثر ابرازا لعضو الرجل من الثوب.

ولا بد من التنويه هنا بأن هناك قلة من الرجال ابرياء من هذه الرغبة الاستعراضية أو من اي رغبة اخرى استعراضية. لكن هناك رجال يستبدلون رغبتهم الاستعراضية الجنسية باستعراض من نوع آخر لاثبات ذاتهم أو ذكورتهم أو قوتهم أو سلطتهم أو أي شيء آخر يملكون.

هناك رجل ينفس عن رغبته الاستعراضية بأن يجعل زوجته (حين تخرج معه) ترتدي افخر الملابس وآخر طراز (وإن كان ذلك ضد مبادئه الدينية والاخلاقية) من أجل أن يثبت للرجال الآخرين انه يملك زوجة على قدر من الاناقة والجمال اكثر من أي زوجة أخرى من زوجاتهم. وكما يفعل الرجل بزوجته يفعل بسيارته مثلا، من أجل

أن يقـول للرجال الآخرين إن سيارته أفخر السيارات. وبالمثل يحدث الاستعراض والتنافس الاستعراضي بين الذكور حول ما يملكون من زوجات أو أطفال أو سيارات أو بيوت أو شهادات أو أرصدة في البنوك أو عقارات. يحدث هذا لهؤلاء الرجال الذين عجزوا عن اثبات ذواتهم بطريقة أخرى سوى الاعلان عن أملاكهم سواء كانت أملاكا بشرية أو مادية أو مجرد امتلاك عضو التناسل في أجسامهم.

انهـا احـدى سمات الحضارة الذكورية التي نعيشها والتي قامت على الملكية والامتلاك. واصبحت قيمة الانسان تتحدد بمقدار ما «يملك» لا بمقدار ما «يكون» انسـانا.

وقد رأينا كثيرا من الرجال الذين يعشقون الاستعراض الجنسي عن طريق الصحافة والفن والادب. كم قرأنا لهذا الرجل الصحفي أو الاديب الشهير جولاته وصولاته مع المومسات والممثلات الشهيرات وخادمات الفنادق في اشهر مدن آسيا وامريكا واوروبا وافريقيا. كنت اندهش وأنا تلميذة صغيرة حين كنت اقرأ لصحفي اشتهر في زمانه مثل محمد التابعي، والذي كان يحاول في كتاباته أن يتقمص شخصية الدون جوان، وفي كل تجوالاته في انحاء العالم لم يكن يشغله شيء اكثر من انه تناول العشاء مرة مع الشهيرة «جاكلين» أو أن «افلين» كلمته في التليفون مرة، أو أنه لثم يد «كريستين» ذات ليلة، وشرب البيرة المثلجة مع «هلين» أو طبع قبلة خاطفة على جبهة «كاترين». وكم من كتاب وصحفيين تأثروا بالتابعي ونهجوا نهجه في كتاباتهم عن رحلاتهم في العالم ووجدوا في ذلك تنفيساً عن رغباتهم الاستعراضية.

وكما سبق أن ذكرت ليس ذلك الا بسبب احساس الرجل بالنقص ورغبته في تعويض هذا النقص بادعاء ما ليس فيه.

الفصل العاشر

خيالات الرجل الجنسية

بسبب المحظورات والمحرّمات الكثيرة المحاطة بالجنس فان بعض الرجال يجدون صعوبة بالغة في الاتصال الجنسي الكامل مع المرأة ويفضلون ان يمارسوا الجنس في خيالهم، أو يستبدلوا جسد المرأة بشيء آخر مثل ملابسها الداخلية أو جوربها. أو يصبح لديهم جزء من جسد المرأة كالذراع أو الثدي مبعثا للذة اكثر من اعضاء المرأة الجنسية. أو تصبح حركة من حركات المرأة اكثر اثارة لهم من جسد المرأة ذاتها. هناك بعض يثارون جنسيا اذا سمعوا حفيف ثوب امرأة وهي تمشي، أو التقطت آذانهم طقطقة كعب عال. وهناك ايضا من النساء من يثيرهن صوت الرجل وهو يسعل، أو حركة يده وهو يدخن، أو حينما يتنحنح.

مثل هذه الحركات أو الاصوات أو الاشياء تصبح مبعثا للاثارة الجنسية اكثر من الشخص ذاته، بل ان الجسد يفقد قدرته على اثارتهم وتصبح هذه الاشياء هي مصدر الاثارة فقط.

ومن المعروف أن هذا الانحراف الجنسي يحدث عند الرجال اكثر منه عند النساء. ومن النادر أن نجد هذه المرأة التي يثيرها سروال الرجل أو جوربه. لكننا نصادف رجالاً لا يستطيعون أن يلمحوا سروال امرأة أو جوربها حتى تتملكهم الرغبة الجنسية. وهناك أيضاً الرجل الذي يثار لمنظر سروال صبي، أو شعره الخشن المنفوش، أو عضوه الذكري. وهذه انحرافات لا يعاني منها الا قلة من الرجال. على أن الاغلبية من الرجال يشعرون بدرجات متفاوتة من الاثارة ازاء جسم المرأة وأعضائها كل حسب شخصيته، ودرجة نضوجه، وبمقدار ما ينحصر تركيزه على عضو أو شيء معين في المرأة.

وبمثل ما يستغل تجار الجنس والافلام والقصص والفنون الجنسية ميول الرجل السادية والماسوشية فان تجار ملابس النساء ومصممي أزياء المرأة يستغلون أعضاء جسم المرأة من اجل اثارة الرجال، مركزين الاهتمام في كل «طراز» من الازياء على جزء معين من المرأة، ويغيرون «الطراز» من عام الى عام مستخدمين جزءا آخر من جسم المرأة. وهكذا تروج البضاعة.

في سنة من السنين يكون التركيز في ازياء المرأة على النهدين بحيث تصل فتحة الثوب حتى بداية الشق بين الثديين. ويرتبط خيال الرجال على مدار السنة بهذا الشق. ثم تأتي السنة التالية فاذا بالأنماط الجديدة تغطي الثديين وتكشف الفخذين كمحاولة لتجديد اثارة الرجال وبالتالي ترويج البضاعة والملابس. وفي السنة التي بعدها تغطي الفخذين ويكشف الخصر ويصبح خصر المرأة هو صاحب النصيب الاكبر في خيال الرجل واثارته.. وهكذا.

ان الحضارة الذكورية القائمة على سيطرة الرجل من ناحية، وعلى الملكية الخاصة والربح التجاري بأي شكل من ناحية اخرى، تفرض على النساء أن يتحولن الى اشياء أو سلع في السوق التجارية.

ولهذا فان شكل المرأة وجمالها لا يرجع اليها ولا يتحدد حسب ارادتها وشخصيتها، ولكن ارادة الرجل هي التي تحدد شكل المرأة. وهي التي تغيره من حين إلى حين بحيث يساعد ذلك على نجاح بيع السيارات والافلام ودهانات الوجه ومزيلات الشعر والرائحة والصابون المعطر وغير ذلك من انتاج المصانع الرأسمالية. ويسمى شكل المرأة في هذه الحالة بالطراز الذي يحتل الصفحات والمجلات والصحف وشاشة السينما والتلفزيون.

ولان الانتاج الصناعي الرأسمالي غير محكوم الا بالربح ومضاعفة رأس المال بصرف النظر عن الاحتياجات الضرورية للاغلبية الساحقة من البشر فان معظم هذه السلع المنتجة لا تمثل ضرورة حيوية لكثير من الناس، ولكنها تدخل تحت بند الكماليات. وهل يتصور احد ان هؤلاء الملايين من الكادحات والكادحين في المصانع والحقول يحتاجون الى ذلك السائل المزيل لرائحة العرق، هذا العرق الذي لا يجف عن أجسادهم ليل نهار؟!

ومن هنا تنشأ الحاجة الى تلك الاعلانات الصارخة المجنونة التي تصرخ ليل نهار

بأعلى الاصـوات، مستخدمة أجساد النساء العارية والاثارة الجنسية وكل ما يمكنها استخدامه من اجل ترويج البضائع الكمالية وسط ملايين لم يحصلوا بعد على الاشياء الضـرورية. ويستغل الرأسماليون بالطبع الحاجات النفسية والجنسية لشعوب تعاني الكبت الجنسي والحرمان في ظل قيم اخلاقية ودينية تجعل من الجنس اثما. ومن هنا تنشأ الازدواجية في موقف الرأسماليين. انهم يشجعون بل ويحرضون الشعوب على التمسك بالاديان والاخلاق وينفقون الاموال الطائلة من اجل خلق النعرات الدينية وهم في الوقت نفسه يستخدمون الاعلانات العارية والفاضحة والضاربة بعرض الحائط بكل القيم الدينية والاخلاقية. وهذا أمر منطقي لانهم يحتاجون الى الكبت الجنسي الناتج عن هذه القيم من اجل أن يصرفوه من خلال تصريف البضائع. وبالمثل يستخدمون المشاكل النفسية والجنسية الاخرى مثل العنف والعدوان والادمان والانحرافات الجنسية وغيرها من منتجات الحضارة الذكورية من أجل أن يصرفوا البضائع ويضاعفوا الربح.

وقد لوحظ أن الرجال في المجتمعات الشرقية يركزون اهتمامهم اكثر على ساقي المرأة، أو فخذيها، وبعضهم يركز على الردفين. أما في المجتمع الامريكي مثلا فقد كان ثدي المرأة هو ما يحتل المركز الاول في إثارة الرجل خلال النصف الاخير من القرن العشرين. وكان امتلاك الممثلة لثدي بارز مثير هو أهم ما يساعدها على النجاح في عالم السينما والفن والشهرة. قال لي أحد الرجال الامريكيين إن تعلق الرجل بثدي المرأة أكثر رقيا من تعلقه بساقيها أو فخذيها! وسألته عن سبب ذلك: فقال إن السبب تاريخي، وإن الرجال الامريكيين تعلقوا في بداية القرن العشرين بساقي المرأة لأن المـرأة الامريكية سبقت المرأة الشرقية في تعرية ساقيها وفخذيها. على أن أنماط الازياء تغيرت في المجتمع الامريكي في منتصف القرن العشرين وانتشرت الفساتين الطويلة (بعد أن مل الناس ساقي المرأة وفخذيها) واصبحت الازياء الجديدة تعري الثدي، ومن هنا أصبح الثدي بؤرة الاثارة الجديدة.

اعتقد أن الأزياء الجديدة الآن تعري الخصر وجزءا من البطن (على غرار ملابس المرأة الهندية).

على أن هذه التجارة وهؤلاء التجار لن يكفوا عن التغيير والتعرية والتغطية وامامهم من البضائع المراد تصريفها الكثير وامامهم أيضا من أعضاء المرأة الكثير.

ان هؤلاء النساء الغريرات اللائي يلهثن وراء ملاحقة « الأزياء » وآخر صرعة في

الملابس والماكياج لا يدركن أنهن لم يعدن نساء وانما أصبحن مجرد أشياء، أو اجزاء، وأن الواحدة منهن لم تعد إنساناً متكاملا وانما حولتها الحضارة الذكورية الى شيء، الى سروال، أو قفاز، أو سوار، أو ثدي، أو فخذ، أو في احسن الحالات الى «مهبل ورحم» وهي حالة الزوجة التي تعيش في ظل الاسرة الابوية وفي كنف الزوج المسيطر وليس لها من وظيفة الا الزواج والولادة.

ان المرأة الناضجة لا تأبه بالأزياء، وترتدي ما تراه مناسبا لجسمها وشخصيتها، والرجل الناضج كذلك لا يحول المرأة الى شيء أو الى جزء، وانما يراها انسانة متكاملة مثله. على ان الذين ينضجون من الرجال أو النساء في هذه الحضارة قليلون، والاغلبية من البشر يسقطون ضحايا الاعلانات التجارية وضحايا القيم الرأسمالية المزدوجة.

اهم سمات هذه الحضارة التي نعيشها أنها تعتمد على تشييء الاشخاص، وتجزئة الكل. لانها حضارة ترتكز على الملكية، فقد أصبحت القيمة الاساسية للاشياء التي تمتلك، وأصبحت قيمة الشخص تتحدد بمقدار ما يملك لا بمقدار ما يكون شخصا حقيقيا. ولأن المرأة اصبحت شيئا قابلا للتجزئة وليست شخصا كاملا.

ان الفرق الاساسي بين الانسان وبين الاشياء هو أن الانسان غير قابل للتجزئة. لا يمكن أن نقسم الانسان الى ذراع وساق وبطن وصدر، والا فقد الصفة الاولى التي تجعله انسانا او شخصا. أما الاشياء فيمكن تجزئتها. يمكن أن نقطع الكعكة مثلا الى اجزاء ونستخدم كل جزء على حدة.

كثير من الرجال حين يريدون مدح امرأة ما يقولون لها: انت لذيذة كالكعكة. لكننا لم نسمع عن امرأة تمدح رجلا وتقول له: انت كالكعكة.

وقد تحير كثير من علماء النفس والجنس في الاسباب التي تجعل الرجل يثار جنسيا اذا ما تعرت امامه فخذ المرأة مثلا في حين ان المرأة لا تثار جنسيا اذا ما كشف الرجل أمامها عن ساقه أو فخذه أو حتى عضوه التناسلي. وقال بعضهم ممن سبقوا فرويد ان الطفل الذكر يميل اكثر الى الخيالات الجنسية، وإن نوعا من الارتباط الشرطي يبقى في ذهنه، فيربط بين ثوب امه مثلا والاثارة الجنسية، أو بين ملابس اخته الداخلية والرغبة. وأن هذا يحدث في الاطفال الذكور الذين يميلون الى الانطواء.

والسؤال هنا: لماذا لا يحدث هذا الارتباط الشرطي عند الاطفال الاناث؟ الا تربط البنت بين ملابس أبيها الداخلية وبين الاثارة الجنسية؟ ألا تميل كثير من البنات الى الانطواء ؟ وهل تزيد الخيالات الجنسية عند الذكور عنها عند الاناث ؟ وقال فرويد ان مثل هذه الميول الجنسية تظهر في الاطفال الذكور وقد ترجع الى « عامل » نفسي مجهول الأصل. على أنه قد قال ان اكثر الأطفال عرضة لها هم ذوو الحساسية الذين يقعون فريسة الفكرة المسلطة الثابتة والذين يعرضون للاصابة بالعصاب فيما بعد .

وقد أرجع فرويد هذه الظاهرة في عمومها إلى عقدة أوديب التي يشعر بها الطفل الذكر. وقال فرويد إن الطفل يمارس شيئا يشبه العادة السرية بمداعبة عضوه الجنسي وإن هذه الممارسة تعطيه أحساسا بقيمة هذا العضو. لكنه يعيش في خوف من أن يفقده أهله هذا العضو بسبب عدم موافقتهم على نشاطه الجنسي. وحينما يكتشف الطفل أن هناك مخلوقات أخرى (وهن الاناث) لا يمتلكن العضو الذي يمتلكه تتحقق مخاوفه ويعتقد أن هؤلاء الاناث فقدن العضو كنوع من العقاب ومن هنا يزداد خوفه من فقدان عضوه ويصاب بما سمي عقدة الاخصاء. وقال فرويد ان الرجل الذي يستعيض عن جسد المرأة بشيء من ملابسها الداخلية مثلا هو ذلك الطفل الذي اشتد خوفه من فكرة الاخصاء الى حد أنه رفض أن يصدق فكرة أن الانثى فقدت عضوها، وأن هذا العضو ما زال في جسدها بالرغم من ادراكه أنها لا تمتلك هذا العضو، وان ملابس المرأة الداخلية (أو الشيء الذي استعاض به الرجل عن جسم المرأة) تلعب دورا في تأكيد أوهامه بتمثيل غياب العضو في الانثى. وقد دافع فرويد عن فكرته هذه بأن أمثال هؤلاء الرجال المنحرفين يظهرون نفورا شديدا من منظر اعضاء المرأة الجنسية وبعضهم يشعر بفزع لو رأى هذه الاعضاء عارية. لكنهم في معظم الاحيان يخفون هذا النفور أو هذا الفزع.

أما لماذا تلعب ملابس المرأة الداخلية هذا الدور بالنسبة للرجل المنحرف في معظم الحالات فيقول فرويد إن الملابس الداخلية تمثل للرجل اللحظة الاخيرة قبل أن تتعرى المرأة وقبل أن يكتشف أنها لا تملك العضو.

وقد رفض معظم علماء النفس الجدد تفسير فرويد هذا، وأصبحت نظرية التحليل النفسي عاجزة عن تفسير كثير من الظواهر النفسية والجنسية التي يعيشها الرجال أو النساء.

وقد لعب بحث كينزي وزملائه الذي نشر في منتصف هذا القرن دورا كبيرا في تفسير كثير من الظواهر الجنسية. وقد تبع ذلك عدد من البحوث التي شاركت في القاء مزيد من الضوء ونبهت الاذهان الى العوامل الاجتماعية والتاريخية.

وبالرغم من أن كينزي قد خرج من بحثه بنتائج تفند النظريات القديمة القائلة بوجود فروق بيولوجية وجنسية جوهرية بين الرجل والمرأة الا أنه لم يستطع أن يفسر أسباب هذا النوع من الانحراف بين الرجال.

قال كينزي: ان انتشار هذه الظاهرة في الرجال دون النساء ترجع الى ان مجالات الاثارة الجنسية عند الرجل اكثر اتساعا وتنوعا منها عند المرأة. وأن الرجل ايضا اكثر عرضة لان يقع تحت تأثير الارتباط الشرطي بواسطة الاثارات. والسؤال هنا لماذا؟

وقال بعض آخر إن المرأة لا تتأثر بأي مؤثرات جنسية الا عن طريق اللمس أو عن طريق بعض الكلمات الغرامية وبعضهم قال إن المرأة تثار جنسيا بسهولة اذا لمسها الرجل، وأن النساء بصفة عامة لا يثرن جنسيا من الصور العارية لاجساد الرجال أو النساء أو الافلام الجنسية التي تعرض العمليات الجنسية. بعكس الرجال الذين يثارون بسرعة من هذه الصور العارية، وإن العري الجسدي يلهب رغبة الرجل. لأن الرجل يُثار عموما عن طريق النظر أما المرأة فلا تثار الا عن طريق اللمس، وأن الرجل عموما يثار بسرعة، وبطرق كثيرة متعددة، منها النظر ومنها اللمس ومنها الخيال ومنها الرائحة ومنها الملابس ومنها الحركة الخ . . . أما المرأة فهي تثار ببطء وعن طريق اللمس فقط. أو بعض القصص أو الكلمات الرومانتيكية. وقد يكون ذلك الرجل مالكاً عضوا اكبر من البظر أو أن المرأة عندها رحم. لقد أثبت علماء الجنس أخيرا ومنهم كينزي وجونسون وشيرفي[1] وغيرهم ان مثل هذه الفوارق التشريحية والبيولوجية وإن اختلاف نسب الهرمونات داخل الذكر والانثى لا تجعل الرجل أكثر رغبة في الجنس من المرأة، بل هناك بعض الآراء الحديثة التي تقول بأن رغبات المرأة الجنسية أشد من الرجل لو تركت لها الحرية لتكون طبيعية وصادقة مع نفسها.

الا أن الكبت الذي يفرض على المرأة في ظل الاسرة الابوية والمجتمع الذكوري

(١) انظر موضوع (الانثى هي الأصل) في هذا الكتاب.

يصيبها بدرجات مختلفة من البرود الجنسي، وأن الرجل في هذه الحضارة اكثر حرية في ممارسة الجنس والاثارة من المرأة.

لقد لاحظت مثلا أن المرأة في مجتمعنا العربي لا تثيرها الصور العارية كما تثير المرأة في السويد أو الدنمارك. وذلك لأن الاثارة الجنسية اصبحت مباحة للمرأة في هذه المجتمعات ولم تعد المرأة بحاجة الى أن تخفي هذه الاثارة أو تكبتها بوعي أو بغير وعي.

وفي ستوكهولم عاصمة السويد سمعت من النساء عكس هذا الكلام. أي أن الواحدة منهن تحب النظر الى جسدها في المرآة وتشعر بلذة واثارة حين تفعل ذلك، وأن منظر عضو الرجل يثيرها ويشعرها باللذة.

هل يمكن أن نقول إن المرأة في السويد لم تعد امرأة أو لم تعد امرأة طبيعية وهل المرأة المصرية مثلا هي نموذج المرأة الطبيعية؟ هل يمكن أن نقول ان الخلاف الكبير بين المرأة المصرية والمرأة السويدية سببه الاختلاف الهرموني والبيولوجي بين هذه وتلك. هل المرأة السويدية تملك عضوا اكبر أو بظرا أكبر من بظر المرأة المصرية؟ ربما يقول البعض إن هذا صحيح في تلك الحالات التي يقطع فيها بظر البنات المصريات (عملية الختان الشائعة في مصر) ولكن هل هذا القطع عمل طبيعي أم تدخل اجتماعي ضد الطبيعة؟

اصبح من الواضح الآن أن ارتفاع أو انخفاض الرغبة الجنسية أو درجة الاثارة أو سرعتها تحددها الظروف الاجتماعية والاخلاقية والتربوية في المجتمع أكثر من أي شيء آخر.

ومن المهم أن أشير هنا الى انني لم اجد في المرأة السويدية رغم حريتها الجنسية المرأة والانسانة المتكاملة الشخصية. ذلك أن المجتمع السويدي ما زال مجتمعا ذكوريا رأسماليا.

ان الخجل والخوف والنقص والاثم والذنب كلها صفات وأحاسيس ترتبط في ذهن الطفل بالجنس وهي ترتبط في ذهن البنت اكثر مما ترتبط في ذهن الصبي بسبب التفرقة في المعاملة وازدواجية القيم الاخلاقية من حيث فرض العفة على النساء واباحة الجنس والتعدد للرجال بصفة عامة.

ولان الضغط على البنت اكثر منه على الولد ولأن الكبت الجنسي عليها أشد فهي تنكر الجنس اكثر مما ينكره الولد.

ان انكار الجنس لفترات طويلة من حياتها كطفلة ومراهقة وشابة يصيبها في النهاية بالبرود الجنسي، وتدرك بوعي وبغير وعي أنها في غير حاجة الى الجنس، وأنها لا تثار بل ان المناظر الجنسية تسبب لها النفور. وهذه عملية نفسية دفاعية تلجأ اليها البنت بوعي وبغير وعي لتحمي نفسها من الاثارة، لانها تعرف أن هذه الاثارة ستسبب لها الكوارث والمشاكل أو على الاقل ستكون اثارة مجهضة لانها لن تستطيع أن تشبعها ولن يسمح لها باشباعها بأي حال من الاحوال.

أما الطفل الذكر فهو لا يصل الى هذه الحالة ولا يصل الكبت الجنسي بالنسبة اليه الى هذا الحد. انه يشعر في مراهقته أنه يستطيع أن يمارس العادة السرية، ويستطيع أن يغازل البنات، ويستطيع أن يشتري الصور العارية، ويستطيع أن يذهب الى المومسات أو يعتدي على الخادمات. ومن هنا تكون فرصة الاثارة الجنسية أمامه اكثر تنوعاً واكبر مجالا واتساعا من البنت. انه يستطيع أن يستخدم عينيه في النظر الى جسد البنات لكن البنات يطرقن خجلا. انه يستطيع ان يدرب عينيه على رؤية الصور العارية، ويدرب اذنيه على سماع الكلمات الجنسية، ويدرب أنفه على شم الروائح الجنسية وهكذا.. تتعدد تجاربه وتتعدد معها انواع الاثارة.

أحد أنواع هذه الاثارة هي ملابس المرأة الداخلية التي يلمحها الطفل كثيرا حين تجلس أمه أو اخته أو اقاربه من النساء. كثير من النساء حين يجلسن تظهر سراويلهن الداخلية. ويشعر الطفل الطبيعي بالاثارة الجنسية لكن احساس الذنب والخوف من اهله يصيبه بالقلق كلما فكر في الجنس أو شعر برغبة جنسية. قد يزيد خوفه وقلقه الى الحد الذي يجعله ينكر الجنس تماما ويشعر بالعجز الجنسي. وأحيانا يتشكك في قدرته الجنسية، أو يخشى أن يعاقبه الاهل فيقطعوا عضوه ويصاب بما سماه فرويد الاخصاء. وهي تسمية خاطئة لان الاخصاء معناه قطع الخصيتين. والرجل المخصي لا ينجب اطفالاً لكنه يظل محتفظا بقوته الجنسية. أما قطع العضو التناسلي فهو يفقد الرجل العضو وبالتالي يفقده الانتصاب.

إن معظم الاطفال يثارون جنسيا حينما يرون سراويل البنات لكن معظمهم يكبرون ويتغلبون بدرجات متفاوتة على مخاوفهم القديمة واحاسيسهم بالذنب والنقص. لكن هناك من يتوقف نموه (بسبب الخوف الشديد) عند هذه المرحلة ويظل سروال المرأة

(وليس المرأة ذاتها) هو الذي يثيره ويسبب له الانتصاب.

ان الخوف الذي لازمه وهو طفل يجعله يخشى جسد المرأة لان جسد المرأة يثيره لكنه محفوف بالمحاذير والمخاوف، ولا يجد أمامه من حل سوى أن يستبدل الجسد الذي يخيف بشيء لا يخيف. ويصبح هذا الشخص في حاجة الى هذا الشيء بالذات (السروال مثلا) حتى يحدث له الانتصاب.

مثل هذا النوع من الرجال حين يتصل بالمرأة يشعر أنها بقدر ما تثير رغبته فهي تفقده القدرة على الانتصاب. وهناك حالات من الخوف أقل من هذه يعاني منها عدد غير قليل من الرجال، هذا الخوف الذي يفسر لنا تلك الظاهرة الشائعة بين الرجال، وهي أن الرجل يفقد قدرته على الانتصاب في لقائه الأول مع امرأة جديدة أو عروسه مثلاً ويسمى «عجز ليلة الزفاف» بسبب التهيب والتخوف. لكنه يستعيد قدرته بعد ذلك. وفي حالات الخوف الاشد يصبح السروال أو أي شيء آخر وسيلة للهروب من الشيء المخيف، ودفاعا عن النفس، وتأكيدا للرجل انه ما زال قادرا على الانتصاب. كأنما يصبح السروال في تلك الحاجة حجابا سحريا يحفظ للرجل قوته. انه احد الوسائل التي يستخدمها الرجل حين يشعر بالخوف وحين يشك في أن قدرته الجنسية ستتغلب على هذا الخوف.

ويقول بعض العلماء إن المرأة لا تعرف ابدا هذا النوع من الخوف الذي يعرفه الرجال لانها لا تملك عضو تناسل مثل الرجل ولا يؤرقها مثل ما يؤرقه فقدان القدرة على الانتصاب. لكن عددا آخر من العلماء اوضح أن مخاوف المرأة (وبالذات المرأة الجديدة التي بدأت تشعر بكيانها وأنها شخص متكامل) من فقدان قدرتها الجنسية أو اصابتها بالبرود لا تقل اهمية عن مخاوف الرجل. وانه اذا كان هناك فارق بين مخاوف الرجل ومخاوف المرأة فليس ذلك لاسباب تشريحية أو بيولوجية[1].

وبالرغم من أن الخوف هو السبب الرئيسي وراء مثل هذه الاستبدالات والانحرافات، الا أنه هناك بعض الحالات التي تنتج عن تلك الظاهرة الفسيولوجية المعروفة بالارتباط الشرطي، وهي تحدث للذكور كما تحدث للاناث.

احدى الحالات كانت لشاب يشعر بالانتصاب كلما رأى مسدسا. واتضح من

---

(١) انظر: خوف الرجل من المرأة وعقدة النقص في هذا الكتاب.

دراسة طفولته أنه كان وهو طفل متعلقا بأمه لكن أمه ماتت وهو طفل وكان آخر ما أعطته له أمه لعبة على شكل مسدس. وأصبح هذا الطفل يأخذ هذا المسدس كل ليلة في سريره ليذكره بأمه وليحضنه كما كان يحتضن أمه. حين كبر هذا الطفل وأصبح شابا لم يكن يستطيع أن يتصل بأية امرأة الا والى جواره المسدس.

وقد كان «بافلوف» هو العالم الفسيولوجي الروسي الذي اكتشف ظاهرة الارتباط الشرطي حين أجرى تجربته المعروفة على الكلب. ووجد أن الكلب يسيل لعابه عند دق الجرس الذي أصبح علامة للاكل بعد أن دق عدة مرات سابقة في أوقات تقديم الطعام. وخرج «بافلوف» من تجاربه بعد ذلك أن الانسان والحيوان أيضاً يتعلم الاستجابة لبعض المثيرات التي كانت قبل ذلك لا تؤثر فيه.

وبالمثل فقد تعلم هذا الطفل الاستجابة للمسدس كمبعث اثارة جنسية وعاطفية. بمعنى آخر ارتبط المسدس في ذهن الطفل بالراحة والتخلص من التوتر الجنسي، واصبح المسدس مؤثراً كجسد المرأة على قدرته الجنسية. وفي النهاية أصبح المسدس بديلاً عن المرأة في اثارته وفي احداث اللذة الجنسية.

وقد يحدث مثل هذا الارتباط الشرطي للبنت التي تستبدل الرجل بالوسادة أو أي شيء آخر بسبب الحرمان الشديد في الطفولة من حب الاب أو الام أو بديلهما، أو بسبب شدة الاحساس بالذنب.

ان جسد الرجل يسبب لها احساساً بالذنب أما الوسادة فشيء آخر يمكن أن يمنحها اللذة بغير احساس بالذنب.

ان اللذة الجنسية حين تكبت بشدة (في حالة الولد أو البنت) فانها تنحرف عن هدفها الطبيعي وهو جسد الرجل أو جسد المرأة وتتجه الى شيء آخر بعيد عن الجسد، وبعيد بالذات عن الاعضاء الجنسية. ولهذا تصبح هذه الاعضاء عند هؤلاء مصدراً للنفور والغثيان وليست مصدراً للذة أو الاثارة.

ومن المعروف تاريخياً أن الرجل ينطوي في أعماقه على خوف قديم من المرأة وبالذات من أعضائها الجنسية. وهناك عدد من الآراء تفسر ذلك[١] منها أن المرأة كانت في الاصل أقوى من الرجل، وأنها كانت بحكم الولادة القادرة على خلق الحياة. ان

---

(١) انظر المرأة والجنس

هذه القوة الخالقة في المرأة ملأت الرجل بالاعجاب. لكن الانسان لا يستطيع أن يعجب بقدرة ما لا يملكها دون أن يكرهها. والكراهية تولد الخوف. وقد تركز خوف الرجل من المرأة في أعضائها الجنسية، لانه اثناء الجنس يسلم عضوه لها وانهاتحتويه داخلها وقد تسحقه. وبسبب رغباته الجنسية ايضاً نحو امه وخوفه من هذه الرغبات المحرمة.

هذا الخوف من المرأة ومن أعضائها هوالذي يجعل بعض الرجال يبحثون عن أشياء أنثوية أخرى تبعث فيهم اللذة ولا يصاحبها مثل هذا الخوف.

والاشياء الانثوية هي الاشياء التي تستخدمها النساء ولا يستخدمها الرجال مثل المشدات ، والجواهر ، والكعب العالي وغيرها .

كثير من الرجال يحبون ان ترتدي المرأة المشدات والجواهر والكعب العالي ، وكل الاشياء الانثوية الخاصة بالنساء وحدهن، والتي تزيد من الفروق بين النساء والرجال، أو أن تتبرج المرأة وتصبح أقرب ما تكون إلى المومسات، وأبعد ما تكون عن الامهات. والسبب في ذلك يرجع إلى احساس الطفل القديم بالذنب حين اشتهى امه المحرمة. بالاضافة إلى الاحساس بالنقص ورغبة الرجل في تاكيد ذكورته الشديدة. ان تأكيد الصفات الذكرية الشديدة لا يمكن ان يتحقق الا في مواجهة الصفات الانثوية الشديدة التناقض معها. كالابيض لا يصبح أبيض الا في مواجهة الاسود.

ان الرجل من هؤلاء لا يطيق امرأة بغير مشدات أو بغير جواهر أو بغير كعب عال، لانها تصبح في نظره شبيهة بالرجل، وهذا الشبه يفزعه، لانه لا يستطيع ان يؤكد ذكورته الا عن طريق الاختلاف. وكلما كان الاختلاف شديداً بينه وبين المرأة تأكد من احساسه برجولته.

ولعل هذا يفسر لنا بعض نماذج من تلك الأزياء النسائية الصارخة في الملابس والزينة والاحذية والتي تركز اكثر ما تركز على ابراز الاختلافات بين الرجال والنساء. هذه الفساتين الضيقة التي تظهر الارداف والاثداء. هذه الكعوب العالية المدببة التي تجعل خطوات المرأة بطيئة، متأرجحة واحياناً مؤلمة. وكم يحب الكثيرون من الرجال هذا الكعب العالي المدبب المؤلم. انه بالاضافة إلى تأكيد الاختلافات الشديدة بين مشية الرجل ومشية المرأة، أو شكل قدمي الرجل وشكل قدمي المرأة، فانه يؤلم المرأة ويلعب هذا الالم دوراً في تخفيف الرغبات السادية والماسوشية عند الرجال.

ان هذا الكعب العالي المنتشر بين نساء العالم أجمع، والذي يشوه مشية المرأة، ويبطئها، ويؤلمها، هذا الكعب العالي يسعد الرجال إلى حد أنهم صمموا أرض الطيارات وممرات ناطحات السحاب بحيث تناسب كعوب النساء العالية. لقد أصبح الكعب العالي سلاحاً خطيراً ضمن الاشياء الانثوية الاخرى التي تزيد من الفروق بين الرجل والمرأة، والتي تجعل النساء اكثر ضعفاً واكثر قيوداً واكثر هزالاً بحيث يمكن للرجل أن يتخذ موقف الاقوى بسهولة.

ويلعب التجار والرأسماليون على هذه العقد الذكورية ويستخدمونها في تصميم اعلاناتهم عن البضائع ولذلك تتجه الاعلانات دائماً إلى ابراز المظاهر الانثوية مثل الكعب العالي، الثدي، الارداف، الشعر، الخصر، المشدات، الشفتين وملابس المرأة الداخلية المميزة.

على أن الرجل الناضج الواثق من نفسه كرجل وشخص متكامل لا يثار من هذه الاشياء ولا يحرص على ابراز أو تضخيم الفروق بين الرجل والمرأة. وكذلك المرأة الناضجة الواثقة من نفسها كامرأة وشخص متكامل لا تحرص على ابراز أو تضخيم ما سمي بالانوثة. انها لا ترتدي مثل هذا الكعب الانثوي العالي لانه يؤلمها ويعطل حركتها، وتفضل الكعب المنخفض الذي يمنحها حرية الحركة وسرعتها. انها واثقة كل الثقة من شخصيتها كامرأة، وهي في غير حاجة إلى عوامل مساعدة لتأكيد أنوثتها. إن هذا التأكيد ينبع من ذاتها نفسها. كذلك الرجل الناضج الواثق من نفسه. انه لا يحتاج إلى كل تلك المبالغات في الفروق بين الرجل والمرأة أو كل تلك العوامل المساعدة لتاكيد ذكورته. ان هذا التأكد ينبع من ذاته نفسه.

هؤلاء النساء والرجال الناضجون الواثقون من ذواتهم لا يفزعهم ان يسيروا في الشارع هذه الايام فيقابلوا شاباً له شعر طويل، أو فتاة ترتدي سروالاً. انهم لا يفزعون من أن يروا شخصاً ما من الخلف فلا يعرفون إذا كان ولداً أم بنتاً. انهم لا يفزعون من أن تختفي الفروق الشكلية بين الرجال والنساء لانهم واثقون من حقيقة انفسهم كرجال أو كنساء، وليسوا في حاجة إلى وسائل اخرى خارج انفسهم لتؤكد لهم حقيقتهم.

ان اهم مقومات الصحة النفسية ورضا الانسان وسعادته في مختلف نواحي الحياة (ومنها الناحية الجنسية) هي ان يكون الانسان نفسه، والا يكون نسخة اخرى من الآخرين رجالاً كانوا أو نساء.

لكن الحضارة الذكورية التي نعيشها تفرض على الرجال الا يكونوا انفسهم بل أن يكونوا ذكوراً. وتفرض على النساء الا يكن أنفسهن بل أن يكن اناثاً. بمعنى آخر ان الرجل يجد نفسه مطالباً دائماً ومنذ الطفولة بأن يكون صورة اكبر واضخم من حقيقته ليصبح الذكر المنوط به السيطرة والتحكم في اسرته الابوية. وتجد المرأة نفسها مطالبة دائماً ومنذ الطفولة بأن تكون صورة أقل من حقيقتها لتصبح الانثى المنوط بها الخضوع والطاعة والخدمة داخل الاسرة الابوية.

ولا شك ان كلا من الحالين: تكبير النفس أو تصغيرها، عملية مرهقة على الانسان تسبب القلق الدائم والخوف من الفشل. انها مرهقة لانها موجهة ضد النفس الحقيقية.

على ان عملية تكبير النفس وتضخيمها المطلوبة من الرجل أشد صعوبة وبالتالي فان خوف الرجل من الفشل أشد من خوف المرأة ومن هنا أيضاً تنشأ مخاوف الرجل الجنسية وقلقه على قدرته وخوفه من فقد الانتصاب ومشاكل السادية والماسوشية وغيرها.

وهناك قلة من الرجال والنساء كما ذكرت سابقاً استطاعوا أن يرفضوا عملية التكبير أو التصغير، وساعدتهم ظروفهم في الطفولة على أن يثقوا في نفوسهم الحقيقية ويحترموها. ساعدتهم ظروفهم التي منحتهم الحرية أن يكونوا أنفسهم. وهذا هو ما يطلق عليه النضوج.

ان قمة نضوج الشخصية هي أن يصبح الانسان نفسه. هي أن ينجح في التغلب على القوى الاسرية والاجتماعية في المجتمع الذكوري التي تفرض عليه تغيير نفسه.

ولا يمكن للرجل أو المرأة بغير هذا النضوج أن يعرف الحب الحقيقي. فالحب يتطلب أول ما يتطلب من الانسان ان يكون نفسه على حقيقتها.

حينما ينضج الرجل ويعرف نفسه الحقيقية يدرك أنه انسان تمتزج فيه على الدوام الصفات الانسانية المتغيرة والمتناقضة من حيث القوة والضعف، والايجابية والسلبية، والاقدام والاحجام، والشجاعة والجبن، والنشاط والتراخي، والاخذ والعطاء. بمعنى آخر يدرك الرجل أن فيه من الصفات ما يمكن ادراجه تحت بند الانوثة (حسب تصنيف الحضارة والمجتمع) وفيه من الصفات ما يمكن ادراجه تحت بند الذكورة أو الرجولة.

وكذلك المرأة حين تنضج وتعرف نفسها الحقيقية. تدرك انها انسانة تمتزج فيها

على الدوام الصفات الانسانية المتغيرة والمتناقضة من حيث الايجابية والسلبية، والقوة والضعف، والشجاعة والجبن. والاقدام والاحجام، والنشاط والتراخي والاخذ والعطاء.

أي ان الرجل الناضج والمرأة الناضجة يكتشفان انهما متشابهان. ومن هنا الفهم الواعي الجديد للحب الناضج أو الحب الحقيقي، هذا الحب الذي يقوم على التشابه وليس على الاختلاف.

الانسان الناضج يسعده التشابه أما الانسان غير الناضج فان التشابه يفزعه. وهذا الفزع يرجع كما ذكرت سابقاً إلى أنه فقد نفسه الحقيقية ولم يعد لديه ما يؤكد له وجود هذه النفس الا الظواهر الخارجية التي تقول له إن هذا «ذكر» وإن هذه «انثى». أو: أنا «ذكر» وهي «انثى» وأن سعادته بالاختلاف الظاهر الواضح أو الصارخ بين الرجال والنساء. ومن هنا ذلك الرأي الذي شاع عن أن الحب يقوم على الاختلاف، وان الرجل يلتقي بنقيضه الانثى، وأن الواحد منهما يكمل الآخر. وهذا التعبير «يكمل الآخر» يدل عل أن الرجل والمرأة من هؤلاء يشعر أنه ناقص وأنه في حاجة إلى من يكمله. وهذا الشعور بالنقص يتلاشى مع النضوج.

الفصل الحادي عشر

الاعتداء الجنسي على الأطفال

رأيت في عيادتي الطبية (قبل أن اغلقتها) حالات كثيرة دفعتني دفعاً إلى أن أكرس جزءاً من حياتي لكشف القناع عن وجه ذلك المجتمع المزدوج الذي يدعي الفضيلة علناً ثم يمارس شيئاً آخر في السر. ولانني طبيبة، فقد تعودت قبل ان افحص المريض أن اخلع عنه ملابسه إذا كان المرض في جسده، أو أخلع عنه اقنعته إذا كان المرض في النفس، وفي كلا الحالين، التعرية الجسدية والتعرية النفسية، يشعر الانسان بالذعر، وبسبب هذا الذعر يرفض كثير من الناس هذه التعرية، ويشدون الغطاء أو القناع على أجسامهم ونفوسهم، أملا في أن تظل حقيقتهم بعيدة عن الاعين، مختفية في ذلك السرداب المظلم داخل النفس. لكنه امل غير قابل للتحقق في كثير من الاحيان، فالحقيقة وان اختفت في القاع البعيد تظل حية تتنفس طالما الانسان يتنفس، وقد تطل برأسها فجأة إذا ما غفل الانسان لحظة. وما اكثر اللحظات التي يغفل فيها الانسان، مثل لحظة الغضب أو الشهوة أو الخوف، فاذا به ينسى أن يضع القناع.

لكن لحظة المرض هي اكثر اللحظات التي يصبح فيها الانسان عاجزاً عن ارتداء القناع، ويضطر إلى ان يعري جسده ونفسه، فالتعرية هنا أقل خطورة من المرض، والشفاء أصبح مطلوباً بأي ثمن.

من أجل هذا السبب يرى الطبيب أو الطبيبة من حقائق الجسد والنفس والمجتمع ما لا يراه الاخرون.

احدى الحالات التي مرت عليَّ هي فتاة طويلة، شاردة العينين، كانت تشكو عدة اوجاع جسدية ونفسية. ولن ادخل الآن في تفاصيل مرضها لكنني ما زلت اذكر قصتها. وهذه هي بداية القصة كما حكتها لي بلسانها:

اذكر انني كنت في الخامسة من عمري حينما كانت امي تأخذني معها لزيارة بيت أسرتها الكبير في ضاحية الزيتون ناحية مصر الجديدة. كانت أمي تضحك وتتكلم مع أمها واخواتها وكنت أنا العب مع أطفال الاسرة، والبيت كله يملؤه المرح والصخب والضجيج. لكن ما ان يدق الجرس معلناً وصول جديد إلى البيت حتى يهدأ الجميع، ويصبح صوت أمي منخفضاً ويختفي الاطفال، اما جدتي فتذهب إلى جدي وتساعده في خلع بدلته وحذائه وهي صامته مطرقة الرأس.

وكنت كبقية افراد الاسرة من الكبار أو الاطفال اخاف من جدي، ولا اضحك في وجوده أو ألعب. لكنه بعد الغداء وبعد أن ينام الكبار (فترة القيلولة) يناديني بصوت أقل خشونة من صوته المعتاد قائلاً: تعالي معي نقطف بعض الزهور من الحديقة.

حين نصل إلى الركن الخلفي من الحديقة يصبح صوت جدي رقيقاً كصوت جدتي، ويدعوني إلى الجلوس إلى جواره على الدكة الخشبية المقابلة لحوض الزهور. يناولني بعض الزهور الحمراء والصفراء، وحينما انشغل بالزهور يجلسني على ركبتيه، ويظل يهدهدني ويغني لي حتى أغمض عيني كأنما سيغلبني النوم. لكني لم اكن أنام لاني كنت أحس يده وهي تزحف بحذر ورقة تحت ملابسي ويمتد أصبعه في تلك المنطقة المختفية تحت السروال.

كنت في الخامسة من عمري ومع ذلك فقد أدركت من حيث لا أدري أن ما يفعله جدي مناف للاخلاق وأن أمي (لو علمت) فسوف تغضب مني وتؤنبني، وأن الواجب عليَّ كبنت مؤدبة أن أقفز بسرعة من فوق ركبتي جدي والا أطيعه مرة أخرى حين يدعوني إلى النزهة في الحديقة.

لكني أدركت وأنا في الخامسة أنني لست بنتاً مؤدبة وأنني أظل جالسة فوق ركبتيه، لست جالسة فحسب، وانما جالسة ومستمتعة أيضاً وحينما يسمع جدي صوت أمي تناديني يسحب يده بسرعه من تحت ملابسي، ويهزني كأنما ليوقظني من النوم قائلاً: ماما تناديك. وأفتح عيني كانما أصحو من النوم وأجري إلى أمي بوجه بريء كوجوه الاطفال في الخامسة من العمر وتسألني أمي قائلة: أين كنت وأرد بصوت الطفل البريء: كنت مع جدي في الحديقة.

وتطمئن أمي كل الاطمئنان حين تسمع أنني كنت مع جدي في الحديقة. لم تكن تشجعني على النزول إلى الحديقة وحدي، وتحذرني دائماً من ذلك الرجل «الجنايني»

ذي الجلباب الذي كان يرش الزهور بالماء، حتى أصبحت لا اخاف من الرجل وحده وانما من رذاذ الماء الذي كان يتطاير في الجو.

حين يصعد جدي إلى البيت يرتدي شخصيته الاخرى التي يخافها الجميع (وانا منهم) ويمسك «السبحة» الصفراء بين أصابعه، وأكاد أظن ان جدي الذي يداعبني في الحديقة ليس هو جدي الذي اخافه وهو جالس على رأس المائدة، واحياناً أظن ان ليس لي جد واحد وانما هما جدان اثنان.

حين مات جدي وانا في العاشرة من عمري لم أحزن عليه، بل شعرت بفرح غامض غريب، وأخذت اجري والعب واضحك مع الاطفال. لكن امي أنبتني وحبستني في البيت قائلة: الا تعرفين أن جدك مات! الا تعرفين الادب؟

«وهل عرف جدي الادب؟ كنت على وشك ان أسألها هذا السؤال لكني خفت منها وسكت. وظللت ساكتة وظل هذا السر بيني وبين نفسي، وهذه أول مرة أحكيه لك يا دكتورة».

هذا جزء مما حكته لي هذه السيدة، وهي لم تفتح قلبها لي الا بعد أن وثقت تمام الثقة أنني لن أصدر عليها حكماً أخلاقياً معيناً. وكثير من النساء والفتيات اللائي يترددن علي عيادتي كن يمتنعن أول الامر عن البوح بمثل تلك الاسرار، لكن بعد أن يثقن بي يبدأن في التخفف من الاشياء المؤلمة التي أغلقن عليها قلوبهن.

وقد يتصور بعض الناس أن مثل هذه الحوادث نادرة أو قليلة. لكن الحقيقة هي أن هذه الحوادث ليست قليلة وانما هي مختفية في القلوب، مكتومة في الصدور، لا تجرؤ الفتاة على البوح بها، كما أن الرجل المعتدي بالطبع لا يمكن أن يعترف بها.

ولان هذه الحوادث تقع للاطفال أو البنات الصغيرات جداً فان ذاكرتهن تنسى[1] والنسيان هنا ليس كاملاً في معظم الاحيان، لان الحادث يظل مدفوناً في العقل الباطن، وقد يظهر فجأة بسبب من الاسباب أو في ازمة نفسية معينة.

ان ذاكرة الانسان بطبيعتها تنسى ما تريد أن تنساه من حوادث مؤلمة أو حوادث تسبب احساساً بالاثم أو الندم، خاصة تلك الحوادث الصغيرة في الطفولة التي لم يكتشفها أحد.

---

(١) انظر المرأة والجنس

ومن المعروف في كثير من البحوث النفسية والجنسية أن الاطفال سواء من الذكور أو الاناث يتعرضون لاعتداءات أو مداعبات جنسية من رجال كبار أو نساء كبار من داخل الاسرة أو من الغرباء. يحدث ذلك في مختلف الطبقات الاجتماعية باشكال متعددة، يختلف باختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للاسرة، لكن جوهرها من حيث الفعل واحد. فالفعل الجنسي هنا يحدث بين شخص كبير وطفل صغير. الشخص الكبير في معظم الاحيان هو الذي يبدأ، وهو الذي يريد أن ينفس عن حاجة جنسية بيولوجية بحتة، لا يجد لها متنفساً في المجتمع من حوله، ولا يجد امـامه الا طفلاً، يملك اعضاء جنسية ولكنه لا يملك القوة أو الشجاعة للرفض او المقاومة أو حتى التبليغ عن الفعل بعد انتهائه.

معظم هذه الافعال تتم في سرية كبيرة، لا ينكشف منها الا النادر عن طريق الصدفة المحضة، لان معظم الاطفال (بسب الخوف واللذة المحرمة) يشعرون بنوع من الاثم يمنعهم من الشكوى. ولان معظم الكبار الذين يمارسون مثل هذه الافعال الجنسية مع الاطفال هم في كثير من الاحيان فوق الشبهات، منهم من هوالجد الصارم المهيب الشخصية الذي ينفق على البيت كله ويحترمه الجميع، ومنهم من هو العم أو الخال المستقيم الاخلاق الشديد التدين الذي لا يكف عن العبادة، واحياناً يكون الاخ، أو الاب، أو المدرس الخصوصي بل مدرس الصف في المدرسة. وقد نشرتْ جريدة اخبار اليوم في ٢٣ فبراير ١٩٧٤م. الصفحة العاشرة تحت عنوان «النيابة تأسف لحفظ التحقيق» حرصاً على مستقبل ٩ تلميذات صغيرات، والقضية كانت ضد مدرس الصف الذي كان ينفرد بتلميذات صغيرات يتراوح عمرهن ما بين ٧ سنوات و١٢ سنة. وتقرر حفظ التحقيق بالنسبة للمدرس المتهم وجاء في قرار الحفظ: انه وان كانت التهمة ثابتة على المتهم الامر الذي يستوجب محاكمته جنائياً بتهمة هتك عرض بنات صغيرات الا انه نظراً لصغر سن التلميذات المجني عليهن ولعدم اقحامهن امام محكمة الجنايات للادلاء بشهادتهن فان النيابة تأسف وهي تحفظ الدعوة الجنائية ضد المتهم وتطلب نقله من مهنة التدريس للبنات إلى مهنة أخرى.

ومن هذه الحادثة نعلم الآتي:

١ ـ حوادث الاعتداء على الاطفال البنات لا تذهب إلا نادراً إلى النيابة بسبب حرص العائلات على سمعة بناتهم وبذلك ينجو الرجل المعتدي من مجرد الابلاغ عنه.

٢ ـ حين تصل مثل هذه الحوادث إلى النيابة وتثبت تهمة هتك العرض فان النيابة تحفظ الدعوة حرصاً على سمعة البنات الصغيرات وينجو المتهم من أي عقاب.

٣ ـ إذا اغتصب رجل فتاة جاوزت السادسة عشرة فان العقاب الذي يفرض عليه هو أن يتـزوجهـا. وفي معـظم الاحيان يتزوجها الرجل ثم يطلقها بعد أيام وتنتهي المشكلة بالنسبة اليه.

يحدث هذا الظلم الفادح على البنات بسبب القيم الاخلاقية المزدوجة التي تفرض على البنات العذرية والشرف، أما الرجال فلا شيء يمس شرفهم وان كان هو الاعتداء على طفلة أو بنت صغيرة.

وفي حالة اعتداء العم أو الاب او الاخ على إحدى بنات الاسرة فان الامر بالطبع يكتم تماماً كأحد أسرار الاسرة خوفاً من الفضيحة وتلويث اسم العائلة الكريمة، وتواجه البنت وحدها نتائج هذا الاعتداء حين تصطدم في المستقبل بمشاكل العذرية والزواج والطلاق وغير ذلك من القوانين التي تضطهد المرأة وحدها.

احدى المريضات اللائي فحصت حالتهن كانت طبيبة ناشئة تخرجت من كلية الطب وعقد قرانها على أحد زملائها. في ليلة الزفاف اتضح أنها ليست عذراء صرحت لزوجها أنها فقدت عذريتها وهي طفلة بسبب أبيها، لكن زوجها صدم صدمة شديدة وطلقها. عادت الزوجة إلى أمها وأبيها. لم تستطع أن تحكي لامها السر خوفاً من ابيها واتهمتها امها بالانحراف، بل وان الاب نفسه اشترك في اتهام الابنة. وهنا انفجرت الابنة بالبكاء وواجهت أباها بالحقيقة التي كانت تكتمها. صدمت الام وكادت تصاب بانهيار. لكن الاب ضرب الابنة وكذبها. أصيبت الابنة بانهيار عصبي فأخذها إلى الطبيب النفسي. وكما يحدث دائماً فقد صدق الطبيب الأب وكذب الابنة. وأصبحت الابنة هي المتهمة وهي المريضة وأصبح الاب بريئاً نظيف السمعة.

وبهذا يمكن القول ان الطفلة البنت حين يعتدي عليها رجل فان أحداً لا يستطيع ان ينقـذهـا، القضاء والمحكمة تعجز عن إنقاذها وتعجز أيضاً عن عقاب الرجل. والطبيب النفسي يعجز عن انقاذها ويعجز أيضاً عن اتهام الرجل وزوج المستقبل ايضاً يعجز عن انقاذها ويطلقها لان الرجل الشريف لا يمكن ان يتزوج فتاة ليست عذراء[1] بأي حال من الاحوال.

أما إذا كان الرجل المعتدي خادماً فقيراً في أسرة محترمة فان الامر إذا عرف (ونادراً ما يعرف ايضاً) فهذا الخادم قد يلقى من العقاب ما يبدأ من الضرب والسجن إلى

---

(١) انظر باب العذرية ومفهوم الشرف في المرأة والجنس

القتل. إن المحكمة هنا قد تكون واحدة، والقانون واحداً لكن أمثال هؤلاء الفقراء من الطبقة الادنى يحاكمون بقانون آخر هو قانون الاسياد والعبيد، قانون الذين يملكون إزاء الذين لا يملكون.

هذا القانون الذي سبق أن أطلق سراح الرجل من طبقة أعلى.

وهكذا ندرك أن مؤسسات العدالة في المجتمع ليست عادلة، لانها لا تساوي بين الرجل من طبقة أعلى والرجل الآخر من طبقة أدنى. وهي لا تساوي بين الذكور والاناث ومثلها أيضاً جميع المؤسسات في المجتمع الذكوري، ومنها مؤسسة الطب النفسي حيث ينضم الطبيب النفسي (لكونه رجلاً) إلى الاب والعم والخال والزوج، ولا يستطيع ان يفهم مأساة البنت أو المرأة.

وقد استطاع كينزي في بحثه المعروف الذي أجراه في المجتمع الامريكي في الخمسينات من هذا القرن أن يخرج ببعض نتائج هامة تدل على أن الاعتداء الجنسي على الاطفال ليس نادراً، وأن الرجل المعتدي قد يكون من الغرباء أو يكون احد افراد الاسرة نفسها[1].

وهناك العديد من البحوث أجريت في مختلف المجتمعات لمعرفة أسباب تلك الظاهرة وتختلف الاسباب بطبيعة الحال باختلاف نوع المجتمع والظروف التي يعيش فيها الناس سواء كانت مادية اقتصادية او اخلاقية ودينية.

وجد أنه في الاسر الفقيرة التي تعيش الاسرة الواحدة بذكورها وأناثها في حجرة واحدة أن مثل هذه الاعتداءات تحدث كثيراً من ذكور الاسرة على بناتها الصغار، وبالذات في مجتمع قائم على الكبت الجنسي وعلى تأثيم الجنس وترسيب عقد النقص والخوف في نفوس الشباب. ان الكبت الجنسي والتخويف والتزمت ينتج شباباً يعانون من عقد النقص ولا يثقون بقدراتهم الجنسية الا مع الطفل.

وهناك بعض رجال يشعرون برغبة جنسية نحو الاطفال فقط، وهي حالة نفسية تعرف بالطب النفسي باسم Paedophilia وبعضهم يشعر من حين إلى حين بهذه الرغبة لكنه لا ينفذها الا في الخيال فحسب. وهؤلاء في معظمهم ازواج يمارسون الجنس مع زوجاتهم، والقلة منهم رجال شواذ يمارسون الجنس مع الرجال فقط.

---

(٢) انظر: الانثى هي الاصل

مثل هؤلاء الرجال عجزوا عن الشعور بالاشباع الجنسي مع الكبار لاسباب نفسية منها عقدة النقص والاحساس بالذنب والخوف. ان الرجل منهم يخاف المرأة الناضجة ويصبح الطفل أو الطفلة اقل خطراً واقل تهديداً وهو يستطيع أن يسيطر عليها اكثر من المرأة الناضجة.

هناك اعتداء على الاطفال ذكوراً واناثاً. لكن الاعتداء على البنت يلفت النظر اكثر ويصدم الرأي العام اكثر بسبب قيمة العذرية، أما الاعتداء على الذكر فانه يبدو في نظر الناس أقل خطورة من الاعتداء على البنت.

مع المرأة الناضجة قد يشعر الرجل المصاب بعقدة النقص والسادية برغبة في أن يضربها ليشعر انه اخضعها. لكنه مع الطفلة لا يحتاج إلى أن يضربها، لانه يشعر أنه يخضعها بحكم انه اكبر سناً وجسداً، وأنه اقوى. ان الطفلة ايضاً لا تمثل تهديداً كبيراً لذكورته وسيادته.

وقد يشعر الرجل أيضاً أنه ما من أمرأة ناضجة يمكن ان ترضى به، وأنه مع الطفلة يستطيع أن يؤثر عليها بسهولة اكثر، ويقنعها بأنه رجل، الامر الذي فشل فيه مع المرأة الناضجة.

وهناك أيضاً ذلك الرجل الماسوشي الذي تستهويه مثل هذه الجريمة الجنسية كنوع من الرغبة في امتهان نفسه وممارسة ادنى الرغبات التي يكتشفها في أعماقه. كانما يريد أن يقول لنفسه أنا دنيء واستحق العقاب. ويشعره العقاب الذي يناله سواء من الناس أو من ضميره بنوع من الرضا والاحساس بالتطهر من الاثم.

ويقول بعض علماء النفس إن الكاتب الروسي الكبير دوستوفسكي كان يشعر بمثل هذه الرغبات أو أنه مارسها فعلاً. وقد قيل أنه اعترف لصديقه الكاتب تورجينيف بأنه اعتدى مرة على بنت صغيرة. ولم ير دوستوفسكي على وجه صديقه اي انزعاج أو حتى اشفاق فترك صديقه غاضباً وانصرف.

ومن هذه القصة حكم بعض هؤلاء العلماء بأن دوستوفسكي كان يشعر بمثل هذه الرغبة، وانه عبر عنها في روايته الجريمة والعقاب من خلال شخصية «سفيدريجيلوف» وفي الفصل الذي سماه «الممسوس» (والذي رفض الناشر أن يطبعه) اعترف «ستافروجين» بأنه اقترف هذه الجريمة ايضاً.

ويدافع آخرون من علماء النفس عن دوستوفسكي من أجل نفي هذه التهمة عنه.

على أية حال فانه من الصعب معرفة الرغبات الدفينة في أي انسان. ويحاول كثير من الناس استكشاف هذه الرغبات عند الادباء من خلال الشخصيات التي يرسمونها في رواياتهم. ولا شك أن الادباء والفنانين اكثر صدقاً واكثر شجاعة في عرض هذه الرغبات التي تبدو للناس منحرفة وشاذة، وهي ليست منحرفة ولا شاذة وانما هي جزء لا ينفصل من تكوين اي انسان، ويلعب الكبت وعقد الطفولة دوراً في إبرازها.

وهناك رأي يقول إن الرغبة الجنسية نحو الاطفال تكاد تكون موجودة عند كل رجل (وامرأة أيضاً) وأنها مزيج من رغبات طفولية باقية ومخاوف قديمة من الكبار، وحنين دائم إلى الطفولة الجياشة بالعواطف الصادقة الطبيعية التلقائية، ونفور دائم من الكبار الذين فقدوا الصدق والتلقائية والعواطف.

ان الطفل يفرح وتغمرهُ السعادة لاقل شيء، وهو جياش العواطف يعطي نفسه الكلية في الحب. ولهذا ينجذب كثير من الرجال والنساء إلى الاطفال ويمنحونهم الهدايا والحلوى من اجل الاستمتاع ولو لحظات بقلب الطفل الجياش بالعواطف والحب. وقد يكون هؤلاء قد حرموا وهم أطفال من التعبير عن عواطفهم الجياشة بسبب قسوة الاهل ويرغبون الآن أن يلعبوا امام هؤلاء الاطفال دور الاهل المحبين وحيث أنه لا يمكن فصل العاطفة عن الجسم فان هذه المشاعر التي يبديها الكبار للاطفال لا تخلو من رغبة جسدية، بل ان بعض الآباء والامهات يعترفون برغباتهم الجسدية نحو اطفالهم بمثل ما يشعر الاطفال برغبات جسدية نحو الامهات أو الآباء.

على أن النضوج النفسي والجسدي يجعل الرجل عاجزاً عن الاشباع الجنسي والعاطفي الا مع المرأة الناضجة. فاذا ما تعثر هذا النضوج لسبب من الاسباب السابق شرحها تعثرت علاقته بالمرأة الناضجة وفضل عليها علاقته بالطفلة.

وتختلف درجات النضوج من رجل إلى رجل. كلما زاد نضوج الرجل زاد اقباله على النساء الناضجات. والعكس صحيح. كلما قل نضوج الرجل قل اقباله على النساء الناضجات وزاد اقباله على البنات الصغيرات الغريرات.

ومن هنا نفهم لماذا يفضل معظم الرجال البنات الصغيرات الغريرات (القطط المغمضة). ان السبب هو عدم النضوج، فالحضارة الذكورية (للاسباب السابق عرضها) لم تساعد على نضوج الرجال. ولهذا يختار الرجل دائماً الفتاة التي تصغره بأعوام كثيرة، الساذجة، الغريرة، العذراء التي لم يمسها أحد قبله. ان القيمة الكبيرة

التي صنعتها الحضارة الذكورية للعذرية ليست تعبيراً عن تمسك الرجال بالاخلاق أو العفة، (لان الرجال لم يتمسكوا بهذه العفة فيما يتعلق بأنفسهم وفرضوها على النساء فحسب) وانما هي تعبير عن خوف الرجل من المرأة الناضجة، وخوفه من خبراتها السابقة مع رجال آخرين قد يكون بينهم ذلك المنافس القوي، والذي قد تفضله المرأة عليه. ان العذرية تضمن للرجل الحصول على فتاة لم يسبقه اليها أي منافسين آخرين. إن الفتاة العذراء كالطفلة لا تخيف الرجل ولا تهدده، ويصبح معها أقدر على اثبات ذكورته وذاته.

وينشأ ذعر المجتمع من حوادث اعتداء الرجال على الاطفال البنات لأن هؤلاء البنات قديفقدن عذريتهن. ومن هنا اهتمامه بهذه الحوادث اكثر من اهتمامه بحوادث الاعتداء على الاطفال الذكور، مع ان الاحصاءات في مختلف البلاد تدل على أن الاطفال الذكور معرضون لمثل هذه الحوادث كالاطفال البنات وربما اكثر.

ويقول معظم علماء النفس إن مثل هذه الاعتداءات لا تسبب أي ضرر يذكر للاطفال الذكور أو البنات الا اذا اكتشفها البوليس أو الاهل أو سببت للطفل نوعا من الذعر. كما أنها في معظم الحالات لا تصل الى الحد الذي يتمزق فيه غشاء بكارة البنت لانها لا تكون عملية جنسية بالمعنى الصحيح وانما مجرد مداعبات جنسية للبظر والشفرتين. ويقول كينزي في هذا الصدد: «حينما يعمد الأباء والامهات والمدرسون والمدرسات الى التحذير الدائم للاطفال لتجنب الكبار دون أن يشرحوا لهم أسباب هذا التحذير فان الطفل منهم يصاب بالخوف (الى حد الهستيريا) اذا ما اقترب منه شخص كبير في الشارع أو حاول أن يكلمه، أو داعبه، أو عرض عليه أن يساعده في شيء، دون أن يكون في نية هذا الشخص أي رغبة في لمس الطفل. وقد اتضح للدارسين الخبراء بمشاكل الاطفال والشباب أن مثل هذه الاتصالات الجنسية لا تؤثر على الطفل بمثل ما تؤثر عليه الانفعالات الشديدة التي يظهرها الاهل او البوليس أو غيرهم ممن يكتشفون الحادث».

وهناك رأي يقول ان فزع المجتمع والاهل من مثل هذه الحوادث يرجع الى أنهم ينظرون الى مثل هذه العلاقات على انها ليست الا شهوة جنسية خالية من الحب واستغلال الشخص الكبير للطفل دون مراعاة شعور هذا الطفل.

لكن بعض العلماء يقولون ان الامر ليس كذلك في معظم الحالات، وإن الطفل

في احيان كثيرة يكون شغوفا بتكرار التجربة ولا تظهر عليه علامات الاستياء الا اذا اكتشف الامر احد. كما وجدوا أن شخصية هؤلاء الاطفال قوية وجذابة وانهم اكثر من غيرهم قدرة على انشاء العلاقات الانسانية والصداقات مع اشخاص آخرين.

وهناك آراء تقول إن مثل هذه الحوادث ضارة بالطفل حتى وان لم يصاحبها أي اكراه أو استغلال. لان هذه الاثارة الجنسية قد تزيد من رغبة الطفل الجنسية، هذه الرغبة التي يعجز عن اشباعها بسبب الظروف والضغوط من حوله. وهناك بعض اطفال عانوا من الحرمان والاضطراب العاطفي حين توقفت مثل هذه الاتصالات بعد أن استمرت فترة من الوقت. وان بعضا منهم حاول (بعد أن كبر) أن يكررها مع أطفال آخرين.

وقد رأى معظم العلماء أن مثل هذه العلاقات الجنسية غير المتكافئة لها مخاطرها، وان العلاقة الجنسية السوية يجب أن تكون متكافئة، ويكون الطرفان متكافئين بحيث لا يكون احدهما رجلا كبيرا والثاني طفلا أو طفلة في السادسة. إن الكبير بحكم سنه وقوته سيكون مسيطرا ومخضعا، والطفل سيكون الطرف الاضعف الخاضع.

كما أنه في الحالات القليلة التي يصل فيها الرجل الى درجة كبيرة من الاثارة الجنسية أو نوع من العنف يصاحب قمة اللذة، وتلك اللحظات التي يعجز فيها الرجل عن التحكم في نفسه فان الطفل يشعر بالخوف الشديد.

إن الرجال عندما يفقدون السيطرة على أنفسهم حين يكونون شديدي الغضب مثلا، أو مخمورين بشدة، أو شديدي الرغبة الجنسية فإنهم يبدون لعين الطفل مفزعي الشكل. ومن هنا الخطر من مثل هذه العلاقات، فقد يعجز الطفل في المستقبل عن اقامة العلاقات الجنسية الناضجة السوية بسبب الخوف الذي ارتبط في ذهنه بالجنس. وقد وجد علماء النفس أن مثل هذه الحالات تحدث اكثر في تلك الحوادث التي تقع بين الطفلة وأبيها، وأن بعض الزوجات المصابات بالبرود الجنسي تعرضن في طفولتهن لحوادث من هذا القبيل مع آبائهن.

وقد صادفت بعض هذه الحالات حينما قمت ببحث ميداني عام ١٩٧٣ عن أسباب العصاب بين النساء المصريات. صرحت لي بعض المريضات أنهن تعرضن لحوادث جنسية مع الاب. ولقد لاحظت أن المجتمع بل أن الطبيب النفسي المعالج كثيرا ما ينكر وجود مثل هذه الحوادث. انه قد يعترف بأن العم أو الخال أو الجد أو

الاخ قد يقترف مثل هذه الحوادث. لكن الاب نفسه! هذا ما هو غير ممكن. (المجتمع الابوي لا يتصور أن الاب يمكن أن يخطىء).

ولست ممن يصرون على معرفة الفاعل (سواء كان أبا أم خالا أم خادما أو بوابا) من اجل أن يعاقب ويلقى جزاءه، لأن أمثال هؤلاء الرجال ضحايا المجتمع الذكوري والاسرة الابوية، إنهم ضحايا الخوف والكبت والاحساس بالذنب والنقص. وهم ليسوا في حاجة الى عقاب، ولكنهم في حاجة الى علاج، والعلاج هنا يجب أن يستأصل الداء وأسباب المرض في المجتمع وليس الاعراض الجسدية أو النفسية فحسب.

الفصل الثاني عشر

نحو حضارة أكثر عدالة وأخلاقية

لم يعد خافيا الآن أن افتقاد الحب الحقيقي في علاقات البشر رجالا ونساء وأطفالاً هو أهم عيوب الحضارة الذكورية القائمة على الملكية والتوريث والسلطة الابوية، وهو أهم سبب وراء المشاكل النفسية والجنسية للرجال والنساء والاطفال.

فالحب لا يمكن أن ينشأ بين أعلى وأدنى، ولا بين صاحب سلطة وخاضع لهذه السلطة. الحب لا يمكن أن ينشأ الا في ظل العلاقات الانسانية القائمة على المساواة والعدالة والحرية والاستقلال والنضوج. وهذه الاسس جميعا لا يمكن أن توجد في مجتمع قائم على الجشع الاقتصادي والملكية والاستغلال والقهر والعنف والحروب.

ومن أجل أن يتحقق الحب في العلاقات الانسانية داخل الاسرة وفي المجتمع لا بد من الثورة على النظم الاجتماعية والاقتصادية المستغلة، ولا بد من تغيير المفاهيم القديمة المتعلقة بالذكر والانثى والزواج والجنس والشرف والعمل بحيث يسترد كل من الرجل والمرأة انسانيتهما المفقودة، وشرفهما المفقود.

وفيما يلي بعض المبادىء الاخلاقية والانسانية التي يجب أن تسود:

١ ـ قيمة الانسان (رجلا أو امرأة) يجب أن تتحدد حسب قدرته على العمل الخلاق والحب الحقيقي وليس حسب ما يملك من ثروة أو سلطة أو انتمائه الى طبقة.

٢ ـ الاغلبية هي التي تحكم وتتخذ القرارات وليس الاقلية. والاغلبية هي التي تملك الارض والمال ووسائل الانتاج وليس الاقلية.

٣ ـ دور الانسان في المجتمع والحياة يتحدد حسب مواهبه وقدراته الفكرية وليس حسب كونه ذكرا أو انثى.

٤ ـ شرف الانسان هو قدرته على العمل الخلاق والحب الحقيقي والصدق والعمل على تطوير الانسان والمجتمع الى الافضل دائما. وشرف الرجل لا يختلف عن شرف المرأة.

من أهم عيوب الحضارة الذكورية مفهومها عن الشرف. فقد ارتبط الشرف في هذه الحضارة بالحفاظ على الاعضاء الجنسية وارتبط بالمرأة فقط. والغريب أن شرف الرجال لم يكن يتعلق بسلوكهم هم وانما يتعلق بسلوك زوجاتهم أو بناتهم أو أمهاتهم.

فالرجل الفاسق شريف اذا كانت زوجته لا تخونه مع رجل آخر. والرجل المنافق شريف طالما أن ابنته تحافظ على عذريتها قبل الزواج. والصحفي الذي ينشر الاكاذيب لحماية أي حاكم ظالم شريف طالما أن نساء اسرته يحافظن على فروجهن وعذريتهن. شرف الرجل يتعلق بسلوك امرأته في البيت ولا يتعلق بسلوك هذا الرجل أو قدرته على العمل الخلاق أو الصدق أو الدفاع عن الحق والعدالة والحب والحرية.

وهذا مفهوم مضحك للشرف، يهبط بمستوى الشرف الى منطقة صغيرة سفلية في جسم المرأة لا تزيد على غشاء البكارة[1]، ويربط الشرف بالنصف الاسفل من جسم الانسان ويحدده بحدود الممارسة الجنسية.

ان كلمة الزنا أو الرذيلة أو الدعارة كلها تعني الممارسات الجنسية. وكلمة الشرف أو الفضيلة تعني عدم استخدام الانسان لاعضائه الجنسية الا حسب القانون. وهذا بالطبع يقصر الشرف أو الفضيلة على عضو من اعضاء جسم الانسان، ليس هو أهم أعضاء جسم الانسان. كما أنه يقصر الشرف أو الفضيلة على أحد انشطة الانسان، وهو النشاط الجنسي، الذي هو أيضا ليس أهم نشاط في حياة الانسان.

ولو تعمقنا قليلا لأدركنا أن أهم عضو في جسم الانسان هو مخه، وأن أهم نشاط في حياة الانسان هو النشاط العقلي والفكري، بل انه النشاط الوحيد الذي يميز الانسان عن سائر الحيوانات الاخرى. ولا شك أن ارتباط الشرف بالنشاط الجنسي فقط يجعل الانسان يتصور أنه شريف ما دام هو يحافظ على أعضائه الجنسية ولا يمارس الجنس الا حسب القانون.

أما الزنا الفكري والدعارة العقلية فهذه اشياء لا علاقة لها بالشرف. ان الموظف

---

(١) انظر مفهوم العذرية والشرف في «المرأة والجنس» ص ١٠ .

قد ينافق رئيسه، والصحفي قد يكتب مقالا يزيف فيه الحقائق، والطبيب قد يجهل التشخيص ومع ذلك يكتب الدواء ويقبض الثمن، والتاجر قد ينتهز فرصة جهل الشاري بالتسعيرة ويغالي في السعر، والاب قد ينتهز فرصة ثراء العريس فيرغم ابنته على الزواج به ويدفعها إلى أن تكذب عليه وتتظاهر بالحب له، ويجعل فترة الخطوبة أطول ما يمكن لاستنزاف الهدايا والاموال من العريس.. وهكذا الى آخر هذه النماذج التي تحدث كل يوم في حياة معظم الناس، والتي هي ليست الا انواعا مختلفة من الزنا الاجتماعي والدعارة الفكرية، ومع ذلك فكل هؤلاء الناس ما دام أنهم يحافظون على أعضائهم الجنسية فهم يتصورون أنفسهم شرفاء. أو بعبارة أصح أنهم شرفاء ما دامت زوجاتهم أو بناتهم أو قريباتهم من النساء يحافظن على أعضائهن الجنسية.

ومن أجل رفع مستوى الشرف الى درجة اخلاقية أعلى لا بد أن يتعلق الشرف برأس الانسان لا بنصفه الاسفل، ولا بد أن يكون كل فرد (رجلا أو أمرأة) مسؤولا عن سلوكه وعن أفكاره أمام الآخرين.

٥ - العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة تتم على أساس من الحب والصدق والحرية والاختيار بحيث لا يسيطر الرجل على المرأة، وبحيث لا يملك الرجل المرأة أو الاطفال وانما ترتكز العلاقة داخل الاسرة على التساوي في جميع الحقوق والواجبات بما في ذلك الانفاق والنسب والعمل داخل البيت وخارجه.

٦ - أي طفل يولد فهو طفل شريف وشرعي ومن حقه أن يحصل على اسم أمه أو أبيه، ويتساوى اسم الام مع اسم الاب في الشرف الاجتماعي والاخلاقي وبهذا تمحي من الوجود تلك الظاهرة المسماة بالاطفال غير الشرعيين. ومن حق كل طفل أن يحصل على الرعاية والغذاء والتعليم والعمل الخلاق بصرف النظر عن انتمائه الى أسرة أو طبقة.

٧ - من حق كل امرأة أن تعمل العمل الذي تختاره حسب امكانياتها ومواهبها وتتقاضى على عملها أجراً مساوياً لأجر الرجل عن العمل نفسه، وبحيث لا تضطر اي امرأة الى المتاجرة بجسدها من اجل العيش، وبهذا تمحي من الوجود تلك الظاهرة المسماة بالمومسات.

٨ - جميع الاعمال في جميع المجالات مفتوحة للنساء وللرجال بالتساوي دون تفرقة بسبب الجنس أو النسب أو الحسب.

٩ - يحق للمرأة الوصاية والولاية والشهادة والارث تماما كالرجل بغير أي تفرقة (بالطبع

لن يكون هناك ارث بانتهاء الملكية ويتساوى الرجل والمرأة في الكفاح في الحياة دون الاعتماد على حسب أو نسب أو ارث).

١٠ - يحق للمرأة أن تستخدم من وسائل منع الحمل ما يناسبها وهي صاحبة القرار فيما يخص حياتها وجسدها والجنين داخل جسدها. ان اكتشاف وسائل منع الحمل واكتشاف وسائل الاجهاض الطبية التي تتم بغير الم وبغير تخدير، كل ذلك مساهمة علمية حديثة في تصحيح الخطأ التاريخي الذي بمقتضاه امتلك الرجل الجنين داخل جسد المرأة. إن الجنين جزء من جسد المرأة. وهي صاحبة القرار في الاحتفاظ به أو عدم الاحتفاظ به.

١١ - حينما تسود القيم الانسانية على قيم الملكية والامتلاك فسوف تصبح العلاقات بين الافراد قائمة على التعاون وليس التنافس والعدوان. وكذلك سوف تصبح العلاقات بين الدول قائمة على التعاون وليس على الاستعمار والاستغلال والحروب.

من الواضح أن تحقيق المبادىء السابقة يحتاج الى ثورة. لكن مأساة معظم الثورات انها تملك الحق ولا تملك القوة. فالقوة دائما في يد الاقلية القليلة التي تملك المال والجيش والبوليس والقضاء والمؤسسات الاخرى في المجتمع. والمأساة ايضا أن كثيرا من الرجال يتصورون ان تحرير المرأة قضية منفصلة عن قضية تحرير الطبقات الكادحة المضطهدة اقتصاديا وسياسيا. والمأساة ايضا ان كثيرا من النساء يتصوّرن أن قضية تحرير المرأة ليست الا قضية خاصة بالنساء ولا تخص الرجال وانها تنحصر في المطالبة بتغيير بعض القوانين مثل قانون الاجهاض، أو قانون تحديد النسل أو قانون الزواج أو الطلاق.. الخ.. في حين ان قضية تحرير النساء لا تنفصل عن قضية تحرير الرجال، وهي قضية سياسية اقتصادية اساسا وليست مجرد قضية جنسية او اجتماعية.

ان بعض الناس قد يعترضون على بعض المبادىء السابقة بحجة انها تخالف الاديان والمقدسات. ولكني اعتقد ان جميع المبادىء السابقة لا يمكن ان يختلف عليها أي دين لانها تدعو الى الحق والحرية والعدالة والمساواة والحب، هذه المبادىء التي تنادي بها جميع الاديان من البوذية الى الاسلام.

أما ان هناك بعض الافكار التي يجب ألا تناقش أو تمس فهذا اتجاه ضد الدين،

لان الاديان تدعو الانسان إلى استخدام عقله من اجل ان يطور حياته وحياة مجتمعه الى الافضل والاسعد.

أما أن هناك بعض رجال الدين ممن يحاربون التفكير العقلي فهذا امر معروف في التاريخ . وقد حوكم جاليليو بتهمة تكذيب الكنيسة حين قال ان الأرض تدور حول الشمس . واعترف العالم بصدق جاليليو وكذب الفكرة المقدسة التي آمن بها بعض رجال الكنيسة .

وربما يتهمني بعض الناس بأنني ضد الدين أو ضد الاخلاق أو انادي بالفوضى الجنسية ولكني ارد على هؤلاء بهذه النقاط الاساسية:

١ ـ ان الحضارة التي نعيشها حضارة غير اخلاقية لانها تجعل من النساء والاطفال أكباش فداء لاخطاء الرجال. والمبدأ الاخلاقي هو أن كل انسان مسؤول عن خطئه وليس من الأخلاق ان تتحمل النساء والاطفال وزر اخطاء الرجال وفوضاهم الجنسية وانا اطالب بحضارة اخلاقية ترتكز على المبدأ الاخلاقي الذي يقول أن كل انسان مسؤول عن سلوكه وافكاره. المرأة مسؤولة عن سلوكها وأفكارها والرجل مسؤول عن سلوكه وافكاره.

٢ ـ حياة الرجال الجنسية غير أخلاقية لان الرجل يمارس الجنس دون أن يتحمل مسؤولية هذا الفعل، ولان الرجل يطلق زوجته ويشرد اطفاله من اجل نزوة جنسية، ولان الرجل يذهب الى المومسات ويدفع لهن أجراً ثم يصبح بعد كل ذلك أمام القانون غير مذنب وغير مخطىء، وانما المرأة هي المخطئة وحدها.

٣ ـ علاقة الرجل بأطفاله غير الشرعيين علاقة غير اخلاقية لانه هو الذي ينجبهم ثم يتخلى عنهم ويحرمهم من اسمه وميراثه، أي يفرق بينهم وبين اخوتهم الشرعيين وهذا موقف غير اخلاقي تجاه اطفال ابرياء.

٤ ـ العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تقوم على أساس الحب المتبادل وليس لاسباب نفعية واقتصادية والا اصبحت كالدعارة سواء بسواء. ولهذا أنا اطالب بتطهير الزواج من الاسباب الاقتصادية والنفعية ليصبح زواجا شريفا قائما على الحب الصادق وليس على المتاجرة بالبنات من اجل ان يثرى الآباء أو يسددوا ديونهم.

٥ ـ لقد فقد الشرف مضمونه الحقيقي وجوهره من حيث الصدق واصبح الشرف مجرد القدرة على توقيع العقود أو التظاهر بشيء أمام الناس وفعل شيء آخر في الخفاء

وأنا اطالب بان يتمسك الناس بجوهر الشرف من حيث الصدق والعدالة والمساواة والحرية والحب.

٦ ـ أنا اطالب بأن يكون للانسان حياة واحدة هي حياته العلنية وهذا هو الاساس الوحيد للشرف والصدق لكن الحضارة الذكورية جعلت لكل انسان حياتين: حياة علنية يدعي فيها الشرف، وحياة سرية يمارس فيها جميع نزواته.

٧ ـ أن تموت الاغلبية جوعا وفقرا وارهاقا على حين تتخم الاقلية شبعا وترفا وكسلا أمر غير اخلاقي وغير انساني، وانا اطالب بأن يتحقق المبدأ الاخلاقي الذي ينادي بالمساواة والعدالة بين البشر.

٨ ـ أن يصبح الانسان عبدا للنظام الاجتماعي والاقتصادي في مجتمعه أمر غير اخلاقي وأنا اطالب بأن يكون الانسان سيد مصيره قادرا على تغيير النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يسرق جهده ويستغله ويسحقه ويحوله الى أداة، وضحية في يد الظروف والقدر.

٩ ـ ان يعيش الرجال والنساء والاطفال حياة تعيسة قائمة على السلطة والامتلاك والخوف أمر غير اخلاقي، وأن يعاني الكبار والصغار من مشاكل نفسية وجنسية أمر غير اخلاقي وأنا اطالب بأن تصبح حياة الرجال والنساء والاطفال حياة سعيدة، قائمة على الحب والتعاون والتساوي والحرية والاختيار.

١٠ ـ أن يلغي الناس عقولهم خوفا من الاتهام بالمس بالمقدسات أمر غير اخلاقي لأن الفرق بين الانسان والحيوان هو العقل، وحرمان الانسان من عقله هبوط به الى مستوى الحيوان. وأنا أطالب بأن يستخدم كل انسان عقله بحرية ومسؤولية من اجل صنع حياة أفضل وأسعد وأكثر صحة وحبا وعملا خلاقا.

١١ ـ أن تتناقض القيم الدينية والمواعظ الاخلاقية وما يذاع على الناس من راديو وتليفزيون وسينما ومجلات ورقصات عارية واعلانات تجارية تعري جسد المرأة، هذا التناقض أمر غير أخلاقي وأنا أطالب بألا تتناقض قيم المجتمع سواء كانت دينية أو تجارية.

١٢ ـ أن تتاح الحرية الجنسية لنصف المجتمع من الذكور على أن يكبل النصف الآخر (النساء) أمر غير أخلاقي لأن النصف المنطلق سوف يلجأ الى خداع النصف المكبل، وينتج عن تلك الازدواجية الاخلاقية عديد من المشاكل غير الاخلاقية وغير الانسانية.

١٣ ـ إن تضخيم الذكورة وتصغير الانوثة أمر غير أخلاقي لأنه يصيب الرجال والنساء

معا بعقد النقص وعقد العظمة وما يترتب عن ذلك من مشاكل نفسية وجسدية واجتماعية.

١٤ ـ الصدق هو الذي يمنح الشرف للعلاقات الانسانية، ويمنح العمل القدرة على الخلق والتجديد، والصدق يحتاج الى الحرية والاستقلال والنضوج، وهذه أمور لا يمكن أن تحدث في وسط علاقات قائمة على الخوف والطاعة العمياء.

ولهذا فان المطلوب هو تحرير الاسرة والمجتمع من الكذب والتناقضات والخوف والطاعة العمياء والتضليل والازدواجية والاستغلال والقهر الجسدي والنفسي والاقتصادي للرجال والنساء والاطفال معا.

والمطلوب أيضاً هو توحيد الانسان جسدا ونفسا. أن يكون الرجل (والمرأة أيضا) وحدة واحدة جسدا ونفسا بغير انفصام، والا نعزل الجنس عن الحياة. كثير من الناس يحاولون عزل موضوع الجنس عن الحياة، اما لان لديهم مشاكل جنسية تعترض حياتهم ويهربون من مواجهتها، أو لانهم يريدون ان يكون الجنس امرا سريا لا يعرفه احد. انهم يفصلون بين الجنس والحياة كما يفصلون بين نصفهم الاعلى ونصفهم الاسفل، ويتعاملون مع اعضائهم الجسمية بشكل، ويتعاملون مع اعضائهم الجنسية بشكل آخر.

ان العلاقات الاجتماعية السطحية السريعة لا يمثل الجنس فيها شيئا ذا بال ولكن العلاقات العميقة المعقدة ذات المشاعر والاحاسيس يمثل الجنس فيها جزءا مهماً. وان الكتابة في الجنس هي الكتابة في عمق حياتنا، في عمق اجسادنا وشخصياتنا. بل ان العلاقات السياسية والاجتماعية، وعلاقات العمل السريعة السطحية، يلعب الجنس فيها احيانا من وراء الستار دورا هاما فيشوه العلاقة او يحرفها عن هدفها الاساسي، أو يبالغ في اشياء ويقلل من اشياء دون اي داع موضوعي.

إن بعض الحكام والساسة الزعماء يجدون لذة في تعذيب الذين يخالفونهم الرأي أو هم يغيرون مستقبل بلادهم الى الافضل أو الى الاسوأ لاسباب في نفوسهم وعقد جنسية وشخصية الى حد أن قال احد المؤرخين: ان المشوهين نفسيا وجنسيا هم الذين يصلون الى الحكم والصدارة والزعامة، ذلك لان طاقتهم النفسية والجنسية تنحرف عن طريق الحب والعلاقات الحميمة بين الناس الى البطش والسيطرة والمناورة والعدوان وهذه الصفات الاربع هي الدعائم الاساسية للوصول الى الحكم في عالمنا الحديث

المرتكز على حضارة ذكورية ذات جانب واحد، هو الجانب العدواني القائم على التنافس والغيرة والحرب والتدمير وليس على التعاون والحب والبناء.

انّ عدم التوازن في الحضارة الحديثة ناتج عن ان نصف البشر (وهم ذكور) فقط هم الذين صنعوا الحضارة. حضارة من وجهة نظرهم فقط. اما النصف الآخر من البشرية (النساء) فقد كانوا متفرجات فقط. متفرجات من وراء قضبان حديدية، اعتقلهن الرجال خلفها حتى لا يتمردن على القوانين الباطشة القائمة على القهر الجسدي الاقتصادي معا.

لا يمكن لنا ان ننفصل عن أجسامنا، فنحن نحملها معنا في كل مكان. على حسب علاقة الواحد منا بجسده تتحدد علاقته بالآخرين، وان كانت علاقة سريعة وسطحية كمجرد مصافحة الايدي في لقاء عابر. انك قد تصافح انساناً في لقاء عابر فلا تنسى هذه المصافحة فترة طويلة، لانها مست فيك شيئا، ولانه حطم جدارا ووصل اليك في لحظة لقاء حميم. مثل هذا الانسان طبيعي مع جسده، ولذلك هو طبيعي مع اجساد الآخرين. وهناك من يصافحك فتلامس يدك يده وتشعر بنفور، أو بابتعاد عنه، أو بانه بعيد عنك أو انه لا يعطيك يده بقدر ما يأخذ منك يدك، أو انه يعطيك يداً مرتخية باردة فاقدة المشاعر، أو لا يعطيك الا أطراف اصابعه.

هؤلاء المعقدون جنسيا الذين يعانون من مشاكل ما في علاقتهم بأجسادهم يعجزون بالطبع عن اقامة علاقات سوية مع الآخرين. انهم لا يستطيعون ان يظهروا أنفسهم على حقيقتها ولهذا يتوارون خلف قناع من البرود أو التكبر أو الاكتئاب أو الابتعاد عن أي محاولة للاقتراب منهم. أما هؤلاء الذين عرفوا سعادة الحياة الجنسية وسعادة الجسد حين يكون حرا منطلقا غير معقد فانهم لا يخشون العلاقات الحميمة، وهم اقل حذرا في اقامة علاقات مع الناس سواء كانت فكرية أو عاطفية أو جسدية.

ان النضوج الجنسي لا يتم بغير النضوج العاطفي، وهذا النضوج يساعد الانسان، على اقامة علاقة مستقرة مع الجنس الآخر مشبعة نفسيا وفكريا وجسديا، حيث تشكل فيها العلاقة الجنسية الوسيلة الاساسية للتعبير عن الحب (وان لم تكن الوسيلة الوحيدة).

ان توقف النمو النفسي او العاطفي أو الجنسي يدفع الانسان الى أحد هذه الحلول:

١ ـ اما أن يرغب في طفل.
٢ ـ أو يستعيض عن العلاقة الجنسية بعلاقة أخرى بديلة.
٣ ـ أو يقيم العلاقة ليس مع الاشخاص وانما مع أشياء يمتلكها.
٤ ـ أو بملاحظة نشاطات الآخرين الجنسية.

وقد وجد أنه بالنسبة الى الشخص الناضج فان العلاقة الجنسية بالجنس الآخر هي اكثر العلاقات اشباعا له. ولهذا تعتبر الشكل الاساسي للعلاقة الجنسية لمعظم الناضجين في معظم الاوقات. وهذا لا يعني أنها الشكل الوحيد، أو أن الاشخاص الناضجين الطبيعيين لا يمارسون أي شكل آخر سوى هذا الشكل، أو انهم لا يلجأون أحيانا الى تنوع في علاقاتهم أو وسائل مختلفة تجدد اثارتهم. لكن بصفة عامة ان نضوج الشخصية لا بد أن يشمل النضوج الجنسي والعاطفي معا. ونضوج الشخصية لا يظهر الا في العلاقات مع الآخرين.

الانسان يحتاج الى الآخرين ليعرف اذا كان ناضجا أم غير ناضج.
والعلاقة الجنسية تحتاج الى آخرين. هناك علاقة جنسية لا تحتاج الى آخرين مثل الاشباع الذاتي أو العادة السرية، ولكن أحلام اليقظة التي تصاحب هذا النشاط تشتمل على آخرين. العلاقة الجنسية الناضجة هي بين رجل وامرأة ناضجين حيث يكون التبادل (الاخذ والعطاء) متساويا، وحيث تكون الاعضاء الجنسية هي أهم الاعضاء التي من خلالها يتم التعبير عن الحب وتلقيه. انها من أهم اسباب سعادة الانسان ولذته في الحياة، وهي ايضا لها نهاية كاملة الاشباع، ومع ذلك يمكن أن تعاد مرة اخرى بغير نهاية. ما من شيء في الحياة يحتمل هذا التكرار والاعادة المستمرة وان كان اعظم القطع الموسيقية جمالا. فالانسان يمل التكرار والاعادة.

لكن هذه التجربة الرائعة الخصبة المخصبة لا تكون ممكنة الا حينما يكون الرجل والمرأة قد نجحا في اقامة علاقة بينهما، وانهما على الأقل (حين يمارسان الحب معا) يستطيع ان يواجه كل منهما الآخر على حقيقته وكما هو، بلا تحفظات، وبلا اقنعة، وبلا رواسب طفولية من الخوف أو النقص أو عدم الاستقلال.

في مثل هذه العلاقات الحميمة جدا نحن جميعا شديدو الحساسية، تتعرى نقاط الضعف فينا، ونحن نكشف من انفسنا على قدر ما في انفسنا. اذا كان الواحد منا لم يفطم تماما من أمه فسوف تنكشف على الفور طفولته في التصرف الجنسي. ان

الانحراف الجنسي بصفة عامة ليس الا استمرار اجزاء من الطفولة في شخصية الرجل أو المرأة.

التردد، أو القلق، أو العدوان في معاملة الآخرين ليست الا بقايا صفات طفولية. وبقدر ما يتغلب الانسان على طفولته بقدر ما يقترب من النضوج. والصفات الطفولية تحددها علاقة الطفل السابقة بأبيه وأمه. اذا كانت هذه العلاقة قوامها الحب والقبول فان الطفل يصل الى النضوج بسهولة اكثر. لكن اذا كان الطفل قد شعر أنه غير مرغوب فيه من أبيه أو من أمه فانه يتعثر في إقامة علاقة حميمة وناضجة ومشبعة.

حين يسمع بعض الناس عن انحراف جنسي ما فانهم يبالغون في قذف صاحبه بأحط الصفات. أغلب الظن أن هؤلاء هم الذين يشعرون أكثر من غيرهم بهذا الانحراف باقيا في نفوسهم. فمن المعروف أن الشيء الذي لا يقبل أو لا يهضم بواسطة شخص ما هو الشيء الذي بقي معه وظل في اعماقه ثابتا غير قابل للتطور.

لكن بالنسبة للانسان الناضج الفاهم فان الانحراف الجنسي أمر يستدعي التعاطف والتفهم اكثر من الشتيمة والسخرية والاحتقار. أما هؤلاء الذين لا يفعلون شيئا ازاء هذا سوى هز اكتافهم تأففا وسخرية ثم يهربون بعيدا فانهم يكشفون (لمن يفهم) أنهم انما يهربون من شيء مماثل في نفوسهم.

جميعنا كما قلت سابقا نحتوي على بذور الانحرافات الجنسية والعاطفية بشتى اشكالها والوانها، وجميعنا لم نتخلص بدرجات متفاوتة من طفولتنا وعلاقتنا بآبائنا وامهاتنا.

عند بعض المنحرفين نجد محاولة للنضج مستمرة، قد تكون يائسة، ولكنها محاولة تستحق منا التقدير، وهي قيمة انسانية في حد ذاتها، قيمة عليا، تعني أن الانسان يكافح دائما من أجل الارتقاء بنفسه الى مستوى أعلى دائماً.

ولان الانحرافات والمشاكل الجنسية والنفسية هي نتاج مشاعر الطفولة من ذنب ونقص وخوف، ولان الاسرة الابوية هي النواة التي تنمو فيها هذه المشاعر وتتغذى، لهذا فانني اطالب بتغيير الاسرة الابوية لتكون اسرة بغير سلطة الاب. وليس معنى ذلك أن تحل سلطة الام محل سلطة الاب كما كان الامر في أسر الامومة. ولكني اطالب تحرير الاسرة من اية سلطة سواء كانت أبوية أو أمومة. بمعنى آخر أن يحل الحب

محل السلطة داخل الاسرة. الحب غير المشروط بالطاعة، والحب غير المشروط بالملكية، وغير المشروط بالعلاقات البيولوجية أو علاقات الدم. أي أن يحب الانسان اطفاله واطفال الغير سواء بسواء. وهذه هي الانسانية أو قمة الاخلاق. ان الحيوانات تحب اطفالها وتطعمهم، وليس هناك فضل لانسان يحب اطفاله ويطعمهم، ولكن الفضل هو أن يرتفع الحب الانساني فوق روابط الدم وفوق العلاقات البيولوجية. وهذا هو كفاح الانسان الدائم من اجل الارتقاء بنفسه الى مستوى اعلى دائماً.

والمطلوب أيضاً هو المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في جميع نواحي الحياة بغير استثناء. بدون هذه المساواة لا يمكن للنساء أن ينبغن في الحياة الفكرية، ولا أن تظهر من بينهنّ عبقريات أو عظيمات في أي مجال كما يظهر من بين الرجال.

ربما يكون صحيحا ما يقال أن وراء كل رجل عظيم امرأة. لأن الانسان الذي يريد أن يكون عظيما في العلم مثلا أو الفن لا بد وان يتفرغ له ويبذل ساعات يومه في القراءة والدراسة والتفكير والتمحيص وغير ذلك من الجهد الضروري للوصول الى شيء عظيم. بمعنى آخر لا بد أن يتفرغ الانسان لهذا العمل ولا يشغل نفسه بالاعمال الاخرى المتعلقة بأكله وشربه ونومه وغسل ملابسه ومشاكل ومطالب الاطفال وشراء الخضار ومحاسبة البقال والجزار. . الخ. الانسان العظيم الذي ينبغ في علم او فن لا بد له من امرأة تقوم بهذه الاعمال وتوفر له الراحة والهدوء اللازمين للبحث والاطلاع والتفكير. ومن هنا ما يقال أن الرجل العظيم وراءه امرأة.

ولكن من هو وراء المرأة العظيمة؟ من هو وراء المرأة التي نبغت في علم من العلوم أو فنّ من الفنون؟

إن الذي يبحث في حياة النساء اللائي برزن في هذه الحضارة التي نعيشها يجد أنهن قليلات العدد جدا لانهن يحاربن قيودا داخل البيت وخارجه تحول دون وصولهن الى التفوق في أي مجال. ونجد أيضاً أن الذي وراء تفوقهن وعظمتهن ليس هو الرجل، بل العكس هو الصحيح، أن الرجل هو الذي يحول بين المرأة وبين العظمة في أي مجال.

لان معظم هؤلاء النساء العظيمات كن وحيدات بغير أزواج، مطلقات أو ارامل أو رفضن الزواج اصلا. بمعنى آخر ليس وراء هؤلاء النساء الا انفسهن، وكفاحهن المرير الطويل ووحدتهن القاسية، بالاضافة الى الاتهامات التي قد تنهال عليهن من

المجتمع بانهن شواذ ونساء غير طبيعيات.

أما الرجل فانه قد يسبب للمرأة اشياء أخرى غير العظمة والنبوغ. انه قد يسبب لها المشاكل والامراض على اختلاف انواعها بل قد يسبب لها الموت أيضاً. وليس هذا بالغريب في صعيد مصر حيث لا تزال تقتل النساء بسبب عدم ثبوت العذرية، أو الحمل بغير زواج أو أسباب أخرى يحكم عليها الأب او الزوج (أو الأخ او ابن العم) بأنها غير اخلاقية أو ضد التقاليد.

من أهم المشاكل التي يسببها الرجل للمرأة هو المرض النفسي أو العصاب واحيانا الجنون الكامل. وقد اجريت بحثا عام ١٩٧٢ بقسم الامراض النفسية بكلية طب عين شمس عن أسباب العصاب بين النساء. واتضح لي أن السبب الاول كان هو الرجل الاب، أو الزوج، أو أي رجل آخر ينصب نفسه مسؤولا عن الاسرة.

وقد اتضح لي أيضا ان من أهم الاسباب التي تسبب المرض النفسي للمرأة هو حرمانها من التعليم أو العمل أو اثبات ذاتها على اعتبارها انسانا له عقل وذكاء خارج وظيفة البيت والزواج والاطفال.

وعلى هذا يمكن القول أن الحضارة الذكورية والاسرة الابوية تقتل ذكاء المرأة، وتحارب تفوق المرأة واثبات عبقريتها. وكم يمتلىء التاريخ بنماذج لنساء عبقريات وصلن الى حافة الجنون او الانتحار بسبب معوقات الحضارة الذكورية لامكانياتهن الفكرية. كلنا نعرف كيف انتحرت أديبة عظيمة مثل فرجينيا وولف. وكلنا نعرف كيف حكم المجتمع الذكوري على أديبة عظيمة مثل «مي زيادة» بالمرض النفسي والوحدة ثم الموت.

ولهـذا فان الدعوة الى المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة دعوة اخلاقية ودعوة انسانية أما التفرقة فهي ضد الاخلاق وضد الانسانية.



المرأة والصراعُ النفسي



أولاً : مقدمة

خلال السنوات الطويلة التي مارست فيها مهنة الطب في عيادتي الخاصة أو في المستشفيات العامة، أو من خلال المترددين والمترددات على بيتي من اصحاب المشاكل النفسية والجنسية والاجتماعية ، أو من خلال القراء والقارئات الذين تابعوا مقالاتي في مجلة « الصحة » قبل ان تتوقف، أو الكتب والدراسات التي نشرتها ، من خلال ذلك كله ومن خلال زميلاتي وصديقاتي من النساء والفتيات اللائي يفتحن قلوبهن لي بحكم الصداقة ، وبحكم الفهم المشترك ، وبحكم انني امرأة مثلهن ، أدرك معاناتهن واقدرها بل واحترمها ، واحترم الاخطاء (أو ما تسمى الأخطاء) مثلما احترم أي تصرف آخر يعتبره المجتمع التصرف الصحيح السليم .

من خلال كل ذلك ادركت الحاجة الشديدة الى ان نبدأ في دراسة «العصاب» (Neuroses) الذي تشكو منه النساء والفتيات، والذي يمثل ظاهرة جديدة بين النساء وخاصة النساء المتعلمات.

والعصاب باعتباره مرضاً نفسياً قد لا يكون شديدا الى الحد الذي يعطل المرأة عن عملها أو رتابة حياتها اليومية، وقد لا يدفع المرأة الى الذهاب الى طبيب نفسي، وقد تعيش به المرأة وتموت به دون ان يدري من حولها انها مصابة بالعصاب، بل دون ان تدري هي نفسها انها مصابة بالعصاب، ولا اسباب تلك الكآبة التي تشعر بها من حين الى حين، أو اسباب ذلك الصداع المستمر في نصف رأسها، أو ذلك الخمول والرغبة في الكسل أو النوم، أو ذلك الارق في بعض الليالي، أو تلك الاحلام المزعجة التي تراها في نومها بعض الاحيان القليلة أو الكثيرة أو ذلك الاعراض عن الاكل أو الجنس احيانا، أو ذلك النهم الشديد للاكل الى حد الزيادة في الوزن بشكل لافت للنظر، أو. . . أو. . . أو، عشرات الاعراض البسيطة أو الشديدة، المؤقتة أو الدائمة،

لكنها في معظم الاحيان غير قاتلة، أو غير متعارضة مع الاستمرار في الحياة اليومية، وروتين الحياة اليومية. صحيح ان النشاط لم يعد كما كان، وصحيح ان الاقبال على الحياة لم يعد كما كان، وصحيح ان هناك بعض الالام الجسدية أو النفسية من حين الى حين، لكن الحياة تسير، ربما تسير ببطء اكثر، وربما تسير بغير بهجة وبغير لذة، لكنها تسير. ما دامت تسير فلا داعي للبحث عن اسباب تلك الاعراض، أو ادراك كنهها، ربما لا تكون مرضا يستدعي العلاج، وربما تكون شيئا طبيعيا تشعر به كل النساء بسبب الدورة الشهرية او ما يسمى عرفا بالمرض الشهري (الحيض) أو بسبب الحمل أو الولادة أو بسبب تغير الجو والمواسم أو بسبب التقدم في العمر (قد لا تكون المرأة قد بلغت الثلاثين بعد) أو لأي سبب آخر.

ويمثل ما تتجاهل المرأة الاعراض التي تشعر بها،كذلك ما يتجاهلها من حولها من افراد الاسرة، وبالذات اذا كانت الاسرة من الطبقة الكادحة أو الطبقة المتوسطة أو دون المتوسطة، وهذه الطبقات في مجتمع كمجتمعنا تشكل الاغلبية الساحقة من الرجال والنساء والاطفال. وتتميز هذه الطبقات بان مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية تغلب على مشاكلها الاخرى، وليس هناك من جهد أو وقت للاهتمام بالاعراض الجسدية غير الملحة أو غير المتعارضة مع سير الحياة، أو غير القاتلة أو المعجزة لرب الاسرة الكادح أو أولئك الذين ينفقون على الاسرة. اما الاعراض غير الجسدية (أو النفسية) فلا احد يهتم بها أو يلحظها اللهم الا اذا تحولت الى مرض عقلي شديد أو الى الجنون الكامل الذي يحول دون ذهاب الرجل الى عمله أو يجعله خطراً على الأسرة أو المجتمع.

وحيث ان مكانة المرأة في الاسرة عندنا ادنى منها في الرجل بصفة عامة فان نصيب المرأة من التجاهل والاهمال اكثر من نصيب الرجل، وصحة المرأة الجسدية ليست في اهمية صحة الرجل الجسدية. اما صحة المرأة النفسية فهذا امر لا تفطن اليه الاغلبية الساحقة من الاسر العربية إلا في حالة واحدة، وهي حالة جنون المرأة الواضح، الذي يعطل المرأة عن عملها في البيت أو في الحقل أو في المصنع أو في المكتب، وتصبح بلا فائدة، أو تصبح مصدرا للمشاكل، حينئذ يدرك الجميع انها مريضة ولا بد من ادخالها المستشفى العقلي أو النفسي، بغرض العلاج أو بغرض التخلص من وجودها داخل الاسرة.

لكن المرأة في الطبقات المرتاحة اقتصاديا اكثر حظا بالعناية وان كان حظها من

العناية اقل من حظ الرجل في الاسرة نفسها، اللهم الا اذا كانت امرأة ثرية، وهي التي تنفق من اموالها على زوجها واولادها، حينئذ تتغير القيم، وتشعر المرأة بقيمتها، ويشعر من حولها ايضا بقيمتها، وتصبح اعراضها الجسدية أو النفسية محط الاهتمام والعناية، فهي في النهاية التي تدفع نفقات الطبيب والعلاج، وهي صاحبة القرار في اعتبار « الصداع » مثلاً مرضا يستحق زيارة الطبيب او انه مجرد شيء طبيعي يحدث لكل النساء . وهي التي تقرر ما اذا كان المفروض ان تذهب الى طبيب باطني او طبيب نساء أو طبيب نفسي .

على ان مثل هؤلاء النساء قليلات، فالمرأة حتى وان كانت تنفق على الاسرة أو تشارك في الانفاق فهي ما زالت خاضعة بحكم العرف والقوانين والاديان للرجل، وكثيرا ما يسيطر الرجل على مالها أو راتبها الشهري ويصبح هو صاحب القرار فيما اذا كان الصداع او الارق سببا يستحق التضحية ببعض المال .

ويمكن لنا ان نتصور هذه النسبة القليلة جدا من النساء اللائي يستطعن في النهاية الوصول الى الطبيب النفسي بسبب اعراض العصاب المؤقتة أو الدائمة وليس بسبب الهستيريا الواضحة.

واذا عرفنا ان اغلبية اطباء النفس في مصر رجال، وانهم لا يختلفون كثيرا بحكم التربية والتعليم والدين والعرف عن الرجال الآخرين من حيث نظرتهم الى المرأة، وانهم بحكم التعليم الطبي التقليدي المتوارث عن سيجموند فرويد الوريث الشرعي لكهنة العصور الوسطى لا يعرفون حقيقة المرأة جسدا ونفسا، او يعرفونها من خلال نظرية فرويد الخالدة التي حكمت بأن المرأة ذكر ينقصه عضو الذكر، أو انثى خصيت جسدا وعقلا بحيث لا يزيد طموحها الجسدي أو العقلي عن الاكل والانجاب والطاعة وخدمة الرجل والاطفال.

اذا عرفنا ان اغلبية اطباء النفس عندنا (بل في العالم الابوي كله ايضا) على هذا النحو فما الذي يمكن ان يفعله الطبيب النفسي لعلاج امرأة مصابة بالعصاب. خاصة اذا علمنا ان العصاب يصيب النساء بسبب ذلك الاحباط المستمر في طموحهن الجسدي والعقلي نتيجة ذلك المفهوم التقليدي عن ان المرأة اقل من الرجل جسدا وعقلا وأنها لم تخلق الا لخدمة الرجل والاطفال والطاعة والانجاب.

ولا اعني بذلك ان الطبيبات النفسيات احسن حالا من الاطباء لمجرد كونهن

نساء، فكم من امرأة اكثر تخلفا في نظرتها لنفسها ولبنات جنسها من الرجال، لكني اعني ان الطب النفسي والجسدي ما زال يشتمل على حقائق غير حقيقية. وما زال في حاجة الى عقول ثورية تنقيه من خزعبلات العصور الوسطى، وتدعمه الافكار المتنورة الحديثة عن المرأة وعن الرجل ايضا.

بل ولا بد من الاعتراف بفضل عدد من النساء والرجال من مختلف البلاد في الشرق والغرب الذين ساهموا في الماضي القريب والبعيد في تغيير الحقائق النفسية والطبية التقليدية والذين ما زالوا يساهمون حتى اليوم، وما زالوا يدرسون ويبحثون ويكتبون ويثورون رغم ما يصادفون من معاناة ومشاق قد تصل الى حد السجن أو الضرب أو الفصل من العمل أو التجويع أو القتل.

ان هؤلاء الرواد القلائل من النساء والرجال هم الذين مهدوا الطريق امامنا وعلينا ان نواصل المسيرة والبحث من إجل حياة أفضل للنساء والرجال والاطفال لا يقلل من عزيمتنا تشريد أو تجويع أو اضطهاد، فالافكار الجديدة في كل مكان وزمان تصارعها الافكار القديمة والتاريخ البشري قد اثبت في جميع الازمنة والعهود ان الانتصار دائما في صف الجديد، وفي صف التقدم، ومن اجل هذا تسير حياة البشر الى الامام وليس الى الوراء.

ثانيا: ما هو حجم المشكلة

ادركت وجود المشكلة (وهي اصابة النساء عندنا بالعصاب) من كثرة الاعراض العصابية التي كانت تشكو منها النساء والفتيات اللاتي كن يترددن على عيادتي أو بيتي أو مكتبي في مجلة «الصحة»، ومن ان نسبة كبيرة من صديقاتي النساء المتعلمات كن يشكين لي دائما من اعراض نفسية وعصابية. وقد لاحظت بصفة عامة ان حياة المرأة في مصر مثلاً حياة لا تحقق لها السعادة أو الصحة النفسية، وانه من النادر جدا ما صادفت امرأة تشعر بالرضى أو بالتحقق جسديا أو نفسيا.

وانطلاقا من هذا الادراك غير المدعم بالارقام العلمية فقد بدأت ابحث عن حجم المشكلة الحقيقي، أو عن نسبة اصابة النساء بالعصاب في مجتمعنا. وقد لجأت من اجل هذا الى مراكز البحوث عندنا سواء في الجامعات أو المعاهد، ودهشت حينما اكتشفت ان مثل هذه البحوث غير موجودة، وان احدا لا يعرف النسبة الحقيقية للعصاب بين النساء والفتيات.

الا انني التقيت في كلية الطب بجامعة عين شمس بالزميل الاستاذ الدكتور احمد عكاشه والدكتور عادل صادق، وهما اللذان وجهاني الى العيادة النفسية التابعة للمراقبة العامة للشؤون الطبية لجامعة عين شمس، وهذه العيادة النفسية هي المختصة بفحص وعلاج المرضى والمريضات نفسيا من طلبة وطالبات جامعة عين شمس.

وقد رأيت انه يمكن من خلال الاطلاع على سجلات هذه العيادة النفسية الوصول الى نسبة تقريبية عن الاصابة بالعصاب بين طالبات جامعة عين شمس كالآتي:

أولاً: العيادة النفسية بالمراقبة العامة للشؤون الطبية لجامعة عين شمس[1]

تخدم: ٥٤٢٤٠ طالبا وطالبة.

منهم: ٢٩٨٣٢ طالبة.

و: ٢٤٤٠٨ طلاب.

عدد المريضات بالعصاب من الطالبات حسب تشخيص اطباء العيادة النفسية:

عدد المريضات ٢٧٣٥ طالبة.

و١٥٣٤ طالباً.

نسبة العصاب بين الطالبات = ٩,١ المئة.

نسبة العصاب بين الطلبة = ٦,٢ بالمئة.

من هذه الارقام يتضح ان نسبة العصاب بين الطالبات أعلى منها بين الطلبة، وهذا امر يستدعي البحث والدراسة لمعرفة الاسباب التي تجعل الطالبة المصرية اكثر عرضة للاصابة بالعصاب من زميلها الطالب المصري الذي يعيش في الظروف الاجتماعية والاقتصادية نفسها.

كما اننا لو اعتبرنا ان طالبات جامعة عين شمس يمثلن الطالبات المصريات الجامعيات بصفة عامة بمختلف طبقاتهن واسرهن فان نسبة ٩ بالمئة تقريبا كمؤشر عام لنسبة الاصابة بالعصاب انما هي نسبة مرتفعة، خاصة لو وضعنا في اعتبارنا انها اقل من الحقيقة، لان عددا من طالبات الجامعة (وخاصة من الاسر العالية وفوق المتوسطة) لا يذهبن الى العيادة النفسية التابعة للجامعة وانما يذهبن الى طبيب الاسرة الخاص ولا تعلم العيادة النفسية الجامعية عنهن شيئا.

---

(١) من تقرير المراقبة العامة للشؤون الطبية (جامعة عين شمس) مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٣، ومن دفاتر العيادة النفسية بهذه المراقبة.

ولـو اننـا اعتبـرنـا الـطالبات الجامعيات كممثلات للنساء المتعلمات في مصر لاستطعنا ان نقول انه من بين كل مائة امرأة متعلمة في مصر فان تسعة نساء منهن معرضات للاصابة بالعصاب وهذه نسبة مفزعة في العلوم الطبية بجميع فروعها وتمثل في حد ذاتها مشكلة تستوجب الدراسة والعلاج .

وقد كان من الطبيعي بعد الوصول الى هذه النسبة للاصابة بالعصاب بين النساء المتعلمات ان ابحث عن النسبة بين النساء غير المتعلمات ولم يكن امامي من مكان للحصول على البيانات المطلوبة سوى عيادة مصر الجديدة الشاملة التابعة للهيئة العامة للتأمين الصحي (فرع القاهرة). ومن دفاتر العيادة النفسية لهذه الوحدة حصلت على البيانات التالية:

تخدم: ٩٨٧١ عاملا وعاملة[١].
منهم: ١٩٩٢ عاملة.
و: ٧٨٧٩ عاملا.
عدد المريضات بالعصاب بين العاملات حسب تشخيص اطباء العيادة النفسية:
= ١٤٣ عاملة.
وبين العمال = ٣٩٦ عاملاً .
نسبة العصاب بين العاملات = ٧,١٧ بالمئة.
نسبة العصاب بين العمال = ٥,٠٢ بالمئة.

ومن هنا ايضا يتضح ان نسبة الاصابة بالعصاب بين النساء غير المتعلمات اعلى منها بين الرجال المتعلمين الذين يعيشون في الظروف الاقتصادية والاجتماعية نفسها.

وبالتعمق اكثر في بيانات هذه العيادة اتضح انها تخدم العاملات والعاملين في خمسة بنوك يشملها التأمين الصحي (البنك الاهلي وبنك القاهرة وبنك مصر وبنك الاسكندرية وبنك ناصر) وتخدم العاملين والعاملات في ثلاث شركات ادوية (الشركة العربية للادوية وشركة النيل للادوية والشركة المصرية لتجارة الادوية) وتخدم العاملين والعاملات في شركة عمر افندي بمصر الجديدة، وشركة شيكوريل بمصر الجديدة وشركة الازياء الحديثة بمصر الجديدة وشركة مصر للالبان بمصر الجديدة.

---

(١) دفاتر العيادة النفسية لعيادة مصر الجديدة الشاملة التابعة للهيئة العامة للتأمين الصحي (فرع القاهرة ١٩٧٣).

واتضح لي ان اغلبية هؤلاء العاملات لم يحصلن على اكثر من الابتدائية وبعضهن لا يقرأ ولا يكتب، ونسبة قليلة حصلت على شهادة متوسطة ، وهؤلاء موظفات يعملن اعمالاً كتابية .

وقد وجدت ان عدد هؤلاء الموظفات في البنوك الخمسة التي تخدمها العيادة = ١٠٨ موظفات. وكان عدد حالات العصاب بين الموظفات = ٩ حالات. اي ان نسبة العصاب بينهن = ٨,٣ بالمئة.

وهذه النسبة تزيد قليلا على نسبة الاصابة بالعصاب بين العاملات غير المتعلمات لكنها تقل عن نسبة الاصابة بالعصاب بين النساء الجامعيات المتعلمات، وهذا يشير الى ان المرأة تصبح معرضة للاصابة بالعصاب كلما زادت درجة تعلمها.

ويمكن القول مما سبق ان حجم المشكلة كبير ويستدعي الانتباه بل الفزع. ان نسبا اقل من هذه النسبة بكثير افزعت الاطباء في بلاد مختلفة. ان حجم الاصابة بالامراض النفسية الذي فزعت له الولايات المتحدة الاميركية لم يصل الى هذه النسبة، ويقول الدكتور والتر الفاريز[1] «كم كانت الصدمة علي حين علمت (من سنوات ماضية) ان من بين كل عشرين طفلا يولدون في نيويورك هناك طفل واحد معرض للذهاب الى المستشفى النفسي».

أهناك دافع اقوى من هذا الدافع لاجراء مثل هذا البحث، ومحاولة معرفة الاسباب الحقيقية وراء هذه المشكلة من اجل الوصول الى العلاج الصحيح؟

وهكذا يمكن تحديد الهدف من هذا البحث كالآتي:

دراسة الاسباب وراء اصابة النساء والفتيات المصريات بالعصاب والقاء بعض الضوء على المشاكل النفسية التي تتعرض لها المرأة في مجتمعنا المصري ومحاولة التعرف على اسبابها الحقيقية بين النساء المتعلمات وغير المتعلمات.

ثالثاً: حول التعريفات العلمية:

بالرغم من المثل الصيني المعروف الذي يقول بأن «بداية الحكمة هي تسمية الاشياء باسمائها الصحيحة» فانه في مجال الدراسات الطبية النفسية لا يمكن بحال

(١) انظر: Walter C. Alvarez, The Neuroses W.B. Saunders, Company, 1951, P. 18.

من الاحوال اتباع رأي هذا الصيني الحكيم. فمن المعروف انه لم يحدث ان اتفق اثنان من اطباء النفس على تشخيص واحد، أو تعريف واحد. ويقول دوجلاس كامبيل (Douglas Campell) «ليس هنـاك من فرع من الـطب يحتوي على كل هذه التعريفات (والنظريات ايضا) المتباينة المتغيرة مثل الطب النفسي المعاصر».

وبعد قراءتي لتعريفات اطباء النفس لمرض العصاب فقد ادركت في النهاية انهم جميعا لا يتفقون على شيء. وقد اشارت (ت. أ. روس) T.A.Ross ان كلمة عصاب neruoses قد اختلطت بكلمة المرض العصبي Psychomeurosis الى حد عدم القدرة على التفرقة بينهما. وانه لهذا السبب كف تماما عن استخدام كلمة المرض العصبي.

ولم يعد مهما لدى اطباء النفس (بسبب عدم وجود تعريفات صحيحة) تسمية المرض النفسي باسم معين. ولكن المهم هو ان يدرك بوضوح انه مرض نفسي وليس مرضا عقليا أو «الذهان» وان يدرك انه مرض نفسي وليس مرضا عضويا أو جسديا.

وقد اعتقد ت. أ. روس (Ross) وغيره من العلماء ان المرض النفسي العصاب (Neurosis) لا يمكن ان يتحول الى مرض عقلي أو ذهان. واعتقد آخرون (Streker and Palmer) ان المــرض النفسي اضـطراب في شخصية الانسـان وانفصـال بينـه وبين المجتمع. وآخرون يعتقدون ان المرض النفسي ليس الا مبالغة لاحدى الصفات أو التصرفات الطبيعية لشخصية الانسان. ويعتقد كوب (Cobb) انه في الحالات المبكرة يمكن الوقوع في الخطأ وتشخيص المرض العقلي على انه مرض نفسي فقط.

ولا شك ان هذا التخبط في التعـريفات يعكس المشكلة الاساسية في الطب النفسي وهي التخبط في معرفة اسباب المرض النفسي أو العصبي أو العقلي. ان الجهل بالاسباب الحقيقية يقود الى جهل بالتعريفات. ولهذا فقد اصبح كثير من اطباء النفس الجدد يكرسون جهودهم لمعرفة اسباب المرض الحقيقية. وقادهم البحث الى ان يرفضوا المفاهيم النفسية القديمة عن كل من المرأة أو الرجل أو الطفل. وان يرفضوا تلك التسمية التي شاعت في الطب النفسي بانه مجنون أو عصابي أو طبيعي. وهناك اطباء اليوم يعتقدون ان مثل هذه التسميات خاطئة. فليس هناك من يمكن ان يسمى بالطبيعي. ومن يطلق عليه «عصابي» قد يكون هو الصحيح نفسيا. ومن يطلق عليه «الطبيعي» قد يكون هو المريض نفسيا.

وينطبق هذا الكلام على كل من الرجال والنساء. ومن هنا صعوبة تحديد معنى

امرأة عصابية أو مريضة بالعصاب. وبالمثل أيضاً صعوبة تعريف امرأة طبيعية أو سليمة نفسيا. ان دراسة الطب النفسي التقليدي ابتداء من (بنيامين روش) سنة (١٨١٢) الى سيجموند فرويد لاحقاًنجد ان هذا الطب النفسي كان يميل الى تفسير جميع انواع السلوك غير العادية على انها نوع من المرض النفسي. وقد اعتبرت المرأة الذكية الطموحة في الحياة امرأة عصابية لانها ترفض وضعها الادنى بالنسبة للرجل وترفض دورها المفروض عليها في البيت كخادمة للرجل والاطفال. أما المرأة الطبيعية فهي تلك المرأة التي تقبل وضعها الادنى برضى وسرور وتجد سعادتها في خدمة زوجها واطفالها. وقد آمن الطب النفسي بان الصحة النفسية هي التكيف مع المجتمع، وان المرض النفسي هو عدم التكيف مع المجتمع او رفض القيم أو الدور الذي يفرضه المجتمع على الانسان رجلا كان أو امرأة.

وقد وجدت ان التعريف العالي[1] والمعدل لمعنى العصاب يقول:

«يصبح الانسان مريضا بالعصاب اذا صادف صعابا في التكيف مع هدوئه الداخلي اساسا، او مع علاقاته بالآخرين، أو الاثنين معا، ان الشخصية الانسانية في محاولتها للتكيف مع الضغوط داخل النفس وخارجها تستخدم اعراضا نفسية أو جسمية، وتختلف بذلك عن امراض اضطراب الشخصية التي تحدث فيها نماذج معينة من السلوك».

وقد انتهيت الى ان افضل الطرق التي تتفق مع هدف بحثي هو أن اضع شروطا محددة لاختيار المرأة العصابية كالآتي:

ان تكون المرأة قد شخصت بواسطة طبيبها الخاص أو في العيادة الخارجية النفسية او المستشفى النفسي على أنها مريضة بالعصاب (أي نوع من انواع العصاب المعروفة في الطب النفسي) وان تكون قد تلقت أي نوع من انواع العلاجات النفسية الخاصة بالعصاب لمدة سنتين على الأقل وانها لا تزال تشعر بالاعراض النفسية .

وبالرغم من قصور هذا التعريف، وبالرغم من تحفظي الشديد على مدى صحة تشخيص الطبيب النفسي الخاص أو العام، وبالرغم من ان عددا من النساء والفتيات اللائي تم تشخيصهن على انهن عصابيات قد وجدت انهن يتمتعن بصحة نفسية اكثر من عدد من النساء والفتيات الطبيعيات، بالرغم من كل ذلك فقد كان لا بد من التحديد

(1) According to the International Classification of Mental Illness. 1968, and the French Classification 1969, and the modification by the Egyptian Psychiatric Association 1972. Diagnostic Manual of Psychiatric Disorders. 1972. P. 33.

لكلمة امرأة عصابية وفقا لمقاييس معروفة في الطب النفسي.

اما المرأة الطبيعية فقد تم تحديدها كالآتي:

هي المرأة التي لم تشعر في يوم من الايام بأي اعراض نفسية تدعوها الى استشارة الطبيب، ولم تضطر في يوم من الايام الى تناول اقراص مهدئة أو منومة من تلقاء نفسها أو بواسطة طبيب.

وبما انني فرغت في البحث بين النساء المتعلمات والنساء غير المتعلمات فقد حددت معنى امرأة متعلمة كالآتي:

هي المرأة المتعلمة تعليما عاليا (جامعياً) أو التي تعمل في ميدان فكري أو فني خلاق.

أما المرأة غير المتعلمة فهي:

المرأة التي حرمت من التعليم الجامعي، أو تعلمت تعليما منخفضا أو متوسطا. وتكون ربة بيت فقط، أو تعمل عملا آليا يدويا روتينيا أو عملا من اعمال الخدمة.

كلمة عن منهج البحث:

لم اتبع في هذا البحث الاسلوب التقليدي في جمع المعلومات من النساء والفتيات اللائي اخترتهن لهذه الدراسة. كنت استقبل الواحدة منهن في بيتي كما استقبل صديقة قديمة، أو ازور الواحدة منهن في منزلها أو مكان عملها كما افعل مع صديقاتي المقربات. ولم تكن الجلسة تتسم بالرسمية، أو الجو البارد الذي يشيعه البحث العلمي عادة، ولم اكن امسك ورقة وقلما، ولم اكن اوجه اسئلة وانتظر اجوبة، ولم اضع نفسي موضع الطبيب الذي يشخص الداء، أو موضع القاضي الذي يصدر احكاما، أو موضع الواعظ الذي يعطي نصائح. كنت اترك الواحدة منهن تفتح قلبها وتحكي مشكلتها، واشجع الواحدة منهن على ان تتجرد امامي من كل الاقنعة التي ترتديها حين تقابل الناس في حياتنا الاجتماعية. واول خطوات التشجيع هي ان اخلع انا نفسي القناع، . فيرين نفسي على حقيقتها.

وقد استطعت بهذه الطريقة ان اجعل هؤلاء النساء والفتيات يفتحن قلوبهن لي ويحكين لي عن ادق اسرار حياتهن، واحيانا تلك الاسرار التي لا يقولها الانسان حتى لنفسه، وتظل مجهولة لديه الى الابد، وادركت ان الصدق يشد اليه الصدق، والقلب

المفتوح يجذب اليه القلب المفتوح، وانه بغير هذا لا يمكن للباحث أو الباحثة ان يحصل على معلومات صحيحة من «الانسان» الذي يحاول ان يفهمه. ان معظم الباحثين او الاطباء يستبدلون كلمة «الانسان» بكلمة «المريض» أو «الحالة» ويستبدلون كلمة «يحاول ان يفهمه» بكلمة «يفحصه» ولذلك يعجز الكثير من الباحثين والاطباء عن فهم الانسان الذي يقع تحت ايديهم. وكم من المعلومات الخاطئة يدونها هؤلاء الباحثون في استماراتهم، وكم يتهم بعض الاطباء (وبالذات اطباء النفس) مرضاهم ومريضاتهم بانهم يكذبون، ويجرون عليهم اختبارات نفسية لقياس الكذب.

ولكن كيف يمكن لإنسان ان يفتح قلبه امام قلب مغلق؟ كيف يمكن لانسان ان يرفع القناع عن نفسه وامامه انسان مقنع؟ كيف يمكن ان يحكي الانسان عن ضعفه واخطائه ونزواته وهفواته لانسان قوي مزهو بنفسه مسلح بالقيم والشهادات وجالس وراء مكتب فخم، في يده ورقة وقلم، وعينه على الساعة، أو على جيب المريض.

وقد اخترت هؤلاء الفتيات والنساء ممن يطلق عليهن اسم «المريضات نفسيا» أو «العصابيات» من العيادات والمستشفيات النفسية، ومن سجن القناطر للنساء، ومن العيادة النفسية لطالبات جامعة عين شمس، ومن النوادي، ومن شركات صناعية، ومكاتب حكومية، والعيادة النفسية لهيئة التأمين الصحي وبعض ربات بيوت فقط. وبعضهن فلاحات وبعضهن جئن الي من تلقاء انفسهن سعيا وراء حل أو علاج، وبعضهن فنانات أو كاتبات من صديقاتي.

ولا يمكن لي ان اقول ان هؤلاء الفتيات والنساء يمثلن نساء مصر، أو نساء المجتمع العربي بصفة عامة، ولا يمكن لي ان اعمم النتائج التي حصلت عليها على جميع النساء المصريات أو العربيات.

فمن اهم المشاكل التي تعترض البحوث الاجتماعية النفسية عندنا عدم وجود اطلس لمشاكلنا الاجتماعية النفسية يستند الى مسح شامل للرأي العام تقدمه عينات ممثلة لقطاعات المجتمع المختلفة، ولهذا لا يمكن لأي باحث بمفرده ان يقدم عينة ممثلة للمجتمع المصري، وأي نتائج يخرج بها لا يمكن ان تكون ممثلة للمجتمع المصري بجميع قطاعاته المختلفة.

وقد اجري البحث على اربع مجموعات من النساء كالآتي:

المجموعة الاولى: ٥٠ امرأة متعلمة عصابية.

المجموعة الثانية: ٥٠ امرأة غير متعلمة عصابية.

المجموعة الثالثة: ٣٠ امرأة متعلمة طبيعية.

المجموعة الرابعة: ٣٠ امرأة غير متعلمة طبيعية.

الخلو من أي مرض جسمي:

تم اختيار الحالات بحيث تكون جميع المجموعات الاربع خالية من أي مرض جسمي أو عضوي، واجريت الفحوص الطبية أو الفحوص المعملية اللازمة في حالة التشكك من وجود مرض عضوي، وتم اخراج أية حالة بأي مرض عضوي.

ادوات البحث:

كانت الوسيلة للبحث هي الفحص النفسي الاجتماعي الكامل لكل حالة. وذلك عن طريق مقابلتي الشخصية مع كل حالة. وكنت اضطر في بعض الحالات ان اقابل بعض افراد الاسرة ايضا كالاب أو الام أو الزوج أو الرئيس في العمل، وهناك حالات التقيت بها مرة واحدة، واستغرقت الجلسة من ساعة ونصف الى ثلاث ساعات، وهناك حالات أخرى قابلتها اكثر من مرة لساعات طويلة. وقد وضعت على الورق تخطيطا للاسئلة التي اسعى الى معرفة الاجابة عنها. لكن لقائي مع الحالات لم يأخذ شكل الاسئلة والاجوبة التي تدون على الورق، أو ذلك الجو الرسمي الذي ينشأ بين الباحث العلمي والحالة. كان لقائي بالنساء والفتيات أبعد ما يكون عن جو البحث العلمي. ولم اكن امسك القلم في يدي واكتب شيئا الا بعد ان اجلس وحدي بعد ان تتركني المرأة أو الفتاة. كنت ادرك انني اريد الوصول الى أغوار الأعماق لكل حالة، ولم يكن هذا ممكنا، الا في جو من الود والتعاون والفهم والثقة، وكثيرا ما التقيت بالحالات في بيتي، أو كنت ادعوهن على فنجان شاي في الهواء الطلق أو ازورهن في بيوتهن.

وكم كنت اود ان استعرض تفصيلاً لكل لقاء تم بيني وبين هذه الحالات، لكن ذلك لم يكن ممكنا، وكان من الممكن فقط ان اختار بعض الحالات واكتب عنها بشيء من التفصيل، وان اجمع نتائج المجموعات الاربع على شكل جداول بسيطة، وان استخلص من الارقام بعض النسب والاحصاءات الضرورية لأي بحث.

النقاط الاساسية التي دارت حولها الاسئلة:

١ ـ الطفولة:

الجو الاقتصادي والاجتماعي والعاطفي ـ نوع الحرمان ـ علاقة الاب والام والاخوة

الذكور والاناث ـ موقف الاسرة من البنت وتعليمها وعملها ـ موقف الاسرة من الجنس ـ حوادث جنسية معينة ـ عملية ختان وموعدها ـ المداعبات الجنسية والعادة السرية ـ امراض عصابية في الطفولة ـ تفضيل الذكور عن البنات في الاسرة ـ هل تمنت ان تكون ولدا ـ سيطرة فرد بالاسرة.

٢ ـ المراهقة:

طموحها واملها في الحياة ـ علاقتها بالمدرسة والتعليم ـ الحالة الاجتماعية والعاطفية في المدرسة ـ حياتها الاجتماعية والعاطفية داخل الاسرة ـ علاقتها بالجنس الآخر ـ العادة السرية ـ نوع الحرمان العاطفي أو الجنسي ـ بدء الدورة الشهرية وآلامها ـ الاحتلام ليلا ـ المعلومات عن الجنس ـ مشاكل عاطفية أو جنسية ـ احلام اليقظة.

٣ ـ العمل:

موقف مجتمع العمل من كونها امرأة ـ الحياة الاجتماعية والعاطفية في محيط العمل ـ علاقتها برئيسها وزملائها ـ الاسباب التي تدعوها الى العمل ـ موقف الإسرة او الزوج من عملها ـ هل تقوم بالاعمال المنزلية الى جانب عملها ـ نوع العمل وعلاقته بطموحها ـ مشاكل المواصلات ـ مشكلة دار الحضانة.

٤ ـ الزواج:

اسباب الزواج ـ علاقتها بزوجها قبل الزواج ـ مساهمة الزوج في الاعمال المنزلية وتربية الاطفال ـ الاشباع الجنسي مع الزوج ـ نوع العلاقة مع زوجها ـ علاقات اخرى خارج الزواج ـ مشاكل من الزوج بسبب العمل أو الاسباب الاخرى ـ استخدام وسائل منع الحمل ـ الاجهاض او وفيات الاطفال ـ علاقتها باطفالها البنات والذكور ـ هل حياتها افضل من حياة امها ـ هل ترتبط بزوجها مرة اخرى لو عادت السنين الى الوراء ـ العلاقة بأهل الزوج ـ مشاكل في البيت ـ طلاق ـ زوجة اخرى ـ مشاكل الاطفال.

٥ ـ الفحص النفسي:

الاحلام ـ التخيلات ـ واحلام اليقظة ـ محاولات الانتحار ـ الارق ـ الصداع ـ نوع العلاج الذي اخذته ـ مدة العلاج ـ علاقتها بالطبيب النفسي ـ الشخصية والسلوك ـ الكلام ـ التفكير ـ الهلاوس ـ المخاوف ـ الاندفاعات ـ الادراك ـ الذاكرة ـ درجة الانتباه والتركيز ـ البصيرة.

٦ ـ قصة المرض النفسي كما ترويه السيدة أو الفتاة بنفسها.

٧ ـ السبب الرئيسي وراء اضطرابها النفسي.

وكانت خصائص العينة كالآتي:

(١) السن:

جدول رقم (١)

السن	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
٢٠ـ٢٤سنة	٥٤ بالمئة	٣٨ بالمئة	٤٠ بالمئة	٣٤ بالمئة
٢٥ـ٢٩سنة	٤٦ بالمئة	٦٢ بالمئة	٦٠ بالمئة	٦٦ بالمئة

(٢) الحالة الزوجية:

جدول رقم (٢)

الحالة الزوجية	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
لم تتزوج	٢٦ بالمئة	٢٤ بالمئة	٣٠ بالمئة	٢٣ بالمئة
متزوجة	٦٤ بالمئة	٧٠ بالمئة	٧٠ بالمئة	٧٣ بالمئة
مطلقة	٨ بالمئة	٦ بالمئة	-	٤ بالمئة
ارمل	٢ بالمئة	-	-	-

(٣) العمل:

جدول رقم (٣)

العمل	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
عمل فني أو خلاق	١٨ بالمئة	-	١٤ بالمئة	-
عمل روتيني أو آلي أو يدوي	١٢ بالمئة	٧٤ بالمئة	١٠ بالمئة	٦٦ بالمئة
طالبة بالجامعة	٥٦بالمئة	-	٦٦بالمئة	-
ربة بيت فقط	١٤ بالمئة	٢٦ بالمئة	١٠ بالمئة	٣٤ بالمئة

(٤) المستوى الاقتصادي:

جدول رقم (٤)

الطبقة الاجتماعية	متعلمة عصابية	غيرمتعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
فوق المتوسط اكثر من ١٥ ج للفرد في الشهر	٢٢ بالمئة	٤ بالمئة	٢٩ بالمئة	٣ بالمئة
متوسطة ١٥ ج للفرد في الشهر	٧٨ بالمئة	٥٤ بالمئة	٧١ بالمئة	٧٦ بالمئة
تحت المتوسطة اقل من ١٥ ج للفرد شهريا	-	٤٢ بالمئة	-	٢١ بالمئة

ثانيا: مشاكل الطفولة:

جدول رقم (٥)

نوع مشاكل الطفولة	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية	المجموع	العدد الكلي للحالات	النسبة المئوية
القسوة او حرمان عاطفي من الاب او الام	٢١	٢٨	١٣	١٤	٧٦	١٦٠	٪٤٧,٥
تفضيل الذكور على الاناث في الاسرة	٣٣	٤٤	١٧	٢٢	١١٦	١٦٠	٪٧٢,٥
حوادث جنسية معينة	١٩	٢٣	٨	١٣	٦٣	١٦٠	٪٣٩,٣
العادات السرية او مداعبات جنسية اثناء الطفولة	٣٢	٣٠	٦	٣	٧١	١٦٠	٪٤٤,٣
تمنت ان تكون ولدا	٣٦	٢٩	١٩	٩	٩٣	١٦٠	٪٥٨,١
اجرى لها عملية الختان	٢٩	٤٨	٢٤	٣٠	١٣١	١٦٠	٪٨١,٨
ازمات اقتصادية	٦	١٧	٤	٩	٣٦	١٦٠	٪٢٢,٥

نتائج البحث:

١ ـ **مشاكل الطفولة**: يتضح من الجدول رقم ٥ ان عملية الختان شائعة، بصفة عامة بين المجموعات الأربع (٨١,٨ بالمئة)، كذلك تفضيل الذكور على البنات في الاسرة (٧٢,٥)، وارتفاع نسب المشاكل الجنسية والعاطفية بصفة عامة عن المشاكل الاقتصادية.

كذلك يتضح ان القسوة او الحرمان العاطفي من الاب او الام ليس عاملا من عوامل الاصابة بالعصاب في هذه الحالات، فهو يكاد يتساوى في المجموعات العصابية مع المجموعات غير العصابية.

على انه يزيد في الحالات غير المتعلمة عنها في المتعلمة حسب الجدول رقم ٥ ـ أ

جدول رقم (٥) أ

نوع المجموعة	حرمان عاطفي في الطفولة	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	٢١	٥٠	٤٢ بالمئة
غير متعلمة عصابية	٢٨	٥٠	٥٦ بالمئة
متعلمة طبيعية	١٣	٣٠	٤٣,٣ بالمئة
غير متعلمة طبيعية	١٤	٣٠	٤٦,٦ بالمئة

جدول رقم (٥) ب

نوع المجموعة	تفضيل الذكور عن الاناث	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	٣٣	٥٠	٦٦ بالمئة
غير متعلمة عصابية	٤٤	٥٠	٨٨ بالمئة
متعلمة طبيعية	١٧	٣٠	٥٦,٦ بالمئة
غير متعلمة طبيعية	٢٢	٣٠	٧٣,٣ بالمئة

وفي جدول ٥ ب ـ نرى ان تفضيل الذكور على الاناث في الاسرة يحدث بنسبة اعلى في المجموعـات العصابية عن المجموعات غير العصابية، ويرتفع ايضا في المجموعات غير المتعلمة عن المجموعات المتعلمة وبالنسبة لاثر الحوادث الجنسية مع رجال كبار في الطفولة فهي تتضح من الجدول رقم ٥ ـ جـ ويرى ان نسبة الحوادث الجنسية أعلى في المجموعات العصابية عن المجموعات غير العصابية ويرتفع ايضا في المجموعات غير المتعلمة.

جدول رقم (٥) جـ

نوع المجموعة	حوادث جنسية مع رجال	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	١٩	٥٠	٣٨ بالمئة
غير متعلمة عصابية	٢٣	٥٠	٤٦ بالمئة
متعلمة طبيعية	٨	٣٠	٢٦,٦ بالمئة
غير متعلمة طبيعية	١٣	٣٠	٤٣,٣ بالمئة

جدول رقم (٦)

نوع مشاكل الطفولة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد	النسبة المئوية
القسوة او حرمان عاطفي من الاب او الام	٢١	١٣	٣٤	٨٠	٤٢,٥ بالمئة
تفضيل الذكور على البنات في الأسرة	٣٣	١٧	٥٠	٨٠	٦٢,٥ بالمئة
حوادث جنسية معينة مع رجال كبار في السن	١٩	٨	٣٧	٨٠	٣٣,٧ بالمئة
العادة السرية او المداعبات الجنسية اثناء الطفولة	٣٢	٦	٣٨	٨٠	٤٧,٥ بالمئة
تمنت ان تكون ولدا	٣٦	١٩	٥٥	٨٠	٦٨,٧ بالمئة
اجريت لها عملية ختان	٢٩	٢٤	٥٣	٨	٦٦,٢ بالمئة
ازمات اقتصادية	٦	٤	١٠	٨٠	١٢,٥ بالمئة

يتضح من الجدول رقم ٦ ان تفضيل الذكور على البنات شائع بين الاسر المتعلمة (٦٢,٥ بالمئة) وان نسبة كبيرة من بنات هذه الاسر تمنين ان يكن ذكورا (٦٨,٧ بالمئة). ويتضح ايضا انخفاض نسبة المشاكل الاقتصادية بالنسبة للمشاكل العاطفية والجنسية. اما القسوة أو الحرمان العاطفي في الطفولة فهو منخفض نسبيا، ولا توجد فروق ذات اهمية بين المجموعة العصابية والمجموعة الطبيعية.

اما بالنسبة لممارسة العادة السرية أو المداعبات الجنسية اثناء الطفولة فهي اكثر ارتفاعا في المجموعة العصابية (٦٤ بالمئة) عنها في المجموعة الطبيعية (٢٠ بالمئة فقط).

جدول رقم (٧)

نوع مشاكل الطفولة	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
القسوة او حرمان عاطفي من الاب او الأم	٢١	٢٨	٤٩	١٠٠	٤٩ بالمئة
تفضيل الذكور على البنات	٣٣	٤٤	٧٧	١٠٠	٧٧ بالمئة
حوادث جنسية مع رجال كبار	١٩	٢٣	٤٢	١٠٠	٤٢ بالمئة
العادة السرية او المداعبات الجنسية اثناء الطفولة	٣٢ (٦٤٪)	٣٠ (٦٠٪)	٦٢	١٠٠	٦٢ بالمئة
تمنت ان تكون ولدا	٣٦(٧٢٪)	٢٩	٦٥	١٠٠	٦٥ بالمئة
اجريت لها عملية ختان	٢٩	٤٨	٧٧	١٠٠	٧٧ بالمئة
ازمات اقتصادية	٦	١٧	٢٣	١٠٠	٢٣ بالمئة

يتضح من الجدول رقم ٧ ارتفاع نسبة تفضيل الذكور على البنات بين العصابيات (٧٧ بالمئة) وكذلك الختان (٧٧ بالمئة) وارتفاع نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية عن المشاكل الاقتصادية ويتضح ان نسبة المشاكل الاقتصادية اكثر ارتفاعا في المجموعة غير المتعلمة عن المجموعة المتعلمة، وكذلك يتضح ارتفاع نسبة الحوادث الجنسية مع رجـال كبار في المجموعة غير المتعلمة، وايضا ارتفاع نسبة عملية الختان بين المجموعة غير المتعلمة. وتزيد نسبة المتمنيات ان يكن ذكورا في المجموعة المتعلمة عنها في غير المتعلمة.

جدول رقم (٨)

نوع مشاكل الطفولة	غير متعلمة عصابيات	غير متعلمة طبيعيات	المجموع	المجموع الكلي	النسبة المئوية
القسوة او حرمان عاطفي من الاب او الام	٢٨	١٤	٤٢	٨٠	٥٢,٥٪
تفضيل الذكور على البنات في الأسرة	٤٤	٢٢	٦٦	٨٠	٨٢,٥٪
العادة السرية او المداعبات	٣٠	٣	٣٣	٨٠	٤١,٢٪
الجنسية اثناء الطفولة	(٦٠٪)	(١٠٪)			
حوادث جنسية مع رجال كبار	٢٣	١٣	٣٦	٨٠	٤٥٪
تمنت ان تكون ولدا	٢٩	٩	٣٨	٨٠	٤٧,٥٪
اجريت لها عملية ختان	٤٨	٣٠	٧٨	٨٠	٩٧,٥٪
ازمات اقتصادية	١٧	٩	٢٦	٨٠	٣٢,٥٪

يتضح من الجدول رقم ٨ ارتفاع نسبة ختان البنات بين الاسر غير المتعلمة (٩٧,٥ بالمئة) وكذلك تفضيل الذكور عن البنات (٨٢,٥ بالمئة) وارتفاع نسبة الحوادث الجنسية (٤٥ بالمئة) كما يلاحظ ان المشاكل الاقتصادية ارتفعت نسبتها هنا (٣٢,٥ بالمئة) عنها في الاسر المتعلمة.

وهنا يتضح ايضا ارتفاع نسبة العادة السرية في المجموعة العصابية (٦٠ بالمئة) عنها في المجموعة الطبيعية (١٠ بالمئة فقط) ولو قارنا هذه النسب بالمجموعات غير المتعلمة لاتضح لنا ان اكثر المجموعات ممارسة للعادة السرية هي العصابيات المتعلمات (٦٤ بالمئة) يليها العصابيات غير المتعلمات (٦٠ بالمئة) يليها الطبيعيات المتعلمات (٢٠ بالمئة) يليها الطبيعيات غير المتعلمات (١٠ بالمئة).

جدول رقم (٩)

نوع مشاكل الطفولة	طبيعيات متعلمات	طبيعات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
القسوة او حرمان عاطفي من الاب أو الام	١٣	١٤	٢٧	٦٠	٤٥٪
تفضيل الذكور على البنات	١٧	٢٢	٢٩	٦٠	٦٥٪
حوادث جنسية مع رجال كبار	٨	١٣	٢١	٦٠	٣٥٪
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٦ (٢٠٪)	٢ (١٠٪)	٩	٦٠	٥٪
تمنت ان تكون ولداً	١٩(٦٣٪)	٩(٣٠٪)	٢٨	٦٠	٤٦،٦٪
اجريت لها عملية ختان	٢٤	٣٠	٥٤	٦٠	٩٠٪
ازمات اقتصادية	٤	٩	١٣	٦٠	٢١،٦٪

يتضح من الجدول رقم ٩ ارتفاع نسبة ختان البنات بين الطبيعيات (٩٠ بالمئة) وكذلك ارتفاع نسبة تفضيل الذكور على البنات (٦٥ بالمئة) ويلاحظ ايضاً انخفاض العادة السرية والمداعبات الجنسية (١٥ بالمئة) وانخفاضها اكثر من المجموعة غير المتعلمة (١٠ بالمئة) عنها في المجموعة المتعلمة (٢٠ بالمئة). ويلاحظ من الجدول ايضاً ان نسبة من تمنين ان يكنَّ ذكوراً في الطبيعيات المتعلمات (٦٣ بالمئة) وهي تكاد تكون ضعف مثيلاتها في الطبيعيات غير المتعلمات (٣٠ بالمئة).

جدول رقم (١٠)

نوع مشاكل الطفولة	عصابيات متعلمة + غير متعلمة	طبعيات متعلمة + غير متعلمة	متعلمات عصابية + طبيعية	غير متعلمات عصابية + طبيعية	النسبة الكلية
القسوة او حرمان عاطفي	٤٩	٤٥	٤٢,٥	٥٢,٥	٤٧,٥
تفضيل الذكور على البنات	٧٧	٦٥	٦٢,٥	٨٢,٥	٧٢,٥
حوادث جنسية مع رجال كبار	٤٢	٣٥	٣٣,٧	٤٥	٣٩,٣
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٦٢	١٥	٤٧,٥	٤١,٢	٤٤,٣
تمنت ان تكون ولداً	٦٥	٤٦,٦	٦٨,٥	٤٧,٥	٥٨,١
اجريت لها عملية ختان	٧٧	٩٠	٦٦,٢	٩٧,٥	٨١,٨
ازمات اقتصادية	٢٣	٢١,٦	١٢,٥	٣٢,٥	٢٢,٥

يتضح من الجدول رقم ١٠ مايلي :

١ ـ ارتفاع نسبة العادة السرية والمداعبات الجنسية في الطفولة بين العصابيات (٦٢ بالمئة) عنها بين الطبيعيات (١٥ بالمئة) وارتفاعها بين المتعلمات (٤٧,٥ بالمئة) عنها بين غير المتعلمات (٤١,٢ بالمئة).

٢ ـ ارتفاع نسبة عملية الختان بين الطبيعيات (٩٠ بالمئة) عنها بين العصابيات (٧٧ بالمئة)، وارتفاعها بين غير المتعلمات (٩٧,٥ بالمئة) عنها بين المتعلمات (٦٦,٢ بالمئة).

٣ ـ ارتفاع نسبة من تمنت ان تكون ولداً بين العصابيات (٦٥ بالمئة) عنها بين الطبيعيات (٤٦,٦ بالمئة) وارتفاعها بين المتعلمات (٦٨,٥ بالمئة) عنها بين غير المتعلمات (٤٧,٥ بالمئة).

٤ - ارتفاع نسبة تفضيل الذكور على البنات في اسر العصابيات (٧٧ بالمئة) عنها في أسر الطبيعيات (٦٥ بالمئة) وارتفاعها بين أسر غير المتعلمات (٨٢,٥ بالمئة) عنها بين أسر المتعلمات (٦٢,٥ بالمئة).

٥ - رغم ارتفاع نسبة تفضيل الذكور على البنات في اسر غير المتعلمات (٢,٥ بالمئة) يلاحظ انخفاض نسبة من تمنت ان تكون ولداً بينهن (٤٧,٥ بالمئة) وكذلك ايضاً في حالة الطبيعيات (تفضيل الذكور على البنات في الاسرة ٦٥ بالمئة ومن تمنت ان تكون ولداً ٤٦,٥ بالمئة وهذه الظاهرة غير موجودة في حالة العصابيات وكذلك في حالة المتعلمات. إذ تتقارب النسب بين تفضيل الذكور وبين التمني بأن تكون ولداً.

٦ - ترتفع نسبة الحوادث الجنسية في الطفولة مع رجال كبار في حالة غير المتعلمات (٤٥ بالمئة)، وايضاً في حالة العصابيات (٤٢ بالمئة) عنها في المتعلمات (٣٣,٧ بالمئة) او الطبيعيات (٣٥ بالمئة).

جدول رقم (١١)

مشاكل في المراهقة:

نوع مشاكل المراهقة	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٧	١٣	٣	١٠	٣٣	١٦٠	٢٠,٦
مشاكل جنسية وعاطفية	١٩	٢٢	٥	٧	٥٢	١٦٠	٣٩,٣
مشاكل داخل الاسرة بين الاب والام والاخوة	٢٣	٢٨	٤	٩	٦٤	١٦٠	٤٠
تفضيل التعليم على الزواج	٤٨	٤٢	٢١	١٦	١٢٧	١٦٠	٧٩,٣

مشاكل المراهقة : يتضح من الجدول رقم ١١ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بصفة عامة بين المجموعات الاربع (٧٩,٣ بالمئة) وتتساوى المشاكل الجنسية والعاطفية مع المشاكل داخل الاسرة تقريباً (٣٩,٣ بالمئة) (٤٠ بالمئة).

جدول رقم (١٢)

نوع مشاكل المراهقة	متعلمات طبيعيات	متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٣	٧	١٠	٨٠	١٢,٥
مشاكل جنسية وعاطفية	٥	١٩	٢٤	٨٠	٣٠
مشاكل داخل الاسرة	٤ (٪١٣,٣)	٢٣ (٪٤٦)	٢٧	٨٠	٣٣,٧
تفضيل التعليم على الزواج	٢١	٤٨	٦٩	٨٠	٨٦,٢

يتضح من الجدول رقم ١٢ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين المتعلمات (٨٦,٢٪)، وارتفاع نسبة المشاكل داخل الاسرة بين المتعلمات العصابيات (٤٦٪) عنها بين المتعلمات الطبيعيات (٣ : ١٣٪).

جدول رقم (١٣)

نوع مشاكل المراهقة	متعلمات عصابيات	غير متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٧	١٣	٢٠	١٠٠	٢٠
مشاكل جنسية وعاطفية	١٩	٢٢	٤١	١٠٠	٤١
مشاكل داخل الاسرة	٢٣	٢٨	٥١	١٠٠	٥١
تفضيل التعليم على الزواج	٤٨	٤٢	٩٠	١٠٠	٩٠

في جدول (١٣) يلاحظ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين العصابيات (٩٠ بالمئة) وارتفاع نسبة المشاكل داخل الاسرة (٥١ بالمئة) عن المشاكل الجنسية والعاطفية (٤١ بالمئة).

جدول رقم (١٤)

نوع مشاكل المراهقة	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٣	١٠	١٣	٦٠	٢١,٦
مشاكل جنسية وعاطفية	٥	٧	١٢	٦٠	٢٠
مشاكل داخل الاسرة	٤	٩	١٣	٦٠	٢١,٦
تفضيل التعليم على الزواج	٢١	١٦	٣٧	٦٠	٦١,٦

يلاحظ في الجدول رقم ١٤ انخفاض نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين الطبيعيات (٦١,٦ بالمئة) وكذلك نسبة انخفاض المشاكل داخل الاسرة والمشاكل الجنسية والعاطفية.

جدول رقم (١٥)

نوع مشاكل المراهقة	غير متعلمات عصابيات	غير متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة	١٣	١٠	١٣	٨٠	١٦,٢
مشاكل جنسية وعاطفية	٢٢	٧	٢٩	٨٠	٣٦,٢
مشاكل داخل الاسرة	٢٨	٩	٣٧	٨٠	٤٦,٢
تفضيل التعليم على الزواج	٤٢	١٦	٥٨	٨٠	٧١,٢

في جدول (١٥) يلاحظ ارتفاع في نسبة المشاكل داخل الاسرة بين غير المتعلمات (٤٦,٢ بالمئة) وكذلك ارتفاع المشاكل الجنسية والعاطفية (٣٦,٢ بالمئة) وارتفاع تفضيل التعليم على الزواج (٧١,٢ بالمئة).

مقارنة النسب المئوية

جدول رقم (١٦)

نوع مشاكل المراهقة	عصابيات + متعلمة + غير متعلمة	طبيعيات + متعلمة + غير متعلمة	متعلمات + عصابية + طبيعية	غير متعلمات + عصابية + طبيعية	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة	٢٠	٢١,٦	١٢,٥	١٦,٢	٢٠,٦
مشاكل جنسية وعاطفية	٤١	٢٠	٣٠	٣٦,٢	٣٩,٣
مشاكل داخل الاسرة	٥١	٢١,٦	٢١,٦	٤٦,٢	٤٠
تفضيل التعليم على الزواج	٩٠	٦١,٦	٨٦,٢	٧١,٢	٧٩,٣

يتضح من الجدول رقم ١٦ ما يأتي:

١ ـ اعلى نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين العصابيات. واقل نسبة بين الطبيعيات، وهذا يشير إلى ان العصابيات اكثر طموحاً في التعليم والعمل الفكري عن الطبيعيات.

٢ ـ ارتفاع نسبة المشاكل داخل الاسرة عن المشاكل الجنسية والعاطفية في جميع الحالات.

٣ ـ ارتفاع نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية في العصابيات عن الطبيعيات وارتفاع نسبة المشاكل داخل الاسرة بين غير المتعلمات. والعصابيات اكثر بين المتعلمات والطبيعيات.

٤ ـ الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج يتساوى تقريباً بين العصابيات والطبيعيات، ويزيد في غير المتعلمات عن المتعلمات.

مقارنة النسب المئوية

جدول رقم (١٧)

نوع مشاكل العمل اوالدراسة	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة (مع الرئيس أو الزملاء	٢٤	١٩	٨	٣	٥٤	١١٤	٤٨,٢ بالمئة
العمل لا يرضي طموحها (أو الدراسة)	١٧	٣١	٦	٤	٥٨	١١٤	٥٠,٨ بالمئة
مشاكل بسبب دورها الاخر في البيت والأسرة	٢٩	٣٣	٥	٦	٧٣	١١٤	٦٤ بالمئة
مشاكل اقتصادية	٨	٣٤	١١	١٨	٧١	١١٤	٦٢,٢ بالمئة

مشاكل العمل والدراسة :

يلاحظ من الجدول رقم ١٧ ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الاخر في البيت والاسرة بصفة عامة (٦٤ بالمئة) وكذلك ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية (٦٢,٢ بالمئة). ويتضح ان ٢٩ امرأة من مجموعة العصابيات المتعلمات (وعددها ٥٠ امرأة) لديهن مشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه أي بنسبة ٥٨ بالمئة، وهذه النسبة مرتفعة إذا قورنت بمجموعة الطبيعيات المتعلمات (وعددها ٣٠ امرأة) حيث لا تشعر بهذه المشكلة منهن الا ٥ نساء فقط، اي بنسبة ١٦,٦ بالمئة.

جدول رقم (١٨)

نوع مشاكل العمل او الدراسة	متعلمات عصابيات	غير متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها أمرأة	٢٤	١٩	٤٣	٧١	٦٠,٥
العمل لا يرضي طموحها (أو الدراسة)	١٧	٣١	٤٨	٧١	٦٧,٦
مشاكل بسبب دورها الاخر في البيت	٢٩	٣٣	٦٢	٧١	٨٧,٣
مشاكل اقتصادية	٨	٣٤	٤٢	٧١	٥٩,٦

يلاحظ في الجدول رقم ١٨ ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الاخر في البيت بين العصابيات وكذلك ارتفاع نسبة عدم ارضاء العمل لطموحها. وقد انخفضت نسبة المشاكل الاقتصادية.

جدول رقم (١٩)

نوع مشاكل العمل او الدراسة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها أمرأة	٢٤	٨	٣٢	٥٧	٥٦,١
العمل لا يرضي طموحها (أو الدراسة)	١٧	٦	٢	٥٧	٤٠,٣
مشاكل بسبب دورها الاخر في البيت	١٩	٥	٣٤	٥٧	٥٩,٦
مشاكل اقتصادية	٨	١١	١٩	٥٧	٣٢,٣

يلاحظ في الجـدول رقم ١٩ انخفاض نسبة المشاكل الاقتصادية بين المتعلمات وكذلك انخفاض نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة.

ويتضح من هذين الجدولين ان العصابيات المتعلمات اكثر مواجهة للمشاكل (في العمل او الدراسة) بسبب كونها امرأة (٤٨ بالمئة) من العصابيات غير المتعلمات (٣٨ بالمئة) وان هؤلاء اكثر مواجهة لمثل هذه المشاكل من الطبيعيات المتعلمات (٢٦,٢ بالمئة) وان اقل المجموعات مواجهة لهذه المشاكل حسب الجدول رقم ١٧ هن الطبيعيات غير المتعلمات (١٠ بالمئة) فقط.

جدول رقم (٢٠)

نوع مشاكل العمل او الدراسة	غير متعلمات عصابيات	غير متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها أمرأة	١٩	٣	٢٢	٥٧	٣٨,٥
العمل لا يرضي طموحها (أو الدراسة)	٣١	٤	٣٥	٥٧	٦١,٤
مشاكل بسبب دورها الاخر في البيت	٣٣	٦	٣٩	٥٧	٦٨,٤
مشاكل اقتصادية	٣٤	١٨	٥٢	٥٧	٩١,٢

في جدول (٢٠) يلاحظ ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية بين النساء غير المتعلمات، وكذلك ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الاخر في البيت، وارتفاع نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة، وانخفاض نسبة المشاكل بسبب كونها امرأة.

جدول رقم (٢١)

نوع مشاكل العمل او الدراسة	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها أمرأة	٨	٣	١١	٤٣	٢٥,٥
العمل لا يرضي طموحها (أو الدراسة)	٦	٤	١٠	٤٣	٢٣,١٠
مشاكل بسبب دورها الاخر في البيت	٥	٦	١١	٤٣	٢٥,٥
مشاكل اقتصادية	١١	١٨	٢٩	٤٣	٦٧,٤

وفي جدول (٢١) يلاحظ ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية للعمل بين الطبيعيات وانخفاض المشاكل بسبب الدور الاخر في البيت او بسبب كونها امرأة، وكذلك انخفاض نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة.

جدول رقم (٢٢)

نوع المشاكل او الدراسة	عصابيات متعلمة + غير	طبيعيات متعلمة + غير	متعلمات عصابية + طبيعية	غير متعلمات عصابية + طبيعية	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٦٠,٥	٢٥,٥	٥٦,١	٣٨,٥	٤٨,٢
العمل لا يرضي طموحها (او الدراسة)	٦٧,٥	٢٣,١	٤٠,٣	٦١,٤	٥٠,٨
مشاكل بسبب دورها الاخر في البيت	٨٧,٣	٢٥,٥	٥٩,٦	٦٨,٤	٦٤
مشاكل اقتصادية	٥٩,١	٦٧,٤	٣٣,٣	٩١,٢	٦٢,٢

في جدول (٢٢) يلاحظ ان اعلى نسبة للمشاكل الاقتصادية بين غير المتعلمات وان اعلى نسبة للمشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين العصابيات، وان العمل لا يرضي طموح العصابيات بنسبة اكبر من الطبيعيات، وكذلك تواجه العصابيات مشاكل في العمل بسبب كونها امرأة اكثر من الطبيعيات، ويلاحظ ايضا ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين غير المتعلمات وكذلك ارتفاع نسبة عدم ارضاء العمل لطموح غير المتعلمات.

مشاكل الزواج:

جدول رقم (٢٣)

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٢٣	٣١	١٥	٢١	٩٠	١١٩	٧٥,٦
سيطرة الزوج	٢٨	٣٢	١٧	٢٢	٩٩	١١٩	٨٢,٣
عدم مساعدة الزوج في اعمال البيت والاطفال	٣١	٣٥	١٧	٢٢	١٠٨	١١٩	٩٠,٧
عدم الاشباع الجنسي	٣١	٢٩	١٤	١٧	٩١	١١٩	٧٦,٣
علاقات جنسية خارج الزواج	١٠	٦	٣	١	٢٠	١١٩	١٦,٧
لا تتزوج زوجها مرة اخرى لو عادت السنين إلى الوراء	٢٩	٣٤	١٨	٢٠	١٠١	١١٩	٨٤,٨

مشاكل الزواج: يلاحظ من الجدول رقم ٢٣ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج لاعمال البيت والاطفال بصفة عامة (٩٠,٧ بالمئة) وكذلك ارتفاع نسبة عدم التوافق الزوجي وسيطرة الزوج، ويلاحظ ايضا انخفاض نسبة العلاقة الجنسية خارج الزواج رغم ارتفاع نسبة عدم الاشباع الجنسي.

جدول رقم (٢٤)

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٢٣	٣١	٥٤	٧٥	٧٠,٦٪
سيطرة الزوج	٢٨	٣٢	٦٠	٧٥	٧٨,٦٪
عدم مساعدة الزوج	٣١	٣٥	٦٦	٧٥	٨٨٪
عدم الاشباع الجنسي	٣١	٢٩	٦٠	٧٥	٧٨,٦٪
علاقات خارج الزواج	١٠	٦	١٦	٧٥	٢١,٣٪
لا تتزوج زوجها مرة اخرى	٢٩	٣٤	٦٣	٧٥	٨٤٪

يلاحظ في الجدول رقم ٢٤ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج، وعدم التوافق الزوجي بين العصابيات.

جدول رقم (٢٥)

مشاكل الزواج	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغيرُ حب	٢٣	١٥	٣٨	٥٨	٦٥,٥٪
سيطرة الزوج	٢٨	١٧	٤٥	٥٨	٧٧,٥٪
عدم مساعدة الزوج	٣١	١٧	٤٨	٥٨	٨٢,٥٪
عدم الاشباع الجنسي	٣١	١٤	٤٥	٥٨	٧٧,٥٪
علاقات خارج الزواج	١٠	٣	١٣	٥٨	٢٢,٤٪
لا تتزوج زوجها مرة اخرى	٢٩	١٨	٤٧	٥٨	٨١٪

يلاحظ من الجدول رقم ٢٥ ارتفاع نسبة عدم التوافق الزوجي ايضا بين المتعلمات وعدم مساعدة الزوج لزوجته في اعمال البيت والاطفال.

جدول رقم (٢٦)

مشاكل الزواج	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	١٥	٢١	٣٦	٤٤	٨١,٨٪
سيطرة الزوج	١٧	٢٢	٣٩	٤٤	٨٨,٦٪
عدم مساعدة الزوج	١٧	٢٢	٣٩	٤٤	٨٨,٦٪
عدم الاشباع الجنسي	١٤	١٧	٣١	٤٤	٧٠,٤٪
علاقات خارج الزواج	٣	١	٤	٤٤	٩٪
لا تتزوج زوجها مرة اخرى	١٨	٢٠	٣٨	.٤٤	٨٦,٣٪

وفي جدول (٢٦) يلاحظ ارتفاع نسبة من تزوجن بغير حب بين الطبيعيات وانخفاض نسبة العلاقات خارج الزواج (٩٪).

جدول رقم (٢٧)

مشاكل الزواج	غير متعلمات عصابيات	غير متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٣١	٢١	٥٢	٦١	٨٥,٢٪
سيطرة الزوج	٣٢	٢٢	٥٤	٦١	٨٨,٥٪
عدم مساعدة الزوج	٣٥	٢٢	٥٧	٦١	٩٣,٤٪
عدم الاشباع الجنسي	٢٩	١٧	٤٦	٦١	٧٥,٥٪
علاقات خارج الزواج	٦	١	٧	٦١	١١,٤٪
لا تتزوج زوجها مرة اخرى	٣٤	٢٠	٥٤	٦١	٨٨,٥٪

مقارنة النسب المئوية :

جدول رقم (٢٨)

مشاكل الزواج	عصبيات متعلمة + غير متعلمة	طبيعيات متعلمة + غير عصبية	متعلمات - طبيعية - عصبية	غير متعلمات عصبية - طبيعية	النسبة المئوية
تزوجت بغير	٧٠.٦	٨١.٨	٦٥.٥	٨٥.٢	٧٥.٦
سيطرة الزوج	٧٨.٦	٨٨.٦	٧٧.٥	٨٨.٥	٨٢.٣
عدم مساعدة الزوج	٨٨	٨٨.٦	٨٢.٥	٩٣.٤	٩٠.٧
عدم الاشباع الجنسي	٧٨.٩	٧٠.٤	٧٧.٥	٧٥.٤	٧٦.٣
علاقات خارج الزواج	٢١.٣	٩	٢٢.٤	١١.٤	١٦.٧
لا تتزوج زوجها مرة اخرى	٨٤	٨٦.٣	٨١	٨٨.٥	٨٤.٨

في جدول (٢٨) يلاحظ ان هنـاك تقـاربـا في النسب بين العصـابيات وبين المتعلمات بصفة عامة وتقاربا بين الطبيعيات وبين غير المتعلمات. ان الطبيعيات وغير المتعلمات يتزوجن بغير حب بنسبة اكبر من العصابيات والمتعلمات. وتزيد ايضا نسبة سيطرة الـزوج وعـدم مساعدته في اعمال البيت والاطفال في حالة الطبيعيات وغير المتعلمات، وتقل بينهن العلاقات الجنسية خارج الزواج عن العصابيات والمتعلمات، ويكاد يتساوى الجميع في عدم الاشباع الجنسي وفي عدم الزواج بازواجهن مرة اخرى لو عادت السنين الى الوراء.

وانني اعتقد هنا ان النسبة الدالة على العلاقات خارج الزواج اقل من الحقيقة بعض الشيء، لأني احسست ان بعض النساء كن يتحرجن من الاعتراف بمثل هذه العلاقات رغم انني كنت اطمئنهن انني لا احكم عليهن اخلاقيا على الاطلاق، وقد استطعت ان احصل على بعض الاعترافات عن طريق الاسئلة غير المباشرة، وكذلك الحال في موضوع الاشباع الجنسي فقد كانت بعض النساء وبالذات غير المتعلمات

يخجلن او يجهلن معنى الاشبـاع الكامل. واقتضى الامر مني تنويع الاسئلة حتى احصل على المعلومات الصحيحة بقدر الامكان.

جدول رقم (٢٩)

مقارنة حياتها بحياة امها	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
حياتها افضل من حياة امها	٤٣(٨٦٪)	٣٨(٧٦٪)	٢١(٧٠٪)	١٤(٤٦,٦٪)
حياة امها افضل من حياتها	٧(١٤٪)	١٢(٢٤٪)	٩(٣٠٪)	١٦(٥٣,٤٪)
المجموع	٥٠	٥٠	٣٠	٣٠

يتضح من الجدول رقم (٢٩) ان العصابيات يفضلن حياتهن على حياة امهاتهن اكثر من الطبيعيات وان المتعلمات يفضلن حياتهن على حياة امهاتهن اكثر من المتعلمات.

جدول رقم (٣٠)

استخدام وسائل منع الحمل	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
تستخدم وسائل منع الحمل	٢٩	١٧	١٥	١٠
لا تستخدم وسائل منع الحمل	٨	٢١	٦	١٣
المجموع	٣٧	٣٨	٢١	٢٣

وفي جدول (٣٠) يلاحظ ان العصابيات المتعلمات اكثر استخداما لوسائل منع الحمل من الطبيعيات وان الزوجات غير المتعلمات اقل استخداما لوسائل منع الحمل من المتعلمات.

جدول رقم (٣١)

ممارسة الجنس قبل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
مارست الجنس قبل الزواج	٣٨(٧٦٪)	٢٩(٥٨٪)	٨(٢٦,٦٪)	٣(١٠)
لم تمارس الجنس قبل الزواج	١٢	٢١	٢٢	٢٧
المجموع	٥٠	٥٠	٣٠	٣٠

يتضح من الجدول رقم (٣١) ارتفاع نسبة ممارسة الجنس قبل الزواج بين العصابيات عنه بين الطبيعيات، وبين المتعلمات عنه بين غير المتعلمات.

واني اعتقد ان هذه الأرقام اقل من الحقيقة ايضا، بسبب تحرج المرأة عامة من الاعتراف بمثل هذه الممارسة قبل الزواج لتعلقها بالشرف والاخلاق، ولكني كنت اشجع الواحدة منهن على فتح قلبها لي والاعتراف بمثل هذه الممارسات، ولم يكن ذلك سهلا في جميع الحالات، ولكني كنت امهد لمثل هذه الاعترافات بحديث طويل عن فضيلة الصدق، وعن انني أحترم المرأة طالما انها صادقة، مدركة لمسؤوليتها. ويتضح من الجدول ان (٧٦٪) من العصابيات المتعلمات مارسن الجنس قبل الزواج. وهو اعلى نسبة في المجموعات الأربع، ويتضح هنا ايضا ان العصابية غير المتعلمة اكثر قربا من صفاتها للعصابية من الطبيعية غير المتعلمة. ان المرأة العصابية غير المتعلمة تمارس الجنس قبل الزواج هنا بنسبة ٥٨٪ وهي اعلى بكثير من زميلتها غير المتعلمة الطبيعية حيث تكون النسبة ٢٦,٦ بالمئة فقط.

الاسباب الرئيسية للعصاب:

امكن تجميع الاسباب الرئيسية للاصابة بالعصاب بين المجموعتين المتعلمة وغير المتعلمة كالآتي:

١ ـ سيطرة الزوج أو الاب أو الاخ أو رجل آخر من الاسرة.
٢ ـ الفشل في تحقيق الذات أو الطموح في الحياة.
٣ ـ الفشل في الحياة العاطفية أو الزوجية أو دور الزوجة والام في البيت.
٤ ـ عدم الاشباع الجنسي.
٥ ـ اسباب اخرى (مثل سيطرة الام او الحماة ـ ازمة اقتصادية ـ اضطهاد في العمل).

جدول رقم (٣٢)

السبب الرئيسي للعصاب	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع
سيطرة الرجل في الاسرة	١١ـ٢٢٪	١٨ـ٣٦٪	٢٩
الفشل في تحقيق الذات او الطموح	١٥ـ٣٠٪	١٣ـ٢٦٪	٢٨
الفشل في الحياة العاطفية او الزوجية او دور الزوجة والام	١٠ـ٢٠٪	١٢ـ٢٤٪	٢٢
عدم الاشباع الجنسي	٩ـ١٨٪	٤ـ٨٪	١٣
اسباب اخرى	٥ـ١٠٪	٣ـ٦٪	
المجموع	٥٠ـ١٠٠٪	٥٠ـ١٠٠٪	١٠٠

يلاحظ من الجدول رقم ٣٢ ان اعلى نسبة من العصابيات المتعلمات يمرضن بسبب الفشل في تحقيق الذات او الطموح (٣٠٪)، وان اعلى نسبة بين العصابيات غير المتعلمات يمرضن بسبب سيطرة الرجل في الاسرة (٣٦٪)، ويلاحظ ان المرأة غير المتعلمة اكثر حساسية لفشلها في الحياة الزوجية ودور الزوجة والام من المرأة المتعلمة، والمرأة المتعلمة اكثر حساسية لعدم الاشباع الجنسي من المرأة غير

المتعلمة، ويتضح بالنسبة للمجموعتين معا ان السبب الرئيسي الاول لاصابة المرأة بالعصاب هو سيطرة الرجل في الاسرة، يليه الفشل في تحقيق الذات أو الطموح يليه الفشل في الحياة العاطفية أو الزوجية ثم يأتي عدم الاشباع الجنسي.

أنواع العصاب:

جدول رقم (٣٣)

نوع العصاب	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع
قلق	٢٧-٥٤٪	٩-١٨٪	٢٩
اكتئاب	١٣-٢٦٪	١١-٢٢٪	٢٢
خوف	٥-١٠٪	١٤-٢٨٪	١٨
هستيريا	٢-٤٪	١٢-٢٤٪	١٣
اخرى	٣-٦٪	٤-٨٪	٧
المجموع	٥٠-١٠٠٪	٥٠-١٠٠٪	١٠٠

يلاحظ في الجدول رقم (٣٣) ان القلق اكثر انواع العصاب انتشاراً بين المتعلمات (٥٤٪) يليه الاكتئاب (٢٦٪)، اما الخوف والهستيريا فلا يمثلان الا نسبة ضئيلة (١٠٪)، (٤٪ على التوالي) وهذا على عكس مجموعة غير المتعلمات اذ يلاحظ ان الخوف والهستيريا يمثلان أعلى النسب (٢٨٪، ٢٤٪ على التوالي) يليهما الاكتئاب (٢٢٪) اما القلق فلا يمثل الا (١٨٪) من الحالات.

ولكن بالنسبة للمجموعتين معا فان القلق عامة يمثل اكثر الحالات بين النساء (٢٩٪)، يليه الاكتئاب (٢٢٪) ثم الخوف (١٨٪) وفي النهاية الهستيريا (١٣٪).

مناقشة نتائج البحث

ان ارتفاع نسبة الاصابة بالعصاب بين الفتيات والنساء يدل على ان النساء في مجتمعنا المصري يتعرضن لصراعات وتناقضات متعددة، وعلى الاخص النساء المتعلمات اللائي خرجن للتعليم والعمل وأصبح لهن وعي جديد ودور جديد بالاضافة إلى الدور التقليدي القديم.

وبالرغم من ان المجتمع المصري كأي مجتمع اخر تغزوه الافكار الجديدة عن تعليم المرأة وعملها في المجتمع وحريتها الا انه ما زال يخضع لكثير من التقاليد القديمة مثل وضع المرأة الادنى في الاسرة. وفي هذه الفترات الانتقالية، التي يجمع فيها المجتمع بين الجديد والقديم يتعرض الناس لصراعات نفسية، وخاصة النساء، حيث ان موقف المجتمع من المرأة أشد تعنتاً من موقفه من الرجل، وحيث ان دور الرجل لم يتغير، والقيم الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية في المجتمع لا زالت تميل إلى جانب الرجل.

وتزداد حدة الصراعات في حياة المتعلمة الواعية بحقوقها الجديدة اكثر من المرأة غير المتعلمة غير الواعية بهذه الحقوق. وتزداد هذه الصراعات ايضاً في حياة المرأة المتعلمة العاملة لان المجتمع لم يهيأ بعد (اجتماعياً واخلاقياً وتربوياً ونفسياً) لدور المرأة المتعلمة العاملة.

وما زال المجتمع بصفة عامة ينظر إلى دور المرأة في البيت (كزوجة وام) على انه دورها الاساسي في الحياة أو دورها الوحيد المسموح به، أما عملها خارج البيت فليس الا من اجل تخفيف الاعباء الاقتصادية عن كاهل رب الاسرة في الحياة وهو خدمة الزوج والاطفال في البيت.

.والمرأة المصرية العاملة خارج البيت عليها ان تؤدي واجباتها داخل البيت ايضا دون تقصير او اهمال والا تعرضت للوم او العقاب (قد يصل الامر إلى الطلاق)، وبالرغم من ان المرأة العاملة تشارك الرجل مسؤولية الانفاق على الاسرة إلا ان الرجل المصري لا يشاركها مسؤولية الاعمال داخل البيت، ويعتبر ان مثل هذه الاعمال المنزلية لا تليق بكرامته كرجل.

والمرأة العاملة هنا هي المرأة التي تعمل في المصانع او المكاتب او المهن المختلفة، اما المرأة العاملة في الحقل (الفلاحة المصرية) فهي تخرج لتعمل في الحقل

منذ آلاف السنين وهي تجمع بين عملها داخل البيت وخارجه، وهي تعمل خارج البيت بغير اجر تحت سيطرة زوجها ولحسابه ولا تتقاضى عن عملها اجراً شهرياً مستقلاً عن الزوج،والاغلبية الساحقة من الفلاحات المصريات اميات يجهلن القراءة والكتابة.

ويلعب التعليم والعمل باجر في حياة المرأة دوراً كبيراً في مساعدتها على ان ترفض وضعها الادنى في الاسرة. وان ترفض التقاليد العتيقة التي تنظر اليها كوعاء لانجاب الاطفال او طاعة الزوج. وعلى ان تصبح انسانة لها طموح فكري ونفسي في الحياة يزيد عن غسل الصحون وارضاء الزوج. ولهذا السبب تزيد المشاكل النفسية ومرض العصاب بين النساء المتعلمات عنها بين النساء غير المتعلمات.

وقد وجدنا من نتائج البحث أن ٦٣ بالمئة من النساء المتعلمات الطبيعيات تمنين في فترة من حياتهن ان يكن ذكوراً، وهذه النسبة تكاد تكون ضعف مثيلاتها بين النساء غير المتعلمات. ومن هنا يتضح ان التعليم يلعب دوراً كبيراً في اشعار الفتاة بالتفرقة القائمة بين الجنسين في معظم الاسر المصرية، ورفضها لهذه التفرقة وبالتالي رغبتها في ان تكون ذكراً لتتمتع بالامتيازات الاجتماعية والشخصية التي يتمتع بها الذكر. ولهذا لا يمكن لنا ان نتهم الفتاة التي تتمنى ان تكون ذكراً بالشذوذ او المرض النفسي او عقدة من العقد الفرويدية. ولكن علينا ان ندرس ظروفها الاجتماعية لندرك الفروق والامتيازات التي يحظى بها الذكور دون الاناث. وقد سبق ان وجدنا ان ٧٢ بالمئة من العصابيات المتعلمات تمنين ان يكن ذكوراً. وهذا يدل على ان التفرقة بين الجنسين من العوامل التي تؤثر في نفسية الفتاة، وتدفعها إلى الرفض والتمرد أو إلى العصاب احياناً.

وقد اعتبر فرويد واتباعه الفتاة التي تتمنى ان تكون ذكراً فتاة غير طبيعية. وارجع رغبتها إلى انها تنشد عضو الذكر الذي ينقصها. وقد اثبت علماء النفس من بعد فرويد خطأ هذه الافكار. واهمهم في هذا المجال هي الطبيبة النفسية كارين هورني التي عارضت فرويد في هذه الفكرة وقالت ان البنت تتمنى ان تكون ذكراً لتحصل على الامتيازات الاجتماعية التي يحصل عليها الذكر وليس لانها تنشد العضو الذكري.

وخلال حديثي مع المرأة او الفتاة التي تجيب بانها تمنت ان تكون ذكراً في وقت ما من حياتها، كنت اسألها لماذا تمنيت ذلك... وكانت الاجابة في معظم الحالات تؤكد ان الامتيازات الاجتماعية او الاقتصادية او الاخلاقية هي السبب الرئيسي.

وقد اتضح من نتائج البحث ان الحرمان العاطفي في الطفولة وحده ليس كافياً لان يسبب العصاب. ولكن لا بد من تعرض الفتاة او المرأة لعوامل اخرى في مراهقتها او شبابها لكي تصاب بالعصاب. وهناك كثير من اطباء النفس الذين يعتقدون (بسبب تاثير فرويد) ان مشاكل الطفولة هي التي تسبب المرض، ولهذا ما ان تجلس المريضة أمام الطبيب منهم حتى يسرع بالسؤال عن الصدمات النفسية التي شعرت بها في طفولتها.. ويظل يلح بالاسئلة حول مرحلة الطفولة محاولاً الكشف عن أسباب المشكلة الحالية لهذه المرأة في ماضيها البعيد. وذلك بالبحث عن أي خيالات طفولية جنسية قد تقوده إلى عقدة الكترا أو أوديب.

وقد ذكرت لي احدى طالبات الجامعة المتزوجات التي كانت تتردد على احد اطباء النفس للعلاج: «في كل مرة كان يسألني عن طفولتي وعما إذا كنت حسدت اخي لانه يملك عضواً لا املكه، ولم اكن افهم اي معنى لسؤاله، في حين انني كنت استطيع ان اقول له في نصف دقيقة انني يمكن ان اشفى تماماً لو ان زوجي تركني اكمل تعليمي الجامعي ولم يضربني كل يوم بعد عودتي من الكلية» .

وقالت لي فتاة اخرى: كان الطبيب يسألني اسئلة كثيرة بعيدة عن مشكلتي الحقيقية، في حين ان مشكلتي كانت ان اخي الاكبر يضربني بسبب وبغير سبب ويهددني بحبسي في البيت إذا لم اسرق له النقود من امي.

وهناك كثير من الاطباء ايضاً ممن يعتقدون ان العصاب مرض وراثي او انه يرجع إلى ضعف معين في الجهاز العصبي يورث عن طريق الكروموسومات وعلاقات الدم، لكني بسؤالي عن وجود اي تاريخ لمرض عصابي في اسرة الاب أو الام اجابت ٩٦ امرأة من العصابيات بالنفي واجابت الاربع الباقيات بان هناك قريباً في الاسرة كان مريضاً بمرض نفسي. وقالت لي احدى هؤلاء الاربع: «سألني الطبيب كثيراً عن جدتي التي قلت له انها كانت تشكو من مرض عصبي، وقلت للطبيب ان مشكلتي الحالية لا علاقة لها بجدتي التي ماتت منذ سنين لكنه كان يصر دائماً على ان متاعبي النفسية الحالية لها علاقة بالماضي اكثر مما لها علاقة بالحاضر. ولم اكن اقتنع بمنطق الطبيب، لانه كان يشبه منطق أمي التي كنت كلما شكوت لها من العذاب الذي اعيشه مع زوجي تقول لي في هدوء (اصبري يا ابنتي فسوف يعوض الله صبرك خيراً في الآخرة)، كان منطق أمي أن العلاج الوحيد لحالتي لن يكون الا في الآخرة بعد ان اموت، أما الطبيب فكان يرى ان السبب الوحيد لحالتي قد حدث قبل ان اولد..

وكلاهما لم يكن يهتم بالمشكلة الحقيقية في حياتي الحاضرة وهي زوجي».

وقد استمتعت كثيراً بالحديث إلى مثل هؤلاء النساء العصابيات الذكيات. فقد كان لبعضهن قدرة نادرة على السخرية الذكية الواعية. وكانت الواحدة رغم مشاكلها النفسية اكثر وعياً باسباب مشاكلها من الطبيب الذي يعالجها، لكنها لم تكن تجد أي شخص آخر تلجأ اليه الا الطبيب النفسي. وقد اقتنعت بعد فحصي لحياة هؤلاء النساء والفتيات بان سيطرة الزوج على زوجته او ضرب الاب لابنته يسبب العصاب للمرأة اكثر مما تسببها الوراثة أو الكروموسومات.

وقد اتضح من نتائج البحث ان نسبة ممارسة العادة السرية أو المداعبات الجنسية في مرحلة الطفولة اكثر ارتفاعاً بين النساء العصابيات (٦٤ بالمئة) عنها بين النساء الطبيعيات (٢٠ بالمئة). وقد وجدت ان سبب ذلك هو ان المرأة العصابية اكثر جرأة في تمردها على التقاليد والنظم المفروضة عليها، وانها في ممارسة الجنس اكثر جرأة واقل كبتاً من المرأة الطبيعية. وإذا عرفنا ان جميع الاطفال لهم حياتهم الجنسية الطبيعية من حيث المداعبات أو غيرها فاننا ندرك ان احجام المرأة الطبيعية عن مثل هذه المداعبات (سواء كان هذا الاحجام صحيحاً او لمجرد الخوف من التصريح بمثل هذه الافعال الجنسية في هذه السن المبكرة) ليس صفة طبيعية بقدر ما هو الخوف او الكبت بسبب التربية القائمة على التحذير والتخويف. او بسبب عملية الختان التي اجريت على نسبة (٩٠ بالمئة) من النساء والفتيات الطبيعيات مقابل (٧٧ بالمئة) في النساء العصابيات. ففي هذه العملية تم استئصال البظر من جسم الفتاة قبل أن تبلغ سن الرشد (قبل مجيء الدورة الشهرية) وذلك بين سن الخمس سنوات والتسع سنوات في معظم الحالات. وقد اتضح لي من مناقشة النساء والفتيات حول هذه العملية ان معظمهن لا يعرفن شيئاً عن مضارها. وبعض منهن يتصورن انها عملية صحية من اجل النظافة والطهارة (تسمى العملية باللغة العامية: الطهارة) وبالرغم من ان نسبة اجراء هذه العملية بين النساء المتعلمات اقل منها بين النساء غير المتعلمات (٦٦,٢ بالمئة مقابل ٩٧,٥ بالمئة) الا ان معظم النساء المتعلمات اللائي تحدثت معهن لم يفطن إلى آثار العملية على صحتهن النفسية او الجنسية. وقد كان الحوار يدور بيني وبين المرأة او الفتاة على النحو التالي:

ـ هل اجريت لك عملية الختان (الطهارة)؟

ـ نعم.

ـ كم كان عمرك في ذلك الوقت؟
ـ كنت طفلة، حوالي سبع أو ثماني سنوات.
ـ هل تذكرين كيف حدثت العملية؟
ـ بالطبع، لا يمكن ان انسى.
ـ هل شعرت بخوف؟
ـ بالطبع، وقد اختفيت منهم فوق الخزانة (او في حالات اخرى تحت السرير او عند الجيران...) لكنهم امسكوني وانا ارتعد من الخوف.
ـ هل شعرت بالم؟
ـ بالطبع، كان الالم مثل النار وصرخت وكانت امي تمسك رأسي كي لا أحركه وخالتي تمسك ذراعي اليمنى، وجدتي تمسك ذراعي اليسرى، وامرأتان غريبتان لم ارهما من قبل كل واحدة منهما تمسك ساقاً وتشده بكل قوتها بعيداً عن الساق الاخرى، أما الداية فقد جلست بينهما ومعها الموسى التي قطعت بها البظر. ومن شدة الالم والذعر فقدت الوعي بعد لسعة الالم الشديدة مثل النار.

ـ ماذا حدث بعد العملية؟
ـ شعرت بآلام شديدة في جسدي وظللت في السرير اياماً لا استطيع السير واحتبس البول فترة من شدة الالم اثناء التبول، وظل الجرح ينزف وامي تضع عليه شاشاً وقطناً حتى التأم الجرح.

ـ ماذا كان شعورك حين علمت انك فقدت عضواً من اعضاء جسمك؟
ـ لم اكن اعرف شيئاً عن هذه العملية سوى انني سمعت من امي انها عملية بسيطة جداً وتجري لكل البنات من اجل الطهارة والنظافة وحسن السمعة وان البنت التي لا تطهر بهذه العملية تصبح عرضة لالسنة الناس، وتسوء اخلاقها، وتجري وراء الرجال، ولا يقبل على الزواج منها اي احد. وسمعت من جدتي ان العملية ليست الا ازالة قطعة صغيرة جداً من اللحم بين فخذي، وان بقاء هذه القطعة الصغيرة في جسدي يجعله قذراً ومدنساً وقبيح المنظر ينفر الرجل الذي سيتزوجني.

ـ هل صدقت هذا الكلام؟
ـ بالطبع صدقته، وفرحت بعد شفائي من العملية واحسست انني تخلصت من شيء كان لا بد ان اتخلص منه، وانني اصبحت نظيفة وطاهرة.

كانت هذه اجابة معظم الحالات، متعلمات وغير متعلمات، وكانت احدى

الحالات طالبة بكلية طب عين شمس بالسنة النهائية، وكنت اتوقع انها ستقول لي كلاماً مختلفاً، لكن اجابتها كانت مشابهة للاجابة السابقة. ودار بيني وبينها حوار اذكره على النحو التالي ,

ـ ولكنك ستصبحين طبيبة بعد عدة اسابيع فكيف يمكن ان تصدقي ان قطع البظر من جسد الفتاة امر صحي او على الاقل غير ضار؟

ـ هذا هو ما سمعته من كل الناس، وكل بنات اسرتي تجرى لهن عملية الختان وانا درست التشريح والطب ولكن لم اسمع أحداً من الاساتذة يشرح لنا فائدة البظر في جسد المرأة ولم أقرأ شيئاً عن ذلك في أي كتاب.

ـ هذا صحيح، فان علوم الطب ليس من بينها علم الجنس حتى اليوم واعضاء المرأة الجنسية هي الاعضاء التناسلية فقط (الرحم والمهبل والمبيضان) أما البظر فهو عضو يهمله الطب كما يهمله المجتمع.

ـ اذكر ان احد الطلبة سأل الاستاذ مرة عن البظر فاذا بوجه الاستاذ يحمر ويرد عليه بغلظة قائلاً ان احداً لم يسأله في الامتحان عن هذا وليس لهذا العضو اهمية تذكر. .

وقد حاولت ان اعرف أثر هذه العملية على حياة النساء والفتيات النفسية او الجنسية، وقد اجابتني معظم الطبيعيات (اللائي كن اكثر شعوراً بالخجل والحرج تجاه مثل هذه الاسئلة من العصابيات) بان العملية لم تؤثر عليهن في شيء. ولم اكن اكتفي بهذه الاجابة وكنت اسأل كل واحدة عن حياتها الجنسية قبل عملية الختان وبعدها وكان الحوار بيني وبين المرأة يدور على هذا النحو:

ـ هل شعرت بأي تغيير في مشاعرك او رغباتك الجنسية بعد عملية الختان؟
ـ كنت طفلة صغيرة ولم اكن اشعر بشيء.
ـ ألم تكن لك رغبة جنسية وانت طفلة؟
ـ لا، ابداً، وهل الاطفال لهم رغبات جنسية؟

ـ الاطفال يشعرون بلذة حين يلمسون اعضاءهم وتحدث بينهم في سن مبكرة مداعبات جنسية، يلعبون عريس وعروسة تحت السرير معاً، ألم تلعبي عريساً وعروسة مع أصدقائك الاطفال؟

وهنا كان يحمر وجه المرأة او الفتاة، وقد تحرك عينيها بعيداً عن عيني حتى لا الحظ اضطرابها. وبعد مزيد من الحديث والفهم والطمأنينة تبدأ الواحدة منهن تحكي عن ذكرياتها وهي طفلة، وانها شعرت بلذة جنسية حين كان يداعبها جنسياً رجل من افراد الاسرة، أو الخادم أو البواب اوالمدرس الخصوصي أو ابن الجيران. وقالت لي طالبه جامعية ان اخاها الاكبر كان يداعبها وكانت تشعر بلذة، وانها فقدت هذه اللذة بعد عملية الختان. وذكرت لي امرأة متزوجة انها لا تشعر بأي لذة جنسية مع زوجها وان أخر عهدها باللذة كان منذ عشرين عاماً او اكثر حين كانت طفلة في السادسة قبل ان تجرى لها عملية الختان. وقالت لي فتاة انها مارست العادة السرية وهي طفلة ثم توقفت بعد ان اجروا لها عملية الختان وهي في العاشرة من عمرها، وبمزيد من التعمق في الاسئلة كانت المرأة منهن تفتح قلبها وتحكي أدق اسرارها في الطفولة والمراهقة. وقد لاحظت ان العصابيات اكثر استعداداً وأشد قدرة على التعبير والمصارحة في حديثهن معي. وكنت انفق مع المرأة الطبيعية ضعف الوقت تقريباً الذي انفقه مع المرأة العصابية من اجل الوصول إلى الاجابة الصريحة نفسها. وقد اصرت احدى النساء الطبيعيات المتعلمات انها لم تشعر باية رغبة جنسية وهي طفلة قبل عملية الختان ولا بعدها بل انها كانت تنفر من الذكور وتبتعد عنهم... وقد التقيت بهذه السيدة اكثر من مرة وفي احدى المرات قالت لي دون ان تدري ان هناك حادثاً معيناً لا تنساه منذ الطفولة، وشرحت لي كيف اخذها ابن عمها ذات يوم إلى سطح المنزل وجعلها تخلع السروال، وانها شعرت بلذة لكنها اصبحت تخاف منه، وأصبحت تخاف ان يشي بها لأمها أو لأبيها.

وقد استطعت لكوني امرأة وطبيبة ان احصل من هؤلاء النساء والفتيات على اعترافات قلما يحصل عليها باحث من الرجال. فالمرأة المصرية بحكم تربيتها الصارمة المرتكزة على انكار الحياة الجنسية للبنات قبل الزواج ترفض التصريح بانها عرفت شيئاً من هذا الجنس قبل الزواج وهي تخجل من الحديث في هذه الامور امام اي رجل حتى وان كان طبيبها المعالج.

وقد اتضح لي من مناقشة بعض اطباء النفس الذين كانوا يشرفون على علاج بعض النساء العصابيات في مجموعة بحثي، ان هؤلاء الاطباء يجهلون الكثير عن حياة المرأة أو الفتاة العصابية التي يشرفون على علاجها. وكان سبب ذلك اما ان الطبيب نفسه

لم يتعمق التعمق الكافي في حياة المرأة النفسية والجنسية. واما ان المرأة تحرجت من التصريح له بحقائق حياتها.

وقد وجدت من خلال مناقشتي لمعظم اطباء النفس في مجتمعنا المصري، ومن خلال عملي الطويل في الوحدات والمستشفيات العامة، من خلال كل ذلك وجدت ان مهنة الطب في مجتمعنا قاصرة حتى اليوم عن ادراك المشاكل الحقيقية الاساسية التي يعاني منها المريض سواء كان رجلاً او امرأة وبالذات إذا كانت امرأة. فان مهنة الطب كغيرها من المهن تخضع للقيم السياسية والاجتماعية والاخلاقية في المجتمع. بل انها كغيرها من المهن احد الاجهزة التي تستخدم احياناً لحماية هذه القيم والمحافظة عليها.

ويمثل الرجال الاغلبية العددية في مهنة الطب كغيرها من المهن، بالاضافة إلى الاغلبية العددية فان معظم النساء من الطبيبات لا يختلفن في افكارهن عن الرجال الاطباء، بل انني عرفت من الطبيبات من هن اكثر تزمتاً وتخلفاً في نظرتهن إلى المجتمع والحياة والناس والقيم السائدة.

وقد وجدت ان هذه النظرة المتزمتة المتخلفة وبالذات تجاه المرأة والجنس هي التي تسود مهنة الطب وعلى الاخص داخل كليات الطب بالجامعات.

وقد حاولت ان اجري هذا البحث نفسه في قسم الامراض النفسية بكلية طب قصر العيني بالقاهرة منذ سنوات لكني صادفت من العقبات ما جعلني اصرف النظر عن الفكرة. وكان اول هذه العقبات هي العقلية التقليدية السائدة لدى الاطباء المسؤولين عن البحوث. هذه العقلية التي ترى ان كلمة «جنس» مرادفة لكلمة «عيب» وان البحث العلمي المحترم يجب الا يخوض في مثل هذه المسائل. وقد صادفت العقبة نفسها في كلية طب عين شمس ونصحني احد الزملاء الاطباء في لجنة البحوث الا اشير بحرف واحد إلى كلمة «جنس» في اسم البحث حتى لا تعترض عليه لجنة البحوث، وكنت افكر في ان يكون عنوان بحثي «المشاكل التي تعترض الحياة الجنسيّة للمرأة المصرية»، وبعد مفاوضات طويلة مع بعض الزملاء الاطباء في طب عين شمس حذفت كلمة. «الجنسية» ووضعت مكانها كلمة «النفسية». وبذلك زالت الحساسية لدى الاطباء المسؤولين وتمت الموافقة على اجراء البحث في كلية طب عين شمس.

وهذا الكلام ليس خروجاً عن مناقشة نتائج البحث، بل انه في صلب الموضوع لانني بعد ان حصلت على تلك النسب المرتفعة من النساء والفتيات التي اجريت لهن عملية الختان في الطفولة او اللائي تعرضن في الطفولة لحوادث جنسية من رجال كبار، أصبحت ابحث في كليات الطب ومراكز البحوث عن بحوث سابقة اجريت في مثل هذه المجالات دون جدوى. فان احداً من الاطباء او الباحثين او الباحثات لم يقدم على بحث من هذا النوع، بسبب حساسية الموضوع، ولان معظم البحوث لم تكن الا بحوثاً شكلية من اجل الحصول على الشهادة او الترقية، واغلبية الباحثين والباحثات يبحثون عن طريق السلامة أو اقصر طريق للوصول إلى الهدف المنشود (الشهادة او الترقية) وليس هناك من يبحث عن المشاكل او الصراعات مع المسؤولين عن العلم او الدين او الاخلاق او الفضيلة، حيث ان كل هذه الاشياء مجتمعة تعاني من مرض الحساسية تجاه كلمة «جنس» وبالذات «الجنس» فيما يخص «المرأة».

الا انني بالرغم من كل ذلك فقد عثرت على بعض الاطباء من ذوي الشجاعة العلمية الذين شجعوني على اجراء البحث (منهم الدكتور احمد عكاشة والدكتور عادل صادق بكلية طب عين شمس)، بل انني ايضاً عثرت على بعض الاطباء من ذوي الشجاعة العلمية الذين اقدموا على اجراء البحث العلمي الوحيد في مصر عن ختان البنات وآثارة الضارة. وقد اجرى هذا البحث الدكتور محمود كريم والدكتور رشدي عمار سنة ١٩٦٥ في كلية طب عين شمس ويشتمل البحث على جزءين. الجزء الاول[١] وعنوانه ختان البنات واثره على الرغبة الجنسية عند المرأة. والجزء الثاني[٢] بعنوان مضاعفات ختان البنات. وكان من نتائج هذا البحث الذي اجري على ٦٥١ امرأة مختونة (تم اجراء عملية الختان لهن في الطفولة) مايلي:

(١) ان عملية الختان عملية ضارة بصحة المرأة، وهي تسبب صدمة جنسية للفتاة، ولها اثر مؤكد على اضعاف قدرة المرأة للوصول إلى قمة اللذة الجسدية (الاورجازم) ولها اثر اقل درجة على رغبة المرأة الجنسية.

(٢) ان التعليم يساعد على الاقلال من انتشار هذه العادة، حيث ان الآباء والامهات

---

(1) Female circumcision and Sexual Desire (Mahmoud Karim and Roshdi Ammar) Ain Shams University Press.. Cairo. U.A.R., 1965.

(2) Complications of Female circumcision (Karim and Ammar) Reprinted from the Gazette of the Egyptian Society of Gynaecology and Obstetrics. Vol. 15. No. 2, July 1965, Cairo.

المتعلمين اصبحوا يرفضون اجراء هذه العملية على بناتهم، اما الاسرة غير المتعلمة فلا تزال تختن بناتها خضوعاً للتقاليد السائدة او اعتقاداً بان هذه العملية تقلل من الرغبة الجنسية عند البنت بهدف المحافظة على عذريتها وعفتها.

(٣) ثبت خطأ الفكرة التي كانت تقول بان عملية الختان تمنع حدوث امراض سرطانية لاعضاء المرأة الجنسية الخارجية.

(٤) ان عملية الختان بجميع درجاتها وعلى الاخص الدرجة الرابعة المعروفة باسم النوع الفرعوني (الطريقة السودانية في الختان) تصاحبها مضاعفات مباشرة او بعد فترة من الزمن مثل النزيف، الالتهابات، اضطرابات في المجاري البولية، اكياس اواورام قد تسد مجرى البول او الفتحة التناسلية إلى غير ذلك.

(٥) وجد ان ممارسة العادة السرية لدى البنات «المختونات» أقل من النسبة التي ذكرها كينزي في بحثه عن البنات غير المختونات .

وقد التقيت بالدكتور محمود كريم في القاهرة وعرفت منه انه صادف كثيراً من العقبات اثناء اجراء هذه البحث، وانه تعرض لكثير من النقد من بعض الاطباء وبعض رجال الدين الذين يعدون انفسهم حماة الاخلاق، الذين يتصور بعضهم ان التعرض لمثل هذه الموضوعات مَسٌ بالاخلاق والتقاليد والدين.

وقد اتفقت بعض نتائج هذا البحث مع نتائج البحث الذي قمت به من حيث ان عملية الختان تحدث في حياة البنت صدمة نفسية وجنسية، وانها تصيبها بنوع من البرود الجنسي تختلف درجته من امرأة إلى امرأة ومن ظرف إلى ظرف. كما ان التعليم يساعد على احجام الأباء والامهات عن اجراء العملية لبناتهم. لكن التعليم (في رأيي) وبالذات التعليم التقليدي في المدارس والجامعات الذي يهدف إلى الحصول على الشهادة وليس الحصول على الثقافة. هذا التعليم الشكلي لا يستطيع الوقوف بقوة في وجه التقاليد الراسخة في المجتمع المصري، وبالذات التقاليد المتعلقة بالجنس وعذرية البنات وعفة النساء، لارتباط مثل هذه التقاليد بالقيم الاخلاقية والدينية الحساسة السائدة منذ مئات السنوات.

وحيث ان عملية الختان هدفها الاول والاخير هو ضمان عذرية البنت وضمان عفتها قبل الزواج وبعده فليس من المتوقع ان تنقرض هذه العملية بسهولة من المجتمع المصري (او غيره من المجتمعات التي تسود فيها القيم والتقاليد نفسها). الا ان كثيراً

من الاسر المتعلمة اصبحت تتنبه لمضار هذه العملية وتحمي بناتها منها، كما ان طريقة اجراء العملية اصبحت اقل وحشية، وانخفضت نسبة الطريقة الفرعونية بدرجات كبيرة في المجتمع السوداني وفي جنوب مصر، واصبح الاتجاه إلى التخفيف من درجة هذه العملية باستئصال البظر وحده او جزء من البظر فقط. وكنت قبل ان اجري هذا البحث اظن ان هذه العادة لا تعيش الا في الريف المصري وبين الاسر غير المتعلمة، لكني وجدت ان نسبة غير قليلة من الاسر المتعلمة في القاهرة لا تزال تؤمن باجراء هذه العملية كوسيلة لحماية البنت من الزلل.

وقد ايقنت خلال هذا البحث ان كثيراً من الاسر المتعلمة وغير المتعلمة لا تزال تؤمن بان القياس الوحيد لشرف البنت هو عذريتها ليلة الزفاف، وان معظم الرجال المصريين لا يتزوجون الا العذراء. وقد وجدت ان اكثر ما يهدد سمعة الاسرة أو شرفها هو سلوك بناتها ونسائها وحياتهن الجنسية التي يجب ان ترتكز اساساً على العفة والزهد. الا انني وجدت ان هذه التشدد الاخلاقي الظاهري يقابله تسيب اخلاقي في الخفاء. فالاب الذي يضرب ابنته لانها حادثت زميلاً لها يخون زوجته في معظم الاحيان. والاخ الذي يتظاهر بالتدين بالنهار يمد يده في الليل ليلمس جسد اخته الصغيرة.

ان الازدواجية الاخلاقية تقود بطبيعة الحال إلى التناقضات، وقد كنت ادرك من خلال عملي كطبيبة ان حوادث الاعتداء الجنسي على البنات والاطفال ليست بالقليلة في مجتمعنا لان مثل هذه الحوادث لا يدري عنها احد. وإذا ضبطت بالصدفة فان كثيراً من الاسر تكتم الامر حفاظاً على سمعة الاسرة وبناتها.

وقد وجدت في البحث ان نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية في الطفولة مرتفعة في حالة النساء غير المتعلمات عنها بين النساء المتعلمات، فالحالة الاقتصادية لغير المتعلمات بين النساء كانت اقل منها بين المتعلمات ونسبة المشاكل الاقتصادية اكثر ارتفاعاً في المجموعة غير المتعلمة، ومعظم هؤلاء يعيشون في بيوت صغيرة. وافراد مثل هذه الاسر كثيرة العدد كثيرة الانجاب. وقد يعيش في حجرة النوم الواحدة عدد من الاخوة الذكور والاخوات البنات. وقد يكون معهم ايضاً الاب والام. وفي مثل هذه الظروف تزيد نسبة العلاقات الجنسية السطحية وغير السطحية بين افراد الاسرة الواحدة. قالت لي واحدة من العاملات في احدى شركات الادوية: «كنت وانا طفلة ارقد بين ابي واخي. ولا اعرف في الليل من منهما الذي يمد يده ويلمس

جسدي، وكنت اتظاهر بالنوم خوفاً من امي التي كانت ثقيلة النوم لا تدري شيئا عما يحدث.

وقد وجدت ان نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية مع رجال كبار تبلغ ٤٥ بالمئة في حالة النساء غير المتعلمات (عصابيات وطبيعيات) أما في حالة الطبيعيات (متعلمات وغير متعلمات) فهذه النسبة ٣٥ بالمئة، وهي تزيد عن النسبة التي حصل عليها كينزي[1] في بحثه اذ وجد ان هذه النسبة هي ٢٤ بالمئة. واني لا استطيع مقارنة مثل هذه النسب في مجتمعات شديدة الاختلاف في الظروف الاجتماعية والثقافية كالمجتمع المصري والمجتمع الاميركي مثلاً كما ان هناك فارقاً زمنياً يبلغ عشرين عاماً بين بحث كينزي وهذا البحث. الا انني استطيع ان اقول ان مثل هذه الحوادث الجنسية مع رجال كبار تزداد في المجتمع او في الاسرة المكبوتة جنسياً، والتي ترتكز فيها التربية على انكار الجنس او احتقاره، وفي مثل هذا الجو المكبوت قد لا يجد الشخص وسيلة للتخلص من توتره الجنسي الا من خلال طفلة صغيرة ترقد بجواره على السرير. وهي تنتشر ايضاً في مجتمعنا المصري بسبب الوضع الادنى للفتاة والمرأة في الاسرة، والازدواجية الاخلاقية التي تسهل في مجتمعنا للرجل استغلال المرأة اجتماعياً أو اقتصادياً أو جنسياً، وفي حالة اعتدائه الجنسي عليها فانه يدرك انها تخاف الفضيحة اكثر مما يخاف هو، وانها رغم كونها الضحية الا انها هي التي تتحمل اثر الاعتداء لانها هي التي تفقد عذريتها او شرفها او سمعتها أما هو فلا يفقد شيئاً.

ان مفهوم الشرف مرتبط في المجتمع المصري بما يسمى «العِرض» او عذرية الفتاة قبل ان تتزوج، واخلاصها لزوجها وطاعته بعد الزواج. فاذا ما فقدت البنت عذريتها لاي سبب وان كان اغتصاباً رغم انفها فانها تصبح فتاة بغير عذرية او بغير شرف، وان شرف الاسرة او عرضها قد اصبح في الحضيض، وعلى رجال الاسرة ان يستردوا شرفهم الضائع اما بقتل الفتاة (كما يحدث في الصعيد احياناً) او بكتمان الامر (الذي يسمى فضيحة) وتزويجها في السر من الرجل الذي اعتدى عليها او اي رجل اخر يتطوع للزواج منها. ويعتبر هذا الرجل المتطوع شهماً مضحياً بنفسه من اجل انقاذ شرف الاسرة، وكأنه يتطوع للموت في الحرب مثلاً أو في كارثة وليس انه يقبل على الزواج من فتاة.

لكن الزواج من فتاة غير عذراء يعتبر حتى اليوم في مجتمعنا المصري أمراً مكروهاً

(1) Kinsay. Sexual Behavior in The Human Female. W.B. Saunders. 1953.

لا يقبله أي رجل. وإذا اكتشف الرجل ان عروسه ليست عذراء ليلة الزفاف فسرعان ما يطلقها فتنتشر الفضيحة والعار الذي يلحق بأسرة الفتاة، التي قد تكون بريئة تماماً من أي تجربة جنسية قبل الزواج، وانما شاء حظها العاثر الا تنزف ليلة الزفاف، او قادها حظها العاثر إلى زوج لا يعرف العذراء من غير العذراء، وهذا امر صعب لا يمكن ان يعرفه احد، وكم يجهل هذا الامر ايضاً معظم الاطباء، ولان العذرية لا تعرف الا بالنزيف الدموي ليلة الزفاف وكم من عذراوات لا ينزفن قطرة واحدة ليلة الزفاف، بسبب اختلاف اغشية البكارة واختلاف احجام اعضاء الرجال الجنسية وبسبب حوادث غير جنسية في حياة البنات او حوادث جنسية وقعت في طفولة البنت المبكرة مثل هذه الاعتداءات الجنسية من رجال الاسرة ذاتها او من الغرباء.

ويتضح من جدول ١٣ ـ ١٤ ان نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية في فترة المراهقة للعصابيات تبلغ ضعف النسبة للطبيعيات (٤١ بالمئة مقابل ٢٠ بالمئة) وقد كانت معظم هذه المشاكل بسبب الممارسات الجنسية قبل الزواج والخوف من فقدان العذرية او فقدانها فعلاً او الخوف من الحمل او التعرض للحمل فعلاً ومحاولة الاجهاض بشكل أو بآخر. ذكرت لي احدى الطبيعيات انها فقدت عذريتها لكنها ذهبت إلى طبيب فأعاد لها العذرية بعملية صغيرة نظير مائة جنيه، ثم تزوجت وهي تعيش سعيدة مع زوجها. احدى العصابيات قالت انها فقدت عذريتها لكنها لم تذهب إلى طبيب وتزوجت وصارحت زوجها بالحقيقة لكنه فضحها عند اسرتها ومنذ ذلك الوقت وهي تعاني من العصاب. وقد استمعت إلى مشاكل متعددة من هذا النوع وحينما كنت اسأل المرأة او البنت عن حياتها الجنسية قبل الزواج كانت تتردد كثيراً في التصريح واني اعتقد ان هذه النسب التي حصلت عليها اقل من الحقيقة وهي تعتبر نسباً منخفضة إذا قورنت بمثيلاتها في المجتمعات الاخرى. وبالطبع لا بد من مراعاة الفروق في الظروف الاجتماعية والثقافية عند مقارنة مثل هذه النسب في مجتمعات مختلفة. وتقول الدراسات الجنسية في بلد مثل بولندة (Hanna Malewska) ان ٧٩ بالمئة من الاناث كانت لهن علاقات جنسية قبل الزواج في سن السادسة عشرة او ما حولها. وفي دراسة اخرى Mikolaj Kozakicwica فقد وجد ان ٥٠,٩ بالمئة من الاناث كانت لهن علاقات جنسية قبل الزواج[1]. اما في المجتمع الاميركي او المجتمع السويدي فان العلاقات الجنسية

---

(1) Booklet of I.P.P.F Europe And Near East Tegion Tgeional Council Sex EducationSeminar Baden Vienna 6-8 October 1970. P. 8.

قبل الزواج اصبحت هي القاعدة سواء في حالة الذكور او الاناث. وقد اصبح المجتمع السويدي في السنين الاخيرة يفصل بين الجنس والزواج.

وقد ظهر من نتائج البحث ان اغلبية الاسر في المجموعات الأربع تفضل الذكور على الاناث (٧٢,٥ بالمئة في المتوسط) لكنها تزيد في الاسر غير المتعلمة عنها في الاسر المتعلمة. وتزيد نسبة النساء والفتيات اللائي تمنين ان يكن ذكوراً في المجموعة المتعلمة عنها في المجموعة غير المتعلمة. ذلك ان التعليم يزيد من وعي الفتاة بحقوقها فتصبح اكثر ادراكاً لظاهر التفرقة بينها وبين اخيها ويزداد تمردها على الوضع الادنى وتتمنى ان تكون ضمن الجنس الاعلى. ويلعب التعليم دوراً ايضاً في تشجيع الفتاة أو المرأة على مقاومة الكبت ويجعلها اكثر جرأة في ممارسة الجنس او محاولة ارضاء رغبتها الجنسية او الفكرية. فقد لوحظ ارتفاع نسبة الطموح الفكري وتفضيل التعليم على الزواج بين المتعلمات (٨٦,٢ بالمئة).

ويدل ارتفاع نسبة تفضيل التعليم عن الزواج في المجموعات الأربع ان الطموح الفكري والرغبة في التعليم والعمل وتحقيق الذات من خلال العمل المنتج (وليس من خلال الزواج) هو صفة طبيعية في المرأة لا تغير من كونها انثى. وانها حين يفرض عليها الزواج كوظيفة وحيدة في الحياة تشعر بالاحباط والنقص وعدم تحقيق الذات وتتعرض للمشاكل النفسية وللعصاب. وقد اتضح من نتائج البحث ان المرأة العصابية اكثر طموحاً في الحياة من المرأة الطبيعية. وانها تشعر بكونها انسانة لها عقل وجسد اكثر من المرأة الطبيعية التي تقتل طموحها الفكري في الحياة من اجل الزواج او النجاح في حياتها الزوجية.

وحيث ان المجتمع لا زال ينظر إلى ان الوظيفة الاساسية للمرأة في الحياة هي الزواج، ولهذا تواجه المرأة الطموحة فكرياً العراقيل والصعاب التي تقودها احياناً إلى العصاب. وتواجه المرأة الصعابية المشاكل الجنسية والمشاكل الاسرية اكثر من المرأة الطبيعية بسبب رغبة المرأة العصابية في الانطلاق والتساوي مع الرجل في الحرية الاجتماعية والشخصية، وهي مطلب طبيعي للمرأة التي تشعر بانسانيتها وتكامل شخصيتها كجسم وعقل، أما المرأة الطبيعية فان قبولها للامر الواقع وتكيفها معه يجعلها اكثر استسلاماً للقيود الجنسية والاجتماعية والاسرية، وبالتالي اقل مواجهة للمشاكل والعصاب من المرأة غير المكبوتة أو العصابية.

وقد لوحظ في نتائج هذه الدراسة ارتفاع نسبة المشاكل داخل الاسرة بين

المتعلمات العصابيات (٤٦ بالمئة) عنها بين المتعلمات الطبيعيات (١٣,٣ بالمئة) وهذا يشير إلى ان المشاكل الاسرية خلال فترة المراهقة اكثر تأثيراً على نفسية الفتاة من الحرمان العاطفي خلال مرحلة الطفولة. وقد يكون سبب ذلك ان القيود والكبت والتحذيرات تزيد على الفتاة في سن المراهقة عنها في مرحلة الطفولة، وان الطفلة البنت تتمتع بحرية اجتماعية اكثر من الفتاة المراهقة، ولهذا تزيد وطأة المشاكل الاسرية على الفتاة المراهقة، اكثر من الطفلة البنت، وتشعر الفتاة المراهقة بالظلم والاضطهاد وتمييز الذكور عليها اكثر من الطفلة البنت.

وقد اتضح من البحث ان ٥٨ بالمئة من العصابيات المتعلمات لديهن مشاكل بسبب دوريها داخل البيت وخارجه، وهذه النسبة مرتفعة في حالة الطبيعيات المتعلمات حيث لا تشعر بمثل هذه المشكلة الا ١٦,٦ بالمئة منهن فقط. وهذا يشير إلى ان من العوامل التي تسبب العصاب للنساء والفتيات هو مشكلة الجمع بين الدورين داخل البيت وخارجه وان مثل هذه المشكلة لا يواجهها الرجل الذي لا يطلب منه اي عمل او مسؤوليات داخل البيت. وبازدياد توجه المرأة إلى التعليم والعمل فان اثر هذه المشكلة يزداد. خاصة وان عقليةالرجل والمجتمع عامة لا تزال ترى ان اعمال البيت هي مسؤولية المرأة وحدها، وان الرجولة او الذكورة تقتضي من الرجل الا يكنس أو يمسح أو يغسل الصحون، فهذه اعمال لا تليق بكرامة الذكر، وإنما هي تليق فقط بجنس الاناث الأدنى .

امـا ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه بين النساء غير المتعلمات فقد يرجع إلى أن هؤلاء النساء لا يستطعن الاستعانة بخادمة او غيرها نظراً لانخفاض مستوى حياتهن الاقتصادي، ويدل الارتفاع هنا في نسبة من لا يرضي مستوى العمل طموحها إلى انخفاض العمل في مجموعة العاملات غير المتعلمات (كان أغلبه روتينياً أو آلياً أو يدوياً أو احد اعمال الخدمة) .

وإذا عرفنا ان مجتمع العمل او الدراسة لا يساوي في نظرته بين المرأة والرجل وبالذات في حالة غير المتعلمات، لأدركنا ان المرأة غير المتعلمة اكثر استسلاماً للتفرقة والاضطهاد من المرأة المتعلمة، وان المرأة الطبيعية اكثر استسلاماً من المرأة العصابية ولو أضفنا إلى ذلك ان طموح المرأة الطبيعية في العمل او الدراسة اقل ارضاء من المرأة العصابية فانه يتضح ان المرأة الطبيعية اكثر خضوعاً لظروفها السيئة من المرأة

العصابية وان هذا الخضوع ليس نوعاً من الصحة النفسية بقدر ما هو نوع من العجز والاستسلام وعدم المقارنة.

وارتفاع نسبة المشاكل الزوجية في هذا البحث يوضح ان الزواج يمثل مشكلة كبيرة في حياة المرأة، وانها بانتقالها من حالة كونها غير متزوجة إلى كونها زوجة تصبح معرضة لعدد من المشاكل الاجتماعية والنفسية والجنسية التي تسبب لها العصاب في احيان كثيرة.

ويتضح ان المرأة العصابية المتعلمة اكثر المجموعات قدرة على اختيار زوجها عن حب وأن اقلهن في هذا الشأن هي المرأة الطبيعية غير المتعلمة، ورغم ذلك فأن المرأة الطبيعية غير المتعلمة هي اقل المجموعات إقداماً على العلاقات الجنسية خارج الزواج، على حين ان المرأة العصابية المتعلمة هي اكثرهن اقداماً على هذه العلاقات ولو أضفنا إلى ذلك أن سيطرة الزوج وعدم تعاونه مع زوجته يزيد في حالة الطبيعيات غير المتعلمات، نرى ان المرأة العصابية المتعلمة اكثر من غيرها جرأة في البحث عن ارضاء رغباتها، واكثر رفضاً لواقعها ولسيطرة الرجل رغم ان حياتها افضل بالنسبة للمرأة الطبيعية وبالذات غير المتعلمة.

ان نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج في مجموعتي العصابيات المتعلمات وغير المتعلمات كانت (٢١,٣ بالمئة) وهي اكثر منها لدى مجموعتي الطبيعيات متعلمات وغير متعلمات (٩ بالمئة) بالرغم من ان عدم الاشباع الجنسي في معظم الحالات يكاد يكون متساوياً (٧٧,٥ بالمئة، ٧٠,٤ بالمئة) ومعنى ذلك ان المرأة الطبيعية رغم حرمانها الجنسي اقل جرأة في ممارسة الجنس خارج الزواج من المرأة العصابية. او أنها اقل جرأة في التصريح بهذه الممارسة لو أنها حدثت.

وقد اتضح من النتائج ان النساء العصابيات يفضلن حياتهن على حياة امهاتهن بنسبة اكبر من النساء الطبيعيات، وان النساء المتعلمات يفضلن حياتهن عن حياة امهاتهن بنسبة اكبر من النساء غير المتعلمات، وهذا يشير إلى ان المرأة العصابية رغم مشاكلها في الحياة اكثر طموحاً ورغبة في التقدم والسير إلى الامام من المرأة الطبيعية. كما ان التعليم يلعب دوراً في ان يجعل المرأة اكثر اقداماً على التقدم رغم ما يخلقه التقدم من مشاكل جديدة.

وقد وجد في البحث ان العصابيات المتعلمات اكثر استخداماً لوسائل منع الحمل

من الطبيعيات، وان الزوجات غير المتعلمات أقل استخداماً لوسائل منع الحمل من المتعلمات.

وتفسير ذلك ان الثقافة تجعل المرأة اكثر وعياً ورغبة في التحكم في جسدها وحملها وولادتها وانها لا تحتاج إلى الاطفال من اجل تحقيق ذاتها من خلالهم كما تحتاج اليهم المرأة غير المثقفة. وحيث ان ازدياد وعي المرأة بحقوقها كانسانة يعرضها للصراع من اجل تحقيق ذاتها داخل البيت وخارجه ولهذا فان المرأة العصابية اكثر ادراكاً بان كثرة الاطفال تمثل قيداً للمرأة على وقتها وحريتها، وبالتالي هي تحاول التحرر من هذا القيد عن طريق وسائل منع الحمل. وقد لاحظت ان النساء العصابيات اقل التصاقاً باطفالهن من النساء الطبيعيات. وقد فسر بعض الاطباء المعالجين مثل هذه الحالات بنقصان في مشاعر الامومة بسبب المرض النفسي، ولكني وجدت ان شدة التصاق المرأة الطبيعية باطفالها وتعلقها الشديد بهم ليس الا امومه مريضة متضخمة تعوض بها عن انواع الحرمان الاخرى المفروضة عليها من الاسرة والمجتمع.

ومن اهم نتائج البحث ان المشاكل الفكرية والاجتماعية كانت اكثر اهمية لدى معظم الحالات من المشاكل الجنسية او العاطفية.

وقد تختلف هذه النتيجة مع الفكرة الشائعة بان المرأة اقل طموحاً من الرجل في المجالات الفكرية والاجتماعية، وانها اكثر انشغالاً بالامور العاطفية والزوجية والجنسية. ان المرأة ليست اقل طموحاًمن الرجل في الحياة الفكرية والاجتماعية ولكنها تكبت طموحها الفكري من اجل ارضاء الرجل سواء كان زوجاً أو أباً أو ولي أمر. وهي ليست اكثر من الرجل انشغالاً بالامور الجنسية والعاطفية، العكس هو الصحيح. فلقد اتضح لي من الحديث مع ازواج بعض الزوجات العصابيات والطبيعيات ان الزوج اكثر حساسية لكفاءته الجنسية ورغبته في اثبات هذه الكفاءة بشتى الطرق، أما المرأة فهي لا تهتم كثيراً بدورها الجنسي او عدم اشباعها الجنسي وتحس وطأة المشاكل الاخرى اكثر. وتفسير ذلك أن المجتمع يساعد الرجل اكثر من المرأة على اشباع طموحه الفكري والاجتماعي، فيقل انشغاله به عن المرأة التي تشعر بان المجتمع يحرمها من اشباع طموحها الفكري والاجتماعي اكثر مما يحرمها من اشباع طموحها العاطفي والجنسي. ان المرأة في نظر المجتمع اداة جنس وحب وعاطفة اكثر منها اداة فكرية للعمل والانتاج في المجتمع.

ومن جدول رقم (٣٣) نجد ان القلق اكثر انواع العصاب انتشاراً بين المتعلمات.

وهذا معناه ان التعليم يجعل المرأة اكثر وعياً بوجودها، ومن ثم اكثر وعياً بالصراع. فالمـرأة التي لا تحس وجودها وقيمة هذا الوجود لا تحس بالصراع من اجل اثبات وجودها او تحقيق ذاتها وبالتالي لا تعرف القلق في حياتها. فالقلق ليس الا قلقاً على الوجود كما عبر عن ذلك رولوماي[1] في تعريفه للقلق النفسي كنوع من انواع العصاب: ان القلق يحتاج إلى درجة معينة من الوعي حتى يحدث. والقلق ليس الا رغبة في الحصول على المزيد ورغبة في حياة فُضلى وطموح اكبر وتحقيق نوع من التكامل والـرضـا عن النفس وتحقيق الـذات. امـا الخوف فهو شعور بالضعف والرغبة في الانسحـاب، وعدم القدرة على مواجهة التحديات والصراعات والهستيريا هي ذلك العجز عن مواجهة العصاب الذي يأخذ شكل العجز العضوي في احد اعضاء الجسم. القلق هو مرض النساء القويات الصامدات في وجه التحديات، والهستيريا والخوف هما مرض الضعيفات العاجزات عن المواجهة. ولهذا فان علاج القلق ليس هو (في رأيي) إزالة القلق عن طريق المهدئات والمسكنات، ولكن علاج القلق هو تسليح المرأة بقوة وامكانيات اكثر للانتصار على التحديات وقهرها وتحقيق ذاتها كانسانة متكاملة ومن هنا اهمية فهم المعالج او الطبيب النفسي لمشاكل المرأة الاجتماعية واهمية ايمانه بحق المرأة في الحياة كانسانة متكاملة العقل والجسد في مجتمع يساوي بين جميع افراده.

اما الجدول الذي يشير إلى نسب الاعتداءات والحوادث الجنسية في حياة البنات الصغيرات فربما يكون اقل من الحقيقة إذ لم يكن من السهل لكل امرأة أو فتاة ان تعترف لي بكل ما وقع لها في طفولتها رغم جهودي في هذا السبيل. كما ان ذاكرة بعض الاطفال تنسى مثل هذه الحوادث إذا حدثت في سن مبكرة جداً او بسبب ان ذاكرة الانسان تنسى في معظم الاحيان ما تريد ان تنساه.

ان هذا النسيان لا يعني ان الحادث ضاع في الزمن، ولكن معناه ان الحادث اختفى في سراديب العقل الباطن ورقد في الظلام، وقد يطفو على السطح حينما تساعد الظروف على إظهاره.

وقد يندهش بعض الناس لحدوث مثل هذه الحوادث الجنسية مع البنات الاطفال بواسطة الرجال الكبار الغرباء او من افراد الاسرة نفسها. وهذه الدهشة تدل على ان

---

(1) Rollo May, Existential Psychology, Random House, 1961.

هؤلاء الناس ينسون حقائق كثيرة، ويتجاهلون تناقضات عديدة يعيشها الرجال الكبار في المجتمع. لقد وجدت ان معظم هذه الاعتداءات على الاطفال البنات تحدث في الاسر المكبوتة جنسياً، ولذلك لا يكون امام الاخ الشاب المراهق الا اخته الصغيرة خاصة إذا كانت تشاركه سريراً واحداً كما يحدث في الاسر ذات الموارد المحدودة. اعترفت لي احدى النساء ان اخاها الذي يكبرها بأربعة أعوام اتصل بها وهي طفلة ولم يكتف بذلك بل اتصل باخواته الثلاث الاخريات الاصغر منها، مع انه كان شاباً طبيعياً ومتفوقاً في دراسته، ولم يشك فيه احد من الاسرة، وإذا كان الاخ المحروم يعجز عن التحكم في نفسه مع اخته الطفلة فما بال الشاب الغريب سواء كان جاراً أو بواباً أو خادماً أو مدرساً، ولكن من يدفع ثمن هذا؟ انها البنت المسكينة وحدها، التي تفاجأ في ليلة الزفاف انها ليست عذراء وتحدث الكارثة التي تعصف بمستقبلها. او إذا مرت ليلة الزفاف بأنها فان تجربتها السابقة والتي غلفتها بالاحساس بالذنب والخوف والكبت تقودها إلى البرود الجنسي وعدم القدرة على الاشباع.

ان الجدول الذي يشير إلى نسبة عدم الاشباع الجنسي في المجموعات الأربع من النساء قد لا يعبر عن كل الحقيقة، لان المرأة المصرية بطبيعتها تخجل من الحديث في الجنس، وهي إذا لم تخجل فهي تجهل معنى الاشباع ولا تعرف ماذا يعني الاورجازم. وهي إذا عرفته نظرياً لم تعرفه عملياً. وهي إدا عرفته عملياً فهذا امر نادر يتوقف على قدرتها على تحطيم حواجز الكبت والخوف النفسية داخلها، ويتوقف ايضاً على ان يكون زوجها قادراً على فهمها ومتعاوناً معها، إلى أبعد حد، وليس انانياً، وأغلبية الرجال غير ذلك بحكم التربية القائمة على تمييز الذكور عن الاناث.

ان الجدول الذي يشير إلى نسبة الازواج الذي يتعاونون مع زوجاتهم في اعمال البيت والاطفال يمكن ان يعطينا فكرة عامة عن ان اغلبية الازواج لا يتعاونون مع زوجاتهم وهناك بحث محلي آخر[1] اوضح ان غالبية الازواج في الاسر المصرية (في الريف والحضر) لا يسهمون مطلقاً في الاعمال المنزلية او رعاية الاطفال (فيما عدا الذهاب بهم إلى الطبيب) وذلك فيما يقرب من ٨٥ بالمئة. هذا برغم ان معظم الزوجات الريفيات يشاركن ازواجهن العمل بالحقل او يعملن بالتجارة. وان نسبة غير

(١) انظر ـ د. صلاح الدين محمد عبدالعال، اثر التغيير الاجتماعي في البناء الاجتماعي للاسرة المصرية، ١٩٧١ (رسالة دكتوراه غير منشورة).

قليلة من الزوجات في الحضر يعملن خارج البيت ويشاركن في نفقات الاسرة مع الزوج.

ان انانية الازواج ليست الا نتيجة لتلك التربية التي تقوم في معظم الاسر على التفرقة في المعاملة بين الصبي والبنت. وقد رأينا في جداول البحث كيف ان اغلبية الاسر المصرية لا تزال تفضل الذكور على البنات. ومثل هذه التربية تخلق رجالاً ساديين انانيين، ونساء ماسوشيات سلبيات. كما ان هذه التربية تفسد العلاقات بين الرجال والنساء وبالذات العلاقات الزوجية، وتسبب مشاكل متعددة وخاصة للزوجات العاملات، بسبب الصراع الذي تعيشه المرأة العاملة سواء في عملها خارج البيت او في علاقتها مع زوجها داخل البيت، او في علاقتها مع نفسها وصراعها بين صفات الانوثة التقليدية من طاعة وخضوع وصفات المرأة العاملة المستقلة الشخصية والرأي. ان الدورين اللذين تقوم بهما المرأة العاملة خارج البيت وداخله يمثلان لها عبئاً جسدياً ونفسياً شديداً، وتجد المرأة العاملة نفسها احياناً من شدة الارهاق ومن شدة الصراع بين الدورين مطالبة بان تختار اما عملها واما حياتها الزوجية. اما الرجل فهو لا يواجه بمثل هذه المشكلة ابداً، لان المجتمع بجميع قوانينه ونظمه قد جعل العمل للرجل حقاً وواجباً لا نقاش فيه. وكذلك جعل الزواج للرجل وكذلك البيت الذي تخدمه فيه الزوجة وتطيعه وتلبي رغباته والا استخدم ضدها قانون الزواج فطلقها او عاقبها.

وفي بحث محلي[1] وجد ان الاختيار بين البيت والمهنة تمثل مشكلة انفعالية حادة عند كثير من النساء فتسبب لهن حيرة دائمة. وصراعاً نفسياً موصولاً. اما الرجل فان الزواج لا يعطله عن عمله، ذلك ان الزواج عنده حادث عارض. ووصل إلى نتائج مشابهة عدد من الباحثين امثال[2] (Siegel) وكول (Cole) وبلاد (Blood) حيث وجدوا النساء العاملات تظهر عليهن اعراض نفسية اكثر حدة مما يظهر على العمال الرجال الذين يشاركونهن العمل نفسه، والظروف نفسها. . وسوف يظل الزواج مشكلة في حياة النساء العاملات إلى ان تحدث المساواة الكاملة بين الجنسين داخل الزواج وخارجه.

---

(١) انظر ـ د. عباس محمود عوض، التوافق المهني والصحة النفسية للعاملين والعاملات في مجال الصناعة. منشورات جماعة علم النفس التكاملي، الاسكندرية ١٩٧١ (رسالة دكتوراه غير منشورة) ص ٥٩.

(٢) Siegal, A.E. and Haas, The Working Mother, A Review of Research Child Development. Sepl, 1963. Cole, R.J A Survey of Employment Attitude Pibl. Omin Quert. 1940. 4. 447, 506. Blood and Harwood, 7. p.p. 693, 698.

وبسبب التفرقة في المعاملة بين الإناث والذكور، واعداد البنت للزواج والخدمة بالبيت اكثر من اعدادها للعمل المنتج في المجتمع، وبث صفات الانوثة الخاطئة في نفس البنت منذ صغرها من حيث الطاعة والهدوء والاستكانة وزجرها او اتهامها بالاسترجال ان ابدت شيئاً من قوة الشخصية او الاستقلال في الرأي، كل ذلك يفسد العلاقة بين الازواج والزوجات، وتصبح الزوجة المثالية هي الزوجة المطيعة المستكينة وليست الزوجة الذكية صاحبة الرأي، ان ذكاء المرأة أو استقلال رأيها يعتبر عيباً لا ميزة، ويفسر تفسيراً سيئاً على انه نوع من العناد او العصاب أو الشذوذ او التشبه بالرجال. ان معظم الزوجات الذكيات المثقفات اللائي تحدثت معهن كانت احدى مشاكلهن الاساسية ان ازواجهن يكرهون صفة الذكاء فيهن ويقاومونها بشتى الطرق. ويفضلون عليهن النساء الغبيات لمجرد انهن يطعنهم طاعة عمياء.

وفي بحث محلي[1]، اتضح ان اكثر صفات الزوجة تفضيلاً عند الازواج (في المجموعة الريفية) هي قدرة الزوجة على قيامها بواجباتها كربة بيت ومدبرة للشؤون المنزلية وان تكون مطيعة، ومتعاونة، وبالنسبة للازواج (في المجموعة الحضرية فضلوا من صفات الزوجة الطاعة اولاً، ثم القدرة على الصبر والصمود امام الازمات، والمشاركة في تقدير ما يتعرض له الزوج من ظروف، وحسن الخلق، وحسن التدبير في الشؤون المنزلية اما الصفات التي يكرهها الزوج في زوجته (في المجموعة الريفية) فهي صلابة رأيها أو عنادها، ثم عدم حب الزوجة لاهل الزوج، والتدخل في شؤونه الخاصة، والغيرة من الزوجات الاخريات. وبالنسبة للازواج (في المجموعة الحضرية) فالزوج يكره في زوجته الغضب وشدة الحساسية اولاً، ثم صلابة الرأي والعناد، وعدم الاهتمام بمظهرها والغيرة على الزوج، وعدم حبها لاهله، واخيراً رغبة الزوج في السيطرة.

اما الزوجات فقد وجدت الباحثة ان الصفات التي تكرهها الزوجة في زوجها (في المجموعة الريفية) هي اولاً سرعة غضب الزوج، والخضوع لاهله، وانانيته الشديدة، واهانة الزوجة واساءة معاملتها، والتحكم في الزوجة واستبداد الزوج. وفي المجموعة الحضرية وجدت الباحثة تشابها في الصفات غير المستحبة إلى جانب صفات اخرى لم تشر اليها الزوجات الريفيات، وكان من اولى الصفات غير المفضلة عندهن سرعة

(١) انظر - هدى محمد مجاهد، سيكولوجية التماسك الاسري، رسالة دكتوراه غير منشورة. كلية الاداب جامعة عين شمس، ١٩٧٢ ص ٣٢٢ - ٣٢٤. وص ٣٤٩ .

الغضب بالنسبة للزوج وثورته الشديدة على أبسط الاسباب، وعدم معاملته لها كزوجة. ورأت بعض الزوجات ان اخلاق ازواجهن وتصرفاتهم كلها معيبة. . واوضحت الدراسة ان بعض الازواج في المجموعتين حاولوا القيام بمحاولة لتغيير هذه الجوانب في طباع زوجاتهم حتى يتم التوافق بينهما بالصورة التي يرتضونها. الا ان نسبة الازواج الذين فشلوا في تغيير زوجاتهم (في المجموعتين) اكبر من نسبة الازواج الذين احدثوا.هذا التغيير. وهذا يدل في رأيي على ان مقاومة الزوجة (سواء في الريف او المدينة) لسلطة الزوج ليست هينة، وان الصراع بين الزوج و وجته لا ينتهي دائماً بخضوع الزوجة الكامل، وانما هو خضوع جزئي او ظاهري خوفاً من الطلاق او المشاكل مع الزوج، وتظل المرأة في اعماقها محتفظة بصفاتها الطبيعية غير المستحبة من الزوج، واهمها تلك الصفة التي يطلق عليها الزوج اسم صلابة رأي الزوجة او عنادها. ان افصاح الزوجة عن رأيها يعتبر في نظر الزوج نوعاً من العناد، لان الزوج بريء (عرفاًوقانوناً). ان الزوجة واجبها «الطاعة» فقط وليس لها ان تناقش او يكون لها رأي، فاذا كان لها رأي، فهذا ليس ميزة فيها كانسانة تفكر وتعتز برأيها، وانما هو عيب وصفة غير مستحبة توضع تحت عنوان العناد وصلابة الرأي، ويحاول الزوج أن يصلح زوجته وذلك بأن يحولها من زوجة لها رأي إلى زوجة بلا رأي، ورأي زوجها هو رأيها، فان فشل في اصلاحها فالويل لها، الطلاق او الزواج باخرى، أو السب او الضرب، وفي حالة الازواج المثقفين او المهذبين فانه الاهمال او الهجران، والتسلل إلى عشيقة او امرأة اخرى تعترف له انها تطيعه طاعة عمياء، لان رأيه صائب مائة في المائة، ولانه لا يخطىء ابداً، ولانه ليس بشراً ولكن إله.

وكم تصبح المشكلة حادة في حياة المرأة العاملة خاصة إذا كانت ذكية ومثقفة لانها تضطر في كثير من الاحيان ان تتظاهر بالغباوة من اجل الحفاظ على حياتها الزوجية، ان تضطر إلى تنفيذ رأي زوجها الخاطىء لانه مصر عليه ورافض لرأيها، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى اصابة النساء المتزوجات بالعصاب اكثر من النساء غير المتزوجات والنساء الذكيات المثقفات اكثر من النساء غير المثقفات.

على ان المرأة التي حُرمت من التعليم او حُرمتمن العمل لها ايضاً مشاكلها التي تسبب لها العصاب. ان الانقطاع عن التعليم او العمل يُسبّب للمرأة وخاصة الذكية عصاباً وألما نفسياً بسبب احساسها بضياع مستقبلها، وعدم قدرتها على تحقيق ذاتها كانسانة لها طموح فكري في الحياة. وتظهر هذه المشكلة بوضوح في الطبقات المستريحة اقتصادياً حين تشعر المرأة غير العاملة بالفراغ القاتل وضياع حياتها هباء،

وان الزواج لا يحقق ذاتها كانسانة. فالرجل لا يحقق ذاته من خلال الزواج وانما من خلال العمل المنتج في المجتمع. وتبين من بعض البحوث[1] عن المرأة العاملة ان المرأة تخرج إلى العمل تحت الحاح الضغط الانفعالي لشعورها بالوحدة اكثر من خروجها تحت ضغط الحاجة الاقتصادية. وهذا بالطبع في غير الطبقات الكادحة والفقيرة، والتي تمثل الحاجة الاقتصادية السبب الرئيسي لخروج النساء للعمل، بل إلى خروج الرجال للعمل ايضاً، إن الحاجة الاقتصادية هي التي تدفع ملايين الرجال والنساء من الطبقات الكادحة والفقيرة إلى العمل. أما في الطبقات المرتاحة نسبياً فان الانسان (امرأة ورجل) يشعر بحاجة إلى العمل من اجل تحقيق ذاته كانسان، ولكن العمل هنا لا بد ان يكون من ذلك النوع الذي يحبه الانسان ويختاره وليس العمل الذي يفرض عليه ويشعر نحوه بعدم الرضا. وهذا امر لا يتحقق في العالم لمعظم الناس (نساء ورجال) بسبب النظم الاجتماعية القائمة على التنافس والاستغلال اكثر منها على التعاون والمساواة.

وقد اتضح من نتائج البحث ان عدم الاشباع الفكري في العمل المنتج بالمجتمع الكبير يمثل مشكلة نفسية في حياة المرأة المصرية اكثر حدة من عدم الاشباع الجنسي وهذا امر طبيعي في حياة الانسان (امرأة او رجل) لان الانسان حيوان مفكر، والمرأة الذكية المثقفة تحتاج إلى الاشباع الفكري من خلال العمل المنتج اكثر من غيرها التي لم تحظ بالثقافة والوعي والذكاء.

ان الكبت الفكري يؤدي إلى كبت جنسي، والبنت التي تربى على كبت افكارها وآرائها تتعود ايضاً على ان تكبت رغباتها ومشاعرها، والكبت الفكري طوال سنوات الطفولة والمراهقة يؤدي إلى عقم فكري في الشباب والكهولة. وكذلك الكبت الجنسي طوال سنوات الطفولة والشباب يقود إلى عقم جنسي (ومعناه برود جنسي) في سن النضوج والكهولة. ان انتشار البرود الجنسي عند الزوجات إحدى نتائج الكبت الفكري والجنسي المفروض على البنات منذ الولادة. والكبت الجنسي في مجتمعنا كان يمكن ان يكون اقل خطراً على صحة البنات والنساء النفسية لو ان الثقافة والاعلام والفنون في مجتمعنا تخضع للقيم الاخلاقية نفسها التي تتحكم في تربية البنات. لكن هذا

---

(1) Zweig. F.. Women's Life and Labour. London.. Victor collaney. 1952. p. 47.

Heer. D.W. Dominance and the Working WifeSoc forces. 1958. 36. 341-347.

Baber. R.E.. Marriage and the Family. McGraw - Hill Book. Co.. Inc New York. 1939.

لا يحدث في مجتمعنا. لان الذي يتحكم في وسائل الثقافة والفنون والاعلام عامة ليست هي القيم الاخلاقية القائمة على الكبت الجنسي، وانما هي القيم التجارية القائمة على الربح من وراء عرض افلام الجنس والرقصات العارية واجساد النساء وتأوهات المطربين والمطربات ليل نهار في الراديو والتلفزيون، وعرض الافخاذ والنهود العارية في صفحات المجلات.

ويصبح على البنت المصرية ان تحل وحدها المعادلة الصعبة. عليها ان تتشبع بهذه الافلام والصور والاصوات الصارخة بالجنس والشبق، وعليها في الوقت نفسه الا تتأثر بها، وان تأثرت (وهذا ما يحدث) فعليها ان تخفي هذا التأثر، وان تتظاهر بشيء آخر. أما ان يتحول هذا التأثر إلى فعل (وهذا امر طبيعي عند الانسان السليم نفسياً وجسدياً) فهذه هي الطامة الكبرى التي تقع في حياة البنت، سواء انكشفت او لم تنكشف. ان انكشافها يقود إلى فضيحة علنية يضيع فيها مستقبل البنت او حياتها، وان عدم انكشافها يقود إلى احساس طاغ بالخوف او الذنب يلازمها طوال حياتها، ويُسبّب لها البرود الجنسي او العصاب او ما شابه، وفي جميع الاحوال لا يؤدي الكبت والتناقضات التي يفرضها المجتمع على البنت الا إلى التعاسة العامة التي تشعر بها النساء والفتيات من جميع الاعمار المتزوجات منهن وغير المتزوجات، وقد تنكر بعض النساء هذه التعاسة ويتوهمن انهن سعيدات، لكن المرأة منهن لا تصمد طويلاً امام الاسئلة التي تجعلها تعيد التفكير في حياتها وفي سعادتها السطحية. احدى هؤلاء اقنعتني اول الامر انها سعيدة وراضية بزوجها واطفالها واسرتها ولا ينقصها شيء. وحينما بدأت اسألها عن طفولتها تلعثمت بعض الشيء. وحينما سألتها عن طموحها في الحياة قالت انها دفنت هذا الطموح في اليوم الذي تركت فيه الدراسة لتتزوج. وحينما سألتها عن حياتها الجنسية مع زوجها وهل تحصل على الاشباع قالت انها لا تعرف شيئاً عن هذا ولا تمارس الجنس الا لترضي زوجها اما هي فيكفيها سعادة ان زوجها لا يتذمر ولا يصرخ كالازواج الاخرين ولا يدخن ولا يعربد مع النساء، وهو رجل مستقيم لا يعرف الطريق الا من مكتبه الى بيته. وهي تعتبر نفسها زوجة محظوظة بالنسبة إلى غيرها من الزوجات اللائي يتعرضن للشتم او الضرب او الطلاق.

هذه السعادة في علم النفس تشبه سعادة العبيد. فالعبد يشعر بالسعادة في اليوم الذي لا يضربه فيه سيده، والخادم يشعر بالسعادة في اليوم الذي لا يصرخ فيه سيده، والزوجة تشعر بالسعادة لان زوجها لا يشتمها ولا يضربها ولا يعربد مع النساء ولا

يطلقها. وهذا كله لا يمكن ان يسمى سعادة بالمعنى الحقيقي او بالمعنى الانساني. سعادة الانسان لا يمكن ان تكون سعادة سلبية، لا يمكن ان يسعد الانسان لانه لا يتعرض لاذى معين، ولكن الانسان يسعد لانه يفعل شيئاً، وهذه هي السعادة الايجابية، الانسان يسعد لانه يفكر ويعمل وينتج.

بعض الازواج انزعجوا حينما بدأت عيون زوجاتهم تتفتح، او انها كانت مفتوحة من قبل، لكنهن كن يعجزن عن اظهار ما يعتمل داخلهن خشية الطلاق او البهدلة (كما عبرت احداهن)، وذكر لي احد الازواج في انزعاج: لقد بدأت زوجتي تشعر بالقلق وبدأت تشعر بالحنين إلى استكمال دراستها التي قطعتها حين تزوجت، لقد كانت هادئة وراضية بحياتها، ولكنها الآن لم تعد راضية، وسألني بشيء من الغضب قائلاً: هل تعتقدين يا دكتورة ان تحويل الزوجة الراضية إلى زوجة غير راضية امر مفيد صحياً لها؟ وقلت له: نعم بالطبع، وهذه إحدى فوائد المعرفة والوعي والثقافة. ان المعرفة هي إثارة عدم الرضا في الانسان من اجل أن يعمل على تغيير حياته إلى الافضل. ولولا عدم الرضا لما تقدم الانسان ولكانت حياته كحياة الحيوانات، ان الحيوانات لا تشعر بعدم الرضا، ولا تشعر بالقلق، ولذلك هي لا تغير حياتها إلى الافضل، وحياة الحيوانات اليوم هي حياة الحيوانات منذ القدم، اما الانسان فليس كذلك.

وكان هذا الزوج يعارض في ان تعود زوجته لاستكمال دراستها الجامعية، رغم ان ظروفها من جميع النواحي كانت تساعدها على استكمال هذه الدراسة. ولم استطع ان افهم السبب الحقيقي اول الامر، لكن الزوجة قالت لي ان زوجها لم يحصل على شهادة جامعية، وانه يعمل بشهادة متوسطة لكن دخله الشهري مرتفع بسبب امتلاكه لعزبة باحدى القرى، وقد ادركت انه يعارض في استكمالها التعليم خوفاً من ان تحصل على شهادة لم يحصل عليها هو، ولم اعرف حتى اليوم ماذا حدث بعد ذلك، هل رضخت الزوجة وعادت راضية بحياتها وتنازلت عن الامل الذي لاح لها، ام ان قلقها كان شديداً، واصرارها كان شديداً ففرضت رأيها وواصلت دراستها.

وقد لاحظت ان الازواج ينزعجون حينما يزيد وعي زوجاتهم، وقد يقبل بعضهم زيادة هذا الوعي بشرط الا يشتمل هذا الوعي على اي وعي جنسي. وقال لي احدهم ان الوعي الجنسي خطر للمرأة، وان علم الجنس علم غريب على مجتمعنا الشرقي، وانه احد العلوم المستوردة من الغرب. وقلت لهذا الزوج ان ابن سينا كان من اوائل

العلماء في تاريخ البشرية ان لم يكن الاول الذي بدأ علم الجنس واعترف به. ان رسالة ابن سينا في العشق تعتبر اول رسالة علمية منحت الحب والجنس دوراً ايجابياً. ففي هذه الرسالة[1] لاول مرة تغلب ابن سينا على الهوة التي تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة في الانسان. وبذلك استطاع ان يصل بين طرفي الحب الطبيعي (الجنس) والروحي، واعطى للجنس دوراً، وجعل حب الجمال الظاهري اي الحبّ الجنسي عوناً على الاقتراب من الله، وابن سينا في هذه الرسالة يطبق مبدأه العام في النفس واجزائها على مشكلة الحب والجنس، وكتب ابن سينا منذ حوالي الف عام في كتابه الضخم «القانون في الطب»[2] مؤيداً هذا المعنى.

ورد الزوج بشيء من الغضب: انا لا اعرف عن ابن سينا شيئاً او تاريخ الطب في العالم، ولكني رجل مسلم، والاسلام يتعارض وتفتيح عيون الزوجات على الجنس فالمرأة لم تخلق للاستمتاع الجنسي ولكنها خلقت لخدمة زوجها والتفاني في خدمة اطفالها، وإذا كانت الزوجات يطالبن باللذة الجنسية في الغرب فهذا قد يتمشى مع اخلاقهم وأديانهم ولكنه لا يتمشى مع اخلاقنا واسلامنا.

وقلت لهذا الزوج ان الاسلام لا يتعارض والثقافة الجنسية بل يدعو إلى الثقافة والعلم والمعرفة في جميع نواحي الحياة ومنها الحياة الجنسية.

وان الاسلام لا يوافق على تزويج الفتاة لرجل لا ترغبه، ويعارض زواج الاكراه...

وان الاسلام لا يوافق على ان تستمر الزوجة في الحياة مع زوجها إذا كانت تكرهه أو إذا لم يكن يرضيها.

وان الاسلام يعتبر العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته ليس هدفها الانجاب فقط، وانما ارضاء رغبة كل من الرجل والمرأة، والاستمتاع بالحق الطبيعي في الحياة، ولهذا لا يتعارض الاسلام وفكرة تنظيم الاسرة وتحديد النسل[3].

(١) غوستاف فون غربناوم ـ دراسات في الادب العربي ـ ص ٨٣ ـ رسالة ابن سينا في العشق، ترجمة الدكتور احسان عباس.

(٢) القانون في الطب، تأليف الشيخ أبي علي الحسن بن علي بن سينا ـ المتوفى سنة ٤٢٨ الجزء الاول ص ٧١ (طبعة جديدة عن طبعة بولاق) مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(٣) انظر مطبوعات الجهاز الاعلى لتنظيم الاسرة، ومطبوعات ادارة الدعوة بوزارة الاوقاف والقرآن واحاديث محمد.

وان بعض فقرات من القرآن والاحاديث النبوية تدريس لبعض نواحي الجنس[1] وهناك نصوص في الفقه الاسلامي تذكر الاوضاع اثناء الممارسة الجنسية. وهناك ارشادات لكيفية تفادي الحمل اثناء الاتصال الجنسي، وفقرات تشير إلى ان كثرة الأبناء تسبب الفقر والعجز.

وبعض الناس يعتقدون ان ختان البنت جاء مع الاسلام، وهذا اعتقاد خاطىء لان ختان البنات كان موجوداً قبل ظهور الدين الاسلامي. وحينما ظهر النبي محمد وجد ان هذه العادة موجودة عند العرب وادرك بذكائه الفطري ضرر هذه العادة على صحة النساء بسبب سلبها لجزء من قدرة المرأة على الشعور باللذة الجنسية، وجاء في الحديث ان النبي محمداً قال لام عطية الخاتنة: «إذا خفضت فأشمي ولا تنهكي، فانه أضوأ للوجه واحظى لها عند الزوج».

يقال: أشمت الخافضة البظر، اي اخذت منه قليلاً جداً، وقوله لا تنهكي، اي لا تأخذي من البظر كثيراً، شبه القطع اليسير باشمام الرائحة، والنهك بالمبالغة فيه، اي اقطعي شيئاً صغيراً ولا تستأصليها، ومن ثم يجب ان يوصى الخافضات بأن يراعين ذلك لدى الخفاضة فلا يبالغن في قطع البظر، فان انهاكه ـ اي استئصاله ـ يحرم المرأة لذة الجماع فلا تحظى عند زوجها[2].

ومعنى هذا الكلام ان ختان البنات ليس عادة اسلامية، ولا علاقة لها بالدين، فهي عرفت في مجتمعات متباينة الاديان، وعرفت في الشرق وفي الغرب، في مجتمعات مسيحية وفي مجتمعات اسلامية، وفي مجتمعات لادينية، وعرفت في اوروبا في القرن التاسع عشر ("Richerand" 1866) وبراون (Brown 1866) وعرفت في مصر والسودان والصومال والحبشة وكينيا وتانجانيقا وغانا وغينيا ونيجيريا وعرفت في بلاد اسيوية وفي سيلان واندونيسيا وعرفت ايضاً في اجزاء من اميركا الجنوبية. وعرفت ايضاً في عهود قديمة عند بعض قدماء المصريين، وقد قرأت ان هيروديت ذكر شيئاً عن ختان البنات ٧٠٠ سنة قبل الميلاد.

وقد بحثت عن دراسة اجتماعية علمية تلقي ضوءاً على سر ممارسة المجتمع لمثل هذه العملية الوحشية على الاناث فلم اجد. لكني وجدت في التاريخ عمليات اشد

---

(١) انظر بحث الدكتور عثمان فراج بعنوان وجهة نظر اسلامية عن الجنس.

O.L. Farag, A Moslem View Sexuality, Division of Public Service, American University, Cairo.

(٢) انظر دولة النساء ـ عبدالرحمن البرقوقي، الطبعة الاولى سنة ١٩٤٥ مكتبة النهضة المصرية.

وحشية من الختان وهي وأد البنات وهن احياء، وايضاً عملية الباس المرأة حزام العفة الحديدي، وعملية غلق اعضاء المرأة الجنسية بالدبابيس والاقفال الحديدية[1] وهي عملية شديدة البدائية لكنها تشبه إلى حد كبير الطريقة السودانية في ختان البنات إذ تقطع كل اعضاء البنت الجنسية (البظر والشفرتين الداخليتين والخارجيتين) ثم يغلق الجرح بقطعة من امعاء الشاة ولا تترك الا فتحة صغيرة جداً (تسمح بدخول طرف الاصبع فقط) من اجل خروج البول ودم الحيض. ويعاد فتح هذا الجرح حين تتزوج الفتاة ليتسع دخول عضو الزوج، ثم يعاد فتحه حين تلد الزوجة طفلها، ثم يعاد اغلاقة بعد الولادة، او بعد الطلاق من الزوج لتعود المرأة عذراء مرة اخرى ويحكم اغلاقها بالخياطة حتى لا يمكن لرجل ان يتصل بها الا الرجل الذي سيتزوجها وحينئذ يعاد فتح الجرح مرة اخرى وهكذا.

والسؤال الذي يخطر بالذهن هنا هو: لماذا فعل المجتمع مثل هذه العمليات الوحشية ضد المرأة؟ والاجابة عن هذا السؤال هي ان المجتمع ادرك منذ قديم الزمان ان الرغبة الجنسية عند المرأة قوية جدا بطبيعتها وانها لو تركت هكذا بغير تدخل من جانب المجتمع فسوف ترفض النساء القيود الاخلاقية والاجتماعية والقانونية والدينية التي تفرض على المرأة زوجا واحدا. ان نشوء المجتمع الابوي القائم على الاسرة الابوية (القائمة على فرض زوج واحد على المرأة وتعدد الزوجات للرجل) ما كان ليقوم او يستمر الا بفرض قيود وعمليات صارمة تقلل من طبيعة المرأة الجنسية حتى يمكنها الخضوع لزوجها الواحد. وهذا هو السبب في عداء المجتمع الشديد لرغبة المرأة الجنسية ومقاومته المستمرة لها بأبشع الوسائل. ان المجتمع يدرك ان اي تهاون من جانبه في هذا المجال معناه خروج المرأة من قفص الزواج الاحادي الحديدي والاتصال برجل آخر، ومعنى ذلك اختلاط النسب واختلاط اطفال الزوج الشرعي بأطفال رجال غرباء، ومعنى ذلك انهيار الاسرة الابوية القائمة على اسم الاب فقط.

واذا عرفنا من التاريخ ان الاب لم يكن حريصا على معرفة اطفاله الا من اجل ان يورثهم ارضه فاننا ندرك ان السبب الرئيسي لنشوء الاسر الابوية كان اقتصاديا، ومن اجل ان يحمي المجتمع مصالحه الاقتصادية فانه يدعمها بالقيم الاخلاقية والدينية والقانونية.

---

(١) Desmond Morris in Naked Ape.

وعلى هذا فان دراسة التاريخ توضح لنا ان حزام العفة الحديدي وعملية الختان ومثيلاتها من العمليات الوحشية ضد رغبة المرأة الجنسية لم تنشأ الا لاسباب اقتصادية.

بل ان استمرار مثل هذه العمليات في مجتمعنا حتى اليوم انما هو ايضا لاسباب اقتصادية، ان الاف الدايات والحكيمات والاطباء الذين يثرون على حساب عملية ختان البنات لا يمكن الا ان يقاوموا أي محاولة للقضاء على مثل هذه العادات الضارة. وفي المجتمع السوداني[1] جيش هائل من الدايات يعشن على هذه العمليات المتكررة من فتح اعضاء المرأة واغلاقها في مناسبات متعددة ما بين زواج وولادة وطلاق وزواج مرة اخرى.

ان الاسباب الاقتصادية ومن ثم الاسباب السياسية هي التي وراء نشوء واستمرار عادات مثل ختان البنات. وهذا التوضيح هام لان كثيرا من الناس يخلطون بين السياسة والدين، وكثيراً من الناس يعمدون الى اخفاء الاسباب السياسية والاقتصادية باسباب دينية حتى يصرفوا الاذهان عن الاسباب الحقيقية. وكثيراً من الناس يقولون ان الاسلام هو السبب وراء ختان البنات في مصر، وهو السبب وراء الوضع الادنى للمرأة في البلاد العربية.

لكن ارى ان التخلف في مجتمعاتنا العربية ليس هو الدين الاسلامي وانما هو السلطة السياسية خارج مجتمعاتنا (الاستعمار الاجنبي) او السلطة السياسية في الداخل (الحكومات العربية الرجعية المستغلة) او كلاهما معا، ومحاولة تفسير الدين تفسيرا خاطئا واستخدامه ليخدم اغراض القهر والخوف والاستغلال.

ان الدين بمعناه العام هو الصدق والمساواة والعدالة والحب والصحة لجميع الناس رجالا ونساء، ولا يمكن ان يكون هناك دين يدعو الى المرض او تشويه اجساد البنات وقطع بظورهن.

واذا كان الدين من عند الله فكيف يمكن للدين ان يأمر بقطع عضو في الجسم خلقه الله؟ المفروض ان الله لا يخلق الاعضاء اعتباطا، ولا يمكن ان الله يخلق البظر

---

(1) Female Genital Mutilation, Fertility Control, Women's Roles, and the Patrilineage in Modern Sudan. by Rose Oldfield Hayes, American Ethnologist. Vol. 2. No. 4. Nov. 1975.

وانظر:

Rosemary Radford Ruether, Religion and Sexism. Simon and Schuster. New York 1974

في جسد النساء ثم ينزل على الناس دينا يأمرهم بقطع هذا البظر، فهذا تناقض خطير لا يقع فيه الله. واذا كان الله قد خلق البظر كعضو حساس للجنس وظيفته الاساسية والوحيدة هي الاحساس بلذة الجنس فمعنى ذلك ان الله قد اباح للنساء اللذة الجنسية وانها جزء من الصحة النفسية. وعلى هذا فان المرأة التي تحرم من اللذة الجنسية تحرم من جزء من الصحة النفسية. ولا يمكن ان تكتمل صحة المرأة النفسية بدون اكتمال لذتها الجنسية.

ان عددا كبيرا من الامهات والآباء المتعلمين لا يزالون يفزعون من ترك البظر في اجساد بناتهم، وقد قال لي بعضهم ان الختان يحمي البنت من الانزلاق والزلل، وهذا منطق خاطىء لان الذي يحمي البنت أو الولد من الزلل ليس هو بتر الاعضاء الجنسية وانما هو الوعي والمعرفة التي تساعد البنت على تحديد هدف ومعنى في حياتها، والسعي لتحقيق هذا الهدف وهذا المعنى. وكلما زاد وعي الانسان (امرأة أو رجلاً) ارتفع هدفه في الحياة الى المستوى الانساني والرغبة في تطوير الحياة الى الافضل ولا يقتصر هدفه في الحياة على استخدام اعضائه الجنسية أو ممارسة الجنس. ان اكثر البنات تحررا (بالمعنى الصحيح للتحرر) اقلهن انشغالا بالجنس، لأن عقل البنت منهن يصبح مشغولاً باشياء اخرى كثيرة في الحياة. اما البنات المكبوتات فلا يشغل رؤوسهن الا الجنس والرجل. وقد وجدت ان المرأة الذكية المثقفة بصفة عامة اقل انشغالا بالجنس من المرأة الاخرى، لكنها اكثر جرأة في ممارسته، وهي تنساه بعد الممارسة والشعور بالرضا، وتفكر في اشياء اخرى.

ان الجنس في حياة المرأة الذكية المتحررة لا يشغل من حياتها الا حيزه الطبيعي اما الجهل والكبت والقيود والتخويف فتجعل الجنس في حياة معظم البنات والنساء يتضخم ويتمدد ليشغل كل حياة المرأة أو الفتاة.

وتدل نتائج البحث على ان الحب مفقود في معظم الحالات بين الزوج والزوجة. ومعنى ذلك ان معظم الازواج والزوجات محرومون من الحب ومحرومون من الجنس بمعناه الصحيح. ومعنى ذلك انهم يحاولون تعويض ذلك الحرمان خارج الزواج، ولا شك ان الرقم في هذا البحث الذي يشير الى نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج اقل من الحقيقة. ليس من السهل على الزوجة ان تعترف في مثل هذه البحوث بممارستها الجنسية خارج الزواج. اما الازواج فانه من المعروف في معظم المجتمعات (وليس في مجتمعنا فقط) ان لهم علاقاتهم المتعددة خارج الزواج، وتشجعهم على

ذلك النظم والقوانين وتقاليد الحضارة الابوية التي تعطي للرجل وحده الحرية الجنسية.

لقد فشل الزواج بقوانينه الجائرة التي لا تساوي بين الرجال والنساء في تحقيق السعادة للازواج والزوجات، فالسعادة لا يمكن ان تتحقق الا في ظل المساواة والحب والحرية. وهذه المبادىء الثلاثة عجز الزواج عن منحها للرجال، والنساء وبالذات النساء. ولهذا لم ادهش حين وجدت ان ٨٥٪ من الزوجات يرفضن الزواج بازواجهن مرة اخرى لو عادت السنين الى الوراء.

وقد لاحظت ان المرأة غير المتعلمة وبالذات الريفية اكثر رضى عن حياتها من المرأة المتعلمة أو التي تعيش في المدينة.

ولا شك ان من ميزات الحياة الريفية ذلك الزواج المبكر الذي يحل مشكلة المراهقين والمراهقات في المدن وما يتعرضون له من كبت نفسي وجنسي وقوانين اخلاقية متناقضة وازدواجية في القيم، ومشاكل متعددة، كما ان الحياة الريفية اقل تعرضا من المدن للتناقضات الثقافية والاخلاقية الموجودة في مجتمعنا والتي تنتقل عن طريق اجهزة الاعلام والافلام والمجلات والصحف وغيرها.

لكن حياة الفلاحة المصرية بصفة عامة حياة قاسية شقية، والاستغلال يقع عليها مضاعفا والذي يهبط الى الريف المصري يستطيع ان يرى الفلاحات الكادحات بجلابيبهن السوداء المتربة، وبعيونهن الغائرة الحزينة، ووجوهن الممصوصة وايديهن وكعوبهن الخشنة المشققة، فيدرك على الفور مدى انسحاق الفلاحة المصرية. والذي يعيش يوما في بيت من بيوت الفلاحين يسمع صوت الزوج الخشن حين ينادي زوجته: «يا بت!» أو صوته الغليظ حين يرتفع غاضبا لأتفه سبب قائلا: علي الطلاق بالثلاثة! بالاضافة الى ما تتعرض له البنت الفلاحة ليلة الزفاف من مهانة التقليد الذي ما زال سائدا في الريف المصري، وهو فض بكارة العروس بالاصبع واظهار الدم على خرقة للناس. وكم من مآسٍ بسبب العذرية في الريف.

اما النساء العاملات الكادحات في المصانع أو الوظائف والاعمال الدنيا فحياتهن اشد قسوة. لانها تجمع التناقضات والمشاكل جميعا، مشاكل الريف ومشاكل الحضر، مشاكل التطلع الى الطبقة الاعلى، مشاكل الدخل الصغير المحدود، مشاكل العمل خارج البيت وداخل البيت، كل ذلك في ظل القوانين الجائرة نفسها التي تحكم النساء جميعا.

وقد اوضح تعداد ١٩٧٦ ان نسبة العاملات بأجر ٩,٢ بالمئة من القوة العاملة كلها، لكن هذه النسبة لا تضم الفلاحات وربات البيوت اللائي يعملن بغير اجر.

والمرأة الكادحة هي التي تعمل داخل البيت (الطبخ والتنظيف ورعاية الاطفال) وتعمل ايضا خارج البيت في حقل أو مصنع أو مكتب أو أي مكان آخر. وتمثل النساء الكادحات اغلبية النساء في المجتمع المصري من فلاحات وخادمات وعاملات بالمصانع وموظفات بالمصالح الحكومية والشركات ومهنيات في مختلف انواع المهن. هؤلاء اللائي يقمن باعمال في المجتمع جنبا الى جنب مع الرجال، ثم يعدن آخر اليوم الى البيت ليخدمن الاسرة أو الاب أو الزوج والاطفال، وتحول ظروفهن دون الحصول على خادمات المنازل.

ولا يخفى على احد الحياة الشاقة المؤلمة التي تعيشها الفلاحات المصريات. وقد اعتدت ان ازور قريتي كفر طحلة (قليوبية) كل عام، واعيش بين الفلاحات من قريباتي ومن اهل قريتي، واستمع الى قصص حياتهن المؤلمة، واشهد نماذج من حياتهن التعيسة، وأقف على مدى ما يسود القرية المصرية حتى اليوم من افكار متخلفة تحقر المرأة، وخزعبلات وخرافات.

ولا شك ان الفقر أو المشكلة الاقتصادية هي اهم ما في حياة النساء الكادحات ان السعي وراء لقمة الخبز يمتص حياة هذه المرأة منذ شروق الشمس حتى غروبها، فلا تكاد تجد الوقت لتلتقط انفاسها، أو تنظر الى نفسها في المرآة لتعرف اذا كانت امرأة أو رجلاً، أو تفكر في ذلك الشيء الذي نطلق عليه اسم الحب أو الجنس.

سألت مرة احدى قريباتي المتزوجات عن حياتها الجنسية مع زوجها وعما اذا كانت ترضيها ام لا، وتطلعت الي المرأة الفلاحة بدهشة شديدة وقالت: ما ان اضع جسدي المهدود فوق الحصيرة حتى انام كالقتيل الى ان اصحو على آذان الفجر.

ونظرت الى هذه المرأة، كانت شابة في الثلاثين لكنها تبدو في الخمسين، خشنة الملامح، جافة الجسد، سمراء البشرة، سوداء الجلباب، ولديها من الاطفال ثمانية وسألتها: وكيف انجبت هؤلاء الاطفال؟

قالت في حزن: لا اعرف. ولدتهم كما تلد الجاموسة.
وسألتها: والزواج؟

قالت: الله يلعنه يا دكتورة! نحن هنا في القرية لا نعرف شيئا. ما ان تكبر البنت منا ويبرز ثديها حتى يزوجها أهلها لأي فلاح.

سألتها: ألا تذكرين ليلة الزفاف؟

قالت : اذكر أنه أغلق الباب علي وضربني حتى عضضت الأرض ثم قفز فوقي وانتهى كل شيء .

وقد لمست الكثير من مشاكل الفلاحة المصرية الاجتماعية والنفسية والجنسية لكني اعتقد ان المشكلة الاقتصادية تطغى على جميع المشاكل الاخرى الا في بعض الحالات النادرة حين تصادف المرأة مشاكل حادة بسبب زوج شديد القسوة يذيقها ألوان الضرب والعذاب، أو حماة او ضرة (زوجة ثانية لزوجها) تحول حياتها الى جحيم، أو طلاق يشردها في الطرقات تشحذ لقمة عيشها أو تفقد صوابها ولا تجد امامها الا الزار أو المشايخ أو اهل النصب والاحتيال.

والفلاحة المصرية رغم مشاكلها المتعددة اكثر قوة وصحة نفسية من المرأة العاطلة بغير عمل داخل البيت أو خارجه.

ولا توجد لدينا بيانات لتحديد نسبة دقيقة للنساء العاطلات الا اننا جميعا نعرف ان هذه الفئة من النساء موجودة في مجتمعنا، وانها تمثل معظم النساء من الطبقة العالية والطبقة فوق المتوسطة، ونساء الطبقة الجديدة التي تضخمت في السنوات الاخيرة بسبب الثراء السريع مع الجهل والتخلف.

ومعظم هؤلاء النساء يعشن في المدن الكبيرة والمدن الصغيرة، ومنهن من تعلمت تعليما عاليا بالجامعة ثم لزمت البيت بسبب الزواج أو التقاليد أو عدم حاجة الاسرة الى مورد اقتصادي اضافي، ومنهن من لم تتعلم على الاطلاق بسبب التقاليد.

على ان السمة الغالبة على هذه الشريحة من شرائح المجتمع المصري انها اكثر الفئات راحة من الناحية الاقتصادية (بدليل وجود خدم بالمنزل)، وان مستواها الاقتصادي اعلى من مستواها الثقافي والحضاري (بدليل وجود المرأة بالبيت)، و (بدليل شدة التمسك بالتقاليد والعادات القديمة ولو ظاهرياً).

ومن المعروف في علم المجتمع ان التغيير الاقتصادي يحدث أسرع من التغيير الاجتماعي أو الثقافي أو الوجداني، فما اسهل على الفلاح المصري بمجرد ان يحصل

على بعض المال ان يشتري الثلاجة والراديو أو السيارة ولكن ما اصعب عليه ان يغير من عاداته وتقاليده ونظرته الى المرأة. وبالمثل ايضا ما اسهل على الاسر العالية في مصر ان تشتري احدث الاجهزة وتستخدم احدث الوسائل التكنولوجية في البيت والعمل، بل وترتدي احدث الملابس من سراويل ضيقة وفساتين قصيرة تكشف عن افخاذ النساء (الميني جيب) وغيرها من ازياء القرن العشرين، ومع ذلك تظل الاعماق عاجزة عن التخلص من الافكار المتخلفة وخزعبلات القرن التاسع عشر، وبالمثل ايضا ما اسهل على المجتمع ان يتحول بالقرارات الاقتصادية وقرارات التأميم من مجتمع اقطاعي أو رأسمالي الى مجتمع اشتراكي ومع ذلك تظل الافكار والمشاعر الوجدانية والتقاليد اقطاعية أو رأسمالية. ويمكن القول ان مجتمعنا المصري مزيج من كل هذه التناقضات والصراعات بين الريف والحضر، بين القديم والجديد، وبين الشرق وبين الغرب، وبين الاقطاع والرأسمالية والاشتراكية. وتختفي هذه التناقضات احيانا، أو تطفوا على السطح احيانا، لكنها موجودة وتكون ظاهرة عامة عندنا.

ولا شك ان دراسة حياة المرأة المصرية في الاسرة فوق المتوسطة والعالية، وهذه الاسر التي تكون النساء فيها عاطلات أو شبه عاطلات يعطينا صورة عن جزء من حياة مجتمعنا المصرية عامة، كما انها تعطينا صورة أوضح عن تلك التناقضات، التي نعيشها، لأن المرأة (بسبب كثرة المحظورات عليها بالنسبة للرجل) اكثر عرضة للوقوع فريسة التناقضات الاجتماعية.

ان المرأة المصرية في هذه الاسر هي مستهلكة فقط، (بعكس المرأة المصرية الكادحة أو الفلاحة التي هي منتجة ولا تكاد تستهلك شيئا) ولهذا فان الفرق كبير جدا بين هاتين المرأتين باستثناء انهما متساويتان في الخضوع للزوج بسبب اعتمادهما الاقتصادي عليه. (رغم ان الفلاحة المصرية منتجة عن طريق عملها في الحقل، الا انها تعمل بغير أجر لحساب زوجها وتعتمد اقتصاديا عليه). أن نظرة واحدة الى وجه وشكل المرأة من هذه الطبقات، والى وجه وشكل المرأة الفلاحة تعطينا صورة صارخة للتناقض بين هذه وتلك. ان المستهلكة ممتلئة باللحم وترتدي افخر الثياب وتضع على وجهها وجسدها كمية هائلة ثمينة من المساحيق، في حين تعاني المرأة الفلاحة من النحول وذبول الجسد المرهق وتعاني نقصا شديدا في التغذية ايضا، وجلبابها الاسود المترب بتراب الحقل، ووجهها الذي لا تغسله الا بالماء نظرا لارتفاع سعر الصابون.

ولا شك ان هذا التناقض ليس قاصرا على النساء، ولكنه يشمل الرجال ايضا لكنه

اوضح ما يكون في النساء، لان الاستغلال الواقع على النساء مضاعف، إذ، ان البطالة تفرض على المرأة ومن ثم يفرض عليها ان تكون مستهلكة فقط، كما ان الفلاحة المصرية تتعرض للاستغلال من زوجها، لان زوجها يسيطر عليها ويشغلها كالاجير لحسابه، ويستهلك اكثر منها، فهو يعطي نفسه من الطعام والملابس والدخان والمتع ما لا يعطيه لها.

ان جميع النساء اللائي يعملن في البيوت أو الحقول أو المصانع أو المهن المختلفة جميعهن منتجات وجميعهن يستهلكن اقل مما يستهلك الرجل في اسرهن. اما هؤلاء النساء العاطلات بغير عمل في البيت أو خارج البيت فهن غير منتجات ومن اللائي يمكن ان نقول عنهن انهن مستهلكات فقط.

وقد يتصور بعض الناس ان بطالة النساء تعطيهن الراحة، لكن البطالة نوع من انواع الاستغلال، والبطالة تحرم المرأة من العمل الذي هو ضرورة انسانية تحقق به ذاتها، وتحقق به نفعا للمجتمع، وتحقيق الذات يمنح الانسان سعادة وذكاء وتطورا وانسانية وتحرم من كل ذلك النساء العاطلات.

ولهذا لا تشعر النساء العاطلات بالسعادة بسبب عدم وجود العمل، وبسبب ايضا وضع المرأة الادنى في المجتمع واحساس المرأة انها تابعة وعالة على الرجل، وان القانون يمنح الزوج حرية طرد زوجته في أي وقت يشاء، ولهذا كله تشعر النساء العاطلات بالفراغ والتعاسة والقلق على مصيرهن ومستقبلهن ويحاولن تعويض كل ذلك عن طريق الاستهلاك الشره، بتبذير المال في شراء الملابس وادوات الزينة، وقتل الوقت في الثرثرة والنميمة، واصطناع احتياجات جديدة لمزيد من الشراء والاستهلاك، واصطناع شهوات جديدة للطعام والحلويات والمربيات، والممارسات الجنسية، أو انجاب الاطفال.

ورغم الاكل الكثير، واللحم الكثير، والمساحيق الملونة، الا ان المرأة العاطلة من هؤلاء حين تغسل وجهها يبدو وجهها شاحبا بسبب الشقاء الذي تعيشه، وبسبب التناقضات التي تمزقها، فهي متخمة لكنها محرومة، وهي مشبعة لكنها فارغة، وهي مكتظة بالشهوات والمتع وهي عاجزة عن الاستمتاع بشيء، وهي تقتني الراديو والتلفزيون وتقرأ الصحف والمجلات وتذهب الى السينما، ولهذا فهي تقع ايضا فريسة التناقضات الثقافية في المجتمع كله، ويصلها حتى سريرها الافلام الجنسية والراقصات

العاريات والموضوعات الفنية الرخيصة المشوهة لكل الحقائق والمشاعر. يصل اليها كل ذلك عن طريق ادوات العلم الحديث والقرن العشرين. والمرأة تتلقى كل هذا، وهي هنا ايضا مستهلكة، هي منفعلة فقط. لا تجرؤ على الفعل بسبب التقاليد، انها قد تحفظ عن ظهر قلب النكات الجنسية الرخيصة، وتثرثر مع صديقاتها بكل قصص العشق والغرام. لكنها لم تعش في واقع حياتها قصة حب حقيقية، وان عاشتها فهي تعيشها نظريا فحسب، او بطريقة مشوهة مريضة. وهي تسمع ليل نهار تأوهات المغنيات والمغنين، وفوق الشاشة الكبيرة والشاشة الصغيرة واغلفة الكتب والمجلات ترى اجمل الاجساد. لكنها لا تجرؤ عى رؤية جسدها في المرآة. ولا تجرؤ على الاستمتاع بالجنس. والزوجة من هؤلاء تعاني من الحرمان الجنسي. ان علاقتها بزوجها لا تسبب لها الرضا وانما النفور وكراهية الجنس. ان الرضا الجنسي لا يمكن ان يحدث في ظل علاقة غير متساوية، ولا يمكن ان يحدث في ظل تربية صارمة تسبب العقد، ولا يمكن ان يحدث في ظل تناقضات تسبب المرض النفسي والقلق، كما ان الزواج في معظم هذه الحالات يتم لاسباب غير الحب الحقيقي، وقد تكون ايضا حرمت من العضو الحساس (البظر) بسبب عملية الختان وفي ظل القيود والمحظورات. فان الجنس يصبح عملية منفرة كريهة، يهرب منها الزوجان، ويذهب كل منهما الى حيث يعوض عن ذلك بطريقة أو بأخرى.

ان مظاهر التعويض نلاحظها على مثل هذه المرأة العاطلة في تقليدها الجنوني أو جريها وراء الأزياء والتظاهر بالجاذبية الجنسية المتأججة تعويضا عن الحاجة الجنسية المكبوتة. أو ذلك النهم الشديد للاكل والاستهلاك الشديد الذي ليس الا تعبيرا عن الكبت الشديد، والتمزق الشديد بين التناقضات.

ومن اهم نتائج هذا البحث ان اغلبية النساء العاملات، متعلمات وغير متعلمات، لم يتحررن، ولا يعشن حياة اسعد من حياة النساء غير العاملات، وانهن مرهقات جسديا ونفسيا بسبب الدورين اللذين يقمن بهما معا داخل البيت وخارجه بدون مساعدة الرجل او المجتمع. ان خروج المرأة للعمل في ظل ظروف وقوانين لا تساوي بين الرجال والنساء في جميع الحقوق والواجبات لا يؤدي الا الى المزيد من استغلال الرجل للمرأة خارج البيت وداخله، بعد ان كان يستغلها في الداخل فقط، ان المرأة الذكية الواعية هي التي ترفض ان يستغلها الرجل وذلك يزيد تمرد المرأة كلما زاد ذكاؤها وتعليمها. لكن التمرد أو الرفض يسبب لمعظم النساء العصاب، أما القليلات القويات فهن هؤلاء

النساء اللائي يحولن الرفض الى ثورة، أو الى فعل حقيقي يرفع عنهن الظلم والاستغلال. ولهذا لا تصاب الثائرات بالعصاب، فالفعل الحقيقي هو المصدر الوحيد للصحة النفسية عند الانسان الذكي الواعي، والفعل الحقيقي معناه العطاء للمجتمع والايجابية وليس التلقي والسلبية. وكما قال كيركجارد: «انه من الافضل ان تعطي من ان تتلقى. ان التلقي اكثر صعوبة على النفس من العطاء».

وقال سقراط ايضا: «لكي تعرف نفسك لا بد ان تفعل». والفعل هنا هو العمل الحقيقي الخلاق، وليس العمل الروتيني الممل الذي يشبه دوران البقرة في الساقية، وكم من النساء يدرن في ساقية العمل سواء داخل البيت أو خارجه. وكم من رجال أيضاً.

كلمة حول علاج المرأة من العصاب

لعل من اهم مشاكل المرأة ايضا انها اذا ما اصيبت بالعصاب أو اي ازمة أو مرض نفسي فانها لا تجد امامها الا الطبيب النفسي الذي تذهب اليه فيشبع جسدها بالحقن أو الاقراص أو يوجه الى رأسها الجلسات الكهربية.

ولان معظم اسباب العصاب وغيره من امراض المرأة النفسية ليست داخل رأس المرأة أو جسدها وانما هي في المجتمع والاسرة والمدرسة والشارع واماكن العمل. لذلك فان الحقن والاقراص والجلسات الكهربية لا تفيد شيئا، ولا تعالج المرض من جذوره، وانما قد تساعد بعض الشيء في تخفيف الالم أو التخدير المؤقت.

ان علاج الامراض النفسية من جذورها، أو بمعنى آخر إزالة اسبابها الحقيقية يسمى علميا باسم الطب الوقائي النفسي، اسوة بالطب الوقائي الجسدي الذي يمنع الامراض العضوية عن الناس قبل ان يصابوا بها، ولكن الطب الوقائي (سواء كان وقاية من الامراض العضوية أو الامراض النفسية) لا يتقدم التقدم المطلوب الذي يناسب اهميته البالغة لتحقيق الصحة الجسدية والنفسية للناس. والسبب في ذلك هو أن تقدم الطب الوقائي يتعارض ومصالح الاطباء ومفهوم مهنة الطب بصفة عامة. ان تقدم الطب الوقائي (النفسي والجسدي) معناه عدم حدوث امراض جسدية أو نفسية، وهذا معناه افلاس عيادات الاطباء الخاصة.

حينما دخلت كلية الطب «في بداية هذا الدخول» كنت اؤمن بان مهنتي في الحياة

ستكون الطب. فقد كنت اعتقد اعتقادا راسخا بان الطب رسالة انسانية، وفي اليوم الذي تخرجت فيه في كلية الطب «بعد ٦ سنوات ونصف» كنت قد آمنت بان مهنتي في الحياة لن تكون بأي حال من الاحوال هي الطب، وان الاعتقاد بانسانية الطب ليس الا حلم مراهقة.

وهمست في اذن احد زملائي بهذا التغيير الضخم الذي حدث لي خلال سنوات الدراسة الست ، فإذا به يصيح بصوت عال : وانا ايضاً ، وكلنا مثلك .

وقد حاولت ان افهم الاسباب الحقيقية وراء هذا التغيير الذي يحدث للطالب أو الطالبة خلال سنوات الدراسة فادركت ان هذه الاسباب تنقسم الى قسمين:

١ ـ الجو أو المناخ العام الذي يعيش فيه الطالب او طالبة الطب ويستنشق القيم المعوقة لنموه النفسي الانساني.
٢ ـ المعلومات التي تدخل رأسه خلال هذه السنوات، والتي تفسد نظرته الشاملة الى الانسان كوحدة متكاملة من جسد ونفس ومجتمع.

اما من ناحية الجو العام أو المناخ الذي يعيش فيه طالب الطب فهو مناخ يدفع بالطالب الى التطلع الى عربة استاذه الطويلة الفارهة، والى يافطة عيادته الطويلة والطريقة التي يضع بها فم السيجارة الذهبي في فمه. لا انكر ان بعض اساتذتي في الطب كانوا يأتون الى الكلية راكبين الترام العتيق الذي كان يمشي في شارع القصر العيني، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة نادرة، وكان معظمهم من اساتذة الطب الوقائي أو الصحة العامة. مما يجعل طلبة الطب يربطون بين التخصص في الطب الوقائي وبين ركوب الترام.

وحيث ان اي انسان مهما كانت طبقته الاجتماعية يكره ركوب الترام البطيء المزدحم فيبدأ شعور بالكراهية ينمو في اعماق الطالب تجاه الطب الوقائي، ويعتقد ان التخصص في الطب الوقائي ليس الا نوعا من الكوارث التي يجب ان يحصن نفسه ضدها وان يتفنن في اساليب الوقاية منها قبل ان تحدث.

كنت وانا طالبة احب قراءة كتب علم النفس والفلسفة والادب والعلوم الانسانية والاجتماعية. وقد ادركت من هذه القراءات ان اسباب الامراض النفسية (وكثير من الامراض العضوية ايضا) تكمن خارج الانسان، أي في المجتمع والبيئة الخارجية

بسبب الفقر والجوع والظلم والقهر والكبت والكذب. . الخ. ولهذا ادركت ان الطب الوقائي سيكون مصيري وليس الطب العلاجي. وهمست بهذه الرغبة في اذن احدى زميلاتي فاذا بها تشهق في فزع وكأنني همست لها برغبة جنسية آثمة أو محرمة وصاحت: ماذا الطب الوقائي؟ لماذا يا اختي، هو انت فيك عيب أو عاهة؟

كان المناخ الدراسي العام داخل كلية الطب يرسب في اعماقنا العميقة ازدراء للطب الوقائي، واحساسا بان الاتجاه نحوه او التخصص فيه لا يمكن ان يحدث لطالب ذكي متكامل القوى العقلية والجسمية، وانما لا بد ان يكون هناك عيب ما فيه يمنعه من الاتجاه نحو التخصصات الطبيعية المشروعة في الطب. والتخصصات الطبيعية المشروعة في الطب هي التخصصات العلاجية مثل الجراحة وامراض باطنية ونساء وولادة وصدرية وجلدية وعصبية وتناسلية وعيون وغيرها، اما التخصص في اي فرع من فروع الطب الوقائي فهو جنوح عن الطبيعة وخروج عليها، ولا بد ان يكون ذلك لسبب قهري، اما ان يكون اختياريا فهذا هو ما لا يقبله أي عقل.

اما عن المعلومات التي تدخل رأس طالب او طالبة الطب خلال سنوات الدراسة فهي معلومات لا يمكن بأي حال من الاحوال ان تؤهل الطبيب او الطبيبة لمعرفة الاسباب الحقيقية للامراض النفسية (وكثير من الامراض العضوية ايضا). واني اعترف بانني لم افهم في جسم الانسان أو نفسه أو بيئته الا بعد ان تخرجت في كلية الطب، وذلك من احتكاكي بالمجتمع وقراءاتي الخاصة في العلوم المختلفة، ان الدراسة في كلية الطب تفصل الانسان عن المجتمع، وتجعله جسدا معزولا، كجسد الفأر الذي يعزل في المعمل، وبالتالي يجهل معظم الاطباء الاسباب الاجتماعية (وهي الاسباب الحقيقية) للامراض في احيان كثيرة (الاسباب الاجتماعية تعني الاسباب الاقتصادية والسياسية بطبيعة الحال).

اما عن نفس الانسان فهذا هو ما لم يعرفنا به احد خلال سنوات الدراسة في كلية الطب، اللهم الا محاضرة او محاضرتين في السنة الثانية لا توضح لنا نفس الانسان بقدر ما تزيدها غموضا.

ولست اعتقد انه يمكن لنا ان نعالج الامراض النفسية (وكثير من الامراض العضوية) ما لم تعالج الاسباب الاجتماعية لهذه الامراض. واول خطوات العلاج هو ان نعرف هذه الاسباب الاجتماعية لنعرف كيف نعالجها. ولعلنا قد ادركنا الآن بعض

هذه الاسباب، وعرفنا ان عدم المساواة والكبت والقيود على الحرية والخوف وغيرها من العوامل الاجتماعية التي تتعرض لها المرأة منذ طفولتها حتى كهولتها هي التي تسبب لها العصاب والامراض النفسية.

ولهذا ليس امامنا من وسائل للعلاج الا علاج هذه الاسباب، . وازالة التفرقة بين الجنسين، وازالة الكبت في حياة البنات والنساء، وازالة القيود التي تمنع البنت والمرأة، وازالة الخوف الذي يجعل البنت أو المرأة تكذب على نفسها والآخرين وتصبح عاجزة عن ممارسة الحب الصادق، وتهيئة الظروف والامكانيات التي تساعد المرأة على العمل المنتج الخلاق وتحقيق ذاتها كانسانة لها عقل وليست مجرد جهاز تناسلي لولادة الاطفال واشباع الزوج.

ومن هنا نرى ان علاج النساء يرتبط ارتباطا وثيقا بقضية تحرير المرأة، وان قضية المرأة ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية تحرير المجتمع من الاسباب التي تدعو الى استغلال الانسان للانسان، والتفرقة بين البشر، وتمزيق الناس الى مجموعات فقيرة كادحة يمرضها التعب والجوع والارهاق والهموم ومجموعات ثرية مرتاحة تمرضها الراحة والفراغ والتخمة وتمزيق الناس الى جنسين: جنس انثوي مقهور يمرضه القهر والخضوع والكبت والخدمة والطاعة العمياء، وجنس ذكري عدواني يمرضه العدوان والبطش والظلم والاستبداد بالرأي.

ان الحكام المستبدين يتعرضون بسبب الاستبداد للسادية تماما كما يتعرض المحكومون المستعبدون للماسوشية. ان الاستبداد والاستعباد وجهان لعملة واحدة هما يسببان السادية والماسوشية وهما وجهان لعملة واحدة ايضا.

ولا يمكن لنا ان نعالج السادية والماسوشية بالاقراص والحقن والكهرباء، ولكن علاجهما الوحيد هو علاج الاستبداد والاستعباد.

ومن هنا اهمية عدم الفصل بين العلوم السياسية والعلوم الطبية، أو اهمية ربط السياسة بالطب. فالسياسة بمعناها الحقيقي لا تعني تدبير المؤامرات أو المناورات، أو لعبة الانتخابات، ولكن السياسة هي توفير الطعام والصحة والوعي والمعرفة للناس. أو بعبارة اخرى توفير الصحة الجسدية والنفسية للناس. ويتضح لنا أن هدف السياسة الصحيحة هو نفسه هدف الطب الصحيح، وليس هناك أي تعارض بين الطب والسياسة بل لا يمكن لاحدهما ان ينفصل عن الآخر.

ولعل هذا هو السبب في ان بعض الاطباء والطبيبات حين يدركون هذه الحقيقة لا يقودهم عملهم الطبي الصحيح (في الأنظمة الاستبدادية) الى الثراء وشراء العمارات والاطيان وانما الى السجون أو الى المستشفيات النفسية، حيث يتعلمون عن طريق اختلاطهم بالمرضى أو المساجين حقائق الحياة اكثر واكثر. ان هؤلاء المنبوذين من المجتمع سواء كانوا مرضى أو مساجين يمسكون في ايديهم وفي حياتهم كثيرا من الحقائق التي يخفيها المجتمع. وقد قال غاندي: «من اجل زعزعة نظام الطوائف يكفي تركيز الجهود على نقطة حساسة في المجتمع: «المنبوذين» وانا اقول: من اجل زعزعة الاستغلال في المجتمع والاسرة الابوية يكفي تركيز الضوء على نقطة حساسة في المجتمع «النساء المريضات بالعصاب».

الجزء الثاني

نماذج من بعض مشاكل الفتيات
والنساء اللائي قابلتهن

زينب

هي زوجة في الرابعة والعشرين من عمرها، شاحبة الوجه، منكسرة العين قالت لي انها خائفة من ان تفقد عقلها. وسألتها عن مظاهر فقدان العقل التي تخافها. فقالت انها حين تحتضن طفلتها لترضعها تشعر برغبة في ان تضغط عليها حتى تقتلها. وانها من شدة هذه الرغبة التي سيطرت عليها اصبحت تخاف ان ترضع طفلتها، بل احيانا ما ترتجف اصـابعها حين تلمسها. ومن شدة خوفها من ان تقتل ابنتها اصبحت لا ترضعها ولا تلمسها وتتركها وحدها تبكي. وقد اخذها زوجها الى عدد من أطباء النفس وحصلت على جميع انواع العلاجات ابتداء من الجلسات الكهربائية حتى الاقراص المهدئة دون فائدة.

ويتلخص تاريخ حياة زينب في انها نشأت في اسرة من اب وام، واربعة من الابناء والبنات، وكانت هي البنت الكبرى. كان ابوها متوسط التعليم ويعمل في شركة صناعية كمشرف او مراقب عمال، ولم يكن مرتب الاب يكفي نفقات الاسرة، فكانت الام تعمـل احيانا خياطة وتحيك الملابس على آلتها بالبيت للاسر المجاورة. ونشأت «زينب» على الطاعة واحترام ابيها وامها ودخلت المدرسة الثانوية في الحي المجاور (باب الشعرية). وكان أبوها (وامها ايضا) يخاف عليها من صبيان الحي، وخاصة ان اشاعة ترددت في الحارة ان بعض الرجال عثروا على مولود «لقيط» بجوار الجامع وانهم سلموه للشرطة. ومن شدة خوف الاب كان يترك عمله احيانا ويرافق ابنته الى المدرسة، وكان يشدد عليها الرقابة، ولا يسمح لها بالخروج مع زميلاتها. وكانت زينب لا تعترض على أي اوامر من ابيها.

حصلت زينب على الثانوية العامة، ولم يعطها ابوها فرصة للتفكير في مستقبلها، فاذا به يسعى لتحصل ابنته على وظيفة بالمصنع الذي يعمل به واعتقد الاب انه يضرب

عصفورين بحجر واحد. فان مرتب ابنته سوف يساعده في نفقات الاسرة، وكما ان وجودها معه في الشركة نفسها سيجعلها دائما تحت مراقبته ويطمئن عليها دائما.

واشتغلت زينب في مصنع الشركة ثلاث سنوات، لا يزيد عملها عن تعبئة بعض الزجاجات وتغليفها. وفي تلك الاثناء حصل اخوها الذي يصغرها بعامين على الثانوية العامة، وبرغم ان مجموع درجاته كانت اقل من مجموع درجاتها الا ان الاب شجعه على دخول الجامعة، وفعلا التحق الابن بكلية العلوم. وكانت زينب تدفع كل مرتبها لابيها، وكان الاب يعطيها مصروفا شهريا اقل مما يعطي اخاها. وكان يقول لها ان اخاها شاب وطالب جامعي ويحتاج الى مصروفات اكثر منها.

وكان لزينب ابن خالة تخرج حديثا في كلية الهندسة، وعين في منصب ممتاز (في عين ابيها). واحست زينب ان اباها يسعى بكل الطرق لتزويجها من ابن خالتها. وفعلا استطاع ان يزوجها له، ولم يكن لزينب ان تخالف اي امر لابيها. . وكان يقول عنها انها ابنة مثالية.

وبعد الزواج تركت زينب وظيفتها في الشركة، وتفرغت لزوجها، الذي كان يعاملها معاملة طيبة بسبب طاعتها وهدوئها.

وتخرج اخوها في كلية العلوم، وكان متفوقا فعين بالجامعة، واشترى سيارة، واصبح موضع فخر الاب والام وافراد الاسرة كلها.

وانجبت زينب طفلتها الاولى، وبدأت تنتابها حالة الخوف بالتدريج حتى وصلت الى حالة الخوف التي وصفتها سابقا، وهو الخوف من ان تقتل طفلتها. وتقول زينب هنا: «تصوري يا دكتورة انا افكر في قتل ابنتي وقد انفق زوجي علي الكثير عند الاطباء للعلاج بلا فائدة. والغريب ان ابي يتعاطف مع زوجي، ويقول لي بشدة وقسوة: مرض نفسي ايه وكلام فارغ ايه؟ ان حياتك تتمناها اية امرأة في العالم. لا ادري كيف يمكن لواحدة مثلك ان تكون تعيسة الى هذا الحد. ان عليك ان تسجدي لله شكرا لانه منحك ابا حافظ عليك ثم زوجك لرجل ناجح طيب هيأ لك حياة مريحة. ماذا تريدين اكثر من ذلك؟

وتردد زينب لنفسها امامي: «صحيح يا دكتورة ماذا اريد اكثر من ذلك. يجب علي

ان اكون سعيدة ولكن لا ادري لماذا اصبحت اخاف حتى من السير بمفردي في الشارع».

وسألتها: لماذا تخافين.. الانسان لا يخاف الا اذا شعر بخطر.

قالت: نعم. اشعر بخطر.

قلت: اين هو الخطر؟

قالت: لا ادري، ولكني اخاف.

سألتها: وماذا قال لك الاطباء النفسيون؟

قالت: قالوا لي انه ليس هناك خطر في حياتي، ولا في الشارع، وعلي الا اخاف، ووصفوا لي الأقراص المهدئة.

وحينما نظرت في عيني زينب رأيت الخوف والذعر. انها تخاف فعلا، لكن خوفها ليس لخطر خارجي نراه بأعيننا ولكن خوفها بسبب خطر داخلي، في داخل نفسها، هذا الخطر لا نراه نحن وليس واضحا وضوح سيارة تجري بسرعة في الشارع وتكاد تدوسنا، أو رصاصة منطلقة من مسدس في وجهنا، ولكنه خطر موجود ومحسوس داخل الشخص الذي يعاني منه. ونحن عادة نقتنع بالخوف الذي يحدث للانسان بسبب خطر خارجي. نحن لا نقول عن اي شخص انه مجنون اذا صرخ مذعورا في الشارع بسبب سيارة مسرعة كادت تدهسه، لكننا نقول ان زينب مجنونة لانها تشعر بالخوف ونحن لا نرى اي خطر حولها.

ان عدم رؤيتنا للخطر لا يعني ان الخطر غير موجود. قد يكون الخطر موجودا ورؤيتنا هي القاصرة وهي العاجزة عن رؤيته أو ادراكه. وهذا هو ما حدث لزينب. لقد تصور أبوها ان الخطر الوحيد الذي يمكن ان يهدد حياتها هو ان تحمل سفاحا (كالأم المجهولة لذلك اللقيط الذي وجد بجوار الجامع)، ولم يدرك على الاطلاق الخطر من ارغامها على قطع دراستها وطموحها رغم ذكائها وتفوقها، ولم يدرك على الاطلاق الخطر من فرض زوج عليها لا تريده ولا تحبه، وتصور انها يجب ان تسجد لله شكرا لانه منحها هذا الاب الذي حافظ عليها، ثم زوجها لرجل ناجح طيب. ماذا تريد اكثر من ذلك؟

وفي رأيي ان هذا الاب كان خطرا على ابنته كالسيارة المسرعة التي تدهس الانسان وتدوس على جسده، بل ان خطره كان اشد، لان الخطر الذي يدوس النفس اشد فتكا بالانسان من الخطر الذي يدوس على جسده فقط.

وبينما انا افكر في هذا سمعت زينب تقول لي: «اتعرفين يا دكتورة كم اتمنى ان اشفى، كم اتمنى ان يزول عني هذا الخوف، كم اتمنى ان اسير في الشارع كما يسير الناس، وارضع ابنتي ككل الامهات دون ان تراودني فكرة خنقها. اني اتمنى الشفاء بأي ثمن.. بأي ثمن. لقد قلت لاحد الاطباء اخلع عيني من رأسي او اقطع ذراعي، واعطني دواء يشفيني»!

وصـدقت زينب بالطبع، فانا اعرف ان فقدان اي عضو من اعضاء الجسم لا يساوي شيئا بالنسبة لفقدان النفس. ولهذا فان السيارة التي تدهس شخصاً في الطريق العام وتقطع ذراعه أو ساقه أو تقلع إحدى عينيه يكون خطرها اقل بكثير من ان يرزق الطفل بأب مثل ابي زينب.

والغريب اننا جميعا لا نرى خطر مثل هذا الاب. انه في نظرنا ايضا اب مثالي فهو لا يسكر، ولا يسهر، ولم يطلق زوجته، ولم يعربد، ولم يسرق ولم يختلس، ولم يبطش، ولكنه كان ابا يعمل في شركة طول النهار، وينفق كل مرتبه على اسرته، ويحافظ على أبنائه وبناته، ويحميهم من كلام الناس أو السمعة السيئة، ويختار لهم ازواجا طيبين ناجحين يضمنون لهم الراحة والحماية. مثل هذا الاب في عيوننا جميعا ليس الا ابا مثاليا وأبا محبا لبناته وأبنائه. ولكن كم من الجرائم ترتكب باسم المثالية وباسم الحب. ان ما حدث في حياة زينب هو جريمة قتل. لقد قتلها ابوها. وهي تعيش مع زوج يشبه اباها. انه زوج مثالي محب لزوجته. انه لا يسكر ولا يسهر ولا يعربد وينفق كل مرتبه عليها وعلى البيت والطفلة. ماذا تريد اكثر من ذلك؟ ما الذي يخيفها؟ ان حياتها آمنة تماما، خالية من الحوادث والمفاجآت، خالية من التحديات والصعوبات، خالية من التفكير في شيء يحدث. لان شيئا لم يحدث.. لان شيئا لن يحدث.. لان حياتها خالية خاوية،. كعدم الحياة كالموت تماما.

وهنـا حدثت الصدمة النفسية لزينب، وتسمى في علم النفس بصدمة «انعدام المؤثرات في الحياة»، وهي تشبه صدمة الموت، لكن الجسد يظل على قيد الحياة، لقـد اكتشفت زينب ان حياتهـا خاوية تماما. وانها لم تعد تنتظر شيئا من حياتها، فالمستقبل سيكون كالحاضر كالماضي ولا شيء سيحدث لتغيير هذا الخواء في حياتها، والاستسلام، والطاعة المستمرة لابيها ثم لزوجها. ان شيئا لم يحدث ليغير هذا وسوف تصبح حياتها لا شيء في المستقبل، كما كانت لا شيء في الماضي.

وكانت زينب في اعماقها لا تكف عن مقارنة نفسها بأخيها، الذي اصبح ملء السمع والبصر بتفوقه الفكري في الجامعة. وقال لها احد الاطباء النفسيين الذي ذهبت اليه ان ذلك بسبب عقدة الحسد التي تشعر بها البنت نحو اخيها الذكر بسبب امتلاكه عضو الذكر (افكار فرويد) لكنها ذهلت لهذا الرأي وقالت له انها لم تطرأ على بالها تلك الفكرة قط. ولكنها تشعر انها حرمت من التعليم العالي وانها كانت اكثر تفوقا منه وكان يمكن ان يكون لها مستقبل افضل من مستقبله. وانها تشعر انه من الظلم ان تحرم من طموحها الفكري، وان يشغلها ابوها في الشركة، وتدفع مرتبها الشهري من اجل ان يدخل اخوها الجامعة ويتعلم هو وينجح، ويرقى، وتظل هي راكدة في بيت الزوجية الآسن.

والغريب ان هذا الطبيب فسر رغبتها في قتل طفلتها على انها نوع من العدوان بسبب الكبت الجنسي الذي تعانيه. وكان هذا الطبيب قد سأل زينب عن علاقتها الجنسية مع زوجها فقالت انها لا تفكر في الجنس على الاطلاق، اذا رغب زوجها فيه فانها تمارس معه الجنس. واذا لم يرغب فهي لا تفكر في الموضوع، واستنتج انها تعاني من البرود الجنسي وان هذا البرود هو سبب الاضطراب النفسي الذي تعاني منه.

ولم يدرك الطبيب المعالج ان البرود الجنسي عند زينب ليس الا نتيجة الموت النفسي والفكري الذي حدث في حياتها. ان الانسان (امرأة أو رجلا) لا يمكن ان يقتل فكريا ونفسيا وتظل رغبته الجنسية صاحية وحدها، متأججة أو مشتعلة بالحياة. ان النشاط الجنسي في حياة الانسان جزء من النشاط الفكري والنفسي، ويدركه الموت والبرود لا شك حين يدرك الموت والبرود النشاط النفسي والفكري عنده.

ان خوف زينب من رغبتها المسلطة عليها لقتل طفلتها لم يكن الا تعبيرا عن احساسها بان هذه الطفلة البنت ستقتل مثلها، وستعيش الحياة التي هي تعيشها. وانها ما دامت ستموت كما هي ميتة، فالافضل لها ان تموت وهي طفلة صغيرة وقبل ان تتعذب، بدلا من ان تمر بالمراحل جميعها التي مرت بها.

ان زينب قد ادركت الخطر المحدق بحياة ابنتها، هذا الخطر الذي لا يراه معظمنا ومعظم اطباء النفس. لكن زينب قد ادركت الخطر لانها عرفته وعاشته وعانت منه، ولانها ايضا انسانة ذكية ولها عقل يفكر. ولكنها في الوقت نفسه تدرك ان هذا الخطر

يملأ الوجود، وانه اقوى منها، واقوى من ابنتها، ولذلك فهي تشعر انها لا تمتلك في مواجهة هذا الخطر الا ان تحمي ابنتها منه، وذلك بأن تخفيها من الوجود تماما.

وهذا هو سبب خوفها من السير في الشارع. كانت زينب حين تسير في الشارع تخاف من ان تلقي بنفسها تحت العربات. حينما طلبت منها ان تفسر لي ماذا تشعر وهي تسير في الشارع، قالت: اشعر كأنني سأسقط تحت العربات.

وسألها: كيف تسقطين؟

قالت: لا ادري، ولكني احس ان قوة خفية تدفعني من الخلف تحت العجلات.

ان هذه القوة الخفية لم تكن الا رغبة زينب نفسها في ان تقتل نفسها. وهي رغبة منطقية جدا تتمشى مع رغبتها في قتل ابنتها. والخوف الذي تشعر به ايضا خوف منطقي، لانها تحب نفسها، وتحب طفلتها ايضا. وبسبب ذلك الحب هي تحاول ان تحمي نفسها وتحمي طفلتها من الموت. وكم يكون شاقا على الانسان ان تضيق به سبل الحياة جميعا فلا يجد طريقا يسلكه الا الموت، او لا يجد طريقا يهرب به من الموت الا الموت ذاته.

وقالت لي زينب بعينين منكسرتين حزينتين جدا: الموت ارحم يا دكتورة مما انا فيه ليتني اموت اعطيني دواء يميتني ويريحني.

ولم يكن في استطاعتي ان اكتب لها اي دواء فهل كنت سأكتب لها تلك الاقراص الجديدة في الطب النفسي التي يسمونها اقراص السعادة. ان مثل هذه الاقراص في رأيي تشبه عصا الحاوي حين يرفعها في الهواء ويقول انها ستتحول الى عصفور.

لم اكتب لها اي دواء، لكني قابلتها ثلاث مرات، وفي كل مرة كنت اتحدث معها ما يقرب من ساعتين. حاولت معها ان القي بعض الضوء على حياتها واسباب خوفها، فان الاسرة التي نشأت فيها لم تكن اسرة ريفية في الريف حيث يكون للنساء نوع من الحرية في الذهاب الى الحقل والعلم والاختلاط بالناس ذكورا واناثا. ولم تكن من الاسر المثقفة المتحضرة نوعا ما من حيث يكون للنساء نوع من الحرية في الذهاب الى النوادي أو الجامعة أو العمل. ولكنها من الأسر المتوسطة أو تحت المتوسطة، التي تعيش في المدن، والتي تسيطر عليها التقاليد المتزمتة والاباء انصاف المتعلمين الذين هم اشد جهلا من الجهلاء الذين لا يتعلمون شيئا ويتصرفون بفطرتهم وطبيعتهم.

ويتصف معظم هؤلاء الاباء، بالاضافة الى التزمت، بالتطلع الى الطبقة الاعلى.

بل ان تزمتهم الشديد ليس له من سبب سوى تطلعهم الشديد. ان الأب لا يتردد لحظة في التضحية بابنته من اجل الصعود درجة في السلم الاجتماعي وقد فعل ذلك أبوزينب. لقد استغلها، ومص دمها، من اجل ان يصعد درجة في المجتمع. استغلها قبل الزواج حين قطع تعليمها وشغلها واستولى على مرتبها. واستغلها باسم الزواج حين باعها لزوج من الطبقة الاعلى. كل هذا الاستغلال يحدث في جو من التزمت الاخلاقي الشديد، والطاعة العمياء للاب التي يسمونها في تلك الطبقة احترام الاب.

وسألت زينب: «كنت تحترمين اباك»؟

قالت بصوت ضعيف: «جدا، ولقد عودنا على ان نقف حين يدخل، وان نقبل يده حين نصافحه».

سألتها: «وامك»؟

قالت: «كانت امي امرأة طيبة، مكافحة، تشتغل طوال النهار في البيت والطبخ، وبالليل تجلس إلى الآلة تخيط الملابس».

سألتها: «ماذا كان شعورك نحوها»؟

قالت: «شعور عادي. لم اكن احترمها مثل ابي، لكني كنت اشفق عليها. واحيانا حين تقف في صف أبي اشعر اني اكرهها».

وسألتها: «ألم تشعري بالحب لاحد من الشباب»؟

قالت: «لا. كنت اخاف من الصبيان، وكان ابي ينبهني دائما للمحافظة على نفسي والا اثق بأي شاب. وفعلا كنت اشك في اي شاب».

سألتها: «والجنس»؟

قالت: «مع زوجي».

قلت: «هل كان هناك جنس آخر»؟

قالت: «لا».

قلت: «اذن مع زوجك».

قالت: «الحقيقة يا دكتورة انا لا احب الجنس. ابي كرهني في جميع الرجال.

سألت: هل اجروا لك عملية الختان»؟

قالت: «بالطبع هذا تقليد في العائلة كلها».

سألتها: «هل شعرت بالخوف يوم عملية الختان؟»

ضحكت وقالت: بالطبع، هربت من الداية فوق الخزانة، لكنهم امسكوني في النهاية.

كانت زينب امرأة طيبة هادئة، لم يكن من الممكن لها بعد التربية التي تربتها ان تكون امرأة عنيدة رافضة أو ثائرة على الاوضاع في حياتها.

ان عجزها عن الرفض والتمرد والثورة هو الذي اصابها بذلك العصاب neuroses أو حالة الخوف والفكرة المتسلطة التي تخاف منها.

انها لو استطاعت ان ترفض وان تثور لتخلصت من هذا العصاب. لكن مثل هذه التربية الصارمة المغلفة من الخارج بقشرة من الحب تخدع الانسان وتوهمه ان كل شيء على ما يرام، وانه ليس هناك سبب يجعله يثور. وتمضي السنون على هذا النحو ولا يفيق الانسان الا على صدمة الموت، واكتشاف الحقيقة المرة، انه فقد نفسه وانه مات، وهو على قيد الحياة. كما حدث لزينب. ان الحياة القاسية الصعبة الواضحة القسوة افضل بكثير من هذه الحياة، لان الانسان يستطيع ان يثور عليها، ويجد من الاسباب الواضحة التي تجعله يثور مبكرا في حياته قبل ان يستفحل الامر ويحدث الموت.

ان الموت في حياة الانسان انواع متعددة، احدها هو الموت البيولوجي. وهو موت الجسم. وان الناس (بالذات الرجال) يحرصون على ان يعيشوا اجتماعيا ومهنيا وسياسيا وبيولوجيا ايضا. ان الموت النفسي هو ان يعيش الانسان بيولوجيا فقط، ويموت في المجالات الفكرية والنفسية والاجتماعية.

ان كثيرا من الناس يتصورون ان الموت البيولوجي هو الموت الوحيد الذي ممكن ان يحدث لهم. ولهذا هم يموتون نفسيا وفكريا ولا يصابون بالعصاب، أو لا يشعرون بالخطر لانهم لا يرونه،غير واعين به. ان مرض العصاب ليس الا «نوراً احمر» تشعله النفس علامة الخطر. ان المحظوظين فقط من الناس هم الذين يرون «النور الاحمر» هؤلاء الذين حظوا بقدر كبير من الحساسية والذكاء، والذين ارتفعوا كثيرا عن مجرد ان يعيشوا بيولوجيا، أو يأكلوا ويشربوا ويناموا ويتناسلوا فقط.

وحينما نظرت في عيني زينب رأيت الحساسية والذكاء وادركت ان زينب لن تشفى من عصابها وحالة الخوف عندها الا بان اؤكد لها ان الخطر موجود فعلا، وانها على حق في خوفها، وانها لكي تنقذ نفسها من الموت المحدق بها لا بد ان تعيش فكريا ونفسيا واجتماعيا، وذلك عن طريق العمل.

ولمعت عيناها ببريق خاطف وقالت: «يا ريت يا دكتورة، ياريت تشوفي لي شغل. انـا اريد ان اعمـل». وطلبت من زينب ان تبحث عن اي عمـل لهـا وانا بدوري سأساعدها. وفعلا وجدت زينب عملا في احدى الشركات التجارية. لم يكن هو نوع العمل الفكري الذي تريده، لكنها زارتني بعد بضعة شهور. كانت مرحة نشيطة وادركت انها اجتازت الازمة بنجاح وقالت لي زينب بحماس: «ان عملي روتيني ممل يا دكتورة لكني اشتريت بكل ماهيتي كتبا وبدأت اقرأ..».

وسكتت لحظة ثم قالت بشيء من التردد والخجل: «وقد بدأت اكتب ايضا»..
وسألتها: «ماذا كتبت يا زينب؟»
قالت بخجل: «قصيدة شعر».
سألتها: «ولماذا تخفضين صوتك هكذا. هل كتابة الشعر عملية مخجلة؟».
قالت: «لا يا دكتـورة، لكني وانـا تلميذة بالمـدرسة الثانوية كتبت قصيدة شعر واخفيتها بين كتبي لكن ابي عثر عليها، فقد كان يفتش كتبي من حين الى حين. وحين قرأها مزقها، وأمرني بأن اذاكر فقط، والا اشغل ذهني بهذه الامور الفارغة».

وضحكت زينب وهي تنـاولني قصيدتها وقالت: «هذه القصيدة ليست جيدة يا دكتورة، لكني سأكتب قصيدة اخرى»، اني اشعر بالراحة وانا اكتب. وقرأت قصيدة زينب، كانت افضـل في رأيي من كثير من القصائد التي اقرأها منشورة في بعض المجلات والصحف. وقلت لها: «انها قصيدة جيدة يا زينب وسأساعدك على نشرها في احدى المجلات».

وهنا صاحت زينب من شدة الفرح: «صحيح يا دكتوره! صحيح يا دكتورة القصيدة اعجبتك»؟

قلت لها: «افضل من بعض القصائد التي تنشر في المجلات». فلمعت عيناها بالسعادة، وتنهدت تنهيدة عميقة، وكأنما تقول لنفسها: اخيرا.. اخيرا.. اعثر على نفسي!

واصبحت زينب صديقـة لي حتى اليوم.. ولم تعـد تشعـر بالخوف واصبحت تحتضن طفلتها بكل حنان، وفي المرة الاخيرة التي رأيتها فيها قالت لي: «تعرفي يا دكتورة، انا لم اكن اتصور ابدا انني سأشفى».

قلت: «انت لم تكوني مريضة يا زينب. انت كنت شديدة اليقظة ولذلك ادركت

الخطر من حولك ومن حول ابنتك» .

قالت: «تعرفي يا دكتورة.. انا سأبذل جهدي لاجعل ابنتي تعيش حياة اخرى غير الحياة التي عشتها. سأوفر لها احسن تعليم واحسن كتب ولن ازوجها، ولكني سأتركها هي تقرر حياتها بنفسها» .

سألتها : «وما رأي زوجك ؟» .

قالت وهي تضحك: «ان زوجي رجل طيب يا دكتورة، ليس شديدا مثل ابي كما انه فرح جدا حين شفيت ويقول لي دائما: اللي انت عاوزاه اعمليه» .

علياء

«علياء»، شابة طويلة سمراء. ملامحها حادة قوية، لا يمكن ان تضيع ملامحها من ذاكرة من يراهـا ولو مرة واحدة. ان عينيها من ذلك النوع الذي يستحوذ على الانسان، ويفرض عليه ان يحترم صدقها وذكاءها وان بلغ اية درجة من الجنون، أو الخروج عن المنطق المألوف لاغلبية البشر.

قالت لي وفي صوتها رنة خفيفة من السخرية: لم اكن اتصور انني أدخل عيادة طبيب نفسي في يوم من الايام، كنت شديدة الغرور بإرادتي، وقدرتي على تحدي العالم، والتعبير عن نفسي بكل صدق وشجاعة، ولم اكن اتصور ان شيئا يحطمني، ولكنني ادركت ان المرأة لا يحطمها الا زوجها.

وقـاطعتها قائلة: لا اظن ان شيئا يمكن ان يحطمك. هذا هو احساسي قبل سماعي لمشكلتـك. ابتسمت بطريقتها الهادئة الممزوجة بالسخرية الخفيفة وقالت: ولكني محطمة فعلا يا دكتورة. لقد تأكدت من ذلك في الايام الاخيرة. فأنا لا انام الا بالاقراص المنومة، ولا اصحو الا بالاقراص المنبهة، ولم اعد اطيق اي شيء في حياتي، حتى الكتابة التي كانت المنفس الوحيد لي اصبحت عاجزة عنها، وقد اقدمت على الانتحار عدة مرات، ولا يشغلني الآن سوى اختيار افضل وسيلة للموت. لقد كنت اظن ان الانتحار دليل الضعف، والجبن والهروب من الحياة ولكني اعتقد الآن ان الانتحار دليل القوة والصلابة ومواجهة الحياة بشجاعة. لم اعد ارى في الحياة شيئا يستحق ان اعيش من اجله. تغيرت ملامحها بسرعة، وكستها مسحة غريبة ومفزعة من الكآبة والحزن، انتقلت الي كأنما بالعدوى فشعرت ان قلبي ثقيل، واخذت انصت اليها دون ان اقاطعها.

وقالت علياء بعد ان اشعلت سيجارتها: اخرجني ابي من الجامعة وانا في السنة

الاولى ليزوجني من رجل تاجر ثري. ولكن هذا الرجل طلقني بعد سنة ونصف السنة انجبت فيها طفلا. وكان سبب الطلاق انه نظر في وجه طفله بعد ولادته فأحس انه ليس ابنه، وان الطفل لا يشبهه. ودهشت لهذا لانني كنت صغيرة (في الثامنة عشرة من عمري) ولم اكن اعرف اي رجل آخر. وقال انه يشك في منذ ليلة الزفاف. لانني لم اكن عذراء. دهشت اكثر واكثر لانني لم اكن قد اتصلت جنسيا بأي رجل قبل الزواج. وصارح هذا الرجل ابي وجميع اسرتي بكل شكوكه وارسل لي ورقة الطلاق، ورفع ابي عليه قضية نفقة لي وللطفل لكتنا عرفنا انه صفى جميع اعماله التجارية وغادر البلاد الى كندا، ومعه زوجة اخرى. واصبحت انا وطفلي نعيش في كنف ابي، الذي كان يتذمر دائما من طفلي وكثرة المصاريف، ويلمح لي دائما بان شكوك زوجي ربما كانت حقيقية. لكني كنت اؤكد له دائما ان زوجي كان كاذبا في شكوكه، وانه تعلل بكل هذه العلل ليطلقني في ظل تلك الفضيحة التي تسهل عليه التهرب من دفع النفقة لي وللطفل حتى يغادر البلاد مع زوجته الاخرى. كانت حياتي انا وطفلي في بيت ابي جحيما، ومهانة. ولم تكن امي تملك شيئا ولا اخوتي الستة الصغار. وفكرت في ان اعمل بالثانوية واعول نفسي وطفلي. وكنت اشعر برغبة شديدة في الكتابة وكتبت قصة قرأتها لاحدى صديقاتي، فاعجبت بها جدا وشجعتني على ان احاول نشرها في احدى المجلات، وآخذ عنها اجرا.

وحصلت على عمل كتابي باحدى المؤسسات الصحافية، وبالرغم من ان عملي لم يكن فنيا، الا ان جو العمل هيأ لي الاتصال ببعض الصحفيين والكتاب وبدأت افهم الحياة، واقرأ كثيرا، واكتب من حين الى حين.

ثم قابلت زوجي الحالي، وهو محام، واحبني واحببته وتزوجنا منذ خمسة عشر عاما، وانجبت بنتين وبذلك اصبح لدي ابن وبنتان. صارحت زوجي قبل الزواج بكل ما حدث لي في حياتي قبل ان اقابله، وصدقني وطلب مني ان انسى ما فات، وان افكر في المستقبل. وفعلا فعلت ذلك وبدأت اعمل من اجل مستقبلي ككاتبة، فقد احسست ان الكتابة هي مستقبلي الوحيد. وكنت افرح كلما نشرت لي قصة، وحازت اعجاب بعض الناس، ولم يكن ينغص علي فرحتي الا زوجي الذي بدأت ادرك انه يحاول ان يعطلني عن الكتابة، وكان يتعلل بان الكتابة تشغلني عنه وعن البيت، لكني عرفت انه يغار من اي نجاح ادبي احصل عليه، وبدأ يظهر ضيقه كلما تقدمت في الكتابة وعرفني الناس، واذا نشرت عني احدى الصحف خبرا أو نشرت صورتي فالويل

لي في هذا اليوم، ان زوجي لا بد ان يخلق مشاجرة في البيت لاتفه الاسباب. وكنت اتحمل زوجي لانني كنت احبه، وكنت احب اسرتي واولادي، ولا اريد ان تتحطم حياتي الزوجية للمرة الثانية. وكان زوجي يقسو علي كلما تحملته، وكلما تنازلت عن حق من حقوقي من اجل ارضائه طمع في المزيد. وظللت على هذا النحو حتى وجدتني في النهاية قد تنازلت عن كل مستقبلي الادبي، ولم اعد اكتب، ولم اعد انشر شيئا، واصبحت منعزلة عن الحياة الادبية كلها. ولم يعد زوجي يجد اي سبب للتشاجر معي، لكني بدأت اشعر بالصداع والارق، وشعرت بكراهية لحياتي ورغبة في الموت وذهبت الى طبيب نفسي فأعطاني اقراصا مهدئة واقراصا منومة، ونصحني بأن احاول الكتابة مرة اخرى، لكني اصبحت عاجزة عن الكتابة، وعاجزة عن التفكير في شيء، أو التركيز. كراهيتي لزوجي تزيد يوما بعد يوم، لاني اشعر انه السبب فيما حدث لي، ولم اعد اشعر معه باية رغبة عاطفية أو جنسية. وقد اتهمني منذ شهور بالبرود الجنسي وهددني بانه سيذهب الى امرأة اخرى فلم اشعر بأي اهتمام بل شعرت بشيء من الراحة لانه سينشغل بامرأة اخرى عني. علاقتي بأولادي لم تتغير كثيرا، لكني اشعر انني اصبحت اكثر ابتعادا عنهم، واكثر رغبة في الانطواء على نفسي. وفي احدى الليالي كنت مؤرقة واشعر بصداع شديد واختناق، وحينما رأى زوجي حالتي ثار وغضب وقال انه لا يعترف بشيء اسمه مرض نفسي، وانه لا يرى اي سبب في حياتي يدعوني الى الاكتئاب، وانني يجب ان احمد الله لانني عثرت على زوج رضي ان يتزوجني رغم الماضي الذي عشته. وكدت اصعق من قسوة الكلام الذي قاله لي والذي اكد لي فيه انه لم ينس قط ما قلته له، وانه كان يشك في ايضا وان من الافضل لنا ان ننفصل. واعترف لي صراحة انه تزوج امرأة اخرى. وفي اليوم التالي ارسل لي ورقة الطلاق.

وسكتت علياء قليلا لتستريح، ونظرت الي في تساؤل قائلة: الا ترين يا دكتورة ان هذا الزوج حطمني؟

قلت لها: انت التي حطمت نفسك حين تخليت عن الكتابة وهجرت الفن الذي كان يعطيك معنى للحياة.

قالت: ولكني فعلت ذلك من اجل ارضاء زوجي وعدم تحطيم حياتي الزوجية.

قلت لها: ولكن حياتك الزوجية تحطمت رغم ذلك، اليس كذلك؟

قالت: نعم.

قلت: اذن كان من الافضل الا تهجري الكتابة ابدا ان الكتابة جزء من نفسك

لا تستطيعين ان تعيشي بغيرها، اما زوجك فلقد عجزت ان تعيشي معه قبل ان تنفصلا رسميا بالطلاق. لقد انفصلت عنه منذ فقدت رغبتك العاطفية والجنسية نحوه، ولم تكن حياتكما معا بعد ذلك الا نوعا من الطلاق غير الرسمي. واني اعتقد ان حالتك ستتحسن كثيرا بعد هذا الطلاق وانك ستعودين الى الكتابة وتجتازين هذه التجربة القاسية بنجاح كما اجتزت غيرها من قبل.

قالت: لا اظن انني ساستطيع هذه المرة.

قلت: ستستطيعين يا علياء، انت نوع من الناس الذين لا يمكن أن تهزمهم الحياة.

تساءلت بدهشة: كيف عرفت ذلك؟

قلت لها: ارى ذلك في عينيك.

ابتسمت ابتسامة واهنة، وشدت قامتها بعض الشيء وقالت: كنت احس ذلك ولكن الآن.. احس انني تحطمت.

قلت لها: لا شيء قادر على تحطيمك ما دمت قادرة على الحصول على ورقة وقلم.

وابتسمت اكثر اشراقا وتساءلت: اتظنين انني ساستطيع ان اكتب مرة اخرى بعد كل هذا التوقف؟

قلت لها: انت لم تتوقفي يا علياء، لقد كنت تقاومين دائما. وهذا الصداع والارق والتعب النفسي لم يكن الا نوعا من المقاومة. انك لم تستسلمي قط. وسوف تكون كتاباتك اكثر نضجا وخبرة بالحياة.

وحينما نهضت علياء وصافحتني احسست من يدها وهي تشد على يدي كأنها تعدني بشيء وانها قادرة على الوفاء بهذا العهد.

كاميليا

كاميليا امـرأة في الخـامسـة والعشرين، نشأت في اسرة متحررة، لا تفرق في المعاملة بين الصبي والبنت ودخلت كاميليا الجامعة واشتغلت باحدى الوظائف. احبت احد زملائها في العمل، وبادلها الحب، وتطورت العلاقة حتى بلغت العلاقة الجنسية. شعرت بالسعادة معه ورغبت في الزواج منه. لكنه لم يفاتحها في موضوع الزواج. فبدأت هي بمفاتحته على اساس الحب الذي بينهما. لكنها فوجئت بانه بدأ يتهرب منها، ثم قطع علاقته بها تماما، وعرفت انه خطب ابنة خالته وهي بنت في السابعة عشرة.

تغلبت على الصدمة النفسية، واستمرت في عملها وحياتها. وفي يوم عرفت من امها ان ابن عمتها وهو مهندس ناجح يريد التقدم للزواج منها. فكرت بينها وبين نفسها في الموضوع، وادركت انها لا يمكن ان تعيش بغير زواج، كما ادركت ان معظم الرجال لا يتزوجون الفتاة التي تنشأ بينها وبينهم علاقة حب قبل الزواج. وقررت ان تتزوج ابن عمتها، فهو ناجح، وهو يريدها، وهي لا تكرهه، وربما تحبه بعد الزواج. لكن المشكلة امامها كانت تلك العلاقة السابقة التي حدثت في حياتها، وكانت تعلم ان ابن عمتهـا لن يسكت اذا اكتشف ليلة الـزفـاف انها غير عذراء. سألت احدى صديقاتها عن حل المشكلة، فأخذتها صديقتها الى طبيب، حيث اجرى لها عملية جراحية بسيطة واعاد لها عذريتها نظير عشرين جنيها.

بدأت كاميليا تستعد للزواج، واشترى لها اهلها الجهاز، واخذت تسمع كلمات الحب من خطيبهـا، وكـانت تتوقع انها ستكون سعيدة. لكنها بدأت تشعر بالارق والصداع وآلام في اماكن متعددة من جسمها. وكلما دعاها خطيبها للخروج تشعر برغبة في النوم وعدم الخروج. لم تكن تعرف السبب في تلك الحالة، فهي لا تكره خطيبها،

وتريد الزواج منه، لكنها لا تستطيع مقاومة حالة الارق والقلق الذي اصابها.. ذهبت الى احد اطباء النفس فاعطاها اقراصا منومة ومهدئة وقال لها ان معظم البنات يشعرن بقلق قبل الزواج بسبب الخوف القديم منذ الطفولة، وان هذا القلق سيزول تماما بعد الزواج.

وتزوجت كاميليا ابن عمتها، وكانت تتوقع ان يزول عنها الارق والقلق بعد مرور ليلة الزفاف على خير. ومرت ليلة الزفاف على خير، ومرت ليال اخرى كثيرة على خير، لكن الارق والقلق ظلا ملازمين لكاميليا، بل زادا، وبدأت تشعر احيانا بعدم القدرة على النهوض من السرير والسير. وانتابتها حالات من البكاء الطويل، أو الصمت الطويل، أو الشرود الطويل، وبدأ زوجها يضيق بها بعد ان اخذها لعدد من الاطباء الذين لم يستطيعوا شفاءها.

وسألت كاميليا: هل ذكرت قصة حبك السابق للطبيب النفسي وقصة العملية الجراحية واعادة العذرية..

وقالت كاميليا: لا.

وسألتها: لماذا؟

قالت: لم استطع، خشيت ان يخطىء الطبيب ويبوح لزوجي أو احد افراد اسرتي. ثم ان هذا الموضوع فات على خير وكان لا بد ان يزول القلق لو انه السبب.

قلت لها: لكن القلق لم يذهب، لا بد اذن ان يكون هناك سبب آخر.

قالت: نعم، ولكني لا اعرف هذا السبب الآخر. لقد كنت مرحة، وكنت احب الحياة، وكنت مقبلة على كل شيء، والآن انا عكس ذلك تماما، لم اعد مرحة، ولم اعد مقبلة على اي شيء. كأنني اصبحت واحدة اخرى غير كاميليا التي كنت اعرفها.

قلت لها: هذا هو سبب القلق. لقد تخليت عن نفسك الحقيقية، وعشت بنفس اخرى مزيفة ليست هي حقيقتك.

قالت: بالضبط. منذ اليوم الذي خرجت فيه من عيادة الطبيب بعد ان اجرى عملية اعادة العذرية شعرت كأنني اضع على وجهي قناعا وارتدي شخصية اخرى مزيفة.

قلت لها: ولانك بطبيعتك وبتربيتك انسانة صادقة لهذا انت تصارعين هذا الزيف بذلك القلق والعصاب.

قالت بأسى: انا اكره الكذب، واتعذب لانني اكذب، ولكن ليس امامي طريق آخر والا تحطمت كل حياتي.

قلت لها: انت تحطمين نفسك الحقيقية، وتتصورين ان حياتك يمكن ان تظل من الخارج بالشكل الذي يقبله المجتمع.

قالت: الناس يهمهم الشكل الخارجي فقط، اما الداخل فلا احد يهتم به.

قلت لها: ولكنك لست من هؤلاء الناس الذين يمكن ان يعيشوا على الكذب، ويرتدوا شخصيات اخرى غير حقيقتهم.

قالت: نعم، ولهذا انا اتعذب.

قلت: هذا العذاب يدل على ان جزءا من نفسك الحقيقية ما زال يقاوم. وقد ينتصر يوما وترفضين الزيف، وقد ينهزم تماما وتعيشين كما يعيش معظم الناس. فايهما تفضلين؟

قالت في حيرة: لا ادري.

وسألتني: وما رأيك انت يا دكتورة؟

قلت لها: لا ادري هذا يتوقف عليك، وعلى هدفك من الحياة. اذا كان هدفك من الحياة هو الاستقرار في حياتك الزوجية الحالية بأي شكل وبأي ثمن فسوف ينهزم الجزء الباقي من نفسك الحقيقية بمزيد من الاقراص المهدئة والمنومة وتشفين من الارق والقلق وتقبلين الزيف والكذب كأشياء طبيعية في الحياة اما اذا كان هدفك هو ان تكوني نفسك الحقيقية، وان تطوري هذه النفس لتكون اكثر صدقا واكثر عظمة واكثر نفعا للمجتمع وتطوره الى الافضل فسوف ينتصر الجزء الحقيقي من نفسك وترفضين الزيف وتخلعين القناع حتى ولو تحطمت حياتك الزوجية الحالية.

وحين نظرت الى وجهها رأيته شاحبا، ولم استطع ان اخمن من شحوبها النتيجة النهائية للصراع الدائر في اعماقها.

ويبدو انها كانت تريد مني ان احدد لها طريقها، فسألتني قائلة: لو كنت مكاني يا دكتورة ماذا كنت تفعلين؟

وقلت لها: افضل نفسي الحقيقية.

ورأيت ابتسامة لأول مرة على وجهها وقالت بصوت جديد لم اسمعه من قبل: وأنا ايضا.

نجوى

فتاة في الحادية والعشرين، طالبة بالسنة النهائية بالجامعة. تعاني من تبول لاارادي بالليل وبالنهار، وصداع، وبكاء قد يستمر طوال النهار والليل. وهي فتاة ذكية حساسة، متفوقة في دراستها رغم كل هذا، ولم يبق امامها للتخرج سوى بضعة شهور، لكن التبول اللاارادي يسبب لها كثيرا من الحرج والمشاكل. تشعر احيانا برغبة في الانتحار، ولكنها لا تقدم على الفعل. ذهبت الى عدد من اطباء النفس واعطيت انواعا مختلفة من الاقراص دون جدوى. قالت لي ان احد اطباء النفس الذين ذهبت اليهم سألها عن اسمها واسم ابيها وعمله، ثم شخصها فورا وكتب في اوراقها: اكتئاب وقلق. ودهشت كيف يشخص هذين المرضين بعد سؤالين عن اسمها واسم ابيها وعمله. وحينما ابدت اعتراضها على ذلك لانه لا يعرف عنها شيئا ولم يفحصها وانها لن تأخذ الاقراص التي كتبها لها صرخ فيها قائلا: هذا شغلي انا.

نشأت نجوى في اسرة متوسطة الحال، الاب موظف بشركة (تعليم متوسط)، ولها اخ يكبرها بعامين ولها اخ اصغر واخت واحدة. ماتت امها وهي في التاسعة من عمرها، وعرفت من عمتها وخالتها ان امها كانت تعيسة في حياتها مع زوجها، وانها طلبت الطلاق منه ولم يطلقها، وانها ماتت وهي في الثلاثين من عمرها لمرض ما في قلبها. وعاشت نجوى مع ابيها واخواتها. وتصف نجوى اباها بانه رجل شديد القسوة لدرجة انه من حين الى حين يطرد اولاده وبناته الى الشارع ويقول لهم انه غير ملزم باطعامهم، ويضطر الاولاد والبنات الى الذهاب الى عمتهم أو خالتهم، حيث يتعرضون لقسوة اشد، فيعودون الى ابيهم. وبالطبع فشل الاولاد والبنات في دراستهم، ولم يكملوا التعليم، الا نجوى التي استمرت بسبب ذكائها، لكنها لم تكن تحصل على تقديرات جيدة بسبب انها تطبخ لاخواتها وتغسل لهم وتخدم الاب ايضا، الذي كان يعاملها بقسوة شديدة كأنها خادمة وأقل، وحينما تطلب منه ان يعاملها بهدوء (دون ان يسبها)

يقول لها: «انا تعودت على ذلك والبنت خلقت لتخدم ولتسب، واذا لم يعجبك الحال فالباب واسع والشارع واسع». وكانت تضطر ان تخضع من اجل ان تستمر في دراستها التي كان يهددها دائما بانه لن يدفع لها المصاريف، مما اضطرها الى الاستدانة، وعمل «قرض» من الجامعة تسدده بعد التخرج.

الاب له شخصية هادئة امام الناس والاقارب، ولكنه في البيت يصبح شرسا وقاسيا. تقول نجوى انه يتصور نفسه أبا مثاليا لأنه يأويهم في البيت ويطعمهم.

اجريت لها عملية الختان وهي طفلة في السادسة من العمر، وكذلك اختها، وكذلك جميع بنات العائلة. مارست نجوى العادة السرية في الطفولة والمراهقة وتمارسها الآن على فترات متباعدة. تشعر بحنين جارف لحب رجل، لكن مشكلة التبول اللاارادي تجعلها تخاف. ولم تتصل بأحد من الجنس الآخر سوى بعض المشاعر العاطفية من طرف واحد، من ناحيتها هي فقط.

قسوة الاب على بناته اشد من قسوته على اولاده، ويفرق في المعاملة بينهما، ويتحيز للاولاد رغم فسادهم وانقطاعهم عن الدراسة. الاب كان يضرب اولاده وبناته بشدة بالعصا والسوط، وهم جميعا يخافون منه، يكذب امام الناس ويتظاهر انه يعاملهم برقة، واذا صرح احد اولاده أو بناته بما يحدث حقيقة ضاعف الاب من قسوته عليه أو عليها.

تقول نجوى انها محاطة بالقسوة والكراهية، من الاب، ومن اخيها الاكبر، لانها تكمل دراستها الجامعية وهو لم يكمل دراسته. يعاملها اخوها بقسوة وكراهية، اختها الاصغر فشلت في دراستها، واصبحت،من اجل ان تحصل على ملابسها،تخرج من حين الى حين مع الرجال، وتأخذ منهم بعض المال. وبالطبع تعرف نجوى عنها كل شيء لكنها تتظاهر بانها لا تعرف، لانها تحب اختها وتشفق عليها من ابيها القاسي.

وتسألني نجوى بحيرة: هل يمكن يا دكتورة ان تغير الاقراص من ظروفي التي اعيشها؟ ليس امامي الآن الا الانتحار.

قلت لنجوى انها قطعت شوطا كبيرا في دراستها، ووصلت الى السنة النهائية، رغم كل ظروفها القاسية، وانها لو تخرجت واشتغلت وتركت بيت ابيها فسوف تتخلص من كثير من المشاكل. ولم يكن باقيا على تخرجها الا شهران. وطلبت منها ان تتحمل هذين الشهرين بأي شكل. لكنها قالت لي: كنت اتمنى ان يكونا شهرين فقط يا

دكتورة. ولكن ابي بعد تخرجي لن يوافق على ان اترك البيت، كما انني لن اعمل بعد التخرج مباشرة، وربما انتظر عاما كاملا حتى اجد عملا. وهذا ايضا سبب شقائي. ثم ان ابي بعد ان احصل على عمل سوف يستولي على مرتبي بالقوة، ولن اتخلص منه ابدا.

ولم تنجح نجوى من التخلص من التبول اللاارادي رغم مواظبتها على ادوية الاطباء طوال العامين الماضيين. وكانت تتصل بي من حين الى حين تليفونيا وتشكو لي من حياتها في البيت وانها غير قادرة على المذاكرة. وان الاقراص التي تأخذها تسبب لها اختناقا وتود لو امتنعت عنها لكن طبيبها يصر على هذه الاقراص.

واختفت نجوى شهرا أو اكثر، وظننت انها مشغولة بالامتحانات، لكن صوتها جاءني يوما من خلال التليفون. وسألتها عن حالتها فقالت: ابي دخل مستشفى الدامرداش الاسبوع الماضي، صدمته عربه وهو عائد الى البيت ليلا، ونقلوه الى المستشفى، وقال لي الطبيب ان الاصابة في العمود الفقري وانه اصيب بشلل في نصفه الاسفل وسوف يظل راقدا بقية حياته.

وأحسست انها في حاجة الي فطلبت منها ان تزورني. وجاءت نجوى. ورأيت على الفور انها تغيرت، وان شيئا ما تغير في ملامحها ونظراتها. وسألتها عن صحة ابيها فقالت انه نقل الى البيت، وانها تخدمه هي واختها ليل نهار، وانهما يشفقان عليه كثيرا، فقد اصبح كالطفل الصغير، ولم يعد ينادي نجوى الا بابنتي الحبيبة نجوى. واطرقت نجوى الى الارض، ومسحت دموعها بمنديلها. لكنها حين رفعت عينيها الي لاحظت ان شيئا تغير فيها.

وسألتها: وكيف حالك انت يا نجوى؟

قالت: تصوري يا دكتورة لقد نسيت مرضي تماما في مرض ابي. ولم اعد اشعر بأي صداع أو اختناق.

سألتها: والتبول اللاارادي؟

قالت: منذ اليوم الذي نقل فيه ابي من المستشفى الى البيت لم ابلل فراشي ولا ليلة حتى اليوم.

سألتها: كيف تعللين ذلك؟

قالت: انا احس انني تغيرت يا دكتورة منذ رأيت ابي يتحول فجأة من رجل جبار قاس الى طفل ضعيف يبول في فراشه ولا يستطيع ان يضع الطعام في فمه الا بمساعدتي أو بمساعدة اختي. هذه الصدمة جعلتني افيق من كل آلامي السابقة، وان أقف على قدمي لأتولى مسؤولية الاسرة، خاصة وان اخي منذ علم بحادث ابي اختفى من البيت ولا نعرف اين ذهب.

وسألتها: وكيف حال المذاكرة؟

قالت بأسى: لن ادخل الامتحان هذا العام لاني غير مستعدة ولكني مصممة على التخرج العام القادم لاشتغل واعول الاسرة. تصوري يا دكتورة ان معاش ابي لا يكفي ايجار الشقة. لكن اختي اشتغلت في محل تجاري وسوف تساعدنا حتى اتخرج.

ليلى

هي موظفة باحدى الوزارات، ورغم انها متخرجة في كلية الاداب الا انها تعمل عملا كتابيا لا علاقة له على الاطلاق بما تعلمته أو بما كانت تطمح في عمله. تعالج ليلى منذ عام عند احد اطباء النفس من حالة اكتئاب، ليلى وصفت لي حالتها كالآتي: «اصحو من النوم الساعة الخامسة صباحا، لأحضر الافطار لزوجي واطفالي، ويخرج زوجي الى عمله، ويذهب الطفلان الكبيران الى المدرسة، ويبقى الطفل الثالث الصغير معي واحمله على كتفي واسير حتى بيت حماتي على بعد حوالي كيلومترين من بيتي. واحيانا اركب الاتوبيس، ولكني افضل السير على بهدلة الطفل في الاتوبيس. واترك الطفل لحماتي التي تتذمر دائما من الطفل وان صحتها لم تعد تحتمل تربية الاطفال ويكفيها انها ربت سبعة اولاد من قبل. وبعد ان اترك الطفل اركب الاتوبيس الى الوزارة. وان عملية انتظار الاوتوبيس والركوب والوصول الى عملي يستغرق مني على الاقل ساعتين. بالاضافة الى الاهانة التي اشعر بها وانا ادخل الاتوبيس وجسدي محشور بين اجساد الرجال، ومعظم الرجال مكبوتون جنسيا ولذلك كثيرا ما اهبط من الاتوبيس قبل وصولي، واسير بقية المسافة على قدمي. وحين اصل الى العمل اكون منهكة القوى والاعصاب. ويقابلني رئيسي في العمل كل يوم بالتأنيب الشديد لاني اتأخر عن العمل كل يوم تقريبا بالاضافة الى الاجازات المتكررة، حين اضطر للبقاء مع طفلي بالبيت اذا مرض، أو اذا مرضت حماتي ولم تستطع رعايته في ذلك اليوم، أو اذا مرضت انا وشعرت بالانهاك العصبي أو النفسي الشديد ولم استطع النهوض من سريري.

بحثت عن خادمة اومربية للطفل تبقى معه في البيت وتساعدني في اعمال الطبخ والغسل والتنظيف ولكني لم اجد. معظم الخادمات الآن يطلبن اجورا عالية لا استطيع دفعها. قلت لزوجي ذات يوم انني سأترك عملي واتفرغ لاطفالي والبيت والطبخ لاني

لا استطيع ان أجمع بين كل هذه الاعمال والوظيفة، وبحثنا الموضوع، واتضح لنا اننا لا يمكن لنا ان نعيش براتب زوجي فقط. فاضطررت الى الاستمرار في وظيفتي رغم الارهاق الجسدي والنفسي. زوجي يعود في الرابعة بعد الظهر منهكا وفي حاجة الى ان يأكل ويستريح، وانا اعود قبله بساعة واحدة، (الساعة الثالثة)، وفي هذه الساعة رغم ارهاقي اطبخ بسرعة الغداء واحضر الطعام لزوجي واطفالي العائدين من المدرسة، حين ينام زوجي بعد الغداء اذهب الى بيت حماتي لاحضر طفلي. وفي الليل اجهز العشاء للجميع، واساعد طفلي في المذاكرة. وفي الساعة العاشرة مساء أو بعد ذلك اضع جسمي في السرير وانا اشعر بكل اوجاع العالم ولا ينقذني من اوجاعي الا النوم. زوجي ينتهي عمله حين يصل الى البيت الساعة الرابعة. ويأكل وينام وفي المساء يخرج، ويقول لي انه ذاهب لزيارة بعض اصحابه. وحين اطلب منه ان يبقى معي بالبيت ويساعدني تحدث مشاجرة ويقول انه لا يطيق الجلوس في المساء في البيت.

وقلت له انني ايضا لا اطيق البقاء في البيت والقيام بكل هذا المجهود وحدي. لكنه يقول لي ان كل الزوجات يعملن في البيوت، وكل الرجال يخرجون في المساء، وهذه هي طبيعة الحياة. كنت اشعر ببعض اللذة الجنسية في اول الزواج. لكني الآن بسبب جسدي المنهك واعصابي المنهكة فانا لم اعد احتمل الجنس وافضل عليه النوم والراحة. ويظهر زوجي الغضب كثيرا حين اقول له انني متعبة، فتحدث مشاجرة ويرتدي ملابسه ويخرج ولا يعود الا قرب الفجر. واصبحت اضطر الى تلبية رغبته رغم تعبي، واصبحت العملية الجنسية عبئا جسديا ونفسيا في حياتي وزادت من اعبائي عبئا. انني الآن في الثانية والثلاثين من عمري، ولكني اشعر انني لم اعد شابة، ولم اعد اجد اي لذة في اي شيء في حياتي، واشعر باكتئاب من حين الى حين، واحيانا لا انام الا بالاقراص المنومة. وحين سألني الطبيب النفسي عن حياتي الجنسية قلت له انني لم اعد احب الجنس، قال انني مصابة بالبرود الجنسي واعطاني بعض الاقراص والحقن. ولم اشعر بأي تحسن، بل ازدادت حالتي سوءاً، خاصة وان زوجي اصبح يهملني ويخرج كل ليلة، واني احس انه عرف امرأة اخرى. واشعر بقلق شديد خوفا من ان يطلقني ولا اعرف ماذا افعل وحدي بهؤلاء الاطفال الثلاثة. ان حياتي لم تعد تطاق واصبحت اعصابي على وشك الانفجار. واخشى ان افقد السيطرة على نفسي تماما، وتراودني افكار تخيفني، منها فكرة الانتحار، والراحة الكاملة في الموت، ولكني اتراجع عن الفكرة حين افكر في اطفالي وان احدا لن يرعاهم بعدي. خاصة وان زوجي من النوع الذي لا يطيق رعاية الاطفال ويقول انها مهنة المرأة والرجل غير مسؤول عن

رعاية الاطفال. مع ان زوجي متعلم ومتخرج مثلي في الجامعة.

قلت لليلى ان حياتها صعبة بغير شك، وانها ليست وحدها التي تعاني وانما آلاف الزوجات العاملات يعشن الحياة المرهقة التي تعيشها هي.. وان زوجها ليس الرجل الاناني الوحيد الذي ما زال يرفض مشاركة زوجته اعباء البيت والاطفال بالرغم من انها تشاركه نفقات البيت. وقلت لها ان التعليم لا يعني الثقافة، وكم من رجال متعلمين ولكنهم غير مثقفين. فالثقافة تجعل الرجل فاهما لامور الحياة، مدركا لدوره الجديد حين يتزوج امرأة تعمل مثله، ويشعر بمسؤولية جديدة تجاه البيت والاطفال، تماما كما تدرك زوجته مسؤوليتها الجديدة تجاه مشاركته في الانفاق.

ولكن كيف يمكن ان تشفى ليلى من عصابها بتلك الكلمات. ان علاج ليلى لا يمكن ان يكون بكلمات، ولا يمكن ان يكون اقراصا تبتلع. انها في حاجة الى دار حضانة بجوار منزلها تترك فيها طفلها، وهي في حاجة الى مقعد في اتوبيس تجلس عليه بكرامتها لتصل الى عملها، وهي في حاجة الى راحة بالبيت بعد العودة من عملها، والى شريك يحادثها في المساء أو يخرجان معا الى المسرح أو السينما. ولكن هذا كله لا يمكن ان يحدث في حياة ليلى وفي حياة عدد كبير من الزوجات العاملات في مجتمعنا. فالمجتمع عندنا لم يخطط بعد لأن تعمل النساء، ولذلك لم ينشىء المجتمع دور الحضانة الكافية لاطفال العاملات، ولم يحل مشكلة الاعمال المنزلية والطبخ بوسائل اخرى حديثة أو مؤسسات ترفع عن كاهل المرأة اعباء الغسل والتنظيف والطبخ. ولم تتطور عقلية معظم الازواج بحيث يساعد المرأة في اعمال البيت والطبخ والاطفال.. والسبب في عدم تطور عقلية الرجل ان التعليم والثقافة العامة والاعلام والصحافة لا تزال في معظمها تنشر الافكار العتيقة التي لا تناسب الا نساء متفرغات في البيوت بغير عمل. فمن هذه المرأة العاملة التي تستطيع ان تنفذ تعليمات المحررة أو المذيعة المشرفة على ركن المرأة بشأن رسم الحواجب وتنعيم البشرة وعرض الازياء، ان المرأة العاملة اذا وجدت المال لشراء هذه الملابس وهذه المساحيق والدهانات فلن يكون لديها الوقت، واذا كان لديها الوقت، فلن يكون لديها الجهد. بعد كل ذلك الارهاق الجسدي والنفسي داخل البيت وخارجه. ان الثقافة العامة والاعلام لا تخاطب اغلبية النساء الكادحات والعاملات، ولكنها تخاطب تلك الفئة العاطلة من النساء، والتي لا تعمل خارج البيت، والتي تحررت من العمل داخل البيت بسبب وجود الخادمات والطباخات والمربيات. ولهذا يغضب ازواج العاملات حين يرون زوجاتهم

مرهقات غير انيقات، ويتصورون ان هذا تقصير من الزوجة، او استرجال بسبب عملها، ولذلك يتركون بيوتهم في المساء ويذهبون يبحثون عن هؤلاء النساء الانيقات الناعمات البشرة، اللائي لا يقشرن البصل ولا الثوم. وينسى الزوج منهم انه كي يتناول غذاءه ، لا بد لزوجته من ان تقشر البصل والثوم . ولكن معظم الازواج تعلموا الأنانية منذ الطفولة وفي المدارس ، وفي الشوارع ، ومن خلال الكلام الذي يسمعونه في الراديو ، أو يقرأونه في المجلات والصحف . ولا يمكن لأمثال ليلى من النساء العاملات ان يتخلصن من اسباب العصاب في حياتهن ما لم يتعلم الذكور منذ الطفولة التعاون مع اخواتهم ومعنى ذلك ان تكون مساواة المرأة والرجل حقيقة يؤمن بها المجتمع ويترجمها الى افعال ، وليست مجرد شعارات أو نظرية داخل ادراج مغلقة .

كنت ادرك ان هذا الكلام كله لا يعالج ليلى، ولكن المشكلة ليست مشكلة ليلى وحدها، انها مشكلة جميع الزوجات العاملات في مجتمعنا. والعلاج هنا ليس علاجا طبيا، ولكنه علاج اجتماعي وسياسي بالدرجة الاولى، وهذا العلاج لن يحدث طالما ان اغلبية النساء بعيدات عن العمل السياسي، يتصورن ان العمل السياسي من اختصاص الرجال وحدهم، وبذلك ينفرد الرجال بالسلطات في المجتمع، ويصبح اصدار القوانين من عمل الرجال وحدهم، وبالتالي تكون معظم القوانين في صالح الرجل.

وهذا هو السبب في ان كثيراً من القوانين في مجتمعنا تعدلت ما عدا القوانين الخاصة بالمرأة والرجل. لقد تعدلت بعض القوانين التي تنصف الفئات التي ظلمت من الشعب مثل الفلاحين والعمال بعض الانصاف، واصبح هناك قانون ينص على ان يمثل الفلاحون والعمال في التنظيمات السياسية بـ٥٠ بالمئة على الاقل رغم المحاولات العديدة لاجهاض فعالية هذا القانون. اما المرأة التي تمثل نصف المجتمع فلا يمثلها الا افراد قليلون يعدون على الاصابع . ولا تزال قوانين الزواج والطلاق تظلم المرأة ظلماً بيناً. وحين تبدأ بعض محاولات لتعديل هذه القوانين يغضب الرجال ويستخدمون قوتهم لمحاربة التعديل، اما النساء فيتراجعن إلى الوراء لانهن لا يمثلن اية قوة سياسية يمكن لها ان تفرض التعديل، وينتصر الرجال، وتظل القوانين الظالمة كما هي.

وقد يظن بعض الناس ان النساء المريضات بالعصاب هن فقط اللائي يعانين من هذا الوضع، وإلى هؤلاء انقل ما نشرته جريدة الاخبار في ٢٤ مارس سنة ١٩٧٤

كتبت جريدة الاخبار تحت عنوان : اما من نهاية لهذه المآسي تقول:[1]:

«كيف نجد لهذه المآسي وهذه القصص غير الانسانية نهاية:

زوجة شابة ظلت اكثر من عشر سنوات تتردد على المحاكم وبين مكاتب المحامين وتفقد راحتها وشبابها ومالها من اجل الطلاق من زوج استعمل حقه في ان يطلق او لا يطلق بارادته وحده مستغلا كل الاسباب المشروعة وغير المشروعة ليجعل الزوجة معلقة. . لا هي مطلقة ولا هي متزوجة، لا لشيء الا للكيد والانتقام، واخرى منفصلة عن زوجها وتعمل في الخارج وتطلب الطلاق من زوجها وفي كل مرة تعود إلى مصر لترى أبناءها واهلها يجبرها زوجها على دفع مبالغ خيالية من اجل موافقته لها على السفر مرة اخرى. . لدرجة جعلها تغيب عن مصر سنوات طويلة وتعيش في الغربة وتقاسي الحرمان من الوطن والاهل والابناء حتى لا تتعرض من جديد لاستغلال الزوج الجشع الذي لا يستعمل حقه الشرعي من اجل حبه لها وحرصه على الحياة الاسرية معها وانما من اجل المال فقط.

ويقابل هذا النوع من الظلم. . ظلم اخر. . الزوج الذي يطلق زوجته بدون اسباب قوية لمجرد نزوة او رغبة أو ليتزوج غيرها ويتركها هي واطفالها بلا مأوى وبلا مورد مدة لا يعلم الا الله وحده مداها - الى ان تحكم لها المحكمة بنفقة لا تكفيها هي واولادها في اغلب الاحيان. وتضيع الزوجة الشابة بين الحاجة وبين اشفاقها على اولادها. . ويصبح مصيرها في مهب الريح بين اغراءات الانحراف وبين العذاب والحيرة في البحث عن عمل شريف يصعب عليها ايجاده في ظروفنا الحالية.

وزوجة أخرى افنت زهرة شبابها بجانب زوجها تكافح معه وتتحمل شظف العيش من اجل ان يبني مستقبله وبعد ان تصل إلى السن التي لا تستطيع معها بدء حياة جديدة، تجد نفسها بدون عائل اللهم الا نفقة سنة واحدة لا تجد بعدها حتى لقمة العيش لا لشيء الا ليتزوج زوجة اخرى شابة تقاسمه نجاحه الذي صنعته زوجته الاولى وافنت في سبيله شبابها وحياتها!!

اليس هناك نهاية لهذه المآسي التي نسمع عنها وتحدث حولنا كل يوم ولا نجد لها حلاً عادلاً!».

---

(١) جريدة الاخبار، الصفحة الاخيرة، باب اخبار حواء، ٢٤ مارس ١٩٧٤.

مديحة

كانت مديحة من اذكى النساء اللائي قابلتهن في حياتي. وهي تخرجت في كلية البنات (علوم)، واشتغلت مدرسة علوم باحدى المدارس، لكنها كانت تكره وظيفتها وكانت تحب الرسم وحولت حجرتها في البيت إلى مرسم واقامت معرضاً للوحاتها في أحد الاحياء الصغيرة بالقاهرة. تزوجت احد الرسامين، الذي شعرت نحوه بالحب. أنجبت منه طفلاً ثم حدث الطلاق لان زوجها كان يغار عليها لدرجة الجنون، وحول حياتها إلى جحيم مع انها كانت تحبه ولم يكن في حياتها رجل اخر. لم تفكر مديحة في الزواج مرة اخرى، وتفرغت لعملها الفني وهو الرسم وحاولت ان تنجح فيه. لكنها شعرت منذ عشرة شهور بأرق وصداع وخفقان في القلب. ذهبت إلى طبيب باطني. فحولها إلى الطبيب النفسي الذي شخص مرضها بكلمة «قلق» واعطاها بعض الاقراص. لكن حالتها لم تتحسن. وتصف مديحة مشكلتها كالاتي، تقول مديحة:

ان كل الحياة من حولي تفرض علي ان اكذب أن اكون واحدة اخرى غيري. ان اكون مزدوجة الشخصية لأن المجتمع من حولي مزدوج الشخصية ومزدوج الاخلاقيات. ان مرضي النفسي وأرقي وقلقي كله سببه انني عاجزة عن ان اكون واحدة غيري. كل ما اطلبه هو ان اكون نفسي وحقيقتي، وان اعبر عن ذلك بالرسم.. ولكنهم يسدون امامي كل الطرق. نصحتني احدى صديقاتي من الرسامات الناجحات ان افعل مثلها، وان اجعل النجاح هدفي (معنى النجاح هنا هو ان يفتتح الوزير معرضي وتكتب عنه الصحف). ولكنني ارى النجاح غير ذلك. انني احاول ان اقدم فناً جيداً رفيعاً يعبر عن حقيقة الانسان ومشاعره. كما انني اشعر باحترام لفني ولا اطيق الانتظار في مكاتب الوزراء وكبار الموظفين. وتقول عني صديقتي انني لست اجتماعية، ولكن الرسم والقراءة وطفلي ووظيفتي التي آكل منها (وهي التدريس) كل ذلك يأخذ وقتي، ومع ذلك فانا اجتماعية ولست منطوية على نفسي، انا احب الاختلاط بالناس،

وبالذات الناس الذين أشعر انهم صادقون في مشاعرهم وافكارهم. ولكني لا اطيق هؤلاء الذين يحاولون التزييف اوالنفاق. وهذا هو السبب الحقيقي وراء كراهيتي الانتظار في مكاتب الوزراء وكبار الموظفين. صديقتي تقول لي انني سوف اظل رسامة مغمورة لا يعرفها احد (بمعنى اخر رسامة فاشلة)، ولكني عاجزة عن أن افعل ما تفعله هي، وعاجزة عن اكون شخصية اخرى غير شخصيتي. ولكني اشعر بالعزلة، واشعر بالوحدة، واشعر أن فني لا يصل إلى الناس، وانا لا ارسم كي أتفرج على لوحاتي، ولكني ارسم ليرى الناس لوحاتي. إن الفنان لا يعيش الا من خلال تفاعل الناس بافكاره. انني في اشد الحاجة إلى الناس، والوصول إلى توصيل فكرتي إلى الناس يكلفني الكثير. يكلفني ان اتملق السلطة واكذب واصبح مزدوجة الشخصية. ان السلطة تقف بين الناس والفنان، ولا يمكن ان يرى الناس لوحاتي إلا بعد موافقة السلطة وعن طريق اجهزتها ووسائلها. وظللت ارسم بضع سنوات ثم توقفت. كنت اشعر بالاختناق حين اجلس واتفرج على لوحاتي المتراكمة وحدي او مع صديقتي التي كانت تحب رسوماتي ولكنهاتكره انطوائي وابتعادي عن الناس.

بعد طلاقي من زوجي بثلاث سنوات شعرت بالحب نحو رجل اخر لكننا لم نتزوج. لقد كان نسخة مكررة عن زوجي السابق. كان يقول انه يحبني لكنه كان يريد ان يملكني امتلاكاً كلياً بحيث لا افكر الا فيه هو، ماذا يأكل، وماذا يشرب، وماذا يلبس، وكيف يستمتع بالجنس والخروج والنزهات. كان لا يطيق ان انشغل عنه بالرسم او القراءة أو حتى طفلي الصغير. وكان يغار من حياتي الماضية، ومن زوجي السابق، ومن طفلي، ومن لوحاتي، ومن اي شيء يشعر انني أحبه، أو كنت أحبه. وقد اراد هذا الرجل ان يسلخني عن كل هذا، وان يبعدني حتى عن طفلي الذي لم يكن له احد يرعاه غيري. ولهذا هربت من هذا الرجل، ورفضت الزواج به، رغم انني كنت اشعر نحوه بميل شديد. وقد ارهقتني هذه المشكلة نفسياً وزادت من ارقي، وقلقي، ولم أجد الحل الا في الاقراص المهدئة والمنومة.

ولم اشعر بالحب بعد ذلك نحو أي رجل. لقد اكتسبت خبراتي فهماً لشخصية الرجل المزدوجة في مجتمعنا. انه يفكر بطريقة ويمارس الحياة اليومية بطريقة اخرى. انه يتكلم نظرياً عن المساواة والحب والاخلاق ولكنه ينتهك في تصرفاته اليومية كل هذه المبادىء. ومضت أربع سنوات إلى الآن دون ان احب أي رجل ودون ان امارس الجنس. لان الجنس مرتبط عندي مع الحب. انني اشعر بحنين جارف إلى

الحب والجنس واشعر كالظمآن الذي لا يجد الماء ـ مع انني محاطة بالرجال في وظيفتي. ولكنهم جميعاً من النوع المزدوج الشخصية. وقد قال لي الطبيب النفسي ان اتنازل بعض الشيء عن مبادئي وان اعيش كما يعيش الناس. . ولكني لا استطيع. انني لا استطيع ان اكون مزدوجة الشخصية، ولا استطيع ان افقد الحقيقة من اجل اي شيء، وان كان هو النجاح كرسامة، أو النجاح كامرأة وزوجة. لكن الفشل الذي اعيشه يرهقني نفسياً، وعدم تمكني من عرض لوحاتي على الناس يقتلني، وعدم اشباعي لحاجتي إلى الحب والجنس يرهقني جسدياً ونفسياً. وانا ما زلت اعيش في هذه الدوامة والاقراص المهدئة والمنومة لا تفعل لي شيئاً الان. وحينما ازيد كمية الاقراص اشعر بقواي الجسمية تخور وتضعف واشعر بالاختناق واحياناً بعدم القدرة على النهوض من سريري. واحياناً اشك في نفسي، واظن أن طريقتي في الحياة خاطئة، وان العيب في وليس في الآخرين. ولكنني اتذكر طفولتي وما كان يقوله لي ابي وامي، وكم كانا يثقان فيّ وفي ذكائي، وكانا يشجعانني دائماً على الصدق، وكنت متفوقة في دراستي، وكان أبي وامي يمنحانني الحرية ويثقان في، ولم اتعود ابداً على ان اكذب أو اغير حقيقتي. لدرجة أنني كنت احكي لابي ولامي عن كل ما يحدث لي مع زملائي وزميلاتي ـ ولم يكن ابي او امي يمنعانني من ان يكون لي اصدقاء من الجنسين. بالطبع لم اتعرض لعملية الختان، وحدثتني امي عن الدورة الشهرية والحيض قبل ان اصل إلى سن البلوغ، وحدثتني عن كثير من الامور ومنها العادة السرية. وقد كنت امارسها قليلاً قبل ان انام، وخاصة ايام الربيع، حين يصبح الجو دافئاً بعد الشتاء، او حين اتخيل الرجل الذي احبه. كنت اصل إلى الاورجازم من هذه الممارسات. وقد وصلت إلى الاورجازم بسهولة مع زوجي اول الامر، وحين كانت حياتنا لا تزال سعيدة. ولكن حينما افسدت غيرته الشديدة حياتنا لم اعد اصل إلى الاورجازم ولم اعد احب ممارسة الجنس معه. وتكرر هذا مع الرجل الذي احببته.

احياناً امارس العادة السرّية حين يشتد توتري الجسدي والنفسي واصل إلى الاورجازم واشعر أن التوتر زال عني، لكني اظل اشعر بظمأ إلى الحب والجنس مع رجل احبه. حينما ارسم اشعر بالراحة ولكن حينما تظل اللوحة قابعة في ركن حجرتي المظلم اشعر بالاختناق. انا احب طفلي واشعر بالراحة حين احتضنه واقبله واطعمه ولكني اشعر انه لا يأخذ الا جزءاً صغيراً من حياتي وطاقتي النفسية والفنية واشعر برغبة في افراغ تلك الطاقة في شيء اكبر. ليست عندي مشكلة اقتصادية لان مرتبي الشهري بالاضافة إلى مورد اخر صغير من منزل تركه لي ابي يكفيني انا وطفلي. ليست عندي مشكلة في

الوظيفة سوى انني اشعر بالملل من التكرار، ولا اشعر بلذة في الوظيفة، او تجديد بهـا، ولكني في حاجة اليها بسبب المرتب الشهري، ولانني لا استطيع ان اعيش اقتصادياً على الرسم وبيع لوحاتي كما يفعل الرسامون المشهورون.

هذه هي مشكلة مديحـة كما عبرت هي بنفسها عنها، وقد ذهبت إلى طبيبين نفسيين للتخلص من الارق والصداع وحالات الاكتئاب التي تصيبها. احد الاطباء شخصها «قلق» واعطاها الاقراص اللازمة. والطبيب الثاني حاول ان يقنعها ان المشكلة داخل رأسها هي، وان العلاج هو اقتلاع هذه المشكلة الوهمية من رأسها عن طريق تغيير كيمياء الدماغ، وذلك عن طريق حقنها بمادة كيميائية معينة، سوف تشعر بعدها بالراحة والسعادة وانتهاء المشكلة. ولم تقتنع مديحة بهذا الكلام لكنها تركت نفسها للطبيب النفسي يفعل بها ما يراه . . وفعلاً أخذت جميع العقاقير الكيماوية التي اعطاها لها ولكن حالتها لم تتحسن ولم تشعر بالراحة او السعادة .

والمشكلة كما هي واضحة ليست في رأس مديحة. ان عقل مديحة عقل ذكي منـذ الطفولة، وهي فنانة وخلاقة وهي انسانة طبيعية تماماً، وسليمة النفس والجسد والعقل. ولكن المشكلة في المجتمع الذي يحيط بمديحة وعلاج المجتمع لا يكون بالاقراص والعقاقير ولكن بعلاج المجتمع ذاته من الاساليب التي تفرض على امثال مديحة الكذب والازدواجية في الشخصية والاخلاق.

سوزان

هي امرأة في الثامنة والعشرين، مثقفة ثقافة عالية، وبعد تفوقها الجامعي سافرت إلى اوروبا في بعثة دراسية ثم عادت واشتغلت في عمل فكري تشعر فيه بلذة وعطاء فكري لعدد من الناس. شعرت بالحب لاحد زملائها وكان يدرس معها في اوروبا ـ وقد استمر هذا الحب (اربع سنوات) خلال البعثة الدراسية، وكانت هذه المدة كافية لان يعـرف كل منهمـا الآخـر معرفة جيدة، متنوعة، منها المعرفة الفكرية والمعرفة الجنسية. وتقول سوزان: كان رجلاً ذكياً متطور الافكار، وكان يتعامل معي بالمثل، ويحترم حقوقي كانسانة مثله تماماً، ويعترف باننا متساويان في الذكاء والعقل. وكان بيننا ايضاً توافق جنسي كبير بسبب احترامه لايجابيتي ورغباتي تماماً كرغباته، ولهذا استمر الحب بيننا اربع سنوات.

وحينما عادا إلى مصر فكرا معاً في الزواج، لكنها شعرت انه متردد في الزواج منها، وبدأت تفهم جوانب جديدة في شخصيته. وان عودته إلى المجتمع الذي تربى فيه والذي نشأ فيه على تقاليد معينة جعلته يعود إلى الايمان بهذه التقاليد خاصة وانها في صالح الرجل. لكنه كان لا يزال يحبها وكانت لا تزال تحبه، وبرغم بوادر الخلاقات الفكـرية التي بدأت بينهما الا ان الزواج تم بينهما. واستمر ثلاثة اعوام ثم حدث الطلاق بعد ان انجبت سوزان طفلاً واحداً، وعند الطلاق كانت حاملاً بالـطفـل الثاني فلجأت إلى طبيب واجرى لها عملية اجهاض، وتقول سوزان: «خلال ثلاث سنوات الزواج حاول زوجي ان يغيرني لأن اتقبل العلاقة بين الزوج والزوجة على اساس ان الزوج له حقوق وواجبات تختلف عن حقوق وواجبات الزوجة، ولكني لم استطع ولم اقبل ان اتغير».

وتحكي سوزان عن ان زوجها لم يعترف لها صراحة بانه المسيطر، ولكنه كان يغلف ذلك دائماً بطريقة أو باخرى، كأن يقول لها مثلاً : ماذا يقول الناس عني؟ انهم

سيقولون انني لست رجلاً كي اترك زوجتي تفعل ما تفعلين. ولم تكن هي فعلت شيئاً سوى انها تصرفت بطبيعية وتلقائية في وسط مجموعة من الاصدقاء والصديقات وعبرت عن ارائها في بعض الامور، أو طلبت من زوجها ان يُعد الشاي للضيوف لانها منهمكة في النقاش معهم. وتقول سوزان: «في كل مرة يأتي اصدقاء له يطلب مني ان أعدّ لهم الشاي، وأعده عن طيب خاطر ولكن حين يأتي اصدقاء لي واطلب منه لأن يصنع الشاي لهم (بسبب انشغالي معهم) يغضب، فأضطر ان اترك اصدقائي بعض الوقت لاعمل لهم الشاي».

ولم يكن زوجها يعارض في خروجها إلى العمل بالطبع. فعمل المرأة اصبح من القيم الاجتماعية السائدة ولم يعد الناس يشككون في رجولة الرجل الذي يوافق على ان تعمل زوجته، بالاضافة إلى ان مرتبها كان يضاف إلى مرتبه في الانفاق على الأسرة. لقد كان زوجها قادراً على تقبل القيم الاجتماعية السائدة فقط، لكنه كان عاجزاً عن تقبل اي قيمة اخرى غير السائدة، مثل ان يُعد الزوج الشاي لضيوف زوجته، أو ان يضع ازار المطبخ ويغسل الصحون مثلاً. ولم يكن لديهم خادمة مستديمة للقيام بالاعمال المنزلية، (بسبب النقص في الخادمات عامة، وبسبب عدم وجود وقت عند سوزان او زوجها للبحث عن خادمة) وانما كان يأتيهم طباخ في الصباح، يطبخ الطعام وينصرف، وكان على سوزان ان تعد المائدة وتغسل الصحون، بالاضافة إلى تنظيف البيت، وحين جاء الطفل زادت اعباؤها بالطبع. ولم يكن زوجها يمانع في مساعدتها احياناً، لكنه كان يكره هذه الاعمال، وكان يساعدها ببضع دقائق ثم سرعان ما يمل ويكف ويتركها هي تكمل الجزء الاكبر الباقي.

وتقول سوزان: «كنت اشعر بعدم العدالة، ففي الوقت الذي اشاركه في الانفاق على الاسرة، وابذل جهداً في عمل خارج البيت مساوياً للجهد الذي يبذله في عمله أجدني في البيت اشتغل اكثر منه، وفي الساعتين اللتين ينامهما بعد الغذاء اشتغل انا في المطبخ بغسل الصحون وازالة التراب من فوق الاثاث».

لكن اهم ما سبب لسوزان حالة الاكتئاب التي اصابتها والتي قادت إلى الطلاق هو ان زوجها كان يحاول ان يغير شخصيتها وطبيعتها بحيث تتلاءم مع كونها زوجة له، وان الزواج مؤسسة ابوية السلطة فيها للاب (لم يقل ذلك صراحة لها وكان يدعي انها مؤسسة قائمة على التعاون بين الزوجين والمشاركة لكن أفعاله كانت تتناقض مع ما يقوله). مثال ذلك ان سوزان كانت من النوع الطبيعي البسيط سواء في ملابسها

أو في تصرفاتها. لم تكن من النوع الذي يزيف وجهه بانفعالات غير حقيقية، أو يغطيه بطبقات من المساحيق، وكانت مشغولة بعملها الفكري عن الجري وراء الملابس والازياء الانيقة من اخر طراز. وكان زوجها على خلاف ذلك، فهو من النوع الذي يحب دائماً ان يظهر بأحسن مظهر ممكن، وان ينتمي في مظهره إلى الطبقة العالية، وكان يقول لها ان كل الناس ترتدي اقنعة حين تلتقي في المجتمع وانه لا بد ان يرتدي ايضاً القناع، ولكن كان يخلع قناعه في البيت. ولم تكن سوزان بطبيعتها تميل إلى ذلك، وتود ان تكون حقيقتها دائماً سواء داخل البيت او خارجه.

وكانت الخلافات بينهما تنشأ احياناً لانها تريد ان ترتدي الملابس المريحة البسيطة التي يجب ان ترتديها، وكان هو يصر على ان يتدخل في ملابسها، ويطلب منها ان ترتدي الملابس الانيقة التي تليق بزوجة رجل له منصب محترم، واسرة تنتمي إلى الطبقة العالية، وخاصة في الحفلات الليلية، حيث تتبارى الزوجات (والأزواج) في الاعلان عن انتمائهم للطبقات العالية. وفي مرة من المرات احتد النقاش بينهما حول الملابس التي كانت سترتديها في احدى الحفلات، كانت تصر سوزان على ارتداء بلوزة بسيطة وبنطلون، وأصر الزوج على ان ترتدي فستاناً للسهرة كان قد اشتراه لها في احدى سفراته إلى أوروبا، وانتهى النقاش بان ذهب هو إلى الحفل وحده. ورفضت سوزان إلا ان ترتدي الملابس التي تريدها هي. وكانت تقول له انها لا تتدخل في الطريقة التي يلبس بها فلماذا يتدخل هو في ملابسها. وكانت سوزان تحب بعض الاشياء الصغيرة التي تذكرها بصباها وطفولتها كأن تشتري قليلاً من الفول السوداني مثلاً وتأكله وهي سائرة في الشارع، وكان زوجها يستاء اشد الاستياء ويقول لها أن مثل هذا لا يليق بوضعها الاجتماعي، وكان يشعر بالحرج حين يراها احد من اصدقائه او افراد اسرته وهي تتصرف مثل هذه التصرفات ويقول لها: «ماذا سيقول الناس عني». وكانت سوزان تغضب وتقول له: «ما دخلك انت في هذا ان الناس يجب ان تحكم عليك بتصرفاتك انت، وتحكم علي بتصرفاتي انا» لكنه كان يرد عليها قائلاً: «ما دام انت زوجتي فان كل تصرف من تصرفاتك ينسب الي انا». وتشعر سوزان بالضيق وتقول له: «ولكنك الان تقيدني، انت تريد مني ان اتصرف وفق ما تريد انت، وليس وفق ما تريد انت فحسب، ولكن وفق ما يريده الناس عن زوجتك، ومعنى ذلك ان اقلد تصرفات جميع الزوجات من طبقتك الاجتماعية وان الغي شخصيتي وطبيعتي تماماً».

واعتذرت سوزان لي وهي تحكي عن كثرة الخلافات التي كانت تنشب بينها وبين

زوجها بسبب مثل هذه الاشياء التي تبدو صغيرة جداً وليس لها قيمة. لكن سوزان اكدت لي ان مثل هذه الاشياء الصغيرة، ليست صغيرة، وليست تافهة، لانها تحدث كل يوم، ولانها الحياة اليومية لأي زوج وزوجته ولاي انسان. ان من ابسط الحقوق للانسان ان يرتدي الملابس التي تريحه (بشرط الا يصدم مشاعر الناس بالملابس الشاذة جداً)، وان يتصرف بحرية وتلقائية (طالما انه لا يضر احداً).

وتقول سوزان ان زوجها كان يقول لها دائماً ان كلمة (يضر احداً) هذه نسبية، فان عدم قبولها للقيم الاجتماعية السائدة في طبقتهم تضره من حيث ان الناس يقولون عنه انه زوج غير قادر على السيطرة على زوجته. وهنا تشعر سوزان بالرغبة في الصراخ وتقول له: «ولكني سأضطر إلى تغيير كل صفاتي وكل شخصيتي من اجل ان تتمتع انت وسط اسرتك ومجتمعك بلقب «الزوج المسيطر على زوجته». وتسأل سوزان زوجها هنا: «وانا ألم تفكر في الضرر الذي يحدث لي انا بسبب محاولتك لقتل شخصيتي الحقيقية» ويرد زوجها قائلاً : «نحن لا نعيش وحدنا، اننا نعيش وسط مجتمع».

وبهذا شعرت سوزان ان زوجها يريدها ان تخضع لقيم المجتمع السائدة، وكانت هي ترفض هذا الخضوع وتشعر انها تخون نفسها وتخون عقلها لو انها فعلت ما لا تؤمن به، أو ما تشعر بأنه العدالة، وكانت ترى ان العدالة هي ان يكون من حقها أن تتصرف وتلبس وتفكر بما تراه مناسباً لها.

ومما زاد في شدة الصراع بين سوزان وزوجها ان سوزان نشأت في اسرة متحررة بعض الشيء، وان اباها كان رجلاً مفكراً متقدماً لا يفرق في المعاملة بين بناته واولاده. وكانت سوزان اكبر اخوتها البنات والبنين، وكانت امها قد توفيت وهي طفلة، فمارست سوزان مسؤولية الام إلى حد ما، وبسبب تحرر ابيها واتساع افقه فقد شعرت بشخصيتها وكانت تتصرف بحرية، وكان ابوها يشجعها على ان تكون طموحة فكرياً، وساعدها ايضاً ذكاؤها على ان تتفوق في دراستها، ووجدت في مكتبة ابيها الفرصة للقراءة وتوسيع افقها.

اما زوجها فقد نشأ في اسرة ثرية، والده رجل اعمال وصاحب مصنع، ولا يهمه من حياته الا الربح المادي باي شكل، وامه كانت من الطبقة الارستقراطية التي تعلمت قليلاً من الفرنسية وقليلاً من البيانو ثم باعها اهلها باسم الزواج لهذا الزوج الرأسمالي الثري. وكان له ثلاث اخوات بنات تعلمن في مدرسة فرنسية ثم تزوجن أزواجاً اثرياء من اصحاب الارض أو اصحاب المصانع. وهكذا تأثر زوجها بقيم هذه الاسرة

الرأسمالية الثرية والجاهلة والتي تعيش لتأكل افخر انواع المأكولات، وترتدي افخر انواع الملابس، ولا يكون دور النساء فيها الا الاستهلاك الشديد فقط (كل نساء اسرته ليس لهن عمل لا داخل البيت ولا خارجه) اما رجال اسرته فهم مشغولون ليل نهار في مصانعهم وفي تجميع اكبر قدر من الارباح ورأس المال.

وكان زوج سوزان مختلفاً عن رجال اسرته، في انه تعلم تعليماً عالياً، وسافر إلى الخارج في بعثات متعددة، وكان متفوقاً في عمله الفكري ولم يكن يهتم كثيراً بالمال مثلهم، ولكنه كان متأثراً إلى حد كبير بقيم اسرته، ويقيم وزناً كبيراً لكلام امه. وكانت امه حين تقارن بين سوزان وبين بناتها من ناحية الاناقة والاهتمام بالبروتوكول الاجتماعي تجد ان ابنها كان يستحق زوجة افضل، ولم تكن مثل هذه الام بطبيعة الحال تقدر اي صفة فكرية في سوزان، لان الزوجة في رأيها لا تقاس بالفكر وإنما تقاس بالشكل الخارجي والاناقة والجمال، وكانت سوزان مشغولة دائماً بسبب عملها الفكري وقراءاتها وكانت الام تغضب من ذلك وتقول لابنها دائماً: «لقد تزوجت رجلاً وليس امرأة».

وتبتسم سوزان بمرارة وتقول ان زوجها كان يتاثر بكلام امه، وكان على استعداد لتقبل فكرة انها رجل وليست امرأة، لولا تلك العلاقة الجنسية الناجحة بينهما، والتي كانت تؤكد له أن سوزان امرأة، وكان الجنس يلعب دوراً كبيراً في استمرار الحياة الزوجية بينهما رغم الخلافات الكثيرة للاسباب السابقة، وما شابهها.

وتقول سوزان ان نجاح الجنس بينهما كان بسبب انها كانت ايجابية وكانت تتصرف معه بحرية وانها كانت تحبه وتشعر انه يحبها رغم كل الخلافات. وكانت سوزان تصل إلى الاورجازم بسهولة وعدة مرات، ولم تكن تشعر باي حرج مع زوجها،وقد جاء ذلك من تربية ابيها المتحررة لها، ومن اختلاطها المبكر بالجنس الاخر وحياتها في اوروبا سنوات طويلة، وعدم احساسها بان اللذة الجنسية اثم او عيب. وبالطبع لم تتعرض سوزان لعملية الختان، او التربية الصارمة لقمع شخصية البنت، لان امها توفيت وهي طفلة، ولأن اباها كان متحرراً، ولم يكن يفرض عليها القيود المعتادة.

وتقول سوزان ان زواجها امتد ثلاث سنوات بسبب الحب والثقة المتبادلة بينهما، وبالرغم من ان زوجها كان يعلم انه ليس الرجل الاول في حياتها العاطفية والجنسية الا انه كان يثق في انها انسانة صادقة، ولم يكن يشك فيها قط من هذه النواحي لانه كان متأكداً من حبها له. وفعلاً كانت سوزان تحبه، ولم تكن من نوع النساء الذي

يمكن ان يكذب على الزوج او على الاخرين، كانت تشعر انها في غير حاجة إلى الكذب، وقد رباها ابوها على ان تكون صادقة دائماً.

وكانت سوزان رغم اعتزازها بشخصيتها على استعداد دائماً للعطاء والحنان، لكنها لم تكن تؤمن بالتضحية الدائمة من جانب الزوجة والاخذ الدائم من جانب الزوج. كانت تريد الحياة الزوجية تبادلاً في العطاء والاخذ. لكن ذلك كان مستحيل الحدوث في ظل القيم الاجتماعية السائدة التي تفرض عليها ان تضحي بكل شيء كبير وصغير في حياتها وشخصيتها من اجل زوجها. ولم يكن زوجها (بتربيته واسرته وعدم قدرته على الصعود فوق القيم السائدة) قادراً على تحمل ما تسببه تصرفات سوزان الطبيعية واعتزازها بحريتها وشخصيتها من حرج ومشاكل بسيطة، لا تزيد عن موضوع الرجولة ومفهومها السائد من حيث السيطرة وحكم الزوجة. وكانت هناك ايضاً خلافات حول المشاركة في الاعمال المنزلية او في رعاية الطفل، ومحاولة زوجها القاء كل هذه الاعباء عليها وحدها.

اما كيف حدث الطلاق، فتقول سوزان ان الخلافات اليومية اصبحت تزيد بينهما، حول اللبس والاكل والطفل والخروج والحفلات وزيارة اسرته، إلى حد ان ذلك اصبح يؤثر على حبنا وعلى علاقتهما الجنسية. وتقول سوزان:

«بعد مشاجرة من هذه المشاجرات حول رأي امه في لم اشعر برغبة جنسية في تلك الليلة، لكنه اصر على ان يحدث الجنس ليحدث الصلح ككل مرة، لكني هذه المرة عجزت عن ان اشعر باية رغبة جنسية نحوه، وحدث الجنس من طرف واحد فقط، وتكرر ذلك، واصبحت شبه باردة جنسياً معه، وصارحته بالامر، وبدأت اشعر ان حياتنا معاً اصبحت مهددة لعدم المشاركات في اي شيء، سوى بعض القراءات والافكار المشتركة العامة المجردة. لكن حياتنا العملية اليومية اصبحت تتباعد. واصبحت اشعر بحالات اكتئاب، وارق، وقلق، وبدأت في ابتلاع الاقراص المنومة والمهدئة، لكن حالتي لم تكن تتحسن».

وسألت سوزان: «فكيف حدث الطلاق»؟.

وقالت: «فكرت في الطلاق حين وجدت نفسي وحيدة في البيت مع الطفل وقراءاتي، واصبح زوجي يخرج ويسهر في بيت اسرته مع مجموعة من الاصدقاء والصديقات الذين لم اكن اشعر بتجاوب فكري معهم، واشعر بتفاهة احاديثهم.

وباتصاله المتكرر بأسرته والجو الاجتماعي الذي يعيشون فيه اصبح اكثر شبها بهم واكثر حرصاً على التكيف مع قيمهم وبذلك زادت بيننا الخلافات إلى حد ان قلت له في يوم ان زواجنا لم ينجح ومن الافضل ان نواجه الامر بدلاً من الهروب من الحقيقة.. ووافقني زوجي على ذلك وتم الطلاق بهدوء شديد، وبالطبع اخذت الطفل معي ولم يطلب هو ان يأخذه.

وسألتها: «هل تحسنت حالتك النفسية بعد الطلاق»؟

قالت سوزان : «نعم، زال عني الارق، والقلق، لكن ما هي الا بضعة شهور حتى اصبحت مواجهة بمشاكل اجتماعية كثيرة هي مشكلة المرأة المطلقة في مجتمعنا وكان علي ان اصارع المجتمع مرة اخرى، ولكن وحدي هذه المرة، وبدأ الارق يعاودني، وحالات الاكتئاب، ولم اعد استطيع ان انام بغير الاقراص المنومة».

سألتها: «وماذا عن عملك الفكري.. هل يرضيك؟».

قالت : «لولا عملي الفكري الذي يعوضني كثيراً ويؤكد لي قدرتي لفقدت عقلي تماماً أو فكرت في الانتحار يأساً من حياتي في مثل هذا المجتمع، لكن الظروف التي اعيشها تعطلني كثيراً، وتجهدني، فاذا بي في حالة من الارهاق النفسي يجعلني عاجزة عن اعطاء عملي حقه من التفرغ والاثراء المستمر. وهذا ايضاً يشقيني ويعذبني. ولكنني ادور في حلقه خبيثة، واحس انني اصارع قوة ضخمة اكبر مني بكثير، واحياناً اتساءل أليس ابي هو المسؤول عن شقائي لانه عودني على ان اكون مستقلة حرة وصادقة في مجتمع لا يحب في المرأة الا الكذب والخداع وعدم الاستقلال».

واكدت لسوزان انها كانت محظوظة ليكون لها مثل هذا الاب المتحرر الواسع الافق، وطلبت منها ان تكف عن الاقراص المنومة والمهدئة، وان تصمم بينها وبين نفسها على الاستمرار في الكفاح من اجل تفوقها في عملها الفكري، وتنمية قدراتها في عملها وفي عطائها الفكري للناس مما ينورهم ويساعدهم على تغيير القيم المتخلفة وان تفتح ذراعيها للحياة وتعيش وتسعد وتتصرف بتلقائية وحرية، وان ترتدي الملابس التي تريدها، وتصادق الناس الذين تريد ان تصادقهم، وتأكل الفول السوداني كما يحلو لها وهي سائرة في الشارع، وان تشتري الكتب التي تحبها، وتقرأ، وتفكر، وتنتج، وتكون الانسانة الطبيعية الصادقة، وإذا احبها رجل كما هي فلتتزوج، إذا اراد ان يضعها في قالبه فلترفض، وليكن زواجها السابق خبرة كبيرة لها، وتجربة تساعدها على فهم

الحياة والناس، وتجعلها اكثر تمسكاً بمبادىء الصدق لا العكس.

واختفت سوزان شهوراً طويلة، ثم قابلتها صدفة في الطريق، واحسست من نظراتها اللامعة وحركتها النشيطة انها تغلبت على الازمة، وشدت على يدي وهي تصافحني وقالت: «لقد قذفت من نافذة حجرة نومي بكل علب الاقراص المنومة وصممت عل ان اكون قوية وشجاعة وصادقة، وانا استعد للسفر مرة اخرى في بعثة قصيرة إلى غينيا». وتألقت عيناها بالحماس وهي تقول: «هذه اول مرة ازور فيها افريقيا، واشعر بشوق كبير لرؤية هذه البلاد».

وتركتني سوزان واسرعت إلى مكتب شركة الطيران. واحسست ان حياتها اصبحت مليئة ومتجددة وانها اصبحت تعطي لعملها الفكري اهتماماً اكبر، وانها وضعت قدمها على الطريق. وتخيلتها وهي تلتقي بالرجل الصادق مثلها الذي يستطيع ان يقدر صدقها ويحترمها فتعيش معه، او انها لا تعثر عليه ابداً، فلا تشعر بالفشل اوالاكتئاب ولا تتعاطى الاقراص المنومة او المهدئة، ولكنها تجد في عطائها الفكري للناس ما يسعدها وما يعوضها عن اي شيء آخر، والحياة بغير زواج افضل من الحياة في ظل زواج فاشل وغير سعيد.

فاطمة (أ)

فاطمة في العشرين من عمرها طالبة بكلية الاداب قسم الفلسفة، ذكية تقضي معظم وقتها في قراءة الفلسفة والتاريخ والادب وعلم النفس، وتفتح عقلها على مفاهيم جديدة تماما عليها، متناقضة تماما مع القيم التي تربت عليها في اسرتها. . . كانت اسرتها احدى اسر الطبقة المتوسطة. ابوها كان مدرسا للجغرافيا باحد المعاهد المتوسطة وامها في البيت، ولها اربع بنات كبراهن هي فاطمة. وكان الاب من النوع المتدين، الذي ورث البيت الذي يعيش فيه. ورغم انه مدرس الا انه لم يقرأ شيئا خارج ذلك المقرر المحدود الذي يدرسه للتلاميذ في الجغرافيا. ورغم تدينه الشديد الا انه كان جاهلا بالدين لانه لم يقرأ فيه الا تلك المعلومات الاولية التي يعرفها جميع الناس والتي لا تساعده الا على اداء الفرائض اما حقيقة الدين وجوهره فلم يكن يعرف عنه شيئا، وكان كمعظم الاباء (وبالذات اباء البنات) متزمتا يخاف على بناته من الفساد الاخلاقي الذي يعتقد انه منتشر، والذي يرى مظاهره في الرقصات الخليعة في السينما والتلفزيون وصورالنساء نصف العاريات فوق اغلفة المجلات. وقد فرض الاب على ابنته الكبرى فاطمة ان تواظب على الصلاة وهي طفلة في السابعة من العمر، وكان يحذرها من الاختلاط بالفتيان، وكانت فاطمة تلميذة مجتهدة في المدرسة الابتدائية لكنها كانت ضعيفة جدا في الحساب، فاتى لها ابوها بمدرس للحساب في البيت (وهو احد زملائه المدرسين في المعهد). وكان هذا المدرس يشرح لها الحساب لكنها كانت تحس اصابعه احيانا فوق فخذها واحياناتصعد اصابعه الى فوق. ومن شدة الخزي والحياء كانت تستسلم لاصابعه استسلاما كاملا، واحيانا تشعر باللذة التي سببت لها احساسا اليما بالذنب، ورغم انها كانت تصلي وتطلب من الله ان يغفر لها الا ان الاحساس بالذنب كان يؤرقها كثيرا.

ونالت فاطمة الشهادة الابتدائية ولم يعد مدرس الحساب يأتي اليها وتنفست الصعداء لكنها وهي في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة كانت تمارس العادة السرية احيانا، وتشعر بلذة، ويعقبها ذلك الاحساس الاليم بالذنب، والذي لا يزول بالصلاة والصوم وطلب المغفرة من الله.

وحين نالت فاطمة الشهادة الثانوية العامة لم يمنعها ابوها من دخول الجامعة لأنها كانت تحب التعلم والقراءة ، ولأن احداً لم يتقدم للزواج منها ، وكان الأب يحمل هم اربع بنات ، ويتمنى لو رزقه الله بأربعة عرسان لهن ليزوجهن ويستريح من عبئهن .

لكن احدا لم يتقدم، ودخلت فاطمة كلية الاداب وبدأت تقرأ كتب الفلسفة، وكان ابوها يفرض عليها ان ترتدي طرحة تخفي تحتها شعرها، وترتدي اكماما طويلة صيفاً شتاء. ولم تكن فاطمة تختلط بزملائها في الكلية، كانت تتصور ان مصافحتها للرجال حرام، وان صوتها عورة، وكانت بعد انتهاء المحاضرات تسرع الى البيت دون ان تكلم احدا. كانت حياتها تنحصر في المذاكرة والصلاة.

لكنها بعد سنتين في الجامعة شعرت بالميل نحو احد زملائها وتصورت ان هذا الزميل يخصها بنوع من الاهتمام. كان يبتسم حين يراها في الفناء، او يقول لها صباح الخير فيحمر وجهها وترد عليه بالتحية، وبدأت فاطمة تعيش حبا صامتا لهذا الشاب، وتغذيه باحلامها وخيالاتها، ولم تجرؤ على ان تصرح له بهذا الحب بل كانت تختلس اليه النظرات من بعيد، وفي الليل تحلم احلاما جنسية تسبب لها في النهار احساسا طاغيا بالذنب. وفوجئت فاطمة في يوم ان هذا الزميل قد خطب زميلة اخرى، وتصورت انه خانها، واصيبت بصدمة عنيفة، جعلتها تبكي وحدها وهي في سريرها، وحين تصلي تطلب من الله المغفرة على ذنوبها وكانت ذنوبها انها تخيلت كثيرا ان هذا الشاب يقبلها ويمارس معها الجنس في احلامها.

وفي يوم كانت فاطمة تصلي فاذا بها بدلا من ان تسبح بحمد الله تبدأ في توجيه اللوم الى الله، بل اكثر من اللوم، كلمات عنيفة قاسية لا يمكن ان يوجهها احد الى احد، فما بال الله. وارتعدت فاطمة من الذعر، وحاولت ان تمنع نفسها لكنها لم تستطع، كانت هذه الالفاظ تسيطر عليها ولا تستطيع منعها، ومن شدة الذعر كانت تبدأ الصلاة مرة اخرى، وتستغفر الله على ما بدر منها من الفاظ وافكار سيئة لكنها بعد الاستغفار تجد نفسها فريسة مرة اخرى لهذه الافكار والالفاظ غير اللائقة. والغريب ان هذه الالفاظ تحولت بعد ايام قليلة الى افعال، واصبحت فاطمة فريسة لاحلام جنسية مفزعة، تفرض عليها فرضا بقوة قاهرة لا تستطيع منعها، ولم تكن هذه الافعال تحدث الا مع الله، الذي كان يتجسد امامها احيانا على شكل رجل، ومن شدة الفزع كانت تبكي وتلعن نفسها، وتتهم نفسها بسوء الخلق والفساد، وتكثر من الصلاة، حتى اصبحت تصلي نصف النهار، لكن الصلاة اصبحت ترعبها ايضا، لان الافكار السيئة كانت تغزوها اثناء الصلاة ذاتها.

ولم تستطع فاطمة ان تحكي مشكلتها لابيها او لامها، وحينما بدأ الهزال والشحوب

يظهر عليها ادركت انها اصبحت عاجزة عن النوم، وعذبها الارق والبكاء، لجأت الى الطبيب الباطني في عيادة الجامعة، ولم تستطع بالطبع ان تحكي حقيقة المشكلة لكنها قالت له انها تشعر بصداع دائم ولا تنام. وحولها الطبيب الباطني الى الطبيب النفسي، ولم تستطع ان تحكي له حقيقة المشكلة، كانت ترتعد كلما انفرجت شفتاها لتقول كلمة «الله» وتصورت ان ما يحدث لها جريمة لا تغتفر، وان اي احد سيسمعها سيتهمها بافظع الاشياء، واعطاها الطبيب النفسي بعض الاقراص المهدئة والمنومة، ولم تشعر فاطمة باي تحسن، واصبحت حياتها جحيما، ولم تعد قادرة على المذاكرة او القراءة، وفي احدى الليالي وبعد ان عاشت اكثر من ساعة فريسة لتلك الافعال والأفكار اللاارادية المنكرة فكرت في الانتحار، وابتلعت جميع الاقراص الباقية في الزجاجة، وكادت تموت لولا ان امها حملتها بسرعة الى المستشفى حيث اسعفوها بغسل المعدة وانقذت حياتها، وعادت مع امها الى البيت.

لكن اسرتها هبت من نومها فزعة ذات ليلة على صوت صرخة عالية، ورأوا فاطمة ملقاة على سجادة الصلاة والطرحة حول رأسها، تهذي بكلمات غير مفهومة، فحملوها الى المستشفى النفسي حيث تلقت الجلسات الكهربائية.

وسألتني فاطمة بصوتها الضعيف الخائر: ماذا افعل يا دكتورة؟ انهم يمنعونني من الموت. وسألتها: ألم تتحسني بعد مجيئك الى المستشفى؟.

قالت: لا.. لقد زادت حالتي سوءا، وبعد ان كانت الافكار السيئة تراودني مرة او مرتين في اليوم اصبحت تراودني ثلاث واربع وخمس مرات ولا ادري ماذا افعل!

نظرت الي بعينين مذعورتين، وسألتها وانا انظر داخل عينيها: ماذا يفزعك يا فاطمة؟.

قالت: يفزعني عذاب الله.

قلت لها: ان الله لن يعذبك.

نظرت الي في دهشة وقالت: كيف؟ انني بنت منحطة، وسوف يحرقني الله.

قلت لها: لست بنتا منحطة.

فسألت بسرعة: وهذه الافكار السيئة يا دكتورة؟.

قلت: يمكنك التخلص من هذه الافكار لو استطعت التخلص من احساسك بالذنب، انك لست مذنبة يا فاطمة.

سألت: وهذه الافكار؟.

قلت: انها لا تراودك وحدك، بعض الناس تراودهم هذه الافكار نفسها بسبب التزمت والتخويف والكبت.

اتسعت عيناها بدهشة وقالت: لا اظن ان هناك من يراوده مثل هذه الافكار.

وحكيت لفاطمة عن بعض الحالات من الفتيات اللائي قابلتهن، واللائي كن يعانين من المشكلة نفسها، وشرحت لها اسباب ذلك.

ان الاحساس الشديد بالذنب الذي عانته في طفولتها بسبب مدرس الحساب، ثم بسبب ممارسة العادة السرية، ثم بسبب الاحلام الجنسية، ارهقها نفسيا خاصة وانها تعيش في جو من القيم والتقاليد التي تتناقض تماما وما يحدث لها في اعماقها. لقد وقعت فاطمة فريسة التناقض بين الواقع الذي يفرضه عليها جسدها، وبين النظرية التي يفرضها عليها ابوها والمجتمع من حولها. ولا شك ان قصة حبها الصامت ومن طرف واحد تدل على انها في حاجة ماسة الى ان تبادل رجلا الحب، لكن القيم تختزن عواطفها كالبخار المضغوط داخل نفسها، وكان لا بد ان يأتي يوم وتتفجر نفسها كبركان لاقل هزة، وقد حدثت هذه الهزة حين خطب هذا الشاب (الذي احبته ومارست معه كل شيء في احلامها) فتاة اخرى غيرها. ان رد الفعل لهذا الحدث كان شديدا بسبب شدة الشيء المخزون داخل فاطمة.

ولم يكن لفاطمة ان تشفى من حالتها الا اذا اصبحت واعية بهذه الاشياء:

١ ـ ان اللذة التي شعرت بها وهي طفلة (بسبب المدرس) او بعد ذلك (بسبب العادة السرية) كانت احساسا طبيعيا، وما كانت لتسبب لها اي ضرر لولا الاحساس بالذنب والذي كان له تأثير ضار على نفسيتها.

٢ ـ ان الاحلام الجنسية التي كانت تعيشها كانت احلاما طبيعية وما كانت لتسبب لها اي ضرر لولا ذلك الاحساس بالذنب الذي صاحبها.

٣ ـ ان حبها لذلك الشاب كان شيئا طبيعيا، وكان يمكن ان يكون اكثر صحة لو انها غذته بالحقيقة والواقع بدلا من الخيالات، وربما لو عرف هذا الشاب انها تحبه لاحبها، ولكنه كان يجهل انها تحبه، ولذلك لا يمكن ان نعتبر خطوبته لفتاة اخرى خيانة لها.

٤ ـ ان الاحساس بالذنب والكبت والتناقض والخوف الشديد من عقاب الله هو الذي ادى بها الى تلك الحالة العكسية التي اصابت علاقتها بالله، ولا بد لها ان تدرك انها غير مذنبة، وان الله لن يعاقبها وانها ليست الوحيدة التي تشعر بما شعرت به، وانما هناك كثيرون غيرها.

ولم يكن من السهل بطبيعة الحال اقناع فاطمة بهذه الحقائق، ولكنها شعرت بارتياح شديد وتنهدت وهي تقول: لقد كنت اتصور انني فتاة منحطة الخلق، فاسدة، وكنت اظن انني الفتاة الوحيدة على ظهر الارض التي حدث لها ذلك، وكلما كنت اؤكد لفاطمة انها ليست الوحيدة التي حدث لها ما حدث، وانها فتاة ذكية واخلاقها طيبة وليست منحطة، وانها تستحق كل خير من الحياة، كلما كانت تشعر فاطمة

بالارتياح، وطلبت منها ان تتطلع الى المستقبل وان تضع لنفسها هدفا فكريا تحققه بقراءاتها ودراستها.

وقد قابلت والد فاطمة وشرحت له حالة ابنته على حقيقتها والاسباب الحقيقية ولم يكن هذا الاب منغلق الذهن تماما، وكان قد بدأ يلمس الراحة والتحسن في عيني ابنته وبدأ الامل في شفائها، وبسبب ذلك انصت الي بذهن مفتوح، واقتنع بما شرحته له، وطلبت منه ان يساعدني من اجل شفاء ابنته.

وفعلا ساهم هذا الاب في شفاء ابنته، فقد اكد لها انها غير مذنبة وان احساسها بالذنب لا اساس له، وان احدا لن يعاقبها، وان من حقها ان تحب، وان تشعر برغبات جنسية، وقد كان لوقع هذه الكلمات من الاب نفسه فعل السحر في نفسية ابنته، التي بدأت تشعر كأن عبئا ثقيلا ينزاح عن قلبها، وقالت لي في اندهاش وراحة: لم اكن اتصور ان ابي سيقول لي هذا الكلام في يوم من الايام.

وساعد هذا الاب ابنته على الخروج من المستشفى، وانتظمت فاطمة في دراستها مرة اخرى، وجاءني صوت ابيها في التليفون ذات يوم في سعادة:
تصوري يا دكتورة لقد نسيت تماما هذا الشاب الذي سبب لها الصدمة، لم اكن اتصور انها ستنساه، لقد كانت تهذي باسمه طول الليل.

قلت له: هذا الشاب لم يكن السبب الحقيقي فيما حدث لفاطمة، انه كان القشة فحسب التي قسمت ظهر البعير، اما السبب الحقيقي فهو الخوف الدفين منذ الطفولة، لو ان الاباء والامهات يفهمون نفسية الطفل لما تعرض امثال فاطمة لهذه الازمات النفسية، او ان فاطمة وهي طفلة حكت لامها او ابيها عن حكاية مدرس الحساب، او عن العادة السرية، ولو ان امها (او اباها) طمأناها وشرحا لها حقائق الحياة لما دخلت فاطمة في تلك الحلقة الخبيثة من الخوف والكبت، ثم الاحساس العنيف بالذنب، الذي تفجر في النهاية على شكل المرض النفسي.

سهير

دق جرس التليفون في منزلي الساعة السادسة صباحاً، وجاءني صوت فتاة مضطربة وخائفة، وتطلب مني المجيء اليها فورا.

وسألتها: اين انت؟.
قالت: في مستشفى العباسية.
سألتها: ما اسمك وفي اي قسم؟.
قالت: سهير... في قسم...
ركبت سيارتي الصغيرة، وطوال الطريق من الجيزة الى العباسية وانا افكر في امر تلك الفتاة، ولا بد ان الامر خطير حتى تطلبني بالتليفون في هذا الوقت المبكر خاصة وانني لست من اطباء المستشفى.

ولا بد انها بذلت جهدا كبيرا في التمكن من استخدام المستشفى في ذلك الوقت، وانا اعلم حال التليفونات في المستشفيات العامة فما بال تليفونات المستشفيات النفسية، ولا بد انها دفعت شيئا للممرض المناوب او تنازلت له عن طعامها او نفذت اوامره ومسحت العنبر بدلا منه (اذا لم تكن تملك شيئا تدفعه له).

حين دخلت المستشفى من باب الحديقة الخلفي، رأيت بعض المريضات بملابسهن البيضاء جالسات على الحشيش، ونهضت واحدة حين رأت العربة واقتربت مني قائلة: معك ثلاثة قروش؟.
سألتها: نعم، لماذا؟.
قالت: سأشتري قطعة حلاوة.
وتقدمت واحدة اخرى مني تقول: معك سيجارة؟، وجاء رجل عجوز له عينان واسعتان حزينتان وقال لي: اعطني قرشا.

ولم ادهش بالطبع، فانا اعرف من زياراتي لهذا المستشفى، ولغيره من المستشفيات النفسية (وغير النفسية) كم يجوع المرضى والمريضات وبالذات هؤلاء

الذين لا اهل لهم، او الذين تخلى عنهم اهلهم بسبب طول المرض (مشاعر الاسرة والاهل تجاه الابن او الابنة المريضة تظهر على حقيقتها)، او الذين لهم اهل فقراء لا يرسلون اليهم طعاما بصفة منتظمة، او حتى بصفة متقطعة.

تركت عربتي تحت شجرة امام المبنى الرئيسي للمستشفى، وسرت نحو المبنى الاخر حيث القسم الذي به «سهير»، حين دخلت المبنى لفح وجهي على الفور هواء رطب بارد له رائحة عفنة كرائحة حظائر الماشية في بيوت الفلاحين في قريتنا، ورأيت بعض المريضات جالسات على الارض، وامامهن اكواز من الصفيح، وعرفت انهن يشربن الشاي، وهذا الشاي المغلي عدة مرات (لاستخدامه اكثر من مرة) يعد ترفا تحظى به المريضات القادرات على دفع ثمنه للممرضين.

كانت سهير راقدة في عنبر (يشبه الى حد كبير العنابر التي رأيتها في سجن النساء بالقناطر)، وسريرها عليه فراش رقيق ممزق في اجزاء، ويخرج منه القطن، والملاءة بلون التراب والى جوارها على رف النافذة رغيف اسود، وبقايا عدس في صحن نحاس تجمع حوله عدد من الذباب والصراصير السوداء الصغيرة (تذكرت على الفور المناظر التي رأيتها في سجن القناطر).

جلست على طرف السرير وفي مواجهتي وجه «سهير» الشاحب بملامحها الدقيقة وعينيها الواسعتين، لها نظرة فاحصة ذكية:

قالت لي بصوت هادىء: الا تذكرين يا دكتورة؟.
قلت لها: يخيل الي انني رأيتك من قبل.
قالت: نعم، منذ عامين، حين جئت الينا في ندوة في كلية طب عين شمس.
قلت: انت طالبة بكلية الطب؟.
قالت: نعم، في السنة النهائية.
قلت: وكيف جئت الى هنا؟.
قالت: انا لم اجيء، هم الذين اتوا بي الى هنا.
قلت: من؟.
قالت: اهلي، ابي وزوجته.
سألتها: لماذا؟.
قالت: سأحكي لك كل قصتي، ولكني لجأت اليك اليوم لتساعديني في الخروج، فالامتحان بعد اسبوع واحد، واريد ان ادخله حتى لا تضيع علي السنة، لقد ذاكرت وانا هنا ولا اريد ان اتخلف عن الامتحان، ان تخرجي في الكلية سوف ينقذني من ابي واستطيع ان اعول نفسي، واعيش وحدي بعيدا عن اسرتي.

وطلبت من سهير ان تترك سريرها، وان تهبط معي الى فناء المستشفى لنجلس في الهواء الطلق واسمع قصتها، كنت قد شعرت بآلام في رأسي وجسمي من الرائحة العفنة داخل العنبر، والمنبعثة من جسد امرأة ترقد على السرير المجاور لسرير سهير.

وجلسنا في الفناء، وبدأت سهير تحكي قائلة: كنت في السادسة من عمري حين رأيت ابي يضرب امي ويصرخ قائلا لها: انت طالق، ولم اعد ارى امي، وتزوج ابي من امرأة (هي اخت زوجة عمي)، واصبح عمي يزورنا مع زوجته كثيرا، وفي يوم كنت اطعم الفراخ فوق سطح المنزل، حين دخل عمي كوخ الدجاج ورفع عني ملابسي وهو يهمس بصوت غريب قائلا: لا تخافي، كنت في حوالي السابعة من العمر، ومن شدة الذعر لم استطع ان اقول لابي (بسبب قسوته الشديدة علي، دائما يقول انني اشبه امي)، ولكني قلت لزوجة ابي، وكانت تظهر لي بعض العطف احيانا، ولكنها صفعتني على وجهي وقالت بغضب: لا تقولي هذا الكلام السيء لعمك يا بنت! انه رجل فاضل ويحب زوجته، وزوجته تحبه، فلا تفسدي حياتهما بهذه الخيالات التي تتوهمينها.، وكنت طفلة، وصدقت زوجة ابي ان الذي حدث لم يكن الا خيالا توهمته، لكن عمي كرر ما فعله مرة ثانية، وفي هذه المرة ادركت اشياء لم اكن ادركها في المرة السابقة، وقال عمي يهددني: لا تقولي لاحد والا ذبحتك! واصبحت اخاف من الصعود الى كوخ الفراخ في السطح، وضربتني زوجة ابي مرة لاصعد واطعم الفراخ لكنني رفضت، فظلت تضربني حتى سال الدم من انفي، فصرخت وقلت لها: لا اريد ان اصعد! فصرخت: لماذا؟ فصرخت وانا ابكي: انه يصعد ورائي، فصرخت: من؟ فقلت لها: عمي! فنظرت الي في استنكار وصفعتني على وجهي وهي تقول: انت مجنونة! سأقول لابيك ليضربك، وكنت اخاف من ابي، لان ضربه كان شديدا، وكان يضربني على رأسي وكأنه يريد ان يقتلني، فرجوتها الا تقول له شيئا، واخذت أكل الفراخ وصعدت الى السطح وانا ارتعد خوفا، ولم يجيء عمي، وعرفت انه مريض، ثم مات بعد بضعة شهور، وفرحت حين علمت بموته فرحا شديدا وكنت في حوالي العاشرة من عمري وارتدت زوجة ابي السواد، ورغم انني كنت صغيرة، الا انها اتت لي بفستان اسود لارتديه، فرفضت، ضربتني وهددتني بان تقول لابي اذا لم البس الفستان الاسود واضطررت الى ارتدائه.

واصبحت زوجة ابي تفرض علي اشياء كثيرة وتهددني، واصبحت اشعر انني اسيرة لها، ووضعت كل همي في المذاكرة، وكان لي ابن خالة يكبرني بخمس سنوات، وكان يزورنا احيانا، وكنت احكي له عن قسوة ابي وزوجته، فكان ينصحني بالمذاكرة، ودخول المدرسة الثانوية مثله، ثم نشتغل في اي عمل ونهرب من اهلنا، وكان هو ايضا يعاني من قسوة ابيه، وفعلا كنت متفوقة دائما في الدراسة وحصلت على مجموع عال

في الثانوية رغم ان زوجة ابي كانت تشغلني في البيت، وتفرض علي ترك المذاكرة لأرعى اطفالها. وحاول ابي (بتحريض من زوجته) ان يمنعني من دخول كلية الطب لكن خالتي وزوجها وابنهما ظلوا وراءه حتى قبل، ودخلت الكلية، وكنت متفوقة دائما، ولا اجد صعوبة في اي علم من العلوم، ولكن الصعوبة الوحيدة كانت في الجو الذي اعيشه في البيت.

وحينما وصلت الى السنة النهائية بدأت زوجة ابي تدرك انني سأكون طبيبة عما قريب، وبدأت تغير من معاملتها لي، وتناديني احيانا يا دكتورة سهير، وفي يوم جلست الى جواري وقالت انها اتت لي بعريس ممتاز، ولم يكن هذا العريس الا احد اقربائها وكان رجلا مترهلا لم اشعر نحوه باي مشاعر، وكنت اشعر بالميل لابن خالتي الذي كنت اشعر بانه يحبني، ويهتم بي وكان هو سبب تحملي لحياتي الشقية في البيت، وفي نجاحي في دراستي وكنا قد اتفقنا على الزواج بمجرد تخرجي.

لكن ابي جاءني يوما وقال لي ان ذلك الرجل (قريب زوجته) قد خطبني منه وانه وافق، وانه اتفق معه على ان يكون كتب الكتاب الخميس القادم، اما الدخلة فتكون بعد تخرجي هذا العام، ورغم انني اخاف من ابي فقد طلبت منه ان يؤجل ذلك كله حتى انتهي من دراستي، ولم استطع بالطبع ان اقول له انني لا اريد هذا واريد رجلا اخر، لكن ابي رفض فكرة التأجيل، وفوجئت بيوم كتب الكتاب، وابي هو الذي يوقع عقد الزواج بصفته وكيلا عني، واصبح الرجل المترهل (قريب زوجة ابي) هو زوجي الذي سأزف اليه بعد تخرجي في الكلية.

وهنا اهتزت الارض من تحت قدمي،وأحسست ان الامل الذي بنيته راح، وانني لن اتحرر الى الابد من هذه الاسرة، وبدأت اشعر بالصداع والارق، ولم اعد استطيع المذاكرة، وجاء الامتحان النهائي ورسبت في الامتحان بالطبع، وتدهورت حالتي واصبحت اشعر برغبة في البكاء الدائم، والصراخ، واشتدت قسوة ابي وزوجته علي، واصبحت اقضي اليوم كله في سريري راقدة، واشعر بالصداع والآلالم في كل جسمي، وفي يوم جاءت زوجة ابي لتخرجني من السرير بالقوة لاحضر الغداء لابي، لكنني رفضت، فصفعتني على وجهي، فانهلت عليها ضربا ولكما، وجاء ابي وضربني فاخذت اصرخ باعلى صوتي وفقدت الوعي تماما، ثم حين افقت وجدتني هنا في هذا المستشفى، وعلمت ان زوجة ابي قالت لابي انني مجنونة، واقتنع ابي بكلامها، وحملني على الفور في تاكسي الى المستشفى، ولم يحاول واحد من الاطباء ان يسمع ما اقوله، لقد اكتفوا بما قاله ابي وزوجته، وادخلوني بالقوة الى مكان مظلم رطب، حيث سلطوا على رأسي جلسة كهربائية، جعلت عظامي تؤلمني عدة ايام، ورفضت اخذ اي اقراص وقلت للطبيب انني لست مريضة، وانني طالبة بنهائي طب، فرد علي

الطبيب قائلا: لا تتصرفي اذن كالجاهلة وخذي الدواء الذي يصرف لك، وطلبت منه ان يسمعني لمدة خمس دقائق لانني لست مريضة، لكنه لم يتوقف واسرع وركب عربته وغادر المستشفى. والآن يا دكتورة ارجو ان تساعديني في الخروج من هنا، ان اي عاقل يدخل هنا لا بد ان يصبح مجنونا بعد بضعة ايام، ان كل الظروف التي عشتها تدفع الى الجنون فعلا، ولكني ما زلت احتفظ بقواي العقلية، وقد علمت من الطبيب ان زوجة عمي ذكرت له انني كنت وانا طفلة اتخيل اشياء وهمية وحكيت له قصة كوخ الفراخ وعمي، وقلت للطبيب ان هذه الحكاية ليست خيالا، وانها حدثت بالفعل، وكنت اتصور ان الطبيب سيصدقني لكنه امر باعطائي جلسة كهربائية، وحينما طلبت من الطبيب ان يخرجني من المستشفى حتى لا يضيع علي الامتحان للمرة الثانية، قال لي: سأخرجك حين تشفين تماما.

وسألته: ومتى اشفى تماما؟.
قال: حين تكفين عن تصور الخيالات.
قلت له: اية خيالات؟!.
قال: الخيالات عن عمك وكوخ الفراخ.
قلت: هذه اشياء حدثت وانا طفلة صغيرة وقد نسيتها.
قال: هذه اشياء لم تحدث.
قلت له: كيف عرفت انها لم تحدث؟.
قال: اهلك قالوا انها لم تحدث.
قلت: ولماذا تصدق اهلي ولا تصدقني انا؟.
قال: نحن نصدق الاهل ولا نصدق المرضى.
قلت: ومن قال انني مريضة؟.
قال: نحن.
قلت: من انتم؟.
قال: الاطباء..
قلت: ولكن لم يحدث ان فحصني طبيب واحد منكم، ولم يحاول واحد منكم ان يسمعني اكثر من نصف دقيقة وقد امرتم لي بجلسة كهربائية فوق رأسي قبل ان تسمعوا مني شيئا، هل هذه مهنة الطب؟.

قال غاضبا: المستشفى فيه ٣٥٥٠ مريضا ومريضة (٢٢٠٠ مريض، ١٣٥٠ مريضة) فهل يمكن ان اسمع كل واحد منهم اكثر من نصف دقيقة؟.

قلت: وهل انت الطبيب الوحيد هنا؟.
قال: نحن تسعة اطباء فقط في كل هذا المستشفى، اي ان كل طبيب مسؤول

عن ٤٠٠ مريض ومريضة، اي انني لو استمعت لكل مريض لمدة دقيقة واحدة فمعنى ذلك انني اقضي سبع ساعات في اليوم لمجرد سماع اقوال المرضى والمريضات، ومتى اذن يمكنني ان اقوم باعمالي العلاجية الاخرى؟

قلت: ولكن لا يمكن ان تقوم باعمالك العلاجية الاخرى دون ان تسمع ما يقوله المريض او المريضة.

قال: وهل كل ما يقوله المريض صحيح ؟
قلت: بالطبع لا، ولكن هل كل ما يقوله الاهل صحيح ؟
قال: لا بالطبع، ولكن ماذا افعل انا؟.
قلت: لا بد ان تبحث عن الحقيقة، ان معظم المريضات هنا لسن مريضات، وانما لهن مشاكل مع الاسرة، ومن الظلم اتهامهن بالجنون او المرض النفسي.

قال: وماذا تريدين الان؟.
قلت: اريد ان تكتب لي «خروج» من المستشفى.
قال: سأكتب لك «خروج» حين تشفين تماما.
قلت: وكيف تعرف انني شفيت تماما؟

قال: حين تقولين ان موضوع عمك لم يحدث، وحين تتكلمين عن ابيك واسرتك باحترام، ان هذا الاب هو الذي انجبك وهو الذي اطعمك وهو الذي ادخلك كلية الطب، ويجب ان تشعري نحوه بالامتنان لا الكراهية.

وسكتت سهير قليلا، وكان قد تجمع حولنا بعض الفتيات والنساء المريضات، ونظرت الي سهير بعينيها الواسعتين الحائرتين وقالت: المفروض ان اكذب لكي اخرج من هنا يا دكتورة، وسوف اكذب حتى اخرج من هنا، والا انتهيت تماما.

وقالت احدى الفتيات والتي بدت في مثل عمر سهير (٢٤) سنة: ارجوك يا دكتورة، وانا ايضا اريد ان اخرج لقد ضيعوا علي امتحان العام الماضي، كل زميلاتي وزملائي تخرجوا في كلية الصيدلة، وانا هنا في هذا القبر!:

وسألتها: كيف دخلت الى هنا؟
ابتسمت بسخرية وقالت: الدخول الى هنا سهل جدا.
وقالت فتاة اخرى: يكفي ان يرفع الاب سماعة التليفون ويقول لهم خذوا ابنتي.
وقالت امرأة اخرى: يكفي ان يرفع الزوج سماعة التليفون ويقول لهم خذوا زوجتي!.

وقالت سهير: لقد عرفت لاول مرة القانون الغريب رقم ١٤١ لسنة ١٩٤٤ الذي ما زال ساريا حتى اليوم، والذي بمقتضاه حسب المادة الثانية فانه يمكن لاي شخص الاب او الزوج او الاخ او الجار ان يبلغ البوليس (ولو كيديا) ويقول: هذه مريضة او هذا مريض، وتحضر عربة البوليس على الفور وتحمل الشخص بالقوة، واثبات كون الشخص مريضا ام لا يتم بواسطة مفتش الصحة (الذي لا يعرف شيئا في الطب النفسي، او حتى الطب الجسدي لان عمله الاساسي هو فحص الموتى واستخراج شهادة الوفاة)، وما ان يرى مفتش الصحة رجال البوليس يسوقون اليه شخصاً حتى يجزم ان هذا الشخص لا شك مريض بعقله، ومهما قال هذا الشخص شيئاً فلا احد يصدقه، ويكتب مفتش الصحة على الاوراق: حالة جنون، ويساق الشخص الى المستشفى على الفور.

وقالت احدى النساء الواقفات حولنا: الدخول سهل جدا يا دكتورة، يكفي ان ترزق واحدة مثلي بزوج جشع، اراد ان ابيع جسدي ليسدد ديونه، وحين رفضت ضربني وطلب البوليس، وحين ساقوني الى مفتش الصحة قلت له ان زوجي هو المجنون لانه يريد ان يجعلني مومسا ليسدد ديونه لكن مفتش الصحة كان يستعد للخروج من مكتبه، فلم يسمعني، وكتب شيئا على الاوراق بسرعة، وساقوني الى هنا.

وقالت امرأة اخرى: اراد زوجي ان يطلقني ليتزوج امرأة اخرى وقال لي: تنازلي عن النفقة والمؤخر فرفضت، فضربني وطردني من البيت، ونمت عند الجيران لان اهلي في اسوان. وفي الصباح عدت الى بيتي فحاول ان يطردني فرفضت، فضربني ومزق ملابسي وطلب البوليس، واخذوني بملابسي الممزقة الى مفتش الصحة ولم يكن موجودا، فاتصل به الممرض بالتليفون، وقرر مفتش الصحة انني مريضة بالتليفون ودون ان يراني، وساقوني الى المستشفى.

وقالت سهير: الدخول الى هنا سهل جدا، ولكن الخروج عملية صعبة جدا ومعقدة، فكيف يمكن اثبات ان هذا الشخص شفي ام لم يشف بعد، ان مقومات اثبات المرض غير موجودة، وبالتالي لا توجد مقومات تثبت الشفاء، ولهذا يترك الشخص سنوات في هذا المستشفى خاصة اذا نسيه اهله، ولم يطالبوا بخروجه، بعض المرضى او المريضات دخلوا المستشفى منذ ثلاثين عاما، وفي معظم الاحيان لا يطالب الاهل بالخروج، ان معظم الاباء او الازواج الذين يدخلون ابنهم او ابنتهم او زوجتهم الى هذا المستشفى يفعلون ذلك من اجل التخلص منهم، فكيف يمكن ان يهتموا بعودتهم او يطالبوا بخروجهم ثم ان الذي يدخل الى هنا مرة واحدة يصبح موصوما الى الابد، ومن السهل ادخاله مرة اخرى، او التلميح بانه دخل هذا المستشفى من قبل، ليتحطم مستقبله.

وقالت فتاة اخرى يبدو على وجهها الاسى والحزن: اني اسعى لدى الاطباء منذ ثلاث سنوات للخروج دون جدوى، لقد احضرني ابي منذ اربع سنوات واختفى، وكلما طلبت الخروج قال لي الطبيب ان ابي لم يحضر، ولا بد للمستشفى ان يسلمني لابي او ولي امري الذي احضرني.

وقالت فتاة اخرى: انهم يرمون بنا هنا ليتخلصوا من اكلنا ومصاريفنا!.

وقالت سهير: اني اطلب منك يا دكتورة ان تنقذيني وتخرجيني من هنا!.

وصاحت الفتيات والنساء من حولنا: ونحن يا دكتورة انقذينا واخرجينا من هنا!.

وكان يوما من اتعس ايام حياتي، ووجدتني وسط اكثر من اربعين او خمسين فتاة وامرأة، وكل واحدة تحاول ان تحكي قصتها، وكلهن ضحايا اسر مزقها الطلاق وتعدد الزوجات، وخيانة الازواج وخيانة الآباء، وضعف الامهات، وبعضهن طالبات بالجامعة او المعاهد العليا، او موظفات، وبعضهن زوجات بغير عمل وبغير عائل، وبعضهن انقطعت عنهن زيارات الاهل منذ سنوات طويلة، واصبحن بغير اهل، ويعشن تحت رحمة مجموعة من المرضين، يأكلن اكلهن (اكل المستشفى الضئيل) ويشغلن في مسح الارض وغسل الملابس والصحون، والتي تعصي الاوامر فليس هناك الا الضرب، واحيانا الاعتداء الجنسي ذاته، وحين تذهب الفتاة الى الطبيب لتشكو فان احدا لا يسمعها وان سمعت فان احدا لا يصدقها، لان معظم اطباء النفس يؤمنون بالمثل القائل: اذا كان المتكلم مجنونا فالمستمع عاقل.

وتركت سهير والفتيات البائسات والنساء، وذهبت الى الاطباء، وحاولت ان اعثر معهم على حل، لكن احدا لم يكن بيده الحل، ووجهات النظر تختلف، كان بعضهم يرى ان المريضات والمرضى ايضا يظلمون وانهم جميعا ضحايا اسر فاسدة، او فقر شديد، او مشاكل جنسية وكبت وحرمان، وبعضهم كان يرى غير ذلك، ويعتقد ان المريضات والمرضى نوع ادنى من البشر ويستحقون ما هم فيه، وآنست في احد الاطباء نوعا من الفهم واتساع الافق والانسانية فطلبت منه ان يساعد سهير في الخروج باسرع ما يمكن حتى لا يضيع عليها الامتحان، وفعلا تمكنت سهير من الخروج من المستشفى بمساعدة هذا الطبيب، وكم كانت فرحتي حين سمعت صوتها في التليفون

يأتيني بعد عدة شهور وينبئني بانها نجحت، وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة، وان الرجل المترهل (قريب زوجة ابيها) يرفض تطليقها وانها تستعد لرفع قضية في المحكمة ليحكم لها القاضي بالطلاق، ولتستطيع الزواج من ابن خالتها.

وسألتها: وما موقف ابيك الان؟.

قالت: حين خرجت من المستشفى علمت انه طلق زوجته ولذلك هو يشجعني على الطلاق من قريبها.

سميحة

هي فتاة في الثانية والعشرين تحاول الانتحار وتكره حياتها، نشأت في اسرة تفضل الذكور على الاناث في كل شيء حتى الاكل، وتقول سميحة: كان ابي وامي يطلبان مني دائما ان اخدم اخي، واسقيه وهو راقد في السرير، وامسح حذاءه، رغم انني كنت دائما في المدرسة اكثر تفوقا من اخي، وكان اخي يضربني اذا لم اخدمه، وكنت اضربه كما يضربني لكن ابي وامي كانا يسمحان له بضربي ويمنعانني من ضربه، وكنت اتمنى ان اكون صبياً مثل اخي ليعاملني ابي وامي كما يعاملانه ولا اشعر بالمهانة، التي اشعر بها كلما نهرتني امي او نهرني ابي قائلا: انت بنت! وكنت ابكي وانا اصلي لله واسأله لماذا خلقني بنتا، وكنت اوجه اليه اللوم لانه لا يعدل بيني وبين اخي، ولا يجعل ابي وامي يعدلان بيني وبين اخي، وقد انهارت كل امالي حين رفض ابي ان ادخل الجامعة بعد حصولي على الثانوية. وفوجئت بهم في يوم يقولون انني سأتزوج، وبكيت ورفضت لكن ابي عقد قراني على رجل لا اعرفه ولا يعرفني، ابي هو الذي وقع على عقد قراني لانه ولي امري. حاولت الانتحار عدة مرات فاخذتني امي الى طبيب نفسي، قال الطبيب انه سيعالجني في ثلاثة اشهر وعلي ان اذهب اليه مرة كل اسبوع، وفعلا كنت اذهب اليه، وفي كل مرة يجلس امامي يسألني اسئلة غريبة، سألني مرة لماذا احسد اخي واتمنى ان اكون ذكراً، فقلت له: لان اهلي يفضلونه علي. لكنه طلب مني ان افكر قليلا واتذكر طفولتي ولما لم اتذكر شيئا قال لي: هل لانه يملك عضو الذكر وانت لا تملكينه؟ وفوجئت بهذا السؤال الغريب، وقلت له: ان ذلك لم يخطر ببالي قط، لكنه سألني اذا ما كنت احب ابي اكثر من امي، فقلت له انني افضل امي لانها تقف بجانبي احيانا اما ابي فهو الذي منعني من دخول الجامعة، وهو الذي عقد قراني رغم انفي. لكنه لم يقتنع بكل ما قلته، وقال لي ان هذه هي الاسباب الظاهرية لحالتي النفسية، وان الاسباب الحقيقية هي انني احسد اخي بسبب امتلاكه لعضو لا املكه، ورتب لي الطبيب عدة جلسات كهربائية، وسألني عما اذا كنت اريد ان انجب اطفالاً، وقلت له انني لا اريد ان اتزوج لكنه اخذ يقنعني بأن اطيع اهلي واتزوج فالزواج هو الحياة الطبيعية للمرأة وان افكر في انجاب طفل يعوضني عن النقص

الذي اشعر به كبنت لا تملك ما يملكه اخوها الذكر، وانتهت الاشهر الثلاثة ولكن حالتي ازدادت سوءاً. واخرجت لي سميحة من حقيبة يدها عددا من الوصفات المسودة بعدد كبير من اسماء الادوية والعقاقير، اقراص لازالة الصداع، واقراص منومة لازالة الارق، واقراص لفتح الشهية، واقراص مهدئة.. وقالت لي سميحة انها تبتلع ما يقرب من اثني عشر قرصا في اليوم الواحد من مختلف هذه الادوية.

وذهبت الى الطبيب النفسي الذي يعالج سميحة وسألته عن اسم المرض الذي يعتقد انه اصاب سميحة فقال لي: اكتئاب Depression وسألته عن سبب ذلك الاكتئاب فقال لي لانها ترفض انوثتها وتتمنى ان تكون ذكرا، بسبب عقدة حسد عضو الذكر منذ طفولتها، وقال لي: ان سميحة بلغت الثانية والعشرين من عمرها ولكنها لم تنضج نفسياً وتقبل انوثتها، كما أنها لا تزال في مرحلة الطفولة النفسية ولم تتخلص من عقدة حسد عضو الذكر.

وقلت لهذا الطبيب النفسي: ان سميحة لا تعاني من اية عقدة، لكنها تعاني من ابيها الذي حرمها من التعليم، واصر على ان يزوجها رجلا غريبا عنها لا تريده.

ورد علي الطبيب قائلا: ولكن سميحة لها ثلاث اخوات بنات اخريات، وقد حرمهن الاب نفسه من التعليم وزوجهن وهن يعشن مع ازواجهن في هدوء ولم تحاول واحدة منهن الانتحار كما حدث لسميحة.

قلت له: لان سميحة اكثر طموحا في الحياة من اخواتها، ان قبول اخواتها للقهر بسبب خوفهن من عصيان الاب، او لسبب اخر، لا يعني على الاطلاق ان تكون سميحة مثلهن وتقبل القهر.

وقال الطبيب: ان الاب هو الذي يملك حق تقرير مصير ابنته وليس هذا قهرا، انا شخصيا لا اوافق ان تتزوج ابنتي ضد ارادتي، والا فما فائدة الاب؟ ان دور الاب ان يختار لاولاده احسن حياة ويوجههم الى ما هو في صالحهم.

قلت له: هناك فرق كبير بين التوجيه وابداء الرأي وبين الفرض والاجبار.

وقال الطبيب: ان سميحة فتاة غير طبيعية، انها عنيدة متصلبة الرأي، وهي تحاول التشبه بالرجال.

وسألته: كيف ذلك؟
قال انها تكره الفساتين وادوات الزينة ولا تعتني بجمالها كما تفعل كل البنات في سنها.

قلت: ربما كانت لها هواية اخرى غير الفساتين وادوات الزينة، ربما هي ترى جمالها في شيء اخر غير شكلها، لقد عرفت منها انها تحب القراءة وانها تفضل شراء الكتب على شراء الفساتين وادوات الزينة.

وقال لي الطبيب: وهل تعتقدين ان هذا طبيعي لفتاة في مثل سن سميحة؟.

قلت له: انه شيء طبيعي جدا لاي فتاة في مثل سن سميحة ان تفضل شراء الكتب على شراء الفساتين وادوات الزينة. ان سميحة تعتقد انها انسانة لها عقل يجب ان تغذيه وتنميه بالقراءة والمعرفة، وليست مجرد جسد او وسيلة لجذب الذكر. ان سميحة تمثل الفتاة الذكية التي تنظر الى نفسها نظرة انسانية متكاملة، وليست تلك الفتاة الغبية التي تتصور ان النقود لم تصنع الا لشراء الفساتين والاحذية واللحم والخضار، وان شراء الكتب ليس من شأنها وانما من شأن الرجال. ورد الطبيب بغيظ: اذا انهمكت المرأة في قراءة الكتب والعمل وخلافه فمن اذن سيرعى الاسرة والاطفال ويعدّ الطعام للزوج حين يعود من عمله مرهقا، ان هذه الافكار لا تقود ابدا الى تدعيم الاسرة بل الى تفكيكها، انها لا تقود الى سعادة الاسرة بل الى شقائها، لقد خلقت المرأة للبيت وللارضاع ورعاية الاطفال وخدمة الزوج اما الرجل فقد خلق للاعمال الاخرى.

ولم يكن هناك جدوى من المناقشة، واستأذنت من هذا الطبيب بعد ان اعطيته قائمة باسماء الكتب الجديدة في علم النفس.

ولم يكن في امكان الطبيب النفسي بطبيعة الحال ان يشفي سميحة من حالتها رغم الاقراص العديدة التي كتبها لها، وقد صممت على ان اساعد سميحة وانقذها من محاولاتها المتكررة للانتحار والتي كان يمكن ان تفقد حياتها تماما في واحدة منها، وذهبت مع سميحة الى ابيها وامها، وتحدثت مع الاب والام واقتنع الاب والام بان بقاء سميحة على قيد الحياة اهم من تزويجها بذلك الرجل (الذي اتضح انه يملك عمارة كبيرة) وصرف الاب والام نظرهما عن هذا الزواج، كما ان العريس نفسه كان قد هرب بعد ان علم بمحاولات سميحة الانتحار، واستطعت في الزيارة الثانية ان اقنع الاب والام بان تنتسب سميحة الى الجامعة من اجل استكمال دراستها بدلا من ان تبقى في البيت وتسبب لهم المشاكل. وفعلا انتسبت سميحة الى كلية الاداب.

وانقضت بضعة شهور حين ذهبت الى معرض الكتاب الدولي الاخير، وبينما انا اقف في احد الاجنحة رأيت سميحة لكنها لم ترني. . كانت تقف امام صفوف الكتب عيناها من خلف النظارة الطبية تنتقلان ببطء وهدوء فوق العناوين، فيهما لمعة الذكاء، والثبات، والاستغراق. . بالرغم من ان شابا وقف بجوارها، بل شباب كثيرون من كل

جانب، يدفعونها ويتزاحمون لكنها لا تحس بهم، وعيناها لا تنفصلان عن صفوف الكتب،لا تنشغلان لحظة واحدة عن ذلك الاستغراق الشديد، كأنما العالم كله من حولها لم يعد له وجود الا تلك الصفوف المتراصة من الكتب.

وهبطت عيناي تتأملان جسمها، جسم ممشوق رياضي، وساقان قويتان داخل بنطلون وقدمان ثابتتان فوق كعب سميك منخفض.

وامتدت يدها الى كتاب وفتحته، ورأيت اصابع يدها، اصابع رفيعة قوية، اظافرها قصيرة بغير طلاء. قرأت في الكتاب بضع صفحات ثم اعادته الى مكانه.. وانتقلت الى كتاب اخر. انها لا تكتفي بقراءة عنوان الكتاب او اسم مؤلفه ولكنها تحاول ان تتعرف ايضا على شيء من مضمونه قبل ان تشتريه.

ادركت ان سميحة قد شفيت وادركت انها لم تشف فحسب، ولكنها تمثل الفتاة المصرية الجديدة، وشتان بينها وبين تلك الفتاة القديمة التي كانت تظن ان المعارض لا تقام الا لعرض الازياء والملابس الحديثة والبضائع ومستحضرات التجميل، وان النقود لم تصنع الا لشراء الفساتين والاحذية واللحوم والخضر، اما ان يكون هناك معرض للكتب فليس هذا من شأنها وانما من شأن الرجال وليس كل الرجال ايضا وانما هؤلاء الرجال الذين تخصصوا في القراءة، وكأن القراءة تخصص معين لا يقوم بها الا فئة قليلة من الرجال. والقراءة ايضا كما قالت لها امها او جدتها تضعف البصر ويجب على البنت ان تحافظ على جمال عينيها لتجذب الرجل بسهولة ويرتفع ثمنها في سوق الزواج، والرجل لا يحب الفتاة التي تلبس نظارة طبية، لماذا؟ انها لا تدري ولكن هذا ما قالته لها امها وخالتها وعمتها.

وكم يبدو الفرق كبيرا بين الفتاة الجديدة والفتاة القديمة، وبين العينين النظيفتين الذكيتين من خلف النظارة البيضاء وبين العينين الغبيتين الغارقتين في سواد الكحل والرميل والظلال الخضراء.

كم يبدو الفرق كبيرا بين الجسم الرياضي الممشوق وبين الجسم الكسول المرتخي، بين الساقين القويتين اللتين تتحركان بحرية داخل البنطلون وبين الساقين السمينتين الملتصقتين داخل السروال الضيق، بين القدمين الثابتتين فوق الكعب السميك المنخفض وبين القدمين المقوستين المتأرجحتين على كعب رفيع عال.

كم يبدو الفرق جليا بين الاصابع الرفيعة القوية باظافرها القصيرة بغير طلاء تقلب صفحات الكتب في نهم وبين الاصابع الطرية البضة ذات الاظافر الطويلةالمدببة الحمراء كمخالب الحيوانات المفترسة تقلب في اللحوم والفساتين في نهم.

كم يبدو الفرق صارخا بين الفتاة الجديدة التي تدفع بسخاء سبعة جنيهات لشراء كتاب تريده وتبخل بمثل هذا المبلغ على شراء فستان وبين الفتاة القديمة التي تدفع سبعة جنيهات ثمن تفصيل الفستان الواحد وتعتقد ان الكتاب يصبح باهظ الثمن لو ارتفع سعره عن سبعين قرشا، كم يبدو الفرق واضحا بين الفتاة الجديدة التي يحوطها الشباب من كل جانب فلا تنشغل بهم عما تريد ان تقرأه، وبين الفتاة القديمة التي اذا لمحت شابا من نافذة او من على بعد كيلو متر سوت شعرها وحاجبيها وزينت عينيها .

هذه هي الفتاة المصرية الجديدة سميحة . جمالها الطبيعي وبساطتها وحبها للكتب والقراءة بنظارتها الطبية البيضاء، وبنطلونها البسيط العملي وحذائها المنخفض المتين، بشخصيتها الواثقة بنفسها المعتزة بقيمة عقلها ونفسها المؤمنة بالمساواة الحقيقية بينها وبين الرجل.

ولم تكن الفتاة الجديدة واحدة فحسب، ولكنها كانت مئات من الفتيات الجديدات يملأن ممرات معرض الكتاب، وامتلأت عيناي بالدموع، دموع الفرح، وتذكرت كيف كنت منذ عشرين عاما في مثل عمر هؤلاء الفتيات وكيف كنت اخفي الكتب تحت الأغطية وامارس القراءة خلسة وكأنما هي عمل غير لائق بالبنت يستوجب الاخفاء.

فاطمة (ب)

هي فتاة ذكية، حساسة تشتغل بالثانوية العامة، ومنتسبة الى كلية الحقوق بالجامعة، تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما، لم تعرف اباها لان امها حملت بها قبل ان تتزوج اباها، وهرب الاب، وواجهت الام المشكلة وحدها، وولدت فاطمة طفلة غير شرعية، عطفت عليها الاسرة، وتسترت على امها حماية لها من الفضيحة الكبرى بين الناس، لكن فاطمة منذ طفولتها وهي ترى الكراهية حولها، وكثيرا ما سمعت امها تقول لها وهي لم تبلغ الرابعة من عمرها: ليت امك ماتت ومت معها وهي تلدك.

وعاشت فاطمة في ظل اسرة امها، وحملت اسم والد امها (جدها) وكان هو الذي يطعمها ويطعم امها ايضا، وحين حصلت فاطمة على عمل بالثانوية العامة، اصبحت تنفق على نفسها وعلى امها، وفكرت ان تأخذ امها وتعيش في مكان بعيد عن هذه الاسرة التي لا تكف عن تذكيرها بالماضي الذي تحاول ان تنساه، لكن امها رفضت واصرت على ان تبقى هي وابنتها في ظل حماية الاسرة.

وحدثت المأساة حين تقدم احد الرجال للزواج من فاطمة، كانت فاطمة في الواحد والعشرين من عمرها، وكان هو في الرابعة والخمسين، ولم تشعر فاطمة نحوه الا بالنفور، لكن الاب (والد امها) اصر على تزويجها، فقد كان هذا الرجل يمتلك مالا كثيرا، وكان الاب رب اسرة كبيرة العدد وله من الاولاد والبنات تسعة. واعتقد ان هذا العريس صفقة رابحة لا يمكن تعويضها، واصرت فاطمة على الرفض فثار الاب واخذ يهددها ويلمح لها بالماضي، وبأنه هو الذي منحها اسمه، ومعنى ذلك انه منحها الشرف، وانه هو الذي اطعمها وادخلها المدارس. وبكت ام فاطمة وراحت تخوف فاطمة من اجل ان تقبل الزواج من هذا الرجل ارضاء لابيها وردا لجميله السابق، وضعفت فاطمة امام دموع امها (وكانت تحبها وتشفق عليها).. ووافقت على الزواج من هذا الرجل، وحددت الاسرة موعد عقد القران، وقبل الموعد ببضع ساعات فوجئت الاسرة بصرخة حادة من فاطمة، وسقوطها على الارض عاجزة عن السير وحين حملوها الى الطبيب قال لهم انها اصيبت بشلل في ساقيها وانه يعتقد انه شلل هيستيري وانها

في حاجة الى علاج نفسي، وفي اليوم التالي وبعد ان ادركت فاطمة ان موعد عقد القران قد فات دون ان تتزوج نهضت من سريرها وسارت على قدميها، وفوجئت كل الاسرة، وتصور الاب انها لم تكن مريضة وانما مثلت الدور باتقان لتتهرب من الزواج، وانهال عليها ضربا وسبا لانها تسببت في ضياع العريس، وفي تلك الليلة ظلت فاطمة مؤرقة في فراشها تبكي حتى الصباح، ولم تتوقف عن البكاء إلا عند الطبيب النفسي الذي اخذوها اليه في العيادة الخارجية، وعندما سمع الطبيب حكايتها حولها إلى ضمن حالات البحث الذي اقوم به، وبالرغم من ان فاطمة كانت منهكة القوى الا انها استطاعت ان تحكي لي كل حكايتها بدقة، وتحلل مشاعرها وتصف مأساة امها، وقلت للام انني اريد ان اقابل والدها لاتحدث معه بشأن فاطمة وان عليها ان تحضره معها الاسبوع القادم، وقالت الام انه قد لا يوافق على الحضور فقلت لها اذا لم يوافق سأذهب انا اليه لاشرح له بعض الامور المتعلقة بصحة فاطمة.

وجاء الاب الاسبوع التالي مع فاطمة، وقلت له ان موقفه من فاطمة كان موقفا غير انساني، وغير شريف ايضا، ونظر الرجل الي بدهشة واصر على انه رجل شريف وان كل الناس يعرفون انه رجل شريف، واتهم فاطمة بالجنون والمرض، وانها ابنة حرام، وان له بنات اخريات على قدر كبير من الادب والطاعة ولا تستطيع الواحدة منهن ان ترفع عينها في عينه، كما تفعل فاطمة. وقلت له ان فاطمة فتاة ذكية وحساسة وصادقة وشريفة وليست ابنة حرام كما يقول، ولكن الحرام وعدم الشرف هو ان يحاول ان يبيعها بالمال لهذا الرجل العجوز الذي تنفر منه تحت اسم الزواج، وشرحت للاب معنى الشرف الحقيقي الذي هو الصدق، صدق الافكار والمشاعر والافعال، وليس الشرف مجرد ان يحافظ الشخص على اعضائه التناسلية، وان ارتباط مفهوم الشرف بالنشاط الجنسي فقط يجعل الناس يكذبون ويزيفون ويتاجرون في بناتهم باسم الزواج ويتصورون انهم شرفاء.

وادركت من ملامح الاب انه يسمع مثل هذا الكلام لاول مرة في حياته، وبرغم انه حاول ان ينكر خطأه الا انني شعرت انه بدأ يدرك اشياء لم يكن يدركها، وانه مقتنع في اعماقه بما اقول، لكنه حاول ان ينكر ذلك الاقتناع وقال: ان فاطمة بنت عنيدة، وهي تريد دائماً ان تنفذ ما في رأسها باية وسيلة.

لكنه عاد الي الاسبوع التالي، كان حزيناً وقلقاً، وقال لي بصوت منكسر: «تعرفي يا دكتورة، ان ضميري اصبح يؤنبني بسبب ما فعلته بابنتي فاطمة، لقد فكرت طويلا

في كلماتك، وادركت انني فعلاً كنت سأبيعها بالمال من اجل ان استريح انا، لقد كنت انانياً، وكنت افكر في نفسي وراحتي، ولم افكر في راحتها وسعادتها ولكن اعذريني يا دكتورة، ان العبء علي كبير، ولا استطيع بمرتبي الصغير جدا ان انفق على تلك الاسرة الكبيرة. الفقر هو السبب يا دكتورة... والجوع كافر...

ورأيت الدموع في عيني الاب، فقلت له: «ان فاطمة ستشفى، ولكن ارجو الا تكرر ما فعلته معها مع بناتك الاخريات. انت الان عرفت وفهمت».

فقال: «ان الانسان لا يتعلم الا من الخطأ، ومهما تأزمت حالتي المالية فلن أكرر مأساة فاطمة مع بناتي الاخريات».

درية

هي زوجة لمهندس ناجح، وام لثلاثة اولاد، وقد تركت الجامعة بسبب الزواج .قالت انها تبحث عن معنى لحياتها، وتحس بالفراغ الهائل، وانها لا تستفيد من عقلها وذكائها، حيث قال لها الطبيب النفسي: الا تكفيك اسرتك اي زوجك الناجح واولادك الثلاثة الناجحون، قالت: لا، انني اهيء لهم جميعا كل اسباب الراحة والسعادة، ولكن ماذا عني نفسي انا؟ اليس لي حق في السعادة انا ايضا؟ . اليس لي حق في التفكير والنجاح في عمل احبه واتفوق فيه، انني لا استطيع التوقف عن التفكير في مستقبلي الذي ضاع حين قطعت دراستي الجامعية لاتزوج، ومما يزيد تعاستي ان زوجي واولادي لا يستطيعون فهم مشكلتي، .وايضا ابي وامي واهلي لا يفهمون سبب تعاستي، ويظنون انني طماعة، واكفر بالنعمة التي اعطاها لي الله، وهي الزوج الناجح الذي يحبني والاولاد الناجحون الـذين ليس لهم مشاكل. وطبيبي النفسي ايضا لا يفهم مشكلتي، انني اطيعه وابلع الاقراص التي يصفها لي، ولكن هل تصنع الاقراص لي مستقبلا، هل تعيدني الاقراص الى الجامعة فاكمل تعليمي واثبت للناس جميعا انني انسانة ذكية واستطيع ان اقدم كثيرا من الافكار المفيدة للمجتمع الكبير والانسانية؟.

في يوم من الايام فتحت درية الجريدة الصباحية، فرأت صورة احدى زميلاتها اللائي كن معها في الجامعة، وقرأت ان هذه الزميلة نجحت في اثبات ذاتها كانسانة مفكرة، واشادت الجريدة بنجاح هذه الزميلة وافكارها العظيمة.

ودون ان تدري بدأت «درية» تتصور انها كان يمكن ان تكون مثلها لو انها لم تقطع دراستها، وانتابتها حالة اكتئاب حادة، وخرجت الى الشارع تبحث عن عمل، اي عمل، تثبت من خلاله ذاتها، وبالطبع لم تعثر على اي عمل، ووجدت نفسها عند الطبيب النفسي، الذي اعطاها مزيدا من الاقراص المهدئة والمنومة، لكنها لم تعد تنام الليل، وظلت تفكر وصورة زميلتها امام عينيها ليل نهار، وظلت الفكرة تطاردها، حتى اصبحت

كل يوم ترتدي ملابسها تدور تلف في الشوارع كالتائهة. تبحث عن شيء لا تجده، عن شيء ضاع منها، ولا تعثر عليه مرة اخرى، وقلت لدرية انني استطيع ان افهم مشكلتها واقرها تماما، وانها في حاجة الى ان تعمل عملا تحبه وتختاره وليست في حاجة الى اي وظيفة لمجرد الخروج من البيت او التخلص من الملل او الفراغ، ولهذا فان خروجها الى الشارع لتبحث عن عمل ليس هو الطريقة الصحيحة لحصولها على العمل الذي ترغبه.

قلت لها: ابحثي داخل نفسك اولا عن العمل الذي ترغبين فيه، ما ميولك وهواياتك؟ هل هناك نوع معين من الفنون تمارسينه او تحبين ممارسته؟ قالت: كنت احب الموسيقى قبل الزواج، وتعلمت عزف البيانو، ولكني الان نسيت ما تعلمته لانني لم استمر بسبب الزواج والاولاد.

قلت لها: لماذا لا تعودين الى الموسيقى مرة اخرى، وتدرسين مرة اخرى دراسة منتظمة وبعد ذلك تنضمين الى احدى الفرق الموسيقية وتعزفين في الحفلات ليسمعك الناس؟.

سألت بدهشة: وهل هذا ممكن؟.
قلت لها: طبعا ممكن.
قالت: انا في الثامنة والثلاثين من عمري يا دكتورة.

قلت لها: الانسان الذكي يمكنه ان يبدأ حياته في اي عمر وانت ما زلت شابة، واذا ما اخذت موضوع الموسيقى مأخذ الجد والاهتمام فقد تصبحين احدى الموسيقيات القليلات في مجتمعنا، ان معظم الموسيقيين والملحنين عندنا رجال، وقد ان الاوان لان تثبت المرأة المصرية كفاءتها في فن الموسيقى.

وتلفتت درية حولها في حيرة وقالت: لقد تأخرت كثيرا، معظم زميلاتي تخرجن ويعملن اعمالا ناجحة، وانا ابدأ اليوم فقط.

قلت لها: ان تبدئي اليوم خير من الا تبدئي ابدا.
وسألتني: وماذا عن الاقراص التي كتبها لي الطبيب هل استمر في اخذها؟:
سألتها: لماذا اعطاك الطبيب الاقراص؟.
قالت: لأنام.

سألتها: ولماذا لا تنامين؟.

قالت: افكر كثيرا.

سألتها: في اي شيء؟.

قالت: في كل حياتي، لا اشعر بالسعادة اشعر ان شيئا هاما ينقصني.

سألتها: ماذا عن حبك لزوجك وحياتك الجنسية؟.

قالت: احب زوجي وهو يرضيني جنسيا تماما.

سألتها: تصلين الى الاورجازم؟.

قالت: نعم، بسهولة جدا، وفي كل مرة تقريبا.

سألتها: وماذا عن علاقتك باولادك؟.

قالت: احبهم جدا، وقد كبروا ولم يعودوا بحاجة الي، ومعظم وقتهم خارج البيت او مع اصدقائهم.

قلت: والان تجدين نفسك مواجهة بيوم طويل وساعات طويلة لا تعرفين ماذا تفعلين بها؟.

قالت: نعم بالضبط.

سألتها: اليس لك صديقات؟.

قالت: لي صديقات كثيرات، ولكن اكره احاديثهن التافهة عن الاكل والخدم والملابس واكره الثرثرة والنميمة.

قلت لها: لماذا لا تقرئين؟ الا تحبين القراءة؟.

قالت: اقرأ احيانا بعض الروايات الادبية واقرأ الصحف والمجلات كلها تقريبا لكني اشعر بالاكتئاب والحزن كلما قرأت عن امرأة تفوقت في عملها، واقارن بين حياتها الناجحة وبين حياتي الراكدة في البيت.

وقالت درية في حزن: وماذا افعل يا دكتورة؟.

سألتها: هل اقتنعت بموضوع بدء الموسيقى من جديد؟.

قالت: اقتنعت ولكن الموسيقى طريق طويل جدا، ولست شابة صغيرة لاصبح تلميذة من جديد.

وسألتها: وما هو تصورك لنوع العمل الذي كنت تبحثين عنه؟.

قالت: اي عمل.
قلت: وهل وجدت اي عمل؟.
قالت: لا، العثور على عمل صعب لمن يحملون الشهادات فما بالي انا؟.

وهكذا احسست ان الحوار بيني وبين درية يدور في حلقة مفرغة، ورأيت ان الحل الافضل لمشكلتها في نظري هي ان تدرس الموسيقى من جديد، وتحاول ان تعمل شيئا خلاقا في هذا المجال، وكانت ظروفها الاقتصادية تساعدها على هذه الدراسة بكل يسر، وحاولت ان اشجعها على ذلك وبدا عليها حين تركتني انها ستبدأ المحاولة، لكني احسست انها قد لا تبدأ وقد تظل في حيرتها فترة غير قصيرة، وان لم يكن طوال حياتها.

خيرية

هي امرأة في الاربعين من عمرها، تزوجت منذ عشرين عاما استاذها في الجامعة، ولم تشتغل بعد التخرج لان زوجها كان ثريا ولم يكن في حاجة الى مرتبها، كما انها فضلت التفرغ لخدمة بيتها وزوجها ثم طفليها من بعد، كبر طفلاها، وتزوجت الابنة الكبرى، اما الابن فقد تخرج من كلية الهندسة وهاجر الى كندا، اصبحت حياتها خالية بعد ان غاب ابنها وابنتها عن البيت، زوجها مشغول ليل نهار بعمله وبحوثه وقراءاته، وهو يكبرها بحوالي خمسة عشر عاما.

حياتها الزوجية كانت هادئة، وكل عام يحتفل زوجها بعيد ميلادها، وحين جاء عيد ميلادها الاربعين شعرت بصداع حاد، وبدأت تنتابها حالات غريبة اشبه بالدوار، وتشعر بدوار في رأسها، وانقباض في صدرها، وحين تنظر الى وجهها في المرآة ترى بعض التجاعيد حول عينيها وحول فمها، بدأت تزيد من طبقة البودرة لتخفي التجاعيد، وبدأت تفقد الثقة في نفسها، وكلما خرجت مع زوجها في زيارة او حفل راحت تختلس النظر الى الفتيات الشابات وتشعر برغبة في الاختفاء عن اعين الناس، وبدأت تتصور ان زوجها اصبح يرى التجاعيد في وجهها، وانه اصبح يتطلع الى الفتيات الشابات، وبدأت تنهشها الغيرة وعدم الثقة في النفس، تراودها فكرة الموت كثيرا، وتتذكر امها التي ماتت منذ اكثر من عشر سنوات، وتشعر انها ستموت قريبا. واصبحت تخاف حين تسير وحدها في الشارع، ولا تخرج الا بمرافقة زوجها، تنتابها احيانا نوبات ارق حادة وتظل طوال الليل تتخيل امها التي ماتت، وتشعر بالاختناق، كانت تشعر بلذة مع زوجها قبل هذه الحالة، ولكنها اصبحت لا تشعر باية لذة، ويخيل اليها ان زوجها لم يعد يرضى بها وانه يفكر في امرأة غيرها اصغر منها سنا.

اخذها زوجها الى طبيب نفسي، فقال الطبيب انها مصابة بما يسمى اكتئاب سن

اليأس، بسبب بعض الاضطرابات في الهرمونات، واعطاها بعض الاقراص والحقن. لم تتحسن حالتها بل زادت سوءا، وحين تأخذ الاقراص تشعر بالعرق الغزير يتصبب من جسمها وتحس كأنها ستموت.

ان حالة خيرية ليست نادرة في مجتمعنا، بل هي احدى الحالات الكثيرة التي نصادفها في النساء اللائي يبلغن الاربعين او قريباً منها، ان هذا الاكتئاب الذي تشعر به المرأة في تلك السن ليس له سبب بيولوجي او هرموني في معظم الحالات، وانما سبب اجتماعي. فالمجتمع ينظر الى المرأة في هذه السن كأنما حياتها انتهت، وكأنما هي ادت دورها في الحياة (وهي انجاب الاطفال وتربيتهم حتى التخرج او الزواج)، ولم يعد لها دور اخر. والرجل ايضا ينظر الى المرأة كانما هي انتهت، ويبدأ ينظر الى الصغيرات، ولا شك ان نظرة المجتمع والرجل تنعكس على المرأة نفسها فتشعر انها اصبحت بغير دور، وانها لم تعد مطلوبة، ولا مرغوبا فيها، وتفقد الثقة في نفسها وتشعر بالعصاب، وقد تفكر في الانتحار كوسيلة لانهاء حياتها بسرعة.

لكن هناك نساء لا يشعرن باكتئاب في هذه السن، وهذا يدل على ان السبب ليس بيولوجي او هرموني، هؤلاء النساء هن النساء اللائي ادركن ان دورهن في الحياة ليس الانجاب وليس تربية الاطفال، وانما دورهن في الحياة هو العمل الخلاق والانتاج والمساهمة في تغيير المجتمع الى الافضل، ان المرأة من هؤلاء تظل واثقة من نفسها حتى نهاية عمرها، وتشعر بانها مطلوبة وانها تؤدي دورا هاما للمجتمع.

وحينما سألتني خيرية عن الطريقة التي يمكن ان تشفيها منْ حالتها قلت لها انها لا بد ان تخلق لنفسها دورا في المجتمع، وان تعمل على تغيير الظروف الاجتماعية التي تعيشها البنات والنساء، والتي جعلتها في البيت للخدمة وغسل الصحون او شغل الابرة، او زيارة الجيران والاقارب، ولم تمارس عملا خلاقا منتجا في المجتمع. وقالت خيرية: لقد اخطأت في حق ابنتي وزوجتها قبل ان تكمل تعليمها ولا شك انها ستكرر الحياة الخاوية التي عشتها وتشعر بان دورها انتهى بمجرد ان يترك اولادها البيت.

وتساءلت خيرية: ولكن ما العمل الذي يمكن ان اعمله الان؟.

قلت لها: عليك بالانضمام او انشاء حركة نسائية اوتنظيم نسائي من اجل رفع وعي النساء، بحيث لا تتخلى اي امرأة عن عملها من اجل الزواج، وبحيث تتربى البنات في جو يؤهلهن للعمل المنتج وليس للزواج.

وتنهدت خيرية في أسى وقالت: هل استطيع انا ان افعل ذلك؟.
وقلت لها: ولم لا؟ ان اية حركة في التاريخ تبدأ بالافراد ثم تجذب اليها الجماعات.
قالت: انني لست شابة لأبدأ.

قلت لها: انت شابة والشباب ليس عدد السنوات التي يعيشها الانسان ثم ان الكبر في العمر ليس عيبا بل ميزة، لانه يكسب الانسان خبرة بالحياة والناس.

ان المرأة الواثقة بنفسها تترك العمر الحقيقي يظهر على وجهها، والعمر الحقيقي لا دخل له بشهادة الميلاد، ان المحافظة على الصحة يجعل المرأة تبدو في شباب دائم وحيوية، لكنها حيوية ناضجة خبيرة بالحياة، والخبرة حين تظهر في العينين تعطي المرأة عمرها الحقيقي، وبعض النساء يرسمن في عيونهن نظرة ساذجة جاهلة، «غير خبيرة بالحياة» من اجل التمسك بالشباب وفترة المراهقة.

ولا يمكن لاي انسان إن يمنع بعض مظاهر التقدم في حياته، انه قد يؤجل ظهور هذه المظاهر ولكنها حتما ستظهر وبالتدريج على وجهه، ان التجاعيد مثلا تظهر في اماكن معينة من الوجه، وكثير من النساء يحاولن اخفاء التجاعيد بالمساحيق، ولكن المرأة الواثقة بنفسها تنظر الى كل «تجعيدة» في وجهها كجزء من حياتها تعتز بها وتفتخر.

ان اعتزاز المرأة بنفسها وحياتها وقيمتها في الحياة يجعلها جميلة في نظر الناس، ويجعل من كل تجعيدة تظهر على وجهها جاذبية خاصة.

فالجمال هو الجاذبية، والجاذبية هي ذلك المعنى الذي ترمز اليه الملامح، حين نقول ان هاتين العينين جذابتان فنحن نقصد «بوعي او بغير وعي» ان المعنى الذي يشع من هاتين العينين يجذب انظارنا اليه وعلى هذا فان الجمال الخالي من المعنى، جمال بغير جاذبية وبالتالي ليس جمالا.

ومن هذا المفهوم يمكن لاي امرأة «واي رجل ايضا» ان تصنع جمالها الخاص او جاذبيتها الخاصة، وذلك بقدرتها على اشعاع المعاني المختلفة من ملامح وجهها وملامح جسمها ومن حركة شخصيتها ومن حوارها مع الاخرين، ونظرتها الى الحياة والناس وتفاعلها مع الحياة ونشاطها وعملها وخبرتها بالحياة.

على كل امرأة ان تدرك هذا المفهوم الجديد للجمال، ان تفخر بخبرتها في الحياة ان تثق بكل تجعيدة تصنعها الحياة على وجهها، وتعتبرها شهادة طبيعية من الحياة بنضجها

وخبرتها وتسجيلا حيا لمرحلة من حياتها.

اما هذه المرأة التي تظن ان الجمال هو اخفاء حقيقتها تحت المساحيق والظهور الدائم بملامح الساذجات الغريرات «القطط المغمضة» فهي امرأة لا تعيش العصر الحديث، وانما عصر الجواري، حينما لم يكن مطلوبا من المرأة ان تكون انسانا له ملامح تعبر عن دماغ يفكر ويشع مختلف المعاني، وانما ان تكون كتلة لحم مدكوكة لا تعبر عن اي معنى سوى انها كتلة لحم تؤكل حينما يراد لها ان تؤكل.

ومن الطبيعي لهذه الكتلة من اللحم ان تشعر بالاكتئاب النفسي حين يتقدم بها العمر وتزحف التجاعيد الطبيعية على وجهها. ان اكتئابها ينبع من خوفها من ان تلقى من فوق المائدة الى حيث صفيحة القمامة، فهي لا تعرف لنفسها قيمة سوى ان تؤكل، ومن الطبيعي ان اكلة اللحوم «سواء كانوا من البشر او من غير البشر» يفضلون اللحم الصغير ليمضغ بسرعة ويهضم بسرعة ودون جهد كبير.

ويمكن للمرأة ان تقي نفسها من الاكتئاب الذي تصاب به كثير من النساء بعد سن الاربعين «يسمى خطأ في الطب النفسي اكتئاب سن اليأس»، من ان تدرك ان حياتها لها قيمة اكثر من ان تؤكل ولها من المعاني الكثيرة المتعددة التي تزداد تعددا وعمقا بازدياد نضجها وتقدمها في العمر.

بهذه الحقيقة وحدها تنجو المرأة من اكتئاب سن اليأس، لانها لن تشعر باليأس في اي مرحلة من مراحل عمرها، ولانها تدرك ان كل مرحلة لها قيمتها، وهي تصنع قيمة لحياتها ووجودها بصرف النظر عن رغبة الرجل فيها او اعراضه عنها.

وبالطبع كنت ادرك ان كلامي هذا لن يشفي خيرية من الاعراض التي تشعر بها، فهي في حاجة الى ان تشعر انها مطلوبة ومرغوب فيها ولها دور هام في الحياة، وهذا لن يحدث الا اذا خلقت لها هذا الدور ومارسته، واستطاعت ان تحقق ذاتها من خلاله.

وقد يقول بعض الناس ان خيرية ومثيلاتها نساء طماعات، وماذا يرددن هنّ بعد كل الحياة التي عشنها، وبعد ان بلغن من العمر اربعين عاما، لكن هؤلاء الناس لا يعرفون ان سن الاربعين انما هي سن قمة النضوج الانساني، وهي السن التي يبدأ فيها الانسان «رجلاً او امرأة» في الاستفادة من خبرات الشباب، وهي السن التي يبدأ فيها الانسان الاستمتاع الحقيقي بالحياة بعد فترة الاعداد السابق لها والتجارب السابقة.

ومعظم النساء لا يبدأن فهم لذة الجنس او تذوقها الا في هذه السن، ومعظم النساء والرجال لا يبدأون في النضج العقلي والفكري والانساني الا في هذه السن ولهذا تعتبر سن الاربعين هي المرحلة الاولى من حياة الانسان التي يبدأ فيها العطاء، عطاء المجتمع خبرته السابقة ونضوجه وحينها يحكم المجتمع بالاعدام على النساء في سن الاربعين فقد حرم المجتمع نفسه من العطاء الفكري لنصف سكانه.

لكن المجتمع لا يعترف بان النساء جميعا عطاء فكري، ان كل ما يهم المجتمع من معظم النساء عطاؤهن الجسدي فقط، وطالما ان هذه هي نظرة المجتمع للنساء فسوف تظل خيرية ومثيلاتها «اللائي ضحين بعملهن من اجل الزواج» مريضات بالاكتئاب، ما لم يسعين لتغيير حياتهن.

وديدة

طلبت من الطبيبة المشرفة على نزيلات سجن القناطر ان تسهل لي لقاء بعض المسجونات المصابات باضطرابات او مشاكل نفسية (بعد ان حصلت على تصريح بزيارة السجن لاستكمال البحث الذي اقوم به). وكانت اول سجينة اتحدث معها هي وديدة، وهي فتاة سمراء طويلة، لها عينان سوداوان لامعتان تدلان على الذكاء والحيوية، وقالت لي الطبيبة ان «وديدة» تعاني من الارق والصداع واحيانا تنتابها نوبات هستيرية فتصرخ وتلطم على وجهها وتبكي وتصيح بصوت عال ثم تهدأ بعد قليل وتنام لفترات طويلة وهي شاردة تفكر، وسألت عن التهمة التي حبست من اجلها وديدة فقالوا لي انها المخدرات.

وسألت وديدة عن عمرها فقالت لي انها في الرابعة والعشرين رغم ان وجهها اوحى الي بانها اصغر من ذلك، وكانت ملامحها وبالذات حين تتكلم وتبتسم تعطيها وجه فتاة صغيرة غريرة تفيض سذاجة وبراءة. وقالت لي وديدة بعد ان اصبحنا وحدنا: كان أبي تاجر مخدرات، وقد استخدمني انا وامي واختي في هذه التجارة، وكانت امي ترفض ان تطيعه احيانا فيضربها ضربا شديدا حتى يغمى عليها، وكنت طفلة صغيرة، وشعرت بكراهية شديدة لابي، ولكني اخفيت شعوري عنه خوفا منه، وفي بعض الاوقات كان ابي يهجر البيت شهورا طويلة دون ان يترك لامي اي مال، وكانت امي تضطر الى ان تذهب الى البيوت لتغسل الملابس كي تحضر لي ولاختي الطعام. وفي احدى الليالي تأخرت امي في بيت من البيوت التي تشتغل فيها، وكانت اختي الصغيرة نائمة، وشعرت بالجوع يقطع احشائي فخرجت الى «القهوة المجاورة» واخذت اشحت من الرجال الجالسين قرشا لاشتري به طعاما، وقال لي احد الرجال: تعالي معي لاشتري لك فطيرة بالسكر، وذهبت معه فاشترى لي الفطيرة ثم اعتدى علي وكنت في ذلك الوقت في العاشرة من عمري وعدت الى البيت ابكي وحكيت لامي ما حدث فبكت معي وقالت لي ليلتها: يا بنتي الرجال ذئاب، لكن الله موجود ولا ينسى امثالنا من المعوزين .

وكانت الشهور التي يختفي فيها ابي افضل من الشهور التي يعود فيها الى البيت. وكنت اقول لامي دائما لماذا لا نترك له البيت ونهرب الى مكان اخر؟ لكن امي كانت تقول لي وهي حزينة: والى اين نذهب يا وديدة؟ وكان لابي صديق يسهر معه الليل ويشاركه تجارة المخدرات، وفي بعض الاحيان يبيت عندنا حتى الصباح، وفي احدى الليالي وكنت في الرابعة عشرة اعتدى علي هذا الرجل، وتكرر هذا عدة مرات، وكتمت الامر بيني وبين نفسي خوفا من ابي، لكني عرفت ان ابي يعرف كل شيء، وانه يترك هذا الرجل معي ويغادر البيت، وحكيت لامي لكنها لم تكن تملك الا البكاء والصراخ، وكان ابي يضربها حتى يتجمع الجيران فيقول لهم انها امرأة مجنونة مصابة بالهستيريا ولا علاج لها الا الضرب. وفي يوم من الايام عدت من احدى العمليات التي كان ابي يرسلني فيها لاتاجر بالحشيش فلم اجد امي في البيت، وعلمت من الجيران أن ابي اخذها في عربة الى مستشفى العباسية، وظللت ابكي انا واختي طوال الليل وحين رآني ابي وانا ابكي ضربني وقال لي انني اشبه امي وانه لا علاج لي الا الضرب، ولم اعد ابكي وبدأت افكر في وسيلة للهرب اناواختي،ولكن ابي افهمني انه سيعرف طريقي في اي مكان في العالم وانه قادر على اعادتي اليه في اي وقت.

ومضت سنوات، واصبحت انا واختي نشتغل مع ابي في تجارته، وعلمنا كيف نهرب من رجال الشرطة، ولم يعد الاتصال الجنسي بالرجال «زملاء ابي» شيئا غريبا، بل اصبح امرا عاديا بالنسبة لي انا واختي وتزوجت اختي احد الرجال وذهبت معه، اما انا فقد رفض ابي ان يزوجني وقال انه لا يستغني عني ما دامت امي لم تعد من المستشفى، وانه لا يستطيع ان يعيش وحده، ولا بد له من وجودي معه لاخدمه، وايضا لاساعده في تجارته، وكنت اخاف من ابي ولم اكن استطيع ان اخالفه، وسألته لماذا وافق على زواج اختي فقال لانها غبية وليست لها فائدة.

وفي يوم احسست انني اريد ان ارى امي فذهبت لزيارتها بالمستشفى دون ان يعلم ابي (كان ابي يحرم علي زيارتها). وبكت امي حين رأتني وانا بكيت حين رأيتها، وذهبت الى الطبيب وطلبت منه ان يخرج امي من المستشفى لانها ليست مجنونة، لكن الطبيب رفض وقال لي انها مريضة بالهستيريا، وقالت لي امي انهم يعطونها قرصا قبل ان تنام فتشعر كأنها ستموت ولا تفيق الا في اليوم التالي، وانها تنام في عنبر مع عدد كبير من النساء، وانها تخاف من بعض هؤلاء النساء وان احدى الممرضات ضربتها مرة لانها

رفضت ان تمسح دورة المياه، وتوسلت الى امي ان اخذها معي الى البيت. لكني لم استطع بسبب قوانين المستشفى.

وعدت من زيارة امي وانا ابكي في الشارع. وفي اليوم التالي ارسلني ابي في مهمة. ولم اشعر الا وانا امام البوليس، انني في هذا السجن منذ العام الماضي. وبرغم الحياة القاسية هنا الا انني لا اريد ان اخرج.

وسألت الطبيبة المشرفة عما اذا كانت وديدة قد حصلت على اي علاج نفسي وهي بالسجن. وعلمت ان وديدة عرضت على احد الاطباء النفسيين، وطلبت ان اطلع على رأيه في هذه الحالة. وكان كما توقعت فقد ظن الاخصائي النفسي (حين علم ان ام وديدة نزيلة بمستشفى الامراض العقلية بالعباسية) ان وديدة ورثت المرض النفسي عن امها، ولم يتصور ان ام وديدة ليست مريضة نفسيا. وان وديدة ايضا ليست مريضة. وانما المريض هو ذلك الاب الفاسد الذي قضى على مستقبل ابنته وزوجته. ومن الواضح ان اي اقراص تبتلعها الام في المستشفى او اي دواء تبتلعه وديدة في السجن لن يعالج حالتها، وانما العلاج لا بد ان يوجه الى الاب الفاسد والى الظروف الاجتماعية السيئة التي عاشتها.

وتذكرني هذه الحالة بحالة «دورا» التي كان «فرويد» يعالجها من ذلك المرض النفسي المسمى «هستيريا». كانت دورا في ذلك الوقت فتاة ذكية في الثامنة عشرة من عمرها. وقد اعتبر «فرويد» سلوكها غير طبيعي وتصرفاتها غير محتملة، وانها كانت تتمثل امها. وهذه هي كلماته عنها: كانت «دورا» تتمثل امها بهذه التصرفات الغريبة التي جعلتها تتجه الى هذا السلوك الغريب غير المحتمل[1]. وكان «فرويد» قد شخص ام دورا دون ان يراها بانها مريضة نفسيا بما سماه «ذهان ربة البيت» House Wife,s psychosis وبالطبع لا تشعر «دورا» بأي تحسن مع علاج «فرويد» فيأخذها ابوها الى طبيب اخر، استطاع ان يدرس ظروف اسرتها، ويدرك حقائق لم يدركها «فرويد». وقد كتب هذا الطبيب (د. ليونارد سيمون) كتب عن «دورا» يقول: ان دراسة فرويد لحالة دورا كان يمكن ان يكون مفيدا لو انه اهتم بالحقائق في حياتها والتي تجاهلها لانه طوال فحصه وعلاجه لعقلها الباطن كان يعرف انها ضحية صفقة جنسية بشعة اقترفها ابوها. ان هذا الاب الذي مرض من قبل بالزهري ثم نقل العدوى الى زوجته. هذا الاب دخل في علاقة جنسية اخرى مع زوجة السيد «ك» وكانت هناك دلائل واضحة ان هذا الاب كان يستخدم

(١) Sigmund Freud. Case of Dora: An anlysis of a case of Hysteria (New York: W. W. Norton. 1951.

ابنته «دورا» ليرضي عشيقته الجديدة (وذلك بان يقدم دورا للسيدك)، وقد كان فرويد على علم بهذا لانه كتب: «ان الاب كان مسؤولا الى حد ما عن الخطر الذي لحق بها لانه قدمها الى ذلك الرجل الغريب من اجل ان يشبع هو رغبته الجنسية مع زوجة هذا الرجل»، ولكن بالرغم من هذه الحقيقة وبالرغم من ان اباها كان سبب تعبها فقد اصر فرويد على ان يعتبر مشكلة «دورا» مشكلة نفسية بحتة تتعلق بعقلها الباطن فقط متجاهلا سلوك والدها، وقد انكر ان رد فعلها لهذا السلوك الابوي الشائن رد فعل طبيعي. . ويبدو ان فرويد كان يعتبر انه من الطبيعي ان يستغل الرجل المرأة او الفتاة جنسيا باي شكل، وانه من المرض النفسي ان تقاوم الفتاة او ترفض[1].

والذي يقرأ عن علاج فرويد لدورا يدهش، لان فرويد لم يحاول ان ينصح الاب بتغيير سلوكه تجاه ابنته، لكنه كان ينصح دورا بان ترضى بحياتها، وكان يلومها على ثورتها على ابيها، وركز علاجه لها على ان تتكيف مع حياتها، والا فليس امامها الا مصيرها المحتوم «كأمها» الا وهو «ذهان ربة البيت». وكان شفاء دورا بطبيعة الحال هو ان تعود فتحترم اباها وتقدس تلك الاسرة الابوية التي نشأت فيها، وتخدمه ايضا وتقبل حياتها معه، والزهري الذي سينقله اليها ثم العشيقات اللائي قد يستخدم بناتها لارضاء ازواجهن وهكذا تدور الحلقة المفرغة، ويصبح «ذهان ربة البيت» هو الحالة الطبيعية لجميع الزوجات.

وقد حدث شيء مشابه لذلك في حياة دورا، فقد تزوجت وعاشت مع زوجها عددا من السنين ثم ذهبت الى طبيب نفسي يدعى «فليكس دوتيش[2]». وكان من مدرسة «فرويد» نفسها لانه رأى ان برودها الجنسي لم يكن بسبب سلوك زوجها، الذي لم يكن مخلصا لها وكانت له عشيقاته كابيها (كأكثرية الرجال الذين يعجزون عن الاكتفاء بامرأة واحدة) بل بسبب انها هستيرية وتكره الرجال (بسبب الحسد بالطبع لانهم يمتلكون العضو الذي تبحث عنه المرأة بلا جدوى». وحين مات زوجها (ربما من الزهري او من مرض اخر) قالت دورا انها لن تتزوج مرة اخرى، وبالطبع رأى طبيبها النفسي ان هذا يؤكد تشخيصه السابق لها وكراهيتها للرجال وهستيريتها الشديدة غير القابلة للعلاج

---

(١) Leonard Simon, The Poliatical unconscions of Psychology Chimical Psychology and Social change, unpublished manuscript. 1970, Quoted in Woman and Madness by Phylis Chesler. Doubleday, 1972. P. 80.

(٢) Felix Deutsch, a Footnote to Freud's (Fragment of an Analysis of a case of Hysteria) The Psychoanalytic Quarterly. Vol. 25. 1927.

النفسي، فكيف تكره المرأة الرجال الا اذا كانت مريضة بالهستيريا المستعصية. اما سلوك ابيها في طفولتها ومراهقتها، وسلوك زوجها في شبابها، فكل ذلك اشياء طبيعية من الرجل الطبيعي، وعلى المرأة الطبيعية ان تخدم اباها هذا وتحترمه، وتخدم زوجها هذا وتحترمه، فان عجزت او رفضت او شلت يدها وهي تناوله كوب الشاي وهو راقد على ظهره في السرير فهي امرأة هستيرية.

كانت خدمة الاب او خدمة الزوج «ولا تزال» احدى الواجبات المقدسة للمرأة، وكانت المرأة «ولا تزال» التي ترفض هذا الواجب تعتبر امرأة غير طبيعية او مريضة نفسيا، اما الرجل فانه من الطبيعي ان يخون زوجته مع العشيقات، ولم نسمع عن رجل اتهم بالمرض النفسي لأنه خان زوجته.

ويكتب «توماس زاس» عن اعراض الهستيريا، مستعرضا احدى مريضات فرويد (Anna o) (آنا «أ») التي شعرت بالمرض اثناء خدمتها لابيها المريض: «بدأت آنا تلعب لعبة الهستيريا بسبب كراهيتها لتلك الخدمة المهينة، وخضوعها لهذا الاضطهاد، وان تشتغل كممرضة وبغير اجر. وكان واجب النساء من الطبقة المتوسطة في عهد فرويد ان يقمن بخدمة وتمريض الاب المريض.. وهذا يشبه ذلك الواجب المفروض على النساء في عصرنا بالنسبة لاطفالهن[1].

ان المرأة في الحضارة الذكورية لا بد ان تكون مهنتها في الحياة هي الخدمة، ان تخدم اباها، ثم تخدم زوجها، ثم تخدم طفلها، فان كانت امرأة ذكية، تدرك انها تستطيع ان تمارس مهنة اخرى ارقى من الخدمة فهي امرأة غير طبيعية، تعاني من كراهية الرجال، وترفض الواجب المقدس الذي تقوم به كل النساء، وعلى المعالج النفسي ان يروضها لتقبل هذا الدور المفروض عليها بحكم انوثتها ومصيرها المحتوم في الحياة.

ومن المعروف ان المرأة تقوم بمهنة الخدمة هذه بغير اجر (نظير اطعامها فقط) فاذا دعت الحاجة الاقتصادية اباها او زوجها لكي يشغلها في مهنة اخرى خارج البيت، فهي

---

(١) Thomas S. Szasz, The Myth of Mental Illness: Foundations of a Theory of personal Conduct.

تقوم بالمهنتين معا، مهنة الخدمة بالبيت والمهنة خارج البيت، وبرغم انها تدفع اجرها الذي تكسبه لزوجها او ابيها الا انها لا تعفى على الاطلاق من مهنة الخدمة بالبيت، بالاضافة الى المعاملة السيئة من الاباء اوالازواج للبنات والزوجات، والحماية الاخلاقية والقانونية والاجتماعية لهم التي تشجع هذه المعاملة السيئة، وبعد كل ذلك حين تسقط المرأة في الارهاق الجسدي، او حين تصرخ من الارهاق النفسي فهي امرأة عصبية هستيرية ولا بد لها من علاج سريع لتعود هادئة مستسلمة الى حظيرة النساء.

ابتسام

سألتهـا ما الـذي اتى بك الى سجن النساء؟ فاجابت بصوت هادىء خال من الانفعال تقريبا: الدعارة، ونظرت الى وجهها، كان هادئا لكنه ليس هدوء الاستكانة والذل، وانما هو هدوء الترفع والكبرياء، وفي عينيها نظرة مترفعة وكأنها تقول انني اشرف منكم جميعاً. وقد كانت ابتسام رافضة تماما التحدث عن نفسها، وكانت تجيب عن اسئلتي بكبرياء وبسخرية ايضا، حين سألتها كم عمرك؟ قالت ستون عاما، لكن المشرفة قالت انها في الثـلاثين، وادركت انني امام امرأة على قدر من الذكاء، وسألتها: هل تعلمت؟ فقالت انها تعلمت في الحياة اكثر مما نتعلم نحن في المدارس، فضحكت، وسألتها عن عملها؟ فقالت انها كانت ممثلة على المسرح، وكانت تريد ان تكون فنانة عظيمة لولا ذلك الرجل الذي حطم مستقبلها تماما.

ولم تفتح لي ابتسام قلبها الا في الزيارة الثالثة للسجن، وحين بدأت تثق في انني لا اسعى الى الحصول على معلومات منها من اجل اضرارها، واعتذرت لي عن عدم قدرتها على الثقة بالناس بسرعة قائلة: كنت اثق بالناس، وهذه الثقة هي سبب وجودي الان في السجن، لكن الناس اشرار وخاصة الرجال منهم، ربنا ينتقم منه!.

وسألتها: من هو؟.

قالت: الذي تسبب في مجيئي الى هنا، انا يا دكتورة لست امرأة مومساً كما يكتبون تحت اسمي، ولكن حظي السيء جعلني اتـزوج رجلا مومسا، ان الحياة الفنية مليئة بالرجال المومسين الذين يستغلون الفنانات الناشئات، وقد كنت منذ عشرة اعوام فنانة ناشئة، فتاة بريئة. ولم اكن احب المدرسة لانني وانا طفلة في السابعة كان هناك مدرس يخيفني حين يعانقني في مكان بعيد في الفناء، وكنت اجري هربا منه، وكانت امي تضربني لاذهب الى المدرسة، ولهذا كرهت المدرسة جدا، وكنت احب التمثيل والغناء والرقص، ومات ابي وانا في السادسة عشرة فاخرجتني امي من المدرسة وبدأت تبحث لي عن عريس

مناسب. وقلت لامي انني لا اريد ان اتزوج واريد ان اشتغل ممثلة في المسرح او في السينما، لكن امي رفضت وزوجتني لاحد اقاربها،وكان رجلا بخيلا جدا وقبيح الشكل، وفي ليلة الزفاف جعلني اكره الجنس كالعمى، فقد هجم علي كالثور وكانت رائحته كريهة ولم اشعر باية لذة وانما بالم شديد ورغبة في القيء وكنت في الثامنة عشرة وهذا الرجل في الاربعين تقريباً. وبعد ستة شهور طلقني وقال لامي انني ارفض حين يرغبني، وضربتني امي وسألتني لماذا ارفضه؟ فقلت لها انني اكره الرجال ولا اريد الزواج، وبعد شهور قليلة تزوجت امي وبعد زواجها لم تعد تهتم بامري، لدرجة انني حين قلت لها انني ساشتغل ممثلة في المسرح لم ترفض، واحسست انها تريد ان تتخلص مني، فقد اصبحت عبئا عليها بعد زواجها.

وبدأت حياتي الفنية بداية لا بأس بها، فقد اعطوني دورا ثانويا في احدى المسرحيات، وفرحت جدا باول اجر احصل عليه رغم ضآلته، وكنت اشعر بالسعادة وانا اقف على خشبة المسرح والناس تصفق لي. وبدأت احلم بمستقبلي كفنانة كبيرة مثل الفنانات الشهيرات، لكن احلامي كلها تحطمت على يد ذلك الرجل، لقد خدعني، وافهمني انه قد جن جنونا بحبي، وكنت ساذجة وبريئة وصدقته، وكنت احلم بالحب ككاية فتاة في مثل سني في ذلك الوقت. كنت قد اصبحت في الواحدة والعشرين، وتزوجت هذا الرجل وانا احلم بحياة سعيدة، لكن بعد الزواج ادركت انه يريد ان يستغلني، وكان يستولي على كل اجري الذي احصل عليه من التمثيل. وكان يقول لي ان جسمي يصلح للرقص وعلمني الرقص، وجعلني اشتغل في احد الملاهي الليلية، ويستولي على اجري، ولم اكن احب ان اشتغل راقصة لاني كنت اشعر بالاهانة حين يعاكسني الرجال، وكنت اشعر بكرامتي اكثر وانا ممثلة، لكني كنت لا ازال اصدق كلام زوجي، واحاول ان ارضيه باي شكل، لانني كنت اخاف منه، فقد ضربني مرة حتى كدت افقد الوعي. وفي اليوم التالي ذهبت الى بيت امي لكني علمت من الجيران انها تركت الشقة هي وزوجها ولم اعد اعرف طريق امي، ولم يعد لي من مأوى سوى بيت زوجي، وكنت لا ازال صغيرة واخاف ان اعيش وحدي، واخاف ان يبحث عني زوجي ويجدني ويضربني حتى اموت، ولهذا عدت الى بيت زوجي وخضعت تماما له، لدرجة انه حين تركني مع احد اصدقائه بحجرة النوم لم ارفض. وتكررت العملية، مع عدد من الرجال الذين يعرفهم، وعلمت ان هؤلاء الرجال يدفعون له مالا، ولم اعرف كم يدفعون له، وخفت ان اسأله وفكرت في الهرب يوما، لاني كنت اكره حياتي، واشعر بآلام شديدة في جسمي، ورغبة في القيء،فقد كنت اكره الجنس كراهية شديدة، وافضل ان اشتغل في الجبال واحمل

احجارا فوق ظهري ولا يتصل بي هؤلاء الرجال. لكني لم اكن اعرف كيف انقذ نفسي، فقد امتلك هذا الزوج مصيري واصبحت عاجزة عن الفرار منه، وكنت اقضي بعض الليالي وانا ابكي على حالي والعن اليوم الذي قابلت فيه هذا الرجل. واشتد بؤسي حين اصبحت حاملا وكنت اريد ان اكون اما ويكون لي طفل اعطيه حبي وحناني، لكن زوجي اخذني الى طبيب واجهضني، وبكيت كثيرا وفكرت في الانتحار ولم تكن امامي وسيلة الا ان القي نفسي في النيل وانا عائدة بالليل من المرقص لكني لم اكن استطيع ان افعل ذلك، وكنت لا ازال آمل ان ينقذني الله من ذلك الرجل، وكنت في اشد الحاجة الى ان احكي مأساتي لاحد حتى اخفف عن نفسي الحزن، وكان صاحب المرقص رجلا طيبا ورآني ابكي فسألني عن السبب، ووثقت به وبحت له بمأساتي، وكنت اتصور انه صديق لي، وسوف يساعدني على الخلاص لكني فوجئت انه احد اعوان زوجي، وبدأت اعرف الحقائق من زميلة لي بالمرقص عن هؤلاء الرجال، وطلبت مني زميلتي ان اطلب من زوجي ان يعطيني قسيمة الزواج، لانها تعتقد انه لم يتزوجني حقيقة وان المأذون لم يكن مأذونا حقيقيا، وحين سألت زوجي عن قسيمة الزواج ثار وغضب، ونظر الي نظرة مخيفة لدرجة انني تصورت انه ربما يخنقني بالليل وانا نائمة. واصابني الارق، واصبحت اشعر بالقلق والصداع والالام في كل جسمي، ولا ادري لماذا لم اهرب منه، ولماذا ظللت اطيعه رغم انني اصبحت اشك فيه، واشعر انه اصبح يريد التخلص مني لكن عقلي كان عاجزا عن التفكير ولم تعد بي اية قدرة على المقاومة.

وفي ليلة من الليالي بينما كنت مع احد الرجال في حجرة النوم انفتح الباب فجأة ودخل رجال البوليس، وقلت لهم انني بريئة لكن الرجل الذي كان معي شهد ضدي وقال انه دفع لي مالا، وانكرت انني اخذت شيئا، لكن احد رجال البوليس رفع وسادة السرير ورأيت تحتها ورقة من فئة الخمسة جنيهات، ودهشت لانها كانت المرة الاولى التي يضع فيها الرجل مالا تحت الوسادة، وكان زوجي هو الذي يأخذ المال مباشرة من الرجال. واخذت استعطف رجال البوليس واقول لهم الحقيقة لكن احدا لم يصدقني، واخذ الجميع ينظرون الي بسخرية واحتقار، وحكموا علي بالسجن، فهل ترين يا دكتورة انني استحق السجن واستحق ان يضعوني في عنبر المتهمات بالدعارة؟ وقد اوشكت مدتي ان تنتهي واخرج من السجن ولكن الى اين اخرج واي مستقبل ينتظرني؟!.

وصمتت ابتسام طويلا، وصمت انا أيضاً، وكنت افكر في مأساتها، فهي متهمة بالاتجار بجسدها مع انها لم تكن تقبض شيئا، وهي متهمة بالدعارة وممارسة الجنس مع

الرجال مع انها كانت تكره الجنس وتشعر بالالام والغثيان، وقد ضبطوها مع رجل تآمر مع زوجها المزيف ليزجوا بها في السجن مستغلين القانون الذي يدين المرأة وحدها ولا يدين الرجل، وقد اراد الرجل التخلص منها بعد ان ادرك انها بدأت تفتح عينيها على الحقيقة وتدرك انه مزيف، ولم يكن يشعر بالحاجة اليها بعد ان مص دمها عشر سنوات وافنى جسدها وذبلت وهي في الثلاثين واصبحت تشعر انها في الستين. وقبل ان اغادر السجن سألت احد الاطباء عن العلاج الذي تأخذه ابتسام فقال انها تأخذ اقراصا منومة وتأخذ بعض حقن من الهرمونات لانها تعاني من اضطرابات في الهرمونات، وقال لي الطبيب ان المرأة الطبيعية لا يمكن ان تمارس البغاء لانه ضد طبيعة المرأة، وان معظم المومسات يمارسن البغاء بسبب اضطرابات في الهرمونات، وقلت للطبيب: ان ابتسام امرأة طبيعية واذا كنت قد فحصتها ووجدت عندها اضطرابات في الهرمونات فهذه الاضطرابات ليست بسبب ممارستها البغاء ولكنها نتيجة لهذه الممارسة التي فرضت عليها وانهكت صحتها النفسية مما ادى الى اضطراب في الهرمونات.

وقال الطبيب: هناك نساء يبلغ بهن الفقر مبلغا شديدا ولا يمارسن البغاء ابدا. ان الاسباب الحقيقية للبغاء ليست اقتصادية ولا اجتماعية ولكنها اسباب هرمونية بسبب خلل في افراز الغدد الصماء لدى هؤلاء المومسات، ولم استرسل في المناقشة، فقد كنت ادرك الطريقة التي تعلمنا بها الطب والتي تجعلنا عاجزين عن ادراك الاسباب الاجتماعية لاية مشكلة صحية متعلقة بالجسد او النفس.

وحينما عدت الى بيتي، وبينما انا اتصفح بعض اعداد من المجلة الجنائية القومية باحثة عن البحوث التي اجريت عن البغاء، لمحت عنوانا يقول: دراسة بيولوجية لمجموعة من البغايا، وقرأت البحث وما فيه من جداول، وكانت النتائج كالاتي: «لقد وجد ان النساء البغايا يعوزهن تناسق التكوين الجسمي، كما انهن مصابات بخلل واضطراب في افراز الغدد الصماء، وانهن يملن الى ان يكن قصيرات القامة، والى النحافة في الوزن، والى انخفاض مستوى الجمال فيهن وكذلك عدم الاتزان الهرموني»[1].

وعرفت ان هذا البحث يشبه غيره من البحوث العلمية البيولوجية حيث يعزل الانسان عن ظروفه الاجتماعية والاقتصادية ويوضع في انبوبة اختبار في المعمل وتجرى عليه بعض التجارب الكيماوية ولست اقول ان مثل هذه البحوث المعملية بغير قيمة

---

(١) انظر: المجلة الجنائية القومية، دراسة بيولوجية لمجموعة من البغايا مارس ١٩٦٠. ص ١٣.

علمية، ولكني اعتقد انها لا تصلح لدراسة نفسية الانسان رجلا كان او امرأة، وكما رفض علماء النفس الجدد نظريات فرويد النفسية عن المرأة لانه اهمل المجتمع والظروف الاجتماعية التي تعيشها المرأة كذلك فان اي دراسة للنساء البغايا تهمل الظروف الاجتماعية لا تقودنا الى شيء علمي ولا يمكن لاحد ان يعتقد ان امثال ابتسام يمارسن البغاء لانهن قصيرات القامة، او بسبب خلل في افراز غددهن الصماء، ان السبب الرئيس في حالة ابتسام هو ذلك الرجل الذي خدعها واستغلها وساعدته الظروف الاجتماعية والقانونية على ذلك.

خديجة

لم تشعر خديجة باي حرج حين سألتها عن سبب وجودها بسجن النساء! فقالت وهي تبتسم بسخرية: قضية قتل، وقال لي احد الاطباء ان خديجة تعاني من حالة قلق وارق ولا تنام الا نادرا، وسألت خديجة عن سبب ارقها؟ فقالت انها تقضي الليل في مناجاة الله، فهو الوحيد الذي يعرف انها بريئة وليست مذنبة، وسألتها كيف جاءت الى السجن فقالت: قتلت طفلي، وسكتت، وشردت عيناها في السماء ورأيت في عينيها قدرا هائلا من الحزن العميق، ذلك الحزن الذي تراه دائما في عيون الفقراء الكادحين، ويشبه السحابة الصفراء فوق العينين، وربما يكون مزيجا من الحزن ونقص التغذية والارهاق الجسدي والنفسي الشديدين.

ورفضت خديجة اول الامر ان تحكي لي قصتها: نظرت الي نظرة مليئة بالغضب والكراهية معا وقالت بصوت قوي: لا اريد ان احكي شيئا، انكم لا تفهمون شيئا، انتم تأكلون وتشربون وتسكنون البيوت النظيفة وتعلمون اطفالكم في المدارس وتركبون العربات، ولا يمكن ان تفهموا شيئا عن حياتنا نحن خدم البيوت، خدم بيوتكم، نحن ننظف لكم بيوتكم ونغسل ملابسكم وملابس اطفالكم ونغسل صحونكم ولا نأكل الا ما يتبقى منكم، وفي الليل ندفع ضريبة فقرنا وذلنا من اجسامنا وشرفنا، ثم تأتون إلينا تحت ستار العلم لتبحثوا حالتنا من اجل مساعدتنا وانتم لا تساعدون الا انفسكم، والمآسي التي نعيشها ليست الا حكايات مسلية لكم، وبعد كل ذلك نصبح نحن المجرمين والقتلة وانتم الشرفاء اسيادنا، انتم الذين تضعوننا في السجن وتحكمون علينا مع انكم انتم المجرمون والقتلة!.

كان الى جواري يستمع إلى هذا الكلام احد الاطباء والاخصائية الاجتماعية وأحد المشرفين. نظر الي الطبيب كأنما يعتذر عما قالته خديجة وقال ما معناه ان خديجة عصابية او نصف مجنونة، ويمكن لها ان تهذي باي كلام وقلت للطبيب ان خديجة لا تهذي،

وهي عاقلة بل ذكية، وانها تعبر عما في نفسها في شجاعة، ودهش الطبيب بعض الشيء، وقال وهو يتراجع الى الوراء: سنتركك وحدك مع خديجة، ربما تستطيعان التفاهم معا.

واصبحت انا وخديجة وحدنا، وظلت خديجة صامتة طويلا، واحترمت صمتها ولم اسألها عن اي شيء ثم رفعت إلي عينيها المليئتين بالحزن وقالت: انهم يقولون عني انني قاتلة، مع انني لم اقتل، هل هناك ام تقتل طفلها؟! وصرخت بصوت عال وهي تسألني: هل هناك ام تقتل طفلها؟! ولم اشأ ان اقول لها ردي على هذا السؤال حتى اتركها تحكي دون ان تتأثر بما سأقوله، لكنها كانت مصرة على ان تسمع ردي، وسألتني مرة اخرى: هل هناك أمّ تقتل طفلها؟ وعبرت عن رأيي بصدق وقلت لها: نعم، هناك امهات يقتلن اطفالهن وليس ذلك بسبب الكراهية وانما بسبب الحب، واذا كنت قد قتلت طفلك فانا استطيع ان افهم كيف حدث ذلك، لا بد انك عشت مأساة، وان طفلك كان معرضا لمأساة اشد فرأيت ان الموت ارحم له.

قالت بصوت خائر: الموت كان ارحم له ولي، وكنت سأحرق نفسي بعد ان يلفظ طفلي نفسه الاخيرة لكني صرخت حين رأيته ميتا وتجمع الناس على صراخي.

وسألتها: كم كان عمر طفلك؟.

قالت: عشرة شهور.

وادركت ان المأساة مختلفة عن المآسي التي رأيتها من قبل، حين كانت الام تقتل طفلها بمجرد ولادته خوفا من الفضيحة واكتشاف الناس لكونها أماً بغير زواج، وهناك بعض الامهات ممن يعجزن عن كتم انفاس الوليد حتى الموت او ترك الحبل السري ينزف الدم حتى يشحب الوليد ويموت، ويتركن الوليد حيا بجوار جامع ليلتقطه اي قلب رحيم، ولكن طفل خديجة كان عمره عشرة اشهر، ان المسألة لم تكن تتعلق بالشرف او خوف الام من الفضيحة، وحاولت ان افكر في نوع المأساة التي يمكن ان تقود الى ان تقتل الام طفلها وهو قد بلغ من العمر عشرة شهور.

وقالت خديجة دون ان اسألها: انا لم اقصد ان أقتله، لم يكن في نيتي قتله، لقد كان هو امل حياتي، وكنت اشتغل واشقى من اجله هو، ومن اجل ان اطعمه، فكيف يمكن ان اقتله؟ انا لم اقتله. الله هو الذي قتله، هو الذي اخذه ليرحمه من العذاب، لكنهم تصوروا انني انا التي قتلته، وحين قلت لهم ان الله هو الذي قتله لم يصدقوني، لا ادري لماذا لا يصدقونني؟ ربما ظنوا انني انا الله الذي يأخذ الارواح من الاجسام،

ولكني لست الله، انا امرأة مسكينة، كنت خادمة في بيت كبير محترم وكنت اعرف القراءة والكتابة، وكنت اذاكر احيانا مع ستي الصغيرة، واقرأ معها القصص، وعلمتني بعض الكلمات الانجليزية، وكنت اسمع الراديو، واشاهد التلفزيون، وعرفت اشياء كثيرة عن الحياة، لدرجة انني تمنيت ان ادخل المدرسة واتعلم مثل ستي الصغيرة، وكنت افهم أسرع منها، لدرجة ان امها (ستي الكبيرة) كانت تقول لها: «خديجة اذكى منك يا سوسو»، ونجحت الست سوسو في الثانوية ودخلت الجامعة، وكنت احسدها واتمنى ان ادخل الجامعة مثلها لاتخرج واشتغل شغلة محترمة بدلا من الخدمة في البيوت،ولكني كنت راضية بحياتي في هذا البيت، فقد كانت الست سوسو تعاملني كاختها، وكانت تعطيني الكتب لاقرأها، وتدافع عني حين تشخط الست الكبيرة، وكانت الست سوسو في نفس عمري، اي في حوالي السابعة عشرة، وكان لها اخ يكبرها بعامين هو سيدي الصغير، وكان فاشلا في الدراسة ويرسب كل عام تقريبا، وكنت اشتغل عند هذه الاسرة منذ كان عمري اثني عشر عاما، وكان سيدي الصغير هذا يأتي الي في المطبخ ويقول لي لا تقولي لماما او لسوسو، وكتمت الامر لاني كنت اخاف ان تقول الست الكبيرة لابي الذي كان يأتي كل شهر ليأخذ راتبي، ولم يحدث اي شيء لمدة سنوات، وتعودت على ان يأتي سيدي الصغير الي، وفي يوم من الايام احسست ان بطني بدأ يعلو عما كان، ومضت بضعة شهور ونظرت الي ستي الكبيرة نظرة غريبة وقالت لي: انت حامل يا خديجة؟ وقلت لها انا لا اعرف عن اي شيء يا ستي، لكنها صفعتني على وجهي وقالت انها رأتني اضحك مع الكواء وانه لا بد ضحك علي وفعل ما فعل. . ولكني قلت لها ان المكوجي لم يلمسني، ثم بحث بالحقيقة وهي ان سيدي الصغير (ابنها) هو الذي كان يأتيني في المطبخ، وظل على ذلك لمدة سنوات، وصفعتني مرة اخرى وقالت لي لماذا لم تقولي لي، ثم طردتني، ولم اذهب الى ابي لاني خفت ان يقتلني، ودخلت مستشفى القصر العيني لالد طفلي، وقالوا لي في المستشفى انني يمكن ان اترك الطفل واخرج وحدي، ولكني لم استطع ان اترك طفلي، واخذته معي على كتفي، وصممت على ان اعود الى الخدمة بالبيوت واعول طفلي حتى يكبر، وحين كنت انظر في عيني طفلي اشعر بسعادة غريبة وانسى كل الامي، واشتغلت في احد البيوت، وكنت اضع طفلي في المطبخ وانظف الشقة الكبيرة، وحين اسمعه يبكي اجري اليه لارضعه، وبعد بضعة ايام اعطتني الست الكبيرة حسابي وقالت لي انهم اتوا بخادمة اخرى، لان طفلي يزعجهم بالبكاء، ويشغلني عن عملي، وبحثت عن بيت اخر لكنهم كانوا يستغنون عني بعد ايام بسبب الطفل، وفي احد البيوت قالت لي الست الكبيرة: سنشغلك عندنا بشرط الا تحضري الطفل معك، وقلت لها انه ما زال يرضع

مني،وانني ليس لي احد لاتركه معه. لكن الست الكبيرة اشترطت علي ذلك وكنت قد يئست من العثور على عمل فتركت طفلي الرضيع عند جارة لي عجوز نظير ان ادفع لها جنيهين في الشهر، وكان كل مرتبي الشهري خمسة جنيهات، وكانت المرأة العجوز مريضة ولا ترى بعينيها جيدا، وكنت اعود في نهاية النهار فاجد طفلي راقدا فوق التراب يبكي من شدة الجوع طوال اليوم، وكنت ابكي وانا احتضنه وارضعه، واشفق عليه مما هو فيه، واحس بتأنيب ضميري لاني اتركه، وكنت استعطف الست الكبيرة لاحضر طفلي معي لارضعه اثناء النهار، لكنها قالت لي انها اشترطت علي منذ البداية الا احضر الطفل، فهي مريضة باعصابها ولا تحتمل بكاء الاطفال. وفي يوم عدت من شغلي اخر النهار، فوجدت طفلي مريضا،جسمه كالنار من السخونة، ومصاب باسهال شديد وبكيت حتى تورمت عيناي من منظر طفلي المسكين وحملته الى طبيب له عيادة قريبة مني،ودفعت للممرّض جنيها ودخلت للدكتور واعطاني وصفة فيها ثلاثة ادوية، صرفتها من الصيدلية بعد ان دفعت ٢٨٠ قرشا، واعطيت طفلي الدواء لكنه كان يرجعه مع القيء وظللت طوال الليل ساهرة بجواره ابكي، وكلما اعطيته الدواء يصرخ ويبكي ويرجعه مع القيء. وفي الصباح فكرت في ان ابقى معه ولا اذهب الى الشغل، ولم تكن اول مرة اخذ فيها اجازة، كنت قد اخذت اجازات سابقة لابقى مع طفلي وارضعه، لدرجة ان الست الكبيرة قالت لي: اذا تغيبت يوما اخر فاعلمي اننا سنحضر خادمة اخرى، ووضعت الملاءة السوداء لاخرج الى الشغل، ونظرت الى طفلي وهو راقد على الارض ومن حوله بركة من القيء والاسهال،وملامحه اصبحت كالعجوز من الاسهال والحمى، وحين نظرت الى عينيه الغائرتين وهو ينظر الي ويبكي احسست انه يتعذب، وانه سيموت، ولم اشعر الا وانا احتضنه في صدري، واضغط عليه بكل قوتي حتى فارق الحياة، وحين رأيته ميتا بين يدي صرخت وانا الطم على وجهي واصيح: انا التي قتلته! وتجمع حولي الجيران، ولم افق الا وانا في السجن.

وصمتت خديجة فترة ثم قالت: لو لم اصرخ واقول انني انا التي قتلته لتصور كل الناس انه مات وحده او ان الله هو الذي قتله ليريحه من العذاب، لكني انا التي صرخت وانا التي اعترفت، وحين انكرت بعد ذلك لم يصدقوني، وقال الطبيب الشرعي الذي فحص جثة طفلي انه مات مخنوقا وانني انا التي خنقته، مع انني لم اخنقه، لقد ضغطت عليه ضغطة خفيفة جدا، ولم اكن اقصد ان اقتله، لم اكن اقصد ان اقتله، و لكن الله هو الذي قتله!.

وانفجرت خديجة في بكاء عنيف، وبكيت معها دون ان ادري، رغم اني قاومت الدموع لكني لم استطع.

وسألتها بعد دقائق: ومتى ستخرجين من السجن؟ قالت بغير مبالاة: لا ادري لا يهمني الان متى اخرج، ان حياتي هنا ليست اسوأ كثيرا من حياتي بالخارج، ان ما يتعبني الان ليس هو السجن، وانما الصداع والارق، فانا اشعر كأن رأسي سينفجر، واشعر برغبة في الصراخ باعلى صوتي.

ودخلت الاختصاصية الاجتماعية في ذلك الوقت وقالت لي: ان خديجة تصرخ احيانا بالليل، وتلطم على وجهها، وقد رأينا تحويلها الى الطبيب النفسي لتأخذ العلاج المناسب.

ونظرت الي خديجة وقالت: انهم يظنون انني اصبحت مجنونة، ولكني لست مجنونة ولست قاتلة، ولست مجرمة ولكن قولوا لي ماذا كنت افعل ماذا كانت تفعل اي ام في مكاني؟!.

ونظرت الي خديجة بعينين تنفثان نارا وسألتني: ماذا كنت تفعلين يا دكتورة لو كنت مكاني؟ هل انت ام؟.

قلت لها: نعم.

وسألت مرة اخرى: ماذا كنت تفعلين لو كنت مكاني؟:

وقبل ان ارد كانت الاختصاصية قد اخذت خديجة من يدها واخرجتها من الحجرة، وبقيت وحدي بضع لحظات افكر وظل سؤالها يتردد في نفسي كثيرا. وكنت اعرف الاجابة، وهي ليست بالتأكيد ان اقتل طفلي، ولكن ان اقتل الظلم والفقر والاستغلال في المجتمع بجميع الاسلحة، واحد هذه الاسلحة هي الكتابة التي تفتح الاذهان والعيون على الحقائق، ولكن خديجة لم تكن تملك من الاسلحة ما يمكنها من ان تقتل الظلم والفقر والاستغلال.

كل ما كانت تملكه من سلاح هو ان تضغط على طفلها حتى يموت وتنقذه من الظلم والفقر والاستغلال لقد مارست خديجة حقها الطبيعي كانسانة تريد ان تقاوم الظلم، انها لم تستسلم كبقية النساء المظلومات وذلك بسبب ذكائها وبسبب شخصيتها المكافحة الايجابية لقد رفضت خديجة الاستسلام وارادت ان تقاوم بالفعل، ان الفعل الذي قامت به هنا لم يكن هو الفعل الصحيح او الفعل الذي ينقذها هي وطفلها من الظلم، لكنه

كان الفعل الوحيد الذي تملكه، الفعل الوحيد الذي تستطيع ان تمارسه وتقاوم به الظروف السيئة التي عاشتها، وان الصداع والارق والصراخ والعصاب الذي اصابها ليس الا نوعا من المقاومة وعدم الاستسلام، ان خديجة لا تزال تقاوم ما دامت هي قادرة على ذلك جسديا ونفسيا، انها لا تملك من وسائل المقاومة الا جسدها ونفسها، وهي تقاتل بهما، وتدافع بهما عن حقها في الحياة، ان خديجة ليست مجرمة وليست قاتلة، ولكنها مقتولة ترفض وتقاوم قبل ان تموت تماما، وهي ضحية ظروف اجتماعية ظالمة استغلتها ونهشتها كقطعة لحم، ثم القت بها في السجن كهيكل عظمي اكلوا منه اللحم، كيف يمكن ان نتصور بعد كل ذلك ان المشكلة داخل رأس خديجة، او في جسدها، او في خلل في الهرمونات المؤنثة، قال لي احد الاطباء قبل ان اسمع مشكلة خديجة ان الام التي تقتل طفلها مثل خديجة مصابة بخلل في افراز الهرمونات المؤنثة وهذا يسبب ضعفا في شعورها بالامومة، وقال طبيب اخر ان خديجة تحتاج الى تحليل نفسي لمعرفة علاقتها بابيها وامها في طفولتها ولا بد انها عانت من عقدة اوديب وكانت تكره امها وافسد هذا الشعور امومتها وعجزت عن ان تحب طفلها كاي ام طبيعية.

وهكذا كان من الممكن للاطباء والاخصائيين ان يدخلوا حالة خديجة في متاهات علمية عن الهرمونات والغدد الصماء وعقدة اوديب.. وبالطبع لم يستمع احدهم الى قصة خديجة كلها، واذا سمعها فهو لا يرى ان هناك صلة بين ظروفها الاجتماعية وبين تعبها النفسي او الفعل الذي قامت به (وهو قتل طفلها) من اجل حمايته من الظلم والفقر والاستغلال، وانها ليست مذنبة وليست مريضة نفسيا، وانما ظروفها الاجتماعية هي المذنبة وهي المريضة.



الوجه العاري للمرأة العربية

الاهداء

الى بناتي وابنائي شباب العالم العربي ومن بينهم ابنتي « منى » وابني « عاطف » على أمل ان يكون المستقبل اكثر صدقاً ووعياً من الماضي او الحاضر .



الافكار الاساسية التي تضمنها هذا البحث

١ ـ ان الثقافة الاسلامية او العربية ليست هي الثقافة الوحيدة التي حولت المرأة الى سلعة او عبدة ولكن الثقافة الغربية والمسيحية ايضا فعلت ذلك بل ان قهرها للمرأة كان اشد وافدح.

٢ ـ اضطهاد المرأة لا يرجع الى الشرق او الغرب او الاسلام او الاديان الأخرى . ولكنه يرجع اساساً الى النظم الطبقية الأبوية في المجتمع البشري كله .

٣ ـ تتضمن الاديان الكبرى في العالم مبادىء متشابهة من حيث تبعية المرأة للرجل وتمتع الإله بصفات ذكورية وتثبيت القيم الطبقية وسلطة الذكر في البيت والمجتمع.

٤ ـ ليس عقل المرأة دون عقل الرجل كما يعتقد الكثيرون ، والتاريخ يدلنا على ان المرأة سبقت الرجل في التفكير بعقلها وهي التي بدأت المعرفة في تاريخ البشرية، وكانت الالهة الاولى للمعرفة امرأة هي ازيس ومن قبلها كانت حواء.

٥ ـ الاسلام والمسيحية مراحل تقدمية وتطورية بالنسبة لتطور المجتمع البشري في كثير من النواحي الا ان القيود زادت على المرأة.

٦ ـ الاسلام اعطى المرأة حقوقاً جديدة وسلب منها حقوقاً قديمة، وحظيت المرأة في حياة الرسول محمد بحقوق تسلب منها اليوم في معظم البلاد العربية.

٧ ـ في تراثنا العربي والاسلامي ايجابيات يجب البحث عنها واظهارها وتقويتها، اما السلبيات فيجب علينا ان نتركها بشجاعة وفهم: وتعتمد قضية تحرير المرأة العربية على الجمع بين ايجابيات التراث القديم وايجابيات الفكر المستحدث.

٨ ـ المرأة التي صورها الادب العربي القديم او الحديث ليست هي المرأة العربية الحقيقية.

٩ ـ لن يحرر النساء الا النساء انفسهن، وبعد ان يصبحن قوة سياسية لها قدرتها على الفعل واتخاذ القرارات الكبرى، وهذا لن يتم الا من خلال قوة نسائية منظمة واعية لحقوقها واهدافها.

١٠ ـ التاريخ يدلنا على ان الثورات الاشتراكية وحروب التحرير تسرع بعملية تحرير المرأة في الشرق او في الغرب، وقد ساهمت حرب التحرير الجزائرية في كسر كثير من قيود المرأة بالجزائر، وكذلك تسهم حرب التحرير الفلسطينية في تحرير المرأة الفلسطينية مما يربط بين قضية تحرير الشعب ككل وقضية تحرير نسائه.

السؤال الحائر بغير جواب

كنت في السادسة من عمري. نائمة في سريري الدافىء احلم احلام الطفولة الوردية حينما احسست بتلك اليد الباردة الخشنة الكبيرة ذات الاظافر القذرة السوداء، تمتد وتمسكني. ويد أخرى مشابهة لليد السابقة خشنة وكبيرة تسد فمي وتطبق عليه بكل قوة لتمنعني من الصراخ، وحملوني الى الحمام، لا ادري كم كان عددهم، ولا اذكر ماذا كان شكل وجوههم، وما اذا كانوا رجالا ام نساء، فقد اصبحت الدنيا امام عينيّ مغلقة بضباب اسود ولعلهم ايضا وضعوا فوق عيني غطاء، كل ما ادركته في ذلك الوقت تلك القبضة الحديدية التي امسكت رأسي وذراعي وساقي حتى اصبحت عاجزة عن المقاومة والحركة وملمس بلاط الحمام البارد تحت جسدي العاري، واصوات مجهولة وهمهمات يتخللها صوت اصطكاك شيء معدني ذكرني باصطكاك سكين الجزار حين كان يسنه امامنا قبل ذبح خروف العيد.

وتجمد الدم في عروقي، ظننت ان عددا من اللصوص سرقوني من سريري ويتأهبون لذبحي، وكنت اسمع كثيرا من هذه القصص من جدتي الريفية العجوز.

وارهفت اذني لصوت الاصطكاك المعدني، وما ان توقف حتى توقف قلبي بين ضلوعي، واحسست وانا مكتومة الانفاس ومغلقة العينين ان ذلك الشيء يقترب مني، لا يقترب من عنقي، وانما يقترب من بطني من مكان بين فخذي. وادركت في تلك اللحظة ان فخذي قد فتحا عن اخرهما، وان كل فخذ شدت بعيدا عن الأخرى باصابع حديدية لاتلين، وكأنما السكين او الموسى الحادة تسقط على عنقي بالضبط، احسست بالشيء المعدني يسقط بحدة وقوة ويقطع من بين فخذي جزءا من جسدي.

صرخت من الالم رغم الكمامة فوق فمي، فالالم لم يكن الما، وانما هي نار سرت في جسدي كله، وبركة حمراء من دمي تحوطني فوق بلاط الحمام.

لم اعرف ما الذي قطعوه مني، ولم احاول ان اسأل كنت ابكي وانادي على امي لتنقذني، وكم كانت صدمتي حين وجدتها هي بلحمها ودمها واقفة مع هؤلاء الغرباء تتحدث معهم وتبتسم لهم وكأنهم لم يذبحوا ابنتها منذ لحظات.

وحملوني الى السرير ورأيتهم يمسكون اختي التي كانت تصغرني بعامين بالطريقة نفسها فصرخت وانا اقول لهم: لا، لا، ورأيت وجه اختي من بين ايديهم الخشنة الكبيرة،

كان شاحبا ابيض كوجوه الموتى، والتقت عيناي بعينيها في لحظة سريعة قبل ان يأخذوها الى الحمام، وكأننا ادركنا المأساة في تلك اللحظة، مأساة اننا خلقنا من ذلك الجنس، جنس الاناث، الذي يحدد مصيرنا البائس ويسوقنا بيد حديدية باردة الى حيث يستأصل من جسدنا بعض الاجزاء.

لم تكن اسرتي من الاسر المصرية غير المتعلمة، كان ابي متعلما تعليما عاليا بل كان مراقبا على التعليم في محافظة المنوفية في تلك السنة[1]، وكانت امي قد تعلمت في مدرسة فرنسية قبل ان يزوجها ابوها الذي كان مديرا للقرعة العسكرية في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد كانت تلك العادة المعروفة بختان البنت (او الطهارة) منتشرة، ولم تكن تفلت منها أي بنت سواء في الريف او المدن، وقد سألت زميلاتي في المدرسة (بعد ان شفيت وعدت الى المدرسة) فاذا بهن جميعا قد تمت لهن عملية الختان سواء من كانت منهن من اسرة عالية او متوسطة او فوق المتوسطة.

اما في الريف والاسر الفقيرة غير المتعلمة، فقد علمت من بنات قريتي «كفر طحلة». انهن جميعا مختونات، ولا تزال هذه العادة شائعة في الريف حتى اليوم، بل ان كثيرا من الاسر في المدن ما زالوا يؤمنون بها، الا ان التعليم وازدياد الوعي قد ساعد بعض الاباء والامهات على الاحجام عن اجرائها لبناتهم.

وقد ظلت حادثة الختان تراودني في احلامي كالكابوس، ولم اكن اعرف بالضبط ما الذي ينتظرني في المستقبل، وما اذا كان هناك من حوادث اخرى تخبئها لي امي او ابي او جدتي او المجتمع من حولي الذي اشعرني منذ فتحت عيني على الحياة انني بنت، وان كلمة «بنت» حين ينطقها احد فهو لا يبتسم.

وبعد ان كبرت واصبحت طبيبة ١٩٥٥ لم تفقد ذاكرتي الحادث المؤلم الذي افسد طفولتي والذي حرمني في شبابي وزواجي من حياة جنسية ونفسية مكتملة، وظل كابوس من هذا النوع يراودني في الاحلام، خاصة وانا طبيبة ناشئة اعمل بالريف، حين كانوا يحملون البنت الطفلة لاسعافها وهي تنزف دما بسبب الختان، وكم من بنات اطفال نزفن حتى الموت بسبب هذه العادة البشعة، أو تعرضن للالتهابات الحادة او المزمنة بسبب تلوث الجرح اولتعرضهن للمشاكل النفسية او الجنسية فيما بعد.

---

(١) سنة ١٩٣٩، ومحافظة المنوفية احدى محافظات الوجه البحري بمصر.

وساقتني ظروف علمي الى ان افحص بعض النساء السودانيات، وكم كانت دهشتي حين رأيت ان البنت السودانية تتعرض لعملية ختان ابشع من تلك التي تحدث في مصر، انهم في مصر يقطعون البظر فقط والشفاه الاربعة الداخلية ثم يخيطون الجرح ويغلقون فتحة المهبل تماما الا من ثقب صغير لمرور دم الحيض، وعند الزواج تفتح الفتاة بالموسى او المشرط حتى يمكن لعضو الزوج ان يدخل في المهبل، اما المرأة السودانية المطلقة فانهم يغلقونها مرة اخرى حتى لا يمكنها ممارسة الجنس، فاذا تزوجت مرة ثانية عادوا وفتحوها بالموسى او المشرط.

كم كنت اشعر بالغضب والثورة يتجمعان في صدري وانا افحص هؤلاء النساء او اسمع ما يقولون عن ختان البنات السودانيات. وكم بلغ بي الغضب حين سافرت الى السودان ١٩٦٩ وعلمت ان هذه العادة السيئة لا تزال تمارس في الريف والحضر.

ورغم انني كنت طبيبة وانظر الى نفسي كامرأة متعلمة الا انني لم اعرف في ذلك الوقت لماذا يفعلون تلك الافعال البشعة بالبنات! كثيرا ما سألت نفسي السؤال.. لماذا؟ لكني لم اعرف الجواب، وكثيرا ما لاح لي السؤال وانا طفلة صغيرة، لماذا؟ لماذا فعلوا ذلك بي وباخواتي البنات؟.

لماذا يميزون اخي علي في الطعام والملابس وهدايا العيد والحرية في الخروج من البيت؟ لماذا يضحك اخي بصوت عال، ويحرك ساقيه بحرية، ويجري ويلعب كما يشاء، اما انا فبنت، والبنت يجب ألا تحملق في عيون الناس بل تخفض عينيها حين تنظر الى احد، واذا ضحكت تضحك بصوت لا يسمعه احد او تبتسم فقط، واذا لعبت فيجب الا تحرك ساقيها بحرية وانما تمشي بادب، والبنت عليها ان تنظف البيت وتساعد في الطبخ وتذاكر ايضا اذا كانت في المدرسة اما الولد فليس عليه الا ان يذاكر فقط.

ولان اسرتي كانت متعلمة وترسل بناتها الى المدارس للتعلم فلم تكن التفرقة بين البنات والاولاد شديدة كما كانت في الاسر الأخرى، وكم كنت اشفق على البنات من اقاربي حين كنت ارى الواحدة منهن تترك المدرسة ليزوجوها الى رجل عجوز لديه قطعة ارض، او ارى الواحدة منهن وهي تضرب او تهان من اخيها الاصغر لمجرد انها لم تسمع اوامره.

وكان اخي يحاول فرض سيطرته علي لكن ابي كان رجلا واسع الافق وكان يحاول ان يساوي بين البنات والأبناء. وكانت امي تقول لنا احيانا ان البنت مساوية للولد لكني

كنت احس ان هذه المساواة ليست كاملة في احيان كثيرة.

وكنت اثور دائما حين اشعر بهذه التفرقة الواضحة، واسأل امي وابي لماذا يحظى اخي بامتيازات لا تعطى لي مع انني اتفوق في المدرسة؟ ولم تكن امي او ابي يجدان جوابا عن سؤالي سوى: كده،[1] وارد واقول: كده ليه؟ ويجيئني الرد: هو كده، (هو الامر كذلك).

وابالغ في العناد فاسأل مرة اخرى: هو كده ليه؟ (لماذا هو الامر كذلك) وحينما تضيق امي او ابي بسؤالي الملح يقولان: هو ذكر وانت بنت.

وكأنما كانا يتصوران ان هذه الاجابة كافية لاسكاتي او اقناعي، لكنها كانت على العكس من ذلك تزيد تساؤلي حدة فأقول: وما الفرق بين البنت والصبي؟،(لماذا الامر كذلك).

وهنا قد تتدخل جدتي العجوز اذا كانت قد جاءت في زيارة لنا وشهدت ذلك الحوار الذي كانت تسميه دائما خروجا على الادب، وتنهرني بحدة قائلة: لم ار في حياتي بنتا لها مثل لسانك الطويل، طبعا انت لست مثل اخيك، اخوك ذكر، ليتك ولدت ولد مثله.

ولم يستطع احد في البيت ان يرد على سؤالي ردا مقنعا وظل السؤال حائرا في رأسي، يتردد من حين الى حين كلما وقع شيء جديد يؤكد لي ان الذكر يعامل في كل مكان اذهب اليه على انه الجنس الاعلى من الجنس المؤنث.

وحينما ذهبت الى المدرسة لاحظت انهم يكتبون اسم ابي فوق كراساتي وكتبي ولا يكتبون اسم امي، وسألت امي عن السبب فقالت لي: كده، اما ابي فقال لي ان الاطفال ينسبون الى الاب فقط، وحينما سألته لماذا قال: كده.

واستطعت ان اسأله مرة اخرى: لماذا كده؟.

وادركت من وجه ابي انه لا يعرف الاجابة، ولم اسأل ابي مرة اخرى حتى حدث بيني وبينه جدال من نوع اخر بعد ان دخلت رأسي معلومات جديدة.

الآلهة الانثى والمعرفة

«من حق الناس ان يطلبوا من الالهة الخير والطعام والامن والستر، اما الفلاسفة والعلماء والفنانون فيطلبون من الالهة المعرفة، واول هذه المعرفة هي معرفة حقيقة الالهة

(١) الكلمة العامية المصرية لكلمة كذلك وتعني ان الامر كذلك، امر واقع لا يتغير.

انفسهم، والفرق بين انسان وانسان هو المعرفة، بل الفرق بين اله واله هو المعرفة ايضا».

اظن انني قرأت هذه العبارة وانا طفلة صغيرة في احد الكتب القديمة، ولعلها من كلمات الفيلسوف اليوناني بلوتارخوس(Plutarchos) في كتاب عن الالهة المصرية القديمة «اوزوريس»، ورغم مرور السنين الطويلة فما زلت اذكر هذه العبارة، واذكر ايضا ان «هوميروس» قال ان الاله زيوس كان افضل من الالهة اوزيس لانه كان اعظم منها في المعرفة، اما الالهة المرأة ازيس فقد كانت اكثر الالهة معرفة بل ان اسمها «ازيس» يعني لغويا المعرفة والحكمة، ويدل «هيكل ازيس» على ادراك الحقيقة فهو يسمى «ايزيون» ليدل عل اننا سوف ندرك الحقيقة اذا دخلنا «زونة»[1] الالهة او بيت الالهة ازيس.

وقد اكد لنا كل من كتب عن الالهة «ازيس» ان عابدها الحقيقي لم يكن هو الكاهن الذي يرتدي الاثواب المقدسة وتتدلى لحيته فوق ذقنه، ولكنه هو الذي يبحث عن الحقيقة والمعرفة بلا كلل او ملل.

ومن يقرأ قصة ازيس واوزوريس يرى ان ازيس كانت تقوم دائما بالفعل والعمل والخلق، بل انها كانت تعيد خلق وبناء ما قد يهدمه الرجال من امثال«توفون».ان «توفون» كان يرمز الى كل ما هو غير نافع وغير عاقل وغير مرتب.

وكل ما هو مرتب ونافع من عمل ازيس، هذا العمل الذي كان يأخذ شكل «اوزوريس». فاوزوريس لم يكن الا الصورة او الشكل الذي يتجسد به عمل ازيس.

وقد انتصرت ازيس بعقلها ومعرفتها على الداهية توفون الذي مزق جسد اوزوريس إرباً إربا، واكل سمك النيل عضوه الذكري، لكن ازيس استطاعت ان تجمع اعضاء اوزوريس وتعيد خلقه ، بل وتعيد خلق عضوه الذكري وتضع له عضواً ذكرياً آخر مكان العضو المفقود .

وتدل اسطورة «ازيس» بوضوح على ان المرأة القديمة كانت هي الخالقة والفاعلة اما الرجل فقد كان المفعول به او الذي ينتج عن فعل المرأة وحركتها السريعة. ان كلمة «ازيس» لغويا تعني العقل والمعرفة والحركة السريعة، اما اوزوريس فلا يعني إلا «التقى» أو الشيء المقدس. فقد خلقت ازيس، أزوريس، وهو لم يكن الا احد نتائجها، لانها

(١) الزونة هو معبد الاوثان الذي يزين. الافصاح في فقه اللغة ص ٦٩٧.

انتجت ايضا «هورس» ابنها الذي اوجدته او ولدته، بل ان «ازيس» هي التي منحت الحركة والمعرفة «لزيوس» الاله الاكبر الذي قال الرجال عنه انه هو الذي ولد «ازيس» و «اثينا» من رأسه.

ويقول يودكسوس ان قدماء المصريين صوروا «زيوس» على انه كان عاجزا عن السير والحركة، لان ساقيه كانتا ملتصقتين، وقد ظل في عزلة شديدة بسبب عجزه عن الحركة وبسبب خزيه ايضا من شكل ساقيه الملتصقتين، لكن «ازيس» هي التي شقت ساقيه، وبفضل ازيس اصبح في امكانه السير والحركة[1].

والمعنى الواضح في هذه الاسطورة ان ازيس هي التي منحت الحياة والحركة والمعرفة لزيوس واوزوريس وهورس.

لكن الرجال الذين فسروا هذه الاسطورة لم يدركوا هذه الحقيقة، او انهم ادركوها ثم حوروها وغيروها بحيث يصبح الاله الرجل هو الاصل وهو الخالق، وتصبح المرأة احد مخلوقاته، فهو يلدها من رأسه كما روي عن زيوس، او هو يلدها من ضلعه كما روي عن آدم.

ولا تختلف اسطورة ادم وحواء كثيرا عن اسطورة ازيس وزيوس، اللهم الا ان اسطورة ادم وحواء جاءت في الكتب السماوية المقدسة فاكتسبت بذلك قدسية تبعد الكثيرين عن مناقشتها مناقشة عقلية موضوعية.

وقد سلبت حواء قدرتها على المعرفة والحركة والخلق رغم ان من يعيد قراءة الاسطورة في اصلها الاول في التوراة يرى بوضوح كيف كانت حواء هي صاحبة المعرفة والعقل والذكاء وان ادم لم يكن الا احد وسائلها لتحقيق هذه المعرفة وتجسيد هذا الخلق.

وتقول الاسطورة كما جاءت في التوراة ان ادم اطاع حواء واكل من شجرة المعرفة التي اكلت منها حواء، فاكتسب المعرفة التي سبق ان اكتسبتها حواء، لكن الرب خشي ان تزيد معرفة حواء وادم فتمتد يدهما بعد شجرة المعرفة الى شجرة الحياة فيعيشان الى الابد مثل الالهة، وخشي الرب ان تنافسه حواء وادم في الالوهية فطردهما من الجنة الى الارض حيث يعيشان ثم يموتان كالبشر وليس كالالهة.

---

(١) ازيس وازوريس، ترجمها عن اليونانية حسن صبحي البكري، الالف كتاب ٢٣٥، دار القلم، القاهرة، ص ٩٣.

«وقال الرب الاله هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر، والان لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل ويحيا الى الابد، فطرد الانسان واقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف تنقلب لحراسة طريق شجرة الحياة».[1]

رغم وضوح دور المرأة القديمة او الالهة القديمة من حيث المعرفة والعقل والخلق فـإن هذه الاساطير فسرت تفسيرا عكسيا، واصبح الرجل هو الاله، وهو الخالق وهو الذي ولد المرأة وليست هي التي ولدته.

واستولى الرجل الذكر على العرش والقوة والاصالة والصق بالمرأة تهمة الضعف والسلبية والتبعية.

في حين ان المرأة لم تكن تابعة للرجل، بل ان ادم هو الذي كان تابعا لحواء، وكانت ازيس اكثر قوة من اكثر الرجال قوة وطغيانا وهو«توفون»، فقد انتصر «توفون» الداهية السياسي الشرير على اخيه اوزوريس الطيب الخير المسالم. لكن «ازيس» هي التي انتصرت على «توفون» وحاربته بنفس سلاحه وذلك بان اشترت الشيطان واغرته بمالها.

كانت المرأة اعرق من الرجل معرفة وقدرة، كانت المرأة اقوى بعقلها وذكائها من الشيطان وكانت تنتصر دائما بمعرفتها وحكمتها على الشياطين والالهة معا، فقد انتصرت حواء على الاله وجعلت ادم يطيعها هي ولا يطيع الاله.

اما الرجل فقد كان دائما يسير وراء المرأة، مسترشدا بعقلها وذكائها وحكمتها، وقد يكون نصيبه الحركة والحياة والمعرفة كما حدث لزيوس واوزوريس وآدم، وقد يكون نصيبه الهلاك كما حدث لتوفون وغيره من الشياطين.

لكن الرجل لم يكن ابدا موضوعيا في تفسيره لهذه الاساطير القديمة التي تدلنا على المكانة العالية التي كانت تحتلها المرأة في عهود ما قبل التاريخ وما قبل الاديان السماوية.

وهناك من يقولون ان الرجل استطاع في فترة ما قبل التاريخ ان يحارب المرأة ويقهرها بقوة السلاح، ويسلب منها منصبها الالهي، ويسلب ايضا عقلها وقدرتها على الخلق وينسبها لنفسه.

وفي اسطورة ازيس يروى ان ابنها «هورس» بتر رأسها واطاح بالتاج الملكي او

---

(١) التوراة، التكوين، الاصحاح الثالث، الآية ٢٢ ـ ٢٤.

الالوهي من فوق رأسها، لانها اطلقت سراح «توفون» وعفت عنه حينما جاء اليها مقيدا بالسلاسل والاغلال.

وقد بترت التوراة ايضا رأس المرأة، وجعلتها جسدا بغير رأس، وزوجها هو رأسها، وتبع ذلك تلك الاقوال التي تشيد بان المرأة بغير عقل او ناقصة العقل في حين انها كانت في الاصل هي صاحبة العقل والمعرفة، والرجل لم يكن الا تابعا ومطيعا لما تقوله.

ولكن كم تغير التاريخ، وكم استطاع الرجل ان يفسر تلك الاساطير بحيث تتفق مع مصالحه الابوية الطبقية بنشوء الاسرة الابوية ومجتمع العبيد.

ولم يستطع احد ان يرد على سؤالي: لماذا اختفت الالهة الانثى من تاريخ الانسان. ولم يعد الا الاله الذكر في الاديان السماوية الحديثة؟.

وقد ظللت لسنين طويلة في طفولتي وصباي افكر في حقيقة الله، وكنت اسمع من بعض مَن حولي ان التفكير في حقيقة الله امر مكروه، او على الاقل غير مستحب، ولا يشجعه احد لكني كنت لا ازال اذكر عبارة «بلوتارخوس» (Plutarchos) ان من حق الانسان ان يطلب المعرفة، واول هذه المعرفة هي معرفة حقيقة الآلهة. وكنت اقرأ دائما ان ما من شيء يمتلكه الانسان اقدس من المقدرة على التفكير. وحينما كانوا يتهمونني بانني انتهك المقدسات حين افكر في حقيقة الله اقول لهم انه ما من شيء يمتلكه الانسان اقدس من المقدرة على التفكير والمعرفة، واول هذه المعرفة هي معرفة حقيقة الآلهة.

وقد قرأت في الاساطير المصرية واليونانية القديمة ان القدماء قالوا ان التمساح[1] صورة الله، لانه الحيوان الوحيد الذي لا لسان له، ولان العقل الالهي (او الكلمة الالهية) لا تحتاج الى صوت، وقالوا ايضا ان زيوس كان «اطرش» اي بغير اذنين، اذ لا يليق بسلطان الاشياء وربها جميعا ان ينصت لاحد.

وقالوا ايضا ان ساقيه كانتا ملتصقتين وكان عاجزا عن السير ويزحف كالتمساح وان «ازيس» هي التي شقت ساقيه.

ومن هذه القراءات كنت اجد ان كثيرا من الرجال يعطون انفسهم الحق في التفكير

(١) Plotaschos، بلوتارخوس، ازيس وازوريس، ترجمها عن اليونانية حسن صبحي البكري، الالف كتاب ٢٣٥، دار القلم، القاهرة، ص ١٠٨.

في حقيقة الله، فلماذا لا اعطي نفسي هذا الحق؟ الست انساناً ؟ أليس اقدس ما يمتلكه الانسان هو القدرة على التفكير؟

المرأة قبل ان يلدها ادم

ما زلت اذكر ذلك الحوار القديم الذي حدث بيني وبين ابي عن حقيقة الله، ولماذا عاقبني مدرس الدين لما اعترضت عليه حين قال لي ان الله ذكر وليس انثى، وما زلت اذكر محاولاتي اليائسة لاعرف لماذا نسب الاثم والشر الى حواء مع انها هي التي كانت صاحبة المعرفة وهي التي قادت ادم الى شجرة المعرفة، ولولا معرفة حواء ما جئنا نحن وما جاءت البشرية كلها.

ولا شك ان قصة ادم وحواء بكل ما فيها من رموز قابلة للتفسيرات المختلفة تصور مرحلة من مراحل التطور الانساني في اكتساب المعرفة التي حصل عليها الانسان بالتدريج، وارتباط هذه المعرفة بالجنس والمرأة. وقد كان الاجدر بالمفكرين والفلاسفة الرجال لو كانوا متحررين من النظرة الابوية الذكرية المتسلطة، ان يدركوا ان اكتساب ادم لمعرفة الخير والشر باكله من الشجرة لم يكن «سقوطا» وانما كان ارتفاعا بالعقل وبالمعرفة عن مصاف الحيوانات، وان حواء لم تكن سنبب «السقوط» وانما كانت سبب «الارتفاع» وان «الجنس» لم يكن سبب «الموت» ولكنه كان سبب «الحياة» واستمرار البشرية، ومن هنا يمكن ان تتغير النظرة الى كل من المرأة والجنس، فترتفع مكانة المرأة ويتخلص الجنس من فكرة التأثيم والخطيئة والذنب الذي الصق به.

الا ان الرجال انكروا التاريخ، وطمسوا كثيرا من الحقائق عن المرأة، وفرضوا على النساء وضعا ادنى، وجعلوا هذا الفرض مقدسا، ودينا لا يناقشه احد، وقانونا يعاقب بالقتل او بالحبس كل من حاول التفكير فيه بموضوعية.

وبرغم ان العلم موضوعي وحيادي اذا قورن بالدين، الا ان كثيرا من الرجال حتى اليوم ينكرون العلم، ويفصلون بين العلم والدين. وتجد الرجل منهم يؤمن بنظرية التطور الداروينية التي تقول بان الانسان ولد من احدى اناث القرود، وتجده في الوقت نفسه يؤمن بان ادم هو الذي ولد حواء من ضلعه.

وما زال كثير من الناس وبالذات في مجتمعاتنا العربية يتصورون ان حواء هي اول امرأة ظهرت فوق سطح الارض، وينسى هؤلاء ان المرأة ظهرت فوق الارض قبل ظهور

الاديان السماوية الثلاثة بنحو مليون سنة، وان حواء لم تظهر اول ما ظهرت الا منذ اربعة الاف سنة تقريبا وقد ظهرت بظهور التوراة فحسب.

ولكن كم ينسى هؤلاء التاريخ، او على الاقل لا يحاولون قراءته والبحث عن ماضيهم وحقيقتهم الاصلية.

ان تاريخ الانسان الاول الذي تطور عبر ملايين السنين من فصيلة معينة من القرود يحتوي على حقائق هامة تكشف عن ان الانسان الذكر والانثى كليهما صارع الطبيعة والبيئة المتقلبة ليعيش ويستمر، وان الانثى صارعت بمثل ما صارع الذكر من اجل البقاء، وان كليهما صارعا معا جنبا الى جنب ضد كوارث الطبيعة وضد وحشية اسود الغابة ونمورها، ولم يكن لديهما من سلاح امام كل تلك القوى الاقوى منهما الا ان يتطور عقلهما وذكاؤهما بحيث ينتصران بالعقل والذكاء على اقوى وحوش الغابة جسدا وعلى اعظم كوارث الطبيعة فتكا.

بعد ان تخلص الرجل والمرأة البدائيان من الخطر المحدق بوجودهما فوق الارض، وبعد ان تطور عقلهما اكثر واكثر لسد حاجتهما المتزايدة الى الطعام والنسل والامن، استقرت بهما الامور اكثر فاكثر، واستمر تعاونهما معا من اجل الحفاظ على حياتهما واستمرار النوع اي البشرية.

وكان تعاونهما متساويا بل ان المرأة حظيت بمكانة اكبر لان مساهمتها في استمرار البشرية كان اكبر لانها هي التي كانت تلد الاطفال، ولم يكن الرجل البدائي يفهم بعد اسرار الحمل والولادة. وتصور ان قدرة المرأة على الولادة انما هي قدرة على خلق الحياة، واصبحت المرأة في نظره هي خالقة الحياة فعبدها على انها الهة الحياة ومجد جسمها واعضاءها الجنسية.

لقد ظهر الانسان فوق سطح الارض قبل ظهور الاديان السماوية بملايين السنين، هذه الاديان التي لم تظهر الا منذ اربعة الاف سنة على الاكثر، والتي لا يمثل عمرها بالنسبة لعمر الانسان شيئا يذكر، وقد عثر على جماجم بشرية عمرها اكثر من ٢٠ مليون سنة وهناك من العلماء من يقول انه هناك ما يثبت ان عمر البشرية قد يصل الى ١٢٠ مليون سنة.

وتقول المصادر التاريخية ان اقدم التماثيل صورت المرأة البدائية اكثر مما صورت الرجل، وهناك رسوم عثر عليها في كهف «لاسيل» في فرنسا تصور المرأة راقدة في كبرياء

وعظمة كالالهة والرجل راكع رافع يديه نحوها، وفي بعض الكهوف باسبانيا Cogul عثر على نقوش لنساء كاملات اما الذكر فقد رسم على شكل عضو التناسل، وعثر على مثل هذه النقوش في بقاع مختلفة من العالم في الصين وفي الهند.

وكلنا يعرف عن حضارتنا المصرية القديمة منذ اكثر من خمسة الاف سنة وقبل ظهور الاديان السماوية هذه الحضارة التي عرفت من اثار قدماء المصريين الموجودة حتى اليوم ومن كتاباتهم على ورق البردي ومن تماثيلهم ونقوشهم الباقية حتى اليوم.

وكان اخناتون المصري (١٣٧٢ ق. م) هو اول من بدأ شريعة توحيدية، واتخذ معبودا واحدا هو الاله «رع حاراختي» الذي تألق في الافق بمظهره «شو» النور، ويكمن في قرص الشمس[١]. وقد تأثر موسى نبي اليهود بافكار اخناتون ونقل عنه الكثير مما هو ثابت من تشابه في كتابات اخناتون وبعض الايات التي وردت في التوراة (العهد القديم). وقد نقلت المسيحية عن اليهودية، كما نقل الاسلام عنهما معا بحكم تطور المجتمع.

والالهة عند قدماء المصريين لم تكن ذكورا فقط ولكنها كانت الهة من الاناث ومن الذكور، وعرفت مصر في تلك الفترات عهودا حظيت فيها المرأة المصرية بمكانة عالية في الدنيا والدين على حد سواء.

وليس المجال هنا للافاضة في تاريخ المرأة القديمة او آلهة الانثى، إذ ان التركيز مطلوب على المرأة في حياتها الحاضرة في ظل الدين الاسلامي وفي المجتمع العربي الا انه لا يمكن ان نتعرض للحاضر دون ان نلقي بعض الضوء على الماضي.

ولا يمكن ان نعرف الاسباب الحقيقية لتدني مكانة المرأة في الاديان السماوية دون ان نعرف وضعها في المجتمع قبل هذه الاديان.

ومن الخطأ ان نتعرض للمرأة في الدين الاسلامي بمعزل عن الاديان الاخرى السماوية وهي اليهودية والمسيحية، إذ ان الاسلام اخذ عنهما وتأثر بهما الى حد كبير. كما اننا لا يمكن ان نتعرض للمرأة في الاديان السماوية بمعزل عن الاديان غير السماوية السابقة لها، حيث ان المجتمع البشري كائن متصل الحلقات والمراحل، وكل مرحلة تؤثر في المرحلة التي بعدها، ولا يمكن لنا ان نعرف مثلا الاسباب التي جعلت القيم الدينية

---

(١) مصر الفرعونية، جان يوبوت، ترجمة سعد زهران، الالف كتاب (وزارة التعليم العالي بالقاهرة) ١٩٦٦، ص ١٢٩.

والاخلاقية المفروضة على المرأة تختلف عن القيم الدينية والاخلاقية المفروضة على الرجل في مرحلة تاريخية معينة، الا اذا عرفنا الظروف الاجتماعية والاقتصادية في هذه المرحلة وفي المراحل السابقة لها، ولماذا تعامل الدين مع المرأة على نحو مختلف عن الرجل.

وكلمة «الدين» تعني الجزاء والطاعة والقهر والغلبة، والديان القهار والقاضي والحاكم والجازي الذي لا يضيع عملا بل يجزي بالخير وبالشر، ويشتق من الاصل الثلاثي نفسه كلمة الدين اي القرض، وكلمة Religion في اللغات الاوروبية مأخوذة من اللاتينية Religio وهذه من Ligare وتعني الربط والقيد، وقد اشتقت منها ايضا كلمة Obligatio اي الالتزام والدين، وخلاصة القول ان اصطلاح الدين religion سواء في اللغة العربية ام في الاوروبية يعني من الناحية اللغوية القيد والقهر واحساس المرء بوجود قوة غالبة مسيطرة عليه[1].

وقد نشأت فكرة الدين عند الانسان قبل ان تعرف الاديان السماوية، خلق الانسان البدائي فكرة وجود آلهة، او قوى غامضة فوق طاقة البشر تؤثر في حياة الانسان، وتيسّر له الخير اوالمطر او الزرع، او تسبب له العواصف والمرض والموت. وتدل المصادر التاريخية ان الآلهة القديمة كانت انثى، وفي تاريخ مصر الفرعونية القديمة ما يدل على وجود الهة من الاناث ومن الذكور. ومن الآلهات المصريات القديمة «ماعت» كانت ربة الحقيقة، «ونايت»«الهة الحرب والهة الفيضان»، «وايزيس» و «سخمت» و «حتحور» وغيرهن.

وكان ارتفاع مكانة المرأة الى حد حصولها على منصب الالوهية مرتبطا بارتفاع مكانتها في المجتمع قبل نشوء الاسرة الابوية والملكية الخاصة ونشوء الطبقات.

قبل بدء انتساب الطفل الى الاب كان الاطفال ينسبون الى امهم لانها هي التي تلدهم، وعرف ذلك المجتمع بالمجتمع الأمومي[2].

وعرفت الحضارة المصرية القديمة انتساب الابن الشرعي لامه، وكان نظام التوريث في بعض العهود يأتي عن طريق الاناث[3] فلم يكن الابن الذي يرث وانما كبرى البنات. وقد ورد عند المؤرخ الاغريقي «هيرودوت» ان شعب الليفيين كانوا ينسبون الولد لامه،

---

(١) ثروت الاسيوطي، نظام الاسرة بين الاقتصاد والدين، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٨.

(٢) انظر في شرح النظام الاموي اعمال بكوفين (١٨٦١)، موري ودافي (١٩٢٣)، ادوارد ويسترمارك (١٩٢٥) وفرديك انجلز، ومورجان وبريفولت.

(٣) انظر وليم نظير، المرأة في تاريخ مصر القديم، دار القلم، ١٩٦٥، ص ٣٤.

وجاء عن المؤرخ الروماني «تاسيت» ان قبائل الجرمان كانوا يعطون الاهمية للاخت، وكانت بعض القبائل عند عرب الجاهلية قبل الاسلام ينسبون الطفل لامه[1] وهناك بعض القبائل حتى اليوم في اسيا وافريقيا ممن ينسبون الاطفال الى امهاتهم.

ومن المعروف في تاريخ البشرية ان مكانة المرأة العالية في المجتمع والدين كانت مرتبطة بنسب اطفالها اليها. وقد حظيت المرأة في المجتمعات الاموية بمكانة اجتماعية عالية، وكذلك حظيت بمنصب الالوهية ايضا ولم يحتكر هذا المنصب الآلهة الذكور كما حدث بعد نشوء النظام الابوي وانتساب الاطفال الى الاب بدلا من الام.

وفي المجتمع الامومي كانت النساء من الآلهات، وكان الملوك الرجال يقدمون قربانا للآلهة، وقد اثبت «فريزر» ان الملك (من نيجيريا) كان مجرد مخصب للملكة، اذ لا بد للملكة من الحمل حتى تعطي الارض ثمارها.وبعد ان ينهي الرجال (الذين اعتبروا ممثلين للاله القمر على وجه الارض) مهمتهم التناسلية تقوم النساء بقتلهم. وكان «الحيثيون» ينثرون دم الملك المقتول فوق ارض الحقول، اما جسده فتأكله الجنيات اللاتي هن وصيفات الملكة بعد ان يرتدين اقنعة من رؤوس الكلاب او الخنازير. ومع التحول من المجتمع الامومي الى المجتمع الابوي سلب الملك سلطة الملكة، واصبح يرتدي ملابس نسائية ويضع اثداء صناعية ليأخذ دور الملكة. واصبح هناك نائب للملك يقتل بدلا منه، ثم استبدلت الحيوانات بنائب الملك[1].

وتعد النظم القانونية المتعلقة بالمنسب او الاسرة مرآة تعكس الاوضاع الاقتصادية في اي مجتمع، وقد اعتمدت الحياة الاقتصادية في العهود الاولى للبشرية على قطف الثمار وقطع البذور وعلى التقاط السحالي والجرذان وصيد بعض الحيوانات. وكانت هذه الحياة الاقتصادية تضطر الرجال والنساء الى الترحال المستمر بحثا عن القوت والصيد. ولم يكن في وسع احد ان يملك شيئا او يحفظ شيئا مع هذا التنقل المستمر، وبغياب الملكية الخاصة لم يتقسم المجتمع الى حكام ومحكومين بل كان الجميع رجالا ونساء سواسية اعضاء الجماعة، كذلك لم يعرف شيئا عن مبدأ تقسيم العمل بين الرجال او النساء او بين فرد

---

(١) جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، ج ٥، القسم الديني مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥، ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٢) انظر: ارنست فيشر، الاشتراكية والفن، دار القلم بيروت ـ لبنان. (ترجمة اسعد حليم) ١٩٧٣، ص ٦١.

وفرد، فهو مجتمع بلا طبقات وبلا سادة وعبيد[1].

وبدراسة حياة جماعات البوشمن اتضح ان المرأة كانت تشترك مع الرجل في التقاط الطعام. وكانت حرة في علاقتها الزوجية به، والمرأة التي ترغب في علاقة جديدة تستطيع ان تهجر رجلها الاول وتتزوج بالرجل الثاني. وفي الجماعات الاسترالية ايضا تساوت المرأة والرجل من الناحية الاقتصادية فكلاهما يعمل من اجل الرزق، لذلك تتبع بعض القبائل النظام الأمومي فينسب الولد الى امه ويلتحق ببطن الام[2].

وفي قبيلة Dieri ادى التساوي بين الرجل وا. ة اقتصاديا الى التساوي جنسيا واخلاقيا فقد كان من حق الرجل ان يتخذ لنفسه زوجة رئيسة وزوجات احتياطيات، وكان من حق المرأة ايضا ان تتخذ لنفسها زوجا رئيسا وعددا من الازواج الاحتياطيين (سميت هذه الحالة Pirrauru[3]).

ويرجح «ليتورنو» ان تكون المرأة هي مكتشفة الزراعة البدائية لخبرتها الطويلة في التقاط الثمار والجذور في فترات الالتقاط ومجتمع الصيد. وقد تولت المرأة الزراعة اول الامر ونشأ عن ذلك ارتفاع مكانتها الاقتصادية وما ارتبط بها من ارتفاع مكانتها الاجتماعية، ونسب اطفالها اليها، ولهذا ساد النظام الأمومي في اول فترات نشوء الزراعة.

وفي هذا المجتمع الزراعي البدائي شعرت المرأة باهميتها العظيمة في الاقتصاد الاجتماعي واحتلت مكانتها بالتساوي مع الرجل في التنظيمات السياسية، وكانت لها الصدارة في نظام الزواج والاسرة. لبطون أمومية، وينحدر النسب عن طريق الام ويتبع فيما بينها نظام الزواج من الخارج Exogamy،ونظرا لصدارة المرأة من الناحية الاقتصادية فان الرجل ينتقل الى بيت زوجته ويعمل في حقلها فهو عنصر جديد ينضم الى القوى العاملة في البطن وكانت الحاجة الى الايدي العاملة تفسر ايضا ظهور التبني بين تلك القبائل فلكل بطن ان تتبنى من تشاء من اسرى الحرب، تدمجه فيها ليعمل في حقلها[4] وتظهر

---

(١) اقرأ عن جماعات البوشمن والجماعات الاسترالية، فريزر، شابيرا، سبنسر وجيلين، توماس دايموند، ليتورنو (الملكية نشأتها وتطورها لندن ١٨٩٢).

(٢) مثل قبيلة الديري Dieri انظر نورنكوت وتوماس، تنظيمات القرابة والزواج الجماعي في استراليا، كيمبردج ١٩٠٦ مطبعة الجامعة ص ٢٢.

(٣) راجع اعمال ليتورنو، وجروس، وروبرس لوي (المدخل الى الانثروبولوجيا الحضارية نيويورك ١٩٤٧).

(٤) راجع لويس مرجان، فريزر، وجروس وغيرهم.

الاهمية الاقتصادية للمرأة في قدرتها على الانفصال عن زوجها برغبتها المنفردة، ويخرج الرجل من بيت زوجته ويعود الى ذويه، على حين يبقى الاولاد مع امهم، وكانت المرأة تتساوى والرجل في قيادة التنظيمات السياسية وامامة الشعائر الدينية، ولم تكن الشعائر الدينية تفرق بين الرجل والمرأة في اي شيء[1].

الا انه بعد ان استقر الانسان بسبب الزراعة في الارض، بدأ يشعر بحقه في البقاء فيها هو واولاده من بعده، ونشأت مع الزمن فكرة الملكية الخاصة للارض وحلت محل الملكية الجماعية للبطن[2] وتولد عن الملكية الفردية ان نزع الرجل النسب من الام ليورث اولاده فقط، وانقسم المجتمع الى طبقات اجتماعية تبعا لمقدار الثروة التي يمتلكها الفرد.

وهناك نظريات متعددة عن الاسباب التي جعلت الرجل هو الذي يسيطر على المرأة وليس العكس، احدى هذه النظريات تعتمد على ان المرأة البدائية انشغلت بولادة الاطفال في تلك الفترات التي تطلبت زيادة كبيرة في النسل والتناسل لتعويض الوفيات العالية ولتوفير مزيد من الايدي العاملة في الزراعة الناشئة.

وبازدياد الملكية الفردية وصل التمييز الطبقي الى مجتمع السادة والعبيد[3]، وقد صاحب هذا انحدار في قيمة المرأة في المجتمع والاسرة، وسيطر الرجل عليها سيطرة اقتصادية واجتماعية ودينية، وفقدت المرأة مكانتها القديمة في الدين وفي امامة الشعائر الدينية، واحتكر الرجل الدين لنفسه فقط، واصبحت الالهة ذكورا فقط، وانخفضت مكانة المرأة في الاديان واصبح الاب رأس الاسرة Pater Familias وزعيمها الديني المشرف على الطقوس الدينية فيها، ورسخت مع الاسرة الابوية «عبادة الاسلاف» تدعيما لمركز الاب[4]، فارتفع الاب بعد وفاته الى مصاف الالهة بينما هبطت المرأة الى مستوى الماشية، يملك الرجل عليها حق الحياة والموت، وهي واطفاله في مستوى عبيده واملاكه وارضه.

---

(١) انظر ثروت الاسيوطي، نظام الاسرة بين الاقتصاد والدين، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٦٦، ص ١١٠.

(٢) لبتورنو، الملكية ص ٤٩، ٣٦٦، ٣٦٧، ثروت الاسيوطي، نظام الاسرة بين الاقتصاد والدين، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٦، ص ١١٢.

(٣) فردريك انجلز اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة.

(٤) جروسي، وعلي بدوي ابحاث في تاريخ الشرائع، مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣١، ص ٧٣١. ٧٤٦ ثروت الاسيوطي، نظام الاسرة في الدين والاقتصاد ص ١١٥.

جزر امومية في محيط ابوي

وبدراسة تاريخ بعض القبائل الافريقية يتضح ان الانتقال من النظام الأمومي الى الابوي قد حدث تدريجيا ومر بمراحل غير منتظمة مثلما حدث في تاريخ مصر القديم، ولا تزال قبيلة «الاشانتي» على ساحل العاج من اوضح الامثلة على مجتمعات سيادة الام في مرحلة الانتقال، اذ تنقسم القبيلة الى بطون توتمية تتبع نظام الزواج من الخارج وينحدر النسب عن طريق الام، وتتمتع المرأة بمكانة بارزة. والنفوذ الاكبر في القبيلة بيد امرأة هي «الملكة الوالدة». لكن هذا المجتمع يتحول تدريجيا من مجتمع سيادة المرأة الى مجتمع سيادة الرجل، ويرتبط ذلك بامتلاك الرجل الارض واكتسابه السلطة على اولاده وتغير في نظم الزواج والنسب بحيث تصبح السيادة للرجل[1].

وهناك قبائل في افريقيا تقف على الحدود الفاصلة بين النظامين الأمومي والابوي، منها قبيلة الياكو Yako في جنوب شرق نيجيريا، والثانية قبيلة النيارو Nyaro في جبال النوبة بمديرية الكردفان، في هاتين القبيلتين تعمل المرأة مع الرجل جنبا الى جنب في الحقل وتشارك في انتاج الطعام، لذلك ينسب الطفل الى بطن الام وبطن الاب معا[2].

غير ان الرجل بدأ ينتزع من المرأة سيادتها، واجبرها على السكن في بيته بعد الزواج، واستأثر بملكية الانتاج وهي الارض، وفرض انتقالها من بعده الى اولاده، كل ذلك بينما يرث اولاد الاخت المنقولات مثل الماشية كما هو الشأن في البطون الأمومية «ان هاتين القبيلتين تقفان مثل الصخرة العالية في نهر الزمان، تكسرت خلفها امواج سيادة المرأة، وبدأ منها تيار حكم الرجل[3]».

وفي جنوب الهند لا تزال هناك بعض المناطق التي تتبع النظام الأمومي، كما في ولاية «كيرالا» حيث ترتفع مكانة المرأة وتنسب الاطفال اليها. كما ان هناك قبائل يمكن ان تمثل مرحلة الانتقال من النظام الأمومي الى النظام الابوي، وفيها تتضح كيف يستولي

---

(١) ر. س. راتري، الاشانتي، اكسفورد ١٩٢٣، ارنست جروس، اشكال الاسرة واشكال الاقتصاد ١٨٩٦، جيمس جورج فريزر، التوتمية والزواج من الخارج لندن ١٩١٠، ر. س. راتري، قانون الاشانتي ودستورهم، لندن ١٩٥٦.

(٢) ثروت الاسيوطي، نظام الاسرة بين الاقتصاد والدين، القاهرة ١٩٦٦ ص ١١٦.

(٣) ثروت الاسيوطي، نظام الاسرة بين الاقتصاد والدين، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١١٦، ١١٧. راجع المراجع الاخرى في الهوامش عن هاتين القبيلتين (داريل فورد، الانحدار المزدوج لدى قبيلة باكو، س. ف نادل، الانحدار المزدوج في تلال النوبة).

الرجل على ملكية الانتاج وكيف يستولي على الدين ويحتكر لنفسه الآلهة والطقوس الدينية، وبعد ان كانت المرأة تشارك في اقامة امامة الشعائر الدينية اذا بها تحاط بالمخدرات والمحرمات، وتمنع لا من امامة الشعائر الدينية فقط وانما تمنع حتى من دخول المعابد.

وبدراسة الحياة في بعض هذه القبائل وجدت ان الاطفال ينسبون الى الام لان الام تتزوج باكثر من رجل، وان الاب مجهول في حالات كثيرة. وبالرغم من ان الام هي عائل الاسرة وهي التي تعمل وتنفق على الازواج والاطفال الا ان زعماء القبيلة قد وضعوا تقاليد وقوانين معينة قالوا عنها انها جاءت من الاله شيفا وتنص على ان الرجل هو الحاكم وهو الذي يصدر القرارات ويوزع الرزق على الناس. وباسم هذه القوانين استولى الرجال على الاجور التي تكسبها النساء ونصب الرجل نفسه حاكما على الاسرة، واصبحت النساء مجرد عاملات يعملن تحت سيطرة الرجال وبدأ بعض الرجال بهذه السلطة ينسبون الاطفال اليهم ويفرضون على المرأة زوجا واحدا حتى تصبح الابوة معروفة.

وتعتبر هذه القبائل مرحلة متوسطة (بين بعض بقايا المجتمع الأمومي في «كيرالا» جنوب الهند وبين المجتمع الابوي السائد في الولايات شمال الهند) وتمثل مرحلة الانتقال المجتمع القديم الذي سادت فيه المرأة الى المجتمع الحديث الذي ساد فيه الرجل.
وقد اتضح ان الرجل لم يستطع ان ينزع من المرأة سيادتها الا عن طريق الاقتصاد والسيطرة على الملكية والانتاج، وكذلك السيطرة على الدين عن طريق ادعاء قوانين الهية جاءت من الاهة، وباحتكار الآلهة ومعابدهم للذكور، وتحريم دخولها على النساء. وظهر ان الرجال لم يحتكروا الاقتصاد والالهة والمعابد الا حينما شعروا بقوة المرأة في الحياة الدنيا، فالمرأة كانت تملك القدرة على خلق الحياة والولادة وهم لا يملكون هذه القدرة. ويبدو ان المرأة البدائية كانت اقوى من الرجل في نواح اخرى غير الخلق والولادة. فقد لاحظت ان النساء الهنديات في هذه القبائل اشد واكثر صلابة من الرجال وان يد المرأة غليظة مشققة قوية كيد الفلاح المصري، اما يد الرجل فقد رأيتها ناعمة بضة.

المرأة المصرية القديمة

وفي التاريخ المصري القديم تبدو مرحلة الانتقال من المجتمع الأمومي الى المجتمع الابوي واضحة، لان الحضارة المصرية القديمة هي اولى الحضارات التي عرفت، وعرف عنها المؤرخون الكثير، وقد اكتشف علماء التاريخ ان المرأة المصرية القديمة، بعد ان كانت ترسم على الجدران بحجم زوجها تماما دليل التساوي في المكانة والقدر، اصبحت ترسم

بحجم اصغر من زوجها ومعنى ذلك انها اصبحت اقل قدرا من زوجها. وقد بدا ذلك الانخفاض في مكانة المرأة مع بدء ملكية الارض وعصر الاسرة السابعة حتى الاسرة العاشرة (٢٤٢٠ الى ٢١٤٠ ق. م) واستمر وضعها منخفضا في عصر الدولة الوسطى في الاسرة الحادية عشرة حتى الاسرة الثالثة عشرة وعصر الهيكسوس، بسبب تفشي العبودية والظلم والاقطاع، ولم تسترد شيئا من مكانتها الضائعة الا في عصر الدولة الحديثة (١٥٨٠ ق. م) بعد ثورة النساء والعبيد والشعب المصري القديم كله ضد المستعمرين والاقطاع[1]،واستردت المرأة المصرية القديمة كثيرا من مكانتها الاولى في تلك الفترة.وعرفنا الملكات الشهيرات من الاسرة الثامنة عشرة كالملكة نفرتيتي، والملكة حتشبسوت ذات الشخصية القوية التي حكمت مصر اثنتين وعشرين سنة (من ١٥٠٤ الى ١٤٨٣ ق. م) وقد ظهرت تماثيلها على شكل ابي الهول لها رأس انسان وجسد اسد رمزا لقوة العقل والجسد معا، وكان عصر حتشبسوت يتميز بالازدهار والتعمير، واثبتت كفاءتها كحاكمة وملكة لكنها بعد ان ماتت خلفها تحتمس الثالث وامر بتدمير تماثيلها وتشويه رسومها ونقوشها.

اما مكانة المرأة المصرية القديمة فقد تجلت في الدولة القديمة قبل الملكية والاقطاع، وكانت المرأة الفرعونية تعمل في المصانع بالغزل والنسيج وصنع السجاجيد وتعمل بالتجارة في الاسواق وتشارك زوجها اعمال الصيد، وكانت الزوجة ترسم على المقبرة حتى الاسرتين الثالثة والرابعة (٢٧٨٠ ق. م) بحجم زوجها كدليل على المساواة في الشرف والمكانة والحقوق والواجبات. وفي تمثال «باهجم» (في معبد الكرنك) تتقدم الزوجة زوجها، وهناك نصب تذكاري خاص بالسيدة «بيسيشت» في عصر الدولة القديمة يبين انها كانت مديرة للاطباء،وقد حوكم احد الازواج لانه سب زوجته بالجلد مائة جلدة، وبحرمانه من نصيبه من المال الذي كسبه بالاشتراك معها اذا عاد الى سبها[2].

وكان للمرأة المصرية القديمة حظ كبير من الثقافة. ويحكى عن موظف اسمه (خنوم ردى) كان امينا لمكتبة سيدة عظيمة تدعى (نفروكابيث) ويقول ان هذه السيدة قد عينتني في دندرة مشرفا على خزائن الكتب الخاصة بامها، وكانت تحب العلوم والفنون[3].

ومارست المرأة المصرية القديمة الرياضة والسباحة والاعمال البهلوانية كالرجال سواء

---

(١) وليم نظير، المرأة في تاريخ مصر القديم، دار القلم، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٨.
(٢) المصدر السابق ص ٢٠.
(٣) المصدر السابق ص ٦٨.

بسواء، وكانت النساء كالرجال يشربن الخمور في الحفلات بل ويسرفن في الشراب ويقرعن كؤوسهن مع الرجال،وتقول احداهن: ناولني ثمانية عشر قدحا من النبيذ اني اريد ان اشرب حتى انتشي، ان داخلي مثل القش .

ويعتقد بعض علماء الاثار مثل (ارمان) و (موريه) و (برستد) ان الطفل كان ينسب الى امه، ومارست المرأة كل الاعمال، كانت حامية وحاكمة وملكة وكاهنة وإلهة.

ولم تعرف المرأة المصرية القديمة الحجاب ولم يكن هناك فصل بين الجنسين، وكان الزوج والزوجة متساويين في كل شيء في الدولة القديمة حتى الاسرتين الثالثة والرابعة. وعندما سيطر النظام الاقطاعي[1] على الحكم في عهد الاسرة الخامسة فرض الرجل نظامه الابوي ليورث ابناءه، وبدأ مع النظام الابوي تعدد الزوجات ثم نظام التسري (المحظيات) وظهر الأطفال غير الشرعيين وانخفضت مكانة المرأة .

وقد حدثت اول ثورة اشتراكية في التاريخ البشري ضد الاقطاع سنة (٢٤٢٠ ق.م في عهد الأسرة السابعة، وهي الثورة التي عرفت باسم ثورة «منف» ضد الاقطاع والملوك. وقد حرق المصريون والمصريات القصر الملكي نفسه، ونادوا بتكافؤ الفرص، ونادوا باحتقار الملكية، لكن بعض المؤرخين صوروا الازمة على انها مجرد تغيير الايدي القابضة على الثروات، وكتب بعضهم يقول: ان اولئك الذين لم يكن في مقدورهم ان يأمروا بصنع صندل لاقدامهم قد استولوا على الكنوز[2] .

وقد عاد الاقطاع مرة اخرى، وثار الشعب المصري مرة ثانية سنة (٢١٦٠ ق. م) ضد الاقطاعيين من الفراعنة. وجاءت الاسرة العاشرة ونظام «الرودو». وقضي على نظام التسري، واختفت ظاهرة الاطفال غير الشرعيين لانتساب الاطفال الى امهاتهم ثم عاد الاقطاع في عهد الاقطاع الثاني عام (١٠٩٤ ق. م) حين استولى «حرحورز» الكاهن الاعظم على السلطنة، وعاد نظام التسري، وأصبح للرجل وحده حق الطلاق وحق الكهنوتية .

وفي عهد الملك بوكخوريس من الاسرة ٢٤ بعد القضاء على الاقطاع عام ٦٦٣ ق. م تحرر الابناء من سلطنة الاب واستردت المرأة حقوقها وتحرر الزواج من سلطنة

---

(١) عادل أحمد سركيس، دار الكتاب العرفي، القاهرة ١٩٦٧، ومصر الفرعونية تأليف جان يويوت، ترجمة سعد زهران، الالف كتاب (باشراف الادارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي) ١٩٦٦ .

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦.

الكهنة فلم يعد الزواج ذا قدسية دينية، وقد اتضح انه مع النظام الابوي يصبح للاب سلطة دينية وكهنوتية، ويفرض على الزواج قوانين دينية، ومع النظام الابوي ايضا وجد انه لا بد من وجود نظام التسري (المحظيات) وتعدد الزوجات مع فرض القيود على المرأة دينيا واجتماعيا وجنسيا.

مولد الازدواجية الاخلاقية

كان المالك البدائي يحتاج للعبيد والاجراء كي يشتغلوا في ارضه التي يملكها والتي اصبحت تزداد بازدياد الملكية والجشع والاقطاع. وتطلبت الحياة الاقتصادية الجديدة التي بنيت عليها قيم اجتماعية ودينية تستهدف الحفاظ عليها نسلا كثير العدد لزراعة الارض واقامة الصلوات على ارواح الموتى من الذكور. واقتضى ذلك تعدد الزوجات الذي يؤدي ايضا الى زيادة ثروة الرجل حيث تقوم المرأة بالاعمال اليدوية كافة في الحقل وفي البيت بلا اجر، فهي اجير بلا اجر، يعمل مهضوم الحق ويرحب بوجود اجراء آخرين يشاركونه العمل ويخففون عنه الظلم والعبء.

وتعدد الزوجات يشبع رغبات الرجل الجنسية، وكان لا بد من تدعيم هذا الحق للرجال عن طريق الدين ليخدم بقدسية اغراض الرجل الاقتصادية والجنسية معا. على حين اقتضى النظام الابوي ونسب الاطفال الى الرجل ان يفرض على المرأة زوجا واحدا. وكان لا بد من تدعيم ذلك الفرض على النساء عن طريق الدين ايضا ليخدم بقدسية امتلاك الرجل للمرأة اقتصاديا وجنسيا في آن واحد.

ولان فرض زوج واحد على المرأة لم يكن يشبع حاجاتها الجنسية، بالاضافة الى ان هذا الزوج لم يكن لها وحدها وانها كانت تشترك معها فيه نساء اخريات، فقد اصبح نصيب المرأة من الجنس ضئيلا جدا لا يزيد عن جزء من رجل، وهو امر كان يتعارض بطبيعة الحال مع اشباع رغبة المرأة البدائية القوية.

وقد قاومت المرأة بالضرورة هذا القيد لتمارس حياتها الطبيعية، وقد قاوم الرجل بالطبع مقاومة المرأة بقوانين اشد صرامة، منها القتل للخيانة الزوجية، ومنها الحبس، ومنها تجربة الماء المر الذي كان يفرضه الكهنة على المرأة المتهمة بخيانة زوجها فاذا لم يتورم بطنها بتناولها هذا السم تصبح بريئة واذا تورم بطنها فهي مذنبة وتصبح عارا على اهلها. ومنها وسائل اختبار العذرية وعلامة البكارة، واقلها بلا شك هي «الغيرة» تلك العاطفة التي البسها الرجل الحديث ثوب النبل والحب، وتغنى بها الادباء والشعراء في الشرق والغرب،

ولم تكن غيرة «عطيل» الشهيرة في ادب شكسبير وقتله «لديزديمونا» الا افراغا لتلك الشحنة العاطفية الجامحة التي توارثها الرجال منذ بدأت الملكية الفردية.

لقد فرضت على النساء العفة والعذرية والاخلاص الزوجي بكافة القوانين السماوية والارضية الممكنة حتى لا يتسرب الى الرجل المالك اي شك في اشتراك طفل غريب مع اطفاله في ميراث امواله.

وبرغم كثرة القوانين المقدسة والالهية والوضعية الصارمة في هذا المجال وبرغم كثرة التجارب والفحوص للتأكد من الاخلاص والعذرية، فـإن «الشك» في اخلاص المرأة ظل ملازما للرجل منذ العهود البدائية حتى عصرنا الحديث، مما يدل على انه «شك» في موضعه وله مبرراته المنطقية المقنعة.

وهذا يفسر لنا سبب تلك الازدواجية الاخلاقية التي هي احدى السمات المميزة لمعظم المجتمعات والتي نبعت منذ العهود البدائية الاولى حين استولى الرجل على المرأة اقتصاديا وجنسيا، وما نتج عن ذلك من انحدار في قيمة المرأة في الدين وفي المجتمع وفي البيت ايضا، ويبلغ انحدار المرأة مداه عند قدماء الرومان إذ أصبحت المرأة في قبضة الرجل[١].

وتوالت عهود الظلام بالنسبة للمرأة، تحولت فيها من قائدة للمجتمع ينحدر منها النسب الى جارية اجيرة حبيسة تباع وتشترى، اما بيعا واضحا في سوق الرقيق والعبيد، واما بيعا مقنعا بعقد الزواج. ولم تعد المرأة تزوج نفسها بنفسها وانما اصبح أبوها او ولي امرها من الرجال يزوجها بمن يشاء نظير المال، بالضبط كما يتصرف الاب الروماني في «الفاميليا»[٢].

وقد بلغ من سيطرة الرجل على المرأة في القانون الروماني ان الاب لم يكن له حق بيع ابنته كالرقيق فحسب ولكنه كان يملك حق قتلها ايضا، وبعد الزواج يحل الزوج محل الاب في السيطرة على المرأة وامتلاكها بحكم القانون[٣].

---

(١) فوشيل دي كولانج، المدينة العتيقة، طبعة هاشيت، باريس ١٩٤٨، ص ٩٥.
(٢) ثروت الاسيوطي، نظام الاسرة بين الاقتصاد والدين، ص ١١٩.
(٣) انظر:

V-Givavd: Droit Romanin, P. 180et Suiv. et V. Glats: La Solidavite de laFamille en Grece, P. 31et Suiv.

تحرير العبيد لم يحرر المرأة

استمدت الاديان السماوية مبادءها الخاصة بالمرأة من الانظمة الابوية الطبقية القائمة على الاسياد والعبيد والجواري، وتعتبر رسالات الانبياء موسى وعيسى ومحمد ثورة على

تلك الانظمة العبودية، ورغم اختلاف ثورة كل منهم حسب ظروف مجتمعه الاقتصادية والاجتماعية الا انهم كانوا جميعا ضد الظلم والعبودية بصفة عامة، ولهذا نالت المرأة من هذه الثورات بعض الانصاف وخاصة في الفترات الاولى لهذه الثورات، لكن وضع المرأة ظل اقل من الرجل في الاديان الثلاثة، وعلى الاخص في الديانة اليهودية.

وكان البيت العبري هو الاسرة الابوية حيث سلطة الاب المطلقة المعروفة لدى فاميليا قدماء الرومان. ويتكون بيت بني اسرائيل من الرجل وعدد من الزوجات والسراري (الاماء) والاولاد من الزوجات والسراري وزوجات الاولاد والاحفاد بالاضافة الى العبيد(١)ويرأس هذا البيت الاب ويسمى «روش» اي رأسا(٢) ويتمتع بسلطات قضائية مطلقة(٣). ويختار وريثه في حرية تامة(٤) ويستطيع التصرف في ابنائه كما يشاء فله ان يبيع ابنته لمن يرغب في شرائها(٥) بل يملك على اولاده حق الموت والحياة، يقتلهم اذا شاء(٦) او يقدمهم قربانا للرب(٧) وقد خضع اسحاق لابيه ابراهيم حين اراد ان يذبحه للاله «يهوه» ويمتد هذا الحق الى من يعيش في كنفه،فله ان يحرق زوجة ابنه المتوفى اذا زنت(٨). والمرأة في البيت الاسرائيلي كانت جزءا من الفاميليا Familia الرومانية اي جزءا من التركة المكونة من العبيد والاموال، وهذا البيت يشمل المرأة والامة والثور والحمار والاشياء الاخرى(٩).

---

(١) ليفي الاسرة ص ٧٩، دي فو، نظم العهد القديم ج ١ ص ٣٩.
(٢) اخبار الايام الاولى الاصحاح ٧ الآية ٧.
(٣) سفر التكوين الاصحاح ٣٨ الآية ٢٤.
(٤) سفر التكوين الاصحاح ٤٨ الآية ١٤ وما بعدها.
(٥) سفر التكوين الاصحاح ٢١ الآية ٧ وما بعدها.
(٦) سفر التكوين الاصحاح ٤٢ الآية ٣٧.
(٧) سفر التكوين الاصحاح ٢٢ الآية ١٠.
(٨) سفر التكوين الاصحاح ٣٨ الآية ٢٤.
(٩) سفر التكوين الاصحاح ٢٠ الآية ١٧.

والرجل يسمى بعل المرأة اي سيدها[١] وهي تخاطبه بعبارة سيدي[٢] والفرحة بمولد الابن اكبر منها عند مولد البنت[٣].

وبرغم القيود على المرأة فقد كان الرجل متعدد الزوجات يمارس الجنس مع زوجاته وامائه بل وبناته احيانا، فقد اضطجعت ابنتا «لوط» مع ابيهما نفسه وحملتامنه[٤]. كما ان يعقوب جمع بين الاختين[٥] وكان الرجل يطلق المرأة في اي وقت يشاء. وتذكر التوراة ان «ابراهيم» حين طرد سريته «هاجر» المصرية وابنها «اسماعيل» اعطاهما قدرا من الخبز وقربة ماء، فمضيا الى سبيلهما وتاها في الصحراء[٦].

وقد انتشر تعدد الزوجات عند بني اسرائيل، خاصة بين اغنياء الرجال وعلى قمتهم الملوك: تزوج «داود» نساء كثيرات بالاضافة الى الاماء السراري[٧].

واقترن «رحبعام» بثماني عشرة امرأة وستين سرية ولدن له ثمانية وعشرين ابنا وستين ابنة[٨]، وتزوج «ابيا» اربع عشرة امرأة وانجب اثنين وعشرين ابنا وست عشرة بنتا[٩]. اما «سليمان» فقد تفوق على هؤلاء جميعا وتزوج ٧٠٠ امرأة عدا ٣٠٠ من السراري[١٠]، وقد بدأ سليمان حياته بجريمة قتل هي اغتياله لاخيه الاكبر حين نافسه في ميراث ابيهما من الحريم[١١].

وفي مقابل هذه الحرية الجنسية التي يتمتع بها الرجال كانت القيود مفروضة على المرأة ومنها العذرية. وكان الرجل يشترط ان يتزوج فتاته عذراء، فان لم تثبت عذريتها طلقها، الا انه عندما عم الفساد وبدت موجة الاصلاح في اواخر القرن السابع ق. م قيدت

(١) سفر الخروج الاصحاح ٢١ الآية ٣.
(٢) سفر التكوين الاصحاح ١٨ الآية ١٢.
(٣) سفر التكوين الاصحاح ٣٥ الآية ١٧.
(٤) سفر التكوين الاصحاح ٩ الآية ٣٠ ـ ٣٨.
(٥) سفر التكوين الاصحاح ٢٩ الآية ١٥ وما بعدها.
(٦) سفر التكوين الاصحاح ٢١ الآية ١٤.
(٧) صموئيل الاول الاصحاح ١٨ الآية ٢٧، والإصحاح ٢٥ والآية ٣٩، ٤٣، صموئيل الثاني الاصحاح ٣ الآية ٣، ٤ والاصحاح ٥ الآية ١٣.
(٨) اخبار الايام الثاني الاصحاح ١١ الآية ٢١.
(٩) اخبار الايام الثاني الاصحاح ١٣ الآية ٢١.
(١٠) الملوك الاول الاصحاح ١١ والآية ٣.
(١١) الملوك الاول الاصحاح ٢ والآيات من ١٣ ـ ٢٥.

حرية الرجل في الطلاق، وحرم عليه الطلاق في حالتين هما:-

اولا: اذا ادعى الرجل ان زوجته ليست بكرا، اخذ ابوها وامها علامة بكارتها وبسطا الثوب امام شيوخ المدينة، وتولى هؤلاء تأديب الزوج وتغريمه مائة من الفضة تعطى للوالد لان «الزوج» اشاع اسما رديا عن عذراء من اسرائيل فتكون له زوجة ويمتنع عليه ان يطلقها «كل ايامه».[١].

ثانيا: اذا كانت الفتاة عذراء وعاشرها الرجل قبل الزواج، يلتزم بان يسلم اباها خمسين من الفضة وان يتزوجها والا يطلقها «كل ايامه»[٢].

اما الزوجة التي طلقها زوجها فتزوجت برجل اخر ثم طلقها هذا الآخر او مات فانه ممنوع على زوجها الاول ان يردها اليه «بعد ان تنجست»[٣].

وكانت العبودية تسود المجتمع والنظام الابوي يسيطر على الاسرة، والكهنة الرجال يمنحون انفسهم سلطات اجتماعية، وشاعت في ذلك الوقت تجربة الماء المر للمرأة المتهمة بالزنا.

وقد اختلفت نظرة المجتمع الى موضوع الزنا باختلاف مراحل التطور الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها البشرية. كانت القبائل البدائية والمجتمعات الأمومية تبيح الحرية الجنسية للرجال والنساء على قدم المساواة. لكن مع ظهور الملكية الفردية وازدياد غريزة التملك ونشوء النظام الابوي اصبح الرجل يطالب زوجته بالاخلاص له بعد الزواج بحيث لا يقربها رجل غيره، واصبح يطالبها بالعفة والعذرية قبل الزواج، وقد دأبت المجتمعات الابوية في عهودها الاولى على وضع حلول لمشكلة الزنا تستوحيها من نظمها التسلطية وتتفق مع طغيان الرجل.

ومن هؤلاء رجال بني اسرائيل، الذين قضوا على المرأة الزانية بالاعدام اما «حرقا» مثلما حاول «يهوذا» مع زوجة ابنه «ثامار»، واما «رجما» وهي القاعدة التي وردت في سفر التثنية[٤]. اما الرجل فهو يعاشر الزوجات والسراري والاماء ويزني كما يشاء وبغير

---

(١) سفر التثنية الاصحاح ٢٢ الآية ١٣ الى الآية ١٩.
(٢) سفر التثنية الاصحاح ٢٢ الآية ٢٨ ـ ٢٩.
(٣) سفر التثنية الاصحاح ٢٤ الآية ١ ـ ٤.
(٤) سفر التكوين الاصحاح ٣٨ الآية ٢٤، وسفر التثنية الاصحاح ٢٢ الآية ٢١.

حساب، ولم يكن القانون الروماني يختلف عن ذلك في شيء. فقد اعطى للرجل حق الحياة والموت على المرأة الزانية.

وقد ظهر الاسلام ايضا في مجتمع ابوي قائم على الملكية الفردية ونظام الطبقات والاسياد والعبيد، فاصبحت السلطة في الاسلام للرجل رأس الاسرة. والحاكم والخليفة والامام والوالي والقاضي والشاهد وهي كلها مناصب تخص الرجل وحده. وورث الاسلام عن اليهودية العقاب بالرجم في مسألة الزنا وقد رجمت نساء بالحجارة حتى الموت في عهد النبي محمد وفي عهود الاسلام الأولى. وينص الاسلام على ان يرجم الزاني والزانية لكن اباحة تعدد الزوجات للرجل في الاسلام واباحة تعدد العلاقات الجنسية مع الجواري والاماء من ملك اليمين جعلت الرجال المسلمين في غير حاجة الى الزنا، وبالذات هؤلاء السادة الذين يملكون المال او الإبل مما يجعلهم قادرين على تغيير زوجاتهم من حين الى حين كلما لاحت لهم امرأة اكثر حسنا واكثر شبابا، ومما يجعلهم قادرين على شراء الجواري والاماء في سوق الرقيق، وما الذي كان يمكن ان يجبر الرجل العربي المسلم في ذلك الوقت على الزنا اذا كان في مقدوره ان يطلق زوجته في اي لحظة ويتزوج أي عدد غيرها من النساء بل ويجمع معها زوجات اخريات يصل عددهن الى اربعة بل ويجمع معها من الجواري والاماء ما يستطيع ان يشتري وما تستطيع يمينه ان تملك؟ وعلى هذا لم تكن قوانين الزنا الا من اجل عقاب النساء وحدهن لانهن بارتكاب الزنا يخرجن عن النظام الابوي الذي حدد للمرأة زوجا واحدا في ظل الاسرة وكذلك ايضا عقاب الرجال الفقراء من الاجراء والعبيد الذين يعجزون عن الزواج ودفع المهر للعروس او يعجزون عن تغيير زوجاتهم واقتناء عدد من الزوجات، او يعجزون عن شراء الجواري والاماء من سوق العبيد الذي كان شائعا في تلك العهود.

وتختلف المسيحية عن اليهودية والاسلام في انها كانت اكثر تعقيدا لحرية الرجال الجنسية. وقد بدأ المسيح بنفسه اذ حرم على نفسه الجنس والزواج، ولم تعرف الجنس والزواج ايضا امه مريم العذراء وقد قال المسيح: «وقد سمعتم انه قيل للقدماء لا تزن، واما انا فاقول لكم ان كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه»[1].

وكان الرجال قبل المسيحية يتبعون الشريعة اليهودية التي تمنح الرجل حق الطلاق دون ابداء الاسباب. فلما ظهر المسيح ذهب اليه بعض القوم يسألونه الرأي فيما تذهب

---

(١) انجيل متى، ٥ ٢٧ ـ ٢٨.

شريعتهم من اباحة الطلاق. وقد جاء في انجيل متى ـ وجاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل ان يطلق امرأته لكل سبب، فاجاب وقال ان من طلق امرأته الا بسبب الزنا وتزوج باخرى يزني، والذي يتزوج بمطلقة يزني[1] .

ولم يتبع المسيح اليهودية في مسألة رجم الزانية بالحجارة، وقبل توبتها ورفض رجمها بالحجارة، ومنع الفريسيين من ذلك بقولته الشهيرة «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها اولا بحجر».

وقد ظهرت العقيدة المسيحية في ظل الامبراطورية الرومانية دولة السادة والعبيد، ودولة النظام الابوي حيث يملك الرجل المرأة كما يملك ابقاره وله عليها حق الحياة والموت، وكذلك له على عبيده حق الحياة والموت. اما الرجال من الاسياد والحكام فقد كان لهم حق الاستمتاع بالجمال والجنس والملذات في الدنيا والاخرة، فقد كان الرجل من هؤلاء بعد وفاته يرتفع الى مصاف الالهة .

ولقد كان المسيح زعيما لثورة العبيدوالفقراء،وقد حارب اثرياء اليهود من قومه الذين تعاونوا مع السلطة الرومانية، وحارب الاسياد من الرومان، وقاد العبيد والفقراء في ثورة فكرية ضد هؤلاء جميعا بكل ما كانوا يمثلونه في ذلك الوقت من فساد اخلاقي او استغلال اقتصادي .

وهذا هو السبب في ان المسيحية في فجرها الاول اعلنت الجانب الاخلاقي الروحاني وحاربت ملذات الحياة الجنسية التي تتضمن الجنس ايضاً. ولان العبيد ونساءهم كانوا هم وحدهم ضحايا حرية الرجال الرومان الجنسية فقد جاء تحريم الزنا على الرجل مثل المرأة مصلحة لهؤلاء العبيد والفقراء الذين وجدوا في تعاليم المسيح انقاذا لهم من سطوة الاسياد والاثرياء. وادت روحانيات المسيحية الى منع تعدد الزوجات والارتياب في الزيجات المتعاقبة. الا ان المسيحية فيما بعد اباحت للرجل نظام «التسري». وبرغم تقييد حرية الرجال الجنسية في ظل المسيحية بصفة عامة الا ان المرأة ظلت اقل من الرجل مكانة بسبب النظام الابوي السائد في ذلك الوقت والذي اشتد قوة بنشوء النظام الاقطاعي في المراحل الاخيرة من الامبراطورية الرومانية. وقد اتجهت الكنيسة في ظل الاقطاع الى الابتعاد عن تعاليم المسيح الاولى، وارتبط رجال الكنيسة والكهنة بالسلطة وامتلاك الأرض،واصبحت التقاليد الدينية تشيد بالطبقية والاقطاع وخاصة في العصور

---

(١) انجيل متى الاصحاح ١٩ الآية ٣ والآية ٩ والاصحاح ٥ والآية ٣٢.

الوسطى المظلمة، واصبح الرب هو الاقطاعي صاحب الارض، ، وبما ان هذا الرب قد عين الكهنة ممثلين له على الارض فانهم اصحاب الارض من غير جدال. وباشتداد النظام الاقطاعي الابوي اشتد انحدار قيمة المرأة واشتد اضطهادها واتهامها بانها خليفة الشيطان وسبب الكوارث. وحكمها الرجل داخل البيت وخارجه بقوانين صارمة تصل احيانا الى حد القتل والحرق لاتفه الاسباب او لاسباب يختلقها الاسياد.

وبرغم ان المسيحية في اولها كانت ضد تعدد الزوجات الأ ان نشوء الاقطاع وما صاحبه من رغبة في زيادة النسل لتوفير مزيد من الايدي العاملة لدى رب الاسرة الابوية وكذلك لتعويض نسب الوفيات العالية قد ساعد على اباحة تعدد الزوجات.

الا ان الـوحـدانية في الزواج ظلت مفروضة على المرأة وحدها، وظل الاخلاص الزوجي مفروضا عليها حتى لا ينهار النظام الابوي والاسرة الابوية، وظلت الافكار التي تمجد العذرية والعذراء، واعطوا مريم العذراء لقب الهة السماء والارض وهو لقب الالهة الانثى القديمة قبل ظهور اليهودية.

واصبحت المرأة في المسيحية، كما كانت في اليهودية من قبل، كبش الفداء الذي يقع بين فكي الصراع الضاري بين الروح والجسد او بين الخير والشر. وقالوا ان الله خلق الرجل صورة منه، وان الله روح، اما المرأة فهي الجسد والجنس.

وكان ترترليان Tertullian احد اباء الكنيسة قد قال ان النص في التوراة الداعي الى ان تغطي المرأة رأسها يرجع الى ان حواء هي المسؤولة عن الاثم كله. ولهذا يجب ان تغطي رأسها احتقارا لهذا الرأس المدنس الآثم. ويخاطب ترترليان حواء في هذا الصدد قائلا: «انت الباب الذي يقود الى الشيطان، انت التي فتحت الطريق الى تلك الشجرة المحرمة، انت اول من عصى امر الله، انت التي اغريته، حين عجز الشيطان عن ان يغريه، انت حطمت بسهولة صورة الرجل الالهية، انت سبب الموت، وبسببك ايضا يموت ابن الله»[1].

وقد ترددت هذه الافكار عن المرأة على السنة المفكرين والكتاب العرب امثال المعري وابن الفارض والحلاج والشهراوردي والعقاد وغيرهم حتى قرننا العشرين.

ومن هؤلاء ايضا زكي مبارك الذي قال:

---

(١) Tertullian. cu lultu Fem. 1. 1.

«المرأة تملك اصول الشهوات، وهي باب الدمار والخذلان، والمرأة هي الجحيم، هي البلاء يصبه الله على رؤوس العباد، هي الشقاء المعجل، والكرب الذي يسبق الموت، والمرأة في جميع احوالها مصدر فساد ولها مداخل الى الفتنة يعجز عنها ابليس[1].

وقد ظهر الاسلام بعد المسيحية، وكان محمد، في أسفاره التجارية خارج الحجاز يلتقي بقوم يرددون امامه ايات من التوراة والانجيل وكان اول حياته راعيا فقيرا، والمجتمع العربي في ذلك الوقت كان قائما على السادة والعبيد، وبدأت ثورة محمد في اولها ضد هذا النظام الطبقي العبودي ودافع في احاديثه عن الفقراء والنساء، الا ان الظروف الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت كانت قائمة على سيطرة الرجل في معظم القبائل العربية «باستثناء بعض القبائل الأمومية» ولهذا استمرت هذه القيم الابوية في الاسلام. كما ان المجتمع العربي الاسلامي كان في حاجة الى زيادة نسله ليزداد قوة في مواجهة الاعداء، ومن اجل بناء الدولة الاسلامية ولكثرة اعداد اسيرات الحروب والجواري فقد اباح الاسلام تعدد الزوجات في تلك الفترات الاولى واعطى الرجال حرية جنسية واسعة من حيث الاتصال بالجواري والاماء وما ملكت يمينهم، وهي حرية لم يكن ليتمتع بها من الناحية العملية الا الرجال من طبقة التجار والاثرياء القادرين على نفقات الزواج باكثر من واحدة والقادرين على شراء العبيد والجواري من النساء.

وقد كان المجتمع العربي في عصر الجاهلية يقوم على الرق والعبيد وكانت اسيرات الحرب يعتبرن كما اعتبرهن الاسلام فيما بعد ملكا لليمين، وقد اباح الاسلام للرجل ان يعاشر الرقيقات جنسيا دون ان يسمي ذلك زواجا بل سماه «تسريا». والرجل ليس ملزما على الاطلاق بان يعترف بالولد الذي تلده احدى جواريه، واذا اعترف به يصبح الولد حرا وتصبح امه حرة بعد وفاة سيدها.

ولا شك ان العبيد والجواري قد حظوا في ظل الاسلام بحقوق لم تكن لهم قبل الاسلام. وقد حارب الاسلام الرق والظلم والفساد والبغاء وشرب الخمر ولعب الميسر والربا، الا ان الرجل ظل في الاسلام هو السيد وهو القوام على المرأة، والزواج في الاسلام ظل اشبه مايكون بعقد تمليك، يملك الزوج زوجته بحكم الصداق «المهر» والانفاق، وواجب الزوجة الطاعة ومن حق الرجل المسلم ان يطلق زوجته لاي سبب يراه هو، وله حق تعدد الزوجات.

---

(١) مصطفى النهيري، المثقفون والانثى في الحضارة، دار الكتاب بالدار البيضاء، ١٩٧٥ ص ١٤٧.

وهكذا ظلت المرأة العربية المسلمة جزءا من ممتلكات الرجل. وما زالت معظم البلاد العربية بما فيها مصر تحكم على نسائها بهذه القوانين الجائرة في الزواج حتى اليوم.

ويكتب احد الكتاب العرب الذين اشتهروا في ادبنا المعاصر وهو عباس محمود العقاد مشيدا بهذا النظام الابوي القبلي ويؤكد وضع المرأة كجزء من ممتلكات الرجل حين يقول: لان «المنعة» ضرورة من ضرورات الحياة بين اهل البادية، ولا مناص من الاشتهار بمناعة الزوجة بين الاعداء والنظراء واول زوجة يحميها الرجل هي المرأة[1].

---

(١) عباس العقاد، جميل بثينة، ص ١٨.

منابع ايجابية للمرأة العربية

سبقت المرأة العربية المرأة الاوروبية والامريكية في مقاومة النظام الطبقي الأبوي. ان المرأة الامريكية لم تفطن الا هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين الى ان اللغة السائدة هي لغة الرجل، وان كلمة « رجل » تعني الانسان او البشرية جمعاء ، وان صيغة المذكر تشمل الرجال والنساء معا ، وتحاول اليوم بعض حركات تحرير المرأة في امريكا واوروبا تغيير اللغة .

اما المرأة العربية فقد فعلت ذلك منذ اربعة عشر قرنا، فقد كانت صيغة المذكر هي التي تطلق على الرجال والنساء في القرآن، فاعترضت على ذلك النساء العربيات قائلات: «أسلمنا كما أسلمتم وفعلنا ما فعلتم فتذكرون في القرآن ولا نذكر؟» وكان الناس يسمون المسلمين فأنزل الله في القرآن «ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات»[1].

وكنت اندهش كلما قرأت في تاريخ العرب قبل الاسلام وفي المراحل الاولى للاسلام عن تلك الشخصيات النسائية المتعددة اللائي برزن في المجتمع، وعن الاهمية الكبيرة التي نالتها نساء العرب سواء في الادب والثقافة والفنون او الحب والجنس او في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، بل منهن من برزن في السياسة والحروب والقتال سواء قبل الاسلام او بعده وفي حياة محمد رسول المسلمين نفسه.

ويحفل تاريخ العرب باسماء هؤلاء النساء ومنهن نسيبة بنت كعب التي حاربت جنب محمد بالسيف في معركة «احد» ولم تكف عن القتال حتى جرحت ثلاثة عشرجرحاً،وقال عنها محمد ان مقامها خير من الرجال[2]. ومنهن ايضا ام سليم بنت ملحان التي حزمت الخنجر على وسطها وهي حامل وحاربت مع محمد وقومه من المسلمين. اما النساء اللائي

(١) انظر محمد بن سعد، الجزء ٨، ص ١٤٥، والقرآن سورة الاحزاب الآية ٣٥.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ح ٨، دار التحرير، القاهرة، ١٩٧٠ ص ٣٥٢.

اشتركن في الحروب ضد محمد والمسلمين فمنهن «هند بنت ربيعة» وزوجة ابي سفيان التي ارتدت الحديد والزرد في معركة «احد» ووضعت قناع الحرب وشهرت السيف تطعن به الصدور[1]. وكانت «هند» امرأة عربية تملك حريتها وارادتها. وقد قالت لابيها:

«انا امرأة قد ملكت امري فلا تزوجني رجلا حتى تعرضه علي، فقال لها ابوها: ذلك لك»[2].

وكانت «هند» قوية الحجة سريعة الرد حتى على محمد رسول المسلمين. وحين جاءت اليه مع النساء ليبايعن على الاسلام اخذ النبي يتلو عليهن مبادىء الدين الجديد وحين قال لهن: «ولا تقتلن اولادكن» ردت عليه «هند» قائلة «انت قتلتهم»[3] وكانت تعني بذلك ان «محمداً» ورجاله قتلوا الكثيرين في غزوة «بدر» التي انتصر فيها المسلمون على اهل قريش وقتل فيها ضمن من قتل ابو هند. عتبة بن ربيعة واخوه شيبة وابنه الوليد ابن عتبه اخو هند، وكانت هند قد اقسمت منذ مقتلهم على ان تثأر لهم وقد اقسمت الا تتعطر والا تقرب زوجها او تمارس معه الجنس حتى يأخذ بثأر ابيها واخيها، وفعلا نفذت «هند» قسمها ثم اشتركت في حرب «احد» التي انتصرت فيها وقومها على المسلمين.

ومن ابرز النساء العربيات السيدة خديجة زوجة النبي محمد الاولى، وهي امرأة عربية كانت لها شخصيتها واستقلالها الاقتصادي والاجتماعي وحريتها في اختيار الرجل الذي تريده، وهي التي ارادت ان تتزوج «محمداً» وهي تكبره بخمسة عشر عاما، وأرسلت اليه امرأة اسمها نفيسة تعرض عليه الزواج منها. وجاء في كتاب الطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد وهو اول تاريخ قومي للعرب «قالت نفيسة ـ فارسلتني اليه دسيسا اعرض عليه نكاحها ففعل»[4]، وكانت خديجة قد عرفت «محمدا» من خلال تشغيلها له في تجارتها واستثمار اموالها.

وقد كان المجتمع العربي قبل الاسلام يتكون من قبائل مختلفة تعيش ظروفا اقتصادية مختلفة في الصحراء وفي المدن، وكانت بعض هذه القبائل امومية، ينسب الاطفال فيها

---

(١) عبدالرحمن الشرقاوي، محمد رسول الحرية، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢١٧.
(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٧١.
(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٧٢.
(٤) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، الجزء الثامن، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٠، ص ٩.

الى امهاتهم مثل قبيلة خندق وجديلة[1]. ومن ملوك العرب قبل الاسلام من نسب لامه كعمرو بن هند، وكان «محمد» نفسه يفخر بانتسابه الى نساء قبيلته قائلا عن نفسه: انا ابن العواتك من سليم (عاتكة بنت هلال بنت مرة، وعاتكة بنت الاوقص).

وكان المجتمع العربي قبل الاسلام يمثل نوعا من المجتمعات الذي شهد النظامين الأمومي والابوي معا، وكيف كان هذا النظام الأمومي ينقرض بالتدريج بتغير النظم الاقتصادية وسيطرة الرجل المتزايدة على الاقتصاد وعلى الدين. وقد كانت المرأة العربية في البادية اكثر تحررا من المرأة في المدينة بسبب مشاركتها الرجل في العمل والسعي وراء الرزق، ولم تعرف المرأة العربية في البادية الحجاب وكانت تخالط الرجال.

وكان لعرب الجاهلية قبل الاسلام الهة من الذكور والاناث. وكانوا يؤمنون بان اله كل قبيلة يحارب معها في حربها، ويجهد نفسه في الدفاع عنها لتفوز بالنصر، ولذلك كانت القبائل تحمل معها صور او تماثيل الهتها في الحرب.. وقد فعل ذلك ابو سفيان فحمل «اللات» «والعزى» الهات اناثا. وفي هذه المعركة انتصر ابو سفيان وزوجته «هند» على المسلمين مما جعلهم يتمسكون بالهتهم الاناث ويثقون في قوتها وقدرتها. وكانت القبيلة المهزومة كثيرا ما تنبذ الهها الضعيف الذي انهزم في الحرب وتختار الها قويا، هو اله القبيلة المنتصرة او اله قبيلة مشهود لها بالنصر. وعلى هذا النحو كانت تنتشر عبادة بعض الالهة دون البعض الاخر[2].

وكان وجود الالهات الاناث[3] «كاللات» «والعزى» انعكاسا لارتفاع مكانة المرأة في تلك القبائل العربية، وانعكاسا للمجتمع الأمومي الذي كان موجودا عند بعض تلك القبائل في ذلك الوقت.

ولعل هذا هو السبب في ان تاريخ العرب سواء قبل الاسلام او بعده، اشتمل على نماذج عدة لنساء بارزات الشخصية، قويات الحجة، ايجابيات في حياتهن الخاصة والعامة، ومنهن من اشتغلن بالاقتصاد والانتاج.

---

(١) عبدالله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها واسلامها، مطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر، ١٩٢١، ١٩٥٠.

(٢) انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، ح ٥ القسم الديني مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ ص ٦٧ وما بعدها.

(٣) في تفسير الانثى جاء في لسان العرب جزء ٢ ص ٤١٦ (الانثى خلاف الذكر، وفي التنزيل العزيز: «ان يدعون من دونه اناثا» تقول العرب اللات والعزى واشباهها من الالهة (المؤنثة).

وكان من جراء اشتراك المرأة مع الرجل في الحياة الاقتصادية في هذه الحالات ان حصلت على شخصية مستقلة في المجتمع وفي البيت. وكان لها حرية اختيار زوجها، وكانت المرأة تتزوج احيانا اكثر من رجل اي تمارس تعدد الازواج قبل الاسلام. وسمي هذا الزواج بزواج «المشاركة» حيث كانت تتزوج المرأة بعدد من الرجال شرط الا يزيدوا عن عشرة رجال والا اعتبرت من البغايا. وعن حديث عائشة عن الجاهلية تقول: «ان يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فيصيبونها فاذا حملت ووضعت ترسل اليهم فلا يستطيع احد منهم ان يمتنع، فاذا اجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من امركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان.. تسمي من احبت باسمه.. فيلحق به ولدها لا يستطيع ان يمتنع عنه الرجل[1]» ويكتب الاصفهاني يقول: «والبدويات منهن حين يطلقن ازواجهن يحولن خيامهن ان كانت الى الشرق فالى الغرب. او كانت الى الجنوب فالى الشمال[2]» وكان الطلاق يتم بمجرد ان تحول المرأة باب خيمتها».

وكان عند العرب قبل الاسلام نوع من النكاح يسمى نكاح الاستبضاع، وصفته السيدة عائشة في حديثها بان الرجل كان يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها «ارسلي الى فلان فاستبضعي منه»، ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه (غالبا رجل عظيم لان الزوج يريد ابنا من نسل ممتاز) فاذا تبين حملها اصابها زوجها اذا احب، وكان الطفل المولود يعتبر ولدا للزوج الشرعي وليس للرجل العظيم الذي جاء من صلبه، ونكاح الاستبضاع صورة من نظام تعدد الازواج عند العرب، وما زال اثره واضحا في حالات بعض النساء العاقرات حتى يلدن[3].

كنت وانا طفلة صغيرة اسمع النساء الريفيات في قريتي كفر طحلة يتحدثن عن النساء العاقرات اللائي يذهبن الى «مشايخ» القرية من اجل ارتداء «حجاب» يشفيهن من العقم فيحملن. وقد عرفت من بعد ان هذا الحجاب كان احيانا قطعة من الصوف تضعها المرأة داخل مهبلها، وبالسؤال عن سر تلك القطعة من الصوف التي تشفي النساء من العقم، عرفت فيما بعد ان بعض «مشايخ» القرى كانوا يبللون تلك القطعة من الصوف بسائلهم المنوي لتضعها المرأة على الفور في مهبلها، وبسبب ان لقاء «الشيخ» مع المرأة كان يتم دائما في حجرة مظلمة تماما فلم تكن المرأة تلحظ ما يفعله «الشيخ»،

---

(١) ابوالفرج الاصفهاني، الاغاني جزء ١٦ ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق ١٠٢.

(٣) عادل احمد سركيس، الزواج وتطور المجتمع، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ ص ١٠٨.

واحيانا كانت تلحظ لكنها كانت تكتم الامر بينها وبين نفسها حرصا على الحمل والانجاب باي ثمن حتى وان وضع «الشيخ» سائله المنوي مباشرة في مهبلها دون حاجة الى قطعة الصوف، وكان بعض المشايخ يلجأون الى ذلك من اجل شفاء النساء العاقرات من العقم[٤] او من اجل الممارسة الجنسية لارضاء رغباتهم او من اجل الاثنين معا.

ولا شك ان نكاح الاستبضاع عند العرب، او قطعة الصوف السابق ذكرها ليست الا نوعا من اللقاح غير المباشر الذي يشبه الفكرة الحديثة جدا الخاصة باللقاح الصناعي، وبدلا من ان تحفظ الحيوانات المنوية في انبوبة معقمة فانها توضع في قطعة من الصوف.

وكم تحدث الغرب في السنين الاخيرة بفكرة التلقيح الصناعي واعتبروها من احدث الصيحات في مجال علم الجنس او التحرر على حين ان الرجال العرب في الجاهلية قبل الاسلام كانوا يعرفون هذه الفكرة بل ويمارسونها في زواج الاستبضاع او يتحرر الاب من انانيته وغيرته ويفضل ان يحصل على نسل اقوى بصرف النظر عن كونه صاحب الحيوان المنوي الذي ادى دور الاخصاب، وبصرف النظر عن اتصال زوجته برجل اخر جنسيا فذلك الرجل الذي حملت منه المرأة لم يكن يؤدي بالنسبة لها او لزوجها الا دور المخصب فقط Fertiliser مما يكاد يتفق مع فكرة «ليستروورد» Lester Ward بأن وظيفة ذكر الانسان لم تكن في البداية الاولى للبشرية الا مخصبا للانثى[١] ويتفق ايضا مع رسوم كهوف اسبانيا Cogul حيث صورة النساء كاملات اما الذكر فرسم على شكل عضو تناسل فقط.

قد عرف العرب قبل الاسلام انواعا اخرى من الزواج منها زواج «المتعة» وهو نوع من الزواج المؤقت من اجل المتعة الجنسية فقط، يتزوج الرجل المرأة لمدة ثلاثة ايام او اقل او اكثر ويدفع لها مبلغا من المال حسب الاتفاق بينهما في هذه الفترة المحدودة، وليس على الرجل ان يعترف بالطفل الذي قد نتج عن هذا الزواج، وكانت المرأة تنسب طفلها اليها.

وكان هناك ايضا زواج «الهبة» وهو ان تقول المرأة للرجل «وهبتك نفسي» فيتزوجها

---

(٤) لا تزال مثل هذه العمليات تحدث في بعض مناطق في الهند داخل المعابد، حيث تذهب النساء العاقرات طلبا للشفاء من العقم على ايدي الكهنة وقد حكت لي إحدى الكاتبات الهنديات (امريتا برتيام) روايتها بعنوان «هذا الرجل» That Man التي ترفع الستار عن مثل هذه العمليات التي قد تتم في سرية كاملة لا يعرف عنها الا الكاهن والمرأة.

(1) Lester Ward, Pure Sociologie, Macmillan1914, P. 353.

دون ان تكون لها اي حقوق زوجية وليس للرجل ايضا ان يعترف باطفالها، لكن المرأة كانت تتمتع بحق نسب اطفالها اليها كبقايا النظام الأمومي.

وقد ابطل الاسلام هذين النوعين من الزواج.

وقد كان المجتمع الابوي كغيره من المجتمعات الانسانية يتحول تدريجيا من النظام الأمومي الى النظام الابوي بازدياد سلطة الرجل واحتكاره للانشطة الاقتصادية وبانحسار دور المرأة خارج البيت او في اعمال الانتاج، وبمساندة الدين الاسلامي للنظام الابوي.

ولم تفقد المرأة العربية ايجابيتها فجأة، بل ظلت تقاوم لتحافظ على حقوقها القديمة، وقد انتصرت المرأة احيانا وانهزمت احيانا الى ان تم اخضاعها حين تمت سيادة النظام الابوي بالكامل.

وقد ظلت المرأة العربية في الفترات الاولى للاسلام تعطي نفسها حق اختيار زوجها بل انها كانت تذهب اليه وتعرض عليه الزواج. ويعرف تاريخ العرب من هؤلاء النساء «ليلى بنت الحطيم» التي ذهبت الى محمد وهو رسول المسلمين وقالت له: انا ليلى بنت الحطيم جئت لاعرض عليك نفسي، تزوجني، قال محمد: قد فعلت، لكنها حين عادت الى اهلها قالوا لها بئس ما صنعت فانت غيورة ولا صبر لك على الضرائر وقد احل الله لرسوله ان ينكح ما يشاء، فرجعت ليلى الى الرسول وقالت له: انا امرأة طويلة اللسان ولا صبر لي على الضرائر، اقلني فقال لها: قد اقلتك[1].

ولا ادري كم من النساء العربيات اليوم من تستطيع ان تفعل ما فعلته «ليلى بنت الحطيم» منذ ثلاثة عشر قرنا، ولا ادري كم من الرجال العرب من يعطي المرأة حرية اختياره او حرية رفضه كما فعل محمد نبي المسلمين.

واذا كانت حياة «محمد» هي المثل الاعلى للرجال المسلمين فمما لا شك فيه ان الرجال العرب في عصرنا الحديث لا يتبعون مثلهم الاعلى في الحرية التي كان يعطيها للنساء، وانهم قد خالفوا النبي والاسلام حين فرضوا الطاعة على الزوجة او مما عرف «ببيت الطاعة»، وكم من زوجات عربيات امسكهن البوليس بالقوة باسم بيت الطاعة وساقهن قسرا الى ازواجهن.

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٠٧.

ولم تكن المرأة العربية تمنح نفسها حرية اختيار زوجها فحسب ولكنها كانت تستطيع ان تراجعه اذا اخطأ وتغاضبه وتهجره حتى الليل مهما ارتفع شأنه او كان هو النبي نفسه، كما يتضح من هذه القصة التي يرويها عمر بن الخطاب بلسانه، قال عمر:

وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الانصار اذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من ادب الانصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت ان تراجعني، فقالت: ولم تنكر ان اراجعك؟ فوالله ان ازواج النبي (ﷺ) ليراجعنه وان احداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فافزعني ذلك فقلت: لقد خاب من فعل ذلك منهن. ثم جمعت علي ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت: يا حفصة اتغاضب احداكن رسول الله يوما الى الليل؟ قالت: نعم، قلت: خبت وخسرت، افتأمنين ان يغضب الله لغضب رسوله فيهلكك؟ لا تستكثري على رسول الله ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه[1] .

ولا شك ان اغلبية الرجال قد نهجوا نهج عمر بن الخطاب في التسلط على المرأة. ويتضح من كلام عمر انه كان يفتخر بانتمائه الى قوم يغلبون النساء ويستنكر على الرجال العرب الاخرين الذين تغلبهم نساؤهم، وهو يعطي نفسه حق الصياح في وجه زوجته فلا يحق لها ان تراجعه، بل انه ينصب نفسه داعية وحاميا لحق الزوج في الا تراجعه زوجته وينهى زوجة «محمد» عن ذلك وهو اعلى شأنا واكثر مقدرة من عمر بن الخطاب بصفته النبي والرسول والمشرع، لكن «محمداً» كان يعطي الزوجة حقها في مراجعة زوجها اذا اخطأ وان كان هذا الزوج هو النبي نفسه.

ومن هنا يتضح كيف ترك عمر بن الخطاب وامثاله من الرجال العرب من ذوي النزعة الابوية المتسلطة بصماتهم على كثير من الاحكام التي تفرض على النساء العربيات اليوم باسم الاسلام مع انها ليست من الاسلام كما رآه او اتبعه محمد.

وقد قاومت المرأة العربية هذه الضغوط التي كان يفرضها بعض الرجال العرب امثال عمر بن الخطاب، ولم تكن المرأة العربية في مقاومتها تخجل او تتحرج حتى في اشد الامور حساسية مثل حقها في المتعة الجنسية، وهذه القصة عن ام سلمة زوجة النبي محمد تصور لنا ما بلغته المرأة احياناً من الجرأة والايجابية في حياتها الجنسية .

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة، ١٩٧٠ ص ١٣١.

وهذه القصة يرويها عمر بن الخطاب عن لسانه ويقول: «فدخلت عليه (رسول الله) وهو واضع يده على خده اعرف به الكآبة، فقلت: اي نبي الله بابي انت وامي ما الذي رابك وما لقي الناس بعدك من فقدهم لرؤيتك، فقال: يا عمر يسألنني اولاء ما ليس عندي، يعني نساءه، فذاك الذي بلغ مني ما ترى، فقلت: يا نبي الله قد صككت جميلة بنت ثابت صكة الصقت خدها منها بالارض لانها سألتني ما لا اقدر عليه، وانت يا رسول الله على موعد من ربك وهو جاعل بعد العسر يسرا»[1].ويخرج عمر بن الخطاب من عند النبي ويذهب الى ابي بكر الصديق، ثم يذهب الاثنان معا الى زوجات النبي عائشة وحفصة وام سلمة، لكن ام سلمة ترفض تدخلهما وتقول لهما. «ما لكما، ولما هـا هنا رسول الله ﷺ، اعلى بأمرنا عينا، ولو اراد ان ينهانا لنهانا، فمن نسأل اذا لم نسأل رسول الله؟ هل يدخل بينكما وبين اهليكما احد؟ فما نكلفكما هذا». فخرجا من عندها، فقالت زوجات النبي لام سلمة: جزاك الله خيرا حين فعلت ما فعلت، ما قدرنا ان نرد عليهما شيئا[2].

لقد بلغت «ام سلمة» من الايجابية والجرأة في حقها في المتعة الجنسية الى الحد الذي جعلها ترفض تدخل رجال اخرين بينها وبين زوجها وتتمسك بحقها في هذه المتعة وتفرض على زوجها ان يؤدي واجبه نحوها في هذا الشأن حتى وان ادى موقفها هذا الى الطلاق من محمد «النبي» ذاته، وهذه المرأة هي «العامرية» زوجة «محمد» التي طلقها النبي لهذا السبب.

ولم يكن «محمد» يرغم الزوجة على ان تعيش مع زوجها اذا رغبت في الانفصال عنه، وقد اعطى «محمد» زوجاته حرية البقاء معه او الانفصال عنه بعد ان حالت ظروف حياته في فترة من الفترات دون ان يوفي حاجتهن الجنسية .

ويحكي كتاب الطبقات الكبرى عن ان «محمدا» ذهب الى زوجاته في ذلك الوقت ليخيرهن بين الطلاق او الحياة معه دون ان يحقق لهن متعة الحياة الدنيا وزينتها.

وقد اغضب موقف «العامرية» عددا من الرجال بطبيعة الحال. فكيف تفقد المرأة عقلها الى هذا الحد الذي تختار فيه الدنيا ولا تختار رسول الله، ومن هؤلاء ابن مناح الـذي قال: «اخترنه، صلى الله عليه وسلم، جميعا، غير العامرية، اختارت قومها،

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٢٩.
(٢) المصدر السابق ص ١٢٩.

فكانت ذاهبة العقل حتى ماتت[1].

وكما ورث كثير من الرجال العرب عمر بن الخطاب في نزعته المتسلطة على المرأة وضربه اياها حتى يلتصق خدها بالارض كما فعل عمر بزوجته، فقد ورث كثير من الرجال «ابن مناح» في الحكم على النساء بانهن بغير عقل او بالجنون او الهوس او الهستيريا اذا ما لاح للواحدة منهن ان تعترف برغبتها الجنسية او تطلب الطلاق من زوجها او حتى تراجعه اذا اخطأ. فالرجل في نظر عمر بن الخطاب وابن مناح وغيرهم من الرجال في عصرهم او في عصرنا معصوم من الخطأ لمجرد انه رجل، فهو صاحب العقل والحكمة ومن حقه الوصاية على زوجته، وعلى النساء «الناقصات العقل» الطاعة الواجبة عليهن بالشرع والقانون.

الا ان محمدا النبي وواضع الشرع الاول لم يكن من هؤلاء الرجال، وهذا امر يجب ان يبرزه كل من درس تاريخ العرب والاسلام، لانه يكشف عن الخطأ الكبير والاثم الذي ارتكبه خلفاء محمد في حق المرأة العربية، وكيف تحول هذا الخطأ والاثم الى احكام اصبحت هي القانون الشرعي الذي تحكم به النساء المصريات والعربيات اليوم، هذا القانون الذي فرض على المرأة الزواج بالاكراه وحرمها من حريات تمتعت بها في حياة محمد.

وقد ذهب محمد رسول المسلمين الى ابعد من الاعتراف بحرية المرأة في الزواج بل انه في بعض احاديثه شرح للرجال اهمية المداعبات الجنسية في ارضاء المرأة، وان الرجل العاجز هو الذي يشبع حاجته الى الجنس ولا يشبع حاجة المرأة.

ويروي الغـزالي ان محمدا رسول المسلمين قال إن احد صفات العجز هي ان «يقارب الرجل جاريته او زوجته فيصيبها قبل ان يحدثها ويؤانسها ويضاجعها فيقضي حاجته منها قبل ان تقضي حاجتها منه»[2].

وهكـذا نرى ان «محمدا» تفوق على اكثرية رجال العصر الحديث في فهمه امور الجنس، وقدرته على الاعتراف باشياء لم يعترف بها اكثر الرجال العرب المثقفين او على الاقل تحرجوا من الاعتراف بها، ومن هذه الاشياء موضوع المداعبات الجنسية. ويروي

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٢) الامام ابوحامد الغزالي، احياء علوم الدين، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠ الفصل الثالث، ص ٧٣٤.

الامام الغزالي عن رسول المسلمين هذا الحديث[1]، ان النبي ﷺ قال: لا يقعن احدكم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينكما رسول، قيل وما الرسول يا رسول الله؟ قال القبلة والكلام».

وقد شرح الغزالي وغيره من الفلاسفة العرب في كتاباتهم احاديث الرسول واضافوا عليها مما اكد في الفلسفة الاسلامية اهمية ارضاء الحاجة الجنسية للمرأة والرجل.

ويتضح لنا الان الفارق الكبير بين نظرة الفلاسفة الاسلامية للجنس وبين غيرها من الفلسفات الغربية التي ارتكزت على تأثيم الجنس، وعلى نكران اللذة الجنسية وبالذات لذة المرأة ، وقد كانت شخصية محمد رسول المسلمين وأحاديثه هي المنبع الاساسي لهذه الفلسفة،ورغم ان محمدا بحكم نبوته وزعامته كقائد امة ودولة كان من الممكن ان يتظاهر بالتزمت او عدم الاهتمام بامور المرأة او الحب او الجنس الا انه كان واثقا من شخصيته كانسان طبيعي متكامل، وبلغ من ثقته انه كان يقول عن نفسه انه بشر يحب الطيب والنساء، بل كان يعلن عن حبه للمرأة على نحو طبيعي.

وقد سأله عمرو بن العاص عن احب الناس اليه فقال له الرسول: عائشة، فقال عمر: انما اقول الرجال، قال محمد: ابوها[2].

ومن اهم الافكار التي تفوقت فيها العلوم الاسلامية على العلوم الغربية فيما يخص الجنس تلك الفكرة التي قالت بان الاشباع الجنسي وليس الكبت الجنسي هو الذي يساعد على العمل والتفرغ لاعمال الدنيا والدين. ويقول الغزالي ان العقل هو اهم النعم التي انعم الله بها على الانسان، وقد وهبه الله للانسان من اجل المعرفة، معرفة الحياة والعلوم والارض والناس ومعرفة الله. ان المعرفة هي افضل اشكال العبادة عند المسلمين المؤمنين، ومن اجل ان يتفرغ العقل للمعرفة لا بد ان يصرف الطاقة الجنسية ويشبعها حتى لا تثقل الروح وتشغل الذهن عن المعرفة او عبادة الله. ويضيف الغزالي ايضا ويقول عن فوائد الاشباع الجنسي: «ترويح النفس وايناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة، اراحة للقلب وتقوية له على العبادة، فان النفس ملول، وهي عن الحق نفور، لأنها على خلاف مع طبعها، فلو كلفت المداومة بالاكراه على ما يخالفها جمحت وثابت، واذا روحت باللذات في بعض الاوقات قويت ونشطت، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما

---

(١) ابوحامد الغزالي، احياء علوم الدين، دار الشعب القاهرة ١٩٧٠، الفصل الثالث ص ٧٣٤.
(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٦.

يزيل الكرب ويريح القلب»[1].

ويتفق الغزالي هنا مع بارون والافكار الجديدة في علم النفس التي تقول بان الاشباع الجنسي ضروري للانتاج الفكري والثقافي والابداع، ويتفوق على فرويد وزملائه الذين رأوا ان «التسامي» او الكبت الجنسي ضروري من اجل تقدم الثقافة او قيام الحضارة.

وقد اوضحت الافكار الجديدة في علم النفس ان الطاقة الجنسية لا تتحول الى عمل انتاجي او ثقافة او فكر خلاق ولكنها تنحرف عن مسارها الطبيعي لتتخذ اشكالا متنوعة من الانحرافات الجنسية والعصاب والمشاكل النفسية.

ولا شك ان اعتراف محمد والفلسفة الاسلامية بحق المرأة في الحياة والجنس لم تكن الا نتيجة المكانة العالية التي كانت تتمتع بها المرأة العربية في ذلك الوقت، ومشاركتها الايجابية في مجالات الحياة خارج البيت وداخله، وبروز شخصيات نسائية قوية متعددة.

ويا ليت النساء العربيات في كل مكان اليوم يقرأن تاريخ العرب والفلسفة الاسلامية من منابعها الحقيقية وحياة النساء العربيات وحياة نساء النبي ليدركن ان الفلسفة الاسلامية ارتكزت على قوة المرأة وايجابيتها وان المرأة في ذلك الوقت كانت اكثر شجاعة وايجابية منها اليوم، وان هذه السلبية التي فرضت عليهن ليست صفة اصيلة فيهن، وهذه الطاعة والخضوع لازواجهن ليست فضيلة دينية او اخلاقية، وهذا الخجل او الخوف من الاعتراف بحقوقهن ليس الا صفة مستحدثة بغير جذور.

ولتقرأ المرأة العربية الحديثة المتأثرة بالثقافة الغربية او الادب الفكتوري المتزمت عن هؤلاء النساء اللائي لم يتحرجن من الاعتراف بحقهن في الجنس والمتعة الجنسية.

ولتقرأ المرأة العربية المقلدة في انوثتها السلبية الضعيفة للقالب الذي وضعه فرويد للانوثة، لتقرأ عن ايجابية وقوة هؤلاء النساء العربيات وقدرتهن على الرفض والاحتجاج اذا ما لاح لهن ان شيئا مس كرامتهن، وهل سمعت المرأة العربية الحديثة عن «زينب بنت جحش» احدى زوجات «محمد» التي غضبت من زوجها يوما ورفضت قبول هديته مع انه النبي، وحينما ضاعف لها الهدية ثلاثة اضعاف رفضتها ايضا وردتها اليه؟ عن عائشة قالت: «ذبح رسول الله ذبحا فامرني فقسمته بين ازواجه فارسل الى زينب بنت جحش بنصيبها فردته فقال: زيدوها ثلاثا، كل ذلك ترده. فقلت له: لقد اقمأت وجهك

(١) ابوحامد الغزالي، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٦٩٨.

حين ترد عليك الهدية»[١].

اما عائشة زوجة النبي فلا اظن ان احدا يجهل كم كانت هذه المرأة قوية الشخصية قوية الحجة والبيان، ذكية، قادرة على مراجعة زوجها (وهو نبي) اذا اخطأ، الى حد ان حفصة كانت ترى من حقها ان تراجع زوجها «محمد» بمثل ما تراجعه عائشة فاعترض عليها احد الصحابة قائلا: «لعلك تراجعين النبي بمثل ما تراجعه عائشة»[٢].

ولم تكن عائشة تراجع زوجها فقط ولكنها كانت تراجع الرجال وتعبر عن افكارها بشجاعة وحرية وفهم وتعقل الى الحد الذي جعل «محمدا» يشير اليها وهو جالس بين الرجال قائلا لهم: خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء[٣].وقد اشتركت عائشة في الحرب والقتال مع المسلمين، وكان لها نشاط واسع في السياسة والثقافة والادب الى حد ان قال فقيه المسلمين عروة بن الزبير: »ما رأيت احدا اعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة»[٤]،مع ان عائشة لم تصل الى الثامنة عشرة من عمرها الا بعد وفاة «محمد».

وكانت عائشة قادرة على مناقشة «محمد» في اي شيء، وكانت تختلف معه وتغضب حين كان يتزوج عليها امرأة اخرى، وتتمرد عليه، بل كانت تحرض زوجاته الاخريات احيانا على التمرد عليه، وما قصة «العسل»[١] الا نوعا من هذا التآمر، بل ان عائشة بلغت من جرأتها في مناقشة «محمد» انها كانت تناقشه في الايات القرآنية التي احل فيها الله لمحمد ان يتزوج ما شاء من النساء وأنها اعترضت قائلة : **ان الله يسارع لك فيما تريد** .

«عن محمد بن عمر بن علي بن ابي طالب قال: لم يمت رسول الله، ﷺ، حتى احل الله له ان يتزوج من النساء ما شاء وهو قوله: ترجى من تشاء منهن، وعن عروة عن ابيه عن عائشة قالت: لما نزل ترجى من تشاء منهن، قالت عائشة: ان الله يسارع لك فيما تريد»[٦].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧.

(٣) اشتهرت عائشة باسم الحميراء لان الحمرة كانت تغلب على وجهها. انظر ـ احمد حيرت مركز المرأة في الاسلام، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥ ص ٦٤.

(٤) الشيخ عبدالله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها واسلامها ج٢ ص ١٣٩.

(٥) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ٥٩.

(٦) محمد بن سعد الطبقات الكبرى، ص ١٤٠، ١٤١.

ولا يمكن ان ننكر ان مجتمعنا العربي فيه من النساء من ورثن عن عائشة ومثيلاتها قوتهن وايجابيتهن وشجاعتهن، ولا يمكن ايضا ان ننكر ان عندنا من النساء من ورثن «جميلة» بنت ثابت زوجة عمر بن الخطاب الذي كان يصكها عمر فيلصق خدها بالارض.

الا ان الاغلبية الساحقة من النساء العربيات قد تم ترويضهن واخضاعهن عن طريق الاحكام الابوية التي فرضت عليهن الحجاب والاحتباس في البيت وعدم المشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

الحب والجنس عند العرب

عرف عن الرجال العرب قبل الاسلام وبعده انهم استمتعوا بحرية جنسية واسعة سواء داخل الزواج عن طريق تعدد الزوجات وحرية الطلاق، او خارج الزواج عن طريق اباحة العلاقات الجنسية مع الجواري والاماء او ما ملكت اليمين.

ولم تكن هذه هي صفة العرب وحدهم دون سائر الرجال في المجتمعات الاخرى، فقد اعطى الرجال انفسهم هذه الحرية الجنسية منذ بدء النظام الابوي ونشوء الاسرة الابوية، فهي حرية ترتبط بالنظام الابوي اكثر مما ترتبط بجغرافيا البلد او بموقعه من الشرق او من الغرب او بجنسية القوم وما اذا كانوا من العرب او العجم.

لكن الذين كتبوا عن حياة العرب سواء من المستعمرين او المستشرقين تجاهلوا هذه الحقيقة قصدا او عدم معرفة، وصوروا حرية العرب الجنسية كأنها هي الحرية الجنسية الوحيدة فوق الارض، وكأنما الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذي اباح هذه الحرية، وكأنما الرجال العرب هم أول رجال في العالم يمارسون تعدد الزوجات او يمارسون الجنس خارج الزواج. مع ان الرجال في كل زمان ومكان منذ نشوء الاسرة الابوية قد مارسوا الجنس خارج الزواج سرا او علنا، او الاثنين معا، وبالرغم من ان المسيحية كانت اكثر الاديان تقييدا للحرية الجنسية الى حد ان العذرية لم تفرض على المسيح وامه مريم العذراء فحسب ولكنها فرضت ايضا على بعض رجال الكنيسة في فترة من الفترات، وبالرغم من ذلك فان التاريخ يشهد بان رجال الكنيسة في هذه الفترة التي حرم فيها الزواج عليهم كانوا يمارسون في السر علاقات جنيسة متعددة، وان البغاء في تلك الفترات المتزمتة انتشر انتشارا كبيرا، وقد حاول «لوثر»[1] اصلاح حال الكنيسة بعد ان لاحظ ان دخل كنيسة روما يأتي اساسا من الضرائب على بيوت الدعارة، وقد آلمه ان يرى ان الكنيسة تمد يدها

---

(١) Enarrationes in I Mose, WA 43, 344, 25 - 35

للشيطان وتحصل منه على طعامها بل وتنشيء بهذه الايرادات الملوثة الشيطانية قصورها المهيبة المقدسة، ولعل اكثر ما آلمه ان الدخل الرئيسي لحصيلة صندوق النذور في الكنائس كان يدخل عن طريق زبائن بيوت الدعارة الذين كانوا يمرون بالكنيسة ويدفعون شيئا في صندوق النذور قبل ذهابهم الى المومسات، ابتغاء غفران الله مقدما عن الاثم الذي هم في طريقهم اليه.

ومن المعروف في التاريخ ان البغاء لم يعرف ولم يبدأ الا ببدء النظام الابوي[1]، فقد اقترن هذا النظام الابوي منذ نشأته بالبغاء، لان البغاء ليس الا الحل الوحيد لنظام يفرض زوجا واحدا على المرأة في حين يمنح الرجل حرية جنسية مع نساء اخريات خلاف زوجته. ان الحل الوحيد لمثل هذا النظام هو خلق فئة من النساء يمارس معهن الرجال حريتهم الجنسية خارج الزواج، والا فمع من يمارس الرجال حريتهم؟.

وعلى هذا انشأ النظام الابوي مؤسسة البغاء كضرورة لاستمراره، وانشأ ايضا مع مؤسسة البغاء مؤسسة الاطفال غير الشرعيين، التي كانت تضم الاطفال الناتجين عن علاقات الرجال الجنسية مع المومسات.

وكان على المومسات والاطفال غير الشرعيين ان يكونوا كبش الفداء لهذا النظام الأبوي،وان يدفعوا من حياتهم وكرامتهن وشرفهم الثمن الذي يتطلبه بقاء هذا النظام واستمراره، اما الرجال انفسهم اصحاب هذا النظام ومؤسسوه فلم يكن نصيبهم من هذا الثمن شيئا سوى المتعة والحرية الجنسية.

وربما كان الرجال العرب اكثر صدقا وصراحة من غيرهم لانهم لم يسدلوا الستائر الكثيفة على حياتهم الجنسية، وعبروا عنها في الكثير من ادبهم وشعرهم وقصصهم الشعبية، ولعل اشهر هذه القصص جميعا هي قصص الف ليلة وليلة، التي اتخذها بعض المستعمرين والمستشرقين كمرجع عن حياة العرب، يستنتجون من بعض احداثها الجنسية مفاتيح عن شخصية العرب، ويضعون من بعض نوادرها قواعد للحكم على طبيعة العرب.

ومن المعروف ان قصص الف ليلة وليلة تحكي عن بعض قطاعات المجتمع العربي منذ اكثر من عشرة قرون، ولا يدري احد بالضبط ماذا كان حال اوروبا في ذلك الوقت

(١) T.E. James, Prostitution and the laq, W. Heinemann, ElisProst and Shurtz.

ويقول التاريخ انه كان اسوأ حالا مما كان عليه الشرق او الغرب، الا ان بعض الاوروبيين او الغربيين عن قصد او عن جهل تناسوا هذه الحقيقة حين اخذوا يقارنون بين الشرق والغرب، بل ان بعضهم قارن بين شخصية العرب في تلك الفترة البعيدة وبين شخصية الغربيين في القرن العشرين، او في العهد الفكتوري[١] حين كان التزمت فوق السطح، والله اعلم بالسرائر. وكان الاجدر بهم ان يقارنوا حياة العرب بحياة رجال اوروبا في تلك القرون، او على الاقل في القرون الوسطى حين كان الكهنة القضاة يلقنون النساء المتهمات بالسحر عبارات جنسية مثيرة، ولم يكن امام هؤلاء النساء (ازاء التعذيب) الا ان يعترفن بالجرائم الجنسية التي يلقنها لهن القضاة[٢].

وقد استمرت حتى اليوم تلك الصورة عن العرب، وما من فيلم رأيته يصور حياة العرب وانتجته شركات غربية الا ويصور الرجال العرب وقد هرولوا وراء النساء يغازلونهن ويبعثرون اموالهم على شهواتهم الجنسية والسكر والعربدة، بل ان المرأة العربية ايضا تظهر في مثل هذه الافلام[٣] لعوبا تتثنى وترقص ببطنها وتتعرى وتغري الرجل بشتى فنون الاغراء على نهج غانيات الف ليلة وليلة وجواري هارون الرشيد في ذلك الوقت.

ومما لا شك فيه ان مثل هذه الصورة لا تمثل الرجال أو النساء العرب في عصرنا الحاضر، بل اني اعتقد انها لا تمثل حياة الرجال والنساء في عهد هارون الرشيد، وربما هي تمثل حياة قطاع الملوك وجواريهم في ذلك العهد، وهو قطاع صغير لا يمثل بحال من الاحوال الاغلبية الساحقة من الشعب العربي في تلك العهود. كما ان فسق الملوك الجنسي وغير الجنسي معروف في الغرب والشرق والشمال والجنوب على حد سواء.

وعلى هذا فان اطلاق الاحكام على طبيعة الانسان العربي واعتبار ان الرجال العرب **اكثر من غيرهم سعياً وراء اللذة الجنسية انما هي احكام غير صحيحة ، غايتها تشويه صورة الشعوب العربية المجاهدة ضد المستعمرين الأجانب .**

---

(١) P.H. Newby A Selection From The Arabian Nights Entertainments

Translated by Sir Rcihard Burton, Iutroduction from P. VII to XVII Pocket Books N. Y. 1954.

(٢) Tranz G. Alexa nder and Sheldon. T. Selesnick, The History of Psychiarty. P. 69.

(٣) اعترضت في بعض المؤتمرات على عرض هذه الصورة غير الحقيقية للاغلبية الساحقة من النساء العربيات، وفي مؤتمر «المرأة والتنمية» الذي عقد في يونيو ١٩٧٦ بجامعة ويزلي ببوسطن بالولايات المتحدة عرض فيلم عن المرأة العربية من هذا النوع وقد قدمت مع بعض الزميلات العربيات تقريرا للمؤتمر يحلل هذه الظاهرة ويكشف اسبابها.

ولست من الذين يعتقدون بان السعي وراء اللذة الجنسية اثم، ولست انظر الى الرجال أو النساء على انهم منحرفون، بل اني اعتقد ان الانحراف هو تلك النزعة المسيحية والفيكتورية المتزمتة التي جعلت اللذة الجنسية اثما وخطيئة. هذه النزعة التي اشتدت في فترة من الفترات الى حد اعتبار الولادة او الطفل المولود مدنسا إلى ان يتم تطهيره بتلك العادة المسيحية الشائعة وهي التعميد Baptism هذه النزعة التي خلفت وراءها حتى اليوم قيما صارمة متزمتة ابتداء من الرهبنة الى العفة العذرية الى تأثيم الجنس.

على ان هذه القيم في كل العصور والعهـ : لم تكن تسري الا على المحكومين لا الحكام، والنساء لا الرجال، والفقراء لا الاغنيـ ، وقد ساعدت هذه القيم بقيودها على الجسد والعقل ان تخضع للحكام والمستبدين والمستعمرين الاغلبية الساحقة من شعوب العالم نساء ورجالاً. وكما ساعد النظام الابوي في بدايته على مولد طبقة من الاسياد والعبيد ونشوء الامبراطوريات والمستعمرات، فان هذه القيم الصارمة قد ساعدت ضمن عوامل اخرى على اخضاع الشعوب، وكم استخدمت ولا تزال تستخدم حتى اليوم عند اللزوم لمقاومة ثورات النساء والطبقات الكادحة شبه المستعبدة في نضالهم المستمر، ضد النظم الاقطاعية ثم الرأسمالية باشكالها المتعددة وما صاحبها من استعمار قديم او جديد.

وقد كشف لنا التاريخ عن العلاقة الوثيقة بين الاقتصاد والدين او الحاجات الاقتصادية والقيم الاخلاقية والجنسية. ان هذه القيم الجنسية الاخلاقية او الدينية تتغير وتتبدل من عصر الى عصر ومن مكان الى مكان حسب الضرورات الاقتصادية وما يتبعها من ضروريات سياسية.

ولم تختلف المجتمعات الشرقية والعربية عن المجتمعات الغربية في ان الضرورات الاقتصادية هي التي تتحكم في القيم الاخلاقية والجنسية. وقد اقتضت الضرورات الاقتصادية في المجتمع العربي حرية جنسية واسعة للرجال من اجل زيادة النسل. والمعروف ان تعدد الزوجات للرجل يزيد النسل اما تعدد الازواج للمرأة فهو يقلل النسل. وكان المجتمع العربي يعاني من ارتفاع شديد في نسب الوفيات وعليه ان يعوض هذا بارتفاع في نسب المواليد، كما ان قوة القبائل الاقتصادية والاجتماعية والقتالية كانت تقوم على القوة العددية اساسا في مجتمع لم يكن يعرف الالات والاسلحة الحديثة بعد، وفي تلك المجتمعات الصحراوية الفقيرة نسبيا لم يكن الاطفال يمثلون عبئا ماديا بل كانوا ادوات انتاج للعمل برعي الابل والماشية.

وكانت هذه القبائل كثيرة الحروب كشأنها من القبائل الأخرى. وقد اشتدت هذه الحروب بعد ظهور الاسلام ومحاولة اصحاب الديانات القديمة محاربة اصحاب الدين الجديد ودفاع اصحاب الدين الجديد عن دينهم، ثم ما تبع ذلك من انتصار المسلمين وبدئهم انشاء الدولة الاسلامية ونشر الاسلام وذلك بغزو البلاد الأخرى. كل ذلك ادى الى ان يقتل في هذه الحروب رجال كثيرون من العرب وان يزيد عدد النساء على عدد الرجال، بالاضافة الى تلك الاعداد الكبيرة من اسيرات الحرب اللائي كان يعود بهن الرجال المنتصرون في الغزوات.

وكان الحل الطبيعي في نظر المجتمع في ذلك الوقت هو ان يتزوج الرجل اكثر من امرأة وان يتخذ من اسيرات الحرب ما يشاء من الزوجات والجواري او السراري كل حسب مقدرته. ولم تكن مقدرة كل رجل كالاخر بطبيعة الحال، الا ان مثل هذه الظروف قد دعت الرجال العرب الى التفاخر بقدراتهم في هذا المجال، وفي جذب النساء وزواجهن او عشقهن فحسب، ودعت ايضا النساء الى التباري في جذب الرجال وايقاعهم في شرك الحب والجنس.

وكانت المرأة العربية بصفة عامة تميل الى الايجابية في الحب والجنس اكثر من السلبية المستحدثة، بسبب تراثها الأمومي في المجتمع غير البعيد، وبسبب ان الدين الاسلامي لم ينزع الى تأثيم الجنس كما فعلت المسيحية بل وصف المتعة الجنسية بانهااحدى زينات الدنيا ومباهجها واحدى الجنة في الاخرة. وقد نتج عن كل ذلك ان المرأة العربية لم تكن تتردد كثيرا في اظهار ايجابيتها الجنسية، وقدرتها على الايقاع بالرجال في شركها. ولعلها ايضا كانت تريد ان تؤكد او تقلد امها حواء في قدرتها الفائقة على الايقاع بآدم واسقاطه صريع «فتنتها» من السماء الى الارض، وكلمة «الفتنة» بالعربية هنا معناها «جاذبية المرأة الشديدة».

وقد ارتبطت كلمة «المرأة» عند العرب بكلمة «الفتنة» وبلغ من شدة ايجابية المرأة العربية وفتنتها ان ارتكزت الفلسفة الاسلامية على قوة المرأة الجنسية وجاذبيتها وفتنتها التي يمكن ان تحدث الفتنة في المجتمع وتحطم النظام الذي اوجده الله. وعلى هذا فانه لا بد حتى تستقيم الحياة وحتى لا يتهدد نظام المجتمع ان يرضي الرجل رغبات زوجته الجنسية، وان يحافظ على شرفها، فان شرف المرأة هو واجب الرجل، وعلى الرجل يشبع حاجة المرأة الجنسية حتى لا تحدث الفتنة ويطمئن الرجال الى فضيلة النساء، وفي ذلك يقول الغزالي: «نعم ينبغي ان يزيد او ينقص حسب حاجتها الى التحصين، ن

تحصينها واجب عليه»[1].

لكن الامام الغزالي يعود فيصرح بان اشباع حاجة المرأة الجنسية أمر صعب بل شديد الصعوبة: «فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها».

ويكاد يتفق الغزالي هنا مع بعض الاراء الحديثة عن القوة الجنسية لدى المرأة وصعوبة اشباعها، ويتفق ايضا مع ادراك الرجل البدائي لهذه القوة وخوفه منها منذ زمن بعيد جدا ومن ثم حرصه الشديد على تحويطها بالقيود والسلاسل.

بل انه يتفق ايضا مع الافكار الجديدة التي تنقد الافكار العلمية القائلة بسلبية المرأة في الجنس وانها تنتظر دائما الرجل وتستجيب له فحسب وتصل الى اللذة دون ان تقذف. ويقول الغزالي ان المرأة تقذف كالرجل ولكن على نحو مختلف، وان المرأة في قذفها ابطأ من الرجل[2] ويقول: «ثم اذا قضى وطره فليتمهل على اهله (زوجته) حتى تقضي هي ايضا نهمتها، فان انزالها ربما يتأخر فيهيج شهوتها. ثم القعود عنها ايذاء لها، والاختلاف في طبع الانزال يوجب التنافر مهما كان الزوج سابقا الى الانزال، والتوافق في وقت الانزال الذ عندها». ويقول الامام الغزالي ان الجنين لا يتكون من الحيوان الذكري وحده وانما من اتحاد ماء الرجل وماء المرأة، وان ماء المرأة هو العنصر الحاسم»[3] ويقول: «الولد لا يخلق من مني الرجل وحده بل من الزوجين جميعا اما من مائه ومائها. وكيفما كان فماء المرأة ركن في الانعقاد فيجري الماءان مجرى الايجاب والقبول في الوجود الحكمي في العقود. وكما ان النطفة في الفقار لا يتخلق منها الولد فكذا بعد الخروج من الاحليل ما لم يمتزج بماء المرأة ودمها، فهذا هو القياس الجلي».

ومن هنا ندرك كيف تركزت الفلسفة الاسلامية على افكار اكثر تقدما من الفلسفات السابقة عليها، وكيف اعترفت بايجابية المرأة في الجنس وفي عملية الاخصاب وهي بذلك لم تتفوق على فلسفة ارسطو[4] فحسب، (الذي رأى ان الجنين يتكون من الحيوان المنوي الذكري فقط لا يحتاج الا الى تجويف داخلي «الرحم» من اجل ان ينمو) ولكنها تفوقت ايضا على النظريات البيولوجية والنفسية (فرويد وتلاميذه) التي وصفت المرأة بالاستجابة

---

(١) ابوحامد الغزالي، احياء علوم الدين، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ص ٥٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الغزالي، احياء علوم الدين، المكتبة التجارية الكبرى ص ٥١.
(٤) Borren, P. 199

السلبية فقط اما الرجل فهو الفاعل الايجابي، ويعبر فرويد عن هذه السلبية قائلا: «ان حيوان الذكر المنوي يتحرك بنشاط ويبحث عن الانثى، اما بيضة الانثى فهي ساكنة لا تتحرك وتنتظر بسلبية»[1].

الا ان الاسلام مثله مثل الاديان السابقة عليه قد ورث الفكرة القديمة التي الصقت تهمة الشيطنة لحواء وللنساء جميعا من بعدها. ومن الاحاديث الشائعة عند العرب هذه العبارة: «ما اجتمع رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما».

بل لقد صور النبي «محمد» فتنة المرأة وجاذبيتها القوية كأنها هي الشيطان فقال في احد احاديثه: «ان المرأة اذا اقبلت اقبلت بصورة شيطان فاذا رأى احدكم امرأة فاعجبته فليأت اهله فان معها مثل الذي معها»[2].

وقد فسر الغزالي وغيره من فلاسفة الاسلام الحديث النبوي هذا بأن الرسول كان يشير الى جاذبية المرأة التي لا تقاوم انها وضعها الله في روح الرجل، وانه كان يشير الى اللذة التي يشعر بها الرجل حين ينظر الى المرأة، والى اللذة التي يشعر بها ازاء كل ما يتعلق بالمرأة، والمرأة تشبه الشيطان في قدرته على الانسان التي لا تقاوم.

وقد سادت هذه الفكرة في الفلسفة الاسلامية بصفة عامة، واصبحت المرأة، والى اللذة التي يشعر بها ازاء كل ما يتعلق بالمرأة، والمرأة تشبه الرجل امام هذه الفتنة عاجز سلبي، هي فكرة قديمة لكنها برزت في الفلسفة والثقافة الاسلامية ودعمت بالاحاديث والحكم.

ومن هنا أصبحت المرأة في نظر العرب خطرة على الرجل وعلى المجتمع وكان لا بد من عزلها في البيت بعيدا عن الرجال وعن المجتمع، او حماية الرجال منها اذا خرجت من اسوار السجن وذلك بتغطيتها ولفها بالعباءة والحجاب كما تغطى وتلف القنابل الخطرة. وقد بلغ من تغطية المرأة بالكامل في بعض المجتمعات العربية الى حد ان ظهور اصبع من اصابع يدها او قدمها كان كفيلا بإحداث «الفتنة» في المجتمع. وكلمة «الفتنة» هنا لا تعني «جاذبية المرأة الشديدة» ولكنها تعني «الفوضى» والاضطراب والشغب وانهيار المجتمع ونظامه.

---

(1) Sigmund Freud, New Introductory lectures on Psychoa nalysis, College Edition, New York: Norton and Co., 1965. P. 114.

(2) ابوحامد الغزالي، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠، ص ٦٩٦.

وعلى هذا يمكن القول ان الاسلام وضع الفلاسفة المسلمين امام حقيقتين متناقضتين هما :ـ

١ ـ ان الجنس احد متع الدنيا وزينتها وضرورة للتناسل وتقوية المجتمع .

٢ ـ ان الاستسلام لهذا الجنس يقود الى الفتنة والاضطراب في نظام المجتمع .

ولم يكن حل امام هذين القطبين المتنافرين الا ان يوضع للجنس نظام معين لا يقود الى الفتنة وانما يقود الى التناسل والمتعة في الحدود التي وضعها الله، وأولها خشية الله، كما يعبر عن ذلك احد زعماء فلاسفة المسلمين وهو الامام الغزالي الذي يقول:(١) «فالنكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل ما لا يؤتى عن عجز وعنة، وهم غالب الخلق، فان الشهوة اذا غلبت ولم تقاومها قوة التقوى، جرت الى اقتحام الفواحش»، واليه اشار بقوله عليه السلام عن الله تعالى «الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير».

لكن الغزالي يعود ويقول ان هذه الرغبة الجنسية وما ينطوي اشباعها على لذة ومتعة هي احدى متع الجنة التي وعدنا بها الله، ومن اجل دخول الجنة علينا توجيه هذه الطاقة الجنسية لعبادة الله وفي اعمال الخير والدين، ويقول: «ولعمري في الشهوة حكمة اخرى سوى الارهاق الى الايلاد، وهو ما في قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لو دامت، فهي منبهة على اللذات الموعودة في الجنان، اذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقا لا ينفع فلو رغب العنين في لذة الجماع او الصبي في لذة الملك والسلطنة لم ينفع الترغيب، واحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ليكون باعثا على عبادة الله»(٢). ان هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام، فيستحث على العبادة الموصلة اليها فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها، بتيسر المواظبة على ما يواصله الى نعيم الجنان»(٣).

ويشرح الامام الغزالي حكمة الله وارادته من خلق هذه الرغبة الجنسية عند كل من الرجل والمرأة وان هذه الحكمة والارادة قد تجلت على لسان رسول الله حين قال: «تناكحوا تكاثروا» فكيف وقد صرح بالامر، وباح بالسر، فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحراثة مضيع للبذر، معطل لما خلق الله من الالات المعدة وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة، المكتوبة على هذه الاعضاء بخط الهي»(٤).

(١) الغزالي، احياء علوم الدين، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٦٩٤.

(٢) الغزالي، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠، كتاب اداب النكاح ص ٦٩٤

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابوحامد الغزالي دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٨٩.

ومن فوائد الزواج بعد فائدة التناسل يقول الغزالي: «التحصن عن الشيطان وكسر التوقان، ودفع غائلة الشهوة وغض البصر وحفظ الفرج واليه الاشارة بقوله عليه السلام «من نكح فقد حصن نصف دينه فليتق الله في الشطر الاخر»[1].

وتعترف الفلسفة الاسلامية بقوة الشهوة الجنسية عند المرأة وعند الرجل ايضا وقال فياض بن نجيح اذا قام ذكر الرجل «عضو الرجل الذكري» ذهب ثلثا عقله وبعضهم ذهب ثلث دينه وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما «ومن شرّ غاسق اذا وقب» قال قيام الذكر (العضو الذكري) وهذه بلية غالبة، واذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين.. فهي أقوى من الة الشيطان على بني ادم واليه اشار عليه السلام بقوله: ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الالباب منكن.»[2]

وقال عليه السلام : « لا تدخلوا على المغيبات وهن اللواتي غاب ازواجهن عنهن فإن الشيطان يجري من احدكم مجرى الدم .. قلنا ومنك قال : ومني ولكن الله اعانني عليه فأسلم »[3] .

ويتضح هنا كيف كان العرب يناقشون محمدا ويعاملونه بالمثل كبشر مثلهم فاذا قال لهم ان الشيطان يجري في دمائهم قالوا له ويجري في دمائك ايضا.. ويعترف محمد بانه مثلهم فيها عدا ان الله اعانه على الشيطان فأسلم «وأسلم» هنا تعود على الشيطان اي شيطان محمد كان مسلما.. وقد اكد محمد هذا المعنى حين قال: فضلت على آدم بخصلتين.. كانت زوجته عونا له على المعصية، وازواجي اعوان لي على الطاعة، وكان شيطانه كافرا وشيطاني مسلما لا يأمر الا بخير[4].

ونرى من ذلك كيف ورث الاسلام النظرة الى حواء الآثمة التي عصت الاله وارتباط الجنس بالشيطان بالمرأة أساسا.. اما الرجل فهو وان كان ينطوي على شهوة جنسية طاغية ايضا الا انه لا يمارس الاثم الا بسبب فتنة المرأة وشيطنتها وعليه ان يتزوج ليدفع عنه شرور الشيطان وفتنة المرأة.

ويدعو الاسلام الرجال الى الزواج وقال محمد رسول المسلمين: «النكاح سنتي فمن

---

(١) المصدر السابق ص ٦٩٣.
(٢) المصدر السابق ص ٦٩٥.
(٣) المصدر السابق ص ٦٩٦.
(٤) ابوحامد الغزالي دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ـ ص ٧٠٠.

أحب فطرتي فليستن بسنتي»[1].

ورغم اعتراف الاسلام بالشهوة الجنسية عند كل من المرأة والرجل الا انه حين وضع القيود وضعها على المرأة فقط، ونسي اعترافه السابق بقوة رغبتها.

ولم ينس الاسلام ابدا ان الرجل له رغبة جنسية قوية فوضع له الحلول التي تضمن اشباعه واحل له ممارسة الجنس بالكثرة ومع اي عدد من النساء يشاء عن طريق تعدد الزوجات ونكاح الاماء والجواري واباحة الطلاق له بسهولة.

وقد شهد تاريخ العرب المسلمين هؤلاء الرجال الذين نكحوا من النساء مئات ومئات.. ويقول الغزالي: «ويقال ان الحسن بن علي كان منكاحا حتى نكح زيادة على مائتي امرأة.. وكان ربما عقد على اربع في وقت واحد، وربما طلق اربعا في وقت واحد، واستبدل بهن، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن «اشبهت خلقي وخلقي»[2].

وقد قال محمد عن نفسه انه اعطي قوة اربعين رجلا في الجماع[3]، واعترف الغزالي بان شهوة الرجل قوية وان «من الطباع ماتغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة الى الاربع»[4].

وكان من زهاد الصحابة من يفطر من الصوم على الجماع قبل الاكل وربما جامع قبل ان يصلي المغرب ثم يغتسل ويصلي، وذلك لتفريغ القلب لعبادة الله وإخراج غدة الشيطان منه[5].

وقال الغزالي ايضا: ولما كانت الشهوة اغلب على مزاج العرب ابيح نكاح الامة عند خوف العنت، مع ان فيه ارقاق الولد وهو نوع اهلاك وهو محرم على كل من قدر على حرة ولكن ارقاق الولد اهون من اهلاك الدين[6].

وكأنما الدين لا يبقى الا اذا نكح الرجل ما شاء من النساء على حساب مصلحة

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨٣.
(٢) المصدر السابق ص ٦٩٧.
(٣) محمد بن سعد الطبقات الكبرى جزء ٨ دار التحرير القاهرة، ١٩٧٠ ص ١٣٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق ص ٨٩٦.
(٦) المصدر السابق.

الأطفال. ونرى هنا تساهل الفلسفة الاسلامية مع الرجل لاشباع رغبته الجنسية وان كانت على حساب ارقاق الولد، وان كانت على حساب ظلم البريء الذي لا ذنب له، وان كانت على حساب المرأة «العبدة» التي ليست لها حقوق الزوجة وليس لطفلها حقوق الطفل الذي ولدته المرأة الحرة.

والسؤال هنا: لماذا تساهل الدين مع الرجل كل هذا التساهل؟ لماذا لم يطالب الدين الرجل ان يكبح جماح شهوته والاقتصار على زوجة واحدة كما فعل مع المرأة وفرض عليها زوجا واحدا مع انه سبق واعترف بان المرأة لديها شهوة جنسية مثل الرجل وربما أشد؟ لماذا تساهل الدين مع الرجل الى حد التضحية بمصلحة الاطفال ومصلحة الاسرة ومصلحة النساء على حين انه تشدد مع المرأة تشددا بلغ حد القتل اذا ما لاح للمرأة ان تنظر الى رجل غير زوجها؟.

وقد جعل الاسلام النكاح او الزواج المؤسسة الوحيدة التي يمارس داخلها الجنس بين المرأة والرجل، واي شيء خارج هذه المؤسسة اثم وفحش. بل ان الصبي او الرجل الذي لم يؤهله المجتمع للزواج او الذي لا يقدر على شراء «امة» او عبدة من سوق الجواري فانه لا يستطيع ان يصرف طاقته الجنسية بطريقته الخاصة، او بيده بما سمي بالعادة السرية او الاستمناء باليد.

وسئل ابن عباس عن الاستمناء باليد فقال: اف وتف! نكاح الامة خير منه وهو خير من الزنا.. فهذا تنبيه على ان العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور ادناها نكاح الامة وفيه ارقاق الولد واشد منه الاستمناء باليد وافحشه الزنا[1].

رغم هذه الشرور الثلاثة التي ابيح منها نكاح الامة وارقاق الولد فقد كانت مؤسسة النكاح للرجال تختلف عن مؤسسة النكاح للنساء وحقوق الزوج غير حقوق الزوجة.

والحق انه من الخطأ ان نستخدم اصطلاح حقوق الزوجة لان الزوجة كانسانة ليس لها حقوق في ظل نظام الزواج الا اذا كان العبد له حقوق في ظل الرق او النظام العبودي.. والزواج بالنسبة للمرأة كالرق سواء بسواء.

وقد عبر عن ذلك فيلسوف المسلمين الامام الغزالي حين قال تحت عنوان حقوق الزوج على زوجته: «والقول الشافي فيه ان النكاح نوع من الرق، فهي رقيقة له فعليها

---

(١) ابوحامد الغزالي احياء علوم الدين، دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٩٧.

طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب منها نفسها»[1].

وقال محمد رسول المسلمين: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»[2].

وحقوق الزوجة في الاسلام هي ان يعدل زوجها بينها وبين زوجاته الاخريات، هذا العدل الذي يستحيل تحقيقه كما ذكر القرآن[3] «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم». . وكان النبي محمد نفسه يفضل بعض زوجاته على البعض وقد اكد بعض رجال الدين الاسلامي الذين عارضوا تعدد الزوجات قائلين ان شرط التعدد مرهون بما يستحيل تحقيقه وهو شرط العدل بين الزوجات لان الرجل يرغب في الزوجة اللاحقة اكثر من السابقة والا فيما تزوجها، وان العدل المنصوص عليه هو العدل في المحبة او عدم الميل الى امرأة اكثر من الاخرى»[4]

ويرى بعض المفسرين ان المقصود بالعدل في الايتين الاخريين: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة» «ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»[5] هو العدل في القسم والنفقة وليس العدل في المحب الباطنة[6].

والسؤال الذي يسأل هنا: ايهما اهم للمرأة او الانسانة التي تحترم انسانيتها وكرامتها. . العدل في توزيع بعض القروش ام العدل في المحبة !! والمعاملة الانسانية؟ وهل الزواج مجرد ان تحصل الزوجة من زوجها على بضعة قروش امَ الزواج تبادل عميق في المشاعر بين الرجل والمرأة؟.

ولو فرضنا وقوع المستحيل جدلا وهو العدل بين الزوجات. . فهذا الحق يجب الا يسمى حقا لان اول صفة في الحق هو ان يكون عدلا ومتساويا بين الافراد وتعدد الزوجات مع تنفيذ شرط العدل، يعني ان نصيب المرأة ربع رجل على حين ان نصيب الرجل ٤ نساء، اما ان تتساوى النساء في الظلم فمثل ان يتساوى العبيد في ظل نظام

(١) ابوحامد الغزالي احياء علوم الدين دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ص ٧٤٦ (كلمة رقيقة هنا معناها عبدة وهي مشتقة من كلمة الرق).

(٢) المصدر السابق.

(٣) القرآن في سورة النساء الآية ١٢٩.

(٤) الزمخشري جزء ١ ص ١٤٣ جزء ٥ ص ٤٠٧، ٤٠٨.

(٥) القرآن سورة النساء الآية ٣ و١٢٩ .

(٦) القرطبي جزء ٥ ص ٢٠ ـ ٢٢، الجلالين جزء ١ ص ٢٧، الحصاص احكام القرآن.

العبودية الظالم وهذا لا يمكن ان يسمى عدلا او حقا.

وكما وجد نظام الرق لصالح السيد ومنفعته ضد مصالح العبد فقد وجد نظام الزواج الابوي لصالح الرجل ومنفعته ضد مصالح المرأة والاطفال ايضا.

وعن فوائد الزواج للرجل يقول الامام الغزالي: «تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الاواني وتهيئة اسباب المعيشة فان الانسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده اذا لو تكفل بجميع اشغال المنزل لضاع اكثر اوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق واختلال هذه الاسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش.. ولذلك قال سليمان الداراني: الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فانها تفرغك للاخرة وانما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعا[1].

ونفهم من هذا ان الزوج لا يمكن ان يتفرغ للدين او العلم الا اذا كانت له زوجة تتفرغ لاعمال منزله وخدمته واكله وتنظيف ملابسه.. والسؤال هنا هو: والزوجة..؟ كيف تتفرغ الزوجة للدين والعلم؟.

ويتضح لنا ان احدا لم يفكر في هذا وكان المفروض ان الزوجة ليس لها وظيفة في مجال الدين والعلم وان وظيفتها الوحيدة في الحياة هي الكنس والطبخ والغسيل وتنظيف الاواني وغير ذلك من الاعمال التي اطلق عليها الغزالي اسم الشواغل والمشوشات للقلب والمنغصات للعيش، ولو ان الرجل قام بها لضاع وقته وتعذر عليه العمل في مجالات العلم والدين.

ونرى هنا كيف تم الغاء عقل المرأة وطموحها الفكري والعلمي والثقافي من اجل ان يتفرغ الرجل في هذه المجالات، ويفرض الرجال على المرأة الاعمال المنزلية اي الشواغل والمشوشات والمنغصات التي تبلد العقل ثم يقولون عنها ناقصة عقل ودين.. وتقوم الزوجة بكل هذه الاعمال بغير اجر الا طعامها، ولا يقتصر الزوج على استغلال عقل المرأة عن طريق الغائه وعدم تنميته بالعمل والمعرفة، ولا يقتصر على تسخيرها في اعمال الخدمة بغير اجر ولكنه استغل المرأة ايضا في اشباع شهوته الجنسية نظير طعامها ايضا وبالقدر الذي يريده منها.. ويدخل ذلك ضمن واجبات الزوجة، فالزوجة يجب

---

(١) الغزالي المصدر السابق ص ٦٩٩.

ان تلبي رغبة زوجها في اي وقت فان عجزت او مرضت او غضبت او امتنعت او منعها اولياؤها يحق له ان يطلقها وتسقط نفقتها.

ويدخل ضمن واجبات الزوجة.. طاعة زوجها طاعة مطلقة، لا يحق لها ان تناقشه او تسأله او تخالفه، اما الرجل فانه لا يطيع زوجته بل من الخير الا يطيع الرجل زوجته.

وقال عمر بن الخطاب: «خالفوا النساء فان في خلافهن بركة».وقد قيل شاوروهن وخالفوهن.وقال عليه السلام «تعس عبد الزوجة» وقال الحسن: والله ما اصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى الا كبه الله في النار[1].

ومن حقوق الزوجة أن يدفع لها الرجل شيئا من المال (سمي المهر) حين يتزوجها ويدفع لها شيئا من المال (سمي النفقة) حين يطلقها وعليه ان يطعمها ويكسوها ويسكنها في منزل.. وليس على المرأة ان تشترط مواصفات لهذا المنزل فقد يكون هذا المنزل مجرد خُصّ او كوخ.. حسب مقدرة الزوج المالية وليس لها ان تشترط المهر او النفقة او نوع طعامها او ملابسها فكل ذلك يحدده الرجل حسب مقدرته المالية.

وللام في الاسلام ان تطلب اجرة على ارضاع طفلها[2] وعلى الاب ان يؤدي لها الاجرة من ماله اذا لم يكن للطفل مال والا فمن مال الطفل، ولا تجبر الام على الارضاع وانما تستحق الام الاجرة اذا طلبتها اذا لم توجد امرأة متبرعة بارضاعه ورضي بها ألاب.. والا فاذا وجدت امرأة متبرعة رضي بها الاب فليس للام اذا اختارت ارضاع طفلها ان تطلب اجرة على الارضاع.

ونرى هنا ان رضى الاب هو العنصر الحاسم وهو يستطيع ان يمنع الام من ارضاع طفلها اذا طلبت أجرا ويأتي بمرضعة اخرى اقل اجرا او بغير اجر.

وتستحق الام كذلك اجرا على حضانة طفلها (الحضانة تعني هنا تارة ارضاع الطفل وتارة خدمته وتربيته) الا اذا وجد متبرع بالحضانة فليس لها في هذه الحالة ان تطلب اجرا اذا ارادت ان تتولى الحضانة بنفسها.

ولا تمثل مثل هذه الحقوق الضئيلة المشروطة بشروط صعبة التحقيق شيئا يذكر بل

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠٦.

(٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الاسلام وتنظيم الوالدية، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، المكتب الاقليمي للشرق الاوسط وشمال افريقيا ١٩٧٤ ـ الجزء الثانى ص ٨٤.

انها تعطي الرجل حق الاستغناء عن الام فورا اذا طلبت اجرا، وهذا الشرط يفرض على النساء الارضاع والحضانة بغير اجر. فالاغلبية الساحقة من النساء بسبب التربية الابوية الصارمة وتضخيم المجتمع لوظيفة الامومة وجعلها مقدسة لا يستطعن الا ان يضحين في سبيل اطفالهن بكل شيء حتى حياتهن فما بال مجرد الاجر؟.

ان استغلال الزوجة والام يتمثل في انها تقوم بعدد من الوظائف الهامة بغير اجر. فهي طباخة وغسالة وخادمة ومرضعة وحاضنة ومربية بالاضافة الى اداة جنس وامتاع لزوجها، كل ذلك بغير اجر اللهم الا طعامها وكساءها اي ابخس اجر يمكن ان يحصل عليه الاجير.

ان استغلال المرأة يقوم على ان الرجل يدفع لها ابخس اجر، والرجل هو الذي يحدد ما يدفع، قد يكون قروشا وقد يكون طعاما او كساء لكنه شيء يدفعه الرجل ويبرر به سيادته على المرأة فالرجال قوامون على النساء بما انفقوا من اموالهم.

فرضت سيادة الرجل على المرأة بسبب قروش تدفع وفرض على المرأة زوج واحد حفاظا على قروش الرجل من ان يرثها اطفال غير اطفاله. فالحفاظ على القروش او الارث هو الذي وراء تلك القوانين الصارمة المتشددة التي تنشد اخلاص الزوجة لزوجها حتى لا تختلط الانساب.: وليس من اجل الحب بين الزوجين. لانه لو كان الحب بين الزوجين هو الاساس الذي يقوم عليه الاخلاص الزوجي لاصبح هذا الاخلاص مطلوبا من الزوج والزوجة بالتساوي، اما ان يطلب الاخلاص من المرأة فقط ويفرض عليها زوج واحد على حين يباح لزوجها تعدد العلاقات فان هذا دليل على ان الاخلاص الزوجي ليس قيمة اخلاقية ولكنه احد وسائل القمع الاجتماعي للزوجة حتى لا تختلط الانساب، والانساب هنا هي انساب الرجال فقط، ان عدم اخلاص الزوجة لزوجها سوف يحطم على الفور النسب الابوي وما يتبعه من ارث.

ومعنى ذلك ان الفلوس هي التي تفرض الاخلاق. والمفروض في الاديان وفي الاسلام ان الاخلاق ترتكز على المبادىء الانسانية وليس على الفلوس. وقد نص القرآن «.. وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى»[1]، و «ان اكرمكم عند الله اتقاكم».

وقد ادركنا من قبل كيف فطن المجتمع الى الطبيعة البيولوجية والجنسية القوية للمرأة

(١) القرآن الكريم سورة سبأ الآية ٣٧.

التي شبهها بقوة الشيطان، ومن هنا لم يكن في استطاعة المجتمع أن يفرض اخلاص المرأة وعفتها الا بان يحول بينها وبين جميع الرجال الا زوجها، والرجال المحرمين عليها مثل الاب والاخ والعم والخال، وهذا هو السبب في نشوء ظاهرة الفصل بين الجنسين وتحريم اختلاط الرجال بالنساء وذلك بحبس النساء في البيوت. ان تحريم خروج النساء من البيوت يحقق ثلاثة اهداف في وقت واحد هي :-

١ - يضمن اخلاص المرأة وعفتها لعدم اختلاطها برجل غريب.

٢ - يفرغ المرأة تماما لاعمال البيت وخدمة الرجال والاطفال والمسنين.

٣ - يحمي الرجال من خطر النساء وفتنتهن القوية المهلكة التي قد تذهب ثلثي عقله وتمنعه من التفكير في الله والدين والعلم كما قال بعض الفلاسفة في الاسلام:

ويستعير فلاسفة الاسلام من اسطورة آدم وحواء معظم افكارها فيرون المرأة مثل حواء قد انطوت على قوة مهلكة للرجل وللمجتمع وللدين، وان الحضارة قد بنيت على صراع ضد هذه القوة لتخضعها من اجل حماية الرجال منها وعدم انشغالهم بها عن واجباتهم تجاه الله والمجتمع.

ومن اجل الحفاظ على المجتمع والدين كان لا بد من فصل الجنسين واخضاع النساء بالحديد والنار كما يقولون. فالحديد والنار وحدهما اللذان يستطيعان ان يخضعا العبيد لاحكام ظالمة قائمة على الاستغلال. وحال المرأة في الزواج اسوأ من العبيد لانها تستغل جنسيا واقتصاديا في آن واحد، بالاضافة الى القهر الاخلاقي والديني والاجتماعي. وينال العبيد عن جهدهم بعض الأجر او الجزاء ، لكن الزوجة تنهض بأعمال الخدمة والبيت ورعاية الاطفال والمسنين بغير اجر، والعبيد قد يطلق سراحهم السيد فيصبحون رجالا احرارا لهم كل حقوق الرجال الاحرار واولها ان الرجل له عقل ودين. . اما النساء وطالما هن نساء فلا امل في ان يكون لهن عقل الرجل ودينه.

ولان الرجل أعقل من المرأة فقد اصبح من حق الرجل وحده (وليس المرأة) ان يكون الحاكم والامام والمشرع والوالي، وان من اول شرائط الامامة في الاسلام او الولاية هي «الذكورة»[1]، ثم الورع والعلم والكفاية.

ومن كل ما سبق يمكن تلخيص الافكار التي ارتكز عليها بعض فلاسفة الاسلام في علاج مشكلة الجنس والمرأة على النحو الاتي:-

---

(١) الامام أبوحامد الغزالي دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ الفصل الثالث ص ٢٠٢.

١ ـ الرجال قوامون على النساء لانهم ينفقون من اموالهم ولانهم اكثر عقلا وورعا وعلما ودينا، وللزوج السيادة وعلى الزوجة الطاعة.

٢ ـ تفريغ طاقات الرجال في العبادة والدين والعلم وذلك عن طريق تفريغ النساء لخدمة الرجال في البيوت من حيث المآكل والمشرب والمغسل ورعاية الاطفال والمسنين.

٣ ـ اشباع رغبات الرجال الجنسية حتى يتفرغوا للدين والله والعلم والمجتمع ويتم هذا الاشباع عن طريق النكاح من اجل التناسل ومن اجل تذوق احد متع الجنة للتسابق الى دخول الجنة. وللرجال الحق في اشباع رغباتهم بالكامل باي عدد من الزوجات والاماء والجواري اما الاستمناء باليد فهو شر واشر منه الزنا.

ان الذكور الذين لا يجدون وسيلة لاطفاء الرغبة الجنسية الا عن طريق الاستمناء باليد (المراهقون الصغار) او الزنا (الرجال الفقراء الذين عجزوا عن شراء زوجة او امة) هم الذين منعوا فقط من حق الاشباع الجنسي (وفرضت عليهم العفة) «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله»[1] (ومن استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء).

٤ ـ خطر المرأة وفتنتها قوّة مهلكة ولا بد من حماية الرجال من فتنة النساء وذلك بحبس النساء في البيوت فالرجل معرض للهلاك اذا استسلم للنساء وقد قال ابراهيم بن ادهم «من تعود افخاذ النساء لم يجيء منه شيء»[2].

٥ ـ يحظر على النساء الخروج من البيت الى عالم الرجال الخارجي الا للضرورة القصوى، وفي حالة خروج النساء من البيت يتحتم عليهن الا يظهرن اي شيء من فتنتهن وذلك بتغطية احسادهن وحفظ فروجهن وعدم اظهار مفاتنهن او زينتهن.

ويتضح لنا الان السبب الحقيقي وراء ذلك الحجاب الذي لم يكن موجودا في بدء الاسلام ولا في حياة محمد لكنه شاع في المجتمعات العربية بعد ذلك وما زالت بعض البلاد العربية حتى اليوم تحجب نساءها بالكامل كالمملكة العربية السعودية. فالحجاب لم ينشأ لحماية المرأة وانما انشيء الحجاب من اجل حماية الرجل اساسا. والمرأة العربية لم تحبس في البيت حماية لها ولاخلاقها وانما هي حبست حماية للرجل ولاخلاق الرجل.

كأنما يقول المجتمع بهذا ان اخلاق الرجل اضعف من اخلاق المرأة، وأن قدرة الرجل على حماية نفسه اقل من قدرة المرأة، وان الرجل أمام رغبته الجنسية ضعيف واقل سيطرة

---

(١) القرآن سورة النور ٣٣.

(٢) ابو حامد الغزالي احياء علوم الدين دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ـ ص ٧٠٦.

عليها من المرأة، وانه اذا كان هناك من هو اقوى من الاخر فلا شك انه ليس هو الرجل، هذا رغم ما اشاعه المجتمع عن ضعف المرأة وعدم قدرتها على مقاومة الاغراء.

وترتكز الثقافة العربية الاسلامية في باطنها وليس في ظاهرها على ان المرأة قوية وليست ضعيفة، وايجابية وليست سلبية، وفتاكة وليست مفتوك بها، وأنه اذا كان هناك من هو جدير بالحماية فانه الرجل بغير شك.

وقد كانت قوة المرأة هذه هي التي افزعت الرجل البدائي وهي التي اقتضت منه ان يقمعها بجميع الوسائل الدينية والقانونية و 'قتصادية والاجتماعية والاخلاقية. وكان لا بد لجميع هذه الوسائل ان تعمل معا بقوة وشدة وصرامة من اجل اخضاع تلك الطبيعة القوية للمرأة، وهذا امر منطقي، فان قوة الشيء هي التي تحدد القوة المطلوبة لاخضاعه، ولهذا فان اشد القوانين عنفا وصرامة هي تلك المتعلقة بالتحريمات والمحظورات على حياة المرأة الجنسية.

لقد كان القتل والحرق احيانا اخف هذه القوانين، ومع ذلك فهناك من العلماء من يعتقد ان قوة المرأة البدائية كانت اقوى من هذه القوانين التي وضعها الرجل، وانها قاومت النظام الابوي في بدايته الاولى دفاعا عن طبيعتها وحياتها الحرة السابقة في ظل النظام الأمومي، وان احد الاسباب التي عطلت مسيرة الحضارة الابوية الذكورية اكثر من ستة الاف سنة لم يكن الا تلك الطبيعة الجنسية القوية للمرأة البدائية(1).

ونستطيع ان ندرك بعد ذلك السبب الذي يجعل بعض الرجال حتى اليوم يقتلون المرأة اذا خرجت عن القوانين الجنسية والاخلاقية المفروضة عليها. وفي صعيد مصر حتى اليوم تسمع عن الاب او الاخ او العم الذي قتل البنت لان دم العذرية لم يظهر ليلة الزفاف، او هذا الزوج الذي يطلق الرصاص على زوجته اذا رآها مع رجل اخر.

وقد شجع الاسلام الرجال على الزواج بل جعله واجبا دينيا، ومن الامثلة العربية الشائعة «الزواج نصف الدين». كما اباح الاسلام للرجال تعدد الزوجات، وتعدد العلاقات الجنسية خارج الزواج عن طريق معاشرة الجواري والاماء والسراري، واقتضت هذه الحرية الجنسية ان يتفاخر الرجال بعدد النساء اللائي يملكون سواء كن زوجات او جواري، وان يتفاخروا بالتالي بقوتهم الجنسية.

---

(1) Mary Jane Sherfey, The Natureand Evolution of Female Sexuality, Vintage Books, 1973. P. 137 - 140.

وقد ارتبطت القوة الجنسية عند الرجال العرب بالرجولة والفحولة، واصبح من العار ان يعرف عن الرجل انه ضعيف جنسيا. ولم يكن هناك من احد قادر على الحكم على الرجل من حيث القوة الجنسية او ضعفها الا المرأة بالطبع. ومن هنا ايضا السر في قوة المرأة الخفية ومحاولة المجتمع حماية الرجل منها، وذلك بتعمية عيون النساء وتغطية وجوههن وحجب عقولهن بحيث لا يعرفن القوي من الضعيف، ومن هنا ارتفاع قيمة العذراء عن الثيب في الزواج، فالعذراء جاهلة بالرجل والجنس اما الثيب فقد خبرت الجنس والرجل من قبل ويمكن لها ان تكتشف القوي من الضعيف، وهذا هو سبب انخفاض قيمة الارمل او المطلقة.

ولم يكن محمد نبي المسلمين يتبع هذه القاعدة الشائعة في زواجه فقد تزوج اربع عشرة زوجة كن جميعا ثيبات مطلقات او ارامل، فيما عدا زوجة واحدة هي عائشة تزوجها بكرا.

وقد كان «محمد» اكثر تقدما واكثر تحررا من الرجال الذين خلفوه بل من كثير من رجال اليوم الذين يفضلون العذراء بل يبحثون عن دم العذرية ليلة الزفاف، وما زالت عندنا في ريف مصر تلك العادة الشائعة من فض غشاء بكارة العروس باصبع «الداية» او اصبع الزوج وتلقي دم العذرية على خرقة بيضاء ثم عرضها على الناس كدليل مادي واضح على شرف البنت واسرتها.

وقد اتضح لنا كيف انحدر حال المرأة العربية في الفلسفة والثقافة الاسلامية عن حالها في حياة محمد رسول المسلمين او في جوهر الاسلام ذاته. وقد نتج عن فصل عالم الرجال عن عالم النساء وحبس النساء داخل البيوت ان اصبحت تقاليد الشرف والعزة في المجتمعات العربية ترتبط بالعذرية وباحتجاز النساء في البيوت. ومن الامثلة الشعبية التي شاعت في المجتمع الفلسطيني حتى منتصف القرن العشرين ذلك المثل «مرتي عمرها ما تركت البيت الا محمولة» اي محمولة الى قبرها[1]. وقد سمعت عن جدتي لامي انها لم تخرج الى الشارع الا مرتين في كل حياتها، مرة حين خرجت من بيت ابيها الى بيت زوجها، والمرة الثانية والاخيرة حين خرجت من بيت زوجها الى قبرها، وفي المرتين لم يكن

---

(١) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المرأة الفلسطينية، مجلة التراث والمجتمع، مطبعة التقدم، القدس، العدد ٢ يوليو ١٩٧٤، ص ٣٩.

يظهر منها للاعين شيء[1]

وقد بلغ من شدة الفصل بين عالم الرجال وعالم النساء ان المرأة التي كانت تخرج من بيتها كانت تتعرض للاذى من الرجال، وقد يكون هذا الاذى مجرد نظرات متبجحة، او تعليقات جنسية نابية، او ان تمتد لها يد رجل او صبي فتمسكها من ذراعها او ثديها وفي بعض الاحيان قد يقذفها الصبية في الحواري بالحجارة ويجرون خلفها يرددون التهكمات او الالفاظ الشعبية الجنسية التي تسب الاعضاء الجنسية للمرأة علنا. ومازلت اذكر كيف كنت اخشى السير بمفردي في بعض احياء القاهرة وانا تلميذة في المدرسة الثانوية (١٩٤٣ ـ ١٩٤٨) وكيف كان الصبية احيانا يقذفونني بالحجارة او يقولون لي باللغة العربية العامية بعض انواع السباب الشائعة مثل «اللعنة على عضو امك الجنسي» او « يا ابنة المرأة التي نكحها الرجال» (وفي مجتمعات عربية اخرى تعرضت النساء للاذى في الشوارع لمجرد ان اصابع ايديهن كانت ظاهرة للعيان»[2] .

وهذا الايذاء من جانب الرجال للمرأة الخارجة عن الحدود الموضوعة لها وهو البيت، او المعتدية على عالم الرجال باقتحامه والسير فيه يدل على ان الرجل لم ينظر الى المرأة كمخلوق سلبي ضعيف وانما نظر اليها كمعتدية على الرجل وتستحق العقاب لتعود بسرعة الى حدودها. وتتضمن هذه النظرة الفكرة السابقة بان المرأة قوية، وقد اراد الرجل ان يحمي نفسه من المرأة بكافة الوسائل وهو لم يحبسها في البيت فقط، ولكنه احاط عالمه بالاشواك والموانع والمدافع والاستحكامات حتى اذا ما خطت المرأة خطوة واحدة نحو هذا العالم الرجولي انفجر في وجهها مدفع رشاش وان كان حجارة او سباباً تنهال على امها وجنسها.

اما عالم النساء فهو في نظر الرجل شيء محاط بالالغاز والاسرار الغامضة غموض السحر والشيطنة والعفاريت، هو عالم يستوجب من الرجل حين يضطر الى الدخول اليه ان يستعيذ بالله الذي لا حول ولا قوة الا به ويردد اسماء الله كلها، فيقول الرجل العربي حتى اليوم في ريف مصر حين يدخل الى البيت الذي فيه نساء: يا حافظ، يا حفيظ،

(١) كانت جدتي لأمي تعيش في القاهرة (١٨٩٨ ـ ١٩٤٨) ولم يكن لها من عمل سوى اعمال البيت من رعاية الاطفال والزوج، وكانت تنتمي الى اسرة متوسطة أو فوق المتوسطة لكن جدتي لأبي والتي كانت تعيش في الفترة نفسها في قريتنا «كفر طحلة» لم تعرف الحجاب وكانت تخرج كل يوم من البيت للعمل في الحقل أو الشراء أو البيع في السوق أسوة بكل الفلاحات من الاسر الفقيرة في الريف.

(٢) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المرأة الفلسطينية ص ٤٠.

يا لطيف، يا ستار يا رب، يا ساتر يا كريم.

وفي بعض المجتمعات[1] العربية قد يضيف الرجل قائلا: «دستور» (بمعنى افساح الطريق) وهي الكلمة نفسها الشائعة جدا والتي يقولها الريفي (او الريفية) لطرد العفاريت او الجان من المكان[2].

وارتباط المرأة بالعفاريت والارواح الشريرة فكرة سادت ولا تزال تسود كثيراً من انحاء الشرق والغرب، وهي موروثة عن قصة حواء والاعتقاد بانها ايجابية في الشر ولها صلة بالشيطان. وقد ادى ظهور الصوفية في الاسلام الى منح النساء فرصا للوصول الى مراتب الوليات، لكن نسبة النساء الوليات الى الرجال الاولياء ضئيلة جدا، اما الارواح الشريرة فتقول احدى الدراسات العربية ان نسبة الارواح الانثوية فيها ٨٠٪[3].

ان معظم الدلائل في تاريخ الرجال العرب تدل على أن المرأة لم تخف من الرجل بقدر ما خاف منها الرجل، الا أن مأساة الرجل العربي وغير العربي انه يخاف من المرأة ويرغبها في آن واحد. واستطيع ان اقول ان الرجل العربي قد تغلب على خوفه من المرأة اكثر مما فعل الرجل الغربي، او ان رغبة الرجل العربي في المرأة فاقت خوفه منها ،أكثر مما فعل الرجل الغربي، وقد يرجع ذلك الى اختلاف ظروف كل منهما واعتراف الاسلام بالمتعة الجنسية (على خلاف المسيحية).

وادى هذا بطبيعة الحال الى ان تحتل امور الجنس والحب حيزا اكبر في حياة العرب واشعارهم وادابهم وفنونهم، وفي مقابل ذلك انتشرت ايضا الاقوال المأثورة عن فلاسفة العرب وادابهم التي تحذر من الافراط في ملذات الجنس او الاستسلام لها، وتحذر الرجال من الغرام بالنساء والوقوع في سحرهن. ومن العبارات المعروفة التي قالها ابن المقفع:

«اعلم ان من اوقع الامور في الدين، وانهكها للجسد واتلفها للمال، واضرها

---

(١) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المرأة الفلسطينية ص ٣٩.

(٢) كنت اسمع هذه الكلمة تتردد كثيرا على السنة الفلاحين والفلاحات في قريتي في حفلات الزار أو حين تذكر سيرة العفاريت والجان، فيصيح الواحد منهم دستور بمعنى اللهم اطرد العفاريت من طريقنا وتستخدم الكلمة نفسها بمعنى افساح الطريق وحفظ النظام، والكلمة تعني ايضا النظام الموضوع او القوانين الدستورية.

(٣) توفيق كنعان، الينابيع المسكونة وشياطين الماء (في فلسطين) مجلة التراث والمجتمع مطبعة التقدم، القدس، العدد ٢، يوليو ١٩٧٤، ص ٣٨.

بالعقل، وازراها للمروءة واسرعها في ذهاب الجلال والوقار الغرام بالنساء»[1].

واني اعتقد ان ابن المقفع لم يكن يوجه نصيحته هذه الا لهؤلاء الرجال الذين يملكون الجلال والوقار والمال الذي يحذرهم من فقدانه بسبب الغرام بالنساء. اما هؤلاء الرجال الذين لم يكونوا يملكون المال او الوقار او الجلال وهم بغير شك الاغلبية الساحقة من الشعب فلم تكن نصيحة ابن المقفع تفيدهم او تعنيهم في شيء، لان الرجل منهم بحكم افتقاره الى المال والجلال والوقار يفتقر الى الوسائل الاساسية التي يمكن بها ان يحظى بزوجة شرعية واحدة يدفع مهرها وينفق عليها وعلى اولادها فما بال الامر بقدرته على ان يصول ويجول في عالم الغرام بالنساء؟.

وفي المجتمع العربي كغيره من جميع المجتمعات الابوية الطبقية والقائمة على الفروق الكبيرة بين الطبقات لم تكن الحرية الجنسية او حياة الجنس والحب واللهو الا من نصيب الاقلية القليلة، اما الاغلبية الساحقة من الرجال والنساء فلم يكن نصيبهم الا التلظي بالحرمان والخضوع للتقاليد والقوانين التي تحرم الجنس الا لمن يستطيع ان يدفع الثمن.

وقد عرف عن العرب بسبب شظف العيش وصعوبة الحصول على الرزق في مجتمع متخلف وبسبب استغلال الحكام لهم في الداخل والخارج عرف عنهم الجلد والصبر وتحمل الحرمان سواء كان حرمانا من الطعام او الشراب او الجنس، الا ان الشعب العربي كغيره من الشعوب في كل زمان ومكان كان قادرا دائما على تعويض هذا الحرمان باشياء اخرى. ولعل هذا يفسر لنا سبب اقبال الشعب العربي على سماع قصص الف ليلة وليلة بكل ما فيها من حكايات جنسية مثيرة. ان هذا الاقبال على السماع او الترديد لم يكن الا تعويضا عن الحرمان في الحياة الواقعية، ان هذه الاقاصيص كما يقول صادق العظم:

«تروي احداث علاقات غرامية تبدو مثيرة لانها تتعارض والعرف الاخلاقي السائد والشريعة التي تسيطر على حياة المجتمع ومفاهيم الحلال والحرام المعمول بها، لذلك نجد الزوجات يخن ازواجهن مع عشاقهن او عبيدهن، والفتيات العذارى يلاقين الشباب من عشاقهن سرا، والرجال يهجرون زوجاتهم ويسعون الى عشيقاتهم خفية، وجميعهم يعمل على تحقيق رغباته الجامحة المتدفقة بشتى الاساليب بما فيها الاحتيال والكذب والتحذير والفرار.. الخ. لا ريب ان طغيان هذه الموضوعات على القصص الشعبي المذكور يتجاوب مع رغبات عميقة في نفس كل انسان يعيش حياة المجتمع الرتيبة وتتوق نفسه

(١) ابن المقفع، الادب الصغير والادب الكبير، مكتبة البيان، بيروت ١٩٦٠، ص ١٢٧.

لتحقيق التجربة العاطفية العنيفة، ولكن ما العمل حين يكون كل شيء حوله واقفا له بالمرصاد ليمنعه من السير على هذه الطريق الوعرة والخطرة، فيجد في هذه القصص والحكايات بديلا عن التجربة الممنوعة عرفا وتقليدا»[1].

هذه التقاليد وهذا العرف في المجتمع العربي كان في حقيقة الامر يفرض القيود على الجنس اكثر مما كان يبيحها، وينزع الى فصل الحب عن الجنس، والروح عن الجسد، تلك النزعة التي توارثتها البشرية عن اليهودية والفكرة التي سادت عن تأثيم الجنس وجعله ملوثا او مدنسا.

وقد ربط العرب بين الحب والروح، وآمنوا بان الحب روحي خالص كحب الله وكحب الوطن وحب الأم، ثم هبطوا بالجنس والجسد الى الرغبات الارضية الحيوانية التي يجب الا تلوث مشاعر الحب السامية.

وكما نشأ الحب الرومانتيكي في الغرب فقد نشأ الحب العذري عند العرب، وبلغ من شدة الفصل بين الحب والجنس ان العرب فصلوا ايضا بين الحب والزواج، فاصبح من المحرم على الرجل الذي يحب امرأة ان يتزوجها، وفي تاريخ العرب كثير من قصص الحب العذري، كقصة «جميل» الذي احب «بثينة» حبا جارفا فارغمها اهلها على الزواج برجل آخر دميم اعور، وهناك قصة «قيس» الشاعر العربي الشهير الذي ملأ السماء والارض شعرا في حب «ليلى» فمنعوه من الزواج منها وزوجوها لرجل آخر، وهذه «عفراء» التي احبها «عروة بن حزام» ثم لم يتزوجها.

ويزخر ادب العرب واشعارهم بمآسي الحب العذري، ويترنم العرب بالعذاب في الحب ويتلذذون بألام الفراق والشوق والحرمان، ومن أقوال ابن حزم[2] «والحب داء عياء ومقام مستلذ وعلة مشتهاة، ولا يود سليمها البُرْء، ولا يتمنى عليلها الافاقة».

واستلذ بلائي فيك يا أملي ولست عنك مدى الايام انصرف

وهذه النزعة الى استعذاب الالم او «الماسوشية» ليست صفة العرب وحدهم، ولكنها صفة البشرية باجمعها منذ نشأت الفكرة بفصل الجسد عن الروح وتأثيم الجنس. وقد تميز الانسان عن الحيوان بكبر حجم مخه وتطوره العقلي المستمر للتغلب على مخاطر الارض

---

(١) صادق جلال العظم، في الحب والحب العذري، منشورات نزار قباني، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٩.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١١.

وعواصف الطبيعة والكوارث التي يقابلها في حياته، وفي رأيي ان احدى الكوارث التي واجهت الانسان في حياته هي تلك الفكرة بفصل الروح عن الجسد وتأثيم الجنس. ان هذه الفكرة في رأيي كان من الممكن لها ان تفتك بالانسان فتكا اشد من فتك وحوش الغابة لولا قدرة عقل الانسان على التطور والتكيف المستمر. ان اي حيوان بغير عقل لم يكن امامه ازاء هذه الفكرة الا طريقان اثنان اما الامتناع الكامل عن الجنس الذي يقود الى انقراض هذا الحيوان من فوق الارض، واما ممارسة الجنس ثم الموت كمدا وندما على اقتراف هذا الذنب الشنيع، وكلا الطريقين يقود الى الموت بغير شك.

لكن عقل الانسان، وهو سلاحه الوحيد في الحياة، استطاع ان ينتصر على هذه الفكرة بمثل ما انتصر على الاسود والنمور. واذا عرفنا ان انتصاره على هذه الاسود والنمور لم يكن ابدا بالمواجهة او المصارعة الحرة الشجاعة وانما بالدهاء والذكاء والهروب من المآزق بالاختفاء فوق الشجر، ادركنا ان الانسان لم يواجه هذه الفكرة بالمصارعة الحرة الشجاعة وانما لجأ الى الهروب والاختفاء طلبا للحماية والافلات من المآزق. ولم تكن «الماسوشية» او استعذاب الالم الا نوعا من الحماية، حاول الانسان ان يعالج بها احساسه الطاغي بالذنب، وكأنه يقول لنفسه: نعم انا مذنب بممارسة الجنس ولكني اكفر عن ذنبي بهذا الالم الشديد، الذي اتحمله بكل صبر، بل بلذة ايضا.

وكم اخطأ «فرويد» حين وضع نظريته عن سيكولوجية المرأة وجعل الماسوشية ركنا اساسيا فيها وجزءا من الطبيعة التي ولدت بها، فالمرأة ليست هي وحدها الماسوشية، ولكن الرجل ايضا ماسوشي، وكلاهما ضحية تلك الفكرة التي فصلت بين الجسد والروح. ولان تهمة الجسد والجنس الصقت بالمرأة اكثر من الرجل فيمكن القول ان احساس المرأة بالذنب اشد من احساس الرجل وبالتالي فان حاجتها الى الالم اكثر من حاجة الرجل للتكفير عن هذا الذنب، وقد اوحت اليها التوراة بهذا الالم حين قالت لها «تلدين في الاسى والالم».

وكان الاجدر «بفرويد» ان يبحث عن اسباب ماسوشية المرأة في التاريخ والمجتمع بدلا من ان ينسبها الى طبيعتها وتكوينها البيولوجي والنفسي كأنثى.

ومن المهم ان اذكر هنا ان بعض العلماء العرب قد حاولوا مناهضة هذه الفكرة الفاصلة بين الجسد والروح، وقد حاول بعضهم عقد مصالحة بين الجسد والروح.

احد هؤلاء العلماء والمفكرين القدامى هو الشيخ ابو علي الحسن بن علي بن سينا (الشهير بان سينا) والذي توفي سنة ٤٣٨ هـ، وقد سبق ابن سينا علماء وفلاسفة الغرب في نظرته العلمية الشاملة للانسان وتقديره للجسد والاحاسيس الحسية، وكان ابن سينا من الاوائل في العالم اجمع الذي طالب بعدم الفصل بين الجسد والنفس واعادة الصلة الاصلية الموجودة في الانسان بين الجنس والحب، فالانسان وحدة واحدة لا تتجزأ.

المرأة في الادب العربي

لم تختلف الصورة التي رسمها الادباء العرب القدامى والمعاصرون للمرأة عن صورتها في عيون ادباء الغرب الا في التفاصيل او بعض الاختلافات التي يقتضيها اختلاف الظروف والسبق او التأخر في مجال عن مجال. وكلها اختلافات سطحية لا تمس جوهر الصورة عن المرأة كمملوكة للرجل بحكم النظام الابوي سواء كان زراعيا ام صناعيا ام رأسماليا، متخلفا ام متقدما، في الشرق او في الغرب، مسيحيا او اسلاميا.

واذا كان الفن او الادب يرتكز في مضمونه على الصراع، وسواء انتهى هذا الصراع بالفشل او النجاح فهو نوع من الدراما او المأساة التي تستحق الرواية، وتستحق التسجيل سواء كانت مبكية او مضحكة، سواء كانت تراجيديا ام كوميديا، وكم من صراعات ومفارقات في حياة الانسان تدعو الى الضحك والبكاء معا.

ولعل أهم هذه الصراعات جميعا هو الصراع بين الرجل والمرأة منذ انتزع منها حقها (الطبيعي والمنطقي) في النسب،ولان انتساب الاطفال الى الرجل كان ولا يزال امرا غير طبيعي وغيرمنطقي، فقد ظل الصراع بين الرجل والمرأة مستمرا منذ بدأ النظام الابوي حتى اليوم، وظل الرجل متخوفا حتى اليوم من ان ينتهي الصراع بانتصار المرأة واستردادها لحقها الطبيعي الأول. والدليل على خوف الرجل من المرأة انه لا يزال يحوطها بالسلاسل والقيود التي قد تكون قوانين صارمة مقدسة او نظريات علمية نفسية واخلاقيات معينة او حتى عواطف ظاهرها الحب والنبل والحماية وباطنها الغيرة والاستحواذ والسيطرة والامتلاك.

الدليل على خوف الرجل من المرأة انه لا يزال يقيدها ويملكها بشتى الوسائل وهو يقيدها بوعي وبغير وعي، وكأنما هو في اللحظة التي يكف فيها عن تقييدها فسوف ينقلب الوضع فورا وتصبح المرأة هي الاعلى وليس الادنى، وهي الاقوى وليس الاضعف.

وبرغم ان الرجل بذل كل ما عنده لابتكار قيود للمرأة منذ خمسة او ستة الاف سنة الا ـ انه لم يتخلص قط من خوفه من المرأة ومن حاجته المستمرة لان يقيدها، مما يؤكد ان خوفه منطقي وله مبرراته القوية، وله دوافعه الطبيعية وأولها ادراك الرجل انه يفرض على الطبيعة وضعا غير طبيعي. فالمرأة منذ اصبحت امرأة منذ ملايين السنين وهي تنسب اطفالها اليها بحكم الطبيعة، والرجل وان عرف حديثا الاسرار العلمية للحمل والولادة الا انه ظل جاهلا لها ازمنة طويلة. والجهل يولد الخوف، وظل الرجل بحكم جهله يخاف المرأة ويخاف من كل مظاهر حملها وولادتها، ولم يكن لبضعة الاف من السنين ان تقضي على خوف الرجل الذي عاش معه ملايين السنين، ولم يكن لهذا الزمن القصير بالنسبة لعمر البشرية ان يقتلع من ذاكرة الرجل صورة الانثى الام خالقة الحياة والالهة القديمة.

ولم تكن قصة ادم وحواء الا تعبيرا عن خوف الرجل من المرأة، ولولا هذا الخوف ما نسب الشر والاثم والشيطنة الى حواء، فالمرأة الشيطان ليست الا تجسيدا لمخاوف الرجل، والمرأة التي تملك من القوة والسحر والفتنة ما يوقع الرجل ويسقطه من الجنة الى الارض ويسبب له الدمار والهلاك والموت امرأة لا بد ان تكون مخيفة ومرعبة وربما كانت كذلك فعلا.

ويربط علم النفس بين الخوف والكراهية في نفس الانسان، فالخوف يولد الكراهية والكراهية تغذي الخوف وكلاهما يستمر باستمرار الاخر.

وقد اعترف «فرويد» بان الرجل يكره المرأة، وانه ينظر اليها كمصدر للخطر، وفي كتابه التحريم والعذرية[1] The Taboo of Virginity ، يقول فرويد:

«. . . . . ان عادة الرجل ان يسقط كراهيته الداخلية العميقة على العالم الخارجي اي ينسبها الى اي شيء يكرهه او اي شيء لم يألفه، وينظر الرجل الى المرأة ايضا على انها مصدر للخطر، واول علاقة جنسية بينه وبين المرأة تظل في ذاكرته محفوفة بالخطر».

ولا يختلف خوف فرويد من المرأة كثيرا عن خوف الرجل الافريقي الذي لا يزال يؤمن في بعض قبائل افريقيا بان المرأة اذا خطت ساق رجل فانه يعجز جنسيا، أو أن الرجل الذي يلمس المرأة في فترة الحيض يسقط ميتا.

وبمثل ما احتوى العلم على مخاوف الرجل من المرأة كذلك احتوى الادب على هذه

---

(١) Sigmund Freud, The Taboo of Virginity (1918). In Standard Edition vol. II. London: Hogarth press. 1957.

المخاوف، ولا يكاد يختلف خوف «فرويد» من المرأة عن خوف «برنارد شو» ولا يختلف خوف «برنارد شو» من المرأة عن خوف «توفيق الحكيم» او «عباس محمود العقاد».

وتتمثل فكرة «فرويد» عن سلبية المرأة في ادب تولستوي، وكما تغزل تشيكوف بسلبية المرأة في قصة «حبيبتي» تغزل عباس العقاد بسلبية المرأة في كتاباته فهو يقول: «المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي، لان الطبيعة قد جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور فهي تنتظر حتى يسبقهم اليها من يستحقها فتلبيه تلبية يتساوى فيها الاكراه والاختيار، كذلك تصنع اناث الدجاج وهي تنتظر ختام المعركة بين الديكة او تنتظر مشيئتها بغير صراع»[1].

والتغزل في سلبية المرأة باعتبارها طبيعتها وفطرتها يعني بالضرورة هجاء ايجابيتها وقوتها واعتبارها خارجة عن طبيعتها او شاذة تستوجب الكره او الاستقباح او على الاقل السخرية والتهكم.

وبلغ من كره الرجل للمرأة الايجابية القوية ان اسقط عليها كل خوفه القديم، فاقترنت صفات القوة في المرأة بالشر والخطر والغموض والكيد والرياء والكذب والالتواء والفتنة والسحر والشيطنة.

واذا كانت المرأة سلبية تنتظر مشيئة الرجل فتلبيه تلبية سلبية ايضا يتساوى فيها الاكراه والاختيار كما قال العقاد، فكيف يمكن اذن ان تكون هي نفسها الشيطانة التي توقع الرجل من اعلى عليين الى اسفل سافلين كما قال زكي مبارك، او تسلب عقل الرجل وماله ووقاره وجلاله كما قال ابن المقفع؟ وكيف تكون هذه السلبية بالطبيعة والفطرة ايجابية فجأة كامرأة العزيز في قصة يوسف تلك المرأة الحسناء التي راودته على نفسها فقال معاذ الله إنه ربي انه احسن مثواي، ولولا انه رأى برهان ربه ولولا انه من عباد الله المخلصين لاستجاب لها ووقع في السوء والفحشاء[2].

ان هذا المأزق الذي وقع فيه الرجل باعتباره المرأة سلبية ضعيفة لم يكن له من حل سوى ان تكون ايجابيتها نوعا من الدهاء والمكر والكيد والرياء.. وامتلأ الادب العربي بهؤلاء النساء الماكرات اللائي يتقن انواع المكر والكيد المختلفة.. بل ان العقاد نفسه يناقض نفسه، وبعد ان يقرر أن المرأة سلبية بالطبيعة يقول: «الرياء الانثوي الذي يصح

(١) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، دار الهلال، القاهرة، ص ٣٥.
(٢) تفسير الطبري، المطبعة الميمنية بمصر، ج ٤، الجزء ١٢، ص ٩٨ ـ ١٠٣.

ان يقال فيه انه رياء المرأة خاصة، انما يرجع الى طبيعة في الانوثة تلزمها في كل مجتمع، ولا تفرضه عليها الآداب والشرائع، ولا يفارقها باختيارها او بغير اختيارها »[1] .

ويريد العقاد هنا ان يسلب المرأة ايجابيتها في المكر والرياء كما سلب اسلافه الفلاسفة ايجابية حواء في الشر وقالوا ان الشر لم يقع بارادتها واختيارها وانما بارادة ادم او ارادة الاله.

---

(١) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، دار الهلال القاهرة، ص ١٧ ـ ١٨.

كراهية وحب مشبوب

وبرغم كل محاولات الرجل المستميتة للاقلال من ايجابية المرأة وقوتها، وبرغم محاولاته المستمرة لاعتبارها ادنى واقل ولا تستحق اي اهتمام او عناء، الا ان المرأة ظلت تشغل اكبر حيز في ذهن الرجل، وبرغم انه نجح في طردها من معظم مجالات المجتمع الا انها ظلت كالشبح الجاثم على فكره، لا يستطيع طرده من ذهنه، ولا يستطيع الفرار منه حيثما ذهب.

ان من يستعرض انتاج الادباء في الشرق وفي الغرب قديما وحديثا لا بد ان يدهش لهذا الكم الهائل من القصص والشعر والروايات التي تناولت المرأة، ورغم ان معظم هذه الكتابات تصور المرأة تصويرا خاطئا او متناقضا الا انها تدل على ان الرجل لم يتخلص قط من خوفه، وان هذا الخوف قد انتج الكراهية، وان هذه الكراهية استحالت الى نوع من الحب المشبوب، فالشيء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده كما تقول الحكمة العربية القديمة، ومن الوسائل التي يحمي بها الانسان نفسه ضد ما يكرهه هو ان يستسلم له ويحبه.

ولعل هذا يفسر لنا بعض الاسباب التي جعلت علاقة الرجل والمرأة علاقة حب وكراهية في آن واحد، ولذة وألم، واقبال وفرار، وراحة وعذاب، وقسوة وحنان، وسذاجة ومكر الى اخر تلك التناقضات التي تميز تلك العاطفة الشائعة بين الرجال والنساء والتي سميت على مر الازمنة «بالحب» وهي تسمية خاطئة، لان الحب بين الرجل والمرأة طوال هذه الازمنة لم يكن «حبا» وانما رغبة في «الامتلاك».

وبمثل ما كان التناقض جوهر الحب في الادب العربي حوت المرأة ايضا في جوهرها التناقض، ذلك ان الحب عند الرجل يرمز الى المرأة والمرأة ترمز الى الحب، وكلاهما في نظره شيء واحد.

ويحتوي تاريخ الادب العربي على كثير من الكتاب الذين عرفوا بعدائهم وكراهيتهم للمرأة ومنهم المعري والعقاد والحكيم وغيرهم. وقد اشتهر عباس محمود العقاد في الادب العربي باسم «عدو المرأة» وانعكست كراهيته وعداوته للمرأة في الكثير من كتاباته بحيث تفوق في هذا المجال على استاذه «شوبنهور» الذي اشاد برأيه في المرأة في عدة مناسبات من حيث انها طفلة كبيرة الجسم في كل ادوار حياتها، وفيها من اخلاق الطفل نزقه وقصور عقله ومحاكاته لغيره، واعتماده على غيره، وتقلبه وكذبه ورياؤه، وهي اخلاق في رأيه تخلفت في نفس المرأة من بقايا الهمجية والفطرة لم تنجح السنون في تلطيف شرتها وتهذيب طبيعتها[1].

الا ان العقاد سرعان ما يناقض نفسه، فاذا بهذا المخلوق القاصر كطفل، او السلبي كدجاجة، ينقلب فجأة ليصبح القوة التي ما بعدها قوة، فيقول عن المرأة في روايته سارة انها: «مظهر القوة التي بيدها كل شيء في الوجود وكل شيء في الانسان»[2] بل ان هذه القوة تصبح في قوتها وبطشها وظلمها كقوة دولة طاغية، فيترنم بها في شعره ويقول[3]:

ظالمة انت ويا ويلتي ... من دولة تطغى ولا تفصح
واكبر الظلم لمن ذاقه ... ظلم به مظلومه يسمح
قاسية انت ولكنني ... أقبل الكف التي تجرح
واعظم القسوة تلك التي ... يلهو بها المجروح بل يفرح

ويتضح لنا الان كيف تنقلب الكراهية الى حب مشبوب، الى حب شبه مريض يستعذب الظلم والجرح والالم، حب ماسوشي فيه من الذل والهوان الى حد تقبيل اليد التي تقسو عليه وتضربه وتجرحه.

الا ان هذه الماسوشية سرعان ما تنقلب الى سادية شديدة، وعدوان عليها الى الحد الذي يرى ان المرأة لا بد ان يحكمها الرجل ويخضعها وان لا يتأثر بفتنتها او جمالها. فجمال المرأة في نظر العقاد ليس جمالا اصيلا، وانما هو جمال غير مستقل بذاته، وغير حر في انطلاقاته لان ادراك جماله يتوقف على الرجل، فالرجل هو الحر لانه مستقل بذاته وعلى هذا فالجمال في رأيه هو جمال الرجل، اما المرأة فجمالها ليس الا القبح[4].

(١) عباس محمود العقاد، الانسان الثاني، ص ٧ ـ ٨.
(٢) عباس محمود العقاد، سارة، سلسلة اقرأ. العدد ١٠٨، ص ١٢٩.
(٣) ديوان العقاد، ص ٣٠٢.
(٤) عباس محمود العقاد، هذه الشجرة، ص ٢٤ ـ ٥٠، مطالعات في الكتب والحياة ص ٦٧.

وتبلغ عداوة العقـاد للمرأة وساديته انه لم يعط نفسه وحده حق ايلامها وخيانتها وهجرها ولكنه جعل من نفسه داعية في هذا المجال، واخذ يحث الرجال على هجرها وخيانتها ويتغنى بذلك في شعره قائلا:

أنـت المـلوم اذا أردت لها ما لم يرده قضـاء باريهـا[1]
خنهـا، ولا تخلص لها ابـدا تخلص الى اغـلى غوالـيهـا

ومعنى هذا في رأيه ان خيانة الرجل للمرأة تؤدي به الى ان يصل الى قلبها وحبها، فالمرأة في نظر العقاد لا تخلص الا لمن يخون، ولا تحب الا من يهجرها ويكرهها، ولا تقول نعم الا حينما تريد ان تقول لا، وهي مراوغة، ماكرة، كاذبة مخلوقة من عجينة الخداع والكيد، وان «كيدهن عظيم» كما جاء في القرآن، وهو يقرر ان الكيد والخداع طبيعة المرأة وسلاحها مع الرجال الذين يكرهونها او يحبونها سواء بسواء:

خل المـلام فليس يثـنـيهـا حب الخـداع طبـيعـة فيهـا[2]
هو سترهـا، وطـلاء زينتهـا ورياضـة للنـفس تحييهـا
وسـلاحـهـا فيما تكـيد به من يصـطفـيهـا او يعـاديهـا

ومن المعروف ان الوجه الاخر للسادية هو الماسوشية، وفي ادب العقاد وشعره قدر كبير من كليهما، الا انه حاول ان يبالغ في السادية والعداوة، وحاول ان يحولها الى نوع من التسلط والسيطرة، مستعينا في ذلك بما جاء في القرآن من ان الرجال قوامون على النساء، ولهم على النساء درجة حيث ان النساء في «رأيه» اقل من الرجال قدرة على تحكيم العقل وتغليب الرأي وصلابة العزيمة[3] وأن النساء ليس لهن سعادة اكبر من سعادة الطاعة ولا امل ارفع من حب الرجل الذي تطيعه، وليقس الرجل عليها او يرحمها او يعذبها فانها لسعيدة بالطاعة اذا وجدت من يطاع ويقبل عذابها وراحتها، ويلتقي عزتها وذلها على السواء[4].

ويخرج العقاد من ذلك بأن المرأة خلقت لتحب الرجل، وان الرجل خلق ليحب نفسه في حبه اياها، وهذا في رأيي على نسق الفكرة الدينية اليهودية والمسيحية ان المرأة

---

(١) عباس محمود العقاد، اعاصير مغرب، ص ٥٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن الكريم، ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٤) عباس محمود العقاد، ساعات، ص ٢٠ ـ ٢١.

خلقت في صورة الرجل، وان الرجل خلق في صورة الاله، او ان الرجل ظل الله على الارض وصورته وان المرأة ظل الرجل.

وعندنا مثل شعبي في العربية يقول: ظل راجل ولا ظل حيطه، اي ان الرجل هو ظل الله، وبغير الرجل لا تستطيع المرأة ان تعيش.

اما نموذج المرأة الذي طغى واحتل اكثر صفحات الادب العربي بصفة عامة فهو بغير شك نموذج المرأة «البغي» او «العشيقة»، ومقابله ايضا بالاهمية نفسها نقيضه وهو نموذج الام الطاهرة او العذراء او الزوجة العفيفة الطاهرة.

وهذه الفكرة التي قسمت النساء الى نوعين: البغي او الام لم يكن ليعرفها العرب الا من اجدادهم القدامى الذين بدأوا النظام الابوي وبدأوا معه تقسيم النساء الى زوجات وامهات من ناحية، والى مومسات وعشيقات من ناحية اخرى، ثم ارتباط البغي بالاثم والسقوط والفساد لان البغي هي التي تجسد الجنس، والجنس من فعل الشيطان او حواء.

ولست ادعي اني قرأت كل ما صدر في العالم الغربي اوالعربي من ادب، لكنني لم اصادف فيما قرأت لادباء من الغرب او الشرق اي رجل اديب لم يتحرر من هذه الفكرة القديمة مهما اشتهر في كتاباته بالدفاع عن حقوق الانسان والحرية العدالة ومقاومة الظلم، وهذا هو الاديب الروسي تولستوي يكتب ويقول ان «المرأة أداة الشيطان، انها غبية في جملة حالاتها ولكن الشيطان يعيرها دماغه حين تعمل في طاعته»[1].

ويحفل الادب العربي بنموذج المرأة الشيطانية، ذات الوجوه المتعددة. . «تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين في دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة او رياء، وتراها بعد حين ـ وقد تراها في يومها ـ فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها في مراس كيد النساء ودهاء الرجال، وتضحك ضحكة فتعرض لك وجهها لا يصلح لغير الشهوات، وضحكة اخرى ـ وقد تكون على اثر الاولى ـ فذاك عقل يضحك ولب يسخر، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين»[2].

---

(١) تولستوي في يومياته بتاريخ ٣ اغسطس ١٨٩٨ كما وردت في كتاب عباس محمود العقاد. هذه الشجرة، ص ٨٨.

(٢) عباس محمود العقاد، سارة، ص ١١٥.

وهذه ايضا كلمات العقاد نفسه الذي يناقض هنا فكرته عن ان المرأة ليس لها عقل تفكر به، وعلى الرجل ان يحبسها في البيت بين اربعة جدران ويحكمها فهي ناقصة العقل والدين والاخلاق «وثنية لم تتدين قط»[1]

(١) المصدر السابق، ص ٨٤.

الكيد والسحر والفتنة في ألف ليلة وليلة

ولا يختلف «العقاد» وامثاله من ادباء عصرنا الحديث في تصورهم للمرأة عن ادباء المجتمع العربي القديم، وعن رواة قصص الف ليلة وليلة. فالمرأة في معظم هذه القصص الشعبية كثيرا ما تظهر على شكل الجارية الفاتنة اللعوب، والشيطانية في الاعيبها، الداهية في مكرها وكيدها، العاشقة الفاتنة في عشقها، الايجابية في موضوع الحب والجنس ايجابية الشياطين، والجان.

«والمرأة في كل صور هذا الدور جارية، سواء كانت ملكة ام جارية مشتراة من السوق. تكون بنت ملك تحارب وحبيبها خائف، ومع هذا تناديه يا سيدي، وتخدمه كما تخدم مريم الزنارية نور الدين، وتباع وتشترى في اكثر القصص، فتكون صفات الجارية وتصرفاتها أقرب الى واقعها»[1].

وتحفل قصص الف ليلة وليلة بهؤلاء النساء الساحرات اللائي استخدمن السحر كوسيلة لتنفيذ خطة المرأة للوصول الى حبيبها، فاذا بالمرأة تسحر زوجها حتى لا يقف في طريق حبها. ويلاحظ ان السحر في الف ليلة وليلة لم يستعمل الا بواسطة النساء الكائدات الساعيات الى عشاقهن. والبنج ايضا يستعمل كوسيلة من وسائل المرأة التي تريد التسلل الى عشيقها فاذا بها تبنج زوجها. وهذه ظاهرة تتكرر في ألف ليلة منذ قصة السلطان محمود صاحب الجزائر السود في الجزء الاول الى قصة قمر الزمان وعشيقته في الجزء الرابع.

ويرتبط الكيد والمكر في الف ليلة وليلة بالنساء وبالحب والجنس والفتنة. وكيد النساء قد غذى هذه القصص بمادة غزيرة، مما يدل على تغلغل قصة حواء في نفوس العرب في تلك الازمنة، بالاضافة الى ان القرآن قد احتوى على قصة مشابهة وهي

---

(١) سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦، ص ٣٠٣.

قصة يوسف وامرأة العزيز، واصبحت الآية القرآنية «ان كيدهن عظيم» تأكيدا لها بأن كيد النساء حقيقة جوهرية بل انه كيد عظيم أيضا.

وفي قصص الف ليلة وليلة نجد شبيهات حواء التي اخرجت آدم من الجنة، فاذا بهؤلاء النساء يكن السبب في هلاك الرجال أو الاضرار بهم، بمثل ما حدث في قصص الخياط والمباشر والنصراني.

ونجد شبيهات امرأة العزيز التي سجن يوسف بسببها في قصة قمر الزمان ابن الملك شهرمان، قد احبت امرأتان هما «بدور» و«حياة النفوس» ابني قمر الزمان، وكما شكت امرأة العزيز يوسف لزوجها شكت «بدور» و«حياة النفوس» الابنين لابيهما، ويأمر الزوج بقتلهما لولا ان تنقذهما حادثة الاسد مع المملوك. وفي مقدمة هذه القصة تنشد المرأة التي حملها العفريت يوم زفافها وسجنها في صندوق حمله فوق رأسه حتى لا تخونه.

بحديث يوسف فاعتبر　　متحذرا من كيدهن
أو ما ترى أبليس أخـ　　ـرج آدما من اجلهن

وفي هذه القصص ايضا نجد نساء يكدن لمجرد الكيد، للسخرية من الرجال الذين أحبوهن مثل قصة الوزير السادس من قصص الوزراء السبع، وقد يقترن ذلك بامعان في الفتنة كما في قصص المزين عن اخوته السبعة (الاولى والثانية) من قصة مزين بغداد.

ونماذج العجوز الساحرة والكائدة متعددة في هذا الادب الشعبي، وابرز شخصية من هذا النوع هي «شواهي» بطلة قصة عمر النعمان وولديه. وهذه المرأة لم تستخدم مكرها وكيدها في مجال الفتنة والغرام والجنس فحسب وانما في الحرب والسياسة ايضا، فقادت جيوشا وهزمت ملوكا ومماليك، وارتدت ملابس النسك وضحكت على خصومها المسلمين، وقتلت الملك عمر النعمان وابنه، وصبرت في سبيل كيدها ومؤامراتها السنين. وفي الحروب تكون شواهي مركز القتال بين المسلمين والنصارى، فهي تخدع المسلمين والنصارى معا، وهي تسبب الضرر والهلاك للجميع، ولهذا فهم يدبرون لها في نهاية القصة حيلة تنتهي بصلب شواهي على باب بغداد.

وكم تنفس امثال هذه القصص عن الرجال حقدهم وكراهيتهم الدفينة للمرأة. وكم

يشعرون براحة في نهاية القصة حيث تصلب (شواهي) ومثيلات شواهي.

وتعكس شخصية «شواهي» ومثيلاتها المتعددات في اكثر هذه القصص ضحية المرأة العربية الايجابية التي كانت تشترك في السياسة والحروب وترتدي الدرع وتحارب في أول الصفوف من مثيلات «هند بنت ربيعة» التي قتلت بسيفها في معركة «احد» عددا من الرجال من اتباع محمد، بل انها ذهبت الى احد القتلة وهو «حمزة ابن عبدالمطلب» فأخرجت (من جسده المقتول) قلبه وكبده، واخذت تعصر كبد حمزة بيدها وتلوكه بفمها وتلعق الدم منتشية وهي ترقص على جثته»[1].

وهذا هو السبب في أن المرأة المحاربة في قصص الف ليلة وليلة لم تظهر على انها امرأة مسلمة. ولكنها ظهرت كساحرة شريرة عجوز أو كامرأة نصرانية، لكن هذه المرأة النصرانية تحب رجلا مسلما، وهي تنضم في النهاية الى جيش المسلمين وتحارب معهم وتقتل اعداءهم. فهذه «ابريزه» النصرانية تحب «شريكان» المسلم وتتزوج عمر النعمان المسلم وتلد «رمزان» وهي تنضم الى جيش المسلمين وتحارب معهم. وهذه ايضا مريم الزنارية تعلن اسلامها وتحارب أباها واخوتها من اجل الاسلام وتقتلهم، ويحميها الرشيد في النهاية بسبب اسلامها.

ويعكس هذا الادب الشعبي رغبة المسلمين في بداية الاسلام من ادخال هؤلاء النساء القويات امثال «هند بنت ربيعة» في الاسلام، وقد حدث ذلك فعلا في تاريخ الاسلام. كما يعكس الصورة القوية التي كانت عليها النساء العربيات واشتراكهن في الحرب والسياسة والدين والمجتمع الكبير، سواء قبل الاسلام أو في حياة محمد.

كما يعكس ايضا ارتباط الفتنة عند العرب بالقوة والايجابية في المرأة، فقد وجدت ان اكثر النساء المحاربات في قصص الف ليلة وليلة فاتنات تفوق فتنتهن اي انساء اخريات سواء كن غانيات او مغنيات او عشيقات. وفي معظم هذه القصص فان المرأة المحاربة لا تكشف عن وجهها الا في آخر لحظة، وهي دائما لحظة حرجة، وعندها يتوقف كل شيء، الهزيمة البشعة أو النصر المبين. واذا بالمرأة (في هذه اللحظة) ذلك الفارس الشجاع الرشيق، (كثيرا ما كانت تتنكر المرأة العربية في الحرب في زي فارس من الفرسان كما فعلت هند بنت ربيعة في معركة «احد»)، تكشف عن وجهها فاذا بفتنتها تكسب المعركة الاخيرة كأنما هي سهم اشد فتكا من سهام الحرب. وهكذا

(١) عبدالرحمن الشرقاوي، محمد رسول الحرية، كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٦٧ ص ٢١٩.

انتصرت معظم البطلات المحاربات من امثال «الدنماء» في قصة الجارية الثانية في اليوم السابع من مجموعة قصص الوزراء السبع.

مثل ما برزت المرأة العربية في الحرب والسياسة والفتنة، برزت أيضا في الفنون والاداب والعلوم. وقد بلغت بعض النساء والجواري شأنا عاليا في هذه المجالات في الحياة الواقعية للعرب الى حد ان «الرشيد» نفسه تزوج بعض هؤلاء ممن رددن عليه ردا حكيما أو اكملن بيتا ناقصا من الشعر أو انشدن ابيات شعر اعجب بها. وفي قصص الف ليلة وليلة نجد بعض هذه الوقائع وقد نقلت من كتب الادب على شكل اخبار. فهناك ثلاث نساء شاعرات حكمن «الاصمعي» بقدرتهن على قول الشعر. وواقعة تحكي عن الرشيد والبنت العربية الشاعرة. واستمدت الف ليلة وليلة قصصا من حياة «اسحاق الموصلي» والجواري والمغنيات اللائي كان يطرب لهن، وكم من اخبار تنسب «لابي نواس» الشاعر العربي الذي اشتهر في الادب العربي بالسكر والمجون.

وكم تبلغ المرأة من قوة حين تصورها قصص الف ليلة وليلة على شكل «جنية» يقع في غرامها وسحرها الرجل، لكنه يشقى من اجل الوصول اليها، مثل شمسة في «قصة جانشاه» و«منار السنا» في قصة حسن البصري. والمرأة «الجنية» التي تسكن البحر وتحكم طائفة من الجن، مثل «جلنار» في قصة الملك «بدر باسم» أو المرأة «الجنية» التي تحكم مدينة يعبد أهلها الشمس أو النار. وهناك ايضا شخصية الملكة القوية «لاب» التي تسخر الناس لاشباع شهواتها ولتستخدم السحر لتنتقم من اعدائها، وهي تستطيع ان تسحر نفسها طائراً اذا ارادت او تكون آدمية حين تريد. أما «جلنار» فهي قادرة على الغوص في البحر والسير في قاعه والتحدث مع اهله والغضب والانتصار بمثل ما تفعل على الارض بالضبط.

وتشغل المرأة «الجنية» حيزا كبيرا في قصص الف ليلة وليلة مما يؤكد ان قوة المرأة ظلت راسخة في وجدان الشعب العربي، وظلت مرتبطة بقوة الجان والعفاريت والشياطين منذ الازمنة القديمة حتى القرون الوسطى حتى عصرنا الحديث.

المرأة في الملاحم الشعبية العربية

تلعب المـرأة العـربية دورا بارزا في الملاحم والسير الشعبية. ومن اشهر هذه الملاحم سيرة الاميرة ذات الهمة[1]، التي لعبت البطولة فيها امرأة، وهي فاطمة بنت مظلوم. والنساء في هذه الملحمة نساء فارسات مقاتلات اكثر شجاعة وقدرة على القتال من الرجال. وتتردد صفة المرأة المرغوبة بانها «قتالة الشجعان» وانها تنتصر على اشجع الرجال في المبارزة بالسيف. وهي لا تتزوج الا الرجل الذي تختاره والذي يستطيع ان يصمد امامها في المبارزة. ولا شك ان القاص الشعبي كان يعكس واقعا تعيشه المرأة العربية في ذلك الوقت. وملخص قصة الاميرة ذات الهمة هو أن أباها كان يريدها ذكرا حتى يورثها نصيبه من العرش الذي استولى عليه اخوه ظالم لانه انجب ذكرا. وحين ولدت انثى حزن أبوها حزنا شديدا فذلك معناه أن يفقد السلطان والملك والجاه والسيادة. وتنكر الاب لابنته، وحاول ان يتخلص منها بالقتل لكن القابلة تشير عليه أن يعهد بها الى جارية بيضاء من جواريه اسمها «سعدى». واصبحت سعدى ترضع هذه الطفلة التي سمتها «فاطمة» وتعيش فاطمة مع مربيتها الجارية لا تعرف شيئا عن أبيها وأهلها. وفي احدى الحروب تؤخذ فاطمة هي وسعدى اسيرتين وتتعرضان للسبي، وتصبح فاطمة جارية من جواري بني طي وهم قبيلة غير قبيلتها. واصبحت من نصيب رجل اسمه الحارث، غير اسمها وجعلها تعمل اعمال الجواري المهينة. وتقبل فاطمة أو ذات الهمة هذه الحياة الذليلة على كره وهي تأمل ان يكون لها قوم يأتون لانقاذها هي وسعدى التي كانت تظن أنها أمها. لكن احدا لم يأت لينقذها فبدأت تشعر أنها يجب ان تنقذ نفسها بنفسها فاخذت تتعلم فنون القتال والفروسية بعد ان ادركت ان القوة هي قوة السيف.

ويحاول أحد الفرسان اغتصابها جنسيا على انها جارية فترفض ويطاردها مطاردة

---

(١) نبيلة ابراهيم ـ سيرة الاميرة ذات الهمة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

عنيفة فتقتله بسيفها. وتبدأ ذات الهمة حياتها كفارسة مقاتلة، ويثق سيدها بكفاءتها وشجاعتها فيستعين بها في حروبه وغزواته ضد القبائل الاخرى. وتنتصر ذات الهمة في جميع معاركها وتجلب لسيدها الاموال والزهو والكرامة والسيادة واطلق عليها «داهية بني طي» وذات الهمة واصبحت هي حامية بني طي برجالهم ونسائهم.

وفي احدى غزواتها ضد احدى القبائل وهي قبيلة بني كلاب التي ينتمي اليها ابوها تنتصر على القبيلة وتنتصر على ابيها وتأخذه اسيرا ذليلاً الى بني طي. ويقرر بنو طي قتله في يوم مشهود، لكن «سعدى» تتعرف على الاب، وتطلع ذات الهمة على السر الذي كتمته عنها. وتنقذ ذات الهمة اباها من الموت وتعود به الى قبيلتها، حيث تعيش بينهم في الصدارة فهي منتصرة وهي قوية وهي مقاتلة شجاعة. ويثرى ابوها بفضلها ثراء عظيما ويحقق انتصارات هائلة، مما هدد نفوذ اخيه «ظالم» وابنه الذكر الذي اثبتت ابنة اخيه «الانثى» انها اقوى منه واشجع.

ومن أجل احتواء ذات الهمة، رأى عمها ظالم أن يزوجها لابنه، لانه كان يرى انها «اذا صارت لولده انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها». وتدل هذه العبارة عن حقيقة الزواج الذي يسلب المرأة قوتها ونشاطها ويكسر شوكتها.

غير ان ذات الهمة تكشف الحيلة بذكائها وترفض الزواج من ابن عمها وتقول: «لست اريد لي بعلا الا سيفي هذا» ومعنى ذلك ان ذات الهمة فضلت ان تتزوج السيف على ان تتزوج رجلا. فالسيف يعطيها قوة وكرامة ويضعها بشجاعتها وقدرتها فوق الرجال. اما الزواج برجل فانه يحولها الى انثى محكومة وخاضعة لرجل.

ومن شدة ثقة ذات الهمة بقدرتها القتالية وفروسيتها فقد ادركت ان رجلا لا يستطيع ان يهزمها ومن ثم اطلقت شعارها: «لن اتزوج الا من يقهرني في الميدان». ويتقدم ابن عمها مغرورا بشجاعته لكن ذات الهمة تهزمه هزيمة منكرة امام القبيلة كلها، فيشعر بالاهانة والغيظ، ويتوسل الى الخليفة كي يزوجه منها.

ويتدخل الخليفة في الامر وتتزوج ذات الهمة من ابن عمها لكنها لا تسمح له بالاتصال بها جسديا. فيدس لها نوعا من المخدر في الشراب وحين تفقد وعيها يتصل بها فاذا افاقت هددته بالانتقام منه، لكنها حملت منه ابنها عبدالوهاب.

وتشتعل الحرب بين العرب والروم، وتعجز قوات المنصور الخليفة العباسي عن

الصمود امام هجمات الروم، فيستعين الخليفة ببني كلاب الذين منهم ذات الهمة. وينتصر المسلمون على الروم بفضل مهارة ذات الهمة في الحروب ورجاحة عقلها وقوة سيفها. وكانت اذا غابت ذات الهمة لحقت الهزيمة بالمسلمين، واذا حضرت احرزت النصر حتى اصبح مصير الدولة كلها مرتبطاً بوجودها وغدت في نظر العرب والروم معا «نصف الاسلام».

وكان جيش الروم ايضا بقيادة امرأة هي ملطية بنت ملك الروم التي هزمت ابطال المسلمين في غياب ذات الهمة وتمكنت من الاستيلاء على الحصون الاسلامية. لكن ذات الهمة انتصرت عليها وحرقت حصنها واستولت على مدينة ملطية التي كانت قد سمتها باسمها.

وتعكس هذه الملحمة قوة المرأة سواء عند العرب أو عند الروم، بحيث ان اعظم الجيوش كانت تحت قيادة النساء وليس الرجال. ويستعرض القاص الشعبي في وصفه شخصيات نسائية متعددة تثبت قوتها وايجابيتها في المجتمع والحياة السياسية العامة. وتتعدد النماذج البطولية النسائية، وتذخر بها الملحمة من مثيلات (ميرونة) بنت البطرق، وزنانير بنت الملك بولس، والقناصة بنت مزاحم والملكة ميمونة وهن نساء في مثل بطولة وشجاعة ذات الهمة نفسها بل بعضهن تفوق احيانا عليها في الميدان.

وكل هذه النماذج من النساء تعكس قدرات المرأة في ذلك الوقت وامكانياتها غير المحدودة. وتتكرر هذه النماذج في معظم الملاحم الشعبية وليست فقط في ملحمة الاميرة ذات الهمة مما يدل على ان بطولة المرأة ومشاركتها في الحياة العامة كانت هي القاعدة وليست الاستثناء.

ويربط القاص الشعبي بين بطولة المرأة وبين الدفاع عن الاسلام. ويجعل المرأة هي الحامية للاسلام، وهي المدافعة عنه، فهي امرأة «تغير على دين الاسلام وتحامي عن المسلمين». ويحاول القاص ان يثبت اخلاقيات الدين ومن اهمها عفة المرأة ودفاعها عن شرفها الى حد أنها تقبل الموت ولا تفرط في عرضها. وهي في معظم الاحيان زاهدة في الجنس، تزوجت السيف بدلا من الرجل، أو تزوجت الاسلام ووهبت حياتها دفاعا عن الدين، أو وهبت ابنها أو اغلى شيء من اجل الدين. وبرغم ان الملاحم الشعبية تعكس قدرة المرأة القتالية ومشاركتها في الحرب والسياسة الا انها تصور عفة المرأة دائما كامرأة مستقلة تعيش وحدها بغير زوج، فهي زاهدة عابدة مقاتلة،

اما شخصية المرأة الزوجة او الحبيبة فهي شخصية امرأة تعيش من خلال زوجها ومن خلال ابنها. اذا كان زوجها بطلا فهي تخدمه وتساعده على النجاح. وهي تخلص له وتتفانى في هذا الاخلاص الى حد الموت. ومثال ذلك ملحمة عنترة بن شداد وامرأته عبلة التي ظلت وراءه صامدة امام كل المغريات حتى اثبت وجوده وتغلب على العقبات، واصبح فارس الفرسان. وفي ملحمة حمزة العرب كانت وراء بطولة حمزة امرأته مهر دكار أي شمس النهار بنت كسرى انوشروان[1].

وتختلف السير الشعبية عن الف ليلة وليلة في انها لم تجعل المرأة المقاتلة الشجاعة جنية او ساحرة أو شيطانة وانما جعلتها امرأة حقيقية طبيعية فيما عدا انها تزهد الجنس والزواج في معظم الاحيان.

وقد تأثر الادب العربي الحديث بالطبع بكل ما سبقه من أدب. الا ان صورة المرأة كزوجة وحبيبة طغت على صورتها كفارسة مقاتلة في الحرب ومشاركة في السياسة. فقد زادت سلبية المرأة بازدياد المدنية الحديثة وازدياد رسوخ النظام الابوي ورسوخ النظام الطبقي، وازدياد الفروق الموضوعية بين طبقة وطبقة، وبين جنس وجنس، وبين لون ولون.

وكما رسمت المرأة القوية الايجابية في الف ليلة وليلة على انها «جنية» أو ساحرة أو شيطانية، فقد صور الادب الحديث ايضا المرأة الايجابية القوية على انها جنية أو عفريتة. الا ان المرأة في الادب العربي الحديث لم تأخذ صورة «الجنية» شكلا ومعنى كما حدث في الف ليلة وليلة، وانما اخذت المعنى فحسب واحتفظ جسدها بالشكل الآدمي كغيرها من البشر، ولكن مكرها ظل ينتمي الى اهل الجان اكثر مما ينتمي الى البشر.

وقد عبر عن ذلك زكي مبارك حين وصف المرأة بانها اعظم قدرة من الشياطين والابالسة على الفتك بالرجل. وعبر عن المعنى نفسه العقاد، لكنه ارجع قدرتها على الفتك والكيد والاغراء الى طبيعتها الضعيفة. ان حواء في نظره لم تأكل من الشجرة المحرمة أو تغري ادم بالاكل منها الا لأن المرأة بطبيعتها تتعلق دائما بالشيء الممنوع،

(١) انظر كتاب السير الشعبية مثل سيرة الامير عنترة بن شداد، مكتبة الجمهورية العربية (عبدالفتاح مراد) القاهرة، سيرة الأمير حمزه البهلوان، مكتبة الجمهورية (عبدالفتاح مراد) القاهرة، اضواء على السير الشعبية (فاروق خورشيد) المكتبة الثقافية العدد ١٠١ يناير ٦٤، القاهرة، عبدالحميد يونس، دفاع عن الفولكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٧٣، القاهرة.

وتسول لها نفسها الضعيفة الغواية والاغراء. اي ان هذه الشجرة «هي عنوان ما في المرأة من خضوع يؤدي الى لذة العصيان ومن دلال يؤدي الى لذة الممانعة، ومن سوء ظن وعناد ضعف، واستطلاع جهل، ومن عجز عن المغالبة، وعجز عن الغلبة بغير وسيلة التشهية والتعرض والاغراء»[1].

وقد اشتهر توفيق الحكيم ايضا بلقب «عدو المرأة» وله في هذا المجال أفكار تكاد تشبه افكار العقاد مع شيء من الاختلاف. ففي قصته «الرباط المقدس» يصور الحكيم امرأة متمردة، وتمردها في رأيه ليس من اجل طموحها الفكري في الحياة والمجتمع، وانما هو تمرد من اجل ملء الفراغ العاطفي في حياتها. وينادي توفيق الحكيم «وهو المفكر في القصة» بأن المرأة لم يعد عندها وازع ديني بما يكفي وأن على المفكر ان يتولى ايقاظ الضمير الديني عندها. ويصور الحكيم المرأة كما صورها العقاد مخلوقا لا يخلص الا لغريزته، ونوازع الجسد، وتكاد تتصرف مثل «سارة» العقاد بغير قيم دينية أو فكرية أو اجتماعية.

ولا يمكن للقارىء الا ان يشعر ان العقاد والحكيم ينطويان على خوف شعوري او غير شعوري من ذلك المخلوق الانثوي الغريزي والقوي في غريزته الجنسية، والذي لا يأبه لدين أو خلق أو مجتمع. والمرأة عند «الحكيم» تعتبر اللهو والعبث حقها المشروع فهي تتحدث عن ذلك «بلهجة الواثق المتحدي بأن هذا حقها المشروع»[2].

---

(١) عباس محمود العقاد، هذه الشجرة، ص ١٥.

(٢) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، طبعة الاداب، ص ١٧٢.

الشرف والدم في عصرنا الحديث

ويعكس الادب العربي الحديث نظرة المجتمع الابوي التقليدي للشرف وارتباطه بعذرية البنت، وفي رواية دعاء الكروان يعبر «طه حسين» عن هذا المفهوم التقليدي للشرف وتتعرض البنت الصغيرة «هنادي» للذبح بسكين خالها وبالتعاون مع أمها، تلك المرأة التي صورها الكاتب عاجزة عن الدفاع عن ابنتها بل ومشتركة مع الخال في القتل.

ويظل الخال القاتل حرا طليقا ولا يعتبر مجرما كأنما هو أدى واجبه كرجل غيور على شرف اسرته («العار لا يغسله الا الدم» مثل عربي شائع. اما الشاب المهندس الذي اعتدى على شرف «هنادي» فهو أيضا لا ينال أي عقاب على يد الكاتب، وانما يحظى في نهاية القصة بحب اختها آمنة: وتدور القصة في البداية حول رغبة آمنة في الانتقام من هذا الشاب الذي بسببه ذبحت اختها. وتقول آمنة: «اصبح مما لا بد ان يكون الصراع بينه وبيني، فليعلمن بعد وقت طويل أو قصير اذهب دم «هنادي» هدرا أم لا يزال على هذه الارض من هو قادر على أن يظفر له بالثأر»[1].

ولا تفكر آمنة على الاطلاق في عقاب خالها الذي ذبح أختها لان طه حسين يقول في قصته عن النساء انهن «عورة يجب أن تستر، وحرمة يجب ان ترعى، وعرض يجب أن يصان» ويدور الصراع بين آمنة وذلك المهندس، صراعا غير متكافىء من كل النواحي، فالمهندس متعلم ومن طبقة أعلى من آمنة، وآمنة ليست الا فتاة جاهلة لكنها تستخدم أنوثتها وفتنتها في الصراع. فالصراع هنا ليس صراعا فكريا ولا اجتماعيا ولا ثقافيا يوضح للقارىء الظلم الواقع على المرأة، ولكنه صراع يؤكد أن سلاح المرأة في الحياة ليس الا انوثتها ودلالها واغراؤها واقبالها وادبارها وتلك الالاعيب الانثوية

(١) طه حسين. دعاء الكروان، طبعة دار المعارف، القاهرة، ص ١٣٥.

الشيطانية. ويحاول المهندس أن يخدعها كما خدع أختها لكن خداعها له ينتصر على خداعه لها، وتتمنع وتثير شهوته لكنها ترفض أن يلمسها، فهي تدرك أن الرجل يزهد في المرأة التي ينالها جنسيا ويلفظها كالنواة كما فعل مع اختها. وتنجح خطة آمنة ويقع المهندس في حبها. وهذا الحب «في رأيي» لم ينبع الا من الحرمان الجنسي واشتهاء انثى ليست في متناول اليد، وشتان بين هذا الشعور وبين الحب الحقيقي. لكن الكاتب يصف شعور المهندس لآمنة وكأنه الحب الحقيقي. وكأنه يؤكد ان المرأة يجب ان تراوغ وتمكر وتحرم الرجل جنسيا حتى يقع في حبها. كما انه يصور شعور آمنة وقد انقلب ايضا من خداع الى حب حقيقي. ويعبر طه حسين عن حب آمنة للمهندس كالاتي: «أصبحت آمنة لا تهم بالخلوة الى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه، ولا ترفع عينيها الا رأت شخصه، ولا تمد اذنها الا سمعت صوته. قد اخذ عليها الحياة من جميع اقطارها. وقد زاد عنها كل شيء وكل انسان، وزاد عنها حتى اختها تلك العزيزة واشباحها الحمراء»[1].

ويرى طه حسين في روايته المرأة عاجزة في سقوطها حين تفقد عذريتها، وعاجزة في انتقامها حين تقرر الانتقام، وعاجزة في حبها حين تحب، وهي دائما واقعة في فلك الرجل لا حيلة لها ولا قوة، وهي مقتولة بالرجل دائما، مقتولة لاسباب متعددة، مقتولة بالشرف، ومقتولة بالحب، ومقتولة بالكراهية والانتقام، ومقتولة بالعجز والانسحاق تحت الرجل ماديا ونفسيا وعاطفيا واخلاقيا.

ويتعاطف طه حسين احيانا والمرأة لكن تعاطفه ليس الا تعاطف رجل عربي تقليدي، فيه رحمة الذكر القوي الاعلى على الانثى الاضعف الادنى، وكم يلذ له وصف ذلك الصراع الجنسي بين آمنة والمهندس، صراع الرجل بكل اسلحته وقوته ضد الانثى بضعفها وانكسارها وخضوعها، وهي علاقة تكاد تكون سادية ماسوشية من كلا الجانبين.

وعلى خلاف معظم الادباء العرب لا يميل الكاتب محمد عبدالحليم عبدالله إلى عقاب المرأة التي سقطت أي فقدت شرفها أو عذريتها والسبب في ذلك ليس لان له نظرة اخرى في مفهوم الشرف، وانما لانه يجرد المرأة من وعيها بهذا الاثم، وبالتالي فلا يجوز معاقبتها بمثل ما لا يجوز معاقبة المجنون أو الغائب العقل، ويكتب هذا المعنى في روايته شمس الخريف على لسان بطلته «ان المرأة اثناء السقوط لا تكون

---

(١) طه حسين، دعاء الكروان، ص ١٥١.

في وعيها بل تكون مغيبة تحت سحر الفتنة وسحر الشيطان، لذا يجب أن يغفر لها المجتمع لانه لا يجوز الحكم على نائم، فالمسؤولية اذن على الرجل الذي أغواها»[1].

ويخالف عبدالحليم عبدالله هنا هؤلاء الذين جعلوا حواء مسؤولة عن سقوط آدم لانها هي التي اغوته، ويتفق مع هؤلاء الذين جردوها من المسؤولية تماما. ولعل عبدالحليم عبدالله تصور انه يعطف على المرأة كما عطف عليها طه حسين، لكنه كان أشد احتقارا لها من غيره لانه لم يكرمها حتى بتحمل مسؤولية الفعل الذي تقوم به، وصورها مخلوقا عاجزا قاصرا ناقص العقل أو أبله. بل انه صورها في موقف آخر كالمريض أو كالميت فيقول على لسان بطلته السيدة (ف) ان المرأة «اذا زلت فليس عليها مسؤولية لانها كالنائم أو المريض أو الميت (وضحكت) فالمسؤولية واقعة على من يهاجمها لانه ليس اهلا للدفاع»[2].

ولم ير عبدالحليم عبدالله شيئا يزين المرأة الا عذريتها أو «درة العفاف» تقدمها لزوجها وتقول له «لا أرى لشخصي كيانا مستقلا ولا احسه قائمابدونك». ويعتقد الكاتب ان شرف البنت كعود الكبريت لا يولع الا مرة واحدة، وهذا مثل شهير في مجتمعنا، اشتهر بترديده احد ممثلي المسرح المعروفين «يوسف وهبي». وعبدالحليم عبدالله يرى ان البنت التي يلمسها رجل تصبح كالاناء القذر الذي شرب منه شخص آخر من قبل. ويقول بطله في الرواية حين تتمنع عليه معشوقته «انها خافت على موردها أن يزنق فيعافه الشاربون»[3].

والمرأة في معظم روايات عبدالحليم عبدالله سلبية ضعيفة لا وجود لها الا من خلال رجل، فاذا لم يكن هناك رجل فان المرأة تموت إما بالموت الجسدي الحقيقي أو بالموت حزنا على الحبيب. وحزن عبدالحليم عبدالله حزن فيه من القسوة والازدراء اكثر مما فيه من الرحمة والاحترام، وهو يشبه الى حد كبير حزن المنفلوطي على بطلاته. وقد حكم عبدالحليم عبدالله بالموت على جميع بطلاته تقريبا، فقد ماتت «ليلى» في لقيطة، وزينب في شجرة اللبلاب، والسيدة (ف) في شمس الخريف،

(١) محمد عبدالحليم عبدالله، شمس الخريف، مكتبة مصر، ١٩٥٤، ص ٢٠٦.
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٦.
(٣) المصدر السابق، ص ١٤٢.

وسميرة في رواية من اجل ولدي. أما تلك التي لا تموت فهي تذوي بعيدا عن الرجل وتنسحق.

وتظل المرأة في أدب «نجيب محفوظ» هي المرأة سواء في فقرها أو ثرائها أو جهلها أو تعلمها، فلا تزال هي المرأة التي يرتكز شرفها في حياتها الجنسية وعذريتها. وهي تسقط وتفقد شرفها في معظم الاحوال بسبب الفقر. وقد كان الادباء الرجال قبل نجيب محفوظ يرون ان المرأة تسقط بسبب غريزتها أو شهوتها أو ضعفها كانثى أو ضعف عقلها. أما نجيب محفوظ فيرى للسقوط أسبابا اقتصادية كالفقر، لكنه لا يغير مفهومه عن الشرف، ويظل شرف المرأة عنده متركزا في تلك المنطقة المحدودة من جسمها (الاعضاء الجنسية).

وبرغم أن نجيب محفوظ يساير العصر ويرى دورا جديدا للمرأة وهو العمل والانفاق على الاسرة كالرجل، الا أنه في حياتها الاخلاقية لا يساويها بالرجل. يقول الأب في احدى رواياته لابنته التي ضيعت من بين يديها شابا ثريا:

«انك مسؤولة عنا جميعا وخصوصا اخوتك السبعة»[1].

ويلقي الرجل، سواء كان أبا أو زوجا مسؤولية اقتصادية جديدة على المرأة لكنه يظل يحكم عليها بالسقوط اذا مارست في حياتها الشخصية ما يمارسه الرجل، وهي التي تسقط وحدها، وعليها يقع عقاب الكاتب في معظم المواقف.

وبرغم توضيح نجيب محفوظ لدور الفقر أو الظروف الاجتماعية في انحراف المرأة أو سقوطها، مثل «وكانت الحرب باثارها المادية والاجتماعية أول محرك لمأساة الزقاق التي ادت بحميدة الى الانحراف»[2]. الا انه يقرر على لسان بطله «ابراهيم فرج» انها «عاهرة بالسليقة» وانها من «نبع ابالسة». ورغم محاولة نجيب محفوظ لان يرسم للمرأة صورة محايدة مساوية للرجل الا انها تظل صورة عقلية. ويقع نجيب محفوظ بشعوره حين يرسم صورة المرأة التقليدية الراسخة في وجدانه كرجل ورث تراثا ابويا طويلا. ويصور نجيب محفوظ المرأة تصويرا سلبيا تقليديا وان أسبغ عليه بعض الايجابية الظاهرة التي سرعان ما تتلاشى، وتسقط المرأة في الرذيلة بالمفهوم التقليدي.

وهو يصف «نفيسة» في روايته بداية ونهاية ويقول ان اباها مات ولم يستطع

(١) نجيب محفوظ، القاهرة الجديدة، مكتبة مصر، ص ٢١.

(٢) نجيب محفوظ، زقاق المدق، ص ١٣٠.

المجتمع أن يكون أبا، فاشتغلت خياطة لتساعد أسرتها، وهكذا احاطت بها الهموم من كل جانب، وفقدت كل عطف، وكانت غريزتها الانثوية هي الشيء الوحيد الذي سلم من النقص والضعف، واستوى ناضجا حارا. كان سليمان جابر اول رجل بعث فيها الثقة وطمأنها الى أنها امرأة كبقية النساء، فسقطت اول مرة تختلي فيها برجل. فسقوطها هنا يبرره سوء الاوضاع العامة التي جعلت «الجاه والحظ والمهن المحترمة في بلادنا وراثية»[1].

وتظل المرأة هنا لا تملك سوى أنوثتها وفتنتها كسلاح. ويناقض الكاتب نفسه حين يدافع عن غريزة المرأة الانثوية ثم يعود فيدين هذه الغريزة ذاتها لانها سبب سقوط المرأة. والمرأة أيضا هي التي تسقط وحدها. وقد حكم نجيب محفوظ على بطلته نفيسة الساقطة بالانتحار لانه لم يجد حلا للساقطة سوى الموت.

وفي رواية أخرى على لسان احد شخصياته يقول نجيب محفوظ «المرأة في الاصل عجينة طرية، وعليك أن تشكلها كما تشاء، واعلم انها حيوان ناقص العقل والدين فكملها بأمرين، بالسياسة والعصا»[2].

وبرغم أن نجيب محفوظ له في كتاباته رؤية متقدمة من حيث العدالة الاجتماعية الا ان نظرته للمرأة لم تختلف كثيرا عن الذين سبقوه، وقد أباح لها حرية التعليم والعمل من اجل مساعدة الأب او الزوج في مسؤوليات الانفاق وبشرط الا تتعدى حدود الدين والاخلاق. والاخلاق هنا بالطبع هي أخلاق الاسرة الابوية أو الازدواجية الاخلاقية من حيث أن المرأة هي وحدها التي تسقط. وقد يتحمس نجيب محفوظ احيانا من أجل بناء المجتمع الاشتراكي على لسان احد ابطاله، ويتخيل مجتمعا افضل، وحالا احسن «واسعده الامل في تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد»[3].

وكان لا بد أن يقع نجيب محفوظ في التناقضات. فهو يبيح للمرأة العمل والكسب المادي لكنه لا يبيح لها الحرية الشخصية. وهو يبيح لها الحب لكنه يعاقبها بالسقوط اذا أحبت. وهو يشترط عليها الزواج كالوسيلة الوحيدة الشرعية والمسموح بها، لكن المرأة حين تشترط الزواج يتهمها بالتحفظ وعدم الاحساس بالحب. وها هو أحد أبطاله

(١) نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ١٩٩.

(٢) نجيب محفوظ، خان الخليلي، ص ٤٩.

(٣) نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ٣٠٢.

«حسنين» يقول عن فتاته التي اشترطت الزواج «انها تريد أن تتزوجني لا أن تحبني، هذا سر برودها وتحفظها»[1]. هو يصفها تارة بأنها حيوان ناقص العقل والدين، وتارة أخرى يقول عنها انها مظهر القوة التي بيديها كل شيء في الوجود «لا يوجد ثمة حركة بين الرجال الا وراءها امرأة، والمرأة تلعب في حياتنا الدور الذي تلعبه قوة الجاذبية بين الاجرام والنجوم»[2].

ويعتبر «نجيب محفوظ» أكثر تقدما من العقاد أو ممن سبقوه، وقد تعرض في كتاباته لقضايا اجتماعية متعددة لكنه في موضوع المرأة ظل حريصا حذرا لا يمس العقائد ولا يغير من القيم الاخلاقية النابعة من قوانين الزواج رغم وقوع معظم أبطاله وبطلاته في الحب.

ويمثل الصراع بين الحب والزواج مادة خصبة وغزيرة في الادب العربي القديم والحديث. وكم ترنم «احمد شوقي» في شعره بمجنون «ليلى» وكيف فصل العرب الحب العذري عن الزواج والجنس. و«محمد حسين هيكل» في قصته «زينب» يصف صراع البطلة بين الوفاء للحبيب والاخلاص للزوج. وتموت زينب من الحزن على حبها الضائع، وقبل أن تلفظ أنفاسها الاخيرة تقول لامها «بدي أموت وكله من ايدكوا، فضلت اعيط وأقولك يامه ما بديش اجوز، تقولي لي كل الناس أبوهم بيجوزهم على غير كيفهم وبعدين يصبحوا ويا جيزانهم زي العسل. اني ويا جوزي زي العسل وما قلتش حاجة. لكن اديني حاموت وتخلص العيشة اللي بيننا وبين بعض، وحيتكوا اخواتي لما تيجو تجوزوا حد منهم ما تجوزهمش غصب عنهم أحسن دا حرام»[3].

وقد عاش «محمد حسين هيكل» في مصر في الفترة ما بين ١٨٨٨ و١٩٥٦ وقد شهدت هذه الفترة الدعوات الاولى لتحرير المرأة من الجهل والحجاب. ونادى «قاسم أمين» بتعليم المرأة لتصبح زوجة وأما كفؤا. ومن اهم نواحي هذه الكفاءة اتقانها الخياطة لتخيط ملابس زوجها وأطفالها. وانعكس ذلك على الادب في ذلك الوقت، وظهرت شخصيات نسائية جديدة مثل «عزيزة» في قصة «محمد حسين هيكل» وهي فتاة تعلمت القراءة والكتابة والخياطة والتطريز لكن الحجاب فرض عليها وهي في الثانية عشرة كما كان شائعا في ذلك الوقت. وأدخلها الحجاب الى عالم «الحريم» بقيوده

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٨.

(٢) نجيب محفوظ، السراب، مكتبة مصر، ص ٣١٠.

(٣) محمد حسين هيكل، زينب، ص ٢٣٩.

الجسدية والفكرية، ولهذا هي تسميه «الثوب الاسود» ثوب الحزن والاسى. وتتحسر «عزيزة» على نفسها ومثيلاتها حين تقول في القصة «ما لنا جماعة الدفينات وللحب، انما نحب في ظلم نتلذذ منه بخيالات لا وجود لها». وتقول «عزيزة» أن اهلها وجدوا في نقوش الحيطان ما يكفي البنت عن التمتع بالحياة أو بالشمس وتصرخ قائلة «يا عدالة السماء: هل من اجل هؤلاء السذج خلقت غروب الشمس لا لنا»[1].

ويفرض على «عزيزة» زوج لا تريده ولا تحبه وتنتقل من «سجن الابوة» الى «سجن الزوجية» وتصبح «بين حيطانه الاربعة أشد حيرة من الدمعة في عيني للمحزون» وتبكي بكاء مرا «تسكب الدمع على شبابها الذاهب تتخبطه يد الشيطان» الا أن حال «عزيزة» كان أرحم من حال «زوجة حسنين أبومخيمر» التي كان يضربها زوجها بوحشية دون سبب. واذا بكت ازداد الضرب والشتم «ولم يكن ينقذها من يديه الا الناس الذين يتجمعون على صراخها»[2].

وقد نشر «محمد حسين هيكل» هذه القصة في طبعتها الاولى سنة ١٩١٤ وخشى ان يوقعها باسمه خوفا من أن تؤثر على عمله في المحاماة والسياسة ووقعها باسم «مصري فلاح» وقد كان محمد حسين هيكل من رواد الادب العربي المعاصر ومن اوائل من صوروا الظلم الفادح الواقع على المرأة في المجتمع العربي، الا انه لم يستطع ان يقدم حلا لمشكلة الفصل بين الحب والزواج سوى موت البطلة.

---

(١) محمد حسين هيكل، زينب ص ١٧٢.
(٢) محمد حسين هيكل، زينب، ص ١٧٥.

حواء، الانثى، البغي، ومريم الأم الطاهرة

وقد كان الفصل بين الحب والزواج، احد نتائج الفكرة القديمة التي تمجد الحب العذري أو الروحي، أما الزواج الذي يتضمن الجنس فهو نوع من الاثم، وقد أدى كل ذلك الى أن تصبح النساء نوعين : **الانثى أو ذات الجاذبية أو الشهوة الجنسية . . والأم الطاهرة العذراء الخالية من أي جنس او شهوة .**

ويزخر الادب العربي بنماذج متعددة لهذين النوعين النقيضين من النساء. وترمز الام الى الحب العظيم السامي وترمز الانثى الى الحب الادنى المدنس.

ويظهر تقديس الرجل العربي لحب أمه في الثقافة والاغاني والشعر وفي روايات الادباء ومنهم «المازني» الذي قال لامه «أنت سيدتي . . انني أحبك، واجلك واني مدين لك بكل ما جعلني أنا»[1] .

ويسقط المازني حبه الطاهر لامه على المرأة الحبيبة فيقول أن الانسان لا يمكن أن «يسعد في الحياة الا في ظل امرأة حبيبة مشرقة كالصباح، جميلة كالقصر، طاهرة كالشمس، مرهبة كجيش بألوية»[2].

وقد وقع المازني هنا في تناقضات عدة أو خلع على الحبيبة أوصافا متناقضة بعيدة عن الحقيقة والعقل، فهي مشرقة جذابة لكنها طاهرة، وهي طاهرة (بكل ما في الطهر من معاني الرقة والعذرية والوداعة والسلبية والضعف) لكنها مرهبة كجيش بكل ما في الجيوش من قوة وخطر محدق.

وهذا في رأيي تعبير عن نفسية رجل ربط الطهر بالجمال بالارهاب، وهي تشبه

---

(١) قصة حياة المازني، كتب ثقافية، العدد ٩٨، ص ٣٢.

(٢) المازني، ابراهيم الكاتب، ص ١٥٢.

نفسية الطفل الذي يخاف أمه ويرهبها ويشتهيها، ولكنها في نظره طاهرة محرمة، وهو يحبها وحبه لها أقوى حب في حياته.

وبسبب ذلك تبدو المرأة الانثى في نظر المازني غريبة غير مفهومة، والنساء (غير امه) محيرات مستعصيات على الفهم: «هؤلاء النساء امرهن عجيب والذي يستطيع أن يعرفهن على حقيقتهن لم يخلق بعد»[1].

ويتخبط المـازني في وصفه للمرأة، تارة يراها مجرد اداة للولادة وحفظ النوع، وجمالها وجاذبيتها نوع من الكفر بالله: «هي اداة لحفظ النوع وجمالها شرك»[2] وتارة اخرى يقول عنها: «لا تفهم الدنيا باعتبارها كلا، ولا تقدر أن تفنى في الجماعة»[3] لكنه يناقض نفسه ويعترف أن المرأة هي كل شيء في الحياة بل «هي الحياة مختزلة»[4].

ويتغزل المازني في الفتاة الغربية التي تحب الرجل بحريتها واختيارها، ويذم الفتاة المصرية التي لا تستطيع أن تحب بحريتها واختيارها ولذلك فان الزواج في مصر في رأيه «ليس فيه ما يخدم الاداب أو الفنون أو يساعد على التقدم»[5].

الا ان اعجابه بهذا النموذج من المرأة المتحررة يتكشف عن انه اعجاب غير حقيقي لانـه سرعـان ما يزدري «ليلى» المتحررة لانها دفعت «شرفها» وعفافها ثمنا لتحررها ويصرح بان التحرر دنسها. ويعبر المازني عن ازمة الرجل العربي المتعلم الذي تجسد في بطل روايته والذي اراد ان يحطم سجن التقاليد ليفوز بالفتاة التي احبها، لكنه في الوقت نفسه يرفض الفتاة المتحررة من هذه التقاليد ذاتها التي أراد تحطيمها.

ويقف ابـطال المـازني حائـرين سلبيين امام النماذج المختلفة، فالمرأة الانثى المتحـررة مرفـوضـة وتصدم عقلية الرجل العربي المحافظ على مفهوم شرف الفتاة وعذريتها. والمرأة العاملة المكافحة خشنة فقيرة لا ترضيه لانه تعود على نساء منعمات

(١) المازني، ابراهيم الثاني، كتب ثقافية، العدد ٨٠، ص ١٦٣.
(٢) المازني، ابراهيم الكاتب، طبعة مصر، ص ٢٤.
(٣) المصدر السابق، ص ٦٨.
(٤) المصدر السابق، ص ١٣١.
(٥) المصدر السابق، ص ٣٠٤.

عاطلات في البيت، أما الفتاة الطاهرة التي ترضيه فهي فتاة تقليدية بالطبع وتحول بينها وبينه التقاليد.

وأقصى ما تتمناه البطلات في أدب المازني على اختلاف انواعهن هو ان تحقق وجودها بالزواج. ان عالم المرأة عنده ليس الا الرجال واحلام العثور على الزواج. ويعد الزواج لا تنشغل المرأة الا بفنون الاحتفاظ بالزوج، وتدربها أمها على هذه الفنون قائلة: «ينبغي أن تكوني له كل يوم امرأة جديدة تتصدى له وتغريه وتفتنه»[1].

وتتدرب المرأة على فتنة الرجل على يد أمها أو خالتها كما تدربت نساء الف ليلة وليلة على الكيد والفتنة والسحر على أيادي «شواهي» و«تودد» ودواهي وغيرهن من الساحرات الكائدات.

اما الزوج الذي يتزوج امرأة عاملة قوية الشخصية واثقة من نفسها فهو يصوره على انه رجل ضعيف الشخصية يرضخ لارادة زوجته[2] ويعارض امه التي كانت تحرضه ضد خروج زوجته الى العمل. ويقول نجيب محفوظ عن مثل هذا الزوج انه زوج فاشل، لانه ينشأ في حياة تعود فيها أن تكون المرأة هي صاحبة الارادة، ومالكة الزمام، وانه كان عليه ان يأخذ زمام المبادرة والسيطرة حين اصبح زوجا ولكنه لم يفعل ذلك، وبذلك فشل كزوج «ولم يخط في سفر الزواج الضخم حرفا واحداً».

ويصور نجيب محفوظ المرأة «رباب» على انها لا تحب مثل هذا الزوج ولكنها تعشق رجلا آخر، وتخون رباب زوجها مع عشيقها، ولا يغفر لها الكاتب ذلك فيجعلها تموت اثناء عملية الاجهاض.

وتمثل المرأة الانثى للرجل خطرا وخوفا قديما مرتبطا بالجنس. ولذلك هو يريدها طاهرة كأمه أو غير انثى، ويريدها كالملاك الضعيف المستكين. لكنه في الوقت نفسه يشتهي الانثى ويشتهي فتنتها وسحرها لكنه يفزع من هذه الفتنة التي يقع امامها صريعا فاقد القوى.

ويعبر توفيق الحكيم عن ذلك التناقض الذي يعيشه الرجل حين كتب في «عودة الروح» يصف بطلته سنية ويقول «وكانت المرأة في سحرها الجسمي والمعنوي، وان

(١) المازني، ابراهيم الثاني، ص ٥٢.
(٢) نجيب محفوظ، السراب، ص ٢٤٩.

هي احيانا خفضت اهدابها الطويلة الجميلة وهي تكلم «محسن»، وضحكت ضحكات نسائية رقيقة غاية في الانوثة، ومنعت عينيها من اطلاق النظر الا في ادب وخفر وتحفظ. فما كان ذلك كله عن طبيعة فيها، بل هو حياء مصطنع، لعله أرق سحر تمتاز به المصرية، والحقيقة أن المصرية امهر امرأة تدرك بالغريزة ما في النظرة الواحدة من وقع وتأثير. لذا هي لا تنظر الى محدثها كثيرا ولا تبخس نظراتها ولا تقلبها جزافا كما تفعل الغربية الجريئة النزقة، بل انها تحتفظ بنظراتها بين اهدابها المرخاة كما يحفظ السيف في الغمد، الى ان تحين الساعة المطلوبة فترفع رأسها وترشق نظرة واحدة تكون هي كل شيء»[1].

ويكاد يشبه هذا الوصف نساء الف ليلة وليلة وخبرتهن وتمرسهن بوسائل السحر والفتنة وكيفية ايقاع الرجل في الشرك. وبرغم اشتهاء الرجل العربي لمثل هذه الانوثة الساحرة سحر الشياطين الا انه لا يشتهيها الا للمتعة فحسب أو العشق. اما المرأة التي يريدها أن تكون زوجة له وأما لاولاده فهو يختارها طاهرة كأمه وهو يريدها شريفة عفيفة وليست انثى أو جريئة كتلك المرأة الغربية المتحررة.

ويظهر معظم الكتاب العرب المعاصرين كراهيتهم للمرأة الجريئة المتحررة. ويتقزز بطل «عبدالحميد جوده السحار» حين يرى «كوثر» حبيبته «بالمايوه» أو لباس البحر «فثار دمه في عروقه وشعر بتقزز وضيق فبدت لعينيه بغيضة تافهة»[2].

وكان من الطبيعي ان يشعر البطل بانجذاب اشد نحو المرأة التي يحبها، خاصة وانها كانت جميلة الجسم، ولا بد ان هذا التقزز الذي اعتراه لم يكن لقبحها وانما هو شعور دفاعي يلجأ اليه الرجل المحافظ على التقاليد. وهو بدلا من ان يعترف انه غير طبيعي يتهمها بانها بغيضة وغير طبيعية.

ويظهر مثل هذا الرجل المحافظ في معظم القصص والروايات، ونراه شديد النفور من تلك المرأة المتعلمة التي تخالط الرجال وتراقصهم.. وهو ايضا شديد النفور من المرأة المحجبة ومن المرأة الفقيرة ايضا التي كثيرا ما سقطت بسبب فقرها. اما الفتاة المتعلمة المتحررة فهي تزداد سقوطا وانحطاطا بسبب تحررها، ويصبح الرجل حائرا منهارا: «فانهار وراح يضرب في الطريق وهو حيران يحس في اعماقه احساس من

(١) توفيق الحكيم، عودة الروح، جـ ١ ص ١٤١.

(٢) عبدالحميد جوده السحار، قافلة الزمان، مكتبة مصر، القاهرة، ص ٣٢٥.

يعيش غريبا في الحياة»[1].

ويزداد حيرة الرجل العربي الحديث ازاء تزايد خروج المرأة الغربية للعمل والمشاركة في المجتمع وخاصة بعد غزو الافكار الاشتراكية للشرق العربي، وينعكس ذلك في الادب. وبرغم تأييد الرجل لخروج المرأة للعمل الا ان الهدف الوحيد من عملها هو مساعدة الرجل في نفقات الاسرة، ويظل عملها خارج البيت في نظره شيئا ثانويا، ومهمتها الاساسية والاولى في الحياة هي اعمال البيت وخدمة الزوج ورعاية الاطفال. وعلى هذا فقد ظلت المرأة المثالية في الواقع وفي الروايات هي تلك الجميلة الوادعة المطيعة غير الجريئة وغير الطموحة، بعبارة اخرى المرأة الطاهرة القديسة. اما المرأة الجريئة او الطموحة أو المتفتحة العينين ذات الجسارة والقوة فهي غالبا ما ترمز الى الدمامة او الفجر أو عدم الاحتشام، بعبارة اخرى المرأة العاهرة أو البغي.

ويظهر هذا التقسيم بين هذين النوعين من النساء واضحا في اعمال «نجيب محفوظ» ومنها «ثلاثيته»[2]، حيث كانت هناك المرأة القديسة الطاهرة «امينة» وتقابلها العاهرة «هنية ام ياسين» و«عائشة» الجميلة ذات الحياء والخفر وتقابلها «خديجة» ذات الجرأة والوقاحة والدمامة. وهناك الحب العذري الذي تسوده القداسة والطهارة ويقابله الجنس واللذة المحرمة الآثمة في حياة العاهرات الداعرات البغايا.

وهذا هو التقسيم نفسه الذي احدثه النظام الابوي بين النساء. فالمرأة اما ان تكون الام الطاهرة المقدسة أو الزوجة العفيفة المخلصة الباردة المحترمة، واما ان تكون المومس أو العشيقة الحارة والجذابة والمحتقرة. والحب اما ان يكون طاهرا مقدسا واما ان يكون جنسيا منحطا.

وقد حاول نجيب محفوظ ان يستخدم الاعتداء الجنسي على المرأة كرمز للاعتداء على شعب باسره، ففي الليلة التي اعتدى فيها «ياسين» على نور جارية زوجته، واعتدى ابوه على ام مريم جارتهم اذا بالانجليز يدخلون الحي. وبرغم هذا الرمز الا انه على مستوى حياة الافراد فان شرف المرأة عند نجيب محفوظ ظل مختلفا عن شرف الرجل، وظل هذا الشرف في رواياته يتعلق بسلوك المرأة الجنسي اكثر مما يتعلق بأي شيء آخر.

---

(١) عبدالحميد جوده السحار، النقاب، مكتبة مصر، ص ٢٨٤.

(٢) رواية نجيب محفوظ التي صدرت في ثلاثة اجزاء (قصر الشوق وزقاق المدق والسكرية).

وتلعب الانثى البغي في الادب العربي دورا اكبر مما تلعبه المرأة الطاهرة العفيفة. وكأنما الطهر والعفة من الامور غير الجذابة سواء في الواقع أو في الخيال. أو كأنما البغي هي الرمز للمرأة الحقيقية وقد نزعت عن وجهها النقاب: «انْ م البغي» هي المرأة الحقيقية وقد جلت عن وجهها قناع الرياء فلم تعد تشعر بضرورة ادعاء الحب والوفاء والطهر»[1].

وكم من نماذج للبغي أو المومس في ادبنا المعاصر وبالذات أدب نجيب محفوظ، الذي كثيرا ما حاول ان يغلف صورة المرأة المومس باطار انساني فيه كثير من الرحمة بها والتفهم لظروفها كضحية للمجتمع، لكنه يظل دائما تفهما ناقصا يعترف بمأساة المرأة الاجتماعية، وهو لا يصل الى اعماق هذه المأساة، ولا يكشف عن اسبابها الحقيقية، اما مأساة المرأة الاخلاقية والجنسية فهذا هو المجال الذي لم يطرقه معظم الادباء العرب القدامى أو المعاصرين.

(١) نجيب محفوظ، خان الخليلي، مكتبة مصر، ص ٤٠.

الرواد من النساء والرجال العرب

رغم تميز الشرق العربي بحضارته القديمة العريقة في مصر والعراق وفلسطين، تلك الحضارات والثقافات وعلى الاخص الحضارة المصرية القديمة التي انتقلت الى الغرب واخذ منها الغربيون اسسا متعددة لعلومهم وفنونهم، ورغم الحضارة العربية الاسلامية التي امتدت شرقا وغربا وكانت من الاعمدة التي ارتكزت عليها حضارة الغرب الحديثة، رغم كل هذا فقد اصبح الشرق العربي اليوم من البلاد التي يسمونها «بالبلاد المتخلفة» ومن ذلك الجزء من العالم الذي يسمى «بالعالم الثالث».

وقد استطاع المستعمرون الذين توالوا على مصر والبلاد العربية أن يسلبوا العالم العربي ثرواته المادية والثقافية معا، وان يطمسوا كثيرا من حقائق التاريخ، وان يزيفوا البعض منها وان ينكروا الدور الذي لعبه بعض المفكرين العرب في وضع أسس بعض العلوم والفنون الحديثة من أمثال ابن سينا وابن خلدون.

وقد استنزف الاحتلال الاجنبي والاستعمار العسكري والاقتصادي والثقافي دماء الشعوب العربية سواء في مصر أو السودان أو الجزائر أو تونس أو ليبيا أو الاردن أو سوريا أو لبنان أو فلسطين أو العراق أو السعودية أو الكويت أو قطر أو البحرين أو اليمن أو المغرب أو الصومال.

ولا تزال البلاد العربية حتى اليوم من المناطق الثرية في العالم التي يتصارع على أرضها الاستعمار الجديد بشتى اشكاله ووسائله، ولا تزال اهم ثروات المنطقة العربية مسلوبة بواسطة الانظمة الاستعمارية والاحتكارية الجديدة، ولا تزال الاغلبية الساحقة من الشعوب العربية تعاني الفقر والامية والمرض على حين يستمتع بثروات العرب قلة من الرجال في أميركا واوروبا وبعض الحكام العرب المتعاونين مع الاستعمار والرأسمالية العالمية.

ويدلنا التاريخ أن الشعوب العربية برجالها ونسائها في اي بلد عربي لم تستسلم قط لتلك القوى التي تسلبها حقها في الحياة الكريمة وكم من شعب عربي ثار وأطاح حكومته الرجعية، وكم من بلد عربي طرد المستعمرين سواء كانوا من الفرس أو الترك أو الفرنسيين أو الانجليز أو الاميركان أو غيرهم.

وقد كانت مصر ولا تزال قلب العالم العربي ومنارته الفكرية بحكم موقعها وعددها وتاريخها الطويل في النضال ضد المستعمرين الاجانب.

وقد عاشت مصر مع العالم العربي عهود ظلام حتى نهاية القرن التاسع عشر. تقهقر فيها حال الشعب رجالاً ونساء. واستطاعت الحكومات المستبدة مع الاستعمار الاجنبي ان تفرض على الرجال والنساء قيودا اقتصادية واجتماعية واخلاقية.

اما النساء فقد كان نصيبهن من هذه القيود اشد واعظم بحكم الانظمة الابوية الطبقية السائدة.

وقد بدأت اليقظة الفكرية العربية في نهاية القرن التاسع عشر على يد جمال الدين الافغاني وتلاميذه، واحمد فارس الشدياق احد المفكرين العرب الذي اصدر سنة ١٨٥٥ كتابه «الساق على الساق» ويعتبر من اوائل الكتب العربية التي نادت بتحرير المرأة العربية. وظهر الرائد الفكري رفاعة الطهطاوي الذي نادى بتعليم المرأة وتحريرها من الظلم وأصدر كتابه «المرشد االامين في تعليم البنات والبنين» سنة ١٨٧٢، ثم كتابه «تخليص الابريز في تلخيص باريز» سنة ١٩٠٥.

وكان لهؤلاء الرواد دور في حث الجماهير العربية على مقاومة الاستعمار وتكسير القيود من اجل الحرية والاستقلال. وقد دلهم فكرهم الوطني المستنير الى ان قضية المرأة احدى القضايا الاساسية في الحرب ضد التخلف وضد الاستعمار الاجنبي.

ومن هؤلاء الرواد ايضا عبدالله النديم، والشيخ محمد عبده. وقد كتب الشيخ محمد عبده ينقد وضع المرأة الادنى، ويهاجم تعدد الزوجات والطلاق كحق مطلق للرجل، وطالب بالقضاء على نظام الجواري والمحظيات ونادى بمساواة المرأة بالرجل وتطبيق جوهر الاسلام.

وتعرض الشيخ محمد عبده لكثير من الهجوم من رجال الدين الاسلامي في ذلك الوقت لكنه لم يتردد في الاستمرار في دعوته واعلن أن من اخطر اسباب الضعف التي

اصابت المسلمين هو تخلف المرأة ولان «النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يوجب عليهن دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع». يقول «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف»[1]،الى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدنيوية، وترك البنات يفترسهن الجهل وتستهويهن الغباوة من الجرم العظيم» .

ومن اهم الكتب العربية التي تناولت قضية المرأة هو كتاب «تحرير المرأة» سنة ١٩٠٠ لقاسم أمين، ثم كتابه الثاني «المرأة الجديدة» ١٩١١ . وبالرغم من ان دعوة قاسم أمين كانت من اجل تعليم المرأة لحماية الأسرة وتربية الاطفال، وبالرغم من أنه استند في دعوته الى مبادىء الدين الاسلامي ولم يخرج عليها الا انه هوجم بشدة من رجال الازهر والدين كانوا احد الاعمدة التي يرتكز عليها حكم الخديوي المستغل والمستبد بالشعب المصري بالتعاون مع الاستعمار الانجليزي. وقد تعرض قاسم امين لغضب الخديوي أيضا، وهاجمه رجال السياسة المحافظون وعلى رأسهم «مصطفى كامل» الذي كتب في جريدة اللواء ١٩٠١ يهاجم الدعوة الى تحرير المرأة. وكانت جريدة اللواء هي لسان حال الرجال المتزمتين الرجعيين. واصدر عبدالحميد خيري كتابه ضد تحرير المرأة «الدفع المتين في الرد على قاسم أمين» وأصدر محمد احمد البولاقي كتابه «الجليس الانيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس». وقد استطاع احمد لطفي السيد وزملاؤه ان يعبروا عن الفكر المتقدم في صحيفتهم «الجريدة» وقد ناصر الدعوة الى تحرير المرأة في هذه الفترة سعد زغلول، لطفي السيد، وليّ الدين يكن، محمد حسين هيكل، طه حسين، سلامة موسى[2]، مصطفى فهمي، فرح انطون، احمد الزيات، مصطفى المنفلوطي، ووقفت مجلة «المنار» لرشيد علي رضا» والمقتطف والهلالي في صف تحرير المرأة.

وقد شاركت المرأة العربية بقلمها منذ بداية هذه المعركة لتحرير المرأة ومن هؤلاء النساء عائشة التيمورية التي جمع قلمها بين الادب العربي والتركي والفارسي في الشعر والنثر. ثم جاءت بعدها زينب فواز التي نبغت في الشعر والبيان. اما ملك حفني ناصف التي اشتهرت باسم «باحثة البادية» (١٨٨٦ - ١٩١٨) فقد شاركت بقلمها القوي في الكتابة من اجل تحرير المرأة وكانت معاصرة لقاسم امين لكن آراءها اعتبرت تكملة

---

(١) عباس العقاد، محمد عبده، طبعة التربية والتعليم بمصر، ص ٢٢٩.
(٢) سلامه موسى، مقدمة السبرمان، طبعة سلامه موسى، القاهرة، ص ٢٩.

لدور رفاعة الطهطاوي ودعوته، التي سمتها اصلاحا واعتبرها قاسم امين تحريرا[1].
وقد نبغت ملك حفني ناصف في التأليف الى حد أن لطفي السيد قال ان كتابتها صورة للكاتبات العربيات اللائي تفوقن على كثير من الكتاب الرجال[2] وقد كافحت ملك حفني ناصف من اجل تعليم البنات.

ومن الكاتبات الرائدات، «مي زيادة» المرأة العربية التي استطاعت رغم تخلف نظرة المجتمع للمرأة أن تنشىء صالونها الادبي في القاهرة ١٩١٥، ١٩١٦. وكان يحضر ندوتها الادبية كل ثلاثاء طائفة من الادباء والمفكرين المصريين والعرب. وكانت في العشرين من عمرها ومع ذلك استطاعت بفكرها الناضج الذكي ان تجمع حولها شيوخ الادب والفكر في مصر.

وكانت مي زيادة تعيش في مصر لكن امها كانت من فلسطين، واباها من لبنان. واستطاعت رغم ذلك ان تفرض شخصيتها على المجتمع الادبي في مصر وان تخالط الرجال وتحادثهم وتراسلهم في وقت ضرب فيه الحجاب على مثيلاتها من النساء العربيات.

وقد انتهت حياة «مي زيادة» بمأساة تصور القسوة والوحدة والمشاكل التي تتعرض لها المرأة الذكية الفنانة في مجتمع رجولي لا يعرف عن المرأة شيئا سوى أن تكون رحما يلد الاطفال أو مهبلا لامتاع الرجل جنسيا.

وقد تعرضت «مي زيادة» لازمة عاطفية حين أحبت احد الكتاب المصريين «عباس العقاد» وقد فشلت قصة حبهما بسبب نظرته المتخلفة للمرأة. وعاشت «مي زيادة» في وحدة قاتلة، رغم مطاردة الرجال لها، لكنها لم تكن تجد الرجل الذي يستطيع ان يفهمها ويعاملها كانسانة لها عقل قبل ان يكون لها مهبل أو رحم.

ولم يفهم احد مأساتها وحزنها وسبب وحدتها واتهمها اهلها بالجنون وادخلوها مستشفى العصفورية للامراض العقلية في لبنان. والتفتت حولها حينما دخلت قائلة «أولم يجدوا سجنا لي اكرم من هذا السجن»[3]، وأخذت تتوسل الى المسؤولين بالمستشفى لاخراجها، واضربت عن الطعام مرة بعد مرة، واستمرت على هذه الحال

(١) مجدي ناصف، اثار باحثة البادية، طبعة المؤسسة المصرية ص ٣٥.
(٢) ابراهيم عبده، تطور النهضة النسائية، القاهرة، الآداب، ١٩٤٥، ص ١٢.
(٣) طاهر الطناحي، الساعات الاخيرة، ص ١١١ ـ ١١٢.

عدة شهور بالمستشفى الى أن كشفت عليها لجنة من كبار الاطباء وقررت اللجنة أن لا شيء بها، وكتب الدكتور مارتان الطبيب الفرنسي تقريرا ينفي أصابتها بأي مرض من الامراض، ومع ذلك لم يخرجها المستشفى بحجة أن تقوى صحتها[1].

وانتهت حياة «مي زيادة» وهي في ريعان شبابها في احدى الشقق بالقاهرة، ماتت وحيدة تماما بغير أحد الى جوارها، ماتت بعد أن تركت وراءها كتاباتها وشعرها ولوحاتها ومحاضراتها التي القتها في بيروت ومصر عن الادب والفن واستقلال المرأة.

وتعتبر «مي زيادة» واحدة من النابغات في الادب العربي الا انها لم تجن من نبوغها الفكري الا الوحدة والاتهام بالجنون ثم الموت المبكر.

ولم يكن مصير «مي زيادة» المؤلم يختلف عن مصير اي امرأة رائدة حاولت أن تغير نظرة المجتمع الرجولي المتخلف للمرأة. ولم يختلف مصيرها كثيرا عن النساء الذكيات (الساحرات الحكيمات) اللائي اتهمن في العصور الوسطى بالجنون أو الفسق أو السحر، بل لم يختلف مصيرها كثيرا عن مصير كثير من النساء الذكيات في عصرنا الحديث اللائي لا يجنين من وراء ذكائهن الا الوحدة القاتلة أو الاتهام بالهستيريا أو الشذوذ.

---

(١) المصدر السابق.

المرأة العربية الثائرة

في المجتمعات العربية الزراعية كمصر تعمل الاغلبية الساحقة من النساء في الحقول جنبا الى جنب الرجال منذ الاف السنين، ويعتمد الاقتصاد والانتاج على عرق الفلاحين والفلاحات. ولولا خروج الفلاحة من دارها كل يوم قبل شروق الشمس لما كان في استطاعة الرجال المعارضين لتحرير المرأة (وغير المعارضين ايضا) أن ينالوا فطورهم كل صباح ولا أن يجدوا من الملابس ما يستر اجسادهم ولا ان يجدوا الورق الذي يكتبون عليه أفكارهم المتخلفة عن المرأة.

ولا يزال في مجتمعنا العربي حتى اليوم عدد غير قليل من هؤلاء الرجال الذين يعارضون خروج المرأة من بيتها للتعلم أو العمل بدعوى المحافظة على انوثتها أو شرفها. ويتجاهل هؤلاء الرجال تلك الملايين من النساء الفلاحات اللائي يخرجن كل يوم من بيوتهن للعمل. وربما اعتقد هؤلاء الرجال ان الفلاحات لسن نساء، أو ان العتالات والخادمات ليس لهن انوثة أو شرف، . والا فكيف نفسر صمتهم المطبق أزاء خروج هذا العدد الهائل من النساء من بيوتهن كل يوم؟ وكيف يدعي الرجل منهم غيرته على انوثة المرأة ورقتها في حين أن شعرة واحدة لا تهتز في جسده وهو يسير في الشارع ومن خلفه خادمته البنت الضعيفة الصغيرة تحمل عنه، وهو رجل قوي، الحقائب الثقيلة، ولا يهتز الواحد منهم وهو يرى كل يوم صفوف النساء العتالات والكادحات في الحقول والمشاغل والمصانع حيث تعمل المرأة ضعف الساعات التي يعملها الرجل لانها تعمل خارج البيت وداخله، بل لا يهتز الرجل منهم وهو راقد في سريره وزوجته تخدمه ولا تكف عن الحركة داخل البيت من اجل تلبية طلباته وطلبات الاسرة والاطفال.

وهذا يدل على ان غيرة هؤلاء الرجال على شرف النساء أو انوثتهن ومعارضتهم لخروج المرأة ليس موقفا اخلاقيا أو انسانيا ولكنه موقف طبقي استغلالي.

وهذا هو الحال دائما بالنسبة لعمل المرأة في المجتمع الابوي. ان هذا المجتمع لا يسمح للمرأة بالعمل خارج البيت الا من اجل استغلالها بدرجة اشد حيث تعمل اجيرة بغير أجر كحال الفلاحات اللائي يعملن لحساب الاب أو الزوج وتحت سيطرته المطلقة، أو من اجل سد النقص في الايدي العاملة في المصانع حيث تعمل المرأة (والاطفال احيانا) بأجر أقل من أجر الرجل، وتحت سيطرته المطلقة في العمل أو في البيت.

وقد دخلت المرأة الغربية كعاملة في المصنع بعد الحرب العالمية الاولى، حين قلت الايدي العاملة من الرجال، وبدأت الدول العربية شأنها شأن دول العالم تحتاج الى تشغيل النساء في المصانع، بالاضافة الى ازدياد نشاط الصناعات المحلية لانقطاع البضائع المستوردة بسبب الحرب. لم يجذب هذا العمل الا الفقيرات والمعدمات من النساء والبنات. ففي هذه الطبقة الفقيرة المعدمة التي تلتقط طعامها اليومي بأي وسيلة تسقط جميع التقاليد الاخلاقية امام الحاجة الى الطعام، ويضطر الرجل في تلك الطبقة ان يشتري رغيفا يأكله بدلا من ان يشتري حجابا لزوجته أو ابنته، ويدفعه الفقر الى ان يشغل ابنته أو زوجته خادمة في بيت فيه رجال أو يلحقها بمصنع حيث تعمل جنبا الى جنب الرجال دون أن يفكر في تلك التقاليد الاخلاقية التي تحرم الاختلاط. ولهذا لم تعرف الحجاب أو الانحباس في البيوت الا نساء الطبقات المتوسطة وفوق المتوسطة أو العالية ممن لا يحتاجون اقتصاديا الى تشغيل نسائهم وبناتهم خارج البيوت.

وفي المجتمعات العربية تمثل الطبقات الفقيرة الاغلبية من الناس. وقد استغلت الدولة حاجتهم لسد الرمق ففرضت عليهم اعمالا شاقة نظير اجور زهيدة. اما النساء منهم والاطفال فقد فرضت عليهم ادنى الاعمال واقل الاجور واسوأ الظروف. وكانت المرأة العاملة منهن تعمل ساعات اكثر من الرجل وتتقاضى اجرا اقل منه. ويعود العامل ليستريح في بيته على حين تعود العاملة الى البيت لتخدم زوجها وتخدم اطفالها وتطعمهم.

وقد عاشت هؤلاء العاملات ممزقات بين العمل خارج البيت وداخله، وكانت العاملة المتزوجة مهددة بالفصل من العمل في أي وقت بسبب الحمل والولادة، ومهددة بالطلاق في اي وقت اذا لم تخدم زوجها واطفالها الخدمة الواجبة.

وفي بلد كمصر بلغ عدد هؤلاء العاملات الصناعيات في اول احصائية سنة ١٩١٤

عشرين الف عاملة، بنسبة ٥٪ من عدد العمال والرجال. وكانت البنات والزوجات من الطبقات الفقيرة يتزاحمن في ذلك الوقت على العمل في المصانع ومحالج القطن، تعمل الواحدة منهن اكثر من ١٤ ساعة في اليوم الواحد، باجر يومي لا يزيد عن ثلاثة قروش وقد يصل الى ١٨ مليما فقط. لكن هذا الاجر على ضآلته كان أفضل من الجوع الذي كان يتهددهن. ولم تكن هناك قوانين تفرض على أصحاب المصانع أي شروط صحية وأي حماية للعاملات أو العمال. وكانت أقسام النساء أسوأ حالا من أقسام الرجال، لانخفاض قيمة النساء، وعدم تذمرهن، وتعودهن على قبول الذل والمهانة. ومن شدة سوء الاحوال والارهاق وعدم التغذية لم تكن العاملة منهن تستمر في هذا العمل اكثر من اربع أو خمس سنوات ثم يصيبها العجز أو المرض، فاذا بصاحب المصنع يفصلها ويلقي بها الى الطريق كقطعة للغيار البالية، ويعين مكانها عاملة جديدة من قائمة المنتظرات المتلهفات على لقمة العيش.

وكانت هؤلاء العاملات البائسات المرهقات جسدا ونفسا خارج البيت وداخله هن اول النساء الثائرات في مصر، وهن اول نساء قمن بالاضراب والاعتصام بالمصانع، والخروج في مظاهرات في الشوارع يطالبن باحترام آدمية المرأة العاملة، ووضع قانون يحدد ساعات العمل، واجازة وضع. في ذلك الوقت لم تكن المرأة العاملة تحصل على اي اجازة حمل، ولهذا كانت تسرع الى عملها في اليوم التالي للوضع، وأحيانا كانت تخفي عن صاحب العمل انها متزوجة من اجل ان يلحقها بالعمل (كان اصحاب العمل يفضلون البنات أو النساء غير المتزوجات) وحينما كانت تحمل العاملة منهن. فهي تخفي مظاهر حملها كأنما هو غير شرعي، وكانت معظمهن يلجأن الى اجهاض انفسهن بالوسائل الريفية الخطرة (مثل ادخال عود الملوخية داخل الرحم) وفي أحيان كثيرة كانت العاملة منهن تفقد حياتها بسبب النزيف أو الالتهابات المميتة.

وكانت نساء الطبقة الراقية في مصر في ذلك الوقت قد بدأن تكوين اول تنظيم نسائي سنة ١٩٢٣، لكنهن لم يكن (بحكم الثراء والانعزال عن الطبقات الفقيرة) يدركن شيئا عن حال هؤلاء النساء العاملات المستغلات ابشع استغلال. وقد ذهبت احدى مظاهرات هؤلاء النساء الى مقر التنظيم النسائي، لكن النساء الارستقراطيات لم يظهرن أي اهتمام بمثل هذه القضايا الخاصة بالفقيرات، وكان كل اهتمامهن موجها الى خلع الحجاب وهو أمر لم يكن يهم الاغلبية الساحقة من النساء لان العاملات والفلاحات كن دائما سافرات.

وقد كانت هؤلاء النساء الكادحات (عاملات وفلاحات) هن اللائي اشتركن اشتراكا فعليا في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وخرجن مع الرجال الى الطرق الزراعية يقطعن اسلاك التليفون وينزعن قضبان السكك الحديدية ليحجزن قطارات السلطات الانجليزية. وقد هجم بعض هؤلاء النساء على المراكز التي اعتقل فيها بعض المواطنين والثوار المصريين وسقطت بعضهن قتيلات وجريحات برصاص الانجليز.

ان هؤلاء الكادحات الفقيرات هن اللائي قدمن شهيدات ثورة ١٩١٩، ومنهن الشهيدة «شفيقة محمد» التي قتلها الانجليز يوم ١٤ مارس ١٩١٩، و«حمدية خليل» من كفر الزغاوي بالجمالية[١] وسيدة حسن وفهيمة رياض وعائشة عمر وغيرهن من مئات المصريات الفقيرات المجهولات.

وقد لعب رجال الطبقة العاملة الكادحة والفلاحون ايضا دورا كبيرا في ثورة ١٩١٩، لكن دورهم لم يظهر في التاريخ كما ظهر دور رجال الطبقة العليا، وبالمثل ايضا لم يظهر في التاريخ دور النساء الكادحات في الثورة كما ظهر دور النساء من الطبقة العالية. وذلك ان الذين يكتبون التاريخ هم الذين يملكون المال والسلطة.

ولم يحصل الرجال أو النساء من الطبقات الكادحة على شيء يذكر من ثورة ١٩١٩ مع انهم هم الذين كانوا وقودها. وذهبت مكاسب الثورة الى الطبقة العالية. وقد حدث للحركة النسائية في مصر ما حدث للحركة العمالية اذ انها لم تعبر عن مشاكل الاغلبية الساحقة من النساء أو الرجال وانتهى بها الامر الى التعاون مع القصر لخدمة القصر والاحزاب الرجعية، كما ظلت تتسم بالابتعاد عن مجال العمل السياسي واقتصر نشاطها على مجال الخدمة الاجتماعية[٢].

وقد اسست «هدى شعراوي» التنظيم او الاتحاد النسائي عام ١٩٢٣. ونجح هذا الاتحاد في رفع سن زواج البنت الى ١٦ سنة في سنة ١٩٢٤ لكنه فشل في تغيير قانون الاحوال الشخصية أو منح المرأة حق الانتخاب رغم الجهود التي بذلها في هذا المجال بقيادة هدى شعراوي وسيزا نبراوي. وبالرغم من مرور اكثر من ٥٣ عاما على انشاء الاتحاد النسائي وحماسه المستمر المخلص في هذين المجالين الا ان معظم

(١) عبدالرحمن الرافعي، في اعقاب الثورة المصرية، الجزء الاول، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٢١١، درية شفيق، ١٩٥٥، ص ١١٩.

(٢) محمد انيس، السيد رجب حراز، التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث القاهرة، ص ١٩٠ - ١٩١.

جهوده باءت بالفشل. اذ آن قانون الزواج والطلاق في مصر ما زال حتى اليوم يبيح للرجل ان يطلق زوجته متى شاء ويبيح له تعدد الزوجات. وقد سبقت بعض البلاد العربية مصر في هذا المجال وطورت هذا القانون تطورا يتمشى مع الوضع الجديد الذي حصلت عليه المرأة العربية. أما حق الانتخاب فلم تحصل عليه المرأة المصرية الا في دستور ١٩٥٦.

ولم تكن مصر وحدها هي التي تشهد اشتراك النساء في الثورة ضد الاستعمار الاجنبي او الظلم الداخلي.

ان المرأة العربية في مختلف انحاء العالم العربي اشتركت مع الرجل في تحرير الوطن وفي الثورة ضد الظلم. ففي سوريا اشتركت المرأة العربية في الجمعيات السرية لمقاومة عملية التتريك عام ١٩١٤، وفي عام ١٩١٩ شاهدت دمشق اول مظاهرة نسائية بسقوط الاحتلال الفرنسي وواجهن رصاص الفرنسيين. واشتركت المرأة في ثورة الشعب السوري ١٩٢٥، وحملت السلاح في المقاومة الشعبية منذ اعلان هيئة الامم تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨.

وفي العراق ناضلت المرأة مع الرجال ضد الاستعمار والملكية وساهمت في عمليات التحرير والتطور. وحصلت على حقوقها السياسية كما وصلت الى منصب وزاري.

وفي الاردن، رغم القيود التي تحيط بالنساء، كم من مظاهرات نسائية كبيرة سادت شوارع عمان تحيي بطولة النساء والرجال العرب في السجون والمقاتلين الفلسطينيين الفدائيين.

وفي السودان ناضلت النساء ضد الاحتلال الانجليزي وكون اتحادهن النسائي الذي اشتهر بنشاطه وتقدمه والذي قدم نساء بطلات منهن فاطمة ابراهيم.

وفي لبنان خرجت النساء العربيات في مظاهرة كبيرة ضد الفرنسيين للافراج عن زعماء لبنان الوطنيين سنة ١٩٤٣.

اما نساء الجزائر فقد شاركن مع الرجال في الثورة ضد الاستعمار الفرنسي وعلى ارض المليون شهيد سقطت الكثيرات شهيدات، وبعضهن عذب في السجون ولعل اشهرهن في هذا جميلة بوحيدر وجميلة بوعزة.

وفي اليمن الجنوبية وقفت النساء والفتيات العربيات الى جانب الرجال في الثورة من اجل الاستقلال. وفي السودان ايضا كانت هناك المناضلات والمقاتلات من الحزب النسائي السوداني. اما نساء وفتيات فلسطين فقد ضربن المثل في البطولات من اجل استرداد وطنهن من بين انياب المغتصبين وكم من بنات فلسطينيات ذهبن في حملات فدائية داخل الارض المحتلة فلسطين، وكم من نساء قمن وتظاهرن فوق الارض المحتلة ذاتها، في القدس ونابلس ورفح والخليل وبيسان، وكم من فتيات ونساء يعملن ويناضلن داخل منظمة التحرير الفلسطينية، وقد عرف العالم ليلى خالد وفاطمة برناوى وامينة دحبور وشادية أبوغزالة ومثيلاتهن اللائي وضعن حياتهن على اكفهن من اجل تحرير الارض والوطن.

وفي الكويت وفي ليبيا وفي تونس وفي المغرب وفي الصومال، هناك النساء يشاركن في النضال من اجل تحرير الرجال والنساء معا. وقد كسبت المرأة العربية في بعض هذه البلاد مكاسب جديدة في المجتمع وفي الاسرة وظهرت قوانين جديدة تمنع تعدد الزوجات، وتساوي الرجل والمرأة في حق الطلاق.

وقد نالت المرأة العربية حق الانتخاب في معظم البلاد العربية. لكنه بالرغم من ذلك فان نسبة النساء اللائي يشاركن في المجال السياسي أو الانتخابات ضئيلة. ان النساء المصريات اللائي يشاركن في الانتخابات بالادلاء باصواتهن لم يزدن على ١٪ من عدد الاصوات الكلية للناخبين سنة ١٩٥٦. ارتفعت هذه النسبة ١٩٧٢ الى ١٢٪. اما نسبة النساء العضوات في مجلس الامة فلم يزد عن ٢,٥٪ سنة ١٩٧٦.

وقد اتضح ان الاعتراف بحق المرأة في الانتخاب أو غيره من الحقوق السياسية لا يحدث تغييرا يذكر في وضع المرأة الادنى، وسواء ذهبت النساء الى الادلاء باصواتهن أو لم يذهبن، سواء نجحت بعضهن في الوصول الى مقاعد في البرلمان أم لم ينجحن فان وضع المرأة الادنى لا يتغير كثيرا، وتبعيتها لزوجها لا تمس، وتبعيتها لطبقتها الاجتماعية تظل كما هي.

لم يحدث في اي بلد من العالم ان المرأة حصلت على المساواة الحقيقية بالرجل لمجرد حصولها على الحقوق السياسية فقط، بالرغم مما يصاحب الاعتراف بهذه الحقوق من ضجة كبرى عن الديموقراطية وخطب رنانة عن حرية المرأة. بل انه اتضح انه في ظل الانظمة الاقطاعية والرأسمالية الابوية كثيرا ما تستخدم اصوات النساء ضد

مصلحة النساء الحقيقية، بمثل ما تستخدم اصوات الفلاحين والعمال ضد مصلحة الفلاحين والعمال.

وبـالـرغم من ان الثورة المصرية (١٩٥٢) منحت العمال والفلاحين ٥٠٪ من المقاعد في مجلس الامة الا انها لم تمنح النساء اي عدد من المقاعد. وبرغم ان الفلاحين والعمال حصلوا على نصف المقاعد نظريا الا ان الكادحين والعمال لم يصلوا ابدا الى كراسي مجلس الامة وانما وصل اليها رجال من طبقات أعلى تنكروا في زي الفلاحين والعمال، وقد كان تعريف العامل والفلاح فضفاضا يسمح بدخول اصحاب الدخول الكبيرة ممن لا يفلحون الارض أو يعملون بأيديهم في المصانع.

ولا أظن أن وضع المرأة يختلف كثيرا، وربما لو خصص للنساء بعض مقاعد في البرلمان لاحتلتها نساء الطبقة العالية اللائي يؤيدن النظام والسلطة في معظم الاحيان أو ربما تنكر بعض الرجال في زي النساء واحتلوا مقاعدهن.

وبالرغم من أن المرأة العربية اصبحت وزيرة لاول مرة في مصر سنة ١٩٦٢، وخمساً أو ست نساء دخلن مجلس الامة الا أن الاغلبية الساحقة من المصريات ما زلن حتى اليوم أميات جاهـلات يكـدحن طوال النهار وجزءاً من الليل في الحقول والمصانع والمكاتب والبيوت (نسبة الامية بين الاناث ٨٤٪ سنة ١٩٦٠، انخفضت سنة ١٩٧٦ الى ٧١٪) ويعشن في حال يرثى لها من الارهاق الجسدي والنفسي تحت سيطرة الزوج أو الاب أو الاخ أو أي رجل آخر من اعضاء الاسرة الابوية. بل أن هذه النسبـة الصغيرة من النساء اللائي حظين بالتعليم المتوسط أو العالي ما زلن ايضا حبيسات التقاليد تحت سيطرة الرجال أيضاً وقد زاد عليهن عبء جديد هو العمل خارج البيت.

وهذا يدلنا على الخطأ الكبير الذي تقع فيه بعض النساء المنتميات الى حركات تحـرير المـرأة، حين يتصـورن ان المـرأة يمكن ان تتحرر بخوض معركة الحقوق السياسية، أو الاشتراك في الانتخابات أو الاحزاب السياسية، أو الصعود الى السلطة والمشاركة في الحكم مع الرجل.

ان تولي المرأة السلطة أو الحكم في نظام اقطاعي طبقي أو رأسمالي طبقي لا يغير كثيرا من الاستغلال الواقع على النساء أو الرجال. وسواء كانت هناك امرأة تحكم في الولايات المتحدة بدلا من نيكسون أو فورد أو كارتر فان النظام يظل ابويا رأسماليا

طبقيا قائما على الحروب والاستعمار والاستغلال. ان رئاسة جولدا مائير لاسرائيل لم تغير شيئـا من النظام القائم على الطبقية والرأسمالية والحرب وان رئاسة باندرانايكا لسريلانكا أو انديرا غاندي للهند لم يغير كثيرا من النظام الابوي القائم على سيطرة الرجل داخل الاسرة ولا تزال الاغلبية الساحقة من نساء سري لانكا والهند مرهقات جسديا ونفسيا بالكدح خارج البيت وداخله تحت سيطرة الاب أو الزوج.

ان تحرير المرأة تحريرا حقيقيا في الشرق العربي أو الشرق الاقصى أو الغرب لن يتحقق الا بالتخلص من النظم الطبقية الابوية سواء كانت رأسمالية أو اقطاعية، بمعنى آخر ان تحرير المرأة لن يتم الا في ظل مجتمع اشتراكي حقيقي وهذا امر لم يحدث حتى اليوم في أي بلد، ولا في أي بلد من البلدان التي تسير نحو الاشتراكية. ولكنه سيحدث في المستقبل حينما تصبح النساء قوة سياسية قادرة على انتزاع حقوقها. فالحرية تؤخذ ولا تمنح كما عرفنا من التاريخ.

العمل والمرأة في المجتمع العربي

باستثناء الفلاحات والعاملات الكادحات والخادمات والجواري فقد فرض المجتمع على النساء الانحباس داخل البيت من اجل خدمة الزوج والاطفال والاسرة بغير اجر اللهم الا الكساء والطعام والمسكن. ولم تكن المرأة من هؤلاء تخرج من بيتها الا للضرورة القصوى كالمرض الخطير مثلا وهي تخرج في هذه الحالة محجبة ومعها رجل من الاسرة. وفي بعض الاحيان كانت تموت المرأة دون أن يصرح زوجها بأن يفحصها طبيب رجل.

وقد أدى الفصل بين الجنسين الى ضرورة خلق مهن نسائية تكون مهمتها رعاية النساء المحجبات من الأسر العالية والمتوسطة. ومن أوائل هذه المهن مهنة التمريض التي لم تقبل عليها الا البنات الفقيرات، حيث ان عمل المرأة خارج البيت كان عارا على الاسرة التي تستطيع أن توفر الطعام لنسائها.

وكان الحكام العرب ينشئون مدارس التوليد والتمريض من اجل خدمة نساء الطبقات العالية. وقد لاحظ «محمد علي» الذي كان حاكما على مصر في ذلك الوقت أن الاسر المصرية العالية تحتاج الى نساء يعملن كمولدات وحكيمات. واشترى «محمد علي»[1] لهذا الغرض بعض الجواري السودانيات وعهد الى «كلوت بك» مهمة تعليمهن مبادىء الطب والجراحة، مع «الاغوات» وهم العبيد الرجال، وأول طلاب عرفتهم مدرسة الولادة الملحقة بمدرسة الطب البشري بأبي زعبل. وفي هذا الزمن كان ظهور المرأة في الطريق يعتبر عملا فاضحا. وكانت مدرسة التوليد تعلم البنات

---

(١) احمد عزت عبدالكريم، التعليم في عهد محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٣٨، ص ٢٩٧.

شيئا يتصل بالتكوين الجسدي «التشريح»[1]، وقد اظهر الرجال المصريون استياءهم من ان تتعلم بناتهم مثل هذا العلم المنافي للاخلاق.

وفي سنة ١٨٤٢ انشئت اول مدرسة للمولدات في مصر، ثم انشئت أول مدرسة ابتدائية للبنات (السيوفية) ١٨٧٣، وكانت تلميذاتها في البداية من الجواري البيض المشتغلات في قصور الأسر الحاكمة. ولم تظهر في مصر من المدارس الخاصة بالبنات قبل هذا العام الا ما يتولى تعليم بنات الطبقات الفقيرة واليتيمات من اجل توفير بعض احتياجات الأسر الراقية، وبعض احتياجات الجيش كالخياطات اللائي يحكن ملابس الجنود.

وقد فرضت الدولة المصرية أول الامر على الممرضات والمدرسات الا يتزوجن حتى يتفرغن للعمل كاملا، وكانت تأخذ على الواحدة منهن تعهدا كتابيا بأنها لن تتزوج. وكانت هؤلاء الفتيات لحاجتهن الشديدة الى الرزق يوافقن على هذا الشرط. وقد استغلت الدولة حاجتهن للعمل ففرضت عليهن هذا الشرط، وخلقت منهن طبقة من العوانس الوحيدات التعيسات المريضات نفسيا، حيث ان ممارسة الجنس لم يكن يسمح بها للمرأة الا داخل الزواج، أو للنساء المومسات اللائي ينظر اليهن المجتمع على أنهن نساء ساقطات بغير شرف ولا كرامة.

وكان من العار أن ترسل اسرة محترمة بناتها الى مدرسة من تلك المدارس، وبقيت هؤلاء البنات في البيوت لا يتعلمن الا وسائل الاغراء الجنسي من اجل الاحتفاظ بالزوج، الذي كان يحق له ان يطلق زوجته بسبب أو بغير سبب او يجمع بينها وبين عدد من الزوجات او ما ملكت يمينه من الجواري[2].

ولم يبدأ التعليم الرسمي الثانوي للبنات الا عام ١٩٠٠ حين أنشىء قسم معلمات السنية. (انشىء التعليم الثانوي للبنين سنة ١٨٢٥ أي قبل البنات بخمسة وسبعين عاما) أما الجامعة المصرية فلم تفتح أبوابها للمرأة الا عام ١٩٢٩ ودخلتها أربع طالبات فقط ذلك العام.

---

(١) ابراهيم عبده، درية شفيق، تطور النهضة النسائية من عهد محمد علي الى عهد فاروق، القاهرة، الاداب، ١٩٤٥، ص ٤١.

(٢) زينب فريد، تطور تعليم البنت في مصر في العصر الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، نوفمبر ١٩٦١.

وقد تزايد بعد ذلك اقبال البنات المصريات على التعليم وخاصة بعد ثورة ١٩٥٢ الا أن نسبة العاملات بالمهن العلمية والفنية لم تصل الا الى ١٨,٩٪ من جملة العاملات في عام ١٩٦٩. ومعنى ذلك أن الاغلبية الساحقة من النساء المصريات ٨١,١٪ ما زلن يعملن بالزراعة أو أعمال الخدمة أو الاعمال الكتابية الصغيرة. وقد بلغت العاملات بالتدريس والتمريض في سنة ١٩٦٠ ٧٢,٨٪، ٣٨,٧٪ على التوالي من جملة العاملات بالمهن العلمية والفنية[1] ويبين تعداد السكان في مصر لسنة ١٩٦٠ أن ٨٩,٣٪ من العاملات المشتغلات في الخدمات يقمن بالعمل بالخدمة المنزلية كخادمات. (لا يخفى على أحد الاستغلال الذي تتعرض له هؤلاء الخادمات اقتصاديا واجتماعيا وجنسيا).

ويبين هذا التعداد ان هناك حوالي ١٠ ملايين امرأة في سن العمل (يدخل ضمن ذلك الطالبات والفلاحات وربات البيوت) ويبلغ مجموع سكان المدن منهن ٤ ملايين، والباقيات (٦ ملايين) فلاحات. ويبلغ مجموع النساء العاملات بأجر في جميع القطاعات (ما عدا الفلاحات وربات البيوت) ٦٪ من عدد النساء في سن العمل، وتبلغ ٦,٥٪ من القوى العاملة في مصر. وفي تعداد ١٩٧٦ ارتفعت هذه النسبة الى ٩,٢٪.

وعلى هذا فان الاغلبية العظمى من نساء مصر فلاحات يعملن بدون اجر لحساب الزوج أو الاسرة، وربات بيوت يعملن بغير أجر لحساب الزوج أو الاب أو الأسرة، وينطبق هذا القول على النساء في معظم البلاد العربية. ففي سوريا مثلا تبلغ قوة العمل النسائية[2] من مجموع الاناث ١٦,١٪ ثم ان القسم الاكبر من العاملات وتبلغ نسبته ٨٨٪ يعملن في الحقول والمزارع كفلاحات والباقيات يعملن في ادارات الدولة ومؤسساتها وفي الخدمات والصناعة والبيع والتجارة.

ان الفلاحات يمثلن الاغلبية من النساء العربيات العاملات، ولانهن يعملن بغير أجر فان كثيرا من الإحصاءات تتجاهل وجودهن ضمن قوة العمل النسائية. ففي الاحصاءات تجيء قوة العمل النسائية على أنها ٩,٢٪ فقط من القوى العاملة. ولكن اذا اضيفت الفلاحات الى النساء العاملات بأجر لأوشكت نسبة العاملات في مصر

---

(١) المرأة المصرية في عشرين عاما (١٩٥٢ ـ ١٩٧٢) مركز الابحاث والدراسات السكانية، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء، ص ٥١ ـ ٧٢.

(٢) الاتحاد العام النسائي، للجنة الدراسات المركزية، المرأة العربية في القطر السوري، ص ٤٩ وحسب احصائية وزارة التخطيط السوري لعام ١٩٦٨.

أن تقترب من نصف القوى العاملة في البلاد، وتصبح من اعلى النسب العالمية، ولا يزيد عليها الا نسبة النساء العاملات في الاتحاد السوفياتي.

وقد لعب العمل بأجر دورا في تحرير بعض النساء المصريات وخاصة هؤلاء اللائي حظين بقسط من التعليم العالي، ونسبتهن ٠,٣ في الالف فقط من جملة النساء لعام ١٩٦٦. وبالنسبة لمجموع السكان تبلغ نسبة حاملات المؤهلات العليا ١,٢٪ سنة ١٩٧٦، وكانت ٠,٢٪ فقط سنة ١٩٦٠، وقد ادى ذلك الى تحررهن الاقتصادي. واستطاعت بعض الزوجات منهن أن ينتزعن حقوقا جديدة في المجتمع أو داخل الاسرة رغم قانون الزواج الجائر. وبعضهن رفض الزواج حتى لا يخضعن لهذا القانون المتخلف وبعضهن تزوجن ثم طلقن حرصا منهن على الاستقلال والحرية.

ولا يوجد اي نص في القانون المصري اليوم يفرق بين الجنسين في التعليم او تولي الوظائف. والقانون رقم ٢١٠ لسنة ١٩٥٩ بشأن موظفي الدولة لم يشترط في الوظيفة سوى ان يكون المرشح لها مصريا حسن السيرة مستوفيا شروط السن والاهلية والكفاءة (المادة ٦) لكن التفرقة بين الجنسين تحدث في التطبيق العملي لهذا القانون.

مثال ذلك انه في قانون القضاء رقم ١٨ لسنة ١٩٥٢ تنص المادة ٢ على انه لا يجوز تعيين احد في وظيفة قاض الا بعد التحقق من كفايته وصلاحيته للقضاء، وقد استطاع الرجال المسيطرون على القضاء منع دخول المرأة المصرية فيه حتى اليوم بحجة ان الاسلام جعل شهادة الرجل الواحد تساوي شهادة امرأتين اثنتين، وفسروا هذا بان المرأة ليست مؤهلة لتولي عمل القاضي، لان الشهادة لا تزيد عن تقرير حادثة في حين أن القضاء حكم في نزاع..

وبالرغم من ان المرأة المصرية اصبحت وزيرة منذ سنة ١٩٦٢ الا انها منعت من ان تكون قاضية حتى اليوم، وما زال الرجال في مصر يناقشون فكرة صلاحية المرأة لتولي منصب القضاء، ولعل اخر ما قرأته بهذا الصدد مقال في جريدة الاخبار في ١٢ يناير ١٩٧٦، حيث يقول الكاتب ما معناه ان منصب القاضي محرم على المرأة في الاسلام لانه «غني عن الايضاح ان القضاء في الاسلام له شروط عشرة، لا يتم القضاء الا بها ولا تنعقد الولاية الا معها، وهذه الشرائط هي: - الاسلام والعقل والذكورة

والحرية والبلوغ والعدالة والعلم وكونه واحدا ثم سلامة حاسة السمع والبصر ثم سلامة اللسان»[1].

ولا يجوز للمرأة المصرية حتى اليوم تولي الوظائف ذات السلطات التنفيذية كمنصب العمدة في القرى[2].

وهذا يدل على التناقض الذي يعيش فيه المجتمع العربي الحديث، ففي الوقت الذي يسمح فيه للمرأة ان تصبح وزيرة وتقود وزارة بها الالاف من الرجال والنساء وتصدر اكبر القرارات واخطرها، يحرم عليها ان تكون قاضية في محكمة صغيرة تبت في بعض المشاجرات والمنازعات الشخصية، ويحرم عليها ان تكون عمدة في قرية صغيرة تحكم في بعض المشاكل المحدودة.

وهذا يدل على ان هؤلاء الذين يعارضون دخول المرأة العمدية او القضاء يناقضون انفسهم، فلم نسمع ان واحدا منهم اعترض على تعيين الوزيرة، هل مسؤوليات الوزير في نظرهم لا تحتاج الى سلامة العقل والذكورة والعدالة والعلم وسلامة اللسان؟.

او ان قرار تعيين الوزيرة يصدره رئيس الدولة وهم يعتبرون قرار رئيس الدولة أعلى من القرارات المقدسة التي جاء بها الاسلام؟.

وقد ظلت المرأة المصرية العاملة محرومة من اجازة الوضع حتى سنة ١٩٥٩ حين تضمن قانون العمل في هذا العام بعض الاحكام الخاصة بعمل النساء، وحصلت المرأة على اجازة وضع خمسين يوما بمرتب قدره ٧٠٪ من مرتبها الاصلي.

وقد حرم هذا القانون اشتغال النساء في بعض الاعمال بحجة انها ضارة صحيا، وكان هذا التحريم ضد المرأة اكثر مما كان في صالحها، لان كثيرا من اصحاب الاعمال اتخذوا من هذا البند حجة في رفض طلبات النساء للعمل، او فرضوا عليهن اجورا اقل او اعمالا ادنى لا تتناسب مع مؤهلاتهن وخاصة في مجال الانتاج وبالذات القطاع الخاص.

---

(١) جريدة الاخبار، القاهرة، ١٢ يناير ١٩٧٦ تحت عنوان «جولة في طريق التصحيح» بقلم احمد فتحي القاضي.

(٢) نصار، حقوق المرأة في التشريع الاسلامي والدولي المقارن، دار النشر والثقافة، الاسكندرية، مصر ١٩٥٧، ص ١٤٧.

وتحصل الموظفات بالحكومة والقطاع العام على اجور متساوية لزملائهن الرجال لكنهن لا يحصلن على الفرص المتكافئة في الترقية او التعيين في المناصب الرئاسية او التدريب على وظائف اعلى.

وفي قانون المعاشات تفرقة واضحة بين المرأة والرجل وقد سمح القانون حاليا للمرأة العاملة ان تجمع بين مرتبها ومعاشها وبين المعاش المستحق من زوجها في حدود ٢٥ جنيها مصريا كحد اقصى(١)

وتنص المادة ١٩ من دستور يناير ١٩٥٦ بأن «تيسر الدولة للمرأة التوفيق بين عملها في المجتمع وبين واجباتها في الأسرة». الا ان الدولة لم تفعل هذا حتى اليوم، ولا تزال الاغلبية من النساء العاملات منسحقات جسدا ونفسا تحت وطأة العمل خارج البيت وداخله.

ان مصر وغيرها من البلاد العربية لا تزال ترى ان المرأة خلقت اصلا لتلعب دور الام والزوجة من حيث الخدمة في البيت وتربية الاطفال، ولم يسمح المجتمع العربي للمرأة بالعمل الا من اجل حاجة اقتصادية ملحة للمجتمع اوللاسرة.فهي تعمل خارج البيت بشرط ان تعود الى البيت لتؤدي واجباتها الاساسية نحو الزوج والاسرة والاطفال، وبرغم ان بعض البلاد العربية كمصر وسوريا والسودان وغيرها قد رفعت بعض شعارات الاشتراكية الا ان هذه المجتمعات العربية لم تجد حلولا لمشاكل النساء العاملات وأولها توفير الامكانيات والمؤسسات في المجتمع التي تحرر المرأة من اعباء الطبخ والتنظيف والخدمة وتربية الاطفال.

ان توفير مثل هذه الامكانيات والمؤسسات لا تمثل اهمية او اولوية عند الحكام او الساسة العرب، كما ان النساء العربيات العاملات في اي بلد عربي لا يمثلن اية قوة للضغط على هؤلاء الحكام او الساسة من اجل توفير هذه الامكانيات. ولا تزال التنظيمات النسائية في البلاد العربية اما مجموعات من نساء الطبقات العليا المنشغلات ببعض الاعمال الخيرية السطحية او اقسام من التنظيمات السياسية المسماة بالاتحادات الاشتراكية التي لم تأخذ من الاشتراكية الا الاسم فقط والتي لا يعيش داخلها الا مجموعة سلبية بيروقراطية من الرجال والنساء تتلقى الاوامر من السلطة.

ولا شك ان عمل المرأة العربية بأجر يساعدها على الاستقلال اقتصاديا عن الاب

(١) قانون المعاشات المصري، رقم ٦٢ لسنة ١٩٧١.

او الزوج خاصة وان جوهر الاسلام يعطي المرأة حريتها واستقلالها في شؤون اموالها وليس لزوجها اي سلطة على اموالها[1]. ولكن العمل قد يكون نوعا جديدا من استغلال المرأة اذا حدث هذا العمل في مجتمع طبقي لا يساوي بين افراده او في ظل اسرة ينسيطر فيها الرجل عرفا وقانونا وشرعا على جسد المرأة وعقلها.

وهل يمكن للمرأة المحكومة جسديا، والتي لا تملك حرية التصرف في جسدها، هل يمكنها ان تتصرف بحريتها في اموالها؟ وهل يمكن للمرأة التي تخشى الطلاق في اي لحظة ان ترفض تدخل زوجها في اموالها؟ وهل يمكن للمرأة التي تساق الى زوجها بالبوليس ان تملك حرية التصرف في مالها وهي عاجزة عن التصرف في حياتها كلها؟.

ولهذا فان العمل بأجر لم يحرر المرأة العربية بصفة عامة وانما اضاف اليها اعباء وهموما ومشاكل جديدة.

وفي احد البحوث[2] المصرية ان اشتغال المرأة باجر لم يؤثر في رئاسة الرجل للاسرة، ولم تباشر المرأة هذه الرئاسة الا في حالة غياب الزوج، وان اهم المميزات التي يحققها اشتغال المرأة هو ارتفاع متوسط دخل الاسرة.

وأثبت هذا البحث في نتائجه ان المرأة العاملة تستغل اقتصاديا من جانب الزوج والاسرة وتظل بدون نفوذ او سلطة وانما خاضعة تماما لسلطة الرجل.

وقد ظهر من بحث اخر ان «وجود المرأة في العمل مع الرجال في مكان واحد ادى الى تغيير الفكرة التقليدية عن المرأة في انها لا تصلح الا للمنزل، فقد تبين للرجل من واقع العمل ان المرأة العاملة كفء وتتحمل المسؤولية مثله تماما بحيث لا يوجد هناك فرق بين المرأة والرجل فيما يمكن ان يقوم به كل منهما من عمل»[3].

وهذا يدلنا على ان المرأة العاملة المصرية تبذل من طاقتها الجسدية والنفسية اكثر مما يبذله الرجل لانها تقوم باعباء البيت والاطفال وحدها، بالاضافة الى انها لا تتمتع

---

(١) احمد خيرت، مركز المرأة في الاسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٦. علي عبدالواحد وافي، المرأة في الاسلام، مكتبة غريب، القاهرة سنة ٧١، ص ١٣.

(٢) سنية خليل، اشتغال المرأة واثره في بناء الاسرة ووظائفها ماجستير غير منشورة. جامعة الاسكندرية ١٩٦٣، ص ٥٤٧.

(٣) كاميليا عبدالفتاح، سيكولوجية المرأة العاملة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٢، ص ١٨٤.

بما يتمتع به الرجل من حريات شخصية للترفيه عن نفسه في خارج البيت، او في محيط العمل فما زال جو العمل رجوليا يظهر عداء وكراهية للمرأة التي تقتحمه خاصة اذا كانت ذكية ومؤهلة ومنافسة قوية للرجال.

وفي البحث السابق توصلت الباحثة «الى ان هناك تبادلا في علاقة العمل بين الجنسين وليس هناك تبادل في العلاقة الخاصة، اذن فالعلاقة عموما بين الجنسين محاطة بالقيود»[1].

وبرغم ان المرأة في بعض الاحيان تسعى الى العمل باجر «مدفوعة برغبة في تأكيد ذاتها وتحقيق امكانياتها والمساهمة في تطوير المجتمع»[2] الا ان ظروف العمل غير المؤهلة لعمل النساء وتقاليد المجتمع والاسرة غير المرحبة باستقلال المرأة عن سيطرة الرجل او تقصيرها في واجباتها المنزلية كل ذلك لم يسمح للمرأة العاملة في معظم الاحيان ان تجد الفرصة لتحقيق ذاتها او ممارسة انسانيتها على نحو اكثر تحررا.

ان العمل لاي فرد كان (رجلا او امرأة) لا يمكن ان يحقق التحرر المنشود عقلا وجسدا الا في ظل مجتمع يساوي بين افراده ويعطي الفرص المتكافئة للجميع حسب القدرة الشخصية والفكرية وليس حسب الانتماء لطبقة او جنس.

وبالرغم من الازدياد المستمر في اعداد النساء المتعلمات والعاملات بأجر في البلاد العربية الا ان الغالبية العظمى لا تزال ترزح تحت وطأة الأمية[3]. كما ان التعليم نفسه لا يلعب دورا كبيرا في القضاء على الافكار البالية والتقاليد التي لا تزال متفشية بين النساء والرجال، وتظل اغلبية المتعلمات والمتعلمين يرزحون تحت وطأة التخلف والخزعبلات التي سمعوها من ابائهم واجدادهم، والتي لا يزال يرددها كثير من الحكام والساسة العرب بهدف تضليل الشعوب من اجل الاستغلال المستمر.

كما أن معظم الانظمة في البلاد العربية لا تزال ابعد ما تكون عن الاشتراكية او العدالة، ولا تزال تتآزر بشكل علني او خفي مع النظم الاستعمارية العالمية، وهذا

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٣) في تعداد ٦٦ في مصر وجد ان جملة عدد النساء (١٠,٥٦٣,٣٥٨) والاميات منهن عددهن (٨,٣٣٥,٢٩٠) اي نسبة الأمية بين النساء المصريات ٧٨,٩ بالمئة، وفي تعداد ١٩٧٦ انخفضت نسبة الامية بين الاناث الى ٧١ بالماية.

كله يستدعي اجهزة اعلام وثقافة سطحية مضللة، كما ان نظم التعليم تظل عتيقة غير منظورة، منفصلة عن واقع المجتمع وحاجاته، معتمدة على حشو الادمغة بغير فهم ولا ربط بين العلوم، ولا نظرة شاملة تفسر الظواهر والمشاكل التي تعاني منها الاغلبية تفسيرا صادقا او حقيقيا، ولا مناقشة او تحليل او اقناع وانما هي الطاعة والتلقي السلبي من اجل تخريج جيوش من الموظفين البيروقراطيين المطيعين للرؤساء والسلطة الحاكمة او الموظفات المطيعات للازواج والرؤساء.

وقد استطاعت بعض البلاد العربية من خلال ثورات تحريرية شعبية او عسكرية ان تتخلص من بعض الحكام والانظمة الاستغلالية الرجعية والاستعمار القديم والجديد، الا انه كثيرا ما تحدث الانتكاسات، وبعد ان يسير الشعب خطوات نحو الاشتراكية والحرية اذا به يتلقى ضربة جديدة قد تسدد اليه من قوى الاستعمار الخارجي او قوى الحكم الداخلي او كليهما معا.

ومن اهم المشاكل التي لا تزال تعترض المرأة العربية بالنسبة للعمل هو قوانين الزواج المتخلفة التي لا تزال تعطي الزوج حق منع زوجته من العمل او السفر او الخروج من البيت حينما يريد، وتقف المجتمعات العربية من المرأة في هذا موقفا متناقضا استغلاليا، ففي الوقت الذي تدفع فيه النساء الكادحات الى العمل في الحقول والمصانع والمكاتب يتركن تحت رحمة ازواجهن بشأن السماح بهذا العمل حسب رغبة الزوج ومصلحته، وعلى هذا تستغل النساء من جانبين من جانب الدولة ومن جانب الزوج معا.

ونظرا لشدة حاجة الدول العربية (وبالذات الدول التي تحتاج الى سواعد النساء في الحقول والمصانع والمكاتب) الى عمل النساء فقد ترددت هذه الدول في اعطاء الزوج السلطة الكاملة لمنع زوجته من العمل، فلو نفذ الازواج هذا الحق ومنعوا زوجاتهم من العمل لانهار الاقتصاد في تلك الدول بسبب احتمال بقاء الفلاحات والعاملات والموظفات في بيوتهن، ومن هنا ذلك التناقض الواضح الذي نجده في قوانين العمل وقوانين الزواج في معظم المجتمعات العربية.

ان قوانين العمل في كثير من الدول العربية مثل مصر وسوريا والعراق وغيرها تسمح للمرأة بالعمل على حين أن قوانين الاحوال الشخصية حتى اليوم تعطي الزوج سلطة منع زوجته من العمل ومن السفر ومن الخروج من البيت اذا اراد.

ويتعارض موقف الدول العربية من عمل المرأة وميثاق حقوق الانسان الذي ينص على حق العمل كاحد الحقوق الاساسية للانسان، ويتعارض ايضا وجميع الشرائع السماوية وغير السماوية التي نصت على حق العمل وتضمنت حثا على العمل وتكريما للعمل، ويتعارض ايضا وما تعلنه هذه الدول العربية في المحافل الدولية وغيرالدولية من ان المرأة العربية تحررت ونالت حقوقها.

وتتناقض الدول العربية مع نفسها ومع قراراتها في هذا الشأن. فقد شكلت هذه الدول لجنة خاصة بمركز المرأة العربية في قوانين الاحوال الشخصية وعقدت هذه اللجنة في جامعة الدول العربية وكان من أهم قراراتها هذا النص: «ان يكون للزوجة حقها الكامل في العمل ما لم يشترط الزوج في عقد الزواج خلاف ذلك، ومع هذا فللزوجة رغم قيام هذا الشرط ان تلجأ الى القاضي ليأذن لها بالعمل اذا جد من الظروف ما يقتضي ذلك».. ورغم ضعف هذا النص من حيث عدم اطلاق الحرية الكاملة للزوجة لان تعمل بغير قيد او شرط الا ان قوانين الاحوال الشخصية لم تتغير لتشمل هذا التطوير في معظم البلاد العربية، حتى تلك البلاد التي سارت في طريق الاشتراكية. ففي سوريا ما زال الاتحاد العام النسائي يطالب للمرأة السورية بالحق للعمل خارج المنزل والا تسقط حضانتها لاولادها اذا عملت[1].

وما زال قانون الاحوال الشخصية المصري يعطي للزوج سلطة منع زوجته من العمل اذا اراد، وفي المشروع الجديد[2] الذي لم يصبح قانونا بعد، والذي اشتمل على تعديلات طفيفة لا تمس جوهر سلطة الرجل على زوجته، ورد نص جديد خاص بعمل المرأة يقول ان من حق الزوج ان يمنع زوجته من العمل الا اذا اشترطت هي في عقد الزواج على العمل، وفي هذه الحالة ليس من حق الزوج ان يمنع زوجته من العمل الا اذا طرأ بعد ذلك ما يجعل تنفيذ الشرط منافيا لمصلحة الاسرة.

ومن هنا يتضح لنا كيف تتردد الدول العربية في اعطاء الزوجة حق العمل الذي منح لها بصفتها انسانة في جميع المواثيق والشرائع واللجان والدول بما فيها جامعة الدول العربية وكلنا يعرف كيف يستغل الازواج حقوقهم، وكيف يتحايل الزوج باسم مصلحة الاسرة والاطفال على سلب حقوق المرأة، وهو في الحقيقة يعمل لصالحه

(١) الاتحاد العام النسائي، المرأة العربية في القطر العربي السوري، المطبعة والجريدة الرسمية ١٩٧٤، ص ٢٨.

(٢) نشر هذا المشروع الجديد في جريدة الاهرام، القاهرة، ٢٩ فبراير ١٩٧١.

وحده ضد مصلحة الاطفال بل مصلحة المجتمع، وكم من زوج يستغل حقه في حرمان زوجته من العمل او دفعها الى العمل واستغلال اجرها وتسخيرها خارج البيت وداخله.

ومن اهم الاسباب التي تدعو الزوج الى منع زوجته من العمل هو رغبته في اخضاعها وحرمانها من اجرها الذي قد يحقق لها نوعا من الاستقلال الاقتصادي فتستطيع ان تشعر بكيانها وكرامتها وترفض اهانته لها او ضربه لها او عربدته مع النساء او زواجه من امرأة اخرى او على الاقل ترفض الفراغ والخمول في البيت بغير عمل منتج يشعرها بكرامتها الانسانية.

وكثيرا ما قرأنا عن هؤلاء الازواج الذين يتلاعبون بزوجاتهم من اجل استغلالهن او اخضاعهن، ولعل اخر ما قرأته في هذا الشأن ما نشر في جريدة اخبار اليوم تحت عنوان «انذار من الزوج لزوجته: اتركي الوظيفة فورا. والمحكمة تقول: العاملة بدون اذن زوجها ناشز»[1]. وملخص القصة ان احدى الفتيات زوجها ابوها بعد ان حصلت على الثانوية العامة ولم يَكمل لها تعليمها كي يزوجها، وعاشت الزوجة مع زوجها عشر سنوات ثم شعرت بالفراغ فبحثت عن عمل واستطاعت الحصول على وظيفة، لكن الزوج اعترض وطلب منها ان تترك العمل فورا لكن الزوجة التي تخرج للعمل بغير اذن زوجها تعتبر ناشزا وأيدت المحكمة قول المحامي وقررت ان الزوجة ناشز لانها تعمل بغير اذن زوجها.

اما ذلك النص الخاص بان من حق الزوجة ان تشترط على زوجها قبل الزواج بان يكون لها عمل خارج البيت فهو نص لا ينفع الا القلة النادرة من النساء المستقلات اقتصاديا ونفسيا واخلاقيا عن المجتمع والاسرة وهو امر تعجز عنه الاغلبية الساحقة من البنات قبل الزواج حتى هؤلاء اللائي حظين بالتعليم او العمل باجر نظرا لتقاليد المجتمع والاسرة. ويشبه هذا النص الى حد كبير ذلك النص القديم في قانون الزواج الذي يعطي الزوجة الحق في الطلاق وذلك باشتراط هذا الحق في عقد الزواج قبل ان تتزوج، (اي ان تأخذ العصمة بيدها) ورغم ان هذا الحق لا يلغي حق الزوج في تطليق زوجته حين يشاء وكل ما يفعله هذا النص هو اعطاء الزوجة مثل هذا الحق الا ان قلة نادرة من النساء استطاعت ان تستخدم هذا الحق، فان التقاليد العربية كانت ولا تزال تنظر بازدراء لذلك الرجل الذي يتزوج امرأة تأخذ العصمة بيدها، او تشترط

(١) جريدة اخبار اليوم، القاهرة، ٢٦ يوليو ١٩٧٥، ص ١٠.

عليه قبل الزواج، ان العكس هو الصحيح دائما، فوضع الرجل المتقدم للزواج هو الاعلى، وهو المرغوب والمنشود بل والمطارد ولذلك فهو الذي يضع الشروط قبل الزواج وليست البنت الصغيرة التي يفرض عليها الزواج بواسطة الاب او الاسرة وليس لها ان تختار زوجها في معظم الاحيان، فما بال ان تشترط عليه الشروط قبل الزواج.

هذا ولا يزال عمل الزوجة خارج البيت في نظر كثير من الرجال العرب اهانة لرجولة الرجل، اذ تقتضي الرجولة، وعلى الاخص الرجل « النزق » ان يكون قادرا على اعالة زوجته وعدم السماح لها بالاختلاط بالرجال في المكاتب اوالشوارع او المواصلات العامة، وقد تغلب الرجل العربي المثقف المتحرر على هذه العقدة، لكن معظم الرجال لا زالوا اسرى لهذه الفكرة وقد يضطر الواحد منهم الى تشغيل زوجته خارج البيت لحاجة اقتصادية ملحة، لكنه يظل يعاني نفسيا من قدرته على اعالة الاسرة وحماية زوجته داخل البيت، بل ان الزوجة نفسها قد تشعر بازدراء لزوجها بانه يشغلها، او تتباهى بأن زوجها لا يسمح لها بالخروج للعمل، الا ان الحاجة الاقتصادية في السنين الاخيرة قد اجبرت الشباب العرب اليوم على تفضيل الزوجة العاملة بأجر لتساعده على النفقات.

عمل المرأة داخل البيت

هناك فئة كبيرة من النساء المضطهدات في قانون العمل وهن النساء العاملات داخل البيت، ويطلق عليهن «ربات البيوت».

ان عمل المرأة داخل البيت غير منظور وغير معترف به ضمن اعمال الانتاج في المجتمع، ونحن لا نطلق على المرأة التي تعمل في البيت اسم امرأة عاملة مع ان عمل المرأة في البيت عمل انتاجي مائة في المائة، لكنه عمل بغير أجر، وبغير مقاييس اقتصادية واجتماعية، في حين ان عمل المرأة داخل البيت يبدأ اول النهار وينتهي في اخره، اي انه بمقاييس العمل يزيد عن اي معدل لاي عمل اخر خارج البيت، (هذا باستثناء النساء العاطلات في البيوت من الطبقة القادرة على استئجار الخدم والطباخين ومربيات الاطفال وهن يمثلن فئة صغيرة من المجتمع العربي بصفة عامة).

وعمل المرأة داخل البيت ايضا يشتمل على عدة وظائف وعدة تخصصات، فهي تقوم بوظيفة الطباخ والخادم والممرضة والمرضعة والغسالة والنادلة ومربية الاطفال والمدرسة والمرفهة النفسية والمواسية والمشجعة والمشبعة جنسيا والمنفسة عن غضب الزوج او فشله او توتره او احباطه.

تقوم المرأة داخل البيت بجميع هذه الوظائف بغير اجر، وبغير ان يعترف بعملها ضمن الاعمال الانتاجية في المجتمع، اي ان المرأة العاملة داخل البيت مستغلة اقتصاديا وانسانيا، لان الانتاج هو الذي اعطى البشر صفة الانسانية، فالفرق بين الانسان والحيوان هو الانتاج. وقد توصل الانسان للانتاج لانه هو وحده دون سائر الحيوانات الذي اكتشف الادوات اي وسائل الانتاج.

الانتاج اذن عمل خاص بالانسان وحده، اما الاستهلاك فتقوم به جميع المخلوقات والكائنات.

ان سلب انتاجية المرأة العاملة في البيت سلب لانسانيتها، وان سلب أجرها وفرض هذا العمل عليها بغير اجر إنما هو سلب لحقوقها الاقتصادية الاساسية، كما ان فرض هذا العمل عليها يحرمها من حرية اختيار عمل اخر، والمفروض ان الانسان هو الذي يختار عمله لا ان يفرض عليه لانه ولد انثى، وان وظيفة تنظيف البيت يجب الا تفرض على المرأة لمجرد انها انثى، كما ان وظيفة تنظيف الاحذية يجب الا تفرض على الزنجي لمجرد انه ولد اسود اللون.

وعلى هذا فان الاضطهاد الواقع على المرأة العاملة في البيت اضطهاد مضاعف ثلاث مرات كالآتي :ـ

١ ـ حرمانها من شرف الانتاج كانسان وتجاهل عملها بمقاييس العمل المنتج.
٢ ـ حرمانها من الاجر.
٣ ـ فرض عمل البيت عليها والخدمة فيه لمجرد انها انثى.

ويمكن لنا ان نتصور الاموال التي توفرها اي دولة بتسخير النساء في العمل داخل البيوت بغير اجر، حين ندرك النفقات الباهظة والصعوبة التي تتطلبها هذه الوظائف في المجتمعات الاشتراكية التي حاولت ان تحرر نساءها العاملات خارج البيوت من الاعمال المنزلية وخدمة الاطفال، الى الحد الذي جعل معظم البلاد الاشتراكية عاجزة عن تحرير الاغلبية من نسائها من هذه الاعمال المنزلية ورعاية الاطفال، ان الاتحاد السوفيتي مثلا لم يوفر من دور الحضانة الا ٢٥٪ فقط مما يمكن ان يكفي اطفال الامهات العاملات، والمانيا الشرقية لم توفر الا ٣٠٪ فقط.

اما في المجتمعات الرأسمالية مثل الولايات المتحدة فان النسبة لا تزيد عن ٣٪ رغم ثراء المجتمع النسبي.

لكن المجتمع الرأسمالي قائم اساسا على الربح ومضاعفة رأس المال، ومثل هذه الخدمات الضرورية للنساء العاملات لا تمثل للمجتمع الرأسمالي ضرورة فهي مصاريف ونفقات باهظة بغير عائد مباشر.

ويتجاهل المجتمع الرأسمالي العائد من وراء عمل النساء في البيوت، اذ لولا عمل النساء في البيوت لانهار الاقتصاد الرأسمالي، فكيف يعمل العامل اذا لم تكن له امرأة في البيت تطعمه وتغسل ملابسه وتربي اطفاله، وكيف يدبر المجتمع الرأسمالي الايدي العاملة الجديدة اذا امتنعت النساء عن ولادة الاطفال او عن رعايتهم؟.

ومن هنا ذعر المجتمع الرأسمالي من قوة النساء الصاعدة الجديدة التي قد تفرض على المجتمع شروطا جديدة للعمل في البيت وتطالب باجر عن عمل البيت وعن الحمل والولادة والرضاعة او ان تثور النساء ضد كل هذه الوظائف المفروضة، وترفض الزواج والحمل وتسعى الى منع الحمل والاجهاض وهذه كلها حقوق مسلوبة من النساء لان النساء لم يمثلن في يوم من الايام قوة ضاغطة على اي نظام او حكم.

وبرغم ان الاشتراكية سعت الى تحرير المرأة وذلك بان تعمل المرأة مثل الرجل وتتقاضى اجرا مساويا له عن العمل نفسه، الا ان الاشتراكية دفعت اعدادا متزايدة من النساء للعمل دون ان تحررهن من عمل البيت ورعاية الاطفال الا بنسب صغيرة.

كما ان النظرية الاشتراكية الخاصة بفائض القيمة لم يطبقها الاشتراكيون على الانتاج داخل البيت وانما طبقت هذه النظرية على الانتاج في المجتمع، ولذلك تم الكشف الواضح عن مدى الربح الذي يجنيه الرأسماليون من وراء عمل النساء في البيوت.

وفي مجتمعاتنا العربية لا تزال معظم النساء مسخرات للعمل داخل البيت بالمجان، ودون الاعتراف بدورهن الهام في الاقتصاد والانتاج. اما النساء العاملات خارج البيت فانهن يجمعن بين العملين داخل البيت وخارجه في معظم الاحيان مما يسبب الارهاق الجسدي والنفسي لمعظم الامهات العاملات بالاضافة الى مشاكل الاطفال الذين تركوا بغير رعاية الأم او الاب وبغير رعاية الدولة.

ولا يمكن للنساء العربيات ان يعالجن مشاكلهن وهن افراد متفرقات، ان الذي عطل حصول النساء على حقوقهن هو انهن لم يكن ابدا مجموعة قوية متماسكة، ولم يكن لهن في أي مجتمع حزب سياسي يناضل من اجل تحريرهن ويفرض شروطهن بالاقتناع والمنطق او الاضراب والضغط فبغير القوة الضاغطة الاجتماعية والسياسية لا يمكن لاي مجموعة من البشر ان تنال حقوقها في ظل اي نظام او حكم.

ان المهام الملحة المطلوبة من حزب النساء السياسي مثلا هو وضع خريطة جديدة لقوة العمل النسائية المنتجة بحيث تضم الفلاحات وربات البيوت، ان احصاءاتنا الرسمية تقول ان قوة العمل النسائية هي ٢,٩٪ فقط، وهي لا تحسب الفلاحات ضمن هؤلاء وانما تحسب النساء العاملات باجر فقط، لكن الفلاحة المصرية منتجة مائة في المائة لكنها محرومة من الاجر ومحرومة ايضا من شرف الدخول في قوة العمل المنتجة

لمجرد انها لا تتقاضى اجرا.

واني اتصور ان من المهام المطلوبة ايضا من حزب النساء السياسي هو صنع مقاييس لعمل المرأة في البيت حسب مقاييس العمل والانتاج في المجتمع، بحيث يصبح عمل ربة البيت ضمن اعمال الانتاج في المجتمع، بمعنى اخر اعطاء صفة الانتاجية الاقتصادية لربات البيوت، فذلك يمنحهن الشرف الانساني كاعضاء منتجات في المجتمع (وليس مستهلكات فقط) بالاضافة الى الحصول على اجر مساو لما يحصل عليه شخص اخر يقوم بالعمل نفسه.

ومن مهام الحزب ايضا تحرير النساء المشتغلات خارج البيت من العمل في البيوت وذلك بان توفر الدولة المطابخ والمغاسل ودور الحضانة، وبأن يكون لتوفير هذه الدور والمؤسسات اولوية في ميزانية الدولة، لان عدم توفيرها يسبب المشاكل والأزمات العديدة للنساء والاطفال بل والرجال ايضا.

والذين يقولون ان هذه المشاكل يمكن ان تحل بعودة المرأة الى البيت لا يدرسون الواقع دراسة علمية موضوعية، لانهم لو فعلوا ذلك لوجدوا ان الذي يدفع الاغلبية الساحقة من النساء العاملات في الحقول والمصانع والمكاتب هو الحاجة الاقتصادية للمجتمع والحاجة الاقتصادية للاسرة. ان اغلبية نساء مصر مثلا فلاحات يخرجن الى العمل كل يوم منذ الاف السنين، ولولا خروج الفلاحة المصرية من دارها لما وجدنا الخبز الذي نأكله ولا الملابس التي نلبسها. ان الفلاحة المصرية عاملة منتجة مائة في المائة، ولا تكاد تستهلك شيئا وان اغلبية النساء العاملات في غير الزراعة عاملات كادحات في المصانع او الخدمات او المهن الضرورية وكلهن يعملن من اجل توفير القوت الضروري لاسرهن واطفالهن.

وان نسبة ضئيلة جدا من جملة النساء اللائي يخرجن للعمل لاسباب غير اقتصادية ضرورية، وحتى بالنسبة لهذه الفئة القليلة فان اسباب العمل ضرورية وانسانية.

فمن قال ان الهدف الوحيد من العمل في حياة الانسان هو الحصول على القوت الضروري؟ ان الانسان العاطل بغير عمل يفقد مع فقدان العمل انسانيته وشرفه بسواء.

وقد كتب احد كتابنا وهو توفيق الحكيم يقول: ان الرجل انتاج والمرأة استهلاك وهذا هو التقسيم الاقتصادي في الفكر الرأسمالي الذي يحرم المرأة شرف الانتاج رغم انها منتجة مائة في المائة، فان اغلبية النساء فلاحات منتجات مائة في المائة واغلبية العاملات في المصانع والمكاتب منتجات، والنساء العاملات في البيوت فقط منتجات ايضا، وانتاج المرأة العاملة أكثر من انتاج الرجل لانها تعمل في وظيفتين داخل البيت وخارجه، اما المرأة المستهلكة فهي لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جدا من المجتمع واستهلاك الرجل في هذه الفئة مثل استهلاك المرأة واكثر.

المرأة العربية والاشتراكية

ليس من السهل على احد ان ينكر الدور الهام الذي لعبه المفكرون الاشتراكيون في كشف الاسباب الحقيقية التي دعت الى اضطهاد المرأة في تاريخ البشرية، وليس من الصعب على اي دارس ان يلحظ العلاقة الوثيقة بين درجة تحرير النساء وبين درجة تحول المجتمع الى الاشتراكية، كلما زادت درجة تحول المجتمع الى الاشتراكية الحقيقية زاد تحرر النساء بالمعنى الحقيقي للتحرر، اعني التحرر الاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي.. اي ان تكون المرأة مستقلة اقتصاديا، لها عملها الذي تختاره والذي تأخذ عنه اجرا مساويا لاجر الرجل، ولها جسدها الذي تملك حريته بالكامل فتحمل حين تريد وتجهض نفسها حين تريد، وتمنح اسمها لطفلها حين تريد، وتختار شكل العلاقة الشخصية بينها وبين الرجل، وتتزوج حين تريد وترفض الزواج حين تريد، وتتحرر من اعباء عمل البيت وتربية الاطفال حين تريد، تفعل كل ذلك باختيارها وارادتها وهي تتمتع بكامل كرامتها وشرفها في المجتمع.

ان هذه الحريات والحقوق الاساسية لاي انسان لن تستردها المرأة الا في ظل مجتمع نجح في التخلص من النظم الطبقية والابوية معا، وهو امر لم يحدث بعد في اي مجتمع اشتراكي. ان المجتمع الروسي حتى اليوم لم يحقق للاغلبية من نسائه هذه الحريات والحقوق الاساسية مع انه اول مجتمع في العالم حدثت فيه الثورة الاشتراكية. فقد كانت افكار انجلز الاشتراكية لا تزال تدوي، وقد كشف عن العلاقة الوثيقة بين الاضطهاد الجنسي والاضطهاد الاقتصادي، واوضح ان اول اضطهاد طبقي حدث في التاريخ هو اضطهاد الرجل للمرأة، وان الاضطهاد الذي وقع على المرأة كان مضاعفا، فالرجل العامل يعاني من اضطهاد صاحب العمل أما المرأة فتعاني من اضطهاد صاحب العمل واضطهاد زوجها، وأوضح أن غاية الاشتراكية هي تحرير العامل (الصناعي أو الزراعي) وتحرير المرأة، وأكد أن تحرير المرأة لا يتم ميكانيكيا بعد تحرير

العمال والفلاحين، او بعد التحرير الاقتصادي، لكن التحرير الاقتصادي شرط ضروري لحدوث التحرير الانساني، وبغير التحرير الانساني يتحول الانسان الى اداة للعمل فحسب.

الا ان الفكر الستاليني الجامد اتهم انجلز بانه بالغ في تقدير أهمية تحرير المرأة والتحرير الانساني وسرعان ما تقهقرت قضية المرأة الى الوراء. وسلب منها كثير من الحقوق التي حصلت عليها في بداية الثورة الروسية، واعادها حكم ستالين الى حظيرة الاسرة الابوية والخضوع لسيطرة الرجل داخل الاسرة. واهملت مشاكل النساء العاملات ولم تتحمس الدولة لتوفير الامكانيات التي تسهل لهن الجمع بين العمل خارج البيت وداخله، وفرضت القيود من جديد على الطلاق وعلى الاجهاض وعلى الطفل غير الشرعي، وانحصرت الاشتراكية داخل المفهوم الضيق المتعلق بالتحرير الاقتصادي، لكن التحرير الاقتصادي وحده بغير تحرير انساني وفي ظل حكم سلطوي ابوي لا يقود الا الى تحويل الرجل الى اداة للعمل في المصنع، وتتحول المرأة الى اداة للعمل في المصنع وفي البيت ايضا، وهذا هو ما حدث للمرأة والرجل الروسي في عهد ستالين.

وبالرغم من انتهاء حكم ستالين ١٩٥٣ وتجاوز المجتمع السوفيتي للمرحلة الستالينية الجامدة وتحقيقه للمزيد من حريات وحقوق المرأة الا انني لا استطيع ان اقول ان اغلبية نساء الاتحاد السوفيتي قد تحررن تحررا كاملا، ويكفي ان نعلم ان ٧٠ ـ ٧٥٪ من النساء العاملات الروسيات ما زلن يجمعن بين العمل خارج البيت وداخله لان الدولة لم تنشىء من دور الحضانة الا ما يكفي ٢٥ ـ ٣١٪ فقط من الاطفال[1] (هذه النسبة في الولايات المتحدة ٣٪ فقط) وفي المانيا الشرقية تبلغ هذه النسبة ٣٠٪.

واذا عرفنا القيود التي لا تزال تعانيها المرأة داخل الاسرة الابوية وقيود الاجهاض والعار الذي ما زال يطارد الام غير المتزوجة او الطفل غير الحاصل على اسم ابيه، هذه القيود التي ما زال معظمها يعيش في المجتمعات الاشتراكية، في روسيا والمانيا الشرقية والصين وغيرها، ادركنا ان استقلال المرأة الاقتصادي (عن طريق العمل باجر مساو لاجر الرجل) لا يكفي لتحرير المرأة تحريرا حقيقيا.

---

(١) Feminism and Socialism. The Family: by Dianne Feely P. 85 (Path Finder Press. N.R. 1972).

الا ان القليل افضل من لا شيء، ووضع المرأة في هذه المجتمعات الاشتراكية افضل بكثير من وضعها في البلاد الرأسمالية، ويكفي ان ندرك ان حركة تحرير النساء في امريكا لا تزال تطالب ضمن ما تطالب به بأجر لعمل المرأة مساو لاجر الرجل، وبفرص متساوية للنساء في التعليم العالي وفي الاعمال الهامة والمجالات الانتاجية، وبتوفير دور الحضانة لاطفال النساء العاملات باجور بسيطة تتناسب ودخولهن، واستقلال المرأة باسمها واموالها داخل الزواج والكف عن استخدام المرأة كاداة جنس في التجارة والاعلانات وحوانيت الجنس، وتحرير المومسات.

ان انخفاض مكانة المرأة في المجتمعات الرأسمالية رغم تقدمها العلمي والتكنولوجي وثرائها النسبي يجعلنا ندرك ان الطريق نحو الاشتراكية هو الطريق نحو تحرير المرأة وتحرير الرجال ايضا، لان الرجل بسلبه انسانية المرأة يسلب انسانيته هو ايضا، وبالمثل الاقطاعي او الرأسمالي الذي يسلب انسانية العامل، ان الشخص الذي يستعبد شخصا اخر لا يمكن ان يكون حرا، فالسيد والعبد كلاهما مسلوب الانسانية والحرية.

لكن كثيرا من الحكام الاشتراكيين اساءوا فهم هذه المعاني الجوهرية، وفصلوا قضية تحرير المرأة عن قضية تحرير العمال والفلاحين، وتصوروا ان الغاء الملكية وقرارات التأميم ستؤدي تلقائيا الى تحرير الانسان او تحرير المرأة، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه معظم الحكام العرب الذين رفعوا شعارات الاشتراكية والتأميم في بعض البلاد العربية.

ولعل اهم ما حققته الثورة المصرية ١٩٥٢ هو قراراتها الاشتراكية الخاصة بتحديد الملكية والقضاء على الاقطاع وتأميم البنوك والشركات الكبرى، ثم الميثاق الوطني في ٢١ مايو ٦٢ الذي اشتمل على هذا النص «ضرورة اسقاط بقايا الاغلال التي تعوق حركة المرأة الحرة حتى تستطيع ان تشارك بعمق وايجابية في صنع الحياة».

وبرغم تزايد اعداد البنات والنساء في المدارس والجامعات والعمل في المجتمع الا ان الاغلال بقيت حول الاغلبية الساحقة من النساء المصريات. وفي بعض البلاد العربية رفع المجتمع شعارات الاشتراكية ونصت مواثيقهم على نصوص مشابهة للنص المصري من حيث اسقاط الاغلال التي تعرقل حركة المرأة وعملها في المجتمع الاشتراكي الا ان الاغلبية من النساء العربيات في هذه البلاد لم يتحررن كما يجب،

وكان المفروض ان تصدر هذه الحكومات مع قراراتها الاقتصادية والاشتراكية قرارات جديدة لعلاقة الرجل والمرأة تلغي سيطرة الرجل داخل الاسرة وتعطي المرأة من الحريات الشخصية والاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ما تعطيه للرجل.

لكن ذلك لم يحدث في اي مجتمع عربي حتى اليوم، وهناك بعض البلاد العربية التي قيدت حرية الرجل في الطلاق، ومنعت تعدد الزوجات الا ان قانون الزواج والطلاق والنسب والارث والولاية ما زال يعطي الرجل السيادة على المرأة في معظم هذه البلاد.

وقد حصلت المرأة العربية على حقوق جديدة في المجتمع والاسرة بحكم ازدياد وعيها او تعليمها او مساهمتها في الانفاق كصاحبة عمل بأجر الا ان الاغلبية الساحقة ما زلن اميات كادحات يجمعن بين العملين داخل البيت وخارجه، ويخضعن بحكم الطاعة لقوانين الزواج والطلاق، محكومات في حياتهن داخل الاسرة وخارجها بالتقاليد العتيقة والقيم الاخلاقية المزدوجة التي تدين المرأة وحدها، وتتحمل البنات والنساء سوء العلاقة الزوجية، وفوضى الرجال الجنسية، وتعدد الزوجات، والطلاق بغير سبب، ومآسي العذرية والشرف والختان، والخوف من الحمل داخل الزواج وخارجه، ومشاكل الاجهاض غير القانوني، وعبء تحديد النسل يقع على كاهل النساء وحدهن.

ولا شك ان مشاكل المرأة العربية تختلف باختلاف طبقتها الاجتماعية، وتزيد المآسي والمشاكل كلما هبطت المرأة في السلم الاجتماعي، الا ان هناك مأساة مشتركة تشترك فيها جميع النساء من كل الطبقات وهي مأساة الزواج والطلاق، اذ بمجرد ان تتزوج المرأة تصبح خاضعة لذلك القانون الذي يطلق عليه اسم قانون الاحوال الشخصية.

وفي بلد كمصر لم ينل قانون الاحوال الشخصية الاهتمام الكافي من رجال السياسة او الحكم.

الزواج والطلاق في المجتمعات العربية

ظل قانـون الزواج والطلاق في مجتمعاتنا العربية من الامور الثانوية التي تترك لمـوظفي الشؤون الاجتماعية أو بعض الجمعيات النسائية. بل أن بعض القيادات النسائية التي وصلت الى مقاعد البرلمان أو الحكم كانت تبتعد عن مناقشة هذا القانون حتى لا تتهم بأنها ضيقة الافق محدودة الاهتمامات بما هو نسائي. وظل رجال السياسة بما فيهم الاشتراكيون ينظرون باستخفاف الى قضية تحرير المرأة أو تغيير قانون الاحوال الشخصية. انهم يظنون أن الاحوال الشخصية للمرأة والرجل لا علاقة لها بالسياسة العليا التي تشغلها القضايا الكبرى، وترى الواحد منهم منهمكا في اجتماع انتخابي داخل الاتحاد الاشتراكي أو في احدى قاعات البرلمان أو في احدى حفلات السفارات والسلك السياسي.

ان السياسـة العليا لأي بلد لا تجـرى في هذه القـاعات والردهات والحفلات الدبلوماسية وانما هي تجرى في حياة الناس الصغيرة اليومية، في خروج الفلاح الى عمله صباح كل يوم بعد أن يبول بغير الم أو دم (مرض البلهارسيا يستنزف دم الفلاح المصري كل يوم ويستنزف الدخل القومي بما يصل الى ٧٠٪)، في تناول العامل كل صباح قطعة من الجبن أو بعض الفول المدمس يساعده على مواصلة الوقوف أمام الالة، في خروج الفلاحة الى الحقل دون أن يضربها زوجها حتى تصبح كسيحة، في ركوب الموظفة الاوتوبيس دون أن يدفعها أحد من الخلف، في امتناع الزوجة عن ممارسة الجنس مع زوجها اذا كانت متعبة أو مريضة، في رعاية الاب لاطفاله وعدم الهروب منهم الى زوجة ثانية أو عشيقة جديدة... الخ.

ان هذه الامور الشخصية والخاصة جدا والصغيرة جدا كالاكل والتبول وممارسة الجنس والخروج كل صباح وركوب الاوتوبيس التي تحدث في حياة الرجال والنساء اليومية هي التي تصنع الدولة وهي التي تصنع السياسة العليا في أي دولة، ولا يمكن

لمن يهتم بالسياسة العليا في أي دولة أن يهمل هذه الامور الشخصية الصغيرة جدا. لا يمكن للفلاح أن يعمل وينتج اذا أصيب بألم ونزف دموي في كل مرة يذهب فيها الى دورة المياه (البلهارسيا). ولا يمكن للعاملة أو للعامل أن يواصل العمل من غير ان يرضي رغبته الجنسية، ولا يمكن للزوجة أن تنتج في المجتمع وهي مضطهدة عاطفيا وجنسيا. بمعنى آخر لا يمكن للبشر ان يعملوا وينتجوا بغير أن يفكروا ويشعروا ويمارسوا الجنس. ولا يمكن لهم أيضاً أن يفكروا ويشعروا دون أن تكون هناك نتائج اقتصادية. لذلك لا يمكن بحال من الاحوال فصل حياة الناس العاطفية والجنسية عن الحياة الاقتصادية. إن أي فصل بينهما يقود الى فكر ناقص سطحي ومشوه. ان الذي صنع تاريخ الانسان ليست هي العلاقات الأقتصادية وحدها كما يؤمن بعض الاشتراكيين وليست العلاقات الجنسية او الغريزة الجنسية كما يؤمن بعض الفرويديين ولكن الذي صنع التاريخ هما الاثنان معا في وحدة واحدة وفي مستوى واحد كما اثبت التاريخ.

لهذا فان الاهتمام بقانون الاحوال الشخصية وبقضية مساواة المرأة لا يقلل من قيمة الرجل السياسي الاشتراكي، بل ان الرجل الاشتراكي الحقيقي يعرف من موقفه إزاء قضية المرأة وبقدر ما يكون الرجل اشتراكيا وبقدر ما يكون الرجل انسانا بقدر ما يكون اهتمامه بقضية المرأة.

وتستقي قوانين الزواج والطلاق في البلاد العربية أسسها من الشريعة الاسلامية هذه الشريعة التي ترتكز أساسا على القرآن واحاديث الرسول محمد وتفسيرات علماء الدين الاسلامي لهذه الاحاديث والآيات القرآنية.

ولان أحاديث وآيات القرآن لم تصدر كلها في يوم وليلة وانما صدرت في ظروف ومناسبات متعددة ومختلفة، ومن أجل أن تتناسب مع المجتمع العربي في زمن معين، كل ذلك جعل هذه الاحاديث والآيات تشتمل احيانا على اوامر متناقضة وبالذات فيما يختص بحياة المرأة.

وتنص الشريعة الاسلامية على قطع يد السارق، لكن قانون العقوبات في البلاد العربية ومنها مصر لا ينفذ هذه الشريعة وانما وضع قوانين أخرى لعقاب السارق. والذي يدرس تاريخ البلاد العربية يدرك أن السلطة السياسية في أي بلد استطاعت في كل وقت أن تضع من القوانين ما يخالف الشريعة الاسلامية، ولم يكن في مقدور أي

مؤسسة دينية أن تمنع صدور هذه القوانين، بل كثيرا ما كانت تتعاون مع السلطة السياسية وتطوع الدين للسياسة وتستخرج من الآيات أو من الشريعة تفسيرات جديدة تتمشى مع رغبة الحكام. وكما طورت الكنيسة نفسها في أوروبا لتساير العصر الحديث فقد طورت المؤسسات الاسلامية ومشايخها أفكارهم وتفسيراتهم لتساير العصر الحديث.

وبقدر ما أسرعت السلطة السياسية في تغيير قوانين الدين لتناسب النظم الاقتصادية المتغيرة من الاقطاعية الى الرأسمالية الى الاشتراكية بقدر ما تلكأت في تغيير القوانين الدينية المتعلقة بالزواج وحياة المرأة. والسبب في ذلك واضح، وهو ان السلطة السياسية في كل زمان ومكان لا تعبر الا عن مصالحها ولم تكن هذه السلطة في معظم البلاد العربية وغير العربية الا سلطة ابوية قائمة على سلطة الرجال داخل الأسرة وفي المجتمع الخارجي.

وهذا هو السبب في أن اغلبية نساء اوروبا واميركا حتى اليوم يفقدن أسماءهن بعد الزواج، وتحمل المرأة منهن اسم زوجها. بل ان كثيرات منهن حتى اليوم لا يملكن حرية التصرف في اموالهن الا باذن من الزوج. ان الزوجات العربيات اكثر حظا من الاوروبيات والاميركيات في هذين المجالين، اذ تحتفظ الزوجة العربية باسمها بعد الزواج ولا تحمل اسم زوجها، كما ان لها حرية التصرف في اموالها بغير اذن الزوج. وليس هذا الا احد البقايا الضئيلة المتبقية من النظام الأمومي في المجتمع العربي قبل الاسلام، واتساع افق محمد رسول المسلمين ونظرته المتحررة للمرأة بالنسبة لغيره من الانبياء أو الزعماء الدينيين أو السياسيين.

ورغم احتفاظ المرأة العربية باسمها بعد الزواج (وهو اسم ابيها بالطبع) ورغم حقها النظري في التصرف بأموالها بغير اذن الزوج الا ان القيود الموضوعة على الزوجة العربية قانونا وعرفا والتي تجعل زوجها صاحب الامر والنهي في دخولها أو خروجها من البيت يجعل مثل هذه الحقوق بغير فائدة فعلية للاغلبية الساحقة من النساء.

وقد استطاعت السلطة السياسية في بعض البلاد الاسلامية مثل تونس والصومال ان تخالف الشريعة الاسلامية فيما يختص بقوانين الزواج والطلاق والاجهاض وان تضع قوانين جديدة تمنع تعدد الزوجات وتحدد حرية الرجل في الطلاق وتبيح الاجهاض وتساوي الرجل والمرأة في الميراث.

ولا تختلف السلطة السياسية في البلاد الاسلامية في تفسيرها أو تطبيقها للشريعة الاسلامية حسب ظروفها الاقتصادية ولكن رجال الدين الاسلامي أنفسهم يختلفون في تفسير الدين حسب مصالحهم ومدى ارتباطهم بالسلطة السياسية، أو حسب مستوياتهم الثقافية أو الفكرية.

وقد كان الامام الشيخ محمد عبده من رواد القرن العشرين من رجال الدين الاسلامي الذي حارب تعدد الزوجات وقال انه اذا كانت له فوائد في صدر الاسلام فقد اصبح ضررا على الامة الاسلامية. والشيخ احمد ابراهيم الذي قال: «يجب أن نبادر الى وضع قانون شامل لمسائل الاحوال الشخصية وعرض اراء اصحاب المذاهب واقوال الفقهاء من غيرهم عرضا جديدا على مقتضى الشريعة الاسلامية المطهرة، وفقه يلم بأحوال الناس ويساير ما اثبته العلم في مختلف ظروف الزمان والمكان»[1].

ويعتبر الاسلام من اكثر الاديان مرونة ليتمشى مع العقل والتطور. وذلك بفتحه باب الاجتهاد. وقد رأى ائمة الدين الاسلامي ومنهم الامام احمد بن حنبل (وهو صاحب المذهب الحنبلي احد مذاهب الاسلام الاربعة واكثرهم تشددا وتزمتا) ان الاجتهاد ضروري، وان وجود المجتهد المستقل المطلق فرض كفاية لا يصح أن يخلو منه أي عصر. ورأى ابن تيمية فتح باب الاجتهاد لكل قادر دون الالتزام بمذهب معين. وقد قال في حرية الاجتهاد واستقلال المجتهدين عن الائمة: «هذا اختلاف زمان وليس اختلاف برهان. ولو كان الامام في عصرنا لقال مثل قولنا».

وان الذي يبحث في الدين الاسلامي حول موضوع كتعدد الزوجات مثلا يرى ان آراء علماء الدين اختلفت اختلافا عظيما، فريق من هؤلاء يرى ان الدين الاسلامي يمنع تعدد الزوجات، ويستند في ذلك الى ما جاء بالقرآن في سورة النساء:

﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة.. ﴾[2].

ويقول هؤلاء ان هذه الآية تحرم تعدد الزوجات لانها تشترط العدل بين الزوجات وهو شرط يستحيل على الرجل تحقيقه لان معنى التعدد هو التفضيل، تفضيل الزوجة

(١) مجلة كلية الحقوق للمباحث القانونية والاقتصادية، السنة الاولى، العدد الاول الذي صدر بالقاهرة عام ١٩٤٥.

(٢) القرآن ـ سورة النساء، الآية ٣.

اللاحقة على الزوجة السابقة، ويكفي هذا التفضيل أنه جعل العدل مستحيلاً على اي رجل وان كان نبيا. بل ان النبي نفسه محمد رسول الله لم يستطع ان يعدل بين زوجاته. اذ كان العدل يقضي منه ان يقسم لياليه بالتساوي بين زوجاته بحيث لا تجور واحدة على ليلة الاخرى. الا أن محمداً كان بشرا ولم يكن في وسعه دائما ان يحقق هذا التقسيم العادل. فقد كان يفضل زوجته عائشة ويحبها اكثر من زوجاته الاخريات. وعن عائشة قالت: «كانت سودة بنت زمعة (احدى زوجات الرسول) قد اسنت. وكان رسول الله ﷺ، لا يستكثر منها، وقد علمت مكاني من رسول الله وانه يستكثر مني، فخافت ان يفارقها وضنت بمكانها عنده فقالت: يا رسول الله يومي الذي يصيبني لعائشة وانت منه في حل فقبله النبي، ﷺ، وفي ذلك نزلت الآية القرآنية ﴿وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا﴾[1].

واكثر من هذا ما جاء في كتاب الطبقات الكبرى ان حفصة «زوجة النبي» «خرجت من بيتها فبعث رسول الله الى جاريته فجاءت الى بيت حفصة، فدخلت عليه حفصة وهي معه في بيتها فقالت: يا رسول الله في بيتي وفي يومي وعلى فراشي، فقال رسول الله: اسكتي فلك الله لا اقربها ابدا، ولا تذكريه»[2].

وهناك علماء في الدين الاسلامي يرون ان الطلاق في الاسلام ليس حقا مطلقا للزوج كما هو في قوانين معظم البلاد العربية ومنها مصر، وانه لا بد من ان يرجع الزوج الى القاضي ولا يستقل بايقاع الطلاق متى شاء كما هو الحال اليوم.

وتقف تونس في مقدمة البلاد العربية التي طورت قانون الزواج والطلاق في ١٩٥٦ حيث تنص المادة ١٨ منه على منع تعدد الزوجات. وبالنسبة للطلاق تنص المواد ٣٠ وما بعدها على ان الطلاق لا يقع الا لدى المحكمة بناء على طلب الزوج او الزوجة. وقانون سوريا للاحوال الشخصية سنة ١٩٥٣ اشترط في المادة ١٧ على ان: «للقاضي ان لا يأذن للرجل ان يتزوج على امرأته اذا تحقق انه غير قادر على نفقتها». وبالنسبة للطلاق ضمن القانون السوري في المادة ٢٧ مبدأ تعويض الزوجة اذا ما تعسف زوجها في استعماله لحقه في الطلاق، وهو ما يعرف بمتعة المطلقة.

وقانون الاحوال الشخصية لجمهورية اليمن الديموقراطية لسنة ١٩٧١ تضمن نصا

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ٣٦.
(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة. ١٩٧٠، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

مماثلا تماما لما ورد بالقانون السوري. وقانون الاحوال الشخصية للعراق لسنة ١٩٥٩ نص بالفقرة الرابعة من المادة الثالثة بخصوص تعدد الزوجات على انه «لا يجوز الزواج باكثر من واحدة الا باذن القاضي» ويشترط لاعطاء الاذن تحقق شرطين:

أ ـ أن تكون للزوج كفاية مالية لاعالة اكثر من زوجة واحدة.
ب ـ أن تكون هناك مصلحة مشروعة. ونص بالفقرة الخامسة على أنه اذا خيف عدم العدل بين الزوجات فلا يجوز التعدد ويترك تقدير ذلك للقاضي.

ونص بالفقرة السادسة على ان «كل من أجرى عقدا بالزواج باكثر من واحدة خلافا لما ذكر بالفقرتين ٤ و ٥ يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنة أو بالغرامة بما لا يزيد عن مائة دينار أو بهمامعا». ومؤدى هذه النصوص هو تحقق الرقابة القضائية على التعدد بشروطه الثلاثة فلم تقتصر هذه الرقابة على القدرة المالية فحسب ـ على ما جاء بالقانون السوري ـ وانما تخطاها الى شرطي العدل بين الزوجات وقيام المصلحة المشروعة الى العذر والضرورة. هذا الى جانب ما تقرره هذه النصوص من تأثيم فعل الزوج الذي يخالف الالتزام بالرجوع الى المحكمة لاستئذانها في طلب التعدد. وبالنسبة للطلاق فان المادة ٣٩ من القانون العراقي تقضي بوجوب رفع الدعوى بطلب ايقاع الطلاق والحصول على حكم به. واذا تعذر ذلك وجب تسجيل الطلاق بالمحكمة خلال مدة العدة، وتبقى حجة الزواج قائمة في هذه الحالة ما لم تبطلها المحكمة.

وقانون الاحوال الشخصية للمملكة المغربية لسنة ١٩٥٧ تنص بالفقرة الاولى من الفصل الثلاثين على عدم جواز التعدد اذا خيف عدم العدل بين الزوجات كما تنص بالفصل الواحد والثلاثين على ان للمتزوج عليها ان ترفع أمرها للقاضي لينظر في الضرر الذي لحق بها بسبب التعدد.

وقانون الاحوال الشخصية بباكستان لسنة ١٩٦١ يقضي بالنسبة لتعدد الزوجات والطلاق بوجوب استئذان مجلس التحكيم بطلب يقدم اليه متضمنا الاسباب التي تبرره. فاذا لم يستأذن الزوج مجلس التحكيم قبل التعاقد على الزواج الذي يؤدي الى تعدد الزوجات أو قبل ان يوقع الطلاق، فانه يلتزم بتعويض زوجته، فضلا عن الحكم عليه بالحبس والغرامة او احدى العقوبتين. وقد تضمن قانون ١٩٦٧ احكاما مماثلة تقريبا لما يقضي به قانون الاحوال الشخصية بباكستان من حيث ضرورة الحصول على الاذن قبل التعاقد الذي يؤدي الى التعدد وقبل ايقاع الطلاق.

وفي ضوء ما سبق يعتبر قانون الزواج والطلاق المصري من اكثر القوانين تخلفا في البلاد العربية واكثرها تعسفا بالمرأة، هذا القانون الذي صدر في سنة ١٩٢٩، أي مضى عليه حوالي نصف قرن وما زال يتحكم في مصائر النساء ويتيح للازواج استغلالهن.

وقد ناضل الاتحاد النسائي المصري من اجل تغيير هذا القانون، كما ناضلت مجموعات من النساء والرجال من ذوي العقول المستنيرة لتطوير هذا القانون دون اثر يذكر.

ويتصور بعض الناس ان الشريعة الاسلامية هي التي تقف عقبة في وجه تطوير هذا القانون، لكن الشريعة الاسلامية نفسها لم تمنع تغيير هذا القانون في بلاد اسلامية اخرى، بل ان الشريعة الاسلامية لم تمنع تغيير قوانين اخرى في مصر بعد ثورة ١٩٥٢، ومنها قوانين تحديد الملكية وبعض بنود قانون العقوبات كعقوبة السرقة والزنا مما يخالف الشريعة.

ان قانون الزواج والطلاق في مصر ما زال حتى اليوم يمنح الرجل حرية الطلاق وتعدد الزوجات، وفي امكان أي زوج له زوجة ومن الاطفال عشرة أو أكثر ثم تقابله أمرأة صدفة في الطريق يعجبه شكلها فاذا به يتزوجها ويطلق زوجته القديمة ومعها أطفالها العشرة. ان مثل هذه المآسي تحدث في مجتمعنا المصري. ولعل آخر ما قرأته في هذا الصدد ما نشر في جريدة اخبار اليوم[1] تحت عنوان «ذهب الأب إلى مجلس الاباء، فخرجت زوجته واولاده من البيت». ونشرت الجريدة ما يأتي (انشغل الموظف الكبير بالمشرفة نفسها ولم يتتبع حديثها، وكان قد تلقى دعوة لحضور مجلس الاباء في المدرسة التي تدرس فيها ابنته. وعندما ذهب إلى هناك قابلته المشرفة على المجلس... واخذت تتحدث عن مجلس الاباء والامور التي تهم الطالبات... ولكنه غاب عن الحديث في التطلع إلى وجه المشرفة في اعجاب ـ وعاد إلى المدرسة بعد ذلك مراراً... كانت حجته السؤال عن ابنته. وكان هدفه ان يرى المشرفة ـ وفوجئت زوجته وهو يدخل البيت ومعه المشرفة التي تزوجها... فحملت حقيبتها واخذت اولادها وذهبت إلى بيت اسرتها... وامام المحكمة وقفت الزوجة الاولى تطالب بالنفقة وتقول ان له ٣ اولاد اكبرهم في نهائي طب والثانية بكلية التجارة والثالثة بالثانوي.

---

(١) انظر: جريدة اخبار اليوم الصادرة يوم ٦ مارس ١٩٧٦، الصفحة العاشرة تحت عنوان: ذهب الاب الى مجلس الاباء فخرجت زوجته واولاده من البيت.

وحكمت المحكمة بان يدفع الزوج نفقة للزوجة والاولاد قدرها ٧٠ جنيهاً في الشهر.

هل هناك فوضى جنسية اكثر من هذا؟ أي دين من الاديان يمكن ان يدافع عن مثل هذه النزوات الجنسية غير المسؤولة؟ وهل من حق كل زوج ينجذب إلى أي امرأة ان يطلق زوجته ويشرد أطفاله؟ وهل ينتهي كل شيء بان يدفع الرجل نفقة سبعين جنيهاً في الشهر أو سبعين مليماً حسب دخله الشهري؟

هذا هو الحال الذي يعيشه الرجال في مصر وبعض البلاد العربية حتى اليوم. وقد صدر في الايام الاخيرة مشروع جديد لتطوير هذا القانون في مصر. قالت الصحف أنه ظل سنوات عديدة يناقش من رجال الدين. وانه في النهاية عرض على اكبر هيئة علمية اسلامية هي مجمع البحوث الاسلامية. ونشرت التعديلات المقترحة في جريدة الاهرام في ٢٩ فبراير ١٩٧٦، ومنها نرى أن جوهر القانون القديم لم يمس، وأن حق الرجل في النزوة الجنسية ما زال موجوداً بوجود حقه غير المسؤول في الطلاق. إذ يقول المشروع ان الرجل هو الذي يطلق فقط، ويشترط لوقوع الطلاق أن يكون الزوج عاقلاً ليس مجنوناً وليس سكران وليس مدهوشاً وليس غضباناً. والزوج هو الذي يحدد حالته حين وقوع الطلاق (لا أدري كيف يحكم الشخص على نفسه ويصبح هو الخصم وهو الحكم في وقت واحد). ومن بنود المشروع الجديد أيضاً أن الزوج يمكن أن يطلق زوجته إذا قال لها «أنت طالق. أنت طالق. أنت طالق» في مجلس واحد ويعتبر ذلك طلقة واحدة فقط. مثلما يقول لها أنت طالق ثلاثاً، فهذه أيضاً طلقة واحدة... والزوج يملك على زوجته ثلاث طلقات وزواجها برجل آخر يهدم طلقاته فاذا عادت اليه ملك عليها ٣ طلقات جديدة..

ومن الغريب ان يتكلم المشروع بعد ذلك عن اجراءات توثيق الطلاق فيقول: انه في حالة عدم اتفاق الزوجين على الطلاق لا يوثق الطلاق الا إذا تمت اجراءات التحكيم المنصوص عليها في القرآن الكريم، ثم ثبت عدم نجاح التحكيم في الاصلاح بينهما، ولكن لا يعتبر التوثيق شرطاً لوقوع الطلاق، ومعنى هذا ان الطلاق يقع بدون التوثيق، وبدون اجراءات التحكيم المنصوص عليها في القرآن الكريم فكيف يكون ذلك؟ وكيف يناقض المشرع القرآن الكريم، «وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما»، وكيف يشتمل المشروع على عبارتين متناقضتين تمام التناقض وكل منهما تلغي الاخرى، لكن الطلاق في النهاية يقع بتوثيق أو بدون توثيق لمجرد ان يقول الزوج لزوجته أنت طالق.

انت طالق. أنت طالق في مجلس واحد. ويعتبر ذلك طلقة واحدة فقط، وتبقى من حق الزوج بعد ذلك طلقتان اخريان لانه يملك ثلاث طلقات على زوجته، وهو يملك أيضاً أن يتزوج عليها أربعا أخريات. وقد كسبت الزوجة فقط في هذا المشروع حق الامتناع عن السكن في بيت واحد مع ضرتها (الزوجة الاخرى) وكسبت حقاً أخر جديداً وهو أن تطلب الطلاق من زوجها إذا تزوج عليها مرة اخرى. وإذا نظرنا إلى حال معظم الزوجات وبالذات الفلاحات اللائي يعملن بغير اجر لحساب الزوج والاسرة فمن هي تلك الزوجة التي سوف تستخدم هذا الحق وتطلب الطلاق لتخرج إلى الشارع بغير رجل (ظل راجل ولا ظل حيطة) وتتعرض للتشرد الاخلاقي والاقتصادي معاً في ظل تقاليد تدين المرأة المطلقة ومجتمع يستغل جهود النساء في الحقول والبيوت بغير أجر.

ومن الحقوق التي كسبتها المرأة أيضا في هذا المشروع أنها يمكن ان تسافر إلى الحج فقط بغير اذن من زوجها بشرط أن يسافر معها محرم (اخوها أو أبوها) وهي ملزمة بالسفر مع زوجها إلى أي مكان يذهب اليه. وفيما يخص بيت الطاعة فلا يجوز تنفيذ حكم الطاعة على المرأة بواسطة رجل البوليس. وهذا كله في رأيي تعديلات طفيفة لا تمس جوهر بيت الطاعة ولا تمس جوهر الظلم الواقع على المرأة المتزوجة وهي تناقض روح الشريعة الاسلامية التي مبدؤها المعاشرة بالمعروف أو التسريح بالمعروف.

ان مشكلة الطلاق وتعدد الزوجات في مصر ليست مشكلة المرأة فحسب ولكنها مشكلة الرجال والنساء والاطفال. وكم سمعنا عن قصص مؤلمة لاطفال شردهم الطلاق ولنساء مطلقات لم يجدن من وسيلة للعيش سوى بيع أجسادهن، وبنات صغار انصرف عنهن الاب إلى عشيقات أو زوجات جديدات.

والطلاق قد يكون احياناً ترفاً (بالنسبة لمآسي الزوجة) لا تحصل عليه الزوجة ابدا، وقد يكون محنة سرعان ما تحصل عليها وفي كلا الحالين فان الامر بيد الزوج وحده الذي يطلق بكلمة، وقد لا يطلق أبداً عناداً وتجبراً واستغلالاً لحق قانوني جائر، وقد يطلب زوجته في بيت الطاعة ويحضرها له البوليس، فاذا بها تجد زوجة اخرى مع زوجها.

وتحدث المأساة حين تصبح المرأة مطلقة وليس لها عمل او ايراد تعيش منه، ولا يصبح امامها الا النفقة التي تحصل عليها بمشقة من زوجها وقد لا تحصل عليها في معظم الاحيان بسبب تحايل الازواج على القانون، أو بسبب ضعف القانون وتشجيعه لتحايل الازواج وهروبهم من النفقة.

ولعل من اغرب ما قرأت اخيراً حول موضوع النفقة وحق المرأة فيها هو ما نشر في جريدة الاخبار ٢١ سبتمبر سنة ١٩٧٥ تحت عنوان « لا نفقة للسيدة» التي تحج دون أذن زوجها[١].

تقول الجريدة :ـ

اصدرت محكمة مصر القديمة للاحوال الشخصية ثلاثة احكام هامة في ٣ قضايا احوال شخصية. . .

الحكم الاول:

لا نفقة للسيدة التي تحج دون اذن من زوجها. . . لان النفقة تعطى للزوجة مقابل الاحتباس. . . ولا نفقة للزوجة التي تحج دون إذن زوجها عن فترة الحج. . . كانت احدى الزوجات رفعت دعوى نفقة على زوجها الموظف الكبير. قالت انه منع عنها النفقة عن فترة أدائها فريضة الحج، وأصدرت المحكمة حكمها بعدم احقية الزوجة للنفقة الشرعية عن فترة ادائها لفريضة الحج التي قامت بها بدون إذن من زوجها لان النفقة واجبة على الزوج مقابل احتباس زوجته.

الحكم الثاني:

اقامت مطلقة دعوى ضد زوجها المهندس قالت انه بعد طلاقها وضعت في مستشفى خاص، وتكلفت الولادة ومصروفات العلاج بعد الولادة ٥٠٠ جنيه وقدمت بها قوائم رسمية. . . وقضت المحكمة برفض الدعوى. . . واستندت المحكمة في حكمها بعدم احقية المطلقة لمصروفات الولادة على فتوى تقول إن «اجر القابلة على من استدعاها» فالزوج المطلق غير ملزم بدفع مصروفات الولادة. . . اما العلاج لفترة النفاس فهو علاج مرضي وليس على الرجل المطلق سداد هذه النفقات.

ولست بصدد الدخول تفصيلاً في مهزلة النفقة، والتي إن حظيت بها المرأة المطلقة فهي نفقة مؤقتة لفترة قصيرة محدودة، ثم تصبح المرأة بغير عائل وبغير مورد.

والعمل المنتج باجر يحمي المرأة بالطبع ويمنحها ايراداً شهرياً يسد رمقها. لكن المرأة العاطلة تصبح في الشارع بغير عمل وبغير ايراد وعليها وحدها ان تنتزع لقمة عيشها من انياب المجتمع، عليها ان تسرق (إذا تعلمت السرقة) أو عليها أن تبيع

---

(١) انظر جريدة الاخبار ١٩٧٥/٩/٢١ الصفحة السادسة.

جسدها وهي في كلا الحالين (السرقة والبغاء) معرضة للسجن. وفي سجن القناطر التقيت بنماذج متعددة من هؤلاء النساء التعيسات اللائي حرمن من التعليم والعمل بسبب التقاليد القديمة أو لسبب اخر، وحرمن من الزواج بسبب تطليق الزوج لهن بسبب أو بغير سبب، وحرمن حتى من العدالة القانونية لان القانون يعاقب المرأة البغي ولا يعاقب الرجل.

اما هؤلاء اللائي لم يتعرضن لمثل هذه الظروف التعيسة فانهن بسبب فقدان المورد الاقتصادي الكافي يعشن حياة ذليلة، وكم من امرأة مطلقة لم تجد المأوى بعد أن نفدت النفقة التي حصلت عليها وأصبحت حائرة بين بيوت أهلها وأقاربها تتسول لقمة العيش أو تعمل خادمة في بيت تتعرض لمشاكل واهانات لا حصر لها.

وقد تعرض مشروع الاحوال الشخصية الجديد لموضوع النفقة لتعديلات طفيفة لم تحل جوهر المشكلة اذكر منها ذلك النص: إذا طلق الرجل زوجته دون رضاها ولم تكن الاساءة منها فانها تستحق مبلغاً اضافياً بخلاف النفقة يسمى «المتعة» ويقدر بما لا يجاوز نفقة سنة حسب حالة الزوج. ومن هنا نفهم ايضا ان الرجل يطلق زوجته بدون رضاها وبدون خطأ منها نظير أن يدفع شيئاً اضافياً من المال. وبهذا يعطى الرجل الغني حرية اكثر من الرجل الفقير لارضاء نزواته الجنسية، ثم ماذا تفعل نفقة سنة واحدة لامرأة بغير ايراد طلقها زوجها دون رضاها ودون خطأ منها؟ وماذا تفعل نفقة سنة أو سنتين لامرأة عاشت مع زوجها عشر سنوات أو ثلاثين سنة واعطته جهدها وشبابها وأطفالها ثم خرجت إلى الشارع بنفقة إن اطعمتها سنة فلن تطعمها السنة الثانية. وفي ظل امكانيات العمل المحدود في المجتمع وكثرة المتعطلين بغير عمل لا تجد مثل هذه المرأة الا تجارة الجسد بل ان مثل هذه المرأة قد لا تصلح لتجارة الجسد أيضاً بعد ان استهلك زوجها جسدها وشبابها ثم القى بها في الشارع قصبة ممصوصة.

وقد وجد ان عدداً من البنات الصغار اللائي لجأن إلى تجارة الجسد هن ضحايا آباء تركوا زوجاتهم وأولادهم من اجل رغبة جنسية جديدة. وقد ثبت أن الام بعد الطلاق هي التي تتحمل هم تربية الاطفال بسبب وضعها الادنى في المجتمع، وبسبب حرصها على المسؤولية الامومية التي فرضها عليها المجتمع، وبسبب خوفها من ألسنة الناس التي تهاجم المرأة التي تهمل اطفالها اكثر من مهاجمة الرجل الذي يهمل اطفاله، وبسبب حبها لاطفالها كانسانة وأم، وبسبب عدم وجود فرص كثيرة للمرأة المطلقة من الزواج مرة اخرى (الزواج بمطلقة مثل أكل الطبيخ البايت)، وبسبب القيود على حريات

المرأة الاجتماعية والشخصية، وبسبب انطلاق الرجل المطلق حراً يعربد كما يشاء أو يتزوج كما يشاء دون أن يحمل هم أولاده أو بناته. كل ذلك جعل من المرأة المطلقة اكثر التصاقاً باطفالها وأكثر رعاية لهم واكثر مسؤولية نحو مصالحهم، بعكس الرجل، فلم نسمع الا نادراً عن هذا الرجل الذي طلق زوجته ثم بذل الجهود لرعاية اولاده أو بناته،بالاضافة إلى أن الرجل في معظم الاحيان لا يطلق زوجته الا من اجل الزواج بامرأة اخرى، وكم يتخلص الرجال من اولادهم وبناتهم من اجل الزوجة الجديدة، وإذا لم يستطع التخلص منهم فكم من عذاب يراه أولاده وبناته على يد زوجة الاب، وكم من اباء يتحازون إلى صف الزوجة الجديدة المدللة ضد مصلحة اولادهم وبناتهم.

ومع كل ذلك يأتي المشروع الجديد لقانون الاحوال الشخصية فينزع من الام **حضانتها لاطفالها في سن ٧ سنوات للصبي ، و٩ سنوات للبنت، ويفرض على البنت التي عمرها تسع سنوات ان تعيش مع ابيها بالقوة وبدون رغبتها أما الصبي فهو حر منذ سبع سنوات وله ان يختار الحياة مع ابيه او مع أمه حسب رغبته .**

ولا أدري اين العدالة هنا؟ بل لا أدري أين مصلحة الطفلة البنت هنا حين تساق إلى أبيها وزوجة ابيها بالقوة وهي تصرخ للتشبث في حضانة أمها؟!

ويقولون ان البنت في حاجة اكثر من الصبي لرعاية الرجل. لذا فان الذين يدرسون حياة الاطفال يدركون ان الاعتداءات الجنسية على الاطفال الذكور لا تقل عن الاطفال الاناث ان لم تزد. وان الذين يدرسون حياة الاباء والامهات يدركون ان الام اكثر رعاية واكثر حرصاً على صالح بناتها وأولادها من أبيهم. فما معنى هذه التفرقة الغريبة بين الصبي والبنت في سن الطفولة، وما معنى هذا الاغتصاب لحق الام دون الاب؟ ثم أن الذين يدرسون ظروف البنات الصغار اللائي لجان إلى تجارة الجسد يجد أن معظمهن ضحايا آباء أهملوا الانفاق على بناتهم بسبب الزوجة الجديدة أو العشيقة الجديدة، وكلهن ضحايا أسر فقيرة مزقها الطلاق وتعدد الزوجات.

ويقول المشروع الجديد أيضاً في تعديلاته المقترحة ان مدة حضانة الام للطفل قد تطول مدة اضافية إذا اقتضت مصلحة الطفل ذلك،لكن المشروع نص على عدم استحقاق الام الحاضنة للاجر عن هذه المدة الاضافية. والسؤال هنا هل الحضانة مسألة ضيافة حتى يتكلف بها المضيف أم هي مصلحة الطفل التي اقتضت اطالة مدة حضانة الام وإذا كان كذلك فلماذا تحرم من اجر الحضانة؟

ولا شك ان الفقر وانعدام المورد الاقتصادي يلعب دوراً خطيراً في مآسي الامهات المطلقات الحريصات على صالح اطفالهن ولهذا فان اول خطوة لتحرير المرأة من الظلم والقهر الجنسي والاقتصادي هو ان تعمل وتنال عن عملها اجراً من الدولة وليس من الزوج.

ولعل اعجب شيء في قانون الزواج والطلاق في مصر وعدد من البلاد العربية هو ذلك الذي سمي «بيت الطاعة» وتلك الصفة التي تطلق على الزوجة احياناً وهي «النشوز».

وان كلمة «ناشز» من الكلمات الشائعة في مجتمعنا، تلصق بالمرأة التي تعصي اوامر زوجها وان كان هذا الزوج سكيراً أو عربيداً أو قواداً أو لصاً أو مهرب مخدرات.

وإذا ضرب الزوج زوجته بسبب او بغير سبب فهربت منه إلى بيت اهلها وطلبت الطلاق فهو قادر (إذا اراد) ان يرسل اليها (بسلطة قانون بيت الطاعة) رجل الشرطة ليجرها من يدها بالقوة إلى بيت زوجها فان رفضت وامتنعت عن الذهاب اصبحت في نظر القانون «ناشزاً».

وقد سبقت كثير من الدول العربية والاسلامية مصر في الغاء بيت الطاعة وفي تطوير قوانين الزواج والطلاق، ولكن مصر التي هي رائدة الوطن العربي في التقدم ورائدة العالم في الحضارة لا يزال فيها حتى اليوم بيت الطاعة.

وقد نشر في جريدة الاخبار الصادرة في يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٧٤ في صفحتها الاولى موضوعاً بعنوان مبدأ في الاحوال الشخصية:

للزوجة عدم الطاعة إذا كان بيت الطاعة في جبل درنكة، وكتبت الجريدة «ان محكمة الاستئناف للاحوال الشخصية بأسيوط اصدرت مبدأ هاماً قضت بالغاء حكم الطاعة على زوجة مزارع لان منزل الزوجية أعده الزوج في جبل درنكة الذي لا يزال مأوى للهاربين من القانون والمجرمين، وكان الجبل مأوى «الخط» الشهير زعيم العصابات في الاربعينات.. قالت المحكمة «لا يصلح هذا المكان للطاعة لانه يشترط ان يكون بيت الطاعة بين جيران تأمن فيه الزوجة على نفسها وليس لهذا البيت في الجبل جيران.. صدر الحكم برئاسة عبدالوارث عبدالحليم عبدالله رئيس المحكمة».

وأنه لواضح انه لم يطرأ على بال المحكمة ان تناقش فكرة إجبار الزوجة على

العيش مع زوج لا تريده ولكن كل ما تناقشه هل بيت الطاعة أو المكان الذي ستجبر على العيش فيه له جيران أم ليس له جيران؟

والـذين يقـولون ان بيت الطاعة نابع من الدين الاسلامي يغالطون لان رسول المسلمين نفسه كثيراً ما ذكر في أحاديثه أن المرأة لا تجبر على العيش مع زوج لا تريده او تكرهه بل ان من حقها قبل الزواج اصلاً ان تختار الرجل الذي ترغب فيه.

والمرأة ايضاً في الاسلام لها ان تفصم عقد الزواج اذا خدعت فيه أو اكرهت عليه. وليس لامرىء أن يقودها قسراً إلى من لا تريده. فلقد فصم الرسول محمد زواج خنساء بنت خدام الانصارية، لان اباها زوجها وهي كارهة[1].

ان قانون الزواج والطلاق في مجتمعنا العربي ليس الا احد بقايا قوانين الاقطاع الابوية التي تجعل الزوجة كقطعة الارض يمتلكها الرجل ملكية تامة. يفعل بها ما يشاء، يستغلها، أو يضربها أو يبيعها في أي وقت بالطلاق، أو يشتري عليها زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة. أما حقوق الزوجة فهي ان يعدل الزوج بينها وبين ضرائرها وبين الزوجات الاخريات. ولا أدري كيف يمكن ان يعدل الزوج بين زوجة قديمة وبين عروس جديدة.. ومن الذي يثبت على الزوج العدالة او عدم العدالة؟..

أما بنود القانون التي تعطي للقاضي حق تطليق الزوجة من زوجها فهي صارمة جداً. يقول القانون ما يأتي عن الحالات التي يسمح فيها بالطلاق[2]: «إذا حبس الزوج ثلاث سنـوات فأكثر، يصبح للزوجة الحق في ان تطلب تطليقها منه، ولا يطلقها القاضي الا بعد ان يثبت ان الحكم صدر بالسجن لمدة ثلاث سنوات فاكثر، وأنه اصبح نهـائياً، وانه نفذ على الزوج، ومضت سنة فاكثر من تاريخ تنفيذه، وتطلب الزوجة الطلاق في حالة عدم انفاق الزوج عليها أو مرض الزوج بالجنون أو البرص أو ضرب الـزوج لزوجته إلى حد الاضرار بها (معنى ذلك أن الضرب إلى حد عدم الاضرار مسموح به) أو غياب الزوج عن زوجته مدة طويلة، وهذه الحالات كلها تترك للقاضي ليتثبت منها. وتتشدد بنود القانون في هذه الحالات بحيث يصبح الطلاق صعباً جداً، مثال ذلك النص بأن مرض الزوج بالجنون أو البرص أو الجذام لا يعطي الزوجة الحق

(١) انظر: صحيح البخاري جـ ٨. ص ٦٥ وعبدالله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها، واسلامها الجزء الثاني ص ٦٠.

(٢) انظر: احكام الاحوال الشخصية في الشريعة الاسلامية، عبدالوهاب خلاف، مطبعة دار الكتب المصرية (الطبعة الثانية) ١٩٣٨. ص ١٦٥.

في طلب الطلاق إذا تزوجته وهي عالمة بالعيب: او حدث العيب بعد عقد الزواج ورضيت به.

هذا هو قانون الطلاق المفروض على النساء العربيات في معظم البلاد العربية حتى اليوم. وقد يختلف القانون من بلد الى بلد اختلافاً سطحياً اما الجوهر فان الرجل العربي له حق الطلاق في أي وقت وبارادته وبغير علم الزوجة احياناً. وفي مصر قد يرسل الزوج لزوجته ورقة الطلاق بالبريد دون سابق علمها.

وفي البلاد العربية التي حاولت تقييد حرية الرجل في الطلاق لم تضع قرار الطلاق في يد القاضي كلية كما هو الحال عند الزوجة ولم تفرض عليه الشروط المشددة مثلها. ثم ما هو القاضي؟ اليس هو رجلا من رجال المجتمع الابوي الطبقي الاقطاعي أو الرأسمالي؟ اليس القضاء كالبوليس جهازا من اجهزة الحكم الطبقي وفرض العدالة الاحادية النظرية. عدالة من وجهة نظر الحكام فقط؟

ولست اظن ان الزوجة العربية يمكن لها ان تتساوى مع الرجل في حق الطلاق ما دام المجتمع طبقياً ابوياً. ان مؤسسة الطلاق، كمؤسسة البغاء كمؤسسة الاطفال غير الشرعيين، احد المؤسسات اللازمة لنشوء واستمرار المجتمع الطبقي الابوي. لقد اوجد الطلاق ليتخلص الرجل من زوجته غير المرغوب فيها باقل تكاليف ممكنة (ما سمي بالنفقة) أو مؤخر الصداق وبحيث يضمن حصوله على اطفاله منها إذا كانت حاملاً حين طلقها، ومراقبة ذلك العمل لمدة معينة (حددها العرب بثلاثة شهور وسموها العدة حتى لا يتسرب إلى حظيرته طفل رجل اخر يقتسم مع أطفاله أمواله وتركته.

في كل الانظمة الاجتماعية منذ نشوء الاسرة الابوية والطبقات والعبودية ثم الاقطاع لم يكن حق الطلاق الا في يد الرجل. فالمجتمع الطبقي الابوي جعل من المرأة سلعة تشترى بالمهر أو الصداق وتباع بمؤخر المهر والنفقة. ولقد حرر المجتمع الرأسمالي الفلاحين من عبودية الاقطاع. ليس لاسباب انسانية تحريرية بل لان الرأسمالية كانت في حاجة إلى سواعد الفلاحين في الصناعات الجديدة، وقد حولت سواعد الفلاحين إلى عمال أو قوة عمل. تدخل السوق ايضاً كسلعة تضمن للرأسمالي حرية شرائها بأبخس الاثمان (كما تشترى المرأة بأقل مهر) أو يطردها في أي وقت بغير معاش لتبقى في السوق جائعة تعاني البطالة، كقوة احتياطية يمكن أن يستخدمها مرة اخرى بابخس ثمن إذا احتاج اليها.

وقد يعيد الرجل العربي زوجته التي طلقها خلال مدة «العدة» بغير ارادتها، لانها خلال تلك المدة تكون ملكاً له، فهي زوجة وليست زوجة في الوقت نفسه، حتى لا تستطيع خلال مدة «العدة» أن تتزوج رجلا آخر، وهي تظل تحت رهن اشارة زوجها أو مطلقها إلى أن تنتهي مدة «العدة» فاذا لم يردها اليه اصبحت في حل من الزواج برجل آخر.

وبمثل ما حرر المجتمع الرأسمالي الفلاحين من عبودية الاقطاع فقد حرر النساء ايضا من عبودية البقاء في البيت، ليس لاسباب تحريرية انسانية بل لحاجته إلى سواعد النساء في الصناعة. وإذا كان المجتمع الرأسمالي قد اعطى المرأة حق الطلاق كالرجل في بعض البلاد الصناعية فلم يكن ذلك الا لتصبح النساء قوة عمل متحركة معروضة أو احتياطية في السوق. وقد اقتضى ذلك اعطاء بعض الحرية للمرأة للخروج من تحت سيطرة الرجل. ونتج عن ذلك قوانين زواج وطلاق جديدة سميت «بالزواج المدني» ونجح المجتمع الرأسمالي المتقدم في فصل الزواج عن الدين كما نجح في فصل الدين عن الدولة ليس لاسباب تحريرية انسانية وانما لاسباب اقتصادية استغلالية.

وقد يفسر لنا هذا ازدياد معدلات الطلاق في البلاد الراسمالية المتقدمة عن البلاد الاقطاعية المتخلفة. ويفسر لنا ازدياد الطلاق في المدن عن القرى وازدياد معدلات الطلاق بين النساء العاملات بأجرهن عن النساء العاطلات في البيوت تحت رحمة الازواج أو الفلاحات العاملات بغير اجر تحت سيطرة الرجل.

ان معدلات الطلاق في مصر[1] تدل على ان معدل الطلاق في محافظة القاهرة ٢,٩ لكل الف من السكان وكذلك محافظة الاسكندرية وهما أعلى معدل للطلاق في مصر وهما اكبر مدينتين في مصر وتتركز فيهما الشركات الكبرى والصناعات والوظائف الحكومية وتعيش فيهما اكبر النسب من النساء العاملات باجر. ويهبط معدل الطلاق بعد ذلك الى ١,٢ في كفر الشيخ، ١,٣، وفي سوهاج ١,٤، وفي المنوفية، و١,٠٩ في الدقهلية.

ويكاد يكون هذا هو الحال في معظم البلاد العربية. ففي سوريا مثلاً تزيد معدلات الطلاق بين النساء العاملات باجر عن النساء المعتمدات على الرجل في

(١) المرأة المصرية في عشرين عاما (١٩٥٢ ـ ١٩٧٢) مركز الابحاث والدراسات السكانية، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء

الاعالة. إن معدل الطلاق[1] بين النساء السوريات العاملات بأجر ٢,٢٪ اما معدل الطلاق بين النساء الاخريات فهو ٦,٠٪ كما ان اقبال النساء العاملات بأجر على الزواج أقل من اقبال النساء غير العاملات. في سوريا نسبة المتزوجات بين النساء العاملات هي ٤٦,٧٪ فقط اما بين النساء الاخريات فان هذه النسبة ترتفع إلى ٧٨,٢٪.

وهذا أمر طبيعي فالمرأة التي تستطيع ان تطعم نفسها باجرها المستقل لا تستسلم للعبودية كالمرأة التي تحتاج للزواج لتأكل أو تخشى الطلاق فتفقد موردها الوحيد للطعام. وإذا تركنا موضوع الطعام وتكلمنا عن موضوع الجنس او حاجة المرأة لاشباع حاجتها الجنسية فان الزواج هو الوسيلة الوحيدة أمام المرأة العربية لممارسة الجنس. فالعلاقات الجنسية قبل الزواج ممنوعة تماماً بالنسبة للبنت العربية في أي بلد عربي حتى اليوم. كما ان العادة السرية ممنوعة ومحرمة في المجتمعات الغربية. والمرأة غير المتزوجة او المطلقة او الارمل لا تستطيع ان تمارس الجنس الا إذا تزوجت وإذا لم يتزوجها رجل فهي تظل عذراء او عزباء. وقد تضحي المرأة بسمعتها لتقيم علاقة حرة برجل لكنها تصبح في نظر المجتمع العربي امرأة محتقرة أقرب ما تكون إلى المومس.

الا ان المجتمع العربي اصبح يشهد في السنين الاخيرة قلة من النساء العاملات باجر والمستقلات نفسياً واخلاقياً إلى حد كبير وممن يستطعن رفض الدخول في مؤسسة الزواج او الطلاق الابوية ويخترن طريقة الحياة التي ترضيهن ويفرضن على المجتمع احترامهن ايضاً والاعتراف بهن. لكن الاغلبية الساحقة من النساء العربيات ما زلن مدفوعات إلى الزواج من اجل اشباع حاجات الجسد الضرورية، وما زلن مذعورات من كلمة الطلاق خوفاً من الجوع والتشرد وألسنة الناس، يتقبلن اي معاملة سيئة من الزوج دون شكوى أو تذمر. وقد تخدم الواحدة منهن ضرتها (الزوجة الثانية او الثالثة او الرابعة) كما يحدث حتى اليوم في الريف المصري، بل ان الفلاحة المصرية قد تبحث بنفسها لزوجها عن زوجة اخرى لترضيه او لتخفف على الأقل من قسوته عليها، او لتنجب الزوجة الجديدة له طفلاً ذكراً إذا كانت هي قد انجبت بنات فقط. وما أتعس تلك الزوجة العربية التي لا تنجب طفلاً ذكراً خاصة في الريف. ان اقل ما يمكن ان تتعرض له هو ان يسقط على وجهها من حين إلى حين كف زوجها الغليظ في

---

(١) المكتب المركزي للاحصاء (دمشق)، المرأة العاملة بلغة الارقام، سلسلة الدراسات ٢٠، دمشق ١٩٧٠، ص ١١ - ٢٩.

صفعات قوية بسبب وبغير سبب، أو صوته الغاضب الخشن يرتفع لأتفه سبب في وجهها صائحاً «عليّ الطلاق بالثلاثة».

وقد يبلغ الامر بالمرأة ان تفضل الطلاق مع الجوع والعري على الحياة مع زوجها. وحينئذ تجد ابواب الطلاق كلها مغلقة فالقانون صارم متشدد والقاضي صارم متشدد. بل ان أسرتها نفسها صارمة متشددة وعلى الاخص في الريف العربي. فالاسرة في معظم الاحيان لا تتكون من الاب والام والاطفال فحسب (Nuclear family) كما هو الحال في المدن أو المجتمعات الصناعية المتقدمة، ولكن الاسرة كبيرة العدد (Extended family) تشمل الجد والجدة وعدداً من الاباء والامهات والاعمام والاخوال والاخوة والاخوات والاولاد. وهذه الاسر الكبيرة لا تزال تسود في الريف العربي. ولا تزال تمسك بيدها قرار زواج أو طلاق المرأة. وهي في كلا الحالين تأخذ القرار أو لا تأخذه حسب مصلحة الاسرة وليس حسب مصلحة المرأة. فالمرأة قد تطلق من زوج فقير ليزوجوها برجل اخر ثري. والمرأة قد لا تطلق أبداً وتعاد إلى زوجها بالقوة وبالضرب إذا لم يكن في مقدور الاسرة اطعامها واعالتها هي واطفالها إذا كان لديها اطفال.

وكم تحدث كل هذه الاعمال الوحشية تحت مظلة كثيفة من القيم الدينية والاخلاقية والانسانية وتحت وابل من الالفاظ الرنانة البليغة عن الشريعة الاسلامية وواجب المرأة من حيث الطاعة واحترام زوجها والمحافظة على كيان الاسرة والاطفال.

اما الرجل العربي فهو غير مطالب بالحفاظ على الاسرة والاطفال مع ان الاسرة والاطفال ملك له هو وليس ملكاً للمرأة. ويساعد القانون والعرف والشرع الرجال على العبث بالنساء، ان القانون والشرع قد أباح للرجل المسلم أن تكون له أربع زوجات في وقت واحد، ولكن الرجل يستطيع ان يكون له اكثر من اربع زوجات شرعيات في ظل القانون نفسه بسبب «العدة» وحرية الطلاق وقدرة الزوج على اعادة زوجته اليه في اي وقت قبل انتهاء «العدة» (ثلاثة شهور). ان الرجل قد يكون له اربع زوجات في البيت، واربع زوجات اخريات في «العدة» وحين يرد اليه واحدة من «العدة» يطلق واحدة من البيت. وعلى هذا النحو قد يكون للرجل اي عدد من الزوجات في اي وقت عن طريق اخراجهن من «البيت» وادخالهن «العدة» وتطليق ما يزيد عن الحاجة عند الضرورة. وقد اشتهرت هذه الطريقة في المجتمع الصومالي الاسلامي بين طبقة الرجال الاثرياء بعد ان بدأ المجتمع يلغي نظام الجواري والسراري ومما ملكت اليمين.

وكم من اشكال مشابهة من الزواج والـلازواج الممنوحة للرجال المسلمين تحت

مظلة الشريعة، مثل ما سمى «بمهر شرطي» في الصومال وغيرها من البلاد الاسلامية وهو شبيه بزواج المتعة او الزواج المؤقت. ثم ما سمي «بالخطْبة السرية» وهي أن يتزوج الرجل سراً حتى لا تغضب زوجته الاولى. وكم من مفارقات تحدث حين تلتقي الزوجتان بالصدفة في مكان واحد او يلتقي طفل الزوجة الأولى مع طفل الزوجة الثانية في مدرسة واحدة ويكتشف الطفلان أن اباهما واحد.

ويبيح الاسلام للرجل أن يتزوج امرأة غير مسلمة، لكنه يحرم على المرأة الزواج الا من رجل مسلم.

والزواج من الكتابيات (اللائي يؤمن بالكتب السماوية الاخرى غير القرآن) امر ثابت في الشريعة الاسلامية، ومارسه المسلمون منذ صدر الإسلام حتى اليوم.

اما المرأة المسلمة فلا تستطيع ان تتزوج الا رجلاً مسلماً، والا خرجت عن دينها.

وليس في المجتمع العربي ما يعرف في الغرب باسم «الزواج المدني». وقد استطاع المجتمع الاوروبي مع التقدم الصناعي والعلمي ان يخرج على احتكار الكنيسة للسلطة الروحية الكنسية التي كانت تستأثر بعقد الزواج بحيث إذا لم يحدث عن طريقها، ووفق مشيئتها، أي بدفع الرسوم المالية المفروضة، فانها لا تقر الزواج ولا تعتبر عقد الزواج منعقداً.

وحين تخلصت اوروبا من سيطرة الكنيسة شرعت نظام الزواج المدني لكي يتزوج من شاء بمن شاء في مركز الاحوال المدنية بدون تقيد بارادة الكنيسة.

ويعتبر الزواج المدني من المسائل المطروحة الان على صعيد العالم الاسلامي والعربي وفي المجتمعات المختلفة التي تضم مسلمين وغير مسلمين. والزواج المدني ما زال ممنوعاً في الاسلام، وهو لا يعني الا شيئاً واحداً هو حرية المرأة المسلمة من الزواج برجل اخر غير مسلم. هذا الحق الذي يعطيه الاسلام للرجل ويمنعه عن المرأة.

وفي مصر عندنا نوع من الزواج يسمى بالزواج «العرفي» وهو نوع من الزواج الشرعي بغير عقد رسمي يتيح للرجل ان يحصل على معاش زوجته من الحكومة، إذ أن القانون المصري يحرم المرأة من معاشها حين تتزوج. وقد عرفت عدداً من النساء من قريباتي وجاراتي ممن تزوجن زواجاً عرفياً وكانت الواحدة منهن تعيش دائماً مهددة، فهي تخشى الحكومة، وهي تخشى المجتمع، وهي تخشى زوجها، وهي في النهاية

مدفوعة إلى مصيرها هذا بغير حماية من أحد.

الا ان المرأة العربية الجديدة لم تعد في حاجة إلى حماية من احد الا نفسها، طالما أنها تعمل وتنال عن عملها أجراً يضمن لها الاستقلال الاقتصادي والاخلاقي أيضاً. وقد أصبحت المرأة العربية العاملة بأجر في مصر والسودان وسوريا والكويت وتونس ولبنان والاردن والمغرب والجزائر واليمن بل والسعودية أيضاً أصبحت قادرة أن تعيش في بعض الاحيان بمفردها بغير زوج وان ترفض الزواج إذا أرادت وأصبحت قادرة على اختيار زوجها، أو تركه حين ترفضه، غير مبالية بنقد المجتمع لها أو هجومه عليها طالما أنها تعول نفسها بنفسها، وطالما أن لها عملا منتجاً تحقق به ذاتها وكرامتها. كما ان الافكار الاشتراكية الجديدة قد غزت المجتمعات العربية وقد غيرت الكثير من عقلية الرجال والنساء معاً، وبالرغم من أنها ظلت شعارات جوفاء في أحيان كثيرة الا أنها تركت من الصدى ومن الاثر ما شجع المرأة العربية على النضال من أجل مزيد من التحرر. وفي اليمن الجنوبية والعراق وتونس والصومال قوانين جديدة تعطي المرأة بعض حقوقها المسلوبة.

ورغم المشاكل والقيود التي لا تزال تعرقل حركة المرأة العربية الا ان خروج المرأة للعمل بأجر قد اصبح حقيقة في معظم البلاد العربية، كما ان هناك زيادة مستمرة في عدد البنات والنساء اللائي يعملن في مختلف المؤسسات والمهن. وإذا كان عملهن لم يحررهن اقتصادياً كما يجب وإذا كانت حياتهن ما زالت خاضعة لمنطق الرجل الا أنه لا يمكن أن ننكر أثر حصول المرأة على اجر في تغيير شخصيتها السلبية الخاضعة، واستغنائها التدريجي عن اعالة الرجل لها.

ورغم تواضع هذا الاثر بسبب الضغوط التي لا تزال تحاصر المرأة العربية الا انه اثر يزداد وضوحاً وقوة بمرور السنين وقد لاحظه بعض الرجال الذين يتابعون تطور الاسرة في المجتمع العربي. ان بعض هؤلاء قد لاحظ ان المرأة العربية العاملة أصبحت اقل حرصاً على الزواج وأقل خوفاً من الطلاق بسبب حصولها على أجر يضمن لها استقلالها الاقتصادي عن الرجل.

في تعداد ١٩٧٦ في مصر وجد ان نسبة الاناث اللائي لم يتزوجن قد ارتفعت إلى ١٩,٧٪، وكانت في سنة ١٩٦٠، ١٢,١٪ فقط، كما أن نسبة المتزوجات انخفضت إلى ٦٤,٧٪ سنة ١٩٧٦ وكانت ٦٧,٥٪ سنة ١٩٦٠

وقد اجري في تونس احصاء بعد مرور عشر سنوات على تنفيذ التشريع الجديد الذي ساوى بين الزوجة والزوج في حق الطلاق امام المحكمة فاتضح ان حوادث الطلاق[1] زادت كما زادت نسبة الطلاق بين الزوجات العاملات بأجر عن الزوجات حبيسات البيوت. ويحذر كثير من الرجال العرب من هذه الظاهرة، ويسمونها ظاهرة انحلال الزواج، التي تهدد المجتمع العربي كما هددت المجتمع الغربي المتقدم. «فالمجتمعات الصناعية في رأيهم تحولت من النمط القديم الذي اتصف بتفوق الرجل على المرأة إلى النمط الحديث المسمى بنمط المساواة بين الرجل والمرأة. وان هذه المساواة من عوامل انحلال الزواج، فما دام الزوج في المجتمع القديم يشعر بتفوق على المرأة، وبمسؤولية اخلاقية تجعله يحميها، فانه كان يتردد طويلاً قبل حل الزواج بالطلاق»[2].

ويعتقد بعض الرجال والمفكرين العرب ان ازدياد حوادث الطلاق سببه استقلال المرأة العربية اقتصادياً حيث تحررت المرأة من قبضة الرجل بحصولها على أجر من عملها خارج البيت[3].

وهذا الاعتقاد صحيح. فما الذي يدفع المرأة التي تستطيع ان تعول نفسها بنفسها إلى الخضوع والذل داخل الزواج والاسرة الابوية؟

ويحاول كثير من الرجال العرب مقاومة التغيير الاجتماعي والحاجة الاقتصادية التي تدفع بمزيد من النساء للعمل في مجالات الانتاج والصناعة والتجارة والمهن المختلفة. لكن تيار خروج النساء اقوى، وما من قوة تستطيع ان تعيد المرأة إلى حظيرة البيت.

ومن الحقائق الواضحة ان الاسرة العربية الكبيرة القديمة قد تخلت عن كثير من وظائفها لمؤسسات الدولة الحديثة. فالمجتمع العربي لم يعد قبائل ابوية. وانتزعت الدولة كثيراً من سلطات الاب والزوج في الاسرة. وسوف تتقلص وظائف الاسرة على الدوام وتتقلص معها سلطة الرجل في الاسرة.

---

(١) الشيخ عبدالحميد السائح، الاسلام وتنظيم الاسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، ١٩٧١، جزء ١ ص ١٧٥.

(٢) نقله عن جريدة الدستور الاردنية في عددها الصادر في يناير ١٩٧١/٩/٨، الشيخ عبدالحميد السائح، الاسلام وتنظيم الاسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ١٩٧١م. الجزء ١، ص ١٧٥ - ١٧٦، المكتب الاقليمي للشرق الاوسط وشمال افريقيا، الجزء الاول، ص ١٧٥.

(٣) سيد محمد ظفار، المصدر السابق، ص ٢١٨.

ان الرجل العربي هو الذي كان مكلفاً بحماية اسرته وأمنها. لكن الدولة اليوم أنشات جهاز الامن والبوليس الذي يتولى عن الرجل الحماية والامن وعقاب القتلة.

ومن الصراع الذي ما زال دائراً بين الرجال والدولة هو الصراع حول الثأر الذي ما زال موجوداً في صعيد مصر. إذا قتل رجل في أسرة صعيدية فلا بد ان يقتل قاتله أو رجل اخر مقابل له في الاسرة الاخرى. والثأر عند العرب لا شأن له بالنساء مما يدل على انهن لسن اشخاصاً حقيقيين في الاسرة بل مجرد أشياء. المرأة قد تكون سبب النزاع الذي يولد الثأر فيما بعد، لكنها لا تكون ابداً «الدم» الذي يطالب بالتعويض أو بالثأر له.

وما زال الرجل المصري الصعيدي يعتقد أن من العار أن يثار بوليس الدولة له، وان الشرف هو ان يثأر الرجل بنفسه دون حاجة إلى جهاز أمن الدولة.

ومن الصراع الذي ما زال دائراً بين سلطة الزوج وسلطة الدولة هو عمل الزوجة وقد رأينا كيف تتعارض قوانين العمل وقوانين الزواج في هذا الشأن.

الا أنه رغم ذلك فان الاسرة الابوية تتخلى شيئاً فشيئاً عن وظائفها القديمة مثل الانتاج والتشريع والتعليم والعقاب وتنظيم الاسرة وغيرها[1].

وتدل الظواهر في المجتمع الغربي الصناعي المتقدم ان الاسرة مهددة بالزوال تماماً بعد تلك التجارب المستمرة على الانجاب الصناعي الذي سيحطم الاسس الموروثة للقرابة وعلاقات الدم. وهناك كثير من اشكال الزواج غير القانوني والعلاقات بين الرجال والنساء التي تسن لنفسها قوانينها ومبادءها الجديدة.

وكل ذلك يدل على ان الاسرة الابوية الكبيرة أو الصغيرة في المجتمعات النامية أو المجتمعات المتقدمة انما هي مؤسسة ذات قيم ومعايير غير ثابتة[2].

وهذه حقيقة يجب ان توضح لهؤلاء الرجال العرب الذين يتصورون ان الاسرة مقدسة وثابتة منذ الازل وإلى الأبد، وان أي مس بها انما هو مساس بالمقدسات والدين.

---

(١) صلاح قنصوه، «احتمالات زوال مؤسسة الاسرة في مجتمع الدولة» كلية الاداب، جامعة صنعاء، دراسة قدمت للحلقة الدراسية عن الاسرة والقرابة بالكويت (٢٧ ـ ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧٦).
(٢) المصدر السابق.

ويلعب الدين دوراً كبيراً في حماية الاسرة في البلاد العربية الا ان الدين لم يستطع ان يمنع الدولة من أن تنتزع من الرجل كثيراً من سلطاته داخل الاسرة.

وقد انفصل الدين عن الدولة في المجتمعات الصناعية الغربية المتقدمة وتراجعت سلطة الكنيسة امام الزحف الرأسمالي والتكنولوجي الذي أطاح بكثير من المقدسات المسيحية والاقطاعية.

الا ان الدين لم يفصل عن الدولة في معظم البلاد العربية الاسلامية وهذا من الاسباب التي تبعد كثيرين من المفكرين العرب عن النقد العلمي او التحليل الموضوعي للاسرة وما يطرأ عليها من تغيرات واضحة.

فالتفكير الحر في الدين امر لا يزال محظوراً في معظم البلاد العربية وكذلك التفكير الحر في نظام الحكم والسياسة.

وتتصف معظم الحركات الاصلاحية للمجتمع العربي والاسلامي بانها لا تغير جوهر المسائل وانما السطح فحسب.

ولا يمكن أن ننكر ان تطوراً في كثير من المفاهيم التي شاعت عن الاسلام يحث على نحو مستمر في المجتمع العربي والاسلامي بسبب حركات التجديد والاجتهاد المستنير على يد الرواد من امثال سيد أحمد خان ١٨١٧ ـ ١٨٩٨) في الهند والباكستان والحاج سالم (١٨٨٤ ـ ١٩٥٥م) في اندونيسيا. والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) وطه حسين (١٨٩١ ـ ١٩٧٣) وقاسم امين في العالم العربي. ونامق كمال (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨) وتوفيق فكرت (١٨٧٠ ـ ١٩١٥) في تركيا وحسين علي رشيد في ايران، وعلى يد الزعماء السياسيين المفكرين من الرجال المسلمين امثال اقبال (١٨٧٦ ـ ١٩٣٨) وجمال الدين الافغاني (١٨٤٧ ـ ١٨٩٧).

وفي رأيي أن (طه حسين) في مصر كان اكثرهم عمقاً وتحرراً في فكره لكنه اتهم من رجال الدين بالالحاد فتراجع بعض الشيء وحاول ان يغير افكاره.

ان سلاح «الالحاد» سلاح قوي يستخدم عند اللزوم لارهاب اي مفكر حر عميق.

وتمسك بهذا السلاح أيدٍ متعددة. اهمها ايدي الذين ينهبون ثروات الشعوب العربية في الداخل أو في العالم الغربي.

الا ان الفكر العربي أصبح اكثر شجاعة في عرض ونقد المشاكل والمظالم التي

تعيشها الاغلبية الساحقة من النساء والرجال. واصبحت المرأة العربية اكثر شجاعة في مواجهة المجتمع. ان المرأة العربية تدرك ان تحررها لن يعني الا ان تفقد سلاسلها.

إن الحرية لها ثمن، تدفعه المرأة المتحررة من صحتها وراحتها ونظرة المجتمع المعادية لها. لكن المرأة ايضاً تدفع ثمن العبودية والخضوع من صحتها وشخصيتها ومستقبلها، والافضل للمرأة ان تدفع الثمن وتكون حرة على ان تدفع الثمن وتظل عبدة.

وفي رأيي ان الثمن الذي تدفعه المرأة في العبودية (رغم الرضا والامن الاجتماعي) اشد من الثمن الذي تدفعه في التحرر (رغم التهديد وعداء المجتمع) ولا شك ان استردادها لنفسها وشخصيتها وانسانيتها الكاملة اهم من رضا المجتمع الرجولي عنها.

ان تفوق المرأة الفكري في عمل خلاق بالمجتمع الكبير أهم كثيراً من تفوقها في الطبخ والغسل وخدمة الاسرة.

لا بد ان يزيد طموح المرأة العربية لتنشد النبوغ في المجال الفكري الذي تختاره.

رغم كل ذلك فان المرأة العربية تسير نحو التحرر بخطى قد تكون بطيئة، لكنها تسير،وهذه حقيقة هامة لا يمكن اغفالها.

ان من يسير اليوم في شوارع القاهرة أو دمشق أو بغداد أو تونس أو الجزائر أو الرباط أو الكويت يرى هذه الاعداد المتزايدة من البنات والنساء العاملات في المجالات التي كانت مقصورة من قبل على الرجال.

انهن يسرن باقدام قد لا تكون ثابتة تماماً، وقد تكون مترددة بين الاستمرار في العمل أو التفرغ للزواج والبيت، وقد تضحي الكثيرات منهن بمستقبلها الفكري في مقابل زوج وبيت زوجية. لكن بعضهن رغم قلتهن أصبحن قادرات على التضحية بالزوج من اجل المستقبل الفكري والعلمي.

ان المرأة العربية مطالبة من اجل ان تتحرر كي تتخذ مواقف شجاعة في حياتها الخاصة والعامة.

عليها ان تجعل من نفسها انسانة لها عقل يفكر وينتج ويخلق قبل ان يكون لها مهبل ورحم.

عليها ان تدرك ان وظيفتها الاساسية في الحياة هي الانتاج الفكري في أي مجال تختاره.

عليها ان تحارب المنطق الذي يقول ان الرجل للانتاج والمرأة للاستهلاك فالذي ينتج اكثر انسانية وشرفاً وقيمة من الذي يستهلك.

وعليها أن تحارب المنطق الذي يقول ان الرجل للعمل خارج البكيت والمرأة للعمل داخل البيت.

وعليها ان تحارب المنطق الذي يقول ان الرجل له رغبة جنسية أشد من رغبتها أو أنه الايجابي وهي السلبية.

وعليها ان تحارب المنطق الذي يقول ان السبب الاساسي لقهرها وتخلفها هو الاسلام أو الثقافة الشرقية. لان الثقافة الغربية والمسيحية والاديان الذكورية الاخرى ليست أقل قهراً للمرأة بل اكثر قهراً من الاسلام.

ومن المهم للمرأة العربية أن تدرس التاريخ، وان تدرس المجتمع الأمومي قبل المسيحية وقبل اليهودية لتعرف كيف كانت تتمتع المرأة بحرية في الانتاج والعمل وكيف أبعدت عن عالم الانتاج وعالم الرجال والحياة الاجتماعية.

من المهم للمرأة العربية ان تدرس التشابه والخلاف بين الاديان لتعرف ان الاختلافات بين الاديان ليست جوهرية فيما يخص المرأة. بل ان هذه الاختلافات موجودة في الدين الواحد في البلاد المختلفة. فالاسلام في الهند يختلف عن الاسلام في الباكستان ويختلف عن الاسلام في تونس او مراكش او السعودية. ان كل مجتمع يفسر الدين حسب احواله الاقتصادية وحسب تطور نظام الحكم.

ومن المهم للمرأة العربية ان تعرف ان فقدان المرأة لحقوقها واخضاعها ليس له اسباب دينية تتعلق بالاسلام أو المسيحية أو أي دين آخر. لكن فقدان المرأة لحقوقها جاء لاسباب اقتصادية ارتبطت بتحول النظام الأمومي إلى نظام أبوي طبقي.

ومن المهم للمرأة العربية ان تدرس الاديان القديمة في مصر والهند واليونان. وتحاول ان تفهم كيف ارتبطت فكرة الاله بالمرأة اكثر من الرجل. وان الالهة الانثى كانت ترمز إلى المعرفة والعقل بمثل ما رمزت إلى الخير والوفرة والانتاج.

من المهم للمرأة العربية ان تعيد دراسة قصة حواء وآدم لتدرك أن حواء ارتبطت

بالمعرفة، وهي التي اكلت من شجرة المعرفة (حسب نص التوراة) واكتسبت المعرفة قبل آدم، وان أزيس الالهة المصرية القديمة كانت إلهة المعرفة والخلق، وهي التي خلقت آوزوريس، وانها أو «أثينا» لم تولد من رأس «زيوس».

من المهم للمرأة العربية ان تدرس لماذا فسرت مثل هذه الاساطير التاريخية تفسيراً عكسياً بحيث صورت المرأة ناقصة المعرفة وناقصة العقل وزوجها هو عقلها. ولماذا اختفت حقائق كثيرة في تاريخ البشرية، ولماذا اختفت الالهة الانثى من الحضارة التي تعيشها حتى اليوم؟

ومن المهم للمرأة العربية الا تشعر بالنقص أمام النساء الغربيات. أو تظن أن التراث أو الثقافة الشرقية او الثقافة العربية اكثر اضطهاداً للمرأة من الثقافة الغربية.

ان تراثنا فيه الكثير من الايجابيات وفيه ايضاً السلبيات. وعلى المرأة العربية ان تدرس التراث. وفي تاريخ العرب وفي بدء الاسلام كثير من الافكار المتقدمة في نظرتها للمرأة، وهناك ايضاً كثير من الافكار المعادية للمرأة والتي يجب نقدها وكشفها بموضوعية وعلمية دون خوف من مسّ المقدسات.

أن اول المقدسات في حياتنا هو الانسان، والانسان امرأة أو رجل. واول المقدسات هو أن تكون المرأة انسانة أولاً. ان تكون انسانة كاملة العقل والجسد.

وأول اعتداء على المقدسات هو الاعتداء على المرأة، وذلك باستئصال عقلها وادعاء انها بغير عقل او ناقصة العقل. واستئصال بعض اجزاء من جسمها مثل استئصال العضو الجنسي من جسمها في عادات الختان الشائعة في بعض مجتمعاتنا. هذا هو الاعتداء الاول على المقدسات وهو الاعتداء على الانسان المرأة وتحويلها إلى أداة ولادة أو أداة جنس أو أداة خدمة أو اداة استهلاك.

ومن المهم ان تدرس المرأة العربية السياسة والاقتصاد بالاضافة إلى التاريخ، وتتابع حركات التحرير في البلاد العربية وغير العربية، لتدرك ان حروب التحرير الشعبية تسرع بتحرير المرأة. ان حرب التحرير في الجزائر كشفت عن كثير من مشاكل المرأة الجزائرية وأسرعت بوضع بعض الحلول لها من اجل تحرير النساء في الجزائر. وحرب التحرير الفلسطينية تجعل المرأة الفلسطينية تمارس كل الأعمال خارج البيت بما فيها اعمال الحرب والقتال.

وعلى المرأة العربية أن تدرك ان قضية تحرير النساء العربيات ليست قضية اسلامية وليست قضية حرية جنسية، وليست عداء للرجل، وليست ضد التقاليد الشرقية، ولكنها قضية سياسية واقتصادية اساساً، وهي ضد الانظمة الاستعمارية داخل المنطقة العربية وفي العالم الخارجي. وهي ضد جميع أنواع القيود والاستغلال الاقتصادي والجنسي والاجتماعي والثقافي والاخلاقي.

الاعتداء على الطفلة البنت

جميع الاطفال حين يولدون اصحاء يشعرون انهم قد ولدوا «كاملين» فيما عدا الطفلة البنت. انها منذ تولد وقبل ان تنطق تدرك من النظرات حولها أنها ولدت «غير كاملة» أو «ناقصة». ويظل السؤال في ذهنها دائراً منذ ولادتها حتى موتها... لماذا؟ لماذا يفضلون عليها اخاها الصبي مع أنها مثله، وقد تشعر انها اكفأ منه في نواح كثيرة أو قليلة.

ان اول اعتداء على الطفلة البنت في مجتمعنا العربي هو عدم الترحيب بقدومها إلى الحياة، وفي بعض الاسر وعلى الاخص في الريف قد يصل عدم الترحيب إلى الاكتئاب أو الحزن أو عقاب الام بالطلاق أو الغضب بل الضرب. لقد رأيت احدى عماتي تضرب بكف زوجها لانها أنجبت البنت الثالثة ولم تنجب ذكراً، وسمعت زوجها يهددها بالطلاق لو أنجبت المرة القادمة بنتاً أخرى ومن شدة كراهية الاب للطفلة المولودة فقد كان يسب الام إذا ما أبدت اهتماماً بها أو حتى أرضعتها حتى تشبع.

وقد ماتت هذه الطفلة قبل أن تبلغ الاربعين يوماً من عمرها. ولا أدري هل ماتت من الاهمال أم أن الام كتمت أنفاسها لتستريح وتريح كما يقولون.

ولا تزال نسبة وفيات الاطفال الرضع عالية في الريف وفي معظم البلاد العربية بسبب انخفاض المستوى الاقتصادي والثقافي، وتزيد هذه النسبة بين الاطفال البنات عن الذكور في بعض الاحيان بسبب الاهمال. الا أن هذه الظاهرة تختفي باطراد باستمرار التقدم اقتصادياً وثقافياً[1].

---

(١) من تقرير وزارة الصحة المصرية ١٩٧١، وفيات الاطفال الرضع كانت في عام ١٩٥٢ : ١٢٧ في الالف من المواليد وقد انخفضت هذه النسبة فاصبحت في عام ١٩٦٩ : ١١٨,٥ في الالف من المواليد.

وقد تحظى الطفلة البنت في الاسر المتعلمة في المدن العربية باستقبال أقل كآبة واكثر انسانية الا أنها منذ أن تبدأ تحبو أو تمشي تتربى على الحذر والخوف.

وتواجه الطفلة البنت تناقض المجتمع. ففي الوقت الذي تحذر فيه من أعضائها الجنسية ومن الجنس ومن كل ما يتعلق بالرجال تربى منذ نعومة أظفارها على أن تكون انثى، أو أداة جنس تعرف كيف تكون جسداً فقط وكيف تزين هذا الجسد وتكسوه أو تعريه ليجذب الرجل.

والتربية التي تتلقاها البنت في مجتمعنا العربي هي سلسلة متصلة من الممنوعات والعيب والحرام. وتكبت الطفلة رغباتها وتفرغ نفسها من نفسها وتملؤها برغبات الغير. ان تربية البنت في حقيقتها ليست الا قتلاً بطيئاً لشخصية البنت وعقلها ولا يبقى من البنت بعد ذلك الا غلافها الجسدي الخارجي.

ان هذه البنت الفاقدة لشخصيتها وقدرتها على التفكير بعقلها هي وليس بعقل الاخرين تصبح العوبة في يد الاخرين وتصبح ضحية في معظم الاحيان لهؤلاء الاخرين.

ومن هم الاخرون؟ انهم رجال أسرتها أو غير أسرتها ممن تسوقهم الظروف الى الاحتكاك بها لسبب أو لآخر. وهؤلاء الذكور أيضاً على اختلاف أعمارهم من الطفولة إلى الكهولة ليسوا الا ضحايا مجتمع يفصل بين الجنسين وينظر إلى الجنس كاثم وعار ويحرم على المراهقين والشباب (الذين لم تؤهلهم ظروفهم الاقتصادية بعد) أن يمارسوا الجنس الا من خلال الاحلام الجنسية الليلية.

وهذا هو ما يكتب للمراهقين في المدارس الثانوية[1] (وفي العرف والتقاليد) حيث يحرم على الشاب الذكر ممارسة العادة السرية لانها خطرة، وخطورتها تساوي خطورة ممارسة الجنس مع المومسات[2]، وليس على الشاب الا أن ينتظر حتى يمتلىء جيبه ببعض المال الذي يتيح له الزواج.

وحيث ان امتلاء جيب الشاب بالمال القليل أو الكثير (حسب طبقة الشاب) أمر يستغرق بعض السنين من التعليم والعمل وخاصة في المدن حيث أصبح الزواج يتأخر

(١) وزارة التعليم المصرية، كتاب علم النفس المقرر لـتلاميذ السنة الثالثة الثانوية القسم الادبي، تأليف د. عبدالعزيز القوصي، د. سيد غنيم، القاهرة ١٩٧٦.

(٢) المصدر السابق، الفصل ١١، ص ١٢٣ - ١٧٤.

بسبب المدنية، وبسبب ارتفاع الاسعار وأزمة المساكن وتزايد عدد الشباب العاجزين عن الزواج لاسباب اقتصادية. ونتج عن ذلك ازدياد المسافة بين نضوج الشاب بيولوجياً وحاجته الشديدة إلى الجنس ونضوجه الاقتصادي وقدرته على الزواج. هذه المسافة في المتوسط لا تقل عن عشر سنوات (من ١٥ ـ ٢٥ سنة) فكيف يصرف الشاب طاقته الجنسية الطبيعية خلال هذه السنوات في مجتمع يحرم العادة السرية (لاخطار صحية) ويحرم المومسات (لاخطار صحية واقتصادية وخاصة بعد أن ارتفع سعر المومسات مع ارتفاع الاسعار وزادت الامراض التناسلية في بعض البلاد العربية بعد خروج البغاء من تحت اشراف الدولة).

ان الشباب من هؤلاء في معظم الاحيان قد لا يجد أمامه الا اخته الطفلة البنت التي ترقد إلى جواره في سرير واحد (في الاسر المتوسطة والاسر الفقيرة) فتمتد يده اليها وهي نائمة أو هي يقظة، كلاهما سيان، لانها حتى وهي يقظة لا تستطيع أن تعترض على اخيها الاكبر، خوفاً من سطوته المكفولة له شرعاً وقانوناً وعرفاً، أو خوفاً من الاسرة أو احساساً بالذنب لانها تشعر أيضاً ببعض اللذة، أو لانها مجرد طفلة صغيرة لا تدري مما يحدث لها شيئاً.

وتتعرض معظم البنات الاطفال لحوادث مشابهة أو مختلفة حسب ظروف كل طفلة، وقد يكون هذا الشاب الاخ أو ابن العم أو العم أو الخال أو الجد أو الاب، وقد يكون الخادم أو البواب أو المدرس أو ابن الجيران، أو أي رجل آخر.

وقد تتم هذه الحوادث بغير عنف أو اغتصاب للبنت. وقد تكون البنت قد بلغت من العمر أو الوعي ما يجعلها تقاوم أو تعترض فيتم الاغتصاب بالقوة أو بالرقة والخداع وفي معظم الاحيان تستسلم البنت وتخشى الشكوى لاحد، لان العقاب في مثل هذه الحالات لا يقع الا عليها، فهي التي تفقد شرفها وعذريتها أما الرجل فلا يفقد شيئاً وأقصى عقاب يمكن أن يناله الرجل (إذا كان غريباً عن الاسرة) هو أن يتزوج هذه البنت التي اعتدى عليها.

وان انكشاف مثل هذه الحوادث نادر بالنسبة لعدد الحوادث التي تقع، وسبب ذلك ان البنت تكتم الأمر من الخوف والخزي. أما في الحالات التي تصرخ فيها البنت او ينكشف الرجل صدفة اثناء الاعتداء فان كثيراً من الاسر العربية يرفضون اعلان هذا الامر والذهاب في قضية إلى المحكمة حرصاً على سمعة الاسرة وشرفها المهدر أن يعلن على الملأ، بل ان القضية حين تذهب إلى المحكمة فان المحكمة ذاتها كثيراً

ما تحفظ القضية حفاظاً على سمعة البنت الصغيرة وأسرتها وبذلك ينجو الرجل من العقاب، هذا العقاب الذي يلغى على الفور إذا أبدى الرجل استعداده للزواج من تلك البنت.

وقد سبقت تونس البلاد العربية (كما سبقتها في قوانين الزواج والطلاق والاجهاض) وطورت قانونها الخاص بالاغتصاب، الا أن القضية تسقط ويطلق سراح الرجل إذا قرر الزواج من الضحية[1].

وفي بحث لي سنة ١٩٧٣ في كلية طب عين شمس بالقاهرة على ١٦٠ من البنات والنساء المصريات من مختلف الاسر المتعلمة وغير المتعلمة وجدت ان نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية التي تقع بين الرجال الكبار والبنات الصغار هي ٤٥٪ في حالة الاسر غير المتعلمة، وتقل النسبة في حالة الاسر المتعلمة إلى ٣٣,٧٪ وهذه النسبة الاخيرة تزيد عن النسبة التي حصل عليها كينزي Kinsey في بحثه (١٩٥٣) إذ انه وجد أن هذه النسبة ٢٤٪.

ولا يمكن لي أن أوازن مثل هذه النسبة في مجتمعات وظروف شديدة الاختلاف كالمجتمع المصري والمجتمع الاميركي، كما أن هناك فارقاً زمنياً بين البحثين قدره عشرون عاماً، كما أن ظروف كل بحث وطريقته تختلف عن الاخرى.

ولا أسوق مثل هذه النسب الا لاقول لهؤلاء الذين يضعون رؤوسهم في الرمال ويدعون أن مثل هذه الحوادث لا تقع، وانها إذا وقعت فهي نادرة جداً، أقول لهم ان هذه الحوادث تقع في كل المجتمعات، وانها تقع في مجتمعنا العربي، وان نسبة وقوعها غير قليلة، كما أن الذي يصل إلى علمنا من هذه الحوادث ليس ألا أقل القليل مما يحدث في الخفاء.

وبحكم خبرتي كامرأة وطبيبة تفتح قلبها وعقلها لمشاكل الناس اقول بغير مبالغة ان كثيراً من البنات في مجتمعنا يتعرضن في طفولتهن المبكرة لاشكال متنوعة من

---

(١) القانون التونسي رقم ٢١، ١٩٦٩، ٢٧ مارس المعدل للمادة ٢٢٧ (صحيفة العقوبات رقم ١٢، ٢٥ - ٢٨ مارس ١٩٦٩، ص ٣٦٩) تنص على ان الرجل الذي يمارس الجنس بغير عنف مع فتاة اقل من ١٥ سنة يحكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما وتقل هذه المدة الى ٥ سنوات اذا كان عمر الرجل من ١٥ - ٢٠ عاما لكن اذا قرر الرجل الزواج من الضحية حفظت القضية واطلق سراحه.

الاعتداءات الجنسية (ابتداء من المداعبات باليد إلى الاغتصاب الجنسي الكامل) وقد تفقد البنت الطفلة عذريتها وهي لا تدري وتنسى الحادث تماماً بسبب الظاهرة التي سميت في علم النفس «فقدان ذكريات الطفولة» Infantile anrnesia أو تظل تذكره كالحلم المزعج، يعذبها ويفتك بصحتها النفسية طوال حياتها، هذا إذا نجت من العقاب الذي يتربص بها حين تكبر ويكتشف الاهل أوالزوج ليلة الزفاف انها ليست عذراء.

وكم من طرق معروفة في المجتمعات العربية ريفاً وحضراً لتزييف دم العذرية، أو اصلاح غشاء البكارة بجراحة عند أحد الاطباء.

لكن ما أتعس البنت الصغيرة الفقيرة التي لا تعرف طريق الطبيب وإذا عرفته فهي لا تملك ما تدفع.

وغالباً ما تكون هذه البنت الفقيرة من تلك الفئة الكبيرة العدد في مجتمعنا العربي التي تسمى بفئة «خادمات المنازل»[1] وهي غالباً فتاة ريفية فقيرة جاءت من القرية إلى المدينة لتخدم في احد بيوت الطبقة المتوسطة أو تحت المتوسطة أو فوق المتوسطة أو العالية.

وتصبح هذه البنت الصغيرة المتنفس الجنسي الوحيد لمعظم شباب بل أحياناً أرباب هذه الاسرة. إن الشباب المراهقين يرون أنها أفضل من الاخت او القريبة أو الزميلة (من حيث الاحساس بالذنب أو الاحترام الطبقي) ويرون أنها أفضل من المومس (من حيث انهم لا يدفعون لها شيئاً ولا تهددهم بالمرض التناسلي).

أما رب الاسرة أو الزوج المحترم فهو أيضاً قد يتسلل اليها في الليل، حين تسافر زوجته، أو تمرض (أو في فترات الدورة الشهرية أو الحمل أو الولادة) بل ان الزوجة قد لا تكون غائبة، بل باردة جنسياً، ومعظم الزوجات باردات جنسياً بسبب التربية القائمة على الكبت النفسي والعضوي، وبسبب غياب الحب بين الزوجين أو على الاقل التجاوب أو حسن المعاملة، حيث أن معظم الزيجات تتم لاسباب اقتصادية نفعية اساساً. وحيث الاسرة أبوية وسلطة الرجل المستبدة تحرم الزوجين معاً من أي فرص للشعور بالتجاوب العاطفي أو الجنسي.

---

(١) تمثل هذه الفئة الاغلبية من النساء العاملات تحت بند الخدمات ٨٩,٣ بالمئة من العاملات المشتغلات في الخدمات يقمن بالعمل بالخدمة المنزلية كخادمات (المرأة المصرية في عشرين عاما ١٩٥٢ - ١٩٧٢)، مركز الابحاث والدراسات السكانية، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء.

وتصبح هذه البنت الصغيرة المتنفس الجنسي الوحيد لمثل هؤلاء الشباب والازواج والكهول المحرومين جنسياً بشكل أو باخر. وفي عيادتي الطبية سواء في بيتي او في الجيزة وفي المستشفيات العامة التي عملت بها سنوات متعددة، كثيراً ما صادفتني تلك الخادمة الصغيرة التي لا تزيد عن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة وقد ارتفع بطنها في حمل سفاح.

وتصبح هذه البنت الصغيرة في نظر المجتمع فتاة حاملاً بغير زواج، أي فتاة ساقطة عديمة الشرف. وتواجه هذه الفتاة وحدها المجتمع كله، وقد تنهي حياتها بيدها أو يد أبيها أو أحد رجال الاسرة، وقد تموت وهي تجهض نفسها باحدى الطرق الريفية الخطرة (عود ملوخية تدخله في رحمها) وإذا لم تمت فهي تحاكم لان الاجهاض ممنوع بالقانون وإذا نجت من القانون فانها تعيش حياة ذليلة ويعيش طفلها معها حياة أذل.

أما سيدها البيه أو الافندي أو الشيخ أو الاستاذ المحترم فيظل يعيش في المجتمع الواسع العريض يستمتع بحياته ونجاحه وشرفه المصون في ظل حماية القانون والشرع والدين والعرف.

العدالة ليست عادلة

ان انكشاف مثل هذه الحوادث نادر جداً بالنسبة لعدد الحوادث التي تقع. وسبب ذلك ان البنت تكتم الامر من شدة الخوف والخزي معاً ثم في الحالات التي تصرح فيها البنت أو ينكشف الرجل صدفة اثناء الاعتداء فان معظم الاسر ترفض اعلان الامر والذهاب إلى المحكمة حرصاً على سمعة الاسرة وشرفها.

ان شرف الاسرة كلها برجالها ونسائها واطفالها قد يهدر لمجرد ان احدى البنات فقدت غشاء بكارتها. وقد تكون هذه البنت قد اغتصبت ومع ذلك فان شرف الاسرة كله يمس، لذلك تتكتم معظم الاسر على حوادث الاغتصاب التي تقع لبناتها ولا تقدم الرجل المعتدي للمحاكمة حرصاً على سمعة الاسرة وبذلك ينجو الرجل المعتدي. لكن البنت التي اعتدي عليها تصبح فتاة غير عذراء. أي فتاة بغير غشاء بكارة، وأي فتاة تفقد غشاءها لاي سبب في اي ظرف وان كان هوالاغتصاب، وفي أي سن وأن كانت هي الطفولة المبكرة فقد حكم عليها الى الابد بفقدان شرفها، لان شرفها هو غشاؤها، والغشاء الذي ضاع لا يمكن أن يعود مرة أخرى ابداً.

واظن انه لا يخفى على احد ما تتعرض له الاطفال البنات احياناً من حوادث اعتداء وقد لا تكون البنت قد بلغت السابعة أو السادسة من العمر وتفاجأ بذلك الشاب أو الرحل الذي يعتدي عليها وقد يكون هذا الرجل خادماً أو بواباً، وقد يكون احد افراد اسرتها، وقد يكون الاخ أو العم أو الاب.

ومما يزيد المأساة أن الرجل المعتدي لا يحاول انقاذ الفتاة إذا تعرضت للعقاب، بل انه احياناً ما يشترك في العقاب أو يوقعه هو بنفسه على البنت الصغيرة من أجل حماية شرفه وشرف اسرته.

وكم سمعنا أو قرأنا عن مثل هذه المآسي التي تحدث للبنات الصغيرات، اذكر

منها تلك الحادثة التي قرأناها عن العم الذي أحب ابنة شقيقه واتصل بها ثم قتلها بالسم لان أخاها عرف الامر وأرغمه على قتلها منعاً للفضيحة والعار الذي يلوث شرف الاسرة لو أن هذه البنت عاشت وهي غير عذراء[1].

ويدعي هؤلاء الرجال الذين يعارضون تغيير القوانين والتقاليد الجائرة التي تحكم حياة البنات والنساء انهم يحافظون على القيم الاخلاقية والشرف والدين. هذا في الوقت الذي يرون هذه القيم تنتهك كل يوم وليلة في حياتنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الجنسية، ومع ذلك لا يرتفع صوت احدهم بالاعتراض، بل ان منهم من يشارك بايجابية في انتهاك هذه القيم سراً أو علناً.

ولعل من السمات التي تميز مجتمعنا العربي هي تلك الازدواجية في القيم، وازدواجية الحياة، بحيث يصبح للمجتمع أو للفرد حياتان، حياة علنية يدعي فيها الاخلاق والفضيلة والدين، وحياة سرية ينتهك فيها الاخلاق والفضيلة والدين.

وقد سبق لي في كتاباتي السابقة ان كشفت عن بعض التناقضات الصارخة في حياة مجتمعنا وفي حياة الافراد من الرجال والنساء. لكن الاغلبية الساحقة من القراء في مصر والبلاد العربية يعلمون أن ما اكتب وما أعرضه ليس الا القليل من الامراض الكثيرة المتفشية عندنا، والتي لا يمكن علاجها الا بمزيد من الشجاعة والصدق في كشفها وتشخيصها ومعرفة اسبابها الحقيقية.

وهناك بعض الناس الذين يخفون رؤوسهم في الرمال، ويدعون أن مجتمعنا ليس فيه تناقضات، وأن كل القيم الاخلاقية والقانونية والتقاليد ولله الحمد كلها على ما يرام، وكله تمام، وليس هناك أبدع مما كان.

وإلى هؤلاء أسوق هذه الحادثة التي نشرتها جريدة اخبار اليوم صباح السبت ٢٣ فبراير سنة ١٩٧٤ تحت عنوان: النيابة تأسف لحفظ التحقيق مع المدرس حرصاً على مستقبل ٩ تلميذات صغيرات. وكتبت الجريدة بالحرف الواحد تقول: «تلميذات صغيرات تتراوح أعمارهن بين السابعة وبين الثانية عشرة... وقفن امام امين اسماعيل مهران مدير نيابة شبرا الخيمة تروي كل منهن في براءة... واقعة بشعة: ان مدرس الرسم كان يصحبهن إلى فناء المدرسة... وفي مكان منفرد منزو.. ينفرد بكل واحدة تحت الشجرة ويحتضنها ويقبلها... ويأتي معها أفعالاً منافية للآداب!.. وقد أمسك

---

(١) انظر: جريدة الاخبار، ١٠ مايو سنة ١٩٧٢ الصادرة في القاهرة صباحا.

مدير النيابة بأوراق التحقيق وقرر حفظ التحقيق بالنسبة للمدرس وقال في قرار الحفظ: انه وان كانت التهمة ثابتة على المتهم بشهادة المجني عليهن التلميذات الصغيرات والتي تطمئن إليها النيابة، الامر الذي يستوجب محاكمته جنائياً بتهمة (هتك عرض!) لبنات صغيرات والمعاقب عليها قانوناً الا أنه نظراً لصغر سن التلميذات المجني عليهن ولعدم اقحامهن امام محكمة الجنايات للادلاء بشهادتهن وأقوالهن فان النيابة حرصاً منها على عدم تعرض الصغيرات وتجنبهن ترديد هذه القصص التي جرت على أفواههن وانطبعت في نفوسهن البريئة الصافية بأثر سيء لا تحمد عقباه. . . وأمامهن مستقبل مشرق نظيف ينتظرهن! وتأسف النيابة وهي تحفظ الدعوى الجنائية للمتهم ولسلوكه الشائن ازاء تلميذاته الصغيرات وما يجب أن يتصف به المختص في تربية النشء والذي أجمعت الاديان السماوية والقيم والاخلاق الانسانية على أنه كاد المعلم أن يكون رسولاً. وتطلب النيابة من المنطقة التعليميةالتي تخضع المدرسة تحت اشرافها العمل فوراً على نقله من مهنة التدريس في مدارس البنات إلى مهنة أخرى[1].

ولا بد أن كل من قرأ هذا الموضوع وفكر فيه بينه وبين نفسه لحظة واحدة يدرك على الفور ذلك التناقض الذي يحكم بعض القيم الاخلاقية في مجتمعنا. فكيف تثبت مثل هذه التهمة كما تقول النيابة على رجل بالغ ناضج مع اطفال بنات ثم يُطلق سراحه، وتبرر النيابة ذلك بسبب حرصها على عدم ترديد هذه القصص التي جرت على افواه البنات الصغيرات وانطبعت في نفوسهن البريئة بأثر سيء لا تحمد عقباه. . ومع ذلك فما زال امامهن مستقبل مشرق نظيف ينتظرهن! ولا أدري كيف يكون هذا المستقبل في ظل الظروف والقيم الاجتماعية والاخلاقية التي تحكم حياة الانثى في مجتمعنا!

ولا شك ان هذه الواقعة تدل بوضوح على ذلك التناقض الشديد الذي يعيش فيه مجتمعنا، وتلك الازدواجية في القيم الاخلاقية التي تحكم الرجال والنساء والتي تروح ضحيتها حياة ومستقبل عدد غير قليل من البنات والنساء منذ الطفولة حتى المراهقة حتى الشباب حتى نهاية العمر. وقد يتصور بعض الناس ان مثل هذه الحوادث قليلة ولكن بحكم مهنتي كطبيبة وبحكم الدراسات النفسية في السنوات الاخيرة التي أجريتها على مجموعات من البنات والنساء المصريات (من المتعلمات وغير المتعلمات) وكان جزء من هذه الدراسات يبحث في طفولة هؤلاء النساء والبنات، ادركت أن مثل هذه

(١) انظر: جريدة اخبار اليوم صباح السبت ٢٣ فبراير ١٩٧٤، الصفحة العاشرة.

الحوادث غير قليلة، بل وشائعة ولكننا لا نقرأ عنها ولا نسمع الا قليلا بسبب خجل البنات الصغيرات وخوفهن من التصريح بمثل هذه الحوادث، وادراكهن أن التصريح بها لن يؤدي إلى أي اذى يتعرض له الفاعل الرجل، وانما الاذى كل الاذى سيقع عليهن هن، فالفضيحة في مثل هذه الحالات لا تمس الا البنت وأسرتها. ولذلك تفضل أغلب الاسر اخفاء مثل هذه الحوادث عن اعلانها، خاصة إذا كان الفاعل احد افراد الاسرة، ولهذا لا يذهب إلى القضاء الا النادر في مثل هذه الحوادث، والذي ينشر في الصحف ونقرؤه هو نادر النادر بطبيعة الحال. اما أن تواجه مثل هؤلاء البنات المشاكل في المستقبل فهذا أمر اخر لا يشغل البال كثيراً. فالمهم الان هو تكتم الامر حتى لا تتردد هذه القصص على أفواه الصغيرات وتنطبع في نفوسهن البريئة باثر سيء لا تحمد عقباه. وليس هناك ما يدل على اننا نضع رؤوسنا في الرمال أكثر من هذا. فنحن نعلم أن هذه القصص قد ترددت فعلاً على افواه البنات الصغيرات ليست القصص فحسب، وانما الافعال ذاتها قد وقعت بالفعل، وانها قد انطبعت بأثر سيء تحمد عقباه بطبيعة الحال، ولن يؤثر هذا الاثر السيء في حياة احدى هؤلاء البنات الصغيرات! لكننا لا نهتم بكل هذا، فليذهب مستقبل هؤلاء البنات إلى الجحيم، ما دمنا نحافظ على الشكل العام، وما دمنا نكتم الامر، ونحفظ التحقيق والاوراق في الادراج ونغلق عليها بالمفتاح، أما الرجل الجاني فنحن نطلق سراحه كجزء من تكتمنا واخفائنا للحقيقة التي وقعت، فلا يهم أن يطلق سراح رجل اعتدى على ٩ بنات أطفال، ولكن المهم هو أن نحفظ الموضوع طي الكتمان حتى لا تتردد هذه القصص على افواه الصغيرات، اننا نحفظه مع الاسف، ماذا تفعل كلمة «مع الاسف» لمستقبل وحياة هؤلاء البنات.

ما مصير هؤلاء البنات (وغيرهن ممن تعرضن لمثل هذه الحوادث الخفية المحاطة بالكتمان) لست أدري! بل انني أدري ما الذي سيحدث لهن في المستقبل، وسوف يقفن في مكانهن في صفوف النساء التعيسات المريضات نفسياً أو المطلقات أو الزوجات المكتئبات المهجورات أو بائعات للهوى - في حالة انعدام مورد آخر للرزق.

أما الرجل الذي اعتدى عليهن فلم يحدث له أي أثر سيء لا تحمد عقباه. انه ما زال يعمل ويعيش ويرفع رأسه بين الناس كرجل محترم وله رجولة. انه يعيش في ظل حماية القانون والقيم والاخلاق والعرف لمجرد أنه رجل رغم ثبات التهمة عليه. أما البنات التعيسات فعليهن أن يلاقين مصيرهن المحتوم الذي لا يعلمه الا الله.

لقد آن الاوان لان نطهر مجتمعنا من هذا الظلم الفادح الواقع على حياة البنت

في مجتمعنا. آن الاوان لأن تكف البنت الصغيرة أن تكون ضحية رجل يحميه المجتمع أخلاقياً وقانونياً، مع أنه المعتدي والمحرض والفاعل. آن الاوان لان نرفع رؤوسنا من الرمال ونواجه التناقضات الاخلاقية في مجتمعنا بشجاعة وصدق، وأن نقضي على تلك الازدواجية في القيم التي لا تتفق مع اية عدالة وانسانية، ولا مع مبادىء أي دين من الاديان السماوية أيضاً.

ان هؤلاء البنات التعيسات سوف يواجهن في المستقبل عديداً من المشاكل بطبيعة الحال، وأهمها مشكلة العذرية والشرف. فالمجتمع غير مسؤول عن الفتاة أو الطفلة التي تفقد عذريتها أو شرفها وان اغتصبت. لان الضرر الواقع عليها ضرر جسدي لا سبيل لاصلاحه، والرجل الذي سيتزوجها في المستقبل يحق له أن يرفضها، بل يحق له أن يشهر بها اجتماعياً إذا أراد.

ان المبدأ في القوانين التي تحكم المرأة هي أن الرجل غير مسؤول وتسقط حقوق المرأة قانوناً وعرفاً إذا ما حدث لها حادث اغتصاب.

وتشكل مشكلة العذرية او شرف البنت أهم المشاكل في حياة النساء المصريات والعربيات بصفة عامة. وقد تعرضت لهذا المفهوم الخاطىء عن الشرف في أبحاثي السابقة. الا انني اعود فاكرر ان هذه المشكلة تؤرق وتفسد الكثير من حياة الفتيات والنساء. بل ان المحكمة قد تفسخ عقد الزواج لان الزوجة ليست عذراء.

وقد يقول بعض الناس ان مثل هذه الافكار تسود في الريف فقط، وتنتشر بين الرجال غير المتعلمين. ولكن الحقيقة ان التعليم في المدارس والجامعات لا يغير كثيراً من عقلية الرجل. وذلك لاخطاء في التعليم نفسه، وأخطاء في التربية، واخطاء في النظم المسيطرة على المجتمع. ولهذا قد يحظى الرجل بدرجات عالية في التعليم، وقد يسافر إلى الخارج في بعثات تعليمية ثم يعود إلى مصر يحمل الشهادات ودرجة الدكتوراه ويحمل معها أيضاً عقليته المتخلفة في نظرته إلى المرأة.

وكم سمعنا وقرأنا في الصحف عن حوادث القتل بسبب الشرف والعذرية ولعل آخر ما قرأته في هذا الشأن ما نشر في جريدة اخبار اليوم في ١٨/ ٥/ ١٩٧٤ الصفحة العاشرة تحت عنوان: قتل شقيقته ثم اتضح انها عذراء[1]:

(١) انظر: جريدة اخبار اليوم الصادرة في ٦ مارس ١٩٧٦، الصفحة العاشرة تحت عنوان: «محكمة الاستئناف تفسخ عقد زواج لان الزوجة ليست عذراء».

عاد المهندس المصري الذي يعمل بالمانيا الغربية بعد غيبة ٥ سنوات إلى مسكن اسرته في امبابة!

وبعد ايام من لقائه مع اسرته لاحظ انتفاخ بطن شقيقته الجميلة الطالبة بالثانوي ـ ١٧ سنة ـ . . . واخذ يتحرى الامر، ماذا يفعل في شرف العائلة الذي لوثته شقيقته بسلوكها! واثناء وجوده بمفرده في الشقة أخذ يبحث في غرفة نوم شقيقته فعثر في دولابها على زجاجة دواء اخذها وذهب إلى احدى الصيدليات وأخبره الصيدلي أن الدواء خاص بالسيدات الحوامل اللائي يرغبن في اجهاض انفسهن. وصعق الشقيق وتأكدت شكوكه في سلوك اخته! وواجه المهندس شقيقته بزجاجة الدواء التي في دولابها وشكوكه. . . ولم يتمالك المهندس نفسه فجرى إلى المطبخ واحضر سكيناً وأخذ ينهال بها على شقيقته حتى سقطت تلفظ أنفاسها الاخيرة! وتولت النيابة التحقيق وأمرت بحبسه. وجاء تقرير الطبيب الشرعي بالصفة التشريحية أن شقيقته عذراء وليست حاملاً!

وفي المعارضة في حبس المهندس امام محكمة جنايات الجيزة ترافع احمد ناصر المحامي فقال: ان المهندس كان يعيش في خط وهمي وأنه توهم ان شرفه وشرف اسرته تلوث واكدت له الظواهر واعتراف شقيقته عدا الشك فالمهندس قتلها دفاعاً عن نفسه وشرفه. . . وامرت المحكمة بالافراج عن المهندس بلا ضمان!

وفي الوقت الذي تفرج فيه المحاكم عن القتلة من الرجال من امثال هذا المهندس المتعلم، وأمثال ذلك المدرس الذي اعتدى جنسياً على تلميذات فصله وهن ما زلن في سن الطفولة، في الوقت الذي تفرج فيه المحاكم والقوانين عن هؤلاء الرجال وامثالهم ممن ينتهكون الاخلاق والشرف الانساني والعدالة في كل يوم وليلة إذا بها تتشدد في عقاب نساء بريئات او فتيات ساذجات، أو زوجات مغلوبات على امرهن وفي الوقت الذي يطلق فيه سراح مدرس اعتدى جنسياً على تلميذات فصله تعاقب بشدة مدرسة لمجرد أنها دخلت على زميلتها الحمام وهي عارية دون استئذان، أو تعاقب المدرسة بشدة لمجرد انها أخذت التلميذات اثناء رحلة وجلست بهن على احد الكازينوهات[1].

ولست بصدد التعرض مرة اخرى إلى المهازل الاخلاقية التي تحدث تحت ستار عقد الزواج، وكيف يبيع الآباء بناتهم الصغار باسم الزواج لرجال عجائز او مرضى او

(١) انظر: جريدة اخبار اليوم، الصفحة العاشرة الصادرة في يوم ٩ اغسطس ١٩٧٥.

فاسدي الاخلاق. وكم قرأنا عن مثل هذه الحوادث التي اصبح الزواج فيها ليس الا نوعاً من البغاء المقنع بالعقد الشرعي.

ولعل آخر ما قرأته في هذا الصدد ما نشر في جريدة أخبار اليوم في ٢ اغسطس ١٩٧٥ الصفحة العاشرة تحت عنوان: «لان طفلة تزوجت، قبضت النيابة على الاب والام: ثار الشك حولها عندما تقدمت بطلب استخراج جواز سفر لمصاحبة زوجها إلى الخارج! قدمت شهادة ميلاد تفيد أن سنها ١٨ سنة.. في حين انها تبدو طفلة.

طلب المقدم عادل شعبان رئيس قسم رعاية الاحداث اجراء التحريات اللازمة كلف العقيد عبدالحميد منصور مدير ادارة البحث الجنائي بالنيابة الرائد محمد شريف عبد الرزاق بالذهاب إلى مركز البدرشين بالجيزة للبحث واجراء التحريات عن الزوجة الصغيرة.

وكشفت التحريات أن أحد الاشخاص بالحوامدية اغرى والد الطفلة بتزويجها من أحد كبار السن في الخارج في مقابل مهر كبير. وقام بتزوير شهادة ميلاد الطفلة (١٢ سنة) إلى ١٨ سنة. وتبين أن نفس الشخص سبق له عقد زيجات مختلفة بنفس الطريقة».

وكم يسيء الآباء استخدام سلطتهم على بناتهم الصغيرات أو الكبيرات، وكم يكون هذا الامر مدمراً لحياة البنت أو مستقبلها خاصة في مجتمعنا حيث تكون الاسرة ابوية قانوناً وشرعاً، وحيث سلطة الاب مطلقة على ابنته، فلا يستطيع التدخل بينهما احد ولا حتى القانون نفسه، بل كثيراً ما يقف القانون مع الاب المخطىء ضد الابنة البريئة او السليمة الموقف.

ولعل هذه الواقعة التي نشرت في جريدة اخبار اليوم في ٥ يناير ١٩٧٤ تؤكد هذه الحقيقة. كتبت الجريدة تحت عنوان : حكمت المحكمة بالطلاق لان الفتاة تزوجت بدون موافقة الاسرة، الزوجة بلغت سن الرشد.. فتزوجت بدون رضى اهلها ولكن المحكمة حكمت بتطليقها من زوجها لان الفتاة أحبت الشاب وتزوجته بحضور المأذون وشاهدين (أي أن عقد الزواج كان سليماً من الناحية القانونية والشرعية) وتقدم والد الفتاة يطلب فسخ العقد لانه تم بغير موافقته، وقرر الزوجان أمام النيابة بأنهما تزوجا بارادتهما. وقالت الزوجة انها بلغت من العمر عشرين عاماً وأصبح لها الحق والحرية في اختيار شريك حياتها الذي رفضته اسرتها عندما تقدم اليها لانه فقير.. وقررت

النيابة حفظ التحقيق في شكوى الاب، لعدم وجود جريمة فالزوجة بلغت سن الرشد ومن حقهـا أن تمارس عقد زواجها بنفسها. ولجأ الاب إلى محكمة جنوب القاهرة للاحوال الشخصية يطلب الحكم بتطليق ابنته من زوجها لانها تزوجت بغير موافقته. وحكمت محكمة جنوب القاهرة للاحوال الشخصية برئاسة عبدالرحمن البرقوقي بتطليق الزوجة من زوجها وقالت في أسباب الحكم أنه وان كان القانون لا يمنع مثل هذا الزواج لان الزوجة بلغت سن الرشد وأصبح من حقها أن تباشر عقد زواجها بنفسها، لكن العـرف والتقـاليد في بلادنا تمنع مثل هذا الزواج المقضي عليه بالفشل لان الفتاة تصـرفت بعـاطفتها دون عقلها ولم تأخذ برأي اسرتها التي ترى مصلحتها في زوج المستقبل الذي يكفل لها الحياة، وقد جرى العرف والتقاليد في مجتمعنا الشرقي على أن يكون الاب أو العم أو احد افراد اسرة الزوجة وكيلاً لها في عقد الزواج[1].

وقد يتساءل البعض اين التناقضات هنا؟ ولكن الذي يقرأ القصة مرة أخرى يدرك على الفور هذه التناقضات الواضحة:

١ ـ التناقض بين بنود القانون الرسمي والشرعي وبين التقاليد والعرف، ففي الوقت الـذي يبيح فيه القانون للفتاة البالغة الرشد اختيار زوجها بنفسها تمنع التقاليد والعرف هذا الحق للفتاة البالغة الرشد.

٢ ـ رغم وضوح القانون فان المحكمة لم تأخذ برأي القانون وانما اخذت برأي العرف وحكمت بتـطليق الفتـاة من زوجها، وهذا اعتداء صارخ من هيئة قانونية على القانون ذاته، مما يدل على انه فيما يتعلق بحرية المرأة وارادتها فان التشديد واجب الى حد مراعاة العرف حين يبيح القانون الحرية، والالتزام بالقانون حين يبيح العرف شيئاً من هذه الحرية.

٣ ـ التناقض بين موقف الاب وتصرفاته العملية ضد ابنته وضد مصالح حياتها بتطليقها من زوجها بعد الزواج رغم ارادتها، وهذا الموقف الذي وافقت عليه المحكمة يتناقض ومفهومنا النظري للابوة، ومشاعر الابوة، وحرص الابوة على صالح الابناء والبنات. ولا أظن أن هناك من يقول بأنه من صالح فتاة بالغة الرشد أن تطلق رغم انفها من زوجها الذي تحبه ويحبها لمجرد أنه زوج فقير كما قالت الزوجة في أقوالها.

---

(١) انظر: جريدة اخبار اليوم صباح السبت ٥ يناير سنة ١٩٧٤ ـ الصفحة العاشرة.

٤ ـ هذه الزوجة أحبت زوجها واحترمته رغم انه فقير، وهذا الموقف من الزوجة يتفق مع مبادئنا النظرية ومع اخلاقيات الدين الاسلامي، وكل الاديان السماوية، ومع ذلك فلم يكن جزاؤها على الايمان بهذا المثل الا التفريق بالقوة بينها وبين زوجها وفسخ عقد زواجها منه. وهذا تناقض صارخ تقع فيه كثير من أسرنا. فان الآباء والامهات يلقنون اطفالهم منذ الصغر مبادىء الدين الذي يساوي بين الفقير وبين الغني وانه لا فرق بين عربي واعجمي الا بالتقوى، ثم حين يأتي موعد الزواج ينسى الآباء والامهات هذه المبادىء ولا يشغلون الا بالتقصي عن عدد الجنيهات التي يكسبها العريس وإذا بهم يناقضون انفسهم ويشجعون بناتهم على قبول الغني ورفض الفقير، ويا ليت الامر يقف عند حد التشجيع ولكنهم يتدخلون ويفرضون على البنات ازواجاً لمجرد المكسب التجاري (بعبارة أخرى يبيعون بناتهم باسم الزواج وهم بذلك يضربون مثلاً سيئاً لبناتهم يشجعونهن على بيع أنفسهن للرجل الذي يدفع اكثر وهذا هو جوهر البغاء) بل احياناً ما يسعون كما فعل الاب السابق إلى استغلال العرف أو القانون لتحطيم حياة بناتهم ويحدث كل ذلك تحت ستار التقاليد والقيم المتناقضة التي تغير اشكالها وألوانها حسب كل ظرف وحسب كل حالة. ولا يدفع ثمن كل هذا الا البنت المسكينة التي يذهب مستقبلها وحياتها وسعادتها وصحتها النفسية والجسمية ضحية هذه التناقضات التي نقرؤها ونسمع عنها كل يوم ومع ذلك نفعلها ونشترك فيها أيضاً كل يوم.

ان مجتمعنا المصري والعربي ملآن بالتناقضات التي تنعكس اثارها على حياة البنات والنساء أكثر من حياة الرجال. وذلك بسبب التفرقة بين الجنسين وازدواجية القيم والقوانين التي تحكم النساء والرجال سواء في العمل أو الزواج أو الحب أو الطلاق أو الشرف.

وتسبب هذه التناقضات للبنات والنساء كثيراً من المشاكل الاجتماعية والنفسية وقد تعرضت الكثيرات منهن لامراض نفسية وعصابية مختلفة. ولهذا علينا الا نندهش حين نلمس ارتفاع نسبة النساء العصابيات، وخاصة بين ذوات العقل الذكي القادرات على إدراك التناقضات والاحساس بوطأتها. وفي البحث الذي اجريته في جامعة عين شمس وجدت ان نسبة الامراض العصابية بين الطالبات اعلى منها بين الطلبة. كما وجدت ايضاً ان الفتيات المثقفات الذكيات اكثر عرضة للعصاب من الفتيات الاقل ثقافة وذكاء.

ولا شك ان الانسان المثقف الذكي اكثر قدرة على ادراك عيوب المجتمع، واكثر قدرة على اصلاحها ان استطاع، وان لم يستطع فهو اكثر عرضة للمعاناة النفسية من ذلك الشخص الاخر الذي يتصور ان عيوب المجتمع ومآسيه ليست الا ارادة الله أو حكم القضاة والقدر.

ولهذا يعاني الاذكياء في مجتمعنا من التناقضات التي تحكم المرأة، والتي تؤثر بطبيعة الحال على حياة الرجل، وحياة الاطفال، ومن ثم حياة المجتمع كله.

وقد نشرت الصحف عدة مرات عن ظاهرة هؤلاء الاذكياء من الشباب الذين تعرضوا للامراض النفسية. وحينما ندرس حياة بعض الشبان نجد أن تلك الحيرة وذلك القلق العميق إزاء ما يبدو لهم من تناقض بين القيم الدينية والاخلاقية وبين ما يشعرون من رغبات أو ما يمارسونه في حياتهم اليومية أو ما يشاهدونه ويسمعونه في أجهزة الاعلام وفي الحياة الاجتماعية اليومية.

وقد نشرت جريدة الاخبار[1] صباح يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٧٤ موضوعاً ثم أتبعته بعدة موضوعات في الايام التالية تحت عنوان: ابحث عن هذا الطالب العبقري... آخر مرة شوهد فيها طويل الذقن... حافي القدمين يتسول من الناس ليعيش. وتحكي الاخبار قصته. فهو شاب ذكي متفوق في كلية الهندسة وهو كما تقول أسرته كان متديناً جداً لدرجة انه كان يرفض ان يصافح زميلاته أو يتكلم معهن لان هذا حرام... ثم وقع هذا الشاب في حب زميلة له، وتصور انها تبادله هذا الحب لانها كانت تعامله بذوق ورقة وأدب. لكن هذه الزميلة كانت تعامل كل زملائها بذوق ورقة وأدب، وكانت تحب رجلاً آخر تزوجته وسافرت معه إلى الخارج. وهنا حدثت الصدمة لهذا الطالب واصيب بمرض (الشيزوفرنيا) كما كتبت الجريدة. وفي نهاية الموضوع تتساءل الجريدة هل هناك أمل في شفاء أحمد؟ وتكتب أن الاطباء النفسيين يقولون ان الامل كبير في الشفاء من هذا المرض ولكن في مراحله الاولى... أي بعد الصدمة التي تسببت في المرض... ولكن المريض الذي في حالة «احمد» يحتاج إلى رعاية مستمرة ورقابة شديدة... وتقول الجريدة: «ان الاطباء ينصحون كل اب وأم بأن يشجعوا اولادهم على ممارسة أي نوع من الالعاب الرياضية وخصوصاً في فترة المراهقة حتى لا ينحرف تفكيرهم إلى نواح قد تسبب لهم في الكبر عقداً يصعب حلها...».

---

(١) انظر: جريدة اخبار اليوم ٢٧ يناير سنة ١٩٧٤، الصفحة الثالثة.

ولست اعرف كيف يمكن (طبياً وعلمياً) ان نعالج التناقض بين القيم الاخلاقية والاجتماعية في عقول الشابات والشباب الاذكياء بالرياضة البدنية ومباريات التنس وكرة القدم والكرة الطائرة. بل كيف يمكن ان نعالج مثل هذه التناقضات الاجتماعية بالصدمات الكهربية كالتي نوجهها على رؤوس الشباب كجزء من العلاج النفسي. كيف يمكن أن نترك جذور اسباب الامراض النفسية بغير علاج، ولا نهتم الا بعلاج الامراض الظاهرية بالحقن والكهرباء وغسيل المخ.

ان الذي يدرس اسباب الامراض النفسية بين الذكور والاناث في مختلف مراحل العمر في مجتمعنا يجد أمثلة متعددة لتلك القصص التي عرضتها الصحف عن الشباب الاذكياء، أمثلة متعددة بين الرجال والنساء والبنات الذكيات، وعلينا بدلاً من أن نوجه العلاج إلى رأس المريض أو المريضة ان يتجه الفحص والعلاج إلى المجتمع وإلى التقاليد والقيم والقوانين المتناقضة التي يرفضها العقل الذكي وخصوصاً تلك القيم والتقاليد التي تقترب من النواحي الحساسة[1] في مجتمعنا.

ان الانسان وحدة كاملة، وليس هناك فاصل بين العقل والجسم. ولهذا فان الانسان ذا العقل الشديد الذكاء يتصف بان كل ما فيه أيضاً شديد سواء كان رغبات عاطفية أم جسمية. وبما ان الوجه الاخر للكبت الشديد أو الانفجار الذي يظهر على شكل الاضطراب النفسي فان شدة الذكاء احياناً ما تكون صفة يدفع الانسان ثمنها غالياً جداً خاصة إذا كان امرأة.

واني اختلف مع هؤلاء الذين يرون أن علاج مثل هذه المشاكل والتناقضات يكون بتحريك عضلات الجسم في الهواء الطلق أو الرياضة البدنية، ولست اعتقد ايضاً أن العلاج هو أن نقتل في هؤلاء الاذكياء والذكيات شعلة الذكاء بالجلسات الكهربية أو غسل المخ أو بالتحليل النفسي الذي يحاول اقناعهم بالتكيف مع هذه التناقضات والتسليم بها كنوع من القدر المحتوم الذي لا يمكن تغييره.

ان العلاج في رأيي لا يكون علاجاً حقيقياً الا إذا تناول الاسباب الحقيقية للمشاكل وأن تسعى العقول المفكرة الناضجة الشجاعة، لايجاد الحلول لتلك التناقضات الصارخة التي لا زلنا نعيشها.

ولا شك في ان النساء والبنات اكثر تعرضاً للتناقضات الموجودة في مجتمعنا.

---

(١) انظر: جريدة الاخبار الصادرة في ٣٠ يناير ١٩٧٤ تحت عنوان: علاج طالب الهندسة العبقري في مستشفى خاص.

فالمرأة في معظم الاحيان هي التي تقع ضحية التناقضات، وكونها انثى بالمفهوم الاخلاقي والاجتماعي فهي فريسة تناقضات المجتمع الاخلاقية والاقتصادية. ومن المعروف ان قيم المجتمع الاخلاقية تتناقض وقيمه الاقتصادية. مثلاً ان جسد المرأة عورة ويجب ان يحجب عن الاعين بمقياس القيم الاخلاقية، لكن جسد المرأة يجب ان يعرى ويكشف بطريقة مثيرة جداً في الاعلانات التجارية وفي الافلام التجارية وفي الرقصات والاغاني والفنون التجارية.

ولا شك في أن النساء الفقيرات يدفعن ثمن هذا التناقض اكثر من نساء الطبقة العليا، وكثيراً ما تنجو المرأة الثرية من أزمات اخلاقية قد تكلف المرأة الفقيرة حياتها كلها. وقد تضطر المرأة الفقيرة من اجل ان تطعم اطفالها أن تبيع جسدها. ولا يحاول أحد ان يحاسب أو يعاقب المسؤولين عن الفقر، اما العقاب فيقع على المرأة المسكينة وحدها.

وبرغم انتشار تجارة الجسد في مجتمعنا في السنوات الاخيرة بسبب حدة المشاكل الاقتصادية الا أن القانون المصري ما زال حتى اليوم يعاقب النساء المشتغلات ويطلق سراح الرجال الذين يمارسون هذا العمل نفسه.

وكم قرأنا في الصحف عن هذه الحوادث، ومنها ما نشر في جريدة الجمهورية في ٢٨ اغسطس ١٩٧٥ تحت عنوان «عندما يمارس الرجل اعمالاً منافية للآداب مع المرأة، هي تدخل السجن وهو يحكم ببراءته:» كتب فؤاد الشاذلي:

«اكثر من ٣٠٠٠ جنحة آداب بين دعارة وتحريض على الفسق وادارة منازل للدعارة سجلتها محاضر الشرطة والنيابة في عام واحد... وفصلت المحاكم في ٩٠٪ منها ولكن القضاة أنفسهم يشعرون ان الاحكام غير عادلة... وعذرهم أنهم يطبقون القانون الذي يعتبر الرجل الشريك في الجريمة شاهداً ولا يحكم عليه باية عقوبة، ولنستعرض نماذج من القضايا التي نظرتها المحاكم أخيراً.

- اتصل شاب بشرطة النجدة يدعي انه اتفق مع فتاتين من الساقطات لممارسة الجنس مقابل ٤٠ جنيهاً وطلب منهما مرافقته إلى أحد الفنادق بشارع ٢٦ يوليو ولكنهما رفضتا لانهما كانتا تعتقدان أنه ينزل بشقة مفروشة.. وطلب الشاب «المتبجح» معاونته في تنفيذ الاتفاق أو استرداد النقود.

وحضرت سيارة النجدة وقبضت على الفتاتين واقتادتهما إلى الشرطة التي أحالتهما

إلى النيابة فاعترفتا باحتراف الدعارة كسبيل للتعيش وقضت المحكمة بحبسهما أما الشاب فقد اخلي سبيله فوراً!

- واقعة اخرى سجلتها محاضر شرطة الازبكية. . «الشاهد» فيها شاب عربي يقيم بشقة بشارع زكي اتصل بالشرطة يستنجد من وجود فتاتين بشقته قامت بينهما مشاجرة استعملتا فيها زجاجات الويسكي الفارغة وحطمتا اثاث الشقة. . . قبضت الشرطة على الفتاتين فاعترفتا باحتراف الدعارة وقالت احداهن انها فوجئت بزميلتها تقتحم شقة الزبون دون سابق اتفاق وان في ذلك منافسة «غير شريفة» لها فلم تجد امامها الا ضربها. .

- واحيلتا الى النيابة التي قدمتهما للمحاكمة فقضت بحبسهما. . اما الشاب فقد اخلي سبيله فوراً وخرج من قسم الشرطة وكأن شيئاً لم يكن!

- والعينات الغريبة من هذه القضايا لا تنتهي. . فقد ترك احد اعيان المنيا مفتاح شقته مع بواب العمارة المملوكة له ثم توجه إلى المصيف مع اسرته. . . وعاد ابنه قبل الموعد المحدد بيومين للتنبيه على البواب بتنظيف الشقة. . . لكنه فوجىء بالشقة مغلقة من الداخل فكسر الباب حيث وجد البواب وصاحب محل حلاقة واحد الشبان الخنافس ومعهم فتاة من الساقطات فاعاد اغلاق الشقة عليهم واستنجد بالشرطة التي افرجت فوراً عن الخنفس. . . وصاحب محل الحلاقة لانهما في نظر القانون مجرد شاهدين رغم اعترافهما».

اللاأخلاقية في القيم الأخلاقية

من الكلمات التي استخدمت على نحو خاطيء هي كلمة مومس. وقد اطلقت على المرأة التي تدفعها ظروفها الاقتصادية إلى ممارسة الجنس مع الرجل مقابل شيء من المال. واعتبرت هذه المرأة فاقدة للشرف والاخلاق مع انها ليست الا ضحية مجتمع ذكوري طبقي مزدوج القيم والاخلاق، ولم يدفعها إلى هذا العمل الا المجتمع نفسه، والرجال أنفسهم، والفقر نفسه.

وفي رأيي أن الاباء الذين يبيعون بناتهم بالمهر الغالي تحت ستار عقد الزواج هم الذين يجب أن يطلق عليهم اسم مومس لانهم ينتهكون الشرف الحقيقي والاخلاق الحقيقية حين يتاجرون ببناتهم، ويفرضون عليهن أزواجاً بغير رغبتهن لمجرد قبض المهر أو الهدايا. وهم أيضاً لا يتبعون الدين لان الاسلام يقول ان افضل الرجال أتقاهم وليس اكثرهم مالاً. ﴿ان أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] والحديث المعروف يقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه. ان لم تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد كبير».

والشرف في جوهره ضد الاجبار وضد العبودية وضد المتاجرة في النفوس سواء كانوا عبيداً أو نساء أو اطفالاً.

الشرف في جوهره ضد تحويل الانسان إلى أداة أو شيء أو بضاعة. وعلى هذا فان قانون الزواج في مجتمعنا الابوي الطبقي ضد الشرف الحقيقي لانه حول المرأة إلى بضاعة تشترى بالمهر وتباع بالنفقة وأحياناً تباع بلا شيء على الاطلاق كما يتضح من المادة ٦٧ من قانون الزواج في مجتمعنا المصري التي تنص على الاتي: «لا تجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها. كما لا تستحق النفقة إذا

---

(١) القرآن، سورة الحجرات، الآية ١٣.

حبست ولو بغير حق أو اعتقلت او أغتصبت أو ارتدت، أو منعها اولياؤها، أو كانت في حالة لا يمكن الانتفاع بها كزوجة».

أن وضع الزوجة هنا أقل من البضاعة، لان البضاعة مهما حدث يظل لها ثمن، بخس أو غير بخس الا أنه ثمن، أما الزوجة التي تحبس ولو بغير حق أو يغتصبها رجل أو تمرض فان من حق زوجها أن يطلقها وتسقط نفقتها.

وحينما تطلق المرأة بسبب أو بغير سبب فان ثمنها ينخفض في سوق الزواج كأي سلعة ينخفض ثمنها إذا استعملت من قبل.

لقد أهدر المجتمع الابوي الطبقي انسانية الزوجة وحولها إلى سلعة، بل إلى أبخس السلع ثمناً. فالخادمة التي تؤجر لتنظيف البيت أو رعاية الاطفال تنال عن عملها اجراً أما الزوجة فلا تتقاضى اجراً. والمومس التي تعطي الرجل اللذة الجنسية تتقاضى اجراً أما الزوجة فلا تأخذ شيئاً.

ويخدع المجتمع الزوجة وذلك بأن يوهمها أنها انما تعمل في بيتها وأسرتها وأطفالها ويحيط هذه الاعمال بهالة من الكلمات الجوفاء، فالبيت مملكة المرأة والام المثالية هي التي تضحي من اجل اطفالها والزوجة المثالية هي التي تطيع زوجها وتخدمه. وهذا كله خداع لان البيت والاطفال والاسرة ملك للرجل لا للمرأة، وأعمال الخدمة من كنس وطبخ وغسيل ليست اعمالاً محترمة في المجتمع بدليل أن المجتمع لا يحترم من يقومون بها ولا يجزيهم عليها الا أقل الاجور وأبخسها. انها احط الاعمال في سلم الحياة الاجتماعية، وهي اعمال لا تحتاج إلى ذكاء او مهارة، إنها أعمال قذرة تغوص فيها اليدان طوال الوقت في الماء والبصل والثوم والقذارة.

ان المجتمع يستغل الزوجة أكثر مما يستغل الاجير أو العبد نظير أنه يمنحها شرف الزواج برجل وهو شرف وهمي، لانه قائم على الاستغلال وقائم على التجارة، وقائم على تحويل النساء في سوق الزواج إلى بضاعة. ولسوف ترفض النساء الزواج إذا ما فتحن عيونهن على هذه الحقيقة، لان الشرف الانساني يشترط في أول شروطه أن يكون الانسان انساناً وليس بضاعة تشترى وتباع بأي ثمن.

ان المجتمع الابوي الاقطاعي او الرأسمالي الذي يحول الانسان إلى بضاعة مجتمع غير انساني وغير شريف. وان الانسان الذي يقبل على نفسه ان يكون بضاعة

انما هو انسان فقد انسانيته وفقد شرفه.

لكن المجتمع الاستغلالي يتسم دائماً بالقيم المعكوسة، فالشرف الاجتماعي السائد في حقيقته فقدان لاهم مقومات الشرف. والعدالة التي يتشدق بها المجتمع ليست في حقيقتها الا اشد انواع الظلم،والحب الذي يترنم به ليس الا قمة الاستغلال والامتلاك.

ان هذه القيم المعكوسة هي النتيجة الطبيعية لمجتمع قائم على الربح. ربح الاقلية التي تملك، واستغلال الاكثرية التي لا تملك الا عرقها وجسدها تبيعه بأبخس ثمن في سوق العمل أو سوق الزواج أو سوق البغاء.

وبرغم ان قوانين السوق جميعاً غير اخلاقية لان هدفها القرش وليس الانسان الا أن سوق البغاء وحدها هي التي حرمها المجتمع من الاخلاق ومن الشرف.

وهو لم يحرم السوق كله من الاخلاق والشرف، لقد حرم النساء فقط. اما الرجال فانهم يمارسون الجنس في سوق البغاء دون ان يحرمهم المجتمع من الشرف، ودون أن يعاقبهم القانون، ودون أن يطلق عليهم كلمة «مومس». اما النساء فهن وحدهن اللائي يقع عليهن العقاب والعار. بل ان العقاب والعار يمتد ليشمل الاطفال الذين يولدون في سوق البغاء أو في سوق العشق، ويطلق عليهم الاطفال غير الشرعيين أو اللقطاء.

ان المجتمعات التي تفرق بين الاطفال وتعاقبهم على ما حدث قبل ولادتهم انما هي مجتمعات بلغت اشد انواع الظلم والاستغلال لانها تصدر حكماً على ابرياء صغار لم يشتركوا في الفعل الذي جاء بهم إلى الحياة.

وهذا اكبر دليل على أن مجتمعنا الذي نعيش فيه لا يمارس شيئاً من العدالة التي يتشدق بها، وانما هي كلها كلمات جوفاء لا يراد بها الا التغطية على الظلم والاستغلال الواقع في الحقيقة. ان مؤسسة الاطفال غير الشرعيين ليست الا مظهراً من مظاهر التناقض الاخلاقي والانساني للمجتمع الذكوري الطبقي. لكن شهوة السلطة والمال تفقد الملاك والحكام المنطق وتصبح قوانينهم متناقضة وتنتج عنها ظواهر غير انسانية وقيم عكسية. ففي الوقت الذي يدعي فيه الاب الانسانية والابوة والحب في علاقتة بأطفاله تجد هذا الاب نفسه يقسو ويتنكر لاطفاله. لماذا؟ لان اطفاله من النوع الاول ولدوا من المرأة التي اختارها الرجل للزواج أما أطفاله من

النوع الثاني فقد ولدوا من المرأة التي اختارها للعشق فقط. وان الرجل في كلا الحالتين (الزواج أو العشق فقط) هو الذي يختار وهو الذي يحدد العلاقة زواجاً أم عشقاً فقط.

وتبـرز في التـاريخ ظاهرة الاطفال غير الشرعيين كوصمة عار في جبين هذه الحضارة الذكورية الطبقية. وقد اضطرت بعض المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، ان تعالج هذه الظاهرة بفكرة «التبني» التي شاعت في بعض البلاد الغربية، كما أن استغـلال النسـاء العاملات بأجر قد فرض على بعض المجتمعات الصناعية المتقدمة أن تعطي للام الحق في منح اسمها لطفلها وأصبح اسم الام يتمتع بالشرف والشرعية التي يتمتع بها اسم الاب.

لكن المجتمع الاسلامي يحرم التبني، وفي الاسلام لا تثبت البنوة ولا أية علاقة نسبية اخرى عن طريق التبني. واوجب الاسلام أن يدعى كل انسان إلى أبيه تفسيراً لهذه الآية:

﴿وما جعل ادعياءكم أبناءكم، ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين﴾[1].

الا ان تونس سبقت البلاد الاسلامية في وضع نظام للتبني. ولا تزال قوانين الاسرة في البلاد العربية الاخرى تحرم التبني.

ومن كثرة الاطفال غير الشرعيين بسبب حرية الرجال الجنسية فقد شملت قوانين النسبة والبنوة عدداً كبيراً من هؤلاء الاطفال غير الشرعيين ضاربة قوانين الزواج بعرض الحائط بل المنطق والعدل نفسه. ان بنوة الطفل تثبت لابيه: اما ١ ـ نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة بعقد شرعي صحيح. أو ٢ ـ «بوطء» شبهة أو ٣ ـ نتيجة للاقرار، أو ٤ ـ نتيجة لشهادة العدلين.

١ ـ **العقد الشرعي الصحيح** :ـ إذا وطيء الرجل زوجته (اي اتصل بها جنسياً) وانزل المني[2] (السائل المنوي) بحيث يمكن أن يكون قد دخل في الرحم منه شيء

---

(١) القرآن، سورة الاحزاب، الآية ٤، ٥.

(٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الاسلام وتنظيم الاسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، المكتب الاقليمي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا، ١٩٧٤، الجزء الثاني. ص ٧٧.

(أو خلا بها خلوة صحيحة عند أهل السنة) ومضت اقل مدة الحمل وهي ستة أشهر من حين الوطء، ولم تتجاوز المرأة أقصى مدة الحمل وهي سنة من حين الوطء (ستتان عند الاحناف، وأربع سنوات عند الشافعية والمالكية).

وقد حاول المجتمع الاسلامي الاقلال بقدر الامكان من عدد الاطفال غير الشرعيين وذلك عن طريق تلك الفكرة التي عرفت باسم الطفل النائم Sleeping child أو الشعار الذي اطلقه الاسلام على أن الطفل ابن الفراش اتباعا للحديث النبوي «الولد للفراش»، وفسر البعض هذا الحديث على أنه رجوع بنسب الولد إلى الاب بعد ان كان ينسب الى الام وفسره البعض الاخر على أن أي طفل تلده الزوجة هو ابن زوجها. وقال الامام أبو حنيفة ان عقد الزواج وحده بصرف النظر عن مدته سبب في ثبوت نسب الطفل للزوج. وعلى هذا فقد كان الطفل الذي تلده الزوجة رغم غياب زوجها عنها أربع سنوات يعتبر ابناً شرعياً لهذا الزوج.

كما أن الطفل الذي تلده الزوجة التي لم يمض على زواجها ثلاثة أو اربعة شهور يعتبر ابنا شرعياً لزوجها، وسمي ذلك الطفل «بالطفل النائم».

الا ان المعلومات الطبية الحديثة عن مدة الحمل، وعدد الشهور التي يمكن ان يحياها الجنين في رحم امه بالاضافة إلى زيادة عدد الاطفال الشرعيين وغير الشرعيين قد دعا المجتمع العربي الاسلامي إلى نقد فكرة الطفل النائم.

وكان المجتمع المصري حتى سنة ١٩٢٩، يتبع الفكرة القائمة على راي الامام ابي حنيفة من حيث ان عقد الزواج وحده يكفي لثبوت نسب الطفل للزوج. ثم احذ برأي احمد بن حنبل والشافعي ومالك الذين يقولون ان الدخلة او الدخول لا بد ان يكون ممكناً ليثبت النسب وقدقضت معظم البلاد العربية على فكرة الطفل النائم في قوانينها المتطورة الحديثة.

٢ ـ **وطء الشبهة** : إذا وطيء الرجل امرأة بدون عقد زواج صحيح أو محرمة عليه، جاهلاً ذلك، معتقداً انها زوجته[1] او عقد على امرأة لا يصح العقد عليها معتقداً صحة العقد عليها، وأحبلها، فلا يتحقق في هذه الحالات عنوان الزنا بسبب الجهل، ويلحق الولد به شرعا وتثبت ابوته للولد (مفهوم طبعاً ان الرجل هو الذي

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الاسلام وتنظيم الاسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، المكتب الاقليمي لمنطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا، ١٩٧٤، جزء ٢، ص ٧٧.

يعترف بالطفل ويعترف بصلته بأمه) ونرى هنا كيف يتساهل القانون مع الرجل بالنسبة للحرية الجنسية فهو يستطيع ان يتصل جنسياً بأية امرأة غير زوجته، ولا يعتبر ذلك زناً بل وينسب طفله اليه أيضاً، لان هذا الرجل تصور ان هذه المرأة هي زوجته. ولا أدري هل هذا ممكن، هل يمكن أن يجهل الرجل مع من يمارس؟ زوجته أم امرأة اخرى؟؟

وإذا كان الرجل قد يبلغ من الغفلة إلى حد انه لا يعرف زوجته من امرأة اخرى افلا يمكن أن تبلغ المرأة من الغفلة احياناً فلا تعرف زوجها من رجل اخر؟ فهل يباح للمرأة مثل هذه الغفلة خاصة وانها اقل من الرجل عقلاً وديناً كما أشيع، وان الرجل اكثر حكمة وبالتالي اقل غفلة؟.

وإذا اتبعنا هذا المنطق، منطق الغفلة بحيث لا يعتبر زناً كل من مارس الجنس خارج الزواج لمجرد ان الامر اختلط عليه فلم يعرف الزوجة من غير الزوجة فعلى من اذن يسري قانون الزنا؟.

ومن هنا يتضح لنا غياب المنطق والعدالة في مثل هذه القوانين التي تعالج تلك الازدواجية الاخلاقية القائمة على منح الرجل حرية جنسية خارج الزواج. وهذا القانون، قانون البنوة لوطء الشبهة ليس الا دليلا على ذلك.

ولا شك أن هذا القانون يعالج بعض الشيء مشكلة الاطفال غير الشرعيين، لكنه علاج قاصر لمشكلة كبيرة لا يمكن أن يكون لها حل أو علاج طالما ان من حق الرجل ان يمارس الجنس مع أربع زوجات بالاضافة إلى الاماء والجواري بالاضافة إلى أية امرأة اخرى يظن أنها زوجته أو يجهل انها زوجته أو يجهل أنها محرمة عليه!.

٣ ـ **الاقرار** :ـ يثبت النسب بالاقرار، فاذا اقر الرجل ببنوة طفل نفذ اقراره بشرط الا يكون هناك رجل أخر ينازعه هذه الابوة، ولا يشترط تصديق الطفل إذا كان صغيراً، أما إذا كان كبيراً فيشترط تصديقه.

وبهذا يصبح من حق الرجل غير المتزوج أن يكون له أطفال شرعيون. اما المرأة غير المتزوجة فاطفالها غير شرعيين الا اذا لاح للرجل الذي مارس معها الجنس أن يقر بأن الطفل ابنه بشرط ألا يكون هناك رجل آخر ينازعه ملكية هذا الطفل.

٤ ـ **شهادة العدلين** :ـ يثبت النسب عموماً ومنه البنوة بشهادة عدلين. فلو شهد

اخوان للميت بابن له «وكانا عدلين» ثبت بنوته، والعدلان هنا رجلان من أسرة الرجل، أما الام التي ولدت الطفل والتي هي أدرى منهما بأبي طفلها فان نسب البنوة لا يثبت بشهادتها!.

وكما يعطى للرجل حق اقرار الطفل فيصبح ابناً شرعياً كذلك يعطى له حق نفي نسب الطفل اليه إذا ساورته الشكوك بان الطفل ليس منه. وإذا علم الرجل أن الطفل ليس منه وجب عليه شرعاً ان ينفيه، ولا يجوز له شرعاً أن يقر بنوة طفل يعتقد بعدم بنوته له[1].

ويمكن للزوج أن ينفي نسب الطفل اليه في هاتين الحالتين:-

أ) ان يولد الطفل لاقل من ستة اشهر من حين الوطء، او لاكثر من اقصى مدة الحمل (اقصى مدة للحمل اعتبرت سنة واحدة).

ب) اللعان : إذا انكر الزوج الطفل المولود الذي لم ينقص حمله عن أدنى مدة الحمل، ولم يزد حمله على أقصى مدة الحمل وكان العقد دائماً ففي هذه الحالة لا ينتفي عنه الطفل الا باللعان[2]. وكيفية اللعان هي أن يرفع الزوج دعوى عند الحاكم الشرعي ينفي بها الطفل، فيأمره الحاكم الشرعي بالشهادة، فيشهد أربع مرات بقوله« اشهد بالله أني لمن الصادقين في أن الولد ليس مني» ثم يقول بعد تكرار الشهادة السابقة «لعنة الله علي إذا كنت من الكاذبين فيما رميت به زوجتى من نفي الولد»، وبعد فراغ الزوج تشهد الزوجة - بعد ان يامرها الحاكم فتقول اربع مرات:

«اشهد بالله ان زوجي من الكاذبين في ما رماني به من الزنا». ثم تقول بعد تكرار الشهادة السابقة «غضب الله علي ان كان من الصادقين». ويترتب على اللعان احكام منها نفي الولد عن الرجل. ومنها التحريم المؤبد بين الرجل والمرأة[3]

ويتضح لنا من هذا القانون ان الزوج أيضاً (وليس الرجل غير المتزوج فقط له الحق الا يعترف بشرعية طفله لمجرد استخدامه لكلمات اللعان رغم صحة عقد الزواج

(١) المصدر السابق، ص ٧٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٩.
(٣) المصدر السابق.

وصحة مدة الحمل. ورغم ان زوجته تقسم بأنه هو الاب.

لكن الحاكم الذي يحكم بينهما رجل وليس امرأة. والنظام السائد نظام رجولي ابوي، فمن ذا الذي يصدق امرأة ويكذب رجلاً؟ ان الرجل في حكم الشرع والقانون أكثر ميلاً إلى الصدق والحق والعقل. والمرأة اكثر ميلاً إلى الكذب والضلال والغفلة.

لكن الغفلة كانت من نصيب الرجل حينما كان الأمر يتعلق بحقه في الاتصال الجنسي بامرأة اخرى غير زوجته، أما الغفلة فهي الان من نصيب المرأة لان الامر الان يتعلق بحق الرجل المطلق في نسب طفله اليه أو نفي هذا النسب داخل الزواج او خارجه.

ان اللعان يعطي الزوج حق نفي نسب طفله اليه لمجرد ان الشك ساوره في اخلاص زوجته له، وان قانون النسب والابوة يعطي الرجل الحق في نكران نسب طفله اليه لمجرد انه لم يوقع عقد الزواج مع الام.

ولنا ان نتخيل (في نظام يمنح حرية جنسية غير محدودة) عدد الاطفال الذين يروحون ضحية رجال مارسوا الجنس مع نساء دون ان يوقعوا معهن عقود الزواج، ولنا ان نتخيل عدد الاطفال الذين يروحون ضحية رجال ساورهم الشك في أبوتهم.

ان الاب لا يلد اطفاله ولذلك لا يمكن لأي اب (مهما وثق) أن يقسم ان طفله منه وهو ليس من رجل آخر. اما الامومة فهي الشيء الوحيد المؤكد لان الام هي التي تلد الطفل من رحمها هي وليس من رحم امرأة اخرى.

ومنذ التاريخ القديم، منذ حل النظام الابوي محل النظام الامومي لم تكن هناك مشكلة اكثر من مشكلة النسب والابوة لارتباطها بالميراث والنفقة، وكلها اسباب اقتصادية لا علاقة لها بالعدالة أو الحق أو الاخلاق. فالعدالة والحق والاخلاق تقضي اول ما تقضي بألا يعاقب الطفل لان اباه رجل مستهتر والعدالة والحق والاخلاق تقضي اول ما تقضي بأن يطالب الرجل بالاخلاص لزوجته بمثل ما تطالب المرأة بالاخلاص لزوجها.

ولا تدل قوانين ثبوت او عدم ثبوت الطفل لابيه في الماضي او الحاضر الا على المحاولات اليائسة التي يحاول بها الرجل اثبات أبوته البيولوجية، هذه الابوة التي لا يمكن اثباتها بحال من الاحوال إلا إذا ضمن الرجل اخلاص زوجته له مائة في المائة، وهو امر يكاد يكون مستحيلاً في احيان غير قليلة ولا يقاربه في الاستحالة الا ان تضمن

الزوجة اخلاص زوجا لها مائة في المائة.

ان فقدان الثقة امر شائع بين الزوجين لان الزواج في معظم الحالات لم يقم على اساس انساني ومشاعر حرة حقيقية متبادلة بين شخصين ناضجين مستقلين، وانما يحدث لاسباب اقتصادية نفعية، وتدفع البنات بالاكراه للزواج من رجال اكبر سناً لمجرد المال، وتتحول المرأة إلى سلعة أو ضاعة تشترى بالمهر وتباع بأبخس ثمن أو بلا ثمن. وعلاقة الزوجة بزوجها في ظل القوانين الابوية هي علاقة العبد بسيده، وهي علاقة نفعية استغلالية لم تقم على اساس من الاختيار او الحرية او المساواة.

وقد وجدت في البحث الذي اجريته على ١٦٠ امرأة مصرية عام ٧٣، ١٩٧٤م. ان ٧٥,٦٪ من الزوجات تزوجن بغير حب. وهذا الرقم في رأيي أقل من الحقيقة لان الزوجة المصرية أو العربية بصفة عامة تخاف من التقاليد التي تفرض عليها الطاعة وعدم التذمر او الشكوى. وكم من زوجة تكره زوجها وتتمنى له الموت في اعماقها لكنها تظهر أمام الناس خلاف ذلك، بل ان الزوجة نفسها قد لا تعترف في أعماقها بكراهيتها لزوجها لانها تخاف منه وتخاف من الطلاق لو أنها اعترفت بما تطويه في صدرها. وهذا هو السبب الذي جعلني اضع في بحثي سؤالاً أخر غير مباشر ليدلني على مدى الحب أو على الاقل الراحة التي تشعر بها الزوجة تجاه زوجها. وكان هذا السؤال هو : هل تتزوجين زوجك هذا نفسه لو أن السنين عادت إلى الوراء وأصبحت بنتاً ولك حرية اختيار زوجك؟ وقد أجابت ٨٤,١٪ من الزوجات بأنهن لا يخترن ازواجهن لو أن الماضي عاد وأصبحت الواحدة منهن لها الحرية أو الفرصة لاختيار زوج آخر.

أما العلاقات الجنسية خارج الزواج فقد اعترفت لي ١٦,٧٪ في المتوسط من الزوجات بأن لهن علاقات مع رجال غير أزواجهن.

وقد ارتفعت هذه النسبة إلى ٢٢,٤٪ في حالة الزوجات المتعلمات العصابيات والطبيعيات، وانخفضت إلى ١١,٤٪ في حالة الزوجات غير المتعلمات عصابيات وطبيعيات. وفي كل هذه الحالات لا تدل هذه النسب على الحقيقة كلها لان الزوجة العربية بصفة عامة مهما تعلمت واستقلت فانها تجد صعوبة في الاعتراف باية علاقة بينها وبين رجل آخر غير زوجها، فما بال العلاقة الجنسية. ان مثل هذه العلاقة تسمى خيانة زوجية، والقانون يعاقب الزوجة على الخيانة الزوجية أشد مما يعاقب الزوج فالزوجة التي تخون زوجها في القانون المصري تعاقب بالحبس سنتين. اما الزوج فهو

لا يعاقب إذا خان زوجته في بيت آخر غير بيت الزوجة أما إذا مارس الخيانة في بيت زوجته فانه يعاقب بالحبس ستة شهور فقط[1].

هذا بالاضافة إلى أن العرف يعاقب المرأة وحدها، فخيانة المرأة لزوجها محرمة شرعاً وقانوناً وعرفاً. أما خيانة الرجل لزوجته فهي مباحة بالمسويات نفسها، ذلك أن خيانة الزوجة لزوجها معناه اختلاط النسب او الميراث الذي هو الدعامة الاساسية لنشوء واستمرار الاسرة الابوية!

وفي رأيي أن اكبر خيانة هي ان يخون الاب ابنته ويكرهها على الزواج برجل لا تريده من اجل المهر، وان اكبر خيانة هي أن يقطع المجتمع أعضاء البنات الجنسية ليفرض عليهن العذرية والعفة (عملية ختان البنات). وان اكبر خيانة هي ان يربى الاطفال على الخوف والكبت والطاعة العمياء. وان اكبر خيانة هي أن يعاقب الطفل ويوصم بالعار والتشرد لان أباه هرب بعد انقضاء لذته الجنسية ورفض الزواج من امه. وان اكبر خيانة هي ان يملك الرجل المرأة بعقد الزواج كما يملك قطعة من الماشية. وان اكبر خيانة هي أن تحرم المرأة من العلم والمعرفة لتتفرغ لغسل الصحون والملابس. لكن المجتمع يتغاضى عن كل هذه الخيانات الكبرى ولا يفتح عينه الا على تحركات الزوجة. ان أي حركة من الزوجة أو أي ابتسامة في وجه رجل غير زوجها تملأ المجتمع بالشك والريبة وتدفع الزوج إلى جنون الشك والغضب. والزوج الذي يقتل زوجته دفاعاً عن شرفه (وان كان الامر مجرد شك) لا ينال عقاباً أوينال عقاباً مخففاً لان الدفاع عن الشرف واجب الرجل الشريف.

وكم من رجل شريف يتسلل ليلاً أو نهاراً من بيت الزوجية ليذهب إلى عشيقته أو مومس، ومن كثرة الخيانات الزوجية فقد نص قانون نابليون (عنه أخذ القانون المصري) على حق الرجل في خيانة زوجته ما دام لا يحضر عشيقته إلى منزل الزوجية.

وفي رأيي أن نظام تعدد الزوجات وحق الرجل في ممارسة الجنس مع السراري والجواري او حقه في أن يخلط بين زوجته وامرأة اخرى جهلاً أو تجاهلاً ليس الا أنواعاً مختلفة من الخيانات الزوجية التي يمارسها الرجل في ظل حماية الاخلاق والشرع والقانون وكلها مظاهر الازدواجية الاخلاقية التي يتسم بها النظام الابوي ويبيح للرجال ما لا يبيحه للنساء.

---

(١) المجلة الجنائية القومية، مارس ١٩٦٥، ص ١١٩، ضمن مقال سمير الجنزوري عن الجرائم ضد العائلة وضد الاخلاق الجنسية.

رغم كل هذه الخيانات، ورغم أن النظام الابوي هو الذي خلق فئة المومسات ورغم ان الرجل هو الذي يذهب إلى المومس وهو الذي يستمتع بها، وهو الذي يدفع لها، الا أن المجتمع لم يطلق كلمة مومس الا على المرأة فقط، ولم يفرض العقاب الا على المرأة وحدها.

ان الرجل في القانون المصري إذا ضبط يمارس الجنس مع مومس فهو لا يحبس وانما يكون شاهداً عليها، اما المرأة فهي تحبس وحدها.

وقد كان البغاء في مصر قانونياً وتحت اشراف الدولة حتى سنة ١٩٥١ ثم ظهر قانون يمنعه ويعتبر البغاء في معظم البلاد العربية اليوم غير قانوني، الا أنه يمارس سراً او علناً في بعض الاحيان.

وكم من بغايا يتسترن تحت أنواع مختلفة من الفنون الرخيصة وغير الرخيصة وكم سمعنا عن هذه الراقصة التي تتجول في البلاد العربية فترقص في الملاهي وترضي الرغبات الجنسية في اوكار الغرام المملوكة للرجال الاثرياء واصحاب السلطة. وكم عرفنا عن صلة أجهزة المخابرات في بعض الدول بمثل هؤلاء البغايا لاستخدامهن عند اللزوم لاغراء شخص هام أو ارهابه عن طريق تصويره في أوضاع جنسية مع امرأة[1].

وفي سجن القناطر قسم النساء التقيت ببعض هؤلاء، وقالت لي واحدة منهن أثناء بحث حالتها النفسية: اكاد اجن يا دكتورة فانا أمارس هذا العمل منذ سنوات، ، والكل يعرف ذلك، فلماذا قبضوا علي الان وادخلوني السجن؟ وقد أصيبت هذه المرأة بحالة من العصاب Nearosis لانها لم تفهم سر حبسها المفاجىء.

وكم من قصص اليمة لهؤلاء النساء المسميات بالمومسات واللائي لسن الا ضحايا مجتمع مزدوج الاخلاق. وكم من قصص اليمة عن حياة الاطفال الذين عرفوا باسم الاطفال غير الشرعيين.

وقد اصبح التناقض واضحاً بين القيم الدينية المنتشرة في كل مكان وبين الاعلانات التجارية القائمة على الجسد العاري للمرأة وزجاجات الويسكي. ان من يسير في أي شارع من شوارع معظم العواصم العربية يرى أن جدران بعض المباني مغطاة باعلانات عن خمور معتقة واليد التي تمسك بالكأس يد امرأة نصف عارية... او اعلانات افلام

---

(١) انظر: قصة احسان عبدالقدوس في جريدة «الاهرام» تحت عنوان «الصيد في بحر الاسرار» القاهرة، ٩ ديسمبر ١٩٧٦، ص ٣.

تصور اجساد النساء وتعرض القصص لمجرد الاثارة الجنسية. وعرض رقصات البطن البعيدة عن الفن والتي تهدف إلى اثارة جماهير الناس المكبوتين جنسياً. وتزيد هذه الاعلانات التجارية الجنسية بازدياد ارتباط البلد العربي بالقوى الرأسمالية العالمية والمحلية وتقل بانتقاله من النظام الاقطاعي او الرأسمالي الى السير في طريق الاشتراكية ومحاولة تحقيق العدالة الاجتماعية.

لقد اختفى كثير من هذه الاعلانات الجنسية التجارية من شوارع القاهرة ودمشق وبغداد والخرطوم حين حاولت هذه البلاد مقاومة الاستغلال الاقطاعي والرأسمالي وسارت بشعوبها نحو تحقيق بعض المبادىء الاشتراكية.

لكن القوى الرأسمالية العالمية لا تغفل ابداً عن المنطقة العربية لما تحتويه من بترول والمواد الخام وموقع جغرافي وميزات اخرى متعددة، والصراع الرهيب الدائر بغير توقف او هدنة، فاذا ما حاولت احدى البلاد العربية التحرر من قبضة الاستعمار الاقتصادي الرأسمالي العالمي حاصرتها هذه القوى العالمية من جميع الجهات ووجهت اليها الضربات الواضحة والخفية حتى تعيدها إلى حظيرة النظام الرأسمالي العالمي.

وبازدياد الاعلانات الجنسية التجارية لتصريف الانتاج الرأسمالي تزيد المواعظ والاحكام الدينية لكبت الشعوب جنسياً واخضاعها للسلطة.

وقد لوحظ انه بازدياد الاعلانات التجارية في العواصم العربية عن الخمور وزجاجات الويسكي لتصريف انتاج مصانع الخمور في لندن ونيويورك تزداد الصفحات الدينية في الصحف العربية واجهزة الاعلام، والمطالبة باصدار قوانين لتحريم شرب الخمور لان شرب الخمور في الاسلام مكروه او حرام وقد يصل الامر الا اصدار قوانين مضحكة لشدة تناقضها أو لانها تعاقب الذي يشرب الخمر ولا تعاقب الذي يبيعه او لانها تعاقب الفندق الصغير في الحي الفقير ولا تعاقب الفندق الكبير في الحي الراقي.

احد امثلة ذلك هو قانون تحريم الخمور الذي صدر في مصر ١٩٧٦[1]، والذي اباح الخمور للفنادق الكبيرة والشقق المفروشة باعتبار انها اماكن سياحية مع ان معظم هذه الشقق المفروشة ليست اماكن سياحية ولكنها اوكار للبغاء والدعارة الخفية. . وسواء كانت سياحية أو أوكاراً للبغاء فهي فوق ارض مصر، او فوق أرض اسلامية والمفروض

---

(١) جريدة الاهرام، القاهرة ١٧ ـ ١٨ مايو ١٩٧٦.

ان تحكمها المبادىء الاسلامية مثلها مثل شقق الطبقات الكادحة الفقيرة.

ولا اظن ان الاسلام يمكن ان يستثنيها لمجرد الحصول على عدد من الدولارات او العملة الصعبة او تنشيط السياحة.

وإذا كان تنشيط السياحة يتعارض مع مبادىء الاسلام فالمفروض (بمنطق الدين الصحيح) هو تنشيط الاسلام على حساب السياحة وليس تنشيط السياحة على حساب الدين. . .

الا أن التناقض هو سمة أي منطق استغلالي. وفي الوقت الذي تتعرى فيه اجساد النساء على الشاشة الصغيرة والكبيرة وصفحات المجلات تنتشر ظاهرة الطرح وفرض ما سمي بالزي الاسلامي على البنات والنساء تحت اسم الاحتشام، واخفاء جسم المرأة لانه «عورة وفتنة» ما عدا وجهها وكفيها. ولا أدري كيف تخفي الفتاة العربية شعرها وجسمها وفتنتها على حين تحاصرها في كل لحظة اعلانات الراديو والتلفزيون التي تدعوها إلى الفتنة والسحر والاغراء بالكريمات والدهانات والروج. . الذي يجعل شفتيها مثيرتين والجورب الشفاف الذي يجعل ساقيها جذابتين «واللوسيون» الذي يجعل شعرها متموجاً ساحراً. . الخ.

وكم من فتيات ونساء عربيات يصبن بالامراض النفسية المتعددة بسبب هذا التناقض الشديد. ان الاغاني العربية لا تكف ليل نهار عن التغني بالحب. والادب العربي لا يكف عن النداء للحب، ولكن إذا ما استجابت فتاة لهذا النداء وأحبت فالويل لها. ان أقل ما يمكن ان توصف به هو انها فتاة بغير شرف وبغير اخلاق ويرفض الزواج منها أي رجل حتى الرجل الذي أحبته. . انه يقول لها انه لا يثق في الفتاة التي تحب رجلا قبل الزواج وان كان هو هذا الرجل! . .

وبازدياد الاستغلال واستنزاف قوت الشعب وبترول العرب إلى جيوب الحكام المحليين والرأسماليين العالميين يزداد الفقر بين الاغلبية الساحقة من الشعوب العربية، وتزداد حدة المشكلة الاقتصادية، وبانتشار السلع الاوروبية الاميركية الباهظة الاثمان في الاسواق العربية تزداد صفوف الشعب الكادح امام الجمعيات التعاونية والمخابز الشعبية. . . يقفون بالساعات الطويلة من اجل التنافس على رغيف خبز أو قطعة صابون أو باكو شاي.

ان من يسير في الشوارع يرى السلع الاجنبية المستوردة تغمر الاسواق باثمان

باهظة ويرى في الوقت نفسه طوابير الرجال والنساء الواقفين امام الجمعيات والمخابز ومحلات البقالة الشعبية.

وبتأزم الحالة الاقتصادية للاغلبية من الناس تنتشر ظاهرة الاختلاس والسرقة والقتل... وقد ازدادت هذه الحوادث في المجتمع إلى حد مطالبة بعض الصحف باقامة نظام القاضي الليلي[1] لحماية رجال الامن والناس من اعتداءات حاملي الخناجر واللصوص والخاطفين.

وانتشار ظواهر العنف والسرقة والخطف والادمان[2] والاتجار بالجنس والمخدرات علناً وسراً، وانحراف الآباء الذين يبيعون بناتهم باسم الزواج وانجذاب الشغالات والخادمات إلى مهنة الدعارة أو الرقص الرخيص امام السياح والاثرياء، وانتشار الممارسات الجنسية الخالية من العواطف والانسانية لمجرد الحصول على الزرق أو لقمة العيش.

بانتشار هذه الظواهر تنتشر ظواهر مناقضة لها هي تلك الموجات الدينية العامة التي تطالب بتنفيذ احكام الشريعة الاسلامية وعقوباتها الرادعة مثل عقوبة قطع يد السارق وعقوبة الزنا (الرجم بالحجارة) وبتر مناظر الجنس من الافلام واصدار قرارات بمنع القبل من الأفلام العربية وتنفيذ قانون «ممنوع» لاقل من ١٦ سنة على مثل هذه العروض السامة التي تفسد الاجيال الشابة، وعقاب المنحرفات من النساء والمناداة بعودة المرأة إلى البيت حفاظاً على اخلاقها وتشديد الرقابة على البنات واسقاط الجنسية المصرية عن أي أمرأة من هؤلاء الفنانات العاريات في الصور والرقصات[3].

وقد طالب بعض الكتاب العرب باقتلاع الفقر من المجتمع العربي قبل اقتلاع يد السارق وحل مشكلة الشباب والكبت الجنسي قبل توقيع عقوبة الزنا الا أن مثل هذا التفكير «المنطقي» ليس الا قطرة في بحر من التفكير «غير المنطقي».

ان المنطق اشد اعداء الاستغلال والاستعمار ونهب الشعوب ولهذا تعمد الثقافة بفنونها وادابها وصحفها وأجهزتها الاعلامية إلى اخفاء المنطق، وإلى تجهيل الناس

(١) انظر: جريدة الاخبار، القاهرة ٢٥ اغسطس ١٩٧٥.

(٢) انظر: جريدة الاهرام والجمهورية، القاهرة ١٩٧٥/٨/٢١، ١٨/٨/١٩٧٥.

(٣) انظر: جريدة الاهرام، القاهرة ١٤ مايو سنة ١٩٧٦، ١٧ مايو سنة ١٩٧٦ تحت عنوان (من مفكرة يوسف ادريس ومن مفكرة نجيب محفوظ).

بالحقائق وإلى تجاهل الاسباب الحقيقية التي تدفع كثيراً من الناس إلى الانتحار النفسي البطيء عن طريق الادمان أو الجنس أو الجريمة. . . وأيهما أقل شرفاً: المرأة التي تبيع جسدها لتأكل رغيفاً أم الدولة التي تبيع عقلها ومنطقها من أجل ان تربح وتثري قلة من الاشخاص بيدهم السلطة ورأس المال؟ وأيهما يستحق العقاب الشاب الذي هرب من فقره عن طريق حبوب مخدرة أم الدولة التي فرضت عليه الفقر؟

إن أي مجتمع قائم على الاستغلال لا بد وأن تتناقض فيه القيم التجارية والاقتصادية مع القيم الاخلاقية والدينية. ولهذا تتفشى التناقضات في النظم الابوية الأقطاعية والرأسمالية، وتنتشر الازدواجية في كل شيء. ويدفع ثمن هذا التناقض المحكومون لا الحكام، والنساء لا الرجال، والطبقات الكادحة وليست الطبقات العالية.

وتزيد هذه التناقضات حدة في المجتمعات الفقيرة المتخلفة. وبالرغم من ان المنطقة العربية تعتبر (بسبب البترول ومنتجاتها الزراعية) منطقة ثرية اقتصادياً الا أن ثراءها لا يعود إلى ابنائها وانما ألى أبناء الدول الاستعمارية الكبرى وإلى القلة القليلة الحاكمة داخل البلد العربي. ولهذا السبب تعيش الاغلبية الساحقة من الشعوب العربية في فقر وتخلف اقتصادي واجتماعي، ويؤدي هذا التخلف بالضرورة إلى تخلف فكري واخلاقي. . . وفي ظل التخلف يزيد اضطهاد المرأة الاقتصادي والجنسي والاخلاقي. . . فالمرأة الفقيرة تعاقب على تصرفاتها اكثر مما تعاقب المرأة الثرية، وقد يغفر الثراء فسادها الاخلاقي بل ان الثراء قد يحول الرذائل إلى فضائل في أحوال كثيرة. ويحمي المال أيضاً المرأة المطلقة من التشرد او التسول او بيع الجسد في سوق البغاء الرسمي او غير الرسمي. . . ويساعدالمال المرأة على التخلص من الجنين غير المرغوب فيه عند بعض الاطباء رغم تحريم الاجهاض إلى غير ذلك من الامور. . .

وتعاني المرأة العربية من الاضطهاد بسبب الازدواجية الاخلاقية، فالاستعمار الرأسمالي والاقتصادي إلى جانب امتصاصه لخيرات المنطقة العربية فانه ينقل إلى المجتمع العربي ازدواجيته الاخلاقية الناتجة عن التناقض بين قيمه التجارية وقيمه الدينية. وتعاني المرأة اكثر من غيرها الاضطهاد بسبب هذه الازدواجية، فجسدها يجب أن يعرى لشد انتباه الناس واثارتهم من اجل ترويج السلع عن طريق الاعلانات واجهزة الاعلام والافلام والاغاني والفنون والصحف والمجلات. . . وجسدها عورة ويجب ان يحجب بمنطق القيم الدينية والاخلاقية. . . وتصبح المرأة اداة للعملين التجاري. . .

وأداة للعمل بغير أجر في البيت أو الحقل، أو أداة للعملين معاً داخل البيت وخارجه . . . أو أداة للولادة من اجل انتاج البشر للدولة أو أداة جنسية من أجل اشباع رغبات الرجل او ترويج السلع.

ان ازالة الاضطهاد الواقع على المرأة العربية لا يمكن ان يتم الا بازالة الاسباب الحقيقية والاصلية لهذا الاضطهاد. كما أنه لا يمكن تحرير المرأة حقيقة الا بازالة جميع انواع الاضطهاد سواء كانت اقتصادية أم جنسية أم اخلاقية أم نفسية. ان تحرير المرأة اقتصادياً فقط لا يكفي. . . وخروج المرأة إلى العمل وحصولها على أجر مساو لاجر الرجل لا يقود إلى تحريرها الحقيقي إذا ظل النظام أبوياً تخضع فيه المرأة للرجل في ظل قوانين الزواج والطلاق. .

وتحرير العمال والفلاحين من استغلال الرأسماليين والاقطاعيين لا يقود إلى تحرير المرأة لان المرأة تظل عبداً لزوجها. ان تحرير الرجال المقهورين لا يقود تلقائياً إلى تحرير النساء المقهورات.

ان القهر الواقع على الرجل من جانب واحد هو الدولة أو النظام الاجتماعي والاقتصادي الحاكم. أما المرأة فان القهر الواقع عليها من جانبين جانب الدولة وجانب الزوج والاسرة الابوية. . .

ان تحرير المرأة العربية لن يكون حقيقة فعلية إلا إذا زال القهران الواقعان عليها من الدولة ومن الاسرة معاً.

ان المرأة العربية لم تكن سلبية ولم تكن ضعيفة كما هي اليوم. . . ونحن في حاجة إلى علم نفس جديد يدرس شخصية المرأة العربية القديمة والجديدة، ويقدم لنا حقائق جديدة عن نفس المرأة. ونحن في حاجة إلى علم بيولوجي جديد يدرس جسد المرأة غير المكبوتة جنسياً وغير المبتورة الاعضاء الجنسية ويقدم لنا حقائق جديدة عن جسد المرأة وطاقتها.

ونحن في حاجة إلى علم تاريخ جديد يدرس تاريخ المرأة في الحياة البشرية القديمة والحديثة يدرس التاريخ الحقيقي وليس التاريخ المزيف بمصالح النظام الابوي الطبقي.

ولعل مشكلة علم التاريخ انه كتب من وجهة نظر الحكام لا المحكومين فجاء معبراً عن مصالح الطبقات الحاكمة ضد مصالح الاغلبية من الكادحين، وجاء معبراً

عن وجهة نظر الرجال ضد مصلحة النساء. . .

وقد زيف التاريخ كثيراً من الحقائق عن المرأة العربية. ان النساء العربيات لسن ناقصات عقل كما يدعي الرجال والتاريخ ولسن ضعيفات او سلبيات بل العكس هو الصحيح.

ان الجمال هو ان تكون المرأة على حقيقتها فلا تزيف نفسها لترضي زوجها خوفاً من أن يطلقها، ولا تزيف شكلها لترضي الرجل حتى يتزوجها، ولا تزيف اخلاقها ورغباتها وسعادتها لترضي المجتمع حتى لا يحاربها او يتهمها بالخروج عليه او الشذوذ. والجمال هو جمال العقل وذكاؤه وصحة الجسم والنفس وليس الجمال تراكم الشحم وتراكم الوهم وادعاء الضعف والسلبية.

ومن هي هذه المرأة الحقيقية او كم هو عدد هؤلاء النساء الحقيقيات في مجتمعنا العربي؟ كم عدد النساء العربيات الشجاعات اللائي يواجهن الناس بوجه نظيف مغسول بغير مساحيق. . . وكم عدد النساء العربيات الشجاعات اللائي يواجهن ازواجهن أو آباءهن بحقيقة ما في صدورهن؟ كم عدد النساء الشجاعات اللائي يواجهن المجتمع العربي بحقيقة افكارهن؟؟ ومن هي المرأة العربية التي تدلك عقلها قبل أن تدلك بشرتها؟؟

من هي المرأة العربية التي تهتم بتنمية عقلها وذكائها اكثر من اهتمامها بتنمية شعرها ورموشها وأظافرها؟؟.

ان قلة عدد النساء والفتيات المهتمات بعقلهن اكثر من رموشهن وأظافرهن ظاهرة موجودة في المجتمع العربي. وهي ظاهرة لا تدل على أن المرأة ناقصة عقل. . ولكنها تدل على أن التربية التي تتلقاها البنت منذ طفولتها تخلق منها امرأة تافهة التفكير. فالبنت العربية تتدرب من الصغر على أن تشغل بجسمها وملابسها وشكلها اكثر من اهتمامها بعقلها وذكائها.

وكم يتلف الذكاء انوثة المرأة وكم يتلف جمال المرأة ان تكون رياضية قوية العضلات او طويلة القامة شامخة مفتوحة العينين. ان الانثى المثالية هي المنكسرة المطرقة الناعسة العينين القصيرة القامة.

ان طول القامة يعتبر عيباً في البنت المصرية حسب بعض الكتب التي تدرس في المدارس الثانوية. احد هذه الكتب المقررة لتلاميذ وتلميذات السنة الثالثة

الثانوية في المدارس المصرية تقول في الفصل الخاص بالنمو في فترة المراهقة ان الشكل المقبول للمراهق الذكر هو ان يكون طويل القامة قوي الجسم اما البنت فيجب ألا تكونْ طويلة القامة[1].

ويمثل المجتمع المصري أحد المجتمعات العربية الذي أخذ من المدنية الغربية بعض مظاهرها الخارجية وابقى على كثير من التقاليد القديمة. وفي بعض الاحيان تكون هذه المظاهر المدنية أشد تخلفاً من التقاليد القديمة مثل هؤلاء الزوجات المصريات اللائي يقلدن الزوجات الغربيات في حمل أسماء ازواجهن.

ولعل من نواحي التقدم النسبي في المجتمع العربي أن المرأة لا تفقد اسمها بعد الزواج ولا تحمل اسم زوجها ولعل ذلك احد بقايا قوة المرأة في المجتمع الأمومي القديم.

وينتشر في العواصم العربية هؤلاء النساء المتفرنجات اللائي تتصور الواحدة منهن أن المدنية هي أن تعري فخذها في الميني جيب أو تدخن السيجارة او البايب أو تشرب الويسكي وترقص الرقصات الحديثة...

الا انه تحت هذا المظهر ترقد الانثى المكبوتة جنسياً ونفسياً وفكرياً. الانثى التي تضع الحجاب على عقلها وان تعري جسدها. الانثى التي تظن ان الغرض الاساسي من حياتها هو ان تتزوج وتطيع زوجها وتخدمه وتنجب له اطفالاً تريدهم ذكوراً لو استطاعت..

---

(١) انظر: كتاب علم النفس المقرر للصف الثالث الثانوي القسم الأدبي، تأليف عبد العزيز القوصي وسيد غنيم، وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٧٦ - ١٩٧٧ - فصل ٢، ص ١٣٢.

الاجهاض ومشكلة النسل

ان النظر إلى مشكلة السكان (وبالذات في مجتمعاتنا العربية) على انها مجرد زيادة أو خفض المواليد انما هي نظرة محدودة قاصرة، عاجزة عن حل مشكلة السكان وبالذات مشكلة الزيادة السكانية التي تعاني منها بعض البلاد العربية وفي مقدمتها مصر.

ان أول خطورة لعلاج مشكلة الزيادة السكانية في مجتمعاتنا الفقيرة هي القضاء على الفقر. والفقر في مجتمعاتنا العربية ناتج عن التخلف. والتخلف والفقر يرجعان إلى ان مواردنا وثرواتنا الطبيعية تسلب بواسطة الاستعمار الاقتصادي الذي لا يزال جاثماً على صدر المنطقة العربية بأسرها!

ولهذا فان المشكلة السكانية لن تعالج الا بتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية السليمة، هذه التنمية التي لا يمكن ان تتحقق ما دام البلد غير مستقل اقتصادياً.

ولا شك في أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية السليمة سوف تحرر النساء أيضاً. وتسترد المرأة حقوقها الانسانية الاساسية ومنها استردادها لحقها في امتلاك جسدها، هذا الحق الذي سلب منها، لانها هي التي تحمل الطفل وتلده.

ان المشكلة الاساسية في حياة المرأة أن جسدها هو الوسيلة الوحيدة لانتاج البشر. ومن اجل ان تسيطر الدولة على وسائل انتاج البشر وتخضعها لمصلحة النظام الاقتصادي السائد فقد سيطرت على أجساد النساء وأصبحت المرأة لا تملك جسدها وانما الذي يملكه هو الدولة التي ورثت في العصر الحديث كثيراً من سلطات الرجل في الاسرة الابوية البدائية...

وحيث ان الدول في العالم لم تكن في معظمها الا دولا طبقية اقطاعية أو رأسمالية فقد أصبح جسد المرأة مملوكاً بقوانين صارمة لصالح الاقطاع أو الرأسمالية. وكم تتغير

هذه القوانين تبعاً لحاجة الدولة لمزيد من الايدي العاملة او خوفها من الكثرة البشرية.

أن الحرية الجنسية وانجاب الاطفال بكثرة خارج الزواج أو داخله عمل صالح تكافأ عليه الام المتزوجة وغير المتزوجة بالتساوي في المجتمع السويدي اليوم. فالمجتمع السويدي يعاني من قلة الايدي العاملة.

أما في البلاد التي تعاني من مشكلة زيادة السكان مثل الهند ومصر فان الام المتزوجة (دع غير المتزوجة جانباً) قد تعاقب إذا ما ولدت طفلا غير طفلها الثاني أو الثالث. وقد ارتفعت بعض الاصوات في مصر في السنوات الاخيرة تطالب بحرمان المرأة العاملة من بعض الحقوق والعلاوات الدورية إذا ما انجبت أكثر من طفلين.. وفي الهند وبلاد اخرى نماذج مختلفة من العقوبات التي قد تصيب الام ذات الخصوبة العالية.

وفي تونس والصومال.. رغم انهما بلدان اسلاميان فقد ابيح الاجهاض كأحد وسائل مكافحة الكثرة السكانية رغم أن معظم البلاد العربية تحرم الاجهاض بدعوى انه محرم في الاسلام...

إن الذي يدرس علاقة الدين بالسلطة في مختلف الانظمة والعصور يرى كيف يمكن للدين الواحد أن يجمع بين قيم ومبادىء متناقضة تختلف باختلاف نظام الحكم. وكم تغيرت مبادىء الكنيسة في أوروبا لتساير التغيير الذي حدث بالانتقال من الاقطاع إلى الرأسمالية. وكم تغيرت اجتهادات رجال الدين الاسلامي لتساير أنظمة الحكومات العربية المختلفة ما بين عبودية أو اقطاعية أو رأسمالية أواشتراكية.

ويقف رجال الدين الاسلامي بالنسبة لموضوع تحديد النسل موقفاً متناقضاً، بعضهم يرى أن الاسلام يبيح تحديد النسل والاجهاض أيضاً. وبعضهم يرى أن الاسلام يحرم الاجهاض، بل يحرم أيضاً استخدام وسائل تحديد النسل.

وقد أعلن رئيس الدولة المصرية (جمال عبدالناصر) في الميثاق الوطني سنة ١٩٦٢ ضرورة تنظيم الاسرة «لان مشكلة تزايد السكان المطرد أهم عقبة تواجه الشعب المصري في كفاحه لرفع مستويات الانتاج».

وفي سنة ١٩٦٥ تأسس الجهاز الرسمي لتنظيم الاسرة تحت سمع وبصر رجال الدين ولم يعترض احد منهم على قرار رئيس الدولة بل ان بعض المشايخ تسابقوا إلى اثبات أن الاسلام يبيح تحديد النسل. وتردد على سمعنا في الصحف واجهزة الاعلام

الاحاديث والأيات التي تدعو إلى تحديد النسل. وعمل جهاز تنظيم الاسرة عشر سنوات كاملة حتى سنة ١٩٧٥، وكان جمال عبدالناصر قد مات قبل ذلك بأربع سنوات، فاذا بقرار يذاع على الناس من المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلام يقول ان تحديد النسل حرام في الاسلام، وجاء في القرار[1] ما يأتي: «وقد ثبت طبياً ان تناول الدواء المانع من الحمل يلحق اضراراً بليغة بالامهات او باولادهن إذا لم ينفع في منع الحمل وولدن. ولا يعتد بالاسباب الواهية التي يذكرها انصار تحديد النسل كخوفهم من كثرة السكان وتعذر التغذية وفساد التربية ففي الاية الكريمة الجواب على ذلك﴿ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم﴾فالزرق على الله وهو مكفول»﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[2].

الا ان جهاز تنظيم الاسرة في مصر لم يتوقف عن العمل، فهناك آراء اخرى في الاسلام ايضاً تعارض الرأي السابق. وهناك بلاد اسلامية أباحت تحديد النسل مثل المغرب وتونس وايران وتركيا وتوسعت بعض البلاد إلى حد اباحة الاجهاض.

ومن ناحية جوهر الاسلام فلا يوجد شيء في القرآن يؤيد منع الحمل أو يعارضه، ويعتبر القرآن الاساس الاول للفقه الاسلامي، ويليه في ذلك احاديث الرسول محمد، ثم اجماع العلماء والقياس. هذه هي الأسس الثلاثة بعد القرآن، وللرسول محمد احاديث تدعو إلى التكاثر والتناسل، واحاديث اخرى تدعو إلى قلة العيال. وبالمثل أيضاً آراء العلماء والفقهاء وهذا التناقض في احاديث الرسول يدل على أن هذه الاحاديث نزلت في ظروف مختلفة وكان لها أسباب مختلفة. وآيات القرآن نفسه بعضها قد يناقض البعض الاخر لانها جاءت في ظروف مختلفة ولاسباب مختلفة. فالدين لا يمكن ان يفهم كنصوص متفرقة ولكن الدين يفهم كلاً متكاملاً ولا بد من دراسة الظروف والمجتمعات التي عاش فيها.

في بداية الاسلام كان الرسول محمد في حاجة إلى انشاء الدولة الاسلامية وتقوية الامة الاسلامية فدعا الناس إلى التناسل. فالكثرة العددية في تلك العهود كانت تؤدي إلى القوة وازدياد عدد الجيوش المحاربة. ولذلك نجد احاديث محمد تقول «تناكحوا تكاثروا، فاني مباه بكم الامم يوم القيامة»[3] ويستند بعض الفقهاء على بعض الايات

---

(١) نشر هذا القرار في جريدة الاهرام ١٨ ابريل ١٩٧٥، الصفحة ١١.

(٢) القرآن، سورة الاسراء، الآية ٣١.

(٣) الغزالي: احياء علوم الدين، القاهرة ١٩٣٩، ص ٢٢.

القرانية لتحريم تحديد النسل، مثل آية ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم﴾[1] وآية ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ﴾[2] وايضاً ﴿ ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾[3].

تأييداً لهذا الرأي كثيراً ما يشار إلى تأكيد النبي على انه حين يمضي على الجنين في بطن امه مائة وعشرون يوماً «يبعث الله ملكاً فيؤمر له بأربع»: «برزقه واجله، وشقي أو سعيد»[4] الا أن محمداً كان يرمي إلى أن الكثرة العددية يجب ان تقترن بالصحة والقوة وليس بالضعف والتفكك وعدم الفائدة.

وهذا تفكير أي شخص يقود شعباً محاولاً أن يقويه ويساعده على الانتصار على أعدائه.

وقال محمد في حديثه المعروف: «جهد البلاد كثرة العيال مع قلة الشيء» وهذا الحديث هو الذي اتخذه جهاز تنظيم الاسرة في مصر كشعار خاص به. وللرسول حديث اخر يقول فيه: توشك الامم ان تتداعى عليكم كما تتداعى الاكلة إلى قصعتها «فقال قائل» ومن قلة نحن يومئذ؟ فقال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم كغثاء السيل[5].

ويعني بذلك ان كثرة عدد البشر غير المفيدة وغير القوية كالزبد الذي تقذفه المياه بغير نفع لاحد.

وكـان المسلمـون يمارسون تحديد النسل في عهد محمد بواسطة العزل، أي بواسطة القذف خارج الرحم.

وجاء في الصحيحين عن جابر «كنا نعزل على عهد رسول الله والقرآن ينزل»[6].
وفي صحيح مسلم قال: كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغ ذلك الرسول فلم ينهنا[7].

---

(١) القرآن: سورة العنكبوت، الآية ٦٠.
(٢) القرآن: سورة العنكبوت الآية ٦٢.
(٣) القرآن: سورة الانبياء، الآية ٣٠.
(٤) حجج البخاري، جزء ٧، ص ١٩٦.
(٥) احمد الشرباصي، الاسلام وتنظيم الاسرة «الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ١٩٧٤ جـ٢، ص ١١.
(٦) صحيح البخاري، جزء ٧، ص ٤٢ صحيح مسلم، ١٠/١٤، القرمزي، ٥/٧٤، ترتيب مسند احمد بن حنبل، ١٦/٢١٩.
(٧) صحيح مسلم، ١٠/١٤ مع شرح النووي.

وقال الامام الغزالي: «والصحيح عندنا أن ذلك (العزل) مباح[1].

وينص فقهاء المذهب المالكي على جواز العزل لمنع الحمل واشترطوا إذن الزوجة بذلك صغيرة كانت أو كبيرة[2].

والمذهب المنتشر في اليمن (عن الامام زيد بن علي زين العابدين) يبيح العزل إذا وافقت الزوجة. واجاز الامام يحيى بن زيد العزل لمنع الحمل صراحة[3]، وفي العراق وباكستان وافغانستان وسورية ينتشر الشيعة الجعفرية الذين تبيح كتبهم العزل لمنع الحمل على أن توافق الزوجة عند عقد الزواج[4].

وعن الرسول محمد انه نهى ان يعزل عن الحرة الا باذنها[5] واتباع عبدالله بن أباض التميمي (يعرفون بالاباضية) في عمان في شرق الجزيرة العربية وبعض مناطق في شمال افريقيا يبيحون العزل برضا الزوجة وقالوا: «ان العزل يباح للفرار من الولد خشية العيال وادخال الضرر على الرضيع».

واباح بعض فقهاء الاسلام وسائل اخرى لمنع الحمل غير العزل، ومنها ان تسد المرأة فم رحمها منعاً من وصول الماء (السائل المنوي) لاجل منع الحمل. وذلك ما نقله ابن عابدين عن صاحب البحر، احد فقهاء المذهب الحنفي، وقد اشترط لجواز ذلك موافقة الزوج[6].

وقد تكلم الزركشي عن اسقاط الجنين باستخدام دواء ثم قال: «هذا كله في استعمال الدواء بعد الانزال فاما استعمال ما يمنع الحمل قبل انزال المني حالة الجماع مثلاً مانع منه»[7].

وقالت لجنة الفتوى في الازهر: ان استعمال دواء لمنع الحمل مؤقتاً لا يحرم على رأي عند الشافعية، وبه تفتي اللجنة لما فيه من التيسير على الناس ورفع الحرج، ولا

---

(١) الغزالي، الاحياء جزء ٢، المكتبة التجارية بمصر، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) حاشية الدسوقي وشرح الدردير علي متن خليل، جزء ٢، ص ٢٦٦.

(٣) كتاب البحر الزخار، مطبعة انصار السنة المحمدية، ١٩٤٨، جزء ٣، ص ٨٠ - ٨١.

(٤) كتاب الروضة البهية، شرح اللمعة الدمشقية، مطبعة دار الكتاب العربي بمصر، جزء ٢، ص ٦٨.

(٥) كتاب دعائم الاسلام، دار المعارف جزء ٢، ص ٢١٠.

(٦) نظرة الاسلام الى تنظيم النسل، ص ٨٠.

(٧) الرملي، نهاية المحتاج، جزء ٨ ص ٤١٦.

سيما إذا خيف من كثرة الحمل أو ضعف في المرأة من الحمل المتتابع والله تعالى يقول ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[1] وكان الاطباء المسلمون طوال العصور الوسطى يقدمون للناس المعلومات عن وسائل منع الحمل. فمن هؤلاء أبو بكر الرازي الطبيب المسلم الفارسي الذي ولد قرب طهران في منتصف القرن التاسع، وهو يعتبر أعظم الاطباء السريريين في الاسلام، واعظم اطباء العصور الوسطى. وقد ذكر في كتابه «الحاوي» وسائل مختلفة لمنع الحمل وكتب يقول: «ان من المهم احياناً منع المني من دخول الرحم حين يكون الحمل خطراً على المرأة مثلاً.. وهناك عدة طرق لمنع دخوله: اولها أن ينسحب الرجل من المرأة في لحظة القذف فلا يقترب المني من مدخل الرحم، والطريق الثانية هي منع القذف وهي طريقة يمارسها البعض، أما الطريقة الثالثة فهي وضع نوع من العقاقير عند فم الرحم قبل الادخال، فاما أن يسد العقار مدخل الرحم أو يطرد المني فيحول دون الحمل، مثل أقراص أو تحاميل الكرنيب، والحنظل، والقار، ومرارة الثور، والمادة الشمعية التي تفرزها اذن الحيوان، وروث الفيل، وماء الكلس ثم ان هذه المواد قد تستعمل منفردة او مجموعة»[2].

ومن اكبر اطباء عهد الخلافة العباسية علي بن العباس المجوسي الذي كتب خلال منتصف القرن العاشر يقول: «ان الادوية التي تمنع الحمل، وان كان واجباً الا تذكر لئلا يستعملها بعض النساء السيئات السمعة، الا انه لا مفر من أعطائها للنسوة ذوات الرحم الصغير او اللائي يعانين مرضاً يجعل الحمل خطراً إلى حد تعريض الحامل للموت اثناء الوضع»[3].

ورغم تفوق علي بن العباس في معلوماته الطبية عن وسائع منع الحمل الا أنه لم يكن متفوقاً في معلوماته عن المجتمع والاسرة الابوية، ومأساة الاطفال غير الشرعيين، لانه لو كان ملماً ببعض هذه المعلومات ربما كان قد رأى أن هؤلاء النساء اللائي اطلق عليهن اسم سيئات السمعة (لا بد أنه كان يعني المومسات)، هن في أشد الحاجة من غيرهن إلى وسائل منع الحمل حماية لاطفالهن من التشرد والعار والموت، وحماية لصحة المرأة ايضاً وتفسيتها من عب طفل غير شرعي، لم يكن الا نتيجة اتصال الرجال بها، هذا الاتصال المفروض عليها بسبب ظروفها الاقتصادية

(١) القرآن: سورة البقرة، الآية ١٨٥، وفتوى الازهر في ١٠/٣/١٩٥٣.

(٢) ابوبكر الرازي، الحاوي، فصل ٢٤.

(٣) علي بن العباس المجوسي، كامل الصناعة الطبية، فصل ٢٨.

والاجتماعية التعيسة في ظل مجتمع طبقي أبوي.

ومن أشهر علماء الاسلام ابن سينا الذي مات سنة ١٠٣٧، والذي كتب في كتابه القانون[1] عشرين طريقة لمنع الحمل على نحو ممتاز بالنسبة لعصره، وقد استعملت قروناً وفاقت طرقه علمياً ما كتبه كثيرون من الذين جاءوا بعده. لكنه ككل الاطباء في الماضي والحاضر كان يصف وسائل منع الحمل لاسباب طبية فقط لمرض الرحم أو ضعف المثانة، أما الاسباب الاقتصادية والاجتماعية فلم يرد ذكرها الا نادراً جداً.

وقد أخذت أوروبا عن هذه الكتب وعن هؤلاء الاطباء المسلمين كثيراً من معلوماتها الطبية الحديثة، واخذت أيضاً عن الارشاد لابن الجامع، وتذكرة داوود الأنطاكي واسماعيل الجرجاني والكتاب الملكي.

ويظن بعض الناس ان وسائل منع الحمل وفكرة تحديد النسل نبعت من الغرب وبعض الناس يتصورون ان الحاجز المطاطي الذي يستخدمه الرجل لمنع الحمل من ابتكار علماء الغرب مع أن الامام الغزالي ذكر ما سماه «قراب الذكر» أو «الحجاب الواقي» وكان يصنع قديماً من الامعاء.

وتختلف البلاد العربية الاسلامية في نظرتها إلى موضوع تحديد النسل حسب مشكلة السكان وعلاقتها بالانتاج أو الموارد الاقتصادية المادية. ففي الكويت والسعودية (المملكة العربية السعودية) لا تنصح الحكومة بمنع الحمل الا لاسباب طبية فقط. اما في البلاد العربية مثل مصر وتونس فان الحكومة تتبنى مشروعات لتحديد النسل. وكذلك الامر أيضاً في بلاد اسلامية مثل باكستان وتركيا وايران. فالمسألة إذن ليست مسألة دينية، ولكنها مسألة اقتصادية أساساً.

ولقد أثير موضوع تحديد النسل في الصحافة المصرية منذ اعوام طويلة، في ٢٩ يناير ١٩٣٧[2] حين طلب مفتي الديار المصرية الادلاء برأي الدين المحدد بشأن منع الحمل والاجهاض من الناحيتين الطبية والاجتماعية. وقد كان رد المفتي كالآتي:-

١ - للزوجين ان يتخذا الاجراءات الضرورية لمنع الحمل لاسباب طبية واجتماعية

(١) ابن سينا، القانون في الطب، (المجلد) ٢، ص ٣٧٥.

(٢) علي شعبان، منع الحمل في الاسلام، مقال في كتاب الاسلام وتنظيم الاسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، ١٩٧٤، جزء ٢، ص ٢١١.

وموافقة كلا الطرفين ليست ضرورية.

٢ ـ قبل مضي نحو ١٦ اسبوعاً على الحمل يمكن اتخاذ الاجراءات أو العقاقير للتهيئة للاجهاض دون تعرض الام لاي خطر في حالة توافر ارشاد معقول.

٣ ـ اتفاق ائمة المسلمين بالاجماع على أنه لا يجوز البدء في اجراء الاجهاض بعد تلك الفترة.

وعلى هذا نرى أن منع الحمل والاجهاض قبل انتهاء ١٦ اسبوعاً من الحمل كان مباحاً دينياً في مصر سنة ١٩٣٧. وفي ذلك الوقت كانت معظم البلاد الاوروبية خاضعة للقوانين التي تحرم منع الحمل والاجهاض. وفي هذا العام نفسه نظم الاتحاد الطبي المصري حلقة دراسية للبحث في هذه المسائل من مختلف وجوهها الاجتماعية والقانونية والدينية والطبية والاحصائية.

وقد أباح القانون المصري منع الحمل بالوسائل الطبية المعروفة لكن الاجهاض لا يزال ممنوعاً بالقانون حتى اليوم.

وبعض البلاد العربية أباحت الاجهاض مثل تونس، والصومال ايضاً لكن أغلبية البلاد العربية لا تزال تحرم الاجهاض مع ان هناك اراء واضحة في الاسلام تبيح الاجهاض قبل ان يتم الجنين اربعة شهور من الحمل.

ويمثل الامام الغزالي (الشافعي) (وابن جزى) (المالكي) الاتجاه في الاسلام الذي يحرم الاجهاض في أي وقت من الحمل.

ويرى بعض علماء الدين ان الاسلام لم يحرم الاجهاض قبل مائة وعشرين يوماً حسب ما جاء بكتب الحنفية عن الكمال بن الهمام[1].

وهؤلاء الفقهاء أباحوا الاجهاض بدعوى أن الحمل قبل تمام أربعة اشهر لا تكون فيه روح أو حياة، وقد صح عن النبي أن الروح تنفخ فيه بعد مائة وعشرين ليلة[2] وقال ابن وهبان الحنفي :ـ

«ومن الاعذار ان ينقطع لبنها بعد الحمل، وليس لاب الصبي ما يستأجر به الظئر،

(١) انـظر دليل المدربين في تنظيم الأسرة، المجلس الاعلى لتنظيم الاسرة في القاهرة، الجهاز التنفيذي، الجزء الاول، الطبعة الاولى، ديسمبر ١٩٧١م، ص ٨٠.

(٢) المحلى لابن حزم، جزء ١١، ص ٣٥ ـ ٤٠

ويخاف هلاكه إلى ان قال: فاباحة الاسقاط محمولة على حالة العذر، أو أنها لا تؤثم أثم القتل »[1].

اما إذا مرت أربعة اشهر فان الفقهاء متفقون على تحريم اسقاط الجنين ويوصون في حدوثه (الدية) ان سقط حياً، (والغرة وهي نوع من الدية) ان سقط ميتاً. الا اذا أثبت ان الاجهاض كان ضرورياً لانقاذ حياة الام، ولا يضحى بالام في سبيل انقاذه لانهااصله، وهذه الحالة تدخل على الخصوص في باب «ارتكاب اخف الضررين» وهو من القواعد العامة المعتبرة شرعاً. وبهذا المبدأ أخذ القانون الجنائي المغربي في فصله ٤٥٣ حيث قال ما نصه: «لا عقاب على الاجهاض إذا استوجبته ضرورة انقاذ حياة الام من الخطر، متى قام به طبيب أو جراح علانية، وبعد اخطار السلطة الادارية »[2]

ومن اهم المشاكل التي تتعرض لها المرأة العربية مشكلة الحمل والانجاب سواء داخل الزواج أو خارجه، إذا حملت الفتاة الفقيرة بغير زواج فالويل لها، قد تدفع حياتها كلها ثمناً لها وان لم تكن هي المخطئة، لأنها مجرد طفلة صغيرة فقيرة اغتصبها أو خدعها رجل من طبقة اعلى. ولا تتعرض الفتاة من الاسر العالية لمثل هذه القسوة، لان الاسر الثرية سرعان ما تجد الحل، فتزوج الفتاة لرجل من طبقة أقل يسرع متسلحاً بالشهامة المزيفة (يطمع في مال الفتاة) ويتزوج الفتاة وهو راض سعيد، أو تجد الاسرة الطبيب الذي يسرع ايضاً (بسبب المال) لاجهاض الفتاة والتخلص من الجنين.

وتمثل مشكلة الحمل والاجهاض أزمة في حياة المرأة الكادحة وان كانت متزوجة زواجاً شرعياً. فهي بسبب الارهاق الجسدي (تعمل داخل البيت وخارجه)، تحاول أن تقلل من العبء الملقى على كاهلها بسبب الحمل والانجاب المتكرر.

وهي قد تسمع أيضاً ان الدولة تشجع تحديد النسل وهي لا تملك في الوقت نفسه الوسائل السليمة التي تمنع بها الحمل لاسباب ثقافية أو اقتصادية او اخلاقية أو دينية. ولهذا تعيش اغلب الزوجات العربيات في قلق دائم خوفاً من الحمل وعبء طفل جديد.

وبالطبع يلقى عبء تحديد النسل في مجتمعنا العربي على الزوجة وحدها. وتصبح مطالبة وحدها باخذ حبوب منع الحمل. أو تركيب اللولب أو استخدام اية وسيلة

(١) محمد المكي الناصري، الاسلام وتنظيم الاسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، ١٩٧٤، الجزء ٢، ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦.

أخرى. فاذا ما فشلت الوسيلة في منع الحمل وحدث الحمل اصبح عليها أن تسعى إلى الاجهاض غير القانوني، مما يعرضها لاخطار الاجهاض غير الطبي السليم، أو لجشع بعض الاطباء الذي يتاجرون بعملية الاجهاض لعدم قانونيته.

ولا تزال عمليات الاجهاض في معظم البلاد العربية ومنها مصر غير قانونية متخفية في الظلام، وليس هناك بيانات دقيقة عن عدد عمليات الاجهاض، ولكن هناك بيانات تقريبية عن العدد الكلي لهذه العمليات الصادرة من مختلف المستشفيات.

وقد لوحظ أن عدد عمليات الاجهاض التي تجرى بسبب الامراض الخطيرة في انخفاض مستمر، وعلى العكس من ذلك تزداد العمليات التي تجرى لاسباب نفسية أو ما يسمى طبياً «تهديد الأم»[1] وذلك لمجرد استيفاء المتطلبات القانونية فالاسباب النفسية ليست الا الاسباب الاجتماعية والاقتصادية وهي الاسباب التي لا يعترف القانون بوجاهتها لاجراء الاجهاض.

وقد لوحظ أن عمليات الاجهاض تجرى لنساء الطبقات القادرة اقتصادياً بزيادة قدرها ثلاثة اضعاف العمليات التي تجرى للنساء الفقيرات، ومن هنا يظهر تحايل بعض الاطباء على القانون بسبب المال، وان الاطباء (كما كتب الدكتور اسماعيل رجب رئيس قسم أمراض النساء بكلية طب عين شمس): ينقسمون إلى قسمين بالنسبة لموقفهم من الاجهاض:- قسم اصغر يقوم بهذه العملية ويتحايل على القانون بشتى الطرق لاسباب مادية في معظم الاحوال، وقسم آخر أكبر يرفض القيام بالعملية ذاتها ولكنه يحول حالات الاجهاض إلى الاطباء الذين يقومون بهذه العمليات غير القانونية، بالرغم من أن هذا التحويل في حد ذاته خرق لقانون الاجهاض.

ان عملية الاجهاض لا تزال في مجتمعنا العربي تعاني من التناقضات في القيم والازدواجية التي هي السمة الاساسية لاي مجتمع ابوي طبقي.

ورغم قانون التحريم فالاجهاض غير القانوني منتشر في مجتمعاتنا وتدل البيانات التقديرية في مصر على أن حالة حمل واحدة من كل اربع حالات حمل تجهض بطريقة غير قانونية. وينتج من هذا مئات المضاعفات الخطرة سنوياً وبالذات في حالة الامهات الفقيرات. وقد أصبح الاجهاض غير القانوني يمثل في مصر السبب الرئيسي الاكبر لوفيات الامهات.

---

(١) انظر: د. اسماعيل رجب، مقال بعنوان "الجنين المشوه والحمل الخطأ"، مجلة الصحة القاهرة، العدد ٢٣ يناير سنة ١٩٧٣، ص ٤٤ - ٤٧.

ولا شك في ان حالة الام غير المتزوجة تصبح اشد خطورة، لا من الناحية الطبية فحسب، وانما من الناحية الاخلاقية والاجتماعية، ومعظم هؤلاء من الخادمات الصغيرات اللاتي تعرضن للاغتصاب بواسطة ازواج وابناء الاسر العالية وفوق المتوسطة. وقلة منهن من البنات الصغيرات الغريرات اللائي صدقن وعود الرجال الكاذبة بالزواج. على ان انتشار وسائل منع الحمل قد خفض من نسبة هذه الحالات.

ومن المعروف ان حالات الاجهاض التي تحدث في مصر ليست هي حالات الامهات غير المتزوجات لان ٩٠٪ على الاقل من حالات الاجهاض غير القانوني هن لامهات متزوجات يتراوح عمرهن بين ٢٥ ـ ٣٥ سنة، وان اكثر من ٨٠٪ من هؤلاء امهات انجبن من قبل طفلين أو اكثر، وليس في مقدور أسرهن تحمل الاعباء الاقتصادية والاجتماعية لطفل جديد.

ان اباحة الاجهاض في مصر أو في غيرها من البلاد العربية لن تزيد العدد الضخم لحالات الاجهاض غير القانوني، ولكنها ستخرج عمليات الاجهاض من السوق السوداء. وتمنح الامهات الفقيرات اجهاضاً طبياً نظيفاً كالذي تتمتع به النساء القادرات مادياً، وخاصة بعد ظهور جهاز الشفط للاجهاض الذي يجهض الجنين في بضع دقائق بغير ألم وبغير تخدير الام. وقد أباح اليوم عدد من البلاد الغربية الاجهاض تحت ضغط الاعداد المتزايدة من النساء الواعيات المتحررات وكذلك فعلت أيضاً البلاد الشرقية كالهند كحل لمشكلة السكان.

ان الام وحدها هي صاحبة الحق الاول والاخير في تقرير بقاء الجنين في جسدها أو اسقاطه، وهذا شيء طبيعي لان الجنين قبل أن يولد ليس الا جزءاً من جسد الام. وليس هناك من هو أحق من الام بامتلاك هذا الحق. والمفروض أن كل انسان يمتلك جسده، والمفروض أن تمتلك المرأة جسدها لانها انسان. فهذا أول حقوق الانسان.

وانني اعتقد ان مشكلة الزيادة السكانية ليست هي مجرد خفض المواليد بوسائل منع الحمل أو اباحة الاجهاض، ولكنها مشكلة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتحرير نصف المجتمع وهن الاناث، وتحرير المجتمع كله من الاستغلال والفقر عن طريق الاستقلال السياسي والاقتصادي وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية السليمة التي ترفع من مستوى الفرد مادياً وفكرياً.

الخاتمة

قال الامام أبو حنيفة : «ان الحجر على الانسان بنفسه أشد ضرراً من الحجر عليه حفظاً لماله. فالمال غاد ورائح، أما الحجر عليه بنفسه فيؤدي إلى هدر آدميته، والاهلية الآدمية هي أعظم نعم الله».

هـذا كـلام مقنـع جميـل يجب ان لا يسـري عـلى الـرجـل فقط، ولكن عـلى المـرأة ايضاً. فالمرأة إنسان كالرجل تماماً، لها أهليتها الآدمية التي هي اعظم نعم الله التي يجب الا تهدر.

ان اهدار الاهلية الآدمية للمرأة انما هو اعتداء على اوامر الله وعلى مبادىء الدين الذي يدعو إلى الحق والحرية واحترام الانسان.

ولكن كم تهدر الاهلية الآدمية لاغلبية النساء والبنات في بلادنا العربية دون أن يرتفع صوت بالاحتجاج أو الغضب، الا في حالات نادرة قليلة.

ان المرأة العربية منذ ثلاثة عشر قرناً وفي حياة الرسول محمد كانت اكثر انسانية واكثر آدمية من المرأة العربية اليوم. اليس ذلك سبباً كافياً لبذل الجهود والتضحيات من اجـل الكشف عن الاسباب الحقيقية التي تسلب المرأة آدميتها وانسانيتها؟ بل وتسلب الرجل أيضاً.

ان الاسـلام يتضمن كثيراً من الايجابيات التي يجب أن نظهرها ونفهمها فهماً صحيحاً نابعاً من المراجع المعترف بها. وأنا من الناس الذين يحاولون فهم الدين بعقلي أنا وليس بعقول بعض رجال الدين. ذلك أنه لا يوجد في الاسلام رجل دين.

ان رجل الدين لفظ كهنوتي بعيد عن الاسلام. والعلم بالدين واجب عليَّ، لانني انا الوحيدة المسؤولة امام الله عما أفهم من ديني، وغيري ليس مسؤولاً عني.

انني إذا أخطأت، وكان خطئي ناتجاً عن اجتهاد أحد رجال الدين فان هذا الرجل لن يتحمل المسؤولية عني امام الله. فالانسان المسلم (رجلاً أو امرأة) مسؤول مسؤولية شخصية عن فهمه لدينه.

وأول مبادىء الاسلام هي أن الناس سواسية كاسنان المشط لا فرق بين ذكر وأنثى ولا فقير ولا غني ولا حاكم ولا محكوم.

وأول مبادىء الاسلام هي أن يستخدم الانسان عقله ويفكر فيما حوله من ظواهر ومشاكل بحرية وصدق وهذا هو ما حاولت أن أفعله وأنا اكتب هذا الكتاب.



الفهرس